

تفسير  
الكشاف

عن قتادة بن عوف عن التستري  
وعيون الأفاويل في وجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم، لإمام جليله، محمد بن عمر التستري  
المعروف سنة ٥٧٨ هـ

المؤلف والناشر العربي  
بيروت - لبنان



BP  
130  
.4  
Z5.  
1344  
W 2.

CORNELL  
UNIVERSITY  
LIBRARY



BOUGHT WITH THE INCOME  
OF THE SAGE ENDOWMENT  
FUND GIVEN IN 1891 BY  
HENRY WILLIAMS SAGE



[illegible]

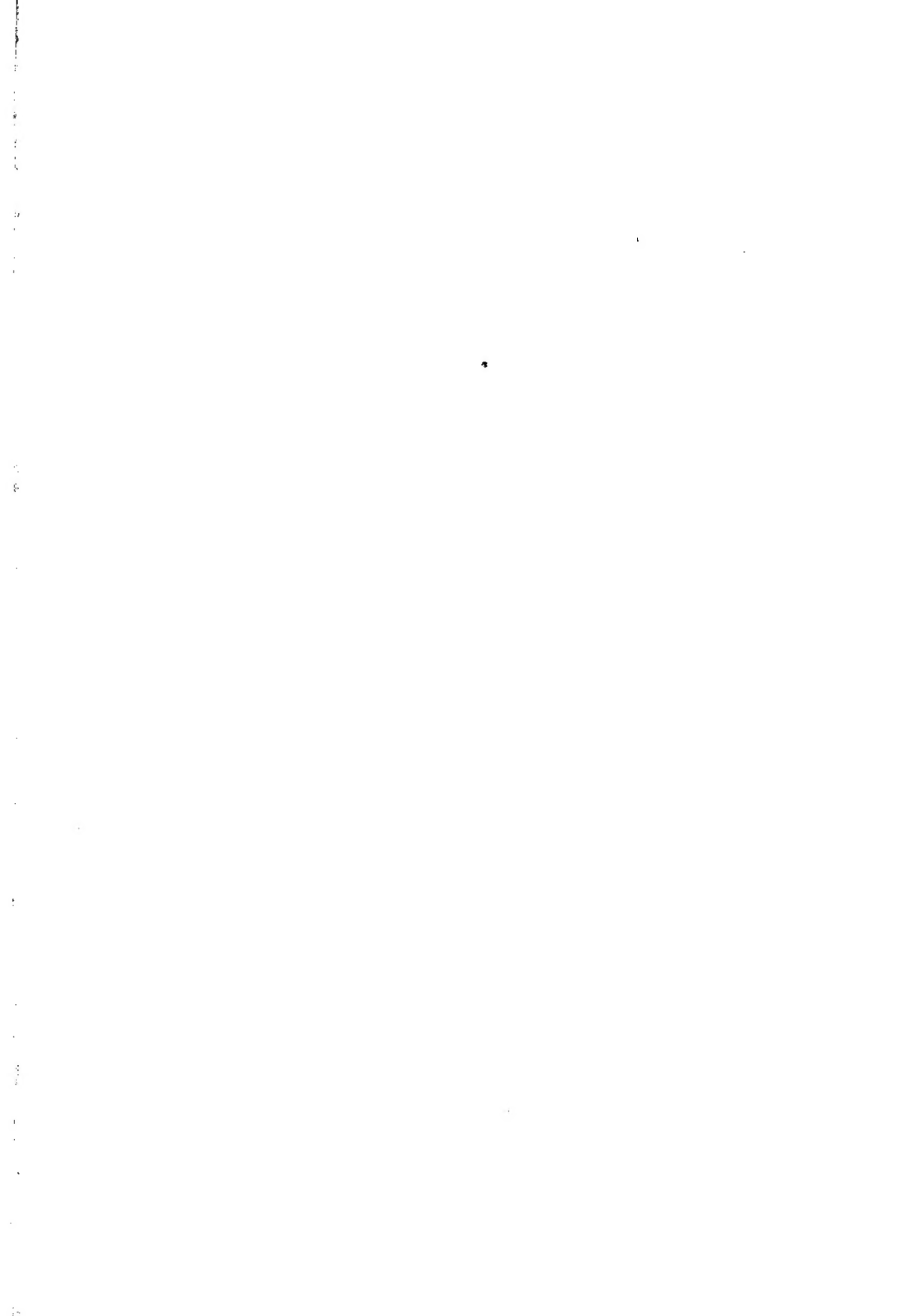
DATE DUE

GAYLORD		PRINTED IN U.S.A.

GAYLORD

PRINTED IN U.S.A.







# الكشاف

عن حقايق غوامض التنزيل  
وعيون الأفاويل في وجوه التأويل

وهو تفسير القرآن الكريم : للإمام جاد الله محمود بن عمر الزمخشري  
المتوفى سنة ٥٢٨ هـ

وبذيله أربعة كتب :

الاول : الانتصاف : للإمام احمد بن المنبر الاسكندري.  
الثاني : الكافي الشاف في تخريج احاديث الكشاف : للحافظ ابن حجر العسقلاني.  
الثالث : حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي على تفسير الكشاف.  
الرابع : مشاهد الانصاف على شواهد الكشاف للشيخ محمد عليان المذكور.

## الجزء الثاني

الناشر دار الكتاب العربي  
ببيروت - لبنان



13796850

55

S

V

7

12



# بسم الله الرحمن الرحيم

## سورة الانعام

مكية [ إلا الآيات ٢٠ و ٢٣ و ٩١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٤١ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣ فمدنية ]

وعن ابن عباس : غير ست آيات ، وآياتها ١٦٥ [ نزلت بعد الحجر ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ①

(جعل) يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ ، كقوله (وجعل الظلمات والنور) وإلى مفعولين إذا كان بمعنى صير ، كقوله (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) والفرق بين الخلق والجعل : أن الخلق فيه معنى التقدير <sup>(١)</sup> وفي الجعل معنى التضمين ، كأنشاء شيء من شيء ، أو تصيير شيء شيئا ، أو نقله من مكان إلى مكان . ومن ذلك (وجعل منها زوجها) ، (وجعل الظلمات والنور) : لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة ، والنور من النار (وجعلناكم أزواجا) (أجعل الآلهة إلها واحدا) . فإن قلت : لم أفرد النور <sup>(٢)</sup> ؟ قلت : للقصد إلى الجنس ،

(١) قال محمود : « الفرق بين الجعل والخلق أن الخلق فيه معنى التقدير ... الخ » ، قال أحد : وقد وردت « جعل » و « خلق » موردا واحدا فورد (وخلق منها زوجها) وورد (وجعل منها زوجها) وذلك ظاهر في الترادف ، إلا أن للخطأ ميلا إلى الفرق الذي أبداه الزحشرى . ويؤيده أن « جعل » لم يصحب السموات والأرض ، وإنما لزمها « خلق » وفي إضافة الخلق في هذه الآية إلى السموات والأرض ، والجعل إلى الظلمات والنور مصداق للمبر بينهما ، والله أعلم .

(٢) عاد كلامه . قال : فأتيت قلت : لم أفرد النور ؟ قلت : للقصد ... الخ ، قال أحد : وقد سبق للزحشرى الاستدلال بجمع الجنس على التكثير ، واعتقاد أنه أدل على الكثرة من الأفراد . وقد قدمنا ما في ذلك من النظر ، وأسلفنا الاستدلال بقول حبر الأمة : كتابه أكثر من كتبه ، على خلاف ذلك ، وهو رأى الامام أبي المعالي .

كقوله تعالى (والمالك على أرجائها) أو لأن الظلمات كثيرة ، لأن ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل ، وظله هو الظلة ، بخلاف النور فإنه من جنس واحد وهو النار . فإن قلت : علام عطف قوله ﴿ثم الذين كفروا بربهم يعدلون﴾ <sup>(١)</sup> ؟ قلت : إما على قوله (الحمد لله) على معنى أن الله حقيق بالحمد على ما خلق ؛ لأنه ما خلقه إلا نعمة ، ثم الذين كفروا به يعدلون فيكفرون نعمته وإما على قوله (خلق السموات) على معنى أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواه ، ثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه . فإن قلت : فما معنى ثم ؟ قلت : استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته ، وكذلك (ثم أتم تبترون) استبعاد لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييم وبميتهم وباعنهم .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾

﴿ثم قضى أجلاً﴾ أجل الموت ﴿وأجل مسمى عنده﴾ أجل القيامة . وقيل : الأجل الأول : ما بين أن يخلق إلى أن يموت . والثاني : ما بين الموت والبعث وهو البرزخ . وقيل : الأول النوم . والثاني : الموت . فإن قلت : المبتدأ التكرار إذا كان خبره ظرفاً وجب تأخير <sup>(٢)</sup> فلم جاز تقديمه

== ولو قال الزحشرى . إن جمع الظلمات لاختلافها بحسب اختلاف ما ينشأ عنه من أجناس الأجرام ، وإفراد النور لاتحاد الجنس الذى ينشأ عنه وهو النار لكان أول ، والله أعلم .

(١) عاد كلامه . قال : «فإن قلت علام عطف ثم الذين كفروا بربهم يعدلون... الخ» ؟ قال أحد : وفي هذا الوجه الثاني نظر من حيث أن عطفه على الصلة يوجب دخوله في حكمها . ولو قال (الحمد لله الذى) ، (الذين كفروا بربهم يعدلون) لم يستد ، لخلو الجلة من العائد . ويمكن أن يقال : وضع الظاهر الذى هو (ربهم) موضع المضمتر تفخيلاً وتعليلاً . وأصل الكلام : الذى يعدل به الذين كفروا ، أو الذى الذين كفروا يعدلون به ، باتساع وقوعها صلة ، رعاية لهذا الأصل ، فهذا نظر من حيث الاعراب . ونظيره قوله تعالى (وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم) فيمن جعل دماء موصولة لشرطية ، فإن دخول جاءكم وما بعده في حكم الصلة يستدعى ضميراً عائداً إلى الموصول ، وهو مفقود لفظاً ؛ لأن الظاهر وضع فيه موضع المضمتر . والأصل : ثم جاءكم رسول مصدق له ، فاستقام عطفه ودخوله في حكم الصلة بهذه الطريقة ؛ لكن بقى في آية الأنعام هذه نظر في المعنى على الاعراب المذكور ، وهو أنه يصير التقدير : الحمد لله الذى ، الذين كفروا يعدلون ، ووقوع هذا عقيب الحمد غير مناسب كما ترى . فالوجه . والله أعلم . عطفه على أول الكلام ، لأعلى الصلة ، والله الموفق .

(٢) قال محمود : «إن قلت المبتدأ التكرار إذا كان خبره ظرفاً وجب... الخ» ؟ قال أحد : وليس في إرادة هذا المعنى موجب للتقديم . وقد ورد (وعنده علم الساعة) في سياق التعظيم لها ، وهو مع ذلك مؤخر عن الخبر في قوله (وتبارك الذى له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه ترجعون) فالظاهر . والله أعلم . أن التقديم إنما كان لأن الكلام منقول من كلام آخر ، وكان الأصل . والله أعلم . ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده : إذ كلاهما مقضى . فلما عدل بالكلام عن العطف بالأفرادى تمييزاً بين الأجلين رفع الثانى بالابتداء وأقر بمكانه من التقديم والله أعلم .



في قوله (وأجل مسمى عنده) ؟ قلت : لأنه تخصص بالصفة فقارب المعرفة ، كقوله (ولعبد مؤمن خير من مشرك) . فإن قلت : الكلام السائر أن يقال : عندى ثوب جيد ، ولى عبد كيس ، وما أشبه ذلك : فما أوجب التقديم ؟ قلت : أوجبه أن المعنى : وأى أجل مسمى عنده تعظيماً لشأن الساعة ، فلما جرى فيه هذا المعنى وجب التقديم .

وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾

(في السموات) متعلق بمعنى اسم الله ، <sup>(١)</sup> ، كأنه قيل وهو المعبود فينا . ومنه قوله (وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله) أو هو المعروف بالإلهية أو المتوحد بالإلهية فيها ، أو هو الذى <sup>(٢)</sup> يقال له - الله - فيها لا يشركه فى هذا الاسم . ويجوز أن يكون (الله فى السموات) خبراً بعد خبر ، على معنى : أنه الله - وأنه فى السموات والأرض ، بمعنى : أنه عالم بما فيهما لا يخفى عليه منه شيء ، كأن ذاته فيهما . فإن قلت : كيف موقع قوله (يعلم سركم وجهركم) ؟ قلت : إن أردت المتوحد بالإلهية كان تقريراً له : لأن الذى استوى فى علمه السر والعلانية هو - الله - وحده ، وكذلك إذا جعلت فى السموات خبراً بعد خبر ، وإلا فهو كلام مبتدأ بمعنى : هو يعلم سركم وجهركم . أو خبر ثالث (ويعلم ما تكتسبون) من الخير والشر ، ويثيب عليه ، ويعاقب .

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾

فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾

(من) فى (من آية) للاستغراق . وفى (من آيات ربهم) للتبعض . يعنى : وما يظهر لهم دليل قط من الأدلة التى يجب فيها النظر والاستدلال والاعتبار ، إلا كانوا عنه معرضين : تاركين للنظر لا يلتفتون إليه ولا يرفعون به رأساً ، لقلة خوفهم وتدبرهم للعواقب (فقد كذبوا) مردود على كلام مخذوف ، كأنه قيل : إن كانوا معرضين عن الآيات ، فقد كذبوا بما هو أعظم آية وأكبرها

(١) قال محمود : فى السموات متعلق بمعنى اسم الله ... الخ . قال أحد : وما الآيتان المكرمتان إلا توأمان ، فإن التوح فى آية الزخرف وقع بما وقع التوح به هنا ، من القدرة على الإعادة والاستثارة بعلم الساعة والتوحد فى الألوهية ، وفى كونه تعالى المعبود فى السموات والأرض .

(٢) عاد كلامه . قال : أو هو المعروف بالألوهية أو هو الذى يقاله - الله - فيهما ... الخ . قال أحد : وهذه الوجوه كلها كأن التعبير وقع فيها باللزم عن لوازمه المشهورة به ، كما وقع ذلك فى قوله :

أنا أبو النجم وشعرى شعرى .

أى المعروف المشهور ، لأنه نبى على أنه متى ذكر شعره فهم السامع عند ذكره خواصه من الجودة والبلاغة وسلامة النسخ ، لأشهره بذلك ، فاقصر على قوله «شعرى» اتكالا على فهم السامع .

وهو الحق (لما جاءهم) بمعنى القرآن الذي تحدثوا به على تباينهم في الفصاحة فعجزوا عنه (فسوف يأتيهم أنباء) الشيء الذي (كانوا به يستهزئون) وهو القرآن، أى أخباره وأحواله، بمعنى: سيعلمون بأى شيء استهزءوا. وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة، أو عند ظهور الاسلام وعلو كلمته.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِذْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ٦

مكن له في الأرض: جعل له مكانا فيها. ونحوه: أرض له. ومنه قوله (إنا مكننا له في الأرض) (أو لم نمكن لهم) وأما مكنته في الأرض فأثبتته فيها. ومنه قوله (ولقد مكنناهم فيها إن مكنناكم فيه) ولتقارب المعنيين جمع بينهما في قوله (مكنناهم في الأرض ما لم نمكن لكم) والمعنى لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عاداً وثمود وغيرهم، من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا. والسما المظلة: لأن الماء ينزل منها إلى السحاب، أو السحاب أو المطر. والمذرار: المغزار. فإن قلت: أى فائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم؟ قلت: الدلالة على أنه لا يتعاضله أن يهلك قرنا ويخرب بلاده منهم؟ فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعبر بهم بلاده، كقوله تعالى: (ولا يخاف عقباها)

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ٧ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ أَقْبَضَى الْأَمْرَ ثُمَّ لَا يَنْظُرُونَ ٨ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلْيَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ٩

(كتابا) مكتوبا (في قيرطاس) في ورق (فلمسوه بأيديهم) ولم يقتصر بهم على الرؤية، لتلا يقولوا (١) سكرت أبصارنا، ولا تبق لهم علة. لقالوا (إن هذا إلا سحر مبين) تعنتا وعناداً

(١) قال محمود: دولم يقتصر بهم على الرؤية لتلا... الخ، قال أحمد: والظاهر أن - فائدة زيادة لمسهم له بأيديهم تحقيق القراءة على قرب، أى فقره وهو في أيديهم لا بعيدا عنهم لما آمنوا، وإلا فالخط لا يدرك باللمس حتى يجعل فائدة زيادته إدراكه بوجهين، كما يفهم من كلام الزمخشري.

للحق بعد ظهوره (لقضى الامر) لقضى أمر إهلاكهم (ثم لا ينظرون) بعد نزوله طرفة عين<sup>(١)</sup>. إما لأنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته<sup>(٢)</sup> وهي آية لاشئ أبين منها وأيقن، ثم لا يؤمنون كما قال: (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلهم الموقى) لم يكن يتد من إهلاكهم، كما أهلك أصحاب المائدة. وإما لأنه نزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة<sup>(٣)</sup> فيجب إهلاكهم. وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكا في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون، ومعنى (ثم) بعد ما بين الأمرين: (٤) قضاء الأمر، وعدم الإنظار. جعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة (ولو جعلناه ملكا) ولو جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوا لأنهم كانوا يقولون: لولا أنزل على محمد ملك. وتارة يقولون: (ما هذا إلا بشر مثلكم)، (ولو شاء ربنا لأنزل ملائكة). (لجعلناه رجلا) لارسلائه في صورة رجل، كما كان ينزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعم الأحوال في صورة دحية<sup>(٥)</sup> لأنهم لا ييقنون مع رؤية الملائكة في صورهم (وللبسنا

(١) قال محمود: «يعنى لا ينظرون بعد نزوله طرفة عين... الخ» قال أحد: لا يضمن أن يجعل سبب مناجرتهم بالملك وضوح الآية في نزول الملك، فانه ربما يفهم هذا الكلام أن الآيات التي لزمهم الايمان بها دون نزول الملك في الوضوح، وليس الأمر كذلك. فالوجه - والله أعلم - أن يكون سبب تعجيل عقوبتهم بتقدير نزول الملك، وعدم إيمانهم أنهم اقترحوا ما لا يتوقف وجوب الايمان عليه، إذ الذي يتوقف الوجوب عليه، المعجز من حيث كونه معجزا، لا المعجز الخاص. فاذا أجيئوا على وفق مقترحهم فلم ينجع فيهم، كانوا حينئذ على غاية من الرسوخ في العناد المناسب لعدم النظرة، والله أعلم.

(٢) متفق عليه من رواية مسروق عن عائشة: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى جبريل في صورته مرتين. وفي رواية لما: رأى جبريل له ستائة جناح.

(٣) عاد كلامه. قال: «وإما لأنه يزول الاختيار الذي قاعدة التكليف مبني عليه عند نزول الملك فيجب إهلاكهم وإما لأنهم إذا شاهدوا الملك في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون» قال أحد: ويقوى هذا الوجه قوله: ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا. قال ابن عباس: ليتمكنوا من رؤيته ولا يهلكوا من مشاهدته صورته. (٤) عاد كلامه. قال: «ومعنى - ثم - بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر... الخ» قال أحد: وهذه النكتة من نحاس، تنبيهاته.

(٥) متفق عليه من رواية أبي عثمان النهدي عن أسامة بن زيد قال: «ثبت أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، ثم قام فقال: يا رسول الله! ما سلمة؟ فقال: دحية الكلبي... الحديث» ولما حكم من رواية مسروق عن عائشة قالت: «لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجي في حجرى رجلا شبهته بدحية الكلبي». فقال لى: هذا جبريل، وهو يقرئك السلام، وللعابر أن من رواية قتادة عن أنس: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: يأتيني جبريل على صورة دحية الكلبي» قال أنس: «وكان دحية رجلا جسما جميلا أبيض» وفي إسناده عفير بن سعدان وهو ضعيف ولا يثبت في الدلائل من رواية صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت جبريل في خلقه الذي خلق عليه، وكنت أراه قبل ذلك في صور مختلفة وأكثرت ما كنت أراه في صورة دحية الكلبي، رجاله نقات، إلا أنه مرسل وروى ابن سعد من طريق يحيى بن عمر عن ابن عمر: «أن جبريل يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي».



عليهم) ولخططنا عليهم ما يخططون على أنفسهم حينئذ . فإنهم يقولون . إذا رأوا الملك في صورة إنسان : هذا إنسان وليس بملك ، فإن قال لهم : الدليل على أنى ملك أنى جئت بالقرآن المعجز ، وهو ناطق بأنى ملك لا بشر - كذبوه كما كذبوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، فإذا فعلوا ذلك خذلوا كما هم مخذولون الآن ، فهو ليس الله عليهم . ويجوز أن يراد : (وللبسنا عليهم) حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة : وقرأ ابن محيصن : وللبسنا عليهم ، بلام واحدة . وقرأ الزهري : وللبسنا عليهم ما يلبسون ، بالتشديد .

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَخَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

(ولقد استهزئت) تسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يلقي من قومه (فخاق) بهم فأحاط بهم الشيء الذى كانوا يستهزئون به وهو الحق ، حيث أهلكوا من أجل الاستهزاء به .

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴿١١﴾

فإن قلت : أى فرق بين قوله (فانظروا) وبين قوله (ثم انظروا) (١) قلت : جعل النظر (٢) مسيئاً عن السير فى قوله (فانظروا) فكأنه قيل : سيروا لأجل النظر ، ولا تسيروا سير الغافلين . وأما قوله (سيروا فى الأرض ثم انظروا) فمعناه إباحة السير فى الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر فى آثار الهالكين . ونبه على ذلك ثم ، لتباعد ما بين الواجب والمباح .

قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ لِيَجْغِفَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ لَأَرَبِّ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

(لمن ما فى السموات والأرض) سؤال تبكيت ، و (قل لله) تقرير لهم ، أى هو - الله - لا خلاف بينى وبينكم ، ولا تقدرون أن تصيفوا شيئاً منه إلى غيره (كتب على نفسه الرحمة) أى أوجبها على ذاته فى هدايتكم إلى معرفته ، ونصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم مقرونون

(١) قال محمود : «إن قلت أى فرق بين قوله فانظروا وبين قوله ثم انظروا ... الخ» قال أحمد : وأظهر من هذا التأويل أن يجعل الأمر بالسير فى المكانين واحداً ، ليكون ذلك سبباً فى النظر ، فبث دخلت الغاء فلاظهار السببية ، وحيث دخلت «ثم» فلتنبية على أن النظر هو المقصود من السير ، وأن السير وسيلة إليه لا غير . وشتان بين المقصود والوسيلة والله أعلم .

(٢) قوله «النظر» لعله «بالنظر» . (ع)

به من خلق السموات والارض ، ثم أوعدهم على إغفالهم النظر وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة﴾ فيجازيكم على إشراككم . وقوله ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ نصب على الذم ، أو رفع : أى أريد الذين خسروا أنفسهم ، أو أتم الذين خسروا أنفسهم . فإن قلت : كيف جعل عدم إيمانهم مسيئاً عن خسرتهم ، والأمر على العكس ؟ قلت : معناه : الذين خسروا أنفسهم في علم الله : الاختيارهم الكفر . فهم لا يؤمنون .

وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣﴾

﴿وله﴾ عطف على الله ﴿ماسكن في الليل والنهار﴾ من السكنى وتعديه بنى كما في قوله ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ . ﴿وهو السميع العليم﴾ يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم ، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان .

قُلْ أَغْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَأَيُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ  
قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾  
قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ  
يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْقَوْزُ الْأَمِينُ ﴿١٦﴾

أولى ﴿غير الله﴾ همزة الاستفهام دون الفعل الذى هو ﴿أتخذ﴾ لأن الإنكار في اتخاذ غير الله ولياً ، لا في اتخاذ الولي ، فكان أولى بالتقديم . ونحوه ﴿أغفر الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون﴾ (الله أذن لكم) . وقرئ ﴿فاطر السموات﴾ بالجزء صفة لله ، وبالرفع على المدح . وقرأ الزهري : فطر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : ما عرفت ما فاطر السموات والارض ، حتى أتاني أعرايان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتهما <sup>(١)</sup> أى ابتدعتها ﴿وهو يطعم ولا يطعم﴾ وهو يرزق ولا يرزق ، كقوله (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) والمعنى : أن المنافع كلها من عنده ، ولا يجوز عليه الانتفاع . وقرئ : ولا يطعم ، بفتح الياء . وروى ابن المأمون عن يعقوب : وهو يطعم ولا يطعم ، على بناء الأول للفعول والثاني للفاعل ، والضمير لغير الله . وقرأ الأشهب : وهو يطعم ولا يطعم ، على بنائهما للفاعل . وفسر بأن معناه : وهو يطعم ، ولا يستطعم . وحكى الأزهرى : أطعمت ، بمعنى استطعمت . ونحوه : أفدت . ويجوز أن يكون

(١) أخرجه أبو عبيد في غريب الحديث ، وفي فضائل القرآن باسناد حسن ، ليس فيه إلا إبراهيم بن مهاجر وسبأ في تفسير فاطر .

المعنى : وهو يطعم تارة ولا يطعم أخرى على حسب المصالح ، كقولك : وهو يعطى ويمنع ، ويبسط ويقدر ، ويغنى ويفقر ﴿ أول من أسلم ﴾ لأن النبي سابق أمته في الإسلام ، كقوله (وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) وكقول موسى (سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين) ﴿ ولا تكونن ﴾ وقيل لى لا تكونن ﴿ من المشركين ﴾ ومعناه : أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك . و ﴿ من يصرف عنه ﴾ العذاب ﴿ يومئذ فقد رحمه ﴾ الله الرحمة العظمى وهى النجاة ، <sup>(١)</sup> كقولك : إن أطلعمت زيدا من جوعه فقد أحسننت إليه ؟ تريد : فقد أتممت الإحسان إليه أو ، فقد أدخله الجنة ، لأن من لم يعذب لم يكن له بد من الثواب . وقرئ : من يصرف عنه ، على البناء للفاعل ، والمعنى : من يصرف الله عنه فى ذلك اليوم فقد رحمه ، بمعنى : من يدفع الله عنه . ويحفظه ، وقد علم من المدفوع عنه . وترك ذكر المصروف ؛ لكونه معلوماً أو مذكوراً قبله وهو العذاب . ويحوز أن ينتصب يومئذ يصرف انتصاب المفعول به ، أى من يصرف الله عنه ذلك اليوم : أى هوله ، فقد رحمه . وينصر هذه القراءة أبى رضى الله عنه : من يصرف الله عنه ،

وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِنُحَيْرٍ فَهُوَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٧

﴿ وإن يمسك الله بضراً ﴾ من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه ، فلا قادر على كشفه إلا هو ﴿ وإن يمسك بنحير ﴾ من غنى أو صحة ﴿ فهو على كل شيء قدير ﴾ فكان قادراً على إدامته أو إزالته .

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ١٨

﴿ فوق عباده ﴾ تصوير للقهر والعلو بالغلبة والقدرة ، كقوله (وإنما فوقهم قاهرون) الشىء

(١) قال محمود : « المراد الرحمة العظمى وهى النجاة من النار . الخ » قال أحمد : وإنما يلجئ إلى تخصيص الرحمة ، إما بكونها العظمى ، وإما برحمة الثواب أنه لو بقيت على إطلاقها ، لما زاد الجزاء على الشرط إذ من المعلوم ضرورة أن صرف العذاب رحمة ما . والعجب أن الزحشرى يصح تخصيصها برحمة الثواب بأن صرف العذاب يستلزم الثواب ولا بد ، وغيره يصح هذا التخصيص بأنه لا يلزم من صرف العذاب حصول الثواب ، لجواز أن يصرف عنه العذاب ولا يثاب ، فأعاد الجزاء إذا فائدة لم تفهم من الشرط . هكذا صححه القونى . ولعمري إن قاعدة المعتزلة تلجئ إلى ماذهب إليه الزحشرى ، لانقسام المسكفين عندهم إلى مستوجب للجنة فالثواب قطعاً ، وإلى مستوجب للنار فالعذاب قطعاً ، ويستندون ذلك إلى العقل لا إلى السمع .

أعم العام <sup>(١)</sup> لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فيقع على القديم والجرم والعرض والحال والمستقيم. ولذلك صح أن يقال في الله عز وجل: شيء لا كالأشياء، كأنك قلت: معلوم لا كسائر المعارف، ولا يصح: جسم لا كالأجسام

قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّى بَرِىءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ١٩

وأراد: أى شهيد (أكبر شهادة) فوضع شيئاً مقام شهيد ليبالغ في التعميم (قل الله شهيد بيني وبينكم) يحتمل أن يكون تمام الجواب عند قوله (قل الله) بمعنى الله أكبر شهادة، ثم ابتدئ (شهيد بيني وبينكم) أى هو شهيد بيني وبينكم، وأن يكون (الله شهيد بيني وبينكم) هو الجواب، لدلالته على أن الله عز وجل إذا كان هو الشهيد بينه وبينهم، فأكثر شيء شهادة شهيد له (ومن بلغ) عطف على ضمير المخاطبين من أهل مكة. أى: لأنذركم به وأنذر كل من بلغه القرآن من العرب والعجم. وقيل: من الثقلين. وقيل: من بلغه إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير: من بلغه القرآن فكأنما رأى محمداً صلى الله عليه وسلم (أتينكم لتشهدون) تقرير لهم مع إنكار واستبعاد (قل لا أشهد) شهادتكم

الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ قُمْ لَآيُؤْمِنُونَ ٢٠ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ. ٢١

(الذين آتيناهم الكتاب) يعنى اليهود والنصارى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة (كما يعرفون آبائهم) بجلالهم ونعوتهم لا يخفون

(١) فان محمود: «الشيء أعم العام، لوقوعه على كل ما يصح... الخ» قال أحد وتفسيره الشيء يخالف الفريقين الأشعرية، قائم: فسروه بالوجود ليس إلا، والمعتزلة قائم قالوا: والمعلوم الذى يصح وجوده، فانفقوا على خروج المستحيل. وعلى الجملة فهذه المسئلة معدودة من علم الكلام باعتبار ما. وأما هذا البحث فلفوى والتحاكم فيه لأهل اللغة، وظاهر قولهم غضبت من لاشيء، وإذا رأى غير شيء ظنه رجلاً. أن الشيء لا ينطلق إلا على الوجود إذ لو كان الشيء. كل ما يصح أن يعلم هدا كان أو وجوداً أو ممكناً أو مستحيلاً، لما صدق على أمر ما أنه ليس بشيء والأمر في ذلك قريب.



عليهم ولا يلتبسون بغيرهم . وهذا استمهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوته . ثم قال ﴿الذين خسروا أنفسهم﴾ من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين ﴿فهم لا يؤمنون﴾ به ، جمعوا بين أمرين متناقضين ، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه ، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح ، حيث قالوا : ( لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ) . وقالوا : ( والله أمرنا بها ) وقالوا : ( الملائكة بنات الله ) و ( هؤلاء شفعاؤنا عند الله ) ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب ، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات ، وسموها سحراً ، ولم يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا ابْنِ شِرْكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ يَكُنْ فَتَنْتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا

### يَقْتُرُونَ ﴿٢٤﴾

﴿ ويوم نحشرهم ﴾ ناصبه محذوف تقديره : ويوم نحشرهم كان كيت وكيت ، فترك ليلقى على الإبهام الذى هو داخل فى التخويف ﴿ أين شركاؤكم ﴾ أى آلهتكم التى جعلتموها شركاء لله . وقوله : ﴿ الذين كنتم تزعمون ﴾ معناه تزعمونهم شركاء ، لحذف المفعولان . وقرئ : يحشرهم ثم يقول ، بالياء فيهما . وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ ، ويجوز أن يشاهدوهم ، إلا أنهم حين لا ينفعونهم ولا يكون منهم مارجوا من الشفاعة . فكأنهم غيب عنهم ، وأن يحال بينهم وبينهم فى وقت التوبيخ ليفقدوهم فى الساعة التى علقوا بهم الرجاء فيها ، فيروا مكان خزيهم وحسرتهم ﴿ فتنتهم ﴾ كفروهم . والمعنى : ثم لم تكن عاقبة كفرهم <sup>(١)</sup> - الذى لزموه أعمارهم ، وقالوا عليه وافتخروا به ، وقالوا دين آباؤنا - إلا جوده والتبرؤ منه ، والحلف على الاتقاء من التدين به . ويجوز أن يراد : ثم لم يكن جوابهم إلا أن قالوا افسمى فتنة : لأنه كذب . وقرئ : تكن ، بالتاء وفتنتهم ، بالنصب . وإنما أنت ( أن قالوا ) لوقوع الخبر مؤثراً ، كقولك : من كانت أمك ؟ وقرئ بالياء ونصب الفتنة . وبالياء والتاء مع رفع الفتنة . وقرئ : ربنا ، بالنصب على النداء

(١) قال محمود : « فتنتهم كفروهم ، والمعنى ثم لم تكن عاقبة كفرهم ... الخ » قال أحد : وفى الآية دليل بين على أن الأخبار بالثبوت على خلاف ما هو به كذب ، وإن لم يعلم الخبر مخالفة خبره بخبره . ألا تراه جعل إخبارهم وتبريهم كذباً مع أنه تعالى أخبر أنهم ضل عنهم ما كانوا يفترون ، أى سلبوا عنه حيث قد دها وحيرة ، فلم يرفع ذلك إطلاق الكذب عليهم .

(وَضَلَّ عَنْهُمْ) وغاب عنهم (ما كانوا يفترون) أي يفترون لإلهيته وشفاعته. فإن قلت : كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته ؟ قلت : المتكذب ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشاً : ألا تراهم يقولون (ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون) وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه ، (ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك) وقد علموا أنه لا يقضى عليهم. وأما قول من يقول : معناه : ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علينا أنا على خطأ في معتقدنا ، وحمل قوله (انظر كيف كذبوا على أنفسهم) يعني في الدنيا فتمحل وتصف وتحريف لأفصح الكلام إلى ما هو عي وإقحام ، لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بترجم عنه ولا منطبق عليه ، وهو ناب عنه أشد النبو. وما أدري ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون) بعد قوله (ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) فثبته كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلِمًا لَا يُؤْمِنُوهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُبْجِدُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾

(ومنهم من يستمع إليك) حين تتلوا القرآن . روى أنه اجتمع أبو سفيان والوليد والنضر وعتبة وشيبة وأبو جهل وأضرابهم يستمعون تلاوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا للنضر : يا أبا قتيلة ، ما يقول محمد ؟ فقال : والذي جعلها بيته - يعني الكعبة - ما أدري ما يقول ، إلا أنه يحزك لسانه ويقول أساطير الأولين ، مثل ما حدثكم عن القرون الماضية . فقال أبو سفيان : إني لأراه حقاً . فقال أبو جهل : كلا ، فزلت . والأكنة على القلوب ، والوقر في الآذان : مثل في نبو قلوبهم ومسامعهم عن قبوله <sup>(١)</sup> واعتقاد صحته . ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله

(١) قال محمود : والأكنة على القلوب والوقر في الآذان ، مثل في نبو قلوبهم ومسامعهم عن قبوله ... الخ قال أحد رحمه الله : وهذه الآية حنبنا في رد معتقد القدرية الذين يزعمون أن الله تعالى أراد من هؤلاء المستمعين أن يمعروا القرآن ويفقهوه ، وأنه لم يعمهم من ذلك ، وبحال على زعمهم أن يعمهم من ذلك ويريد أن لا يفقهوه ، لأن ذلك عندهم قبيح . فانظر كيف تكلفهم هذه الآية بالرد وتنادى عليهم بالخطأ ، إذ قوله (أن يفقهوه) معناه كراهة أن يفقهوه ، وبين الإراءة على زعمهم ، والكراهة على ما أنبأت عنه الآية . يود بعيد ، والله الموفق .

(وجعلنا) للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم ، كأنهم مجبولون عليه . أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم ( وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ) وقراً طالحة : وقرا بكسر الواو ( حتى إذا جاءوك يجادلونك ) هي حتى التي تقع بعدها الجمل . والجملة قوله ( إذا جاءوك ) ( يقول الذين كفروا ) و ( يجادلونك ) موضع الحال . ويجوز أن تكون الجارة ويكون إذا جاؤك في محل الجز بمعنى حتى وقت مجيئهم ، ويجادلونك حال ، وقوله : يقول الذين كفروا . تفسير له . والمعنى : أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك . وفسر مجادلنهم بأنهم يقولون ( إن هذا إلا أساطير الأولين ) فيجعلون كلام الله وأصدق الحديث ، خرافات وأكاذيب ، وهي الغاية في التكذيب ( وهم ينهون ) الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه ، ويثبطونهم عن الإيمان به ( وينأون عنه ) بأنفسهم فيضلون ويضلون ( وإن يهاكوب ) بذلك ( إلا أنفسهم ) ولا يتعداهم الضرر إلى غيرهم ، وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل : هو أبو طالب لأنه كان ينهى قريشاً عن التعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم وينأى عنه ولا يؤمن به . وروى أنهم اجتمعوا إلى أبي طالب . وأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم سوءاً . فقال : (١)

وَاللّٰهُ لَن يَصْلُوَا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ      حَتَّىٰ أَوْسَدَ فِي الثَّرَابِ دَفِينًا  
فَأَصْدَعَ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاةٌ      وَأَیْشَرَ بِذَٰكَ وَقَرَّ مِنْهُ عِيُونًا  
وَدَعَوْنِي وَزَعَمْتَ أَنَّكَ نَاصِحٌ      وَلَقَدْ صَدَقْتَ وَكُنْتَ ثَمَّ أَمِينًا  
وَعَرَضْتَ دِينًا لَا مَحَالَةَ أَنَّهُ      مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا  
لَوْلَا أَلَمَامَةٌ أَوْ حَذَارَى سُبَّةٌ      لَوَجَدْتَنِي سَمَحًا بِذَٰكَ مُبِينًا (٢) فَنَزَلَتْ .

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل من طريق ابن إسحاق حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخص أنه حدث أن قريشاً قالت لآبي طالب هذه المقالة فذكر القصة قال ابن إسحاق : ثم قال : فذكر هذا الشعر .  
(٢) لآبي طالب ، لما اجتمع عنده قريش وأرادوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم . فأصْدَع ، أى اجهر بأمرك حتى تؤثر في القلوب ، كصدع الإجاج ، أى شقه وكسره . وَغَضَ مِنْهُ يَغْضُ - بِالضَم - غَضَاةٌ : وضع ونقص من قدره . وَغَضَضْتُ الْمَاءَ : وتغنض هو : نقصته واتنقص . أى ما عليك مذلة ومنقصة من أمرك . وبشر يبشر - بِالضَم - سر وفرح . وأبشر بإشاراً : سر واستبشر . وبشرته وأبشرته أفرحته . أى : أفرح وانسر بذلك . وقرت عينه . بردت سروره ، أى أفرح بذلك وانسر . فهو توكيد لأبشر ؛ إلا أنه بطريق السكينة المفيدة للبرائة . وعيوننا تميز بحول عن الفاعل ، أى تنقر عيونك . والمراد بالجمع مانوق الواحد ، أو المبالغة ، أو عيونهم هو أوعيونهم هو المؤمنون . وروى عنه أى من ذلك الأمر . و « لن » حرف لتوكيد النفي كما تشهد به مواضع الاستهال . ونفي الوصول : كناية عن نفي المضرة على وجه أبلغ . والباء للبالغة . و « حتى أوسد » غايمة مفيدة للتوكيد والتأيد =

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَلَيْتُنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا  
وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا  
لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾

(ولو ترى) جوابه مخدوف تقديره . ولو ترى رأيت أمراً شنيعاً (وقفوا على النار) أروها حتى يعاينوها . أو اطلعوا عليها اطلاعا هي تحتهم ، أو أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها من قولك : وقفته على كذا إذا فهمته وعرفته ، وقرئ : وقفوا ، على البناء للفاعل ، من وقف عليه وقوفاً (ياليئنا نرد) تم تمنيهم . ثم ابتدؤا (ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين) واعدن الإيمان ، كأنهم قالوا : ونحن لا نكذب وتؤمن على وجه الإثبات . وشبهه سبويه بقولهم : دعني ولا أعود ، بمعنى دعني وأنا لا أعود ، تركتني أو لم تتركني . ويجوز أن يكون معطوفاً على نرد ، أو حالاً على معنى : ياليئنا نرد غير مكذبين وكاثنين من المؤمنين ، فيدخل تحت حكم التثني . فإن قلت : يدفع ذلك قوله (وإنهم لكاذبون) لأن المتعنى لا يكون كاذباً . قلت : هذا تمنى قد تضمن معنى العدة ، فجاز أن يتعلق به التكذيب ، كما يقول الرجل : ليت الله يرزقني مالا فأحسن إليك وأكفئك على صنيعك ، فهذا متمنى في معنى الواعد ، فلو رزق مالا ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب ، كأنه قال : إن رزقني الله مالا كافأتك على الإحسان . وقرئ : ولا نكذب ونكون ، بالنصب بإضمار أن على جواب التثني <sup>(١)</sup> ومعناه : إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين (بل بدأ لهم ما كانوا يخفون من قبل) من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم ؛ فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجراً لا أنهم عازمون على أنهم لو رددوا لآمنوا . وقيل : هو

— والتوسيد : كناية عن الموت ، فيجعل له وسادة تحت رأسه في رصه . و«دنيا» أى مدفونا حال . ومحى . المضارع المنفى بلن جواباً للقسم لا يجوز إلا في الضرورة كما هنا . وزعت : أى قلت عند من لا يصدقك ، ولقد صدقت في دعواك أنك ناصح للناس ، و«كنت ثم» أى عند قولك «أميناً» فيما ادعيت وعرضت علينا ديناً صادقاً أنه من خير أديان البرية ديناً ، أى من جهة الديانة ، أو من جهة الجزاء . وقيل : قد يراد من التخيير مجرد التوكيد وهذا منه لإحالة في ذلك ، فقوله دلائله حجة اعتراضية للتوكيد . والحذار : مصدر بمعنى الحذر من مسبب له . و«يروى» أو حذارى سبة . والسبب أبلغ من اللوم «لوجدتني» يا محمد اضرباً بذلك الدين ، مظهر أنه . وسمح سماحة فهو سمح ، كضخم ضخامة فهو ضخم : إذا جاد ولم يخل .

(١) قال محمود : «وقرئ» ولا نكذب ونكون بالنصب بإضمار أن على جواب التثني ... الخ ، قال أحمد : وكثيراً ما تتناوب صيغة التثني والخبر . ألا ترى : إلى قوله تعالى (وبما كانوا يكذبون) في قوله : (ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين) إلى قوله (وبما كانوا يكذبون) وهذه المعاهدة إنما كانت تمثيلاً بصيغة الخبر ، والله أعلم . وأبين من ذلك قوله تعالى في آية أخرى (ومم يصطرون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل) فهذا هو التثني بعينه ، ولكن بصيغة الوعد والخبر الصريحة ، والله الموفق .



في المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه . وقيل : هو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ولو ردوا﴾ إلى الدنيا بعد وقوفهم على النار ﴿لعادوا لما نهوا عنه﴾ من الكفر والمعاصي ﴿ولإنهم لكاذبون﴾ فيما وعدوا من أنفسهم لا يفون به .

وَقَالُوا إِنَّمَا هِيَ إِلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾

﴿وقالوا﴾ عطف على لعادوا . أى ولو ردوا لكفروا وقالوا ﴿إنما هي إلا حياتنا الدنيا﴾ كما كانوا يقولون قبل مباينة القيامة . ويجوز أن يعطف على قوله : وإنهم لكاذبون ، على معنى : وإنهم لقوم كاذبون في كل شيء ، وهم الذين قالوا : إنما هي إلا حياتنا الدنيا . وكفى بهدلا على كذبهم وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَحْسِرْتَنَّا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾

﴿وقفوا على ربهم﴾ مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال ، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعتابه . وقيل : وقفوا على جزاء ربهم . وقيل عرفوه حق التعريف ﴿قال﴾ مردود على قول قائل قال : ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه فقيل : قال ﴿أليس هذا بالحق﴾ وهذا تعيين من الله تعالى لهم على التكذيب . وقولهم - لما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء - : ما هو بحق وما هو إلا باطل ﴿بما كنتم تكفرون﴾ بكفركم بقاء الله ببلوغ الآخرة وما يتصل بها . وقد حقق الكلام فيه في مواضع آخر . و﴿حتى﴾ غاية لكذبوا لا الخسر ، لأن خسرانهم لا غاية له . أى ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة . فإن قلت : أما يتحسرون عند موتهم ؟ قلت : لما كان الموت وقوعا في أحوال الآخرة ومقدماتها ، جعل من جنس الساعة وسمى باسمها ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من مات فقد قامت قيامته <sup>(١)</sup> . أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة ﴿بغتة﴾ لجأة واتصالها على الحال بمعنى باغتة ، أو على المصدر

(١) أخرجه أبو شعيب النخعي في الفردوس عن أنس بلفظ «إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته» للطبري من حديث زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبه قال ويقولون القيامة القيامة ، وإنما قيامة الرجل موته ، ومن رواه عن أبي قيس قال شهدت جنازة فيها علقمة . فيها دفن قال : أما هذا فقد قامت قيامته .

كأنه قيل : بغتتهم الساعة بغتة ﴿فَرَطْنَا فِيهَا﴾ الضمير للحياة الدنيا ، مبنى بضميرها وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة ، أو للساعة على معنى : قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها ، كما تقول : فرطت في فلان . ومنه فرطت في جنب الله ﴿يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ كقوله ﴿فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ لأنه اعتيد حمل الإثقال على الظهر ، كما ألف الكسب بالأيدي ﴿سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ بش شيئاً يزرون وزرهم ، كقوله ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ﴾ .

وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

جعل أعمال الدنيا لعباً ولهواً واشتغالاً بما لا يعنى ولا يعقب منفعة ، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة . وقوله ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو . وقرأ ابن عباس رضى الله عنه : ولدَارُ الْآخِرَةِ . وقرأ : تعقلون بالتاء والياء .

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَمَحْزُوكٌ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ

بِآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ ﴿٣٣﴾

(قد) في ﴿قد نعلم﴾ بمعنى وربما الذى يحى . لزيادة الفعل وكثرته <sup>(١)</sup> ، كقوله :

أَخْوَفَةٌ لَا تُهْلِكُ الْخُمْرُ مَالَهُ وَلَكِنَّهُ قَدْ مَهْلِكُ الْمَالِ نَائِلُهُ <sup>(٢)</sup>

(١) قال محمود : «قد في قد نعلم بمعنى ربما الذى يحى . لزيادة الفعل وكثرته كقوله : ولكنه قدهلك المال نائله» قال أحمد : ومثلها في قوله (وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم) فإنه يكثر عليهم برسائله ويؤكده بظهور آياته ، حتى يقيم عليهم الحجة في جمعهم بين متناقضين : أذيته ، ورسوخ عليهم برسائله ، والله أعلم . ومنه أيضاً قوله :  
\* قد أترك القرن مصفراً أنامله \*

وتغرض التعبير عن المعنى بما يشعر بعكسه ، تنبيهاً على أنه بلغ الآية التى ما بعدها إلا الرجوع إلى الضد . وذلك من لطائف لغة العرب وغرائبها .

(٢) أخو ثقة لا يهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائله

تراه إذا ما جتثته مهتلاً كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليقت الله سائله

فن مثل حصن في الحروب ومثله لانكار ضميم أو لحصم بمحاولة

لوهير بن أبى سلمي يمدح حصن بن أبى حذيفة . والثقة من وثق ، كالعدة من وعد . وإن كان الفعل الأول مكسوراً والثانى مفتوحاً ، فأصلها دوثق ، حذف الواو وخلف بها التاء ، والمراد بها ما يتوثق به ، أو المصدر هو التوثق ، أى هو ملازم لما يتوثق به من مكارم الأخلاق ، لا ينفك عنه كأنه أخوه أو ملازم للتوثق به . وإسناده الأهلوك إلى الخمر مجاز عقلى ، لأنه سبيه ، وكذلك إسناده إلى النائل ، أى العطاء . ودقده هنا للتكثير ، وإلا لم يكن مدحاً ، =

والهائم في ((إنه)) ضمير الشأن ((ليحزنك)) قرئ بفتح الياء وضمها . ((الذي يقولون)) هو قولهم ساحر كذاب ((لا يكذبونك)) قرئ بالتشديد والتخفيف، من كذبه إذا جعله كاذباً في زعمه<sup>(١)</sup> وأكذبه إذا وجده كاذباً . والمعنى أن تكذيبك أمر راجع إلى الله، لأنك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون الله ببحود آياته ، قاله عن حزنك لنفسك وإن هم كذبوك وأنت صادق ، وليشغلك عن ذلك ، أهو أمهم وهو استعظامك ببحود آيات الله تعالى والاستهانة بكتابه . ونحوه قول السيد لغلامه - إذا أهانه بعض الناس - : إنهم لم يهينوك وإنما أهانوني . وفي هذه الطريقة قوله تعالى (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) وقيل : فإنهم لا يكذبونك بقلوبهم ، ولكنهم يحدون بالستهم . وقيل : فإنهم لا يكذبونك لأنك عندك الصادق الموسوم بالصدق ، ولكنهم يحدون بآيات الله . وعن ابن عباس رضى الله عنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى الأمين<sup>(٢)</sup> فعرفوا أنه لا يكذب في شيء ، ولكنهم كانوا يحدون . وكان أبو جهل يقول : ما تكذبك لأنك عندنا صادق ، وإنما نكذب ما جئتنا به . وروى أن الأحنس بن شريق قال لأبي جهل : يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمد ، أصادق هو أم كاذب ، فإنه ليس عندنا أحد غيرنا ؟ فقال له : والله إن محمداً لصادق

== تراه متهللاً مستبشراً الوجه إذا جئته سائلاً ، فكأنك تعطيه المال الذي أنت طالبه منه . وبالغ في وصفه بالكرم حتى أنه يحد بوجه إن لم يلك غيرها ، وبني على ذلك أمر سائله بالتقوى من الله ، لئلا يأخذ روحه فيميت . فسائله الأول مضاف لمفعوله الثاني . والثاني مضاف للأول . وقوله دفن ، استفهام إنكارى ، أى ما مثله أحد في الحروب ، وما مثله أحد معد لانكار الظلم وإبائه . والمحاولة المعالجة والطلب . وضمير يحاوله للضمير ، أو الحصن ، أو لمن . ويروى الشعر برواية أخرى ، على أنه وصف لمن بن زائدة وهى :

يقولون معن لا زكاة لماله      وكيف يركى المال من هو بأذله  
إذا حال حول لم تجد في دياره      من المال إلا ذكره وجائله  
تراه إذا ما جئته متهللاً      كأنك تعطيه الذى أنت نائله  
تعود بسط الكف حتى لو أنه      أراد اقتباساً لم تقطعه أنامله  
فلو لم يكن      ...      ...      ...      البيت

ورفع جائله ، ذهاباً إلى المعنى ، لأن المعنى لم يبق إلا جائله ونائله . آخذه منه . وبسط الكف : كناية عن كثرة الكرم . وأنامله : أجزاء أصابعه .

(١) عا. كلامه . قال : «وقرى» يكذبونك بالتشديد والتخفيف من كذبه إلى قوله (ولكن الظالمين) ... الخ. قال أحمد : وفي هذا التسويع من إقامة الظاهر مقام المضمر فتان من نكت البيان ، إحداها : الاسهاب في ذمهم وهذه النكتة يستقل بها الظاهر من حيث كونه ظاهراً ، حتى لو كان لقباً جامداً ، والأخرى زيادة منه تؤكد ذمهم ، تفهم من اشتقاق الظاهر .

(٢) لم أجده عنه وفي الطائفات من حديث يعلى بن أمية قال «بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسا وعشرين سنة وليس له بمكة اسم إلا الإيمان» ورواه أيضاً من حديث علي بن أبي طالب نحوه .

وما كذب قط ، ولكن إذا ذهب بنوقصى<sup>١</sup> باللواء والسقاية والحجاجة والنبوة ، فإذا يكون لسائر قريش ، فنزلت ، وقوله ﴿ولكن الظالمين﴾ من إقامة الظاهر مقام المضمر ، للدلالة على أنهم ظلموا في جعودهم .

وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَقَصَّبُوا عَلَى مَا كَذَبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَانَهُمْ  
نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَايِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾

﴿ولقد كذبت﴾ تسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(١)</sup> وهذا دليل على أن قوله (فإنهم لا يكذبونك) ليس بنفي لتكذيبه ، وإنما هو من قولك لفلانك : ما أهانوك وإكذبهم أهانوني ﴿على ما كذبوا وأودوا﴾ على تكذيبهم وإيذائهم ﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾ لمواعيده من قوله (ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون) ﴿ولقد جاءك من نبا المرسلين﴾ بعض أنبيائهم وقصصهم وما كذبوا من مصابة المشركين .

وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ  
أَوْ سُلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ  
مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ

إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾

كان يكبر على النبي صلى الله عليه وسلم لم كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فنزل (لعليك باخع نفسك) ، (إنك لا تهدي من أحببت) . ﴿وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبغى نفقا في الأرض﴾ منفذاً تنفذ فيه إلى ماتحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها ﴿أو سلماً في السماء فتأتيهم﴾ منها ﴿آية﴾ فافعل . يعني أنك لا تستطيع ذلك . والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه ، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لآتى بها رجاء إيمانهم . وقيل : كانوا يقترحون الآيات فكان يود أن يجابوا

(١) عاد كلامه . قال : « وقوله ولقد كذبت رسل من قبلك تسلياً ... الخ » قال أحد : ولا دلالة فيه لأنه مؤلف مع نفي التكذيب أيضاً ، وموقعه حينئذ من الفضيلة أئين ، أى هؤلاء لم يكذبوك لحقك أن تصبر عليهم ولا يحزنك أمرهم ، وإذا كان قبلك من الأنبياء قد كذبهم قومهم فصبروا عليهم ، فأنك إذ لم يكذبوك أجدر بالصبر . فقد اتلف كما ترى بالتفسيرين جميعاً ، ولكنه من غير الوجه الذى استدل به فيه تقريب لما اختاره : وذلك أن مثل هذه التسلياة قد وردت مصرحاً بها في نحو قوله ( وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك فسلوا عن تكذيبهم له بتكذيب غيرهم من الأمم لا نبيائهم وما هو إلا تفسير حسن مطابق للواقع مؤيد بالنظر ، والله أعلم .

إليها لتنادى حرصه على إيمانهم . فقيل له : إن استطعت ذلك فافعل ، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما اقترحوا من الآيات لعلمهم يؤمنون . ويجوز أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السم في السماء هو الإتيان بالآيات ، كأنه قيل : لو استطعت النفوذ إلى ماتحت الأرض أو الرق إلى السماء لفعلت ، لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها . وحذف جواب « أن » كما تقول : إن شئت أن تقوم بنا إلى فلان نوره ﴿ ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ﴾ بأن يأتيهم بآية ملجئة ، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة ﴿ فلا تكونن من الجاهلين من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه ﴾<sup>(١)</sup> ﴿ إنما يستجيب الذين يسمعون ﴾ يعنى أن الذين تحرص على أن يصدقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون ، وإنما يستجيب من يسمع ، كقوله ﴿ إنك لا تسمع الموتى ﴾ ﴿ والموتى يبعثهم الله ﴾ مثل لقدرته على إجلاتهم إلى الاستجابة بأنه هو الذى يبعث الموتى من القبور يوم القيامة ﴿ ثم إليه يرجعون ﴾ للجزاء فكان قادراً على هؤلاء الموتى بالكفر أن يهيئهم بالإيمان . وأنت لا تقدر على ذلك . وقيل معناه : وهؤلاء الموتى - يعنى الكفرة - يبعثهم الله . ثم إليه يرجعون ، حينئذ يسمعون . وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم<sup>(٢)</sup> وقرئ : يرجعون ، بفتح الياء .

وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

﴿ لولا نزل عليه آية ﴾ نزل بمعنى أنزل . وقرئ أن ينزل بالتشديد والتخفيف . وذكر الفعل والفاعل مؤنث . لأن تأنيث آية غير حقيقى ، وحسن للفصل . وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل من الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتركم الاعتداد بما أنزل عليه ، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عناداً منهم ﴿ قل إن الله قادر على أن ينزل آية ﴾ تضطرم إلى الإيمان . كستق الجبل على بنى إسرائيل ونحوه ، أو آية إن جمدها جاءهم العذاب ﴿ ولكن أكثرهم

(١) قال محمود : « بأن يأتيهم بآية ملجئة ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة ( فلا تكونن من الجاهلين ) من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه » قال أحمد : وهذه الآية أيضاً كافلة بالرد على القدرة في زعمهم أن الله تعالى شاء جمع الناس كلهم على الهدى فلم يكن . ألا ترى أن الجملة مصدرية بلو ، ومقتضاها امتناع جوابها لامتناع الواقع بعدها ، فامتناع اجتماعهم على الهدى إذاً إنما كان لامتناع المشيئة ، فن ثم ترى الوجودى يعمل المشيئة على قهرهم على الهدى بآية ملجئة لا يكون الإيمان معها اختياراً ، حتى يتم له أن هذا الوجه من المشيئة لم يقع ، وإن مشيئة اجتماعهم على الهدى على اختيار منهم ثابتة غير ممنوعة ولكن لم يقع متعلقها ، وهذه من غباياه ومكامنه فاحذرها ، والله الموفق .

(٢) قوله « إلى استماعهم » لعله : إسماعهم . (ع)



لا يعلمون) أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية، وأن صارفا من الحكمة يصرفه عن إزالتها.  
وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا  
فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾

(أمم أمثالكم) مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم  
(ما فرطنا) ما تركنا وما أغفلنا (في الكتاب) في اللوح المحفوظ (من شيء) من ذلك لم  
نكتبه ولم ثبت ما وجب أن يثبت بما يختص به (ثم إلى ربهم يحشرون) يعني الأمم كلها من  
الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض، كما روى أنه يأخذ للجماء من القرناء. فإن  
قلت: كيف قيل: (إلا أمم) مع أفراد الدابة والطائر؟ فإن قلت: لما كان قوله تعالى (وما من  
دابة في الأرض ولا طائر) دالا على معنى الاستغراق ومغنيا عن أن يقال: وما من دواب  
ولا طير، حمل قوله (إلا أمم) على الماعى، فإن قلت: هلا قيل: وما من دابة ولا طائر (١)  
إلا أمم أمثالكم؟ وما معنى زيادة قوله (في الأرض) و (يطير بجناحيه) قلت: معنى ذلك زيادة  
التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما من دابة فقط في جميع الأرضين السبع، وما من طائر قط  
في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها. فإن  
قلت: فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه  
وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الاجتناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها،  
مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكافين ليسوا بمخصوصين بذلك دون  
من عداهم من سائر الحيوان. وقرأ ابن أبي عبلة: ولا طائر، بالرفع على المحل، كأنه قيل:  
وما دابة ولا طائر. وقرأ علقمة: ما فرطنا، بالتخفيف.

وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا صُمُّوا وَبُكِّمُوا فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَاءُ اللَّهُ يُضِلِّهِ وَمَنْ  
يَشَاءُ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾

فإن قلت: كيف أتبعه قوله (والذين كذبوا بآياتنا)؟ قلت: لما ذكر من خلائفه وآثار  
قدرته ما يشهد لربوبيته وينادى على عظمته قال: والمكذبون (صم) لا يسمعون كلام المنبه

(١) قال محمود: وإن قلت فلا قيل: وما من دابة ولا طائر... الخ. قال أحمد: ولم يبين وجه زيادتها للتعميم.  
ولقاتل أن يقول: يلزم من العموم في اجتناس الطير دخول كل طائر في الجوف العموم وإن لم يذكر في الجو، وكذلك  
يلزم من عموم الدواب في سائر أصنافها أن يندرج في ذلك كل دابة في الأرضين وإن لم يذكر في الأرض، فلا بد  
من بيان وجه الزيادة فنقول: موقع قوله (في الأرض) و (يطير بجناحيه) موقع الوصف العام، وصفة العام  
عامة ضرورة المطابقة، فكأنه مع زيادة الصفة تضافرت صفتان عامتان، والله أعلم.

﴿بُكُمْ﴾ لا يظنون بالحق ، غابطون في ظلمات الكفر ، فهم غافلون عن تأمل ذلك والتفكير فيه ، ثم قال إيدانا بأنهم من أهل الطبع <sup>(١)</sup> ﴿من يشأ الله يضالهُ﴾ أى يخذه ويخله وضلاله لم يلفظ به ، <sup>(٢)</sup> لأنه ليس من أهل اللطف ﴿ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم﴾ أى يلفظ به لأن اللطف يجدى عليه .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنَا كُنتُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُدْرِكِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَمَكْشِفٌ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُنْشِرُونَ ﴿٤١﴾

﴿أرايتكم﴾ أخبروني . والضمير الثانى لاجل له من الإعراب : لأنك تقول : أرايتك زيدا ما شأنه ، فلو جعلت للكاف محلا لكنت كأنك تقول : أرايت نفسك زيدا ما شأنه ؟ وهو خلف من القول ومتعلق الاستخبار محذوف . تقديره : إِنْ أَنَا كُنتُمْ عَذَابُ اللَّهِ <sup>(٣)</sup> ﴿أو أتتكم الساعة﴾ من تدعون . ثم بكسهم بقوله ﴿أغير الله تدعون﴾ بمعنى أنخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضرر ، أم تدعون الله دونها ﴿بل إياه تدعون﴾ بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة ﴿فيكشف ما تدعون إليه﴾ أى ما تدعونه إلى كشفه ﴿إن شاء﴾ إِنْ أَرَادَ أَنْ يَنْفَعِلَ عَلَيْكُمْ وَلَمْ يَكُنْ مَفْسُودَةً ﴿وتنسون ما تشركون﴾ وتركون آلهتكم ، <sup>(٤)</sup> أو لا تذكرونها فى ذلك الوقت : لأن أذهانكم فى ذلك الوقت مغمورة بذكر ربكم وحده ، إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره . ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله ﴿أغير الله تدعون﴾ <sup>(٥)</sup> كأنه قيل :

(١) قوله «إيدانا بأنهم من أهل الطبع» أى الختم على القلوب . وقوله «أى يخذه» الخ ، فسر الاضلال بذلك ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة ، أما عند أهل السنة فيخلق الشر كالحير ، فالاضلال على ظاهره عندهم بمعنى خلق الضلال فى القلب . (ع)

(٢) قال محمود : معنى يضله يخذه ولم يلفظ به ... الخ ، قال أحد : وهذا من تحريفاته للهداية والضلالة اتباعا لمعتقد الفاسد فى أن الله تعالى لا يخلق الهدى ولا الضلال ، وأنهما من جملة مخلوقات العباد . وكفى تحرق عليه هذه العقيدة فيروم أن يرقعها ، وقد اتسع الخرق على الراقع ، والله الموفق .

(٣) قال محمود : متعلق الاستخبار محذوف تقديره ... الخ ، قال أحد : هو لا يدع أن يحجر واسعا فيوجب على الله رعاية المصالح بناء على القاعدة الفاسدة من مراعاة الصلاح والأصلح .

(٤) عاد كلامه . قال : «وتنسون ما تشركون» أى وتركون آلهتكم ... الخ ، قال أحد : وإنما يلحق الاختصاص حيث يقول : معناه أنخصون آلهتكم ، ثم قال : بل تخصون الله بالدعاء من حيث تقدم المفعول على الفعل فى قوله ﴿أغير الله تدعون﴾ وقوله ﴿بل إياه تدعون﴾ وتقديم المفعول عنده يفيد الاختصاص والحصر . وقوله تعالى ﴿إياك نعبد﴾ فى قوة قولك : لا نعبد إلا إياك . وقد مضى الكلام عليه .

(٥) عاد كلامه . قال : «ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله أغير الله تدعون» الخ ، قال أحد : ولقد سدد —

أغير الله تدعون إن أناكم عذاب الله . فإن قات : إن عقلت الشرط به فإصنع بقوله : ( فيكشف ما تدعون إليه ) مع قوله ( أو أتكم الساعة ) وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين ؟ قلت : قد اشترط في الكشف المشيئة ، وهو قوله : ( إن شاء ) إيداناً بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة ، إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ  
يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ  
الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ  
كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾  
فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

البأساء ، والضراء : البؤس ، والضـر . وقيل البأساء : القحط والجوع . والضراء : المرض ونقصان الأموال والأفـس . والمعنى : ولقد أرسلنا إليهم الرسل فكذبوهم فأخذناهم ﴿ لعلمهم يتضرعون ﴾ يتذللون ويتخشعون لرهبهم ويتوبون عن ذنوبهم ﴿ فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ﴾ معناه : نفي التضرع ، كأنه قيل : فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا . ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم ، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم ﴿ فلما نسوا ما ذكروا به ﴾ من البأساء والضراء : أي تركوا الاعتـاظ به ولم ينفع فيهم ولم يـزجرهم ﴿ فتحننا عليهم أبواب كل شيء ﴾ من الصحة والسعة وصنوف النعمة ، ليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء ، كما يفعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلطفه أخرى ، طلباً لصلاحه ﴿ حتى إذا فرحوا بما أوتوا ﴾ من الخير والنعم ، لم يـزيدوا على الفرح والبطر ، من غير انتداب لشكر ولا تصد لتوبة واعتذار ﴿ أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون ﴾ واجنون <sup>(١)</sup> متحسرون آيسون ﴿ فـقطـع دابر القوم ﴾ آخرهم لم يترك منهم أحد ، قد استوصلت شأقتهم <sup>(٢)</sup> ﴿ والحمد لله رب

== النظر لولا أنه نفس ذلك بما فيهم وجوب مراعاة المصالح . وأزمشيتة الله تعالى تابعة للصلاح ، وقد تقدم آفا فاحذره . عليك بما سواه فانه من بدع النظر ، والله الموفق .

(١) قوله « واجنون » في الصحاح « الوالم » الذي اشتد حزنه حتى أمسك عن الكلام . (ع)

(٢) قوله « شأقتهم » قرحة تخرج من أسفل القدم فتكوى فتذهب ، ثم ضربت مثلاً في الاستئصال . أوده

الصحاح . (ح)

العالمين ﴿إِذْ أَنْ بُورِجِ الْحَدِيدِ عِنْدَ هَلَاكِ الظَّالِمَةِ ۝﴾ وأنه من أجل النعم وأجل القسم. وقرئ (فتحنا) بالتشديد.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ بِأَتْيِكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾  
 ﴿إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ﴾ بأن يصمم ويعميمكم ﴿وختم على قلوبكم﴾ بأن يغطي عليها ما يذهب عندهم فهمهم وعقلهم ﴿بأيتكم به﴾ أى بأيتكم بذلك، إجراء للضمير مجرى اسم الإشارة أو بما أخذ وختم عليه ﴿يصدفون﴾ يعرضون عن الآيات بعد ظهورها.  
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾

لما كانت البغته أن يقع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر أماراته، قيل ﴿بغته أو جهرة﴾ وعن الحسن: ليلاً أو نهاراً. وقرئ بغته أو جهرة ۝ ﴿هل يهلك﴾ أى ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون. وقرئ. هل يهلك بفتح الياء.

وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾

﴿مبشرين ومنذرين﴾ من آمن بهم وبما جاء به وأطاعهم، ومن كذبهم وعصاهم ولم يرسلهم ليتلهمهم ويقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة ﴿وأصلح﴾ ما يجب عليه إصلاحه عما كلف.

وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا يَمْسُكُهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

(١) قال محمود: والحد هنا إيدان بوجوب الحد عند هلاك... الخ قال أحد: ونظيرها قوله تعالى (وأمرنا عليهم مطراً أنساء من المنذرين)، (قل الحد لله وسلام على عباده الذين اصطفى) فيمن وقف هنا وجعل الحد على إهلاك المتقدم ذكرهم من الطاغين. ومنهم من وقف على المنذرين وجعل الحد متصلاً بما بعده من إقامة البراهين على وحدانية الله تعالى، وأنه جل جلاله خير مما يشركون، فعلى الأول يكون الحد حتماً، وعلى الثاني فاتحة، وهو مستعمل فيهما شرهاً، ولكنه في آية النزل أظهر في كونه مفتوحاً لما بعده، وفي آية الأنعام ختم لما تقدمه ختماً، إذ لا يقتضى السياق غير ذلك، والله أعلم.

(٢) قوله «بغته أو جهرة» كذا في أبي السعد والبيضاوي. وفي بعض نسخ هذا الكتاب بغته أو جهرة، وكتب عليه: أى بتحريك الغين والماء. اهـ (ع)

جعل العذاب ماسسا ، كأنه حتى يفعل بهم ما يريد من الآلام . ومنه قولهم : لقيت منه الأمرين والآقورين<sup>(١)</sup> حيث جمعوا جمع العقلاء : وقوله (إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً) .

قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُكُمْ إِلَّا مَبُوحًى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

أى لا أدعى ما يستبعد في العقول<sup>(٢)</sup> أن يكون لبشر من ملك خزائن الله - وهى قسمه بين الخلق وإرزاقه ، وعلم الغيب ، وأنى من الملائكة الذين هم أشرف جنس<sup>(٣)</sup> خلقه الله تعالى وأفضله وأقربه منزلة منه . أى لم أدع إلهية ولا ملكية ؛ لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة ، حتى تستبعدوا دعواى وتستنكرونها . وإنما أدعى ما كان مثله لكثير من البشر وهو النبوة (هل يستوى الأعمى والبصير) مثل للضال والمهتدى<sup>(٤)</sup> ويجوز أن يكون :

(١) قوله «الأمرين والآقورين» الأمرين - بنون الجمع - : الدوامى . والآقورين - بكسر الواو - : الدوامى الدظام ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : دأى لأدعى ما يستبعد في العقول ... الخ ، قال أحمد رحمه الله : هو يبنى على القاعدة المتقدمة له في تفضيل الملائكة على الأنبياء . ولم يرد أن ظاهر هذه الآية يؤيده ، فذلك انتهى الفرصة في الاستدلال بها ونحالفه أن يقول : إنما وردت الآية رداً على الكفار في قولهم (ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق لولا أنزل عليه ملك فيكون معه نذيراً ، أو يلقي إليه كثر ... الآية) فرد قولهم : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، بأنه بشر وذلك شأن البشر ، ولم يدع أنه ملك حتى يستجب من أكله الطعام ، . وحجته لا يلزم منها تفضيل الملائكة على الأنبياء . لأنه لا خلاف أن الأنبياء يأكلون الطعام وأن الملائكة ليسوا كذلك ، فالفرقة بهذا الوجه متفق عليها ، ولا يوجب ذلك اتفاقاً على أن الملائكة أفضل من الأنبياء . وكذلك رد قولهم . أو يلقي إليه كثر ، بأنه لا يملك خزائن الله تعالى حتى يأتيهم بكثر منها على وفق مقترحهم ، ولا قال لهم ذلك حتى يقام عليه الحجة به . وهذه الآية جاء الترتيب فيها مخالفاً لترتيب قوله (لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون) قال الزجاج : لأنهم أعل من الأنبياء ، وقد أخر ههنا دعوى الملكية عن دعوى الإلهية ، إذ الإلهية أجل وأعلى ، والملكية أدنى ، ولا عمل لذلك إلا التهميد الذى أسلفته وقد جعلت الأمر في التقديم والتأخير تبعاً للسياق ، فقد تقضى البلاغة في بعضه عكس ما تقتضيه في الآخر . ولم يحسن الزجاجى في قوله : ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة ، فانه جعل الإلهية من جملة المنازل كالمملكة . ومثل هذا الإطلاق لا يسوغ . والمنزلة عبارة عن المحل الذى يؤول اقه فيه العبد من علو وغيره ، فاطلاقها على الإلهية تحريف ، والله الموفق للصواب .

(٣) قوله «من الملائكة الذين هم أشرف جنس» أى عند المعزولة . أما عند أهل السنة ، فالبشر أشرف ، على ما قرر في التوحيد . (ع)

(٤) عاد كلامه . قال : ير الأعمى والبصير مثل للضال والمهتدى ... الخ ، قال أحمد : قوله أو ادعى الخال يعنى المستحيل ، ولذلك قابله بالمستقيم يريد الممكن ، وذلك مسبب عن دعوى الإلهية ، إذ ادعاؤها لا يجوز عقلاً . وأما ==

مثلا لمن اتبع ما يوحى إليه . ومن لم يتبع . أو لمن ادعى المستقيم وهو النبوة . والمحال وهو الإلهية أو الملكية ﴿ أفلا تتفكرون ﴾ فلا تكونوا ضالين أشباه العميان . أو فتعلوا أنى ما ادعيت مالا يليق بالبشر . أو فتعلوا أن اتباع ما يوحى إلى مما لا بدلى منه . فإن قلت : ( أعلم النيب ) ما حله من الإعراب ؟ قلت : النصب عطفاً على قوله ( عندى خزائن الله ) ، لأنه من جملة المقول كأنه قال : لا أقول لكم هذا القول ولا هذا القول .

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُبْخَشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ

وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

﴿ وأنذر به ﴾ الضمير راجع إلى قوله ( ما يوحى إلى ) و ﴿ الذين يخافون أن يخشروا ﴾ إما قوم داخلون في الإسلام مقرّون بالبعث إلا أنهم مفرطون في العمل <sup>(١)</sup> فينذرهم بما يوحى إليه ﴿ لعلمهم يتقون ﴾ أى يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين . وإما أهل الكتاب لأنهم مقرّون بالبعث . وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقاً فيهلكوا ، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار ، دون المتزدين منهم ، فأمر أن ينذر هؤلاء . وقوله ﴿ ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع ﴾ في موضع الحال من يخشروا ، بمعنى يخافون أن يخشروا غير منصورين ولا مشفوعاً لهم ، ولا بدّ من هذه الحال ، لأن كلاً

== مدعى الملكية فلا يقاس بمدعى الإلهية في الاستحالة العقلية . ويجوز في القدرة أن يجعل البشر ملكاً والملك بشراً ، كما يجوز أن يجعل البشر أنبياء . ويدل على هذا الجواز قوله ( ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ) هذا مع أن العقل يجيزه في قدرة الله تعالى ، لأن الجواهر متماثلة ، والمعادى القائمة ببعضها يجوز أن تقوم بكلها فالمعادى التى بها كان الملك ملكاً يجوز أن يخافها الله تعالى للبشر وبالعكس . وعدم وقوعه لأبى استقامته وإمكانه ، والله الموفق .

(١) قال محمود : « الذين يخافون إما قوم آمنوا إلا أنهم مفرطون ... الخ » قال أحد : وإنما كانت هذه الحال لازمة لو قيل : وأنذر به الذين يخشرون ؛ لأنه لولا الحال لعم الأمر بالإنذار لكل أحد والمقصود تخصيصه ببعض . وأما وقد قيل ( وأنذر به الذين يخافون أن يخشروا إلى ربهم ) فهذا الكلام مستقل برأيه . وهو مضمونه تخصيص الإنذار بالمأمور به بالقوم الخائفين من البعث ، إما لأنهم مقرّون به . وإما لأنهم محتاطون لأنفسهم فيحلمهم الخوف على النظر المضى إلى اليقين ، دون العناية المصححين على الجحد وليس كل خائف من البعث لاشفيع له ، فإن الموحدين أجمعين خائفون وهم مشفوع لهم ، وإن عني باللازمة التى لا ينفك ذو الحال عنها ، كاتى بقوله ( وهو الحق مصداقاً ) قائماً هو حيث تدبى على قاعدته في إنكار الشفاعة ، فكل خائف عنده لاشفيع له إذ لا يخاف إلا أصحاب الكبرياء غير الثائنين أو الكفار . والكل عنده سواء لاشفيع لهم . وحيث أثبت الشفاعة ، جعلها خاصة بزيادة الثواب ، فلا ينالها إلا من يستوجب على زعمه الثواب بعمله الصالح ، وتكون الشفاعة مفردة للمريد على ما يرضيه . فهذا عنده لا يخف من البعث ، لأنه يستوجب الجنة . فن ثم جعل الحال لازمة إذ الناس قسمان : غير خائف ، فلا تتناول الآية . وخائف ، فذاك إنما خاف لأنه استوجب العقاب فلا شفاعة تناله . وهذه من دقائق الخلفية ، ومكانته المروية ، فتظن لها ، والله الموفق برحمته .



محشور ، فالتخوف إنما هو الحشر على هذه الحال .

وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾

ذكر غير المتقين من المسلمين وأمر بإنذارهم ليتقوا ، ثم أردفهم ذكر المتقين منهم وأمره بتقريبهم وإكرامهم ، وأن لا يطيع فيهم من أراد بهم خلاف ذلك ، وأثنى عليهم بأنهم يواصلون دعاء ربهم أى عبادته ويواظبون عليها . والمراد بذكر الغداة والعشي : الدوام . وقيل معناه : يصلون صلاة الصبح والعصر ، ووسمهم بالإخلاص فى عبادتهم بقوله ( يريدون وجهه ) والوجه يعبر به عن ذات الشيء وحقيقته . روى أن رؤسا من المشركين قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : لو طردت عنا هؤلاء الأعداء يعنون فقراء المسلمين ، وهم عمار وصهيب وبلال وخباب وسلمان وأضرابهم رضوان الله عليهم ، وأرواح جبابهم - وكانت عليهم جباب من صوف - جلسنا إليك وحادثناك ، فقال عليه الصلاة والسلام : ما أنا بطارد المؤمنين . فقالوا : فأقمهم عنا إذا جئنا ، فإذا قمنا فأقدمهم معك إن شئت . فقال : نعم ، طمعاً فى إيمانهم <sup>(١)</sup> . وروى أن عمر رضى الله عنه قال : لو فعلت حتى ننظر إلى ما يصيرون . قال فاكتب بذلك كتابا ، فدعا بصحيفة وبعلى رضى الله عنه ليكتب ، فنزلت . فرمى بالصحيفة ، واعتذر عمر من مقالته <sup>(٢)</sup> . قال سلمان وخباب : فينا نزلت فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقعد معنا ويدنو منا حتى تمس ركبتنا ركبته . وكان يقوم عنا إذا أراد القيام فنزلت <sup>(٣)</sup> : واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم ، فترك القيام غنا إلى أن يقوم

(١) رواه البيهقي فى الشعب فى أواخره والواحدى فى الأسباب من رواية أبى مشجعة بن ربهى عن سلمان قال « جاءت المؤلفات فلو بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : عيينة بن بدر والأفرع بن حابس وذوهم فقالوا يا رسول الله ، إنك لو جلست فى صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء وأرواح جبابهم يعنون أبى ذر وسلمان وفقراء المسلمين ، وكانت عليهم جباب صوف لم يكن عليهم غيرهما جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك . فأنزل الله تعالى ( واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم - إلى قوله - للظالمين ناراً ) فقام النبي صلى الله عليه وسلم يلتمسهم . الحديث ولا ينماجه وابن أبى شبة والطبراني وأبو نعيم فى ترجمة خباب . وإسحاق وأبو يعلى والبرز والبيهقي أيضا والواحدى من طريق أبى السكوند عن خباب فى قوله تعالى ( ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء - الآية - إلى الظالمين ) قال : جاء الأفرع وعيينة فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع صهيب وبلال وعمار وخباب ، قاعداً فى ناس من ضعفاء المؤمنين . فذكره مطولا .

(٢) قلت هو فى حديث خباب المذكور آنفا دون مشورة عمر . واعتذاره .

(٣) قلت أما حديث خباب فن أوله إلى قوله « أن يقوم » فى حديثه المذكور آنفا . وأما حديث سلمان فقد

ذكرته أولا . وأما قوله « وقال الحمد لله ... إلى آخره » فهو فى حديث سلمان وحده .

عنه وقال : الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع قوم من أمتى . معكم الحيا ومعكم المات ﴿ وما عليك من حسابهم من شيء ﴾ كقوله (إن حسابهم إلا على ربى) وذلك أنهم طعنوا فى دينهم وإخلاصهم ، فقال (ما عليك من حسابهم من شيء) بعد شهادته لهم بالإخلاص وبإرادة وجه الله فى أعمالهم على معنى : وإن كان الأمر على ما يقولون عند الله ، فما يلزمك إلا اعتبار الظاهر والاتسام بسمية <sup>(١)</sup> المتقين ، وإن كان لهم باطن غير مرضى لحسابهم عليهم لازم لهم لا يتعداهم إليك ، كما أن حسابك عليك لا يتعداك إليهم ، كقوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) . فإن قلت : أما كفى قوله (ما عليك من حسابهم من شيء) حتى ضم إليه ﴿ وما من حسابك عليهم من شيء ﴾ ؟ قلت : قد جعل الجملتان بمنزلة جملة واحدة ، وقصد بهما مؤدى واحد وهو المعنى فى قوله (ولا تزر وازرة وزر أخرى) ولا يستقل بهذا المعنى إلا الجملتان جميعاً ، كأنه قيل : لا تؤاخذ أنت ولا هم بحساب صاحبه . وقيل : الضمير للشركين . والمعنى : لا يؤاخذون بحسابك ولا أنت بحسابهم ، حتى يهمل إيمانهم ويحرك الحرص عليه إلى أن تطرد المؤمنين ﴿ فطردهم ﴾ جواب النفي ﴿ فتكون من الظالمين ﴾ جواب النهى . ويجوز أن يكون عطفاً على ﴿ فطردهم ﴾ على وجه التسليب ، لأن كونه ظالماً مسبب عن طردهم . وقرئ : بالعدوة والغشى .

وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ أَجْعَلُوا أَهْوَاءَهُمْ مِنْ آلِهَةٍ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا  
أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٣﴾

﴿ وكذلك فتنا ﴾ ومثل ذلك الفتن العظيم ، فتنا بعض الناس ببعض ، أى ابتليناهم بهم . وذلك أن المشركين كانوا يقولون للمسلمين ﴿ أهؤلاء ﴾ الذين ﴿ من الله عليهم من بيننا ﴾ أى أنعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوتنا ، ونحن المقدمون والرؤساء ، وهم العبيد والفقراء ، إنكاراً لأن يكون أمثالهم على الحق وبنونا عليهم من بينهم بالخير . ونحوه (أ ألقى الذكر عليه من بيننا) ، (لو كان خيراً ما سبقونا إليه) . ومعنى فتناهم ليقولوا ذلك : خذلناهم <sup>(٢)</sup> فافتنوا ، حتى كان افتنائهم سبباً لهذا القول ، لأنه لا يقول مثل قولهم هذا إلا مخذول مفتون ﴿ أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ أى الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان . وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق .

وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى

(١) قوله « بسمية » لعله « بسمه » . (ع)

(٢) قوله « خذلناهم فافتنوا » فسر بهذا على مذهب المعتزلة : أنه تعالى لا يخلق الشر . وعند أهل السنة يخلق شر كالخير . (ع)

نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهْلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ  
غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٤﴾

﴿فقل سلام عليكم﴾ إما أن يكون أمراً ببلّغ سلام الله إليهم . وإما أن يكون أمراً بأن يبدأهم بالسلام إكراماً لهم وتطليفاً لقلوبهم . وكذلك قوله ﴿كتب ربكم على نفسه الرحمة﴾ . من جملة ما يقول لهم ليسرهم ويبشرهم بسعة رحمة الله وقبوله التوبة منهم . وقرئ : إنه ، فإنه بالكسر على الاستئناف كأن الرحمة استفسرت فقيل ﴿إنه من عمل منكم﴾ وبالفتح على الإبدال من الرحمة ﴿بجهالة﴾ في موضع الحال ، أى عمله وهو جاهل . وفيه معنيان ، أحدهما : أنه فاعل فعل الجهالة لأن من عمل ما يؤدى إلى الضرر في العاقبة وهو عالم بذلك أو ظان فهو من أهل السفه والجهل ، لا من أهل الحكمة والتدبير . ومنه قول الشاعر :

عَلَى أَنَّهَا قَاتَتْ عَشِيَّةَ زُرْنَمَا جَهَلَتْ عَلَى عَمْدٍ وَلَمْ تَكُ جَاهِلًا <sup>(١)</sup>

والثاني : أنه جاهل بما يتعلق به من المكروه والمضرة . ومن حق الحكم أن لا يقدم على شيء حتى يعلم حاله وكيفيته . وقيل : إنها نزلت في عمر رضى الله عنه حين أشار بإجابة الكفرة إلى ما سألوا ولم يعلم أنها مفسدة .

وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ أَلْمِيزِينَ ﴿٥٥﴾

وقرئ ﴿ولتستبين﴾ بالتاء والياء مع رفع السيل لأنها تذكر وتوث . وبالتاء على خطاب الرسول مع نصب السيل . يقال : استبان الأمر وتبين واستبينته وتبينته . والمعنى : ومثل ذلك التفصيل البين فنصّل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين ، من هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه ، ومن يرى فيه أماراة القبول وهو الذى يخاف إذا سمع ذكر القيامة ، ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده ، ولتستوضح سبلهم فتعامل كلا منهم بما يجب أن يعامل به ، فصلنا ذلك التفصيل .

قُلْ إِنِّي نُهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا تَبْسُغُ أَمْوَاءُكُمْ  
قَدْ ضَلَّتْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي  
وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَاعْنَدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْضُ الْحَقُّ وَهُوَ

(١) « على » بمعنى « مع » ، أى قالت عشيّة زيارتي لإماما « جهلت » أى فعلت فعل الجاهل ، أو تجاهلت وادعت الجهل ، مع تمعدك ولم تك جاهلا حين الفعل . أو لم تك فيما مضى جاهلا بشيء . (ع)

خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ ﴿٥٨﴾

(نهي) صرفت وزجرت ، بماركب في من أدلة العقل ، وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبادة ماتعبدون (من دون الله) وفيه استجماع ، لهم ووصف بالافتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة (قل لا أتبع أهواءكم) أي لا أجرى في طريقكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل ، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال ، وتنبية لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل (قد ضللت إذا) أي إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال وما أنا من الهدى في شيء يعني أنكم كذلك . ولما نفي أن يكون الهوى متبعاً به على ما يجب اتباعه بقوله (قل إني على بينة من ربي) ومعنى قوله (إني على بينة من ربي وكذبتم به) : إني من معرفة ربي وأنه لا معبود سواه ، على حجة واضحة وشاهد صدق (وكذبتم به) أنتم حيث أشركتم به غيره . يقال : أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه ، إذا كان ثابتاً عندك بدليل . ثم عقبه بما دل على استعظام تكذيبهم بالله وشدة غضبه عليهم لذلك وأهم أحقائه بأن يفاصوا <sup>(١)</sup> بالعذاب المستأصل فقال (ما عندي ما تستعجلون به) يعني العذاب الذي استعجلوه في قولهم (فأمطر علينا حجارة من السماء) (إن الحكم إلا لله) في تأخير عذابكم (يقض الحق) أي القضاء الحق في كل ما يقضى من التأخير والتعجيل في أقسامه (وهو خير الفاصلين) أي الفاضلين . وقرئ : يقض الحق <sup>(٢)</sup> أي يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره ، من قص أثره (لو أن عندي) أي في قدرتي وإمكانتي (ما تستعجلون به) من العذاب (لقضى الأمر بيني وبينكم) لاهلكتكم عاجلاً غضبا لربي وامتعضا <sup>(٣)</sup> من تكذيبكم به . وتخلصت منكم سريعا (والله أعلم بالظالمين) وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم . وقيل (على بينة من ربي) على حجة من جهة ربي وهي القرآن (وكذبتم به) أي بالبينه . وذكر الضمير على تأويل البيان أو القرآن . فإن قلت : هم انتصب الحق ؟ قلت : بانه صفة لمصدر يقضى ، أي يقضى القضاء الحق . ويجوز أن يكون مفعولا به من قولهم : قضى الدرع إذا صنعها ، أي يصنع الحق ويدبره . وفي قراءة عبدالله : يقضى بالحق . فإن قلت : لم أسقط الياء في الخط ؟ قلت : إتباعا للخط اللفظ ، وسقوطها في اللفظ لالتقاء الساكنين .

(١) قوله « يفاصوا » أي يؤاخذوا على غفلة . يقال : غافست الرجل أخذته على غرة له (ع)

(٢) قوله « وقرئ : يقض الحق » ظاهره أن قراءة ( يقض ) من القضاء ، هي المشهورة . فليجروا (ع)

(٣) قوله « وامتعضا » الامتعض : اشتداد الغضب . فأداه المصحح . (ع)

وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ  
مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَةٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا  
فِي كِتَابٍ يُبَيِّنُ ٥٩

جعل للغيب مفاتيح على طريق الاستعارة ، لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن (١) المتوक्त منها بالأغلاق والآقمال . ومن علم مفاتيحها وكيف تفتح ، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره كمن عنده مفاتيح أقفال المخازن ويعلم فتحها ، فهو المتوصل إلى ما في المخازن . والمفاتيح : جمع مفتاح وهو المفتاح . وقرئ مفاتيح ، وقيل : هي جمع مفتاح - بفتح الميم - وهو الخزن . ( ولا حبة ... ولا رطب ولا يابس ) عطف على ورقة (٢) وداخل في حكمها ، كأنه قيل : وما يسقط من شيء من هذه الأشياء إلا يعلمه . وقوله ( إلا في كتاب مبين ) كالتكرير لقوله ( إلا يعلمها ) لأن معنى ( إلا يعلمها ) ومعنى ( إلا في كتاب مبين ) واحد . والكتاب المبين : علم الله تعالى ، أو اللوح : وقرئ : ولا حبة . ولا رطب . ولا يابس ، بالرفع . وفيه وجهان : أن يكون عطفاً على محل ( من ورقة ) وأن يكون رفعاً على الابتداء وخبره ( إلا في كتاب مبين ) : كقولك : لا رجل منهم ولا امرأة إلا في الدار .

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاسَى  
أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٦٠  
( وهو الذي يتوفاكم بالليل ) الخطاب للكفرة ، أى أتم منسحقون (٣) الليل كله

(١) قال محمود . « انفتاح استعارة ، لأن المفاتيح يتوصل بها إلى ما في المخازن ... الخ » قال أحمد : إطلاق التوصل على الله تعالى ليس سديداً فإنه يوم تجدد وصول بعد تباعد إذ قول القائل توصل زيد إلى كذا يفهم أنه وصل بعد تكلف وبعد والله تعالى مقدس عن ذلك والتائب كالحاضر في علمه والعالم بالمكان هو العلم بما سيكون لا يتأخر ولا يختلف وليس لما أن نعلق مثل هذا الإطلاق إلا عن ثبت ، والله الموفق .

(٢) عاد كلامه . قال : « ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس ، عطف على ورقة وداخل في حكمها ... الخ » قال أحمد : وفائدة هذا التكرير التطرية لما بعد عهده ، لأنه لما عطف على ورقة بعد أن سبب الإيجاب لمقصود العلم في قوله ( إلا يعلمها ) وكانت هذه المصطفات داخلة في إيجاب العلم وهو المقصود وطالت ، وبعد ارتباط آخرها بالإيجاب السالف كان ذلك جديراً بتجديد العهد بالمقصود ، ثم كان اللاتق بالبلاغة المألوفة في القرآن للتجديد بعبارة أخرى . ليتفاهم السامع غضة جديدة غير مملولة بالتكرير . وهذا السر إنما يقب منه المسيطر في علم البيان ونكت البان ، والله الموفق .

(٣) قوله « منسحقون » أى منسحقون على القفا . أو منقادون على الوجه أفاده الصحاح . ( ع )

كالجيف (ويعلم ما جرحتم بالنهار) ما كسبتم من الآثام فيه (ثم يبعثكم فيه) ثم يبعثكم من القبور في شأن ذلك الذي قطعتم به أعماركم ، من النوم بالليل ، وكسب الآثام بالنهار ، ومن أجله ، كقولك : فيم دعوتني ؟ فتقول : (١) في أمر كذا (ليقضى أجل مسمى) وهو الأجل الذي سباه وضربه لبعث الموتى وجزائهم على أعمالهم . (ثم إليه مرجعكم) وهو المرجع إلى موقف الحساب (ثم ينبئكم بما كنتم تعملون) في ليالكم ونهاركم .

وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ

وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ ﴿٦٢﴾

(حفظه) ملائكة حافظين لأعمالكم وهم الكرام الكاتبون . وعن أبي حاتم السجستاني كان يكتب عن الأصمعي كل شيء يلفظ به من فوائد العلم ، حتى قال فيه . أنت شبيه الحفظة ، تكتب لفظ اللفظة : فقال أبو حاتم : وهذا أيضاً مما يكتب . فإن قلت : الله تعالى غنى بعلمه عن كتابة الملائكة ، فما فائدتها ؟ قلت : فيها لطف للعباد ، لأنهم إذا علموا أن الله رقيب عليهم والملائكة الذين هم أشرف خلقه موكلون بهم يحفظون عليهم أعمالهم ويكتبونها في صحائف تعرض على رؤس الأشهاد في مواقف القيامة ، كان ذلك أزجر لهم عن القسيح وأبعد عن السوء (توفته رسلنا) أي استوفت روحه وهم ملك الموت وأعوانه . وعن مجاهد : جمعت الأرض له مثل الطست يتناول من يتناول . وما من أهل بيت إلا ويطوف عليهم في كل يوم مرتين . وقرئ : توفاه . ويجوز أن يكون ماضياً ومضارعاً بمعنى تتوفاه . و (يفرطون) بالتشديد والتخفيف ، فالتفريط التواني والتأخير عن الحد ، والإفراط مجاوزة الحد أي لا ينقصون مما أمروا به أو لا يزيدون فيه (ثم ردوا إلى الله) أي إلى حكمه وجزائه (مولاهم) مالكمهم الذي يلي عليهم أمورهم (الحق) العدل الذي لا يحكم إلا بالحق (ألا له الحكم) يومئذ لا حكم فيه لغيره (وهو أسرع الحاسبين) لا يشغله حساب عن حساب . وقرئ (الحق) بالنصب على المدح كقولك : الحمد لله الحق .

قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّا أَنْجِيْنَا مِنْ هَذِهِ لَمَّا كُنْتُمْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ

كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾

(١) قوله « فتقول في أمر كذا » لعله : فيقول . (ع)

(ظلمات البر والبحر) مجاز عن مخاوفهما وأهوالهما . يقال لليوم الشديد : يوم مظلم ، ويوم ذوكواكب . أى اشتدت ظلمته حتى عاد كالليل ؛ ويجوز أن يراد . ما يشفون<sup>(١)</sup> عليه من الخسف في البر والفرق في البحر بذنوبهم ، فإذا دعوا وتضرعوا كشف الله عنهم الخسف والفرق فنجوا من ظلماتهما (لئن أنجيتنا) على إرادة القول (من هذه) من هذه الظلمة الشديدة . وقرئ (ينجيكم) بالتشديد والتخفيف ، . وأنجانا . وخفية ، بالضم والكسر .

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِّنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ لَّا تَنصُرُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ

بِوَكِيلٍ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَفَرٍّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)

(هو القادر) هو الذى عرفتموه قادراً وهو الكامل القدرة (عذاباً من فوقكم) كما أمطر على قوم لوط وعلى أصحاب الفيل الحجارة ، وأرسل على قوم نوح الطوفان (أو من تحت أرجلكم) كما أغرق فرعون وخسف بقارون ، وقيل من فوقكم : من قبل أكا بركم وسلاطينكم . ومن تحت أرجلكم : من قبل سفاتكم وعبيدكم . وقيل : هو حبس المطر والنبات (أو يلبسكم شيعاً) أو يخلطكم فرقا مختلفين على أهواء شتى ، كل فرقة منهم مشايعة لإمام . ومعنى خلطهم : أن ينشب القتال بينهم فيختلطوا ويشتبكوا في ملاحم القتال ، من قوله :

وَكَيْتِبَةٍ لَّبَسْتَهَا بَكْتِبَةٍ حَتَّى إِذَا التَّيَّبَتْ نَفَضَتْ لَهَا يَدَى (٢)

(١) قوله « ما يشفون عليه » أى يشرفون ويقربون . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبت نفضت لها يدي

فتركتهم تقص الرياح ظهورهم من بين منفر وأخر معدة

ما كان ينفخى مقال نسائهم وقتلت دون رجالها لا تبعه

للقرار السلي ، يمدح نفسه بأنه مهيب للشر يعرف مداخله وخارجه . يقول : رب جماعة خالطتها بأخرى ، حتى إذا تم اختلاطها تخلصت منها وتركتهما في حيص بيص ، لكن فيه إثبات طرف من اللوم . ونفض اليد : كناية عن التخلص . والقص : الدق والكسر . والمذفر : المجروح بالهم ، فتقطع قوته من المقر وهو القمطع . ويرى : منعقر ، بالفاء أى منعقر التراب . والمسد : اسم مفعول ، أى دابر بين ساقط ومتكى على غيره ، ولا تبعه : مفعول المفال ، وهو يفتح الدين أى لا تهلك ، وهي كلمة تقولها النساء عند المصيبة . وقوله دونت ، أى والحال أنى قد قتلت دون رجال تلك النساء ، أى أمامهم ، أو من بينهم لكفائى عنهم . أى لو صبرت لقتلت ، ولم يحين كلام نسائهم وتفجعهم على مع سلامة رجالهم .

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « سألت الله أن لا يبعث على أمتي عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك ، وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعني ، وأخبرني جبريل أن فناء أمتي بالسيف ، <sup>(١)</sup> وعن جابر بن عبد الله لما نزل (من فوقكم) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أعوذ بوجهك ، فلما نزل (أو من تحت أرجلكم . أو يلبسكم شيئا) قال « هاتان أهون ، <sup>(٢)</sup> ومعنى الآية : الوعيد بأحد أصناف العذاب المعدودة . والضمير في قوله (وكذب به) راجع إلى العذاب (وهو الحق) أي لا بد أن ينزل بهم (قل استعليكم وكيل) بحفيظ وكل إلى أمرهم أمتهم من التكذيب إجباراً ، إنما أنا منذر (لكل نبأ) لكل شيء ينبأ به ، يعني إنباءهم بأنهم يعذبون وإبعادهم به (مستقر) وقت استقرار وحصول لا بد منه . وقيل : الضمير في (به) للقرآن .

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرِي لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾

(يخوضون في آياتنا) في الاستهزاء بها والطعن فيها ؛ وكانت قريش في أنديةهم يفعلون ذلك (فأعرض عنهم) فلا تجالسهم وقم عنهم (حتى يخوضوا في حديث غيره) فلا بأس أن تجالسهم حيثنذ (وإما ينسيَنَّك الشيطان) وإن شغلك بوسوسته حتى تنسى النهي عن مجالستهم <sup>(٣)</sup>

(١) كذا ذكره الثعلبي بغير سند . وهو في عدة أحاديث دون خبر جبريل . فروى ابن مردويه من حديث عمرو بن قيس عن رجل عن ابن عباس قال : لما نزلت هذه الآية ( قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم . . . الآية ) قال : فقام النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ ثم قال : اللهم لا ترسل على أمتي عذاباً من فوقهم ولا من تحت أرجلهم ، ولا تلبسهم شيئا . فأتاه جبريل . فقال : يا محمد إن الله قد أجاز أمرك أن يبعث عليهم عذاباً من فوقهم أو من تحت أرجلهم ، وله شواهد : منها في مسلم عن سعد مرفوعاً : سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالفرق فأعطانيها . وسأله أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها . وعند مسلم من حديث ثوبان مطولاً . وعند عبد الرزاق من حديث شداد بن أوس مطولاً أيضاً وفي الموطأ عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا لآمة أن لا يظهر عليهم عدوا من غيرهم ولا يهلكهم بالسنين فأعطاهما ودعا بأن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعها ، ولابن ماجه من حديث معاذ نحو حديث سعد وللنسائي من حديث أنس نحوه وللترمذي من حديث خباب بن الارت نحوه ، وعند أحمد من حديث أبي بصرة الغفاري نحوه وفي الطبراني من حديث ابن عباس ، وقوله « أن فناء أمتي بالسيف » رواه من حديث (٢) أخرجه البخاري من حديث جابر

(٣) قال محمود : « معناه وإرشاك بوسوسته حتى تنسى النهي . . . الخ ، قال أحمد : وهذا التأويل الثاني يروم =



﴿ فلا تقعد ﴾ معهم ﴿ بعد الذكرى ﴾ بعد أن تذكر النهى . وقرئ : ينسينك . بالتشديد . ويجوز أن يراد : وإن كان الشيطان ينسينك قبل النهى <sup>(١)</sup> قبح مجالسة المستهزين لأنها مما تنكره العقول ﴿ فلا تقعد بعد الذكرى ﴾ بعد أن ذكرناك قبحها ونهناك عليه معهم ﴿ وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء ﴾ وما يلزم المتقين الذين يحاسبونهم شيء مما يحاسبون عليه من ذنوبهم ﴿ ولكن ﴾ عليهم أن يذكروهم ﴿ ذكرى ﴾ إذا سمعهم يخوضون ، بالقيام عنهم ، وإظهار الكراهة لهم ، وموعظتهم ﴿ لعلهم يتقون ﴾ لعلهم يحتنبون الخوض حياء أو كراهة لمساءتهم . ويجوز أن يكون الضمير للذين يتقون ، أى يذكروهم إرادة أن يذنبوا على تقواهم ويزدادوها . وروى أن المسلمين قالوا : لئن كنا نقوم كلما استهزوا بالقرآن لم نستطع أن نجلس في المسجد الحرام وأن نطوف ، فرخص لهم . فإن قلت : ما محل ﴿ ذكرى ﴾ ؟ قلت : يجوز أن يكون نصبا على : ولكن يذكروهم ذكرى ، أى تذكيراً . ورفعاً على : ولكن عليهم ذكرى . ولا يجوز أن يكون عطفاً على محل (من شيء) ، كقولك : ما في الدار من أحد ولكن زيد ، لأن قوله ﴿ من حسابهم ﴾ يأتي ذلك .

وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لِبَآءٍ وَلَهُوَ أَعَزُّهُمْ هَيَئَةَ الدُّنْيَا وَذَكَرَ بِهِ  
أَن تَبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ  
كُلُّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذَ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُسْلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّن  
حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ اتخذوا دينهم لعباً ولهواً ﴾ أى دينهم الذى كان يجب أن يأخذوا به لعباً ولهواً . وذلك أن عبدة الأصنام وما كانوا عليه من تحريم البحائر والسوائب وغير ذلك ، من باب اللعب واللهو واتباع هوى النفس والعمل بالشهوة ، ومن جنس الهزل دون الجد . واتخذوا ما هو لعب ولهو من عبادة الأصنام وغيرها ديناً لهم . أو اتخذوا دينهم الذى كفوه ودعوا إليه وهو دين

== تنزيه على قاعدة التحسين والتقيح بالعقل ، وأنه كاف وإن لم يرد شرع في التحريم وغيره من الأحكام إذا كانت واضحة للعقل ، كجالاته المستهزين فإن قبحها بين العقل فهو مستقل بتحريمها ، وحيث ورد الشرع بذلك فهو كاشف لحكمها ومبين عليه ، لا منقضى فيها حكماً . وقد علت فساد هذه القاعدة ومخالفتها للقائد السنية ، على أن الآية تنبؤ عنه فاته لو كان النسيان المراد ههنا نسيان الحكم الذى يدل عليه العقل قبل ورود هذا النهى ، لما عبر بالمستقبل في قوله ﴿ وإما ينسينك ﴾ فأما وقد ورد بصيغة الاستقبال فلا وجه لمله على الماضي ، والله الموفق .

(١) قوله « كان الشيطان ينسينك قبل النهى » بناء على أن هناك حكماً قبل الشرع وهو مذهب المعتزلة ، ولا حكم قبل الشرع عند أهل السنة . (ع)

الإسلام لعباً وهوياً، حيث سخرُوا به واستهزؤا . وقيل : جعل الله لكل قوم عيداً يعظمونه ويصلون فيه ويعمرونه بذكر الله والناس كلهم من المشركين وأهل الكتاب اتخذا وعيدهم لعباً وهوياً ، غير المسلمين فإنهم اتخذوا عيدهم كما شرعه الله . ومعنى «ذرهم» ، اعرض عنهم ، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تشغل قلبك بهم ﴿وذكر به﴾ أى بالقرآن ﴿أن تبسل نفس﴾ مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترتن بسوء كسها . وأصل الإنبال المنع ، لأن المسلم إليه يمنع المسلم ، قال :

وإِبْسَالِي بَنِي بَغْيِرٍ جُرْمٌ بَعُونَاهُ وَلَا يَدِمُ مِرَاقِي<sup>(١)</sup>

ومنه : هذا عليك بسل ، أى حرام محظور . والباسل : الشجاع لامتناعه من قرنه ، أو لانه شديد البسور . يقال : بسر الرجل إذا اشتد عبوسه ، فإذا زاد قالوا : بسسل . والعباس : متقبض الوجه ﴿وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها﴾ وإن تعد كل فداء ، والعدل الفدية<sup>(٢)</sup> لأن الفادى يعدل المفدى بمثله . وكلّ عدل : نصب على المصدر . وفاعل (يؤخذ) قوله (منها) لا ضمير العدل لأن العدل ههنا مصدر فلا يسند إليه الأخذ . وأما في قوله تعالى (ولا يؤخذ منها عدل) فبمعنى المفدى به ، فصح إسناده إليه ﴿أولئك﴾ إشارة إلى المتخذين دينهم لعباً وهوياً . قيل : نزلت في أبي بكر الصديق رضى الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان<sup>(٣)</sup> .

قُلْ أَتَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَالًا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرْثُو عَلَىٰ آعْقَابِنَا بَعْدَ

(١) لعوف بن الأحوص الباهلي . والانبال : التسليم للبأس أى الشجاع المانع العابس . والبدو : بالعين المهمة - الخنازة . يتحمر على تسليم أبنائه لبني قشير رهنا في دم رجل منهم اسمه أبو الصخيفة . بغير جرم : أى ذنب جنيته أنا وأولادى ، ولا يدم مراقى أى مسال منا ، كناية عن القتل .

(٢) قال محمود : «منه» وإن تعد كل فداء والعدل الفدية ... الخ » قال أحد : وهذا أيضاً من عيون إعرابه ونكت إعرابه التي طالما ذهل عنها غيره ، وهو من جنس تدقية في منع عود الضمير من قوله (فتنفخ فيها) إلى الهيئة من قوله (كهية الطير) مع أنه السابق إلى الذهن ، وإنما حله على القول بأن العدل ههنا مصدر أن الفعل تعدى إليه بغير واسطة . ولو كان المبدأ المفدى به لكان مفعولاً به ، فلم يعد إليه الفعل إلا بالباء ، وكان وجه الكلام : وإن تعدل بكل عدل ، فلما عدل عنه علم أنه مصدر ، والله أعلم .

(٣) قال محمود : «نزلت في أبي بكر رضى الله عنه حين دعاه ابنه عبد الرحمن إلى عبادة الأوثان ... الخ » قال أحد : ومن أنكر الجن واستيلاء ما على بعض الأنبياء بقدره الله تعالى حتى يحدث من ذلك الخبطة والعصر ونحوهما ، فهو من استهزته الشياطين في مهامه الضلال الفلسفي ، حيران له أصحاب من الموحدن يدهونه إلى الهدى الشرعي اتقا ، وهو راكب في ضلالة التعاسيف لا يلوى عليهم ولا يلتفت إليهم ، فرة يقول : إن الوارد في الشرع من ذلك تخييل ، كما تقدم في سورة البقرة . ومرة يقعد من زعمات العرب وزخارفها . وقد أسلفنا ذلك في البقرة وآل عمران فولا شافياً بليغاً ، جدد به عهداً ، والله الموفق .

إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ  
يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى آتَيْنَا قُلُوبَ ابْنِ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأَمِرْنَا لِنُقْسِمَ

لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾

﴿قل أندعو﴾ أنعبد ﴿من دون الله﴾ النواز النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرتنا  
﴿ونزد على أعقابنا﴾ راجعين إلى الشرك بعد إذ أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام ﴿كالذي  
استهوته الشياطين﴾ كالذي ذهبت به مردة الجن والغيلان ﴿في الأرض﴾ المهمة <sup>(١)</sup> ﴿حيران﴾  
تائها ضالا عن الجادة لا يدري كيف يصنع ﴿له﴾ أي لهذا المستوى ﴿أصحاب﴾ رفقة ﴿يدعونه  
إلى الهدى﴾ إلى أن يهدوه الطريق المستوى. أو سعى الطريق المستقيم بالهدى ، يقولون له  
﴿اتننا﴾ وقد اعتسف المهمة تابعا للجن لا يجيبهم ولا يأتهم . وهذا مبنى على ما تزعمه العرب  
وتعتقد : أن الجن تستوى الإنسان . والغيلان تستولى عليه ، كقوله ( كالذي يتخبطه الشيطان  
من المس ) فثبته الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه إليه  
فلا يلتفت إليهم ﴿قل إن هدى الله﴾ وهو الإسلام ﴿هو الهدى﴾ وحده وما وراءه ، ضلال  
وغى ( ومن يتبع غير الإسلام ديناً ) . ( فإذا بعد الحق إلا الضلال ) . فإن قلت : فما محل  
الكاف في قوله ( كالذي استهوته ) ؟ قلت النصب على الحال من الضمير في ( نرد على أعقابنا )  
أي : أنشكص مشبهين من استهوته الشياطين ؟ فإن قلت : مامعنى ( استهوته ) ؟ قلت : هو  
استفعال ، من هوى في الأرض إذا ذهب فيها ، كأن معناه : طابت هويته وحرصت عليه . فإن  
قلت : ما محل ( أمرنا ) ؟ قلت : النصب عطفاً على نحل قوله ( إن هدى الله هو الهدى ) على أنهما  
مقولان ، كأنه قيل : قل هذا القول وقل أمرنا لنسلم . فإن قلت : مامعنى اللام في ( لنسلم ) ؟ قلت :  
هى تعليل للأمر ، بمعنى : أمرنا وقيل لنا أسلبوا لأجل أن نسلم . فإن قلت : فإذا كان هذا وارداً  
في شأن أبى بكر الصديق رضى الله عنه <sup>(٢)</sup> فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام قل أندعو؟

(١) قوله والأرض المهمة . أى المفازة المهمة . أعاده الصحاح . (ع)

(٢) عاد كلامه . قال : وفان قلت إذا كان هذا وارداً في أبى بكر ، فكيف قيل للرسول عليه الصلاة والسلام  
﴿قل أندعو من دون الله ... الخ﴾ ؟ قال أحد : هو مبنى على أن الأمر هو الإرادة ، أو من لوازمه إرادة الأمور  
به ، وهذا الاعراب منزل على معتقده هذا . وأما أهل السنة فكانت علت أن الأمر عندهم غير الإرادة ولا يستلزمها .  
وقولهم في هذه اللام كقولهم ( وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ) من نفي كونها تعليل . والوجه في ذلك أنهم  
لما أوضحت لهم الآيات البينات وأزجعت عنهم العلال وتمكنوا من الإسلام والعبادة امتثالاً للأمر جعلوا بمثابة من  
أريد منهم ذلك تمكيناً لهم على الامتثال واقطع أعذارهم إذا فعل بهم فعل المراد منهم ذلك ، وما شأن المرید  
للشئ إذا كان قادراً على حصوله أن يزعج العلال ويرفع الموانع ، وكذلك فعل مع المكلفين وإن لم تكن الطاعة =

قلت : للاتحاد الذى كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، خصوصاً بينه وبين الصديق أبى بكر رضى الله تعالى عنه .

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا زَكَاةَ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

فإن قلت : علام عطف قوله ﴿وَأَنْ أَقِيمُوا﴾ <sup>(١)</sup> ؟ قلت : على موضع (النسلم) كأنه قيل : وأمرنا أن نسلم ، وأن أقيموا . ويجوز أن يكون التقدير : وأمرنا لأن نسلم ، ولأن أقيموا : أى للإسلام وإقامة الصلاة ﴿قوله الحق﴾ مبتدأ . ويوم يقول : خبره مقدما عليه ، وانتصابه بمعنى الاستفراء ، كقولك : يوم الجمعة القتال . واليوم بمعنى الحين . والمعنى : أنه خلق السموات والأرض قائما بالحق والحكمة ، وحين يقول لشيء من الأشياء (كن) فيكون ذلك الشيء . قوله الحق والحكمة . أى لا يكون شيئا من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب . و﴿يوم ينفخ﴾ ظرف لقوله ﴿وله الملك﴾ كقوله (لمن الملك اليوم) ؟ ويجوز أن يكون (قوله الحق) فاعل يكون ، على معنى : وحين يقول لقوله الحق ، أى لقضائه الحق (كن) فيكون قوله الحق . وانتصاب اليوم المحذوف <sup>(٢)</sup> دل عليه قوله (بالحق) كأنه قيل : وحين يكون ويقدر يقوم بالحق ﴿عالم الغيب﴾ هو عالم الغيب ، وارتقاؤه على المدح .

== مرادة من جميعهم ، وأما إذا كانت اللام هى التى تصحب المصدر كما يقول الزجاج : تقديره الأمر للإسلام وكذلك يقول فى قوله تعالى (يريد الله ليعين لكم) الإرادة للبيان وهى اللام التى تصحب المفعول عند تقدمه فى قولك : لزيد ضربت ، فهى على هذا الوجه غير محتاجة للتأويل . وقد قيل إنها بمعنى أن كأنه قيل : وأمرنا أن نسلم قال هذا القائل . وكى ولام كى فى أمرت وأردت خاصة ، بمعنى وأنه لا على بابها من التعليل . والغرض من دخولها إفادة الاستقبال على وجه أوثق وأبلغ ، إذ لا يلائم هذان المعنيان - أعنى الأمر والإرادة - إلا مستقبل ، وقد جمع بين الثلاثة اللام وكى وأن ، فى قوله ه أردت ليعينكم أن يطير ... «البيت» وهذا الوجه أيضا سالم المعنى من الخلل الذى يعتقده الزحمرى ، والمحافظة على العقيدة . وقد وجدنا السبيل إلى ذلك بحمد الله متعينة ، والله الموفق .

(١) عاد كلامه . قال : «فإن قلت علام عطف قوله : وَأَنْ أَقِيمُوا ... الخ ، ؟ قال أحد : وهذا مصداق للقول بأن نسلم معناه أن نسلم ، وأن اللام فيه رديفة وأنه لا يراد عطفها عليها ، فذلك هو الوجه الصحيح إن شاء الله . وفى ورود ﴿أقيموا الصلاة﴾ محكما بصيغته ، وورود (نسلم) محكما بمعناه ، إذ الأصل المطابق لأقيموا : أسلموا ، مصداق لما قدمته عند قوله تعالى (ما كنت لهم إلا مأمرا حتى به أن أعبدوا الله ربى وربكم) وبينت ثم أن ذلك جائز على أن يكون عيسى عليه السلام حكي قول الله تعالى : أعبدوا الله ربكم ورب عيسى بمعناه فقال : أعبدوا الله ربى وربكم ، فهذا مثله حكاية المسمى دون اللفظ ، والله أعلم .

(٢) قوله «محذوف» لعله «محذوف» . (ع)

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ مَا زَرَّ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤) وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكَوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِمَكُونٍ مِنَ الْمُؤَقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَيْنَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يُعْقِبُ مِنِّي بِرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)

(آزر) اسم أبي إبراهيم عليه السلام. وفي كتب التواريخ أن اسمه بالسريانية تارح. والأقرب أن يكون وزن (آزر) فاعل مثل تارح وعابر وعازر وشالخ وقانع وما أشبهها من أسمائهم، وهو عطف بيان لآيه. وقرئ (آزر) بالضم على النداء. وقيل «آزر» اسم صنم، فيجوز أن ينبز به للزومه عبادته، كما نبز ابن قيس بالرقيات اللاتي كان يشبهنه، فقيل ابن قيس الرقيات. وفي شعر بعض المحدثين :

أُدْعَى بِأَسْمَاءَ نَبْرًا فِي قَبَائِلِهَا كَانَ أَسْمَاءَ أَفَحَتْ بَعْدَ أَسْمَائِي (١)

أو أريد عابد آزر، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقرئ «آزر» تتخذ أصناما آلهة بفتح الهمزة وكسرهما بعد همزة الاستفهام وزاى ساكنة وراء منصوبة منونة، وهو اسم صنم. ومعناه: أتعبد آزرا على الإنكار؟ ثم قال: تتخذ أصناما آلهة تثبتنا لذلك وتقريرا، وهو داخل في حكم الإنكار، لأنه كالبيان له (فلما جن عليه الليل) عطف على قال إبراهيم لآيه (٣)

(١) يقول: يتادوتني بلفظ وأسماء، شتألى بين قبائلها: أى قبائل المحبوبة. فقيه استخدام. كان أسماء، أى هذا اللفظ، أضحت: أى صارت بعض أسمائي. وأصل أسماء عند سيبويه: وسماء، من الروامة وهى الحسن والجمال. قلبت واوه همزة على غير قياس. كافى أحد. وعند المبرد جمع اسم. وبين أسماء وأسمائي الجنس التام. وعلى اعتبار ياء المتكلم فهو من النافص.

(٢) قال محمود: وقوله (فلما جن عليه الليل) عطف على (قال إبراهيم لآيه) ... الخ. قال أحد: وفي الاعتراض بهذه الجملة تنويه بما ساقى من استدلال إبراهيم عليه السلام وأنه تبصير له من الله تعالى وتأييد.

وقوله (وكذلك نرى إبراهيم) جملة معترض بها بين المعطوف والمعطوف عليه . والمعنى : ومثل ذلك التعريف والتبصير نعرف إبراهيم ونبصره . ملكوت السموات والأرض : يعنى الربوبية والإلهية ونوقفه لمعرفة ما شرحه بما شرحا صدره وسددنا نظره وهديناه لطريق الاستدلال . وليكون من الموقنين : فعلنا ذلك . ونرى : حكاية حال ماضية ، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب <sup>(١)</sup> ، فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم ، وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال ، ويعرفهم أن النظر الصحيح مؤد إلى أن شياً منها لا يصح أن يكون إلهاً ، لقيام دليل الحدوث فيها ، وأن وراءها محدثاً أحدثها ، وصانعا صنعها ، ومدبراً دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها (هذا ربى) قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل ، فيحكى قوله كما هو غير متعصب لمذهبه . لأن ذلك أدعى إلى الحق وأنجى من الشغب ، ثم يكرر عليه بعد حكايته فيبطله بالحجة (لا أحب الآفلين) لا أحب عبادة الأرباب المتغيرين عن حال إلى حال ، المتقلين من مكان إلى مكان ، المحتجين بستر ، فإن ذلك من صفات الأجرام (بازغا) مبتدئنا في الطلوع (لئن لم يهدنى ربى) تنبيه لقومه على أن من اتخذ القمر إلهاً وهو نظير الكوكب في الأفول ، فهو ضال ، وأن الهداية إلى الحق بتوفيق الله ولطفه (هذا أكبر) من باب استعمال النصفة <sup>(٢)</sup> أيضاً مع خصومه (إني برىء مما تشركون) من الأجرام التي تجعلونها شركاء لخالقها (إني وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض) أى للذى دلت هذه المحدثات عليه وعلى أنه مبتدئها ومبتدعها . وقيل : هذا كان نظره واستدلالة في نفسه ، فحكاها الله .

(١) عاد كلامه قال : وكان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب ... الخ ، قال أحد : والتعريض بضالهم ثانياً أصرح وأقوى من قوله أولاً (لا أحب الآفلين) إنما ترقى إلى ذلك لأن الخصوم قد أقامت عليه الاستدلال الأول حجة ، فأنسوا بالقدح في معتقدم . ولوقيل هذا في الأول ، فلعلمهم كانوا يتفرون ولا يصغون إلى الاستدلال ، فإعرض صلوات الله عليهم بأنهم في ضلالة ، إلا بعد أن وثق بأصغاتهم إلى تمام المقصود واجتماعهم إلى آخره . والدليل على ذلك أنه ترقى في التوبة الثالثة إلى التصريح بالبراءة منهم والتقريع بأنهم على شرك ، حين قيام الحجة عليهم وتبليغ الحق وبلغ من الظهور غاية المقصود ، والله أعلم .

(٢) عاد كلامه . قال : «وقوله (هذا أكبر) من باب استعمال النصفة أيضاً مع الخصوم ... الخ» قال أحد : وصدق الزمخشري ، بل ذلك متعين . وقد ورد الحديث الوارد في الشفاعة أنهم يأتون إبراهيم عليه السلام فيلتصمون منه الشفاعة ، فيقول : نفسى نفسى لا أسأل أحداً غيرى ، ويذكر كذباته الثلاث ويقول : لست لها ، يريد قوله لسارة وهى أختي وإنما عني في الإسلام . وقوله «إنه سقيم» وإنما عني همه بقومه وبشركهم ، والمؤمن يبيعه ذلك . وقوله «بل فعله كبيرهم» وقد ذكرت فيه وجوه من التعريض ، فإذا عد صلوات الله عليه وسلامه على نفسه هذه الكلمات مع العلم بأنه غير مؤاخذ بها ، دل ذلك على أنها أعظم ماحذر منه ، فلو كان الأمر على ما يقال من أن هذا الكلام يحكى عنه على أنه نظر لنفسه ، لكان أولى أن يمدحه أعظم عما ذكرناه لأنه حيثئذ يكون شكاً بل جرماً ، على أن الصحيح أن الأنبياء قبل النبوة معصومون من ذلك .

والأول أظهر ، لقوله (لئن لم يهدني ربِّي) وقوله (ويا قوم إني برئ مما تشركون) . فإن قلت : لم احتج عليهم بالأفول دون البرزوخ <sup>(١)</sup> ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال ؟ قلت : الاحتجاج بالأفول أظهر ، لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب . فإن قلت : ما وجه التذكير في قوله (هذا ربِّي) والإشارة للشهس ؟ قلت : جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد ، كقولهم : ما جاءك حاجتك ، ومن كانت أمك ، (ولم تكن فتنتهم إلا أن قالوا) وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث . ألا تراهم قالوا في صفة الله «علام» ، ولم يقولوا «علامة» ، وإن كان العلامة أبلغ ، احترازاً من علامة التأنيث . وقرئ : ترى إبراهيم ملكوت السموات والأرض ، بالتاء ورفع الملكوت . ومعناه : تبصره دلائل الربوبية .

وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحْجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ  
إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ <sup>(٨٠)</sup>  
وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ  
عِلْمُكُمْ سُلْطَنَا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ <sup>(٨١)</sup>  
الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ <sup>(٨٢)</sup>  
وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ  
حَكِيمٌ عَلِيمٌ <sup>(٨٣)</sup> وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا  
مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ  
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ <sup>(٨٤)</sup> وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ <sup>(٨٥)</sup>  
وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ <sup>(٨٦)</sup> وَمِن آبَائِهِمْ  
وَذُرِّيَّتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ <sup>(٨٧)</sup>  
ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ

(١) عاد كلامه . قال : فإن قلت : لم احتج عليهم بالأفول دون البرزوخ وكلاهما انتقال ... الخ ، قال أحد : وهذه أيضاً من عيون نكته ووجوه حسنه .

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ مَاتَ تَيْنُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ  
وَالذُّبُونَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾  
أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيمَهُمْ آفْتِدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ  
إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾

(وحاجه قومه قال أنا حاجوني في الله) وكانوا حاجوه في توحيد الله ونفي الشركاء عنه  
منكرين لذلك (وقد هذان) يعني إلى التوحيد (ولا أخاف ما تشركون به) وقد خوفوه أن  
معبوداتهم تصيبه بسوء (إلا أن يشاء ربى شيئاً) إلا وقت مشيئة ربى (١) شيئاً يخاف ، خذف  
الوقت ، يعني لا أخاف معبوداتكم في وقت قط ؛ لأنها لا تقدر على منفعة ولا مضرة ، إلا إذا  
شاء ربى أن يصيبني بخوف من جهتها إن أصبت ذنباً أستوجب به إزال المسكروه ، مثل أن  
يرجئ بكوكب أو بشقة من الشمس أو القمر ، أو يجعلها قادرة على مضرتي (وسع ربى كل شيء  
علماً) أى ليس بعجب ولا مستبعد أن يكون في علمه إزال المخوف من جهتها (أفلا تتذكرون)  
فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز (وكيف أخاف) لتخويفكم شيئاً مأمون  
الخوف لا يتعلق به ضرر بوجه (و) أنتم (لا تخافون) ما يتعلق به كل خوف وهو إشرأكم  
بالله ما لم ينزل بأشراكه (سلطاناً) أى حجة ، لأن الإشرأ لا يصح أن يكون عليه حجة ، كأنه  
قال : وما لكم تشكرون على الأمن (٢) في موضع الأمن ، ولا تشكرون على أنفسكم الأمن في  
موضع الخوف . ولم يقل : فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم ، احترازاً من تزكيته نفسه ، فعدل عنه  
إلى قوله (فأى الفريقين) يعنى فريقى المشركين والموحدين . ثم استأنف الجواب عن السؤال

(١) قال محمود : « (إلا أن يشاء) معناه : إلا وقت مشيئة ربى شيئاً خذف الوقت ... الخ » قال أحد : هو  
بمعنى يجعلها قادرة ، على أن المضرة خلق قدرة يخلق بها المضرة لمن يريد ، بناء على قاعدته . وقد علمت أن عقيدة  
أهل السنة أن ذلك لا يجوز عقلاً أن يخلق غير الله ولا يقدر قدرة مؤثرة في القدر الإلهي ، وإن كان الزعمشري لم  
يصرح بهذا من عقيدته ، فأما يعنى حيث يصرح أويكنى ما يلائمها وينزل عليها ، وغاية خوف إبراهيم منها المعلق  
على مشيئة الله لذلك ، خوف الضرر عندها بقدرة الله تعالى لاها . وكأنه في الحقيقة لم يخف إلا من الله ، لأن الخوف  
الذى أثبت منها معلق بمشيئة الله وقدرته ، وهو كلا خوف منها ، والله أعلم .

(٢) عاد كلامه . قال : « ومعنى وكيف أخاف ما أشركتم ... الخ » ما لكم تشكرون على الأمن ... الخ ، قال  
أحد : ويحتمل أن يكون العدول إلى ذلك ليعلم بالأمن كل موحد ، وبالخوف كل مشرك ، ويندرج هو في حكم  
الموحدين وقومه في حكم المشركين . وأحسن الجواب ما أفاد وزاد .



بقوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ أى لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم <sup>(١)</sup>. وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس ﴿وَتِلْكَ﴾ إشارة إلى جميع ما احتج به إبراهيم عليه السلام على قومه من قوله ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ﴾ إلى قوله ﴿وَهُمْ مَهْتَدُونَ﴾. ومعنى ﴿آتَيْنَاهَا﴾ أرشدها إليها ووفقناه لها ﴿زَفَعَ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ﴾ يعنى في العلم والحكمة. وقرئ بالتثنية ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ﴾ الضمير لنوح أو لإبراهيم. و﴿داود﴾ عطف على نوحا، أى وهدينا داود ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ﴾ فى موضع النصب عطفاً على كلاً، بمعنى: وفضلنا بعض آبائهم ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا﴾ مع فضلهم وتقدمهم وما رفع لهم من الدرجات. لكانوا كغيرهم فى حبوط أعمالهم، كما قال تعالى وتقدس (لئن أشركت ليحبطن عملك). ﴿آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يريد الجنس ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا﴾ بالكتاب والحكمة والنبوة. أو بالنبوة ﴿هَؤُلَاءِ﴾ يعنى أهل مكة ﴿قَوْمًا﴾ هم الأنبياء المذكورون ومن تابعهم، بدليل قوله ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدْ﴾ وبدليل وصل قوله ﴿فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ﴾ بما قبله. وقيل: هم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وكل من آمن به. وقيل: كل مؤمن من نبي آدم. وقيل: الملائكة وأدعى الانصار أنها لهم. وعن مجاهد: هم الفرس. ومعنى توكلهم بها: أنهم وفقوا للإيمان بها والقيام بحقوقها كما يوكل الرجل بالشئ ليقوم به ويتعمده ويحافظ عليه. والباء فى (بها) صلة كافرين. وفى ﴿بَكَافِرِينَ﴾ تأكيد النفي. ﴿فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدْ﴾ فاختص هداهم بالافتداء، ولا تقتد إلا بهم. وهذا معنى تقديم المفعول، والمراد بهداهم طريقتهم فى الإيمان بالله وتوحيده وأصول الدين دون الشرائع، فإنها تختلف وهى هدى، مالم تنسخ. فإذا نسخت لم تبق هدى، بخلاف أصول الدين فإنها هدى أبداً. والهام فى (اقتده) للوقف تسقط فى الدرج. واستحسن إيثار الوقف لثبات الهام فى المصحف

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ يَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يُنَادُونَهَا وَيُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوا أَن تَكُونُوا لَآءَابَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

(١) قال محمود: والمراد بقوله (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) أى لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم. وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس، قال أحمد: وقد ورد أن الآية لما نزلت عظمت على الصحابة، وقالوا أينما لم يظلم نفسه. فقال عليه الصلاة والسلام: إنما هو الظلم فى قول لقمان: (إن الشرك أظلم عظيم)، وإنما هو يروم بذلك تنزيهه على معتقده فى وجوب وعيد العصاة، وأنهم لاحظ لهم فى الأمن كالكفار، ويجعل هذه الآية تقتضى تخصيص الأمر بالجامعين الآخرين: الإيمان والبراءة من المعاصي. ونحن نسلم ذلك، ولا يلزم أن يكون الخوف اللاحق للعصاة هو الخوف اللاحق للكفار؛ لأن العصاة من المؤمنين إنما يخافون العذاب المؤقت وهم آمنون من الخلود. وأما الكفار؛ فقير آمنين بوجه ما، وأقبح الموفق.

﴿وما قدروا الله حقّ قدره﴾ وما عرفوه حق معرفته في الرحمة على عباده والالطف بهم حين أنكروا بعثة الرسل والوحى إليهم ، وذلك من أعظم رحمته وأجلّ نعمته (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) أو ما عرفوه حق معرفته في سخطه على الكافرين وشدة بطشه بهم ، ولم يخافوه حين جسروا على تلك المقالة العظيمة من إنكار النبوة . والقائلون هم اليهود ، بدليل قراءة من قرأ : (تجعلونه) بالناء . وكذلك (تبدونها وتخفون) وإنما قالوا ذلك مبالغة في إنكار إنزال القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم فألزموا ما لا بدّ لهم من الإقرار به من إنزال التوراة على موسى عليه السلام ، وأدرج تحت الإلزام توبيخهم وأنت نعى عليهم <sup>(١)</sup> سوء جهلهم لكتابهم وتحريفهم ، وإبداء بعض وإخفاء بعض فقيل : ﴿جاء به موسى﴾ وهو نور وهدى للناس ، حتى غيروه ونقصوه وجعلوه قراطيس مقطعة وورقات مفرقة ، ليتمكنوا مما راموا من الإبداء والإخفاء . وروى أن مالك بن الصيف من أحبار اليهود ورؤسائهم قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك بالذي أنزل التوراة على موسى هل تجد فيها أنّ الله يبغض الخبر السمين ؟ فأنت الخبر السمين ، قد سمعت من مالك الذي يطعمك اليهود <sup>(٢)</sup> . فضحك القوم ، فغضب ، ثم التفت إلى عمر فقال : ما أنزل الله على بشر من شيء ، فقال له قومه : ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك ؟ قال : إنه أغضبني ، فزعه وجعلوا مكانه كعب بن الأشرف . وقيل القائلون قريش <sup>(٣)</sup> وقد ألزموا إنزال التوراة ، لأنهم كانوا يسمعون من اليهود بالمدينة ذكر موسى والتوراة ، وكانوا يقولون لو أنا أنزل علينا الكتاب ، لكننا أهدى منهم ﴿وعلمتم ما لم تعلموا أأنتم ولا آباؤكم﴾ الخطاب لليهود ، أى علمتم على لسان محمد صلى الله عليه وسلم بما أوحى إليه ما لم تعلموا أأنتم ، وأنتم حملة التوراة ، ولم تعلم آباؤكم الأقدمون الذين كانوا أعلم منكم (إن هذا القرآن يقصص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون) وقيل الخطاب لمن آمن من قريش ، كقوله تعالى : لتنذر قوماً ما أنذر آباؤهم . ﴿قل الله﴾ أى أنزله الله ، فإنهم لا يقدرّون أن ينّاكروك ﴿ثم ذرهم في خوضهم﴾ فى باطلهم الذى يخوضون فيه ، ولا عليك بعد إلزام الحجة . ويقال لمن كان فى عمل لا يجدى عليه : إنما أنت لاعب . و﴿يلعبون﴾ حال من ذرهم ، أو من خوضهم ، ويجوز أن يكون (فى خوضهم) حالاً من يلعبون ، وأن يكون صلة لهم أو لذرهم

(١) قال محمود : «وأدرج تحت الإلزام توبيخهم وأن نعى عليهم ... الخ قال أحمد : وهذا أيضاً من دقة نظره فى الكتاب العزيز والتعمق فى آثار معادنه ، وإبراز عاقبته .

(٢) أخرجه الواحدى فى الأسباب من طريق سعيد بن جبير «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمالك بن الصيف فذكره إلى قوله - فغضب ثم قال : ما أنزل الله على بشر من شيء .» وكذلك أخرجه الطبري . من رواية جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير .

(٣) قوله « وقيل القائلون قريش » أخرجه الطبري عن مجاهد .

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾

(مبارك) كثير المنافع والفوائد (ولتنذر) معطوف على ما دل عليه صفة الكتاب ، كأنه قيل : أو أنزلناه للبركات ، وتصديق ما تقدمه من الكتب والإنذار . وقرئ ولينذر بالياء والتاء . وسببت مكة (أم القرى) لأنها مكان أول بيت وضع للناس ، ولأنها قبلة أهل القرى كلها ومحجهم ، ولأنها أعظم القرى شأنًا لبعض المجاورين :

فَن يَلْقَىٰ فِي بَعْضِ الْقُرَيَّاتِ رَحْلَهُ فَأُمُّ الْقُرَىٰ مُلْقَىٰ رِحَالِي وَمُنْتَابِي (١)

(والذين يؤمنون بالآخرة) يصدقون بالعاقبة ويحافظونها (يؤمنون) بهذا الكتاب . وذلك أن أصل الدين خوف العاقبة ، فمن خافها لم يزل به الخوف حتى يؤمن . وخص الصلاة لأنها عماد الدين . ومن حافظ عليها كانت لطفًا في المحافظة على أخواتها .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلَ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

(افترى على الله كذبًا) فزعم أن الله بعثه نبيًا (أو قال أوحى إلي ولم يوح إليه شيء) وهو مسيلة الحنفى الكذاب . أو كذاب صنعاء الأسود العنسى . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : رأيت فيما يرى النائم كأن في يدي سوارين من ذهب فكبرا علي وأهمان فأوحى الله إلي أن انفخهما ، فنفختهما فطارا عني ، فأولتهما الكذابين الذين أنا بينهما : كذاب اليمامة مسيلة ، وكذاب صنعاء الأسود العنسى (١) (ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله) هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي ، كان يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملى عليه سمياعا عليها ، كتب

(١) للزخشرى يفخر به كسكانها . والقرىات - بالتشديد - : للتصغير . ورحل الشخص مسكنه ولو من شعر ، أى : فن يلقى رحله في بعض القرى الصغيرة . فلا غر له على ، فان مكة محط رحالي ومنتابي ، أى محل انتيابى أى دخول فيها نوبة بعد أخرى . وإلقاء الرجل : كناية عن الإقامة ، لأنها تلزمه عرقا . وملتقى على ذمة اسم المفعول اسم لمكان اللقاء ، ككتاب لمكان الالتقاء .

(٢) متفق عليه من حديث ابن عباس .

هو : عليا حكيميا . وإذا قال عليا حكيميا ، كتب : غفورا رحيا . فلما نزلت ( ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ) إلى آخر الآية ، عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان : فقال تبارك الله أحسن الخالقين . فقال عليه الصلاة والسلام اكتتبها : فكذلك نزلت ، فشك عبد الله وقال : لئن كان محمداً صادقاً لقد أوحى إلى مثل ما أوحى إليه . ولئن كان كاذباً فنفذ قلت كما قال ، فارتدت عن الإسلام ولحق بمكة ، ثم رجع مسلماً قبل فتح مكة <sup>(١)</sup> . وقيل : هو النضر بن الحارث والمستهزؤن ( ولو ترى ) جوابه مخدوف ، أى رأيت أمراً عظيماً ( إذ الظالمون ) يريد الذين ذكرهم من اليهود والمثنية ، فتكون اللام للعهد . ويجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه هؤلاء . لاشتماله . و ( غمرات الموت ) شدائده وسكراته ، وأصل الغمرة : ما يغمر من الماء <sup>(٢)</sup> فاستعيرت للشدة الغالبة ( باسطو أيديهم ) يسطون إليهم أيديهم يقولون : هاتوا أرواحكم أخرجوها إلينا من أجسادكم . وهذه عبارة عن العنف في السياق ، والإلحاح ، والتشديد في الإرهاق ، من غير تنفيس وإمهال ، وأنهم يفعلون بهم فعل الغريم المسلط يسط يده إلى من عليه الحق ، ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله . ويقول له : أخر إلى مالى عليك الساعة ، ولا أريم <sup>(٣)</sup> مكانى ، حتى أنزعه من أحداقك . وقيل . معناه باسطو أيديهم عليهم بالعذاب <sup>(٤)</sup> ( أخرجوا أنفسكم ) خلصوها من أيدينا ، أى لا تقدرون على الخلاص ( اليوم تجزون ) يجوز أن يريدوا وقت الإمانة وما يعذبون به من شدة النزاع ، وأن يريدوا الوقت

(١) أخرجه الواحدى عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس إلى قوله « فارتد عن الإسلام » وقد رواه الطبري مختصراً من رواية أسباط عن السدي من قوله تعالى ( ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً - الآية ) قال : نزلت في عبد الله بن سعد بن أبي سرح . أسلم وكان يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم ، فكان إذا أملى عليه سمعاً عليا كتب هو عليا حكيميا وإذا قال عليا حكيميا كتب سمعاً عليا . فشك وكفر ، وقال : إن كان محمد يوحى إليه فقد أوحى إلى ، وإن كان الله ينزله فلقد أنزلت مثل ما أنزل الله . فلحق بالمشركين ( تنبيه ) قوله القرطبي غلط بين فان ابن أبي سرح قرشي عاصري . قوله « ثم رجع مسلماً قبل فتح مكة » قوله وقيل : هو النضر بن الحارث ( فائدة ) روى أن هذه القصة كانت لابن خطل . أخرج ابن عدى في ترجمة أصرم بن حوشب أحد المتزكّين من حديث علي ، قال « كان ابن خطل يكتب للنبي صلى الله عليه وسلم فكان إذا نزل غفور رحيم كتب رحيم غفور - فذكر الحديث . وفيه : ثم كثر ولحق بمكة فقال للنبي صلى الله عليه وسلم : من قتل ابن خطل فله الجنة » وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات من هذا الوجه . ونقل عن ابن معين تكذيب أصرم .

(٢) قال محمود : « أصل الغمرة ما يغمر من الماء فاستعيرت للشدة الغالبة ... الخ » قال أحمد : هو يجعله من مجاز التنبيل ، ولا حاجة إلى ذلك . والظاهر أنهم يفعلون معهم هذه الأمور حقيقة على الصور الحكيمة ، وإذا أمكن البقاء على الحقيقة فلا معدّل عنها .

(٣) قوله « ولا أريم مكانى » أى أبرح . وفي الصحاح : رامه يرميه أى برحه . (ع)

(٤) عاد كلامه . قال : « وقيل معناه باسطو أيديهم عليهم بالعذاب ... الخ » قال أحمد : ومثله ( ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء ) .

الممتد المتطاوّل الذى ياحقهم فيه العذاب فى البرزخ والقيامة . والهون : الهوان الشديد . وإضافة العذاب إليه كقولك : رجل سوء يريد العراقة فى الهوان والتمكن فيه (عن آياته تستكبرون) فلا تؤمنون بها .

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءَ ۚ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

(فرادى) منفردين عن أموالكم وأولادكم وما حرصتم عليه ، وآثرتموه من دنياكم ، وعن أولادكم التى زعمتم أنها شفعاؤكم وشركاءكم (كما خلقناكم أول مرة) على الهيئة التى ولدتم عليها فى الانفراد (وتركتكم ماخوّلناكم) ما تقضانا به عليكم فى الدنيا ففسختم به عن الآخرة (وراء ظهوركم) لم ينفعكم ولم تحمّلوا منه نقيراً ولا قدتموه لأنفسكم (فيكم شركاء) فى استعبادكم ، لأنهم حين دعوهم آلهة وعبدوها ، فقد جعلوها لله شركاء فيهم وفى استعبادهم . وقرئ : فرادى ، بالثنتين . وفرد ، مثل ثلاث . وفردى ، نحو سكرى : فإن قلت : كما خلقناكم ، فى أى محل هو ؟ قلت : فى محل النصب صفة لمصدر جئتمونا ، أى مجئنا مثل خلقنا لكم (تقطع بينكم) وقع التقطع بينكم ، كما تقول : جمع بين الشئين ، تريد أوقع الجمع بينهما على إسناد الفعل إلى مصدره بهذا التأويل : ومن رفع فقد أسند الفعل إلى الطرف ، كما تقول : قوتل خلفكم وأمامكم . وفى قراءة عبد الله : لقد قطع ما بينكم .

إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَيُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾

(فالق الحب والنوى) بالنبات والشجر . وعن مجاهد : أراد الشقيين الذين فى النواة والحنطة (يخرج الحى من الميت) أى الحيوان ، والنامى من النطف . والبيض والحب والنوى (ويخرج) هذه الأشياء الميتة من الحيوان والنامى . فإن قلت : كيف قال (يخرج الميت من الحى) بلفظ اسم الفاعل ، بعد قوله (يخرج الحى من الميت) قلت : عطفه على فالق الحب والنوى ، لاعلى الفعل . ويخرج الحى من الميت : موقعه موقع الجملة المبينة لقوله (فالق الحب والنوى) لأن فلق الحب والنوى بالنبات والشجر الناميين<sup>(١)</sup> من جنس إخراج الحى من الميت ، لأن النامى

(١) قال محمود : « معناه فالق الحب والنوى بالنبات والشجر ... الخ » قال أحمد رحمه الله : وقد ورد جميعاً بصيغة الفعل كثيراً فى قوله : (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ويحيى الأرض بعد =

في حكم الحيوان. ألا ترى إلى قوله (يحيى الأرض بعد موتها)، (ذلكم الله) أى إذكلكم المحيى والمميت هو الله الذى تحق له الربوبية (فأنى توفكون) فكيف تصرفون عنه وعن توليه إلى غيره .

فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ

الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . (٩٦)

(الإصباح) مصدر سمي به الصبح . وقرأ الحسن بفتح الهمزة جمع صبح ه وأنشد قوله :

أَغْنَى رَبًّا حَا وَبَنَى رَبًّا حِ تَنَاسُخُ الْإِمَاءِ وَالْإِصْبَاحِ (١)

بالكسر والفتح مصدرين ، وجمع مساء وصبح . فإن قلت : فما معنى فلق الصبح ، والظلمة (٢) هى التى تنفلق عن الصبح ، كما قال :

== موتها وكذلك تخرجون ) وقوله ( أمن بك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ) تعطف أحد القسمين على الآخر كثيراً دليل على أهمها توأمان مقرنان ، وذلك يبعد قطعه عنه فى آية الأنعام هذه ورده إلى فائق الحب والنوى ، فالوجه - والله أعلم - أن يقال : كان الأصل وروده بصيغة اسم الزاعل أسوة أمثاله من الصفات المذكورة فى هذه الآية من قوله ( فائق الحب ) و ( فائق الإصباح ) و ( جاعل الليل ) و ( يخرج الحي من الميت ) إلا أنه عدل عن اسم الفاعل إلى الفعل المضارع فى هذا الوصف وحده ، وهو قوله ( يخرج الحي من الميت ) إرادة لتصوير إخراج الحي من الميت واستحضاره فى ذهن السامع ، وهذا التصوير والاستحضار إنما يتمكن فى أذهانهم بفعل المضارع دون اسم الفاعل والماضى . وقد مضى تمثيل ذلك بقوله تعالى ( ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فصبح الأرض غنظرة ) فعدل عن الماضى المطابق لقوله ( أنزل ) لهذا المعنى . ومنه ما فى قوله :

إِنِّي قَدْ لَقِيتُ الْقَوْلَ تَعْسَى

بسبب كالحقيقة مصداق

فَأَخَذَهُ فَأَخْرَبَهُ غَلَرْتُ

صريعاً للدين وللجرائ

فعدل إلى المضارع إرادة لتصوير شجاعته واستحضارها لذهن السامع . ومنه ( إنا نخرج الجبال مع يمين بالغي والاشراق والظلمة محشورة ) فعدل عن مسببات وإن كان مطابقاً لمحشورة بهذا السبب والله أعلم ، ثم هذا المقصد إنما يحى . فيما تكون العناية به أقوى ، ولا شك أن إخراج الحي من الميت أشهر فى القدرة من عكسه ، وهو أيضاً أول الخالين والظن أول ما يبدأ به ، ثم القسم الآخر وهو إخراج الميت من الحي ناشئ عنه . فكان الأول جديراً بالتصدير والتأكيد فى النفس ، ولذلك هو مقدم أبداً على القسم الآخر فى الذكر على حسب ترتيبهما فى الواقع ، وسهل عطف الاسم على الفعل ، وحسنه أن اسم الفاعل فى معنى الفعل المضارع ، فكل واحد منهما يقدر بالآخر ، فلا جناح فى عطائه عليه . والله أعلم .

(١) «رباح» أبوي من يروع ، ثم صار اسماً للحي . وروى بالتحية بدل الموحدة . والامساء . والإصباح : يرويان بكسر الهمزة على أنهما مصدران ، وبفتحهما جمع مساء وصباح . وظلام الليل ينسخ نور النهار ويؤزله وبالعكس . وإستاد الافناء إلى التناسخ مجاز عقل ، من باب الاستاد للزمان ، أو هو على اعتقاد الجاهلية فيكون حقيقة عندهم .

(٢) عاد كلامه . قال : « فإن قلت ما معنى فلق الصبح والظلمة وهى التى تنفلق .. الخ » قال أحد : وقيل الخالق والخالق بمعنى ، فيكون المراد خالق الإصباح . والأظهر ما قرره عليه المصنف ، والله أعلم .

تَرَدَّتْ بِهِ ثُمَّ أَتَقَرَّى عَنْ أَدِيمِهَا فَفَرَّى لَيْلٍ عَنْ يَبَاضِ نَهَارٍ<sup>(١)</sup>

قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يراد فائق ظلمة الإصباح، وهى الغبش فى آخر الليل، ومتقضاء الذى يلى الصبح. والثانى: أن يراد فائق الإصباح الذى هو عمود الفجر عن يباض النهار، إسفاره. وقالوا: انشق عمود الفجر. وانصدع الفجر. وسموا الفجر فلماً بمعنى مغلوق. وقال الطائى:

وَأَزْرَقُ الْفَجْرِ يَبْدُو قَبْلَ أَتْبَعِهِ وَأَوَّلُ الْغَيْثِ قَطْرُهُ ثُمَّ يَنْسَكِبُ<sup>(٢)</sup>

وقرى: فائق الإصباح، وجاعل الليل سكناً، بالنصب على المدح. وقرأ النخعى: فلق الإصباح وجعل الليل. السكن: ما يسكن إليه الرجل ويطمئن استئناساً به واسترواحاً إليه، من زوج أو حبيب. ومنه قيل للنار: سكن؛ لأنه يستأنس بها. ألا تراهم سموها المؤنسة، والليل يطمئن إليه التعب بالنهار لاستراحته فيه وجمامه. <sup>(٣)</sup> ويجوز أن يراد: وجعل الليل مسكوناً فيه من قوله لتسكنوا فيه (والشمس والقمر) قرنا بالحركات الثلاث، فالتنصب على إضمار فعل دل عليه

(١) كأن بقايا ماعنا من حبابها تفارق شيب فى سواد عذار  
تردت به ثم اتقري عن أديمها تفرى ليل عن يباض نهار

لأنى نواس يصف الخمر. يقول: كأن بقايا الذى هلك وذهب من قفائهما شيب أبيض متفرق فى عذار أسود؛ لأن كلا منهما أبيض منتشر فيما يخالف لونه، ولا يلزم من ذلك أنها سوداء كما يدل عليه ما بعده، ثم قال: تردت، أى استترت بالحجاب، فالتردى: استمارة للتستر، ثم اتقري: انشق وزال عن أديمها أى وجهها كتنفى الليل وانشقاق ظلامه عن يباض النهار، والجامع استتار كل بغيرها، ثم ظهوره بتفرق ذلك الغير فهو مركب. ولا يلزم من ذلك أن الحجاب أسود كالليل، والخمره يضاء كالنهار، وانظر كيف خيل أنه فى الأول أبيض وفى الثانى أسود وهى بالعكس. وهذا من المعجب الداعى للطرب. وفيه أنه يرى فى الأول أبيض معجبا، ثم تعرض عنه النفس وتريد الخمر، فيتخيل أنه مظلم، ثم ينكشف وتظهر هى يضاء. ترهقها صفرة، كالسما. وقت الاسفار.

(٢) هذى غايل برق خلفه مطر جود وورى زناد خلفه لب  
وأزرق الفجر يبدو قبل أبيضه وأول الغيث قطر ثم ينسكب

لأنى تسم. وقيل لليجرى. ووخايل، أضواء تتخيلها، أو تخيل إلينا المطر بعدها. والجود. فى الأصل - جمع جائد، كصحب وصاحب، وهو الكثير النافع. والورى: قدح الزند، والزناد جمعه، ككلب وكلاب، وقد يكون مفرداً ككتاب. يقول: إن أوائل الأمور تبدو قليلة ثم تكثر، فينبى الحرص من أول الأمر قبل بلوغه غايته فيكثر الضرر ويسر دونه، أو المعنى أنه ينهى الثانى إلى بلوغ المراد، فالكلام كله من باب التثيل. وروى

« وكاذب العمر يبدو قبل صادقه

وروى بعد هذا البيت:

ومثل ذلك وجد العاشقين هـ. بالمرح يبدو والادمان يلهب

ونسب لابن الرومى، أى الوجد فى أوله هوى وفى آخره نار، والادمان: الادامة.

(٣) قوله « وجمامه » أى راحته من التعب. وفى الصحاح « الجم » بالفتح -: الراحة. (ع)

(٤ - كشف - ٢)

جاعل الليل ، أى وجعل الشمس والقمر حساباً . أو يعطفان على محل الليل . فإن قلت كيف يكون ليل محل والإضافة حقيقية ، لأن اسم الفاعل المضاف إليه فى معنى المضى ، ولا تقول : زيد ضارب عمراً أمس ؟ قلت : ما هو فى معنى المضى ، وإنما هو دال على جعل مستمر فى الأزمنة المختلفة ، وكذلك فائق الحب ، وفائق الإصباح ، كما تقول : الله قادر عالم ، فلا تقصد زماناً دون زمان ، والجر عطف على لفظ الليل ، والرفع على الابتداء ، والخبر محذوف تقديره : والشمس والقمر مجعولان حساباً ، أو محسوبان حساباً . ومعنى جعل الشمس والقمر حساباً : جعلهما على حساب ، لأن حساب الأوقات يعلم بدورها وسيرهما . والحسبان - بالضم - : مصدر حسب ، كما أن الحسبان - بالكسر - مصدر حسب . ونظيره الكفران والشكران ( ذلك ) إشارة إلى جعلهما حساباً ، أى ذلك التسيير بالحساب المعلوم ( تقدير العزيز ) الذى قهرهما وسخرهما ( العليم ) بتدبيرهما وتدويرهما .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾

( فى ظلمات البر والبحر ) فى ظلمات الليل بالبر والبحر ، وأضافا إليهما للابستها لهما ، أو شبه مشتبهات الطرق بالظلمات .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ

لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾

من فتح قاف المستقر ، كان المستودع اسم مكان مثله أو مصدرأ . ومن كسرهما ، كان اسم فاعل والمستودع اسم مفعول . والمعنى : فلکم مستقر فى الرحم . ومستودع فى الصلب ، أو مستقر فوق الأرض ومستودع تحتها . أو فنكم مستقر ومنكم مستودع . فإن قلت : لم قيل ( يعلمون ) مع ذكر النجوم (١) و ( يفقهون ) مع ذكر إنشاء بنى آدم ؟ قلت كان إنشاء الإنس من نفس

(١) قال محمود : « إن قلت لم قيل مع ذكر النجوم يعلمون ... الخ » قال أحمد : لا يتحقق هذا التفاوت ولا سبيل إلى الحقيقة ، وما هذا الجواب إلا صناعى . والتحقيق أنه لما أريد فصل كلهما بفاصلة تنبها على استقلال كل واحدة منهما بالمقصود من الحجة ، كره فصلهما بفاصلتين متداويتين فى اللفظ ، لما فى ذلك من التكرار ، فعدل إلى فاصلة مخالفة تمهينا للنظم واتساقا فى البلاغة . ويحتمل وجها آخر فى تخصيص الأولى بالعلم والثانية بالفقه ، وهو أنه لما كان المقصود التعريض بمن لا يتدبر آيات الله ولا يعتبر بخلقاته ، وكانت الآية المذكورة أولا خارجة عن أنفس النظار ومنافية لها ، إذ النجوم والنظر فيها وعلم الحكمة الإلهية فى تدبيره لها أمر خارج عن نفس الناظر . ولا كذلك النظر فى إنشائهم من نفس واحدة وتقليباتهم فى أطوار مختلفة وأحوال متغيرة ، فانه نظر لا يمدو نفس



واحدة وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً ، فكان ذكر الفقه الذي هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له .

وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُنْتَشِبِهِ آ نَظُرُوا إِلَى مَنَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

(فأخرجنا به) بالماء (نبات كل شيء) نبات كل صنف من أصناف النامي ، يعني أن السبب واحد وهو الماء . والمسليات صنوف مفتنة ، كما قال (تسقي بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل) . (فأخرجنا منه) من النبات (خضرا) شيئاً غضاً أخضر . يقال أخضر وخضر ، كأعور وعور ، وهو ما تشعب من أصل النبات الخارج من الحبة (يخرج منه) من الخضر (حباً متراكباً) وهو السنبل . (قنوان) رفع بالابتداء . (من النخل) خبره . (من طلعتها) بدل منه ، كأنه قيل : وحاصلة من طلع النخل قنوان . ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً لدلالة أخرجنا عليه ، تقديره : ومخرجة من طلع النخل قنوان . ومن قرأ : يخرج منه حب متراكب ، كان (قنوان) عنده معطوفاً على حب . والقنوان : جمع قنو ، ونظيره : صنو وصنوان . وقرئ بضم القاف وبفتحا ، على أنه اسم جمع كركب : لأن فعلان ليس من زيادة التكرير (دانية) سهلة المجتئ

== الناظر ولا يتجاوزها ؛ فإذا تمهد ذلك . لجهل الانسان بنفسه وبأحواله وعدم النظر فيها والتفكر أبشع من جهله بالأمور الخارجة عنه كالنجوم والأفلاك ، ومقادير سيرها وتقلبها ، فلما كان الفقه أدنى درجات العلم ، إذ هو عبارة عن الفهم نقي من أبشع القيليين جهلاً ، وهم الذين لا يتبصرون في أنفسهم ، ونقي الأدنى أبشع من نقي الأعلى درجة يخص به أسوأ الفريقين حالا ، ويفقهون ههنا مضارع فقه الشيء بكسر القاف إذا فهمه ولو أدنى فهم ، وليس من فقه بعض القاف ؛ لأن تلك درجة عالية . ومعناه : صار فقيهاً . قاله المروى في معرض الاستدلال على أن فقه أنزل من علم . وفي حديث سلمان أنه قال - وقد سأله امرأة جاءته - : ففقت ، أي فهمت ، كالمتعجب من فهم المرأة عنه . وإذا قيل فلان لا يفقه شيئاً ، كان آدم في العرف من قوله : فلان لا يعلم شيئاً ، وكان معنى قوله : لا يفقه شيئاً ليست له أهلية الفهم وإن فهم . وأما قوله : لا يعلم ، فنأية نقي حصول العلم له . وقد يكون له أهلية الفهم والعلم لو يعلم . والذي يدل على أن التارك للفكرة في نفسه أجهل وأساء حالا ، من التارك للفكرة في غيره قوله تعالى ( وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون ) يخص التبصر في النفس بعد اندراجها فيها في الأرض من الآيات ، وأنكر على من لا يتبصر في نفسه إنكاراً مستأنفاً . وقولنا في أدراج الكلام أنه نقي العلم عن أحد الفريقين ونقي الفقه عن الآخر ، يعني بطريق التعريض ، حيث خص العلم بالآيات المفصلة والتفقه فيها بقوم ، فأشعر أن قوماً غيرهم لا علم عندهم ولا فقه ، والله الموفق . فتأمل هذا الفصل وإن طال بعض الطول ، فالنظر في الحسن غير مملول .

معرضة للقاطف ، كالشئ الداني القريب المتناول ؛ ولأن النخلة وإن كانت صغيرة ينالها القاعد فإنها تأتي بالثمر لا تنتظر الطول . وقال الحسن : دانية قريب بعضها من بعض . وقيل : ذكر القرية وترك ذكر البعيدة : لأن النعمة فيها أظهر وأدلّ بذكر القرية على ذكر البعيدة ، كقوله (سرايل تقيمكم الحز) . وقوله (وجنات من أعناب) فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد : وشم جنات من أعناب ، أى مع النخل . والثاني : أن يعطف على (قنوان) على معنى : وحاصلة ، أو وعرجة من النخل قنوان وجنات من أعناب ، أى من نبات أعناب . وقرئ (وجنات) بالنصب عطفاً على (نبات كل شئ) أى : وأخرجنا به جنات من أعناب ، وكذلك قوله (والزيتون والرقان) والاحسن أن ينتصبا على الاختصاص ، كقوله (والمقيمين الصلاة) لفصل هذين الصنفين (مشتبهاً وغير متشابه) يقال اشتبه الشيئان وتشابها ، كقولك استويا وتساويا . والافتعال والتفاعل يشتركان كثيراً . وقرئ : متشابهاً وغير متشابه . وتقديره : والزيتون متشابهاً وغير متشابه ، والرقان كذلك كقوله :

• كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدَيْ بَرِيًّا •

والمعنى : بعضه متشابه وبعضه غير متشابه ، فى القدر واللون والطعم . وذلك دليل على التعمد دون الإهمال (انظروا إلى ثمره إذا أثمر) إذا أخرج ثمره كيف يخرج ضئيلاً ضعيفاً لا يكاد ينتفع به . وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ . نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدّره ومدبره وناقله من حال إلى حال . وقرئ (وينعه) بالضم . يقال : ينعت الثمرة ينعاً وينعاً . وقرأ ابن محيصن : ويانه . وقرئ : وثمره ، بالضم .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ

وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾

إن جعلت (لله شركاء) مفعولى جعلوا . نصبت الجن بدلا من شركاء ، وإن جعلت (لله) لفوا كان (شركاء الجن) مفعولين قدم ثانيهما على الاول . فإن قلت : فما فائدة التقديم ؟ قلت : فائدته استعظام أن يتخذ الله شريك من كان ماسكاً أو جنياً أو إنسياً أو غير ذلك . ولذلك قدم اسم الله على الشركاء . وقرئ الجن بالرفع ، كأنه قيل : من هم ؟ فقيل : الجن . وبالجزء على الإضافة التى للتبيين . والمعنى أشركوهم فى عبادته ، لأنهم أطاعوهم كما يطاع الله . وقيل : هم الذين زعموا أن الله خالق الخير وكل نافع ، وإبليس خالق الشر وكل ضار (وخلقهم) وخلق الجاعلين لله شركاء . ومعناه : وعلموا أن الله خالقهم دون الجن ، ولم يمنعهم عليهم أن يتخذوا من لا يخلق

شريكا للخالق . وقيل : الضمير للجن . وقرئ : وخلقهم ، أى اختلاقهم الإفاك ، يعنى : وجعلوا لله خلقهم حيث نسبوا قبائحهم إلى الله فى قولهم ( والله أمرنا بها ) ، ( وخرقوا له ) وخلقوا له ، أى افترعوا له ( بنين وبنات ) وهو قول أهل الكتابين فى المسيح وعزير ، وقول قريش فى الملائكة يقال : خلق الإفاك وخرقه واختلقه واخترقه ، بمعنى : وسئل الحسن عنه فقال : كلمة عربية كانت العرب تقولها : كان الرجل إذا كذب كذبة فى نادى القوم يقول له بعضهم : قد خرقتها والله ، ويجوز أن يكون من خرق الثوب إذا شقه ، أى اشتقوا له بنين وبنات ، وقرئ : وخرقوا بالتشديد للتكثير ، لقوله ( بنين وبنات ) وقرأ ابن عمر وابن عباس رضى الله عنهما : وخرقوا له ، بمعنى : وزوروا له أولاداً لأن المزور محترف مغير للحق إلى الباطل ( بغير علم ) من غير أن يعلموا حقيقة ما قالوه من خطأ أو صواب ، ولكن رمية بقول عن عمى وجهالة . من غير فكر وروية .

بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنِّيْ أَبْكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾

( بديع السموات ) من إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، كقولك : فلان بديع الشعر ، أى بديع شعره . أو هو بديع فى السموات والأرض ، كقولك : فلان ثبت الغدر ، أى ثابت فيه ، والمعنى أنه عديم النظير والمثل فيها . وقيل : البديع بمعنى المبدع ، وارتفاعه على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أو هو مبتدأ وخبره ( أنى يكون له ولد ) أو فاعل تعالى : وقرئ بالجزر رداً على قوله ( وجعلوا لله ) أو على ( سبحانه ) . وبالتصويب على المدح ، وفيه إبطال الولد من ثلاثة أوجه ، أحدها : أن مبتدع السموات والأرض وهى أجسام عظيمة لا يستقيم أن يوصف بالولادة ، لأن الولادة من صفات الأجسام ، ومخترع الأجسام لا يكون جسماً حتى يكون والداً . والثانى : أن الولادة لا تكون إلا بين زوجين من جنس واحد وهو متعال عن مجانس ، فلم يصح أن تكون له صاحبة ، فلم تصح الولادة . والثالث : أنه ما من شيء إلا وهو خالقه والعالم به ، ومن كان بهذه الصفة كان غنياً عن كل شيء ، والولد إنما يطلبه المحتاج . وقرئ : ولم يكن له صاحبة ، بالياء . وإنما جاز للفصل كقوله :

• لَقَدْ وَلَدَ الْأَخْطِلَ أُمُّ سُوءٍ • (١)

(١) لقد ولد الأخطل أم سوء . على باب استه صلب وشام  
لجرير يهجو الأخطل . والأخطل : تصغير الأخطل . وأم سوء . بالاضافة : فاعل ، فكان حق القول  
التأنيث : لكن سوغ تركه الفصل بالمفعول . والا-2- يوصل الهمزة - الدبر . والصلب : جمع صليب . والشام  
اسم جمع شامة ، وهى العلامات والفوش . وكان الأخطل - وهو غياث بن غوث - من نصارى العرب . ويروى « على  
باب استه » أى الأم . وهو أقدم فى المعنى ، وأنتع فى هتك الحرمه .

ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾

(ذلكم) إشارة إلى الموصوف بما تقدم من الصفات، وهو مبتدأ وما بعده أخبار مترادفة وهي (الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء) أي ذلكم الجامع لهذه الصفات (فاعبدوه) مسبب عن مضمون الجملة على معنى: أن من استجمعت له هذه الصفات كان هو الحقيق بالعبادة فاعبدوه ولا تعبدوا من دونه من بعض خلقه. ثم قال (وهو على كل شيء وكيل) يعنى وهو مع تلك الصفات مالك لكل شيء من الارزاق والآجال، رقيب على الأعمال.

لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾

البصر: هو الجوهر اللطيف<sup>(١)</sup> الذى ركه الله فى حاسة النظر، به تدرك المبصرات. فالمعنى أن الأبصار لا تتعلق به ولا تدركه؛ لأنه متعال أن يكون مبصراً<sup>(٢)</sup> فى ذاته، لأن الأبصار إنما تتعلق بما كان فى جهة أصلاً أو تابعا، كالأجسام والحيات (وهو يدرك الأبصار) وهو للطف إدراكه للدركات يدرك تلك الجواهر اللطيفة التى لا يدركها مدرك (وهو اللطيف) يلطف عن أن تدركه الأبصار (الخبير) بكل لطيف فهو يدرك الأبصار، لا تطف عن إدراكه وهذا من باب اللطف.

قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا

بِحَفِيفٍ ﴿١٠٤﴾

(١) قال محمد: «البصر هو الجوهر اللطيف الذى ركه الله تعالى فى حاسة النظر به تدرك... الخ» قال أحد: وقد سلف الكلام على هذه الآية فى غير موضعها، لأن المصنف تعجل الكلام عليها قبيل، والذى يريد الآن أن الإدراك عبارة عن الاحاطة، ومنه: (قلنا أدركه الفرق) أى احاط به، و (إنا لمدركون) أى احاط بنا، ثالثى إذا عن الأبصار إحاطتها به عز وعلا لا مجرد الرؤية، ثم إما أن تقتصر على أن الآية لا تدل على مخالفتنا، أو نزيد فنقول: بدل لنا أن تخصيص الاحاطة بالنبي يشعر بطريق المقوم بثبوت ما هو أدنى من ذلك، وأقله مجرد الرؤية، كما أنا نقول: لا تنحيط به الأنفهام وإن كانت المعرفة بمجرد ما حصلت لكل مؤمن، فالاحاطة للعقل منفية كتنفى الاحاطة للحس، وما دون الاحاطة من المعرفة للعقل والرؤية للحس ثابت غير منقضى. ولم يذكر الزخشرى على إحالة الرؤية عقلا دليلا ولا شبهة فيحتاج إلى القدح فيه ثم معارضته بأدلة الجواز، ولكنه اقتصر على استبعاد أن يكون المرئى لا فى جهة، فيقتصر معه على إلزامه استبعاد أن يكون الموجود لا فى جهة إذ اتباع الهم ببعدهما جميعاً، والالتحاد إلى العقل يبطل هذا الهم ويجيزهما معاً. وهذا القدر كاف بحسب ما أورده فى هذا الوضع، والله الموفق.

(٢) قوله ولأنه متعال عن أن يكون مبصراً استحالته الرؤية مذهب المعتزلة، لظاهر هذه الآية. وجوازها مذهب أهل السنة لقوله تعالى (وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة) وكل يؤول مستند الآخر، وتحقيقه التوحيد. (ع)

﴿قد جاءكم بصائر من ربكم﴾ هو وارد على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نقوله (وما أنا عليكم بحفيظ) والبصيرة نور القلب الذي به يستبصر ، كما أن البصر نور العين الذي به تبصر أى جاءكم من الوحي ، والتثنية على ما يجوز على الله وما لا يجوز ما هو للقلوب كالْبصائر ﴿فمن أبصر﴾ الحق وآمن ﴿فلنفسه﴾ أبصر وإياها ثفع ﴿ومن عمى﴾ عنه فعلى نفسه عمى وإياها ضرّاً بالعمى ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها ، إنما أنا منذر والله هو الحفيظ عليكم .

وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِيُبَيِّنَنَّ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿وليقلوا﴾ جوابه مخدوف تقديره . وليقلوا درست تصريفها . ومعنى ﴿درست﴾ قرأت وتعلت . وقرئ : دارست ، أى دارست العلماء . ودرست بمعنى قدمت هذه الآيات وعفت كما قالوا : أساطير الأولين ، ودرست بضم الراء ، مبالغة في درست ، أى اشتد دروسها . ودرست - على البناء للفعول - بمعنى قرئت أو عفيت . ودارست . وفسروها بدارست اليهود محمداً صلى الله عليه وسلم ، وجاز الإضمار ؛ لأن الشهرة بالدراسة كانت لليهود عندهم . ويجوز أن يكون الفعل للآيات ، وهو لاهاها ، أى دارس أهل الآيات وحملتها محمداً ، وهم أهل الكتاب . ودرس أى درس محمد . ودارسات ، على : هى دارسات ، أى قديمات . أو ذات دروس ، كمشية راضية . فإن قلت : أى فرق بين اللامين في (ليقلوا) ، (ولنبيته) ؟ قلت : الفرق بينهما أن الأول مجاز والثانية حقيقة ، وذلك أن الآيات صرفت للتبيين ولم تصرف ليقولوا دارست ، ولكن لأنه حصل هذا القول بتصرف الآيات كما حصل التبيين ، شبه به فسق مساقه . و قيل : ليقولوا كما قيل لنبيته : فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله (ولنبيته) ؟ قلت : إلى الآيات لأنها في معنى القرآن ، كأنه قيل : وكذلك نصرف القرآن . أو إلى القرآن وإن لم يحرك له ذكر ، لكونه معلوماً إلى التبيين الذى هو مصدر الفعل ، كقولهم : ضربته زيدا . ويجوز أن يراد فيمن قرأ درست ودارست : درست الكتاب ودارسته ، فيرجع إلى الكتاب المقدر .

اتَّبِعْ مَا وَحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

﴿لا إله إلا هو﴾ اعتراض أكد به لإيجاب اتباع الوحي لا محل له من الإعراب . ويجوز أن يكون حالاً من ربك ، وهى حال مؤكدة كقوله (وهو الحق مصدقاً) .

وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

(ولا تسبوا) الآلهة (الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله) وذلك أنهم قالوا عند نزول قوله تعالى (إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم) لتنتهين عن سب آلهتنا أو لتنجون إلهك. وقيل: كان المسلمون يسبون آلهتهم، فنهوا لئلا يكون سبهم سبباً لسب الله تعالى. فإن قلت: سب الآلهة حق وطاعة، فكيف صح النهي عنه، وإنما يصح النهي عن المعاصي؟ قلت: رب طاعة علم أنها تكون مفسدة فتخرج عن أن تكون طاعة، فيجب النهي عنها لأنها معصية، لا لأنها طاعة كالنهي عن المنكر هو من أجل الطاعات، فإذا علم أنه يؤدي إلى زيادة الشر انقلب معصية، ووجب النهي عن ذلك النهي. كما يجب النهي عن المنكر. فإن قلت: فقد روى عن الحسن وابن سيرين أنهما حضرا جنازة فرأى محمد نساء فرجع، فقال الحسن: لو تركنا الطاعة لأجل المعصية لاسرع ذلك في ديننا. قلت: ليس هذا من نحن بصدده، لأن حضور الرجال الجنازة طاعة وليس بسبب لحضور النساء فإنهن يحضرنها حضر الرجال أو لم يحضروا، بخلاف سب الآلهة. وإنما خيل إلى محمد أنه مثله حتى نه عليه الحسن. (عدواً) ظلاً وعدواناً. وقرئ عدواً بضم العين وتشديد الواو بمعناه. يقال: هذا فلان عدواً وعدواً وعدواناً وعداء. وعن ابن كثير: عدواً، بفتح العين بمعنى أعداء (بغير علم) على جهالة بالله وبما يجب أن يذكر به (كذلك زيننا لكل أمة) مثل ذلك التزيين زيننا لكل أمة من أمة الكفار سوء عملهم، أو خليئانهم وشأنهم<sup>(١)</sup> ولم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم: أو أهملنا الشيطان حتى زين لهم أو زيناه في زعمهم. وقولهم إن الله أمرنا بهذا وزينه لنا (فينبئهم) فيؤنبهم عليه ويعاتبهم ويعاقبهم.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ دَاعِيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

(لئن جاءتهم آية) من مقترحاتهم (ليؤمنن بها، قل إنما الآيات عند الله) وهو قادر

(١) قوله: أو خليئانهم وشأنهم، فسر التزيين بذلك، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعتزلة، ويخلق الشر والخير عند أهل السنة. (ع)

عليها، ولكنه لا ينزلها الا على موجب الحكمة<sup>(١)</sup>. أو إنما الآيات عند الله لا عندى. فكيف أجيبكم إليها وآتيكم بها ﴿وما يشعركم﴾ وما يدريكم ﴿أنها﴾ أن الآية التي تقترحونها ﴿إذا جاءت لا يؤمنون بها﴾ يعنى أنا أعلم أنها إذا جاءت لا يؤمنون بها وأتم لا تدرون بذلك. وذلك أن المؤمنين كانوا يطمعون في إيمانهم إذا جاءت تلك الآية ويتمنون مجيئها. فقال عز وجل وما يدريكم أنهم لا يؤمنون. على معنى أنكم لا تدرون ماسبق على به من أنهم لا يؤمنون به. ألا ترى إلى قوله (كالم يؤمنوا به أول مرة) وقيل: وأنها، بمعنى، لعلها، من قول العرب: أئت السوق أنك تشتري لحماً. وقال امرؤ القيس:

عُوجًا عَلَى الطَّلَلِ الْمُجِيبِ لِأَنَّنَا نَبْكِي الدَّيَّارَ كَمَا بَكَى ابْنُ خُذَامِ<sup>(٢)</sup>

وتقويها قراءة أخرى: لعلها إذا جاءت لا يؤمنون. وقرئ بالكسر على أن الكلام قد تم قبله بمعنى: وما يشعركم ما يكون منهم، ثم أخبرهم بعله فيهم فقال: أنها إذا جاءت لا يؤمنون البتة. ومنهم

(١) قال محمود: «يعنى أن الله تعالى قادر على أن ينزل الآيات ولكنه لا ينزلها إلا على موجب الحكمة .. الخ. قال أحد: وحز النظر في الآية يتضح بمثل، فنقول: إذا قال لك القائل: وأكرم فلانا فانه يكافئك، وكنت أنت تعلم منه عدم المكافأة، فاذا أنكرت على المشير باكرامه قلت: وما يدريك أنى إذا أكرمه يكافئ؟ فأنكرت عليه إثباته المكافأة وأنت تعلم نفيها، فان انعكس الأمر فقال لك: ولا تكرمه فانه لا يكافئك، وكنت تعلم منه المكافأة فأنكرت على المشير بحرمانه قلت: وما يدريك أنه لا يكافئ؟ تريد: وأنا أعلم منه المكافأة، فكان مقتضى الانكار على المؤمنين الذين أحسنوا الظن بالمعادين فاعتقدوا أنهم يؤمنون عند نزول الآية المفترحة أن يقال: وما يدريك أنها إذا جاءت لا يؤمنون، كما تقول في المثال منكرًا على ن أثبت المكافأة وأنت تعلم خلافها، وما يدريك أنه يكافئ؟ باسقاط «لا» وإن أثبتنا انعكاس المعنى، إلى أن المعلوم لك الثبوت وأنت تنكر على من نفي، فلما جاءت الآية نفهم ببادى الراى أن الله تعالى علم الايمان منهم وأنكر على المؤمنين نفهم له الواقع على خلاف ذلك، اختلف العلماء، فعمل بعضهم «لا» على الويادة، وبعضهم أول «أن» بدل، وبعضهم جعل الكلام جواب قسم عذوف. وقد تفتح «أنت» بعد القسم فقال التقدير: والله أنها إذا جاءت لا يؤمنون. وأما الزمخشري فتفتن لبقاء الآية على ظاهرها وقرارها في نصائها من غير حذف ولا تأويل فقال قوله السالف، ونحن نوضح اطراذه في المثال المذكور ليتضح بوجهيه في الآية، فنقول: إذا حرمت زيدا لملكك بعدم مكاناته فأشير عليك بالاكرام بناء على أن المشير يظن المكافأة، ذلك معه حالتان: حالة تنكر عليه ادعاء العلم بما يعلم خلافه، وحالة أمذره في عدم العلم بما أحاط به علماً، فان أنكرت عليه قلت: وما يدريك أنه يكافئ؟ وإن عذرته في عدم علمه بأنه لا يكافئ قلت: وما يدريك أنه لا يكافئ؟ يعنى ومن أين تعلم أنت ما علمته أنا من عدم مكافأته وأنت لم تخبر أمره خبرى، فكذلك الآية، إنما ورد فيها الكلام، قائمة عند المؤمنين في عدم حلهم بالمغيب في علم الله تعالى وهو عدم إيمان هؤلاء، فاستقام دخول «لا» وتعين وتبين أن سبب الاضطراب التباس الانكار باقامة الأعذار. والله الموفق للصواب.

(٢) لامرؤ القيس. والعوج: عطف رأس البعير بالزام. والمحيل: الذى حال وتغير عن صفة الجدة إلى صفة الي، أو الذى أصابه المحل والافقار. هذا وفي الصحاح: أحال الشيء إذا أتى عليه المحول. ومنه الطلل المحيل، فهو اسم قاعل وهو الوجه، ولأنا: بفتح اللام والمهمزة، بمعنى لعلنا. قال في التسهيل: في لعل عشر لغات، وعد منها أن المفتوحة، ولأن. وابن خذام بمجنتين أول من بكى الديار من شعراء العرب، وكان طليبا حاذقا يضرب به المثل في الطب.

من جعل دلاء مزيدة في قراءة الفتح وقرئ: وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. أى يخلفون بأنهم يؤمنون عند مجيئها. وما يشعركم أن تكون قلوبهم حينئذ كما كانت عند نزول القرآن وغيره من الآيات مطبوعا عليها فلا يؤمنوا بها.

وَقَلَّبَ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرَهُمْ فِي

طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ١١٠

﴿ونقلب أفئدتهم.... ونذرهم﴾ عطف على يؤمنون، داخل في حكم وما يشعركم، بمعنى: وما يشعركم أنهم لا يؤمنون، وما يشعركم أنا نقلب أفئدتهم وأبصارهم: أى نطبع على قلوبهم وأبصارهم فلا يفقهون ولا يبصرون الحق كما كانوا عند نزول آياتنا. أولا يؤمنون بها لكونهم مطبوعا على قلوبهم، وما يشعركم أنا نذرهم في طغيانهم أى نخليهم وشأنهم لا تكفهم عن الطغيان حتى يعمهوا<sup>(١)</sup> فيه. وقرئ: ويقلب. وينذرهم بالياء أى الله عز وجل. وقرأ الأعشى: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم، على البناء للفعول.

وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ

شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ ١١١  
﴿ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة﴾ كما قالوا (لولا أنزل علينا الملائكة)، ﴿وكلهم الموتى﴾ كما قالوا: (فأنوا بآياتنا)، ﴿وحشرنا عليهم كل شيء قبلا﴾ كما قالوا (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا) قبلا كفلاء بصحة ما بشرنا به وأنذرنا، أو جماعات. وقيل (قبلا) مقابلة. وقرئ (قبلا) أى عيانا<sup>(٢)</sup> ﴿إلا أن يشاء الله﴾ مشيئة إكراه واضطرار<sup>(٣)</sup> ولكن أكثرهم يجهلون﴾ فيقسمون

(١) قوله «حتى يعمهوا فيه» أى يتحيروا. (ع)

(٢) قوله وقرئ قبلا أى عيانا، في الصحاح: رأيته قبلا وقبلا - بالضم - أى مقابلة وعيانا. ورأيت قبلا -

بكسر القاف - قال الله تعالى (أوأيأتهم العذاب قبلا) أى عيانا. (ع)

(٣) قال محمود: ومعناه إلا أن يشاء الله مشيئة إكراه واضطرار... الخ قال أحمد: بل المراد إلا أن يشاء الله منهم اختيار الإيمان، فانه تعالى لو شاء منهم اختيارهم الإيمان لا اختاروه وأمنوا حتما. ماشاء الله كان. والزعشرى نى على القاعدة الفاسدة في اعتقاده أن الله تعالى شاء منهم الإيمان اختياراً فلم يؤمنوا، إذ لا يجب على زعم طائفته نفوذ المشيئة، ولا يطلقون القول كما أطلقه سلف هذه الأمة وحلة شريعتها. من قولهم: ماشاء الله كادومالم يشأ لم يكن، بل يقولون إن أكثر ماشاء. لم يقع، إذ شاء الإيمان والصالح من جميع الخلق، فلم يؤمن ويعمل الصالح إلا القليل، وقليل مام. وهذا كله مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً، فإذا صدمتهم مثل هذه الآية بالرد تحيلوا في المدافعة بحمل المشيئة المنفية على مشيئة القسر والاضطرار، وإسمالم ينهم ذلك أن لو كان القرآن يتبع الآراء، وأما وهو القدوة والمتبوع، فما خالفه حينئذ وترجح عنه فال النار، وما بعد الحق إلا الضلال، والله الموفق للصواب.



بأنه جهد أيمانهم على ألا يشعروا من حال قلوبهم عند نزول الآيات . أو ولكن أكثر المسلمين يجهلون أن هؤلاء لا يؤمنون إلا أن يضطروهم فيطمعون في إيمانهم إذا جادت الآية المقترحة .

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ قَدْ زُكِّرْتُمْ وَمَا يَقْتَرُونَ ﴿١١٢﴾  
 ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا﴾ وكما خلدنا بينك وبين أعدائك ، كذلك فعلنا بين قبلك من الأنبياء وأعدائهم ، لم تمنعهم من العداوة ، لما فيه من الامتحان الذي هو سبب ظهور الثبات والصبر . وكثرة الثواب والأجر . وانتصب ﴿شياطين﴾ على البدل من عدوا . أو على أنهما مفعولان كقوله ﴿وجعلوا لله شركاء الجن﴾ ﴿يوحى بعضهم إلى بعض﴾ يوسوس شياطين الجن إلى شياطين الإنس . وكذلك بعض الجن إلى بعض وبعض الإنس إلى بعض . وعن مالك ابن دينار : إن شيطان الإنس أشد على من شيطان الجن ، لأنى إذا تعوذت بالله ذهب شيطان الجن عني ، وشيطان الإنس يجتنى فيجترى إلى المعاصي عيانا ﴿زخرف القول﴾ ما يزينه من القول والوسوسة والإغراء على المعاصي ويموهه ﴿غرورا﴾ خدعا وأخذاً على غرة ﴿ولو شاء ربك ما فعلوه﴾ ما فعلوا ذلك ، أى ما عادوك ، أو ما أوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول بأن يكفهم ولا يخلهم وشأنهم .

وَلِتَصْنَعِيَ إِلَهُهِ أَفْتَدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا

مَاهُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾

﴿ولتصنع﴾ جوابه محذوف تقديره : وليكون ذلك جعلنا لكل نبي عدوا ، على أن اللام لام الصيرورة وتحقيقها ماذكر . والضمير في ﴿إليه﴾ <sup>(١)</sup> يرجع إلى مارجع إليه الضمير في فعلوه ، أى ولتقبل إلى ما ذكر من عداوة الأنبياء ووسوسة الشياطين ﴿أفتدة﴾ الكفار ﴿وليَرْضوه﴾ لأنفسهم ﴿وليَقْتَرِفُوا ما هم مقترفون﴾ من الآثام .

أَفَقِيرَ اللَّهِ أَتَبَغَى حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَهُكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَمْكُونُ

مِنَ الْمُكْمَرِينَ ﴿١١٤﴾

(أفغير الله أبغى حكماً) على إرادة القول ، أى قل يا محمد : أفغير الله أطلب حاكماً يحكم بيني وبينكم ، ويفصل الحق منا من المبطل (هو الذى أنزل إليكم الكتاب) المعجز (مفصلاً) مبيناً فيه الفصل بين الحق والباطل ، والشهادة لى بالصدق وعليكم بالافتراء . ثم عصد الدلالة على أن القرآن حق بعلم أهل الكتاب أنه حق لتصديقه ما عندهم وموافقه له (فلا تكونن من الممترين) من باب التيسيع والإلهاب ، كقوله تعالى (ولا تكونن من المشركين) أو (فلا تكونن من الممترين) فى أن أهل الكتاب يعدلون أنه منزل بالحق ، ولا يريكم جحود أكثرهم وكفرهم به ، ويجوز أن يكون (فلا تكونن) خطاباً لكل أحد ، على معنى أنه إذا تعاضدت الأدلة على صحته وصدقه ، فايبنى أن يمتري فيه أحد . وقيل : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم خطاباً لأمته (١)

وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥)  
(وتمت كلمات ربك) أى تم كل ما أخبر به ، وأمر ونهى ، ووعده وأوعده (صدقا وعدلا) لا مبدل لكلماته (لا أحد يبدل شيئاً من ذلك) مما هو أصدق وأعدل . وصدقا وعدلا . نصب على الحال . وقرئ : كلمة ربك ، أى ما تكلم به . وقيل : هى القرآن .

وَأَن تَطِيعَ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦)

(وإن تطع أكثر من فى الأرض) أى من الناس أضلوك ، لأن الأكثر فى غالب الأمر يتبعون هواهم ، ثم قال (إن يتبعون إلا الظن) وهو ظنهم أن آباءهم كانوا على الحق فهم يقلدوهم (وإن هم إلا يخرصون) يقدرون أنهم على شىء . أو يكذبون فى أن الله حرم كذا وأحل كذا .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧)  
فَكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَتَمُّ اللَّهُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨)  
وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِّرَ أَتَمُّ اللَّهُ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرَرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنْ كَثِيرًا فَيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩)

وقرئ (من يضل) بضم الياء أى يضلله الله (فكلوا) مسبب عن إنكار اتباع المضلين ، الذين يحلون الحرام ويحرمون الحلال . وذلك أنهم كانوا يقولون للسليين : إنكم تزعمون أنكم تعبّدون الله ، فما قتل الله أحق أن تأكلوا مما قتلتهم ، فقيل للسليين : إن كنتم متحققين بالإيمان فكلوا (مما ذكر اسم الله عليه) خاصة دون ما ذكر عليه اسم غيره من آلهتهم أو مات حتف أنفه ، وما ذكر اسم الله عليه هو المذكي بسم الله (ومالكم ألا تأكلوا) وأى غرض لكم في أن لا تأكلوا (وقد فصل لكم) وقد بين لكم (ما حرم عليكم) بما لم يحرم وهو قوله (حرمت عليكم الميتة) وقرئ : فصل لكم ما حرم عليكم على تسمية الفاعل ، وهو الله عز وجل (إلا ما اضطررتم إليه) مما حرم عليكم فإنه حلال لكم في حال الضرورة (وإن كثيراً ليضلون) قرئ بفتح الياء وضمها ، أى يضلون فيحرمون ويحللون (بأهوائهم) وشهواتهم من غير تعلق بشريعة .

وَدَرُّوْا ظَهْرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنُهُ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُوْنَ الْإِثْمَ سَمُجَزَوْنَ بِمَا  
كَانُوا يَفْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾

(ظاهر الإثم وباطنه) ما علمتم منه وما أسررتم . وقيل : ما علمتم وما نويت . وقيل : ظاهره الزنا في الحوانيت ، وباطنه الصديقة في السر .

وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِمُؤْخُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَدِّدُواكُمْ . وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾  
(وإنه لفسق) الضمير راجع إلى مصدر الفعل الذى دخل عليه حرف النهى ، يعنى وإن الأكل منه لفسق . أو إلى الموصول على : وإن أكله لفسق ، أو جعل ما لم يذكر اسم الله عليه في نفسه فسقا . فإن قلت : قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل<sup>(١)</sup> ما لم يذكر اسم الله

(١) قال محمود : . إن قلت قد ذهب جماعة من المجتهدين إلى جواز أكل ما لم يذكر اسم الله عليه بنسيان أو عمد ... الخ ، قال أحد : مذهب مالك وأبي حنيفة . وإن متروك التسمية عمدا لا يؤكل . سواء كان نسيانا أو غير نسيان . ولا شبه قول شاذ بجواز غير المتهاون في ترك تسميته ، والآية تساعد مذهب الامامين مساعدة بيعة ، فإنه ذكر عقيب غير المسمى عليه قوله (وإنه لفسق) وذلك إن كان عبارة عن فعل المكلف وهو إهمال التسمية ، أو تسمية غير الله فلا يدخل النسيان ؛ لأن الناسي غير مكلف فلا يكون فعله فسقا ولا هو فاسق ، وإن كان نفس الفسق الذبيحة التى لم يسم عليها ولم يكن مصدرا ، فانما تسمى الذبيحة فسقا فلا لهذا الاسم من المصدر إلى الذات فالذبيحة التى تركت التسمية عليها نسيانا لا يدع أن تسمى فسقا ، إذ الفعل الذى ينقل منه هذا الاسم ليس بفسق ، فاذا تمهد ذلك فاما أن يقول : لا دليل في الآية على تحريم منسى التسمية ، فبقى على أصل الإباحة . أو يقول : فيها دليل على إباحته من حيث مفهوم تخصيصه الله بما هو فسق ، فالأصل بفسق ليس بفسق . وهذا النظر يستند إذا =

عليه بنسيان أو عمد . قلت : قد تأوله هؤلاء بالميتة وبما ذكر غير اسم الله عليه <sup>(١)</sup> : كقوله (أو فسقا أهل لغير الله به) ﴿ليوحون﴾ ليوسوسون ﴿إلى أوليائهم﴾ من المشركين ﴿ليجادلوكم﴾ بقولهم : ولا تأكلوا مما قتله الله . وبهذا يرجع تأويل من تأوله بالميتة ﴿إنكم لمشركون﴾ لأن من اتبع غير الله تعالى في دينه فقد أشرك به . ومن حق فدى البصيرة في دينه أن لا يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه كيفما كان ؛ لما يرى في الآية من التشديد العظيم ، وإن كان أبو حنيفة رحمه الله مرخصا في النسيان دون العمد ، ومالك والشافعي رحمهما الله فيهما

أَوْ مَنْ كَانَ مَوْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا نَجِيًّا مِنْهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾

مثل الذي هداه الله بعد الضلالة ومنحه التوفيق لليقين الذي يميز به بين الحق والمبطل والمهتدى والضال ، بمن كان ميتا فأحياه الله وجعل له نوراً يمشي به في الناس مستضيئاً به ، فيميز بعضهم من بعض ، ويفصل بين حلالهم ومن يبق على الضلالة بالخابط في الظلمات لا ينفك منها ولا يتخلص ومعنى قوله ﴿كن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾ كن صفته هذه وهي قوله (في الظلمات ليس بخارج منها) بمعنى : هو في الظلمات ليس بخارج منها ، كقوله تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون

== لم تكن الميتة متأولة في هذه الآية . وأما إذا أثبت أنها مرادة ، تعين صرف الفسق إلى الأكل والمأكول ، وكان الضمير من قوله (وإنه) عائداً إلى المصدر المنهي عنه ، أو إلى الموصول . وحديث يندرج المنسئ في النهي ولا يستقيم على أن الميتة مندرجة كاندراج المنسئ ، لأن الوجه الذي به تدرج الميتة هو الوجه الذي به يندرج المنسئ ، إذ يكون الفسق إما للأكل ، وإما للأكل نقلاً من الأكل ، ولا ينصرف إلى غير ذلك ، لأن الميتة لم يفعل المكلف فيها فعلاً يسمى فسقا سوى الأكل ، والمنسئ تسميتها لا يستقيم أن يسمى الذبح فيها فسقا لأجل النسيان ، فيتمتعين صرفه إلى الأكل . ومن ثم قوى عند الزحشرى نعمم التحريم حتى في المنسئ ، لأنه يرى أن الميتة مرادة من الآية ولا بد ، إذ هي سبب نزول الآية . والتحقق أن العام الظاهر متى ورد على سبب خاص كان نصاً في السبب ظاهراً باقياً على ظهوره فيما عداه . وإذا ثبت اندراج الميتة لوم اندراج المنسئ كما تقدم . وحديث يضار مبيع المنسئ إلى شخص ، فيتمسك بقوله عليه الصلاة والسلام وذكر الله على قلب كل مؤمن من سمى أو لم يسم ، وكان الناس ذاكراً حكماً وإن لم يكن ذاكراً وجوداً . وهذا عند التحقيق ليس بتخصيص ، ولكن منع لاندراج الناس في العموم وسنده الحديث المذكور . ويؤيد بأن العام الوارد على سبب خاص وإن قوى تأوله للسبب حتى يهض الظاهر فيه نصاً ، إلا أنه ضعيف التأول لما عداه حتى ينحط عن أمالي الظواهر فيه ، ويكتفي من معارضته بما لا يكتفي به منه لولا السبب ، وهذا البحث متطلع بفنون شتى على نكت بديمة ، والله الموفق للصواب .

(١) قوله وبما ذكر غير اسم الله عليه ، لعله داسم غير الله . (ع)

فيها أنهار) أى صفتها هذ، وهى قوله (فيها أنهار). ﴿زين للكافرين﴾ أى زينه الشيطان، أو الله عزّ وعلا على قوله (زيناً لهم أعمالهم) ويدل عليه قوله ﴿وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرمين﴾ يعنى: وكما جعلنا فى مكة صناديدها ليمكروا فيها، كذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرمين لذلك. ومعناه: خليانهم ليمكروا<sup>(١)</sup> وما كففناهم عن المكر، وخص الأكابر لأنهم هم الحاملون على الضلال والمالكرون بالناس، كقوله (أمرنا مترفياً) وقرئ: أكبر مجرمين، على قولك: هم أكبر قومهم، وأكابر قومهم ﴿وما يمكرون إلا بأنفسهم﴾ لأن مكرهم يحيق بهم. وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتقديم موعد بالنصرة عليهم. روى أن الوليد بن المغيرة قال: لو كانت النبوة حقاً لكانت أولى بهامتك، لأنى أكبر منك سنّاً وأكثرتك مالا. وروى أن أبا جهل قال: زاحنا بنى عبد مناف فى الشرف، حتى إذا صرنا كغرسى رهان قالوا: متا نبي يوحى إليه، والله لا نرضى به ولا تتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحى كما يأتى، فزلت. ونحوها قوله تعالى (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منسرة).

وَإِذَا جَاءَهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى تُؤْتِيَنَا مِنْ مِّثْلِ مَا أُوتِيَ رَسُولُ اللَّهِ أَلَمْ يَعْلَمِ حَقُّهُمْ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ  
بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿الله أعلم﴾ كلام مستأنف للإنكار عليهم، وأن لا يصطنى للنبوة إلا من علم أنه يصلح لها وهو أعلم بالمكان الذى يضعها فيه منهم ﴿سيصيب الذين أجرموا﴾ من أكابرها ﴿صغار﴾ وقامة<sup>(٢)</sup> بعد كبرهم وعظمتهم ﴿وعذاب شديد﴾ فى الدارين من الأسر والقتل وعذاب النار.

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَذَا صِرَاطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ لَّهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

(١) قوله «ومعناه خليانهم ليمكروا» أوله: لأنه تعالى لا يخاف الشر عند المعتزلة ويخلفه كالخير عند أهل السنة، وكذا قوله تعالى (ومن يرد أن يضله... الخ) (وكذلك نولى بعض الظالمين بعضاً) (ع)  
(٢) قوله وقامة، أى ذل، (ع)

﴿فمن يرد الله أن يهديه﴾ أن يطف به ولا يريد أن يطف إلا بمن له لطف ﴿يشرح صدره للإسلام﴾ يطف به حتى يرغب في الإسلام وتسكن إليه نفسه ويحب الدخول فيه ﴿ومن يرد أن يضله﴾ أن يخذله ويخليه وشأنه <sup>(١)</sup>، وهو الذي لا لطف له ﴿يجعل صدره ضيقاً حرجاً﴾ يمنع ألطافه، حتى يقسو قلبه، ويذو عن قبول الحق وينسد فلا يدخله الإيمان. وقرئ (ضيقة) بالتخفيف والتشديد (حرجاً) بالكسر، وحرجاً - بالفتح - وصفاً بالمصدر ﴿كأنما يصعد في السماء﴾ كأنما يزاوّل أمراً غير ممكن، لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة، وتضييق عنه المقدرة. وقرئ: يصعد. وأصله يتصعد. وقرأ عبد الله: يتصعد. ويصاعد. وأصله: يتصاعد ويصعد، من صعد. ويصعد من أصد ﴿يجعل الله الرجس﴾ يعنى الخذلان ومنع التوفيق، وصفه بنقيض ما يوصف به التوفيق من الطيب. أو أراد الفعل المؤدى إلى الرجس وهو العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب ﴿وهذا صراط ربك﴾ وهذا طريقه الذى اقتضته الحكمة وعادته فى التوفيق والخذلان ﴿مستقيماً﴾ عادلاً مطراداً. وانتصابه على أنه حال مؤكدة كقوله (وهو الحق مصداقاً) ﴿لهم﴾ لقوم يذكرون ﴿دار السلام﴾ دار الله، يعنى الجنة أضافها إلى نفسه تعظيماً لها. أو دار السلامة من كل آفة وكدر ﴿عند ربهم﴾ فى ضمانه. كما تقول: لفلان عندى حق لا ينسى، أو ذخيرة لهم لا يعلون كنهها، كقوله (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين)، ﴿وهو وليهم﴾ مواليتهم ومحبتهم، أو ناصرهم على أعدائهم ﴿بما كانوا يعملون﴾ بسبب أعمالهم، أو متوليهم بحزاء ما كانوا يعملون

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا بِمَعْشَرٍ آخَرَ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨)

﴿ويوم نحشرهم﴾ منصوب بمحذوف، أى واذا كر يوم نحشرهم، أو ويوم نحشرهم قلنا ﴿يامعشر الجن﴾ أو ويوم نحشرهم وقلنا يامعشر الجن كان ما لا يوصف لفظاً عنه، والضمير لمن يحشر من الثقلين وغيرهم، والجن هم الشياطين ﴿قد استكبرتم من الإنس﴾ أضلتم منهم كثيراً أو جعلتموهم أتباعكم لحشر معكم منهم الجمل الفقير، كما تقول: استكبر الأمير من الجنود، واستكبر فلان من الأشياء ﴿وقال أولياؤهم من الإنس﴾ الذين أطاعوهم واستمعوا إلى وسوستهم ﴿ربنا استمتع بعضنا ببعض﴾ أى اتفع الإنس بالشياطين حيث دلّوهم على الشهوات

(١) قوله «أن يخليه وشأنه» فسر الاخلال بذلك، لأنه تعالى لا يفعل «شئ» عند المعثرة. أما عند أهل السنة فيفعله كالخير، وكذا يقال فى قوله «يمنعه أطفافه». (غ)

وعلى أسباب التوصل إليها ، وانتفع الجن بالإنس حيث أطاعوهم وساعدوهم على مرادهم وشهوتهم في إغوائهم ، وقيل استمتع الإنس بالجن ما في قوله ( وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن ) وأن الرجل كان إذا نزل وادياً وخاف قال : أعوذ برب هذا الوادي ، يعني به كبير الجن . واستمتع الجن بالإنس : اعترف الإنس لهم بأنهم يقدرون على الدفع عنهم وإجارتهم لهم ﴿ وبلغنا أجلتنا الذي أجلت لنا ﴾ يعنون يوم البعث . وهذا الكلام اعتراف بما كان منهم من طاعة الشياطين واتباع الهوى والتكذيب بالبعث واستسلام لرهبهم وتحسر على حالهم ﴿ خالدين فيها إلا ما شاء الله ﴾ أى يخلدون في عذاب النار الأبد كله <sup>(١)</sup> ، إلا ما شاء الله ، إلا الأوقات التي ينقلون فيها من عذاب النار إلى عذاب الزمير ، فقد روى أنهم يدخلون وادياً فيه من الزمير ما يميز بعض أوصالهم من بعض ، فيتعاونون ويطلبون الرد إلى الجحيم . أو يكون من قول الموتور <sup>(٢)</sup> الذي ظفر بواتره ولم يزل يحرق عليه أنيابه وقد طلب إليه أن ينفس عن خنقه . أهلكنى الله إن نفست عنك إلا إذا شئت ، وقد علم أنه لا يشاء إلا التشنى منه بأقصى ما يقدر

(١) قال محمود : « معنى هذا الاستثناء أنهم يخلدون في عذاب النار الأبد كله ... الخ ، قال أحمد : قد ثبت خلود الكفار في العذاب ثبوتاً قطعياً ، فن تم اعنى العلماء بالكلام على الاستثناء في هذه الآية وفي أختها في سورة هود ، فذهب بعضهم إلى أنها شاملة لعصاة الموحدين وللكفار ، والمستثنى العصاة لأنهم لا يخلدون ، وهذا تأويل أهل السنة . وقد غلط الزمخشري في إنكاره في آية هود وتناهى إلى ما نموذ بالله منه ، فقدح في عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه راوى الحديث الشاهد لهذا التأويل ، ونحن نبرأ إلى الله تعالى من القدح في مثل عبد الله وهو من جلة الصحابة رضوان الله عليهم وفقهائهم وزهادهم . وذهب بعضهم إلى أن هذا الاستثناء محدود بمشقة رفع العذاب ، أى يخلدون إلا أن يشاء الله لو شاء . وقادته إظهار القدرة والاعلان بأن خلودهم إنما كان لأن الله تعالى قد شامه ، وكان من الجائر العقلى في مشيئته أن لا يعذبهم ، ولوعذبهم لا يخلدهم ، وأن ذلك ليس بأمر واجب عليه وإنما هو مقتضى مشيئته وإرادته عز وجل . وفيها على هذا الوجه دفع في صدر المعتزلة الذين يزعمون أن تخليد الكفار واجب على الله تعالى بمقتضى الحكمة ، وأنه لا يجوز في العقل أن يشاء خلاف ذلك . وذهب الزجاج إلى وجه لطيف إنما يظهر بالبسط فقال : المراد - والله أعلم - إلا ما شاء من زيادة العذاب ، ولم يبين وجه استقامة الاستثناء ، والمستثنى على هذا التأويل لم يغير المستثنى منه في الحكم ، ونحن نبيته فنقول : العذاب - والعياذ بالله - على درجات متفاوتة ، فكان المراد أنهم يخلدون في جنس العذاب ، إلا ما شاء ربك من زيادة تبلغ الغاية وتنتهى إلى أقصى النهاية ، حتى تكاد بلوغها الغاية ومبايعتها لأنواع العذاب في الشدة تعد ليس من جنس العذاب وغارجة عنه ، والثى إذا بلغ الغاية عندهم عبروا عنه بالصد كما تقدم في التعبير عن كثرة الفعل برب وقد ، وهما موضوعان لضرر الكثرة من القلة ، وذلك أمر يمتد في لغة العرب . وقد حام أبو الطيب حوله فقال :

لقد جدت حتى كاد يبخل حاتم إلى المنتهى ومن السرور يكاد

فكان هؤلاء إذا بلغوا إلى غاية العذاب ونهاية الشدة فقد وصلوا إلى الحد الذى يكاد أن يخرج من اسم العذاب المطلق ، حتى يسوغ معاملته في التعبير بمعاملة المغاير ، وهو وجه حسن لا يكاد يفهم من كلام الزجاج إلا بعد هذا البسط . وفي تفسير ابن عباس رضى الله عنه ما يؤيده . والله الموفق .

(٢) قوله « قول الموتور » الموتور : المظلوم . (ع)

عليه من التعنيف والتشديد، فيكون قوله: إلا إذا شئت، من أشد الوعيد، مع تهكم بالموعود لخروجه في صورة الاستثناء الذي فيه إطماع ﴿إن ربك حكيم﴾ لا يفعل شيئاً إلا بموجب الحكمة ﴿عليم﴾ بأن الكفار يستوجبون عذاب الأبد.

وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿نولي بعض الظالمين بعضاً﴾ نخليهم حتى يتولى بعضهم بعضاً كما فعل الشياطين وغواة الإنس، أو يجعل بعضهم أولياء بعض يوم القيامة وقرانهم كما كانوا في الدنيا ﴿بما كانوا يكسبون﴾ بسبب ما كسبوا من الكفر والمعاصي.

بَشِّرِ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا شَٰهِدْنَا عَلَىٰ أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ نَفْسَهُمُ الْحَيٰوةَ الدُّنْيَا وَشَٰهَدُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٣٠﴾

يقال لهم يوم القيامة على جهة التوبيخ ﴿ألم يأتكم رسل منكم﴾ واختلف في أن الجن هل بعث إليهم رسل منهم، فتعلق بعضهم بظاهر الآية ولم يفرق بين مكلفين ومكلفين أن يبعث إليهم رسول من جنسهم، لأنهم به آنس وله آلف. وقال آخرون: الرسل من الإنس خاصة، وإنما قيل رسل منكم لأنه لما جمع الثقلان في الخطاب صحَّ ذلك وإن كان من أحدهما، كقوله (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) وقيل: أراد رسل الرسل من الجن إليهم، كقوله تعالى (ولوا إلى قومهم منذرين) وعن الكلبي: كانت الرسل قبل أن يبعث محمد صلى الله عليه وسلم يبعثون إلى الإنس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الإنس والجن ﴿قالوا شهدنا على أنفسنا﴾ حكاية لتصديقهم وإيجابهم قوله (ألم يأتكم) لأن الهمزة الداخلة على نفى إتيان الرسل للإنكار، فكان تقريراً لهم. وقولهم (شهدنا على أنفسنا) إقرار منهم بأن حجة الله لازمة لهم، وأنهم محجوجون بها. فإن قلت: ما لهم مقرين في هذه الآية جاحدين في قوله (والله ربنا ما كنا مشركين)؟ قلت: تتفاوت الأحوال والمواطن في ذلك اليوم المتطاوّل، فيفترون في بعضها، ويحجدون في بعضها أو أريد شهادة أيديهم وأرجلهم وجلودهم حين يحتم على أفواههم. فإن قلت: لم كثر ذكر شهادتهم على أنفسهم؟ قلت: الأولى حكاية لقولهم كيف يقولون ويعترفون؟ والثانية: ذم لهم، وتخطئة لرأيهم، ووصف لقلّة نظرهم لأنفسهم، وأنهم قوم غرّبهم الحياة الدنيا واللذات الحاضرة، وكان عاقبة أمرهم أن اضطروا إلى الشهادة على أنفسهم بالكفر والاستسلام لربهم واستيجاب عذابه وإنما قال ذلك تحذيراً للسامعين من مثل حالهم.



ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣١﴾  
وَلِكُلِّ دَرَجَةٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾

(ذلك) إشارة إلى ما تقدم من بعثة الرسل إليهم وإنذارهم سوء العاقبة ، وهو خبر مبتدأ محذوف : أى الأمر ذلك . و﴿ألم يكن ربك مهلك القرى﴾ تعليل ، أى الأمر ما قصصناه عليك لاتقاء كون ربك مهلك القرى بظلم ، على أن ، وأن ، هى التى تنصب الأفعال . ويجوز أن تكون مخففة من الثقيلة ، على معنى : لأن الشأن والحديث لم يكن ربك مهلك القرى بظلم . ولك أن تجعله بدلا من ذلك ، كقوله (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع) ، ﴿بظلم﴾ بسبب ظلم قدموا عليه . أو ظالما ، على أنه لو أهلكتهم وهم غافلون لم يذنبوا برسول وكتاب ، لكان ظلما . وهو متعال عن الظلم وعن كل قبيح ﴿ولكل﴾ من المكلفين ﴿درجات﴾ منازل ﴿بما عملوا﴾ من جزاء أعمالهم ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ بساء عنه يخفى عليه مقاديره وأحواله وما يستحق عليه من الأجر .

وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ ءَاخِرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَاتُوا وَعَدُونَ لَأَتِي وَمَا أَنْتُمْ

بُغْفِيزِينَ ﴿١٣٤﴾

(وربك الغنى) عن عباده وعن عبادتهم ﴿ذو الرحمة﴾ يترحم عليهم بالتكليف ليعرضهم للنافع الدائمة ﴿إن يشأ يذهبكم﴾ أيها العصاة ﴿ويستخلف من بعدكم ما يشاء﴾ من الخلق المطيع ﴿كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين﴾ من أولاد قوم آخرين لم يكونوا على مثل صفتكم ، وهم أهل سفينة نوح عليه السلام .

قُلْ يَتَقَوَّمْ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَاتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ

صَفِيَّةُ آلِدَارٍ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ﴿١٣٥﴾

المكانة ، تكون مصدرا يقال : مكن مكانة إذا تمكن أبلغ التمكن . وبمعنى المسكن ، يقال : مكان ومكانة ، ومقام ومقامة . وقوله ﴿اعملوا على مكاتكم﴾ يعمل : عملوا على تمكنكم من أمركم وأقصى استطاعتكم وإمكانكم . أو اعملوا على جهتكم وحالكم التى أتم عليها . يقال للرجل إذا

أمر أن يثبت على حاله : على مكانتك يا فلان ، أى اثبت على ما أنت عليه لا تنحرف عنه ( إلى عامل ) أى عامل على مكاتى التى أنا عليها . والمعنى اثبتوا على كفركم وعداوتكم لى ، فإنى ثابت على الإسلام وعلى مصابرتكم ( فسوف تعلقون ) أىنا تكون له العاقبة المحموده . وطريقه هذا الامر طريقه قوله ( اعملوا ما شئتم ) وهى التخليه ، والتسجيل على المأمور <sup>(١)</sup> بأنه لا يأتى منه إلا الشر ، فكأنه مأمور به وهو واجب عليه حتم ليس له أن يتفمى عنه ويعمل بخلافه . فإن قلت : ما موضع ( من ) ؟ قلت الرفع إذا كان بمعنى « أى ، وعلق ، عنه فعل العلم . أو النصب إذا كان بمعنى « الذى ، و ( عاقبة الدار ) العاقبة الحسنى التى خلق الله تعالى هذه الدار لها . وهذا طريق من الإنذار لطيف المسلك ، فيه إنصاف فى المقال وأدب حسن ، مع تضمن شدة الوعيد ، والوثوق بأن المنذر محق والمنذر مبطل .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ  
وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ

يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾

كانوا يعينون أشياء من حرث وتاج لله ، وأشياء منها لأهلهم : فإذا رأوا ما جعلوه لله زاكياً نامياً يزيد فى نفسه خيراً رجعوا فجعلوه للآلهه ، وإذا زكاً ما جعلوه الأصنام تركوه لها واعتلوا بأن الله غنى ، وإنما ذاك لحبهم آلهتهم وإيثارهم لها : وقوله ( مما ذرأ ) فيه أن الله كان أولى بأن يجعل له الزاكى ، لأنه هو الذى ذرأه وزكاه ، ولا يرد إلى ما لا يقدر على ذره ولا تزكية ( بزعمهم ) وقرئ بالضم ، أى قد زعموا أنه لله والله لم يأمرهم بذلك ولا شرع لهم تلك القسمة التى هى من الشرك ، لأنهم أشركوا بين الله وبين أصنامهم فى القربة ( فلا يصل إلى الله ) أى لا يصل إلى الوجوه التى كانوا يصرفونه إليها من قرى الضيفان والتصدق على المساكين ( فهو يصل إلى شركائهم ) من إنفاق عليها بذبح النسائك عندها والإجراء على سدتها ونحو ذلك ( ساء ما يحكمون ) فى إيثار آلهتهم على الله تعالى وعلمهم ما لم يشرع لهم .

وَكَذَلِكَ زَيْنَ الْكَثِيرِ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائُهُمْ لِيُزْدُوهُمْ

وَلِيَأْخُذُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾

(١) قوله والتسجيل على المأمور ، فى الصحاح والسجل ، الصك . وقد سجل الحاكم تسجيلاً . وفيه أيضاً : هي مجلة لأب والفاجر . قال الأصمعي : أى مرسله ، يقال أسجلت الكلام أى أرسلته . (ع)

(وكذلك) ومثل ذلك التزيين وهو تزيين الشرك في قسمة القربان بين الله تعالى والآلهة، أو ومثل ذلك التزيين البليغ<sup>(١)</sup> الذي هو علم من الشياطين. والمعنى: أن شركاءهم من الشياطين، أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم<sup>(٢)</sup> بالوآد، أو بنجرهم للآلهة وكان الرجل في الجاهلية

(١) قوله «ومثل ذلك التزيين البليغ الذي» لعله التزيين الذي . (ع)

(٢) قال محمود: والمعنى أن شركاءهم من العياطين أو من سدنة الأصنام زينوا لهم قتل أولادهم... الخ. قال أحد رحمه الله: لقد ركب المصنف في هذا الفصل متن عجايب، وتناه في تنها. وأنا أبدأ إلى الله وأبرئ حلة كتابه وحفظه كلامه بما رامهم به «فانه تخيل أن القراء أئمة الوجوه السبعة اختار كل منهم حرفاً قرأ به اجتهداً، لا نقلاً وسامعاً فلذلك غلط ابن عامر في قراءته هذه، وأخذ يبين أن وجه غلطه رويته الياء ثابتة في شركائهم، فاستدل بذلك على أنه مجرور، وتعين عنده نصب أولادهم بالقياس، إذ لا يضاف المصدر إلى أمرين معاً فقرأه منصوباً، قال المصنف: وكانت له مندوحة عن نصبه إلى جرهم بالإضافة وإبدال الشركاء منه، وكان ذلك أولى مما ارتكبه يعني ابن عامر من الفصل بين المضاف والمضاف إليه الذي يسمج في الشعر فضلاً عن النثر فضلاً عن المعجز. فهذا كله كما ترى ظن من الزخشرى أن ابن عامر قرأ قراءته هذه رأياً منه، وكانت الصواب خلافه والفصيح سواء، ولم يعلم الزخشرى أن هذه القراءة بنصب الأولاد والفعل بين المضاف والمضاف إليه، بما يعلم ضرورة أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأها على جبريل كما أنزلها عليه كذلك، ثم تلاها النبي صلى الله عليه وسلم على عدد التواتر من الأئمة، ولم يزل عدد التواتر يتناقلونها ويقرؤون بها خلفاً عن سلف، إلى أن انتهت إلى ابن عامر فقرأها أيضاً كما سمعها. فهذا معتقد أهل الحق في جميع الوجوه السبعة أنها متواترة جملة وتفصيلاً عن أفصح من نطق بالاضداد صلى الله عليه وسلم. فإذا علت العقيدة الصحيحة فلا مبالاة بعدها بقول الزخشرى، ولا يقول أمثاله عن لحن ابن عامر، فان المنكر عليه إنما أنكر ما ثبت أنه براء منه قطعاً وضرورة. ولولا عذر أن المنكر ليس من أهل الشأنين، أعني علم القراءة وعلم الأصول، ولا يعد من ذوى الفنين المذكورين، لحيف عليه الخروج من ربة الدين. وأنه على هذا العذر لني عهداً خطرة وزلة منكراً تزيد على زلة من ظن أن تفاصيل الوجوه السبعة فيها ما ليس متواتراً، فان هذا القائل لم يثبتها بغير النقل. وغايته أنه ادعى أن نقلها لا يشترط فيه التواتر. وأما الزخشرى فظن أنها تثبت بالرأى غير موقوفة على النقل. وهذا لم يقل به أحد من المسلمين. وماحله على هذا الخيال الإلتغالي في اعتقاد أطراف الأفيسة النحوية، فظناً فطرية حتى يرد ما خلفها، ثم إذا ثبوت معه على أطراف القياس الذي ادعاه مطرداً، فقرأه ابن عامر هذه لا تخالفه. وذلك أن الفصل بين المضاف والمضاف إليه وإن كان عسراً، إلا أن المصدر إذا أضيف إلى معموله فهو مقدر بالفعل، وهذا التقدير عمل، وهو أن لم تكن إضافته غير محضة، إلا أنه شبه بما لإضافته غير محضة حتى قال بعض النحاة: إن إضافته ليست محضة لذلك. فالحاصل أن اتصاله بالمضاف إليه ليس كاتصال غيره. وقد جاء الفصل بين المضاف غير المصدر وبين المضاف إليه بالظرف، فلا أقل من أن يمين المصدر على غيره لما يبينه من انفساك في التقدير وعدم توغله في الاتصال بأن يفصل بينه وبين المضاف إليه بما ليس أجنبياً عنه، وكأنه بالتقدير فكك بالفعل، ثم قدم المفعول على الفاعل وأضافه إلى الفاعل وبقي المفعول مكانه حين الفك، وبسبب ذلك أيضاً تباير حال المصدر، إذ تارة يضاف إلى الفاعل وتارة يضاف إلى المفعول. وقد التزم بعضهم اختصاص الجواز بالفصل بالمفعول بينه وبين الفاعل لوقوعه في غير مرتبته، إذ ينوي به التأخير، فكأنه لم يفصل، كما جاز تقدم المضمرة على الظاهر إذا حل في غير رتبته، لأن الآية به التأخير. وأنشد أبو عبيدة: فداهم دوس الحصاد الدائس .

وأنشد أيضاً: يفركن حب الحنبل الكناجج بالقاع فرك القطن المحالج

فصل كما ترى بين المصدر وبين الفاعل بالمفعول. وما يقوى عدم توغله في الإضافة جواز العطف على موضع مخفوضه رفماً ونصباً، فهذه كلها نكت مؤيدة بقواعد منظرة. بشواهد من أفيسة العربية. تجمع شمل القوانين =

يحلف : لئن ولد له كذا غلاماً لينحرن أحدهم ، كما حلف عبد المطلب . وقرئ : زين ، على البناء للفاعل الذى هو شركاؤهم ، ونصب (قتل أولادهم) وزين ، على البناء للمفعول الذى هو القتل ، ورفع شركاؤهم بإضمار فعل دل عليه زين ، كأنه قيل : لما قيل زين لهم قتل أولادهم من زينه ؟ قيل : زينه لهم شركاؤهم . وأما قراءة ابن عامر : قتل أولادهم شركائهم برفع القتل ونصب الأولاد وجر الشركاء على إضافة القتل إلى الشركاء ، والفصل بينهما بغير الظرف ، فشىء لو كان فى مكان الضرورات وهو الشعر . لكان سمجاً مردوداً . كما سمح ورد .

### • زَجَّ الْقُلُوصِ أَبِي مَزَادَةَ • (١)

فكيف به فى الكلام المنشور ، فكيف به فى القرآن المعجز بحسن نظمه وجزالته . والذى حمله على ذلك أن رأى فى بعض المصاحف شركائهم مكتوباً بالياء . ولو قرأ بجر الأولاد والشركاء . لأن الأولاد شركاؤهم فى أموالهم . لوجد فى ذلك مندوحة عن هذا الارتكاب ( ليردوهم ) ليهلكوهم بالإغواء ( وليلبسوا عليهم دينهم ) وليخلطو ، عليهم ويشبهوه . ودينهم : ما كانوا عليه من دين إسماعيل عليه السلام حتى زلوا عنه إلى الشرك . وقيل : دينهم الذى وجب أن يكونوا عليه . وقيل : معناه وليوقعوهم فى دين ملتبس . فان قلت : ما معنى اللام ؟ قلت : إن كان التزيين من الشياطين فهى على حقيقة التعليل ، وإن كان من السدنة فعلى معنى الصيرورة ( ولو شاء الله ) مشيئة قسر ( ما فعلوه ) لما فعل المشركون ما زين لهم من القتل . أو لما فعل الشياطين أو السدنة التزيين أو الإرداء أو اللبس أو جميع ذلك ، إن جعلت الضمير جارياً بجرى اسم الإشارة ( وما يفترون ) وما يفترونه من الإفك . أو واقتراؤهم .

وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَمٌ وَحَرِثٌ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَمٌ لَا يَذْكُرُونَ أَسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا آفِرَاءٌ عَلَيْهِمْ سَوَاجِرُهُمْ  
بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨)

== التحوية لهذه القراءة ، وليس غرضنا تصحيح القراءة بقواعد العربية ، بل تصحيح قواعد العربية بالقراءة . وهذا القدر كاف إن شاء الله فى الجمع بينهما والله الموفق . وما أجريناه فى أدراج الكلام من تقريب إضافة المصدر من غير المحضة ، إنما أردنا انضمامه إلى غيره من الوجوه التى يدل باجتماعها على أن الفصل غير منكر فى إضافته ، ولا مستبعد من القياس ، ولم يفرده فى الدلالة المذكورة اذ المتفق على عدم تمحصها لا يسوغ فيها الفصل ، فلا يمكن استقلال الوجه المذكور بالدلالة ، والله الموفق .

(١) فرجبتها بمزجة زج القلوص أبى مزاده

الزج : العطن : والمزجة : الرخ القصير . لأنه آلة للزج . والقلوص : الناقة الشابة ، وهو مفعول فاصل بين المضاف والمضاف إليه شذوذاً . يقول : قطعنت الناقة أو الجماعة برخ قصير ، كطعن أبى مزادة القلوص فى السير .

(حجر) فعل بمعنى مفعول كالذبح والطحن ، ويستوى في الوصف به المذكر والمؤنث والواحد والجمع ؛ لأن حكمه حكم الاسماء غير الصفات : وقرأ الحسن وقتادة (حجر) بضم الحاء . وقرأ ابن عباس : حرج ، وهو من التضيق وكانوا إذا عينوا أشياء من حرثهم وأنعامهم لآلهتهم قالوا (لا يطعمها إلا من نشاء) يعنون خدام الأوثان ، والرجال دون النساء (وأنعام حُرِّمَتْ ظهورها) وهى البحائر والسوائب والحوامى (وأنعام لا يذكرن اسم الله عليها) فى الذبح ، وإنما يذكرن اسم الله عليها الأصنام . وقيل : لا يحجون عليها ولا يلبن على ظهورها . والمعنى : أنهم قسموا أنعامهم فقالوا : هذه أنعام حجر ، وأنعام محزنة الظهور ، وهذه أنعام لا يذكر عليها اسم الله . فجعلوها أجناسا بهواهم ، ونسبوا ذلك التجنيس إلى الله (افتراء عليه) أى فعلوا ذلك كله على جهة الافتراء - تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً - وانتصابه على أنه مفعول له : أو حال ، أو مصدر مؤكد ، لأن قولهم ذلك فى معنى الافتراء .

وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كُونُوا وَحُرِّمَ عَلَى أَزْوَاجِنَا  
وَأِنْ يَكُنْ مِيتَةً فَمِنْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصَفَقُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾

كانوا يقولون فى أجنة البحائر والسوائب : ما ولد منها حيا فهو خالص للذكور لأن كل منه الإناث ، وما ولد منها ميتا اشترك فيه الذكور والإناث . وأنت (خالصة) للحمل على المعنى ، لأن (ما) فى معنى الأجنة<sup>(١)</sup> وذكر (محرم) للحمل على اللفظ . ونظيره (ومنها) من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك ) ويجوز أن تكون التاء للبالغة مثلها فى رواية الشعر . وأن تكون مصدراً وقع موقع الخالص ، كالعاقبة أى ذو خالصة . ويدل عليه قراءة من قرأ (خالصة) بالنصب على أن قوله (للكورنا) هو الخبر ، وخالصة مصدر مؤكد ، ولا يجوز أن يكون حالا متقدمة ، لأن المجرور لا يتقدم عليه حاله . وقرأ ابن عباس : خالصة على الإضافة . وفى مصحف عبد الله : خالص . (وإن يكن ميتة) وإن يكن ما فى بطونها ميتة . وقرئ : وإن

(١) قال محمود : «وأنت خالصة للحمل على المعنى لأن ما فى معنى الأجنة... الخ» قال أحمد : ليسا سواء ، لأنه فى الآية الأولى رجوع إلى اللفظ بعد المعنى وفيه إجمال ، وبينهما بون اقتضى أن أنكر جماعة من متأخري القرن وقوه فى الكتاب العزيز ، وادعوا أن جميع ماورد فيه يعود على المعنى بعد اللفظ ، وقد التزم غيرهم بإجازة ذلك ، وعدوا فى الكتاب العزيز منه موضعين يمكن صرف الكلام فيهما إلى غير الموصول . وعلى الجلة فالخلف على اللفظ بعد المعنى قليل وغيره أولى ما وجد إليه سبيل . وقد ذكر المصنف وجهين آخرين سوى ذلك فقال : ويجوز أن تكون التاء للبالغة مثلها فى رواية الشعر ، وأن يكون مصدراً وقع موقع الخالص كالعاقبة أى ذو خالصة . ويدل عليه قراءة من قرأ خالصة بالنصب ، على أن قوله (للكورنا) هو الخبر ، و(خالصة) مصدر مؤكد . ولا يجوز أن يكون حالا متقدمة ؛ لأن المجرور لا يتقدم عليه حاله ، ولقد أحسن فى الاحتراز بمنع الحال من المجرور حتى تبين المصدر .

تكن ، بالتأنيث ، على : وإن تكن الأجنة ميتة . وقرأ أهل مكة : وإن تكن ميتة بالتأنيث والرفع على كان التامة وتذكير الضمير في قوله ﴿ فهم فيه شركاء ﴾ لأن الميتة لكل ميت ذكر أو أنثى ، فكأنه قيل : وإن يكن ميت فهم فيه شركاء ﴿ سيجزيهم وصفهم ﴾ أى . زاء وصفهم الكذب على الله فى التحليل والتحریم من قوله تعالى (وتصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام) .

قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً

عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

نزلت فى ربيعة ومضر والرّب الذين كانوا يتدون بناتهم مخافة السبى والفقير ﴿ سفهاً بغير علم ﴾ لحقة أحلامهم ، وجهلهم بأن الله هو رازق أولادهم ، لا هم . وقرئ (قتلوا) بالتشديد ﴿ مارزقهم الله ﴾ من الباطر والسوائب وغيرها .

وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزُّيُونِ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾

﴿ أنشأ جنات ﴾ من الكروم ﴿ معروشات ﴾ مسموكات<sup>(١)</sup> ﴿ وغير معروشات ﴾ متروكات على وجه الأرض لم تعرش . وقيل : المعروشات ، مافى الأرياف والعمران بما غرسه الناس واهتموا به فعرشوه ﴿ وغير معروشات ﴾ مما أنبته وحشياً فى البرارى والجبال . فهو غير معروش . يقال : عرشت الكرم ، إذا جعلت له دعائم وسمكا تعطف عليه القضبان . وسقف البيت : عرشه ﴿ مختلفاً أكله ﴾ فى اللون والطعم والحجم والرائحة . وقرئ (أكله) بالضم والسكون وهو ثمره الذى يؤكل . والضمير للنخل والزروع داخل فى حكمه ، لكونه معطوفاً عليه . ومختلفاً : حال مقدرة لأنه لم يكن وقت الإنشاء كذلك ، كقوله تعالى (فادخلوها خالدين) . وقرئ (ثمره) بضمين . فإن قلت : ما فائدة قوله ﴿ إذا أثمر ﴾ وقد علم أنه إذا لم يثمر لم يؤكل منه ؟ قلت : لما أبيض لهم الأكل من ثمره قيل : إذا أثمر ، ليعلم أن أول وقت الإباحة وقت إطلاع الشجر الثمر ، لئلا يتوهم أنه لا يساح إلا إذا أدرك وأينع ﴿ وآتوا حقه يوم حصاده ﴾ الآية مكية ، والزكاة إنما فرضت بالمدينة ، فأريد بالحق ما كان يتصدق به على

(١) قوله «مسموكات» أى مرفوعات . وفى الصحاح «سمك الله السماء» رفعها . والسمك : السقف . (ع)

المساكين يوم الحصاد ، وكان ذلك واجباً حتى نسخه اقراض العشر ، ونصف العشر . وفيل مدنية ، والحق هو الزكاة المفروضة . ومعناه : واعزموا على إيتاء الحق واقصدوه واهتموا به يوم الحصاد ، حتى لا تخرجوه عن أول وقت يمكن فيه الإيتاء ﴿ولا تسرفوا﴾ في الصدقة كما روى عن ثابت بن قيس بن شماس أنه صرم خمسمائة نخلة ففرق ثمرها كله ولم يدخل منه شيئاً إلى منزله ﴿ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً﴾ .

وَمِنَ الْإِنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَشَاتٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُواتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَاكِرِينَ حَرَّمَ أَمْ الْإِنْتَنِينِ أَمْ أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنْتَنِينِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلَّذَاكِرِينَ حَرَّمَ أَمْ الْإِنْتَنِينِ أَمْ أَشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْإِنْتَنِينِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٤﴾

﴿حمولة وفرشاً﴾ عطف على جنات . أى : وأنشأ من الأنعام ما يحمل الأثقال وما يفرش للذبح ، أو ينسج من وبره وصوفه وشعره الفرش . وقيل : الحمولة ، الكبار التي تصلح للحمل ، والفرش ، الصغار كالفصلان والعجاجيل والغنم ، لأنها دانية من الأرض للطاقة أجرامها ، مثل الفرش المفروش عليها ﴿ولا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ في التحليل والتحرير من عند أنفسكم كما فعل أهل الجاهلية ﴿ثمانية أزواج﴾ بدل من حمولة وفرشاً ﴿اثنين﴾ زوجين اثنين ، يريد الذكر والأنثى ، كالجمل والناقة ، والثور والبقرة ، والكباش والنعجة ، والتميس والعنز . والواحد إذا كان وحده فهو فرد ، فإذا كان معه غيره من جنسه سمى كل واحد منها زوجاً ، وهما زوجان ، بدليل قوله (خلق الزوجين الذكر والأنثى) والدليل عليه (١) قوله تعالى (ثمانية أزواج) ثم فسرها بقوله (من الضأن اثنين ومن المعز اثنين) ، (ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين) ونحو تسميتهم الفرد بالزوج ، بشرط أن يكون معه آخر من جنسه : تسميتهم الزجاجة

(١) قوله والدليل عليه ، عبارة النسخ : وبدل عليه : (ع)

كأساً بشرط أن يكون فيها خمر . والضأن والمعز جمع ضأن ومعز ، كتاجر وتجر . وقرنا بفتح العين . وقرأ أي . ومن المعزى . وقرئ : اثنان ، على الابتداء .

الهمزة في ﴿الذكرين﴾ للإنكار والمراد بالذكرين : الذكر من الضأن والذكر من المعز . وبالأثنين : الأثنى من الضأن والأثنى من المعز ، على طريق الجنسية . والمعنى إنكار أن يحزم الله تعالى من جنس الغنم ضأنها ومعزها شيئاً من نوعي ذكورها وإناثها ، ولا مما تحمل إناث الجنسين ، وكذلك الذكران من جنسي الإبل والبقر ، والأثنين منهما وما تحمل إناثهما ، وذلك أنهم كانوا يحزمون ذكورة الأنعام <sup>(١)</sup> تارة ، وإناثها تارة ، وأولادها كيفما كانت ذكوراً وإناثاً ، أو مختلطة تارة ، وكانوا يقولون قد حزمها الله ، فأنكر ذلك عليهم ﴿نبؤني بعلم﴾ أخبروني بأمر معلوم من جهة الله تعالى يدل على تحريم ما حرمتم ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أن الله حزمه ﴿أم كنتم شهداء﴾ بل أكنتم شهداء . ومعنى الهمزة الإنكار ، يعني أم شاهدتم ربكم حين أمركم بهذا التحريم ؟ وذكر المشاهدة على مذهبهم ، لأنهم كانوا لا يؤمنون برسول وهم يقولون : الله حزم هذا الذي نحزمه ، قهكم بهم في قوله ( أم كنتم شهداء ) على معنى : أعرقتم النصيحة به مشاهدين ، لأنكم لا تؤمنون بالرسول ﴿فن أظلم من أقرى على الله كذباً﴾ فنسب إليه تحريم ما لم يحزم ﴿ليضل الناس﴾ وهو عمرو بن لحي بن قعدة الذي بحر البحار وسيب السواحب .

قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَوْتَةً  
أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِتَعْسِيرِ اللَّهِ بِهِ فَنَنْصُرْ  
أَضْطَرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٥﴾

فإن قلت : كيف فصل بين بعض المعداد وبعضه ولم يوال بينه ؟ قلت : قد وقع الفاصل بينهما اعتراضاً غير أجنبي من المعداد . وذلك أن الله عز وجل من على عباده بإنشاء الأنعام لمنافعهم ويا باحتها لهم ، فاعتراض بالاحتجاج على من حزمها ، والاحتجاج على من حزمها تأكيد وتسديد للتحليل ، والاعتراضات في الكلام لا تساق إلا للتوكيد ﴿فيا لؤحى إلى﴾ تنبيه على أن التحريم إنما ثبت بوحي الله تعالى وشرعه ، لا بهوى الأنفس ﴿محزماً﴾ طعاماً محزماً من المطاعم التي حرمتموها ﴿إلا أن يكون ميتة﴾ إلا أن يكون الشيء المحزوم ميتة ﴿أو دما مسفوحاً﴾ أى مصبوحاً سائلاً ، كالدم في العروق ، لا كالسكب والطحال . وقد رخص في دم العروق بعد الذبح

(١) قوله ذكورة الأنعام ، يجمع الذكر على ذكارة كجارية ، وذكر وذكوران . هذا ما في الصحاح ، لكن عبارة النسق كعبارة المصنف ، غرر . (ع)



(أو فسقا) عطف على المنصوب قبله . سمي ما أهل به لغير الله فسقا لتوغله في باب الفسق . ومنه قوله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق) وأهل : صفة له منصوبة المحل . ويجوز أن يكون مفعولا له من أهل ، أى أهل لغير الله به فسقا . فإن قلت : فعلام تعطف (أهل) ؟ والإلام يرجع الضمير في (به) على هذا القول ؟ قلت : يعطف على يكون ، ويرجع الضمير إلى ما يرجع إليه المستكن في يكون (فمن اضطر) فن دعت الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات (غير باغ) على مضطر مثله تارك لمواساته (ولا عاد) متجاوز قدر حاجته من تناوله (فإن ربك غفور رحيم) لا يؤاخذ .

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾  
بِأَسْأَةِ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

و ذو الظفر ، ما له أصبع من دابة أو طائر ، وكان بعض ذات الظفر حلالا لهم ، فلما ظلموا حرم ذلك عليهم فعم التحريم كل ذي ظفر بدليل قوله (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم) وقوله (ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما) كقولك : من زيد أخذت ماله ، تريد بالإضافة زيادة الربط . والمعنى أنه حرم عليهم لحم كل ذي ظفر وشحمه وكل شيء منه ، وترك البقر والغنم على التحليل لم يحرم منهما إلا الشحوم الخالصة ، وهى الثروب <sup>(١)</sup> وشحوم الكلى . وقوله (إلا ما حملت ظهورهما) يعنى إلا ما اشتمل على الظهور والجنوب من السحقة <sup>(٢)</sup> (أو الحوايا) أو اشتمل على الأمعاء (أو ما اختلط بعظم) وهو شحم الإلية . وقيل (الحوايا) عطف على شحومهما . ود أو ، بنزلتها في قولهم : جالس الحسن أو ابن سيرين (ذلك) الجزاء (جزيناهم) وهو تحريم الطيبات (يبغيهم) بسبب ظلمهم <sup>(٣)</sup> (وإننا لصادقون) فيما وعدنا

(١) قوله «الثروب» هى شحوم رقيقة قد غشيت الكرش والأمعاء ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) قوله «من السحقة» السحقة : الشحمة الملتزمة بالجلد على الظاهر من الكتف إلى الورك ، نقله فى الصحاح . (ع)

(٣) قال محمود : معناه ذلك الجزاء جزيناهم بيبغيهم بسبب ظلمهم ... الخ ، قال أحد : هذه الآية وردت فيمن

كفر وانترى على الله ووعيد الكافر باتفاق واقع به غير مردود عنه . وأهل السنة وإن قالوا : يجوز العفو عن العاصي الموحّد ، فلا يقولون إن ذلك حتم ، ولا يلزمهم ذلك ، لأن الله تعالى حيث توعد المؤمنين العصاة ، ملق حلول الوعيد بهم بالمشيئة ، وأخبر أنه ينظر لمن يشاء منهم ، فن ثم اعتقدنا أن كل موحد عاص في المشيئة ، وحيث أطلق وعيدهم في بعض الظواهر فهو محمول على المقيد ، فلا يلزمهم حيث اعتقاد الخلف في الخبر . والرحمىرى إنما بدندن حول إلزامهم ذلك وأنى له .

به العصاة لا تخلفه، كما لا تخلف ما وعدناه أهل الطاعة. فلما عصوا وبغوا ألحقنا بهم الوعيد وأحللنا بهم العقاب. ﴿فَإِنْ كَذَبُوكَ﴾ في ذلك وزعوا أن الله واسع الرحمة، وأنه لا يؤاخذ بالبغي ويخلف الوعيد جوداً وكرماً ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿رَبِّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ لاهل طاعته ﴿وَلَا يَرُدُّ بَأْسَهُ﴾ مع سعة رحمته ﴿عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فلا تغتر برجاء رحمته عن خوف نقمته.

سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾

قُلْ وَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَذَا كُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ إخبار بما سوف يقولونه، <sup>(١)</sup> ولما قالوه قال (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء) يعنون بكفرهم وتمردهم. <sup>(٢)</sup> أن شركهم وشرك

(١) قال محمود: «هذا إخبار بما سوف يقولونه... الخ» قال أحمد: وفائدته توطين النفس على الجواب ومكالحتهم بالرد وإعداد الحجة قبل أوانها، كما قال (سَيَقُولُ السَّاهُونَ مِنَ النَّاسِ).

(٢) عاد كلامه. قال: فلما وقع ذلك منهم قال (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء) يعنون بكفرهم... الخ، قال أحمد رحمه الله: قد تقدم أيضاً الكلام على هذه الآية، وأومئنا أن الرد عليهم، إنما كان لاعتقادهم أنهم مسلوبون اختيارهم وقدرتهم، وأن إشرائهم إنما صدر منهم على وجه الاضطراب، وزعموا أنهم يقيمون الحجة على الله ورسوله بذلك، فرد الله قولهم وكذبهم في دعواهم عدم الاختيار لأنفسهم، وشبههم بمن اغتر قبلهم بهذا الخيال فكذب الرسل وأشرك بالله واعتمد على أنه إنما يفعل ذلك كله بمشيئة الله ورام إلحاح الرسل بهذه المشقة، ثم بين الله تعالى أنهم لا حجة لهم في ذلك، وأن الحجة البالغة له لا لهم بقوله (إِلَّا اللَّهُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) ثم أوضح تعالى أن كل شيء واقع بمشيئته، وأنه لم يشأ منهم إلا ما صدر عنهم، وأنه لو شاء منهم الهداية لاهتدوا أجمعون، بقوله (فَلَوْ شَاءَ لَهَذَا كُمْ أَجْمَعِينَ) والمقصود من ذلك أن يتمحض وجه الرد عليهم، ويتخلص عقيدة نفوذ المشيئة وعموم تعلقها بكل كائن عن الرد، وينصرف الرد إلى دعواهم بسلب الاختيار لأنفسهم وإلى إقامتهم الحجة بذلك خاصة. وإذا تدبرت هذه وجدتها كافية في الرد على من زعم من أهل القبلة أن العبد لا اختيار له ولا قدرة البتة، بل هو مجبور على أفعاله مقهور عليها، وهم الفرقة المعروفون بالمجبرة. والمصنف يغالط في الحقائق فيسمى أهل السنة مجبرة وإن أثبتوا للعبد اختياراً وقدرة، لأنهم يسلبون تأثير قدرة المد ويحاولونهم مقارنة لأفعاله الاختيارية، عيزة بينها وبين أفعاله القسرية، فن هذه الجهة سوى بينهم وبين المجبرة، ويجعله لقباً عاماً لأهل السنة. وجماع الرد على المجبرة الذين ميزناهم عن أهل السنة في قوله تعالى (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا - إلى قوله - قُلْ لِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ) وتمة الآية رد صراح على طائفة الاعتزال القائلين بأن الله تعالى شاء الهداية منهم أجمعين، فلم تقع من أكثرهم. ووجه الرد أن دلوه إذا دخلت على فعل مثبت نفيه، فيقتضى ذلك أن الله تعالى لما قال (فَلَوْ شَاءَ) لم يكن الواقع أنه شاء هدايتهم، ولو شاءها لوقت، فهذا تصريح بطلان زعمهم ومحل عقدهم، فإذا ثبت اشتغال الآية على رد عقيدة الطائفتين المذكورتين بالمجبرة في أولها والمعتزلة في آخرها، فاعلم أنها جامعة لعقيدة السنة منطبقة عليها، فإن أولها كإثبات العبد اختياراً وقدرة —

آبائهم ، وتحريمهم ما أحل الله ، بمشيئة الله وإرادته . ولولا مشيئته لم يكن شيء من ذلك ، كذب المجبرة بعينه <sup>(١)</sup> ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ أى جادوا بالكذب المطلق ؛ لأن الله عز وجل ركب في العفول وأنزل في الكتب مادل على غناه وبراءته من مشيئة القبايح وإرادتها ، والرسول أخبروا بذلك . فمن علق وجود القبايح من الكفر والمعاصي بمشيئة الله وإرادته فقد كذب التكذيب كله ، وهو تكذيب الله وكتبه ورسله ، ونبد أدلة العقل والسمع وراء ظهره ﴿ حتى ذاقوا بأسنا ﴾ حتى أنزلنا عليهم العذاب بتكذيبهم ﴿ قل هل عندكم من علم ﴾ من أمر معلوم يصح الاحتجاج به فيما قلتم ﴿ فتخرجوه لنا ﴾ وهذا من التهمك ، والشهادة بأن مثل قولهم محال أن يكون له حجة ﴿ إن تتبعون إلا الظن ﴾ في قولكم هذا ﴿ وإن أتمم إلا تخوضون ﴾ تقدرون أن الأمر كما تزعمون أو تكذبون . وقرئ ﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم ﴾ بالتخفيف ﴿ قل لله الحجة البالغة ﴾ يعنى فإن كان الأمر كما زعمتم أن ما أتمم عليه بمشيئة الله الحجة البالغة عليكم على قود مذهبكم <sup>(٢)</sup> ﴿ فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ منكم ومن مخالفكم في الدين ، فإن تعليقكم دينكم بمشيئة الله يقتضى أن تعلقوا دين من يخالفكم أيضاً بمشيئته ، فتوالوهم ولا تعادوهم ، وتوافقوهم ولا تخالفوهم ، لأن المشيئة تجمع بين ما أتمم عليه وبين ما هم عليه .

قُلْ هَلْ شُهِدَ أَكْثَرُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ يَرِيبُهُمْ بِعِدْلُون <sup>(١٥٠)</sup>

﴿ هلم ﴾ يستوى فيه الواحد والجمع ، والمذكر والمؤنث عند الحجازيين . وبنو تميم تؤنث وتجمع . والمعنى : هاتوا شهداءكم وقربوهم . فإن قلت : كيف أمره باستحضار شهدائهم الذين

== على وجه يقطع حجه وعذره في المخالفة والعصيان ، وآخرها ثبت نفوذ مشيئة الله في العبد ، وأن جميع أفعاله على وفق المشيئة الإلهية خيراً أو غيره ، وذلك عين عقيدتهم ، فانهم كما يشتهون للعبد مشيئة وقدوة ، يسلبون تأثيرها ويعتقدون أن ثبوتها قطع لحجته ملزم له بالطاعة على وفق اختياره ، ويشتهون نفوذ مشيئة الله أيضاً وقدرته في أفعال عباده ، فهم كما رأيت تبع للكتاب العزيز ، يشتهون ما أميت ، وينفون ما نفي ، مؤيدون بالعقل والنقل ، والله الموفق .

(١) قوله « كذب المجبرة بعينه » يعنى أهل السنة ، من أن كل كائن فهو مراد له تعالى ولو شراً . وتحقيق الفرق بينه وبين قول المشركين في علم التوحيد ، ويكتفى فيه أن قولهم من باب التهمك ، كما قالوا لما قيل لهم ﴿ أنفقوا بما رزقكم الله ﴾ : ﴿ أنظم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ . (ع)

(٢) قوله « على قود مذهبكم » لعله من قاد الفرس ونحوه قوداً ، إذا جره بسهولة ، أى على طلق مذهبكم ، أى على مقتناه وما يؤدى إليه . (ع)

يشهدون أن الله حرم ما زعموه محرماً ، ثم أمره بأن لا يشهد معهم ؟ قلت : أمره باستحضارهم وهم شهداء بالباطل ، ليلزمهم الحجة ويلقمهم الحجر ، ويظهر للشهود لهم بانقطاع الشهادتهم أنهم ليسوا على شيء ، لتساوى أقدام الشاهدين والمشهود لهم في أنهم لا يرجعون إلى ما يصح التمسك به . ر قوله ( فلا تشهد معهم ) يعني فلا تسلّم لهم ما شهدوا به ولا تصدقهم : لأنه إذا سلم لهم فكانه شهد معهم مثل شهادتهم وكان واحداً منهم ( ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ) من وضع الظاهر موضع المصنوع للدلالة على أن من كذب بآيات الله وعدل به غيره فهو متبع للهوى لا غير ، لأنه لو اتبع الدليل لم يكن إلا مصدقاً بالآيات موحداً لله تعالى . فإن قلت : هلا قيل : قل لهم شهداء يشهدون أن الله حرم هذا ؟ (١) وأى فرق بينه وبين المنزل ؟ قلت : المراد أن يحضروا شهداءهم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم ، وكان المشهود لهم يقدونهم ويشقون بهم ويعتضدون بشهادتهم ، ليهدم ما يقومون به بحق الحق ويطل الباطل ، فأضيفت الشهادتهم لذلك ، وجيء بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم ، والدليل عليه قوله تعالى ( فإن شهدوا فلا تشهد معهم ) ولو قيل : لهم شهداء يشهدون ، لكان معناه هاتوا أناساً يشهدون بتحريم ذلك ، فكان الظاهر طلب شهداء بالحق وذلك ليس بالغرض . وينافضه قوله تعالى ( فإن شهدوا فلا تشهد معهم ) .

قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْقَوَائِحَ مَظْهَرٍ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ

وَصَّكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾

وتعال ، من الخاص الذي صار عاماً . وأصله أن يقوله من كان في مكان عال لمن هو أسفل منه ثم كثر واتسع فيه حتى عمّ . و ( ما حرم ) منصوب بفعل التلاوة ، أى أتى الذي حرمه ربكم . أو يحرم بمعنى : أقل أى شيء حرم ربكم ، لأن التلاوة من القول ، وإنه في ( ألا تشركوا ) مفسرة

(١) عاد كلامه . قال : « فإن قلت هلا قيل قل لهم شهداء يشهدون أن الله حرم هذا وأى فرق بينه وبين المنزل ... الخ ، قال أحد رحمه الله : ووجه مناقضته له أنه لو قيل على خلاف المنزل ، وهو قوله : لهم شهداء يشهدون ، يفهم أن الطالب للشهداء ليس على تحقيق من أن ثم شهداء ، كما يقول الحاكم للدعي : هات بينة تشهد بذالك ، فهو لا يتحقق أن للدعي بينة ، ثم يكون قوله ( فإن شهدوا ) تحقيقاً لأن ثم شهداء ، فالجاء بينهما متناقض كما ترى ، والله الموفق .

وَلَا لِلنَّهْيِ . فَإِنْ قُلْتَ : هَلَا قُلْتَ هِيَ الَّتِي تَنْصِبُ الْفَعْلَ ، وَجَعَلْتَ أَنْ لَا تَشْرَكَوْا بِدَلَا مِنْ (مَاحَرَمٍ) ؟ قُلْتَ : وَجِبَ أَنْ يَكُونَ (لَا تَشْرَكَوْا) وَ(لَا تَقْرِبُوا) وَ(لَا تَقْتُلُوا) وَ(لَا تَتَّبِعُوا السَّبِيلَ) نَوَاهِي لَا نَعْطَافَ أَوْ أَمْرَ عَلَيْهَا ، وَهِيَ قَوْلُهُ (وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) لِأَنَّ التَّقْدِيرَ : وَأَحْسِنُوا بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، (وَأَوْفُوا) ، (وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا) ، (وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا) . فَإِنْ قُلْتَ : فَمَا تَصْنَعُ بِقَوْلِهِ ﴿وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ فَيَمْنُ قَرَأَ بِالْفَتْحِ ، وَإِنَّمَا يَسْتَقِيمُ عَظْفُهُ عَلَى أَنْ لَا تَشْرَكَوْا إِذَا جَعَلْتَ أَنْ هِيَ النَّاصِبَةُ لِلْفَعْلِ ، حَتَّى يَكُونَ الْمَعْنَى : أَتَلَّ عَلَيْكُمْ نَفْيَ الْإِشْرَاقِ وَالتَّوْحِيدِ ، وَأَتَلَّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا ؟ قُلْتَ : أَجْعَلُ قَوْلَهُ (وَأَنْ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا) عِلَّةً لِلاتِّبَاعِ بِتَقْدِيرِ اللَّامِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى (وَأَنْ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا) بِمَعْنَى : وَلِأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ . وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةُ بِالْكَسْرِ ، كَأَنَّهُ قِيلَ : وَاتَّبِعُوا صِرَاطِي لِأَنَّهُ مُسْتَقِيمٌ ، أَوْ وَاتَّبِعُوا صِرَاطِي لِأَنَّهُ مُسْتَقِيمٌ . فَإِنْ قُلْتَ : إِذَا جَعَلْتَ (أَنْ) مَفْسُورَةً لِفِعْلِ التَّلَاوَةِ وَهُوَ مُعْلَقٌ بِمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ، وَجِبَ أَنْ يَكُونَ مَا بَعْدَهُ مُنْهًيًا عَنْهُ مَحْرَمًا كُلَّهُ ، كَالشَّرْكِ وَمَا بَعْدَهُ بِمَا دَخَلَ عَلَيْهِ حَرْفُ النَّهْيِ ، فَمَا تَصْنَعُ بِالْأَوَامِرِ ؟ قُلْتَ : لَمَّا وَرَدَتْ هَذِهِ الْأَوَامِرُ مَعَ النَّوَاهِي . وَتَقْدِمُ مِنْ جَمِيعًا فِعْلُ التَّحْرِيمِ ، وَاشْتَرَكْنَا فِي الدَّخُولِ تَحْتَ حُكْمِهِ ، عَلِمَ أَنَّ التَّحْرِيمَ رَاجِعٌ إِلَى أَضْدَادِهَا ، وَهِيَ الْإِسَاءَةُ إِلَى الْوَالِدَيْنِ ، وَبُخْسُ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ . وَتَرَكَ الْعَدْلَ فِي الْقَوْلِ ، وَنَكَّثَ عَهْدَ اللَّهِ ﴿مَنْ إِمْلَاقٌ﴾ مِنْ أَجْلِ فَقْرٍ وَمِنْ خَشْيَتِهِ ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى (خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ) . ﴿مَاطْهَرٌ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ﴾ مِثْلُ قَوْلِهِ (ظَاهِرُ الْإِثْمِ وَبَاطِنُهُ) . ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ كَالْقَصَاصِ ، وَالْقَتْلِ عَلَى الرَّذَّةِ ، وَالرَّجْمِ .

وَلَا تَقْرِبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ  
وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا  
قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّيْكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾

﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ إِلَّا بِالْخَصْلَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مَا يَفْعَلُ بِمَالِ الْيَتِيمِ ، وَهِيَ حِفْظُهُ وَتَثْمِيرُهُ وَالْمَعْنَى : احْفَظُوهُ عَلَيْهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ فَادْفَعُوهُ إِلَيْهِ ﴿بِالْقِسْطِ﴾ بِالسُّوْبَةِ وَالْعَدْلِ ؛ ﴿لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ إِلَّا مَا يَسْعَاهَا وَلَا تَعْجِزْ عَنْهُ . وَإِنَّمَا أَتْبَعَ الْأَمْرَ بِإِفَاءِ الْكَيْلِ وَالْمِيزَانِ ذَلِكَ ؛ لِأَنَّ مِرَاعَاةَ الْحَدِّ مِنَ الْقِسْطِ الَّذِي لَا زِيَادَةَ فِيهِ وَلَا نَقْصَانَ مِمَّا يَجْرِي فِيهِ الْحَرْجُ ؛ فَأَمْرٌ بِبُلُوغِ الْوُسْعِ وَأَنْ مَا وَرَاءَهُ مَعْفُوعٌ عَنْهُ ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ وَلَوْ كَانَ الْمَقُولُ لَهُ أَوْ عَلَيْهِ فِي شَهَادَةٍ أَوْ غَيْرِهَا مِنْ أَهْلِ قَرَابَةِ التَّائِلِ ، فَمَا يَنْبَغِي أَنْ يَزِيدَ فِي الْقَوْلِ أَوْ يَنْقُصَ ، كَقَوْلِهِ (وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ)

وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ  
ذَٰلِكُمْ وَصَّكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

وقرئ : وأن هذا صراطي مستقيماً ، بتخفيف ، أن ، وأصله : وأنه هذا صراطي ، على أن  
الهاء ضمير الشأن والحديث . وقرأ الأعشى : وهذا صراطي . وفي مصحف عبدالله : وهذا صراط  
ربكم . وفي مصحف أبي : وهذا صراط ربك ﴿ ولا تتبعوا السبل ﴾ الطرق المختلفة في الدين ، من اليهودية  
والنصرانية ، والمجوسية ، وسائر البدع والضلالات ﴿ فتفرق بكم ﴾ ففرقكم أيادى سباً ﴿ عن  
سبيله ﴾ عن صراط الله المستقيم وهو دين الإسلام . وقرئ : فتفرق بإدغام التاء . وروى  
أبو وائل عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه خط خطاً ثم قال : هذا سبيل  
الرشد ، ثم خط عن يمينه وعن شماله خطوطاً ثم قال : هذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان  
يدعو إليه <sup>(١)</sup> ، ثم تلا هذه الآية (وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه) وعن ابن عباس رضى الله  
عنهما : هذه الآيات محكمات لم ينسخن شيء من جميع الكتب . وقيل : إنهن أم الكتاب ، من عمل  
بهن دخل الجنة ، ومن تركهن دخل النار ، وعن كعب الأحبار : والذي نفس كعب بيده إن  
هذه الآيات لأول شيء في التوراة . فإن قلت : علام عطف قوله (ثم آتينا موسى الكتاب)  
قلت : على (وصاكم به) . فإن قلت : كيف صح عطفه عليه بتم - والإيشاء قبل التوصية بدهر  
طويل - ؟ قلت : هذه التوصية قديمة ، لم تزل توصيها كل أمة على لسان نبيهم ، كما قال ابن عباس  
رضى الله عنهما : محكمات لم ينسخن شيء من جميع الكتب ، فكانه قيل : ذلکم وصاكم به  
يأبى آدم قديماً وحديثاً .

ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ

وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّاهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿ ثم ﴾ أعظم من ذلك أنّا ﴿ آتينا موسى الكتاب ﴾ وأزلنا هذا الكتاب المبارك . وقيل :  
هو معطوف على ما تقدم قبل شطر السورة من قوله تعالى (ووهبنا له إسحق ويعقوب) .  
﴿ تماماً على الذي أحسن ﴾ تماماً للكرامة والنعمة ، على الذي أحسن ، على من كان محسناً  
صالحاً ، يريد جنس المحسنين . وتدل عليه قراءة عبدالله : على الذين أحسنوا : أو أراد به  
موسى عليه السلام ، أى تتمه للكرامة على العبد الذى أحسن الطاعة فى التبليغ وفى كل ما أمر به  
أو تماماً على الذى أحسن موسى من العلم والشرائع ، من أحسن الشيء إذا أجاد معرفته ، أى

(١) أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم وأبو يعلى وإسحاق والبراد وأبو يعلى من طريق عاصم وغيره عن أبي وائل .

زيادة على عليه على وجه التسميم . وقراً يحيى بن يعمر : على الذى أحسن ، بالرفع ، أى على الذى هو أحسن ، بحذف المبتدأ كقراءة من قرأ ( مثلاً ما يعوضه ) بالرفع أى على الدين الذى هو أحسن دين وأرضاه . أو آتينا موسى الكتاب تماماً ، أى تماماً كاملاً على أحسن ما تكون عليه الكتب ، أى على الوجه والطريق الذى هو أحسن وهو معنى قول الكلبي : أتم له الكتاب على أحسنه

وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾

أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

( أن تقولوا ) كراهة أن تقولوا ( على طائفتين ) يريدون أهل التوراة وأهل الإنجيل ( وإن كنا ) هى إن الخففة من الثقيلة واللام هى الفارقة بينها وبين النافية . والاصل : وإنه كنا عن دراستهم غافلين ، على أن الهاء ضمير الشأن ( عن دراستهم ) عن قراءتهم ، أى لم نعرف مثل دراستهم ( لكننا أهدى منهم ) لحدة أذهاننا ، وتقابة أفهامنا ، وغزارة حفظنا لأيام العرب ووقائعها وخطبها وأشعارها وأسماعها وأمثالها ، على أنها أقيون . وقرئ : أن يقولوا : أو يقولوا ، بالياء ( فقد جاءكم بينة من ربكم ) تبكى لهم ، وهو على قراءة من قرأ يقولوا على لفظ الغيبة أحسن ، لما فيه من الالتفات . والمعنى : إن صدقتكم فيما كنتم تعدون من أنفسكم فقد جاءكم بينة من ربكم ، لحذف الشرط وهو من أحسن الحذوف ( فمن أظلم ممن كذب بآيات الله ) بعد ما عرف صحتها وصدقها ، أو تمكن من معرفة ذلك ( وصدف عنها ) الناس فضل وأصل ( سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا سوء العذاب ) كقوله ( الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب ) .

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامِنْتَ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ آتَنظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿الملائكة﴾ ملائكة الموت ، أو العذاب ﴿أو يأتي ربك﴾ أو يأتي كل آيات ربك .  
 بدليل قوله ﴿أو يأتي بعض آيات ربك﴾ يريد آيات القيامة والهلاك الكلي ، وبعض الآيات .  
 أشرط الساعة ، كطلوع الشمس من مغربها ، وغير ذلك . وعن البراء بن عازب : كنا نتذاكر  
 الساعة إذ أشرف علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « ما تتذاكرون ؟ فقلنا : نتذاكر  
 الساعة قال : إنها لا تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات : الدخان ، ودابة الأرض ، وخسفاً  
 بالمغرب ، وخسفاً بالمشرق ، وخسفاً بجزيرة العرب ، والدجال ، وطلوع الشمس من مغربها ،  
 وبأجوج ومأجوج ، ونزول عيسى ، وناراً تخرج من عدن <sup>(١)</sup> ، ﴿لم تكن آمنت من قبل﴾  
 صفة لقوله نفساً . وقوله ﴿أو كسبت في إيمانها خيراً﴾ عطفت على آمنت . والمعنى أن أشرط  
 الساعة إذا جاءت وهي آيات ملجئة مضطرة ، ذهب أو أن التكليف عندها ، فلم ينفع الإيمان  
 حينئذ نفساً غير مقدّمة إيمانها من قبل ظهور الآيات ، أو مقدّمة الإيمان غير كاسبة في إيمانها  
 خيراً ، فلم يفرّق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت <sup>(٢)</sup> في غير وقت الإيمان ، وبين النفس  
 التي آمنت في وقته ولم تكسب خيراً ، ليعلم أن قوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) جمع بين  
 قرينيين ، لا ينبغي أن تنفك إحداهما عن الأخرى ، حتى يفوز صاحبهما ويسعد ، وإلا فالشقوة  
 والهلاك ﴿قل انتظروا إنا منتظرون﴾ وعيد . وقرئ : أن يأتيهم الملائكة ، بالياء والتاء .  
 وقرأ ابن سيرين : لا تنفع ، بالتاء ؛ لكون الإيمان مضافاً إلى ضمير المؤنث الذي هو بعضه  
 كقولك : ذهبت بعض أصابعه .

إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ

إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

﴿فرّقوا دينهم﴾ اختلفوا فيه كما اختلفت اليهود والنصارى . وفي الحديث : واقرقت اليهود

(١) لم أجده لكن في مسلم عن حذيفة نحوه .

(٢) قال محمود : « لم يفرق كما ترى بين النفس الكافرة إذا آمنت ... الخ . قال أحمد رحمه الله : هو يروم الاستدلال  
 على صحة عقيدته في أن الكافر والماضي سواء في الخلود بهذه الآية ، إذ سوى بينهما في عدم الانتفاع بما يستدركانه  
 بعد ظهور الآيات ، ولا يتم له ذلك ، فإن هذا الكلام اشتمل على النوع المعروف من علم البيان والبلاغة باللف .  
 وأصل الكلام . يوم يأتي بعض آيات ربك لا ينفع نفساً لم تكن مؤمنة قبل إيمانها بعد ، ولا نفساً لم تكسب في  
 إيمانها خيراً قبل ما تكسبه من الخير بعد ؛ إلا أنه لف الكلامين فجعلهما كلاماً واحداً بلاغة واختصاراً وإيجازاً :  
 أراد أن يثبت أن ذلك هو الأصل ، فهو غير مخالف لقواعد السنة ، فانا نقول : لا ينفع بعد ظهور الآيات الكذاب  
 الخير وإن نفع الإيمان المتقدم في السلامة من الخلود ؛ فهذا بأن يدس على رد الاعتزال ، أجدر من أن يدل له .  
 والله الموفق .



على إحدى وسبعين فرقة ، كلها في الهاوية إلا واحدة وهي الناجية ، واقتربت النصارى اثنتين وسبعين فرقة ، كلها في الهاوية إلا واحدة . وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في الهاوية إلا واحدة <sup>(١)</sup> ، وقيل : فارقوا دينهم فأمنوا ببعض وكفروا ببعض . وقرئ : فارقوا دينهم ، أى تركوه ﴿ وكانوا شيعاً ﴾ فرقاً كل فرقة تشيع إماماً لها ﴿ لست منهم في شيء ﴾ أى من السؤال عنهم وعن هفرفهم . وقيل من عقابهم . وقيل : هي منسوخة بآية السيف .

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ <sup>(١٦٠)</sup>

﴿ عشر أمثالها ﴾ على إقامة صفة الجنس المميز مقام الموصوف ، تقديره عشر حسنات أمثالها ، وقرئ : عشر أمثالها ، برفعها جميعاً على الوصف . وهذا أقل ما وعد من الإضعاف . وقد وعد بالواحد سبعمائة ، ووعد ثواباً بغير حساب . ومضاعفة الحسنات فضل ، ومكافأة السيئات عدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ لا ينقص من ثوابهم ولا يزداد على عقابهم .

قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبَرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ <sup>(١٦١)</sup>

﴿ ديناً ﴾ نصب على البدل من محل (إلى صراط) لأن معناه : هداني صراطاً ، بدليل قوله ( ويهديكم صراطاً مستقيماً ) والقيم : فيعمل ، من قام ، كسيد من ساد ، وهو أبلغ من القائم .

(١) أخرجه أصحاب السنن إلا النسائي من رواية محمد بن عمرو عن أبي هريرة ، دون « كلها » إلى آخر ما في المواضع ، لكن عند أبي داود في الأخيرة وثقتان وسبعون في النار . وواحدة في الجنة ، وللترمذي ذلكهم في النار ، إلا ملة واحدة . وهي الناجية ، واقتربت النصارى اثنتين وسبعين فرقة . كلها في الهاوية إلا واحدة . قالوا : من هي يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابي ، وأخرجه ابن حبان والحاكم . ورواه الطبراني من حديث عوف بن مالك كذلك ، إلا أنه قال « فرقة في الجنة وثنتان وسبعون في النار » . قيل : من هي ؟ قال : الجماعة ، ومن حديث أبي أمامة في الأوسط ، بلفظ « كلها في النار إلا السواد الأعظم » ولأبي نعيم وابن مردويه من حديث زيد بن أسلم عن أنس نحوه . والبرار والبيهقي في المدخل من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص نحوه . وأخرجه أسلم بن سهل الواسطي في تاريخه من حديث جابر مثله . وبين أن السائل عن ذلك عمر بن الخطاب ، وفي إسناده راو لم يسم ، وفي الباب عن سعد بن أبي وقاص عند ابن أبي شيبة ، وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ، وعن معاوية أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم وإسناده حسن ، واتفقت هذه الطرق على العدد المذكور أولاً : وخالفهم كثير بن عبدالله بن عمرو ابن عوف عن أبيه عن جده لجلسه قوم موسى سبعين فرقة وقوم عيسى إحدى وسبعين وهذه الأمة اثنتين وسبعين . وغير في كل منها كلها فقال « إلا واحدة » وقال في الأخيرة « الإسلام وجماعة » أخرجه الطبراني والحاكم .

وقرئ: قيا . والقيم: مصدر بمعنى القيام وصف به . و ﴿ ملة إبراهيم ﴾ عطف بيان .  
و ﴿ حنيفاً ﴾ حال من إبراهيم .

قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي فَهِيَ رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ  
وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾

﴿ قل إن صلاتي ونسكي وعبادتي وتقربتي كله . وقيل : وذبحي . وجمع بين الصلاة والذبح  
كما في قوله ﴾ فصل لربك وانحر ﴾ وقيل : صلاتي وحجتي من مناسك الحج ﴾ ومحياي ومماتي ﴾  
وما آتية في حياتي ، وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴾ لله رب العالمين ﴾ خالصة  
لوجهه ﴾ وبذلك ﴾ من الإخلاص ﴾ أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ لأن إسلام كل نبي متقدم  
لإسلام أمته .

قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ آبِئِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا  
عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ  
فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

﴿ قل أغير الله أبني رباً ﴾ جواب عن دعائهم له إلى عبادة آلهتهم ، والهمزة للإنكار ، أي  
منكر أن أبني رباً غيره ﴾ وهو رب كل شيء . ﴾ فكل من دونه مربوب ليس في الوجود من  
له الربوبية غيره ، كما قال ﴿ قل أغير الله تأمروني أعبد ﴾ ، ﴿ ولا تكسب كل نفس إلا عليها ﴾  
جواب عن قولهم ﴿ اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم ﴾ .

وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ  
لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

﴿ جعلكم خلائف الأرض ﴾ لأن محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين خلفت أمته سائر  
الأمم . أو جعلهم يخلف بعضهم بعضاً . أو هم خلفاء الله في أرضه يملكونها ويتصرفون فيها  
﴿ ورفع بعضكم فوق بعض درجات ﴾ في الشرف والرزق ﴿ ليلوكم فيما آتاكم ﴾ من نعمة المال  
والجاء ، كيف تشكرون تلك النعمة ، وكيف يصنع الشريف بالوضع ، والحر بالعبد ، والغني  
بالفقر ﴿ إن ربك سريع العقاب ﴾ لمن كفر نعمته ﴿ وإنه لغفور رحيم ﴾ لمن قام يشكرها .  
ووصف العقاب بالسرعة ، لأن ما هو آت قريب .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنزلت على سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد فمن قرأ الأنعام صلى الله عليه وسلم واستغفر له أولئك السبعون ألف ملك بعد كل آية من سورة الأنعام يوماً وليلة. »<sup>(١)</sup>

## سورة الأعراف

مكية ، غير ثمان آيات : واستلهم عن القرية ، إلى : وإذ نتقنا الجبل  
وهي مائتان وست آيات [ نزلت بعد ص ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَعْصَرِ ① كِتَابٌ أُنْزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ  
لِتُنْذِرَ بِهِ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ②

(كتاب) خبر مبتدأ محذوف ، أى هو كتاب . و ( أنزل إليك ) صفة له . والمراد  
بالكتاب السورة ( فلا يكن في صدرك حرج منه ) أى شك منه<sup>(٣)</sup> ، كقوله ( فإن كنت في شك

(١) سبقت طرقه في سورة آل عمران . وله طريق أخرى أخرجهما الثعلبي من حديث أبي بن كعب بتمامه .  
وفيه أبو عصة . وهو متهم بالكذب . وأوله عند الطبراني في الصغير في ترجمة إبراهيم بن نائلة من حديث ابن  
عمر إلى قوله « والتحميد ، وفيه يوسف بن عطية ، وهو ضعيف ، وأخرجه عنه ابن مردويه في تفسيره وأبو نعيم في الحلية .  
(٢) قال محمود : « الحرج : الشك ... الخ » قال أحمد : ويشهد له قوله تعالى ( فلا تكونن من المقتربين ) ولهذا  
النسبة من إمام الحرمين بين العلم والاعتقاد الصحيح ، بأن « العقد » ربط الفكر بعتقد . و « الاعتقاد » افتعال  
منه ، والعلم يشعر بانحلال العقود وهو الانشراح والتبليغ والثقة . وما أحسن تنبيهه بقوله : والاعتقاد افتعال منه .  
يريد : إذا كان العقد مبانياً للعلم ، فما ظنك بالاعتقاد ؛ لأن صيغة الافتعال أبلغ معنى . ومنه الاعتماد والاحتفال .  
ومن ثم ورد في الخير « كسب » وفي نقيضه « اكتسب » لأن النفوس في الشهوات والمخالفات وانباع الأهواء أجدر  
منها في الطاعات وقع الأغراض ، وعلى ذلك - ولها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ) وإن كان « العلم » من « الأعلم »  
المأخوذ من « العلة » التحريك ، وهي انشراح الشفة وانشقاقها : فالذي ذكره الإمام حينئذ نهاية في نوعه ،  
والله الموفق .

عما أنزلنا إليك) وسمى الشك حرجاً ، لأن الشاك ضيق الصدر حرجه ، كما أن المتيقن مشرح الصدر منفسحه . أى لا تشك في أنه منزل من الله ، ولا تخرج من تبليغه<sup>(١)</sup> لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم . فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينسبط له فأقننه الله ونهاه عن المبالاة بهم . فإن قلت : بم تعلق قوله ﴿ لتنذر ﴾ ؟ قلت : بأنزل ، أى أنزل إليك لإني أذكرك به أو بالنبى ، لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم ، وكذلك إذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار ؛ لأن صاحب اليقين جسر متوكل على ربه ، مشكل على عصمته . فإن قلت : فالحل ذكرى ؟ قلت : يحتمل الحركات الثلاث . النصب بإضمار فعلها . كأنه قيل : لتنذر به وتذكر تذكيراً لأن الذكرى اسم بمعنى التذكير ، والرفع عطفاً على كتاب ، أو بأنه خبر مبتدأ محذوف . والجر للعطف على محل أن تنذر ، أى للإنذار والذكر . فإن قلت : النبى في قوله ( فلا يكن ) متوجه<sup>(٢)</sup> إلى الحرج فما وجهه ؟ قلت : هو من قولهم : لا أرينك هنا .

اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَهُكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

﴿ اتبعوا ما أنزل إليكم ﴾ من القرآن والسنة ﴿ ولا تتبعوا من دونه ﴾ من دون الله ﴿ أولياء ﴾ أى ولا تتولوا من دونه من شياطين الجن والإنس فيحملوكم على عبادة الأوثان والأهواء والبدع ويضلوكم عن دين الله وما أنزل إليكم ، وأمركم باتباعه . وعن الحسن : يا ابن آدم ، أمرت باتباع كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وسلم . والله ما نزلت آية إلا وهو يجب أن تعلم فيم نزلت وما معناها . وقرأ مالك بن دينار : ولا تتبغوا ، من الابتغاء (ومن يتبغ غير الإسلام ديناً) . ويجوز أن يكون الضمير في ( من دونه ) لما أنزل ، على : ولا تتبعوا من دون دين الله دين أولياء ﴿ قليلاً ما تذكرون ﴾ حيث تتركون دين الله وتتبعون غيره . وقرئ : تذكرون ، بحذف التاء . ويتذكرون ، بالياء . و ( قليلاً ) : نصب يتذكرون ، أى تذكرون تذكراً قليلاً . و ( ما ) مزيدة لتوكيد القلة .

وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَبَاءَهَا بَأْسُنَا بَيِّنًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿٤﴾

(١) عاد كلامه . قال : « أو ولا تخرج من تبليغه ، لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له ... الخ ، قال أحد : ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى ( فذلك نارك ) بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل إليه كنز أو جاء معه ملك الآية .

(٢) عاد كلامه . قال : « فإن قلت النبى في قوله فلا يكن متوجه إلى الحرج ، فما وجهه ؟ قلت : هو من قولهم لا أرينك هنا ، قال أحد : يريد أن الحرج منتهى في الآية ظاهراً والمراد النبى عنه ، والله أعلم .

(فجاءها) فجاء أهلها (بياتاً) مصدر واقع موقع الحال ، بمعنى باتتين . يقال : بات بياتاً حسناً ، وبديته حسنة . وقوله (هم قائلون) حال معطوفة <sup>(١)</sup> على بياتا ، كأنه قيل : فجاءهم بأسناً باتتين أو قائلين . فإن قلت : هل يقدر حذف المضاف الذى هو الأهل قبل (قرية) أو قبل الضمير في (أهلكناها) ؟ قلت : إنما يقدر المضاف للحاجة ولا حاجة ، فإن القرية تهلك كما يهلك أهلها . وإنما قدرناه قبل الضمير في (فجاءها) لقوله (أو هم قائلون) فإن قلت : لا يقال : جاءنى زيد هو فارس ، بغير واو ، فما بال قوله (هم قائلون) ؟ قلت : قدر بعض النحويين الواو محذوفة ، ورده الزجاج وقال : لو قلت جاءنى زيد راجلاً ، أو هو فارس . أو جاءنى زيد هو فارس ، لم يحتج فيه إلى واو ، لأن الذكر قد عاد إلى الأول . والصحيح أنها إذا عطف على حال قبلها حذفت الواو استئقالا . لاجتماع حرفي عطف ، لأن واو الحال هي واو العطف استعيرت للوصل ، فقولك : جاءنى زيد راجلاً أو هو فارس ، كلام فصيح وارد على حذوه . وأما جاءنى زيد هو فارس ، فخيث . فإن قلت : فما معنى قوله (أهلكناها فجاءها بأسناً) والإهلاك إنما هو بعد مجيء البأس ؟ قلت : معناه أردنا إهلاكها كقوله (إذا قمتم إلى الصلاة) وإنما خص هذان الوقتان وقت البيات ووقت القيولة ، لأنهما وقت الغفلة والدعة ، فيكون نزول

(١) عاد كلامه . قال : «وقوله (هم قائلون) حال معطوفة على بياتا كأنه قيل ، لجاءهم ... الخ قال أحمد : الاكتفاء بالضمير في الجلة الاسمية الواقعة حالا ضعيف . والأصح دخول الواو كما اختاره الزمخشري . وأما الزجاج وغيره فيجعلون أحد الأمرين كافياً في الاسمية ، إما الواو وإما الضمير . وأما قول الزمخشري : إن الجلة المعطوفة إنما حذفت منها واو الحال كراهية لاجتماعها وهي واو عطف أيضاً مع مثلها ، ففيه نظر . وذلك أن واو الحال لا بد أن تمتاز عن واو العطف بجزء . ألا تراها تصحب الجلة الاسمية غيب الفعلية في قولك جاءنى زيد وهو راكب ، ولو كانت عاطفة مجردة لاستقبح توسطها بين المتغايرين وإن لم يكن قبيحاً ، فالأصح خلافه ، فلما رأينا توسط بينهما والكلام حينئذ هو الأنصح أو المتعين ، علمت أنها تمتاز بمعنى وخاصة عن واو العطف ، وإذا ثبت امتيازها عن العاطفة ، فلا غرو في اجتماعها معها ، وإن كان فيها معنى العطف مضافاً إلى تلك الخاصة . فاما أن تسلبه حينئذ لاغناء العاطف عنها ، أو تستمر عليه ، كما تجتمع الواو . ولكن لما فيها من زيادة معنى الاستدراك في مثل قوله (ولكن لا يشعرون) فعلى هذا كان من الممكن أن تجتمع واو الحال مع العاطف بلا كراهية ، والذي يدل على ذلك أنك لو قلت : سبح الله وأنت راكب ، أو وأنت ساجد ؛ لكان فصيحاً لا يخفى فيه ولا كراهة والتحقق - والله أعلم - في الجلة المعطوفة على الحال : أن المصحح لوقوعها حالا من غير واو ، هو العاطف ؛ إذ يقتضى مشاركة الجلة الثانية لما عطف عليه في الحال ، فيستغنى عن واو الحال ، كما أنك تعطف على المقم به فتدخله في حكم القسم من غير واو موقفة في مثل (والليل إذا يمشى والنهار إذا تجمل) وفي مثل (فلا أقسم بالجنس الجوار الكنس والليل إذا عسعس) ولو قلت في غير التلاوة : وبالليل إذا عسعس ، لجاز ، ولكن يستغنى عن تكرار حرف القسم لنياية العاطف منابه . فهذا والله أعلم سبب استثناء الجلة المعطوفة على الحال عن الواو المصححة للحالية ، فالخامل مر هذا أنك إن أتيت بواو الحال صاحباً للعاطف ، لم تخرج عن حد انصاحة إلى الاستئقال ، بل أدت تأكيداً . وإن لم تأت بها فكذلك في الفصاحة مع إفادة الاختصار ، والله الموفق للصواب .

العذاب فيهما أشد وأقطع ، وقوم لوط أهلكوا بالليل وقت السحر ، وقوم شعيب وقت القيلولة .

فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسْنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٥﴾  
 ﴿فما كان دعواهم﴾ ما كانوا يدعونه من دينهم وينتحلونه من مذهبهم إلا اعترافهم بيطلاقه وفساده . وقولهم ﴿إنا كنا ظالمين﴾ فيما كنا عليه . ويجوز : فما كان استغاثتهم إلا قوسم هذا ، لأنه لا مستغاث من الله بغيره ، ومن قولهم دعواهم : بالكعب . ويجوز ، فما كان دعواهم ربهم إلا اعترافهم لعلمهم أن الدعاء لا ينفعهم ، وأن لات حين دعاء ، فلا يزدون على ذم أنفسهم وتحسرهم على ما كان منهم ، (ودعواهم) نصب خبر لكان ، و﴿أن قالوا﴾ رفع اسم له ، ويجوز العكس فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْصُنَّ عَنْهُمْ

يَعْلَمُ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ﴿٧﴾

﴿فلنسألن الذين أرسل إليهم﴾ (أرسل) مسند إلى الجار والمجرور وهو (إليهم) ومعناه : فلنسألن المرسل إليهم وهم الأمم ، يسألهم عما أجابوا عنه رسلهم ، كما قال : (يوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) ويسأل المرسلين عما أجيبوا به ، كما قال : (يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم) ، ﴿فلنقصن عنهم﴾ على الرسل والمرسل إليهم ما كان منهم ﴿يعلم﴾ عالمين بأحوالهم الظاهرة والباطنة وأقوالهم وأفعالهم ﴿وما كنا غائبين﴾ عنهم وعما وجد منهم ، فإن قلت : فإذا كان عالماً بذلك وكان يقصه عليهم ، فما معنى سؤالهم ؟ قلت معناه التوبيخ والتفريع والتقرير إذا فاهوا به بألسنتهم وشهد عليهم أنيائهم .

وَالْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨﴾  
 وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ يَمَّا كَانُوا بِآيَاتِنَا

يَظْلُمُونَ ﴿٩﴾

﴿والوزن يومئذ الحق﴾ يعني وزن الأعمال والتمييز بين راجحها وخفيها . ورفعها على الابتداء . وخبره (يومئذ) . و (الحق) صفته أى : والوزن كمن يوم يسأل الله الأمم <sup>(١)</sup> ورسلهم

(١) قوله د أى والوزن يوم يسأل الله الأمم ، هذا إما يبنى على أن يومئذ متعلق بالوزن ، والحق خير . أما على ما قاله ، فالتقدير : ويوم يسأل الخ ، ويمكن أن مراده : والوزن كمن يوم يسأل الله الأمم ورسلهم ، أى الوزن الحق ، وكان الأقرب : أى والوزن الحق يوم يسأل ... الخ (ع)

الوزن الحق، أى العدل . وقرئ : القسط . واختلف فى كيفية الرزن قليل : توزن صحف الأعمال بميزان له لسان وكفتان ، تنظر إليه الخلائق ، تأكيداً للحجة ، وإظهاراً للنصفة ، وقطعاً للبعد ، كما يسألهم عن أعمالهم فيعرفون بها بألسنتهم ، وتشهد بها عليهم أيديهم وأرجلهم وجلودهم ، وتشهد عليهم الأنبياء والملائكة والشهاد ، وكما ثبت فى صحائفهم فيقرؤنها فى موقف الحساب . وقيل : هى عبارة عن القضاء السون والحكم العادل (فن ثقلت موازينه) جمع ميزان أو موزون ، أى فن رجحت أعماله الموزونة التى لها وزن وقدر وهى الحسنات . أو ماتوزن به حسناتهم . وعن الحسن : وحق لميزان توضع فيه السيئات أن يخف . (بآياتنا يظلمون) يكذبون بها ظلماً : كقوله (فظلوا بها) .

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشَةً قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ⑩  
(مكنناكم فى الأرض) جعلنا لكم فيها مكاناً وقراراً . أو ملكناكم فيها وأقدرناكم على التصرف فيها (وجعلنا لكم فيها معيشة) جمع معيشة وهى مايعاش به من المطاعم والمشارب وغيرها . وما يتوصل به إلى ذلك . والوجه تصریح الياء . وعن ابن عامر : أنه همز ، على التشبيه بصحائف .

وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا

إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ⑪

(ولقد خلقناكم ثم صورناكم) يعنى خلقنا أباكم آدم طيناً غير مصور ، ثم صورناه بعد ذلك . ألا ترى إلى قوله (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) الآية (من الساجدين) من سجد لآدم .

قَالَ مِمَّا عَلَيْكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ

وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ⑫

(ألا تسجد) ولا ، فى (أن لا تسجد) صلة بدليل قوله : ما منعك أن تسجد لما خلقت يدى . ومثلها (لئلا يعلم أهل الكتاب) بمعنى ليعلم : فإن قلت : ما فائدة زيادتها ؟ قلت : تؤكد معنى الفعل الذى تدخل عليه وتحقيقه كأنه قيل : ليتحقق علم أهل الكتاب . وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك ؟ (إذ أمرتك) لأن أمرى لك بالسجود أوجبه عليك إيجاباً وأحتسبه عليك . تم لا بد لك منه . فإن قلت : لم سأله عن المانع من السجود ، وقد علم ما منعه ؟ قلت :

للتوبيخ ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره واقتناره بأصله وازدراؤه بأصل آدم ، وأنه خالف أمر ربه معتقداً أنه غير واجب عليه ، لما رأى أن سجود الفاضل للفضول خارج من الصواب . فإن قلت : كيف يكون قوله ﴿ أنا خير منه ﴾ جواباً لما منعك ، وإنما الجواب أن يقول : معنى كذا ؟ قلت : قد استأنف قصة أخبر فيها عن نفسه بالفضل على آدم ، وبملة فضله عليه ، وهو أن أصله من نار وأصل آدم من طين ، فلم منه الجواب وزيادة عليه ، وهى إنكار للأمر واستبعاد أن يكون مثله مأموراً بالسجود لمثله ، كانه يقول : من كان على هذه الصفة كان مستبعداً أن يؤمر بما أمر به .

قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿١٣﴾

﴿ فاهبط منها ﴾ من السماء التى هى مكان المطيعين المتواضعين من الملائكة ، إلى الأرض التى هى مقر العاصين المتكبرين من الثقلين ﴿ فاما يكون لك ﴾ فاما يصح لك ﴿ أن تتكبر فيها ﴾ وتعصى ﴿ فخرج لك من الصاغرين ﴾ من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك ، كما تقول الرجل : قم صاغراً ، إذا أهنته . وفى ضده : قم راشداً . وذلك أنه لما أظهر الاستكبار ألبس الصغار . وعن عمر رضى الله عنه : من تواضع لله رفع الله حكته <sup>(١)</sup> وقال : انتعش أنعشك الله . ومن تكبر وعدا طوره وهسه <sup>(٢)</sup> الله إلى الأرض <sup>(٣)</sup> .

قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾

(١) قوله رفع الله حكته ، فى الصحاح : حكمة اللجام ما أحاط بالهلك . (ع)

(٢) قوله : وهسه الله إلى الأرض ، وهسه : أى غره إلى الأرض . والومس : كمر الشيء الرخو وشدة الوطء على الأرض ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة فى مصنفه . حدثنا أبو خالد الأحمر وعبد الله بن إدريس وسفيان بن عتبة عن ابن عجلان عن بكير بن الأشج عن معمر بن أبى حبة عن عبيد الله بن عبيد الله بن عدى بن الحيار قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « إن العبد إذا تواضع لله رفع الله حكته وقال : انتعش أنعشك الله ، فهو فى نفسه صغير ، وفى أنفس الناس كبير . وإن العبد إذا تعظم وعدا طوره وهسه الله إلى الأرض . وقال : اخساً خسأك الله ، فهو فى نفسه كبير وفى أنفس الناس صغير . هو أحقر عندهم من خنزيره وأخرجه البيهقي فى الشعب من طريق علي بن المديني عن سفيان . وقد روى بعضه مرفوعاً ، أخرجه الدارقطني فى الملل من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ما من آدمي إلا وملك أخذ بحكته . فاذا رفع نفسه قبل لذلك : وضع حكته . وإذا وضع نفسه قبل لذلك : أرفع حكته » قال : لا يثبت . فيه على بن زيد وهو ضعيف .



فإن قلت : لم أجيب إلى استنظاره ، وإنما استنظر ليفسد عباده ويفوهم <sup>(١)</sup> قلت : لما في ذلك من ابتلاء العباد ، وفي مخالفته من أعظم الثواب ، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي ، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده .

قَالَ فِيمَا أُغْوِيْتَنِي لِأَفْسَدُنَّ لَهَا صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ <sup>(١٦)</sup> ثُمَّ لَا يَتَيْنُهُمْ مِنْ يَمِينٍ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ

شَاكِرِينَ <sup>(١٧)</sup>

(فَمَا أُغْوِيْتَنِي) فسبب إغوائك إياي لأفعلن لهم . وهو تكليفه إياه ما وقع به في النسيء ولم يثبت كما ثبتت الملائكة ، مع كوثهم أفضل منه ومن آدم أنفساً ومناصب <sup>(٢)</sup> . وعن الأصم : أمرتني بالسجود لحملتي الآف على معصيتك . والمعنى : فسبب وقوعي في النسيء لاجتهدن في إغوائهم <sup>(٣)</sup> حتى يفسدوا بسببي ، كما فسدت بسببهم . فإن قلت : بهم تعلقت الباء ، فإن تعلقت

(١) قال محمود : «فإن قلت : لم أجيب إلى استنظاره ، وإنما استنظر ليفسد عباده ... الخ» قال أحد : وهذا السؤال إنما يورده ويلتزم الجواب عنه القدرية الذين يوجبون على الله تعالى رعاية المصالح في أفعاله . وأما أهل السنة فقد أصفوا حق الاصنام إلى قوله تعالى ( لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ) فلا يورد أحد منهم هذا السؤال ولا يجيب عنه من يورده ، والله الموفق .

(٢) قوله «ومن آدم أنفساً ومناصب» هذا عند المعتزلة ، أما عند أهل السنة فأدم أفضل منهم . (ع)

(٣) قال محمود : «والمعنى : فسبب وقوعي في النسيء لاجتهدن في إغوائهم حتى يفسدوا بسببي ... الخ» قال أحد : تحت كلام الزمخشري هذا نزعتان من الاعتزال خفيتان :

إحداهما : تحريفه الإغواء إلى التكليف ، لأنه يمتنع أن الله تعالى لم يفوه ، أي لم يخلق له النسيء بناء على قاعدة التحسين والتفويض والصلاح والأصلح ، فيضطره اعتقاده إلى حل الإغواء على تكليفه بالسجود ، لأنه كان سيئاً في غيره . وكثيراً ما يؤول أفعال الله تعالى إذا أسندها إلى ذاته حقيقة إلى التسبب ، ويجعل ذلك من مجاز السببية ، لأن الفعل له ملابسات بالفاعل والمفعول والزمان والمكان والسبب ، فأسند إلى الفاعل حقيقة ، وإسناده إلى بقية مجاز ويجعل الفعل مسنداً إلى الله تعالى لأنه مسببه لأنه فاعله . وقد استدل على ذلك فيما سلف بقول مالك بن دينار لرجل رآه مقيداً بحبوساً في مال عليه : هذه وضعت القيود في رجلك ، وأشار إلى سلة فيها أخبصة وألوان مختلفة وأما عند المسجون ، أي اعتناؤك بهذه الأطعمة كان سيئاً في تبيذ المال الذي آل بك إلى وضع القيود في رجلك . فعل هذا يروم حل هذه الآية ، يعني بما كلفني من التكليف الذي كان سيئاً في خلق النسيء لأفعلن ، فيجعل إبليس هو الفاعل في الحقيقة . وأما إسناد الفعل إلى الله تعالى فجاز . هذه إحدى النزعتين .

والأخرى : جملة التكليف من جملة الأفعال ، لأنه يزعم أن كلام الله تعالى يحدث من جملة أفعاله ، لا صفة من صفاته ، والتكليف من الكلام ، فهاتان ذلتان مع القدرية بينهما . وإبليس لعنه الله لم يرض واحدة منهما ، لأنه نسب الإغواء إلى الله تعالى ، إذ هو خالق كل شيء ، فالفن بطائفة ترضى لنفسها من خفي الشرك ما لم يسبق به إبليس ، تعود بالله من التعرض لسخط الله .

بلاَقَعْدَنَ يَصُدُّ عَنْهُ لَامُ التَّسْمِ ، لَأَتَقُولَ : والله يزيد لَامَزَنَ ؟ قلت : تعلقت بفعل القسم المحذوف تقديره : فما أغويتني أقسم بالله لأقعدن ، أى فبسبب إغوائك أقسم . ويجوز أن تكون الباء للقسم ، أى : فأقسم يا غوائك لأقعدن ، وإنما أقسم بالإغواء ؛ لأنه كان تكليفاً ، والتكليف من أحسن أفعال الله ، لكونه تعريضاً لسعادة الأبد ، فكان جديراً بأن يقسم به . ومن تكاذيب المجبرة <sup>(١)</sup> ما حكوه عن طاوس أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرى بالقدر ، جلس إليه فقال له طاوس : تقوم أو تقام ، فقام الرجل ، فقيل له : أقول هذا لرجل فقيه ؟ فقال : إبليس أفقه منه ، قال رب بما أغويتني ، وهذا يقول : أنا أغوى نفسى ، وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبايح إلى الله سبحانه ، أن لقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين <sup>(٢)</sup> . وقيل (ما) للاستفهام . كأنه قيل : بأى شيء أغويتني ، ثم ابتدأ لأقعدن . وإثبات الألف إذا أدخل حرف الجر على «ما» الاستفهامية ، قليل شاذ . وأصل الغى الفساد . ومنه : غوى الفصيل ، إذا بشم . والبشم : فساد في المعدة (لأقعدن لهم صراطك المستقيم) لا عرصن لهم على طريق الإسلام كما يعترض العدو على الطريق ليقطعه على السابلة وانتصابه على الظرف ، كقوله :

\* ... كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقَ الثَّعْلَبُ \* <sup>(٣)</sup>

(١) قوله «ومن تكاذيب المجبرة ما حكوه» يعنى أهل السنة ، وسامع الممثلة بذلك ، لقولهم : إن خالق أفعال العباد ولو قيحة هو الله تعالى ، فيكون العبد مجبوراً فيها . فكيف يصح تكليفه . ولكنهم أثبتوا للعبد الكسب في أفعاله ، ولذلك صح تكليفه . أما الجبر المناق للتكليف ، فهو أن لا يكون للعبد دخل في فعله أصلاً ، بحيث يكون كالريشة المعلقة في الهواء . وبه قالت المجبرة الحقيقية ، كما هو مذكور في أواخر المواقف . (ع)

(٢) عاد كلامه . قال : «ومن تكاذيب المجبرة : ما حكوه عن طاوس أنه كان في المسجد الحرام فجاء رجل من كبار الفقهاء يرى بالقدر ، جلس إليه فقال له طاوس تقوم أو تقام ؟ فقام الرجل . فقيل له : أقول هذا لرجل فقيه ؟ فقال : إبليس أفقه منه ، قال رب بما أغويتني . وهذا يقول : أنا أغوى نفسى . انتهى كلام طاوس على زعمهم . وما ظنك بقوم بلغ من تهالكهم على إضافة القبايح إلى الله سبحانه وتعالى أن لقوا الأكاذيب على الرسول والصحابة والتابعين ، انتهى كلامه . قال أحمد : وإنما أوردت مثل هذا من كلامه وإن كان غير محتاج إلى التنبيه على فساد وحيد عن العقائد الصحيحة لتبليغ الحجة في وجوب الرد عليه وتعينه على من هداه الله إليه . ولقد صدق طاوس رضي الله عنه . وأما قول الرغزنى في أهل السنة الذين سماهم مجرة أنهم يتهاكفون في نسبة القبايح إلى الله تعالى ، لحاصله : أنهم يخلصون التوحيد حتى لا يؤمنون بخالق غير الله ، ولكي يصدقوا قوله تعالى متمدحا (الله خالق كل شيء) لا كالقدرية الذين هم يتهاكفون حتى هم يشركون ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فيؤولون الفاعل بالماضي . فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ، والله الموفق للصواب .

(٣) لأن بهر الكف يعمل مثته فيه كما عسل الطريق الثعلب

لساعدة بن جؤية ، يصف رجلاً بأنه لين يضطرب صابه في الكف بسبب هزه ، فلا يمس فيه ، كما عسل أى اضطرب الثعلب في الطريق ، فحذف الجار من الثاني للضرورة ، واغترف لذكره في الأولى . وفي عسل معنى الدخول بمرعة .

وشبهه الزجاج بقولهم : ضرب زيد الظهر والبطن ، أى على الظهر والبطن . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرفة : قعد له بطريق الإسلام فقال له : تدع دين آبائك ، فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال له : تدع ديارك وتتغرب ، فعصاه فهاجر . ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : تقاتل فتقتل فيقسم مالك وتنكح امرأتك ، فعصاه فقاتل <sup>(١)</sup> ، « ثم لا ينجيهم » من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب . وهذا مثل لوسوسته إليهم وتسويله ما أمكنه وقدر عليه ، كقوله ( واستفز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك ) . فإن قلت : كيف قيل ( من بين أيديهم ومن خلفهم ) بحرف الابتداء ( وعن أيماهم وعن شمائلهم ) بحرف المجاوزة ؟ قلت : المفعول فيه عدى إليه الفعل نحو تعديته إلى المفعول به فكما اختلفت حروف التعدية في ذلك اختلفت في هذا ، وكانت لذة تؤخذ ولا تقاس . وإنما يفتش عن صحة موقعها فقط ، فلما سمعناهم يقولون : جلس عن يمينه وعلى يمينه ، وعن شماله وعلى شماله ، قلنا : معنى : على يمينه ، أنه تمكن من جهة اليمين تمكن المستعلي من المستعلي عليه . ومعنى : وعن يمينه ، أنه جلس متجاوفاً عن صاحب اليمين منحرفاً عنه غير ملاصق له . ثم كثر حتى استعمل في المتجاف وغيره ، كما ذكرنا في « تعال » . ونحوه من المفعول به قولهم رميت عن القوس ، وعلى القوس ، ومن القوس ؛ لأن السهم يبعد عنها ، ويستعليها إذا وضع على كبدها للرماية ، ويبتدئ الرمي منها . كذلك قالوا : جلس بين يديه وخلفه بمعنى فيه ؛ لأنهما ظرفان للفعل . ومن بين يديه ومن خلفه : لأن الفعل يقع في بعض الجهتين ، كما تقول : جئته من الليل ، تريد بعض الليل . وعن شقيق : ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربع مراصد : من بين يدي ، ومن خلفي ، وعن يميني ، وعن شمالي : أما من بين يدي فيقول : لا تخف ، فإن الله غفور رحيم ، فأقرأ ( وإني لنفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ) وأما من خلفي ، فيخوفني الضيعة على مخلفي فأقرأ ( وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ) وأما من قبل يميني ، فيأنيبني من قبل الشاء فأقرأ ( والعاقبة للمتقين ) وأما من قبل شمالي فيأنيبني من قبل الشهوات فأقرأ ( وحيل بينهم وبين ما يشتهون ) . « ولا تجد أكثرهم شاكرين » قاله تظنيناً ، بدليل قوله ( ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ) وقيل : سمعه من الملائكة بإخبار الله تعالى لهم .

قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْذُومًا وَمَذْهُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ

مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

(١) أخرجه النسائي وأحمد وابن حبان وأبو يعلى والطبراني من حديث سمرة ابن ألفاك وابن أبي الفاك به وأنهم منه . « تنبيهان » أحدهما : قوله « بأطرفة » ضبطه ثابت في الدلائل بكسر الراء ، بشدة وبضم الراء . وبهاء . ثانيهما : قوله « بأطرفة » : وقع عند الطبري ، ورواه النسائي من حديث سمرة بن مبد . وهو وهم .

(مذؤما) من ذأمه إذا ذقه . وقرأ الزهري : مذؤما بالتخفيف ، مثل مسؤل في مسؤل . واللام في ( لمن تبعك ) موطنه للقسم . و ( لاملأن ) جوابه ، وهو ساذ مسد جواب الشرط ( منكم ) منك ومنهم ، فنلب ضمير المخاطب ، كما في قوله ( إنكم قوم تجهلون ) . وروى بحصة عن عاصم : لمن تبعك ، بكسر اللام ، بمعنى : لمن تبعك منهم هذا الوعيد ، وهو قوله ( لاملأن جهنم منكم أجمعين ) ، على أن ( لاملأن ) في محل الابتداء ، و ( لمن تبعك ) خبره .

وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ١٩ فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ٢٠ وَقَاتَمَهُمَا إِبْنُ لَكُمَا لَيْنَ النَّاصِحِينَ ٢١ فَذَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ٢٢

(ويا آدم) وقلنا يا آدم . وقرئ : هذى الشجرة ، والأصل الياء ، والهاء بدل منها . ويقال : وسوس ، إذا تكلم كلاماً خفياً يكرره . ومنه وسوس الحلي ، وهو فعل غير متعد ، كقولك المرأة ووعوع الذئب ، ورجل موسوس - بكسر الواو - ولا يقال موسوس بالفتح ، ولكن موسوس له ، وموسوس إليه ، وهو الذي تلقى إليه الوسوسة . ومعنى وسوس له : فعل الوسوسة لأجله ، وسوس إليه : ألقاها إليه (ليبدى) جعل ذلك غرضاً له ليسوءهما إذا رأيا ما يؤثران ستره وأن لا يطلع عليه مكشوفاً . وفيه دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور (١) وأنه

(١) قال محمود : « فيه دليل على أن كشف العورة من عظام الأمور ... الخ » قال أحد : وفي هذه الكلمات أيضاً جنوح إلى قاعدة الاعتزال في أمرين ، أحدهما : قوله إن كشف العورة لم يزل مستترجفاً في العقول ، فانه ينشأ عن اعتقاده أن التقيح والتحسين بالعقل وإن جاز أن يصدر هذا الكلام من المعتدل لعقيدة السنة ، إلا أنه لا يريد به ظاهره ، إذ التحسين والتقيح إنما يدركان بالشرع والسمع بالعقل . ومعنى هذا الإطلاق ولو مصدر من سنى : أن العقل يدرك المعنى الذي لأجله حسن الشرع المستر وقيح الكشف . الأمر الثاني : استدلاله على تفضيل الملائكة على الأنبياء . وقد مضى أن ذلك معتقد المعتزلة وإن كان بعض أهل السنة قد مال إليه والجواب من يعتد تفضيل الأنبياء أنه لا يلزم من اعتقاد إبليس ذلك ووسوسه بأن الملائكة أفضل أن يكون الأمر كذلك في علم الله تعالى . ألا ترى إبليس لعنه الله قد أعبر أن الله تعالى منعهما من الشجرة حتى لا يخلداً أولاً يكونا ملكين ؟ وهو في ذلك =

لم يزل مستهجنًا في الطباع مستهجنًا في العقول . فإن قلت : مالوا المضمومة في ( ووري ) لم تقلب همزة كما قلت في أوصل ؟ قلت : لأن الثانية مذكاة كالف واري . وقد جاء في قراءة عبد الله أوري ، بالقلب ( إلا أن تكونا ملكين ) إلا كراهة أن تكونا ملكين . وفيه دليل على أن الملكية بالمنظر الأعلى ، وأن البشرية تلحق مرتبتها كلا ولا . وقرئ : ملكين ، بكسر اللام ، كقوله ( وملك لا يبلى ) . ( من الخالدين ) من الذين لا يموتون ويقون في الجنة ساكنين . وقرئ : من سواتهما ، بالتوحيد . وسواتهما ، بالواو المشددة ( وقاسمهما ) وأقسم لها ( إني لساكن للناسحين ) . فإن قلت : المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك <sup>(١)</sup> تقول : قاسمت فلاناً حالفته ، وتقاسما تحالفا . ومنه قوله تعالى ( تقاسموا بالله لنتينته ) . قلت : كأنه قال لها : أقسم لك إني لمن الناسحين ، وقال له : أقسم بالله إنك لمن الناسحين ، فجعل ذلك مقاسمة بينهم . أو أقسم لها بالنصيحة وأقسما له بقبولها . <sup>(٢)</sup> أو أخرج قسم إبليس على زنة المفاعلة ، لأنه اجتهد فيه اجتهد المقاسم ( فدلاهما ) فزلهما إلى الأكل من الشجرة ( بغرور ) بما غرهما به من القسم بالله . وعن قتادة : وإنما يخدع المؤمن بالله . وعن ابن عمر رضي الله عنه : أنه كان إذا رأى من عبده طاعة وحسن صلاة أعتقه ، فكان عبيده يفعلون ذلك طلباً للعق ، فقليل له : إنهم يخدعونك ، فقال : من خدعنا بالله انخدعنا له <sup>(٣)</sup> ( فلما ذاقا الشجرة ) وجدا طعمها آخذين في الأكل منها . وقيل : الشجرة هي السنبلة . وقيل : شجرة الكرم ( بدت لها سواتهما ) أي تهافت عنهما اللباس فظهرت لهما عورتاهما ، وكانا لا يريانها من أنفسهما ، ولا أحدهما من الآخر . وعن عائشة رضي الله عنها : ما رأيت منه ولا رأيت مني <sup>(٤)</sup> . وعن سعيد بن جبير : كان لباسهما من جنس الاظفار .

== كاذب مبطل ، فلا دليل فيه ، إذ ليس في الآية ما يوجب تقرير الله تعالى لإبليس على ذلك ولا تصديقه فيه ، بل ختمت الآية بما يدل على أنه كذب لها وغرهما ، إذ قال الله تعالى عنه ( فدلاهما بغرور ) فلمل تفضيله للملكية على النبوة من جملة غروره ، والله أعلم .

(١) عاد كلامه . قال : « فإن قلت المقاسمة أن تقسم لصاحبك ويقسم لك ... الخ قال أحمد : ويكون في الكلام حيث ذلف ، لأن آدم وحواء عليهما السلام لا يقسمان له بلفظ المتكلم ، ولكن بالخطاب ، لجعل القسم من الجانبين كلاماً واحداً مضافاً لإبليس .

(٢) عاد كلامه . قال : « أو أقسم لها على النصيحة وأقسما له على قبولها ، قال أحمد ، وهذا التأويل يتم لوجود المقاسمة عن ذكر القسم عليه . وأما حيث جعل المقسم عليه هو النصيحة لا غير ، فيبعد التأويل المذكور ؛ إلا أن يحمل الأمر على أنه سمي قبول النصيحة نصيحة للشاكلة والمقابلة ، كما قيل في قوله تعالى ( وواعظنا موسى ) أنه سمي التزام موسى للوفاء والحضور للعباد ميعاداً ، فأستد التعمير بالمفاعلة ، والله أعلم .

(٣) أخرجه ابن سعد من رواية نافع قال كان ابن عمر إذا اشتد مجبه بشيء من ماله قربه لربه . وكان رفيقه قد عرفوا ذلك منه . فربما شر أحدهم فيلزم المدح . فإذا رآه ابن عمر على تلك الحالة الحسنه أعتقه . فيقول له أصحابه : - فذكره . وأخرجه أبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

(٤) أخرجه أبو يعلى من رواية كامل أبي العلاء عن أبي صالح - رواه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : ==

وعن وهب : كان لباسهما نوراً يحول بينهما وبين النظر . ويقال : طلق بفعل كذا ، بمعنى جعل يفعل كذا . وقرأ أبو السمال : وطفقا بالفتح (يخصفان) ورقة فوق ورقة على عوراتهما ليستتراها ، كما يخصف النمل ، بأن تجعل طرفة على طرفة وتوثق بالسيور . وقرأ الحسن : يخصفان ، بكسر الخاء وتشديد الصاد ، وأصله يخصفان . وقرأ الزهري : يخصفان ، من أخصف ، وهو منقول من خصف أى يخصفان أنفسهما وقرئ : يخصفان ، من خصف بالتشديد (من ورق الجنة) قيل : كان ورق التين (ألم أنهما) عتاب من الله تعالى وتوبيخ وتنبية على الخطأ ، حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله من عداوة إبليس وروى : أنه قال لأدم : ألم يكن لك فيما منحك من شجر الجنة مندوحة عن هذه الشجرة ؟ فقال : بلى وعزتك ، ولكن ما ظننت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً . قال : فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كذا . فأهبط وعلم صنعة الحديد ، وأمر بالحرث لحرث وسقى وحصد وداس وذرى وطحن وعجن وخبز .

قَالَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾  
وسميا ذنبهما وإن كان صغيراً مغفوراً ظلاً لأنفسهما<sup>(١)</sup> وقالوا (لنكونن من الخاسرين) على عادة الأولياء والصالحين في استعظامهم الصغير من السيئات ، واستصغارهم العظيم من الحسنات .  
قَالَ أَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْمِيُونَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾

== قالت عائشة ، ما أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم أحداً من نسائه إلا متقناً مرغى الثوب على رأسه ، وما رأته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا زأه منى - ثنى الفرج ، إسناده ضعيف . وروى الترمذى وابن ماجه وأحمد وابن أبي شيبة من رواية عبد الله بن يزيد عن مولى عائشة قالت : ما رأيت فرج رسول الله صلى الله عليه وسلم قط ، وروى الدارقطني في غرائب مالك عن الزهري ورواه الطبراني في الصغير من رواية أنس عن عائشة مثله - وزاد : ولا نظرت إلى فرجى قط ، وفي إسناده زيد بن الحسن عن مالك . وهو ضعيف . وقال لا يصح هذا عن مالك ولا عن الزهري . وروى الطبراني في الصغير من رواية أنس عن عائشة نحوه . وفي إسناده بركة بن محمد الحلبي ، وهو متروك .

(١) قال محمود : «سميا ذنبهما ظلاً وإن كان صغيراً مغفوراً... الخ» قال أحمد : وهذا أيضاً اعتزال خفي ، لأنهم يزعمون أن اجتناب الكبائر يوجب تكفير الصغائر وإن لم يقب العبد منها . فهذا معنى قول الزعشرى : وإن كان صغيراً مغفوراً . وإنما وسمت هذا الاعتزال بالحقاء ، لأن هذا الكلام يستقيم وروده عن أهل السنة ، لكنهم يحنون بكونه مغفوراً : أن الله تعالى تفضل بغيرانه ، ولو شاء لأخذ به وإن كان الأنبياء معصومين من الكبائر ، لا كما يزعمه المعتزلة من وجوب مغفرته ، وإاقه الموفق .

﴿ اهبطوا ﴾ الخطاب لآدم وحواء وإبليس . و﴿ بعضكم لبعض عدو ﴾ في موضع الحال ، أى متعادين يعاديهما إبليس ويعاديانه ﴿ مستقر ﴾ استقرار ، أو موضع استقرار ﴿ ومتاع إلى حين ﴾ وانتفاع بعيش إلى انقضاء آجالكم . وعن ثابت البناني : لما أهبط آدم وحضرته الوفاة أحاطت به الملائكة ، فجعلت حواء تدور حولهم ، فقال لها : خلى ملائكة ربى فإني أصابني الذى أصابني فيك ، فلما توفي غسلته الملائكة بماء وسدر وترا ، وحنطته وكفنته في وتر من الثياب ، وحفروا له ولحدوا ، ودفنوه بسرنديب بأرض الهند ، وقالوا لبنيه : هذه سنتكم بعده .

يَسْبِي مَادَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ

ذَلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَةِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

جعل مافي الارض منزلا من السماء ، لانه قضى ثم وكتب . ومنه (وأزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) والريش لباس الزينة ، استعير من ريش الطير ، لانه لباسه وزينته ، أى أنزلنا عليكم لباسين : لباسا يوارى سواتكم ، ولباسا يزينكم : لأن الزينة غرض صحيح ، كما قال (لتركبوا زينة) . (ولكم فيها جمال) وقرأ عثمان رضى الله عنه . ورياشاً ، جمع ريش ، كشعب وشعاب ﴿ ولباس التقوى ﴾ ولباس الورع والحشية من الله تعالى ، وارتفاعه على الابتداء وخبره إما الجملة التى هى ﴿ ذلك خير ﴾ كأنه قيل : ولباس التقوى هو خير ، لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر . وأما المفرد الذى هو خير وذلك صفة للبتداء ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير . ولا تخلو الإشارة من أن يراد بها تعظيم لباس التقوى ، أو أن تكون إشارة إلى اللباس الموارى للسوأة ، لأن مواراة السوأة من التقوى ، تفضيلا له على لباس الزينة . وقيل : لباس التقوى خبر مبتدأ محذوف ، أى وهو لباس التقوى ، ثم قيل : ذلك خير . وفى قراءة عبد الله وأنى : ولباس التقوى خير . وقيل : المراد بلباس التقوى : ما يلبس من الدروع والجواشن والمغافر <sup>(١)</sup> وغيرها مما يتقى به فى الحروب وقرئ : ولباس التقوى ، بالنصب عطفاً على لباساً وريشاً ﴿ ذلك من آيات الله ﴾ الدالة على فضله ورحمته على عباده . يعنى إنزال اللباس ﴿ لعلمهم يذكرون ﴾ فيعرفوا عظيم النعمة فيه وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدو السوات وخصف الورق عليها ، إظهاراً للثقة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن التستر باب عظيم من أبواب التقوى .

(١) قوله « الجواشن والمغافر » الجواشن : هى ما ينسج من الدروع على قدر الصدر . والمغافر : ما ينسج منها

على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة . (ع)

يَبْنِي عَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

(لا يفتننكم الشيطان) لا يمتحنكم بأن لا تدخلوا الجنة ، كما نحن أوبىكم بأن أخرجهم منها (ينزع عنهم لباسهما) حال ، أى أخرجهما نازعاً لباسهما ، بأ كان سبباً فى أن نزع عنها (إنه يراكم هو) تعليل للنهى وتحذير من فتنته ، بأنه بمنزلة العدو المداجى (١) يكيدكم ويفتلككم من حيث لا تشعرون . وعن مالك بن دينار . إن عدواً يراك ولا تراه ، لشديد المؤنة إلا من عصم الله (وقيله) وجنوده من الشياطين ، وفيه دليل بين أن الجن لا يرون (٢) ولا يظهرون للإنس ، وأن إظهارهم أنفسهم ليس فى استطاعتهم ، وأن زعم من يدعى رؤيتهم زور ومخرقة (إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون) أى خليفاً بينهم وبينهم (٣) لم نكفهم عنهم حتى تولوهم وأطاعوهم فيما سؤلوا لهم من الكفر والمعاصى ، وهذا تحذير آخر أبلغ من الأول . فإن قلت : علام عطف وقيله ؟ قلت : على الضمير فى يراكم المؤكد هو ، والضمير فى أنه للشأن والحديث ، وقرأ اليزيدى (وقيله) بالنصب وفيه وجهان : أن يعطفه على اسم إن ، وأن تكون الواو بمعنى مع ، وإذا عطفه على اسم إن وهو الضمير فى أنه ، كان راجعاً إلى إبليس .

وَإِذَا فَعَلُوا فَحِيَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا مَبَادِنًا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّا لَأَعْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالًا تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

(١) قوله « العدو المداجى » ، فى الصحاح « المداجاة » المداراة . يقال : داجيته ، إذا داريته ، كأنك سائرته العداوة . (ع)

(٢) قال محمود : وفيه دليل بين أنهم لا يرون ... الخ . قال أحمد : ابن يذهب به هما ورد فى الحديث الفصحح ، من اعتراض إبليس رأسهم ومقدمهم الذى صلى الله عليه وسلم بروم أن يغفل عن صلاته ، حتى أمكنه الله منه فأخذ عليه الصلاة والسلام فدغته وأراد أن يربطه إلى سارية من سوارى المسجد يامب به الصبيان ، حتى ذكر دعوة سليمان عليه السلام فتركه . وإذا جاز ذلك للنبي عليه الصلاة والسلام كان جائزاً لأولياء الله والمتبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كرامة ، لكن العنترى يصد عن ذلك جمعه لكرامة الأولياء . لأنه عقيدة إخوانه ، إذا لكرامة إنما يؤتاها الولي الصادق ، فكيف بناها من يشك فى إسلامه . قائم لى عذر من جمدها والتكذيب بها . ورفقا الله الايمان بالكرامات إن لم نكن لها أهلاً ، والله الموفق .

(٣) قوله « أى خليفاً بينهم وبينهم » . فسر الجعل بذلك ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عند المعزلة . وعند أهل السنة بخلفة كالخير . (ع)



الفاحشة : ما تاب الخ في قبحه من الذنوب ، أى : إذا فعلوها اعتذروا بأن آباءهم كانوا يفعلونها فاقصدوا بهم وبأن الله تعالى أمرهم بأن يفعلوها . وكلاهما باطل من العذر <sup>(١)</sup> لأن أحدهما تقليد والتقليد ليس بطريق للعلم . والثاني افتراء على الله وإلحاد في صفاته ، كانوا يقولون : لو كره الله منا ما فعله لنقلنا عنه . وعن الحسن : إن الله تعالى بعث محمداً صلى الله عليه وسلم إلى العرب وهم قديرة مجبرة <sup>(٢)</sup> يحملون ذنوبهم على الله . وتصديقه قول الله تعالى ﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء ﴾ لأن فعل القبيح مستحيل عليه <sup>(٣)</sup> له دم الداعي ووجود الصارف ، فكيف يأمر بفعله ﴿ أقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ إنكار لإضافتهم القبيح إليه وشهادة على أن مبنى قولهم على الجهل المفرط . وقيل : المراد بالفاحشة : طوافهم بالبيت عراة .

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

الَّذِينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾

﴿ بالقسط ﴾ بالعدل وبما قام في النفوس أنه مستقيم حسن عند كل ميز . وقيل : بالتوحيد ﴿ وأقيموا وجوهكم ﴾ وقيل : أقيموا وجوهكم أى اقصدا عبادته مستقيمين إليها غير عادلين إلى غيرها ﴿ عند كل مسجد ﴾ في كل وقت يسجد ، أو في كل مكان يسجد وهو الصلاة ﴿ وادعوه ﴾ واعبدوه ﴿ مخلصين له الذين ﴾ أى الطاعة ، مبتغين بها وجه الله خالصاً ﴿ كما بدأكم ﴾ تعودون ﴿ كما أنشأكم ابتداء يعيدكم . احتج عليهم في إنكارهم الإعادة بابتداء الخلق ، والمعنى : أنه يعيدكم فيجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة .

فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ

دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

(١) قال محمود : وكلاهما باطل من العذر لأن أحدهما... الخ ، قال أحمد : وهذا أيضاً من الاعتزال الخفي ، وغرضه أن يهد قاعدة التحسين والتقيح ، ومراعاة الصلاح والأصلح ، واستحالة مخالفة ذلك على الله تعالى ولا يتم من ذلك غرض ؛ لأن المنكر عليهم : دعواهم أن الله تعالى أمرهم بالفحشاء ، وهم كاذبون في هذه الدعوى ، ولا يلزم من سلب الأمر الإرادة ، لأن الله تعالى يأمر بما لا يريد ، ويريد ما لا يأمر به .

(٢) قوله « وهم قديرة مجبرة » أى كالمجبرة على أهل السنة ، لقولهم : إن الله يريد الشر كالخير ، والإرادة هي الأمر عند المعزلة ، لكنها لا يغيره عند أهل السنة ، فالفحشاء بإرادته تعالى ، لكنه لا يأمر بها . وتحقيقه في التوحيد . (٣) قوله « فعل القبيح مستحيل عليه » يريد أن الله لا يريد فعل القبيح وهي عقيدة المعزلة . أما عند أهل السنة

فإنه يريد القبيح والحسن « ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن » (ع)

(فريقاً هدى) وهم الذين أسلوا، أى وقفهم للإيمان (وفريقاً حق عليهم الضلالة) أى كفة الضلالة، وعلم الله أنهم يضلون ولا يهتدون. وانتصاب قوله (وفريقاً) بفعل مضمر يفسره ما بعده، كأنه قيل: وخذل فريقاً حق عليهم الضلالة (لأنهم) إن الفريق الذى حق عليهم الضلالة (اتخذوا الشياطين أولياء) أى تولوهم بالطاعة فيما أمرهم به، وهذا دليل على أن علم الله لا أثر له في ضلالهم، وأنهم هم الضالون باختيارهم وتوليتهم الشياطين دون الله.

يَبْنِي عَادَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

(خذوا زينتكم) أى ريشكم ولباس زينتكم (عند كل مسجد) كلما صليتم أو طفتم، وكانوا يطوفون عراة. وعن طاوس، لم يأمرهم بالحرير والديباج، وإنما كان أحدكم يطوف عرياناً ويدع ثيابه وراء المسجد، وإن طاف وهى عليه ضرب وانتزعت عنه، لأنهم قالوا: لا نعبد الله في ثياب أذنبتنا فيها: وقيل: تفاؤلاً ليتعروا من الذنوب كما تعروا من الثياب. وقيل: الزينة المشط. وقيل: الطيب. والسنة أن يأخذ الرجل أحسن هيئته للصلاة، وكان بنو عامر في أيام حجهم لا يأكلون الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً يعظمون بذلك حجهم فقال المسلمون: فإننا أحق أن نفعل، فقيل لهم: كلوا واشربوا ولا تسرفوا. وعن ابن عباس رضى الله عنه: كل ماشئت والبس ماشئت ما أخطأتك خصلتان: سرف وخيلة<sup>(١)</sup> ويحكى أن الرشيد كان له طبيب نصراني<sup>(٢)</sup> حاذق، فقال لعلى بن الحسين بن واقد: ليس في كتابكم من علم الطب شيء. والعلم علمان، علم الأبدان وعلم الأديان، فقال له: قد جمع الله الطب كله في نصف آية من كتابه. قال: وما هى؟ قال: قوله تعالى (وكلوا واشربوا ولا تسرفوا) فقال النصراني: ولا يؤثر من رسولكم شيء في الطب؟ فقال: قد جمع رسولنا صلى الله عليه وسلم الطب في ألفاظ يسيرة. قال: وما هى؟ قال قوله والمعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء<sup>(٣)</sup> وأعط

(١) أخرجه ابن أبي شيبة حدثنا سفيان عن إبراهيم بن مسيرة عن عطاء وطاوس عنه بهذا: لكن قال وختلان. وروى النسائي وابن ماجه وأحمد والحاكم من رواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رفعه و«كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ما لم تخطئوا إسراراً ولا خيلة».

(٢) لم أجد لها - أى حكاية الرشيد - إسناداً.

(٣) لم أجد له، وروى العقيلي في الضعفاء من رواية إبراهيم بن جريج الزهاوي عن زيد بن أبي أنيسة عن الزهري عن أبي سارة عن أبي هريرة - رفعه والمعدة حوض البدن. والعروق إليها واردة: فإذا صحت المعدة صدرت العروق بالصحة. وإذا فسدت المعدة صدرت العروق بالفساد، وقال: حديث باطل لا أصل له. وقال الدارقطني لا يصح ولا يعرف من كلام النبي صلى الله عليه وسلم لسند إبراهيم بن جريج غير هذا وكان طبيباً، فجعل له إسناداً.

كل بدن ماعودته ، فقال النصراني : ماترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبياً .  
 قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ تُفَصَّلُ الْآيَاتِ  
 لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾

(زينة الله) من الثياب وكل ما يتجمل به (والطيبات من الرزق) المستلذات من الماء كل والمشارب . ومعنى الاستفهام في من : إنكار تحريم هذه الأشياء . قيل : كانوا إذا أحرموا حرموا الشاة وما يخرج منها من لحمها وشحمها ولبنها (قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا) غير خالصة لهم : لأن المشركين شركاؤهم فيها (خالصة) لهم (يوم القيامة) لا يشركهم فيها أحد . فإن قلت : هلا قيل : هي للذين آمنوا ولغيرهم . قلت : لينبه على أنها خلقت للذين آمنوا على طريق الاصاله ، وأن الكفرة تبع لهم ، كقوله تعالى (ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار) وقرئ : خالصة بالنصب على الحال ، وبالرفع على أنها خبر بعد خبر .

قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾  
 (الفواحش) ما فاحش قبحه أى تزايد . وقيل هي ما يتعلق بالفروج (والإثم) عام لكل ذنب . وقيل : شرب الخمر (والبغي) الظلم والكبر ، أفرد به بالذكر كما قال (وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى) . (ما لم ينزل به سلطانا) فيه تهكم ، لأنه لا يجوز أن ينزل برهانا بأن يشرك به غيره<sup>(١)</sup> (وأن تقولوا على الله) وأن تقولوا عليه وتفتروا الكذب من التحريم وغيره .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾  
 (ولكل أمة أجل) وعيد لأهل مكة بالعذاب النازل في أجل معلوم عند الله كما نزل بالآدم وقرئ : فإذا جاء آجالهم . وقال (ساعة) لأنها أقل الأوقات في استعمال الناس . يقول المستعجل لصاحبه : في ساعة ، يريد أقصر وقت وأقربه .

(١) قال محمود : «في هذا تهكم لأنه لا يجوز أن ينزل برهانا بأن يشرك به غيره» قال أحد : وإنما يعنى التهكم منه لأن الكلام جرى مجرى ماله سلطان ، إلا أنه لم ينزل : لأنه إنما نفي تنزيل السلطات به ولم ينف أن يكون له سلطان ، وكان أصل الكلام : وأن تشركوا بالله ما لا سلطان به فينزل فيكون على طريقة :

يَبْنِي ءَادَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي قَمَنَ آتَقَى  
وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا  
وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أُخْصِبُ النَّارَ لَهُمْ فِيهَا يَخْلُدُونَ ﴿٣٦﴾

(إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ) هي وإن، الشرطية ضمت إليها وما، مؤكدة لمعنى الشرط. ولذلك لزمت  
فعلها النون الثقيلة أو الخفيفة. فإن قلت: فما جزاء هذا الشرط؟ قلت: الفاء وما بعده من الشرط  
والجزاء. والمعنى: فمن اتقى وأصلح منكم، والذين كذبوا منكم. وقرئ: تأتينكم، بالتاء.

قَمَنَ أَظْلَمُ مِمَّنْ آفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ  
نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جُلِيتْ لَهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا إِنَّا مَا كُنْهُمْ  
تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

(فَمَنْ أَظْلَمُ) فمن أشنع ظلماً ممن تقول على الله ما لم يقله، أو كذب ما قاله (أُولَئِكَ يَنَالُهُمُ  
نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ) أى مما كتب لهم من الأرزاق والأعمار (حَتَّى إِذَا جُلِيتْ لَهُمْ رُسُلُنَا)  
حتى غاية لنيلهم نصيبهم واستيفائهم له، أى إلى وقت وفاتهم، وهى حتى، التى يبتدأ بعدها  
الكلام، والكلام هنا الجملة الشرطية، وهى إذا جاءتهم رسلنا قالوا. و(يَتَوَفَّوْنَهُمْ) حال  
من الرسل، أى متوفيهم. والرسل ملك الموت وأعوانه. وما، وقعت موصولة بأين فى خط  
المصحف، وكان حقها أن تفصل؛ لأنها موصولة بمعنى: أين الآلهة الذين تدعون (ضَلُّوا عَنَّا)  
غابوا عنا فلا نراهم ولا نتفجع بهم، اعترافاً منهم بأنهم لم يكونوا على شيء فيما كانوا عليه، وأنهم  
لم يحمده فى العاقبة.

قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا  
دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا آذَرَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أَخْرَأْتُ لَأُولَئِكَ  
رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتَيْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِن  
لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَئِكَ لَأَخْرَأُكُمْ لَأَخْرَأُكُمْ قَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا

الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

(قَالَ ادْخُلُوا) أى يقول الله تعالى يوم القيامة لأولئك الذين قال فيهم (فمن أظلم من آفترى

على الله كذبا أو كذب بآياته) وهم كفار العرب ﴿في أمم﴾ في موضع الحال ، أى كائنين في جملة أمم ، وفي غمارهم مصاحبين لهم ، أى ادخلوا في النار مع أمم ﴿قد خلت من قبلكم﴾ وتقدم زمانهم زمانكم ﴿لعنت أختها﴾ التي ضلت بالافتداء بها ﴿حتى إذا ادركوا فيها﴾ أى تداركوا بمعنى تلاحقوا واجتمعوا في النار ﴿قالت أخرجهم﴾ منزلة وهى الاتباع والسفلة ﴿لأولاهم﴾ منزلة وهى القادة والرؤس . ومعنى لأولاهم : لأهل أولاهم : لأن خطابهم مع الله لا معهم ﴿عذابا ضعفا﴾ مضاعفا ﴿لكل ضعف﴾ لأن كلا من القادة والاتباع كانوا ضالين مضلين ﴿ولكن لا تعلمون﴾ قرئ بالياء والتاء ﴿فما كان لكم علينا من فضل﴾ عطفوا هذا الكلام على قول الله تعالى للسفلة ﴿لكل ضعف﴾ أى فقد ثبت أن لا فضل لكم علينا ، وأنا متساوون في استحقاق الضعف ﴿فذوقوا العذاب﴾ من قول القادة ، أو من قول الله لهم جميعاً .

إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتُحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾

﴿لا تفتح لهم أبواب السماء﴾ لا يصعد لهم عمل صالح (إليه يصعد الكلم الطيب) ، (كلا إن كتاب الأبرار لى علين) . وقيل : إن الجنة في السماء ، فالمعنى لا يؤذن لهم في صعود السماء ولا يطرق لهم إليها ليدخلوا الجنة . وقيل : لا تصعد أرواحهم إذا ماتوا كما تصعد أرواح المؤمنين . وقيل : لا تنزل عليهم البركة ولا يغاثون ، ففتحنا أبواب السماء . وقرئ : لا تفتح ، بالتشديد . ولا يفتح بالياء . ولا تفتح ، بالتاء والبناء للفاعل ونصب الأبواب ، على أن الفعل للآيات . وبالياء على أن الفعل لله عز وجل . وقرأ ابن عباس : بالجل ، بوزن القمل . وسعيد بن جبير : بالجل ، بوزن النغر . وقرئ : بالجل ، بوزن القمل . والجل ، بوزن النصب . والجل . بوزن الحبل . ومعناها القلس الغليظ ، لأنه جبال جمعت وجعلت جملة واحدة . وعن ابن عباس رضى الله عنه : إن الله أحسن تشبيهاً من أن يشبه بالجل ، يعنى أن الحبل مناسب للخيط الذى يسلك في سم الإبرة ، والبعير لا يناسبه ؛ إلا أن قراءة العامة أوقع لأن سم الإبرة مثل في ضيق المسلك . يقال : أضيق من خرت الإبرة . وقالوا للدليل الماهر : تزيت ، للاهتمام به في المضائق المشبهة بأخترات الإبر . والجمل : مثل في عظم الجرم . قال :

\* جِسْمُ الْجِمَالِ وَأَحْلَامُ الْعَصَافِيرِ \* (١)

إن الرجال ليسوا بجزر تراد منهم الأجسام ، فقيل : لا يدخلون الجنة ، حتى يكون ما لا يكون أبداً من ولوج هذا الحيوان الذي لا يبلغ إلا في باب واسع ، في ثقب الإبرة . وعن ابن مسعود أنه سئل عن الجمل ، فقال : زوج الناقة ، استجبالاً للنفائل ، وإشارة إلى أن طلب معنى آخر تكلف . وقرئ ( في سم ) بالحركات الثلاث : قرأ عبد الله : في سم الخيط ؛ والخياط ؛ والخيط كالخزام والمحزم : ما يخاط به وهو الإبرة ( وكذلك ) ومثل ذلك الجزاء القطيع ( يحزى المجرمين ) ليؤذن أن الاجرام هو السبب الموصل إلى العقاب ، وأن كل من أجرم عوقب ، وقد كرره فقال ( وكذلك يحزى الظالمين ) لأن كل مجرم ظالم لنفسه ( مهاد ) فراش ( غواش ) أغطية . وقرئ : غواش . بالرفع ، كقوله تعالى : وله الجوار المنشآت ، في قراءة عبد الله .

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢)

( لا نكلف نفساً إلا وسعها ) جملة معترضة بين المبتدأ والخبر ، للترغيب في اكتساب ما لا يكتسبه وصف الواصف من النعيم الخالد مع التعظيم بما هو في الوسع ، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح . وقرأ الأعمش : لا تكلف نفس .

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا

(١) حارن عمرو الأحلام تزجركم عنا وأتم من الجوف البخاير  
لا بأس بالقوم من طول ومن عظم جسم الجبال وأحلام العصافير  
كانهم نصب جوف أسافله منقب نفخت فيه الأعاصير

الحسان . ودحار . مرخم حارث ، مبنى على الضم لأنه منادى حذف قبله ياء النداء . و « الأحلام » جمع حلم بالضم : العقول . و « الجوف » بالضم : جمع أجوف ، أى واسع الجوف . و « البخاير » جمع جخور : أى عظيم الجسم . يقول : كيف لا يكون لكم أحلام وأتم عظام الأجرام ، ثم بين ذلك بقوله : لا بأس ولا ضرر يعتري هؤلاء من جهة الطول والغلظ ، يعنى : لا قص بهم من ذلك . وفيه تهكم بهم . أو لا يستنكفون من ذلك فهم أحقاء به ، أو لا بأس يعتريكم بسبب القوم من أجل طولهم وغلظهم فأجسامهم كأجسام الجبال ، وعقولهم كعقول العصافير إن كان لها عقول ، يعنى أنه لا عقل لهم . ويروى « جسم البغال » وشبههم في فراغ أجوافهم من العقل والشجاعة بالنصب : إذا انشقت أجواف أسافله فأعاليه أكثر . وشبه منافذ حواسهم بثقوبه الخالية عن الحس . و « الأعاصير » جمع إعصار ، وهي ريج تهب مستديرة ذاعية نحو السماء . واستعار النفخ لادخالها الهواء فيه بقوة كالنفخ . وفي القافية الألفاء ، لاختلاف حركة الروى بالكسر والضم .

بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

من كان في قلبه غل على أخيه في الدنيا نزع منه ، فسلبت قلوبهم وطهرت ولم يكن بينهم إلا التواد والتعاطف . وعن علي رضي الله عنه : إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم <sup>(١)</sup> ﴿ هذاننا لهذا ﴾ أي وقفنا لموجب هذا الفوز العظيم وهو الإيمان والعمل الصالح ﴿ وما كنا لنهتدي ﴾ اللام لتوكيد النفي <sup>(٢)</sup> ويعنون : وما كان يستقيم أن نكون مهتدين لولا هداية الله وتوفيقه . وفي مصاحف أهل الشام : ما كنا لنهتدي بغير أو ، على أنها جملة موصوفة للأولى ﴿ لقد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ فكان لنا لطفاً وتنبهاً على الاهتداء فاهتدينا يقولون ذلك سروراً واعتباطاً بما نالوا ، ولذا بالتكلم به لا تقرباً وتعبداً ، كما نرى من رزق خيراً في الدنيا يتكلم بنحو ذلك ولا يتأملك أن لا يقوله للفرح لا للقرينة ﴿ أن تِلْكَ الْجَنَّةُ ﴾ أن مخففة من الثقلية تقديره : ونودوا بأنه تِلْكَ الْجَنَّةُ ﴿ أورثتموها ﴾ والضمير ضمير الشأن والحديث أو تكون بمعنى أي : لأن المناداة من الثقل ، كأنه قيل : وقيل لهم أي تِلْكَ الْجَنَّةُ أورثتموها <sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه ابن سعد من رواية جعفر بن محمد عن أبيه . والطبري من رواية معمر عن قتادة عن علي . بكلامه منقطع . وفي ابن أبي شيبة من رواية ربحي عن علي . وهو متصل .

(٢) قال محمود : اللام لتوكيد النفي يعنون وما كان يستقيم ... الخ ، قال أحمد : وهذه تكفيع وجوه القدرة بالرد ، فإنها شاهدة شهادة تامة مؤكدة باللام على أن المهتدي من خلق الله له الهدى ، وأن غير ذلك محال أن يكون ، فلا يهتدي إلا من هدى الله ، ولولم يهده لم يهتد ، وأما القدرة فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى ، فهو إذا مهتد وإن لم يهده الله ، إذ هدى الله لأبعد خلق الهدى له . وفي زعمهم أن الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى ، ولا يتوقف ذلك على خلقه . تعالى الله عما يقولون . ولما ظن الزمخشري لذلك ، جرى على عادته في تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذي يسيه يخلق العبد الاهتداء لنفسه ، فأ نصف من نفسك وأعرض قول القائل : المهتدي من اهتدى بنفسه من غير أن يهده الله - أي يخلق له الهدى ، على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين في دار الحق ( وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ) وانظر تباین هذين القولين ، أعنى قول المعتزلي في الدنيا ، وقول الموحدين في الآخرة في مقعد صدق . واختار لنفسك أي الفريقين يقتدى به ، وما أراك . والخطاب لكل عاقل تعدل بهذا القول المحكى عن أوليا الله في دار السلام منوهاً به في الكتاب العزيز ، قول قدرى ضال تذبذب مع هواء وتقصيه في دار الفروور والزوال . نسأل الله حسن المآب والمآل .

(٣) عادكلامه . قال : « وقوله تعالى ( ونودوا أن تِلْكَ الْجَنَّةُ أورثتموها بما كنتم تعملون ) المراد بسبب أعمالكم ، لا بالتفضل كما تقول المبطلة » قال أحمد : يعني بالمبطلة قوما سمعوا قوله عليه الصلاة والسلام « لا يدخل أحد منكم الجنة بعمله ولكن بفضل الله وبرحمته » . قيل : ولأنت يا رسول الله ؟ قال : « ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضل منه ورحمة ، فقلوا صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهؤلاء هم أهل السنة . قيل لهم : فما معنى قوله تعالى ( وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون ) ؟ قالوا : الله تفضل بأن جعل الجنة جزاء العمل ، فضلاً منه ورحمة ، لأن ذلك مستحق عليه وواجب للمباد وجوب الديون التي لا اختيار في أدائها ، جما بين الدليلين على وجه يطابق دليل العقل ، الدال على أن الله تعالى يستحيل أن يجب عليه شيء . فانظر أيها المنصف ، هل تجد في هذا الكلام من الباطل ما يوجب أن يلقب أفعابه بالمبطلة ؟ وحكم نفسك إليها ، ثم إذا وضع لك أنهم يرآء في هذا البر ، فاعرضه على قوم زعموا أنهم —

(بما كنتم تعملون) بسبب أعمالكم لا بالفضل، كما تقول المبطله (٤٤)  
 وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ  
 وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ  
 عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٥) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ  
 بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٦)

وأن، في (أن قد وجدنا) يحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة وأن تكون مفسرة كالتى  
 سبقت آنفاً، وكذلك (أن لعنة الله على الظالمين) وإنما قالوا لهم ذلك اغتباطاً بحالهم، وشبهة  
 بأصحاب النار، وزيادة في غمهم، لتكون حكاية لطفاً لمن سمعها، وكذلك قول المؤذن بينهم:  
 لعنة الله على الظالمين. وهو ملك يأمره الله فينادى بينهم نداء يسمع أهل الجنة وأهل النار. وقرئ:  
 أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ، بالتشديد والنصب. وقرأ الاعمش: إن لعنة الله، بكسر إن على إرادة القول، أو على  
 إبراء (أذن) مجرى قال. فإن قلت: هلا قيل: ما وعدكم ربكم، كما قيل: ما وعدنا (٤٥) ربنا؟  
 قلت: حذف ذلك تخفيفاً لدلالة وعدنا عليه. ولقائل أن يقول: أطلق ليتناول كل ما وعد  
 الله من البعث والحساب والثواب والعقاب وسائر أحوال القيامة: لأنهم كانوا مكذبين بذلك  
 أجمع، ولأن الموعد كله مما ساءهم، وما نعيم أهل الجنة إلا عذاب لهم فأطلق لذلك.

وَيَبَيِّنُهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا سِيمَهُمْ وَنَادَوْا  
 أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦)  
 (وبينهما حجاب) يعنى بين الجنة والنار. أو بين الفريقين، وهو السور المذكور في قوله  
 تعالى (فضرب بينهم سور). (وعلى الأعراف) وعلى أعراف الحجاب وهو السور المضروب

== يستحقون على الله تعالى حقاً بأعمالهم التى لا يذنبون بوجودها ولا ينصرون بتركها - تعالى وتقدس عن ذلك - ويطلقون  
 القول بلسان الجرامة أن الجنة ونعيمها أقطاعهم بحق مستحق على الله تعالى لا بفضل له عليهم فيه. بل هو بمثابة دين  
 تقاضاه بعض الناس من مديانه. وانظر أى الفريقين المذكورين أحق بقلب المبطله، والسلام.

(١) قوله كما تقول المبطله، يريد أهل السنة القائلين: دخولها بالفضل، واقتسامها بالأعمال، كما في الحديث. (ع)  
 (٢) عاد كلامه: قال: فإن قلت هلا قيل ما وعدكم ربكم كما قيل ما وعدنا... الخ، قال أحد: ولقائل أن يقول:  
 ولو ذكر المفعول حسب ذكره في الأول فليل: فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً، إكان الفصل مطلقاً أيضاً باعتبار  
 الموعد به، لأنه لم يذكر، فكان يتناول كل موجود من البعث والحساب والعقاب، الذى هو أنواع من جهلتها  
 التحصر على نعيم أهل الجنة، فليس ذلك عاصاً بحذف المفعول الواقع على الموعودين، فالوجه أن حذفه إيجاز  
 وتخفيف واستثناء عنه بالأول. والله أعلم.



بين الجنة والنار وهي أعاليه ، جمع عرف استعير من عرف الفرس وعرف الديك (رجال) من المسلمين من آخرهم دخولا في الجنة لقصور أعمالهم ، كأنهم المرجون لأمر الله ، يحبسون بين الجنة والنار إلى أن يأذن الله لهم في دخول الجنة (يعرفون كلا) من زمر السعداء والأشقياء (بسيام) بعلامتهم التي أعلمهم الله تعالى بها ، يابهمهم الله ذلك : أو تعرفهم الملائكة .

وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمِهِمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهْؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

إذا نظروا إلى أصحاب الجنة نادوهم بالتسليم عليهم (وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار) ورأوا ما هم فيه من العذاب استعاذوا بالله وفرعوا إلى رحمة أن لا يجعلهم معهم . ونادوا رجلا من رؤوس الكفرة يقولون لهم (أهؤلاء الذين أقسمت لا ينالهم الله برحمة) إشارة لهم إلى أهل الجنة . الذين كان الرؤساء يستهينون بهم ويحتقرونهم لفقرهم وقلة حظوظهم من الدنيا ، وكانوا يقسمون أن الله لا يدخلهم الجنة (ادخلوا الجنة) يقال لأصحاب الأعراف ادخلوا الجنة وذلك بعد أن يحبسوا على الأعراف وينظروا إلى الفريقين ويعرفونهم بسيامهم ويقولوا ما يقولون . وفائدة ذلك بيان أن الجزاء على قدر الأعمال ، وأن التقدّم والتأخر على حسنها ، وأن أحدا لا يسبق عند الله إلا بسبقه في العمل ، ولا يتخلف عنده إلا بتخلفه فيه ، وليرغب السامعون في حال السابقين ويحرصوا على إحراز قصبتهم ، وليتصوروا أن كل أحد يعرف ذلك اليوم بسيامه التي استوجب أن يوسم بها من أهل الخير والشر ، فيرتدع المسيء عن إساءته ، ويزيد المحسن في إحسانه . وليعلم أن العصاة يؤخّرونهم كل أحد حتى أقصر الناس عملا . وقوله (وإذا صرفت أبصارهم) فيه أن صارفا يصرف أبصارهم لينظروا فيستعيذوا ويوبخوا . وقرأ الأعمش : وإذا قلبت أبصارهم وقرئ : أدخلوا الجنة ، على البناء للبهول . وقرأ عكرمة : دخلوا الجنة . فإن قلت : كيف لام هاتين القراءتين قوله (لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون) ؟ قلت : تأويله : أدخلوا ، أو دخلوا الجنة مقولا لهم : لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون . فإن قلت : ما محل قوله : لم يدخلوها وهم يطعمون ؟ قلت : لا محل له لأنه استثنائي : كأن سائلا سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل : لم يدخلوها وهم يطعمون ، يعني حالهم أن دخولهم الجنة استأخر عن دخول أهل الجنة ، فلم

يدخلونها لكونهم محبوسين وهم يطعمون لم يأسوا . ويجوز أن يكون له محل ، بأن يقع صفة لرجال ( ما أغنى عنكم جمعكم ) المال أو كثرتكم واجتماعكم ( وما كنتم تستكبرون ) واستكباركم عن الحق وعلى الناس ، وقرئ : تستكثرون ، من الكثرة .

وَنَادَى أَصْحَبُ النَّارِ أَصْحَبَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ٥٠ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسِفُ كَمَا نَسَوَا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ٥١

( أفوضوا علينا ) فيه دليل على أن الجنة فوق النار ( أو مما رزقكم الله ) من غيره من الاشربة لدخوله في حكم الإفاضة ، ويجوز أن يراد : أو ألقوا علينا بما رزقكم الله من الطعام والفاكهة . كقوله :  
\* عَلَفْتُنَهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا \* (١)

وإنما يطلبون ذلك مع بأسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم ، كما يفعل المضطر الممتحن . ( حرمهما على الكافرين ) منعمهم شراب الجنة وطعامها كما يمنع المكلف ما يحرم عليه ويحظر ، كقوله :

\* حَرَامٌ عَلَى عَيْنِي أَنْ تَطْعَمَ الْكَرَى \* (٢)

(١) لما حططت الرجل عنها واردا علفتها تبنا وماء باردا يقول : لما حططت الرجل عن الناقة حال كونها وارداً للباء ، علفتها تبنا وسقيتها ماء بارداً ، على حذف العامل في ماء . ويحتمل أن المعنى : ناولتها تبنا وماء على التجوز في العلف ، وذلك لأن الماء لا يكون معلوقاً لها . ويجوز أن يكون مفعولاً معه ، أي علفتها تبنا مصاحبا للباء ، فلا يلزم أن يكون الماء معلوقاً ، ومنعه لأن الماء لا يصاحب اللبن في العلف ، فيه نظر : لجواز أنه وضع لها اللبن ووضع لها ماء معه ، لتناول ماشاته . ورواية القراء هكذا : علفتها تبنا وماء باردا حتى شتت همالة عيناها وشتوت بموضع كذا : أقت به زمن الشتاء ، أي حتى كانت زمن الشتاء همالة : أي كثيرة الدموع عيناها : فهمالة : نصب على الحال ، وعيناها : فاعل به . وبروي : حتى غدت ، وحتى بدت .

(٢) حرام على عيني أن تطعم الكرّى وأن ترفقاً حتى ألقاك يا هند والكرّى : النعاس ، وهو أول النوم . يقال : كرى يكرّى كرى ، من باب تعب إذا نعس . وشبه بالمطعم على طريق المسكنية . ودأن تطعمها أي تذوقا تخييل . ورقاً الدمع والدم - بالهمز - : سكن . وإسناده للعين مجاز عقل ، لأنه للدمع . ويحتمل أنه استعار ترفقاً لتغمضا ، لأن فيه سكن الجفون . يقول : يمنع على عيني النعاس والنموس ، أو عدم البكاء امتناعاً مؤكداً ، كما يمنع المحرم على المكلف ، ففيه استعارة تصرّحية حتى ألقاك يا هند . وأنال من نوالك . وفي النداء معنى التفعّل .

(فاليوم ننسأهم) نفعل بهم فعل الناسين الذين ينسون عييدهم من الخير لا يذكرونهم به ﴿ كما نسوا لقاء يومهم هذا ﴾ كما فعلوا بلفائه فعل الناسين ، فلم يخطروه بياهم ولم يهتموا به .

وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾  
هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٥٣﴾

(فصلناه على علم) عالمين كيف فصل أحكامه ومواظله وقصصه وسائر معانيه ، حتى جاء حكماً قياً غير ذي عوج . وقرأ ابن عباس : فصلناه ، بالضاد المعجمة . بمعنى فصلناه على جميع الكتب ، عالمين أنه أهل للتفضيل عليها . و ( هدى ورحمة ) حال من منصوب فصلناه ، كما أن على علم حال من مرفوعه ﴿ إلا تأويله ﴾ إلا عاقبة أمره وما يؤول إليه من تبين صدقه وظهور صحة ما نطق به من الوعد والوعيد ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ أى تبين وصح أنهم جئوا بالحق ﴿ نرد ﴾ جملة معطوفة على الجملة التى قبلها ، داخلة معها فى حكم الاستفهام ، كأنه قيل : هل لنا من شفعا ، أو هل نرد . ورافعه وقوعه موقفاً يصلح للاسم ، كما تقول ابتداء : هل يضرب زيد؟ ولا يطلب له فعل آخر يعطف عليه . فلا يقدر : هل يشفع لنا شافع أو نرد . وقرأ ابن أبى إسحاق . أو نرد ، بالنصب عطفاً على فيشفعوا لنا . أو تكون ، أو ، بمعنى ، حتى أن ، أى يشفعوا لنا حتى نرد فنعمل ، وقرأ الحسن بنصب ( نرد ) ورفع ( فنعمل ) بمعنى : فنحن نعمل .

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾

( يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ) وقرئ يغشى بالتشديد ، أى يلحق الليل النهار ، والنهار بالليل يحتملها جميعاً . والدليل على الثانى قراءة حميد بن قيس : يغشى الليل النهار ، بفتح الباء ونصب الليل ورفع النهار ، أى يدرك النهار الليل ويطلبه حثيثاً . حسن الملامة لقراءة حميد ﴿ بأمره ﴾ بمشيئته وتصريفه ، وهو متعلق بمسخرات أى خلقهن جاريات بمقتضى حكمته وتديبه ، وكما يريد أن يصرفها سعى ذلك أمراً على التشبيه ، كأنهن مأمورات بذلك . وقرئ : والشمس والقمر

والنجوم مسخرات ، بالرفع . ولما ذكر أنه خلقهن مسخرات بأمره قال ﴿ألا له الخلق والأمر﴾ أى هو الذى خلق الأشياء كلها ، وهو الذى صرفها على حسب إرادته .

ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّحْتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا سَكْدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

﴿تضرعاً وخفية﴾ نصب على الحال ، أى ذوى تضرع وخفية . وكذلك خوفاً وطمعاً . والتضرع تفعل من الضراعة<sup>(١)</sup> وهو الذل ، أى نذلاً وتملقاً . وقرئ . وخفية<sup>(٢)</sup> وعن الحسن رضى الله عنه : إن الله يعلم القلب التقى والدعاء الخفى ، إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره ، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير ولا يشعر الناس به ، وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة وعنده الزور وما يشعرون به ، ولقد أدركننا أقواماً ما كان على الأرض من عمل يتقدرون على أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبداً . ولقد كان المسلمون يجتهدون فى الدعاء وما يسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله تعالى يقول

(١) قال محمود : «التضرع تفعل من الضراعة وهى الدال ... الخ» قال أحمد : وحسبك فى تعيين الاسرار فى الدعاء اقترانه بالتضرع فى الآية . فالإخلاص به كالإخلاص بالضراعة إلى الله فى الدعاء . وإن دعاء لا تضرع فيه ولا خشوع لقليل الجدوى ، فكذلك دعاء لا خفية ولا وقار يصحبه وترى كثيراً من أهل زمانك يعتمدون الصراخ والصياح فى الدعاء ، خصوصاً فى الجوامع حتى يعظم اللفظ ويشتد ، وتستد المسامع وتستد ، ويهت الداعي بالناس ، ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين : رفع الصوت فى الدعاء ، وفى المسجد . وربما حصلت للعوام حينئذ رقة ، لا تحصل مع خفض الصوت ورعاية سمع الوقار وسلوك السنة الثابتة بالآثار ، وماهى الإلارقة شبهة بالارقة العارضة للنساء والأطفال ، ليست خارجة عن صميم الفؤاد ، لأنها لو كانت من أصل لكانت عند اتباع السنة فى الدعاء وفى خفض الصوت . به أوفر وأوفى وأزكى ، فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول «كثير من الخلق» اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه ، وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه .

(٢) قوله «وقرئ» وخفية» لعل هذه بالكسر . (ع)

(ادعوا ربكم تضرعاً وخفية) وقد أثنى على ذكرها فقال (إذ نادى ربه نداءً خفياً) وبين دعوة السر ودعوة العلانية سبعون ضعفاً. (إنه لا يحب المعتدين) أى المجاوزين ما أمروا به فى كل شيء من الدعاء وغيره. وعن ابن جريج: مودع الصوت بالدعاء. وعنه: الصياح فى الدعاء مكروه وبدعة. وقيل: هو الإسهاب فى الدعاء. وعن النبي صلى الله عليه وسلم سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وحسب المرء أن يقول: اللهم إني أسألك الجنة وما قرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول وعمل<sup>(١)</sup> ثم قرأ قوله تعالى (إنه لا يحب المعتدين). (إن رحمة الله قريب من المحسنين) كقوله (وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً). وإنما ذكر (قريب) على تأويل الرحمة بالرحم أو الترحم، أو لأنه صفة موصوف محذوف، أى شيء قريب. أو على تشبيهه بفعل الذى هو بمعنى مفعول كما شبه ذلك به، فقيل قتلا وأسراء، أو على أنه بزنة المصدر، الذى هو التقيض والضعيف<sup>(٢)</sup>. أو لأن تأنيث الرحمة غير حقيقى. قرئ: نشرأ وهو مصدر نشر. وانتصابه إما لأن أرسل ونشر متقاربان، فكأنه قيل: نشرها نشرأ: وإما على الحال بمعنى منتشرات. ونشرأ جمع نشور. ونشرأ تخفيف نشر، كرسل ورسل. وقرأ مسروق: نشرأ، بمعنى منشورات، فعل بمعنى مفعول، كتنقض وحسب. ومنه قولهم: ضم نشره، وبشرأ جمع بشير. وبشرأ بتخفيفه. وبشرأ - بفتح الباء - مصدر من بشره بمعنى بشره، أى باشراته، وبشرى (بين يدي رحمة) أمام رحمة، وهى النيث الذى هو من أتم النعم وأجلها وأحسنها أثراً (أقلت) حملت ورفعت، واشتقاق الإقلال من القلة، لأن الرافع المطبق يرى الذى يرفعه قليلاً (سحاباً ثقلاً) سحاب ثقلاً بالما. جمع سحابة (سقناه) الضمير للسحاب على اللفظ، ولو حمل على المعنى كالثقال لأنث، كما لو حمل الوصف على اللفظ ل قيل ثقيلاً (بلبل ميت) لاجل بلد ليس فيه حياً ولسقيه. وقرئ: ميت (فأنزلنا به) بالبلد أو بالسحاب أو بالسوق. وكذلك (فأخرجنا به... كذلك) مثل ذلك الإخراج وهو إخراج الثمرات (نخرج الموق لعلكم تذكرون)

(١) أخرجه أبو يعلى من رواية شعبة عن زياد بن مهرا عن قيس بن عثان عن مولى سعد بن سعد سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك الجنة وغرفها وكذا وكذا. وأعوذ بك من النار وأغلاها وكذا وكذا. فقال: لقد سألت الله خيراً وتعوذت به من شر كثير. وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: سيكون قوم يعتدون فى الدعاء وبحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك الجنة - الخير - وقال فى آخره: لا أدري قوله وبحسبك إلى آخره من قول سعد أو من قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم. ورواه أبو داود الطيالسى والبيهقى فى الدعوات من طريقه. عن سعد بسنده، إلا أنه قال: وبحسبك أن تقول: اللهم إني أسألك من الخير كله ما علمت منه وما لم أعلم وأعوذ بك من الشر كله ما علمت منه وما لم أعلم فى الباب عن عبد الله بن معقل أخرجه أبو داود وابن ماجه وابن حبان والحاكم.

(٢) قوله «هو التقيض والضعيف» التقيض: هو صوت العقاب وصوت الحمل، والضعيف: صوت الأرنب. (ع)

فيؤذيك التذكر إلى أنه لا فرق بين الإخراجين . إذ كل واحد منهما إعادة للشيء بعد إنشائه (والبلد الطيب) الأرض العذبة الكريمة التربة (والذي خبت) الأرض السبخة التي لا تنبت ما ينتفع به (ياذن ربه) بيسيره وهو في موضع الحال ، كأنه قيل : يخرج نباته حسنا وافيًا لأنه واقع في مقابلة (نكدًا) والنكد الذي لاخير فيه . وقرئ : يخرج نباته ، أى يخرج به البلد وينبته . وقوله (والذي خبت) صفة للبلد ومعناه البلد الخبيث لا يخرج نباته إلا نكدًا ، لحذف المضاف الذي هو النبات ، وأقيم نافع إلى الذى هو الراجع إلى البلد مقامه ؛ إلا أنه كان مجرورًا بارزًا ، فانقلب مرفوعًا مستكنًا لوقوعه موقع الفاعل ، أو يقدر : ونبات الذي خبت . وقرئ : نكدًا ، بفتح الكاف على المصدر . أى ذا نكد . ونكدًا ، بإسكانها للتخفيف ، كقوله : نزه عن الريب ، بمعنى نزه . وهذا مثل لمن يتجفع فيه الوعظ والتنبيه من المكلفين ، ولمن لا يؤثر فيه شيء من ذلك . وعن مجاهد : آدم وذريته منهم خبيث وطيب . وعن قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به ، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت . والكافر بخلاف ذلك . وهذا التثليل واقع على أثر ذكر المطر ، وإزاله بالبلد الميت ، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد (كذلك) مثل ذلك التصريف (نصرف الآيات) نرددها ونكزرها (لقوم يشكرون) نعمة الله وهم المؤمنون ، ليفكروا فيها ويعتبروا بها . وقرئ : يصرف ، بإلياء أى يصرفها الله .

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَعَوَّمُ عِبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ

إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ٥٩

(لقد أرسلنا نوحًا) جواب قسم محذوف . فإن قلت : ما لم لا يكادون ينطقون بهذه اللام ، إلا مع وقد ، وقل عنهم ، نحو قوله :

حَلَفْتُ لِمَا بِاللَّهِ حَلْفَةً فَاجِرٍ لَّنَامُوا ... .. (١)

ألم ترى الدمار والنار أحوالاً  
لأنماوا فإن من حديث ولاصالي  
عليه قاتم كاسف الظن والبال  
ليقتلني والمره ليس بقتال  
ومستونة زرق كأنياب أحوال

فقلت سباك الله إنك فاضحى  
حلقت لما بالله حلقة فاجر  
فأصبحت معشوقاً وأصبح يعلمها  
ينط غليظ السكر شد خنائه  
أيقنتي والمشرقى مضاجعى

(١)

لامرى القيس . يقول : ضجرت محبوبتي سلمي حين ترقبتي ليلا . من أن الرقياء حولها . والسمار : جمع سامر ، بمعنى المتحدث ليلا . وأحوال : جمع حول ، بمعنى جانب ، فيفيد كثرة الناس وانتشارهم في جوانبها . والمقول أنه على صورة الجمع وليس جمعا ، وكذا تثنيته ، لأنه حول الشيء . وحوليه وأحواله وحواله وحواله ، كلها بمعنى =

قلت : إنما كان ذلك لأن الجملة القسمية لاتساق إلا تأكيذاً للجملة المقسم عليها ، التي هي جوابها ، فكانت مظنة لمعنى التوقع الذى هو معنى «قد» عند استماع المخاطب كلمة القسم . قيل : أرسل نوح عليه السلام وهو ابن خمسين سنة ، وكان نجاراً وهو نوح بن ملك بن متوشلخ بن أخنوخ وأخنوخ اسم لإدريس النبي عليه السلام . وقرئ : غيره ، بالحركات الثلاث ، فالرفع على المحل ، كأنه قيل : ما لكم إله غيره . والجر على اللفظ والنصب على الاستثناء . بمعنى : ما لكم من إله إلا إياه ، كقولك : ما فى الدار من أحد إلا زيد أو غير زيد . فإن قلت : فما موقع الجملتين بعد قوله (اعبدوا الله) ؟ قلت : الأولى بيان لوجه اختصاصه بالعبادة . والثانية : بيان للداعى إلى عبادته لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دون الله . واليوم العظيم : يوم القيامة ، أو يوم نزول العذاب عليهم وهو الطوفان .

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦١﴾ أَبْلُغْكُمْ رَسُولُ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾

﴿الملاء﴾ الأشراف والسادة . وقيل : الرجال ليس معهم نساء ﴿فى ضلال﴾ فى ذهاب عن طريق الصواب والحق . ومعنى الرؤية : رؤية القلب . فإن قلت : لم قال ﴿ليس بى ضلالة﴾ ولم يقل ضلال ؟ كما قالوا ؟ قلت : الضلالة أخص من الضلال ، فكانت أبلغ فى نفي الضلال

== جانبه المحيط به ، ويمكن أن يراد بالمفرد : مطلق الجانب مجازاً ، فىبقى ويجمع حقيقة ، والكثير فى الماضى المجاز به القسم قرنه بقدر ، بل قيل : إن لم توجد فيه قدوت قيل ، لأن الجواب مظنة للتوقع الذى هو معنى «قد» لسماع القسم أولاً . و«إن» و«من» زائدتان للتوكيد ، والحديث : بمعنى المتحدث لطابق ما بعده . والصال : المصطل بالنار . وهما هنا حذف دل عليه المقام . أى فسمعت فقلت منها مرادى ، فأعجبته فأصبحت مدشوقاً وقد صكت عاشقاً ، وأصبح زوجها عليه قنام : وهو النبار وسواد الوجه ، كاسف الظن : منعكسه ، فهو مجاز . وكاسف البال : حزين القلب ، أوسى الحال . والعطيط : ارتفاع صوت النفس عند الخلق والنعاس ونحو ذلك . والبكر : القنى من الإبل . والحناق : حبل يخلق به كالحزام لما يتحزم به ، والاسار لما يربط به الأسير . وقوله : ليس بقتال ، أى كما يزعم أنه شجاع . والمشرقى : السيف ، نسبة إلى مشارف جمع مشرف كجعفر ، وهو قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، شبهه بالمضاجع لامتداده بجانيبه وملازمته له ، والمسئونة النبال : المحددة الأطراف . والزرقي : جمع زرقاء ، الصافيات اللون . وشبهها بأنياب الأغوال فى حدة الأطراف ، واستبشاع كل عند النفوس . وهذا لا يستلزم وجود القول ورؤية ناهيا ، وإن زعمته العرب .

(١) قال محمود : «إن قلت لم قال ليس بى ضلالة ولم يقل ضلال .... الخ ؟ قال أحد : تعال به كون فيها أبلغ من نفي الضلال بأنها أخص منه ، غير مستقيم والله أعلم ، فإن نفي الأخص أعم من نفي الأعم ، فلا يستلزمه ضرورة أن الأعم لا يستلزم الأخص ، بخلاف العكس . ألا تراك إذا قلت : هذا ليس بإنسان ، لم يستلزم ذلك أن لا يكون =

عن نفسه ، كأنه قال : ليس في شيء من الضلال ، كما لو قيل لك : ألك تمر ، فقلت : مالى تمره فإن قلت : كيف وقع قوله (ولكنى رسول) استدراكا للانتفاء عن الضلالة ؟ قلت : كونه رسولا من الله مبلغا رسالاته ناصحا ، في معنى كونه على الصراط المستقيم ، فصحّ لذلك أن يكون استدراكا للانتفاء عن الضلالة . وقرئ : أبلغكم ، بالتخفيف . فإن قلت : كيف موقع قوله (أبلغكم) ؟ قلت : فيه وجهان . أحدهما : أن يكون كلاما مستأنفا يانا لكونه رسول رب العالمين . والثاني : أن يكون صفة لرسول . فإن قلت : كيف جاز أن يكون صفة والرسول لفظه لفظ الغائب ؟ قلت : جاز ذلك لأن الرسول وقع خبراً عن ضمير المخاطب وكان معناه ، كما قال :

• أَنَا الَّذِي سَمِعْتُ أُمِّي حَمْدَرَةَ • (٢)

حيوانا . ولو قلت : هذا ليس بحيوان ، لاستلزم أن لا يكون إنسانا ، فتنى الأعم كما ترى أبلغ من نفي الأخير . والتحقيق في الجواب أن يقال : الضلالة أدنى من الضلال وأقل ، لأنها لا تطلق إلا على الفعلة الواحدة منه . وأما الضلال فينطلق على القليل والكثير من جنسه ، ونفى الأدنى أبلغ من نفي الأعلى ، لامن حيث كونه أخصر ، وهو من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، والله أعلم .

(١) قال محمود : إن قلت كيف موقع قوله (أبلغكم) ؟ قلت فيه وجهان . الخ قال أحمد : وقد استدرك ابن جني قول أبي الطيب :

عدولا عن لفظ النية لو كان إلى أدبه ، وهذه الآية والرجز العلوي كفيلا بتحسين ما ارتكبه أبو الطيب .

(٢) أنا الذي سمعت أُمِّي حيدرة كليك غابات ككربه المنظرة

أوفهم بالصاع كيل السندرة أضربكم ضربا يبين الفقره

للإمام علي رضي الله عنه حين بارز مرجا اليهودي يوم خيبر ، فقال مرحب :

قد علت خيبر أُمِّي مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

• إذا الحروب أقبلت تلذب •

فأجابه على بذلك ، وكانت أمه فاطمة بنت أسد سمته كاسم أبيها ، لأن حيدرة ، من أسماء الأسد ، فلما حضر أبو طالب سماه علياً . وسمى الأسد حيدرة ، لشدة اعتداده على من يصول عليه . والليت : اسم جامد له ، واشتقوا منه ، لايته إذا عامله معاملة الليث . والمابة : بيته الذي يغيب فيه . والسندرة : اسم امرأة كانت تتبع البر وتوفى السكيل . أو مكيل كبير . وكان الظاهر أن يقول : الذي سمته أمه ليطابق الضمير مرجعه وهو الموصول في النية . ولكن أتى بضمير التكلم ذهاباً إلى الماضي . وحسنه تقدم ضمير المتكلم ، أي أنا الشجاع الذي ظهرت على أمانة الشجاعة من صغرى ، فسميتي أُمِّي باسم الأسد ، ولأ كذبها في ظنتها ، وأنا كليك غابات منظرته كريمة لمبوسى في وجه عدوى ، ثم قال : أوفى الأعداء ، أي أعطاهم عطاء وافياً ، وكيل السندرة : نصب به على المفعول المطلق ، أو بقدر : أي أكيل لهم مثل كيل المرأة في الوفاء . أو أعطاهم بالصاع الصغير كيل المكيل الكبير . ويرى : أوفهم بالسيف . وهذا من باب الاستمارة التمثيلية التهكمية ، شبه هيئة إيصال الطعام إلى الأعداء بكثرة في مقابلة مكروهه يفرط منهم . هيئة إيصال البر بالسكيل في مقابلة ثمنه ، وإن كان البر محبوباً والطعن مكروهاً ، والثنت مفسراً ذلك بقوله أضربكم ضرباً يبين ، أي يفصل الفقره : جمعها فقرار ، وفقرات . وهي عظام الظهر ، وقد علت خيبر ، أي أهلها . وشاكي السلاح : حاده ونله . يجوز أنه نعت مرحب . ويجوز أنه خبر بعد خبر . وبطل مجرب : خبر بعد خبر لاغير . واستمار الالتهاب لاشتداد الحروب على طريق التصريح .



﴿رسالات ربى﴾ ما أوحى إلى فى الأوقات المتطاولة ، أو فى المعانى المختلفة من الأوامر والنواهى والمواعظ والزواجر والبشائر والتذائر . ويجوز أن يريد رسالاته إليه وإلى الأنبياء قبله من صحف جده إدريس ، وهى ثلاثون صحيفة ، ومن صحف شيث وهى خمسون صحيفة ﴿ وأنصح لكم ﴾ يقال نصحته ونصحت له . وفى زيادة اللام مبالغة ودلالة على إحاض النصيحة وأنها وقعت خالصة للنصوح له مقصوداً بها جانبه لا غير ، فرب نصيحة ينتفع بها الناصح فيقصد النفعين جميعاً ولا نصيحة أحض من نصيحة الله تعالى ورسله عليهم السلام ﴿ وأعلم من الله ما لا تعلمون ﴾ أى من صفات الله وأحواله ، يعنى قدرته الباهرة وشدة بطشه على أعدائه ، وأن بأسه لا يرد عن القوم المجرمين . وقيل : لم يسمعوا بقوم حل بهم العذاب قبلهم فكانوا آمنين لا يملكون ماعليه نوح بوحي الله إليه . أو أراد : وأعلم من جهة الله أشياء لا علم لكم بها قد أوحى إلى بها .

أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ  
وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾

﴿أو عجبتم﴾ الهمزة الإنكار ، والواو للعطف ، والمعطوف عليه محذوف ، كأنه قيل : أ كذبتم وعجبتم ﴿ أن جاءكم ﴾ من أن جاءكم ﴿ ذكر ﴾ موعظة ﴿ من ربكم على رجل منكم ﴾ على لسان رجل منكم ، كقوله ( ما وعدتنا على رسلك ) وذلك أنهم يتعجبون من نبوة نوح عليه السلام ويقولون : ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ، يعنون إرسال البشر ، ولو شاء ربنا لآنزل ملائكة ﴿ لينذركم ولتتقوا ﴾ ليحذركم عاقبة الكفر وليوجد منكم التقوى وهى الخشية بسبب الإنذار ﴿ ولعلكم ترحمون ﴾ ولترحموا بالتقوى إن وجدت منكم .

فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا  
إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

﴿والذين معه﴾ قيل كانوا أربعين رجلاً وأربعين امرأة . وقيل : تسعة ، بنوه سام وحام ويافت ، وستة من آمن به . فإن قلت : ﴿ فى الفلك ﴾ بم يتعلق ؟ قلت : هو متعلق بجمعه ، كأنه قيل : والذين استقروا معه فى الفلك أو صحبوه فى الفلك . ويجوز أن يتعلق بفعل الإنجاء ، أى أنجيناهم فى السفينة من الطوفان ﴿ عمين ﴾ عمى القلوب غير مستبصرين . وقرئ : عامين . والفرق بين العمى والعامى : أن العمى يدل على عمى ثابت . والعامى على عمى حادث . ونحوه قوله ( وضائق به صدرك ) .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ لَعَنَّا لَهُمُ اللَّهُ مَوْلَاهُمْ وَهُمْ لَشَرُّ الْقَوْمِ أَفْلَا

تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَعْلَمُكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَقُومُ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٧﴾ أَتُبْلِكُمْ بِرِسَالَتِي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَنِ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۖ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾

﴿أخاهم﴾ واحداً منهم من قولك : يا أخا العرب ، للواحد منهم . وإنما جعل واحداً منهم ، لأنهم أفهم عن رجل منهم وأعرف بحاله في صدقه وأمانته ، وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح ، وأخاهم : عطف على نوحا . و﴿هوداً﴾ عطف بيان له . فإن قلت : لم حذف العاطف من قوله ﴿قال يا قوم﴾ ولم يقل وقال ، كما في قصة نوح <sup>(١)</sup> ؟ قلت : هو على تقدير سؤال سائل قال : فما قال لهم هود ؟ ف قيل : قال يا قوم اعبدوا الله ، وكذلك ﴿قال الملأ﴾ . فإن قلت : لم وصف الملأ ﴿الذين كفروا﴾ دون الملأ من قوم نوح ؟ قلت : كان في أشراف قوم هود من آمن به ، منهم مرثد بن سعد الذي أسلم وكان يكتنم إسلامه فأريدت التفرقة بالوصف ولم يكن في أشراف قوم نوح مؤمن . ونحوه قوله تعالى : وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ، ويجوز أن يكون وصفاً وارداً للذم لا غير ﴿في سفاهة﴾ في خفة حلم وسفاهة عقل . حيث تهجر دين قومك إلى دين آخر ، وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز : أرادوا أنه متمكن فيها غير منفك عنها . وفي إجابة الأنبياء عليهم السلام - من نسبهم إلى الضلال والسفاهة ، بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والإغضاء وترك المقابلة ، بما قالوا لهم مع علمهم بأنّ خصومهم أضلّ الناس وأسفهمهم - أدب حسن وخلق عظيم ، وحكاية الله عزّ وجلّ ذلك تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء وكيف يفضون عنهم ويسبلون أذيالهم على

(١) قال محمود : فإن قلت لم حذف العاطف من قوله تعالى في قصة هود هذه ﴿قال يا قوم﴾ ولم يقل ﴿فقال﴾ ؟ قلت لأنه أخرج الكلام جواباً عن سؤال سائل ، كأنه قيل : فما قال هود حينئذ ؟ قيل : قال يا قوم ، وكذلك قال الملأ ، قال أحمد : وحذف العاطف من المقابلة . ألا ترى قوله في سورة الشعراء حكاية عن تفاؤل رمى عليه السلام وفرعون ، كيف أسقط ذكر العاطف منه على كثرة الأقوال الممددة فيها . والبر في ذلك - والله أعلم - أن العاطف ينظم الجمل حتى يصيرها كالجمله الواحدة ، فاجتنب لارادة استقلال كل واحدة منها في معناها ، والله أعلم .

ما يكون منهم ﴿ناصح أمين﴾ أى عرفت فيما بينكم بالنصح والامانة ، فاحق أن أتهم . أو أنا لكم ناصح فيما أدعوكم إليه ، أمين على ما أقول لكم لا أكذب فيه ﴿خلفاء من بعد قوم نوح﴾ أى خلفتموه فى الأرض ، أو جعلكم ملوكا فى الأرض قد استخلفكم فيما بعدهم . ﴿فى الخلق بسطة﴾ فيما خلق من أجرامكم ذهابا فى الطول والبدانة . قيل : كان أقصرهم ستين ذراعا ، وأطولهم مائة ذراع ﴿فاذكروا آلاء الله﴾ نى استخلافكم وبسطة أجرامكم وما سواهما من عطاياه . وواحد الآلاء ، إلى ، نحو إني وإنا ، وضلع وأضلاع ، وعنب وأعقاب . فإن قلت : إذ ، فى قوله (إذ جعلكم خلفاء) ماوجه انتصابه ؟ قلت : هو مفعول به وليس بظرف ، أى اذكروا وقت استخلافكم .

قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا  
إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ  
وَعَصَبٌ أَمُّجَدُ لَوْتِي فِي أَسْمَاءٍ تَمِثُّ مَوَهَا أَنْتُمْ وَءَابَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهِمَا مِنْ  
سُلْطٰنٍ فَا تَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ  
مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾

﴿أجئنا لنعبد الله وحده﴾ أنكروا واستبعدوا اختصاص الله وحده بالعبادة ، وترك دين الآباء . فى اتخاذ الأصنام شركاء معه ، حباً لما نشأوا عليه ، وألفاً لما صادفوا آباءهم يتدينون به . فإن قلت : مامعنى المجىء فى قوله ﴿أجئنا﴾ قلت : فيه أوجه : أن يكون لهود عليه السلام مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه ، كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء قبل المبعث <sup>(١)</sup> فلما أوحى إليه جاء قومه يدعوه . وأن يريدوا به الاستهزاء ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يرسل إلا الملائكة ، فكأنهم قالوا : أجئنا من السماء كما يحى الملك ، وأن لا يريدوا حقيقة المجىء . ولكن التعرض بذلك والقصد ، كما يقال : ذهب يشتمنى ، ولاراد حقيقة الذهاب ، كأنهم قالوا : أقصدنا لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك ؟ ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ استعجال منهم للعذاب ﴿قد وقع عليكم﴾ أى حق عليكم ووجب . أو قد نزل عليكم . جعل المتوقع الذى لا بد من نزوله بمنزلة الواقع . ونحوه قولك لمن طلب إليك

(١) متفق عليه من حديث عائشة رضى الله عنها فى بدء الوحي «وكان يخلو بدار حراء يتحنث فيه حتى جاء الوحي وهو بدار حراء» .

بعض المطالب . قد كان ذلك . وعن حسان أن ابنه عبد الرحمن لسهه زنبور وهو طفل ، فجاء يبيكي . فقال له يابني مالك ؟ قال : لسعني طوير كأنه ملتف في بردى حبرة <sup>(١)</sup> ، فضمه إلى صدره وقال له : يابني ، قد قلت الشعر . والرجس : العذاب من الارتجاس وهو الاضطراب ( في أسماء سميتوها ) في أشياء ماهى إلا أسماء ليس تحتها مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة . ومعنى الإلهية فيها معدوم محال وجوده . وهذا كقواه تعالى : ماتدعون من دونه من شيء . ومعنى ( سميتوها ) سميت بها من : سميت زيدا . وقطع دابرهم : استصلحهم وتدميرهم عن آخرهم . وقصتهم أن عاداً ، قد تبسطوا في البلاد ما بين عمان وحضرموت . وكانت لهم أصنام يعبدونها . صداة . وصمود ، والهباء ، فبعث الله إليهم هوداً نبياً ، وكان من أوسطهم وأفضلهم حسباً ، فكذبوه وازدادوا عتواً وتجبراً ، فأمسك الله عنهم القطر ثلاث سنين حتى جهدوا ، وكان الناس إذا نزل بهم بلاء طلبوا إلى الله تعالى الفرج منه عند بيته المحترم مسلمهم ومشركم ، وأهل مكة إذ ذاك العماليق أولاد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح ، وسيدهم معاوية بن بكر ، فجهزت عاد إلى مكة من أمثالهم سبعين رجلاً ، منهم قيل بن عذر ، ومرثد بن سعد الذي كان يكتم إسلامه . فلما قدموا نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً عن الحرم ، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره ، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان . - قينتان كانتا لمعاوية - فلما رأى طول مقامهم وذهولهم باللغو عما قدموا له أهمه ذلك وقال : قد هلك أخوالي وأصهارى وهؤلاء على ما هم عليه ، وكان يستحي أن يكلمهم خيفة أن يظنوا به ثقل مقامهم عليه ، فدكر ذلك للقيتين . فقالتا : قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله . فقال معاوية :

أَلَا بِأَقِيلُ وَيَحْكُ قُمْ قَهْمِيْمُ      لَعَلَّ اللَّهَ يَسْقِيْنَا عَمَامَا  
فَيَسْقِيْ أَرْضَ عَادٍ إِنَّ عَادَا      قَدْ آمَسُوا مَا يَبِينُوْنَ الْكَلَامَا <sup>(٢)</sup>

(١) قوله « في بردى حبرة » حبرة - كعنة - : بردى يمان . اه صحاح . (ع)

(٢)	ألا يا قِيلُ ويحك قُمْ قَهْمِيْمُ	لعل الله يسقينا غماما
	فيسقي أرض عاد إن عادا	قد أمسوا ما يبينون الكلاما
	من العطش الشديد فليس نرجو	لما الشيخ الكبير ولا الفلاما
	وقد كانت نساؤهم بخير	فقد أمست نساؤهم عيامي
	وإن الوحش يأثم جهارا	فلا يخشى لعادى سهاما
	وأثم ههنا فيما اشتبهتم	نباركم وليلكم انعاما
	فقيح وفدكم من وفد قوم	ولا لقوا التحية والسلاما

لمعاوية بن بكر . وروى أن عاداً بعثوا من قومهم : قيل بن عذر ، ونعيم بن هزاله ، ومرثد بن سعد بن عفير ، ==

فلما غنتا به قالوا : إن قومكم يتخوثون من البلاء الذي نزل بهم وقد أبطأتم عليهم ، فادخلوا الحرم واستسقوا لقومكم ، فقال لهم مرثد بن سعد : والله لا تسقون بدعائكم ، ولكن إن أطعتم نبيكم وتبتم إلى الله سقيتم وأظهر إسلامه ، فقالوا للمعاوية : احبس عنا مرثدا لا يقدم معنا مكة ، فإنه قد اتبع دين هود وترك ديننا ، ثم دخلوا مكة فقال قيل : اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم ، فأنشأ الله تعالى سحبات ثلاثاً بيضاء وحمرًا وسوداء ، ثم ناداه مناد من السماء . يا قيل ، اختر لنفسك ولقومك ، فقال : اخترت السوداء فإنها أكثرهن ماء فخرجت على عاد من واد لهم يقال له المغيث ، فاستبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا ، فجاءهم منها ريح عقيم فأهلكتهم ، ونجا هود والمؤمنون معه ، فأتوا مكة فعبدوا الله فيها حتى ماتوا . فإن قلت : ما فائدة نفي الإيمان عنهم في قوله ﴿ وما كانوا مؤمنين ﴾ مع إثبات التكذيب بآيات الله ؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم كمرثد بن سعد ، ومن نجا مع هود عليه السلام ، كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ولم يكونوا مثل من آمن منهم ، ليؤذن أن الهلاك خص المكذبين ، ونجى الله المؤمنين .

== وجهمة بن الحلس خال معاوية بن بكر ، ولقمان بن عاد ، كل منهم مع نفر من رعيته ليدعوا الله بالسقيا عند الكعبة ، فنزلوا عند معاوية بن بكر فأكرمهم وبعث إليهم الجرادتين لتغنيا لهم . وهما قيتان مغنيتان أول من غنى في نساء العرب . فسوا قومهم من كثرة اللهو والطرب . فقال معاوية : هلك أخوالي ، ولو قلت لهم شربنا ظنوا بي بخلا . فأنشأ هذا ، وأمر الجرادتين بفنائنه لهم . والمهينة : صوت خفي لا يفهم . والمراد بها دعاء الله بالسقيا . ويسقينا غماما : أى ماء غمام . ما يبينون الكلام ، لضعفهم من العطش . فليس نرجو ، أى ليس نحن نرجو لها أى إمام . ويروى « به » أى بسبب العطش . وحق الرواية دجها ، أى فى أرض عاد . الشيخ ولا الغلام . والعيمة : شدة الشهوة إلى اللبن . والمراد بها مطلق القافة . والعيامى : جمع عيم بالشديد ، أى رثينة الحال ، وأصله عيائم ، فقلب إلى عيامى ، كما روى أبيامى ، وهو جمع أيم ، وأصله أيائم ، أى فاقدمات الأزواج . فالعنى على التشبيه . ويجوز أن المراد : نساءكم التى تركتموهن كأنهن بلا أزواج هناك . وتكرير النساء للاستعفاف عليهن . والعادى : نسبة لعاد ، وكانوا الغلاظ الشداد . والوحش : اسم جنس جمعى ، واحد وحشى ، كانس وإنسى ، وترك وتركى . فيذكر باعتبار لفظه ، ويؤنس باعتبار جمعته . وروى « بهما » ونهاركم : نصب على الظرف . و« من وفد قوم » تمييز مقترن بمن . والسلام عطف على التحية ، وفيه تورية لأنه يشير إلى انقطاع الكلام ، كما أن المجتمعين يأنيان به عند انفارقه . فلما سمع القوم ذلك انطلقوا إلى الكعبة ، فلحقهم مرثد بن سعد وكان مؤمنا فأخبروه ، فدعا الله تعالى لنفسه لا للقوم . وقال قيل : اللهم إن كان هود صادقا فاسقنا ، فأنشأ صحابة بيضاء وصحابة حمرًا وصحابة سوداء . ثم نودى : يا قيل ، اختر أيها شئت . فقال : أما البيضاء فجعل ، وأما الحمر فعارض . وأما السوداء فبطل ، فاخترها فتودى . قد اخترت رمادا أرمدا ، لا يبق من عاد أحدا ، لا والدا ولا ولدا . فسارت السوداء إلى عاد فأهلكتهم . وجاء لقمان بن عاد بعد أن فرغوا من دعواتهم فقال : اللهم إني جئتكم وحدى ، فأعطينى سؤل . وسأل عمر سبعة أنسر ، وكان عمر النسر ثمانين سنة ، فسكان يأخذ النسر من وكرة فلا يزال عنده حتى يموت ، وكان آخر نسوره اسمه ليد ، فلما مات مات . ثم إن ذلك كان قبل وجود مكة وزمرم . لانهما إنما وجدا في زمن إبراهيم وإسماعيل . فاعلم معاوية بن بكر كان سكنه قريبا من موضع مكة ، لاف نفس موضعها ، لأنه إذ ذاك لم يكن فيه بناء ولا ماء .

وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ  
 قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي  
 أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ  
 خُلَفَاءَ مِنْ بَنِي عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُوءِهَا قُصُورًا وَتَنَحَّيُونَ  
 الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا ءَالَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)

قرئ ﴿والى ثمود﴾ بمنع الصرف بتأويل القليلة ، وإلى ثمود بالصرف بتأويل الحى ؛ أو  
 باعتبار الاصل ؛ لأنه اسم أبهم الا كبير وهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح . وقيل :  
 سميت ثمود لقلة ماؤها ، من الثمد وهو الماء القليل ، وكانت مساكنهم الحجر بين الشام والحجاز  
 إلى وادى القرى ﴿قد جاءتكم بينة﴾ آية ظاهرة وشاهد على صحة نبوتى . وكأنه قيل : ماهذه  
 البينة ؟ فقال ﴿هذه ناقة الله لكم آية﴾ وآية نصب على الحال ، والعامل فيها مادل عليه اسم  
 الإشارة من معنى الفعل ، كأنه قيل : أشير إليها آية . ولكم : بيان لمن هى له آية موجبة عليه  
 الإيمان خاصة وهم ثمود ؛ لأنهم عاينوها وسأروا الناس أخبروا عنها وليس الخبر كالمعاينة ، كأنه  
 قال : لكم خصوصاً ، وإنما أضيفت إلى اسم الله تعظيماً لها وتفخياً لشأنها ، وأنها جاءت من  
 عنده مكنونة من غير خل وطروقة آية من آياته ، كما تقول : آية الله . وروى أن عاداً لما أهلكك  
 عمرت ثمود بلادها وخلقوهم فى الأرض وكثروا وعمرؤا أعماراً طوالاً ؛ حتى أن الرجل كان  
 يبنى المسكن المحكم فيهدم فى حياته ، ففتحوا البيوت من الجبال ، وكانوا فى سعة ورخاء من  
 العيش ، فعتوا على الله وأفسدوا فى الأرض وعبدوا الأوثان ، فبعث الله تعالى إليهم صالحاً  
 عليه السلام ، وكانوا قوماً عرباً وصالحاً من أوسطهم نسباً ، فدعاهم إلى الله تعالى فلم يتبعه إلا قليل  
 منهم مستضعفون ، فغذروهم وأنذروهم ، فسألوه آية ، فقال : آية آية تريدون ؟ قالوا : تخرج معنا  
 إلى عيدنا فى يوم معلوم لهم من السنة ، فتدعوا إهلك وتدعوا أهلكنا ، فإن استجيب لك  
 اتبعناك ، وإن استجيب لنا اتبعنا ، فقال صالح : نعم ، فخرج معهم ودعوا أوثانهم  
 وسألوها الاستجابة فلم تجبهم ، ثم قال سيدهم - جندع بن عمرو ، وأشار إلى صخرة منفردة  
 فى ناحية الجبل يقال لها الكأبة - أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة تخرجه جوفاء وبراء -  
 والمخرجة التى شا كلت البحت - فإن فعلت صدقناك وأجبتناك . فأخذ صالح عليه السلام  
 عنهم المواثيق لئن فعلت ذلك لتؤمنن ولتصدقن ، قالوا : نعم ، فصلى ودعا ربه فتمخضت  
 الصخرة تمخض الشوح بولدها ، فانصدعت عن ناقة عشاء جوفاء وبراء . كما

وصفوا لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله تعالى، وعظماؤهم ينظرون، ثم نتجت ولدأ مثلها في العظم فأمن به جندع ورهط من قومه، ومنع أعقابهم ناس من رؤسهم أن يؤمنوا، فكشكت الناقة مع ولدها ترعى الشجر وتشرب الماء، وكانت ترد غبا، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر فما ترفعه حتى تشرب كل ماء فيها، ثم تنفجج<sup>(١)</sup> فيحتلبون ماشاؤا حتى تمتلئ أو انهم، فيشربون ويدخرون. قال أبو موسى الأشعري: أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعا. وكانت الناقة إذا وقع الحز تصيفت بظهر الوادي فتهرب منها أنعامهم فتربط إلى بطنه وإذا وقع البرد تشتت بطن الوادي فتهرب مواشيم إلى ظهره، فشق ذلك عليهم وزينت عقرها لهم امرأتان: عنيزة أم غم، وصدقة بنت المختار. لما أضرت به من مواشيمها وكانتا كثيرتي المواشي - فعقروها واقتسموا لحمها وطبخوه، فانطلق سقها حتى رقى جبلا اسمه قارة فرغى ثلاثا وكان صالح قال لهم: أدركوا الفصل عسى أن يرفع عنكم العذاب، فلم يقدرُوا عليه وانفجج<sup>(٢)</sup> الصخرة بعد رغاؤه فدخلها. فقال لهم صالح: تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة، وبعد غد ووجوهكم محمرة، واليوم الثالث ووجوهكم مسودة، ثم يصبحكم العذاب فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه. فأنجاه الله إلى أرض فلسطين. ولما كان اليوم الرابع وارتفع الضحى تحنطوا بالصبر وتكفنوا بالانطاع، فأتتهم صبيحة من السماء فتقطعت قلوبهم فهلكوا ﴿تأكل في أرض الله﴾ أى الأرض أرض الله والناقة ناقة الله، فذروها تأكل في أرض ربها، فليست الأرض لكم ولا ما فيها من النبات من أنباتكم ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ لا تضربوها ولا تطردوها ولا تريوها بشيء من الأذى إكراماً لآية الله. ويروى: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين مر بالحجر في غزوة تبوك قال لأصحابه: لا يدخلن أحد منكم القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذنين إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل الذى أصابهم<sup>(٣)</sup>، وقال صلى الله عليه وسلم: يا على، أتدرى من أشقى الأولين؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال وعاقرة ناقة صالح، أتدرى من أشقى الآخرين؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال وقاتلك<sup>(٤)</sup>، وقرأ أبو جعفر في رواية

(١) قوله «ثم تنفجج» أى تفرج ما بين رجلها . (ع)

(٢) قوله «وانفجج الصخرة» أى انفججت . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما من طرق .

(٤) أخرجه ابن إسحاق في المغازى : حدثني يزيد بن محمد بن خيثم عن محمد بن كعب القرظي عن محمد بن خيثم والذ يريد المذكور عن عمار بن ياسر قال «كنت أنا وعلى رفيقين في غزوة العسرة إلى أن قال : فقال يا على ، ألا أخبرك بأشقى الناس : رجلين ؟ قال : بلى يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ثمود الذى عقر الناقة ، والذى يضربك يا على على هذه وأشار إلى رأسه - حتى يبل هذه - ووضع يده على لحيته ، ومن هذا الوجه أخرجه النسائي في الخصائص والحاكم والطبري والبيهقي في الدلائل . وفي الباب عن جابر بن سمرة أخرجه الطبراني وعن صهيب أخرجه أبو يعلى والطبراني . وعن علي أخرجه ابن مردويه في تفسيره والشمس وضحاها (تنبيه) في رواية =

تأكل في أرض الله، وهو في موضع الحال بمعنى آكلة ﴿وبوأكم﴾ وزلکم. والمباءة: المنزل (في الأرض) في أرض الحجر بين الحجاز والشام (من سهولها قصوراً) أى تبنيونها من سهولة الأرض بما تعملون منها من الرهص (١) واللبن والآجر. وقرأ الحسن: وتنتحون بفتح الحاء وتنتحون بإشباع الفتحة، كقوله:

• يَنْبِغُ مِنْ ذَفْرَى أَسِيلِ حُرَّة • (٢)

فإن قلت: علام انتصب ﴿يوتا﴾؟ قلت: على الحال، كما تقول: خط هذا الثوب قميصاً وابر هذه القصة قملاً، وهى من الحال المقدرة، لأن الجبل لا يكون بيتاً في حال النحت، ولا الثوب ولا القصة قميصاً وقلماً في حال الخياطة والبرى. وقيل: كانوا يسكنون السهول في الصيف والجبال في الشتاء.

قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِنَآمَنَ مِنْهُمْ  
أَتَعْلَمُونَ أَنِّ صَلَاحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥)  
قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنَّكُمْ بِهِ كَاذِبُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ  
وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا بَصَلِحْ آتَيْنَا بِمَا نَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ  
الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذْتَهُمُ الرُّجْمَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى

== المذكورين «أن النبي صلى الله عليه وسلم سأله علياً، فقال له في الأول: عاقر الناقة، قال صدقت. وقال في الثانية: لا علم لى» وفي رواية جابر بن سمرة «الله أعلم».

(١) قوله «من الرهص» هو الصخر الثابت في أسفل الحائط. اه من الصحاح. (ع)

(٢) وكان ربا أو كَيْلاً معقداً حش الوقود به جوانب ققم

ينباع من ذفرى أسيل حرة زياقة مثل الفتيق المكرم

لعنرة بن شداد العبسى من معلقته، يصف عرق ناقتة من السير، ففيه بالرب، وهو الصير والطلاء. أو بالكحيل وهو القطران المنعقد بالنار على جوانب الققم. وأعقدت الدواء: أغلته حتى خثر. وحش الوقود: أشعله وأوقده. وهو هنا مبنى للجهول وأصل «ينباع» ينبع، فتولدت الألف للأشباع، والذفرى: نقرة منخفضة جنب الأذن، إذا طال سير البعير انتفخ من وسطها جلدة وارتفعت وسال منها العرق في النقرة، وهى المشبهة بالققم سابقاً. وقيل الذفرى أصل الأذن. والأسيل: الناقة المستقيمة الخلق، من قولهم: خد أسيل، وكف أسيل، وحر كل شيء: خالسه. زياقة: كثيرة الزيف وهو التبخر في السير. والفتيق: خلل الإبل المكرم بأعضائه عن العمل لأجل الضراب، فالمكرم: نعت مفسر. ويروى المكدم بالبدال. ويقال: كدمه إذا عضه. وأما أكدمه فلم أقف عليها، ولعلها لغة قليلة. والمكدم اسم مفعول منها، أى الذى كدمته الفحول وعضته فأثرت فيه لتثقب جلدها من أثر الرحل والركض. وروى: من ذفرى غضوب جمرة، أى شديدة الغضب صلبة مؤثرة الخلق. وقيل «ينباع» وزنه وبفعل، من البوع، وهو طى المسافة البعيدة، ولا معنى له في البيت.



عَنْهُمْ وَقَالَ بَقَوْمٍ لَقَدْ أَتَيْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَأَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ

لَا تَحِجُّونَ النَّصِيحِينَ ﴿٧٩﴾

(الذين استضعفوا) للذين استضعفهم رؤساء الكفار واستنلوه . و(لمن آمن منهم) بدل من الذين استضعفوا . فان قلت : الضمير في منهم راجع إلى ماذا (١) ؟ قلت : إلى (قومه) أو إلى (الذين استضعفوا) . فإن قلت : هل لاختلاف المرجعين أثر في اختلاف المعنى ؟ قلت : نعم وذلك أن الراجع إذا رجع إلى قومه فقد جعل (من آمن) مفسراً لمن استضعف منهم ، فدل أن استضعفهم كان مقصوراً على المؤمنين ، وإذا رجع إلى الذين استضعفوا لم يكن الاستضعاف مقصوراً عليهم ، ودل أن المستضعفين كانوا مؤمنين وكافرين (أعلمون أن صالحاً مرسل من ربه) شيء قالوه على سبيل الطعن والسخرية ، كما تقول للجسمه : أعلمون أن الله فوق العرش . فان قلت : كيف صح قولهم (إنا بما أرسل به مؤمنون) جواباً عنه (٢) ؟ قلت : سألوهم عن العلم بإرساله ، فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً لا يدخله ريب ، كأنهم قالوا : العلم بإرساله وبما أرسل به مالا كلام فيه (٣) ولا شبهة أدخله لوضوحه وإنارته ، وإنما الكلام في وجوب الإيمان به ، فنخبركم أنا به مؤمنون ، ولذلك كان جواب الكفرة (إنا بالذي أمتم به كافرون) (٤) فوضعوا (أمتم به) موضع (أرسل به) رداً لما جعله المؤمنون معلوماً وأخذوه مسلماً (ففقروا الناقه) أسند العقر إلى جميعهم لأنه كان برضاهم وإن لم يباشره إلا بعضهم ، وقد يقال للقبيلة الضخمة : أتم فعلتم كذا ، وما فعله إلا واحد منهم (وعتوا عن أمر ربهم) وتولوا عنه واستكبروا عن امتثاله عاتين ، وأمر ربهم : ما أمر به على لسان صالح عليه السلام من قوله (قدروها تأكل في أرض الله) أو شأن ربهم وهو دينه . ويجوز أن يكون المعنى : وصدر عتوهم عن أمر ربهم ، كأن أمر ربهم بتركها كان هو السبب في عتوهم . ونحو عن هذه ما في قوله (وما

(١) قال محمود : «إت قلت الضمير في منهم راجع إلى ماذا ؟ قلت : إلى قومه ... الخ» قال أحد : بقوله (لمن) على الأول بدل الشيء من الشيء . ومما لعين واحدة . وعلى الثاني بدل بعض من كل .

(٢) عاد كلامه . قال محمود : «فان قلت كيف وقع قولهم إنا بما أرسل به مؤمنون جواباً ... الخ» قال أحد : وقولهم (إنا به مؤمنون) ليس إخباراً عن وجوب الإيمان به ، بل عن امتثال الواجب والعمل به ، ونحن قد امتثلنا .

(٣) قوله «ما لا كلام فيه» علله : بما لا كلام فيه . (ع)

(٤) عاد كلامه . قال محمود : «ولذلك كان جواب الكفرة إنا بالذي ... الخ» قال أحد : ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا : إنا بما أرسل به كافرون ، ولكن أبوا ذلك حذراً عما في ظاهره من إنباتهم لرسالاته وهم يجحدونها . وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم ، كما قال فرعون (إن رسولكم الذي أرسل إليكم مجنون) فأثبت إرساله تهكماً ، وليس هذا موضع التهكم ، فان الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله ، فلماذا خلص الكافرون قولهم عن إشعار الإيمان بالرسالة احتياطاً للكفر وعلواً في الإصرار .

فعلته عن أمرى) «اتننا بما تعدنا» أرادوا من العذاب. وإنما جاز الإغلاق لأنه كان معلوماً. واستعجلهم له لتكذيبهم به، ولذلك علقوه بما هم به كافرون، وهو كونه من المرسين (الرجفة) الصيحة التي زلزلت لها الأرض واضطربوا لها (في دارهم) في بلادهم أو في مساكنهم (جائئين) هامدين لا يتحركون موتى. يقال: الناس جثم، أى قعود لا حراك بهم ولا ينبسون نبسة. ومنه الجثمة التي جاء النهى عنها<sup>(١)</sup>، وهى البهيمة تربط وتجمع قوائمها لترمى. وعن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما مر بالحجر قال: «لا تسألوا الآيات، فقد سأله قوم صالح فأخذتهم الصيحة، فلم يبق منهم إلا رجل واحد كان في حرم الله. قالوا من هو؟ قال: ذاك أبو رغال، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصاب قومه<sup>(٢)</sup>»، وروى أن صالحاً كان بعثه إلى قوم يخالف أمره. وروى أنه عليه السلام مر بقبر أبي رغال فقال: «أتدرون من هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. فذكر قصة أبي رغال، وأنه دفن هنا ودفن معه غصن من ذهب، فابتدروه وبحثوا عنه بأسيا فهم فاستخرجوا الغصن<sup>(٣)</sup>». (فتولى عنهم) الظاهر أنه كان مشاهد المساجرى عليهم، وأنه تولى عنهم بعدما أبصرهم جائئين، تولى مقتم متحسر على ما فاتته من إيمانهم يتحزن لهم ويقول «يا قوم لقد» بذلت فيكم وسعياً ولم آل جهداً في إبلاغكم والنصيحة لكم ولكنكم (لا تحبون الناصحين) ويجوز أن يتولى عنهم تولى ذاهب عنهم، مشكر لإصرارهم حين رأى العلامات قبل نزول العذاب. وروى أن عقرهم الناقة كان يوم الأربعاء، ونزل بهم العذاب يوم السبت. وروى أنه خرج في مائة وعشرة من المسلمين وهو يبكي، فالتفت فرأى الدخان ساطعاً فعلم أنهم قد هلكوا، وكانوا ألفاً وخمسمائة دار. وروى أنه رجع بمن معه فسكنوا ديارهم. فإن قلت: كيف صح خطاب الموتى وقوله (ولكن لا تحبون الناصحين)؟ قلت: قد يقول الرجل لصاحبه وهو ميت وكان قد نصحه حياً فلم يسمع منه حتى ألقى بنفسه في التهلكة: يا أخى، كم نصحتك وكما قلت لك فلم تقبل منى؟ وقوله (ولكن لا تحبون الناصحين) حكاية حال ماضية.

(١) أما النهى فرواه أصحاب السنن وابن حبان والحاكم من حديث قتادة عن عكرمة عن ابن عباس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن الشرب من في السماء، وعن ركوب الجلالة، وعن المجتمعة، ورواه البزار من طريق الوراق عن قتادة عن أنس. ثم وكذا قال، وأخرجه البزار وقال: إسناده حسن. ومن حديث القرناص بن سارية وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن المجتمعة، أخرجه الترمذى وحسنه من رواية سعيد بن المسيب عن أبي الدرداء قال «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل المجتمعة وهى التي تضرب بالبلل».

(٢) أخرجه ابن حبان والحاكم وأحمد وإسحاق والطبري من رواية عبد الله بن عثمان بن خيثم عن أبي الزبير عن جابر - وزاد «في غزوة تبوك»، فقام لخطب الناس.

(٣) أخرجه أبو داود وابن حبان والطبراني والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل من رواية مجير بن أبي مجير عن عبد الله بن عمرو بن العاص ولفظه «فابتدروه الناس فاستخرجوا الغصن، وأما قوله «فبحثوا عنه بأسيا فهم» فأخرجه عبد الرزاق عن معمر مرسلاً.

- وَلَوْ طَا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾  
 إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿٨١﴾  
 وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنْفُسٌ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٢﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٨٣﴾  
 وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرْ كَيْفَ كَانَ صَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

﴿ولو طأ﴾ وأرسلنا لوطا . و﴿إذ﴾ ظرف لأرسلنا . أو واذ كر لوطا ، وإذا بدل منه ، بمعنى : وإذا كر وقت ﴿قال لقومه أتأتون الفاحشة﴾ ثم يفعلون السيئة المتبادية في القبح ﴿ما سبقكم﴾ بها ﴿ما عملها قبلكم ، والبلاء للتعدي من قولك : سبقته بالكرة ، إذا ضربتها قبله . ومنه قوله عليه السلام : سبقك بها عكاشة (١)﴾ ، ﴿من أحد من العالمين﴾ ومنه الأولى زائدة لتوكيد النفي وإفادة معنى الاستغراق ، والثانية للتبويض . فإن قلت : ما موقع هذه الجملة ؟ قلت : هي جملة مستأنفة ، أنكر عليهم أولا بقوله ﴿أتأتون الفاحشة﴾ ثم وبخهم عليها فقال : أنتم أول من عملها . أو على أنه جواب لسؤال مقدر . كأنهم قالوا : لم لا نأتها ؟ فقال : ما سبقكم بها أحد . فلا تفعلوا ما لم تسبقوا به ﴿أنذكم لتأتون الرجال﴾ بيان لقوله : أتأتون الفاحشة . والهمزة مثلها في ﴿أتأتون﴾ للإنكار والتعظيم . وقرئ : إنكم ، على الإخبار المستأنف لتأتون الرجال ، من أتى المرأة إذا غشيها ﴿شهوة﴾ مفعول له . أى للاشتهاء لاحمال لكم عليه إلا يجزء الشهوة من غير داع آخر ، ولا ذم أعظم منه ، لانه وصف لهم بالبهيمية ، أنه لا داعي لهم من جهة العقل البتة كطاب النسل ونحوه أو حال بمعنى مشتبهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماجة ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أضرب عن الإنكار إلى الإخبار عنهم بالحال التي توجب ارتكاب القبائح وتدعو إلى اتباع الشهوات وهو أنهم قوم عادتهم الإسراف وتجاوز الحدود في كل شيء ، فمن ثم أسرفوا في باب قضاء الشهوة . حتى تجاوزوا المعتاد إلى غير المعتاد . ونحوه ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ . ﴿وما كان جواب قومه إلا أن قالوا﴾ يعنى ما أجابوه بما يكون جواباً عما كلمهم به لوط عليه السلام ، من إنكار الفاحشة . وتعظيم أمرها ، ووسمهم بسمة الإسراف الذى هو أصل الشر كله ، ولكنهم جاؤا

(١) متفق عليه من حديث ابن عباس في قصة . وسلم من حديث أبي هريرة نحوه . ومن حديث عمران بن حصين رضي الله عنه .

بشيء آخر لا يتعلق بكلامه ونصيحته ، من الأمر بإخراجه ومن معه من المؤمنين من قريتهم ، ضجراً بهم وبما يسمعونهم من وعظهم ونصحهم . وقولهم ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ سخرية بهم وبطهرهم من الفواحش ، واقتخاراً بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الشطار من الفسقة لبعض الصالحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتكشف <sup>(١)</sup> ، وأريحونا من هذا المتزهّد ﴿وأهله﴾ ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين <sup>(٢)</sup> ﴿من العابرين﴾ من الذين غبروا في ديارهم ، أى بقوا فهلكوا . والتذكير لتغليب الذكور على الإناث . وكانت كافرة موالية لأهل سدوم . وروى أنها التفتت فأصابها حجر فأتت . وقيل : كانت المؤتفكة خمس مدائن . وقيل : كانوا أربعة آلاف بين الشام والمدينة ، فأمر الله عليهم الكبريت والنار . وقيل : خسف بالمقيمين منهم ، وأمطرت الحجارة على مسافرهم وشذاذهم . وقيل : أمطر عليهم ثم خسف بهم . وروى أن تاجراً منهم كان في الحرم فوقف له الحجر أربعين يوماً حتى قضى تجارته وخرج من الحرم فوقع عليه . فإن قلت : أى فرق بين مطر وأمطر ؟ قلت : يقال مطرتهم السماء وواد بمطور <sup>(٣)</sup> . وفى نوابغ الكلم : حرى غير بمطور . حرى أن يكون غير بمطور <sup>(٤)</sup> ومعنى مطرتهم : أصابتهم بالمطر ، كقولهم . غاثتهم ووبلتهم وجادتهم ورهمتهم . ويقال : أمطرت عليهم كذا ، بمعنى أرسلته عليهم لإرسال المطر (فأمطر علينا حجارة من السماء) ، (وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل) . ومعنى ﴿وأمطرنا عليهم مطراً﴾ وأرسلنا عليهم نوعاً من المطر عجيّباً يعنى الحجارة . ألا ترى إلى قوله ﴿فساء مطر المنذرين﴾ .

وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ  
قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ

(١) قوله «أبعدوا عنا هذا المتكشف» المتكشف : هو الذى يتبلغ بالقوت وبالمرقع ، من الكشف : وهو التغير من الشمس أو الفقر له . (ع)

(٢) قوله «من ذويه أو من المؤمنين» يعنى أقاربه وامراته . (ع)

(٣) قال محمود : ويقال مطرتهم السماء وواد بمطور... الخ ، قال أحمد : مقصود المصنف الرد على من قول : مطرت السماء في الخير ، وأمطرت في الشر . ويشوم أنها تفرقة وحشية ، فبين أن أمطرت : معناه أرسلت شيئاً على نحو المطر وإن لم يكن ماء ، حتى لو أرسل الله من السماء أنواعاً من الخيرات والأرزاق مثلاً كان والسوى ، لجاز أن يقال فيه : أمطرت السماء خيرات ، أى أرسلتها إرسال المطر . فليس للشر خصوصية في هذه الصيغة الرباعية ، ولكن اتفق أن السماء لم ترسل شيئاً سوى المطر إلا وكان عذاباً ، فظن الواقع اتفاقاً مقصوداً في الوضع فيه على تحقيق الأمر فيه وأحسن وأجل .

(٤) قوله «حرى غير بمطور حرى أن يكون غير بمطور» حرى الأول بمعنى ناحية وجانب . والثاني بمعنى جدير وحقيق . وبمطور الأول بمعنى مصاب بالمطر . والثاني بمعنى مذهب فيه . كذا يؤخذ من الصحاح . (ع)

أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٧﴾

كان يقال لشعيب عليه السلام خطيب الأنبياء، لحسن مراجعته قومه وكانوا أهل نجس للسكايل والموازن (قد جاءكم بينة من ربكم) معجزة شاهدة بصفة نبوتى أوجبت عليكم الإيمان بي والاختصاص بما أمركم به والانتها عما أنهاكم عنه، فأوفوا ولا تبخسوا. فإن قلت: ما كانت معجزته؟ قلت: قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة، لقوله (قد جاءكم بينة من ربكم) ولأنه لا بد لدعى النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه، وإلا لم تصح دعواه، وكان متبناً لأنبياء غير أن معجزته لم تذكر في القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم فيه. ومن معجزات شعيب عليه السلام: ما روى من محاربة عصى موسى عليه السلام التين<sup>(١)</sup> حين دفع إليه غنمه. وولادة الغنم الدرع خاصة حين وعده أن تكون له الدرع من أولادها، ووقوع عصى آدم عليه السلام على يده في المرات السبع، وغير ذلك من الآيات؛ لأن هذه كلها كانت قبل أن يستنبأ موسى عليه السلام، فكانت معجزات لشعيب. فإن قلت: كيف قيل (الكيل والميزان) وهلا قيل: المكيال والميزان، كما في سورة هود عليه السلام؟ قلت: أريد بالكيل: آلة الكيل وهو المكيال. أو سمي ما يكال به بالكيل، كما قيل: العيش، لما يعاش به. أو أريد: فأوفوا الكيل ووزن الميزان. ويجوز أن يكون الميزان كالميزان والميلاد بمعنى المصدر. ويقال: نبخسه حقه: إذا نقصته إياه. ومنه قيل للكسر البخس. وفي أمثالهم: تحسبها حمقاء وهى باخس. وقيل (أشياءهم) لأنهم كانوا يبخسون الناس كل شيء في مباحاتهم، أو كانوا مكاسين لا يدعون شيئاً إلا مكسوه كما يفعل أمراء الحرمين. وروى أنهم كانوا إذا دخل الغريب بلدهم أخذوا دراهمه الجياد وقالوا: هي زيوف فقطعوها قطعاً، ثم أخذوها بنقصان ظاهر أو أعطوه بدلاً زيوفاً (بعد إصلاحها) بعد الإصلاح فيها، أى لا تفسدوا فيها بعدما أصلح فيها الصالحون من الأنبياء وأتباعهم العاملين بشرائعهم. وإضافته كإضافة قوله (بل مكر الليل والنهار) بمعنى بل مكركم في الليل والنهار، أو

(١) قوله «التين» هو ضرب من الحيات والدرع سود الرأس بيض سائر الأبدان اهـ (ع)

بعد إصلاح أهلها على حذف المضاف ﴿ذلكم﴾ إشارة إلى ما ذكر من الوفاء بالكيل والميزان وترك البخس والإفساد في الأرض . أو إلى العمل بما أمرهم به ونهاهم عنه . ومعنى ﴿خير لكم﴾ يعني في الإنسانية وحسن الاحدوثه . وهاتطلبونه من التكسب والتربح . لأن الناس أرغب في متاجرتكم إذا عرفوا منكم الامانة والسوية ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم مصدقين لى فى قولى ذلكم خير لكم ﴿ولا تقعدوا بكل صراط﴾ ولا تقعدوا بالشيطان فى قوله ﴿لا قعدن لهم صراطك المستقيم﴾ فتقعدوا بكل صراط أى بكل منهاج من منهاج الدين . والدليل على أن المراد بالصراط سبيل الحق قوله ﴿وتصدون عن سبيل الله﴾ ومحل (توعدون) وما عطف عليه : النصب على الحال أى : ولا تقعدوا موعدين وصادين عن سبيل الله ، وباغيا عوجاً . فإن قلت : صراط الحق واحد ، (وأن هذا صراطى مستقيماً فانبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) فكيف قيل : بكل صراط ؟ قلت : صراط الحق واحد ، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة ، فيكانوا إذا رأوا أحداً يشرع فى شىء منها أو عدوه وصدوه . فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى ﴿آمن به﴾ ؟ قلت : إلى كل صراط . تقديره : توعدون من آمن به وتصدون عنه ، فوضع الظاهر الذى هو سبيل الله موضع الضمير ، زيادة فى تقييح أمرهم ، ودلالة على عظم ما يصدون عنه . وقيل : كانوا يجلسون على الطرق والمراصد ، فيقولون لمن مر بهم : إن شعباً كذاب فلا يفتنكم عن دينكم ، كما كان يفعل قريش بمكة . وقيل : كانوا يقطعون الطرق . وقيل : كانوا عشارين ﴿وتبغونها عوجاً﴾ وتطلبون لسبيل الله عوجاً ، أى يكون تهاك بهم ، وأنهم سبيل معوجة غير مستقيمة ، لتصدوهم عن سلوكها والدخول فيها : أو يكون تهاك بهم ، وأنهم يطلبون لها ما هو محال ، لأن طريق الحق لا يعوج ﴿واذكروا إذ كنتم قليلاً﴾ إذ مفعول به غير ظرف . أى : واذكروا على جهة الشكر وقت كونكم قليلاً عددكم ﴿فكثركم﴾ الله ووفر عددكم . قيل : إن مدين بن إبراهيم تزوج بنت لوط فولدت فرمى الله فى نسلها بالبركة والنماء فكثروا وفشوا . ويجوز إذ كنتم مقلين فقراء فكثركم : فجعلكم مكثرين موسرين . أو كنتم أقله أذلة فأعزكم بكثرة العدد والعدد ﴿عاقبة المفسدين﴾ آخر أمر من أفسد قبلكم من الأمم ، كقوم نوح وهود وصالح ولوط ، وكانوا قريبي العهد عما أصاب المؤتفة ﴿فاصبوا﴾ فتربصوا وانتظروا ﴿حتى يحكم الله بيننا﴾ أى بين الفريقين ، بأن ينصر المحقين على المبطلين ويظهرهم عليهم . وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم ، كقوله (فتربصوا إنا معكم متربصون) أو هو عظة للؤمنين وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم . ويجوز أن يكون خطاباً للفريقين ، أى ليصبر المؤمنون على أذى الكفار وليصبر الكفار على ما يسوهم من إيمان من آمن منهم ، حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب ﴿وهو خير

الحاكمين) لأن حكمه حق وعدل ، لا يخاف فيه الحيف .  
 قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشُعَيْبٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا  
 مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَرِهِينَ ﴿٨٨﴾  
 قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّيْنَا اللَّهَ مِنْهَا وَمَا  
 يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى  
 اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبُّنَا أَفْتَحْ بِمِلَّتِنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾  
 أى ليسكون أحد الامرين : إما إخراجكم ؛ وإما عودكم في الكفر . فإن قلت : كيف  
 خاطبوا شعيباً عليه السلام بالعود <sup>(١)</sup> في الكفر في قولهم ﴿ أو لتعودن في ملتنا ﴾ وكيف  
 أجابهم بقوله ﴿ إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها ﴾ والأنبياء  
 عليهم السلام لا يجوز عليهم من الصغائر إلا ما ليس فيه تنفير ، فضلاً عن الكبائر ، فضلاً عن  
 الكفر ؟ قلت : لما قالوا لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك ، فعطفوا على ضميره الذين  
 دخلوا في الإيمان منهم بعد كفرهم قالوا : لتعودن ، فغلبوا الجماعة على الواحد ، فجعلوهم عاندين  
 جميعاً ، إجراء للسلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى شعيب عليه السلام جوابه فقال :  
 إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ، وهو يريد عود قومه ، إلا أنه نظم نفسه في جملتهم

(١) قال محمود : « إن قلت كيف خاطبوا شعيباً بصيغة العود ... الخ » قال أحد : والعشيرة بنى هذا الكلام  
 على أن صيغة العود تستدعي رجوع العائد إلى حال كان عليها قبل . والتحقق في الجواب عن السؤال المذكور مع  
 انقضاء العود لذلك : أن هذا القول وإن استعمل كذلك ، إلا أنه كثيراً ما يراد بمعنى صار . وحينئذ يجوز أن يكون  
 أفعالهم ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة ، بل عكس ذلك وهو الانتقال من حال سابقة إلى حالة مؤتلفة مثل  
 صار ، وكانهم قالوا - والله أعلم - : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن كفاراً مثلتنا .  
 وحينئذ يندفع السؤال . أو يسلم استعمال العود بمعنى الرجوع إلى أمر سابق . ويجب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله  
 تعالى ( الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور ، والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور  
 إلى الظلمات ) والاخراج يستدعي دخولا سابقاً فيما وقع الإخراج منه ، ونحن نعلم أن المؤمن الناشئ في الإيمان  
 لم يدخل قط في ظلمة الكفر ولا كان فيها ، وكذلك الكافر الأصلي لم يدخل قط في نور الإيمان ولا كان فيه ،  
 ولكن لما كان الإيمان والكفر من الأفعال الاختيارية التي خلق الله العبد متمسراً لكل واحد منهما متمسكاً به  
 لو أَرَادَهُ . فبعد عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله عنه إلى الإيمان إخباراً بالاخراج من الظلمات إلى النور .  
 توفيقاً من الله له ولطفاً به . وبالعكس في حق الكافر ، وقد مضى نظير هذا النظر عند قوله تعالى ( أولئك الذين  
 اشتروا الضلالة بالهدى ) وهو من المجاز المعبر فيه عن السبب بالمسبب . وفائدة اختياره في هذه المواضع تحقيق التمكن  
 والاختيار لاقامة حجة الله على عباده ، والله أعلم .

وإن كان برئنا من ذلك إجراء لكلامه على حكم التغليب ، فإن قلت : فما معنى قوله ﴿ وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ﴾ والله تعالى متعال أن يشاء ردة المؤمنين <sup>(١)</sup> وعودهم في الكفر <sup>(٢)</sup> ؟ قلت : معناه إلا أن يشاء الله خذلانا ومنعنا الاطاف ، لعله إنها لا تنفع فينا وتكون عبثاً . والعيب قبيح لا يفعله الحكيم ، والدليل عليه قوله ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ أى هو عالم بكل شيء مما كان وما يكون ، فهو يعلم أحوال عباده كيف تتحول ، وقلوبهم كيف تتقلب ، وكيف تقسو بعد الرقة ، وتمرض بعد الصحة ، وترجع إلى الكفر بعد الإيمان ﴿ على الله توكلنا ﴾ فى أن يثبتنا على الإيمان ويوقفنا لازدياد الإيقان . ويجوز أن يكون قوله ﴿ إلا أن يشاء الله ﴾ حسماً لطمعهم <sup>(٣)</sup> فى العود ، لأن مشيئة الله لعودهم فى الكفر محال خارج عن الحكمة <sup>(٤)</sup> ﴿ أو لو كنا كارهين ﴾ الهمة للاستفهام ، والواو واو الحال ، تقديره : أتعيدوننا فى ملتكم فى حال كراهتنا ، ومع كوننا كارهين . وما يكون لنا ، وما ينبغى لنا . وما يصح لنا . ﴿ ربنا افتح بيننا ﴾ احكم بيننا . والفتاحة : الحكومة ، أو أظهر أمرنا حتى يتفتح ما بيننا ﴿ وبين قومنا ﴾ وينكشف بأن تقول عليهم عذاباً يتبين معه أنهم على الباطل ﴿ وأنت خير الفاتحين ﴾ كقوله ( وهو خير الحاكمين ) . فإن قلت : كيف أسلوب قوله ( قد اقترينا على الله كذباً إن عدنا فى ملتكم ) ؟ قلت : هو إخبار مقيد بالشرط ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون كلاماً مستأنفاً فيه معنى التعجب ، كأنهم قالوا : ما أكذبنا على الله إن عدنا فى الكفر بعد الإسلام ، لأن المرتد أبلغ فى الاقترام من الكافر ، لأن الكافر مفتر على الله الكذب ، حيث يزعم أن الله نذاً ولا نذاً له . والمرتد مثله فى ذلك وزائد عليه ، حيث يزعم أنه قد تبين له ما خفى عليه من التمييز

(١) قوله « والله تعالى متعال أن يشاء ردة المؤمنين » أى تنزه عن أن يشاء ... الخ ، على مذهب المعتزلة أنه تعالى لا يريد القهر . أما عند أهل السنة فيريده كالحير . (ع)

(٢) قال محمود : « إن قلت الله تعالى مقدس عن أن يشاء ردة المؤمنين وعودهم إلى الكفر ... الخ » . قال أحد : وهذا السؤال كما ترى مفرغ على القاعدة الفاسدة ، فى اعتقاد وجوب رعاية الصلاح والأصالح ، وهو غير موجه على قاعدة السنة ، فظاهر الآية هو الممول عليه لا يجوز تأويله ولا تبديله . وأما استدلال الزمخشري على صحة تأويله بقوله ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ فن احتيالاه فى التأويلات الباطلة ، بعضها وينبع العبه ويلفها . وموقع قوله ﴿ وسع ربنا كل شيء علماً ﴾ الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة والاحلال على الأمور الغائبة ، فإلى العود إلى الكفر جائز فى قدرة الله أن يقع من العبد ، ولو وقع فيقدرة الله ومشيئته المنية عن خلقه ، فالخدر قائم والخوف لازم ، ولكن لمن وفقه الله تعالى للعقيدة الصحيحة بالإيمان السالم ، والله الموفق . ونظيره قول إبراهيم عليه السلام ﴿ ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً وسع ربي كل شيء علماً ﴾ لما رد الأمر إلى المشيئة وهى منية مجد الله تعالى بالانفراد بعلم الغائبات ، والله أعلم .

(٣) عاد كلامه . قال : ويجوز أن يكون المراد حسم طمعهم ... الخ . قال أحمد : وهذا من الطراز الأول ، فألفه به ، وحققاً محققاً .

(٤) قوله « محال خارج عن الحكمة » مبنى على مذهب المعتزلة أيضاً . (ع)



بين الحق والباطل . والثاني أن يكون قسماً على تقدير حذف اللام ، بمعنى : والله لقد افترينا على الله كذباً .

وَقَالَ أَعْمَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنْ آتَيْتُمْ شُعَيْبًا إِنِّكُمْ إِذَا  
لَخَسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٩١﴾  
الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا  
هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾

( وقال الملائكة الذين كفروا من قومه ) أى أشرافهم للذين دونهم يثبطونهم عن الإيمان  
( لئن أتيتهم شعيباً إنكم إذا لخاسرون ) لاستبدالكم الضلالة بالهدى ، كقوله تعالى ( أولئك  
الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ) وقيل : تخسرون باتباعه فوائد البخس والتطفيف  
لأنه ينهاكم عنهما ويحملكم على الإيفاء والتسوية . فإن قلت : ما جواب القسم الذى وطأته اللام  
فى ( لئن أتيتهم شعيباً ) وجواب الشرط ؟ قلت : قوله ( إنكم إذا لخاسرون ) ساد مسد الجوابين  
( الذين كذبوا شعيباً ) مبتدأ خبره ( كأن لم يغنوا فيها ) وكذلك ( كانوا هم الخاسرين )  
وفى هذا الابتداء معنى الاختصاص ، كأنه قيل : الذين كذبوا شعيباً هم المخصوصون بأن أهلكوا  
واستوصلوا ، كأن لم يقيموا فى دارهم : لأن الذين اتبعوا شعيباً قد أنجاهم الله ، الذين كذبوا  
شعيباً هم المخصوصون بالخسران العظيم ، دون أتباعه فإنهم الراجحون . وفى هذا الاستئناف  
والابتداء وهذا التكرير : مبالغة فى رد مقالة الملائكة لأشياهم ، وتسفيه لرأيهم ، واستهزاء بنصحهم  
لقومهم واستعظام لما جرى عليهم

فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكُفَّ

عَاسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٩٣﴾

الأسى : شدة الحزن . قال العجاج :

\* وَأَنحَلَبْتُ عَوْنَهُ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى \*

اشتد حزنه على قومه ثم أنكر على نفسه فقال : فكيف يشتد حزنى على قوم ليسوا بأهل  
للحزن عليهم لكفرهم واستحقاقهم ما نزل بهم ويجوز أن يريد لقد أعدت إليكم فى الإبلاغ  
والنصيحة والتحذير مما حل بكم فلم تسمعوا قولى ولم تصدقوا فى فكيف أسى عليكم يعنى أنه لا بأسى  
عليهم لأنهم ليسوا أحقاء بالأسى . وقرأ يحيى بن وثاب : فكيف إيسى ، بكسر الهمزة .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ لَعَلَّهُمْ  
يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ

ءَابَاءَنَا الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

(إلا أخذنا أهلها بالبأساء) بالبؤس والفقر (والضراء) بالضر والمرض لاستكبارهم  
عن اتباع نبيهم وتعزيمهم عليه (لعلهم يضرعون) ليتضرعوا ويتذللوا ويحطوا أردية الكبر  
والعزة (ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة) أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والمحنة والرخاء  
والصحة والسعة كقوله (وبلونا هم بالحسنات والسيئات) (حتى عفوا) كثروا ونموا فى أنفسهم  
وأموالهم، من قولهم: عفا النبات وعفا الشمع والوبر، إذا كثرت. ومنه قوله صلى الله عليه وسلم  
وأعفوا للحى،<sup>(١)</sup> وقال الخطبة:

\* بِمُسْتَأْسِدِ الْقَرِيَّانِ عَافَ نَبَاتُهُ \* (٢)

وفال :

وَلَكِنَّا نَعُضُّ السِّيفَ مِنْهَا بِأَسْوَقَ عَافِيَاتِ الشَّجَمِ كَوْمٍ (٣)

(١) تقدم فى البقرة .

(٢) فات نظرت يوما بمؤخر عينها إلى علم فى النور قالت أبعد  
بأرض ترى فرخ الحبارى كأنها بها راكب موف على ظهر قرد  
بمستأسد القرىان عاف نباته تساقطى والرحل من صوت هدد

لخطبة . ومؤخر العين - كؤمن - جانها . والعلم : الجبل والعلامة فى الطريق . والغور : الموضع الغائر المنخفض .  
وقالت له : أبعد ، مجاز عن تركها إياه بسرعة ، فيبعد عنها . والحبارى : طير يهوى الجبال ، وفرخها يسمى النهار .  
وفرخ الكروان يسمى الليل . والموفى : المشرف . والقرد - كهدهد - انسان الغليظ المرتفع . والمستأسد : النبات  
القوى الغليظ الطويل ، كما سمي السبع أسدا لقوته . والقرىان - بالضم - جمع قرى كفعيل : مجرى الماء الذى يجمعه  
إلى الروض . والعافى الكثير ، يصف نباته بسرعة السير وأنها لحونها فى ذلك الطريق لاتتمكن من تمام النظر إلى  
أعلامه ، فإذا لحت فيه شجأ أسرعت مبعده عنه فى أرض مجهول ، كأن فرخ الحبارى فيها راكب مشرف فوق مكان  
مرتفع . وقوله : بمستأسد بدل من قوله : بأرض ، أو متعلق بتساقطى . والمعنى : أنه لافرق عندها بين الحزن والسهل  
فى نبات القدران حال كثرت ، تردى مع رحلها لسهولة سيرها من خوفها من صوت هدهد واحد . وعلى الأول ،  
تساقطى حال من فاعل « قالت » أو جواب الشرط ، وقالت له : أبعد ، صفة علم . وعبر بالتساقط ، لأن المعنى :  
كما تمكنت حركتى ، حتى أكاد أسقط .

(٣) إذا ما درها لم يقر ضيفا فنز له فراه من الشحوم

فلا تتجاوز العضلات منها إلى البكر المعارب والكروم

ولكننا نعض السيف منها بأسوق عافيات الشجم كوم

(وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء) يعني وأبطرهم النعمة وأشروا فقالوا: هذه عادة الدهر، يعاقب في الناس بين الضراء والسراء. وقد مس آباؤنا نحو ذلك، وما هو بابتلاء من الله لعباده، فلم يبق بعد ابتلائهم بالسينات والحسنات إلا أن نأخذهم بالعذاب (فأخذناهم) أشد الأخذ وأفظعه، وهو أخذهم فجأة من غير شعور منهم.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ  
وَلَكِنَّ كَذَبُوا فَاَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾

اللام في القرى: إشارة إلى القرى التي دل عليها قوله (وما أرسلنا في قرية من نبي كانه قال: ولو أن أهل تلك القرى الذين كذبوا وأهلكوا) آمنوا بدل كفرهم (واتقوا) المعاصي مكان ارتكابها (لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) لآتيناهم بالخير من كل وجه. وقيل أراد المطر والنبات (ولكن كذبوا فأخذناهم) بسوء كسبهم ويجوز أن تكون اللام في القرى للجنس. فإن قلت: ما معنى فتح البركات عليهم؟ قلت: تيسيرها عليهم كما ييسر أمر الأبواب المستغلقة بفتحها. ومنه قولهم: فتحت على القارئ، إذا تعذرت عليه القراءة فيسرته عليه بالتفخين.

أَقَامِنُ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوْ آمِنُ أَهْلُ  
الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾

البيات يكون بمعنى البتوتة. يقال: بات يباتاً. ومنه قوله تعالى (فجاءها بأسنا ياتاً أدرهم قائلون) وقد يكون بمعنى التبييت، كالسلام بمعنى التسليم. يقال: يتته العدو ياتاً، فيجوز أن يراد: أن يأتيتهم بأسنا بآتين، أو وقت يات، أو مبيتاً، أو مبيتين، أو يكون بمعنى تبيتاً، كأنه قيل: أن يديتهم بأسنا ياتاً. و(ضحى) نصب على الظرف. يقال: أتاننا ضحى، وضحياً، وضحاء.

== للبيد بن ربيعة العامري. يقول: إذا لم يكف در النوق في قرى الضيف، كان قراه من محرمها، فأسند القرى إلى الابن لانه آله أو سبه. وإسناد الضيفان إلى نوق الابل مجاز أيضاً، لأنها محل المضمون. والقملان في الحقيقة لمالك الابل. والمراد: أنها معدة لذلك إما بلبنها أو ضحها. والمضلة: الحسنة السميكة. والبكر: القن من الابل ذكر أو أنثى. والمعازب المهزول، من عزب إذا أبعد. والمعزابة والمعزاب: الذي طالت عزوبته وبعدة لعدم نسله أو لبعده عن البيوت، فكأنه بمعنى المباعذ في الأصل، ثم أريد به المهزول مجازاً. والكرم بالزاي القهر. ومنه كرم ككتف. وأكرم وكزما، فالكروم كصبور القصيرة. وقيل المسنة التي قصر مشفرها الألف من الأهل. أو إلى لم يبق لها سن من الهرم. وكزمه أيضاً إذا كسره بمقدمه. ويجوز أن المعازب بالفتح جمع معزاب أو معزابة، فيكون البكر مستعملاً في معنى الجمع، أي لا ترك الوسط السنان من الابل فاصبين إلى الصغار المهازبل والمسنات البالغات في الهرم، ولكننا جعل السيف بعض منها، بأسوق جمع ساق. مضاف إلى عافيات، أي كثيرات اللحم لتركها من العمل سنة أو سنتين. والكوم جمع كوما، أي عظيما الأنسة مرتفعاتها.

والضحى - في الأصل - اسم لضوء الشمس إذا أشرقت وارتفعت . والفاء والواو في ( أفأمن ) و ( أوأمن ) حرفا عطف دخلتا عليهما همزة الإنكار . فإن قلت : ما المعطوف عليه ؟ ولم عطف الأولى بالفاء والثانية بالراء ؟ قلت : المعطوف عليه قوله ( فأخذناهم بغتة ) وقوله ( ولو أن أهل القرى ) إلى ( يكسبون ) وقع اعتراضاً بين المعطوف والمعطوف عليه . وإنما عطف بالفاء . لأن المعنى : فعلوا وصنعوا فأخذناهم بغتة أبعد ذلك أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا يائساً وأمنوا أن يأتيهم بأسنا ضحى ؟ وقرئ : أوأمن ، على العطف بأو ( وهم يلعبون ) يشتغلون بما لا يجدى عليهم كأنهم يلعبون .

أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾

فإن قلت . فلم رجع فعطف بالفاء قوله ( أفأمنوا مكر الله ) ؟ قلت : هو تكرير لقوله ( أفأمن أهل القرى ) ومكر الله : استعارة لآخذه العبد من حيث لا يشعر . ولاستدراج . فعلى العاقل أن يكون في خوفه من مكر الله ، كالحارب الذي يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة . وعن الربيع بن خثيم ، أن ابنته قالت له : مالي أرى الناس ينامون ولا أراك تنام ، فقال : يا بنتاه ، إن أباك يخاف البيات ، أراد قوله ( أن يأتيهم بأسنا يائساً )

أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ

بِذُنُونِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

إذا قرئ ( أولم يهد ) بالياء كان ( أن لو نشاء ) مرفوعاً بأنه فاعله ، بمعنى : أو لم يهد للذين يخلفون ، من خلا قبلهم في ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن ، وهو أنا لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، كما أصبنا من قبلهم ، وأهلكنا الوارثين كما أهلكنا المورثين . وإذا قرئ بالنون ، فهو منصوب كأنه قيل : أو لم يهد الله للوارثين هذا الشأن ، بمعنى : أولم نبين لهم أنا ( لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ) كما أصبنا من قبلهم . وإنما عذى فعل الهداية باللام لأنه بمعنى التبيين . فإن قلت : بم تعلق قوله تعالى ( ونطبع على قلوبهم ) <sup>(١)</sup> ؟ قلت : فيه أوجه ، أن يكون معطوفاً على ما دلّ عليه

(١) قال محمود : « إن قلت بم تعلق قوله ( ونطبع على قلوبهم ) ... الخ ، قال أحمد : بل يجوز والله عطفه عليه ، ولا يلزم أن يكون المخاطبون موصوفين بالطبع ، ولا يضرهم إن كانوا كهرا أو مقترفين للذنوب ، فليس الطبع من لوازم اقتراف الذنب ولا بد ، إذ الطبع هو القادى على الكفر والاصرار والغلو في الصميم ، حتى يكون الموصوف به مايوسا من قبوله للحق . ولا يلزم أن يكون كل كافر بهذه المثابة . بل إن الكافر يهد من تناديه على كفره بأن يطبع الله على قلبه . فلا يؤمن أبداً ، وهو مقتضى العطف على أصبناهم ، فتكون الآية قد مهدتهم بأمرين ، أحدهما : الإصابة ببعض ذنوبهم ، والآخر الطبع على قلوبهم . وهذا الثاني أشد من الأول ، وهو أيضا نوع من الإصابة =

معنى (أو لم يهد) كأنه قيل : يغفلون عن الهداية ، ونطبع على قلوبهم . أو على يرون الأرض أو يكون منقطعاً بمعنى : ونحن نطبع على قلوبهم . فإن قلت : هل يجوز أن يكون ( ونطبع ) بمعنى وطبعنا ، كما ( لو نشاء ) بمعنى : لو شئنا ، ويعطف على أصبتناهم ؟ قلت : لا يساعد عليه المعنى ؟ لأن القوم كانوا مطبوعاً على قلوبهم موصوفين بصفة من قبلهم من اقتراف الذنوب والإصابة بها . وهذا التفسير يؤدي إلى خلوهم عن هذه الصفة ، وأن الله تعالى لو شاء لا تصفوا بها

تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِهَا وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى

### قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ١٠١

﴿ تلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ كقوله ( هذا بعل شيتا ) في أنه مبتدأ وخبر وحال ويجوز أن يكون ( القرى ) صفة لتلك و ( نقص ) خبراً ، وأن يكون ( القرى نقص ) خبراً بعد خبر . فإن قلت : ما معنى ( تلك القرى ) حتى يكون كلاماً مفيداً ؟ قلت : هو مفيد ، ولكن بشرط التقيد بالحال كما يفيد بشرط التقيد بالصفة في قولك : هو الرجل الكريم . فإن قلت : ما معنى الإخبار عن القرى بنقص عليك من أنبائها ؟ قلت : ومعناه أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أنبائها ولها أنباء غيرها لم نقصها عليك ﴿ فإكانوا ليؤمنوا ﴾ عند مجيء الرسل بالبينات بما كذبوه من آيات الله من قبل مجيء الرسل أو فإكانوا ليؤمنوا إلى آخر أعمارهم بما كذبوا به أولاً حين جاءتهم الرسل ، أى استمروا على التكذيب من لدن مجيء الرسل إليهم إلى أن ماتوا مصرين ، لا يرجعون ولا تلتين شكيمتهم في كفرهم وعنادهم مع تكرار المواعظ عليهم وتتابع الآيات . ومعنى اللام تأكيد النفي وأن الإيمان كان منافياً لحالهم في التصميم على الكفر . وعن مجاهد : هو كقوله ( ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه ) . ﴿ كذلك ﴾ مثل ذلك الطبع الشديد نطبع على قلوب الكافرين .

وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ١٠٢

== بالذنوب أو العقوبة عليها ، ولكنه أنكى أنواع العذاب وأبلغ صنوف العقاب . وكثيراً ما يعاقب الله على الذنب بالإيقاع في ذنب أكبر منه وعلى الكفر بزيادة التصميم عليه والغلو فيه ، كما قال تعالى : ( فزادتهم رجساً إلى رجسهم ) كما زادت المؤمنين إيماناً إلى إيمانهم . وهذا النوع من الثواب والعقاب مناسب لما كان سبباً فيه وجزاء عليه ، وثواب الإيمان وإيمان وثواب الكفر وكفر . وإنما العنصرية يحاذر من هذا الوجه دخول الطبع في مشيئة الله تعالى . وذلك عنده غفال : لأنه فيح والله عنه متعال ، وأنى يتم الفرار من الحق . وكمن آية صرحت بوقوع الطبع من الله ، فضلاً عن تعلق المشيئة به .

﴿وما وجدنا لأكثرهم من عهد﴾ الضمير للناس على الإطلاق، أى وما وجدنا لأكثر الناس من عهد يعنى أن أكثرهم نقض عهد الله وميثاقه فى الإيمان والتقوى ﴿وإن وجدنا﴾ وإن الشأن والحديث وجدنا أكثرهم فاسقين، خارجين عن الطاعة مارقين. والآية اعتراض. ويجوز أن يرجع الضمير إلى الأمم المذكورين، وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله فى ضرر ومخافة، لئن أنجيتنا لنؤمنن، ثم نجاهم نكثوا كما قال قوم فرعون لموسى عليه السلام: لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك، إلى قوله (إذاهم ينكثون) والوجود بمعنى العلم من قولك: وجدت زيدا إذا الحفاظ، بدليل دخول إن، التخفة واللام الفارقة. ولا يسوغ ذلك إلا فى المبتدأ والخبر. والأفعال الداخلة عليهما.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٠٥﴾

﴿من بعدهم﴾ الضمير للرسول فى قوله (ولقد جاءتهم رسلهم) أو للأمم ﴿فظلموا﴾ فكفروا بآياتنا. أجرى الظلم مجرى الكفر لأنهما من واد واحد (إن الشرك لظلم عظيم) أو ظلموا الناس بسببها حين أوعدهم وصدّوهم عنها، وآدوا من آمن بها، ولأنه إذا وجب الإيمان بها فكفروا بآيات الإيمان كان كفرهم بها ظلماً، فلذلك قيل: ظلموا بها، أى كفروا بها واضعين الكفر غير موضعه، وهو موضع الإيمان. يقال للملك مصر: الفراعنة، كما يقال للملك فارس: الأكاسرة، فكأنه قال: ياملك مصر وكان اسمه قابوس. وقيل: الوليد بن مصعب بن الريان ﴿حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق﴾ فيه أربع قراءات، المشهورة: وحقيق على أن لا أقول<sup>(١)</sup>، وهى قراءة نافع وحقيق أن لا أقول

(١) قال محمود: «فيه أربع قراءات، المشهورة: وحقيق على أن لا أقول... الخ. قال أحمد: القلب يستعمل فى اللغة على وجهين، أحدهما: قلب الحقيقة إلى المجاز لوجه من المبالغة كقوله: وتشتق الرماح بالضياطرة الحجر.

وكقوله: قد صرح المر عن كتان وابندل وضع الحاجن بالمهيرة الدفن فالحقيقة أن الضياطرة تشتق بالرمح، والمهيرة تبتذل بالحاجن، فعدل عن ذلك تنبيهاً على أن الرماح قد تنفصل وتنصف فى أجوافهم، فصر عن ذلك بالشقاء. وأن الحاجن كثيرا ما ترفع وتوضع وتستعمل فى ضرب المهيرة، وربما تمزقت عن ذلك لجعل ذلك ابتداء لها، وقد حام أبو الطيب حول هذا النوع كثيراً فى أمثال قوله: والسيف يشتق كما تفق الضلوع به والسيف كما للناس آجال =

وهي قراءة عبد الله وحقيق بأن لا أقول وهي قراءة أبي وفي المشهورة إشكال ، ولا تخلو من وجوه ، أحدها : أن تكون مما يقلب من الكلام لأن الإلباس ، كقوله :

\* وَتَشْقَى الرِّمَاحُ بِالصِّيَاطِرَةِ الْحُمْرِ \* (١)

ومعناه : وتشقى الصياطرة بالرماح ، وحقيق على أن لا أقول ، وهي قراءة نافع . والثاني : أن ما لزمك فقد لزمته ، فلما كان قول الحق حقيقاً عليه كان هو حقيقاً على قول الحق ، أى لازماً له . والثالث : أن يضمن ( حقيق ) معنى حريص ، كما ضمن « هيجنى » ، معنى ذكرنى في بيت الكتاب . والرابع - وهو الأوجه - الإدخال في نكت القرآن : أن يعرق موسى (٢) في وصف نفسه بالصدق في ذلك المقام لاسيما وقد روى أن عدو الله فرعون قال له - لما قال (إني رسول من رب العالمين)

== والمراد بشقاء السيف : انقطاعه في أضلاع المضروب ، كما صرح بذلك في قوله :

طوال الردينيات يقصفها دى وبيض السريجات يقطعها ندى

الوجه الثاني : قلب معرى عن هذا المعنى البليغ ، ولذلك لا يستفصح ، كقولهم : خرق الثوب المسهار وأشباهه ، وعلى الوجه الأول الألفصح جاءت الآية على هذه القراءة ، وهو الوجه الرابع من وجوه الرخشرى ، وفي طيه من المبالغة ما نهت عليه . وأما الوجه الثاني وهو « أن ما لزمك فقد لزمته » ففيه نظر من حيث أن اللزوم قد يكون من أحد الطرفين دون الآخر ، ولزوم موسى عليه السلام لقول الحق من هذا النمط ، وأما الوجه الثالث فلا يلائم بين القراءتين ، وقد ذكر لها وجه خامس : وهو أن يكون « على » بمعنى الباء ، ونقل « رميت على القوس » بمعنى رميت بالقوس ، وهو وجه حسن ملائم ، والله أعلم . ويشهد له قراءة أبي : حقيق بأن لا أقول .

(١) كذبتم وبيت الله حين تعالجوا قوادم حرب لاتين ولا نرى

نزلت بخيل لاهوادة بينها وتشقى الرماح بالصياطرة الحر

لخداش بن زهير ، يقول لقومه : كذبتم وحق بيت الله : في دعواكم إمكان الصلح ، وهذا يعلم ضمنا من قوله « حين تعالجوا » ، أو استعار الكذب للخطأ في الظن أو الرأي ، أى أخطأتم في ممارستكم الجماعات القادمة الحرب لأجل الصلح . ويشبه أن يكن قوله « تعالجوا » محرفا ، وأصله بالصاد والحاء بدل العين والجيم ، وعلى كل فخذف نونه للوزن أوللتخفيف ، و« لاتين » صفة قوادم . وأمرت الساعة : در لبها ، شبه الرضاء بالصلح بأمر الناقة . على طريق التصريح ، ثم نفاه وبين ذلك بقوله « نزلت بخيل » أى في أصحاب خيل . ويحتمل أن الخيل مجاز عن الفرسان ، أو كناية عنهم . وروى « وتلحق خيل » فهو عطف على « لاتين » أى : وتسرع خيل منها . والهوادة : الصلح والبيعة من القوم يرجى بها صلاحهم ، والمعنى أنهم لا يرجي صلاحهم . وتشقى : أى تتعب الرماح بسبب الصياطرة ، وهو من باب القلب لا من اللبس . والمعنى : وتشقى الصياطرة بالرماح . والضيطر : الضنم الجبان . وقياس جمعه ضياطر ، إلا أنه عوض الهاء من الياء . والحر عند العرب : كثرة عن العجم . لأنها تصف الحسن بالأخضر ، والقبيح بالأحمر . والمعنى : تتعب ضياطرهم من حمل رماحهم . ويجوز أن المراد من طعن رماحنا . ويحتمل أن لا قلب ، وأنه بالغ في ضخمهم ، حتى كأن الرماح تتعب من طعنهم ، لكن الأول هو المقول . والمعنى : لانصالحهم بل نحاربهم .

(٢) قوله « أن يعرق موسى » لعله : يفرق بالمعجمة . وفي الصحاح . أغرق النازع في القوس ، أى استوفى

مدحا ، (ع)

كذبت ، فيقول : أنا حقيق على قول الحق أى واجب على قول الحق أن أكون أنا قائله والقائم به ، ولا يرضى إلا بمثل ناطقاً به ﴿ فأرسل معى بنى إسرائيل ﴾ فخلهم حتى يذهبوا معى راجعين إلى الأرض المقدسة التى هى وطنهم ومولد آبائهم ، وذلك أن يوسف عليه السلام لما توفى واتقرضت الأسباط ، غلب فرعون نسلهم واستعبدهم ، فأنقذهم الله بموسى عليه السلام ، وكان بين اليوم الذى دخل يوسف مصر واليوم الذى دخله موسى أربعائة عام

قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ﴿١٠٦﴾  
فَأَتٰى عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِىَ بَيْضَاءُ

لِلنّٰظِرِیْنَ ﴿١٠٨﴾

فإن قلت : كيف قال له ﴿ فأت بها ﴾ بعد قوله (إن كنت جئت بآية)؟ قلت : معناه إن كنت جئت من عند من أرسلك بآية فأنتى بها وأحضرها عندى لتصح دعواك ويثبت صدقك ﴿ ثعبان مبین ﴾ ظاهر أمره لا يشك فى أنه ثعبان . وروى أنه كان ثعباناً ذكراً أشعر فاغراً فاه<sup>(١)</sup> بين لحبيه ثمانون ذراعاً ، وضع لحيه الأسفل فى الأرض ولحيه الأعلى على سور القصر ، ثم توجه نحو فرعون ليأخذه فوثب فرعون من سريره وهرب ، وأحدث ولم يكن أحدث قبل ذلك ، وهرب الناس وصاحوا ، وحمل على الناس فأنز موافات منهم خمسة وعشرون ألفاً قتل بعضهم بعضاً ، ودخل فرعون البيت وصاح : يا موسى ، خذه وأنا أؤمن بك وأرسل معك بنى إسرائيل ، فأخذه موسى فعاد عصى . فإن قلت : هم يتعلق ﴿ للناظرين ﴾ ؟ قلت يتعلق ببيضاء . والمعنى : فإذا هى بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان يابضاً عجيباً خارجاً عن العادة ، يجتمع الناس للنظر إليه كما تجتمع النظارة للعجائب ، وذلك ما يروى أنه أرى فرعون يده وقال : ما هذه ؟ قال : يدك ، ثم أدخلها جيبه وعليه مدرعة صوف ونزعها ، فإذا هى بيضاء يابضاً نورانياً غلب شعاعها شعاع الشمس ، وكان موسى عليه السلام آدم شديد الادمية .

قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَإِذَا تَأَمَّرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا ارْجِعْهُ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ

حٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ بِأَتُوكَ بِكُلِّ سَحِيرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾

(١) قوله «فاغراً فاه» أى فاتحاً فاه . (ع)



﴿إن هذا لساحر عليم﴾ أى عالم بالسحر ماهر فيه ، قد أخذ عيون الناس بخدعة من خدعه ، حتى خيل إليهم العصي حية ، والآدم أبيض . فإن قلت قد عزی هذا الكلام إلى فرعون فى سورة الشعراء ، وإنه قاله للبلای وعزی ههنا إليهم . قلت : قد قاله هو وقالوه هم ، فحكى قوله ثم وقولهم ههنا . أو قاله ابتداء فتأقته منه الملائ ، فقالوه لأعقابهم . أو قالوه عنه للناس على طريق التبليغ ، كما يفعل الملوك : يرى الواحد منهم الرأى فيكلم به من يليه من الخاصة ، ثم تبلغه الخاصة العامة . والدليل عليه أنهم أجابوه فى قولهم ﴿أرجه وأخاه وأرسل فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم﴾ وقرئ سحار ، أى يأتوك بكل ساحر مثله فى العلم والمهارة . أو بخير منه . وكانت هذه مؤامرة مع القبط . وقولهم (فإذا تأمرون) من أمرته فأمرنى بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأى . وقيل : فإذا تأمرون ؟ من كلام فرعون ، قاله للملائ لما قالوا له : إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم ، كأنه قيل : فإذا تأمرون ؟ قالوا : أرجه وأخاه ، ومعنى أرجته وأخاه : أخرهما وأصدرهما عنك ، حتى ترى رأيك فيهما وتدبر أمرهما . وقيل : احبسهما . وقرئ : أرجته ، بالهمزة . وأرجه ، من أرجأه وأرجاه .

وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾

قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُفَرِّينَ ﴿١١٤﴾

فإن قلت : هلا قيل : وجاء السحرة فرعون فقالوا ؟ قلت : هو على تقدير سائل سأل : ما قالوا إذ جاؤه ؟ فأجيب بقوله ﴿قالوا إن لنا لأجراً﴾ أى جعلنا على الغلبة : وقرئ : إن لنا لأجراً ، على الإخبار وإثبات الأجر العظيم وإيجابه : كأنهم قالوا : لابد لنا من أجر ، والتشكيك للتعظيم ، كقول العرب : إن له لإبلا ، وإن له لغنا ، يقصدون الكثرة . فإن قلت : ﴿وإنكم لمن المقزين﴾ ما الذى عطف عليه ؟ قلت : هو معطوف على محذوف سد مسده حرف الإيجاب ، كأنه قال إيجاباً لقولهم : إن لنا لأجراً : نعم إن لكم لأجراً ، وإنكم لمن المقزين ، أراد : إني لاقتصر بكم على الثواب وحده ، وإن لكم مع الثواب ما يقل معه الثواب ، وهو التقريب والتعظيم ، لأن المثاب إنما يتنهأ بما يصل إليه ويقتبط به إذا نال معه الكرامة والرفعة . وروى أنه قال لهم : تكونون أول من يدخل وآخر من يخرج . وروى أنه دعا برؤساء السحرة ومعلمهم فقال لهم : ما صنعتم ؟ قالوا قد علنا سحراً لا يطيقه سحرة أهل الأرض ، إلا أن يكون أمراً من السماء فإنه لا طاقة لنا به . وروى أنهم كانوا ثمانين ألفاً . وقيل : سبعين ألفاً . وقيل : بضعة وثلاثين ألفاً . واختلفت الروايات فمن مقل ومن مكثر . وقيل : كان يعلمهم بجوسيان من أهل نينوى . وقيل : قال فرعون : لا تغالب موسى إلا بما هو منه ، يعنى السحر .

قَالُوا يَمُوسَىٰ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْجِي وَإِنَّمَا أَنْتَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ۖ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا  
فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ ۖ (١١٦)  
وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ۖ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ  
وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۖ (١١٨) فَغَلَبُوا هَنَالِكَ وَأَنفَلَبُوا صَغِيرِينَ ۖ (١١٩)  
وَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجِدِينَ ۖ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۖ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ  
وَهَارُونَ ۖ (١٢٢)

تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين ،  
قبل أن يتخاضوا في الجدل ، والمتصارعين قبل أن يتأخذوا للصراع . وقولهم ﴿ وإِنَّمَا أَنْ  
نَكُونُ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴾ فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمنفصل  
وتعريف الخبر ، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل ، وقد استرخ لهم موسى ماتراغبوا فيه ازدراء  
لشأنهم ، وقلة مبالاة بهم . وثقة بما كانوا يصدده من التأييد السماوي ، وأن المعجزة لن يغلبها  
سحر أبداً ﴿ سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ ﴾ أروها بالحيل والشعوذة <sup>(١)</sup> وخيلوا إليها ما للحقيقة بخلافه ،  
كقوله تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) . روى أنهم ألقوا حبالاً غلاظاً وخشباً طوالاً ،  
فإذا هي أمثال الحيات ، قد ملأت الأرض وركب بعضها بعضاً ﴿ واسترهبوهم ﴾ وأرهبوهم  
إرهاباً شديداً ، كأنهم استندعوا رهبتهم ﴿ بسحر عظيم ﴾ في باب السحر . روى أنهم لونوا  
حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يومهم الحركة . قيل : جعلوا فيها الزئبق ﴿ ما يَأْفِكُونَ ﴾ ما موصولة

(١) قال محمود : دمناء أروها بالحيل والشعوذة ... الخ. قال أحد : معتقد المعجزة إنكار وجود السحر والشياطين  
والجن في خبط طويل لهم . ومعتقد أهل السنة إقرارها الظواهر على ما هي عليه ، لأن العقل لا يخيل وجود ذلك .  
وقد ورد السمع بوقوعه ، فوجب الإقرار بوجوده ، ولا يمنع عند أهل السنة أن يرق الساحر في الهواء ، ويستدق  
فيتولج في الكوة الضيقة ، ولا يمنع أن يفعل الله عند إرشاد الساحر ما يستأثر الاعتدال عليه ، وذلك واقع بقدرته  
الله تعالى عند إرشاد الساحر . هذا هو الحق والمعتقد الصدق ، وإنما أجريت هذا الفصل لأن كلام الإخشي لا يخلو  
من رمز إلى إنكاره ، إلا أن هذا النص القاطع بوقوعه يلجمه عن التصريح بالدفاع وكشف القناع ، ولا بدعه  
التصميم على اعتقاد المعجزة من التنفيس عما في نفسه ، فيسميه شعوة وحيلة . وبالقسط يعلم أن الشعوة لا تعلم  
في يد ابن عمر رضي الله عنه حتى بكوعها ، ولا تؤثر في سيد البشر حتى يخيل إليه أنه يأتي نساء وهو لا يأتيهن .  
وقد ورد ذلك وأمثاله مستفيضاً واقفاً ، فالعمدة أن كل واقع فيقدرة الله تعالى ، فلا يمنع أن يوقع تعالى بقدرته  
عند إرشاد الساحر أعاجيب يضل بها من يشاء ويهدي من يشاء ، والله الموفق .

أو مصدرية ، بمعنى : ما يافكونه أى يقبلونه عن الحق إلى الباطل ويؤثرونه . أو إفكهم ، تسمية للمأفوك بالإفك ، روى أنها لما تلقفت ملء الوادى من الخشب والحبال ورفعها موسى فرجعت عصى كما كانت ، وأعدم الله بقدرته تلك الأجرام العظيمة أو فرقها أجزاء لطيفة قالت للسحرة : لو كان هذا سحراً لبقيت حبالنا وعصينا (فوقع الحق) فحصل وثبت . ومن بدع التفاسير : فوقع قلوبهم ، أى فآثر فيها من قولهم . قاس وقيع (وانقلبوا صاغرين) وصاروا أذلاء مهوتين (وألقى السحرة) وخزوا بسجدا : كأنما ألقاهم ملق لشدة خروهم . وقيل : لم يتالكوا بما رأوا ، فكأنهم ألقوا . وعن قتادة : كانوا أول النهار كفاراً سحرة ، وفى آخره شهداء بررة . وعن الحسن . تراه ولد فى الإسلام ونشأ بين المسلمين يبيع دينه بكذا وكذا ، وهؤلاء كفار نشأوا فى الكفر ، بذلوا أنفسهم لله .

قَالَ فِرْعَوْنُ ءَاْمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكْرْتُمُوهُ  
فِي الْمَدِينَةِ لَتُخْرِجُوا مِنْهَا ءَٰهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَا قَطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ  
مِنْ خِلَافٍ نَّمَّ لَاصْلَبْنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾

(آمنت به) على الإخبار ، أى فعلتم هذا الفعل الشنيع ، تويخنا لهم وتقريعاً . وقرئ : أآمتم ، بحرف الاستفهام ، ومعناه الإنكار والاستبعاد (إن هذا لمكر مكرتموه فى المدينة) إن صنعكم هذا الحيلة احتلتموها أتم وموسى فى مصر قبل أن تخرجوا منها إلى هذه الصحراء قد تواطأتم على ذلك لغرض لكم ، وهو أن تخرجوا منها القبط وتسكنوها بنى إسرائيل ، وكان هذا الكلام من فرعون تمويها على الناس لئلا يتبعوا السحرة فى الإيمان . وروى أن موسى عليه السلام قال للساحر الأكبر : أتؤمن بى إن غلبتك ؟ قال لا تين بسحر لا يغلبه سحر . وإن غلبتني لاؤمن بك ، وفرعون يسمع ، فلذلك قال ما قال (فسوف تعلمون) وعيد أجمله ثم فصله بقوله (لاقطعن) وقرئ لاقطعن بالتخفيف . وكذلك (ثم لاصلبنكم) (من خلاف) من كل شق طرفاً . وقيل : إن أول من قطع من خلاف وصلب لفرعون .

قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا نَنْقِمُ مِنْهَا إِلَّا أَنْ ءَاْمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا  
لَمَّا جَاءَتُنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾

(إننا إلى ربنا منقلبون) فيه أوبه ، أن يريدوا : إننا لنبال بالمولوت لاقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلصنا منك ومن لقائك . أو تنقلب إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شذائنا

القطع والصلب ، أو إنا جميعاً نعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى الله فيحكم بيننا . أو إنا لا محالة ميتون منقلبون إلى الله ، فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لا بد لنا منه ﴿ وما تنقم منا إلا أن آمنّا ﴾ وما تعيب منا إلا الإيمان بآيات الله . أرادوا : وما تعيب منا إلا ما هو أصل المناقب والمفاخر كلها ، وهو الإيمان . ومنه قوله :

﴿ وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُبُوحَهُمْ ﴾ (١)

﴿ أفرغ علينا صبراً ﴾ هب لنا صبراً واسعاً وأكثره علينا ، حتى يفيض علينا ويغمرنا ، كما يفرغ الماء فراغاً . وعن بعض السلف : إن أحدكم ليفرغ على أخيه ذنباً ثم يقول : قدمازحتك ، أى يغمره بالحياء والحجل . أو صب علينا ما يطهرنا من أوضار الآثام ، وهو الصبر على ماتوعدنا به فرعون ، لأنهم علموا أنهم إذا استقاموا وصبروا كان ذلك مطهرة لهم ﴿ وتوفنا مسلمين ﴾ ثابتين على الإسلام .

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذَرُ مُوسَى وَقَوْمُهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾  
﴿ ويذرك ﴾ عطف على ( يفسدوا ) لأنه إذا تركهم ولم يمنعهم ، وكان ذلك مؤذياً إلى ما دعوه فساداً وإلى تركه وترك آلهته ، فكانه تركهم لذلك . أو هو جواب للاستفهام بالواو كما يجاب بالقاء ، نحو قول الخطيئة :

أَلَمْ أَكُ جَارِكُمْ وَيَكُونُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الْمَوَدَّةُ وَالْإِخَاءُ (٢)

والنصب بإضماره ، أن ، تقديره : أ يكون منك ترك موسى ، ويكون تركه إياك وآلهتك . وقرئ : ويذرك وآلهتك بالرفع عطفاً على أنذر موسى ، بمعنى : أنذره وأذرك ، يعنى : تطلق له ذلك . أو يكون مستأنفاً أو حالاً على معنى : أنذره وهو يذرك وآلهتك . وقرأ الحسن : ويذرك بالجزم ،

(١) على عرفات للطلعان غوايس      بين كلوم بين دام وجالب  
إذا استزلوا اللطن عنهن أرقلوا      إلى الموت إرقال الجمال المصاعب  
ولا عيب فيهم غير أن سبوحهم      بين قول من قراع الكتاب

للناطقة الذياني يصف فرساناً على أفراس عراقات صابرات غوايس كوالح ، فهن جروح رطبة بالدم ، وآخر يابسة ، عليها جلبة ، أى فشرة . وإذا التحم القتال واقتضى الحال نزولهم عن الحبل ، أسرعوا نازلين عنهن بائعين أعمارهم ، كسرار الجمال المصاعب ، جمع مصعب . تقول : أصعبت الجبل إذا تركته عن العمل حتى صار صعباً شديداً . والقول اتللمات في حد السيف . والقراع : المضاربة . والكتائب : الجماعات ، والبيت من استبابع المدح بما يشبه الذم ، أى إن كانت قول السيف من ذلك عيباً ، فأثبتته ، وهى ليست عيباً فلا عيب فيهم قط ، وهو مبالغة في المدح .

(٢) تقدم شرح هذا القاصد بالجزء الأول صفحة ٥٧٨ فراجعه إن شئت اه مصححه

كأنه قيل : يفسدوا ، كما قرئ (وأكن من الصالحين) كأنه قيل : أصدق . وقرأ أنس رضي الله عنه : ونذكرك ، بالنون والنصب ، أى يصرفن عن عبادتك فنذرهما . وقرئ : ويذكرك وإلا هتك ، أى عبادتك . وروى أنهم قالوا له ذلك ، لأنه وافق السحرة على الإيمان ستمائة ألف نفس ، فأرادوا بالفساد فى الأرض ذلك وخافوا أن يغلبوا على الملك ، وقيل : صنع فرعون لقومه أصناما وأمرهم أن يعبدوها تقربا إليه كما يعبد عبدة الأصنام الأصنام ، ويقولون : ليقرّبونا إلى الله زلفى ، ولذلك قال : أناربكم الأعلى ﴿ سنقتل أبناءهم ﴾ يعنى سنعيد عليهم ما كنا نحناهم به من قتل الأبناء ، ليعلموا أنا على ما كنا عليه من الغلبة والقهر ، وأنهم مقيمون تحت أيدينا كما كانوا ، وأن غلبة موسى لأثر لها فى ملكنا واستيلائنا ، ولئلا يتوهم العامة أنه هو المولد الذى أخبر المنجمون والكهنة بذهاب ملكنا على يده ، فيثبطهم ذلك عن طاعتنا ويدعوهم إلى اتباعه ، وأنه منتظر بعد .

قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا إِنَّا الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عُدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَمَنْظُرٌ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

﴿ قال موسى لقومه استعينوا بالله ﴾ قال لهم ذلك - حين قال فرعون : سنقتل أبناءهم فجزعوا منه وتضرعوا - يسكنهم ويسلمهم ، ويعددهم النصرة عليهم ، ويذكر لهم ما وعد الله نبي إسرائيل من إهلاك القبط وتوريثهم أرضهم وديارهم . فإن قلت : لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على التى قبلها ؟ قلت : هى جملة مبتدأة مستأنفة . وأما (وقال الملائكة فعدوهم على ما سبقها من قوله (قال الملائكة من قوم فرعون) وقوله (إن الأرض لله) يجوز أن تكون اللام للعهد ويراد أرض مصر خاصة ، كقوله (وأورثنا الأرض) وأن تكون للجنس فيتناول أرض مصر لأنها من جنس الأرض ، كما قال ضمرة : إنما المرء بأصغريه ، فأراد بالمرء الجنس ، وغرضه أن يتناوله تناولا أوليا ﴿ والعاقبة للبتقين ﴾ بشارة بأن الخاتمة المحموده للبتقين منهم ومن القبط ، وأن المشيئة متناولة لهم . وقرأ (والعاقبة للبتقين) بالنصب : أبى وابن مسعود ، عطفا على الأرض .

﴿ أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا ﴾ يعنون قتل أبناءهم قبل مولد موسى عليه السلام إلى أن استنبح ، وإعادته عليهم بعد ذلك ، وما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع

الخدم والمهن ويمسكون به من العذاب ﴿عسى ربكم أن يهلك عدوكم﴾ تصرّح بما رمز إليه من البشارة قبل . وكشف عنه ، وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده في أرض مصر ﴿فينظر كيف تعملون﴾ فيرى السكائن منكم من العمل حسنه وقيّحه وشكر النعمة وكفرانها ، ليجازيكم على حسب ما يوجد منكم . وعن عمرو بن عبيد رحمه الله أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائتته رغيف أو رغيفان ، فطلب زيادة لعمره فلم توجد ، فقرأ عمرو هذه الآية ، ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال : قد بق فينظر كيف تعملون .

وَلَقَدْ أَخَذَ نَآءَالُ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصَ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٣٠﴾

﴿بالسنين﴾ بسنى القحط . والسنة من الاسماء الغالبة كالداية والنجم ونحو ذلك ، وقد اشتقوا منها فقالوا : أسنت القوم ، بمعنى أخطوا . وقال ابن عباس رضى الله عنه : أما السنون فكانت لباديتهم وأهل مواشيمهم . وأما نقص الثمرات فكان في أمصارهم . وعن كعب : يأتي على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا تمره ﴿لعلهم يذكرون﴾ فيتنبهوا على أن ذلك لإصرارهم على الكفر<sup>(١)</sup> وتكذيبهم لآيات الله ، ولأن الناس في حال الشدة أضرع خدودا وألين أعطافا وأرق أفئدة . وقيل : عاش فرعون أربعائة سنة ولم يرمكروها في ثلثائة وعشرين سنة ، ولو أصابه في تلك المدة وجع أو جوع أو حى لما ادعى الربوبية .

فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطْفِرُوا يَمْحُوسُونَ

وَمَنْ مَعَهُ إِلَّا إِنَّمَا ظَايَرُوهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾

﴿فإذا جاءتهم الحسنة﴾ من الخصب والرخاء ﴿قالوا لنا هذه﴾ أى هذه مختصة بنا ونحن مستحقوها ولم نزل في النعمة والرفاهية ، واللام مثلها في قولك . الجل للفرس ﴿وإن تصبهم سيئة﴾ من ضيقة وجذب ﴿يطفروا بموسى ومن معه﴾ يتطيروا بهم ويتشاءموا ويقولوا : هذه بشؤمهم ، ولولا مكانهم لما أصابتنا ، كما قالت الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم هذه من عندك . فإن قلت : كيف قيل : فإذا جاءتهم الحسنة وإذا تعريف الحسنة<sup>(٢)</sup> ، وإن تصبهم

(١) قال محمود : معنى لعلهم يذكرون : يتنبهون لأن ذلك كان لإصرارهم ... الخ ، قال أحمد : دلت اللام على دعواهم استحقاق الحسنة . وأما دعوى اختصاصها بهم حتى لا يشركهم فيها أحد فدل عليه تقدير الخبر الذى هو لنا ، وقد علمت طريقة المصنف فى إسناد المصير من تقديم ماحقه أن يؤخر كالمفعول والخبر ونحوه .

(٢) عاد كلامه . قال : فإن قلت : وكيف قيل فإذا جاءتهم الحسنة ... الخ قال أحمد : وقد ورد : ( إن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك ) فلم يراع فرق ما بينهما ، ولعل بين سياق الآيتين اختلافا أوجب فى كل واحد منهما ما ذكر فيه .

سيئة يان وتنكير السيئة ؛ قلت : لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لسكثرتة واتساعه . وأما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ، ولا يقع إلا شيء منها . ومنه قول بعضهم : قد عدت أيام البلاء ، فهل عدت أيام الرخاء ﴿ طائرهم عند الله ﴾ أى سبب خيرهم وشرهم عند الله ، وهو حكمه ومشيلته ، والله هو الذى يشاء ما يصيبهم من الحسنة والسيئة ، وليس شؤم أحد ولا يمنه بسبب فيه ، كقوله تعالى ( قل كل من عند الله ) ويجوز أن يكون معناه : ألا إنما سبب شؤمهم عند الله وهو عملهم المكتوب عنده الذى يجرى عليهم ما يسوءهم لأجله ، ويعاقبون له بعد موتهم بما وعدهم الله فى قوله سبحانه ( النار يعرضون عليها ) الآية . ولا طائر أشأم من هذا . وقرأ الحسن : إنما طيركم عند الله ، وهو اسم جمع طائر غير تكسير ، ونظيره : التجر ، والركب . وعند أبى الحسن : هو تكسير .

وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾  
فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ  
فَأَسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

( مهما ) هى دماء المضمنة معنى الجزاء <sup>(١)</sup> ، ضمت إليها دماء المزيدة المؤكدة للجزاء فى

(١) قال محمود : دمهها هى دماء المضمنة معنى الجزاء ضمت إليها دماء المزيدة المؤكدة للجزاء ... الخ . قال أحد : والذى عده أولاً من كلام سيويه ، وسنذكره : قال سيويه : وسألت الخليل عن مهما فقال : هى دماء أدخلت معها دماء ، بلغوا بمنزلتها مع متى ، إذا قلت : متى ما تأتى حديثك . انتهى كلام سيويه . وكان هذا القائل - والله أعلم - اغتر بتشبيه الخليل لها بمتى ما ، فظنها فى معناها . وإنما شبه الخليل بالثانية من مهما فى لحاقها زائدة مؤكدة للأولى بما اللاحقة لمتى . عاد كلام سيويه قال : ولكنهم استفجوا تكرير لفظ واحد ، فأبدلوا الماء من الألف التى فى الأولى انتهى نقله عن الخليل . قال سيويه : ويجوز أن تكون كاذ ضمت إليها ما انتهى كلامه . قال أحد : ومعنى تشبيه سيويه لها بأدما أن الجزاء بجملة الكلمة لا بالجزء الأول منها خاصة وإلا لكان عين مذهب الخليل . والذى يحقق ذلك أن سيويه قال أول هذا الباب : وأما د حيث ، وه إذ ، فلا يجازى بهما حتى يعزم إليهما ما ، فتصير إذ مع ما بمنزلة إنما وكأتما ، وليست ما فيهما بلفو ، ولكن كل واحدة منهما مع ما بمنزلة حرف واحد ، فانظر قوله : وليست ما فيهما بلفو ، يعنى ليست زائدة مؤكدة ، ولكن لها حظ فى اقضاء الجزاء حتى لا يفيد إلا اجتماع جزئى الكلمة ويبنى وراء ذلك نظر فى أن سيويه هل أراد أن د ما ، ضمت إلى دمه ، التى هى الصوت ، أو إلى د ما ، الجزائية . والظاهر من مراده أن انضمامها إلى الصوت ، لأنها لو كانت منضمة إلى د ما ، الجزائية ، لكانت مستقلة بإفادة الجزاء قبل انضمام د ما ، إليها ، ولا تكون مثل إذا وحيث ، ولا يكون تنظير سيويه مطابقاً . وهذا الذى فهمه ابن طاهر وتبعه فيه تلميذه ابن خروف . وعزا ابن خروف هذا المذهب إلى سيويه ، ورد قول ابن بابشاذ أن هذا المذهب للخليل خاصة ، وقد تواطأ ابن بابشاذ والزمخشري على نفي هذا المذهب عن سيويه ، وإعزاه إلى غيره . وأظهر ما قوى به مذهب الخليل - والله أعلم - أن هذه الكلمة استعملت فى الاستفهام حسب استعمالها فى الجزاء وأنشدوا :

مهما لى اللية مهما ليه أودى بنعل وسرا ليه

قولك : متى ماتخرج أخرج ، ( أينما تكونوا يدرككم الموت ) ، ( فإما نذهبن بك ) إلا أن الألف قلبت هاء استقالا لتكرير المتجانسين وهو المذهب السديد البصرى ، ومن الناس من زعم أن « مه » هى الصوت الذى يصوت به السكاف ، و « ما » للجزاء ، كأنه قيل : كف ما تأتينا به من آية لتسحرنا بها فإنا نحن لك بمؤمنين . فإن قلت : ما محل مهما ؟ قلت : الرفع بمعنى : أيما شئ تأتينا به . أو النصب ، بمعنى : أيما شئ تحضرنا <sup>(١)</sup> تأتينا به . ومن آية : تدين لهما . والضميران فى ( به ) و ( بها ) راجعان إلى مهما ، إلا أن أحدهما ذكر على اللفظ ، والثانى أثبت على المعنى ، لأنه فى معنى الآية . ونحوه قول زهير :

وَمَهْمَا يَكُنْ عِنْدَ امْرِئٍ مِنْ خَلِيقَةٍ وَإِنْ خَالَهَا تُخْفَى عَلَى النَّاسِ تُعْلَمَ <sup>(٢)</sup>

وهذه الكلمة فى عداد الكلمات التى يحرفها من لا يدره فى علم العربية ، فيضعها غير موضعها ، ويحسب مهما بمعنى متى ما ، ويقول مهما جئتني أعطيتك ، وهذا من وضعه ، وليس من كلام واضع العربية فى شئ . ثم يذهب فيفسر ( مهما تأتينا به من آية ) بمعنى الوقت ، فيلحد فى آيات الله وهو لا يشعر ، وهذا وأمثاله مما يوجب الجثو بين يدي الناظر فى كتاب سيبويه . فإن قلت : كيف سموها آية ، ثم قالوا لتسحرنا بها ؟ قلت : ما سموها آية لاعتقادهم أنها آية ، وإنما سموها اعتباراً لتسمية موسى ، وقصدوا بذلك الاستهزاء والتلصص ( الطوفان ) ما طاف بهم وغلهم من مطر أو سيل . قيل : طغى الماء فوق حروثهم ، وذلك أنهم مطروا ثمانية أيام فى ظلمة شديدة ، لا يرون

== أراد : مالى اللبلة ، ولا إشكال هنا أنها دماء الاستفهامية كررت تأكيداً ، كما يقولون : لا لا ، ونعم نعم ، ثم استكره تكرار اللفظ بعينه ، فقلب ألف الأولى هاء . وقد جاء قلب الاستفهامية وإن لم يكن تكرار ، فهو منه أجدر . وإذا وضع أن دهما ، الواقعة فى الاستفهام أصلاً د ما ، مكررة ، كان ذلك أوضح دليل على أن الواقعة فى الجزاء كذلك ، والاستشهاد بالنظائر أبرز حجج العربية ، والله أعلم . وأما رد الزعشرى على من زعم أنها بمعنى « متى ما » ، فرد صحيح ، والآية أصدق شاهد على رده ، فإن الضمير المجرور فيها عائد إلى مهما حتماً ، وقد اتصل به مفسراً له قوله ( من آية ) دل على أن الضمير واقع على الآية ، فلم وقوع « مهما » عليها ضرورة لإيجاد المرجع فى المضمر ومظهره ، فذهب هذا القائل إلى إيقاع « مهما » على الوقت زاعماً أنها بمعنى « متى ما » ، ذهب عن الصواب . وعذر الزعشرى واضح فى الرد على تسجيله وإغلاظ التكرير عليه ، وهو يوق سهام التفتيح إليه . فتأمل هذا الفصل ، فقيه إنارة للسبيل ، وشفاء للليل ، والله الموفق .

(١) قوله « أينما شئ تحضرنا » لعله تحضر فقط . (ع)

(٢) زهير بن أبى سلمى من معلقته . ومهما : اسم شرط بمعنى أى شئ على المختار ، فلذلك يعود عليه الضمير ، ثم إن كان المراد به مؤثراً كما هنا ، فتارة يعود عليه الضمير مذكراً باعتبار اللفظ كما فى قوله « يكن » وتارة مؤثراً باعتبار المعنى كما فى قوله « وإن خالها » ولم يجعل هذا عائداً على الخليفة ، لأن « مهما » هو المحدث عنه ، و « من خليفة » بيان له . ولما بين بالمؤنث حسن تأنيث ضميره بعد بيانه . يقول : أى طبيعة وصحبة تكون فى الإنسان تعلم الناس بأماراتها ، وإن ظنها خافية عليهم .



شمساً ولا قرأ ، ولا يقدر أحدهم أن يخرج من داره . وقيل أرسل الله عليهم السماء حتى كادوا يهلكون ، وبيوت بني إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة ، فامتلات بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم ، فمن جلس غرق ، ولم تدخل بيوت بني إسرائيل قطرة ، وفاض الماء على وجه أرضهم وركد فنعهم من الحرث والبناء والتصرف ، ودام عليهم سبعة أيام . وعن أبي قلابة : الطوفان الجدرى ، وهو أول عذاب وقع فيهم ، فبقى في الأرض . وقيل : هو الموتان<sup>(١)</sup> وقيل : الطاعون ، فقالوا لموسى : ادع لئلا ربك يكشف عنا ونحن نؤمن بك ، فدعا فرفع عنهم ، فآمنوا ، فنبت لهم تلك السنة من السكلا<sup>(٢)</sup> والزرع ما لم يعهد بمثله ، فأقاموا شهراً ، فبعث الله عليهم الجراد فأكلت عامة زروعهم وثمارهم ، ثم أكلت كل شيء حتى الأبواب وسقوف البيوت والثياب ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منها شيء ، ففزعوا إلى موسى ووعدوه التوبة ، فكشف عنهم بعد سبعة أيام : خرج موسى عليه السلام إلى الفضاء فأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب ، فرجع الجراد إلى النواحي التي جاء منها ، فقالوا : ما نحن بتاركى ديننا ، فأقاموا شهراً ، فسلط الله عليهم القمل وهو الحنان في قول أبي عبيدة كبار القردان . وقيل : الدبا وهو أولاد الجراد . قيل : نبات أجنحتها . وقيل : البراغيث . وعن سعيد بن جبير : السوس ، فأكل ما أبقاها الجراد ، ولحس الأرض ، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيمصه ، وكان يأكل أحدهم طعاماً فيمتلئ قلاً ، وكان يخرج أحدهم عشرة أجربة إلى الرحي فلا يرد منها إلا يسيراً . وعن سعيد ابن جبير . أنه كان إلى جنبهم كتيب أعفر ، فضر به موسى بعصاه فصار قلاً ، فأخذت في أبقارهم وأشعارهم وأشفار عيونهم وحواجرهم ، ولزم جلودهم كأنه الجدرى ، فصاحوا وصرخوا وفزعوا إلى موسى فرفع عنهم ، فقالوا : قد تحققنا الآن أنك ساحر ، وعزة فرعون لا تصدقك أبداً ، فأرسل الله عليهم بعد شهر الضفادع ، فدخلت بيوتهم وامتلات منها آنيتهم وأطعمتهم ، ولا يكشف أحد شيئاً من ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع ، وكان الرجل إذا أراد أن يتكلم وثبت الضفدع إلى فيه ، وكانت تمتلئ منها مضاجعهم فلا يقدر على الرقاد ، وكانت تقذف بأنفسها في القدور وهي تغلى ، وفي التناير وهي تفور ، فشكوا إلى موسى وقالوا : ارحمنا هذه المرة ، فما بقى إلا أن تتوب التوبة النصوح ولا نعود ، فأخذ عليهم العمود ودعا فكشف الله عنهم ، ثم نقضوا العهد ، فأرسل الله عليهم الدم فصارت مياههم دماً ، فشكوا إلى فرعون فقال : إنه سحركم فكان يجمع بين القبطى والإسرائيلى على إناء واحد ، فيكون ما يلى الإسرائيلى ماء

(١) قوله : وقيل هو الموتان ، في الصحاح : الموتان - بالضم : موت يقع في المشاية . وفيه أيضاً : الطاعون الموت الوحى من الوباء . وفيه . الوحى ، على فعيلى : السريع . (ع)

وما إلى القبطى دماً ، ويستقيان من ماء واحد فيخرج للقبلى الدم والإسرائيلى الماء ، حتى إن المرأة القبطية تقول لجارتها الإسرائيلية : اجعلى الماء فى فيك ثم يجيه فى فى ، فيصير الماء فى فيها دماً . وعطش فرعون حتى أشقى على الهلاك ، فكان يحض الأشجار الرطبة ، فإذا مضغها صار ماءؤها الطيب ملحاً أجاجاً . وعن سعيد بن المسيب : سأل عليهم النيل دماً . وقيل : سلط الله عليهم الرعاف وروى أن موسى عليه السلام مكث فيهم بعد ما غلب السحرة عشرين سنة يريهم هذه الآيات ، وروى أنه لما أراهم اليد والعصا ونقص النفوس والثروات قال : يارب ، إن عبدك هذا قد علا فى الأرض نخذه بعقوبة تجعلها له ولقومه نقمة ، ولقومى عظة ، ولمن بعدى آية . فحينئذ بعث الله عليهم الطوفان ، ثم الجراد ، ثم ما بعده من النقم . وقرأ الحسن : والقمل ، بفتح القاف وسكون الميم ، يريد القمل المعروف ﴿ آيات مفصلات ﴾ نصب على الحال . ومعنى مفصلات : مميزات ظاهرات لا يشكل على عاقل أنها من آيات الله التى لا يقدر عليها غيره ، وأنها عبرة لهم ونقمة على كفرهم . أو فصل بين بعضها وبعض بزمان تمتحن فيه أحوالهم ، وينظر أيستقيمون على ما وعدوا من أنفسهم ، أم يسكنون إلزاماً للحجة عليهم ؟

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَمْوَسَىٰ اأَدْعُ لَنَا رَبُّكَ إِنَّمَا عَهْدُ عِنْدَكَ  
كَيْنُ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٣٤﴾  
فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بَلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَانْتَقَمْنَا  
مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾

﴿ بما عهد عندك ﴾ ما مصدرية . والمعنى بعهد عندك وهو النبوة والباء إما أن تتعلق بقوله ﴿ ادع لنا ربك ﴾ على وجهين : أحدهما أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة . أو ادع الله لنا متوسلاً إليه بعهد عندك . وإما أن يكون قسماً مجاباً بلتؤمنن ، أى أقسمنا بعهد الله عندك لأن كشفت عنا الرجز لتؤمنن لك ﴿ إلى أجل هم بالغوه ﴾ إلى حد من الزمن هم بالغوه لا محالة فعذبون فيه لا ينفعهم ما تقدم لهم من الإمهال وكشف العذاب إلى حلوله ﴿ إذا هم ينكثون ﴾ جواب لما ، يعنى : فلما كشفناه عنهم فاجأوا النكث وبادروا لم يؤخروه ولكن كما كشف عنهم نكثوا ﴿ فانتقمنا منهم ﴾ فأردنا الانتقام منهم ﴿ فأغرقناهم ﴾ . واليم : البحر الذى لا يدرك قعره . وقيل : هو لجة البحر ومعظم مائه ، واشتقاقه من التيم ، لأن المستنقعين به يقصدونه ﴿ بأنهم كذبوا بآياتنا ﴾ أى كان إغراقهم بسبب تكذيبهم بالآيات وغفلتهم عنها وقلة فكرهم فيها .

وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَغْرِبَهَا الَّتِي  
بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا  
مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

(القوم الذين كانوا يستضعفون) هم بنو إسرائيل كان يستضعفهم فرعون وقومه. والارمن:  
أرض مصر والشام ، ملكها بنو إسرائيل بعد الفراعنة والعمالقة ، وتصرفوا كيف شاؤوا في  
أطرافها ونواحيها الشرقية والغربية (باركنا فيها) بالخصب وسعة الأرزاق (كلت ربك  
الحسنى) قوله (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض) إلى قوله (ما كانوا يحذرون)  
والحسنى : تأنيث الاحسن صفة للكلمة . ومعنى تمت على بنى إسرائيل : مضت عليهم واستمرت  
من قولك : تم على الأمر إذا مضى عليه (بما صبروا) بسبب صبرهم ، وحسبك به حاثاً على  
الصبر ، ودالاً على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه ، ومن قابله بالصبر وانتظار النصر  
ضمن الله له الفرج . وعن الحسن : عجب من خف كيف خف وقد سمع قوله . وتلا الآية .  
ومعنى خف : طاش جزعا وقلة صبر ، ولم يرز رزاة أولى الصبر . وقرأ عاصم في رواية : وتمت  
كلمات ربك الحسنى . ونظيره (من آيات ربه الكبرى) . (ما كان يصنع فرعون وقومه) ما كانوا  
يعملون ويسوّون من العمارات وبناء القصور (وما كانوا يعرشون) من الجنات (هو الذى أنشأ  
جنات معروشات) أو وما كانوا يرفعون من الأبنية المشيدة في السماء . كصرح هامان وغيره .  
وقرئ : يعرشون ، بالكسر والضم . وذكر الزيدى أن الكسر أفصح . وبلغنى أنه قرأ بعض  
الناس . يغرسون ، من غرس الأشجار . وما أحسبه إلا تصحيحاً منه .

وَجَوَّزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَفْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ  
قَالُوا يَمُوسَىٰ اجْعَلْ لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالِ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَبْجِلُونَ ﴿١٣٨﴾  
إِنْ هَؤُلَاءِ مُتَّبَرُّوْنَ فَمَهْمُ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَخْبِرْ اللَّهَ أَيُّكُمْ  
إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾

وهذا آخر ما اختص الله من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم  
ثم أتبعه اقتصاص نبأ بنى إسرائيل وما أحدثوه - بعد إقناذهم من ملكة فرعون واستعباده ،  
ومعابنتهم الآيات العظام ، ومجاوزتهم البحر - من عبادة البقر وطلب رؤية الله جهرة ، وغير ذلك

من أنواع الكفر والمعاصي ، ليعلم حال الإنسان وأنه كما وصفه ظلم كفار جهول كنود ، إلا من عصمه الله (وقليل من عبادى الشكور) وليسلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما رأى من نبي إسرائيل بالمدينة . وروى أنه عبر بهم موسى يوم عاشوراء بعد ما أهلك الله تعالى فرعون وقومه ، فصاموه شكراً لله تعالى ﴿فأتوا على قوم﴾ فزروا عليهم ﴿يعكفون على أصنام لهم﴾ يواظبون على عبادتها ويلازمونها . قال ابن جريج : كانت تماثيل بقر : وذلك أول شأن العجل وقيل : كانوا قوماً من لحم . وقيل : كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم وقرئ : وجوزنا ، بمعنى أجزنا . يقال : أجاز المسكان وجوزوه وجاوزه بمعنى جازه ، كقولك : أعلاه وعلاه وعلاه وعلاه . وقرئ : يعكفون ، بضم الكاف وكسر ها ﴿اجعل لنا إلهاً﴾ صنم نعكف عليه ﴿كما لهم آلهة﴾ أصنام يعكفون عليها . وماء كافة للكاف ، ولذلك وقعت الجملة بعدها وعن علي رضي الله عنه أن يهودياً قال له : اختلفتم بعد نبيكم قبل أن يحف ماؤه . فقال : قلتم اجعل لنا إلهاً قبل أن تحف أقدامكم ﴿إنكم قوم تجهلون﴾ تعجب من قولهم على أثر ما رأوا من الآية العظمى والمعجزة الكبرى ، فوصفهم بالجهل المطلق وأكده ، لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم ولا أشنع ﴿إن هؤلاء﴾ يعنى عبدة تلك التماثيل ﴿متبر ما هم فيه﴾ مدمر مكسر ما هم فيه ، من قولهم إناه متبر ، إذا كان فضاضاً <sup>(١)</sup> . ويقال لكسار الذهب : التبر ، أى يتبر الله ويهدم دينهم الذى هم عليه على يدي ، ويعظم أصنامهم هذه ويتركها رضاضاً ﴿وباطل ما كانوا يعملون﴾ أى ما عملوا شيئاً من عبادتها فيما سلف إلا وهو باطل مضمحل لا ينتفعون به وإن كان فى زعمهم تهرباً إلى الله كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً) وفى إيقاع (هؤلاء) اسماً لأن ، وتقديم خبر المبتدأ من الجملة الواقعة خبراً لها وسم لعبدة الأصنام بأنهم هم المعروضون للتبار ، وأنه لا يعدوهم البتة ، وأنه لم ضربة لازب ، ليحذرهم عاقبة ما طلبوا ويغض إليهم ما أحجوا ﴿أغير الله أبغىكم إلهاً﴾ أغير المستحق للعبادة أطلب لكم معبوداً ، وهو فعل بكم ما فعل دون غيره ، من الاختصاص بالنعمة التى لم يعطها أحداً غيركم ، لتختصوه بالعبادة ولا تتركوا به غيره . ومعنى الهمة : الإنكار والتعجب من طلبهم - مع كونهم مغفورين فى نعمة الله - عبادة غير الله .

وَإِذْ أَتَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ

وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١)

﴿يسومونكم سوء العذاب﴾ ييغونكم شدة العذاب ، من سام السلعة إذا طلبها . فإن قلت : ما محل

يسومونكم؟ قلت : هو استئناف لاجل له . ويجوز أن يكون حالاً من المخاطبين أو من آل فرعون .  
 ﴿ ذَلِكُمْ ﴾ إشارة إلى الإنجاء أو إلى العذاب . والبلاء : النعمة أو المحنة . وقرئ : يقتلون ، بالتخفيف .  
 وَوَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَقَمْتَهُمَا بِعَشْرِ قَتْمٍ مِّمَّتْ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ  
 لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلُقْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ  
 سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾

وروى أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم ، أتاهم  
 بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب ،  
 فأمره بصوم ثلاثين يوماً وهو شهر ذى القعدة ، فلما أتم الثلاثين أنكر خلوف فيه فسوك ،  
 فقالت الملائكة : كنا نشم من فيك رائحة المسك فأفسدته بالسواك . وقيل : أوحى الله تعالى إليه  
 أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، فأمره الله تعالى أن يزيد عليها عشرة  
 أيام من ذى الحجة لذلك . وقيل : أمره الله أن يصوم ثلاثين يوماً ، وأن يعمل فيها بما يقربه من  
 الله ثم أنزلت عليه التوراة فى العشر وكلم فيها . ولقد أجل ذكر الأربعين فى سورة البقرة ، وفصلها  
 ههنا . ﴿ مِيقَاتِ رَبِّهِ ﴾ ما وقته له من الوقت وضربه له . ﴿ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ نصب على الحال  
 أى تم بالغا هذا العدد . ﴿ هَارُونَ ﴾ عطف بيان لأخيه . وقرئ بالضم على النداء ﴿ اخْلُقْنِي فِي  
 قَوْمِي ﴾ كن خليفتي فيهم ﴿ وَأَصْلِحْ ﴾ وكن مصلحاً . أو وأصلح ما يجب أن يصلح من أمور  
 بنى إسرائيل ، ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطلع .

وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَهَكَ قَالَ لَنُ  
 تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ  
 لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَنكَ تُبْتُ إِلَهَكَ وَأَنَا  
 أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

﴿ لميقاتنا ﴾ لوقتنا الذى وقتنا له وحددنا . ومعنى اللام الاختصاص ، فكأنه قيل : واخص  
 بحيته بميقاتنا ، كما تقول : أتيتك لعشر خلون من الشهر ﴿ وكله ربه ﴾ من غير واسطة <sup>(١)</sup> كما يكلم

(١) قال محمود : « معناه كله من غير واسطة ... الخ » قال أحمد : وهذا تصرّح منه بخلق الكلام ، كما هو  
 معتقد المعتزلة ، والذي يخص به هذه الآية من وجوه الرد عليه : أنها سقت مساق الامتنان على موسى باصطفاء الله  
 له وتخصيصه إياه بتكليمه ، وكذلك قال تعالى بعد آيات منها (إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي فخذ  
 ما آتيتك وكن من الشاكرين) فلو كان تكليم الله له بمعنى خلق الحروف والأصوات فى بعض الأجرام واستماع

الملك ، وتكليمه : أن يخلق الكلام <sup>(١)</sup> منطوقاً به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطاً في اللوح وروى : أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة . وعن ابن عباس رضى الله عنه : كله أربعين يوماً وأربعين ليلة ، وكتب له الألواح . وقيل إنما كله في أول الأربعين (أرني أنظر إليك) ثانياً مفعولاً أرني محذوف <sup>(٢)</sup> أى أرني نفسك أنظر إليك . فإن قلت :

== موسى لذلك ، لكان كل أحد يساوى موسى عليه السلام في ذلك ، بل كان آحاد أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام أثر هذه المزية وأحق بالخصوصية من موسى عليه السلام : لأنهم سمعوا الكلام على الوجه المذكور من أفضل الأجرام وأزكاهم خلقاً في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكانت مزيتهم أظهر ، وخصوصيتهم أوفر . ونحن نعلم ضرورة من سياق هذه الآية تمييز موسى عليه الصلاة والسلام بهذه المزية ، فلا يبعد لذلك إلا اعتقاد أنه سمع الكلام القديم القائم بذات الله سبحانه وتعالى بلا واسطة دليل عليه من حروف ولا غيرها ، وكما أجزنا من المعقول أن ترى ذات البارئ سبحانه وتعالى وإن لم يكن جسماً ، فكذلك نحيي أن يسمع كلامه وإن لم يكن حرفاً ولا صوتاً . والكلام في هذه العقيدة طويل ، والشروط بطين . وهذه النكتة هي الخاصة بهذه الآية ، والله الموفق .

(١) قوله وتكليمه أن يخلق الكلام ، هذا على مذهب المعتزلة : أن كلامه تعالى ألفاظ يخلقها الله في بعض الأجرام . أما على مذهب أهل السنة ، فإن كلامه تعالى صفة قديمة قائمة بذاته ، فتكليمه لعبده أن يكشف له عنها . كما تقرر في علم التوحيد . (ع)

(٢) عاد كلامه . قال : «وقوله أرني أنظر إليك محذوف المفعول الأول مذكور الثاني ، والتقدير أرني نفسك أنظر إليك ... الخ» قال أحد : ما أشد ما اضطرب كلامه في هذه الآية ، لأن غرضه أن يدحض الحق بالضلالة ، ويشين بكفه وجه الغرالة ، هيأت قد تبين الصبح لذى عيني ، فالحق أبلغ لا يمازجه ريب إلا عند ذى ربن . أما حظ المعقول من إجازة رؤية الله تعالى فوظيفة علم الكلام ، وأخضر وجه في إجابة ذلك : أن الوجود مصحح الرؤية ، بدليل أن جواز الرؤية حكم يستدعي مصححاً . وقد شمل الجواز الجوهر والعرض ، ولجامع بينهما يمكن جعله مصححاً سوى الوجود ، وإذا كان الوجود هو المصحح فقد محت رؤيته تعالى لوجوده . وأما استبعاد أن يرى ما ليس في جهة فأمر وهمي مثله عرض للمعطلة فعميت بصائرهم ، حتى أنكروا موجوداً لافى جهة ، ومن اتبع الأوهام اغتسق مهامه الضلال وهام ، ولو كانت الرؤية تتوقف على جهة المرمى لكانت المعرفة تتوقف على جهة المعروف ، ولا خلاف أنه سبحانه يعرف لا في جهة ، فكذلك يرى لافى جهة ، فالحق أن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه ، لعله يحواز ذلك على الله تعالى ، والقدرية يجبرهم الطمع ويجرؤهم حتى يروموا أن يجعلوا موسى عليه السلام كان على معتقدهم ، وما هم حيثئذ إلا من آذوا موسى فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجهاً . وأما قوله عليه السلام : (أهلكنا بما فعل السفهاء منا) تبرا من أفاعيلهم وتسفها لم وتضللاً لأبهم ، فلا راحة للقدرية في الاستشهاد به على إنكار موسى عليه السلام لجواز الرؤية ، فإن الذى كان الإهلاك بسببه إنما هو عبادة العجل في قول أكثر المفسرين ثم . وإن كان السبب طلبهم للرؤية ، فليس لأنها غير جائزة على الله . ولكن لأن الله تعالى أخبر أنها لا تقع في دار الدنيا والخبر صدق ، وذلك بعد سؤال موسى للرؤية فلما سألوا وقد سمعوا الخبر بعدم وقوعها ، كان طلبهم خلاف المعلوم تكذيباً للخبر ، فن ثم سفهم موسى عليه السلام وتبرا من طلب ما أخبر الله أنه لا يقع ثم ، ولو كان سؤالهم الرؤية قبل إخبار الله تعالى بعدم وقوعها ، فاعلموا سفهم موسى عليه السلام لاقتراحهم على الله هذه الآية الخاصة ، وتوقفهم الإيمان عليها حيث قالوا (إن تؤمن لك حتى ترى الله جهرة) ألا ترى أن قولهم (إن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً) إنما سألوا فيه جائزاً ، ومع ذلك قرعوا به لاقتراحهم على الله ما لا يتوقف وجوب الإيمان عليه ، فهذه المباحث الثلاثة توضح لك سوء نظر الإغصنرى بعين الهوى وهمايته عن سبيل الهدى ، والله الموفق .

الرؤية عين النظر ، فكيف قيل : أرني أنظر إليك ؟ قلت : معنى أرني نفسك ، اجعلني متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لي فأنظر إليك وأراك ، فإن قلت : فكيف قال ( لن تراني ) ولم يقل لن تنظر إلي ، لقوله ( أنظر إليك ) ؟ قلت : لما قال ( أرني ) بمعنى اجعلني متمكناً من الرؤية التي هي الإدراك ، علم أن الطلبة هي الرؤية <sup>(١)</sup> لا النظر الذي لا إدراك معه ، فقيل : لن تراني ، ولم يقل لن تنظر إلي . فإن قلت : كيف طلب موسى عليه السلام ذلك - وهو من أعلم الناس بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز ، وبتعاليه عن الرؤية التي هي إدراك ببعض الحواس ، وذلك إنما يصح فيما كان في جهة . وما ليس بجسم ولا عرض فحال أن يكون في جهة . ومنع المجبرة إحاطته <sup>(٢)</sup> في العقول غير لازم ، لأنه ليس بأول مكابرتهم وارتكابهم ، وكيف يكون طالبه وقد قال - حين أخذت الرجفة الذين قالوا أرنا الله جهرة - ( أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ) إلى قوله ( تفضل بها من تشاء ) فتبرأ من فعلهم ودعاهم سفهاء وضلالا - ؟ قلت : ما كان طلب الرؤية إلا ليبيك هؤلاء الذين دعاهم سفهاء وضلالا . وتبرأ من فعلهم ، وليتقهم الحجر ، وذلك أنهم حين طلبوا الرؤية أنكروا عليهم وأعلمهم الخطأ ونههم على الحق ، فلجوا وتمادوا في لجاجهم وقالوا : لا بد ، ولن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة ، فأراد أن يسمعوا النص من عند الله باستحالة ذلك ، وهو قوله ( لن تراني ) ليتيقنوا وينزاح عنهم ما دخلهم من الشبهة ، فلذلك قال : ( رب أرني أنظر إليك ) . فإن قلت : فهلا قال : أرهم ينظروا إليك <sup>(٣)</sup> ؟ قلت : لأن الله سبحانه إنما كلم موسى عليه السلام وهم يسمعون ، فلما سمعوا كلام رب العزة أرادوا أن يرى موسى ذاته فيبصروه معه ، كما أسمعه كلامه فسمعوه معه ، إرادة مبنية على قياس فاسد . فلذلك قال موسى :

- (١) قوله « أن الطلبة هي الرؤية » في الصحاح والطلبة بكسر اللام : ما طلبته من شيء . (ع)  
 (٢) قوله « ومنع المجبرة إحاطته » يعني أهل السنة ، حيث ذهبوا إلى جواز رؤيته تعالى ومنعوا اشتراط كون المرئي في جهة . قال تعالى ( وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة ) والجائز قد يتقني في بعض الأوقات ويقع في بعض . والحديث كما سيأتي دسترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر . وعمل الكلام علم الكلام . (ع)  
 (٣) عاد كلامه . قال : فإن قلت : هلا قال أرهم ينظروا إليك ... الخ ؟ قال أحمد : وهذا الكلام الآخر من الطراز الأول ، وأقرب شاهد على رده أنه لو كان طلب الرؤية لم حق إذا سمعوا منع الله تعالى لما أيقنوا أنها عتمة لكان طلبها عبثاً غير مفيد لهذا الغرض ، لأن هؤلاء لا يخلو أمرهم . إما أن يكونوا مؤمنين بموسى ، أو كفاراً به ، فإن كانوا مؤمنين به ، فاختاره إياهم بأن الله تعالى لا يرى ولا يجوز عليه ذلك ، كاف في حصول المقصود من غير حاجة إلى أن يسأل موسى عليه السلام من الله أن يريه ذاته ، على علم بأن ذلك محال . وإن كانوا كفاراً بموسى عليه السلام فلا يحصل الغرض من ذلك أيضاً ؛ لأن الله تعالى إذا منعه مسؤوله من الرؤية ، فأنما يثبت ذلك لم بقوله موسى عن الله تعالى أنه منعه ذلك ، وهم كفار بموسى عليه السلام ، فكيف يفيد غيره عن الله بامتناع ذلك ؟ فهذا أوضح مصداق ؛ لأن موسى عليه السلام إنما طلب الرؤية لنفسه اعتقاداً لجوارها على الله تعالى ، فأخبره الله أن ذلك لا يقع في الدنيا وإن كان جائزاً .

أرني أنظر إليك، ولأنه إذا زجر عما طلب، وأنكر عليه في نبوته واختصاصه وزلفته عند الله تعالى، وقيل له: لن يكون ذلك: كان غيره أولى بالإلنكار، ولأن الرسول إمام أمته، فكان ما يخاطب به أو ما يخاطب، اجعاً إليهم. وقوله (أنظر إليك) وما فيه من معنى المقابلة<sup>(١)</sup> التي هي محض التشبيه والتجسيم، دليل على أنه ترجمة عن مقترحهم وحكاية لقولهم، وجل صاحب الجمل أن يجعل الله منظوراً إليه، مقابلاً بحاسة النظر، فكيف بمن هو أعرق في معرفة الله تعالى من واصل بن عطاء، وعمرو بن عبيد، والنظام، وأبي الهذيل والشيخين، وجميع المتكلمين؟ فإن قلت: مامعنى (لن)؟ قلت: تأكيد النفي الذي تعطيه ولا،<sup>(٢)</sup> وذلك أن ولا تنفي المستقبل. تقول: لا أفعل غداً، فإذا أكدت نفيها قلت: لن أفعل غداً. والمعنى: أن فعله يتنافى حاله، كقوله (لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له) فقوله (لا تدركه الأبصار) نفي للرؤية فيما يستقبل. ولن تراني تأكيد وبيان، لأن المنفي منافي لصفاته. فإن قلت: كيف اتصل الاستدراك في قوله ﴿ولكن انظر إلى الجبل﴾ بما قبله؟ قلت: اتصل به على معنى أن النظر إلى محال فلا تطلبه ولكن عليك بنظر آخر: وهو أن تنظر إلى الجبل الذي يرجف بك وبمن طلبت الرؤية لأجلهم، كيف أفعل به وكيف أجعله دكا بسبب طلبك الرؤية؟ لتستعظم ما أقدمت عليه بما أريك من عظم أثره، كأنه عزّ وعلا حقق عند طلب الرؤية مأمثله عند نسبة الولد<sup>(٣)</sup> إليه في قوله (وتختر الجبال هذا، أن دعوا للرحمن ولداً). (فإن استقر مكانه)

(١) عاد كلامه. قال: ودقوله أنظر إليك وما فيه من معنى المقابلة... الخ، قال أحمد: ودعواه أن النظر يستلزم الجسمية قد سلف ردّها. وأما تزويه موسى عليه السلام بنسبة اعتقاد الرؤية إليه فهو غي عنه. وأما إقناعه في تفصيله برجمائه عليه السلام في العلم بالله وصفاته على واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد والنظام وأبي الهذيل والشيخين، فهو نقص عن منصبه الممل، وأقل السوام المفلين لأهل السنة، راجع عند الله على أصحاب البدع والأهواء، وإن ملؤا الأرض نفاقاً، وشحنوا مصنفاتهم عناداً لأهل السنة وشقاقاً، فكيف بكلم الله عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) عاد كلامه. قال: «فإن قلت مامعنى لن؟ قلت تأكيد النفي الذي تعطيه لا... الخ» قال أحمد: «لن» كما قال تشارك «لا» في النفي وتمتاز بميزة تأكيد كبدّه. وأما استنباط الخشري من ذلك منافية الرؤية لحال الباري عز وجل، ثم إطلاق الحال على الله تعالى مما يستحز عنه، واستشهاده على أن «لن» تشعر باستحالة المنفي ما عقلاً، مردود كثيراً بكثير من الآي، كقوله تعالى (قل لن تخرجوا معي أبداً) فذلك لا يحيل خروجهم عقلاً، و (لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن)، (لن تبغونا). فهذه كلها جاوزات عقلاً، لولا أن الخبر منع من وقوعها، فالرؤية كذلك. (٣) عاد كلامه. قال: «وتم حقق تعالى عند طلب الرؤية مأمثله عند نسبة الولد... الخ»، قال أحمد: نسبة جواز الرؤية إلى الله تعالى عند الخشري كنسبة الولد إليه، وهذا مفرع على المعتقد السالف بطلانه، وليس له في هذا الفصل وظيفة إلا تتبع الشبه لامتناع الرؤية، تلففها من كل فج. والحق أن ذلك الجبل إنما كان لأن الله عز وجل أظهر له آية من ملكوت السماء. ولا تستقر الدنيا لأظفار شيء من ملكوت السماء. وهذا هو المأثور عن السلف في هذه الآية. ومعناه عند أبي الحسن رحمه الله فعل فعلاً سماه تجلياً، وكان الغضب إما لأنهم طلبوا رؤية جسمانية في جهة، وإما لأنهم كتموا الخبر. بأنه لا يرى في الدنيا، وإما لأنهم كفروا بالاقتراح أو بالمجموع.



كما كان مستقراً ثابتاً ذاهباً<sup>(١)</sup> في جهاته (فسوف تراني) تعليق لوجود الرؤية بوجوده مالا يكون من استقرار الجبل مكانه حين يدركه دكا ويسويه بالأرض ، وهذا كلام مدج بعضه في بعض ، وارد على أسلوب عجيب ونمط بديع . ألا ترى كيف تخلص من النظر إلى النظر بكلمة الاستدراك ؟ ثم كيف بنى الوعيد بالرجفة الكائنة بسبب طلب النظر على الشريطة في وجود الرؤية ؟ أعنى قوله (فإن استقر مكانه فسوف تراني) . (فلما تجلى ربه للجبل) فلما ظهر له اقتداره وتصدى له أمره وإرادته (جعله دكا) أى مدكو كما مصدر بمعنى مفعول كضرب الأمير . والدك والدق أخوان ، كالشك والشق . وقرئ دكا . والدكا : اسم للراية الناشزة من الأرض ، كالذكة أو أرضاً دكا مستوية . ومنه قولهم : ناقة دكا متواضعة السنام ، وعن الشعبي : قال لى الريع بن خثيم : ابسط يدك دكا ، أى مدها مستوية . وقرأ يحيى بن وثاب : دكا ، أى قطعاً دكا جمع دكا (وخر موسى صعقاً) من هول ما رأى . وصعق من باب : فعلته ففعل . يقال صعقته فصعق . وأصله من الصاقعة . ويقال لها الصاقعة ، من صعقه إذا ضربه على رأسه ومعناه : خر مغشياً عليه غشية كاللوت ، وروى أن الملائكة مرت عليه وهو مغشى عليه<sup>(٢)</sup> فجعلوا يلکرونه بأرجلهم ويقولون : يا ابن النساء أطمعت في رؤية رب العزة ؟ (فلما أفاق) من صعته (قال سبحانك) أنزهك مما لا يجوز عليك من الرؤية وغيرها (تبت إليك) من طلب الرؤية (وأنا أول المؤمنين) بأنك لست بمرتى ولا مدرك بشئ من الخواص . فإن قلت : فإن كان طلب الرؤية للغرض الذى ذكرته ، فمـ تاب<sup>(٣)</sup> ؟ قلت : من إجرائه تلك المقالة العظيمة وإن

(١) عاد كلامه . قال : « ومعنى فإن استقر مكانه : فإن ثبت كما كان ذاهباً ... الخ ، قال أحمد : وهذا من حيل القدرة في إحالة الرؤية يقولون : قد علّقها الله على شرط حال وهو استقرار الجبل حال دكا ، والمعلق على الحال حال . وهذه حيلة باطلة ، فإن المعلق عليه استقرار الجبل من حيث هو استقرار ، وذلك ممكن جائز ، وتعلق العلم بأنه لا يستقر له ، لا يرفع إمكان استقراره ، وتعلق العلم لا يغير المعلوم ولا ينقل حكمه من إمكان إلى امتناع ولا العكس . وحيث يتوجه دليلاً لأهل السنة فنقول : استقرار الجبل ممكن ، وقد علق عليه وقوع الرؤية ، والمعلق على الممكن ممكن ، والمتعولة يمتنعون أن خلاف المعلوم لا يجوز أن يكون مقدوراً ونحن نقول مقدور ، ولكن ما تعلق المشيئة بإيجاده . وقولنا أقعد بالآداب ، وأسعد بالآجال في الخطاب .

(٢) عاد كلامه . قال : « ومعنى وخر موسى صعقاً : وخر مغشياً عليه غشية كاللوت وروى أن الملائكة مرت عليه ... الخ ، قال أحمد ، وهذه حكاية إنما يوردها من يتعسف لامتناع الرؤية فيتخذها عونا وظهراً على المعتقد الفاسد . والوجه التورك بالغلط على ناقلها وتنزيه الملائكة عليهم السلام من إهانة موسى كليم الله بالوكز بالرجل والتمصص في الخطاب .

(٣) عاد كلامه . قال : « فإن قلت إن كان طلب الرؤية للغرض الذى ذكرته فمـ تاب ... الخ ؟ قال أحمد : أما دك الجبل ، فقد سلف الكلام على سره . وأما تسبيح موسى عليه السلام فلما تبين له من أن العلم قد سبق بعدم وقوع الرؤية في الدنيا ، والله تعالى مقدس عن وقوع خلاف معلومه وعن الخلف في خبره الحق وقوله الصدق ، فلما تبين أن مطلوبه كان خلاف المعلوم سبح الله وقس عليه وخبره عن الخلف . وأما التوبة في حق الأنبياء =

كان لغرض صحيح على لسانه ، من غير إذن فيه من الله تعالى ، فانظر إلى إعظام الله تعالى أمر الرؤية في هذه الآية ، وكيف أرفج الجبل بطالبها وجعله دكا ، وكيف أصعقهم ولم يخل كلمه من نفيان <sup>(١)</sup> ذلك مبالغة في إعظام الأمر ، وكيف سبح ربه ملتجئاً إليه ، وتاب من إجراء تلك الكلمة على لسانه وقال أنا أول المؤمنين ، ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة <sup>(٢)</sup> كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهبا . ولا يغرنك تسترهم بالبلكفة ، فإنه من منصوبات أشياخهم ! والقول ما قال بعض العدلية <sup>(٣)</sup> فيهم :

لَجَمَاعَةٌ تَمَيَّنُوا هَوَاهُمْ سُنَّةَ وَجَمَاعَةٍ حُمِرَتْ لَعَمْرِي مُوَكَّفَةٌ  
قَدْ شَبَّهُوهُ بِخَلْقِهِ وَتَخَوُّوْا شَنْعَ الْوَرَى فَتَسْتَرُّوْا بِالْبَلْكَفَةِ <sup>(٤)</sup>

وتفسير آخر : وهو أن يريد بقوله ( أرني انظر إليك ) عزفى نفسك تعريفاً واضحاً جلياً ، كأنها إرادة في جلائها بآية مثل آيات القيامة التي تضطر الخلق إلى معرفتك ( أنظر إليك ) أعرفك معرفة اضطرار ، كأنى أنظر إليك ، كما جاء في الحديث : سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر ، <sup>(٥)</sup>

== فلا تستلزم كونها عن ذنب ، لأن منصهم الجليل ينبغي أن يكون منزهاً مبرأ من كل ما ينحط به ، ولا شك أن التوفيق في سؤال الرؤية عن الإذن كان أكمل . وقد ورد : سيئات المقربين حسنت الأبرار .

(١) قوله : ولم يخل كلمه من نفيان ذلك ، قوله : نفيان ، هو ما يتناير من قطر المطر ، وقطر الدلو ، ومن الرمل عند الوطى ، ومن الصوف عند النفس ، ونحو ذلك . كذا في شرح المعانيق للعلامة الزوزنى . (ع)  
(٢) عاد كلامه . قال : ثم تعجب من المتسمين بالإسلام المتسمين بأهل السنة والجماعة ... الخ ، قال أحمد رحمه الله : وقد انتقل الزخشرى في هذا الفصل إلى ما تسمعه من هجاء أهل السنة . ولولا الاستناد بحسان بن ثابت الأنصاري صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وشاعره والمنافع عنه وروح القدس معه ، لقلنا لهؤلاء المتلقين بالعدلية وبالناجين سلاماً ، ولكن كما نافع حسان عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أعداءه ، فنحن ننافع عن أصحاب سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أعداءهم فنقول :

وجماعة كفروا برؤية ربهم حقاً ووعده الله ما لن يخلفه  
وتلقبوا عدلية قلنا أجل عدلوا بربهم لحسبهم سفه  
وتلقبوا الناجين كلا إنهم إن لم يكونوا في لظى فلي سفه

(٣) قوله « والقول ما قال بعض العدلية » غفر الله للصنف ما لوث به لسانه وقلبه في ذكر هذه الآيات . (ع)  
(٤) للزخشرى في أهل السنة ، أى هم جماعة سموا هوى أنفسهم سنة ، ولكن من عرف أن مستند المعتزلة للعقل ، ومستند الجماعة الثقل عرف الهوى من الهدى . وحرأى كالحجر . موكفة : أى موضوع عليها الاكاف ، مبالغة في التشبيه . قد شبهوه : أى الله عز وجل بخلفه حيث قالوا : إنه يرى بالعين ، تخافوا تشذيع الناس عليهم فتسترؤوا بقولهم : إنه يرى بلا كيف . فالبلكفة منحوتة من ذلك .

(٥) متفق عليه من حديث جرير بن عبد الله البجلي قال كنا جلوساً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ نظر إلى القمر ليلة البدر . فقال : أما إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر . الحديث ، وللبخارى من رواية : إنكم سترون ربكم ههنا ، واتفقوا عليه من حديث أبي سعيد وأبي هريرة بمعناه .

بمعنى : ستعرفونه معرفة جليلة هي في الجلاء كما يبصاركم القمر إذا امتلأ واستوى (قال لن تراني) أى لن تطيق معرفتي على هذه الطريقة ، ولن تحمل قوتك تلك الآية المضطرة ولكن انظر إلى الجبل ، فإنى أورد عليه وأظهر له آية من تلك الآيات ، فإن ثبت لتجليها واستقر مكانه ولم يتضعض فسوف تثبت لها وتطبقها ، (فلما تجلى ربه للجبل) فلما ظهرت له آية من آيات قدرته وعظمته (جعله دكا وخز موسى صعقا) لعظم ما رأى (فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك) عما اقترحت وتجاسرت (وأنا أول المؤمنين) بعظمتك وجلالك ، وأن شيئا لا يقوم لبطشك وبأسك .

قَالَ يَمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ

وَكَُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

(اصطفيتك على الناس) اخترتك على أهل زمانك وأترتك عليهم (برسالاتي) وهي أسفار التوراة (وبكلامي) وبتكلمي إياك (فخذ ما آتيتك) ما أعطيتك من شرف النبوة والحكمة (وكن من الشاكرين) على النعمة في ذلك فهي من أجل النعم . وقيل : خز موسى صعقا يوم عرفة ، وأعطى التوراة يوم النحر . فإن قلت : كيف قيل : اصطفيتك على الناس وكان هرون مصطفى مثله ونيا ؟ قلت : أجل ، ولكنه كان تابعا له وردها وزيراً . والكلم : هو موسى عليه السلام ، والاصيل في حمل الرسالة .

وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ

فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾

سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا

سَبِيلَ الْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٦﴾

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

ذكر وافي عدد الألواح وفي جوهرها وطولها أنها كانت عشرة ألواح . وقيل : سبعة . وقيل : لوحين ، وأنها

كانت من زمرد جاء بها جبريل عليه السلام . وقيل : من زبرجدة خضراء . وياقوتة حمراء . وقيل : أمر الله موسى بقطعها من صخرة صماء لينها له ، فقطعها بيده وشقها بأصابعه . ومن الحسن : كانت من خشب نزلت من اسماء فيها التوراة ، وأن طولها كان عشرة أذرع . وقوله ﴿ من كل شيء ﴾ في محل النصب مفعول كُتبت . و﴿ موعظة ﴾ وتفصيلاً بدل منه . والمعنى : كُتبتنا له كل شيء . كان بنو إسرائيل محتاجين إليه في دينهم من المواعظ وتفصيل الأحكام . وقيل أنزلت التوراة وهي سبعون وقر بعير ، يقرأ الجزأ منه في سنة لم يقرأها إلا أربعة نفر : موسى ، ويوشع ، وعزير ، وعيسى عليهم السلام . وعن مقاتل : كتب في الألواح : إني أنا الله الرحمن الرحيم ، لا تشركوا بي شيئاً ، ولا تقطعوا السيل ، ولا تحافوا باسمي كاذبين ؛ فإن من حلف باسمي كاذباً فلا أزيكه ، ولا تقتلوا ولا تنزوا ولا تعقوا الوالدين ﴿ فخذها ﴾ فقلنا له : خذها ، عطفاً على كُتبتنا . ويجوز أن يكون بدلاً من قوله ﴿ فخذ ما آتيتك ﴾ والضمير في ﴿ خذها ﴾ للألواح ، أو لكل شيء ، لأنه في معنى الأشياء ، أو الرسالات ، أو للتوراة . ومعنى ﴿ بقوة ﴾ بجدة وعزيمة فعل أولى العزم من الرسل ﴿ ياخذوا بأحسنها ﴾ أي فيها ما هو حسن وأحسن ، كالاقتصاص ، والعفو ، والانتصار ، والصبر . فرم أن يحملوا على أنفسهم في الأخذ بما هو أدخل في الحسن وأكثر للثواب ، كقوله تعالى ﴿ واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم ﴾ وقيل : ياخذوا بما هو واجب أو نديب ، لأنه أحسن من المباح . ويجوز أن يراد : ياخذوا بما أمروا به ، دون ما نهوا عنه ، على قولك : الصيف أحر من الشتاء ﴿ سأريكم دار الفاسقين ﴾ يريد دار فرعون وقومه وهي مصر ، كيف أقفرت منهم ودمروا أفسقهم ، لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فيشكل بكم مثل نكالهم . وقيل منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكتهم الله لفسقهم في مزمع عليها في أسفاركم . وقيل : دار الفاسقين : نار جهنم . وقرأ الحسن : سأوريكم وهي لغة فاشية بالحجاز . يقال : أورتني كذا ، وأوريت . ووجهه أن تكون من أورت الزند ، كأن المعنى : بينه لي وأثره لأستبينه . وقرئ : سأورثكم ، وهي قراءة حسنة يصحها قوله ﴿ وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون ﴾ . ﴿ سأصرف عن آياتي ﴾ بالطبع على قلوب المتكبرين وخذلانهم ، فلا يفكرون فيها ولا يعتبرون بها ، غفلة وانهماكا فيما يشغلهم عنها من شهواتهم . وعن الفضيل بن عياض : ذكر لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا عظمت أمتي الدنيا نزع عنها هبة الإسلام ، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حرمت بركة الوحي <sup>(١)</sup> . وقيل : سأصرفهم عن إبطالها وإن اجتهدوا كما اجتهد فرعون

(١) لم أجده . من هذا الوجه . وأخرجه الحكيم الترمذي في نوادره من حديث أبي هريرة مثله ، وزاده وإذا تسابت أمتي سقطت من أعين الناس ، ذكره في الخامس والسبعين بعد المائة ، وفي إسناده البخري بن عبيد . وهو ضعيف .

أن يبطل آية موسى ، بأن جمع لها السحرة ، فأبى الله إلا علو الحق وانتكاس الباطل . ويجوز : سأصرفهم عنها وعن الطعن فيها والاستهانة بها . وتسميتها سحراً بإهلاكم . وفيه إنذار للخاطئين من عاقبة الذين يصرفون عن الآيات لتكبرهم وكفرهم بها ، لئلا يكتوتوا مثلهم فيسلك بهم سبيلهم ﴿ بغير الحق ﴾ فيه وجهان : أن يكون حالاً بمعنى يتكبرون غير محقين ، لأن التكبر بالحق لله وحده . وأن يكون صلة لفعل التكبر ، أى يتكبرون بما ليس بحق وما هم عليه من دينهم ﴿ وإن يروا كل آية ﴾ من الآيات المنزلة عليهم ﴿ لا يؤمنوا بها ﴾ وقرأ مالك بن دينار : وإن يروا بضم الياء . وقرئ : سبيل الرشد والرشد ، كقولهم : السقم والتسقم والسقام . وما أسفه من ركب المفازة ، فإن رأى طريقاً مستقيماً أعرض عنه وتركه ، وإن رأى معسفاً مردباً أخذ فيه وسلكه ، ففاعل نحو ذلك في دينه أسفه ﴿ ذلك ﴾ في محل الرفع أو النصب على معنى : ذلك الصرف بسبب تكذيبهم أو صرفهم الله ذلك الصرف بسببه . ﴿ ولقاء الآخرة ﴾ يجوز أن يكون من إضافة المصدر إلى المفعول به . أى ولقاءهم الآخرة ومشاهدتهم أحوالها ، ومن إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى : ولقاء ما وعد الله في الآخرة .

وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورَازُّ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا كَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ

### مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾

﴿ من بعده ﴾ من بعد فراقه إياهم إلى الطور . فإن قلت : لم قيل : واتخذ قوم موسى عجلاً ، والمتخذ هو السامرى ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن ينسب الفعل إليهم ، لأن رجلاً منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم ، كما يقال : بنو تميم قالوا كذا وفعلوا كذا ، والفاعل والفاعل واحد ، ولأنهم كانوا مريدين لاتباعه راضين به ، فكأنهم أجمعوا عليه . والثاني : أن يراد واتخذوه إلهاً وعبدوه . وقرئ (من حلبيهم) بضم الحاء والتشديد ، جمع حلبي ، كشدى وئدى ، ومن حلبيهم - بالكسر - للإتباع كدلى . ومن حلبيهم ، على التوحيد . والحلى : اسم لما يتحسن به من الذهب والفضة . فإن قلت : لم قال : من حلبيهم ، ولم يكن الحلى لهم ، إنما كانت عوارى في أيديهم ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسة ، وكونها عوارى في أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوها غيرها من أملاكهم . ألا ترى إلى قوله عزّ وعلا ( فأخرجناهم من جنات وعبود وكنوز ومقام كريم كذلك وأورثناها بني إسرائيل ) ، ﴿ جسداً ﴾ بدناً ذا لحم ودم كسائر

الاجساد . والخوار : صوت البقر ، قال الحسن : إن السامري قبض قبضة من تراب من أترس جبريل عليه السلام يوم قطع البحر ، فقذفه في في العجل ، فكان عجلا له خوار . وقرأ على رضى الله عنه . جوار ، بالجيم والهمزة ، من جار إذا صاح . وانتصاب جسدا على البدل من (عجلا) ﴿ ألم يروا ﴾ حين اتخذوه إلهاً أنه لا يقدر على كلام ولا على هداية سبيل ، حتى لا يختاروه على من لو كان البحر مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ كلماته ، وهو الذى هدى الخلق إلى سبيل الحق ومناهجه بما ركز في العقول من الأدلة ، وبما أنزل في كتبه . ثم ابتداء فقال ﴿ اتخذوه ﴾ أى أقدموا على ما أقدموا عليه من الأمر المنكر ﴿ وكانوا ظالمين ﴾ واضعين كل شيء في غير موضعه ، فلم يكن اتخاذ العجل بدعا منهم ، ولا أول مناكيرهم ﴿ ولما سقط في أيديهم ﴾ ولما اشتد ندمهم وحسرتهم على عبادة العجل ، لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرتة أن يعرض يده غما ، فتصير يده مسقوطة فيها ، لأن فاه قد وقع فيها . و (سقط) مسند إلى (في أيديهم) وهو من باب الكناية . وقرأ أبو السميعة : سقط في أيديهم ، على تسمية الفاعل ، أى وقع العض فيها . وقال الزجاج : معناه سقط الندم في أيديهم ، أى في قلوبهم وأنفسهم ، كما يقال : حصل في يده مكروه ، وإن كان محالاً أن يكون في اليد ، تشبها لما يحصل في القلب وفي النفس بما يحصل في اليد ويرى بالعين ﴿ ورأوا أنهم قد ضلوا ﴾ وتبينوا ضلالهم تبيناً كأنهم أبصروه بعيونهم . وقرئ : لئن لم ترحمنا ربنا وتغفر لنا ، بالتاء . وربنا ، بالنصب على النداء ، وهذا كلام التائبين ، كما قال آدم وحواء عليهما السلام : وإن لم تغفر لنا وترحمنا .

وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي  
أَعْجَلْتُمُ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَيْتُمُ الْأَوْحَاءَ وَأَخَذْتُمُ أَيْمَانَ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمِّ  
إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ  
الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ  
أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾

الأسف : الشديد الغضب (فلما آسفونا انتقمنا منهم) وقيل : هو الحزين ﴿ خلفتموني ﴾ قتم مقامى وكنتم خلفائى من بعدى . وهذا الخطاب إما أن يكون لعبدة العجل من السامري وأشياعه ، أولوجوه بني إسرائيل وهم هرون عليه السلام والمؤمنون معه . ويدل عليه قوله (اخلفني في قومي) والمعنى : بئس ما خلفتموني حيث عبدتم العجل مكان عبادة الله ، أوحيث لم تكفوا من عبد

غير الله . فإن قلت : أين ما تقتضيه بئس من الفاعل والمخصوص بالذم ؟ قلت : الفاعل مضمّر  
يفسره ما خلفتموني . والمخصوص بالذم محذوف تقديره : بئس خلافة خلفتمونها من بعد  
خلافكم . فإن قلت : أى معنى لقوله (من بعدى) بعد قوله (خلفتموني) ؟ قلت : معناه من بعد  
مارأيتم منى ، من توحيد الله ، ونفى الشركاء عنه ، وإخلاص العبادة له . أو من بعد ما كنت  
أحمل نبي إسرائيل على التوحيد . وأكفهم عما طمحت نحوه أبصارهم من عبادة البقر ، حين  
قالوا (اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) ومن حق الخلفاء أن يسيروا بسيرة المستخلف من بعده  
ولا يخالفوه . ونحوه (خلف من بعدهم خلف) أى من بعد أولئك الموصوفين بالصفات الحميدة  
يقال : عجل عن الأمر إذا تركه غير تام ، ونقيضه تم عليه وأجمله عنه غيره ، ويضمن معنى سبق  
فيعدى تعديته ، فيقال عجلت الأمر ، والمعنى أعجلت عن أمر ربكم ، وهو انتظار موسى حافظين  
لعهده وما وصاكم به ، فبنيت الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع إليكم ، فحدثتم  
أنفسكم بموتى ، فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم . وروى أن السامري قال لهم  
- حين أخرج لهم العجل وقال هذا إلهكم وإله موسى - : إن موسى لن يرجع ، وإنه قد مات  
وروى أنهم عدوا عشرين يوماً بلباها فجعلوها أربعين ، ثم أحدثوا ما أحدثوا (وألقي  
الآلواح) وطرحها لما لحقه من فرط الدهش وشدة الضجر عند استماعه حديث العجل ،  
غضباً لله وحمية لدينه ، وكان في نفسه حديداً شديداً الغضب ، وكان هارون ألبن منه  
جانبا ولذلك كان أحب إلى نبي إسرائيل من موسى . وروى أن التوراة كانت سبعة  
أسباع ، فلما ألقي الآلواح تكسرت فرفع منها ستة أسباعها وبقي منها سبع واحد ، وكان  
فيما رفع تفصيل كل شيء وفيما بقي الهدى والرحمة (وأخذ برأس أخيه) أى بشعر رأسه  
(يجزّه إليه) بذوابته ، وذلك لشدة ماورد عليه من الأمر الذى استفزه وذهب بفطنته ، وظلنا  
بأخيه أنه فرط في الكف (ابن أم) قرئ بالفتح تشبيهاً بخمسة عشر ، وبالكسر على طرح ياء  
الإضافة . وابن أمى ، بالياء . وابن إم ، بكسر الهمزة والميم . وقيل : كان أخاه لايه وأمه ، فإن  
صح فإنما أضافه إلى الأم ، إشارة إلى أنها من بطن واحد . وذلك أدعى إلى العطف والركة ،  
وأعظم للحق الواجب ، ولأنها كانت مؤمنة فاعتد بنسبها ، ولأنها هى التى قاست فيه المخاوف  
والشدائد فذكره بحقها (إن القوم لهستضعفون) يعنى أنه لم يأل جهداً في كفهم بالوعظ  
والإنذار . وبما بلغت طاقته من بذل القوة في مضاداتهم حتى قهره واستضعفوه ولم يبق إلا  
أن يقتلوه (فلا تشمت في الأعداء) فلا تفعل في ما هو أميتهم من الاستهانة في الإساءة إلى ،  
وقرئ . فلا يشمت في الأعداء ، على نهى الأعداء عن الشتم . والمراد أن لا يحل به ما يشمتون  
به لأجله (ولا تجعلني مع القوم الظالمين) ولا تجعلني في موجدتك على وعقوبتك لي قرينا لهم

وصاحباً . أو لا تعتقد أنى واحد من الظالمين مع برأى منهم ومن ظلمهم . لما اعتذر إليه أخوه وذكر له شimate الأعداء ﴿ قال رب اغفرلى ولاخى ﴾ ليرضى أخاه ويظهر لاهل الشimate رضاه عنه فلا تم لهم شimateهم ، واستغفر لنفسه بما فرط منه إلى أخيه ، ولاخيه أن عسى فرط فى حسن الخلافة . وطلب أن لا يتفرقا عن رحمته ، ولا تزال منتظمة لهما فى الدنيا والآخرة .

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾

﴿ غضب من ربهم وذلة ﴾ الغضب ما أمروا به من قتل أنفسهم . والذلة : خروجهم من ديارهم لأن ذل الغربة مثل مضروب . وقيل : هو ما نال أبناءهم وهم بنو قريظة والنضير ، من غضب الله تعالى بالقتل والجلاء ، ومن الذلة بضرب الجزية ﴿ المفتريين ﴾ المتكذبين على الله ، ولا فرية أعظم من قول السامرى : هذا إلهكم وإله موسى . ويجوز أن يتعلق فى الحياة الدنيا بالذلة وحدها ويراد : سينالهم غضب فى الآخرة . وذلة فى الحياة الدنيا : وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله .

وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا

لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥٣﴾

﴿ والذين عملوا السيئات ﴾ من الكفر والمعاصى كلها ﴿ ثم تابوا ﴾ ثم رجعوا ﴿ من بعدها ﴾ إلى الله واعتذروا إليه ﴿ وآمنوا ﴾ وأخلصوا الإيمان ﴿ إن ربك من بعدها ﴾ من بعد تلك العظائم ﴿ لغفور ﴾ لستور عليهم محاء لما كان منهم ﴿ رحيم ﴾ منعم عليهم بالجنة . وهذا حكم عام يدخل تحته متخذو العجل ومن عداهم . عظم جنايتهم <sup>(١)</sup> أولاً ثم أردفها تعظيم رحمته ، ليعلم أن الذنوب وإن جلّت وعظمت فإن عفوه وكرمه أعظم وأجل ، ولكن لا بد من حفظ الشريعة : وهى وجوب التوبة <sup>(٢)</sup> والإنابة ، وما وراءه طمع فارغ وأشعية باردة <sup>(٣)</sup> ، لا يلتفت إليها حازم .

(١) قال محمود : وعظم جناية متخذى العجل أولاً ، ثم أردفها بحكم عام ... الخ . قال أحمد : يعرض بوجوب وعيد القساق وأن مغفرة الذنوب بدون التوبة منه من المحال المستع ، وقد تقدم عد ذلك من الأهواء والبديع ، بل الحق أن المغفرة لما عدا الشرك موكولة إلى المشيئة ، غير متممة عقلاً ، ثم واقعة نقلاً ، والله الموفق .

(٢) قوله : ومن حفظ الشريعة وهى وجوب التوبة ، مذهب المعتزلة أن الكبيرة لا تنفر إلا بالتوبة . ومذهب

أهل السنة أنها قد تغفر بمجرد الفضل . (ع)

(٣) قوله « وأشعية باردة » خصلة منسوبة إلى أشعب ، وهو رجل كان طماعاً . ويضرب به المثل فى الطمع ،

كما فى الصحاح . (ع)



وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضِبُ أَخَذَ الْأَلْوَابَ وَفِي نُسخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ  
لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

﴿ولما سكت عن موسى الغضب﴾ هذا مثل ، كأن الغضب كان يغريه <sup>(١)</sup> على ما فعل ويقول له : قل لقومك كذا وألق الألواح ، وجز برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ، ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ، ولأنه من قبيل شعب البلاغة . وإلا فما لقراءة معاوية بن قرة : ولما سكن عن موسى الغضب ، لاتجد النفس عندها شيئاً من تلك الحزرة ، وطرفاً من تلك الروعة . وقرئ : ولما سكت . وأسكت : أى أسكته الله ، أو أخوه باعتذاره إليه وتصله ، والمعنى : ولما طفق غضبه ﴿أخذ الألواح﴾ التى ألقاها ﴿وفى نسختها﴾ وفيما نسخ منها . أى كتب . والنسخة فعلة بمعنى مفعول كالخطبة ﴿لربهم يرهبون﴾ دخلت اللام لتقدم المفعول ، لأن تأخر الفعل عن مفعوله يكسبه ضعفاً . ونحوه (لرؤيا تعبرون) وتقول : لك ضربت .

وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّيمِيقَتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِنِّي أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَن أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾  
الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ

(١) قال محمود : وهذا مثل ، كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له قل لقومك كذا وألق الألواح وخذ برأس أخيك ... الخ ، قال أجد : وهو من الخط الذى قدمته من قلب الحقيقة إلى الجواز ، وكان الأصل : ولما سكت موسى عن الغضب ، ولذلك عده بعض أهل العربية من المقلوب ، وسلكه فى نخط خرق الثوب المسار . والتحقيق أنه ليس منه وأن هذا القلب أشرف وأفصح ، لأنه بماه على معنى بليغ . وهو أن الغضب كان متمكناً من موسى حتى كان كأنه يصرفه فى أوامره ، وكل ما وقع منه حينئذ فعن الغضب صادر . حتى كأنه هو الذى أمره به . ومثل هذه السكنة الحسناء لا تلقى فى خرق الثوب المسار ، بل هى موجودة فى قوله تعالى ( حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق ) على خلاف قوله نافع . وقد تقدم ذلك آنفاً ، والله الموفق .

وَالْإِنْجِيلَ بِأَمْرِهِمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِيلُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿واختار موسى قومه﴾ أى من قومه ، فحذف الجار وأوصل الفعل ، كقوله :

﴿ وَمِنَّا الَّذِي اخْتَارَ الرَّجَالَ مَمَاحَةً ﴾ (١)

قيل اختار من اثني عشر سبطاً ، من كل سبط ستة حتى تماموا اثنين وسبعين ، فقال : ليتخلف منكم رجلاان ، فتذاحوا ، فقال : إن لمن قعد منكم مثل أجر من خرج ، فقعد كالب ويوشع . وروى أنه لم يصب إلا ستين شيخاً ، فأوحى الله تعالى إليه أن تختار من الشبان عشرة ، فاختارهم فأصبحوا شيوخاً . وقيل : كانوا أبناء ماعدا العشرين ، ولم يتجاوزوا الأربعين ، قد ذهب عنهم الجهل والصبا ، فأمرهم موسى أن يصوموا ويتطهروا ويطهروا ثيابهم ، ثم خرج بهم إلى طور سيناء . لميفات ربه ، وكان أمره ربه أن يأتيه في سبعين من بنى إسرائيل ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله ، ودنا موسى ودخل فيه وقال للقوم : ادنوا ، فدنوا ، حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجداً ، فسمعوه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه : افعل ، ولا تفعل . ثم انكشف الغمام فأقبلوا إليه ، فطلبوا الرؤية فوعظهم وزجرهم وأنكر عليهم ، فقالوا : يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة . فقال : رب أرني أنظر إليك ، يريد : أن يسمعوا الرد والإنكار من جهته ، فأجيب بلن تراني ، ورجف بهم الجبل فصعقوا . ولما كانت الرجعة ﴿قال﴾ موسى ﴿رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياي﴾ وهذا تمن منه الإهلاك قبل أن يرى ما رأى من تبعة طلب الرؤية ، كما يقول النادم على الأمر إذا رأى سوء المغبة : لو شاء الله لأهلكنى قبل هذا ﴿أهلكنا بما فعل السفهاء منا﴾ يعنى أهلكنا جميعاً . يعنى نفسه وإياهم ، لأنه إنما طلب الرؤية زجراً للسفهاء ، وهم طلبوها سفهاً وجهلاً ﴿إن هى إلا فتنتك﴾ أى محتك وابتلاؤك حين كلمتى وسمعوا كلامك ، فاستدلوا بالكلام على الرؤية استدلالاً فاسداً ، حتى افتتنوا وضلوا ﴿تضل﴾ بها من تشاء وتهدى من تشاء ﴿تضل﴾ بالحنّة الجاهلين غير الثابتين في معرفتك ، وتهدى العالمين

(١) ومنا الذى اختير الرجال مماحة وجوداً إذا هب الرياح الزوابع

المعنى : ومنا الذى اختاره الناس من بين الرجال ، فالرجال نصب على نزع الخافض . ومماحة : تبين لبيان جهة الاختيار . وجوداً عطف عليه ، إذا هب الرياح ، كناية عن دخول الشتاء ، فتهب الرياح الزوابع ، أى الشديدة المحركة للأشياء ، وإذا جاد زمن انقطاع الميرة ، فكيف بالصيف .

بك الثابتين بالقول الثابت . وجعل ذلك إضلالاً من الله وهدى منه ، لأن محنته لما كانت سيياً <sup>(١)</sup> لأن ضلوا واهتدوا فكأنه أضلهم بها وهداهم على الاتساع في الكلام ﴿ أنت ولينا ﴾ مولانا القائم بأمورنا ﴿ واكتب لنا ﴾ وأثبت لنا واقسم ﴿ في هذه الدنيا حسنة ﴾ عافية وحياة طيبة وتوفيقاً في الطاعة ﴿ وفي الآخرة ﴾ الجنة ﴿ هدنا إليك ﴾ تبنا إليك . وهاد اليه يهود إذا رجع وتاب . والهود : جمع هائد ، وهو التائب . ولبعضهم :

يَا رَا كِبَ الذَّنْبِ هُذُودٌ وَأَسْجُدْ كَأَنَّكَ هُذُودٌ <sup>(٢)</sup>

وقرأ أبو وجرة السعدي : هدنا إليك ، بكسر الهماء ، من هاده يهده إذا حرّكه وأماله . ويحتمل أمرين ، أن يكون مبنيًا للفاعل والمفعول بمعنى حرّكنا إليك أنفسنا وأملناها أو حرّكنا إليك وأملنا على تقدير : فعلنا ، كقولك : عدت يا مريض بكسر العين ، فعلت من العيادة . ويجوز : عدت بالإشمام . وعدت ، بإخلاص الضمة فيمن قال : عود المريض . وقول القول . ويجوز على هذه اللغة أن يكون ﴿ هدنا ﴾ بالضم فعلنا من هاده يهده ﴿ عذابى ﴾ من حاله وصفته أنى ﴿ أصيب به من أشاء ﴾ أى من وجب على فى الحكمة <sup>(٣)</sup> تعذيبه ، ولم يكن فى العفو عنه مساع لكونه مفسدة . وأما ﴿ رحمتى ﴾ فنحتمل حالها وصفها أنها واسعة تبلغ كل شيء ، ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب فى نعمتى . وقرأ الحسن : من أساء ، من الإساءة . فسأ كتب هذه الرحمة كتبة خاصة منكم يابنى إسرائيل للذين يكونون فى آخر الزمان من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، الذين هم بجميع آياتنا وكتبنا يؤمنون ، لا يكفرون بشئ . منها ﴿ الذين يتبعون الرسول ﴾ الذى نوحى إليه كتاباً مختصاً به وهو القرآن ﴿ النبى ﴾ صاحب المعجزات ﴿ الذى يحدونه ﴾ يجد نعمته أولئك الذين يتبعونه من بنى إسرائيل ﴿ مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ..... ويحل لهم الطيبات ﴾ ما حرّم عليهم من الأشياء الطيبة ، كالشحوم وغيرها . أو ما طاب فى الشريعة والحكم . مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح ، وما خلى كسبه من السحت ﴿ ويحزم عليهم الحباث ﴾ ما يستخيث من نحو الدم والميتة ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به أو ما خبث فى الحكم ، كالربا والرشوة وغيرهما من المكاسب الخبيثة . الإصر : الثقل الذى يأصر صاحبه ، أى يحبس من الحراك لنقله

(١) قوله : لأن محنته لما كانت سيياً ، صرف الكلام عن ظاهره ، لأنه تعالى لا يخلق الشر عندهم . أما على مذهب أهل السنة فلا حاجة إلى ذلك . (ع)

(٢) للزعشرى ، شبه ملازمته للذنوب بملازمة الراكب للركوب . وهاد يهود ، إذا تاب ورجع . وهد : أمر منه ، وكرر للتوكيد . ثم قال : واجود كأنك هدهد ، فشه به لكثرة ما يطرق برأسه إلى الأرض لا فى السرعة ، فالمعنى : اجهد كثيراً .

(٣) قوله رأى من وجب على فى الحكمة ، هذا عند المعتزلة . وأما أهل السنة فلا يجب على الله تعالى عندهم شئ . . (ع)

وهو مثل ثقل تكليفهم وصعوبته ، نحو اشتراط قتل النفس في صحة توبتهم . وكذلك الأغلال ، مثل لما كان في شرائعهم من الأشياء الشاقة ، نحو : بت القضاء بالقصاص عمداً كان أو خطأ من غير شرع الدية ، وقطع الأعضاء الخاطئة . وقرض موضع النجاسة من الجلد والثوب . وإحراق الغنائم ، وتحريم العروق في اللحم ، وتحريم السبت . وعن عطاء : كانت بنو إسرائيل إذا قامت تضلي لبسوا المسوح وغلوا أيديهم إلى أعناقهم . وربما ثقب الرجل رقبته وجعل فيها طرف السلسلة وأوثقها إلى السارية يحبس نفسه على العبادة . وقرئ آصارهم . على الجمع (وعزروه) ومنعوه حتى لا يقوى عليه عدو . وقرئ بالتخفيف . وأصل العزر : المنع . ومنه التعزير للضرب دون الحد . لأنه منع عن معاودة القبيح . ألا ترى إلى تسمية الحد ، والحد هو المنع . و (النور) القرآن . فإن قلت : ما معنى قوله (أزل معه) وإنما أزل مع جبريل ؟ قلت : معناه أزل مع نبوته ، لأن استنباءه كان مصحوباً بالقرآن مشفوعاً به . ويجوز أن يعلق باتبعوا . أى : واتبعوا القرآن المنزل مع اتباع النبي والعمل بسنته وبما أمر به ونهى عنه . أو واتبعوا القرآن كما اتبعه مصاحبين له في اتباعه . فإن قلت : كيف انطبق هذا الجواب على قول موسى عليه السلام ودعائه ؟ قلت : لما دعا نفسه ولبنى إسرائيل ، أجيب بما هو منطوق على توبيخ بني إسرائيل على استجازتهم الروية على الله تعالى وعلى كفرهم بآيات الله العظام التي أجراها على يد موسى ، وعرض بذلك في قوله (والذين هم بآياتنا يؤمنون) وأريد أن يكون استماع أوصاف أعقابهم الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به كعبادته بن سلام وغيره من أهل الكتابين ، لطفاً لهم وترغيباً في إخلاص الإيمان والعمل الصالح ، وفي أن يحشروا معهم ولا يفرق بينهم وبين أعقابهم عن رحمة الله (١) التي وسعت كل شيء .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الَّذِي  
يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨)

(إني رسول الله إليكم جميعاً) قيل : بعث كل رسول إلى قومه خاصة وبعث محمد صلى الله عليه وسلم إلى كافة الإنس وكافة الجن . وجميعاً : نصب على الحال من إليكم . فإن قلت : (الذي له ملك السموات والأرض) ما محله ؟ قلت : الأحسن أن يكون متصباً بإضمار أعني ، وهو الذي يسمى النصب على المدح . ويجوز أن يكون جراً على الوصف ، وإن حيل بين الصفة والموصوف بقوله إليكم . (إليكم جميعاً) وقوله (لا إله إلا هو) بدل من الصلة التي هي له ملك

السموات والأرض ، وكذلك ﴿يحي ويميت﴾ وفي (لا إله إلا هو) بيان للجملة قبلها ، لأن من ملك العالم كان هو الإله على الحقيقة . وفي يحي ويميت : بيان لاختصاصه بالإلهية ، لأنه لا يقدر على الإحياء والإماتة غيره ﴿وكلّاته﴾ وما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه وروحه . وقرئ وكلّته على الأفراد وهي القرآن . أو أراد جنس ما كلم به . وعن مجاهد : أراد عيسى ابن مريم . وقيل : هي الكلمة التي تكوّن منها عيسى وجميع خلقه ، وهي قوله (كن) وإنما قيل إن عيسى كلمة الله ، فخص بهذا الاسم ، لأنه لم يكن لكونه سبب غير الكلمة ، ولم يكن من نقطة تمي ﴿لعلكم تهتدون﴾ إرادة أن تهتدوا . فإن قلت : هلا قيل : فأمنوا بالله وبى ، بعد قوله : إني رسول الله إليكم ؟ قلت : عدل عن المضمّر إلى الاسم الظاهر لتجرى عليه الصفات التي أجزيت عليه ، ولما في طريقة الالتفات من مزية البلاغة ، وليعلم أنّ الذي وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكتلّاته ، كائناً من كان ، أنا أو غيره ، إظهاراً للنصفة وتفادياً من العصبية لنفسه .

### وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾

﴿ومن قوم موسى أمة﴾ هم المؤمنون الثابتون من بني إسرائيل ، لما ذكر الذين تزلزلوا منهم في الدين وارتابوا حتى أقدموا على العظيمتين عبادة العجل واستجازه رؤية الله تعالى ، ذكر أنّ منهم أمة موقنين ثابتين يهدون الناس بكلمة الحق ، ويدلونهم على الاستقامة ويرشدونهم . وبالحق يعدلون بينهم في الحكم لا يجورون . أو أراد الذين وصفهم بمن أدرك النبي صلى الله عليه وسلم وآمن به من أعقابهم . وقيل : إنّ بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا وكانوا اثني عشر سبطاً تبرأ سبط منهم عما صنعوا واعتذروا ، وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم ، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين ، وهم هنالك حنفاء مسلمون يستقبلون قبلتنا . وذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل ذهب به ليلة الاسراء نحوهم ، فكلّمهم فقال لهم جبريل : هل تعرفون من تكلمون ؟ قالوا : لا . قال : هذا محمد النبي الأمي ، فأمنوا به وقالوا : يا رسول الله ، إن موسى أوصانا من أدرك منكم أحد ، فليقرأ عليه من السلام فردّ محمد على موسى عليهما السلام السلام ، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة ، ولم تكن نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة ، وأمرهم أن يقيموا مكانهم ، وكانوا يسبتون ، فأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت . وعن مسروق . قرئ : بين يدي عبد الله فقال رجل : إني منهم . فقال عبد الله : يعني لمن كان في مجلسه من المؤمنين : وهل يزيد صلحاؤكم عليهم شيئاً من يهدي بالحق وبه يعدل . وقيل : لو كانوا في طرف من الدنيا متمسكين بشريعة ولم يبلغهم نسخها كانوا معذورين .

وهذا من باب القرض والتقدير وإلا فقد طار الخبر بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى كل أفق ، وتغلغل في كل نفق ، ولم يبق الله أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا بر ولا بحر في مشارق الأرض ومغاربها ، إلا وقد ألقاه إليهم وملأ به مسامعهم وألزمهم به الحجة وهو سائلهم عنه يوم القيامة .

وَقَطَّعْنَاهُمْ أَثْنَتَيْ عَشَرَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾

(وقطعناهم) وصيرناهم قطعا ، أى فرقا وميزنا بعضهم من بعض لقلة الألفة بينهم . وقرئ وقطعناهم بالتخفيف (اثنتى عشرة أسباطا) كقولك اثنتى عشرة قبيلة . والأسباط : أولاد الولد ، جمع سبط وكانوا اثنتى عشرة قبيلة من اثنى عشر ولداً من ولد يعقوب عليه السلام . فإن قلت : يميز ما عدا العشرة مفرد ، فما وجه مجيئه مجموعا ؟ وهلا قيل : اثنتى عشر سبطا ؟ قلت : لو قيل ذلك لم يكن تحقيقا لأن المراد : وقطعناهم اثنتى عشرة قبيلة ، وكل قبيلة أسباط لا سبط . فوضع أسباطا موضع قبيلة . ونظيره :

\* بَيْنَ رِمَاحِي مَالِكٍ وَنَهْشِلٍ \* (١)

(١) تبقت في أول التبريل بين رماحي مالك ونهشل  
في جة حرف وحمض ميم كل مستأد ذبانه في عيطل  
يقطن للرايد أعشبت ازل

لابي النجم ، يصف رمكة باعتبارها الحروب واقتحامها المكروه من أول أمرها . يقال : تبقت القم وغيرها : رعت البقل وهو الثبات الرطب . شبه اقتحام تلك الفرس للحروب من صفرها حتى اعتادتها برعى الدابة للكلأ واعتيادها عليه ، بجامع القرن والاعتياد والسهولة ، بل والاستلذاذ ، ثم استعار التبقل لذلك على طريق التصريحية ، وبلغ في ذلك حيث أسند الفعل إليها ، كأنه لا دخل له فيه . ويرى : من أول التبريل ، بين رماحي مالك ونهشل : أى بين رماح مالك بن ضبعة ورماح نهشل بن دارم من أمراء العرب ، فتى الرماح دلالة على التوبيع والتأييد . وقال أبو حنيفة : الحبة بالكسر اليبس المنكسر المتراكم . وقال الأزهري : هى البذور الساقطة مع الأوراق في آخر الصيف والحرن : اليابسة الدقيقة ، وانحصر نوع من النبات . والمبكل : الطويل الضخم . والمستأد : الطويل القليل أيضا . وذبان جمع ذباب ، كغربان وغراب . والفيطل - بالعين المهملة - : الأصوات المختلطة . والرائد : هو الذى يتقدم القوم لطلب الخصب . يقطن ، أى الذبان . وأعشب الرجل : وجد العشب ، وصف النبات بالكثرة والانتفاف حتى كثرت ذبابة وصارت له أصوات مختلطة ، فكان يدعو الرائد ويحملة على التبول في هذا المكان عند سماع صوته ، =

و (أما) بدل من اثنتي عشرة . بمعنى : وقطعناهم أما لأن كل أسباط كانت أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد ، وكل واحدة كانت تؤمّ خلاف ماتوّمه الأخرى ، لا تكاد تأتلف . وقرئ اثنتي عشرة بكسر الشين (فانبجست) فانفجرت . والمعنى واحد ، وهو الانفتاح بسعة وكثرة : قال العجاج :

\* وَكَيْفَ غَرَّبَنِي دَالِجٌ تَبَجَّسًا \* (١)

فإن قلت : فهلا قيل : فضرِب فانبجست ؟ قلت : لعدم الإلباس . ولجعل الانبجاس مسبباً عن الإيحاء بضرب الحجر للدلالة على أن الموحى إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر ، وأنه من انتفاء الشك عنه بحيث لا حاجة إلى الإفصاح به . من قوله (كل أناس) نظير قوله : اثنتي عشرة أسباطاً ، يريد كل أمة من تلك الأمم اثنتي عشرة . والأناس ، اسم جمع غير تكسير ، نحو . رخال وتناه وتوام (٢) وأخوات لها . ويجوز أن يقال : إن الأصل الكسر والتكسير ، والضمّة بدل من الكسرة ، كما أبدلت في نحو . سكارى وغيارى (٣) من الفتحة (وظللنا عليهم الغمام) وجعلناه ظليلاً عليهم في التيه ، و (كلوا) على إرادة القول (وما ظللونا) وما رجع إلينا ضرر ظلمهم بكفرائهم النعم ، ولكن كانوا يضرون أنفسهم . ويرجع وبال ظلمهم إليهم . وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ آسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَوْثٌ شِثْمٌ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَفِّرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ سَنُرِيدُ الْمَحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْضَحُونَ (١٦٢)

== فاستعار القول لذلك على سبيل التصريح . وروى : مستأد أذنا به في عطل . تقول للرائد ، فالأذنا به جمع ذنب ، أى أطرافه تصوت بالريح بقول ذلك الثبات والحجاز كما تقدم . هذا ، وحق الرواية : بين رماكى مالك ونهشل . والرمكة : الأثني من البراذين والحبل ، وجمعها رماك وأرماك ورمكات ، كثمرة وثمار وأثمار وثمرات . يصف فرسه بأنها رعت البقل حقيقة مع تلك الخيول والبراذين : فلا يجاز هنا .

(١) وانحلت عيناه من فرط الأسى وكيف غرّبني دالج تبجسا

فرط الأسى : شدة الحزن . والوكيف : مصدر نصب بالتحليل : لأن معناه : وكفت . والغرب : الدلو العظيم . والدالج : من يأخذ الدلو من البئر فيفرغه في الحوض . والتبجس . اتساع الانفجار . يقول : انصبت دموع عينيه من شدة الحزن ، كأنصاب دلوى رجل مفرغ لها في الحوض تفجرا بسعة . وفيه تشبيه العينين بالبردين .

(٢) قوله : « نحو رخال وتناه وتوام » رخال : هى الاناث من أولاد الضأن . والتناه : القاطنون بالبلد .

والتوام - بالمد - واحد توأم ، وزان كوكب . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله : « نحو سكارى وغيارى » غار الرجل على أهله فهو غيور . وجمعه غير وغيران . وجمعه غيارى

وغيارى ، كذا في الصحاح . (ع)

﴿وإذ قيل لهم﴾ واذكر إذ قيل لهم . والقرية : بيت المقدس . فإن قلت : كيف اختلفت العبارة هنا وفي سورة البقرة ؟ قلت : لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض . ولا تناقض بين قوله ، اسكنوا هذه القرية وكلوا منها ، وبين قوله فكلوا لأنهم إذا سكنوا القرية قسيت سكنهم للأكل منها ، فقد جمعوا في الوجود بين سكنها والأكل منها . وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخروها ، فهم جامعون في الإيجاد بينهم ، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته ، وقوله ﴿تغفر لكم خطاياكم سنزيد المحسنين﴾ موعده بشيئين : بالغفران ، وبالزيادة ، وطرح الواو لا يخل بذلك ، لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل : وماذا بعد الغفران ؟ فقيل له : سنزيد المحسنين ، وكذلك زيادة ﴿منهم﴾ زيادة بيان ، وأرسلنا ، وأنزلنا . ﴿بظلمون﴾ ويفسقون من واد واحد . وقرئ : يغفر لكم خطيئاتكم ، وتغفر لكم خطاياكم . وخطيئاتكم ، وخطيتكم . على البناء للمفعول .

وَأَسْأَلُهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِنْهُمْ لِمَ يُعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُكُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدِرَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ

كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾

﴿وسلمهم﴾ وسل اليهود . وقرئ : وأسألهم . وهذا السؤال معناه التقرير والتقريع بقديم كفرهم وتجاوزهم حدود الله والإعلام بأن هذا من علومهم التي لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أعلمهم به من لم يقرأ كتابهم ، علم أنه من جهة الوحى . ونظيره همزة الاستفهام التي يراد بها التقرير في قولك : أجدوتم في السبت ؟ والقرية أيلة . وقيل : مدين . وقيل : طبرية . والعرب تسمى المدينة قرية . وعن أبى عمرو بن العلاء . مارأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج ، يعنى رجلين من أهل المدن ﴿حاضرة البحر﴾ قريبة منه راكبة لشاطئه ﴿إذ يعدون في السبت﴾ إذ يتجاوزون حد الله فيه ، وهو اصطياهم في يوم السبت ، وقد نهوا عنه . وقرئ : يعدون بمعنى يعدون ، أدغمت التاء في الدال ونقلت حركتها إلى العين ، ويُعدون من الإعداد ، وكانوا



يعدون آلات الصيد يوم السبت ، وهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة . والسبت : مصدر سببت اليهود ، إذا عظمت سبها بترك الصيد والاشتغال بالتعب ، فعنايه : يعدون في تعظيم هذا اليوم ، كذلك قوله ﴿يوم سبتهم﴾ معناه يوم تعظيمهم أمر السبت . وبدل عليه قوله ﴿ويوم لا يستون﴾ قراءة عمر بن عبد العزيز : يوم إسباتهم . وقرئ : لا يستون ، بضم الباء . وقرأ على : لا يستون بضم الياء ، من أسبتوا . وعن الحسن : لا يستون على البناء للمفعول ، أى لا يدار عليهم السبت ، ولا يؤمرون بأن يسبتوا ، فإن قلت : إذ يعدون ، وإذ تأتيتهم ، ما محلهما من الإعراب ؟ قلت : أما الأول فبحرور بدل من القرية ، والمراد بالقرية أهلها ، كأنه قيل : واسألهم عن أهل القرية وقت عدوانهم في السبت ، وهو من بدل الاشتغال . ويجوز أن يكون منصوباً بكانت ، أو بحاضرة . وأما الثاني فنصوب يعدون . ويجوز أن يكون بدلاً بعد بدل . والحيتان السمك ، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت في معنى السمكة ﴿شرعاً﴾ ظاهرة على وجه الماء . وعن الحسن : تشرع على أبوابهم كأنها الكباش البيض . يقال شرع علينا فلان إذا دنا منا وأشرف علينا . وشرعت على فلان في بيته فرأيتَه يفعل كذا ﴿كذلك نبلوهم﴾ أى مثل ذلك البلاء الشديد نبلوهم بسبب فسقهم ﴿وإذا قالت﴾ معطوف على إذ يعدون ، وحكمه حكمه في الإعراب ﴿أمة منهم﴾ جماعة من أهل القرية من صلحائهم الذين ركبوا الصعب والذلول في مواعظهم ، حتى أسوا من قبولهم ، لآخرين كانوا لا يقلعون عن وعظهم ﴿لم تعظون قوما الله مهلكهم﴾ أى مخترهم ومظهر الأرض منهم ﴿أو معذبهم عذاباً شديداً﴾ لتأديهم في الشر . وإنما قالوا ذلك ، لعلمهم أن الوعظ لا ينفع فيهم ﴿قالوا معذرة إلى ربكم﴾ أى مواعظتنا إبلاء عذر إلى الله . ولئلا نسب في النهي عن المنكر إلى بعض التفريط ﴿ولعلمهم يتقون﴾ ولطمعنا في أن يتقوا بعض الانتقاء . وقرئ (معذرة) بالنصب ، أى وعظناهم معذرة إلى ربكم ، أو اعتذرنا معذرة ﴿فلما نسوا﴾ يعنى أهل القرية ، فلما تركوا ما ذكرهم به الصالحون ترك الناس لها ينساه ﴿أنجينا الذين ينهون عن سوء وأخذنا﴾ الظالمين الراكبين للمنكر . فإن قلت : الأمة الذين قالوا (لم تعظون) من أى الفريقين هم ؟ أمن فريق الناجين أم المعذنين ؟ قلت : من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين . وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم . وإذا علم الناهى حال المنهى ، وأن النهى لا يؤثر فيه ، سقط عنه النهى . وربما وجب الترك لدخوله في باب العبث . ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر <sup>(١)</sup> والجلادين المرتبين للتعذيب لتعظيم وتكفيم عما هم فيه ،

(١) قوله « على المآصر » المآصر هى الحائس ، من أصره الله حبسه . كذا فى الصحاح . (ع)

كان ذلك عبثاً منك . ولم يكن إلا سبياً للتلهي بك . وأما الآخرون فإنما لم يعرضوا عنهم لما لأن  
 بأسهم لم يستحكم كما استحكم بأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم ، أولفرط حرصهم وجدّهم  
 في أمرهم كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام في قوله ( فلعلك باخع نفسك )  
 وقيل : الأمة هم الموغوظون ، لما وعظوا قالوا للواعظين : لم تعظون منا قوماً تزعمون أن الله  
 مهلكهم أو معذبهم ؟ وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال : ياليت شعري ما فعل هؤلاء الذين  
 قالوا : لم تعظون قوماً ؟ قال عكرمة : فقلت جعلني الله فداك ، ألا ترى أنهم كرهوا ما هم عليه  
 وخالفوه وقالوا ، لم تعظون قوماً الله مهلكهم ، فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا . وعن الحسن :  
 نجت فرقتان وهلكت فرقة ، وهم الذين أخذوا الحيتان . وروى أن اليهود أمروا باليوم الذي  
 أمرنا به وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا يوم السبت ، فابتلوا به وحرم عليهم فيه الصيد ،  
 وأمروا بتعظيمه ، فكانت الحيتان تأتهم يوم السبت شرعاً بيضاء سمناً كأنها الخنازير ، لا يرى  
 الماء من كثرتها ، ويوم لا يستبشرون لأن تأتهم ، فكانوا كذلك برهة من الدهر ، ثم جاءهم إبليس  
 فقال لهم : إنما نهيتهم عن أخذها يوم السبت فاتخذوا حياضاً تسوقون الحيتان إليها يوم السبت ،  
 فلا تقدر على الخروج منها . وتأخذونها يوم الأحد ، وأخذ رجل منهم حوتاً وربط في ذنبه  
 خيطاً إلى خشبة في الساحل ، ثم شواه يوم الأحد ، فوجد جاره رجلاً السمك فقطع في تنوره  
 فقال له : إني أرى الله سيعذبك ، فلما لم يره عذب أخذ في السبت القابل حوتين ، فلما رأوا أن  
 العذاب لا يعالجهم ، صادوا وأكلوا وملحوا وباعوا ، وكانوا يحوا من سبعين ألفاً ، فصار أهل  
 القرية أثلاثاً ؛ ثلث نهوا وكانوا نحواً من اثني عشر ألفاً ، وثلث قالوا : لم تعظون قوماً ؟ وثلث هم  
 أصحاب الخطيئة . فلما لم ينتهوا قال المسلمون : إنا لانساكنكم ، فقسموا القرية بحدار : للمسلمين  
 باب ، وللمعتدين باب . ولعنهم داود عليه السلام ، فأصبح الناهون ذات يوم في مجاسمهم ولم  
 يخرج من المعتدين أحد ، فقالوا : إن للناس شأننا ، فعلوا الجدار فنظروا فإذا هم قردة ، ففتحوا  
 الباب ودخلوا عليهم فعرفت القردة أنسابها من الإنس ، والإنس لا يعرفون أنسابهم من القردة ،  
 فجعل القردة يأتي نسيبه فيشتم ثياباً ويبيكي ، فيقول : ألم تنهك فيقول برأسه : بلى . وقيل : صار الشباب  
 قردة ، والشيوخ خنازير . وعن الحسن : أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها ، ألقها خزياء في  
 الدنيا وأطولها عذاباً في الآخرة ، هاهنا وإيم الله ، ما حوت أخذهم قوم فأكلوه أعظم عند الله من  
 قتل رجل مسلم . ولكن الله جعل موعداً ، والساعة أدهى وأمر ( بئس ) شديد . يقال : بئس  
 بيؤس بأساً ، إذا اشتد ، فهو بئس . وقرئ : بئس ، بوزن حذر . وبئس على تخفيف العين ونقل  
 حركتها إلى الفاء ، كما يقال : كبد في كبد . وبئس على قلب الهمزة ياء ، كذئب في ذئب ، وبئس  
 على فيعل ، بكسر الهمزة وفتحها . وبئس ، بوزن ريس ، على قلب همزة بيئس ياء وإدغام الياء فيها ،

ويسر على تخفيف يس، كهين في هين. وبأئس على فاعل ﴿فلما عتوا عما نهوا عنه﴾ فلما تكبروا عن ترك ما نهوا عنه، كقوله (وعتوا عن أمر ربهم)، ﴿فلنألفهم كونوا قردة﴾ عبارة عن مسخهم قردة، كقوله (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) والمعنى: أن الله تعالى عذبهم أولاً بعذاب شديد، فعتوا بعد ذلك فمسخهم. وقيل: فلما عتوا، تكرير لقوله (فلما نسوا) والعذاب البئيس: هو المسخ.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٧﴾

﴿تأذن ربك﴾ عزم ربك، وهو نفعل من الإيدان وهو الإعلام؛ لأن العزم على الأمر يحدث نفسه به ويؤذنها بفعله، وأجرى مجرى فعل القسم، كعلم الله، وشهد الله. ولذلك أوجب بما يجاب به القسم وهو قوله ﴿ليبعثن﴾ والمعنى: وإذا حتم ربك وكتب على نفسه ليعبثن على اليهود ﴿إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب﴾ فكانوا يؤذون الجزية إلى المجوس، إلى أن بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فضر بها عليهم، فلا تزال مضروبة عليهم إلى آخر الدهر. ومعنى ليعبثن عليهم ليسلطن عليهم، كقوله: بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد.

وَقَطَعْنَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَمْمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُ الَّذِي أَخْذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ

وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَاللَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾

﴿وقطعناهم في الأرض أمما﴾ وفرقناهم فيها، فلا يكاد يخلو بلد من فرقة منهم ﴿منهم الصالحون﴾ الذين آمنوا منهم بالمدينة، أو الذين وراء الصين ﴿ومنهم دون ذلك﴾ ومنهم ناس دون ذلك الوصف منحطون عنه، وهم الكفرة والفسقة. فإن قلت: ما محل دون ذلك؟ قلت: الرفع، وهو صفة لموصوف محذوف، معناه: ومنهم ناس منحطون عن الصلاح، ونحوه (وما منا إلا له مقام معلوم) بمعنى: وما منا أحد إلا له مقام ﴿وبلونا هم بالحسنات والسيئات﴾ بالنعمة والنعم (لعلهم) يتوبون فينبون ﴿خلف﴾ من بعد المذكورين ﴿خلف﴾ وهم الذين كانوا في زمن رسول الله

صلى الله عليه وسلم ﴿ورثوا الكتاب﴾ التوراة بقيت في أيديهم بعد سلفهم يقرؤها ويقفون على ما فيها من الاوامر والنواهي والتحليل والتحريم، ولا يعملون بها ﴿ياخذون عرض هذا الأدنى﴾ أى حطام هذا الشيء الأدنى، يريد الدنيا وما يتمتع به منها. وفي قوله (هذا الأدنى) تحسيس وتحقير. والأدنى: إما من الدنو بمعنى القرب، لأنه عاجل قريب. وإما من دنو الحال وسقوطها وقلتها، والمراد: ما كانوا يأخذونه من الرشا في الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة ﴿ويقولون سيغفر لنا﴾ لا يؤاخذنا الله بما أخذنا. وفاعل (سيغفر) الجار والمجرور، وهو (لنا) ويجوز أن يكون الآخذ الذى هو مصدر يأخذون ﴿وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه﴾ الواو للحال، أى يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم، غير تائبين. وغفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة، والمصر لا يغفر له ﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب﴾ يعنى قوله في التوراة: من ارتكب ذنباً عظيماً فإنه لا يغفر له إلا بالتوبة ﴿ودرسوا ما فيه﴾ في الكتاب من اشتراط التوبة في غفران الذنوب، والذى عليه المجبرة <sup>(١)</sup> هو مذهب اليهود بعينه كما ترى. وعن مالك بن دينار رحمه الله، يأتى على الناس زمان إن قصروا عما أمروا به، قالوا: سيغفر لنا، لانا لم نشرك بالله شيئاً، كل أمرهم إلى الطمع، خيارهم فيهم المداينة، فمؤلاً من هذه الامة أشباه الذين ذكرهم الله، وتلا الآية. ﴿والدار الآخرة خير﴾ من ذلك العرض الحسيس ﴿للذين يتقون﴾ الرشا ومحارم الله. وقرئ: ورثوا الكتاب. وألأ تقولوا، بالتاء. وادرسوا. بمعنى تدارسوا. وأفلأ تعقلون، بالياء والتاء. فإن قلت: ما موقع قوله ﴿ألا يقولوا على الله إلا الحق﴾؟ قلت: هو عطف بيان لميثاق الكتاب. ومعنى ميثاق الكتاب. الميثاق المذكور في الكتاب. وفيه أن إثبات المغفرة بغير توبة خروج عن ميثاق الكتاب وإقراء على الله. وتقول عليه ما ليس بحق. وإن فسر ميثاق الكتاب بما تقدم ذكره كان (أن لا يقولوا) مفعولاً له. ومعناه: لئلا يقولوا. ويجوز أن تكون (أن) مفسرة، و (لا تقولوا) نهياً، كأنه قيل: ألم يقل لهم لا تقولوا على الله إلا الحق؟ فإن قلت: علام عطف قوله (ودرسوا ما فيه)؟ قلت: على (ألم يؤخذ عليهم) لأنه تقرير، فكأنه قيل: أخذ عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه.

وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠)

﴿والذين يمسكون بالكتاب﴾ فيه وجهان، أحدهما: أن يكون مرفوعاً بالابتداء وخبره ﴿إننا لا نضيع أجر المصلحين﴾ والمعنى: إننا لا نضيع أجرهم؛ لأن المصلحين في معنى الذين يمسكون

(١) قوله: في غفران الذنوب والذى عليه المجبرة، يعنى أهل السنة. ومنهم من يجوز المغفرة بمجرد الفضل، لا الطمع فيها مع الاصرار على المصية. (ع)

بالكتاب ، كقوله (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا) والثاني : أن يكون مجروراً عطفاً على الذين يتقون ، ويكون قوله (إنا لانضيع) اعتراضاً . وقرئ : يسكون ، بالتشديد . وتنصره قراءة أبي . والذين مسكوا بالكتاب . فإن قلت : التمسك بالكتاب يشتمل على كل عبادة . ومنها إقامة الصلاة ، فكيف أفردت ؟ قلت : إظهاراً لمزية الصلاة لكونها عماد الدين ، وفارقة بين الكفر والإيمان . وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه . والذين استمسكوا بالكتاب .

وَإِذْ نَفَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ  
بِقُوَّةٍ وَآذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

﴿وَإِذْ نَفَعْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ﴾ قلعهاء ورفعناه ، كقوله : ورفعنا فوقهم الطور . ومنه : تنق السقاء ، إذا نفذه ليقطع الزبدة منه . والظلة : كل ما أظلك من سقيفة أو سحاب . وقرئ بالطاء ، من أطل عليه إذا أشرف ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ وعلموا أنه ساقط عليهم ، وذلك أنهم أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة . لعظمتها وثقلها ، فرفع الله الطور على رؤسهم مقدار عسكرهم ، وكان فرسخاً في فرسخ . وقيل لهم : إن قبلتموها بما فيها وإلا ليقعن عليكم ، فلما نظروا إلى الجبل خز كل رجل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر وهو ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرقا من سقوطه ، فلذلك لا ترى يهودياً يسجد إلا على حاجبه الأيسر ، ويقولون : هي السجدة التي رفعت عنا بها العقوبة . ولما نشر موسى الألواح وفيها كتاب الله . لم يبق جبل ولا شجر ولا حجر إلا اهتز ، فلذلك لا ترى يهودياً تقرأ عليه التوراة إلا اهتز وأنفض لها رأسه <sup>(١)</sup> ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ﴾ على إرادة القول . أي : وقلنا خذوا ما آتيناكم ، أو قائلين : خذوا ما آتيناكم من الكتاب ﴿بِقُوَّةٍ﴾ وعزم على احتمال مشاقه وتكاليفه ﴿وَآذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الأوامر والنواهي ولا تنسوه . أو واذكروا ما فيه من التعريض للشواب العظيم فارغبوا فيه . ويجوز أن يراد : خذوا ما آتيناكم من الآية العظيمة بقوة إن كنتم تطيقونه ، كقوله (إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض) فانفذوا . ﴿وَآذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ من الدلالة على القدرة الباهرة والإنذار ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ما أتم عليه . وقرأ ابن مسعود : وتذكروا . وقرئ : واذكروا ، بمعنى . وتذكروا .

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ

(١) قوله ، وأنفض لها رأسه ، أي حرك رأسه كالمتعجب . أفاده الصراح . (ع)

أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْفِتْنَةِ إِنَّا كُنَّا مِنْ هَذَا  
 غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ  
 أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

(من ظهورهم) بدل من بني آدم بدل البعض من الكل. ومعنى أخذ ذرياتهم من ظهورهم :  
 إخراجهم من أصلابهم نسلا وإشهادهم على أنفسهم. وقوله (ألسنت بربكم؟ قالوا: بلى شهدنا) من باب التثنية والتخييل (١) ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكانه أشهدهم على أنفسهم وقرروهم وقال لهم: ألسنت بربكم؟ وكأنهم قالوا: بلى أنت ربنا، شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدايتك. وباب التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام، وفي كلام العرب. ونظيره قوله تعالى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون)، (فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين) وقوله:

\* إِذْ قَالَتِ الْأُنثَىٰ الْبَطْنُ الْحَقِّ \* (٢)

\* \* \*

\* قَالَتْ لَهُ رِيحُ الصَّبَا قَرَقَارٌ \* (٣)

(١) قال محمود: «هذا من باب التمثيل والتخييل... الخ»، قال أحمد: «إطلاق التمثيل أحسن، وقد ورد الشرع به». وأما إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى فردود، ولم يرد به سماع، وقد كثرت إنكارنا عليه لهذه اللفظة. ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر مالم يخالف المعقول يجب إقراره على ما هو عليه، فذلك أقره أكثره كثيرون على ظاهره وحقيقته ولم يجعلوه مثالا. وأما كيفية الإخراج والمخاطبة فاته أعلم بذلك.

(٢) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ١٨١ فراجع هناك إن شئت أمه مصرحه.

(٣) قالت له ريح الصبا قرقار واختلط المعروف بالانكار

لابي النجم العجلى. و «قرقار» اسم فعل بمعنى قرقر: أمر للسحاب لتزليه منزلة العاقل، أى: صوت بالرعد. هذا قول سيويه. وقال المبرد تبعاً للزاني: هو حكاية صوت الرعد، وهو على كل مبنى على الكسر على أصل التخلص من التقاء الساكنين، ولكنه على الأول متحمل للضمير، فهو مركب. وعلى الثاني: لا ضمير فيه، فهو مفرد، لكن فيه أن حكاية الأصوات لا تفيد حثاً ولا زجراً. وهنا يفيد الحث لقرينة المقام ولا فعل لها، وهذا له فعل. يقال: قرقرت الدجاجة إذا صوتت، إلا أن يقال إن المعنى: صوت يارعد قرقار. وقولهم: قرقرت الدجاجة، مأخوذ من قرقار، كما أخذوا العياط من عيط بكسرتين بينهما سكون، حكاية لصوت المتلاعبين. واختلط يحتمل أنه أمر وهو أنسب بما قبله. ويحتمل أنه ماض. والمراد بالانكار المنكر، ولا قول للريح. وإنما شبهها حيث تسوق السحاب بمن يصح منه القول، على طريق المكينة والقول تخييل. ويجوز أن يستأوى القول لصوت =

ومعلوم أنه لا قول ثم ، وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى ﴿ أن تقولوا ﴾ مفعول له ، أى فعلنا ذلك من نصب الأدلة الشاهدة على صحتها العقول ، كراهة ﴿ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ﴾ لم تنبه عليه ﴿ أو ﴾ كراهة أن ﴿ تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ﴾ فافتدينا بهم ، لأن نصب الأدلة على التوحيد وما نبهوا عليه قائم معهم ، فلا عذر لهم في الإعراض عنه والإقبال على التقليد والاعتداء بالآباء . كما لا عذر لآبائهم في الشرك - وأدلة التوحيد منصوبة لهم - فإن قلت : بنو آدم وذرياتهم من هم <sup>(١)</sup> ؟ قلت : عني بني آدم : أسلاف اليهود الذين أشركوا بالله ، حيث قالوا : عزير ابن الله . وبذرياتهم : الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخلافهم المقتدين بآبائهم . والدليل على أنها في المشركين وأولادهم : قوله ﴿ أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل ﴾ والدليل على أنها في اليهود : الآيات التي عطف عليها ، والتي عطف عليها وهي على نمطها وأسلوبها ، وذلك قوله ﴿ وأسألمهم عن القرية ﴾ ، ( إذ قالت أمة منهم لم تعظون ) ، ( وإذ تأذن ربك ) ، ( وإذ قمنا للجبل فوقهم ) ، ( واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا ) . ﴿ أفهل كننا بما فعل المبطلون ﴾ أى كانوا السبب في شركنا : لتأسيسهم الشرك ، وتقديمهم فيه ، وتركه سنة لنا ﴿ وكذلك ﴾ ومثل ذلك التفصيل البليغ ﴿ فنصل الآيات ﴾ لهم ﴿ ولعلمهم يرجعون ﴾ وإرادة أن يرجعوا عن شركهم فضلها . وقرئ : ذريتهم ، على التوحيد . وأن يقولوا : بالياء .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَاتَّبَعَهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ۝١٧٥ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ۝١٧٦

== السحاب ، على طريق التصريح . ويجوز أنه من باب الكناية . وعلى هذا النحو قوله في فائدة صالح : فأتاهما أحمير كأخى السهم بنضب ، فقال كوني عقيراً . وصرف المنوع للضرورة . وأضاف الملقى غير الملقى ، ليدل على الملازمة لوجه شبه العاقر بالمهم . أى قالت الصبا للسحاب : قرر بالرد . واختلط الأماكن التي اعتدت سقيها بالتي كنت لا تبلتها بالسقي ، أى سويين الجميع فيه . ويحتمل أن المعروف المطر والمنكر الرد والبرق والصواعق ، أى أفل الجميع على أنه ماض ، فهو عطف على قالت . وليس من قول الرجز . وعليه فيجوز أيضاً رفع المعروف ، ويكون الفعل لازماً . وهذا البيت من آيات الكتاب .

(١) عاد كلامه . قال : « فان قلت بنو آدم وذرياتهم من هم ... الخ » ؟ قال أحد : والأظهر أنها شاملة لجملة بني آدم فتدخل اليهود في عمومها ، لأن كل واحد من بني آدم يصدق عليه الأمران جميعاً أنه ابن آدم وأنه ذريته ، ولا يخرج من هذا إلا آدم عليه السلام ، وإنما لم يذكر لظهوره ، ولا يخلو الكلام عن النوع المسمى في فن البلاغة بالغ اختصاراً وإيجازاً .

(واتل عليهم) على اليهود (نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها) هو عالم من علماء بني إسرائيل. وقيل: من الكنعانيين، اسمه بلعم بن باعوراء أوتى علم بعض كتب الله (فانسلخ منها) من الآيات، بأن كفر بها وببذها وراء ظهره (فأتبعه الشيطان) فلهذه الشيطان وأدركه وصار قريباً له. أو فأتبعه خطواته. وقرئ: فأتبعه، بمعنى فتبعة (فكان من الغاوين) فصار من الضالين الكافرين. روى أن قومه طلبوا إليه أن يدعو على موسى ومن معه فأبى وقال: كيف أدعو على من معه الملائكة، فألحوا عليه ولم يزالوا به حتى فعل (ولو شئنا لرفعناه بها) لعظمته ورفعناه إلى منازل الأبرار من العلماء بتلك الآيات (ولكنه أخلد إلى الأرض) مال إلى الدنيا ورغب فيها. وقيل: مال إلى السفالة. فإن قلت: كيف علق رفعه بمشيئة الله تعالى ولم يعلق بفعله الذي يستحق به الرفع؟ قلت: المعنى: ولو لم العمل بالآيات ولم ينسلخ منها لرفعناه بها. وذلك أن مشيئة الله تعالى رفعه تابعة للزومه الآيات فذكرت المشيئة. والمراد: ما هي تابعة له ومسببة عنه، كأنه قيل: ولو لمزمها لرفعناه بها. ألا ترى إلى قوله (ولكنه أخلد إلى الأرض) فاستدرك المشيئة بإخلاده الذي هو فعله. فوجب أن يكون (ولو شئنا) في معنى ما هو فعله، ولو كان الكلام على ظاهره لوجب أن يقال: ولو شئنا لرفعناه ولكننا لم نشأ (فثله كمثل الكلب) فصفته التي هي مثل في الحسة والضعة كصفة الكلب في أخس أحواله وأذلها وهي حال دوام الله<sup>(١)</sup> به واتصاله، سواء حمل عليه - أي شذ عليه وهيج فطرد - أو ترك غير متعرض له بالحمل عليه. وذلك أن سائر الحيوان لا يكون منه الله إلا إذا هيج منه وحرك، وإلا لم يلهث، والكلب يتصل لهته في الحالتين جميعاً، وكان حق الكلام أن يقال: ولو شئنا لرفعناه بها ولكننا أخلد إلى الأرض فخططناه ووضعنا منزلته، فوضع قوله (فثله كمثل الكلب) موضع خططناه أبلغ حظ، لأن تمثيله بالكلب في أخس أحواله وأذلها في معنى ذلك. وعن ابن عباس رضى الله عنه، الكلب منقطع الفؤاد، يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل عليه. وقيل: معناه إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال، كالكلب إن طردته فسعى لهث، وإن تركته على حاله لهث. فإن قلت: ما محل الجملة الشرطية؟ قلت: النصب على الحال، كأنه قيل: كمثل الكلب ذليلاً دائماً الذلة لاهئاً في الحالتين. وقيل: لما دعا بلعم على موسى عليه السلام خرج لسانه فوقع على صدره، وجعل يلهث كما يلهث الكلب (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) من اليهود بعد ما قرؤا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة،

(١) قوله «دوام الله به» في الصحاح لهث الكلب إذا خرج لسانه من اللثب أو العطش. وقوله تعالى (إن يحمل عليه يلهث أو تركه يلهث) لأنك إذا حملت على الكلب نبح وولى هاربا. وإن تركه شذ عليك ونبح، فينبغي تسميه في الحالتين فيعتريه عند ذلك ما يعتريه عند العطش من إخراج اللسان. (ع)



وذكر القرآن المعجز وما فيه ، وبشروا الناس باقتراب مبعثه ، وكانوا يستفتحون به ﴿ فاقصص ﴾ قصص بلعم الذي هو نحو قصصهم ﴿ لعلمهم يتفكرون ﴾ فيحذرون مثل عاقبته ، إذ ساروا نحو سيرته ، وزاغوا شبه زيغته ، ويعلمون أنك علمته من جهة الوحي فيزدادوا إيقاناً بك وتزداد الحجة لزوماً لهم .

سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ ۖ (١٧٧)

﴿ ساء مثلاً القوم ﴾ أى مثل القوم . أوساء أصحاب مثل القوم . وقرأ الجحدري ساء مثل القوم . ﴿ وأنفسهم كانوا يظلمون ﴾ إما أن يكون معطوفاً على كذبوا ، فيدخل في حيز الصلة بمعنى : الذين جمعوا بين التكذيب ، بآيات الله وظلم أنفسهم . وإما أن يكون كلاماً منقطعاً عن الصلة ، بمعنى : وما ظللوا إلا أنفسهم بالتكذيب ، وتقديم المفعول به للاختصاص ، كأنه قيل : وخصوا أنفسهم بالظلم لم يتعداها إلى غيرها .

مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ لِلْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٧٨)

﴿ فهو المهتدى ﴾ حمل على اللفظ . و ﴿ فأولئك هم الخاسرون ﴾ حمل على المعنى .

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أ\_Aذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ

أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)

﴿ كثير من الجن والإنس ﴾ هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم . وجعلهم في أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق ، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظراً اعتباراً ، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات الله سماع تدبر ، كأنهم عدموا فهم القلوب وإبصار العيون واستماع الأذان ، وجعلهم - لإعراقهم <sup>(١)</sup> في الكفر وشدة شكائهم فيه ، وأنه لا يأتي منهم إلا أفعال أهل النار - مخلوقين للنار ، دلالة على توغلبهم في الموجبات وتمكثهم فيما يؤهلهم لدخول النار ومنه كتاب عمر رضى الله عنه إلى خالد بن الوليد : بلغنى أن أهل الشام اتخذوا لك دلوكة <sup>(٢)</sup> عجن

(١) قوله « لإعراقهم » يقال أعرق الشجر والنبات - بالعين المهملة - إذا امتدت عروقه في الأرض . وأغرق التلأزع في القوس - بالمعجمة - أى استوفى مدداها من الصحاح . (ع)

(٢) قوله « دلوكة » في الصحاح : الدلوكة ما يدلك به من طيب وغيره . (ع)

بخمر وإلى لاظنكم آل المغيرة ذره النار<sup>(١)</sup> . ويقال لمن كان عريقا في بعض الامور : ما خلق فلان إلا لكذا . والمراد وصف حال اليهود<sup>(٢)</sup> في عظم ما أقدموا عليه من تكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مع علمهم أنه النبي الموعود . وأنهم من جملة الكثير الذين لا يكاد الإيمان يتأق منهم ، كأنهم خلقوا للنار ﴿ أولئك كالأنعام ﴾ في عدم الفقه والنظر للاعتبار والاستماع للتدبر ﴿ بل هم أضل ﴾ من الأنعام عن الفقه والاعتبار والتدبر ﴿ أولئك هم الغافلون ﴾ الكاملون في الغفلة . وقيل : الأنعام تبصر منافعها ومضارها فتلزم بعض ما تبصره ، وهؤلاء أكثرهم يعلم أنه معاند فيقدم على النار .

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَهْجَٰزُونَ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

﴿ ولله الأسماء الحسنى ﴾ التي هي أحسن الأسماء<sup>(٣)</sup> : لأنها ندل على معان حسنة من تمجيد وتقديس وغير ذلك ﴿ فادعوه بها ﴾ فسموه بتلك الأسماء ﴿ وذروا الذين يلحدون في أسمائه ﴾ وازكروا تسمية الذين يميلون عن الحق والصواب فيها فيسمونه بغير الأسماء الحسنى ، وذلك أن يسموه بما لا يجوز عليه . كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم<sup>(٤)</sup> : يا أبا المسكارم ، يا أبيض الوجه ، يا نغى . أو أن يأبوا تسميته ببعض أسمائه الحسنى ، نحو أن يقولوا : يا الله ، ولا يقولوا : يا الرحمن وقد قال الله تعالى ﴿ قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ، أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى ﴾ ويجوز أن يراد : ولله الأوصاف الحسنى<sup>(٥)</sup> ، وهي الوصف بالعدل والخير والإحسان وانتفاء شبه الخلق

(١) أخرجه أبو عبيد في غريبه : حدثني إسماعيل بن عياش عن حميد بن ربيعة عن سليمان بن موسى : أن عمر كتب إلى خالد - فذكره منقطعا .

(٢) قوله « والمراد وصف حال اليهود » إنما فسره بذلك لأنه تعالى يجب عليه الأصلح للبعدت المعتزلة ، وخلقه لجهنم ليس أصلح له . وعند أهل السنة لا يجب عليه شيء . (ع)

(٣) قال محمود : « معنى الحسنى التي هي أحسن الأسماء ... الخ » قال أحمد : أى بما يجوز عليه وإن لم يرد إطلاقه شرعا ، كالشريف والعارف ، ونحو ذلك .

(٤) قال محمود : « كما سمعنا البدو يقولون بجهلهم ... الخ » قال أحمد : وفى هذا التأويل بعد ، لأن ترك الدعاء ببعض الأسماء لا يطلق عليه إلحاد في العرف ، وإنما يطلق على فعل لا على ترك ، ولكن يتميز عن الوجه السالف بأنه أضاف الأسماء الملهدة فيها إلى ذاته ، وهذا أدل على الرحمن منه على مثل أبيض الوجه ونحوه ، فإن هذا ليس من أسمائه ، إلا أن يقال : أضافه إليه تنزيلا على زعمهم .

(٥) قال محمود : « ويجوز أن يراد : وفيه الأوصاف الحسنى ، وهي الوصف بالعدل والخير ... الخ » قال أحمد : لا بدح حشو المقائد الفاسدة في غير موضع يسميها ، فإن يكن المراد الأوصاف ، فالحسنى منها وصف الله بعموم القدرة والافراد بالمخلوقات ، حتى لا يشرك معه عباده في خلق أفعاله . ويعظم الله تعالى بأنه لا يسأل عما يفعل ، وأن كل

فصفوه بها ، وذروا الذين يلحدون <sup>(١)</sup> في أوصافه فيصفونه بمشينة القبائح وخلق الفحشاء والمنكر وبما يدخل في التشبيه كالرؤية ونحوها . وقيل : إلحادهم في أسمائه : تسميتهم <sup>(٢)</sup> الأصنام الهة ، واشتقاقهم اللات من الله ، والعزى من العزيز .

وَمِنْ خَلْقِنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ <sup>(١٨١)</sup>

لما قال (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً) فأخبر أن كثيراً من الثقلين عامدون بأعمال أهل النار ، أتبعه قوله (ومن خلقنا أمة يهدون بالحق) وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول إذا قرأها هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها <sup>(٣)</sup> ، (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق) وعنه صلى الله عليه وسلم : إن من أمتي قوما على الحق حتى ينزل عيسى عليه السلام <sup>(٤)</sup> ، وعن السكبي : هم الذين آمنوا من أهل الكتاب . وقيل : هم العلماء والدعاة إلى الدين .

وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ <sup>(١٨٢)</sup>

وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ <sup>(١٨٣)</sup> أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ <sup>(١٨٤)</sup> أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ

بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ <sup>(١٨٥)</sup>

== قضائه عدل ، وأنه لا يجب عليه رعاية ما يتوهمه الخلق مصلحة بعقولهم ، وأن وعده الصدق وقوله الحق ، وقد وعد رؤيته فوجب وقوعها ، إلى غير ذلك من أوصافه الجليلة ، وذروا الذين يلحدون في أوصافه فيجحدونها ، ثم يزعمون أنه لا تشمل قدرته المخلوقات ، بل هي مقسومة بينه وبين عباده ، ويوجبون عليه رعاية ما يتوهمونه مصلحة ، ويعجبون واسمأن مغفرته وعفوه وكرمه على الخطائين من موحديه ، إلى غير ذلك من الإلحاد المعروف بالطائفة المتلقين عدلية ، المزكين لأنفسهم وهو أعلم بمن اتقى .

(١) قوله «وذروا الذين يلحدون» يريد أهل السنة القائلين : كل كائن فهو مراد ومخلوق له تعالى ولو شراً ، وتجوز رؤيته ، خلافاً للبعثرة في كل ذلك ، كما تقرر في محله . (ع)

(٢) قال محمود : «وقيل إلحادهم في أسمائه : تسميتهم ... الخ» قال أحمد : وهذا تفسير حسن ملائم ، والله أعلم .

(٣) ذكره الثعلبي عن قتادة وابن جريج . وإسناده إليها مذكور في أول كتابه .

(٤) ذكره الثعلبي عن الربيع بن أنس ، وإسناده إليه في أول كتابه . رواه أحمد من حديث عمران بن حصين بإلفظ «لا تزال طائفة من أمتي على الحق حتى يأتي أمر الله ، وينزل عيسى ابن مريم» وفي تاريخ البخاري عن عبد الطلح عن جابر نحوه ، ورواه أبو يعلى من وجه آخر ، وزاد «فيقول إمامهم : تقدم يا روح الله فيقول : أتم أحق أمر كرم به هذه الأمة» .

الاستدراج: استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد ، أو الاستئزال درجة بعد درجة .  
قال الأعشى :

قَلَوُ كُنْتُ فِي جُبٍّ ثَمَانِينَ قَامَةً      وَرَفِيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلَمٍ  
أَيْسَدَرَجَكَ الْقَوْلُ حَتَّى نَهَرَهُ      وَتَعْلَمَ أَنِّي عَنْكُمْ غَيْرُ مُفْعَمٍ<sup>(١)</sup>

ومنه : درج الصبي إذا قارب بين خطاه . وأدرج الكتاب : طواه شيئاً بعد شيء . ودرج القوم : مات بعضهم في أثر بعض . ومعنى «سنستدرجهم» سنستدينهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم «من حيث لا يعلمون» ما يراد بهم . وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهما كهم في الفئ ، فكلما جدد عليهم نعمة ازدادوا بطراً وجددوا معصية ، فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم ، ظانين أن مواترة النعم أثرة من الله وتقريب ، وإنما هي خذلان منه وتبعد ، فهو استدراج الله تعالى ، نعوذ بالله منه «وأملى لهم» عطف على «سنستدرجهم» وهو داخل في حكم السين «إن كيدى متين» سماه كيداً لأنه شبيه بالكيد ، من حيث أنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان «ما بصاحبهم» بحمد صلى الله عليه وسلم «من جنة» من جنون ، وكانوا يقولون شاعر مجنون . وعن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم علا الصفا فدعاهم نخذاً نخذاً يحذرهم بأس الله ، فقال قائمهم : إن صاحبكم هذا لمجنون ، بات يهوت<sup>(٢)</sup> إلى الصباح<sup>(٣)</sup> «أولم ينظروا» نظر استدلال «في ملكوت السموات والأرض» فيما تدلان عليه من عظم الملك . والملكوت : الملك العظيم «وما خلق الله من شيء» وفيما خلق الله مما يقع عليه اسم الشيء ، من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف «وأن عسى» أن مخففة من الثقيلة ، والاصل : وأنه عسى ، على أن الضمير ضمير الشأن . والمعنى : أولم ينظروا في أن الشأن والحديث عسى «أن يكون قد اقترب أجلكم» ولعلمهم يموتون عما قريب ، فيسارعوا إلى النظر وطلب الحق وما ينجيهم . قبل مفاصلة الأجل<sup>(٤)</sup> وحلول العقاب . ويجوز أن يراد باقتراب الأجل : اقتراب الساعة ، ويكون من «كان» التي فيها ضمير الشأن . فإن قلت : هم يتعلق قوله «فبأي حديث بعده يؤمنون» ؟ قلت : بقوله (عسى أن يكون قد اقترب أجلكم) كأنه قيل : لعل أجلكم قد اقترب ، فما لهم لا يبادرون إلى الإيمان

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٩٥ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله «بات يهوت» أى يصيح . (ع)

(٣) أخرجه الطبري بإسناد صحيح إلى قتادة قال «ذكر لنا - فذكره . فأرسل الله (أولم تفكروا ما بصاحبهم

من جنة الآية)

(٤) قوله «قبل مفاصلة الأجل» أى أخذه إياهم على حين غفلة . اه من الصحاح (ع)

بالقرآن قبل الفوت، وماذا ينتظرون بعد وضوح الحق، وبأى حديث أحق منه يريدون أن يؤمنوا.

مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

قرئ ﴿ويذرهم﴾ بالياء والنون، والرفع على الاستئناف. ويذرهم، بالياء والجزم عطفاً على محل ﴿فلا هادى له﴾ كأنه قيل: من يضلل الله لا يهده أحد ويذرهم.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ

عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَسَكُنَّ الْأَشْكَارُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿يسألونك﴾ قيل إن قوماً من اليهود قالوا: يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً، فإننا نعلم متى هي، وكان ذلك امتحاناً منهم، مع علمهم أن الله تعالى قد استأثر بعلمها. وقيل: السائلون قريش. و﴿الساعة﴾ من الأسماء الغالبة. كالنجم للثريا. وسميت القيامة بالساعة، لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو على العكس لطولها، أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق. ﴿أيان﴾ بمعنى متى. وقيل: اشتقاقه من أى فعلان منه، لأن معناه أى وقت وأى فعل، من أويت إليه، لأن البعض أو إلى الكل متساند إليه، قاله ابن جني، وأبى أن يكون من وأين، لأنه زمان، وأين، مكان. وقرأ السلي: إيان، بكسر الهمزة <sup>(١)</sup> ﴿مرساها﴾ إرساؤها، أو وقت إرسائها: أى إثباتها وإقرارها. وكل شيء ثقيل رسوه ثباته واستقراره. ومنه: رسي الجبل وأرسي السفينة. والمرسي: الأنجر الذي ترسي به، ولا أثقل من الساعة، بدليل قوله ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ والمعنى: متى يرسيها الله ﴿إنما علمها﴾ أى علم وقت إرسائها عنده قد استأثر به، لم يخبر به أحد من ملك مقرب ولا نبي مرسل، يكاد يخفيها من نفسه، ليكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية كما أخفى الأجل الخاص وهو وقت الموت لذلك ﴿لا يجليها لوقتها إلا هو﴾ أى لا تزال خفية، لا يظهر أمرها ولا يكشف خفاء علمها إلا هو وحده إذا جاء بها في وقتها بغتة، لا يجليها <sup>(٢)</sup> بالخبر عنها قبل مجئها أحد من خلقه، لاستمرار الخفاء بها على غيره إلى وقت وقوعها ﴿ثقلت في السموات والأرض﴾ أى كل من أهلها من الملائكة

(١) قوله «وقرأ السلي إيان بكسر الهمزة» في الصحاح «أيان» سؤال عن زمان و«إيان» بكسر الهمزة لغة

سليم. وبه قرأ السلي (إيان يعنون). (ع)

(٢) قوله «بغتة لا يجليها» لعله: وقيل لا يجليها، بل لعله «أو لا يجليها». (ع)

والثقلين أهمه شأن الساعة ، وبوده أن يتجل له عليها وشق عليه خفاؤها وثقل عليه . أو ثقلت فيها لأن أهلها يتوقعونها ويخافون شدائدها وأهوالها . أو لأن كل شيء لا يطيقها ولا يقوم لها فهي ثقيلة فيها ( إلا بغتة ) إلا فجأة على غفلة منكم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم « إن الساعة تهيج بالناس والرجل يصلح حوضه »<sup>(١)</sup> والرجل يسقي ماشيته ، والرجل يقوم سلعته في سوقه ، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه »<sup>(٢)</sup> « كأنك حتى عنها » كأنك عالم بها . وحقيقته : كأنك بليغ في السؤال عنها <sup>(٣)</sup> ، لأن من بالغ في المسئلة عن الشيء والتفكير عنه ، استحكم عليه فيه وورسن <sup>(٤)</sup> وهذا التركيب معناه المبالغة . ومنه : إحقاق الشارب . واحتفاء البقل : استئصاله . وأحنى في المسئلة ، إذا ألحف <sup>(٥)</sup> . وحنى بفلان وتحنى به : بالغ في البر به . وعن مجاهد : استحفيت عنها

(١) قوله « والرجل يصلح حوضه » في البخارى : يلبط حوضه . وروى « يلوط » أى يصلحه اهـ (ع)  
(٢) أخرجه الطبرى بالاستناد المذكور إلى قتادة قال ذكر لنا - فذكره . وفي الصحيحين عن أبي هريرة رفعه « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته فلا يطعمه - الحديث » .

(٣) قال محمود « معناه كأنك بليغ في السؤال عنها ... الخ » قال أحد وفى هذا النوع من التكرير نكتة لائى إلا فى الكتاب العزيز ، وهو أجل من أن يشارك فيها ، وذلك أن المعهود فى أمثال هذا التكرير أن الكلام إذا بنى على مقصد ، واعترض فى أثناءه عارض فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول وقد بعد عهده ، طرى بذكر المقصد الأول لتتصل نهايته ببدايته ، وقد تقدم لذلك فى الكتاب العزيز أمثال ، وسبأى وهذا منها ، فانه لما ابتدأ الكلام بقوله ( يستلونك عن الساعة أيا ن رساها ) ثم اعترض ذكر الجواب المضمن فى قوله ( قل إنما عليها عند ربى ) إلى قوله ( بغتة ) أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم ، وهو المضمن فى قوله ( كأنك حتى عنها ) وهو شديد التعلق بالسؤال ، وقد بعد عهده فطرى ذكره نظرية عامة ، ولانراه أبدا يطرى إلا بنوع من الاجمال كالذكر لذكره للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدم ، فن ثم قيل ( يسألونك ) ولم يذكر المسئول عنه وهو الساعة ، اكتفاء بما تقدم ، فلما كرر السؤال لهذه القائدة كرر الجواب أيضا مجملا فقال ( قل إنما عليها عند الله ) ويلاحظ هذا فى تلخيص الكلام بعد بسطه . ومن أدق ما وقفت عليه العرب فى هذا النمط من التكرير لأجل بعد العهد نظرية للذكر قوله :

عجل لنا هذا وألحقنا بهذا اللهم إنا قد مللناه بعجل

أى فقط ، فذكر الألف واللام خاتمة للأول من الرجزين ، ثم لما استفتح الرجز الثانى استبعد العهد بالأولى ، فطرى ذكرها وأبقى الأولى فى مكانها . ومن ثم استدلل ابن جنى دلى أن ما كان من الرجز على ثلاثة أجزاء فهو بيت كامل وليس بنصف ، كما ذهب إليه أبو الحسن ، قال : ولو كان بيتا واحدا لم يكن عهد الأولى متباعدة ، فلم يكن محتاجا إلى تكريرها . ألا ترى أن عبيدا لما جاء بقصيدة طويلة الآيات وجعل آخر المصراع الأول آل ، لم يعدها أول المصراع الثانى ، لأنها بيت واحد ، فلم ير عهدها بعبدا . وذلك قوله :

يا خليلي أربعا واستخيرا اللهم منزل الدارس من أهل الحلال

مثل سحق البرد عني بمذك اللهم قطر مغناه وتأويب الشمال

ثم استرسل فيها كذلك بضعة عشر بيتا ، فانظر هذه النكتة كيف بالغت العرب فى رعايتها حتى عدت القريب بعيدا والمقاصر مديدا ، فتأملها فانها تحفة إنما تنفق عند الخذاق الأعيان فى صنائع العربية والبيان ، والله المستعان .

(٤) قوله « وورسن » أى : ثبت وتمسكن اهـ . (ع)

(٥) قوله « إذا ألحف » أى ألح وعنف اهـ . (ع)

السؤال حتى علمت . وقرأ ابن مسعود : كأنك حفيّ بها ، أى عالم بها بليغ في العلم بها . وقيل (عنها) متعلق بيسئلونك : أى يسئلونك عنها كأنك حفيّ أى عالم بها . وقيل : إن قریشاً قالوا له إن بيننا وبينك قرابة ، فقل لنا متى الساعة ؟ فقيل : يسئلونك عنها كأنك حفيّ تحفى بهم فتختصم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوى عليها عن غيرهم ، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله في إخبارك به ، لكنت مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص ، كسائر ما أوحى إليك . وقيل : كأنك حفيّ بالسؤال عنها تحبه وتؤثره ، يعنى أنك تكره السؤال عنها لأنها من علم الغيب الذى استأثر الله به ولم يؤته أحداً من خلقه . فإن قلت : لمكرر يسئلونك وإنما عليها عند الله ؟ قلت : للتأكيد ، ولما جاء به من زيادة قوله (كأنك حفيّ عنها) وعلى هذا تكرير العلماء الخذاق في كتبهم لا يخلون المكرر من فائدة زائدة ، منهم محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة رحمهما الله (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أنه العالم بها ، وأنه المختص بالعالم بها .

قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَا سْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾

(قل لا أملك لنفسي) هو إظهار للعبودية والانتفاء عما يختص بالربوبية من علم الغيب : أى أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر كما المالك والعبيد (إلا ما شاء) ربى ومالكي من النفع لى والدفع عني (ولو كنت أعلم الغيب) لكنت حالى على خلاف ما هي عليه ، من استكثار الخير ، واستغزار المنافع ، واجتناب السوء والمضار ، حتى لا يمسي شيء منها . ولم أكن غالباً مرة ومغلوباً أخرى في الحروب ، ورايحاً وخاسراً في التجارات ، ومصيباً مخطئاً في التدابير (إن أنا إلا) عبد أرسلت نذيراً وبشيراً ، وما من شأنى أنى أعلم الغيب (لقوم يؤمنون) يجوز أن يتعلق بالنذير والبشير جميعاً ، لأن النذارة والبشارة إنما تنفعان فيهم . أو يتعلق بالبشير وحده ويكون المتعلق بالنذير محذوفاً أى إلا نذير للكافرين ، وبشير لقوم يؤمنون .

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلًا خَفِيًّا قَرَرَتْ بِهِ فَلَمَّا أَتَتْهُ دَعَا اللَّهَ رَبُّهُمَا لَعْنِ عَاتِيَتِنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا

آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾

(من نفس واحدة) وهى نفس آدم عليه السلام (وجعل منها زوجها) وهى حواء ، خلقها من جسد آدم من ضلع من أضلاعه . أو من جنسها كقوله (جعل لكم من أنفسكم أزواجا) . (ليسكن إليها) ليطمئن إليها ويميل ولا تنفر ؛ لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آانس ، وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ ، كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه . وقال (ليسكن) فذكر بعد ما أنت في قوله : واحدة . منها زوجها ، ذهابا إلى معنى النفس ليبين أن المراد بها آدم . ولأن الذكر هو الذى يسكن إلى الأنثى ويتغشاها ، فكان التذكير أحسن طباقا للبعنى . والتغشى : كناية عن الجماع . وكذلك الغشيان والإتيان (حملت حملا خفيفا) خف عليها ، ولم تلق منه ما يلقى بعض الحبالى من حملن من الكرب والأذى ، ولم تستثقله كما يستثقله . وقد تسمع بعضهن تقول فى ولدها : ما كان أخفه على كبدى حين حملته (فرت به) فضت به إلى وقت ميلاده من غير إخداج ولا إزلاق<sup>(١)</sup> وقيل (حملت حملا خفيفا) يعنى النطفة (فرت به) فقامت به وقعت . وقرأ ابن عباس رضى الله عنه : فاستمرت به ، وقرأ يحيى بن يعمر : فرت به . بالتخفيف . وقرأ غيره : فازت به ، من المربة ، كقوله (أفئارونه) وأفئمرونه . ومعناه : فوقع فى نفسها ظن الحمل ، فارتابت به (فلما أنقلت) حان وقت نقل حملها كقولك : أقربت<sup>(٢)</sup> . وقرئ : أنقلت ، على البناء المفعول : أى أنقلها الحمل (دعوا الله ربهما) دعا آدم وحواء ربهما ومالك أمرهما الذى هو الحقيق بأن يدعى ويلتجأ إليه فقالا (لئن آتيتنا) لئن وهبت لنا (صالحا) ولدا سويا قد صلح بدنه وبرئ<sup>(٣)</sup> . وقيل . ولدا ذكرا ، لأن الذكورة من الصلاح والجودة . والضمير فى (آتيتنا) و (نسكون) . لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما<sup>(٤)</sup>

(١) قوله : من غير إخداج ولا إزلاق ، إخداج : أى نقصان . ولا إزلاق : أى إسقاط . (ع)

(٢) قوله : كقولك : أقربت ، أى قرب ولادة . (ع)

(٣) قوله : وبرئ ، أعله : وبرئ من الآفات . (ع)

(٤) قال محمود : «الضمير فى (آتيتنا) و (نسكون) لهما ولكل من يتناسل من ذريتهما ... الخ» قال أحد وأسلم من هذين التفسيرين وأقرب - والله أعلم - أن يكون المراد جنسى الذكر والأنثى . لا يقصد فيه إلى معين . وكان المعنى - والله أعلم - خلقكم جنسا واحدا ، وجعل أزواجكم منكم أيضا لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذى هو الذكر الجنس الآخر الذى هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت . وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون ، لأن المشركين منهم (أثمأماست أسوف أخرج حيا) و (قتل الإنسان ما أكفره) ، وإن الإنسان لئى خسار) كما أنه كذلك على التفسير الأول أضاف الشرك إلى أولاد آدم وحواء وهو واقع مع بعضهم وعلى التفسير الثانى أضافه إلى قصى وعقبه ، والمراد البعض ؛ فهذا السؤال وارد على التأويلات الثلاثة ، وجوابه واحد ويسلم هذا الثالث من حذف المضاف المضطر إليه فى التأويل الأول . وما ينصرف إلى التأويل الثانى من استبعاد تخصيص قصى بهذا الأمر المشترك فى الجنس ، وهو جعل زوجته منه وكون المراد بذلك أن يسكن إليها لأن ذلك عام فى الجنس ، والله أعلم .



(فلما آتاها) ما طلباه من الولد الصالح السوي (جعلاه شركاء) أي جعل أولادهما له شركاء ، على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ، وكذلك (فيما آتاها) أي آتى أولادهما ، وقد دلّ على ذلك بقوله (فتعالى الله عما يشركون) حيث جمع الضمير . وآدم وحواء بريثان من الشرك . ومعنى إشراكهم فيما آتاهاهم الله : تسميتهم أولادهم بعبد العزى وعبد مناة<sup>(١)</sup> وعبد شمس وما أشبه ذلك ، مكان عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرحيم . ووجه آخر وهو أن يكون الخطاب لقريش الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم آل قصي ألا ترى إلى قوله في قصة أم معبد<sup>(٢)</sup> :

فَيَا لَقُصَى مَا زَوَى اللَّهُ عَنْكَ<sup>(٣)</sup> بِهِ مِنْ فَخَّارٍ لَا يُبَارَى وَسُودِدَ<sup>(٤)</sup>

ويراد هو الذي خلقكم من نفس قصي ، وجعل من جنسها زوجها عرية قرشية ليسكن إليها ، فلما آتاها ما طلبا من الولد الصالح السوي جعلاه شركاء فيما آتاها ، حيث سما أولادهما

(١) قوله «وعبد مناة» في النسب : وعبد مناف (ع)

(٢) هذا طرف من حديث أم معبد في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم . وقد أخرجه الحاكم مطولا . من حديثها وحديث أخيها حبيس بن خالد . ومن حديث زوجها أبي معبد ، وطريق أم معبد رويناهما في الفيلانيات . وفي الطبراني وفي الدلائل لأبي نعيم والبيهقي .

(٣) جزى الله رب الناس خير جزائه      رفيقين حلا خيمتي أم معبد  
هما نزلا بالبر ثم ترحلا      فيافوز من أمسي رفيق محمد  
فيالقصى ما زوى الله عنكم      به من فخار لا يبارى وسودد  
لين بني سعد مقام فتاتهم      ومقعدهما للؤمنين بمرصد

لرجل من الجن ، سمعوا صوته بكه ولم يروا شخصه ، حين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مع أبي بكر مهاجراً وجعل أهلها خبرهما بعد خروجهما من النار . ويروى «جزاية» بالتاء كهداية . ويروى «قالا» بدل «حلا» والمعنى متقارب ، إلا أن الثاني خاص بالاستراحة في منتصف النهار . و«خيمتي» نصب على التوسع بحذف حرف الجر ود أم معبد ، امرأة من بني سعد نزلا عندها بالبر والخير . ذكر بعضهم أن اسمها عاتكة بنت خالد الخزاعية و«يالقصى» أصله «يا آل قصي» ، تخفف وقد اختلف فيها ، فقبل : أصلها يا آل قصي أيضاً . وقيل : هي حرف جر ، فقبل زائد . وقيل أصله متعلق بيا عند سيويوه ، وبالفعل الذي نابت عنه عند ابن جني «وما» استهامية ، والمعنى : يا آل قصي ، أندرون ما قبضه الله ومنعه بخروج رسول الله من بينكم من فخار لا يضاهي ومن شرف عظيم ؟ وفي هذا الاستفهام معنى التعجب والاستعظام ، حتى كأن المستفهم عنه لا يعرف كنهه . ويجوز أن اللام للتعجب ، ودما موصول يدل من «قصي» . ويجوز أن اللام للاستغاثة ، كأنه استغاث بهم لعلمهم بتداركون ما فاتهم . وساد في قومه : شرف ، ومصدره السؤدد ، بالهمز وضمة الدال ، وبالألف فتفتح داله كما هنا . والأصل : السود . بالضم . كالحسن ، فزيدت الدال للالحاق برفع وجندب . ولين : مجزوم بلام الأمر ، والمقصود الدعاء . و«مقام» فاعل ، و«بني» مفعول . يقال : هناك الطعام ونحوه ، بالهمز : إذا نفقه وحدت عاقبته عنده ، وهو من باقي نفقه وضرب ، ويدل همره بما يناسب ما قبله ، وقد يحذف البدل كما هنا ، كأنه أصلي ، لكن الحذف عامي . والمرصد والمرصاد : بطريق يرصد فيه الرصد . وقوله «للؤمنين» ، فيه حث على الهجرة .

الأربعة بعد مناف وعبد العزى وعبد قصي وعبد الدار ، وجعل الضمير في ( يشركون ) لها ولاعقابهما الذين اقتدوا بهما في الشرك ، وهذا تفسير حسن لا إشكال فيه . وقرئ : شركا ، أى ذوى شرك وهم الشركاء ، أو أحداثا لله شركا في الولد .

أَيُشِيرُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا  
وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَاءَ عَلَيْكُمْ  
أَدْعَوْتُكُمْ أَمْ أَمْسَيْتُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَمِتُونَ ﴿١٩٣﴾

أجريت الأصنام مجرى أولى العلم في قوله ( وهم يخلقون ) بناء على اعتقادهم فيها وتسميتهم إياها آلهة . والمعنى : أيشركون ما لا يقدر على خلق شيء كما يخلق الله ، وهم يخلقون ؟ لأن الله عز وجل خالقهم . أو لا يقدر على اختلاق شيء ، لأنه جماد . وهم يخلقون : لأن عبدتهم يخلقونهم ، فهم أعجز من عبدتهم ( ولا يستطيعون لهم ) لعبدتهم ( نصرأ ولا أنفسهم ينصرون ) فيدفعون عنها ما يعثر بها من الحوادث ، بل عبدتهم هم الذين يدفعون عنهم ويحامون عليهم ( وإن تدعوهم ) وإن تدعوا هذه الأصنام ( إلى الهدى ) أى إلى ما هو هدى ورشاد ، وإلى أن يهدوكم . والمعنى : وإن تطلبوا منهم كما تطلبون من الله الخير والهدى ، لا يتبعوكم إلى مرادكم وطلبكم ، ولا يجيبوكم كما يجيبكم الله . ويدل عليه قوله ( فادعوه فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ) ( سواء عليكم ادعوتهم أم صمتتم عن دعائهم ، فى أنه لا فلاح معهم . فإن قلت : هلا قيل : أم صمتتم ؟ ولم وضعت الجملة الإسمية موضع الفعلية ؟ قلت : لأنهم كانوا إذا حزبهم أمر دعوا الله دون أصنامهم ، كقوله ( وإذا مس الناس ضر ) فكانت حالهم المستمرة أن يكونوا صامتين عن دعوتهم ، فقيل : إن دعوتهم لم تفرق الحال بين إحداثكم دعاءهم ، وبين ما أنتم عليه من عادة صمتكم عن دعائهم .

إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ  
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَمْ أَرْجُلْ بِمَشُورَةٍ بَيْنَا أَمْ لَكُمْ آيِدٍ يَبِطْشُونَ بِهَا  
أَمْ لَكُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَكُمْ أَذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ  
كَيْدُونَ فَلَا تَنْظُرُونَ ﴿١٩٥﴾

(إن الذين تدعون من دون الله) أى تعبدونهم وتسمونهم آلهة من دون الله (عباد أمثالكم) وقوله (عباد أمثالكم) استهزاء بهم ، أى قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم لا تفاضل بينكم . ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال (ألم أرجل يمشون بها) وقيل : عباد أمثالكم يملكون أمثالكم . وقرأ سعيد بن جبير : إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم بتخفيف إن ونصب عباداً أمثالكم ، والمعنى : ما الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم ، على أعمال وإن ، النافية عمل و ما ، الحجازية (قل ادعوا شركاءكم) واستعينوا بهم فى عداوتى (ثم كيدون) جميعاً أنتم وشركاؤكم (فلا تنظرون) فإنى لا أبالى بكم ، ولا يقول هذا إلا واثق بعصمة الله ، وكانوا قد خوفوه آلهتهم فأمر أن يخاطبهم بذلك ، كما قال قوم هود له : (إن نقول إلا اعتراضك بعبادتنا بسوء) قال لهم : (إنى برى ما تشركون من دونه فكيدونى جميعاً ثم لا تنظرون) .

إِنْ وَلِيَّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ۝١٩٦ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ۝١٩٧ (إن ولي الله) أى ناصرى عليكم الله (الذى نزل الكتاب) الذى أوحى إلى كتابه وأعزنى برسالاته (وهو يتولى الصالحين) ومن عادته أن ينصر الصالحين من عباده وأنياءهم ولا يخذلهم . وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمُدْحَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ ۝١٩٨ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ۝١٩٩

(ينظرون إليك) يشبهون الناظرين إليك ، لأنهم صوروا أصنامهم بصورة من قلب حقيقته إلى الشئ ينظر إليه (وهم لا يبصرون) وهم لا يدركون المرتى

خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ۝١٩٩ (العفو) ضد الجهد : أى خذ ما عفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم ، وتسمل من غير كلفة ، ولا تداقمهم ، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم حتى لا ينفروا ، كقوله صلى الله عليه وسلم «يسروا ولا تعسروا» (١) قال :

خُذِ الْعَفْوَ مِنِّى تَسْتَدِىبِى مَوَدِّى وَلَا تُنْطِقِى فِى سَوْرَتِى حِينَ أُخْضَبُ (٢)

(١) متفق عليه من حديث أنس أمته .

(٢) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ٣٦٢ فراجع إن شئت اه مصححه .

وقيل : خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم ، وذلك قبل نزول آية الزكاة ، فلما نزلت أمر أن يأخذهم بها طوعاً أو كرهاً . والعرف : المعروف والجميل من الأفعال ( وأعرض عن الجاهلين ) ولا تكافئ السفهاء بمثل سفهمهم ، ولا تمارهم ، واحلم عنهم ، وأغض على ما يسوؤك منهم . وقيل : لما نزلت الآية سأل جبريل فقال : لا أدري حتى أسأل <sup>(١)</sup> ، ثم رجع فقال : يا محمد ، إن ربك أمرك أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك . وعن جعفر الصادق : أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق ، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها .

وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾  
 ﴿ وإما ينزغتك من الشيطان نزغ ﴾ وإما ينخسك منه نخس . بأن يحملك بوسوسته على خلاف ما أمرت به ﴿ فاستعذ بالله ﴾ ولا تقطعه . النزغ والنسخ : الغرز والنخس ، كأنه ينخس الناس حين يغريهم على المعاصي . وجعل النزغ نازغاً ، كما قيل جدّ جدّه . وروى أنها لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يارب والغضب <sup>(٢)</sup> ، فنزل ( وإما ينزغتك من الشيطان نزغ ) ويجوز أن يراد بنزغ الشيطان اعتراء الغضب ، كقول أبي بكر رضي الله عنه : إن لي شيطاناً يعتريني <sup>(٣)</sup>

إِنَّ الَّذِينَ أَقْبَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾  
 وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾

(١) أخرجه الطبري من طريق سفيان بن عيينة عن أبي المرداد قال لما أنزل الله فذكره وهذا منقطع . وأخرجه ابن مردويه موصولاً من حديث جابر ومن حديث قيس بن سعد ، وزاد في أوله « لما نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حمزة قال : والله لأمتلن بسبعين منهم . جاء جبريل بهذه الآية ، فذكر الحديث ، وفي مسند أحمد عن عتبة بن عامر ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : يا عتبة ، ألا أخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا : أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك ، وغفل الطبري فقال في حديث الأصل : رواه أحمد من حديث عتبة بن عامر .

(٢) أخرجه الطبري من رواية ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم « لما نزلت » فذكره مفصلاً .

(٣) أخرجه إسماعيل بن راهويه في مسنده . وابن سعد في الطبقات قالاً : حدثنا وهب بن جرير حدثنا جرير بن حازم سمعت الحسن يقول « خطب أبو بكر رضي الله عنه يوماً ، فقال : أما والله ، ما أنا بخيركم ولقد كنت لقاى هذا كارهاً . ولوددت أن فيكم من يكفيني أفرط ، وأن أعمل فيكم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا أقوم لها ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعصم بالوحي . وكان معه ملك . إن لي شيطاناً يعتريني . فإذا غضبت فاجتنبوني الحديث ، رواه عبد الرزاق عن معمر عن رجل عن الحسن نحوه . ورويناه في جزء الأنصاري من طريق أبي هلال عن الحسن قال « لما استخلف أبو بكر بدأ بكلام والله ما تكلم به أحد غيره » فذكر نحوه .

(طيف من الشيطان) لمة منه مصدر ، من قولهم : طاف به الخيال يطيف طيفاً . قال :

\* أَيْ أَلَمْ يَكِ الْخَيَالُ يَطِيفُ \* (١)

أو هو تخفيف طيف فيعل ، من طاف يطيف كلين . أو من طاف يطوف كهين . وقرئ : طائف ، وهو يحتمل الأمرين أيضاً . وهذا تأكيد وتقرير لما تقدم من وجوب الاستعاذة بالله عند نزغ الشيطان ، وأن المتقين هذه عادتهم : إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان ولم يلمسوا بوسوسته ﴿ تذكروا ﴾ ما أمر الله به ونهى عنه ، فأبصروا السداد ودفعوا ما وسوس به إليهم ولم يتبعوه أنفسهم . وأما إخوان الشياطين الذين ليسوا بمتقين ، فإن الشياطين يمدونهم في النى ، أى يكونون مدداً لهم فيه ويعضدونهم . وقرئ : يمدونهم من الامداد . ويمادونهم ، بمعنى يعاونونهم ﴿ ثم لا يقصرون ﴾ ثم لا يمسكون عن إغوائهم حتى يصمروا ولا يرجعوا . وقوله ( وإخوانهم يمدونهم ) كقوله :

\* قَوْمٌ إِذَا الْخَيْلُ جَالُوا فِي كَوَائِبِهَا \* (٢)

في أن الخبر جار على ما هو له . ويجوز أن يراد بالإخوان الشياطين ، ويرجع الضمير المتعلق به إلى الجاهلين ، فيكون الخبر جارياً على ما هو له ، والاول أوجه ، لأن إخوانهم في مقابلة الذين اتقوا . فإن قلت : لم جمع الضمير في إخوانهم والشيطان مفرد ؟ قلت : المراد به الجنس ، كقوله ( أولياؤهم الطاغوت ) .

(١) أَيْ أَلَمْ يَكِ الْخَيَالُ يَطِيفُ ومطافه بك ذكره وشغوف

لكعب بن زهير . وأنى : استفهام تعجبى بمعنى كيف ، أو من أين . وألم : أى نزل للزيارة . والخيال : ما يراه التام . وطاف به الخيال يطيف طيفاً ومطافاً : أتيل عليه . وطاف حوله يطوف طوافاً وطوافاً : حام عليه ودار حوله ، ويكنى به عن اللمس . وقوله « يطيف » جملة حالية مؤكدة أو مؤسفة . ومطافه : أى طيفه هو سبب التذكر ووصول الحب لشغاف القلب ، فأقام المسبب مقام السبب ، وعبر عن نفسه أولاً بضمير الغيبة ، وثانياً بالخطاب . على طريق الالتفات فراراً من شبهة التكرار . وروى بك بالخطاب .

(٢) قَوْمٌ إِذَا الْخَيْلُ جَالُوا فِي كَوَائِبِهَا فوارس الخيل لا ميل ولا قدم

« الخيل » الأفراس . و« الكائبة » للفرس القربوس ، وللبعير القارب ، وللرجل الكاهل . وللحمار السيبا . و« الميل » جمع أميل ، وهو الذى لا يثبت على ظهر فرسه . والقدم : جمع أقدام ، وهو الثيم الضعيف . أوجع قدم بالسكون بمناء . وضمير « جالوا » للقوم ، لجرى الخبر على غير ما هو له . أى إذا الخيل جالوا هم في سروجها وما يبرز الضمير هكذا ، لأن عمل وجوبه في الصفة لا الفعل ، أو لأن اللبس ، لأن الواو ضمير العقلاء . فاقيل : إن « إذا » لاتضاف إلا للجملة الفعلية ، فالخيل فاعل فعل محذوف . أوجب بمنع أنها لاتضاف إلا للفعلية ، وبأن ذلك في الشرطية لا الظرفية كما هنا . وقيل : يحتمل على بعد أن الخيل بمعنى الفرسان ، وضمير كوائبها للأفراس المدلول عليها بذكر الخيل : أى قوم إذا الفرسان جالوا في كوائب الأفراس ، فوارس الخيل ، ثابتون عليها لا مائلون عن ظهورها ، ولا عاجزون كأن أيديهم منقولة .

وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا آجْتَبَيْتُمَا قُلُوبَ الْبَنَاتِ أَتَتَّبِعُ مَا يَدْعُوهُنَّ إِلَى الْغَايَةِ وَإِذَا قُلُوبُهُنَّ فَتَتْهُنَّ أَعْتَبَيْتُمَا قُلُوبَهُنَّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُنَّ لَا يَعْلَمُونَ (٢٠٣)

اجتبي الشيء ، بمعنى جباه لنفسه : أى جمعه ، كقولك : اجتمعوا ، أو جبي إليه فاجتباها : أى أخذه ، كقولك : جلست إليه العروس فاجتلاها ، ومعنى ﴿لولا اجتبيتها﴾ هلا اجتمعتا ، افتعالا من عند نفسك ؛ لأنهم كانوا يقولون : (إن هذا إلا إفك مفترى) أو هلا أخذتها منزلة عليك مقترحة ؟ ﴿قل إنما أتبع ما يوحى إلى من ربي﴾ ولست بمفتعل للآيات ، أو لست بمقترح لها ﴿هذا بصائر﴾ هذا القرآن بصائر ﴿من ربكم﴾ أى حجج بينة يعود المؤمنون بها بصراء بعد العمى ، أو هو بمنزلة بصائر القلوب .

وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤)

﴿وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا﴾ ظاهره وجوب الاستماع والإنصات وقت قراءة القرآن فى صلاة وغير صلاة . وقيل : كانوا يتكلمون فى الصلاة فزلت ، ثم صار سنة فى غير الصلاة أن ينصت القوم إذا كانوا فى مجلس يقرأ فيه القرآن . وقيل معناه : وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له . وقيل : معنى فاستمعوا له : فاعملوا بما فيه ولا تتجاوزوه .

وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ

وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥)

﴿واذكر ربك فى نفسك﴾ هو عام فى الازكار من قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتلهيل وغير ذلك ﴿تضرعاً وخيفة﴾ متضرعاً وخائفاً ﴿ودون الجهر﴾ ومتكلاً كلاماً دون الجهر ، لأن الإخفاء أدخل فى الإخلاص وأقرب إلى حسن التفكير ﴿بالغدو والآصال﴾ لفضل هذين الوقتين . أو أراد الدوام . ومعنى بالغدو : بأوقات الغدو ، وهى الغدوات . وقرئ : والإيصال ، من أصل إذا دخل فى الإصيل ، كأقصر وأعتم<sup>(١)</sup> وهو مطابق للغدو ولا تكن من الغافلين من الذين يغفلون عن ذكر الله ويلهون عنه .

إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ

وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

(١) قوله «كأقصر وأعتم» أفسر : أى دخل فى القصر أى الشئ ، وأعتم : دخل فى العتمة ، أى وقت العشاء . أنافه الصحاح . (ع)

(إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ) هم الملائكة صلوات الله عليهم . ومعنى (عند) دنو الزلفة ، والقرب من رحمة الله تعالى وفضله ، لتوفرهم على طاعته وابتغاء مرضاته (وله يسجدون) ويختصونه بالعبادة لا يشركون به غيره ، وهو تعريض بمن سواهم من المكلفين .  
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس ستراً ، وكان آدم شفيعاً له يوم القيامة ، <sup>(١)</sup>

## سورة الأنفال

مدينة ، [إلا من آية ٣٠ إلى غاية آية ٣٦ فمكية]

وهي خمس وسبعون آية [نزلت بعد البقرة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بَسَّأُوكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ①  
إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ②  
الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ③  
أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ④

النفل : الغنيمة ، لأنها من فضل الله تعالى وعطائه . قال لييد :

\* إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرٌ قُلْ \* ②

(١) ذكرت أسانيد في تفسير آل عمران وسيأتي في آخر الكتاب .

(٢) إِنْ تَقَوَّى رَبَّنَا خَيْرٌ قُلْ وبإذن الله ربِّي وعجل

أحمد الله فلا تد له بيديه الخير ماشاء فصل

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم اليال ومن شاء أضل

للبيدين ربيعة العامري ، شبه الثواب الذي وعده الله عباده على التقوى بالنفل - بالتحريك - وهو ما يعده الامام ==

والنفل ما ينفله الغازي ، أى يعطاه زائداً على سهمه من المغنم ، وهو أن يقول الإمام تحريضاً على البلاء في الحرب : من قتل قتيلاً فله سلبه . أو قال لسرية : ما أصبتم فهو لكم ، أو فلكم نصفه أو ربعه . ولا يخمس النفل ، ويلزم الإمام الوفاء بما وعد منه . وعند الشافعي رحمة الله في أحد قوليهِ : لا يلزم . ولقد وقع الاختلاف بين المسلمين في غنائم بدر ، وفي قسمتها ، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف تقسم ، ولما الحكم في قسمتها ؟ أللهاجرين أم للأنصار ؟ أم لهم جميعاً ؟ فقيل له : قل لهم هي لرسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> . وهو الحاكم فيها خاصة يحكم فيها ما يشاء ، ليس لأحد غيره فيها حكم . وقيل شرط لمن كان له بلاء في ذلك اليوم أن ينفله ، فتسارع شبانهم حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين ، فلما يسر الله لهم الفتح اختلفوا فيما بينهم وتنازعوا ، فقال الشبان : نحن المقاتلون ، وقال الشيوخ والوجوه الذين كانوا عند الرايات : كنا ردها لكم وفئة تتحاذون إليها إن انهزمتم <sup>(٢)</sup> . وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : المغنم قليل والناس كثير : وإن تعط هؤلاء ما شرطت لهم حرمت أصحابك . فزلت . وعن سعد بن أبي وقاص : قتل أخى عمير يوم بدر ، فقتلت به سعيد بن العاص <sup>(٣)</sup> . وأخذت سيفه فأعجبني ، فحُثت به إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقلت : إن الله قد شفى صدرى من المشركين ، فهب لى هذا السيف فقال : ليس هذا لى ولا لك ، اطرحه فى القبض <sup>(٤)</sup> فطرحته وبى ما لا يعمله إلا الله تعالى من قتل أخى وأخذ سلبى ، فما جاوزت إلا قليلاً حتى جلعنى رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وقد أنزلت

== المجاهد تحريضاً على اقتحام الحرب فاستعار النفل له على طريق التصريحية وأخبر به عن التقوى لأنماسيه . ويجوز استعارة النفل للتقوى بجامع النفع ، وبإذن الله وتسهيله . روى : أى بطئ . وعجل : أى سرعتى ، لحذفت بإضافة الوزن ، فلا ند : أى لا مثل له ، يديه : أى بقدرته التى هى كالألة فى أعماله تعالى كاليدى لأفعالنا . ويحتمل أنه شبه خزانته سبحانه باليد فيها شئ ، لمولة تصرفه فيها فيها واختصاصه به ، قالبا . بمعنى فى . وتثنية اليد للبالغة فى التشبيه . ولا مانع من جعله ترشيحاً للاستعارة على الوجهين . « ماشاء فعل » أى ماأراد فعله ، وبين ذلك بقوله « من هداه طرق الخير اهتدى » حتا حال كونه طيب الشأن . ومن شاء إضلاله أضله حتا ، أى تركه ونفسه ومنه لطفه ، حتى يضل حال كونه كاسف البال أى حزين القلب فى العاقبة ، فهي حال منتظرة « أوسىء الحال والشأن » وهذا محذوف معلوم من المقابلة بما قبله .

(١) أخرجه أحمد وإسحاق وابن حبان والحاكم من حديث أبى أمامة عن عبادة بن الصامت . قال : خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم فشهدنا معه بدرا . فالتقى الناس . فهزم الله العدو . فذكر الحديث فى اختلافهم فى قسمة الغنائم . قال : فزرت ويسألونك عن الأنفال - الآية . فقسمها النبي صلى الله عليه وسلم بين المسلمين .

(٢) أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان والحاكم من رواية دأود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أتى مكان كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا » . فتسارع إليه الشبان وثبت الشيوخ تحت الرايات - الحديث . قلت : وأما قوله « حتى قتلوا سبعين وأسروا سبعين » فليس فى هذا الحديث .

(٣) (قوله فقتلت به سعيد بن العاص) فى حواشي البيضاوى : أنه العاص بن سعيد . (ع)

(٤) قوله « فى القبض » القبض - كسب - : المال المقبوض . (ع)



سورة الأنفال، فقال: يا سعد، إنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فاذهب فخذ<sup>(١)</sup> وعن عبادة بن الصامت: نزلت فينا يامعشر أصحاب بدر حين اختلفنا في النفل وسامت فيه أخلاقنا، فبزع الله من أيدينا لجعله لرسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، فقسمه بين المسلمين على السواء، وكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله وإصلاح ذات البين<sup>(٢)</sup>. وقرأ ابن محيصن: يسألونك عن النفل، بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام، وإدغام نون عن في اللام: وقرأ ابن مسعود: يسألونك الأنفال، أى يسألك الشبان ما شرطت لهم من الأنفال. فان قلت: ما معنى الجمع بين ذكر الله والرسول في قوله ﴿قل الأنفال لله والرسول﴾؟ قلت: معناه أن حكمها مختص بالله ورسوله، يأمر الله بقسمتها على ما تقتضيه حكمته ويمثل الرسول أمر الله فيها، وليس الأمر في قسمتها مفوضا إلى رأى أحد، والمراد: أن الذى اقتضته حكمه الله وأمر به رسوله أن يراسى المقاتلة المشروط لهم التنفيل الشيوخ الذين كانوا عند الرايات، فيقاميهم على السوية ولا يستأثروا بما شرط لهم، فإنهم إن فعلوا لم يؤمن أن يقدح ذلك فيما بين المسلمين من التحاب والتصافى ﴿فاتقوا الله﴾ في الاختلاف والتخاصم، وكونوا متحدين متآخين في الله ﴿وأصلحوا ذات بينكم﴾ وتآسوا وتساعدوا فيما رزقكم الله وتفضل به عليكم. وعن عطاء: كان الإصلاح بينهم أن دعاهم وقال: اقسما غنائمكم بالعدل، فقالوا: قد أكلنا وأنفقنا، فقال: ليرد بعضكم على بعض. فان قلت: ما حقيقة قوله (ذات بينكم)؟ قلت: أحوال بينكم، يعنى ما بينكم من الأحوال، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق، كقوله (بذات الصدور) وهى مضمراتها. لما كانت الأحوال ملازمة للبين قيل لها: ذات البين، كقولهم: اسقنى ذا إنائك، يريدون ما فى الإناء من الشراب. وقد جعل التقوى وإصلاح ذات البين وطاعة الله ورسوله من لوازم الإيمان وموجباته، ليعلمهم أن كمال الإيمان موقوف على التوفر عليها. ومعنى قوله ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ إن كنتم كاملي الإيمان. واللام فى قوله ﴿إنما المؤمنون﴾ إشارة إليهم. أى إنما الكاملو الإيمان من صفتهم كيت وكيت. والدليل عليه قوله (أولئك هم المؤمنون حقا). ﴿وجلت قلوبهم﴾ فزعت. وعن أم الدرداء: الوجل فى القلب كاحتراق السعفة<sup>(٣)</sup>، أما تجده قشعريرة؟ قال: بلى، قالت: فادع الله فإن الدعاء يذهب. يعنى فزعت لذكره استعظاما له، وتهيبا من جلاله وعزته

(١) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وأبو شيبه وأبو عبيد فى الأموال: وسعيد ابن منصور كلهم قال: حدثنا أبو معاوية عن الشيباني عن محمد بن عبيد بن أبي عون عنه قال أبو عبيد: كذا يقول: سعيد بن العاصى. والصواب العاصى بن سعيد. وفى روايتهم فقلت سعيد بن العاصى لم يقولوا به.

(٢) أخرجه أحمد وإسحاق والطبرى من طريق ابن إسحاق عن عبد الرحمن عن الحارث عن سليمان بن مكحول. عن أبي أمامة عنه به.

(٣) قوله «كاحتراق السعفة» أى غصن النخلة، كما فى الصحاح. (ع)

سلطانه وبطشه بالعصاة وعقابه ، وهذا المذكور خلاف الذكر في قوله (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) لأن ذلك ذكر رحمته ورأفته وثوابه . وقيل : هو الرجل يريد أن يظلم أو يهيم بمعضية فيقال له : اتق الله فينزع . وقرئ : وجلت ، بالفتح ، وهى لغة نحو «وبق» في «وبق»<sup>(١)</sup> . وفي قراءة عبد الله : فرقت ﴿زادتهم إيماناً﴾ ازدادوا بها يقيناً وطمأنينة في نفس . لأن تظاهر الأدلة أقوى للدلول عليه وأثبت لقدمه ، وقد حمل على زيادة العمل . وعن أبي هريرة رضى الله عنه : الإيمان سبع وسبعون شعبة ، أعلاها : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها : إمالة الأذى عن الطريق ، والحياة شعبة من الإيمان<sup>(٢)</sup> . وعن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه : إن للإيمان سنناً وفرائض وشرائع ، فمن استكملها استكمل الإيمان ، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ ولا يفوضون أمورهم إلى غير ربهم ، لا يخشون ولا يرجون إلا إياه . جمع بين أعمال القلوب من الخشية والإخلاص والتوكل ، وبين أعمال الجوارح من الصلاة والصدقة ﴿حقاً﴾ صفة للبصير المحذوف ، أى أولئك هم المؤمنون إيماناً حقاً ، أو هو مصدر مؤكد للجملة التى هى ( أولئك هم المؤمنون ) كقولك : هو عبد الله حقاً ، أى حق ذلك حقاً . وعن الحسن أن رجلاً سأله : مؤمن أنت ؟ قال : الإيمان إيمانان ، فإن كنت تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والجنة والنار والبعث والحساب ، فأنا مؤمن . وإن كنت تسألنى عن قوله (إنما المؤمنون) فوالله لا أدرى أنهم أنا أم لا . وعن الثورى : من زعم أنه مؤمن بالله حقاً ، ثم لم يشهد أنه من أهل الجنة ، فقد آمن بنصف الآية . وهذا إلزام منه ، يعنى كما لا يقطع بأنه من أهل ثواب المؤمنين حقاً ، فلا يقطع بأنه مؤمن حقاً ، وبهذا تعلق من يستثنى في الإيمان . وكان أبو حنيفة رضى الله عنه ممن لا يستثنى فيه . وحكى عنه أنه قال لقتادة : لم تستثنى في إيمانك ؟ قال : أتباعاً لإبراهيم عليه السلام في قوله (والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين) فقال له : هلا اقتديت به في قوله (أولم تؤمن قال بلى) ؟ ﴿درجلك﴾ شرف وكرامة وعلو منزلة ﴿ومغفرة﴾ وتجاوز لسيئاتهم ﴿ورزق كريم﴾ نعيم الجنة . يعنى لهم منافع حسنة دائمة على سبيل التعظيم ، وهذا معنى الثواب .

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿٥﴾

(١) قرله «نحو وبق في وبق ... الخ» وبق : أى هلك . وفرقت : خافت . (ع)

(٢) أخرجه مسلم وأصحاب السنن وابن حبان برواية أبي صالح عن أبي هريرة . وهو في البخارى

﴿ كما أخرجك ربك ﴾ فيه وجهان <sup>(١)</sup> أحدهما : أن يرتفع محل الكاف على أنه خبر مبتدأ محذوف تقديره . هذه الحال كحال إخراجك . يعني أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل الغزاة ، مثل حالهم في كراهة خروجك للحرب . والثاني : أن ينتصب على أنه صفة مصدر الفعل المقدر في قوله (الانفال لله والرسول) أي الانفال استقرت لله والرسول ، وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخراج ربك إياك من بيتك وهم كارهون . و ﴿ من بيتك ﴾ يريد بيته بالمدينة ، أو المدينة نفسها ، لأنها مهاجرة ومسكنه ، فهي في اختصاصها به كاختصاص البيت بساكنه ﴿ بالحق ﴾ أي إخراجاً ماتبساً بالحكمة والصواب الذي لا محيد عنه ﴿ وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون ﴾ في موضع الحال ، أي أخرجك في حال كراهتهم ، وذلك أن عير قريش أقبلت من الشام فيها تجارة عظيمة <sup>(٢)</sup> معها أربعون راكباً ، منهم أبو سفيان وعمر بن العاص وعمر بن هشام ، فأخبر جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبر المسلمين ، فأعجبهم تلقى العير لكثرة الخير وقلة القوم ، فلما خرجوا بلغ أهل مكة خبر خروجهم ، فنادى أبو جهل فوق الكعبة : يا أهل مكة التجاء النجاء على كل صعب وذلول ، غيركم أموالكم ، إن أصابها محمد لن تفلحوا بعدها أبداً ، وقد رأت أخت العباس بن عبد المطلب رؤى وافقات لأخيها : إنى رأيت عجبا رأيت كأن ملكاً نزل من السماء فأخذ صخرة من الجبل ثم حلق بها فلم يبق بيت من بيوت مكة إلا أصابه حجر من تلك الصخرة . فحدث بها العباس فقال أبو جهل : ما يرضى رجالهم أن يتبنوا حتى تتبنا نساؤهم ، فخرج أبو جهل بجميع أهل مكة وهم النفير . في المثل السائر : لا في العير ولا في النفير ، فقيل له : إن العير أخذت طريق الساحل ونجت ، فارجع بالناس إلى مكة ، فقال : لا والله لا يكون ذلك أبداً حتى ننحر الجزور ، ونشرب الخمر ، ونقيم القينات والمعازف بيدر ، فيتسامع جميع العرب بمنخرجنا ، وإن محمد لم يصب العير ، وإنا قد أععضناه <sup>(٣)</sup> ، فضى

(١) قال محمود : وفي ذلك وجهان ، أحدهما : أن يرتفع محل الكاف ... الخ ، قال أحمد : وكان جدى أبو العباس أحمد الفقيه الوزير رحمه الله يذكر في معنى الآية وجهاً أوجه من هذين ، وهو أن المراد تشبيه اختصاصه عليه السلام بالانفال ، وتفويض أمرها إلى حكمه من حيث الإثابة والجزاء ، بإخراجه من بيته مطيعاً لله تعالى سامعاً لأمره راضياً بحكمه على كراهة المؤمنين لذلك في الطاعة ، فشيء الله تعالى ثوابه بهذه المزية بطاعته المرضية ، فكانت طاعته الثابتة في نوع الطاعات ، فكذلك بلغت إثابة الله له الثابتة في جنس الثوابات . وجماع هذا المعنى هو الإشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام «الأجر على قدر النصب» ولك على هذا المعنى أن تجمل الكاف مرفوعة ومنهوبة على حسب التقدير ، والله الموفق .

(٢) هذه القصة منسوبة من سيرة ابن هشام إلا قوله «إن في أهل العير عمرو بن هشام فان عمرو بن هشام هو أبو جهل ولم يكن في العير ، وإنما كان في النفير وأخرجه الطبري من قول ابن إسحاق ، وبعبته عن ابن عباس وعن عروة وعن السدي بتقديم وتأخير وزيادة ونقص وفي مغازي الواقدي عن محمود بن ليبيد بعضه . وعن حميد بن المسيب بعضه .

(٣) قوله «إنا قد أععضناه» في الصحاح : أععضته الشيء فعضته . وفي الحديث «فأعضوه بن أبيه» ويقال : =

بهم إلى بدر - وبدر ماء كانت العرب تجتمع فيه لسوقهم يوما في السنة - فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد، إن الله وعدكم إحدى الطائفتين: إما العير، وإما قرىشا، ماستشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه وقال: ماتقولون: إن القوم قد خرجوا من مكة على كل صعب وذلول، فالعير أحب إليكم أم النفير؟ قالوا: بل العير أحب إلينا من لقاء العدو، فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم: ثم ردّد عليهم فقال: إن العير قد مضت على ساحل البحر، وهذا أبو جهل قد أقبل، فقالوا يارسول الله، عليك بالعير ودع العدو، فقام عند غضب النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فأحسنا، ثم قام سعد بن عباد فقال: انظر أمرك فامض. فوالله لو سرت إلى عدن أبين<sup>(١)</sup> ماتخلف عنك رجل من الأنصار، ثم قال المقداد بن عمرو يارسول الله، امض لما أمرك الله، فإننا معك حيثما أحببت لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون، ولكن: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، مادامت عين منا تطرف، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: أشيروا علي أيها الناس وهو يريد الأنصار، لأنهم قالوا له حين بايعوه على العقبة: إنا برآء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمامنا، نمنعك عما تمنع منه آبائنا ونساءنا، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يتخوف أن لا تكون الأنصار لا ترى<sup>(٢)</sup> عليهم نصرته إلا على عدوّ دهمه بالمدينة، فقام سعد بن معاذ فقال: لكأنك تريدنا يارسول الله؟ قال: أجل، قال: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهدونا ومواثيقنا على السمع والطاعة، فامض يارسول الله لما أردت، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا إنا لصبر عند الحرب، صدق عند اللقاء، ولعل الله يريك منا ما تقرّ به عينك، فسر بنا على بركة الله، ففرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وبسطه قول سعد، ثم قال: سيروا على بركة الله وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم. وروى أنه قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين فرغ من بدر: عليك بالعير ليس

== أعرضته سبي، أي ضربته به. وأعرض القوم. أكلت إيلهم العرض، وهو بالضم عاف الأمصار، وبالكسر الشوك الصغير. (ع)

- (١) قوله «إلى عدن أبين» في الصحاح: أبين اسم رجل نسب إليه عدن، فقيل: عدن أبين. (ع)  
 (٢) قوله «يتخوف أن لا تكون الأنصار لا ترى» لعله «أن تكون» أوله «الأنصار ترى» وبالجملة فأحد الحرفين يعني عن الآخر. (ع)

دونها شيء، فناداه العباس وهو في وثاقه: لا يصلح<sup>(١)</sup> فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: لم؟ قال: لأن الله وعدك إحدى الطائفتين. وقد أعطاك ما وعدك، وكانت الكراهة من بعضهم لقوله (وإن فريقاً من المؤمنين لكارهون).

يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ

### يَنْظُرُونَ<sup>(٦)</sup>

والحق الذي جادلوا فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: تلقى النفير، لإيثارهم عليه تلقى العير (بعد ما تبين) بعد إعلام رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنهم ينصرون. وجداهم: قولهم ما كان خروجنا إلا للعير، وهلاقت لنا لنستعد ونتأهب؟ وذلك لكراهم القتال. ثم شبه حالهم في فرط فرعهم ورعبهم وهم يسار بهم إلى الظفر والغنيمة، بحال من يعتل إلى القتل<sup>(٢)</sup> ويساق على الصغار إلى الموت المتيقن، وهو مشاهد لأسبابه، ناظر إليها لا يشك فيها. وقيل: كان خوفهم لقلة العدد، وأنهم كانوا رجالاً. وروى أنه ما كان فيهم إلا فارسان.

وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ

تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ<sup>(٧)</sup>

(إذ) منصوب بإضمار اذكر. و﴿أنها لكم﴾ بدل من إحدى الطائفتين. والطائفتان: العير والنفير. ﴿غير ذات الشوكة﴾ العير، لأنه لم يكن فيها إلا أربعون فارساً، والشوكة كانت في النفير لعددهم وعدتهم: والشوكة: الحدة مستعارة من واحدة الشوك. ويقال: شوك القنا لشباها<sup>(٣)</sup>. ومنها قولهم: شائك السلاح، أي تتمنون أن تكون لكم العير، لأنها الطائفة التي لاحدة لها ولا شدة، ولا تريدون الطائفة الأخرى ﴿أن يحق الحق﴾ أن يثبت ويعليه ﴿بكلماته﴾ بآياته المنزلة في محاربة ذات الشوكة، وبما أمر الملائكة من نزولهم للنصرة، وبما قضى من أسرهم وقتلهم وطرحهم في قليب بدر. والدابر الآخر: فاعل من دبر. إذا أدبر. ومنه دابة الطائر. وقطع الدابر عبارة عن الاستئصال، يعني أنكم تريدون الفائدة العاجلة وسفاسف

(١) أخرجه الترمذي وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والبزار وابن حبان والحاكم من رواية إسرائيل عن سمك عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) قوله بحال من يعتل إلى القتل، أي يجذب جذبا عنيفا. أفاده الصحاح. (ع)

(٣) قوله وشوك القنا لشباها، شبه كل شيء: حد طرفه، والجمع شبا وشبوات، كذا في الصحاح. وشباها

جمع مضاف لضمير القنا. (ع)

الأمور<sup>(١)</sup> وأن لا تلقوا ما يرزؤكم في أبدانكم وأحوالكم<sup>(٢)</sup> والله عز وجل يريد معالي الأمور، وما يرجع إلى عمارة الدين، ونصرة الحق، وعلو الكلمة، والفوز في الدارين. وشتان ما بين المرادين. ولذلك اختار لكم الطاقة ذات الشوكة، وكسر قوتهم بضعفكم، وغلب كثرتهم بقلبتكم، وأعزكم وأذهم، وحصل لكم مالا تعارض أناة العير وما فيها. وقرئ: بكلمته، على التوحيد.

### أَوْحَى الْحَقَّ وَيُبْطِلُ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

فإن قلت: بهم يتعلق قوله ﴿ليحق الحق﴾؟ قلت: بمحذوف تقديره: ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك، ما فعله إلا لها. وهو إثبات الإسلام وإظهاره، وإبطال الكفر وحقه. فإن قلت: أليس هذا تكريراً؟ قلت: لا، لأن المعنيين متباينان، وذلك أن الأول تمييز بين الإرادتين وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لهم ونصرتهم عليها، وأنه مانصرهم ولا خذل أولئك إلا لهذا الغرض الذي هو سيد الأغراض. ويجب أن يقدر المحذوف متأخراً حتى يفيد معنى الاختصاص فينطبق عليه المعنى: وقيل: قد تعلق يقطع.

إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ أَنِّي مُّمَدِّدٌ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ

### مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾

فإن قلت: بهم يتعلق ﴿إذ تستغيثون﴾؟ قلت: هو بدل من (إذ يعدكم) وقيل بقوله (ليحق الحق ويبطل الباطل) واستغاثتهم أنهم لما علموا أنه لا بد من القتال، طفقوا يدعون الله ويقولون: أي ربنا انصرنا على عدوك، يا غياث المستغيثين أغثنا. وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى المشركين وهم ألف، وإلى أصحابه وهم ثلاثمائة، فاستقبل القبلة ومد يديه يدعو: اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض - فما زال كذلك حتى سقط رداؤه فأخذه أبو بكر رضي الله عنه فألقاه على منكبيه ولزمه من ورائه، وقال: يا بني الله كفك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك<sup>(٣)</sup> (أنى

(١) قال محمود: «يعنى أنكم تريدون العاجلة وسفاسف الأمور... الخ» قال أحمد: والتحقيق في التخيير بين الكلامين أن الأول ذكر الإرادة فيه مطلقة غير مقيدة بالواقعة الخاصة، كأنه قيل: وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم، ومن شأن الله تعالى إرادة تحقيق الحق وتحقيق الكفر على الإطلاق، ولإرادته أن يحق الحق ويبطل الباطل خصكم بذات الشوكة، فبين الكلامين عموم وخصوص، وإطلاق وتقييد. وفي ذلك ما لا يخفى من المبالغة في تأكيد المعنى بذكره على وجهين: إطلاق، وتقييد. والله أعلم.

(٢) قوله «وأحوالكم» لعله وأموالكم. (ع)

(٣) أخرجه مسلم من رواية ابن عباس عن عمر رضي الله عنه.

مدمكم) أصله بأنى مدمكم ، فحذف الجار وسلط عليه استجاب فنصب محله . وعن أبي عمرو أنه قرأ (إني مدمكم) بالكسر ، على إرادة القول ، أو على إجراء استجاب مجرى (قال) لأن الاستجابة من القول . فإن قلت : هل قاتلت الملائكة يوم بدر ؟ قلت : اختلف فيه ، فقيل : نزل جبريل في يوم بدر في خمسمائة ملك على الميمنة وفيها أبو بكر ، وميكائيل في خمسمائة على الميسرة وفيها علي بن أبي طالب في صور الرجال ، عليهم ثياب بيض وعمامم بيض وقد أرخوا أذنانها بين أكتافهم . فقالت . وقيل : قاتلت يوم بدر ولم تقاتل يوم الأحزاب ويوم حنين . وعن أبي جهل أنه قال لابن مسعود : من أين كان ذلك الصوت الذي كنا نسمع ولا نرى شخصا ؟ قال : من الملائكة ، فقال أبو جهل : هم غلبونا لا أتم . وروى أن رجلا من المسلمين بينما هو يشد في أثر رجل من المشركين : إذ سمع صوت ضربة بالسوط فوقه ، فنظر إلى المشرك قد خر مستلقيا وشق وجهه ، فحدث الأنصاري رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : صدقت ذاك من مدد السماء <sup>(١)</sup> . وعن أبي داود المازني : تبعت رجلا من المشركين لأضربه يوم بدر فوقع رأسه بين يدي قبل أن يصل إليه <sup>(٢)</sup> سيفي ، وقيل لم يقاتلوا وإنما كانوا يكثرون السواد ويثبتون المؤمنين ، وإلا فلك واحد كاف في إهلاك أهل الدنيا كلهم ، فإن جبريل عليه السلام أهلك بريشة من جناحه مدائن قوم لوط ، وأهلك بلاد ثمود قوم صالح بصيحة واحدة . وقرئ (مردفين) بكسر الدال وفتحها ، من قولك : ردفه إذا تبعه . ومنه قوله تعالى (ردف لكم بعض الذي تستعجلون) بمعنى ردفكم . وأردفته إياه : إذا أتبعته . ويقال : أردفته ، كقولك أتبعته ، إذا جئت بعده ، فلا يخلو المكسور الدال من أن يكون بمعنى متبعين ، أو متبعين ، فإن كان بمعنى متبعين <sup>(٣)</sup> فلا يخلو من أن يكون بمعنى : متبعين بعضهم بعضاً ، أو متبعين بعضهم لبعض ، أو بمعنى : متبعين لإياهم المؤمنين . أى يتقدمونهم فيتبعونهم أنفسهم ، أو متبعين لهم يشيعونهم ويقدمونهم بين أيديهم وهم على ساقهم ، ليكونوا على أعينهم وحفظهم . أو بمعنى متبعين أنفسهم ملائكة آخرين . أو متبعين غيرهم من الملائكة : ويعضد هذا الوجه قوله تعالى في سورة آل عمران (ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) . (بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) ومن قرأ (مردفين) بالفتح فهو بمعنى متبعين أو متبعين . وقرئ : مردفين ، بكسر الراء وضمها وتشديد الدال : وأصله مرتدفين ، أى مترادفين أو متبعين ، من اردفه ، فأدغمت تاء الافتعال

(١) هذا طرف من حديث ابن عباس رضى الله عنهما في الذي قبله .

(٢) أخرجه ابن إسحاق في المغازي : حدثني أبي عن رجال من بني مازن عن أبي داود المازني - فذكره : ومن طريقه أخرجه إسحاق والطبري وغيرهما .

(٣) قوله (فإن كان بمعنى متبعين) يقرأ هذا بالتسكين ، ولم يذكر مقابله وهو ما كان بمعنى متبعين بالتشديد . (ع)

في الدال ، فالتقى ساكنان فخرت الراء بالكسر على الاصل ، أو على إتباع الدال . وبالضم على إتباع الميم . وعن السدي : بألف من الملائكة . على الجمع ليوافق ما في سورة آل عمران . فإن قلت : فبم يعتذر لمن قرأ على التوحيد ولم يفسر المردفين بإرداف الملائكة ملائكة آخرين ، والمردفين بارتدافهم غيرهم ؟ قلت : بأن المراد بالألف من قاتل منهم . أو الوجوه منهم الذين من سواهم أتباع لهم .

وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

فإن قلت : الإلام يرجع الضمير في ﴿وما جعله﴾ ؟ قلت : إلى قوله (أنى مدكم) لأن المعنى : فاستجاب لكم بإمدادكم . فإن قلت : ففيم قرأ بالكسر ؟ قلت : إلى قوله (أنى مدكم) لأنه مفعول القول المضمر فهو في معنى القول . ويجوز أن يرجع إلى الإمداد الذى يدل عليه مدكم ﴿إلا بشرى﴾ إلا بشارة لكم بالنصر ، كالتسكينة لبني إسرائيل ، يعنى أنكم استغنتم ونصر عتم قتلتم وذلتم ، فكان الإمداد بالملائكة بشارة لكم بالنصر ، وتسكيناً منكم ، وربطاً على قلوبكم ﴿وما النصر إلا من عند الله﴾ يريد ولا تحسبوا النصر من الملائكة ، فإن الناصر هو الله لكم وللملائكة . أو وما النصر بالملائكة وغيرهم من الاسباب إلا من عند الله ، والمنصور من نصره الله .

إِذْ يُغَشِّيكُمُ اللَّعَاسُ أَمَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾

﴿إذ يغشاكم﴾ بدل ثان من ﴿إذ يعدكم﴾ أو منصوب بالنصر ، أو بما في (من عند الله) من معنى الفعل . أو بما جعله الله . أو بإضمار اذكر . وقرئ : يغشيكم بالتخفيف والتشديد <sup>(١)</sup> ونصب اللعاس

(١) قال محمود : « وقرئ » (إذ يغشيكم) بالتخفيف والتشديد ... الخ . قال أحمد : ومثل هذا النظر يجرى عند قوله تعالى (هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً) لأن فاعل الارادة هو الله عز وجل ، وفاعل الحرف والقطع هم ، وقد انتصبا مفعولا لها فالجواب : أنه لما كان الله تعالى إذا أراهم البرق رأوه ، كانوا فاعلين في المعنى وكان المعنى وهو الذى يريكم البرق فثروته خوفاً وطمعاً ، فهذا مثل آية الانفال ، فإن المفعول في المعنى فاعل . وسيلانى مزيد بحث في هذه التسكينة . وقد جرى القلم بتمجيها هنا ، وذلك أن لقائل أن يقول : فاعل يغشى اللعاس إياهم هو الله تعالى ، وهو فاعل الأمانة أيضاً وعالقها وحيث يتجد فاعل الفعل والعلة فيرفع السؤال ويؤول الاشكال على قواعد السنة التى تقتضى نسبة أفعال الخلق إلى الله تعالى على أنه خالقها ومبدعها ، ولورد السؤال أن يقول المعبر أن يكون فاعل الفعل متصفاً بالعلة كما هو متصف بالفعل ، والبارى عز وجل . إن كان خالق الأمانة للعبد وكان بها أمانة فالعبد هو الفاعل اللغوى وإن كان الله تعالى هو الفاعل حقيقة وعقيدة ، وحيث يفتقر السؤال إلى الجواب السالف والله الموفق .



والضمير لله عز وجل . و﴿أمنة﴾ مفعول له . فإن قلت : أما وجب أن يكون فاعل الفعل المعلن والعلة واحداً ؟ قلت : بلى ، ولكن لما كان معنى يغشاكم النعاس . تنسون ، انتصب أمنة على أن النعاس والأمنة لهم . والمعنى : إذ تنسون أمنة بمعنى أمناً ، أى لآمنكم ، و﴿منه﴾ صفة لها : أى أمنة حاصلة لكم من الله عز وجل . فإن قلت : فعلى غير هذه القراءة <sup>(١)</sup> قلت : يجوز أن تكون الأمنة بمعنى الإيمان ، أى ينعمكم إيماناً منه . أو على يغشيكم النعاس فتنسون أمناً ، فإن قلت : هل يجوز أن ينتصب على أن الأمنة للنعاس الذى هو فاعل يغشاكم ؟ أى يغشاكم النعاس لأمنه على أن إسناد الأمن إلى النعاس إسناد مجازى وهو لأصحاب النعاس على الحقيقة ، أو على أنه أنا مكم فى وقت كان من حق النعاس فى مثل ذلك الوقت المخوف أن لا يقدم على غشيانكم ؟ وإنما غشيكم أمنة حاصلة من الله لولاها لم يغشكم على طريقة التثيل والتخييل ؟ قلت : لا تبعد فصاحة القرآن عن احتماله ، وله فيه نظائر ، وقد ألم به من قال :

يَهَابُ النَّوْمُ أَنْ يَغْشَى عُيُونَنَا    نَهَاؤُكَ فَهُوَ نَفَارٌ شَرُّهُ <sup>(٢)</sup>

وقرى (أمنة) بسكون الميم . ونظير ، أمن أمنة ، وحى حياة ونحو ، وأمن أمنة ، ورحم رحمة ، والمعنى : أن ما كان بهم من الخوف كان يمنهم من النوم ، فلما طامن الله قلوبهم وأمنهم رقدوا وعن ابن عباس رضى الله عنه : النعاس فى القتال : أمنة من الله ، وفى الصلاة : وسوسة من الشيطان <sup>(٣)</sup> ﴿وينزل﴾ قرئ بالتخفيف والتثقيل . وقرأ الشعبي : ما ليظهركم به : قال ابن جنى : ما موصولة وصلتها حرف الجر بما جره ، فكأنه قال : ما للظهور . و﴿رجز الشيطان﴾ وسوسته إليهم ، وتخويفه إياهم من العطش . وقيل : الجنابة ، لأنها من تخيله . وقرئ : رجس الشيطان ، وذلك أن إبليس تمثل لهم ، وكان المشركون قد سبقوهم إلى الماء <sup>(٤)</sup> ونزل المسلمون فى كتيب أعفر تسوخ فيه الأقدام على غير ماء ، وناموا فاحتمل أكثرهم ، فقال لهم : أنتم يا أصحاب محمد تزعمون أنكم على الحق وأنكم تصلون على غير وضوء وعلى الجنابة ، وقد عطشتم ، ولو كنتم على حق ما غلبكم هؤلاء على الماء وما ينتظرون بكم إلا أن يجهدكم العطش ، فإذا قطع العطش أعناقكم

(١) عاد كلامه . قال : فإن قلت فعلى غير هذه القراءة قلت كذلك ... الخ . قال أحمد : وجه حسن بشرط الأدب فى إسقاط لفظة التخييل ، وقد تقدمت له أمثالها .

(٢) للزمخشري ، يقول : يخاف النوم أن يغزو عيوننا تخافك فالنوم كثير النفاذ والشرود ، شبه بجحوان يصح منه الخوف على طريق المسكنية . وقوله فهو نفار شرود : تفرغ للترشيح . ونسبة الخوف للعيون مجاز عقل .

(٣) لم أجده عن ابن عباس . والظاهر أنه تحرف وإنما هو ابن مسعود . كذا ذكره الثعلبي . وأخرجه عبد الرزاق والثعلبي . وكذا ابن أبي شيبة والطبراني كلهم من حديث ابن مسعود موقوفا .

(٤) الثعلبي بغير إسناد . وأخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس . ولولا وفى هذا ما ليس فيه وهو عند أبي نعيم والبيهقي فى الدلائل من هذا الوجه .

مشوا إليكم فقتلوا من أحبوا وساقوا بقيتكم إلى مكة ، فحزنوا حزناً شديداً رأشفتموا ، فأنزله الله عز وجل المطر ، فطروا ليلاً حتى جرى الوادى واتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الحياض على عدوة الوادى ، وسقوا الركاب ، واغتسلوا وتوضؤوا ، وتلبد الرمل الذى كان بينهم وبين العدو حتى ثبتت عليه الأقدام ، وزالت وسوسة الشيطان وطابت النفوس . والضمير فى (به) للباء . ويجوز أن يكون للربط ، لأن القلب إذا تمسك فيه الصبر والجراة ثبتت القدم فى مواطن القتال .

إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتَبَتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأَلْنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَآضِرُّوا مِنْهُمْ

### كُلُّ بَنَاتٍ ١٢

(إذ يوحى) يجوز أن يكون بدلاً ثالثاً من (إذ يعدكم) وأن ينتصب يثبت (أنى معكم) مفعول يوحى وقرئ : إنى ، بالكسر على إرادة القول ، أو على إجراء يوحى مجرى يقول ، كقوله (أنى بمدكم) والمعنى : أنى معكم على التثنية فتبتوهم . وقوله (سألتى ... فأضربوا) يجوز أن يكون تفسيراً لقوله (إنى معكم فتبتوا) ولا معونة أعظم من إلقاء الرعب فى قلوب الكفرة ولا تثيت أبلغ من ضرب أعناقهم . واجتماعهما غاية النصر . ويجوز أن يكون غير تفسير ، وأن يراد بالتثيت أن يخطروا بيهلهم ما تقوى به قلوبهم وتصح عزائمهم ونياتهم فى القتال ، وأن يظهروا ما يتيقنون به أنهم ممدون بالملائكة . وقيل : كان الملك يتشبه بالرجل الذى يعرفون وجهه فباتى فيقول : إنى سمعت المشركين يقولون : والله لئن حملوا علينا لننكشفن ، ويمشى بين الصفين فيقول : أبشروا ، فإن الله ناصركم لأنكم تعبدونه وهؤلاء لا يعبدونه . وقرئ (الرعب) بالتثنية (فوق الأعناق) أراد أعالي الأعناق التى هى المذايح ، لأنها مفاصل ، فكان إيقاع الضرب فيها حزا وتطييراً للرؤس . وقيل : أراد الرؤس لأنها فوق الأعناق ، يعنى ضرب الهام . قال :

• وَأَضْرِبْ هَامَةً الْبَطْلَ الْمُسِيحَ \* (١)

\*\*\*

عَشِيَّتُهُ وَهُوَ فِي جَأَوَاءَ بِأَسَلَةٍ عَضْبًا أَصَابَ سَوَاءَ الرُّءُوسِ فَأَنْفَلَقَا (٢)

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة (٤٠٩) فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) وفارس فى غمار الموت منغمس إذا تالى على مكروهة صدقا

غديته وهو فى جأواء بأسلة عضبا أصاب سواء الرأس فانفلقا

للماء بن قيس الكنانى والغمر الماء الكثير فشبه الموت بسيل عظيم على سيل الكناية . والغاروا الانفاس فيه تخييل .

والبنان: الأصابع، يريد الأطراف. والمعنى: فاضربوا المقاتل والشوى، لأن الضرب إما واقع على مقتل أو غير مقتل، فأمرهم بأن يجمعوا عليهم النوعين معاً. ويجوز أن يكون قوله (سألني) إلى قوله (كل بنان) عقيب قوله (فثبتوا الذين آمنوا) تلقيناً للبلازمة ما يثبتونهم به، كأنه قال: قولوا لهم قولي (سألني في قلوب الذين كفروا الرعب) أو كأنهم قالوا: كيف تثبتهم؟ فقيل: قولوا لهم قولي (سألني) فالضاربون على هذا هم المؤمنون.

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ

الْعِقَابِ (١٣) ذَالِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)

(ذلك) إشارة إلى ما أصابهم من الضرب والقتل والعقاب العاجل، ومحل الرفع على الابتداء (بأنهم) خبره، أي ذلك العقاب وقع عليهم بسبب مشاققتهم. والمشاققة: مشتقة من الشق، لأن كلا المتعادين في شق خلاف شق صاحبه، وسنلت في المنام عن اشتقاق المعادة فقلت: لأن هذا في عدوة وذاك في عدوة، كما قيل: المخاصمة والمشاققة، لأن هذا في خصم أي في جانب، وذاك في خصم، وهذا في شق، وذاك في شق. والكاف في (ذلك) لخطاب الرسول عليه السلام، أو لخطاب كل واحد، وفي (ذالك) للكفرة، على طريقة الالتفات. ومحل (ذالك) الرفع على ذالك العقاب، أو العقاب ذالك (فذوقوه) ويجوز أن يكون نصباً على: عليكم ذالك فذوقوه، كقولك: زيداً فاضربه (وأن للكافرين) عطف على ذالك في وجهيه، أو نصب على أن الواو بمعنى مع. والمعنى: ذوقوا هذا العذاب العاجل مع الآجل الذي لكم في الآخرة، فوضع الظاهر موضع الضمير، وقرأ الحسن: وإن للكافرين بالسكس.

بِأَيِّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُوَلُّوهُمْ الْأَذْبَارَ (١٥) وَمَنْ يُوَلَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦)

== ويجوز أن تستعار النهار لأحوال الموت على طريق التصريحية. ويحتمل أن تستعار لجيش ذلك الفارس على طريق التصريحية أيضاً. وأضافه للدوت لأنه ينشأ عنها والانتهاس ترشيح. «إذا تآلى» أي حلف «على مكروهة» أي حرب «صدق» أي بر في يمينه «غشيته» ألحقت به والحال أنه دفي جأواه، أي كتيبة عظيمة اسودت أو اخضرت بكثرة السلاح والدروع، من الجوة مثل الحوة، أو من الجوة مثل الحررة، وهي هي بشرط أن يرهقها سواد. وقيل السواد يرهقه خضرة لصدأ دروعها «باسلة» أي مانعة عابسة. ويجوز أن الجأواه الدرع الصدئة. وعضياً: مفعول غشيته، أي سيفاً قاطعاً، أصاب، أي طلب ونال «سواء» أي وسط الرأس «فانقلب» الرأس أو وسطه، مدح قرنه مع ظفريه به، ليدل على بلوغه غاية الشهادة.

(زحفاً) حال من الذين كفروا . والزحف : الجيش الدم<sup>(١)</sup> الذي يرى لكثرتة كأنه يزحف ، أى يدب ديباً ، من زحف الصبي إذا دب على إسته قليلاً قليلاً ، سمى بالمصدر والجمع زحوف والمعنى : إذا لقيتموهم للقتال وهم كثير جم وأنتم قليل فلا تقفوا ، فضلاً أن تقاتلوهم فى العدد أو تساووهم ، أو حال من الفريقين . أى إذا لقيتموهم متزاحفين هم وأنتم ، أو حال من المؤمنين كأنهم أشعروا بما كان سيكون منهم يوم حنين حين تولوا مدبرين ، وهم زحف من الزحوف اتنى عشر ألفاً ، وتقدمة<sup>(٢)</sup> نهى لهم عن الفرار يومئذ . وفي قوله (ومن يولهم يومئذ) أمانة عليه (إلا متحرفاً لقتال) هو الكفر بعد الفتر ، يخيل عدوه أنه منهزم ثم يعطف عليه ، وهو باب من خدع الحرب ومكايدها (أو متحيزاً) أو منحازاً (إلى فئة) إلى جماعة أخرى من المسلمين سوى الفئة التى هو فيها . وعن ابن عمر رضى الله عنه : خرجت سرية وأنا فيهم فقفروا<sup>(٣)</sup> فلما رجعوا إلى المدينة استحيوا فدخلوا البيوت ، فقلت : يا رسول الله نحن الفرارون ، فقال : بل أنتم العكارون<sup>(٤)</sup> وأنا فقتكم . وانهمز رجل من القادسية ، فأتى المدينة إلى عمر رضى الله عنه فقال : يا أمير المؤمنين هلكت ، فررت من الزحف ، فقال عمر رضى الله عنه : أنا فقتك<sup>(٥)</sup> . وعن ابن عباس رضى الله عنه : إن الفرار من الزحف من أكبر الكبائر . فإن قلت : بم انتصب (إلا متحرفاً) ؟ قلت : على الحال ، وإلا لغو . أو على الاستثناء من المولين ، أى : ومن يولهم إلا رجلاً منهم متحرفاً أو متحيزاً . وقرأ الحسن (دبره) بالسكون ووزن متحيز متفيعل لا متفعل ، لأنه من حاز يحوز ، فبناء متفعل منه متحوز .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ

وَلِيُبَيِّنَ لِلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ صَمِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

لما كسروا أهل مكة وقتلوا وأسروا أقبلوا على التفاوض ، فكان القائل يقول : قتلت

(١) قوله « الجيش الدم » هو العدد الكثير . والدمعة : السواد ، كذا فى الصحاح . (ع)

(٢) قوله « وتقدمة نهى لهم » لعله عطف على المعنى ، أى : إشعاراً وتقدمة نهى . (ع)

(٣) أخرجه أبو داود والترمذى والبخارى فى الأدب المفرد من رواية يزيد بن أبى زياد عن عبد الرحمن بن أبى لى عن عمر رضى الله عنهما . وكذا أخرجه أحمد وإسحاق وابن أبى شبة وأبو دىل والبزار فى مسانيدهم . قال الترمذى : لا نعرفه إلا من رواية يزيد بن أبى زياد .

(٤) قوله « ديل أنتم العكارون » من عكر إذا عطف وكر . أفاده الصحاح . (ع)

(٥) أخرجه ابن أبى شبة من رواية منصور عن إبراهيم . قال : فر رجل فذكره .

وأمرت ، ولما طلعت قريش قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه قريش قد جاءت <sup>(١)</sup> بخيلائها وغرها يكذبون رسلك ، اللهم إني أسألك ما وعدتني ، فأثاه جبريل عليه السلام فقال : خذ قبضة من تراب فارمهم بها ، فقال - لما التقى الجمعان - لعلى رضى الله عنه : أعطيت قبضة من حصاء الوادى ، فرمى بها فى وجوههم وقال : شأته الوجوه ، فلم يبق مشرك إلا شغل بعينيه ، فانهزموا وردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم <sup>(٢)</sup> ، فقيل لهم ﴿ فلم تقتلوه ﴾ والقضاء جواب شرط محذوف تقديره : إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوه ﴿ ولكن الله قتلهم ﴾ لأنه هو الذى أنزل الملائكة وألقى الرعب فى قلوبهم ، وشاء النصر والظفر وقوى قلوبكم ، وأذهب عنها الفزع والجزع ﴿ وما رميت ﴾ أنت يا محمد ﴿ إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ يعنى أن الرمية التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها لما بلغ أثرها إلا ما يبلغه أثر رمى البشر ، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، فأثبت الرمية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها الذى لا تطيقه البشر فعل الله عز وجل ، فكأن الله هو فاعل الرمية على الحقيقة ، وكأنها لم توجد من الرسول عليه الصلاة والسلام أصلاً . وقرئ : ولكن الله

(١) قال محمود : ولما جاءت قريش قال عليه الصلاة والسلام : هذه قريش جاءت .. الخ ، قال أحمد رحمه الله : أوضح مصداق فى التمييز بين الحقيقة والجاز . الأراك تقول للبلد : ليس بحار ، ويصدق عليه مع صدق قولك فيه على سبيل التجوز إنه حار ، فإذا ثبت لك أن من ميزات المجاز صدق سلبه بخلاف الحقيقة ، فافهم أن هذه الآية تكفح وجوه القدرة بالرد ، وذلك أن الله تعالى أثبت الفعل للخلق ونفاه عنهم ، ولا عمل لذلك إلا أن يوثقه لهم مجاز ، والفاعل والخالق حقيقة هو الله تعالى ، فأثبت لهم مجازاً ، ونفاه عنهم حقيقة . وإياك أن ترجع على تنكيس الزمخشري فى تأويل الآية ، فانه نظر أعوج ، وباطل مخالج ، والحق أبلغ ، والله الموفق بكومه .

(٢) قال الطبري : لم يذكر أحد من أئمة الحديث أن هذه الرمية كانت بدر ، ثم حديث سلة بن الأكوع . قال : غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما فذكر القصة ، وهو تعقيب غير مرضى فقد روى الواقدي فى المغازى عن ابن أبي الزهري عن الزهري عن عروة بن الزبير قال : ولما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قريشاً فذكر نحوه إلى قوله : ما وعدتني ، وروى الطبري من وجه آخر عن هشام بن عروة عن عروة قال : ولما ورد رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا قال : فزعموا أنه قال ، هذه قريش قد جاءت بخيلائها وغرها تجادل وتكذب رسولك ، اللهم إني أسألك ما وعدتني . فلما أقبلوا استقبلوا لحنًا فى وجوههم فهزمهم الله تعالى ، وروى الطبري من رواية على بن أبي طلحة قال : «رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده يوم بدر» فقال : يارب إن تهلك هذه الصابة فلن أعبد فى الأرض أبداً . فأمره جبريل فأخذ قبضة من التراب فرمى بها فى وجوههم . فاما من المشركون أحد إلا أصاب عينه ومنخره وفه تراب . فولوا مدبرين ، وعنده أيضاً من طريق أسباط عن السدى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعلى يوم بدر : أعطيت حصاء من الأرض . فنأوله حصاء عليه تراب ، فرمى به فى وجوه القوم ، فلم يبق مشرك إلا دخل فى عينه من ذلك التراب ، ثم ردفهم المسلمون يقتلونهم ويأسرونهم . وأنزل الله ﴿ فلم تقتلوه ﴾ ولكن الله قتلهم - الآية) . وروى الواقدي فى المغازى أيضاً من طريق حكيم بن حزام فى قصة بدر قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخذ كفاً من الحصاء فرمى بها وقال : شأته الوجوه . فابقى منهم أحد إلا امتلاً وجهه وعيناه فانهزم أعداء الله ، والمسلمون يقتلون ويأسرون . وأخرجه الطبري من وجه آخر عن حكيم بن حزام نحوه دون ما فى آخره .

قتلهم . ولكن الله رمى ، بتخفيف ولكن ، ورفع ما بعده ( وإبلى المؤمنين ) ويعطيهم ( بلاء حسن ) عطاء جميلا . قال زهير :

\* فَأَبْلَاهَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُو \* (١)

والمعنى : وللإحسان إلى المؤمنين فعل مافعل ، وما فعله إلا لذلك ( إن الله سميع ) لدعائهم ( عليم ) بأحوالهم .

ذَلِكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨)

( ذلكم ) إشارة إلى البلاء الحسن ، ومحلّه الرفع : أى الغرض ذلكم ( وأن الله موهن ) معطوف على ذلكم . يعنى : أن الغرض إِبْلَاءُ المؤمنين وتوهين كيد الكافرين . وقرئ : موهن ، بالتشديد . وقرئ على الإضافة ، وعلى الأصل الذى هو التنوين والإعمال .

إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا

نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩)

( إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح ) خطاب لأهل مكة على سبيل التهم ، وذلك أنهم حين أرادوا أن ينفروا تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا : اللهم انصر أقرانا للضيف وأوصلنا للرحم وأفكنا للعانى ، إن كان محمد على حق فانصره ، وإن كنا على حق فانصرنا . وروى أنهم قالوا : اللهم انصر أعلی الجندين ، وأهدى الفئتين ، وأكرم الحزبين . وروى أن أبا جهل قال يوم بدر : اللهم أينما كان أجبر وأقطع للرحم فأحنه اليوم . أى فأهلكه . وقيل : ( إن تستفتحوا ) خطاب للمؤمنين ( وإن تنتموا ) خطاب للكافرين ، يعنى : وإن تنتموا عن عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ( فهو خير لكم ) وأسلم ( وإن تعودوا ) لمحاربتة ( نعد ) انصرته عليكم ( وأن الله ) قرئ بالفتح على : ولأن الله معين المؤمنين كان ذلك . وقرئ بالسكسر ، وهذه أوجه . ويعضدها قراءة ابن مسعود : والله مع المؤمنين . وقرئ : ولن يغنى عنكم ، بالياء للفصل .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَتَشْمُ تَسْمَعُونَ (٢٠)

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ

(١) جرى الله بالإحسان مافعلا بكم وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو يقول : كافأ الله بإحسانه إليهما مافعلا بكم من الاحسان . وأبلى : مضمن معنى أعطى . يقال : بلاء الله وأبلاه وأبتلاه ، بمعنى اختبره . والبلاء : ويحى . بمعنى النعمة وبمعنى النعمة كاهنا . وأعطاهما خير نعمته التى يبلوها الناس ويختبرهم بإعطائها

عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ  
وَلَوْ أَتَمَمْتَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾

(ولا تولوا) قرئ بطرح إحدى التاءين وإدغامها ، والضمير في (عنه) لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن المعنى : وأطيعوا رسول الله كقوله : الله ورسوله أحق أن يرضوه ، ولأن طاعة الرسول وطاعة الله شيء واحد (من يطع الرسول فقد أطاع الله) فكان رجوع الضمير إلى أحدهما كرجوعه إليهما ، كقولك : الإحسان والإجمال لا ينفع في فلان . ويجوز أن يرجع إلى الأمر بالطاعة ، أي : ولا تولوا عن هذا الأمر وامثاله وأنتم تسمعون . أو ولا تولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تخالفوه (وأنتم تسمعون) أي تصدقون لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة (ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا) أي ادعوا السماع (وهم لا يسمعون) لأنهم ليسوا بمصدقين فكأنهم غير سامعين . والمعنى : أنكم تصدقون بالقرآن والنبوة ، فإذا توليتم عن طاعة الرسول في بعض الأمور من قسمة الغنائم وغيرها ، كان تصديقكم كلاتصديق ، وأشبه سماعكم سماع من لا يؤمن . ثم قال (إن شر الدواب) أي إن شر من يدب على وجه الأرض . أو إن شر البهائم الذين هم صم عن الحق لا يعقلونه ، جعلهم من جنس البهائم ، ثم جعلهم شرها (ولو علم الله) في هؤلاء الصم البكم (خيرا) أي انتفاعا باللفظ (لأسمعهم) للطف بهم <sup>(١)</sup> حتى يسمعوا سماع المصدقين ، ثم قال (ولو أسمعهم لتولوا) عنه . يعني : ولو لطف بهم لما نفع فيهم اللطف ، فلذلك منعهم ألقافه . أو ولو لطف بهم فصدقوا لارتدوا بعد ذلك وكذبوا ولم يستقيموا ، وقيل : هم بنو عبد الدار بن قصي لم يسلم منهم إلا

(١) قال محمود : يعني : ولو علم الله أن اللطف ينفع في هؤلاء ... الخ . قال أحمد رحمه الله : إطلاق القول بأن الله تعالى يلفظ بالعبد فلا ينفع لطفه مردود ، فإن اللطف هو إهداء الجبل والالطاف به ، واسمه اللطيف من ذلك ، فإذا أسدى الجبل إلى العبد بأن أجمعه إسماع لطيف به ، فذلك الغاية المرجوة ومعنى اللطف به على هذا : أن يخلق في قلبه قبول الحق وحنن الاصفاء إليه والامتداد به ، ولكن لا يتم ذلك على عقيدة الاعتزال والرأى الفاسد في خلق الأفعال ، لأن مقتضاها أن العبد هو الذي يخلق لنفسه قبول الحق والهداية وحسن الاستماع والاصفاء ، وأن الله تعالى لا يشارك العبد في خلق ذلك ، بل الذي ينسب إلى الله تعالى إرادة الهداية من جميع الخلق ، ولا يلزم حصول مراده على العموم - تعالى الله عما يقولون - ثم ولو نزل منزل على هذه القاعدة لما استقام تأويل العجشري أيضا ، فإن حاصله : ولو علم الله فيهم خيرا للفظ بهم ، ولو لطف بهم لما انتفعوا باللفظ ، فيلزم عدم انتفاعهم باللفظ على تقدير علم الله الخير فيهم ، وهذا غير مستقيم لما يلزم عليه من وقوع خلاف المعلوم لله تعالى ، وذلك محال عقلا ، فلا يرتفع الاشكال إلا بتقدير الاسماع الواقع جوابا أولا ، خلاف الاسماع الواقع شرطا ثانيا ، كيلا يتكرر الوسط فيلزم المحال المذكور . وأقرب وجه في اختلاف الاسماعين : أن يراد بالاول : ولو علم الله فيهم خيرا لأسمعهم إسماعا يخلق لهم به الهداية والقبول ، ولو أسمعهم لا على أنه يخلق لهم الامتداد ، بل إسماعا مجردا من ذلك ، لتولوا وهم معرضون . فهذا هو الوجه في تأويل الآية ، والله الموفق .

رجلان : مصعب بن عمير ، وسويد بن حرملة : كانوا يقولون : نحن صم بكم نحمي عما جاء به محمد ، لانسمعه ولا نجيبه ، فقتلوا جميعا بأحد ، وكانوا أصحاب اللواء . وعن ابن جريج : هم المنافقون . وعن الحسن : أهل الكتاب .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا  
أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرَّةِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُكُمْ تُخْشَرُونَ ﴿٢٤﴾

(إذا دعاكم) وحد الضمير كما وحده فيما قبله ، لأن استجابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كاستجابته ، وإنما يذكر أحدهما مع الآخر للتوكيد ، والمراد بالاستجابة . الطاعة والامتثال . وبالندوة : البعث والتحيض . وروى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم مر على باب أبي كعب فناده وهو في الصلاة فجعل في صلاته ثم جاء فقال : ما منعك عن إجابتي ؟ قال : كنت أصلي . قال : ألم تحب فيما أوحى إلي (استجبوا لله وللرسول) قال : لا جرم لا تدعوني إلا أجبتكم<sup>(١)</sup> . وفيه قولان ، أحدهما : إن هذا لما اختص به رسول الله صلى الله عليه وسلم . والثاني أن دعاه كان لأمر لم يحتمل التأخير ، وإذا وقع مثله للصلى فله أن يقطع صلاته (لما يحييكم) من علوم الديانات والشرائع ، لأن العلم حياة ، كما أن الجهل موت . وبعضهم :

لَا تُعْجِبَنَّ الْجَهْلُ حُلَّتَهُ فَذَاكَ مَيِّتٌ وَتَوْبُهُ كَفَنٌ<sup>(٢)</sup>

وقبل لمجاهدة الكفار ، لأنهم لو رفضوها لغلبوهم وقتلوهم ، كقوله (ولكم في القصص حياة) وقيل للشهادة ، لقوله (يل أحياء عند ربهم) . (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) يعني أنه يميتة فتفوته الفرصة التي هو واجدها<sup>(٣)</sup> وهي التمكن من إخلاص القلب ومعالجة أدوائه وعلله ورده سليما كما يريد الله ، فاعتنموا هذه الفرصة ، وأخلصوا قلوبكم لطاعة الله ورسوله (واعلموا أنكم إليه تخشرون) فيثيبكم على حسب سلامة القلوب وإخلاص الطاعة . وقيل :

(١) أخرجه الترمذي والنسائي دون قوله : لا جرم إلى آخره وأخرجه ابن مردويه من الوجه الذي أخرجه منه الترمذي وفي آخره قال «إني لا جرم يارسول الله لا تدعوني إلا أجبتكم وإن كنت أصلي» وفي الباب عن أبي سعيد ابن الحكم ، أخرجه البخاري بغير هذا السياق واقتصر عليه الطبري .

(٢) للرحمشرى ، نهي للجهول عن العجب والخيلاء بقباه ، لأنه كال ميت في عدم النفع وعدم الإدراك ، ويلزم من ذلك أن توبه الذي يعجب به كال كفن ، حيث اشتمل على جسم لا إدراك فيه ولا نفع . والميت هنا بالتخفيف . (٣) قال محمود : «معناه أنه يميتة فتفوته الفرصة التي هو واجدها ... الخ» قال أحمد رحمه الله : نعم ، هذا

عقد أهل السنة الذي استعار لهم لقب المجبرة ، وهو العقد الحق المؤسس على التقوى وتفويض المخلوقات كلها إلى الواحد الحق خالق الخلق ، فإن كان ذلك ظلما فأنا برىء من الطائفة المتسمية بالعديلية ، إصرارا على هذا الرأي الباطل والمعتقد المسجل ، واقع الموفق .



معناه إن الله قد يملك على العبد قلبه فيفسخ عزائمهم ، ويغير نياته ومقاصده ، ويبدله بالحرف أمناً وبالأمن خوفاً وبالذكر نسياناً ، وبالنسيان ذكراً ، وما أشبه ذلك مما هو جاز على الله تعالى . فأما ما يثاب عليه العبد ويعاقب <sup>(١)</sup> من أفعال القلوب فلا ، والمجبرة على أنه يحول بين المرء والإيمان إذا كفر ، وبينه وبين الكفر إذا آمن ، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وقيل معناه : أنه يطلع على كل ما يخطر المرء بباله ، لا يخفى عليه شيء من ضمائره ، فكأنه بينه وبين قلبه . وقرئ : بين المرء ، بتشديد الراء . ووجهه أنه قد حذف الهمزة وألقى حركتها على الراء ، كالحلب ، ثم نوى الوقف على لغة من يقول : مرتت بعمر .

وَأَنْتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ

### شَدِيدُ الْعِقَابِ ٢٥

(فتنة) ذنباً . قيل هو إقرار المنكر بين أظهرهم . وقيل : اقتراق الكلمة . وقيل (فتنة) عذاباً . وقوله : (لا تصيب) لا يخلو من أن يكون جواباً للأمر . أو نهيأ بعد أمر . أو صفة لفتنة ، فإذا كان جواباً ، فالمعنى إن إصابتكم لا تصيب الظالمين منكم خاصة ولسكنها تعمكم وهذا كما يحكى أن علماء بني إسرائيل نهوا عن المنكر تعذيراً <sup>(٢)</sup> فعمهم الله بالعذاب ، وإذا كانت نهيأ بعد أمر فكأنه قيل : واحذروا ذنباً أو عقاباً ، ثم قيل : لا تتعرضوا للظلم فيصيب العقاب أو أثر الذنب وبالله من ظلم منكم خاصة ، وكذلك إذا جعلته صفة على إرادة القول ، كأنه قيل : وانقوا فتنة مقولاً فيها لا تصيب ، ونظيره قوله :

حَتَّىٰ إِذَا جَنَّ الْظُلَامُ وَاخْتَلَطَ جَاؤُا بِمَذْقٍ هَلْ رَأَيْتَ الذُّبَّ قَطُ <sup>(٣)</sup>

(١) قوله «فأما ما يثاب العبد عليه ... الخ» المسئلة هنا من فروع مسألة خلق أفعال العباد الاختيارية ، فتند المعزلة أن المرید الخالق لها هو العبد ، وإذا صح تكليفه لظهور اختياره . وعند أهل السنة أن المرید الخالق لها هو الله تعالى . وإنما صح تكليف العبد لما له فيها من الكسب ، وهو اختيار بعضها على بعض بشهادة الوجدان ، خلافاً للجبرية القائمين بالجبر المحض ، وعمله التوحيد .

(٢) قوله نهوا عن المنكر تعذيراً في الأمر : التقصير فيه أم محاح . (ع)

(٣) بتنا بحسان . ومعزاه يسط . يلحس أذنيه وجنا يمتخط

ما زلت أسعى فيهم وأختبط حتى إذا جن الظلام واختلط

جاءوا بمذق هل رأيت الذيب قط

لأحمد الرجاز . وقيل : إنه للعجاج ، يصف رجلاً بالبلخ . وبات بالقوم : إذا نزل بهم ليلاً . والأط : صوت الجوف . والمعز : محركة ومسكنة . والمعيز ، والأمعز ، والمعزى : خلاف الضأن من الغنم . فهو اسم جمع ، وتأنيث المعزى لغة . والاختباط : تطلب المعروف من غير اعتداء . يقول : نزلنا عند حسان ليلاً ، والحال أن معزاه جائمة هزيلة ، فالأطيط كناية عن الأول ، والامتخط كناية عن الثاني ، ويجوز أن ذلك كناية عن كثرة المعز عنده ، ولبلخه قرام بالمذق بعد مدة كان يمكنه أن يذبح لهم فيها شاة ، وهذا أنسب بما بعده ، وضمر أذنيه يحتمل

أى يمدق مقول فيه هذا القول ، لأنه سمار فيه لون الورقة <sup>(١)</sup> التى هى لون الذئب . ويعضد المعنى الأخير قراءة ابن مسعود : لتصيين ، على جواب القسم المحذوف . وعن الحسن : نزلت فى على وعمار وطلحة والزبير وهو يوم الجمل خاصة . قال الزبير : نزلت فينا وقرأناها زماناً ، وما أرانا من أهلها ، فإذا نحن المعنويون بها . وعن السدى : نزلت فى أهل بدر فاقتتلوا يوم الجمل . وروى وأن الزبير كان يسير النبي صلى الله عليه وسلم يوماً ، إذ أقبل على رضى الله عنه ، فضحك إليه الزبير فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف حبك لعلنى ؟ فقال يارسول الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى أحبه كحبى لوالدى أو أشد حبا . قال : فكيف أنت إذا سرت إليه تقائله ، <sup>(٢)</sup> فإن قلت : كيف جاز أن تدخل النون المؤكدة فى جواب الأمر ؟ قلت : لأن فيه معنى النهى ، إذا قلت : انزل عن الدابة لا تطرحك ، فلذلك جاز لا تطرحك ولا تصيين ولا يحطمنكم . فإن قلت : فما معنى (من) فى قوله (الذين ظلموا منكم) ؟ قلت : التبعض على الوجه الأول ، والتبيين على الثانى ، لأن المعنى : لا تصيينكم خاصة على ظلمكم : لأن الظلم أقيح منكم من سائر الناس <sup>(٣)</sup> .

وَإِذْ كُرِّوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَفَّكُمْ النَّاسُ

== عوده على المعزى لأنه مذكور عند الأكثر ، وبجواز أنه عائد لحسان ، وهو ذم شنيع . وفهم : أى فى حيه . وجن انبياء : طال . والليل : أظلم . والذباب : كثرت أصواته . والظلام : كثرة واختلط وتراكم بعضه فوق بعض بحيث لا يتخلله نور . والمذق : المزج . والمراد به ابن غلوط بماء . وروى : يمدق - بالكسر - : وهو ذلك اللبن . وبرى : جاءوا بصريح ، بمجمة فتنة تحتية فهملة ، بمعنى المذق ، لإلانة رقيق ، وهو هل رأيت ، استفهام تقريرى والجملة صفة للمذق ، أى مذاق مقول فيه ذلك ، والمراد تشبيه المذق بالذئب فى الكدرة ، فكفى بالاستفهام عن ذلك ، لأن من أراد إخطار الشيء بأبالي ورسمه فى الخيال يستفهم عنه ، فكأنه قال له هل رأيت ؟ فقال نعم ، قال : إن اللبن مثله ، لكن حذف هذا كله واستغنى بالاستفهام عنه . وقط : ظرف مبنى على الضم ، وسكن للوقف .

(١) قوله «لأنه سمار فيه لون الورقة» قوله «سمار» هو - بالفتح - لبن رقيق . وتسمير اللبن : ترفيقه بالماء . والورقة : يبيض يضرب إلى سواد وإلى خضرة اه صحاح - (ع)

(٢) لم أجده هكذا وإنما رواه ابن أبى شيبة من طريق الأسود بن قيس حدثني من رأى الزبير يعقص الخيل فتاداه على : يا أبا عبد الله فأقبل حتى التقت أعناق دوابهما فقال له على : أنتدك الله ، أنتدك يوم أناانا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أناجيك فقال : أنتاجيه ؟ والله ليماتلك وهولك ظالم قال : فعرض الزبير وجهه دابته فانصرف «وروى البيهقي فى الدلائل من طريق أبى حرب بن أبى الأسود الدبلى عن أبيه قال : ولما دعا على وأصحابه من طلحة والزبير ودنت الصفوف بعضها من بعض خرج على فتادى : ادعوا لى الزبير فأقبل حتى اختلفت أعناق دوابهما فقال على رضى الله عنهما يازبير ، فهدتك الله ، أنتدك يوم مر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بمكان كذا وكذا فقال : يازبير ، أحب عليا ؟ فقلت : ألا أحب ابن خالى وابن عمى وهل قريبى ؟ قال : أما والله لتقاتلنه وأنت له ظالم ؟ قال : بلى ، ولكننى نسيته وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة قال «لما ولى الزبير يوم الجمل بلغ عليا فقال : لو كان يعلم أنه على حق ما ولى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لقيه فى سقفة بنى ساعدة فقال : أحبه يازبير ؟ قال : وما معنى ؟ قال : فكيف بك إذا قاتلته .

(٣) قوله «وأقيح منكم من سائر الناس» لعله منه . من سائر الناس . (ع)

فَأَوَّاكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

(إذ أنتم) نصبه على أنه مفعول به مذكور لا ظرف: أي اذكروا وقت كونكم أقلّة أذلة مستضعفين (في الأرض) أرض مكة قبل الهجرة تستضعفكم قريش (تحافون أن يتخطفكم الناس) لأن الناس كانوا جميعاً لهم أعداء منافين مضادين (فأواكم) إلى المدينة (وأيدكم بنصره) بمظاهرة الأنصار وبإمداد الملائكة يوم بدر (ورزقكم من الطيبات) من الغنائم (لعلكم تشكرون) إرادة أن تشكروا هذه النعم. وعن قتادة: كان هذا الحى من العرب أذلّ الناس، وأشقاهم عيشاً، وأعرأهم جلدأ، وأبينهم ضللاً، يؤكلون ولا يأكلون، فكان الله لهم في البلاد، ووسع لهم في الرزق والغنائم وجعلهم ملوكاً.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ

تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾

معنى الخون: النقص، كما أن معنى الوفاء التمام. ومنه: تخونه، إذا تنقصه، ثم استعمل في ضدّ الأمانة والوفاء، لأنك إذا خنت الرجل في شيء فقد أدخلت عليه النقصان فيه، وقد استعير ف قيل: خان الدلو الكرب، وخان المشتار السبب<sup>(١)</sup> لأنه إذا انقطع به فكأنه لم يف له. ومنه قوله تعالى (وتخونوا أماناتكم) والمعنى لا تخونوا الله بأن تعطلوا فرائضه، ورسوله بأن لا تستنابوه. و (أماناتكم) فيما بينكم بأن لا تحفظوها (وأتمّ تعلمون) تبعة ذلك ووباله، وقيل وأتمّ تعلمون أنكم تخونون، يعنى أن الخيانة توجد منكم عن تعمد لا عن سهو. وقيل: وأتمّ علماء تعلمون قبح القبيح وحسن الحسن. وروى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم حاصر يهود بني قريظة إحدى وعشرين ليلة<sup>(٢)</sup> فسألوا الصلح كما صلح إخوانهم

(١) قوله وخان الدلو الكرب وخان المشتار السبب. قوله والكرب، جبل يقف في رأس الدلو. والمشتار مجنى العسل. والسبب: الحبل اه صحاح (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي عن الكلبي بغير سند، لكن سنده إليه في أول الكتاب. وقد روى ابن إسحاق في المغازي: حدثنا إسحاق بن يسار عن عبد بن كعب السلمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاصرهم - يعني قريظة - خساً وعشرين ليلة - فذكر القصة بطولها - إلى أن قال: ابعت إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر فذكر قصة مختصرة. وأخرجها البيهقي في الدلائل من طريق سعيد بن المسيب في قصة طويلة - فذكر نحو ما هنا. وهكذا ذكرها عبد الرزاق عن معمر عن الزهري قال: كان أبو لبابة ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبوك. فربط نفسه بسارية فذكر القصة، وأخرجه الواقدي عن معمر عن الزهري عن ابن كعب بن مالك مثله.

(تنبيه) تسمية أبي لبابة مروان لم أره إلا من هذه الرواية. ومدة حصار بني قريظة المحفوظ فيها ما قاله ابن إسحاق.

بنى النضير على أن يسيروا إلى أذرعات وأريحا من أرض الشام ، فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ ، فأبوا وقالوا : أرسل إلينا أبا لبابة مروان بن عبد المنذر وكان مناصحاً لهم لأن عياله وماله في أيديهم ، فبعثه إليهم فقالوا له : ما ترى ، هل تنزل على حكم سعد ؟ فأشار إلى حلقه إنه الذبيح ، قال أبو لبابة فما زالت قدماى حتى علمت أنى قد خنت الله ورسوله فنزلت ، فشدت نفسه على سارية من سواري المسجد وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شرباً حتى أموت أو يتوب الله عليّ ، فكثت سبعة أيام حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه ، فقيل له : قد تيب عليك خل نفسك . فقال : لا والله لا أحلها حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلنى ، فجاءه خله بيده فقال : إن من تمام توبتى أن أهجر دار قومى التى أصبت فيها الذنب ، وأن أنخلع من مالى . فقال صلى الله عليه وسلم : يجزيك الثلث أن تصدق به . وعن المغيرة : نزلت في قتل عثمان بن عفان رضى الله عنه . وقيل (أماناتكم) ما ائتمنكم الله عليه من فرائضه وحدوده . فإن قلت : (وتخونوا) جزم هو أم نصب ؟ قلت : يحتمل أن يكون جزماً داخلًا في حكم النهي ، وأن يكون نصباً بإضمار وأن ، كقوله (وتكتموا الحق) وقرأ مجاهد : وتخونوا أمانتكم ، على التوحيد .

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمُ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

جعل الاموال والاولاد فتنة ، لانهم سبب الوقوع في الفتنة وهى الإثم أو العذاب . أو محنة من الله ليلبواكم كيف تحافظون فيهم على حدوده (والله عنده أجر عظيم) فعليكم أن تنوطوا بطلبه وبما تؤدى إليه هممكم ، وتزهّدوا فى الدنيا ، ولا تحرصوا على جمع المال وحب الولد ؛ حتى تورطوا أنفُسكم من أجلهما ، كقوله (المال والبنون . الآية) وقيل : هى من جملة ما نزل فى أبى لبابة وما فرط منه لأجل ماله وولده .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ

سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

(فرقاناً) نصراً ؛ لأنه يفرق بين الحق والباطل وبين الكفر بإذلال حزبه ، والاسلام بإعزاز أهله . ومنه قوله تعالى (يوم الفرقان) أو بياناً وظهوراً يشهر أمركم ويثبت صيتكم وأناركم فى أقطار الارض ، من قولهم (بت أفعل كذا) حتى سطع الفرقان : أى طلع الفجر . أو مخرجا من الشبهات وتوفيقاً وشرحاً للصدور . أو تفرقة بينكم وبين غيركم من أهل الاديان ، وفضلاً ومزية فى الدنيا والآخرة .

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ  
وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٣٠﴾

لما فتح الله عليه ، ذكره مكر قريش به حين كان بمكة ، ليشكر نعمة الله عز وجل في نجاته من مكرهم واستيلائه عليهم وما أتاح الله له من حسن العاقبة ، والمعنى : واذا ذكر إذ يَمْكُرُونَ بك وذلك أن قريشا - لما أسلمت الأنصار وبايعوه - فرقوا أن يتفاقم أمره<sup>(١)</sup> ، فاجتمعوا في دار الندوة متشاورين في أمره ، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ وقال : أنا شيخ من نجد ، ما أنا من تهامة دخلت مكة فسمعت باجتماعكم ، فأردت أن أحضركم ولن تعدموا مني رأيا ونصحا ، فقال أبو البختری : رأي أن تحبسوه في بيت وتشدوا وثاقه وتسدوا بابه غير كوة لقون إليه طعامه وشرابه منها ؛ وتربصوا به ريب المنون . فقال إبليس : بئس الرأي ؛ يأتيكم من يقاتلكم من قومه ويخلصه من أيديكم : فقال هشام بن عمرو : رأي أن تحملوه على جمل وتخروه من بين أظهركم ؛ فلا يضركم ما صنعوا واسترحم . فقال إبليس : بئس الرأي يفسد قوما غيركم ويقاتلكم بهم . فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأخذوا من كل بطن غلاماً وتعطوه سيفاً صارماً ، فيضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل ، فلا يقوى بنو هاشم على حرب قريش كلهم ، فإذا طلبوا العقل عقلناه واسترحنا . فقال الشيخ - لعنه الله - : صدق هذا الفتى ، هو أجودكم رأياً . ففترقوا على رأي أبي جهل مجتمعين على قتله . فأخبر جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن لا يبيت في مضجعه ، وأذن الله له في الهجرة ، فأمر علياً رضي الله عنه فنام في مضجعه ، وقال له : اتشح ببردتي ، فإنه لن يخلص إليك أمر تكرهه ، وباتوا مترصدين ، فلما أصبحوا ثاروا إلى مضجعه ، فأبصروا علياً فيمتوا وخيب الله عز وجل سعيهم ، واقتصوا أثره فأبطل الله مكرهم<sup>(٢)</sup> ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليسجنوك أو يوثقوك أو يشنوك بالضرب والجرح ، من قولهم : ضربه حتى أثبتوه لأحرابه ولا براح ، وفلان مثبت وجعاً . وقرئ : ليثبتوك ، بالتشديد . وقرأ النخعي : لييثبتوك ، من اليات . وعن ابن عباس : ليقيدوك ، وهو دليل لمن فسره بالإيثاق

(١) قوله «فرقوا أن يتفاقم أمره» أي عاينوا أن يعظم أمره . اهـ صحاح . (ع)

(٢) القصة أخرجه ابن إسحاق في المغازي : حدثني من لا أنهم عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال : لما اجتمعت قريش في دار الندوة وتشاوروا في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم اعترضهم إبليس في هيئة شيخ فذكره مطولا ، وأخرجه الطبري وأبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن ابن أبي نجيح . وليس في أوله أن ذلك بسبب الأنصار . وقال عبيد الرراق : أخبرنا معمر عن الزهري عن عروة قال : «لما كثر المسلمون - فذكر معناها . ووصلها الواقدي عن معمر بذكر عائشة قال : وعن ابن أبي خيثمة عن داود بن حصين عن عكرمة عن ابن عباس نحوه .

﴿وَيَمْكُرُونَ﴾ ويخفون المكاييد له ﴿وَيَمْكُرُ اللَّهُ﴾ ويخفي الله ما أعد لهم حتى يأتيهم بغتة ﴿والله خير الماكرين﴾ أى مكره أنفذ من مكر غيره وأبلغ تأثيراً ، أو لأنه لا يزل إلا ما هو حق وعدل ولا يصيب إلا بما هو مستوجب .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يُصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أُولِيَاءُهُ إِلَّا الْمُتَّقُونَ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

﴿لو نشاء لقلنا مثل هذا﴾ تفاجئة منهم وصلف <sup>(١)</sup> تحت الراجعة ، فإنهم لم يتوانوا في مشيئتهم لو ساعدتهم الاستطاعة ، وإلا فما منعهم إن كانوا مستطيعين أن يشاؤوا غلبة من تحداهم وقرعهم بالعجز ، حتى يفوزوا بالقدح الملقى دونه ، مع فرط أنفتهم واستنكافهم أن يغلبوا في باب البيان خاصة ، وأن يماثلهم واحد ، فيتعللوا بامتناع المشيئة ، ومع ما علم وظهر ظهور الشمس ، من حرصهم على أن يقهروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمالكهم على أن يغمروه <sup>(٢)</sup> . وقيل : قائله التضربين الحرث المقتول صبراً ، حين سمع اقتصاص الله أحاديث القرون : لو شئت لقلت مثل هذا . وهو الذى جاء من بلاد فارس بنسخة حديث رستم واسفنديار فزعم أن هذا مثل ذاك ، وأنه من جملة تلك الأساطير ، وهو القائل ﴿إن كان هذا هو الحق﴾ وهذا أسلوب من الجحود ببلغ ، يعنى إن كان القرآن هو الحق فعاقبتنا على إنكاره بالسجيل ، كما فعلت بأصحاب الفيل ، أو بعذاب آخر . ومراده نفي كونه حقاً ، وإذا انتفى كونه حقاً لم يستوجب منكروه عذاباً فكان تعليق العذاب بكونه حقاً مع اعتقاد أنه ليس بحق ، كتمليقه بالمحال في قولك : إن كان الباطل حقاً ، فأمطر علينا حجارة . وقوله : ( هو الحق ) تهكم بمن يقول على سبيل التخصيص والتعيين : هذا هو الحق . وقرأ الأعمش ( هو الحق ) بالرفع ، على أن هو مبتدأ غير

(١) قوله « تفاجئة منهم وصلف الخ » « تفاجئة » أى تكبر . و« الصلف » مجاوزة الحد كبراً . و« الراجعة » السحابة . وهذا مثل يضرب للرجل يتوعد ثم لا يقوم به . والقدح الملقى : أحدهما الميسر يخرج للغالب اه صحاح (ع)  
(٢) قوله « على أن يغمروه » يقال للرجل : غمره القوم ، إذا علوه شرفاً ، كذا في الصحاح . (ع)

فصل . وهو في القراءة الأولى فصل . ويقال : أمطرت السماء ، كقولك أنجمت وأسبلت (١) ومطرت ، كقولك : هتنت وهتلت . وقد كثرت الأمطار في معنى العذاب . فإن قلت : ما فائدة قوله ﴿ من السماء ﴾ ؟ والأمطار لا تكون إلا منها . قلت : كأنه يريد أن يقال : فأمطر علينا السجيل وهي الحجارة المسومة للعذاب ، فوضع (حجارة من السماء) موضع السجيل ، كما تقول : صب عليه مسرودة من حديد ، تريد درعاً ﴿ يعذب أليم ﴾ أى بنوع آخر من جنس العذاب الأليم ، يعنى أن أمطار السجيل بعض العذاب الأليم ، فعذبنا به أو بنوع آخر من أنواعه . وعن معاوية أنه قال لرجل من سبأ ما أجهل قومك حين ملكوا عليهم امرأة ! قال : أجهل من قومي قومك قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين دعاهم إلى الحق (إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة) ولم يقولوا : إن كان هذا هو الحق فاهدنا له . اللام لتأكيد النفي ، والدلالة على أن تعذيبهم وأنت بين أظهرهم غير مستقيم في الحكمة ؛ لأن عادة الله وقضية حكمته أن لا يعذب قرماً عذاب استئصال مادام نبيهم بين أظهرهم وفيه إشعار بأنهم مرصدون بالعذاب إذا هاجر عنهم . والدليل على هذا الإشعار قوله (وما لهم ألا يعذبهم الله) وإنما يصح هذا بعد إثبات التعذيب ، كأنه قال : وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وهو معذبهم إذا فارقتهم ، وما لهم أن لا يعذبهم ﴿ وهم يستغفرون ﴾ في موضع الحال . ومعناه نفى الاستغفار عنهم : أى ولو كانوا ممن يؤمن ويستغفر من الكفر لما عذبهم ، كقوله : وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ، ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون ، ولا يتوقع ذلك منهم . وقيل : معناه وما كان الله معذبهم وفيهم من يستغفر ، وهم المشركون بين أظهرهم ممن تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المستضعفين ، (وما لهم أن لا يعذبهم الله) وأى شيء لهم في انتفاء العذاب عنهم ، يعنى : لاحظ لهم في ذلك وهم معذبون لاحالة . وكيف لا يعذبون وحالهم أنهم يصدون عن المسجد الحرام كما صدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عام الحديبية ، وإخراجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من الصد ، وكانوا يقولون : نحن ولاية البيت والحرم فنصد من نشاء وندخل من نشاء ﴿ وما كانوا أولياءه ﴾ وما استحقوا مع إشراكهم وعداوتهم للدين أن يكونوا ولاية أمره وأربابه ﴿ إن أوليائه إلا المتقون ﴾ من المسلمين ليس كل مسلم أيضاً ممن يصلح لأن يلي أمره ، وإنما يستأهل ولايته من كان براً تقياً ، فكيف بالكفرة عبدة الأصنام ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ كأنه استثنى من كان يعلم وهو يعاندو يطلب الرياسة . أو أراد بالأكثر : الجميع ، كما يراد بالقلة : العدم .

(١) قوله وأنجمت وأسبلت الخ ، أنجمت : أى انكشفت نجومها . وأسبلت : أمطرت . وهتنت وهتلت :

تتابع مطرها . اه صحاح (ع)

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾

المكاء : فعال بوزن الثناء والרגاء <sup>(١)</sup> من مكأ بمكو إذا صفر : ومنه المكاء ، كأنه سمي بذلك لكثرة مكأته . وأصله الصفة ، نحو الوضاء والفراء . وقرئ : مكأ بالقصر . ونظيرهما : البكى والبكاء . والتصدية : التصفيق ، تفعله من الصدى أو من صدٍّ يصد <sup>(٢)</sup> (إذا قومك منه يصدون) وقرأ الأعمش : وما كان صلاتهم ، بالنصب على تقديم خبر كان على اسمه ، فإن قلت : ما وجه هذا الكلام ؟ قلت : هو نحو من قوله :

وَمَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ يَكُونَ عَطَاؤُهُ أَذَاهُمْ سُودًا أَوْ مُحْدَرَجَةً مُنْمَرًا <sup>(٣)</sup>  
والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء ، ووضعوا المكاء والتصدية موضع الصلاة ، وذلك أنهم كانوا يطوفون بالبيت عراة : الرجال والنساء ، وهم مشبكون بين أصابعهم يصفرون فيها ويصفقون ، وكانوا يفعلون نحو ذلك إذا قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاته يخلطون عليه (فذوقوا) عذاب القتل والأسر يوم بدر ، بسبب كفركم وأفعالكم التي لا يقدم عليها إلا الكفرة .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾  
لِيُمَيِّزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٣٧﴾

قيل نزلت في المطعمين يوم بدر ، كان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزائر . وقيل :

(١) قوله « بوزن الثناء والرجاء » : صوت الغنم . والراء : صوت الابل . والمكأ - بالتشديد - : طائر

وجمه مكأ كما صحاح (ع)

(٢) قوله « أو من صد يصد » ، في الصحاح : صد يصد ويصد صديداً : أى ضج (ع)

(٣) للفرزدق . « والأدهم ، في الأصل الأسود ، ثم غلب على الحية السوداء ، ثم سمي به القيد الحديد .

« والمحدرج » المقتول : أى ما كنت . أظن أن يكون عطاؤه قيوداً سوداً ، أو سياطاً مفتولة سمرا حقيقة .

أو وصفها بذلك لقبها ، كما يصفون الحسن بالأخضر . ويروى « حمراء » موضع القيود والسياط موضع العطاء ،

وموضع الشاعر الرجاء موضع الظن ، وأطلق العطاء على العقاب مجازاً ، وعرض بذلك إلى أنه كان يرجو العطاء .

ويروى « أخاف » زياداً أن يكون



قالوا لكل من كان له تجارة في العير : أعينوا هذا المال على حرب محمد ، لعلنا ندرك منه ثأرنا بما أصيب منا بيدر . وقيل : نزلت في أبي سفيان وقد استأجر ليوم أحد ألفين من الأحابيش سوى من استجاش من العرب ، وأنفق عليهم أربعين أوقية . والأوقية اثنان وأربعون مثقالا ﴿ليصدوا عن سبيل الله﴾ أى كان غرضهم في الإنفاق الصدّة عن اتباع محمد وهو سبيل الله ، وإن لم يكن عندهم كذلك ﴿ثم تكون عليهم حسرة﴾ أى تكون عاقبة إنفاقها ندماً وحسرة ، فكان ذاتها تصير ندماً وتطلب حسرة ﴿ثم يغلبون﴾ آخر الأمر وإن كانت الحرب بينهم وبين المؤمنين سجّالاً قبل ذلك فيرجعون طلقاء <sup>(١)</sup> ﴿كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي﴾ . ﴿والذين كفروا﴾ والكافرون منهم ﴿إلى جهنم يحشرون﴾ لأنّ منهم من أسلم وحسن إسلامه ﴿ليميز الله الخبيث﴾ الفريق الخبيث من الكفار ﴿من﴾ الفريق ﴿الطيب﴾ من المؤمنين ، فيجعل الفريق ﴿الخبيث بعضه على بعض فيركه جميعاً﴾ عبارة عن الجمع والضم ، حتى يترابكوا ، كقوله تعالى : إكادوا يكونون عليه لبداً ) يعنى لفرط ازدحامهم ﴿أولئك﴾ إشارة إلى الفريق الخبيث ، وقيل : ليميز المال الخبيث الذى أنفقه المشركون في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من المال الطيب الذى أنفقه المسلمون كأبي بكر وعثمان في نصرته (فيركه) فيجعله في جهنم في جملة ما يعذبون به ، كقوله (فتكوى بها جباههم وجنوبهم ... الآية) ، واللام على هذا متعلقة بقوله (ثم تكون عليهم حسرة) وعلى الأول يحشرون ، وأولئك : إشارة إلى الذين كفروا . وقرئ : ليميز على التخفيف .

قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَآقَدَ سَلَفٍ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ

سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٨﴾

﴿قل للذين كفروا﴾ من أبي سفيان وأصحابه . أى قل لأجلهم هذا القول وهو ﴿إن ينتهوا﴾ ولو كان بمعنى خاطبهم به لقل : إن تنتهوا يغفر لكم ، وهى قراءة ابن مسعود . ونحوه : وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه) خاطبوا به غيرهم لأجلهم ليسمعوه ، أى إن ينتهوا عما هم عليه من عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتاله بالدخول في الإسلام ﴿يغفر لهم ما قد سلف﴾ لهم من العداوة ﴿وإن يعودوا﴾ إقتاله ﴿فقد مضت سنة الأولين﴾ منهم الذين حاق بهم مكرم يوم بدر . أو فقد مضت سنة الذين تحزبوا على أنبيائهم من الأمم فدمروا ، فليتوقعوا مثل ذلك إن لم ينتهوا . وقيل : معناه أنّ الكفار إذا انتهوا عن

(١) قوله : فيرجعون طلقاء ، فى الصحاح «الطليق» الأسير الذى أطلق عنه إيساره وغلّى سبيله . (ع)

الكفر وأسلموا غفر لهم ما قد سلف لهم من الكفر والمعاصي، وخرجوا منها كما تنسل الشجرة من العجين . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : الإسلام يجب ما قبله ، وقالوا : الحرب إذا أسلم لم يبق عليه تبعة قط . وأما الذي فلا يلزمه قضاء حقوق الله وتبقي عليه حقوق الآدميين . وبه احتج أبو حنيفة رحمه الله في أن المرتد إذا أسلم لم يلزمه قضاء العبادات المتروكة في حال الردة . وقبلها ؛ وفسر ( وإن يعودوا ) بالارتداد . وقرئ ( يغفر لهم ) على أن الضمير لله عز وجل

وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعَمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعَمَ النَّصِيرِ ﴿٤٠﴾

(وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) إلى أن لا يوجد فيهم شرك قط (ويكون الدين كله لله) ويضمحل عنهم كل دين باطل ، ويبقى فيهم دين الإسلام وحده (فإن انتهوا) عن الكفر وأسلموا (فإن الله بما يعملون بصير) يشبههم على توبتهم وإسلامهم . وقرئ : تعملون ، بالتاء ، فيكون المعنى : فإن الله بما تعملون من الجهاد في سبيله والدعوة إلى دينه والإخراج من ظلة الكفر إلى نور الإسلام (بصير) يجازيكم عليه أحسن الجزاء (وإن تولوا) ولم ينتهوا (فاعلموا أن الله مولاكم) أي ناصركم ومعينكم ، فتقوا بولايته ونصرته .

وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِلَّذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

(١) أخرجه مسلم من رواية عبد الرحمن بن أسامة عن عمرو بن العاص في قصة . وفيها هذا لكن بلفظ دهم ما قبله ، قال الزوري : غلط كثير من الفقهاء فذكره بافظ ويجب ما قبله ، ويروي بحت بالمهمله والمثناة اه . وقد رواه الطبري من هذا الوجه ، بلفظ «إن الإسلام يجب ما كان قبله» وأخرجه ابن إسحاق في المغازي من طريق حبيب بن أبي أويس التقي حدثني عمرو بن العاص من فيه إلى في قال «لما جئت أريد الإسلام فذكر القصة . وفيها يا عمرو ، إن الإسلام يجب ما قبله . والمجرة يجب ما كان قبلها . ومن هذا الوجه أخرجه أحمد وإسحاق والبيهقي في الدلائل . وأخرجه ابن سعد في خالد بن الوليد من طريق المغيرة بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام قال قال خالد ابن الوليد ... فذكر قصة إسلامه وفيها «إن الإسلام يجب ما كان قبله» ، وفي ترجمة المغيرة بن شعبة من رواية يعقوب ابن عتبة عن المغيرة . فذكر قصة إسلامه . وفيها ذلك . وفي ترجمة هبار بن الأسود من حديث جابر بن مطعم في قصة إسلام هبار . وفيه «والإسلام يجب ما كان قبله» وفي أسانيد الثلاثة الواقدى .

(أَنَا غَنِمْتُ) ما موصولة. و(من شيء) بيانه. قيل: من شيء حتى الحيط والمحيط، (فَأَنْتَ) مبتدأ خبره محذوف، تقديره: لحق، أو فواجب أن الله خمسة. وروى الجمعني عن أبي عمرو، فإن الله بالسكسر. وتقوية قراءة النخعي: فله خمسة. والمشهورة أكد وأثبت للإيجاب، كأنه قيل: فلا بد من ثبات الخمس فيه، لا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه. من حيث إنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات، كقولك: ثابت واجب حق لازم؛ وما أشبه ذلك، كان أقوى لإيجابه من النص على واحد، وقرئ: خمسة بالسكون فإن قلت: كيف قسمة الخمس؟ قلت: عند أبي حنيفة رحمه الله أنها كانت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وسهم لذوي قرباء من بني هاشم وبني المطلب، دون بني عبد شمس وبني نوفل، استحقوه حينئذ بالنصرة والمظاهرة. لما روى عن عثمان وجبير بن مطعم رضى الله عنهما، أنهما قالَا لرسول الله صلى الله عليه وسلم: هؤلاء إخوتك بنو هاشم لا نشكر فضلهم لمكانك الذي جعلك الله منهم، أرأيت إخواننا بني المطلب أعطيتهم وحرمتنا، وإنما نحن وهم بمنزلة واحدة: فقال صلى الله عليه وسلم: إنهم لم يفارقونا في جاهلية ولا إسلام، إنما بنو هاشم وبني المطلب شيء واحد، وشبك بين أصابعه<sup>(١)</sup> وثلاثة أسهم: لليتامى والمساكين، وابن السبيل. وأما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسهمة ساقط بموته، وكذلك سهم ذوى القربى، وإنما يعطون لفقرهم، فهم أسوة سائر الفقراء، ولا يعطى أغنياؤهم فيقسم على اليتامى والمساكين وابن السبيل. وأما عند الشافعي رحمه الله فيقسم على خمسة أسهم: سهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم يصرف إلى ما كان يصرفه إليه من مصالح المسلمين: كعدة الغزاة من السلاح والكراع<sup>(٢)</sup> ونحو ذلك. وسهم لذوى القربى من أغنيائهم وفقرائهم، يقسم بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين. والباقي للفرق الثلاث. وعند مالك ابن أنس رحمه الله: الأمر فيه مفوض إلى اجتهاد الإمام إن رأى قسمه بين هؤلاء، وإن رأى أعطاه بعضهم دون بعض، وإن رأى غيرهم أولى وأهم فغيرهم. فإن قلت: ما معنى ذكر الله عز وجل وعطف الرسول وغيره عليه<sup>(٣)</sup> قلت: يحتمل أن يكون معنى لله وللرسول، لرسول الله

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه من طريق سعيد بن المسيب عن جبير بن مطعم بتامه وهو في الصحيح دون قوله ولم يفارقوني.

(٢) قوله من السلاح والكراع، الكراع: هو اسم جمع للفيل ام صحاح. (ع)

(٣) قال محمود إن قلت ما معنى ذكر الله وعطف الرسول وغيره عليه... الخ، قال أحد: لأن مالكا رضى الله عنه لا يرى ذكر الوجوه المذكورة لبيان أنه لا يصرف فيما سواها، وليس لأن يملكها ولا على التحديد حتى لا يجوز الاقتصار على بعض الوجوه دون بعض، بل الأمر عنده موكل إلى نظر الإمام فيصرف الخمس في مصالح المسلمين ومن جعلها قرابته عليه الصلاة والسلام، ولا تحديد عنده في ذلك البتة، وهذا التأويل الثالث ينطبق على مذهب،

صلى الله عليه وسلم ، كقوله ( والله ورسوله أحق أن يرضوه ) وأن يراد بذكره إيجاب سهم سادس يصرف إلى وجه من وجوه القرب . وأن يراد بقوله ( فأن لله خمسة ) أن من حق الخمس أن يكون متقرباً به إليه لا غير . ثم خص من وجوه القرب هذه الخمسة ، تفضيلاً لها على غيرها . كقوله تعالى ( وجبريل وميكال ) فعلى الاحتمال الأول مذهب الإمامين . وعلى الثاني ما قال أبو العالية : أنه يقسم على ستة أسهم : سهم لله تعالى يصرف إلى رتاج الكعبة <sup>(١)</sup> . وعنه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ الخمس فيضرب بيده فيه ، فيأخذ منه قبضة فيجعلها للكعبة وهو سهم الله تعالى ، ثم يقسم ما بقي على خمسة <sup>(٢)</sup> . وقيل : إن سهم الله تعالى لبيت المال ، وعلى الثالث مذهب مالك بن أنس . وعن ابن عباس رضي الله عنه أنه كان على ستة أسهم لله وللرسول سهمان ، وسهم لأقاربه حتى قبض ، فأجرى أبو بكر رضي الله عنه الخمس على ثلاثة . وكذلك روى عن عمر ومن بعده من الخلفاء . وروى أن أبا بكر رضي الله عنه منع بني هاشم الخمس وقال : إنما لكم أن يعطى فقيركم ويزوج أيمكم ويخدم من لا خادم له منكم ، فأما الغني منكم فهو بمنزلة ابن سبيل غني لا يعطى من الصدقة شيئاً ، ولا يتيم موسر . وعن زيد بن علي رضي الله عنه : كذلك قال ، ليس لنا أن ننبي منه قصوراً ، ولا أن نركب منه البراذين . وقيل : الخمس كله للقرابة . وعن علي رضي الله عنه أنه قيل له : إن الله تعالى قال ( واليتامى والمساكين ) فقال : أيتامنا ومساكيننا . وعن الحسن رضي الله عنه في سهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه لولى الأمر من بعده . وعن الكلبي رضي الله عنه أن الآية نزلت بيد . وقال الواقدي : كان الخمس في غزوة بني قينقاع بعد بدر بشهر وثلاثة أيام للنصف من شوال ، على رأس عشرين شهراً من الهجرة . فإن قلت : بم تعلق قوله ( إن كنتم آمنتم بالله ) ؟ قلت : بمحذوف يدل عليه ( واعلموا ) المعنى : إن كنتم آمنتم بالله فاعلموا أن الخمس من الغنيمة يجب التقرب به ، فاقطعوا عنه أطماعكم واقتنعوا بالآخماس الأربعة ، وليس المراد بالعلم المجتهد ، ولكنه العلم المضمن بالعمل ، والطاعة لأمر الله تعالى :

== وبيان ذلك أن المراد حينئذ بذكر الله تعالى بيان أن الخمس يصرف في وجوه التقربات لله تعالى غير مقيد ، ثم تخصيص الوجوه المذكورة بعد ليس بتعديداً ، ولكن تنبيهاً على فضلها والتخصيص لقصد التفصيل بعد التعميم لا يرفع حكم العموم الأول ، بل هو قار على حاله . كما أن العموم ثابت لللائكة وإن خص جبريل وميكال ، بعده ، والله تعالى أعلم .

(١) قوله « يصرف إلى رتاج الكعبة » في الصحاح « الرنج » بالتحريك : الباب العظيم ، وكذلك الرتاج . ومنه . رتاج الكعبة ، (ع)

(٢) أخرجه أبو داود في كتاب المراسيل من طريق الربيع بن أنس عن أبي العالية . قال « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أتى بالغنيمة قسمها خمسة أقسام ، ثم يقبض بيده قبضة من الخمس أجمع ثم يقول : هذه للكعبة . ثم يقول لا تجعلوا لله نصيباً فأن الله الآخرة والدنيا ثم يأخذ سهماً لنفسه وسهماً لذى القربى وسهماً لليتامى ، وسهماً للساكنين ، وسهماً لابن السبيل ، أخرجه أبو عبيدة في الأموال ، والطبري من هذا الوجه .

لأن العلم المجرد يستوى فيه المؤمن والكافر ﴿وما أنزلنا﴾ معطوف على (بالله) أى إن كنتم آمنتم بالله وبالمنزل ﴿على عبدنا﴾ وقرئ عبدنا كقوله (وعبدالطاغوت) بضمين ﴿يوم الفرقان﴾ يوم بدر، و﴿الجمعان﴾ الفريقان من المسلمين والكافرين. والمراد ما أنزل عليه من الآيات والملائكة والفتح يومئذ ﴿والله على كل شئ قدير﴾ يقدر على أن ينصر القليل على الكثير والدليل على العزيز، كما فعل بكم ذلك اليوم.

إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدُوِّ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدُوِّ الْقُصْوَى وَالرُّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لَمَقِصَّ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَبَغْيٍ مَنْ حَىَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾

﴿إذ﴾ بدل من يوم الفرقان. والعدوة: شط الوادى بالكسر والضم والفتح. وقرئ بين وبالعدية، على قلب الواو ياء. لأن بينها وبين الكسرة حاجزاً غير حصين كما فى الصينة. والدنيا والقصوى: تأنيث الأدنى والاقصى. فإن قلت: كتابهما فعلى، من بنات الواو، فلم جاءت إحداها بالياء والثانية بالواو؟ قلت: القياس هو قلب الواو ياء كالعليا. وأما القصوى فكالقود فى مجيئه على الأصل. وقد جاء القصيا، إلا أن استعمال القصوى أكثر، كما كثر استعمال استصوب، مع مجيئه استصاب، وأغليت مع وأغلت،<sup>(١)</sup> والعدوة الدنيا مما يلى المدينة، والقصوى مما يلى مكة ﴿والركب أسفل منكم﴾ يعنى الركب الأربعين الذين كانوا يقودون العير أسفل منكم بالساحل. وأسفل: نصب على الظرف، معناه: مكانا أسفل من مكانكم، وهو مرفوع المحل: لأنه خبر المبتدأ. فإن قلت: ما فائدة هذا التوقيت وذكر مراكز الفريقين؟ وأن العير كانت أسفل منهم<sup>(٢)</sup>؟ قلت: الفائدة فيه الإخبار عن الحال الدالة على قوة شأن العدو وشوكته، وتكامل عدته، وتمهد أسباب الغلبة له، وضعف شأن المسلمين والنيات أمرهم<sup>(٣)</sup> وأن غلبتهم فى مثل هذه الحال ليست إلا صنعا من الله سبحانه، ودليلا على أن ذلك أمر لم يتيسر إلا بحوله وقوته وباهر قدرته، وذلك أن العدو القصوى التى أناخ بها المشركون كان فيها الماء، وكانت أرضاً لا بأس بها ولا ماء بالعدوة الدنيا وهى خبار<sup>(٤)</sup>

(١) قوله وأغليت مع أغالت، أغليت: أى أرضعت وهى موطوءة. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «إن قلت ما فائدة ذكر مركز الفريقين وأن العير كانت أسفل منهم... الخ» قال أحمد: وهذا

الفصل من خواص حسنات الزحشرى وتقيقه عن أسرار الكتاب العزيز.

(٣) قوله والنيات أمرهم، أى اختلاط أمرهم اه صحاح. (ع)

(٤) قوله وهى خبار أى رخوة ذات جرة. اه صحاح. (ع)

تسوخ فيها الأرجل ، ولا يمشى فيها إلا بتعب ومشقة . وكانت العير وراء ظهور العدو مع كثرة عددهم ، فكانت الحماية دونها ، تضاعف حميتهم وتشجذ في المقاتلة عنها نياتهم . ولهذا كانت العرب تخرج إلى الحرب بظعنهم وأموالهم ، ليعتصم الذب عن الحريم والغيرة على الحرم على بذل جهيدهم في القتال ، وأن لا يتركوا وراءهم ما يخذلون أنفسهم بالانحياز إليه . فيجمع ذلك قلوبهم ويضبط همهم ويوطن نفوسهم على أن لا يبرحوا مواطنهم ولا يخلوا مراكزهم ، ويبدلوا منتهى نجدتهم وقصارى شدتهم . وفيه تصوير ما دبر سبحانه من أمر وقعة بدر . ليقضى أمراً كان مفعولاً من إعزاز دينه وإعلاء كلمته حين وعد المسلمين إحدى الطائفتين بمهمة غير مبينة ، حتى خرجوا ليأخذوا العير راغبين في الخروج ، وشخص بقریش<sup>(١)</sup> مرعوبين بما بلغهم من تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لأموالهم ، حتى نفروا ليمنعوا عيرهم . وسبب الأسباب حتى أناخ هؤلاء بالعدوة الدنيا وهؤلاء بالعدوة القصوى ووراءهم العير يحامون عليها ، حتى قامت الحرب على ساقى وكان ما كان ﴿ولو تواعدتم﴾ أنتم وأهل مكة وتواضعتم بينكم على موعد تلتقون فيه للقتال ، لخالف بعضهم بعضاً فنبطكم قلتكم وكثرتهم عن الوفاء بالموعد ، وثبطهم ما فى قلوبهم من تهيب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين ، فلم يتفق لكم من التلاقى فى ما وفقه الله وسبب له ﴿ليقضى﴾ متعلق بمحذوف ، أى ليقضى أمراً كان واجباً أن يفعل ، وهو نصر أوليائه وقهر أعدائه دبر ذلك . وقوله ﴿لهلك﴾ بدل منه . واستعير الهلاك والحياة للكفر والإسلام ، أى ليصدر كفر من كفر عن وضوح بيته ، لا عن مخالفة شبهة ، حتى لا تبقى له على الله حجة ، ويصدر إسلام من أسلم أيضاً عن يقين وعلم بأنه دين الحق الذى يجب الدخول فيه والتمسك به وذلك أن ما كان من وقعة بدر من الآيات الغز المحجلة التى من كفر بعدها كان مكابراً لنفسه مغالطاً لها . وقرئ : لهلك ، بفتح اللام . وحى ، بإظهار التضعيف ﴿لسميع عليم﴾ يعلم كيف يدبر أموركم ويسوى مصالحكم . أو لسميع عليم بكفر من كفر وعقابه ، وبإيمان من آمن وثوابه .

إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَأَيْتُمْ كَثِيرًا لَفِشَلْتُمْ وَتَلَنَزَعْتُمْ

فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾

﴿إذ يريكم الله﴾ نصبه بإضمار اذكر . أو هو بدل ثان من يوم الفرقان ، أو متعلق بقوله ﴿لسميع عليم﴾ أى يعلم المصالح إذ يقللهم فى عينك ﴿فى منامك﴾ فى رؤياك . وذلك أن الله عز وجل أراه إياهم فى رؤياه قليلاً ، فأخبر بذلك أصحابه فكان تثبيتاً لهم وتشجيعاً على عدوهم . وعن

(١) قوله «وشخص بقریش» يقال للرجل إذا ورد عليه أمر أقلقته : شخص به . اهـ صحاح . (ع)

الحسن : في منامك في عينك ، لأنها مكان النوم ، كما قيل للقطيفة <sup>(١)</sup> : المنامة ، لأنه ينام فيها . وهذا تفسير فيه تعسف ، وما أحسب الرواية صحيحة فيه عن الحسن ، وما يلائم عليه بكلام العرب وفصاحته ( لفشلتم ) لجبنتم وهبتم الإقدام ( ولتنازعتم ) في الرأي ، وتفرقت فيما تصنعون كلبتكم ، وترجستم بين الثبات والفرار ( ولكن الله سلم ) أى عصم وأنعم بالسلامة من الفشل والتنازع والاختلاف ( إنه عليم بذات الصدور ) يعلم ما سيكون فيها من الجراءة والجبن والصبر والجزع .

وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّمَقُّصُ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّصُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ

أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ٤٤

( وإذ يريكمهم ) الضميران مفعولان . يعنى : وإذ يصركم إياهم . و ( قليلا ) نصب على الحال ، وإنما قللمهم في أعينهم تصديقا لرؤية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليعانيوا ما أخبرهم به غزاد يقيهم ويجتذوا ويقتبوا . قال ابن مسعود رضى الله عنه : لقد قللوا في أعيننا حتى قلت لرجل إلى جنبي : أترام سبعين ؟ قال : أترام مائة ، فأسرنا رجلا منهم قتلنا له : كم كنتم ؟ قال : ألفا <sup>(٢)</sup> ( ويقللكم في أعينهم ) حتى قال قائل منهم : إنما هم أكلة جزور . فإن قلت : الغرض في تقليل الكفار في أعين المؤمنين ظاهر ، فما الغرض في تقليل المؤمنين في أعينهم ؟ قلت : قد قللمهم في أعينهم قبل اللقاء ، ثم كثروهم فيها بعده ليجتروا عليهم ، قلة مبالاة بهم ، ثم تفجؤهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا ، وتقل شوكتهم <sup>(٣)</sup> حين يرون ما لم يكن في حسابهم وتقديرهم ، وذلك قوله ( يرونهم مثلهم رأى العين ) ولئلا يستعدوا لهم ، وليعظم الاحتجاج عليهم باستيضاح الآية البينة من قاتلهم أولا وكثرتهم آخرأ . فإن قلت : بأى طريق يصرون الكثير قليلا <sup>(٤)</sup> ؟ قلت بأن يستر الله عنهم

(١) قوله « للقطيفة » هي دثار نخل . اه صحاح . (ع)

(٢) قال إسحاق في مسنده : أخبرنا عمرو بن محمد ، ويحيى بن آدم قال حدثنا إسرائيل . عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن عبد الله بن مسعود . فذكره ، ومن هذا الوجه أخرجه الطبري وابن أبي حاتم .

(٣) قوله « وتقل شوكتهم » أى تكسر . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قال محمود : « إن قلت بأى طريق يصرون الكثير قليلا ... الخ » قال أحمد : وفي هذا دليل بين على أن الله تعالى هو الذى يخلق الإدراك فى الحاسة غير موقوف على سبب من مقابلة أو قرب أو ارتفاع حجب أو غير ذلك ؛ إذ لو كانت هذه الأسباب موجبة للرؤية عقلا لما أمكن أن يستر عنهم البعض وقد أدركوا البعض ، والسبب الموجب مشترك ، فعلى هذا يجوز أن يخلق الإدراك مع اجتماعها ، فلا ربط إذا بين الرؤية ونفها في مقدرة الله تعالى ، وهى رادة على القدرة المتكبرين لرؤية الله تعالى ، بناء على اعتبار هذه الأسباب فى حصول الإدراك عقلا ، وأنها تستلزم الجسمية ؛ إذ المقابلة والقرب وارتفاع الحجب إنما تتأتى فى جسم ، فهذه الآية حسية فى إبطال زعمهم ، ولكنهم يرون عليها . وهم عنها معرضون ، والله الموفق

بعضه بسائر أو يحدث في عيونهم ما يستقلون به الكثير ، كما أحدث في أعين الحول ما يرون به الواحد اثنين . قيل لبعضهم : إن الأحول يرى الواحد اثنين ، وكان بين يديه ديك واحد فقال : مالي لا أرى هذين الديكين أربعة ؟

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ

وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾

(وإذا لقيتم فئة) إذا حاربتم جماعة من الكفار ، وترك أن يصفها لأن المؤمنين ما كانوا يلقون إلا الكفار . واللقاء اسم للقتال غالب (فاثبتوا) لقتالهم ولا تفزوا (واذكروا الله كثيراً) في مواطن الحرب مستظهرين بذكره ، مستنصرين به ، داعين له على عدوك : اللهم اخذلهم ، اللهم اقطع دابرهم (لعلكم تفلحون) لعلكم تظفرون بمرادكم من النصرة والمثوبة . وفيه إشعار بأن على العبد أن لا يفتر عن ذكر ربه أشغل ما يكون قلباً وأكثر ما يكون هما ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره . وناهيك بما في خطب أمير المؤمنين عليه السلام في أيام صفين وفي مشاهدته مع البغاة والخوارج - من البلاغة والبيان ولطائف المعاني وبلغات المواعظ والنصائح - دليلاً على أنهم كانوا لا يشغلهم عن ذكر الله شغل وإن تفاقم الأمر (وتنازعوا) قرئ بتشديد التاء (فتفشلوا) منصوب بإضمار أن ، أو مجزوم لدخوله في حكم النهي ، وتدل على التقديرين قراءة من قرأ (وتذهب ريحكم) بالناء والنصب ، وقراءة من قرأ : ويذهب ريحكم ، بالياء والجزم . والريح : الدولة ، شبهت في نفوذ أمرها وتمشيها بالريح وهبوبها ، فقيل : هبت رياح فلان إذا دالت له الدولة ونفذ أمره . ومنه قوله :

يَا صَاحِبِيَّ أَلَا لَأَحْيِي بِالْوَادِي إِلا عَمِيْدٌ قُعُوْدٌ بَيْنَ أَذْوَادِ  
أُتَنْظَرُ أَنْ قَلِيلاً رَيْثَ عَفَلْتِهِمْ أَمْ تَعُدُّوَانِ فَإِنَّ الرِّيحَ لِلْعَادِي <sup>(١)</sup>

(١) لسليمان بن سلمة ، مر مع صاحبه بجوف مراد واد باليمن فوجدوا إبلا قد ملأته ، فقال لها : أنتظراني هنا حتى آتي الرعاء فأعلم خبر الحى أقرب أم بعيد ، فلم يزل يلاطفهم حتى أخبروه بمكان الحى ، فإذا هم بعيد ، فقال لهم : ألا أغنيكم ؟ قالوا : بلى ، فتغنى بأعلى صوته بالبيتين ، فأتاه أصحابه فاستأقوا الإبل . وآم بالمد . قيل : جمع إماء جمع أمة . وقيل : هو أيضاً جمع أمة ، فأصله أُمُو كأذرع جمع ذراع . وعلى الثاني أُمُو أيضاً ، كما تم جمع أكمة ، لأن أمة أصله أُمُو ، فأبدلت الهمزة الثانية في الجمع ألفاً وقلبت الواو ياء لتطرفها . والهمزة كسرة لأنها ثم أعل إعلال قاض . وروى ببله قُعُوْد ، والنود من الإبل : من ثلاثة إلى عشرة . وأنتظران ، من أنتظره إذا أخرته . والريث : التأخر والتواني ، وهو نصب على البدلية من قليلاً . أو على الظرفية . وبجوز قراءة «أنتظران» من



وقيل لم يكن نصر قط إلا يرجعها الله تعالى . وفي الحديث : « نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور » <sup>(١)</sup>

وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾

حذرهم - بالنهي عن التنازع واختلاف الرأي - نحو ما وقع لهم بأحد لمخالفتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من فشلهم وذهاب ربحهم ﴿كالذين خرجوا من ديارهم﴾ هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير ، فأناهم رسول أبي سفيان وهم بالجحفة : أن ارجعوا فقد سلمت عيركم ، فأبى أبوجهل وقال : حتى نقدم بدرأ نشرب بها الخمر ، وتعزف علينا القيان <sup>(٢)</sup> ونطمع بها من حضرةنا من العرب . فذلك بطرهم ورتاؤهم الناس بإطعامهم ، فوافوها ، فسقوا كؤوس المنيا مكان الخمر وناحت عليهم النوائح مكان القيان ، فهاهم أن يكونوا مثلهم بطرين طريين مزائين بأعمالهم ، وأن يكونوا من أهل التقوى <sup>(٣)</sup> والكتابة والحزن من خشية الله عز وجل ، مخلصين أعمالهم لله .

وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي

أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾

﴿و﴾ اذكر ﴿إذ زين لهم الشيطان أعمالهم﴾ التي عملوها في معاداة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووسوس إليهم أنهم لا يغلبون ولا يطاقون ، وأوهمهم أن اتباع خطوات الشيطان وطاعته بما يجيرهم فلما تلاقي الفريقان نكص الشيطان وتبرأ منهم ، أى بطل كيده حين نزلت جنود الله وكذا عن الحسن رحمه الله : كان ذلك على سبيل الوسوسة ولم يتمثل لهم . وقيل : لما اجتمعت قریش على السير ذكرت بينها وبين بني كنانة من الحرب ، فكان ذلك يثنيهم ، فتمثل لهم إبليس

== نظره إذا انتظره . فريت . يجوز أنه مفعول به . « وتعدوان » من العدو ، وهو السرعة السير ، أو من العدوان ، وهو تعدى الحد . واستعار الرجع للدولة والأمر النافذ بجامع النفوذ من كل . ويرى « تعدوان » وهالغادي ، بالغين المعجمة : أى أم تسرعان إلى ، فان الظفر للسرع . وفيه دلالة على أن السرعة أوجع من التأخر .

(١) متفق عليه من طريق مجاهد عن ابن عباس .

(٢) قوله وتعزف علينا القيان ، تلعب بالملاهي وتلقى واقية الأمة مغنية أو غير مغنية والجمع القيان والقيين الحداد والجمع القيون وكل عبد هو عند العرب فين وقال الشيء يقينه قينا إذا أصلحه وزينه فأده الصحاح . (ع)

(٣) قوله « وأن لا يكونوا » أولعله بأن يكونوا . (ع)

في صورة سراقه بن مالك بن جعشم الشاعر الكنانى - وكان من أشرافهم - في جند من الشياطين معه راية، وقال: لا غالب لكم اليوم، وإني بجيركم من بنى كنانة. فلما رأى الملائكة تنزل، نكص وقيل: كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما نكص قال له الحارث: إلى أين؟ أتخذلنا في هذه الحال؟ فقال: إني أرى مالا ترون، ودفع في صدر الحارث وانطلق، وانهمزوا، فلما بلغوا مكة قالوا: هزم الناس سراقه، فبلغ ذلك سراقه فقال: والله ماشرت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم فلما أسلوا علموا أنه الشيطان. وفي الحديث: وما روى إبليس يوماً أصغر ولا أحر<sup>(١)</sup> ولا أغبط من يوم عرقة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما روى يوم بدر<sup>(٢)</sup>. فإن قلت: هلا قيل لا غالباً لكم كما يقال: لا ضارباً زيداً عندنا؟ قلت: لو كان (لكم) مفعولاً للغالب، بمعنى: لا غالباً إلا بكم لكان الأمر كما قلت؛ لكنه خبر تقديره: لا غالب كأنت لكم.

إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

﴿إذ يقول المنافقون﴾ بالمدينة ﴿والذين في قلوبهم مرض﴾ يجوز أن يكون من صفة المنافقين، وأن يراد الذين هم على حرف ليسوا بأتقي الأقدام في الإسلام. وعن الحسن: هم المشركون ﴿غرَّ هؤلاء دينهم﴾ يعنون أن المسلمين اعتروا بدينهم وأنهم يتقون به وينصرون من أجله، فخرجوا وهم ثلاثمائة وبضعة عشر إلى زهاء ألف، ثم قال جواباً لهم ﴿ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز﴾ غالب يسلط القليل الضعيف على الكثير القوى.

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَكَّلُ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمَلَكُ يُضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارُهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ

بِظَلَّامٍ لِّلْهَيْدِ ﴿٥١﴾

﴿ولو ترى﴾ ولو عاينت وشاهدت؛ لأن لوء ترة المضارع إلى معنى الماضي؛ كما ترة وإن،

(١) قوله ولا أحر: الدحور: الطرد والابعاد، اه صحاح، (ع)

(٢) أخرجه مالك في الموطأ من رواية طلحة بن عبيد الله بن كرز مرسلًا، ومن طريق مالك أخرجه عبد الرزاق والطبري، والبيهقي في الشعب وانفرد أبو النضر بن إسماعيل بن إبراهيم العجلي عن مالك. فقال عن طلحة عن أبيه قال ابن عبد البر: الصواب مرسل (تفنيه) هو طلحة بن عبيد الله بن بكير، وكبير مصغر، ووقع في المناك للنوى طلحة بن عبيد الله أحد العشرة، وهو وهم بين.

الماضي إلى معنى الاستقبال . و﴿إذ﴾ نصب على الظرف . وقرئ : يتوفى . بالياء . والتاء . و﴿الملائكة﴾ رفعها بالفعل و﴿يضربون﴾ حال منهم ، ويجوز أن يكون في (يتوفى) ضمير الله عز وجل ، و﴿الملائكة﴾ مرفوعة بالابتداء ، و﴿يضربون﴾ خبر . وعن مجاهد : وأدبارهم : أسنانهم ، ولكن الله كريم يكفى ، وإنما خصوهما بالضرب . لأن الحزى والنكال في ضربهما أشده ، وبلغنى عن أهل الصين أن عقوبة الزانى عندهم أن يصبر ، ثم يعطى الرجل القوى البطش شيئاً عمل من حديد كهيئة الطبق فيه رزاة وله مقبض ، فيضربه على دبره ضربة واحدة بقوته فيجمد في مكانه . وقيل : يضربون ما أقبل منهم وما أدبر ﴿وذوقوا﴾ معطوف على (يضربون) على إرادة القول : أى ويقولون ذوقوا ﴿عذاب الحريق﴾ أى مقدمة عذاب النار . أو وذوقوا عذاب الآخرة : بشارة لهم به . وقيل : كانت معهم مقامع من حديد ، كلما ضربوا بها النهيت النار أو ويقال لهم يوم القيامة : ذوقوا . وجواب (لو) محذوف : أى رأيت أمراً فظيماً منكراً (ذلك بما قدمت أيديكم) يحتمل أن يكون من كلام الله ومن كلام الملائكة ، و(ذلك) رفع بالابتداء و(بما قدمت) خبره ﴿وأن الله﴾ عطف عليه ، أى ذلك العذاب بسببين : بسبب كفركم ومعاصيكم وبأن الله ﴿ليس بظلام للعبيد﴾ لأن تعذيب الكفار من العدل كإثابة المؤمنين . وقيل : ظلام للتكثير لأجل العبيد <sup>(١)</sup> أو لأن العذاب من العظم بحيث لو لا الاستحقاق لكان المعذب بمثله ظلماً بليغ الظلم متفاقه .

كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعْصِرُوا مَا فِي أَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٨﴾ كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلُّ كَاذِبٍ ظَلِيمٌ ﴿٥٩﴾

الكاف في محل الرفع : أى دأب هؤلاء مثل دأب آل فرعون . ودأبهم : عادتهم وعملهم الذى دأبوا فيه : أى داوموا عليه وواظبوا . و﴿كفروا﴾ تفسير لدأب آل فرعون . و﴿ذلك﴾ إشارة

(١) قال محمود : « وقيل ظلام للتكثير لأجل العبيد ... الخ » قال أحد : وهذه النكتة بحسب ما قول القائل نرى الأدنى أبلغ من نرى الأعلى ، فلم عدل عن الابلغ . والمراد تنزيه الله تعالى وهو جدير بالبالغة ، فهذان الجوابان عتيقان في هذا السؤال .

إلى ما حل بهم ، يعنى ذلك العذاب أو الانتقام بسبب أن الله لم ينبغ له ولم يصح في حكمته أن يغير نعمته عند قوم ﴿حتى يغيروا ما﴾ بهم من الحال . فإن قلت : فما كان من تغيير آل فرعون ومشركي مكة حتى غير الله نعمته عليهم ؟ ولم تكن لهم حال مرضية فيغيروها إلى حال مسخوطة قلت : كما تغير الحال المرضية إلى المسخوطة ، تغير الحال المسخوطة إلى أسخط منها ، وأولئك كانوا قبل بعثة الرسول إليهم كفرة عبدة أصنام . فلما بعث إليهم بالآيات البينات فكذبوه وعادوه وتحزبوا عليه ساعين في إراقة دمه ، غيروا حالهم إلى أسوأ مما كانت ، فغير الله ما أنعم به عليهم من الإمهال وعاجلهم بالعذاب ﴿وأن الله سميع﴾ لما يقول مكذبو الرسل ﴿عليه﴾ بما يفعلون ﴿كذاب آل فرعون﴾ تكرير للتأكيد . وفي قوله ﴿بآيات ربهم﴾ زيادة دلالة على كفران النعم وجحود الحق . وفي ذكر الإغراق بيان للأخذ بالذنوب ﴿وكل كانوا ظالمين﴾ وكلهم من غرق القبط وقتلى قريش كانوا ظالمين أنفسهم بالكفر والمعاصي .

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ الَّذِينَ عَاهَدَتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِذَا تَفَفَّضْنَاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذْكُرُونَ ﴿٥٧﴾

﴿الذين كفروا فهم لا يؤمنون﴾ أى أصروا على الكفر وجأوا فيه ، فلا يتوقع منهم إيمان وهم بنو قريظة ، عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يمالئوا عليه فنكثوا بأن أعانوا مشركي مكة بالسلاح وقالوا : نسينا وأخطأنا ، ثم عاهدهم فنكثوا ومالوا معهم يوم الخندق ، وانطلق كعب بن الأشرف إلى مكة خالفهم ﴿الذين عاهدت منهم﴾ بدل من الذين كفروا ، أى الذين عاهدتهم من الذين كفروا جعلهم شر الدواب ، لأن شر الناس الكفار ، وشر الكفار المصرون منهم ، وشر المصرين الناكثون للعهود ﴿وهم لا يتقون﴾ لا يخافون عاقبة العذر ولا يبالون ما فيه من العار والنار ﴿فإما تفتقنهم في الحرب﴾ فيما تصادفهم وتظفرن بهم ﴿فشرد بهم من خلفهم﴾ ففرق عن محاربتك ومناصبتك بقتلهم شر قتلة والنسكاية فيهم ، من وراءهم من الكفرة ، حتى لا يجسر عليك بعدهم أحد ، اعتباراً بهم واتعاضاً بحالهم . وقرأ ابن مسعود رضى الله عنه : فشرد ، بالذال المعجمة ، بمعنى : ففرق ، وكأنه مقلوب وشذر ، من قولهم وذهبوا شذرا مذر<sup>(١)</sup> ، ومنه : الشذر : المتلقط من المعدن لتفرقه . وقرأ أبو حيوة : من خلفهم . ومعناه : فافعل

(١) قوله وكأنه مقلوب شذر ، من قولهم ذهبوا شذرا مذر ، بفتحات : أى في كل وجهة . اهـ صحاح . (ع)

التشريد من ورائهم ، لأنه إذا شرد الذين وراءهم فقد فعل التشريد في الوراء وأوقعه فيه ؛ لأن الوراء جهة المشردين ، فإذا جعل الوراء ظرفاً للتشريد فقد دلّ على تشريد من فيه ، فلم يبق فرق بين القراءتين ﴿لعلمهم يذكرون﴾ لعلّ المشردين من ورائهم يتعظون .

وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

الْخَائِنِينَ ﴿٥٨﴾

﴿وَأَمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ﴾ معاهدين ﴿خِيَانَةً﴾ ونكثاً بأمارات تلوح لك ﴿فانْبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ فاطرح إليهم العهد ﴿على سواء﴾ على طريق مستو قصد ، وذلك أن تظهر لهم نبذ العهد وتخبرهم إخباراً مكشوفاً بينما أنك قطعت ما بينك وبينهم ، ولا تتأجرهم الحرب وهم على توهم بقاء العهد فيكون ذلك خيانة منك ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ فلا يكن منك إخفاء نكث العهد والخداع وقيل : على استواء في العلم بنقض العهد . وقيل على استواء في العداوة . والجار والمجرور في موضع الحال ، كأنه قيل : فانْبِذْ إِلَيْهِمْ ثابتاً على طريق قصد سوى ، أو خاصلين على استواء في العلم أو العداوة ، على أنها حال من النابذ والمنبذ إليهم معاً .

وَلَا يُحْسِنُ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبْقُوا إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾

﴿سَبِقُوا﴾ أفلتوا وفاتوا من أن يظفر بهم ﴿إِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إنهم لا يفوتون ولا يجدون طالبهم عاجزاً عن إدراكهم . وقرئ : أنهم ، بالفتح ، بمعنى : لأنهم ، كل واحدة من المكسورة والمفتوحة تعليل ، إلا أن المكسورة على طريقة الاستئناف ، والمفتوحة تعليل صريح وقرئ : يعجزون ، بالتشديد . وقرأ ابن محيصن : يعجزون ، بكسر النون . وقرأ الأعشى : ولا تحسب الذين كفروا ، بكسر الباء وبفتحا ، على حذف النون الخفيفة . وقرأ حمزة : ولا يحسبن بالياء على أن الفعل للذين كفروا . وقيل فيه : أصله أن سبقوا ، فحذفت أن ، كقوله (ومن آياته يريكم البرق) واستدل عليه بقرامة ابن مسعود رضي الله عنه : أنهم سبقوا . وقيل : وقع الفعل على أنهم لا يعجزون ، على أن دلاء صلة ، وسبقوا في محل الحال ، بمعنى سابقين أى مفتتين هارين . وقيل معناه : ولا يحسبنهم الذين كفروا سبقوا ، فحذف الضمير لكونه مفهوماً . وقيل : ولا يحسبن قبيل المؤمنين الذين كفروا سبقوا . وهذه الأقاويل كلها متمحلة ، وليست هذه القراءة التي تفرد بها حمزة بنيرة . وعن الزهري أنها نزلت فيمن أفلت من قل المشركين .

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ

وَعَدُوكُمْ وَأَخْرَبَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ﴿٦٠﴾

(من قوة) من كل ما يتقوى به في الحرب من عددها. وعن عقبة بن عامر <sup>(١)</sup> : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على المنبر : «ألا إن القوة الرمي» <sup>(٢)</sup> ، قالها ثلاثاً. ومات عقبة عن سبعين قوساً في سبيل الله. وعن عكرمة : هي الحصون ، والرباط : اسم للخيل التي تربط في سبيل الله. ويجوز أن يسمى بالرباط الذي هو بمعنى المراقبة. ويجوز أن يكون جمع رباط كفصيل وفصال. وقرأ الحسن : ومن ربط الخيل ، بضم الباء وسكونها جمع رباط. ويجوز أن يكون قوله (ومن رباط الخيل) تخصيصاً للخيل من بين ما يتقوى به ، كقوله (وجبريل وميكال) وعن ابن سيرين رحمه الله أنه سئل عن أوصى بثلك ماله في الحصون ؟ فقال : يشتري به الخيل ، فيربط في سبيل الله ويفرز عليها ، فقيل له : إنما أوصى في الحصون ، فقال : ألم تسمع قول الشاعر :

\* أَنْ الْحُصُونِ الْخَيْلُ لَأَمْدَرُ الْقَرَى \* <sup>(٣)</sup>

(ترهبون) قرئ بالتخفيف والتشديد. وقرأ ابن عباس ومجاهد رضي الله عنهما تخزون والضمير في (به) راجع إلى ما استطعتم (عدو الله وعدوكم) هم أهل مكة (وآخرين من دونهم) هم اليهود وقيل المناقضون وعن السدي هم أهل فارس ، وقيل كفرة الجن ، وجاء في الحديث . إن الشيطان لا يقرب صاحب فرس ولا داراً فيه . فرس عتيق ، وروى أن صهيل الخيل يرهب الجن <sup>(٤)</sup>

(١) قال محمود : «القوة الرمي» ، روى عقبة بن عامر أنها الرمي ... الخ ، قال أحمد : والمطابق للرمي أن يكون الرباط على بابه مصدراً ، والله أعلم ، وهو حسبي ونعم الوكيل .  
(٢) أخرجه مسلم أتم منه .

(٣) ولقد علت على تجني الردي أن الحصون الخيل لامد القرى

لا شعر الجمعي ، يقول : ولقد تيقنت مع أني متجنب للردي أن الحصون المانعة منه هي الخيل وآلات الحرب لا البناء ، كإقلاع التي في القرى . وأتى بقوله «على تجني الردي» ، لدفع توم أنه رجل يلقي بنفسه إلى التهلكة فلذلك يجب الحرب ، فهو من باب الاحتراس . ويروي : على توقي الردي - بتشديد الياء - أي : مع أن أتوق الملاك . قال رجل لعبيد الله بن الحسن : إن أبي أوصى بثلك ماله للحصون . قال : اذهب فاشتر به خيلاً . قال : إنما ذكر الحصون . فقال : أما سمعت قول الأشعر . فأنشد البيت .

(٤) لم أجده هكذا ، وروى ابن سعد والطبراني وابن عدي من رواية سعيد بن سنان عن يزيد بن عبد الله ابن عريب عن أبيه عن جده . رفعه في قوله عز وجل (وآخرين من دونهم - الآية) قال : هم الجن ، وإن يمتل الشيطان إنساناً في داره فرس عتيق وأمله ابن عدي ، بسعيد بن سنان وضعفه عن أبي معين ، وغيره ، وله شاهد =

وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾  
 جنع له وإليه : إذا مال . والسلم تؤنث تأنيث نقيضها وهي الحرب قال :

السلم تأخذ منها ما رزيت به . والحرب يكفيك من أنفاسها جرع<sup>(١)</sup>  
 وقرئ بفتح السين وكسرهما . وعن ابن عباس رضى الله عنه أن الآية منسوخة بقوله تعالى  
 ﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله﴾ وعن مجاهد بقوله ﴿قاتلوا المشركين حيث وجدتموهم﴾  
 والصحيح أن الأمر موقوف على ما يرى فيه الامام صلاح الإسلام وأهله من حرب أو سلم ،  
 وليس بحتم أن يقاتلوا أبدا ، أو يجابوا إلى الهدنة أبدا . وقرأ الأشهب العقيلي . فاجنع بضم  
 النون ﴿وتوكل على الله﴾ ولا تخف من إبطانهم المكر في جنوحهم إلى السلم ، فإن الله كافيك  
 وعاصمك من مكرم وخديعتهم . قال مجاهد ، يريد قريظة .

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسِبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِخَبْرِهِ  
 وَإِلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَفْتَ  
 بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾  
 ﴿فإن حسبك الله﴾ فإن حسبك الله : قال جرير :

إِنِّي وَجَدْتُ مِنَ الْمَكَارِمِ حَسْبَكُمْ أَنْ تَلْبَسُوا خِرَ الثِّيَابِ وَتَشْبِعُوا<sup>(٢)</sup>  
 ﴿وألف بين قلوبهم﴾ التآليف بين قلوب من بعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم من  
 الآيات الباهرة ، لأن العرب - لما فهم من الحمية والعصية ، والانطواء على الضغينة في أدنى  
 شيء وإلقائه بين أعينهم إلى أن ينتقموا - لا يكاد يأتلف منهم قلبان ، ثم اتلفت قلوبهم على اتباع

== من رواية الوضين بن عطاء عن سليمان بن موسى مرسل ، ولا بن مردويه من طريق الضحاك عن ابن عباس في  
 هذه الآية قال : هو الشيطان ، لا يقرب ناصية فرس وإسناده واه . وقوله : «روى أن صول الخيل يطرد الجن ،  
 لم أجده .

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٥٢ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) إِنِّي وَجَدْتُ مِنَ الْمَكَارِمِ حَسْبَكُمْ أَنْ تَلْبَسُوا خِرَ الثِّيَابِ وَتَشْبِعُوا

فَإِذَا تَذَوَّكَتِ الْمَكَارِمُ مَرَّةً فِي مَجْلَسٍ أَنْتُمْ بِهِ تَفْتَقَهُوا

لجرير ، أى : إِنِّي وَجَدْتُ كَافِيَكُمْ مِنَ الْمَكَارِمِ لِبَسِ الْخِرَ مِنَ الثِّيَابِ وَالشَّبْعِ مِنَ الطَّعَامِ وَالثَّرَابِ ، وجعلهما من  
 المكارم تكافيه . أو على وجههم ، أو المعنى : ممتنكم عنها هاتان الخصلتان ، فن للبدل ، أو المعنى : إن كان ذلك  
 من المكارم فهو كافيتكم لما التكم فيه . ويروى : خِر الثياب ، بمهملتين ، أى جيدها . وتذوكرت : مبنى للجهول ،  
 أى : فإذا تذاكر الناس بالمكارم ولومرة واحدة ففعلوا وجوهكم حياء كالنساء فسلمت من المكارم في شيء .

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتحدوا ، وأنشؤا يرمون عن قوس واحدة ، وذلك لما نظم الله من ألفتهم وجمع من كلمتهم ، وأحدث بينهم من التحاب والتواد ، وأماط عنهم من التباغض والتماقت ، وكلفهم من الحب في الله والبغض في الله ، ولا يقدر على ذلك إلا من يملك القلوب . فهو يقلبها كما شاء ، ويصنع فيها ما أراد ، وقيل : هم الأوس والخزرج ، كان بينهم من الحروب والوقائع ما أهلك سادتهم ورؤسأهم ودق جماجمهم ، ولم يكن لبغضائهم أمد ومنتهى ، وبينهما التجاور الذى يهيج الضغائن ويديم التحاسد والتنافس ، وعادة كل طائفتين كانتا بهذه المثابة أن تتجنب هذه ما آثرته أختها وتكرهه وتنفر عنه ، فأنساهم الله تعالى ذلك كله حتى اتفقوا على الطاعة وتصافوا وصاروا أنصاراً وعادوا أعواناً ، وما ذاك إلا بلطيف صنعه وبلغ قدرته

بِأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾

(ومن اتبعك) الواو بمعنى مع وما بعده منصوب ، تقول : حسبك وزيداً درهم ، ولا تجز ؛ لأن عطف الظاهر المجرور على المسكنى ممتنع قال :

\* فَحَسْبُكَ وَالضُّحَاكَ عَضْبٌ مُهَنْدٌ \* (١)

والمعنى : كفاك وكفى أتباعك من المؤمنين الله ناصر أو يكون فى محل الرفع : أى كفاك الله وكفاك المؤمنون ، وهذه الآية نزلت بالبيداء فى غزوة بدر قبل القتال ، وعن ابن عباس رضى الله عنه نزلت فى إسلام عمر رضى الله عنه ، وعن سعيد بن جبير أنه أسلم مع النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثة وثلاثون رجلاً وست نسوة ثم أسلم عمر ، فنزلت .

بِأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَبِيرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

(١) إذا كانت الهجاء واشتقت العصا فحسبك والضحاك سيف مهند

يقول : إذا وجدت الحرب واقتربت العصبة ووقع الخلاف وظهر الشر فيكفيك مع الضحاك سيف مطابق من حديد الهند ، فاشتقاق العصا لتمثيل لوقوع الخلاف وظهور الشر . وحسب : اسم فعل بمعنى يكنى . والكاف مفعوله . والضحاك مفعول معه . وسيف فاعله . والجمهور على أنه صفة مشبهة بمعنى كافى مبتدأ ، والكاف مضاف إليه . وسيف خبره . والضحاك مفعول محذوف ، أى يكنى لأن الصفة المشبهة لاتصّب المفعول معه . وروى الضحاك بالجر ، أى : وحسب الضحاك ، وبالرفع على إناجه مناب وحسب المحذوف . والوار للبيعة على الأول ، وللعطف على غيره ويروى : غضب مهند . والغضب : السيف القاطع .



يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ  
بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾

التحريض : المبالغة في الحث على الأمر من الحرض ، وهو أن يهكك المرض ويتبالغ فيه حتى يشقى على الموت ، أو أن تسميه حرضاً : وتقول له : ما أراك إلا حرضاً في هذا الأمر ومعرضاً فيه ، ليهيج ويجزك منه . ويقال : حركة وحرضه وحرصه وحرشه وحربه ، بمعنى ، وقرئ حرض ، بالصاد غير المعجمة ، حكاهما الاخفش ، من الحرض ، وهذه عدة من الله وبشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكفار بعون الله تعالى وتأنيده ، ثم قال ( بأنهم قوم لا يفقهون ) أى بسبب أن الكفار قوم جهلة يقاتلون على غير احتساب وطلب ثواب كآلهاثم ، فيقل ثباتهم ويعدمون لجهلهم بالله نصرته ويستحقون خذلانه ، خلاف من يقاتل على بصيرة ومعه ما يستوجب به النصر والإظهار من الله تعالى . وعن ابن جريج كان عليهم أن لا يفروا ويثبت الواحد منهم للعشرة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث حمزة رضى الله عنه في ثلاثين راكباً ، فلقى أباجهل في ثلثائة راكب . قيل : ثم نقل عليهم ذلك وضجوا منه ، وذلك بعد مدة طويلة ، فنسخ وخفف عنهم بمقاومة الواحد الاثنين ، وقيل : كان فيهم قلة في الابتداء ، ثم لما كثروا بعد نزل التخفيف . وقرئ : ضعفاً ، بالفتح والضم ، كالمكث والمكث ، والفقر والفقر . وضعفاً : جمع ضعيف . وقرئ الفعل المستند إلى المائة بالتاء والياء في الموضعين ، والمراد بالضعف : الضعف في البدن . وقيل : في البصيرة والاستقامة في الدين ، وكانوا متفاوتين في ذلك فإن قلت : لم كثر المعنى الواحد وهو مقاومة الجماعة لا كثر منها مرتين قبل التخفيف وبعده ؟ قلت : للدلالة على أن الحال مع القلة والكثرة واحدة لا تتفاوت ؛ لأن الحال قد تتفاوت بين مقاومة العشرين المائتين والمائة الآلاف ، وكذلك بين مقاومة المائة المائتين والآلاف الآلاف .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُنْجِنَ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُونَ عَرَصَ  
الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ  
أَمْرُكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾

وقرئ : للنبي ، على التعريف . وأسارى . وينجن ، بالتشديد . ومعنى الإثخان : كثرة القتل والمبالغة فيه ، من قولهم : أثخنه الجراحات إذا أثبته حتى تنقل عليه الحركة . وأثخنه المرض إذا أثقله من الثخانة التي هي الغلظ والكثافة ، يعنى حتى يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل

في أهله ، ويعز الإسلام ويقويه بالاستيلاء والقهر . ثم الأسر بعد ذلك . ومعنى ﴿ ما كان ﴾ ما صح له وما استقام ، وكان هذا يوم بدر ، فلما كثر المسلمون نزل ﴿ فإما مئاً بعد وإما فداء ﴾ وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أتى بسبعين أسيراً فيهم العباس عمه وعقيل بن أبي طالب ، فاستشار أبا بكر رضى الله عنه فيهم <sup>(١)</sup> فقال : قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم ، وخذ منهم فدية تقوى بها أصحابك . وقال عمر رضى الله عنه : كذبوك وأخرجوك فقدّمهم واضرب أعناقهم ، فإن هؤلاء أئمة الكفر ، وإن الله أغناك عن الفداء : مكن علياً من عقيل ، وحمزة من العباس ، ومكنى من فلان لنسب له ، فلتنضرب أعناقهم . فقال صلى الله عليه وسلم : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم ، قال ﴿ فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم ﴾ ومثلك ياعمر مثل نوح ، قال ﴿ رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً ﴾ ثم قال لأصحابه : أتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد منكم إلا بفداء أو ضرب عنق . وروى أنه قال لهم : إن شئتم قتلتموه ، وإن شئتم فاديتموهم ، واستشهد منكم بعدتهم ، فقالوا : بل نأخذ الفداء ، فاستشهدوا <sup>(٢)</sup> بأحد : وكان فداء الأسارى عشرين أوقية ، وفداء العباس أربعين أوقية . وعن محمد بن سيرين : كان فداؤهم مائة أوقية ، والأوقية أربعون درهما وستة دنانير <sup>(٣)</sup> . وروى أنهم لما أخذوا الفداء نزلت الآية ، فدخل عمر على رسول الله

(١) أخرجه مسلم عن ابن عباس عن عمر في حديث طويل ، وقد تقدم طرف منه في أوائل السورة . وفي الباب عن أبي عبيدة بن عبد الله بن مسعود عن أبيه كما سيأتي قريباً .

(٢) قوله وروى أنه قال لهم : إن شئتم قتلتم وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدتهم : فقالوا : بلى . فأخذ الفداء فاستشهدوا بأحد . أخرجه الطبري من طريق أشعث بن سوار عن محمد بن سيرين عن عبيدة هو ابن عمرو قال « أسر المسلمون من المشركين سبعين وقتلوا سبعين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم اختاروا أن تأخذوا منهم الفداء . ففتقوا به على عدوك ويقتل منكم سبعين ، أو قتلوه ، فقالوا : بل نأخذ الفدية منهم ويقتل منا سبعون ، قال فأخذوا منهم الفدية ، وقتل سبعون ورواه ابن مردويه موصولاً من طريق ابن عون . عن ابن سيرين عن عبيدة عن علي وزاد فيه : قال « وكان آخر السبعين ثابت بن قيس بن شماس ، وروى الواقدي في المغازي من طريق يحيى ابن أبي كثير . عن علي . قال « أتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر فغيره في الأسرى . أن يضرب أعناقهم . أو يأخذ منهم الفداء ويستشهد منكم في قابل عدتهم . الحديث مع ضعفه وهو منقطع .

(٣) قوله « وكان فداء الأسارى عشرين أوقية وفداء العباس أربعين أوقية والأوقية أربعون درهما وستة دنانير » أما كون الفداء كان عشرين أوقية . فروى الطبري من طريق عبيدة بن عمر قال « كان فداء أسارى بدر مائة أوقية والأوقية أربعون درهما ومن الدنانير ستة دنانير . وأما فداء العباس رضى الله عنه . فروى ابن مردويه من طريق علي وابن عباس ، قال كان العباس يوم بدر أسيراً فافتدى نفسه بأربعين أوقية ذهب » وروى ابن مردويه . من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال « لما كان يوم بدر أسر سبعون فجعل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين أوقية ذهباً وجعل على عمه العباس مائة أوقية : وعلى عقيل ثمانين ، فقال القرابة صنعت هذا . الحديث .

صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر بيكيان <sup>(١)</sup> فقال : يا رسول الله أخبرني ، فإن وجدت بكاء بكيت ، وإن لم أجد بكاء تبأكيت ، فقال : أبكى على أصحابك في أخذهم الفداء ، ولقد عرض على عذابهم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منه - وروى أنه قال : لو نزل عذاب من السماء لما نجا منه غير عمر وسعد بن معاذ ، رضى الله عنهما ، لقوله كان الإثنان في القتل أحب إلى <sup>(٢)</sup> ﴿ عرض الدنيا ﴾ حطامها ، سمى بذلك لأنه حدث قليل اللبث ، يريد الفداء ﴿ والله يريد الآخرة ﴾ يعنى ما هو سبب الجنة من إعزاز الإسلام بالإثنان في القتل . وقرئ : يريدون ، بالياء . وقرأ بعضهم والله يريد الآخرة ، بجز الآخرة على حذف المضاف وإبقاء المضاف إليه على حاله ، كقوله :

أَسْأَلُ أَمْرِي تَحْسِينَ أَمْرًا وَنَارٍ تَوْقَدُ بِاللَّسْلِ نَارًا <sup>(٣)</sup>

ومعناه والله يريد عرض الآخرة . على التقابل ، يعنى ثوابها ﴿ والله عزيز ﴾ يغلب أوليائه على أعدائه ويتكئون منهم قتلا وأسرا ويطلق لهم الفداء ، ولكنه ﴿ حكيم ﴾ يؤخر ذلك إلى أن يكثرُوا ويعزُوا وهم يعملون ﴿ لولا كتاب من الله سبق ﴾ لولا حكم منه سبق إثباته في اللوح وهو أنه لا يعاقب أحد بخطأ ، وكان هذا خطأ في الاجتهاد ؛ لأنهم نظروا في أن استبقاهم ربما كان سيئاً في إسلامهم وتوبتهم ، وأن فداءهم يتقوى به على الجهاد في سبيل الله ، وخفى عليهم أن قتلهم أعز للإسلام وأهيب لمن وراهم وأفل لشوكتهم . وقيل كتابه أنه سيحل لهم الفدية التي أخذوها . وقيل : إن أهل بدر مغفور لهم . وقيل : إنه لا يعذب قوماً إلا بعد تأكيد الحجة وتقديم النهي ، ولم يتقدم نهى عن ذلك ﴿ فكلوا مما غنمتم ﴾ روى أنهم أمسكوا عن الغنائم ولم

(١) أخرجه أحد الطبري . من رواية الأعمش عن عمر بن سمرة عن أبي عبيدة عن عبد الله فذكره مطولاً .

(٢) أخرجه الطبري من طريق ابن إسحاق قال لم يكن أحد من المؤمنين من حضر بدرًا إلا أحب الغنائم غير عمر بن الخطاب فإنه جعل لا يلقى أسيراً إلا ضرب عنقه وقال سعد بن معاذ : يا رسول الله الإثنان في القتل أحب إلى من استبقاه الرجال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو نزل من السماء عذاب لما نجا منه غير عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ » ورواه الواقدي في المغازي من وجه آخر منقطع بمعناه . وروى ابن مردويه من حديث ابن عمر رفعه « لو نزل العذاب . ما أفلت منه إلا ابن الخطاب » .

(٣) لآبي دود . وقيل لحارثة بن حمران الأيادي ، وهو من أبيات الكتاب . والمهزة للاستفهام الإنكارى ، يخاطب امرأة ، أو نفسه ، أى : لا تحبى أن كل رجل رجل كامل ، ولا تحبى أن كل نار تتوقد في الليل نار متوقدة لقرى الضيفان ، يعنى أن الرجل هو الكريم الضجاع ، والنار هي نار القرى لا غير . وحذف المضاف مع بقاء المضاف إليه على حالة الإضافة مطرد ، إذا عطف على مثله ليدل عليه كما هنا ، وإلا فهو سماعي ، بل مطرد عند الكوفيين ولو بغير عطف . ونار مجرور بمضاف محذوف ؛ ولا يصح عطفه على امرئ . وعطف المصوب على المنصوب لتلازم العطف على معمولي عاملين مختلفين ، وهما « كل » و « تحسبن » ، وهو منوع عند سيويه ومن وافقه .

يَمْدُوا أَيْدِيهِمْ إِلَيْهَا ، فزلت . وقيل : هو إباحة للفداء ، لأنه من جملة الغنائم ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ فلا تقدموا على شيء لم يعهد إليكم فيه .

فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٩﴾

فإن قلت : ما معنى الفاء ؟ قلت : التسيب والسبب بخدوف ، معناه : قد أجمعت لكم الغنائم فكلوا بما غنمتم . وحلالا : نصب على الحال من المغنوم ، أو صفة للبصدر ، أى أكلا حلالا . وقوله ﴿ إن الله غفور رحيم ﴾ معناه أنكم إذا اتقيتموه بعد ما فرط منكم من استباحة الفداء قبل أن يؤذن لكم فيه ، غفر لكم ورحمكم وتاب عليكم .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنَّ يَعْلَمَ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِيكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾

﴿ في أيديكم ﴾ في ملكتكم ، كأن أيديكم قابضة عليهم . وقرئ : من الأسرى ﴿ في قلوبكم خيرا ﴾ خلوص إيمان وصحة نية ﴿ يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ﴾ من الفداء ، إما أن يخلفكم في الدنيا أضعافه ، أو يثيبكم في الآخرة . وفي قراءة الأعمش : يثبكم خيرا . وعن العباس رضى الله عنه أنه قال : كنت مسلما ، لكنهم استكروهني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن يكن ما تذكره حقا فالله يحجزيك ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا <sup>(١)</sup> وكان أحد الذين ضمنوا إطعام أهل بدر وخرج بالذهب لذلك . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال للعباس : « أفد ابن أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث ، فقال : يا محمد ، تركتني أتكفف قريشا ما بقيت . فقال له : فأين الذهب الذى دفعته إلى أتم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها : لا أدري ما يصيبني في وجهي هذا ، فإن حدث في حدث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل : فقال العباس وما يدريك ؟ قال : أخبرني به ربي ، قال العباس : فأنا أشهد أنك صادق ، وأن لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ، ولقد دفعته إليها في سواد الليل ، ولقد كنت مرتابا في أمرك ، فأما إذ أخبرتني بذلك فلا ريب . قال العباس رضى الله عنه : فأبدلني الله خيرا من ذلك ، لى الآن عشرون عبدا ، إن أدناهم ليضرب في عشرين ألفا ، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة ، وأنا أنتظر المغفرة من ربي <sup>(٢)</sup> . وروى أنه قدم على رسول الله

(١) أخرجه ابن إسحاق في المنازى ، والحاكم من طريقه - حدثني يحيى بن عباد عن أبيه عن عائشة قالت : لما بعث أهل مكة في فداء أسرم وبشت زيب في فداء أبى العاص قال العباس يا رسول الله إني كنت مسلما . فذكره (٢) هو الذى قبله بتمامه بالاستناد المذكور . ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريق إسحاق : حدثني بعض أصحابنا عن مقسم عن ابن عباس . بمعناه مطولا . ورواه ابن مردويه من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس بمعناه ، وفيه محمد بن حيد الرازى ، وهو ضعيف ، وقوله « وكان العباس أحد الذين ضمنوا إطعام بدر ، وخرج بالذهب لذلك » لم أجد هذا .

صلى الله عليه وسلم مال البحرين ثمانون ألفاً ، فتوضاً لصلاة الظهر وما صلى حتى فرقه ، وأمر العباس أن يأخذ منه ما قدر على حمله ، وكان يقول : هذا خير مما أخذ مني وأرجو المغفرة (١) وقرأ الحسن وشيبة : بما أخذ منكم ، على البناء للفاعل .

وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

﴿ وإن يريدوا خيانتك ﴾ نكت ما بايعوك عليه من الإسلام والردة واستحياب دين آبائهم ﴿ فقد خانوا الله من قبل ﴾ في كفرهم به ونقض ما أخذ على كل عاقل من ميثاقه ﴿ فأمكن منهم ﴾ كما رأيت يوم بدر فسيمكن منهم إن أعادوا الخيانة . وقيل : المراد بالخيانة منع ما ضمنوا من الفداء .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَالَكُمْ مِنْ وَلَا يَتِيهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنْ أَسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبِينَكُمْ وَيَبِينُهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

الذين هاجروا : أى فارقوا أوطانهم وقومهم حبا لله ورسوله : هم المهاجرون . والذين آووه إلى ديارهم ونصروهم على أعدائهم : هم الأنصار ﴿ بعضهم أولياء بعض ﴾ أى يتولى بعضهم بعضاً فى الميراث ، وكان المهاجرون والأنصار يتوارثون بالهجرة والنصرة دون ذوى القربات ، حتى نسخ ذلك بقوله تعالى ( وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض ) وقرئ : من ولايتهم ، بالفتح والكسر ، أى من توليهم فى الميراث . ووجه الكسر أن تولى بعضهم بعضاً شبه بالعمل والصناعة ، كأنه بتولى صاحبه يزاول أمراً ويباشر عملاً ﴿ فعليكم النصر ﴾ فواجب عليكم أن تنصروهم على المشركين ﴿ إلا على قوم ﴾ منهم ﴿ بينكم وبينهم ﴾ عهد فإنه لا يجوز لكم نصرهم عليهم لأنهم لا يبتدئون بالقتال ، إذ الميثاق مانع من ذلك .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ

وَفَسَادٌ كَثِيرٌ ﴿٧٣﴾

(١) أخرجه الطبري حدثنا بشر بن معاذ حدثنا يزيد . حدثنا سعد بن أبي عروبة . عن قتادة هكذا . وروى الحاكم فى فضائل العباس من طريق سليمان بن المغيرة عن حميد بن هلال . عن أبي موسى . أن العلاء بن الحضرمي بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من البحرين ثمانين ألفاً فأمر بها فنثرت على الحصار ونودى بالصلاة ... الحديث ،

(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) ظاهره إثبات الموالاة بينهم كقوله تعالى في المسلمين (أولئك بعضهم أولياء بعض) ومعناه: نهى المسلمين عن موالاة الذين كفروا وموارثهم وإيجاب مباحثتهم ومصارمتهم وإن كانوا أقارب، وأن يتركوا يتوارثون بعضهم بعضاً ثم قال: (إلا تفعلوه) أي إلا تفعلوا ما أمرتكم به من تواصل المسلمين وتولي بعضهم بعضاً حتى في التوارث، تفضيلاً لنسبة الإسلام على نسبة القرابة ولم تقطعوا العلائق بينكم وبين الكفار. ولم تجعلوا قراباتهم كالأقربة تحصل فتنة في الأرض ومفسدة عظيمة، لأن المسلمين ما لم يصيروا يداً واحدة على الشرك، كان الشرك ظاهراً والفساد ذاتداً. وقرئ كثير بالثاء.

وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصَرُوا  
أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ بَعْدِ  
وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ  
فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

(أولئك هم المؤمنون حقا) لأنهم صدقوا إيمانهم وحققوه، بتحصيل مقتضياته من هجرة الوطن ومفارقة الأهل والانسلاخ من المسال لأجل الدين، وليس بتكرار لأن هذه الآية واردة للثناء عليهم والشهادة لهم<sup>(١)</sup> مع الموعد الكريم، والأولى للآمر بالتواصل (والذين آمنوا من بعد) يريد اللاحقين بعد السابقين إلى الهجرة، كقوله (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان) ألحقهم بهم وجعلهم منهم تفضيلاً منه وترغيباً (وأولو الأرحام) أولو القرابات أو أولى بالتوارث، وهو نسخ للتوارث بالهجرة والنصرة (في كتاب الله) تعالى في حكمه وقسمته. وقيل في اللوح. وقيل في القرآن، وهو آية الموارث وقد استدل به أصحاب أبي حنيفة رحمه الله على توريث ذوى الأرحام.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، من قرأ سورة الانفال وبرائة فأنا شفيع له يوم القيامة، وشاهد أنه برىء من النفاق وأعطى عشر حسنات بعد كل منافق ومنافقة، وكان العرش وحملة يستغفرون له أيام حياته في الدنيا،<sup>(٢)</sup>

(١) قوله: والشهادة لهم، لعله: والشهادة لهم بالإيمان. (ع)

(٢) ذكرت أسانيد في تفسير آل عمران.

## سورة التوبة

مدنية [إلا الآيتين الأخيرتين فمكيتان]

وآياتها ١٣٠ وقيل ١٢٩ [نزلت بعد المائدة]

لها عدة أسماء: برامة، التوبة، المقشقة، المبعثرة، المشردة، المخزية، الفاضحة، المثيرة، الحافرة، المنكحة، المدمدة، سورة العذاب، لأن فيها التوبة على المؤمنين، وهي تقشش من النفاق أى تبرئ منه، وتبعض عن أسرار المنافقين تبحث<sup>(١)</sup> عنها وتثيرها وتحفر عنها وتفضحهم وتسلكهم وتشرد بهم وتخزيهم وتدمدم عليهم. وعن حذيفة رضى الله عنه: إنكم تسمونها سورة التوبة، وإنما هي سورة العذاب، والله ما تركت أحداً إلا نالت منه. فإن قلت: هلا صدرت بآية التسمية كافي سائر السور؟ قلت: سأل عن ذلك عبد الله بن عباس عثمان رضى الله عنهما فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا نزلت عليه السورة أو الآية قال: اجعلوها في الموضع الذى يذكر فيه كذا وكذا، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين لنا أين نضعها، وكانت قصتها شبيهة بقصتها<sup>(٢)</sup>، فلذلك قرنت بينهما، وكاتتا تدعيان القرينتين<sup>(٣)</sup>. وعن أبي كعب: إنما توهموا ذلك، لأن في الانبهاى ذكر العهود وفي برامة نبد اليهود. وسئل ابن عيينة رضى الله عنه فقال: اسم الله سلام وأمان، فلا يكتب في النبذ والمحاربة، قال تعالى (ولا تقولوا لمن أتى إليكم السلام است مؤمناً) قيل: فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد كتب إلى أهل الحرب: بسم الله الرحمن الرحيم. قال: إنما ذلك ابتداء يدعوهم ولم ينبذ إليهم، ألا تراه يقول (سلام على من اتبع الهدى<sup>(٤)</sup>) فمن دعى إلى الله عز وجل فأجاب ودعى<sup>(٥)</sup> إلى الجزية فأجاب فقد اتبع الهدى، وأما النبذ فإنما هو البرامة

(١) قوله «تبحث» لعله أى تبحث. (ع)

(٢) قوله «شبيهة بقصتها» هذا الضمير للانفال، بدليل التشبيه، وإن لم يجر لها ذكر هنا. وعبارة الحازن ولم يبين لنا أين نضعها، وكانت الانفال من أوائل منازل بالمدنية، وكانت التوبة من آخر ما نزل من القرآن، وكانت قصتها... الخ. (ع)

(٣) أخرجه أصحاب السنن، وابن حبان وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والبخاري. من طريق يوسف بن مهزيب. وبزيد الفارسي. عن ابن عباس. قال وسألت عثمان بن عفان، ما حكم أن عمدتم إلى الانفال وهي من المثاني وإلى برامة وهي من المثني، فقرتم بينهما فذكر الحديث بطوله سوى قوله وكاتتا تدعيان القرينتين، فلم يذكرها إلا إسحاق (٤) هو في حديث ابن عباس الطويل عن أبي سفيان. وهو متفق عليه. وفيه فقرأ الكتاب فإذا فيه

بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى. الحديث.

(٥) قوله «ودعى» لعله: أودعى. (ع)

واللعنة، وأهل الحرب لا يسلم عليهم، ولا يقال: لا تفرق ولا تحف، ومترس<sup>(١)</sup> ولا بأس: هذا أمان كله. وقيل: سورة الأنفال والتوبة سورة واحدة، كلتاهما نزلت في القتال، تعدان السابعة من الطول<sup>(٢)</sup> وهى سبع وما بعدها المثون، وهذا قول ظاهر: لأنهما معاً مائتان وست، فهما بمنزلة إحدى الطول. وقد اختلف أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم: الأنفال وبراءة سورة واحدة. وقال بعضهم: هما سورتان، فتركت بينهما فرجة لقول من قال: هما سورتان، وتركت بسم الله الرحمن الرحيم لقول من قال: هما سورة واحدة.

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ (١) فَيَسْجُودُ فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةً أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَصَيْتُمْ مَعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ

### مُخْزِي الْكَافِرِينَ ۝ (٢)

(براءة) خبر مبتدأ محذوف أى هذه براءة و(من) لا ابتداء الغاية، متعلق بمحذوف وليس بصلة، كما في قولك: برئت من الدين. والمعنى: هذه براءة واصله من الله ورسوله (إلى الذين عاهدتم) كما يقال: كتاب من فلان إلى فلان. ويجوز أن يكون (براءة) مبتدأ لتخصيصها بصفتها، والخبر (إلى الذين عاهدتم) كما تقول: رجل من بني تميم في الدار. وقرئ (براءة) بالنصب، على: اسمعوا براءة. وقرأ أهل نجران (من الله) بكسر النون، والوجه الفتح مع لام التعريف لكثرتة. والمعنى أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين وأنه<sup>(٣)</sup> منبوذ إليهم. فإن قلت: لم علقت البراءة بالله ورسوله والمعاهدة بالمسلمين؟ قلت: قد أذن الله في معاهدة المشركين أولاً فاتفق المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعاهدوهم، فلما نقضوا العهد أوجب الله تعالى النبذ إليهم، فغوطب المسلمون

(١) قوله «ومترس» بفتح الميم والتاء وسكون الراء: فارسي، معناه: أمان. (ع)

(٢) قوله «من الطول» الطول - بكسر ففتح - بمعنى الطويلة. أفاده الصحاح. وعبارة غيره: الطوال.

(٣) قال محمود معناه: «أن الله ورسوله قد برئا من العهد الذي عاهدتم به المشركين... الخ» قال أحمد: ووراء ما ذكره سر آخر هو المرعي، والله أعلم. وذلك أن نسبة العهد إلى الله ورسوله في مقام نسب إليه النبذ من المشركين، لا تحسن شرها. ألا ترى إلى وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمراء السرايا حيث يقول لهم: وإذا نزلت بخصم فطلبوا النزول على حكم الله فأنزلهم على حكمك، فانك لا تدري أصادفت حكم الله فيهم أولاً؟ وإن طلبوا ذمة الله فأنزلهم على ذمتك، فلأن تخفر ذمتك خير من أن تخفر ذمة الله. فانظر إلى أمره عليه الصلاة والسلام بتوفير ذمة الله مخافة أن تخفر وإن كان لم يحصل بعد ذلك الأمر المتوقع، فتوفير همد الله وقد تحقق من المشركين التسكك، وقد تبرأ من الله ورسوله بأن لا ينسب العهد المنبوذ إلى الله أخرى وأجدر، فلذلك نسب العهد إلى المسلمين دون البراءة منه، والله أعلم.



بما تجدد من ذلك فقبل لهم : اعلوا أن الله ورسوله قد برثا عما عاهدتم به المشركين . وروى أنهم عاهدوا المشركين من أهل مكة وغيرهم من العرب ، فنكثوا إلا ناساً منهم وهم بنو ضمرة وبنو كنانة فبذل العهد إلى الناكثين ، وأمروا أن يسبحوا في الأرض أربعة أشهر آمين أن ينشأوا لا يتعرض لهم ، وهي الأشهر الحرم في قوله ( فإذا انسلك الأشهر الحرم ) وذلك لصيانة الأشهر الحرم من القتل والقتال فيها ، وكان نزولها سنة تسع من الهجرة وفتح مكة سنة ثمان ، وكان الأمير فيها عتاب بن أسيد ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه على موسم سنة تسع ، ثم أتبعه علياً رضي الله عنه راكب العصابة ليقرأها على أهل الموسم ، فقبل له : لو بعثت بها إلى أبي بكر رضي الله عنه ؟ فقال : لا يؤدي عني إلا رجل مني ، فلما دنا على سمع أبو بكر الرغاء ، فوقف ، وقال : هذا رغاء ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما لحقه قال : أمير أو مأمور ؟ قال : مأمور . وروى أن أبا بكر لما كان ببعض الطريق هبط جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، لا يبلغن رسالتك إلا رجل منك ، فأرسل علياً ، فرجع أبو بكر رضي الله عنهما إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ، أشيء نزل من السماء قال : نعم ، فسر وأنت على الموسم ، وعلى ينادي بالآي . فلما كان قبل التروية خطب أبو بكر رضي الله عنه وحدثهم عن مناسكهم ، وقام على رضي الله عنه يوم النحر عند جرة العقبة فقال : يا أيها الناس ، إني رسول رسول الله إليكم . فقالوا : بماذا ؟ فقرأ عليهم ثلاثين أو أربعين آية <sup>(١)</sup> . وعن مجاهد رضي الله عنه ثلاث عشرة آية ، ثم قال : أمرت بأربع : أن لا يقرب البيت بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنة إلا كل

(١) (قلت) هذا ملحق من مواضع . فصدده مذكور في معازي ابن إسحاق . وقوله وهم بنو ضمرة وبنو كنانة أي الذين نكثوا إلا من امتنعت منهم كما يفهم من ظاهره . وسيأتي بيان ذلك قريباً بعد أحاديث . وذلك أن العهد كان في سنة ست والنكث ونزولها والفتح في سنة ثمان كما سيأتي بعد قليل : أن المدة التي بلا نكث كانت ثمانية عشر شهراً . فعلى هذا كان أول النكث . في شهر ربيع الآخر سنة ثمان هذا هو التحقيق في النقل ، وأما قوله وكان الأمير بها أي في سنة ثمان على مكة وعلى الحج . فهذا ذكره الواقدي في المعازي . وأما قوله فأمر أبو بكر على موسم سنة تسع إلى آخره فهو في الصحيح من حديث أبي هريرة بمعناه . وأما قوله وأتبعه علياً فرواه أحمد ، وأبو يعلى من رواية أبي إسحق عن يزيد بن منيع عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم بعثه براءة إلى أهل مكة . فذكر الحديث وفيه فصار ثلاثاً ثم قال لعلي الحق . ورد على أبا بكر وبلغها قال ففعل ، فلما قدم أبو بكر بكى وقال يا رسول الله حدث في شيء ؟ قال : ما حدث فيك إلا خير . لكنني أمرت أن لا يبلغ إلا أنا أو رجل مني . وفي المستدرک من طريق جميع بن عمير ، أتيت ابن عمر فسألته عن علي فأنهني ثم قال ، ألا أحدثك عن علي إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا بكر وعمير براءة إلى أهل مكة فانطلقا فإذا هما راكب فقلنا من هذا ؟ فقال : أنا علي بن أبي طالب فقال : يا أبا بكر هات الكتاب ، الحديث . وروى . (٢)

(٢) كذا بأحد الأصلين يياض قدر أسطر . وفي الأصل الآخر سقط الكلام ولم يترك يياضاً . اهـ مصححه

نفس مؤمنة ، وأن يتم إلى كل ذى عهد عهده : فقالوا عند ذلك يا على ، أبلغ ابن عمك أنا قد نبذنا العهد وراء ظهورنا ، وأنه ليس بيننا وبينه عهد إلا طعن بالرمح وضرب بالسيف . وقيل : إنما أمر أن لا يبلغ عنه إلا رجل منه : لأن العرب عادت في نقض عهودها أن يتولى ذلك على القبيلة رجل منها ، فلو تولاه أبو بكر رضى الله عنه لجاز أن يقولوا : هذا خلاف ما يعرف فينا من نقض اليهود ، فأزجحت عليهم بتولية ذلك علياً رضى الله عنه . فإن قلت : الأشهر الأربعة ماهي ؟ قلت : عن الزهري رضى الله عنه أن براءة نزلت في شوال ، فهي أربعة أشهر : شوال ، وذو القعدة ، وذو الحجة ، والمحرم ، وقيل هي عشرون من ذى الحجة ، والمحرم ، وصفر ، وشهر ربيع الأول ، وعشر من شهر ربيع الآخر . وكانت حرماً : لأنهم أومئوا فيها وحرم قتلهم وقتالهم . أو على التغليب : لأن ذا الحجة والمحرم . وقيل : لعشر من ذى القعدة إلى عشر من ربيع الأول : لأن الحج في تلك السنة كان في ذلك الوقت للنسب الذى كان فيهم ، ثم صار في السنة الثانية من ذى الحجة . فإن قلت : ما وجه إطباق أكثر العلماء على جواز مقاتلة المشركين في الأشهر الحرم وقد صانها الله تعالى عن ذلك ؟ قلت : قالوا قد نسخ وجوب الصيانة وأبيح قتال المشركين فيها ﴿ غير معجزى الله ﴾ لا تفوتونه وإن أمهلكم ، وهو مخزيكم : أى مذلكم في الدنيا بالقتل وفى الآخرة بالعذاب .

وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتِغُوا فَهَوْاْ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ

مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾

﴿ وأذان ﴾ ارتفاعه كارتفاع براءة على الوجهين ، ثم الجملة معطوفة على مثلها ، ولا وجه لقول من قال : إنه معطوف على براءة ، كما لا يقال : عمرو معطوف على زيد ، في قولك : زيد قائم ، وعمرو قاعد ، والأذان : بمعنى الإيدان وهو الإعلام ، كما أن الأمان والعطاء بمعنى الإيمان والإعطاء . فإن قلت : أى فرق بين معنى الجملة الأولى والثانية ؟ قلت : تلك إخبار بثبوت البراءة . وهذه إخبار بوجوب الإعلام بما ثبت . فإن قلت : لم علقتم البراءة بالذين عاهدوا من المشركين وعلق الأذان بالناس ؟ قلت : لأن البراءة مختصة بالمعاهدين والناكثين منهم ، وأما الأذان فعام لجميع الناس من عاهد ومن لم يعاهد ، ومن نكث من المعاهدين ومن لم ينكث ﴿ يوم الحج الأكبر ﴾ يوم عرفة . وقيل : يوم النحر : لأن فيه تمام الحج ومعظم أفعاله ، من الطواف ، والنحر ، والحلق ، والرمى . وعن على رضى الله عنه : أن رجلاً أخذ

بلجام دابته فقال : ما الحج الأكبر ؟ قال يومك هذا . خل عن دابتي <sup>(١)</sup> . وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوم النحر عند الجمرات في حجة الوداع فقال « هذا يوم الحج الأكبر <sup>(٢)</sup> » ، ووصف الحج بالأكبر لأن العمرة تسمى الحج الأصغر ، أو جعل الوقوف بعرفة هو الحج الأكبر لأنه معظم واجباته ؛ لأنه إذا فات فات الحج ، وكذلك إن أريد به يوم النحر ؛ لأن ما يفعل فيه معظم أفعال الحج - فهو الحج الأكبر . وعن الحسن رضى الله عنه : سمي يوم الحج الأكبر لاجتماع المسلمين والمشركون فيه وموافقته لأعياد أهل الكتاب ، ولم يتفق ذلك قبله ولا بعده ، فعظم على قلب كل مؤمن وكافر . حذفت الباء التي هي صلة الأذان تخفيفاً . وقرئ (إن الله) بالكسر ؛ لأن الأذان في معنى القول ﴿ ورسوله ﴾ عطف على المنوى في ( برى ) أو على محل « إن » ، المكسورة واسمها ؛ وقرئ بالنصب ، عطفاً على اسم « إن » ، أو لأن الواو بمعنى مع : أى برى معه منهم ، وبالجزء على الجوار . وقيل : على القسم ، كقوله : لعمرك . ويحكى أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأها فقال : إن كان الله بريئاً من رسوله فأنا منه بريء ، فلبه الرجل إلى عمر ، فحكى الأعرابي قراءته ، فعندها أمر عمر رضى الله عنه بتعلم العربية <sup>(٣)</sup> ﴿ فَإِنْ تَبَتَّمْ ﴾ من الكفر والغدر ﴿ فهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عن التوبة ، أو تبتم على التولى والإعراض عن الإسلام والوفاء فاعلموا أنكم غير سابقين الله تعالى ولا فائتين أخذه وعقابه .

إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا لِمَتِّمْهُمْ عَهْدَكُمْ إِلَىٰ مُدَّتِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾  
 فإن قلت : مم استثنى قوله ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ ﴾ <sup>(٤)</sup> ؟ قلت : وجهه أن يكون مستثنى من

(١) أخرجه ابن أبي شيبة والطبري من رواية شعبة عن الحاكم عن يحيى بن الجزار عن علي « أنه خرج يوم النحر على بغلة بيضاء يريد الجبانة فجاء رجلاً فأخذ بلجام دابته وسأله عن الحج الأكبر فقال : هو يومك هذا خل سبيلها »  
 (٢) أخرجه البخاري تليفاً وأبو داود والحاكم من رواية هشام بن الغاز عن نافع عن ابن عمر مطولاً ورواه الطبراني والطبري وأبو نعيم في الحلية وابن أبي حاتم مختصراً من طريق سعيد بن عبد العزيز عن نافع عن ابن عمر رضى الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى الجرة يوم النحر . وقال : هذا يوم الحج الأكبر » وفي الباب عن علي رضى الله عنه ، أخرجه الترمذي مرفوعاً وموقوفاً . وعن ابن أبي أوفى عند الطبراني . وعن ابن مسعود في تاريخ أصهبان لأبي نعيم في ترجمة عمر بن هارون .

(٣) لم أجد بأسناده وذكره القرطبي في التذكرة عن ابن أبي مليكة قال « قدم أعرابي في زمن عمر فذكره أئمنه ، وزاد في آخره : وأمر بأبي الأسود فوضع النحر اه والمشهور أنت الذي أمر أبا الأسود بوضع النحر على بن أبي طالب رضى الله عنه .

(٤) قال محمود : وإن قلتهم هذا الاستثناء قلت وجهه أن يكون مستثنى ... الحج ، قال أحد : ويجوز أن يكون ==

قوله (فسيحوا في الأرض) لأن الكلام خطاب للمسلمين . ومعناه : براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين . فقولوا لهم سيحوا ، إلا الذين عاهدتم منهم ثم لم ينقضوا فأتموا إليهم عهدهم والاستثناء بمعنى الاستدراك ، وكأنه قيل بعد أن أمروا في الناكثين ، ولكن الذين لم ينكثوا فأتموا عليهم عهدهم ، ولا تجروهم مجراهم ، ولا تجعلوا الوفاء كالغادر ﴿إن الله يحب المتقين﴾ يعني أن قضية التقوى أن لا يستوى بين القبيلتين فاتقوا الله في ذلك ﴿لم ينقضوكم شيئاً﴾ لم يقتلوا منكم أحداً ولم يضروكم قط ﴿ولم يظاهروا﴾ ولم يعاونوا ﴿عليكم﴾ عدواً ، كما عدت بنو بكر على خزاعة عيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظاهرتهم قريش بالسلاح حتى وفد عمرو بن سلم الخزاعي على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنشد :

لَا هُمْ إِنِّي نَاشِدُ مُحَمَّدًا      حَلَفَ أَيْبَتَا وَأَيْبِكَ الْأَتْلَدَا  
إِنْ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا      وَنَقَضُوا ذِمَّتَكَ الْمَوْكِدَا  
هُمْ يَبْتَئُونَ بِالْخَطِيمِ هُجْدَا      وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسَجْدَا (٣)

== قوله فسيحوا خطاباً من الله تعالى للمشركين غير مضمّر قبله القول ، ويكون الاستثناء في هذا من قوله إلى الذين عاهدتم ، كأنه قيل براءة من الله ورسوله إلى المعاهدين لا الباقين على العهد ، فأتموا إليهم أيها المسلمون عهدهم ، ويكون فيه خروج من خطاب المسلمين في قوله (إلى الذين عاهدتم) إلى خطاب المشركين في قوله (فسيحوا) ثم التفات من التكلم إلى الغيبة بقوله : (واعلموا أنكم غير معجزى الله) وأن الله وأصله واعلموا أنكم غير معجزى وأنى ، وفي هذا الالتفات بعد الالتفات الأول افتتان في أساليب البلاغة وتفخيم للشأن وتعظيم للأمر ثم يتلو هذا الالتفات العود إلى خطاب المسلمين بقوله : إلا الذين عاهدتم ثم لم ينقضوكم فأتموا ، وكل هذا من حسنات الفصاحة وإنما بعث الزخشرى على تقدير القول قبل (نسيحوا) مراعاة أن يطابق قوله فأتموا ، إذا المخاطب على هذا التقدير المسلمون أولاً وثانياً ولا يكون فيه شيء من الالتفاتات المبنية على التأويل الذي ذكرناه ، وكلا الوجهين ممتاز بنوع من البلاغة وطرف من الفصاحة ، والله أعلم .

(١)      إِنْ قُرَيْشًا أَخْلَفُواكَ الْمَوْعِدَا      وَنَقَضُوا ذِمَّتَكَ الْمَوْكِدَا  
وَزَعَوْا أَنْ لَسْتَ تَنْجِي أَحَدَا      وَهُمْ أَذِلُّ وَأَقْلُّ عِدَدَا  
هُمْ يَبْتَئُونَ فِي الْخَطِيمِ هُجْدَا      وَقَتَلُونَا رُكْعًا وَسَجْدَا  
فَانْصَرْ هَذَاكَ اللَّهُ نَصْرًا أَعْدَا      وَادْعَ عِبَادَ اللَّهِ يَأْتُوا مَدَدَا  
فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدَا      فِي فَيْلَقٍ كَالْبَحْرِ يَجْرَى مَزِيدَا  
أَيْضَ مِثْلُ الشَّمْسِ يَسْمُو صَعْدَا      إِنْ شِئْتَ خُطِبَ وَجْهَهُ تَرِيدَا

لعمر بن سلام الخزاعي . لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة أعانت قريش بني بكر على حرب بني خزاعة ، ففرغ عمرو إليه بالمدينة وأنفذه ذلك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : لا نصرت إن لم أنصركم . ولا هم ، أصله اللهم ، خفف وأظهر في مقام الاضمار للدلالة على التعظيم والتبجيل لما أراده . والحلف : العهد . والأتلد : الأقدم . والتفت إلى الخطاب للاستعطاف . وجعله كالآب لم مراعاته مصالحهم . وعطف بشمة للترتيب في الاخبار ونزع إليه كناية عن نقص العهد . والذمام : العهد . وقيل : دفع ذمة بمعنى العهد أيضا . وروى «ميثاقك» . وأذل ، وأقل ، بمعنى أذلاء قليلون ، فليس مفيدا للزيادة . ويجوز أنه على بابه بالنظر لرحمهم ، أى : أذل وأقل بما زعموا فيك وفي قومك . والخطيم : معروف ، كانوا في الجاهلية يحلقون فيه فيحطم الكاذب . وروى «بالأثير» ==

فقال عليه الصلاة والسلام : لا نصرت إن لم أنصركم ،<sup>(١)</sup> وقرئ : لم ينقضوكم ، بالضاد معجمة أى لم ينقضوا عهدهم . ومعنى ﴿ فَأْتُوا إِلَيْهِمْ ﴾ فأدّوه إليهم تماماً كاملاً . قال ابن عباس رضى الله عنه : بقى حتى من كنانة من عهدهم تسعة أشهر ، فأتم إليهم عهدهم .

فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ

فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾

انسلك الشهر ، كقولك انجرد الشهر ، وسنة جرداء . و ﴿ الأشهر الحرم ﴾ التى أيسح فيها للناكثين أن يسيحوا ﴿ فاقتلوا المشركين ﴾ يعنى الذين نقضوكم وظاهروا عليكم ﴿ حيث وجدتموهم ﴾ من حلٍّ أو حرم ﴿ وخذوهم ﴾ وأسروهم . والاختيذ : الأسير ﴿ واحصروهم ﴾ وقيدوهم وامنعوهم من التصرف فى البلاد . وعن ابن عباس رضى الله عنه : حصرهم أن يحال بينهم وبين المسجد الحرام ﴿ كل مرصد ﴾ كل تمز ومجتاز<sup>(٢)</sup> ترصدونهم به ، واتصابه على الظرف كقوله ( لا قعدن لهم .

== والآيت : الطريق ، وواحدة وتيرة . وهو هنا اسم ماء لخزاعة بأسفل مكة . و « المجد » جمع هاجد ، وهو المنقبط من النوم للعبادة . و « العتيد » الحاضر ، يقال : عتده تعتيدا ، وأعتده اعتاداً : مياة وأحضره ، فهو عتيد وأعتد . وفيه جعل اسم التفضيل بمعنى المفعول ، فعله من عتد إذا حضر . والأصل أعده إعداداً فأبدلت الدال تاء ، و « هداك الله » جملة اعتراضية دعائية . و « المدة » الزيادة : أى يأتوا زيادة لنا تميثاً على أعدائنا . وفى الإضافة إلى الله تبييح لهم . و « الفيلق » الجيش المزدحم المتكاثف . كالبحر فى الكثرة وسرعة السير . و « المزدب » المخرج للرغوة من شدة السير والغليان . و « يسمو » يعلو « صعداً » أى صعوداً . « إن شيم » أى رؤى . وروى بالمهمله : أى أحق ، « تريد » أى تغير وصار مغيراً كلون الرماد . والغضب عند نزول المكروه أمانة الشجاعة . وهذا كان سبب فتح مكة . (١) أخرجه ابن اسحاق فى المغازى والبيهقى فى الدلائل من طريقة . قال حدثنى الزهرى عن عروة بن الزبير عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة قالاً « كان فى صلح رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية ، فذكر القصة مطولة وفيها الشعر . وفيها فنكثوا فى الهدنة نحو سبعة أو ثمانية عشر شهراً . وروى الطبرانى من طريق على بن الحسين حدثنى ميمونة بنت الحارث قالت « كان بين النبي صلى الله عليه وسلم وبين قريش ، فذكرت القصة والشعر . وأوردتها الواقدي فى المغازى مطولاً من طرق ثم قال . حدثنى عبدالحيد بن جعفر عن عمران بن أبى أس عن ابن عباس . قال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ببحر طارف ردائه ويقول « يا عمررو لا نصرت إن لم أنصركم كذب بما أنصرت منه نفسى » .

(٢) قال محمود : المرصد الحجاز والممر ... الخ . قال أحمد : ويكون اتصابه دون جره من الاتساع ؛ لأن المرصد ظرف مختص ، والأصل قصور الفعل عن نصبه ، ويكون مثل قوله فى الاتساع :

• كما غسل الطريق الثعلب •

ويحتمل - والله أعلم - أن يكون مرصد مصدرأ ؛ لأن صيغة اسم الزمان والمكان والمصدر من فعلة واحدة ، فعلى هذا يكون منصوباً نصباً أصلياً ؛ لأن أقعدوا فى معنى ارسدوا ، كأنه قيل : وارسدوهم كل مرصد ؛ إلا أن الطرفية يقويها قوله ( حيث وجدتموهم ) فيقتضها قصد المطابقة بين ظرفى المكان ، والله أعلم .

صراطك المستقيم). ﴿غفلوا سيئهم﴾ فأطلقوا عنهم بعد الأسر والحصار. أو فكفوا عنهم ولا تعترضوا لهم كقوله:

﴿ خَلَّ السَّبِيلَ لِمَنْ يَفْنَى الْمَنَارَ بِهِ ﴾ <sup>(١)</sup>

وعن ابن عباس رضى الله عنه: دعوهم وإتيان المسجد الحرام ﴿إن الله غفور رحيم﴾ يغفر لهم ما سلف من الكفر والغدر.

وَأِنْ أَحَدُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ

مَأْمَتَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ <sup>(٦)</sup>

﴿أحد﴾ مرتفع بفعل الشرط مضمراً يفسره الظاهر، تقديره: وإن استجارك أحد استجارك ولا يرتفع بالابتداء، لأن، إن، من عوامل الفعل لا تدخل على غيره. والمعنى: وإن جاءك أحد من المشركين بعد انقضاء الأشهر لا عهد بينك وبينه ولا ميثاق، فاستأمنك ليسمع ما تدعو إليه من التوحيد والقرآن، وتبين <sup>(٣)</sup> ما بعثت له فأمته ﴿حتى يسمع كلام الله﴾ ويتدبره ويطلع على حقيقة الأمر ﴿ثم أبلغه﴾ بعد ذلك داره التي يأمن فيها إن لم يسلم. ثم قاتله إن شئت من غير غدر ولا خيانة، وهذا الحكم ثابت في كل وقت. وعن الحسن رضى الله عنه: هي محكمة إلى يوم القيامة. وعن سعيد بن جبير: جاء رجل من المشركين إلى علي رضى الله عنه فقال: إن أراد الرجل منا أن يأتي محمداً بعد انقضاء هذا الأجل يسمع كلام الله، أو يأتيه لحاجة قتل؟ قال: لا، لأن الله تعالى يقول (وإن أحد من المشركين استجارك... الآية) وعن السدى والضحاك

(١) خل السبيل لمن يبنى المنار به وبرز بركة حيث اضطرك القدر

قد خفت يا ابن أبي مائة منافقة من خبت بركة أن لا ينزل المطر

لجبري يهجو عمر بن لجا التيمي. ويروي: خل الطريق. ومنار الطريق: حدوده. يقول له: أترك سبيل المصال لمن يبنى الأعلام فيه ويقيم شعائره ويبين حدوده. شبه المصال الحيدة بالطريق الجادة بجامع الوصول بكل إلى المراد وعدم الميل عن كل على سبيل التصريحية، وبناء المنار ترشيح: والمراد به: إقامة الشعائر الجليلة وتحسين شأنها لتتبعها الناس. أو نصب دلائل على الكرم لتتدى إليه العفاة. وبرزة هي أم عمر، وقيل: الأرض الواسعة. وعليه فنع صرفة ضرورة، ولكن البيت الثاني يؤيد ما قلنا، أي أخرج بأمر القبيحة إلى ما أملكك إليه القدر الأزلي، وهو ما انطبعت عليه من المصال الحسيسة. والمراد بالأمر في الموضعين: بيان حاله التي هو عليها لاحقيقة الأمر. ويحتمل أن الأول أمر بترك التفاخر، فتكون صورة الأمر الثاني للشاكلة، أو بمعنى طلب اعترافه بحاله نفسه. وجعله التحويين من قبيل التحذير ومثلوا به لذكر عامل المحذور منه، وهو يزيد على مجرد الأمر بالتخليه بأن بينه وبين ذلك السبيل منافرة حتى صح تحذيره منه. وخفت بضم التاء، ولكن فتحها أبلغ في المجو. وتكرير اسم بركة للتكبير والتعظيم بها، أي أنها شوم على الناس يخاف منها الجذب.

(٢) قوله «وتبين» لعله «وتبين» عطفاً على يسمع. (ع)

رضى الله عنهما : هي منسوخة بقوله تعالى ( فاقتلوا المشركين ) . ( ذلك ) أى ذلك الأمر ، يعنى الأمر بالإجارة فى قوله ( فأجره ) . ( ب ) سبب ( أنهم ) قوم جهلة ( لا يعلمون ) ما الإسلام وما حقيقة ما تدعو إليه ، فلا بد من إعطائهم الأمان حتى يسمعوا ويفهموا الحق .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ  
عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَمُّوْا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾  
كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا ذِمَّةً يَرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ  
وَتَأْتِي قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨﴾

( كيف ) استفهام فى معنى الاستنكار والاستبعاد ؛ لأن يكون للمشركين عهد عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم أضداد وغرة صدورهم <sup>(١)</sup> ، يعنى : محال أن ثبت لهؤلاء عهد فلا تطمعوا فى ذلك ولا تحذثوا به نفوسكم ولا تفكروا فى قتلهم . ثم استدرك ذلك بقوله ( إلا الذين عاهدتم ) أى ولكن الذين عاهدتم منهم ( عند المسجد الحرام ) ولم يظهر منهم نكت كنى كنانة وبني ضمرة ، فتربصوا أمرهم ولا تقا تلومهم ( فما استقاموا لكم ) على العهد ( فاستقيموا لهم ) على مثله ( إن الله يحب المتقين ) يعنى أن التربص بهم من أعمال المتقين ( كيف ) تكرار لاستبعاد ثبات المشركين على العهد <sup>(٢)</sup> ، وحذف الفعل لكونه معلوماً كما قال :

وَحَبَّرْتُمَا نِي أَنَّمَا الْمَوْتُ بِالْقُرَى فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةً وَقَلْبُ <sup>(٣)</sup>

يريد : فكيف مات . أى : كيف يكون لهم عهد ( و ) حالهم أنهم ( إن يظهروا عليكم ) بعد

(١) قوله « غرة صدورهم » أى ملتهبة من الغيظ . ( ع )

(٢) قال محمود : وكيف تكرار لاستبعاد ثبات ... الخ ، قال أحد السرا فى تكرار كيف - والله أعلم - أنه لما ذكره أولاً لاستبعاد ثبات عهدهم عند الله ولم يذكر إذ ذاك سبب البعد للغاية باستثناء الباقيين على العهد وطال الكلام . أعيدت « كيف » نظرية للذكر ، ولأخذ بعض الكلام بحجة بعض ، فلم يقصد مجرد التكرار . بل هذا السر الذى انطوى عليه . وقد تقدمت له أمثال ، والله الموفق .

(٣) لعمر أبى إن البعيد الذى مضى وإن الذى يأتى غداً قريب

وخبرتماني أنما الموت بالقرى فكيف وهاتنا هضبة وقلب

الكعب القنوى فى مرثية أخيه . و « الهضبة » الصخرة العظيمة . وجعل الخطاب لاثنتين على عادة العرب ولو لم يوجد . وإنما بالكسر على الحكاية ، أو بالفتح على المفعولية : أى وأخبرتني أن الموت والوباء فى القرى فقط ، فكيف تدعيان ذلك وقد مات أخى فى هذه البرية . أو كيف مات أخى فيها . والقلب : البئر لأنه قلب تراه من بطن الأرض إلى ظهرها . وهاتنا : إشارة للبرية . ويجوز أنها للهضبة : أى وهذا قلب .

ما سبق لهم من تأكيد الايمان والمواثيق ، لم ينظروا في حلف ولا عهد ولم يبقوا عليكم ﴿ لا يرقبوا فيكم إلا ﴾ لا يراعوا حلفاً . وقيل : قرابة . وأنشد لحسان رضى الله عنه :

كَعْمُرُكَ إِنَّ إِلَاكَ مِنْ قُرَيْشٍ كَيْلُ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ النَّعَامِ <sup>(١)</sup>

وقيل (إلا) إلها . وقرئ : إيلا ، بمعناه . وقيل : جبرئيل ، وجبرئيل ، من ذلك . وقيل : منه اشتق الال بمعنى القرابة ، كما اشتقت الرحم من الرحمن ، والوجه أن اشتقاق الإل بمعنى الحلف ، لأنهم إذا تماشحوا وتماثلوا رفعوا به أصواتهم وشهروه ، من الال وهو الجوار ، وله أليل : أى أنين يرفع به صوته . ودعت أليها : إذا ولولت <sup>(٢)</sup> ، ثم قيل لكل عهد وميثاق : إل . وسميت به القرابة ، لأن القرابة عقدت بين الرجلين ما لا يعقده الميثاق ﴿ يرضونكم ﴾ كلام مبتدأ في وصف حالهم من مخالفة الظاهر الباطن ، مقرر لاستبعاد الثبات منهم على العهد . وإباء القلوب مخالفة ما فيها من الاضغان ، لما يجرونه على ألسنتهم من الكلام الجليل ﴿ وأكثروهم فاسقون ﴾ متمردون خلعاء لامرودة نزعهم <sup>(٣)</sup> ، ولا شمائل مرضية تردعهم ، كما يوجد ذلك في بعض الكفرة ، من التفادى عن الكذب والنكث ، والتعفف عما يثلم العرض ويحز أحبوة السوء .

أَشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ <sup>(٩)</sup> لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ <sup>(١٠)</sup>

﴿ اشتروا ﴾ استبدلوا ﴿ آيات الله ﴾ بالقرآن والإسلام ﴿ ثمناً قليلاً ﴾ وهو اتباع الأهواء والشهوات ﴿ فصددوا عن سبيله ﴾ فعدلوا عنه أو صرفوا غيرهم . وقيل : هم الأعراب الذين جمعهم أبو سفيان وأطعمهم ﴿ هم المعتدون ﴾ المجاوزون الغاية في الظلم والشرارة .

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَعْلُ

الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ <sup>(١١)</sup>

(١) لحسان بن ثابت . والال - بالكسر - الحلف والعهد والقرابة . والسقب : حوار الناقة . والرأل : ولد النعام . يقول : وحياتك إن قرابتك من قریش بعيدة أو معدومة ، كقرابة ولد الناقة من ولد النعام . وبروى : كأل السيف . والوجه أنه تحريف .

(٢) قوله «ودعت أليها إذا ولولت» في الصحاح : وأما قول النكيت بمدح رجلا : وأنت ماأنت في غرباء مظلة إذا دعت أليها الكاهب الفضل

فيجوز أن يريد الال ، ثم نفي كأنه يريد صوتا يعد صوت . اهـ (ع)

(٣) قوله «لامرودة نزعهم» أى تكفهم . اهـ صحاح (ع)



﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ عن الكفر و انتقض العهد ﴿فَإِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ﴾ فهم إخوانكم على حذف المتبأ، كقوله تعالى ﴿فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فِإِخْوَانَكُمْ﴾. ﴿وَنَفَصِلَ الْآيَاتِ﴾ ونبينها. وهذا اعتراض، كأنه قيل: وإن من تأمل تفصيلها فهو العالم بعثاً وتحريضاً على تأمل مافصل من أحكام المشركين المعاهدين، وعلى المحافظة عليها.

وَإِنْ نَكُنُوا أَيْمَنَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَتَلُوا أُمَّةَ

الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ ﴿١٢﴾

﴿وطعنوا في دينكم﴾ وثلبوه وعابوه ﴿فقاتلوا أئمة الكفر﴾ فقاتلوهم، فوضع أئمة الكفر موضع ضميرهم: إشعاراً بأنهم إذا نكثوا في حال الشرك تتردأ و طغياناً و طرْحاً لعادات اللكرام الأوفياء من العرب، ثم آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاروا إخواناً للسليين في الدين، ثم رجعوا فارتدوا عن الإسلام ونكثوا ما بايعوا عليه من الإيمان والوفاء بالعهود، وقعدوا يطعنون في دين الله ويقولون ليس دين محمد بشيء، فهم أئمة الكفر وذوو الرياسة والتقدم فيه، لا يشق كافر غبارهم. وقالوا: إذا طعن الدمى في دين الإسلام طعننا ظاهراً، جاز قتله؛ لأن العهد معقود معه على أن لا يطعن، فإذا طعن فقد نكث عهده وخرج من الذمة ﴿إنهم لا أيمان لهم﴾ جمع يمين. وقرئ: لا إيمان لهم، أى لا إسلام لهم. أو لا يعطون الأمان بعد الردة والنكث، ولا سبيل إليه. فإن قلت: كيف أثبت لهم الإيمان في قوله (وإن نكثوا أيمانهم) ثم نفاها عنهم؟ قلت: أراد أيمانهم الذى أظهروها ثم قال: لا أيمان لهم على الحقيقة، وأيمانهم ليست بأيمان. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه الله على أن يمين الكافر لا تكون يميناً. وعند الشافعى رحمه الله: يمينهم يمين. وقال: معناه أنهم لا يوفون بها، بدليل أنه وصفها بالنكث ﴿لعلهم ينتهون﴾ متعلق بقوله (فقاتلوا أئمة الكفر) أى ليكن غرضكم في مقاتلتهم بعد ما وجد منهم ما وجد من العظام أن تكون المقاتلة سبباً في انتهاهم عما هم عليه. وهذا من غاية كرمه وفضله وعوده على المسىء بالرحمة كلما عاد. فإن قلت: كيف لفظ أئمة؟ قلت: همزة بعدها همزة بين بين، أى: بين مخرج الهمزة والياء <sup>(١)</sup>. وتحقيق الهمزتين قراءة مشهورة، وإن لم تكن بمقبولة عند البصريين. وأما التصريح بالياء فليس بقراءة. ولا يجوز أن تكون قراءة. ومن صرح بها فهو لاحق محرف.

أَلَا تَقْتُلُونَ قَوْمًا نَكُنُوا أَيْمَنَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ

أَوَّلَ مَرَّةٍ أَنْ تَخْشَوْهُمْ قَالَهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

(١) قوله «بين مخرج الهمزة والياء: لعله» ومخرج الهمزة والياء. «ع»

﴿أَلَا تَقَاتِلُونَ﴾ دخلت الهزمة على (لا تقاتلون) تقريراً بانتفاء المقاتلة . ومعناه : الحض عليها على سبيل المبالغة ﴿نَكْشُوا أَيْمَانَهُمْ﴾ التي حلفوها في المعاهدة ﴿وَهُمُوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ﴾ من مكة حين تشاوروا في أمره بدار الندوة ، حتى أذن الله تعالى له في الهجرة ، فخرج بنفسه ﴿وَهُمْ بِدُومِكُمْ أُولَ مَرَّةٍ﴾ أى : وهم الذين كانت منهم البداءة بالمقاتلة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءهم أولاً بالكتاب المنير وتحذاهم به ، فعدلوا عن المعارضة لعجزهم عنها إلى القتال فهم البادون بالقتال والبادئ أظلم ، فأيمنعكم من أن تقاتلوهم بمثله ، وأن تصدموهم بالشر كما صدموكم ؟ وبجهم بترك مقاتلتهم وحضهم عليها ، ثم وصفهم بما يوجب الحض عليها . ويقرر أن من كان في مثل صفاتهم من نكث العهد وإخراج الرسول والبدء بالقتال من غير موجب ، حقيق بأن لا تترك مصادمته ، وأن يوجب من فرط فيها ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ﴾ تقرير بالخشية منهم وتوبيخ عليها ﴿فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ فقاتلوا أعداءه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعنى أن قضية الإيمان الصحيح أن لا يخشى المؤمن إلا ربه ، ولا يبالي بمن سواه ، كقوله تعالى (ولا يخشون أحداً إلا الله)

فَقَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١٥

لما وبجهم الله على ترك القتال ، جرد لهم الأمر به فقال ﴿قاتلوهم﴾ ووعدهم - ليثبت قلوبهم ويصح نياتهم - أنه يعذبهم بأيديهم قتلاً ، ويخزيهم أسراً ، ويوليهم النصر والغلبة عليهم ﴿ويشف صدور﴾ طائفة (١) من المؤمنين ، وهم خزاعة ، قال ابن عباس رضى الله عنه : هم بطون من اليمن وسبأ قدموا مكة فأسلبوا ، فلقوا من أهلها أذى شديداً ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه ، فقال : أبشروا فإن الفرج قريب ﴿ويذهب غيظ﴾ قلوبكم (٢) لما لقيتم منهم من المكروه ، وقد حصل الله لهم هذه المواعيد كلها ، فكان ذلك دليلاً على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحة نبوته ﴿ويتوب الله على من يشاء﴾ ابتداء كلام ، وإخبار بأن بعض أهل مكة يتوب عن كفره ، وكان ذلك أيضاً ، فقد أسلم ناس منهم وحسن إسلامهم . وقرئ :

(١) قوله «ويشف صدور طائفة» هذا لفظ التلاوة . والانصب ويشفى ، عطفاً على (يعذبهم بأيديكم) لأنه من جملة الوعد . (ع)

(٢) قوله «ويذهب غيظ قلوبكم» التلاوة (غيظ قلوبهم) ولعل بعض الناسخين فهم أنه من البشرى ، فغيره بلفظ الخطاب . والمنتج (غيظ قلوبهم) لما لقوا ، ثم قوله (ويذهب) بالرفع عطفاً على يعذبهم بأيديكم ؛ لأنه من جملة الوعد كما يشير إليه . (ع)

ويتوب بالنصب بإضمار وأن، ودخول التوبة في جملة ما أوجب به الأمر من طريق المعنى ﴿والله عليم﴾ يعلم ماسيكون، كما يعلم ما قد كان ﴿حكيم﴾ لا يفعل إلا ما اقتضته الحكمة

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

﴿أم﴾ منقطعة، ومعنى الهمزة فيها التوبيخ على وجود الحسبان. والمعنى: أنكم لا تتركون على ما أنتم عليه، حتى يتبين الخالص منكم، وهم الذين جاهدوا في سبيل الله لوجه الله، ولم يتخذوا وليجة أى بطانة، من الذين يضادون رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين رضوان الله عليهم ﴿ولما﴾ معناها التوقع، وقد دلت على أن تبين ذلك، وإيضاحه متوقع كائن، وأن الذين لم يخلصوا دينهم لله يميز بينهم وبين المخلصين. وقوله ﴿ولم يتخذوا﴾ معطوف على جاهدوا، داخل في حين الصلة، كأنه قيل: ولما يعلم الله المجاهدين منكم والمخلصين غير المتخذين وليجة من دون الله. والوليجة: فعية من ولج، كالذخيلة من دخل. والمراد بنفى العلم بنفى المعلوم، كقول القائل. ما علم الله منى ما قيل فى، يريد: ما وجد ذلك منى.

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾

﴿ما كان للمشركين﴾ ما صح لهم وما استقام ﴿أن يعمروا مسجد الله﴾ يعنى المسجد الحرام، لقوله (وعماره المسجد الحرام) وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان، أحدهما: أن يراد المسجد الحرام، وإنما قيل مساجد لأنه قبلة المساجد كلها وإمامها؛ فعامره كعامر جميع المساجد، ولأن كل بقعة منه مسجد. والثاني: أن يراد جنس المساجد، وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها، دخل تحت ذلك أن لا يعمروا المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس ومقدمته وهو أكد، لأن طريقته طريقة الكناية، كما لو قلت: فلان لا يقرأ كتب الله، كنت أنبئ لقراءته القرآن من تصريحك بذلك. و﴿شاهدين﴾ حال من الواو فى (يعمروا) والمعنى: ما استقام لهم أن يجمعوا بين أمرين متنافيين: عماره متعبدات الله، مع الكفر بالله وبعبادته. ومعنى شهادتهم على أنفسهم بالكفر: ظهور كفرهم وأنهم نصبوا أصنامهم حول البيت، وكانوا يطوفون عراة ويقولون: لا نطوف عليها بثياب قد أصبنا فيها المعاصي، وكلنا طافوا بها شوطاً سجدوا لها. وقيل: هو قولهم لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك. وقيل: قد أقبل المهاجرون

والانصار على أسارى بدر فعيروهم بالشرك ، فطلق على ابن أبي طالب رضى الله عنه يوبخ العباس بقتال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقطيعة الرحم ، وأغلظ له في القول . فقال العباس : تذكرون مساويتنا وتكتمون محاسنتنا . فقال : أو لكم محاسن ؟ قالوا : نعم ونحن أفضل منكم أجراً : إنا لنعمر المسجد الحرام ، ونحجب الكعبة ، ونسقى الحجيج ونفك العاني ، فنزلت ﴿ حُبِطَتْ أَعْمَالُهُمُ ﴾ التي هي العمارة والحجابة والسقاية وفك العناة . وإذا هدم الكفر أو الكبيرة الأعمال <sup>(١)</sup> الثابتة الصحيحة إذا تعقبا ، فما ظنك بالمقارن . وإلى ذلك أشار في قوله (شاهدين) حيث جعله حالا عنهم ودل على أنهم قارنون بين العمارة والشهادة بالكفر على أنفسهم في حال واحدة ، وذلك محال غير مستقيم .

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنَ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ <sup>(١٨)</sup>

﴿إنما يعمر مساجد الله﴾ وقرئ بالتوحيد ، أى : إنما تستقيم عمارة هؤلاء وتكون معتادها ، والعمارة تتناول رمما استمر منها ، وقها وتنظيفها ، وتنويرها بالمصاييح ، وتعظيمها ، واعتيادها للعبادة والذكر ، ومن الذكر درس العلم ، بل هو أجله وأعظمه ، وصياتها مما لم تبين له المساجد من أحاديث الدنيا فضلا عن فضول الحديث . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : « يأتي في آخر الزمان ناس من أمتي يأتون المساجد فيقعدون فيها حلقاً <sup>(٢)</sup> ذكرهم الدنيا وحب الدنيا لا تجالسوهم فليس لله بهم حاجة <sup>(٣)</sup> » وفي الحديث ، الحديث في المسجد يأكل الحسنات كما تأكل البهيمة الحشيش <sup>(٤)</sup> ، وقال عليه السلام : « قال الله تعالى : إن يوتى في أرضي المساجد ، وإن زوارى فيها عمارها ، فطوبى لعبد تطهر في بيته ثم زارنى في بيتي ، فحق على المزور أن يكرم <sup>(٥)</sup> زائره . وعنه

(١) قال محمود : « إذا هدم الكفر أو الكبيرة الأعمال ... الخ » قال أحمد : كلام صحيح إلا قوله « إن الكبيرة تهدم الأفعال » ، فانه تفريع على قاعدة المعتلة ، والحق خلافها .

(٢) قوله « فيقعدون فيها حلقاً » في نسخة : فيعدون . وفي أخرى : فيغدون . وليحرر . (ع)

(٣) أخرجه الطبراني من رواية أبي وائل عن ابن مسعود رفعه « سيكون في آخر الزمان قوم يجلسون في المساجد حلقاً حلقاً ، منهم الدنيا لا تجالسوهم . فليس لله فيهم حاجة ، وفيه بدع أبو الخليل راويه عن الأعشى عنه . وهو متروك وقال الدارقطني : إنه تفرد به ، وفيه نظر . فقد أخرجه ابن حبان في صحيحه من طريق عيسى بن يونس عن الأعشى بلفظ « سيكون في آخر الزمان قوم يكون حديثهم في مساجدهم ليس لله فيهم حاجة » وفي الباب عن أنس رفعه « يأتي على الناس زمان يتحللون في مساجدهم ، وليس منهم إلا الدنيا لا تجالسوهم فليس لله فيهم حاجة ، أخرجه الحاكم من طريق الثوري عن عوف عن الحسن عنه .

(٤) يأتي في لقمان .

(٥) لم أجده مذكراً وفي الطبراني عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وسلم « من توضأ في بيته فأحسن الوضوء . =

عليه السلام ومن أَلِفَ المسجد أَلَفَهُ اللهُ<sup>(١)</sup> ، وقال عليه السلام ، وإذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان<sup>(٢)</sup> ، وعن أنس رضى الله عنه : من أَسْرَجَ في مسجد سراجا لم تزل الملائكة وحمة العرش تستغفر له ما دام في ذلك المسجد ضوءه<sup>(٣)</sup> . فإن قلت : هلا ذكر الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قلت : لما علم وشهر أن الإيمان بالله تعالى قرينته الإيمان بالرسول عليه السلام لا اشتغال كلمة الشهادة والأذان والإقامة وغيرها عليهما مقترنين مزدوجين كأنهما شيء واحد غير منفك أحدهما عن صاحبه ، انطوى تحت ذكر الإيمان بالله تعالى الإيمان بالرسول عليه السلام . وقيل : دلّ عليه بذكر إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . فان قلت : كيف قيل ﴿ولم يخش إلا الله﴾ والمؤمن يخشى المحاذير ولا يتألك أن لا يخشاها ؟ قلت : هي الخشية والتقوى في أبواب الدين ، وأن لا يختار على رضا الله رضا غيره لتوقع مخوف ، وإذا اعترضه أمران أحدهما حق الله ، والآخر حق نفسه أن يخاف الله ، فيؤثر حق الله على حق نفسه . وقيل : كانوا يخشون الأصنام ويرجونها ، فأريد نفي تلك الخشية عنهم ﴿فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين﴾ تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء<sup>(٤)</sup> وحسم لأطاعهم من الانتفاع<sup>(٥)</sup> بأعمالهم التي استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها ، بأن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشية والتقوى ، اهتدأوا دائر بين عسى ولعل ، فبال المشركين يقطعون أنهم مهتدون وناطلون عند الله الحسن . وفي هذا الكلام ونحوه اطف للمؤمنين في ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاغترار بالله تعالى .

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ  
وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩)

== ثم أتى المسجد فهو زائر لله ، وحق على المزار أن يكرم زائره ، وروى عبد الرزاق ومن طريقه الطبري عن معمر بن ابن إسماعيل عن عمرو بن ميمون . قال «وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرءون : إن يوت الله في الأرض المساجد ، وإن حقا على الله أن يكرم من زاره فيها» ومن هذا الوجه . أخرجه عبد الله بن المبارك في الزهد (١) أخرجه ابن عدى . والطبراني في الأوسط من رواية ابن لميعة عن دواج بن الهيثم عن أبي سعيد . (٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه . وابن حبان . والحاكم من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد . (٣) رواه الحارث بن أسامة من رواية الحكم بن سفيان العبدى . عن أنس رضى الله عنه . من أسرج في مسجد سراجا لم يزل مرفوعا ومن طريق الحارث أخرجه سليم الرازي في كتاب الترغيب وفي الطبراني في مستند الشاميين من حديث علي بن أبي طالب رفعه «من علق قنديلا في مسجد صلى عليه سبعون ألف دعاء» الحديث بعناه . (٤) قال محمود : «في هذه الآية تبعيد للمشركين ... الخ» قال أحمد : وأكثرهم يقول : إن «عسى» من الله واجبة بناء منهم على أن استعمالها غير مصروفة للمخاطبين ، والحق فيها قال الزحشرى ، ولكن الخطاب معروف إليهم أى لخال هؤلاء المؤمنين حال مرجوة ، والعاقبة عند الله معلومة ، والله عاقبة الأمور . (٥) قوله «من الانتفاع» لعله «في» كعبارة النسفي . (ع)

السقاية والعمارة : مصدران من سقى وعمر ، كالصيانة والوقاية . ولا بد من مضاف محذوف تقديره ﴿أجعلتم﴾ أهل ﴿سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله﴾ وتصدقه قراءة ابن الزبير وأبي وجزة السعدى <sup>(١)</sup> . وكان من القراء :- سقاة الحاج وعمرة المسجد الحرام . والمعنى إنكار أن يشبه المشركون بالمؤمنين ، وأعمالهم المحبطة بأعمالهم المثبتة ، وأن يسوى بينهم . وجعل تسويتهم ظلماً بعد ظلمهم بالكفر . وروى أن المشركين قالوا لليهود : نحن سقاة الحجيج وعمار المسجد الحرام ، أفنحن أفضل أم محمد وأصحابه ؟ فقالت لهم اليهود : أنتم أفضل . وقيل : إن علياً رضي الله عنه قال للعباس : يا عم ألا تهاجرون ، ألا تلحقون برسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : أأست في أفضل من الهجرة : أسقى حاج بيت الله ، وأعمر المسجد الحرام ، فلما نزلت قال العباس : ما أراى إلا تارك سقائنا . فقال عليه السلام : أقيموا على سقائكم فإن لكم فيها خيراً <sup>(٢)</sup>

الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَكْظَمُ  
دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرِقَّةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ  
وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ  
أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

هم ﴿أكظم درجة عند الله﴾ من أهل السقاية والعمارة عندهم ﴿وأولئك هم الفائزون﴾ لا أتم والمختصون بالفوز دونكم . قرئ : ( يبشرهم ) بالتخفيف والتثقل . وتكثير المبرر به لوقوعه وراء صفة الواصف وتعريف المعترف . وعن ابن عباس رضي الله عنه : هي في المهاجرين خاصة <sup>(٣)</sup> .  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِبَادَ كُفْرٍ وَإِخْوَانَكُمْ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّوا  
الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ  
كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا

(١) قوله «وأبي وجزة السعدى» في الصحاح : أنه شاعر ومحدث . (ع)

(٢) ذكره الثعلبي عن الحسن بن عمار بن إسناد لكن سنده إليه في أول الكتاب في تفسير عبد الرزاق عن معمر بن عمر ، وهو ابن عبيد عن الحسن قال «نزلت في علي والعباس ، وعثمان وشيبة تكلموا في ذلك . فقال العباس : ما أراى إلا تارك سقائنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم - فذكره .

(٣) أخرجه الثعلبي من رواية جوير بن عن الضحاك عنه .

وَتَجَرَّةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾

وكان قبل فتح مكة من آمن لم يتم إيمانه إلا بأن يهاجر ويصارم أقاربه الكفرة ويقطع موالاتهم. فقالوا يا رسول الله: إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين قطعنا آباءنا وأبناءنا وعشائرنا وذهبت تجارتنا وهلكت أموالنا وخربت ديارنا، وبقينا ضائعين، فزلت، فهاجروا، فجعل الرجل يأتيه ابنه أو أبوه أو أخوه أو بعض أقاربه فلا يلتفت إليه ولا ينزله ولا يتفق عليه، ثم رخص لهم بعد ذلك. وقيل نزلت في التسعة الذين ارتدوا ولحقوا بمكة<sup>(١)</sup> فبني الله تعالى عن موالاتهم. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: لا يطعم أحدكم طعام الإيمان حتى يحب في الله ويبغض في الله: حتى يحب في الله أبعد الناس، ويبغض في الله أقرب الناس إليه<sup>(٢)</sup>. وقرئ: عشيرتكم، وعشيراتكم. وقرأ الحسن: وعشائركم ﴿تربصوا حتى يأتي الله بأمره﴾ وعيد. عن ابن عباس: هو فتح مكة. وعن الحسن: هي عقوبة عاجلة أو آجلة. وهذه آية شديدة لا ترى أشد منها، كأنها تنهى على الناس ما هم عليه من رخاوة عقد الدين، واضطراب حيل اليقين، فلي نصف أروع الناس وأنقاهم من نفسه، هل يجد عنده من التصلب في ذات الله والثبات على دين الله ما يستحب له دينه على الآباء والأبناء والإخوان والعشائر والمسال والمساكن وجميع حظوظ الدنيا ويتجرد منها لأجله؟ أم يزوى الله عنه أحقر شيء منها لمصلحته، فلا يدرى أى طرفيه أطول؟ وبغويه الشيطان عن أجلّ حظ من حظوظ الدين، فلا يبالي كأنما وقع على أنفه ذباب فطيره؟

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كُنُتُكُمْ

فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُذْرِبِينَ ﴿٢٥﴾

ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى

مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾

(١) ذكره الثعلبي أيضا عن مقاتل، وسنده إليه في أول الكتاب.

(٢) لم أجده بهذا اللفظ وفي الطبراني عن عمرو بن الحنق أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يجد

العبد صريح الإيمان حتى يحب في الله ويبغض في الله، وفي إسناده ورشد بن سعد. وهو ضعيف؛ وفي الباب عن

أبي أمامة وه. أبو داود. وعن معاذ بن أنس رواه أبو يعلى وغيره.

مواطن الحرب : مقاماتها ومواقفها <sup>(١)</sup> قال :

وَكَمْ مَوْطِنٍ لَوْلَايَ طُحَّتْ كَمَا هَوَىٰ بِأَجْرَامِهِ مِنْ قُلَّةِ النَّيْقِ مُنْهَوَىٰ <sup>(٢)</sup>

(١) قال محمود : « مواطن الحرب مقاماتها ومواقفها ... الخ » قال أحمد : « لامانع - والله أعلم - من عطف الظرفين المكاني والزمانى أحدهما على الآخر ، كعطف أحد المفعولين على الآخر والفعل واحد ، إذ يجوز أن تقول ضرب زيد عمرآ في المسجد ويوم الجمعة ، كما تقول : ضربت زيداً ومهراً ، ولا يحتاج إلى إضمار فعل جديد غير الأول ، هذا مع أنه لابد من تغاير الفعلين الواقعيين بالمفعولين في الحقيقة ، فانك إذا قلت : أضرب زيداً اليوم وعمرآ غداً ، لم يشك في أن الضربين متغايران بتغاير الظرفين ، ومع ذلك الفعل واحد في الصنعة . فعل هذا يجوز في الآية - والله أعلم - بقاء كل واحد من الظرفين على حاله غير مؤول إلى الآخر ، على أن الزحشرى أو جب تعدد الفعل وتقديرنا حسب لظرف الزمان غير الفعل الأول . وإن كانا عنده جميعاً زمانين ، لعلة أن كثرت لهم تسكن ثابتة في جميع المواطن . يريد : ولودهيت إلى اتحاد الناصب للزم ذلك ، وهذا غير لازم . ألا تترك لو قلت : أضرب زيداً حين يقوم وحين يقعد ، لكان الناصب للظرفين واحداً وهما متغايران ، وإنما يمتنع عمل الفعل الواحد في ظرفي زمان مختلفين عند عدم العطف المتوسط بينهما ، والله أعلم .

(٢) تكاشرفى كرها كأنك ناصح  
لسانك ماذى وعينك علقم  
فليت كفافاً كلف خيرك كله  
وكم موطن لولاي طحت كما هوى  
جمعت ولغشا غيبة ونيمة  
وعينك تبدى أن صدرك لى دوى  
وشرك مبسوط وخيرك منطوى  
وشرك عنى ما ارتوى الماء مرتوى  
بأجرامه من قلة النيق منهوى  
ثلاث خصال لست عنها بمرغوى

لبيد بن الحكم بن أبي العاص الثقفي . والمكاشرة : المصاحكة ، واختارها في التعبير إشارة إلى أنها ليست مصاحكة حقيقة بواقفها القلب ، وإنما هي إظهار الألسنان فقط أمامه ليرى أنه ناصح الرجل كرض نفسه قلبه ، ودوى أى خالص المودة . ودوى صدره أيضاً حقد ، فهو دوى بالكشف كعني ، أو التشديد كعنى ، على فعل أو فعل ، وعلى التشديد فتخفيفه للوزن . وهما الماذى ، غسل النحل لأنه يمدى منها ، وتسمى الخزة ماذية لسهولة ثلثها . وهما العلقم ، الحنظل وكل شجر مر وكل شيء مر ، أى لسانك كالغسل في حلالة الكلام . وعينك كالعلقم في كراهية النفس ونفرتها عن كل ، حيث تنظر لى نظر الحسود المختاظ ، وشبه الشر والخير ببساطين على سبيل المسكنة ، والتيسط والطى تخييل . واسم لبت ضمير الشأن أو ضمير المخاطب محذوفاً ، وخيرك اسم كان ، وكفافاً خبرها . وشرك عطف على خيرك . ويجوز أنه من باب التنازع عن من أجازته في الحروف ، لأن « لبت » مقتضية للعمل في خيرك ، و« كان » مقتضية للعمل فيه ، فأعمل فيه الثانى وحذف ضميره من الأول ، لأنه وإن كان محمداً ، مشبهة للفضلة في نصبه ، وكما أجاز حذفه الكوفيون في باب كان وباب ظن ، نعله من مفسره ، أى : فليت الحال والشأن كان خيرك كله وشرك ، كفافاً : بالفتح ، أى مغنياً كافياً لك عنى ، ولوكرر « كفافاً » على أنه مفاعلة من الكف لجاز ، ويكون المصدر بمعنى اسم الفاعل ، مبالغة : أى كافاً لك ، أو منكفاً عنى مادام « مرتوى » يرتوى الماء ، أى : يستقي ، ببنى دائماً ، وكم : خبرية للتكثير ، أى كثير من مواطن الحرب لولا وجودى لطحت بكسر الطاء وضمها من باب باع ، وقال : أى هلكت فيها كما هوى منهوى ، أى سقط ساقط من قلة النيق . ويروى : قلة النيق ، والمعنى واحد ، أى : من رأس الجبل العالي ، ومذهب سيوريه أن « لولا » حرف جر إذا وليها ضمير نصب . ومذهب الأخفش أنه وضع ضمير التصب موضع ضمير الرفع على الابتداء ، وأنكر المبرد وروده ، وهو محجوج بهذا . وقال أبو على الفارسي : الفعل ومطاوعه قد يكونان لازمين معاً ، كهوى وانهى ، وغوى وانغوى ، بدليل نحو هذا البيت . وحمله الجمهور على الضرورة . والقياس : هار وغار . وبعضهم على أنها مطاوعان لأهديته وأغويته ، لكن مطاوعه : أفضل لافعل شاذة ،



وامتناعه من الصرف لأنه جمع ، وعلى صيغة لم يأت عليها واحد ، والمواطن الكثيرة : وقعت بدر ، وقریظة ، والنضير ، والحديبية ، وخيبر ، وفتح مكة . فإن قلت : كيف عطف الزمان والمكان وهو ﴿ يوم حنين ﴾ على المواطن ؟ قلت : معناه وموطن يوم حنين . أو في أيام مواطن كثيرة ويوم حنين . ويجوز أن يراد بالموطن الوقت كمقتل الحسين ، على أن الواجب أن يكون يوم حنين منصوباً بفعل مضمر لا بهذا الظاهر . وموجب ذلك أن قوله ﴿ إذ أعجبكم ﴾ بدل من يوم حنين ، فلو جعلت ناصبه هذا الظاهر لم يصح ؛ لأن كثرتهم لم تعجبهم في جميع تلك المواطن <sup>(١)</sup> ولم يكونوا كثيراً في جميعها ، فبقي أن يكون ناصبه فعلاً خاصاً به ، إلا إذا نصبت ، إذ ، يا ضار ، اذكر ، وحنين : واد بين مكة والطائف ، كانت فيه الواقعة بين المسلمين وهم اثنا عشر ألفاً الذين حضروا فتح مكة ، منضمين إليهم ألفان من الطلقاء ، وبين هوازن وثقيف وهم أربعة آلاف فيمن ضاقهم من إمداد سائر العرب فكان الجلم الغفير ، فلما التقوا قال رجل من المسلمين : لن تغلب اليوم من قلة ، فسأمت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقيل قائلاًها رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم . وقيل أبو بكر رضى الله عنه <sup>(٢)</sup> وذلك قوله ﴿ إذ أعجبكم كثرتم ﴾ فاقتتلوا قتلاً شديداً وأدركت المسلمين كلمة الإعجاب بالكثرة ، وزل عنهم أن الله هو الناصر لا كثرة الجنود فانهزموا حتى بلغ فلبهم مكة ، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده وهو ثابت في مركزه لا يتحلىل ، ليس معه إلا عمه العباس رضى الله تعالى عنه آخذ بلجام دابته وأبو سفيان بن الحرث ابن عمه ، وناهيك بهذه الوحدة شهادة صدق على تناسي

== ولوقيل : انهوى مطاوع لهوى به لجاز . لكنه ليس قياساً ، ثم قال له : جمعت غيبة ونجدة وخفا ، فقدم المصطوف للضرورة . وجعله ابن جنى مفعولاً معه ، وأجاز تقديمه على صاحبه ممسكاً بذلك ، ويمكن أن يكون ضرورة أيضاً . وفيه إشارة من أول وهلة إلى إرادة التعمد والتكثير وثلاث خصال بدل مما قبله ، ولست عنها : أى لست بمنزجرتها ، فقدم المعمول للاهتمام ، والياء في القافية للاطلاق .

(١) قوله لم تعجبهم في جميع تلك المواطن ، إنما يلزم كون كثرتهم أعجبهم في جميعها . مع أنه خلاف الواقع لوجعل ﴿ إذ أعجبكم ﴾ بدلاً من المواطن أيضاً ، فتدبر . (ع)

(٢) لم أجد هذا السياق وقوله : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالها : قد ورد أنه قال : لن تغلب اثنا عشر ألفاً عن قلة ، في حديث غير هذا . وأما هذا فإن كان المصنف وقع على شيء من ذلك فإكان قوله « وأدركتهم كلمة الإعجاب بالكثرة ونزل عنهم إلى آخره بلانق . وأما قوله « وقيل قالها أبو بكر » فلأقف عليه وقوله « وهوازن وثقيف » وفي أربعة آلاف غلام مسج ، والصواب أن هوازن وثقيفا كانوا من المشركين والذي في مسلم من حديث العباس « شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين - فذكرت القصة ، وفيها تغير ونقص عما ساقه المصنف وليس فيها « نغذاً غذاً ، وإنما فيه « أن عباساً نادى أصحاب السمرة ونادى أصحاب الشجرة . قال فغطوا هطفت البقرة على أولادها ، وروى يونس بن بكر في زيادة المغازي عن أبي جعفر الرازي بن الربيع يعني ابن أنس « أن رجلاً قال يوم حنين : لن تغلب اليوم من قلة . فشقق ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله - وذكر الآية قال الربيع وكانوا اثني عشر ألفاً منهم ألفان من أهل مكة .

شجاعته ورباطة جأشه<sup>(١)</sup> صلى الله عليه وسلم ، وما هي إلا من آيات النبوة ، وقال : يارب اتقني بما وعدتني . وقال صلى الله عليه وسلم للعباس - وكان صيتاً : صبيح بالناس ، فنادى الانصار غزاً غزاً ، ثم نادى : يا أصحاب الشجرة ، يا أصحاب البقرة ، فكثروا عنقاً واحداً<sup>(٢)</sup> وهم يقولون : ليك ليك ، ونزلت الملائكة عليهم البياض على خيول بلق ، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قتال المسلمين فقال : هذا حين حمى الوطيس ، ثم أخذ كفاً من تراب فرماه به ثم قال : انهزموا ورب الكعبة فانهمزموا ، قال العباس : لكأنني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض خلفهم على بغلته ﴿بما رحبت﴾ ما مصدريه ، والباء بمعنى مع ، أى مع رحبها<sup>(٣)</sup> وحقيقته ملتبسة برحبها ، على أن الجاز والمجرور في موضع الحال . كقولك : دخلت عليه بثياب السفر ، أى ملتبساً بها لم أحلها ، تعنى مع ثياب السفر . والمعنى : لا تجدون موضعاً تستصلحونه لهربكم إليه ونجاتكم لفرط الرعب ، فكأنها ضاقت عليكم ﴿ثم وليتم مدبرين﴾ ثم انهزمتم ﴿سكينته﴾ رحمته التي سكثوا بها وآمنوا ﴿وعلى المؤمنين﴾ الذين انهزموا . وقيل : هم الذين ثنوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين وقع الحرب ﴿وأزل جنوداً﴾ يعنى الملائكة ، وكانوا ثمانية آلاف ، وقيل خمسة آلاف ، وقيل ستة عشر ألفاً ﴿وعذب الذين كفروا﴾ بالقتل والاسر ، وسبي النساء والذراري ﴿ثم يتوب الله﴾ أى يسلم بعد ذلك ناس منهم . وروى أن ناساً منهم جاؤا فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام وقالوا : يا رسول الله ، أنت خير الناس وأبر الناس وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا . قيل : سبى يومئذ ستة آلاف نفس ، وأخذ من الإبل والغنم ما لا يحصى ، فقال : إن عندى ما ترون ، إن خير القول أصدقه ، اختاروا : إما ذراريكم ونساءكم ، وإما أموالكم . قالوا : ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن هؤلاء جاؤا مسلمين ، وإننا خيرناهم بين الذراري والأموال فلم يعدلوا بالأحساب شيئاً ، فمن كان يديه شئ وطابت نفسه أن يرده فشأنه ، ومن لا فليعطننا وليكن قرضاً علينا حتى نصيب شيئاً فنعطيه مكانه . قالوا : رضينا ولسنا ، فقال : إني لا أدرى لعل فيكم من لا يرضى ، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا ، فرفعت إليه العرفاء أن قد رضوا<sup>(٤)</sup> .

(١) قوله «ورباطة جأشه» الجأش : رواع القلب عند الفزع . ورباط الجأش : من يربط نفسه عن الفرار

شجاعته . (ع)

(٢) قوله «عنقاً واحداً» ويقال هم عنق إليك أى ماثلون إليك كذا في الصحاح . (ع)

(٣) قوله «مع رحبها» في الصحاح «الرحب» بالغنم : السعة . (ع)

(٤) ذكره الثعلبي بغير سند وهذه القصة قد ذكرها ابن إسحاق في المغازي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده بطوله ، وذكرها البخاري من رواية الزهري عن عروة عن المسور ومروان ، ورواه الطبري وغيره عن رواية زهير ابن حرد ، وفيه الشعر الذي أنشده زهير .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ  
بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَوْلَةَ فَسَوْفَ بُغْنِيكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

النجس: مصدر، يقال: نجس نجساً، وقدر قدرأ. ومعناه ذو نجس؛ لأن معهم الشرك الذي هو بمنزلة النجس، ولأنهم لا يتطهرون ولا يغتسلون ولا يجتنبون النجاسات، فهي ملاسبة لهم. أو جعلوا كأنهم النجاسة بعينها، مبالغة في وصفهم بها. وعن ابن عباس رضي الله عنه: أعيانهم نجسة كالكلاب والخنازير. وعن الحسن: من صافح مشركاً توضأ. وأهل المذاهب على خلاف هذين القولين. وقرئ: نجس، بكسر النون وسكون الجيم، على تقدير حذف الموصوف، كأنه قيل: إنما المشركون جنس نجس، أو ضرب نجس، وأكثر ما جاء تابعا لرَجَسَ وهو تخفيف نجس، نحو: كبد، في كبد ﴿فلا يقربوا المسجد الحرام﴾ فلا يحجوا ولا يعتمروا، كما كانوا يفعلون في الجاهلية ﴿بعد عامهم هذا﴾ بعد حج عامهم هذا وهو عام تسع من الهجرة حين أقر أبو بكر على الموسم، وهو مذهب أبي حنيفة وأصحابه، ويدل عليه قول علي كرم الله وجهه حين نادى براءة: ألا لا يحج بعد عامنا هذا مشرك. ولا يمتنعون من دخول الحرم والمسجد الحرام وسائر المساجد عندهم. وعند الشافعي: يمتنعون من المسجد الحرام خاصة. وعند مالك: يمتنعون منه ومن غيره من المساجد. وعن عطاء رضي الله عنه أن المراد بالمسجد الحرام: الحرم، وأن على المسلمين أن لا يمكنوهم من دخوله. ونهى المشركين أن يقربوه راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه <sup>(١)</sup> وقيل المراد أن يمتنعوا من تولى المسجد الحرام والقيام بمصلحته ويعزلوا عن ذلك ﴿وإن خفتكم عيلة﴾ أي فقراً بسبب منع المشركين من الحج وما كان لكم في قدومهم عليكم من الأرفاق والمكاسب ﴿فسوف يغنيكم الله من فضله﴾ من عطائه أو من تفضله بوجه آخر، فأرسل السماء عليهم مدرارا، فأغزر بها خيرهم وأكثر ميرهم، وأسلم أهل تبالة وجرش <sup>(٢)</sup> فحملوا إلى

(١) قال محمّد: وهذا الذي راجع إلى نهى المسلمين عن تمكينهم منه، قال أحمد: وقد يستدل به من يقول: إن الكفار غاطبون بفروع الشريعة، وخصوصا بالمناهي، فإن ظاهر الآية توجه النهي إلى المشركين، إلا أنه بعيد، لأن المعلوم من المشركين أنهم لا ينجرون بهذا النهي، والمقصود تطهير المسجد الحرام بإبعادهم عنه، فلا يحصل هذا المقصود إلا بنهي المسلمين عن تمكينهم من قربانه، ويرشد إلى أن الخطاب في الحقيقة للمسلمين، تصدير الكلام بخطابهم في قوله (يا أيها الذين آمنوا) وتصديقه نصا بخطابهم بقوله (وإن خفتكم عيلة) وكثيرا ما يتوجه النهي على من المراد خلافه، وعلى ما المراد خلافه إذا كانت ثم ملازمة، كقوله: لأرثك ههنا، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون، والله أعلم.

(٢) قوله «وأكثر ميرهم... الخ المير: إطعام الطعام. ويقال: بلد بالين. وجرش: موضع منه أيضا. أفاده الصحاح. (ع)

مكة الطعام وما يعاش به ، فكان ذلك أعود عليهم بما خافوا العيلة لفواته . وعن ابن عباس رضى الله عنه : ألقى الشيطان في قلوبهم الخوف وقال : من أين تأكلون ؟ فأمرهم الله بقتال أهل الكتاب وأغنائهم بالجزية . وقيل : بفتح البلاد والغنائم . وقرئ : عاتلة ، بمعنى المصدر كالعافية . أو حالا عاتلة . ومعنى قوله ﴿ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ . إن أوجبت الحكمة إغنائكم وكان مصلحة لكم في دينكم ﴿ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾ بأحوالكم ﴿ حَكِيمٌ ﴾ لا يعطى ولا يمنع إلا عن حكمة وصواب .

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٩﴾

﴿ من الذين أوتوا الكتاب ﴾ بيان للذين مع ما في حيزه . نفى عنهم الإيمان بالله لأن اليهود مثنية والنصارى مثلية . وإيمانهم باليوم الآخر لأنهم فيه على خلاف ما يجب وتحريم ما حرم الله ورسوله ؛ لأنهم لا يحرمون ما حرم في الكتاب والسنة . وعن أبي روق : لا يعملون بما في التوراة والإنجيل ، وأن يدنوا دين الحق ، وأن يعتقدوا دين الإسلام الذى هو الحق وما سواه الباطل . وقيل : دين الله ، يقال : فلان يدين بكذا إذا اتخذ دينه ومعتقده . سميت جزية ؛ لأنها طائفة مما على أهل الذمة أن يجزوه أى يقضوه ، أو لأنهم يجزون بها من من عليهم بالإعفاء عن القتل ﴿ عَنْ يَدٍ ﴾ إما أن يراد بالمعطى أو الآخذ <sup>(١)</sup> فعناه على إرادة يد المعطى حتى يعطوها عن يد : أى عن يد مؤاتية غير متمنعة <sup>(٢)</sup> لأن من أى وامتنع لم يعطيه ، بخلاف المطيع المنقاد ، ولذلك قالوا : أعطى يده . إذا انقاد وأصبح <sup>(٣)</sup> . ألا ترى إلى قولهم . نزع يده عن الطاعة ، كما يقال : خلع ربة الطاعة عن عنقه ، أو حتى يعطوها عن يد إلى يد نقداً غير نسيئة ، لا مبعوثاً على يد أحد . ولكن عن يد المعطى إلى يد الآخذ ، وأما على إرادة يد الآخذ فعناه حتى يعطوها <sup>(٤)</sup> عن يد قاهرة مستولية ، أو عن إنعام عليهم ؛ لأن قبول الجزية منهم وترك أرواحهم

(١) قال محمود : « إما أن يراد يد المعطى أو الآخذ ... الخ » قال أحمد : فيكون كاليد في قوله عليه السلام « لا تبعوا الذهب ... إلى قوله إلا يدا يده » .

(٢) قوله « أى عن يد مؤاتية غير متمنعة » في الصحاح : آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة ، إذا وافقته وطاعته .  
والعامة تقول : وآتيته . (ع)

(٣) قوله « وأصبح » أى سهل بعد صعوبة . انتهى صحاح . (ع)

(٤) عاد كلامه قال : وإن أوبد به الآخذ فعناه حتى يعطوها ... الخ قال أحمد : وهذا الوجه أملاً بالفائدة والله أعلم .

لهم نعمة عظيمة عليهم (وهم صاغرون) أى تؤخذ منهم على الصغار والذل . وهو أن يأتى بها بنفسه ماشياً غير راكب ، ويسلمها وهو قائم . والمتسلم جالس ، وأن يتلثل ثلثة <sup>(١)</sup> . ويؤخذ بتليبيه ، ويقال له : أذ الجزية ، وإن كان يؤذيها ويخ في قفاه . وتسقط بالإسلام عند أبي حنيفة ولا يسقط به خراج الأرض . واختلف فيمن تضرب عليه ، فعند أبي حنيفة : تضرب على كل كافر من ذمى ومجوسى وصابى . وحربى ، إلا على مشركى العرب وحدهم . روى الزهرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صالح عبدة الأوثان على الجزية ، إلا من كان من العرب <sup>(٢)</sup> وقال لاهل مكة : هل لكم فى كلمة إذا قلتموها دانت لكم بها العرب وأدت إليكم العجم الجزية وعند الشافعى لا تؤخذ من مشركى العجم . والمأخوذ عند أبي حنيفة فى أول كل سنة من الفقير الذى له كسب : اثنا عشر درهما . ومن المتوسط فى الفنى : ضعفها ، ومن المكثر : ضعف الضعف ثمانية وأربعون ، ولا تؤخذ من فقير لا كسب له . وعند الشافعى : يؤخذ فى آخر السنة من كل واحد دينار ، فقيراً كان أو غنياً ، كان له كسب أو لم يكن .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَا اللَّهَ أَنَّى يُؤْفَكُونَ <sup>(٣)</sup>

(عزير ابن الله) مبتدأ وخبر ، كقوله : المسيح ابن الله ، وعزير : اسم أعجمى كما زار وعيزار وعزرائيل ، ولعجمته وتعريفه : امتنع صرفه . ومن تون فقد جعله عربياً . وأما قول من قال : سقوط التنوين لالتقاء الساكنين كقراءة من قرأ (أحد الله) أو لأن الابن وقع وصفا والخبر محذوف وهو معبودنا ، فتمحل عنه مندوحة ، وهو قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة ، وما هو بقول كلهم عن ابن عباس رضى الله عنه : جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاش بن قيس ومالك بن الصيف ، فقالوا ذلك . وقيل : قاله فنحاص . وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام ، فرفع الله عنهم التوراة ومحامها من قلوبهم ، فخرج عزير وهو غلام يسبح فى الأرض ، فأتاه جبريل عليه السلام : فقال له إلى أين تذهب ؟ قال : أطلب العلم لحفظه التوراة . فأملأها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً ، فقالوا ما جمع الله التوراة فى صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه <sup>(٤)</sup> . والدليل على أن هذا القول كان

(١) قوله «وأن يتلثل ثلثة» أى يزعم وزلول . وقوله «يزخ» أى يدفع كما فى الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه عبدالرزاق فى تفسيره : أخبرنا معمر عن الزهرى بهذا ، وزاد «وقبل الجزية من البحرين

وكانوا مجوساً .

(٣) قلت أورد المخرج منطها إلى الذى قبله ولم يذكر من أخرجه والصاب أنه حديث آخر أخرجه

فيهم : أن الآية تليت عليهم ، فما أنكروا ولا كذبوا ؛ مع تهالكهم على التكذيب . فإن قلت : كل قول يقال بالقلم فما معنى قوله ﴿ ذلك قولهم بأفواههم ﴾ ؟ قلت : فيه وجهان . أحدهما : أن يراد أنه قول لا يعضده برهان ، فما هو إلا لفظ يفوهون به ، فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهمة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان . وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالقلم ومعناه مؤثر في القلب . ومالا معنى له مقول بالقلم لا غير ، والثاني : أن يراد بالقول المذهب ، كقولهم : قول أبي حنيفة ، يريدون مذهبه وما يقول به ، كأنه قيل : ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم ، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب ، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبق شبهة في انتفاء الولد ﴿ يظاهرون ﴾ لا بد فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم قولهم ، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه : فانقلب مرفوعا . والمعنى : أن الذين كانوا في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدماهم ، يعني أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث . أو يضاهي قول المشركين : الملائكة بنات الله تعالى الله عنه . وقيل : الضمير للنصارى ، أى يضاهي قولهم : المسيح ابن الله ، قول اليهود : بنو الله ، لأنهم أقدم منهم . وقرئ يظاهرون بالهمز من قولهم : امرأة ضياء على فيل ، وهي التي ضاهأت الرجال في أنها لا تحيض وهمزتها <sup>(١)</sup> مزيدة كما في عرقه ﴿ قاتلهم الله ﴾ أى هم أحقاء بأن يقال لهم هذا ، تعجباً من شناعة قولهم ، كما يقال لقوم ركبوا شقاء : قاتلهم الله ما أعجب فعلهم ﴿ أنى يؤفكون ﴾ كيف يصرفون عن الحق ؟

اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُّوا إِلَّا لِیَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾

اتخاذهم أربابا : أنهم أطاعوهم في الأمر بالمعاصي وتحليل ما حرم الله وتحريم ما حله ، كما نطاع الأرباب في أوامرهم . ونحوه تسمية أتباع الشيطان فيما يوسوس به : عباده ، بل كانوا يعبدون الجن ( يا أبت لا تعبد الشيطان ) وعن عدی بن حاتم رضي الله عنه : انتهت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنق صليب من ذهب ، فقال : « ألبسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرمه فتحلونه ، ؟ قلت : بلى . قال : فتلك عبادتهم <sup>(٢)</sup> . وعن فضيل رضي

(١) قوله « أنها لا تحيض وهمزتها مزيدة » هذا لا يناسب قوله « على فيل » فلهذا « أوهمزة ... الخ » . (ع)

(٢) الواقدي من طريق عامر بن سعد عن عدی بن حاتم بهذا ، وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن عطاء ابن يسار عن عدی بن حاتم ، ورواه الترمذي من طريق مصعب بن سعد عن عدی بن حاتم بهذا وأتم منه ، إلا قوله « تلك عبادتهم » وقال حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب عن عطف بن أعين ، وعطف =

الله عنه : ما أبالي أطلعت مخلوقاً في معصية الخالق ، أو صليت لغير القبلة . وأما المسيح حين جعلوه ابناً لله فقد أهله للعبادة . ألا ترى إلى قوله ( قل إن كان الرحمن ولد فبأنا أول العابدين ) . ( وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً ) أمرتهم بذلك أدلة العقل والنصوص في الإنجيل والمسيح عليه السلام : أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ( سبحانه ) تنزيه له عن الإشراك به ، واستبعاد له . ويجوز أن يكون الضمير في ( وما أمروا ) للتخذين أرباباً ، أى : وما أمر هؤلاء الذين هم عندهم أرباب إلا ليعبدوا الله ويوحدوه ، فكيف يصح أن يكونوا أرباباً وهم مأمورون مستعبدون مثلهم .

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾

مثل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بالتكذيب ، بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق ، يريد الله أن يزيده ويبلغه الغاية القصوى في الإشراق أو الإضاءة ، ليطفئه بنفخه ويطمسه ( ليظهره ) ليظهر الرسول عليه السلام ( على الدين كله ) على أهل الأديان كلهم . أو ليظهر دين الحق على كل دين . فإن قلت : كيف جاز ، أبى الله إلا كذا ، ولا يقال : كرهت أو أبغضت إلا زيدا<sup>(١)</sup> ؟ قلت : قد أجرى ، أبى ، مجرى ، لم يرد ، ألا ترى كيف قبل ( يريدون أن يطفئوا ) بقوله ( ويأبى الله ) وكيف أوقع موقع ولا يريد الله إلا أن يتم نوره .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصَدِّقُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُخْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ

== ليس معروف ، وأخرجه ابن أبي شيبة والطبراني والطبري وأبو يعلى من هذا الوجه رواه البيهقي في المدخل كذلك وراد « تلك عبادتهم » .

(١) قال : محمود « إن قلت كيف جاز أبى الله إلا كذا ولا يقال كرهت ... الخ » قال أحد : ولا يقال على هذا إن الإباء عدم الإرادة . فكأصح الإيجاب بعد نفي الإرادة ، فينبغي أن يصح بعدما هو في معناها مطلقاً ، لأننا نقول لوجود حرف النفي أثر في تصحيح مجيء حرف الإيجاب بعد فلا يلزم ذلك ، والله أعلم .

فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كُنْتُمْ لَا تُفْسِكُمْ فَذُقُوا  
مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٥﴾

معنى أكل الأموال على وجهين: إما أن يستعار الأكل الأخذ. ألا ترى إلى قولهم: أخذ الطعام وتناوله. وإما على أن الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل. ومنه قوله:

إِنْ لَنَا أَجْرَةٌ عِجَافًا      يَا سُلَيْمَنُ كُلْ لَيْلَةً إِكْفًا<sup>(١)</sup>

يريد: علفاً يشتري بثمان إكاف. ومعنى أكلهم بالباطل: أنهم كانوا يأخذون الرشاً في الأحكام، والتخفيف والمساهة في الشرائع (والذين يكتزون) يجوز أن يكون إشارة إلى الكثير من الأجبار والرهبان، للدلالة على اجتماع خصلتين مذمومتين فيهم: أخذ البراطيل، وكنز الأموال، والضن بها عن الإنفاق في سبيل الخير. ويجوز أن يراد المسلمون الكائزون غير المنفقين، ويقرن بينهم وبين المرتشين من اليهود والنصارى، تغليظاً ودلالة على أن من يأخذ منهم السحت، ومن لا يعطى منكم طيب ماله: سواء في استحقاق البشارة بالعذاب الأليم. وقيل: نسخت الزكاة آية الكنز. وقيل: هي ثابتة، وإنما عني بترك الإنفاق في سبيل الله منع الزكاة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان باطلاً، وما بلغ أن يزكى فلم يزك فهو كنز وإن كان ظاهراً»<sup>(٢)</sup> وعن عمر رضي الله عنه أن رجلاً سأله عن أرض له باعها فقال: أحرز مالك الذي أخذت، أحفر له تحت فراش امرأتك. قال: أليس بكنز؟ قال: ما أدى زكاته فليس بكنز<sup>(٣)</sup> وعن عمر رضي الله عنه: كل ما أدبت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين. وما لم

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٦٦ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) أخرجه البيهقي من طريق محمد بن جبير عن سفيان عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر مرفوعاً بلفظ «كل ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان مدفوناً، وكل ما لا يؤدي زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً» قال البيهقي: ليس هذا بمحفوظ، والمشهور عن سفيان بن عيينة بن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قوله: «ورواه الطبراني في الأوسط وابن مردويه وابن عدي من طريق سويد بن عبد العزيز عن عبيد الله بن مسعود مرفوعاً، ولفظه «كل مال وإن كان تحت سبع أرضين يؤدي زكاته فليس بكنز، وكل مال لا يؤدي زكاته وإن كان ظاهراً فهو كنز» قال ابن عدي: وفيه سويد وغيره يرويه موقوفاً والموقوف رواه عبيد الرزاق عن عبيد الله العمري موقوفاً والشافعي عن ابن عيينة عن ابن عجلان عن نافع نحوه، وفي الباب عن أم سلمة قالت «جئت أليس أوضاحاً من ذهب فقلت يا رسول الله أكنز هو؟ فقال: ما بلغ الذي يؤدي زكاته فليس بكنز» أخرجه أبو داود والحاكم .

(٣) أخرجه عبد الرزاق من طريق بشر بن سعيد أن رجلاً باع رجلاً حائطاً أو مالا بمال عظيم فقال له عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: أحسن موضع هذا المال - الحديث - ورواه ابن أبي شيبة من طريق أخرى عن سعيد ابن أبي سعيد أن عمر سأل رجلاً - فذكره .



يؤدّ زكاته فهو الذي ذكر الله تعالى وإن كان على ظهر الأرض <sup>(١)</sup> فإن قلت : فما تصنع بما روى سالم بن الجعد رضى الله عنه أنها لما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «تبا للذهب تبا للفضة ، قالها ثلاثاً . فقالوا له : أى مال تتخذ ؟ قال : لساناً ذا كراً ، وقلباً خاشعاً ، وزوجة تعين أحدكم على دينه <sup>(٢)</sup> » وبقوله عليه الصلاة والسلام « من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها » <sup>(٣)</sup> وتوفى رجل فوجد في مثزه دينار ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كية » ، وتوفى آخر فوجد في مثزه ديناران ، فقال « كيتان » <sup>(٤)</sup> قلت : كان هذا قبل أن تفرض الزكاة ، فأما بعد فرض الزكاة ، فالله أعدل وأكرم من أن يجمع عبده مالا من حيث أذن له فيه ، ويؤدّ عنه ما أوجب عليه فيه ، ثم يعاقبه . ولقد كان كثير من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وعبيد الله رضى الله عنهم يقتنون الأموال ويتصرفون فيها ، وما عابهم أحد ممن أعرض عن الفنية ، لأن الإعراض اختيار للأفضل ، وإلا دخل في الورع والزهد في الدنيا ، والافتناء مباح موسع لا يذم صاحبه ، ولكل شيء حد . وما روى عن علي رضى الله عنه :

(١) تقدم الكلام عليه .

(٢) كذا ذكره مرسل ، وهو معروف من رواية سالم بن ثوبان أخرجه الطبري والطبراني في الأوسط من طريق موثّل بن إسماعيل عن الثوري عن الأعمش ومنصور وعمر بن مرة عن سالم بن أبي الجعد عن ثوبان بهذا ، ورواه الترمذى وأحمد في الزهد من رواية إسرائيل عن منصور ومده به ، وليس فيه «تبا للذهب تبا للفضة» بل فيه : فقال بعض أصحابه «لوعلنا أى المال خير فتتخذ» قال البخارى وغيره : سالم لم يسمع من ثوبان ، ورواه ابن ماجه وأحمد وأبو نعيم في الحلية من رواية عبد الله بن عمرو بن مرة عن أبيه عن سالم بن ثوبان قال «لما نزلت قالوا : فأى المال تتخذ ؟ قال عمر : فأنا أعلم لكم ذلك فأوضح على بعيره فأدرك النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في أثره فقال : يا رسول الله أى المال تتخذ ؟ الحديث » وفي الباب عن علي أخرجه عبدالرزاق عن الثوري عن أبي حصين عن أبي الضحى عن جعدة بن سبرة عنه ، وعن بريدة أخرجه ابن مردويه من رواية الحكم بن ظهير عن علقمة بن مرثد عن سليمان بن بريدة عن أبيه . وعن بعض الصحابة أخرجه أحمد من رواية سعيد عن سالم بن عطية عن عبد الله بن عطية عن عبد الله بن أبي الهذيل حدثني صاحب لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «تبا للذهب تبا للفضة» لحدثني صاحبى أنه انطلق مع عمر ، فقال : يا رسول الله . فذكر نحوه .

(٣) أخرجه البخارى في التاريخ والطبري وابن مردويه من طريق عبد الله بن عبد الواحد الثقفى عن أبي النجيب الشافى «كان نعل سيف أبي هريرة من فضة ، فنهاه عنه أبو ذر وقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من ترك صفراء أو بيضاء كوى بها » وفي الباب عن أبي أمامة ، أخرجه الطبراني بلفظ «ممن عبيد يموت فيترك صفراء أو بيضاء إلا كوى بها » وعن ثوبان أخرجه ابن مردويه والطبراني في مسند الشاميين من رواية أروطة بن المنذر عن ابن عامر عنه ، بلفظ «ممن أحد يترك صفراء أو بيضاء من ذهب أو فضة إلا جعل صفائح ثم كوى بها » .

(٤) أخرجه أحمد وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني والطبري من طريق شهر بن حوشب عن أبي أمامة ، بلفظ مروى في الموضعين . ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث ابن مسعود بالقطر الثاني .

أربعة آلاف فما دونها نفقة ، فإزاد فهو كنز <sup>(١)</sup> : كلام في الأفضل . فإن قلت : لم قيل : ولا ينفقونها ، وقد ذكر شيثان ؟ قلت : ذهاباً بالضمير إلى المعنى دون اللفظ : لأن كل واحد منهما جملة وافية وعدة كثيرة ودنانير ودرهم ، فهو كقوله ( وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ) وقيل : ذهب به إلى الكنوز . وقيل : إلى الأموال . وقيل : معناه ولا ينفقونها والذهب ، <sup>(٢)</sup> كما أن معنى قوله :

﴿ قَاتِي وَفِعَارٌ بِهَا لَغَيبٌ ﴾ <sup>(٣)</sup>

وقيار كذلك . فإن قلت : لم خصا بالذكر من بين سائر الأموال ؟ قلت : لأنهما قانون القول وأمان الأشياء ، ولا يكتزهما إلا من فضلا عن حاجته ، ومن كثرا عنده حتى يكتزهما لم يعدم سائر أجناس المال ، فيكان ذكر كنزهما دليلا على ما سواهما ، فإن قلت : ما معنى قوله ( يحمى عليها ) ؟ وهلا قيل : تحمى ، من قولك : حمى الميسم <sup>(٤)</sup> وأحميته ، ولا تقول : أحميت على الحديد ؟ قلت : معناه أن النار تحمى عليها ، أى توقد ذات حمى وحر شديد . من قوله ( نار حامية ) ولو قيل : يوم تحمى ، لم يعط هذا المعنى . فإن قلت : فإذا كان الإحماء للنار ، فلم ذكر الفعل ؟ قلت : لأنه مسند إلى الجار والمجرور ، أصله : يوم تحمى النار عليها ، فلما حذف النار قيل : يحمى عليها ، لانتقال الاسناد عن النار إلى عليها ، كما تقول : رفعت القصة إلى الأمير ، فإن لم تذكر القصة قلت : رفع إلى الأمير . وعن ابن عامر أنه قرأ : تحمى ، بالتاء . وقرأ أبو حية : فيكوى بالياء . فإن قلت : لم خصت هذه الأعضاء ؟ قلت : لأنهم لم يطلبوا بأموالهم - حيث لم ينفقوها في سبيل الله - إلا الأغراض الدنيوية ، من وجاهة عند الناس ، وتقدم ، وأن يكون ماء وجوههم مصوناً عندهم ، يتلقون بالجميل ، ويحيون بالإكرام ، ويبجلون ويحشمون ، ومن أكل طيبات يتضلعون منها وينفخون جنوبهم ، ومن لبس ناعمة من الثياب يطرحونها على ظهورهم ، كما ترى أغنياء زمانك هذه أغراضهم وطلباتهم من أموالهم ، لا يخطرون بياهم قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذهب أهل الدثور بالأجور ، <sup>(٥)</sup> وقيل : لأنهم كانوا إذا أبصروا الفقير عبسوا ، وإذا ضمهم وإياه مجلس زوروا عنه وتولوا بأركانهم وولوه ظهورهم . وقيل : معناه

(١) أخرجه عبد الرزاق والطبري بإسناده المصنف عن علي رضي الله عنه قبل بحديثين .

(٢) قوله « والذهب لعله » والذهب كذلك . (ع)

(٣) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٦٢٩ فراجع إن شئت أمه تصححه .

(٤) قال محمود : « إن قلت : هلا قيل تحمى ، كما يقال : حمى الميسم وأحميته ... الخ » قال أحمد : وفي هذا

الفصل دقائق إعراب يشوب حسنا لإعراب ، والله الموفق .

(٥) أخرجه مسلم من طريق أبي الأسود عن أبي ذر « أن أناسا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم : قالوا :

يا رسول الله ذهب أهل الدثور بالأجور يصلون كما نصلي - الحديث .

يكون على الجهات الأربع مقاديرهم ومآخيرهم وجنوبهم ﴿هذا ما كنزتم﴾ على إرادة القول .  
وقوله ﴿لأنفسكم﴾ أى كنزتموه لانتفع به نفوسكم وتلتذ وتحصل لها الأغراض التى حامت  
حولها وما علمتم أنكم كنزتموه لتستضر به أنفسكم وتعذب وهو تويخ لهم ﴿فذوقوا ما كنتم  
تكفرون﴾ وقرئ: تكفرون، بضم النون، أى وبال المال الذى كنتم تكفرونه أو وبال  
كونكم كافرين .

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلُمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَفِيُوا  
الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقْتُلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾

﴿فى كتاب الله﴾ فيما أثبتته وأوجبه من حكمه ورآه حكمة وصوابا . وقيل فى اللوح ﴿أربعة  
حرم﴾ ثلاثة سرد: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو رجب . ومنه قوله عليه  
السلام فى خطبته فى حجة الوداع : ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السموات  
والأرض <sup>(١)</sup> . السنة اثنا عشر شهرا : منها أربعة حرم ، ثلاث متواليات : ذو القعدة  
وذو الحجة ، والمحرم . ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . والمعنى : رجعت الأشهر  
إلى ما كانت عليه ، وعاد الحج فى ذى الحجة ، وبطل النسيء الذى كان فى الجاهلية ، وقد وافقت  
حجة الوداع ذى الحجة ، وكانت حجة أبى بكر رضى الله عنه قبلها فى ذى القعدة ﴿ذلك الدين  
القيم﴾ يعنى أن تحريم الأشهر الأربعة هو الدين المستقيم ، دين إبراهيم وإسماعيل ، وكانت العرب  
قد تمسكت به وراثته منهما ، وكانوا يعظمون الأشهر الحرم ويحرمون القتال فيها ، حتى لو لقي الرجل  
قاتل أبيه أو أخيه لم يهجه ، وسموا رجباً : الأصم ومنصل الأسنه ، حتى أحدثت النسيء فغيروا  
﴿فلا تظلموا فيه﴾ فى الحرم ﴿أنفسكم﴾ أى لا تجعلوا حرامها حلالا . وعن عطاء . ناله ما يحل  
للناس أن يغزوا فى الحرم ولا فى الأشهر الحرم إلا أن يقاتلوا ، وما نسخت ، وعن عطاء  
الخراسانى رضى الله عنه : حلت القتال فى الأشهر الحرم برأه من الله ورسوله . وقيل : معناه  
لا تأثموا فيه ، بئانا لعظم حرمتها ، كما عظم أشهر الحج بقوله تعالى (من فرض فيه الحج  
فلا رفث ولا فسوق... الآية) وإن كان ذلك محرما فى سائر الشهور ﴿كافة﴾ حال من الفاعل  
أو المفعول ﴿مع المتقين﴾ ناصر لهم ، حثهم على التقوى بضمان النصر لأهلها .

(١) متفق عليه من حديث أبى بكره وفى الباب عن ابن عمر رضى الله عنهما أخرجه الطبرى من رواية موسى  
ابن عبيدة عن صدقة بن يسار عنه بلفظ المصنف . وهو ضعيف . وعن ابن عباس أخرجه ابن مردويه .

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحْلُونَهُ عَامًا وَيُخَرِّمُونَهُ  
عَامًا لِّهُوَ أَطْوَا عِدَّةً مَّا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحْلُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ  
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾

والنسيء: تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر، وذلك أنهم كانوا أصحاب حروب وغارات، فإذا  
جاء الشهر الحرام وهم محاربون شق عليهم ترك المحاربة، فيحلونهُ ويحرمون مكانه شهراً آخر،  
حتى رفضوا تخصيص الأشهر الحرم بالتحريم، فكانوا يحرمون من شق شهور العام أربعة أشهر  
وذلك قوله تعالى ﴿ليواطوا عدة ما حرم الله﴾ أى ليوافقوا العدة التى هى الأربعة ولا يخالفوها  
وقد خالفوا التخصيص الذى هو أحد الواجبين، وربما زادوا فى عدد الشهور فيجعلونها ثلاثة  
عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت. ولذلك قال عز وعلا ﴿إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر  
شهراً﴾ يعنى من غير زيادة زادوها. والضمير فى: يحلونهُ، ويحرمونه للنسيء. أى إذا أحلوا  
شهرًا من الأشهر الحرم عاماً، رجعوا لحرمة الشهر فى العام القابل. وروى أنه حدث ذلك فى كنانة  
لأنهم كانوا فقراء يحاولون إلى الغارة، وكان جنادة بن عوف الكنانى مطاعاً فى الجاهلية، وكان  
يقوم على جبل فى الموسم فيقول بأعلى صوته: إن آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه، ثم  
يقوم فى القابل فيقول: إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه. جعل النسيء زيادة  
فى الكفر، لأن الكافر كلما أحدث معصية ازداد كفراً، فزادتهم رجساً إلى رجسهم، كما أن المؤمن  
إذا أحدث الطاعة ازداد إيماناً (فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون) وقرئ (يضل) على البناء  
للمفعول، و(يضل) بفتح الياء والضاد، و(يضل) على أن الفعل لله عز وجل. وقرأ الزهرى:  
ليوطوا بالتشديد. والنسيء مصدر نساء إذا أخره. يقال نساء نساء ونساء ونسيئاً، كقولك:  
مسه مساً ومساساً ومسيساً. وقرئ بهن جميعاً. وقرئ النسيء بوزن الندى. والنسيء بوزن النهى،  
وهما تخفيف النسيء والنساء. فإن قلت: ما معنى قوله ﴿فيحلوا ما حرم الله﴾؟ قلت: معناه  
فيحلوا بمواطأة العدة وحدها من غير تخصيص ما حرم الله من القتال، أو من ترك الاختصاص  
للأشهر بعينها (زين لهم سوء أعمالهم) خذلهم الله فحسبوا أعمالهم القبيحة حسنة (والله لا يهدي)  
أى لا يلفظ بهم بل يخذلهم. وقرئ: زين لهم سوء أعمالهم، على البناء للفاعل، وهو الله عز وجل.  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ  
إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي  
الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ

وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَمُوتُنَا هَٰذَا اللَّهُ مَعَنَا فَانْزِلْ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ آفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

(اثاقلتم) ثقألتم . وبه قرأ الاعمش ، أى تباطأتم وتقاعثتم . وضمن معنى الميل والإخلاد فعدى بإلى . والمعنى : ملتم إلى الدنيا وشهواتها وكرهتم مشاق السفر ومتاعبه ، ونحوه : (أخلد إلى الأرض واتبع هواه) وقيل : ملتم إلى الإقامة بأرضكم ودياركم : وقرئ اثاقلتم ؟ على الاستفهام الذى معناه الإنكار والتوبيخ . فإن قلت : فما العامل فى « إذا » وحرف الاستفهام مانعة أن يعمل فيه ؟ قلت : مادله عليه قوله (اثاقلتم) أو مافى (مالكم) من معنى الفعل ، كأنه قيل : ماتصنعون إذا قيل لكم كما تعمله فى الحال إذا قلت : مالك قائماً ، وكان ذلك فى غزوة تبوك فى سنة عشر بعد رجوعهم من الطائف ، استنفروا فى وقت عسرة وقحط وقبط مع بعد الشقة وكثرة العدو ، فشق عليهم . وقيل : ماخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة إلا ورى عنها بغيرها إلا فى غزوة تبوك (١) ليستعد الناس تمام العدة (من الآخرة) أى بدل الآخرة بكفوله : ( لجعلنا منكم ملائكة ) . ( فى الآخرة ) فى جنب الآخرة ( إلا تنفروا ) سخط عظيم على المشاقلين (٢) حيث أوعدهم بعذاب أليم مطلق يتناول عذاب الدارين ، وأنه يهلكهم ويستبدل بهم قوما آخرين خيراً منهم وأطوع ، وأنه غنى عنهم فى نصرة دينه ، لا يقدرح ثقألهم فيها شيئاً : وقيل : الضمير للرسول : أى ولا تضروه ، لأن الله وعده أن يعصمه من الناس وأن ينصره ، ووعد الله كائن لا محالة ، وقيل يريد بكفوله (قوما غيركم) أهل اليمن . وقيل : أبناء فارس ، والظاهر مستغن عن

(١) قوله « وحرف الاستفهام » لعله : وأحرف الاستفهام ، بدليل قوله « مانعة » . وقوله « أن يعمل فيه »

لعله : أن يعمل فيه « اثاقلتم » . (ع)

(٢) متفق عليه من حديث كعب بن مالك .

(٣) قال محمود : « فى هذه الآية سخط عظيم على المشاقلين حيث أوعدهم عذاباً أليماً ... الخ » قال أحد : ويقرب

عادة الضمير إلى الرسول أن الضمير فى قوله ( إلا تنفروا ) عقيب ذلك عائد إليه اتفاقاً ، والله أعلم .

للتخصيص . فإن قلت : كيف يكون قوله ﴿ فقد نصره الله ﴾ جواباً للشرط ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : لا تنصروه فسينصره من نصره حين لم يكن معه إلا رجل واحد ولا أقل من الواحد ، فدلّ بقوله ﴿ فقد نصره الله ﴾ على أنه ينصره في المستقبل ، كما نصره في ذلك الوقت . والثاني : أنه أوجب له النصرة وجعله منصوراً في ذلك الوقت : ، فلن يخذل من بعده . وأسند الإخراج إلى الكفار كما أسند إليهم في قوله (من قرئك التي أخرجتك) لأنهم حين هموا بإخراجه أذن الله له في الخروج ، فكأنهم أخرجوه ﴿ ثاني اثنين ﴾ أحد اثنين ، كقوله (ثالث ثلاثة) وهما رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر الصديق رضي الله عنه . يروى أن جبريل عليه السلام لما أمره بالخروج قال : من يخرج معي ؟ قال أبو بكر ، وانتصابه على الحال : وقرئ ﴿ ثاني اثنين ﴾ بالسكون . و﴿ إذ هما ﴾ بدل من إذ أخرجه . والغار : ثقب في أعلى ثور ، وهو جبل في يمين مكة على مسيرة ساعة ، مكث فيه ثلاثاً ﴿ إذ يقول ﴾ بدل ثان . قيل طلع المشركون فوق الغار فأشفق أبو بكر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : إن تصب اليوم ذهب دين الله <sup>(١)</sup> فقال عليه الصلاة والسلام : « ما ظنك باثنين الله ثالثهما » : وقيل : لما دخلا الغار بعث الله تعالى حامتين فباضتا في أسفله ، والعنكبوت فلتسجت عليه <sup>(٢)</sup> . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم أعم أبصارهم <sup>(٣)</sup> » : فجعلوا يترددون حول الغار ولا يفتنون ، وقد أخذ الله بأبصارهم عنه . وقالوا : من أنكر صحبة أبي بكر رضي الله عنه فقد كفر ، لإنكاره كلام الله ، وليس ذلك لسائر الصحابة ﴿ سكنته ﴾ ما ألقى في قلبه من الأمانة التي سكن عندها وعلم أنهم لا يصلون إليه . والجنود الملائكة يوم بدر ، والأحزاب وحين . وكلية الذين كفروا : دعوتهم إلى الكفر ﴿ وكلية ﴾ الله ﴿ دعونه إلى الإسلام . وقرئ ﴾ كلمة الله ﴿ بالنصب ، والرفع أوجه . و﴿ هي ﴾ فصل أو مبتدأ ، وفيها تأكيد فضل كلمة الله في العلو ، وأنها المختصة به دون سائر الكلم ﴿ خفافا وثقالا ﴾ خفافا في النفور لنشاطكم له ، وثقالا عنه لمشقة عليكم ، أو خفافا لقلّة عيالكم وأذيالكم ، وثقالا لكثرتها . أو خفافا من السلاح وثقالا منه . أو ركبانا ومشاة . أو شبابا وشيوخا . أو مهازيل

(١) لم أجده هكذا . وفي الصحيحين عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال « نظرت إلى أقدام المشركين على رؤسنا ونحن في الغار . فقلت : يا رسول الله لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدمي لأبصرنا » فقال : يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما .

(٢) أخرجه البزار من طريق عوف بن عمرو عن أبي مصعب المكي : سمعت أنس بن مالك وغيره « أن النبي صلى الله عليه وسلم لبى الغار أمر الله تعالى صخرة فتثبت في وجه النبي صلى الله عليه وسلم فسقرته وأمر العنكبوت فسجت في وجهه فسقرته . وأمر حامتين وحشيتين فوقفتا بقم الغار - الحديث »

(٣) لم أجده

وسمانا . أو صحاحا ومراضا . وعن ابن أم مكتوم أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أعلّ أن أنفر؟ قال : نعم ، حتى نزل قوله ( ليس على الأعمى حرج ) . وعن ابن عباس : نسخت بقوله ( ليس على الضعفاء ولا على المرضى ) وعن صفوان بن عمرو : كنت والياً على حمص ، فلقيت شيخاً كبيراً قد سقط حاجباه من أهل دمشق على راحلته يريد الغزو . فقلت : يا عمّ لقد أعذر الله إليك فرفع حاجبيه وقال : يا بن أخي استغفرنا الله خفافاً وثقالاً ، إلا أنه من يحبه الله يبتله . وعن الزهري : خرج سعيد بن المسيب إلى الغزو وقد ذهبت إحدى عينيه ، فقيل له : إنك عليل صاحب ضرر ، فقال : استغفرنا الله الحقيف والثقل ، فإن لم يمكني الحرب كثرت السواد وحفظت المتاع ﴿ وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ﴾ لإيجاب الجهاد بهما إن أمكن ، أو بأحدهما على حسب الحال والحاجة

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَا تَبْعُوكُمْ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾

العرض : ما عرض لك من منافع الدنيا . يقال : الدنيا عرض حاضر يأكل منه البر والفاجر ، أى لو كان مادعوا إليه غنماً قريباً سهل المنال ﴿ وسفراً قاصداً ﴾ وسطاً مقارباً ﴿ الشقة ﴾ المسافة الشاقة الشاقة . وقرأ عيسى بن عمر : بعدت عليهم الشقة ، بكسر العين والشين . ومنه قوله :

يَقُولُونَ لَا تَبْعُدْهُمْ يَدْفِنُونَهُ وَلَا بُعْدَ إِلَّا مَاتُوا رَأَى الصَّفَائِحُ (١)  
﴿ بالله ﴾ متعلق بسيحلفون . أو هو من جملة كلامهم . والقول مراد في الوجهين ، أى سيحلفون يعنى المتخلفين عند رجوعك من غزوة تبوك معتذرين يقولون بالله ﴿ لو استطعنا لخرجنا معكم ﴾ أو سيحلفون بالله يقولون : لو استطعنا . وقوله ( لخرجنا ) سدّ مسدّ جوابي القسم ولو جميعاً ، والإخبار بما سوف يكون بعد القبول من حلفهم واعتذارهم . وقد كان من جملة المعجزات . ومعنى الاستطاعة : استطاعة العدة ، أو استطاعة الأبدان ، كأنهم تمارضوا . وقرئ : لو استطعنا ،

(١) يقال دبعه ، ككرم وتعب ، ومصدرهما : البعد بفتحين ، وبضم فسكون . وقد اشتهر باب تعب في معنى الهلاك ، ولا تبعد - بالفتح - كلة جارية على لسانهم عند المصيبة ، دالة على تنهى الجزع ، ولا بعد : معناه لا بعد إلا بعد متواريه الصفائح . أو ولا ذو بعد إلا متواريه . أو لا بعد إلا متواريه ، على أن المصدر بمعنى الوصف . واستعمل دماء في العاقل ، لانت المراد بها الوصف . أو المراد بها الأجسام والأشباح مجردة عن الادراكات والأرواح . والصفائح : أحجار عراض يسقف بها القبر ، أى العبد ، حقيقة « وما يدركه القبر » كناية عن موته .

بضم الواو تشبيها لها بواو الجمع في قوله (فتمنوا الموت). ﴿يهلكون أنفسهم﴾ إما أن يكون بدلا من سيحلفون، أو حالا بمعنى مهلكين. والمعنى: أنهم يوقعونها في الهلاك بحلفهم الكاذب وما يحلفون عليه من التخلف.. ويحتمل أن يكون حالا من قوله (لخرجنا) أى لخرجنا معكم، وإن أهلكنا أنفسنا وألقيناها في التهلكة بما نحملها من المسير في تلك الشقة. وجاء به على لفظ الغائب، لأنه مخبر عنهم. ألا ترى أنه لو قيل: سيحلفون بالله لو استطاعوا لخرجوا، لكان سديدا. يقال: حلف بالله ليفعلن ولا يفعلن، فالغيبة على حكم الإخبار، والتكلم على الحكاية.

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لُهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ السَّكَدِينَ ﴿٤٣﴾  
﴿عفا الله عنك﴾ كناية عن الجنابة، لأن العفو رادف لها<sup>(١)</sup>. ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت<sup>(٢)</sup>. و﴿لم أذنت لهم﴾ بيان لما كنى عنه بالعفو. ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك واعتلوا لك بعلمهم وهلا استأنت بالإذن ﴿حتى يتبين لك﴾ من صدق في عذره من كذب فيه. وقيل شيثان فعلهما رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يؤمر بهما: إذنه للمنافقين وأخذه من الأسارى فعاتبه الله تعالى.

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾

﴿لا يستأذنك﴾ ليس من عادة المؤمنين<sup>(٣)</sup> أن يستأذنوك في أن يجاهدوا، وكان الخلف

(١) قال محمود: «هذا كناية عن الجنابة، لأن العفو رادف لها... الخ» قال أحمد رحمه الله: ليس له أن يفسر هذه الآية بهذا التفسير، وهو بين أحد أمرين: إما أن لا يكون هو المراد. وإما أن يكون هو المراد، ولكن قد أجل الله نبيه الكريم عن مخاطبته بصريح العتب، وخصوصا في حق المصطفى عليه الصلاة والسلام، فالزعيم على كلا التقديرين ذاهل مما يجب من حقه عليه الصلاة والسلام. ولقد أحسن من قال في هذه الآية: إن من لطف الله تعالى بنبيه أن بدأه بالعفو قبل العتب، ولو قال له ابتداء: لم أذنت لهم؟ لتفطر قلبه عليه الصلاة والسلام، فثل هذا الأدب يجب احتياؤه في حق سيد البشر عليه أفضل الصلاة والسلام.

(٢) قوله «ومعناه أخطأت وبئس ما فعلت» خاطب الله رسوله خطاب الرقة والرفقة، وفسره المصنف بخطاب النظة والقسوة، وشتان ما بينهما. (ع)

(٣) عاد كلامه. قال: وقوله (لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله - إلى قوله - إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله... الآية) قال: معناه ليس من عادة المؤمنين أن يستأذنوك في أن يجاهدوا... الخ، قال أحد: وهذا الأدب يجب أن يقتضى مطلقا، فلا يليق بالمرء أن يستأذن أحياه في أن يمدى إليه معروفا، ولا بالمضيف أن يستأذن ضيفه في أن يقدم إليه طعاما؛ فإن الاستئذان في أمثال هذه المواطن أمانة التكلف والتكره، وصالوات الله على خليله وسلامه لقد بلغ من كرمه وأدبه مع ضيوفه، أنه كان لا يتعاطى شيا من أسباب التثيول للضيافة بمراى منهم، فلذلك مدحه الله



من المهاجرين والأنصار يقولون : لا نستأذن النبي أبداً ، ولنجاهدن أبداً معه بأموالنا وأنفسنا . ومعنى ﴿ أن يجاهدوا ﴾ في أن يجاهدوا ، أو كراهة أن يجاهدوا ﴿ والله عليم بالمتقين ﴾ شهادة لهم بالالتظام في زمرة المتقين ، وعدة لهم بأجل الثواب .

إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ مَنَّمُوعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدْ آتَبَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَهُ ﴿٤٨﴾

﴿ إنما يستأذنك ﴾ يعنى المنافقين ، وكانوا تسعة وثلاثين رجلاً ﴿ يترددون ﴾ عبارة عن التحير ، لأن التردد ديدن المتحير ، كما أن الثبات والاستقرار ديدن المستبصر . قرئ : عدته ، بمعنى عدته ، فعل بالعدة ما فعل بالعدة من قال :

\* وَأَخْلَفُواكَ عِدَ الْأَمْرِ الَّذِي وَعَدُوا \* ﴿٤٩﴾

من حذف تاء التأنيث ، وتعويض المضاف إليه منها . وقرئ : عدته ، بكسر العين بغير إضافة ، وعدته بإضافة . فإن قلت : كيف موقع حرف الاستدراك ؟ قلت : لما كان قوله (ولو أرادوا الخروج) معطياً معنى نفى خروجهم واستعدادهم للغزو . قيل ﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾ كأنه قيل : ما خرجوا ولكن تثبطوا عن الخروج لكره الله انبعاثهم ، كما تقول : ما أحسن إلى زيد . ولكن أساء إلى ﴿ فثبطهم ﴾ فكسلهم وخذلهم وضعف رغبتهم في الانبعاث ﴿ وقيل اقعدوا ﴾ جعل إلقاء الله في قلوبهم كراهة الخروج أمراً بالقعود . وقيل : هو قول الشيطان

== تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم بهذه الخلة الجلية والآداب الجليلة ، فقال تعالى (فراغ إلى أهله فجاء يعجل سمين) أى ذهب على خفاء منهم كيلاً يشعروا به ، والمهم بأمر ضيقه يبرأى منه ربما يعد كالمستأذن له في الضيافة ، فهذا من الآداب التي ينبغي أن يتمسك بها ذوو المروءة وأولو الفتوة ، وأشد من الاستئذان في الخروج للجهاد ونصرة الدين التناقل عن المبادرة إليه بعد الخوض عليه والمناذرة ، وأسوأ أحوال المتناقل - وقد دعى الناس إلى الفزاة - أن يكون متمسكا بشعبة من التفاق نعوذ بالله من التعرض لسخطه .

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٣٣ فراجع إن شئت اه مصححه

بالوسوسة . وقيل : هو قولهم لأنفسهم . وقيل : هو إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم في القعود .  
فإن قلت : كيف جاز أن يوقع الله تعالى في نفوسهم كراهة الخروج إلى الغزو وهي قيحة ،  
وتعالى الله عن إلهام القبيح <sup>(١)</sup> ؟ قلت : خروجهم كان مفسدة . لقوله (لو خرجوا فيكم ما زادوكم  
إلا خبالا) فكان إيقاع كراهة ذلك الخروج في نفوسهم حسناً ومصلحة . فإن قلت : فلم خطأ رسول الله  
صلى الله عليه وسلم في الإذن لهم فيما هو مصلحة ؟ قلت : لأن إذن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
لهم لم يكن للنظر في هذه المصلحة ولا عليها إلا بعد القبول بإعلام الله تعالى ، ولكن لأنهم  
استأذنوه في ذلك واعتذروا إليه ، فكان عليه أن يتفحص عن كنهه معاذيرهم ولا يتجوز في قبولها ،  
فمن ثم أتاه العتاب . ويجوز أن يكون في ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم الإذن لهم مع تثبيط  
الله إياهم مصلحة أخرى ، فيأذنه ثم فقدت تلك المصلحة . وذلك أنهم إذا ثبطهم الله فلم ينبعثوا  
وكان قعودهم بغير إذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم قامت عليهم الحجة ولم تبق لهم معذرة .  
ولقد تدارك الله ذلك حيث هتك أستارهم وكشف أسرارهم وشهد عليهم بالثفاق . وأنهم  
لا يؤمنون بالله واليوم الآخر . فإن قلت : ما معنى قوله (مع القاعدين) ؟ <sup>(٢)</sup> قلت : هو ذم  
لهم وتعجيز ، وإلحاق بالنساء والصبيان والزمنى الذين شأنهم القعود والجثوم في البيوت ، وهم  
القاعدون والخالفون والخوالف ، ويبيته قوله تعالى (رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) . (إلا خبالا)  
ليس من الاستثناء المنقطع في شيء كما يقولون لأن الاستثناء المنقطع هو أن يكون المستثنى من غير  
جنس المستثنى منه ، كقوله : ما زادوكم خيراً إلا خبالا ، والمستثنى منه في هذا الكلام غير مذكور ، وإذا  
لم يذكر وقع الاستثناء من أعم العام الذي هو الشيء ، فكان استثناء متصلاً : لأن الخبال بعض أعم  
العام ، كأنه قيل : ما زادوكم شيئاً إلا خبالا . والخبال : الفساد والشر <sup>(٣)</sup> (ولا وضعوا خلاصكم)  
ولسعوا بينكم بالتضريب <sup>(٤)</sup> والتأثم وإفساد ذات البين . يقال : وضع البعير وضاً إذا أسرع  
وأوضعته أنا . والمعنى : ولا وضع ركائبهم بينكم ، والمراد الإسراع بالتأثم : لأن الركاب أسرع من

(١) قال محمود : وإن قلت كيف جاز أن يوقع الله في نفوسهم كراهة الخروج للغزو ... الخ . قال أحمد : وهذا  
الفصل من كلامه مبنى على قاعدتين فاسدتين : إيجاب مراعاة المصالح على الله تعالى ، والتحسين والتقيح . وقد تنكر  
إعلان ذلك فاحذره . وأعلم أن معتقد أهل السنة أن الله تعالى ألقي كراهة الخروج في قلوبهم ، لأنه أراد شقاوتهم ،  
وانضاف إلى ذلك إرادة راحة المخلصين من مرافقتهم : إذ الأمر ليس شرطاً في نفوذ المشيئة ، والله الموفق .

(٢) عاد كلامه . قال : «فإن قلت فبما معنى قوله مع القاعدين ... الخ» ، قال أحمد : وهذا من تنبيهاته  
الحسنة ، وتزيده بسطاً فنقول : لو قيل أقعدوا مقتصر على عليه ، لم يفد سوى أمرهم بالقعود ، وكذلك : كونوا مع  
القاعدين ، ولا تحصل هذه الفائدة مع إلحاقهم هؤلاء الأصناف الموصوفين عند الناس بالتعاقف والتقاعد ، الموسومين  
بهذه السمة ، إلا من عبارة الآية ، ولعن الله فرعون : لقد بالغ في توعده موسى عليه السلام بقوله : لأجعلنك من  
المسجونين ، ولم يقل : لأجعلنك مسجوناً ، لمثل هذه النكتة من المبالغة

(٣) قوله «بالتضريب» أى بالاغراء . (ع)

الماشى . وقرأ ابن الزبير رضى الله عنه : ولأرقصوا ، من رقصت الناقة رقصاً إذا أسرع وأرقتها . قال :

### \* وَالرَّاقِصَاتُ إِلَى مِنًى فَأَلْغَبَ \*

وقرئ : ولأوفضوا . فإن قلت : كيف خطّ في المصحف : ولا أوضوا ، بزيادة ألف ؟ قلت : كانت الفتحة تكتب ألفاً قبل الخط العربى ، والخط العربى اخترع قريباً من نزول القرآن ، وقد بقى من ذلك الألف أثر فى الطباع ، فكاتبوا صورة الهمزة ألفاً ، وفتحها ألفاً أخرى ، ونحو : أولاً أذبحنه . ﴿ يبيعونكم الفتنة ﴾ يحاولون أن يفتنوكم . بأن يوقعوا الخلاف فيما بينكم ويفسدوا نيאתكم فى مغزاكم ﴿ وفيكم سماعون لهم ﴾ أى نمامون يسمعون حديثكم فينقلونه إليهم . أوفىكم قوم يسمعون للنافقين ويطيعونهم ﴿ لقد ابتغوا الفتنة ﴾ أى العنت ونصب الغوائل والسمى فى تشيت شملك وتفريق أصحابك عنك ، كما فعل عبد الله بن أبى . يوم أحد حين انصرف بمن معه وعن ابن جرير رضى الله عنه : وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الثنية ليلة العقبة وهم اثنا عشر رجلاً ليفتكوها به ﴿ من قبل ﴾ من قبل غزوة تبوك ﴿ وقلبوا لك الأمور ﴾ ودبروا لك الحيل والمباكيد ، ودزروا الآراء فى إبطال أمرك . وقرئ : وقلبوا بالتخفيف ﴿ حتى جاء الحق ﴾ وهو تأييدك ونصرك ﴿ وظهر أمر الله ﴾ وغلب دينه وعلا شرعه .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَتَذُنْ لِي وَلَا تَفْتِنِي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ

### لَمَحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾

﴿ اتذن لي ﴾ فى القعود ﴿ ولا تفتني ﴾ ولا توقنى فى الفتنة وهى الإثم ، بأن لا تأذن لي فإنى إن تخلفت بغير إذنك أئمت . وقيل : ولا تلقنى فى الهلكة ، فإنى إذا خرجت معك هلك مالى وعيالى وقيل : قال الجد بن قيس : قد علمت الأنصار أنى مستهتر بالنساء <sup>(١)</sup> فلا تلقنى بينات الأصفر ، يعنى نساء الروم ، ولكنى أعينك بما لى فاتركنى . وقرئ : ولا تلقنى ، من أفتنه ﴿ ألا فى الفتنة سقطوا ﴾ أى إن الفتنة هى التى سقطوا فيها ، وهى فتنة التخلف . وفى مصحف أبى رضى الله عنه : سقط : لأن من ، موحد اللفظ بمجموع المعنى ﴿ لمحيطة بالكافرين ﴾ يعنى أنها تحيط بهم يوم القيامة . أو هى محيطة بهم الآن : لأن أسباب الإحاطة معهم فكانهم فى وسطها .

إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ

### قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾

(١) قوله : إنى مستهتر ، أى مولى لا أبالى بما يقال فى شأنى انتهى . (ع)

﴿إِنْ تَصَبَّكَ﴾ في بعض الغزوات ﴿حَسَنَةً﴾ ظفر وغنيمة ﴿تَسُوْهُمْ وَإِنْ تَصَبَّكَ مَصِيْبَةً﴾ نكبة وشدة في بعضها نحو ما جرى في يوم أحد يفرحوا بحالهم في الانحراف عنك ، و﴿يَقُولُوا﴾ قد أخذنا أمرنا ﴿أَيَّ أَمْرِنَا الَّذِي نَحْنُ مُتَسَمِّونَ بِهِ ، مِنَ الْحَذَرِ وَالتَّقِيقِطِ وَالْعَمَلِ بِالْحَزْمِ﴾ من قبل ﴿مِنْ قَبْلِ مَا وَقَعَ . وَتَوَلَّوْا عَنْ مَقَامِ التَّحَدُّثِ بِذَلِكَ وَالْاجْتِمَاعِ لَهُ إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ وهم فرحون ﴿مُسْرُورُونَ . وَقِيلَ : تَوَلَّوْا : أَعْرَضُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ  
الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

قرأ ابن مسعود رضي الله عنه : قل هل يصيبنا . وقرأ طلحة رضي الله عنه : هل يصيبنا ، بتشديد الياء . ووجهه أن يكون « فيفعل » ، لا « يفعل » ، لأنه من بنات الواو ، كقولهم : الصواب ، وصاب السهم يصوب ، ومصابوب <sup>(١)</sup> في جمع مصيبة ، فحق « يفعل » منه « يصوب » ، ألا ترى إلى قولهم : صوب رأيه . إلا أن يكون من لغة من يقول : صاب السهم يصيب . ومن قوله <sup>(٢)</sup> أسهمى الصائبات والصيب ، واللام في قوله ﴿إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ مفيدة معنى الاختصاص كأنه قيل : لن يصيبنا إلا ما اختصنا الله به بإثباته وإيجابه من النصرة عليكم أو الشهادة . ألا ترى إلى قوله ﴿هُوَ مَوْلَانَا﴾ أي الذي يتولانا وتولاه ، ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ وحق المؤمنين أن لا يتوكلوا على غير الله ، فليفعلا ما هو حقهم .

قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾  
﴿إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ﴾ إلا إحدى العاقبتين اللتين كل واحدة منهما هي حسن العواقب ، وهما النصرة والشهادة ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ﴾ إحدى السواتين <sup>(٣)</sup> من العواقب ، إما ﴿أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ وهو قارعة من السماء كما نزلت على عاد وثمود ﴿أَوْ﴾ عذاب ﴿بِأَيْدِينَا﴾ وهو القتل على الكفر ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ بنا ما ذكرنا من عواقبنا ﴿إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾

(١) قوله « ومصابوب » في الصحاح : أجمعت العرب على هز المصاب ، وأصله الواو كأنهم شبهوا الأصل بالواو ، ويجمع أيضا على مصابوب ، وهو الأصل . (ع)

(٢) قوله « ومن قوله ، لعله : ومنه . أو لعله : ومنها . وفي الصحاح : صاب السهم القرطاس يعصيه صبا لغة في أصابه . (ع)

(٣) قوله « إحدى السواتين ، لعله : السواتين . (ع)

ما هو عاقبتكم ، فلا بد أن يلتقي كلنا ما يترصده لا يتجاوزه

قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٣﴾

﴿أنفقوا﴾ يعني في سبيل الله ووجوه البر (طوعاً أو كرهاً) نصب على الحال ، أى طائعين أو مكرهين . فإن قلت : كيف أمرهم بالانفاق ثم قال ﴿لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ﴾ ؟ قلت : هو أمر في معنى الخير ، كقوله تبارك وتعالى ( قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مداً ) ومعناه : لن يتقبل منكم أنفقتم طوعاً أو كرهاً . ونحوه قوله تعالى ( استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ) وقوله :

\* أَسِئْبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَامُومَةً \* (١)

أى لن يغفر الله لهم ، استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم . ولا نلومك - أسأت إلينا أم أحسنت . فإن قلت : متى يجوز نحو هذا ؟ قلت : إذا دل السلام عليه كما جاز عكسه في قولك رحم الله زيداً وغفر له . فإن قلت : لم فعل ذلك ؟ قلت : لنكتة فيه ، وهى أن كثيراً كأنه يقول لعزة : امتحنى لطف محلك عندى وقوة محبتى لك ، وعاملينى بالاساءة . والاحسان ، وانظرى هل بتفاوت حالى معك مسيئة كنت أو محسنة ؟ وفى معناه قول القائل :

أُخْوِكَ الَّذِي إِنْ قُتَّ بِالسَّيْفِ عَامِداً لَتَضْرِبَهُ لَمْ يَسْتَفْتِكَ فِي الْوُدِّ (٢)

وكذلك المعنى : أنفقوا وانظروا هل يتقبل منكم ؟ واستغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، وانظر هل ترى اختلافاً بين حال الاستغفار وتركه ؟ فإن قلت : ما الغرض في نفي التقبل ؟ أهو ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم تقبله منهم وردّه عليهم ما يبذلون منه ؟ أم هو كونه غير مقبول

(١) أَسِئْبِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَامُومَةً لدينا ولا مقلية إن قلت

لكثير صاحب عزة . يقول : امتحنينى في المحبة ، وعاملينى بالاساءة والاحسان ، وانظرى هل يتغير حالى ، وافعلنى ما يجربك زوجك عليه من شتى ، كما يأتى في كلامه ، ولا تتحرجى عنه فإنه مثل إحسانك ، ولهذا ذكر الاحسان والمعنى : لا لوم ولا بغض . سواء أسأت أو أحسنت ، فالأمر بمعنى الخير ، ثم التفت وقال : ليست عزة ملومة عندنا ولا مبغضة إن تبغضت ، أى تكلفت البغض لنا وأظهرته . ويجوز أن المعنى : لاملومة أنت ولا مقلية ، فالالتفات في قوله « إن تبغضت » نكتة .

(٢) أُخْوِكَ الَّذِي إِنْ قُتَّ بِالسَّيْفِ عَامِداً لتضربه لم يستفتك في الود

ولو جئت نبيى كنفه لتيبها تبادر إشفافاً عليك من الرد

يرى أنه في الود وانت مقصر على أنه قد زاد فيه عن الجهد

روى يستفتك بالسين بدل الثاء . والمعنى متقارب . والسين والثاء للعد ، أى لم يمدك غاياباً مضراً . وتبينها تقطعها . والاشفاق : الخوف . والوائى : المتوائى . يقول : إن أخاك للصدق هو الذى لو قصدته بالمكاره لم يعدها غشاً منك في المودة ، بل يبادرك بكل ما طلبته خوفاً عليك من أذى المنع ، يظن أو يعتد أنه مقصر في الود ، مع أنه جاوز فيه الحد ، وتكلف غير طاقته .

عند الله تعالى ذاهباً هباء لا ثواب له ؟ قلت : يحتمل الأمرين جميعاً . وقوله ﴿ طوعاً أو كرهاً ﴾ معناه طائعين من غير إلزام من الله ورسوله ، أو ملزمين . وسعى الإلزام إكراها ، لأنهم منافقون ، فكان إلزامهم الإنفاق شاقاً عليهم كالأكره . أو طائعين من غير إكراه من رؤسائهم : لأن رؤساء أهل النفاق كانوا يحملون على الإنفاق لما يرون من المصاحبة فيه ، أو مكرهين من جهتهم . وروى أنها نزلت في الجذ بن قيس حين تخلف عن غزوة تبوك وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا مالي أعيتك به فاتركني ﴿ إنكم ﴾ تعليل لرد إنفاقهم . والمراد بالفسق : التردد والعقو .

وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٤﴾

﴿ أنهم ﴾ فاعل منع . وهم . وأن تقبل : مفعولاه . وقرئ : أن تقبل ، بالتاء والياء على البناء للمفعول . ونفقاتهم . ونفقتهم ، على الجمع والتوحيد . وقرأ السلي : أن يقبل منهم نفقاتهم ، على أن الفعل لله عز وجل ﴿ كسالى ﴾ بالضم والفتح . جمع كسلان ، نحو سكارى وغيارى ، في جمع سكران وغيران ، وكسلهم لأنهم لا يرجون بصلاتهم ثواباً . ولا يخشون بتركها عقاباً فهي ثقيلة عليهم كقوله تعالى ( وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين ) وقرأت في بعض الأخبار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره للمؤمن أن يقول : كسلت ، لأنه ذهب إلى هذه الآية ، فإن الكسل من صفات المنافقين ، فما ينبغي أن يسند المؤمن إلى نفسه . فإن قلت : الكراهية خلاف الطوعية ، وقد جعلهم الله تعالى طائعين في قوله ﴿ طوعاً ﴾ ثم وصفهم بأنهم لا ينفقون إلا وهم كارهون . قلت : المراد بطوعهم أنهم يبذلونه من غير إلزام من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو من رؤسائهم ، وما طوعهم ذاك إلا عن كراهية واضطرار ، لا عن رغبة واختيار .

فَلَا تُعْجِبُكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ

الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

الإعجاب بالشيء : أن يسر به سرور راض به متعجب من حسنه . والمعنى : فلا تستحسن ولا تفتن بما أتوا من زينة الدنيا ، كقوله تعالى ( ولا تمدن عينيك ) فإن الله تعالى إنما أعطاهم ما أعطاهم للعذاب ، بأن عرضه للتغنى والسبي ، وبلاهم فيه بالآفات والمصائب ، وكلفهم الإنفاق منه في أبواب الخير . وهم كارهون له على رغم أنوفهم . وأذاقهم أنواع الكلف

والمجاشم في جمعه واكتسابه وفي تربية أولادهم . فإن قلت : إن صح تعليق التعذيب <sup>(١)</sup> بإرادة الله تعالى ، فما بال زهوق أنفسهم <sup>(٢)</sup> وهم كارهون ؟ قلت : المراد الاستدراج بالنعم ، كقوله تعالى (إنما نملئ لهم ليزدادوا إثماً) كأنه قيل : ويريد أن يديم عليهم نعمته إلى أن يموتوا وهم كافرون ، ملتهم بالتمتع عن النظر للعاقبة .

وَيَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْهُمْ لَكُمْ وَمَا مِنْكُمْ وَلَكُمْ مِنْكُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾

لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدْخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

<sup>(١)</sup> (لنكم) لمن جملة المسلمين (يفرقون) يخافون القتل وما يفعل بالمشركون ، فيظهرون بالإسلام نية <sup>(٢)</sup> (ملجأ) مكاناً يلتجئون إليه متحصنين به من رأس جبل أو قلعة أو جزيرة (أو مغارات) أو غيراها . وقرئ بضم الميم ، من أغار الرجل وغار إذا دخل الغور . وقيل : هو تعدي غار الشيء وأغرته أنا ، يعنى : أمكنة يغيرون فيها أشخاصهم . ويجوز أن يكون من : أغار الثعلب ، إذا أسرع ، بمعنى مهاب ومفاز <sup>(٣)</sup> (أو مدخلا) أو نفقا يتدسون فيه وينجحرون ، وهو مقتل من الدخول . وقرئ مدخلا من دخل ، ومدخلا من أدخل : مكانا يدخلون فيه أنفسهم . وقرأ أبي بن كعب رضى الله عنه : متدخلا وقرئ : لولوا إليه لالتجوا إليه <sup>(٤)</sup> (يجمحون) يسرعون إسراعا لا يردهم شيء ؛ من الفرس الجوح ، وهو الذى إذا حمل لم يردّه اللجام . وقرأ أنس رضى الله عنه : يجمزون . فسل فقال : يجمحون ويجمزون ويشتدون <sup>(٥)</sup> واحد .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلِيزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا

إِذَا هُمْ يَسْتَخْلُونَ ﴿٥٨﴾

<sup>(١)</sup> (يليزك) يعيبك في قسمة الصدقات ويطعن عليك . قيل : هم المؤلفون قلوبهم . وقيل هو ابن ذى الخويصرة رأس الخوارج ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم غنائم حنين فقال : أعدل يا رسول الله ، فقال صلوات الله عليه وسلامه ، ويلك إن لم أعدل فمن يعدل ؟ <sup>(٢)</sup> وقيل : هو أبو الجواظ ، من المنافقين ، قال : ألا ترون إلى صاحبكم ! إنما يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم ،

(١) قوله «فإن قلت إن صح تعليق ... الخ» مبنى على أنه تعالى لا يريد الشر ؛ وهو مذهب المعتزلة . وعند أهل السنة : أنه يريد كالحير . (ع)

(٢) قوله «ويجمزون ويشتدون» فيقال : جز بالجهم يجمز بالكسر : أسرع ، وجز بالحاء يجمز بضمها : اشتد اه صحاح قنبر . (ع)

(٣) متفق عليه من حديث أبي سعيد واللفظ البخارى . ولها : «إذ جاء ذو الخويصرة» وهو المحفوظ

وهو يزعم أنه يعدل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولا أبالك أما كان موسى راعياً  
أما كان داود راعياً ، فلما ذهب قال عليه الصلاة والسلام واحذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون ،<sup>(١)</sup>  
وقرئ : يلزك بالضم ، ويلزك ويلامزك . التثقيب والبناء على المفاعلة مبالغة في اللمز .  
ثم وصفهم بأن رضاهم وسخطهم لأنفسهم ، لا للدين وما فيه صلاح أهله ، لأن رسول الله صلى  
الله عليه وسلم استعطف قلوب أهل مكة يومئذ بتوفير الغنائم عليهم فضجر المنافقون منه . وإذا  
للمفاجأة : أى وإن لم يعطوا منها فاجؤا للسخط .

وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ  
فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾

جواب ولو، محذوف تقديره : ولو أنهم رضوا لكان خيراً لهم . والمعنى : ولو أنهم رضوا  
ما أصابهم به الرسول من الغنيمة وطابت به نفوسهم وإن قل نصيبهم وقالوا كفانا فضل الله  
وصنعه ، وحسبنا ما قسم لنا سيرزقنا الله غنيمة أخرى فيؤتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
أكثر مما آتانا اليوم ﴿إنا إلى الله﴾ فى أن يغنمنا ويحولنا فضله لراغبون .

إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي  
الرِّقَابِ وَالْغَرَمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ قَرِيبَةً مِنْ اللَّهِ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

﴿إنما الصدقات للفقراء﴾ قصر لجنس الصدقات على الأصناف المحدودة وأنها مختصة بها<sup>(٢)</sup>  
لا تتجاوزها إلى غيرها ، كأنه قيل : إنما هي لهم لا لغيرهم . ونحوه قولك . إنما الخلافة  
لقريش . تريد لا تتعداهم ولا تكون لغيرهم فيحتمل أن تصرف إلى الأصناف كلها وأن  
تصرف إلى بعضها ، وعليه مذهب أى حنيفة رضى الله عنه . وعن حذيفة وابن عباس وغيرهما  
من الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أنهم قالوا : فى أى صنف منها وضعها أجزأك . وعن  
سعيد بن جبير رضى الله عنه : لو نظرت إلى أهل بيت من المسلمين فقراء متعطفين فجزتهم بها

(١) لم أجده .

(٢) قال محمود : « هذا قصر لجنس الصدقات على الأصناف المحدودة وأنها مختصة بها الخ ، قال أحمد : وهو  
مذهب مالك رضى الله عنه ، والقول بوجوب صرفها إلى جميع الأصناف حتى لا يجوز ترك صنف واحد منها أخذاً  
من إشعار اللام بالتحليك كما ذهب إليه الشافعي لا يساعده السياق فإن الآية مصدرة بكلمة المحصر الدالة على أن غيرهم  
لا يستحق فيها نصيباً فهذا هو الغرض الذى سبقت له فلا اقتضاء فيها لما سواه والله أعلم .



كان أحب إليّ . وعند الشافعي رضي الله عنه ، لا بدّ من صرفها إلى الأصناف الثمانية . وعن عكرمة رضي الله عنه . أنها تنزق في الأصناف الثمانية . وعن الزهري أنه كتب لعمر ابن عبد العزيز تفريق الصدقات على الأصناف الثمانية (والعاملين عليها) السعاة الذين يقبضونها (والمؤلفة قلوبهم) أشرف من العرب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستألفهم على أن يسلموا فيرضخ لهم شيئاً منها حين كان في المسلمين قلة . والرقاب : المسكاتبون يعانون منها . وقيل : الأسارى . وقيل : تتباع الرقاب فتعتق (والغارمين) الذين ركبهم الديون ولا يملكون بعدها ما يبلغ النصاب . وقيل الذين تحملوا الحمالات فتداينوا فيها وغرموا (وفي سبيل الله) فقراء الغزاة والحجيج المنقطع بهم (وابن السبيل) المسافر المنقطع عن ماله فهو فقير حيث هو غنى حيث ماله (فريضة من الله) في معنى المصدر المؤكد ، لأنّ قوله إنما الصدقات للفقراء معناه فرض الله الصدقات لهم . وقرئ فريضة بالرفع على : تلك فريضة . فإن قلت : لم عدل عن اللام إلى « في » في الأربعة الأخيرة<sup>(١)</sup> ؟ قلت : للإيدان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم من سبق ذكره ، لأنّ « في » للوعاء ، فنه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنة لها ومصباً ، وذلك لما في فك الرقاب من الكتابة أو الرق أو الأسر ، وفي فك الغارمين من الغرم من التخليص والإنقاذ ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحج بين الفقر والعبادة ، وكذلك ابن السبيل جامع بين الفقر والغربة عن الأهل والمال ، وتكرير « في » في قوله (وفي سبيل الله وابن السبيل) فيه فضل ترجيح هذين على الرقاب والغارمين . فإن قلت : فكيف وقعت هذه الآية في تضاعف ذكر المنافقين ومكايدهم ؟ قلت : دل بكون هذه الأصناف مصارف

(١) عاد كلامه . قال : فإن قلت لم عدل عن اللام إلى في في الأربعة الأخيرة ... الخ . قال أحد : ومهم آخر هو أظهر وأقرب وذلك أن الأصناف الأربعة الأوائل ملك لما عساه يدفع إليهم ، وإنما يأخذونه ملكاً ، فكان دخول اللام لاتقايهم . وأما الأربعة الأواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم ، بل ولا يصرف إليهم . ولكن في مصالح تتعلق بهم . فالملك الذي يصرف في الرقاب إنما يتناوله السادة المسكاتبون والبالعون ، فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعرة بملكهم لما يصرف نحوهم ، وإنما هم محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلقة به ، وكذلك العاملون إنما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذمتهم لاهم . وأما سبيل الله فواضح فيه ذلك . وأما ابن السبيل فمكانه كان مندرجاً في سبيل الله ، وإنما أفرد بالذكر تفضيها على خصوصيته ، مع أنه مجرد من الحرفين جميعاً ، وعطفه على المجرور باللام ممكن ، ولكنه على القريب منه أقرب والله أعلم . وكان جدى أبو العباس أحمد بن فارس الفقيه الوزير مستنبت من تغاير الحرفين المذكورين وجهاً في الاستدلال بالملك على أن الغرض بيان المصروف ، واللام لذلك لام الملك ، فيقول : متعلق الجار الواقع خبراً عن الصدقات محذوف ، فيتعين تقديره . فاما أن يكون للتقدير : إنما الصدقات مصروفة للفقراء ، كقول مالك : أو ملوكة للفقراء ، كقول الشافعي : لكن الأول متعين ، لأنه تقدير يكتفى به في الحرفين جميعاً يصح تعلق اللام به وفي مما ، فيصح أن نقول : هذا الشيء مصروف في كذا وكذا ، بخلاف تقديره ملوكة ، فإنه إنما يلتزم مع اللام ، وعند الانتهاء إلى « في » يحتاج إلى تقدير مصروفة ليلتزم بها ، فتقديره من اللام عام التعلق ، شامل الصحة ، متعين ، والله الموفق .

الصدقات خاصة دون غيرهم على أنهم ليسوا منهم ، حسماً لأطاعتهم وإشعاراً باستيحابهم الحرمان .  
وأنهم بعداء عنها وعن مصارفها ، فالهم وما لها ؟ وما سلطهم على التكلم فيها ولمز قاستها صلوات  
الله عليه وسلامه ؟ .

وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ  
بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ  
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾

الأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع <sup>(١)</sup> ويقبل قول كل أحد . سمي بالجارحة التي هي  
آلة السماع ، كأن جملة أذن سامعة ، ونظيره قولهم للربيعة <sup>(٢)</sup> . عين . وإيذاؤهم له : هو قولهم  
فيه (هو أذن) . وأذن خير ، كقولك : رجل صدق ، تريد الجودة والصلاح . كأنه قيل : نعم  
هو أذن ولكن نعم الأذن . ويجوز أن يريد : هو أذن في الخير والحق وفيما يجب سماعه  
وقبوله ، وليس بأذن في غير ذلك ودل عليه قراءة حمزة (ورحمة) بالجز عطفاً عليه أي : هو  
أذن خير ورحمة لا يسمع غيرهما ولا يقبله . ثم فسر كونه أذن خير بأنه يصدق بالله ، لما قام  
عنده من الأدلة ويقبل من المؤمنين الخالصين والمهاجرين والانصار ، وهو رحمة لمن آمن منكم ، أي  
أظهر الإيمان أيها المنافقون حيث يسمع منكم ويقبل إيمانكم الظاهر ، ولا يكشف أسراركم ولا  
يفضحكم ، ولا يفعل بكم ما يفعل بالمشركين . مراعاة لما رأى الله من المصلحة في الإبقاء عليكم ، فهو  
أذن كما قلتم ، إلا أنه أذن خير لكم لا أذن سوء . فسلم قولهم فيه ، لا أنه فسر بما هو مدح له وثناء  
عليه ، وإن كانوا قصدوا به المذمة والتقصير بفطنته وشهامته . وأنه من أهل سلامة القلوب والعزة .  
وقيل : إن جماعة منهم ذموا صلوات الله عليه وسلامه وبلغه ذلك ، فاشتغلت قلوبهم فقال بعضهم :  
لا عليكم ، فإنما هو أذن سامعة قد سمع كلام المبلغ فأذن ، ونحن نأتيه ونعتذر إليه فيسمع عذرنا  
أيضاً فيرضى ، فقيل : هو أذن خير لكم . وقرئ : أذن خير لكم ، على أن أذن خبر مبتدئ محذوف ؛  
وخير كذلك ، أي هو أذن هو خير لكم يعني إن كان كما تقولون فهو خير لكم ، لأنه يقبل

(١) قال محمود : « الأذن : الرجل الذي يصدق كل ما يسمع ... سمي الرجل بالجارحة التي هي آلة السماع ...  
الخ ، قال أحد : لاشيء أبلغ من الرد عليهم بهذا الوجه لأنه في الأول إطاع لهم بالموافقة ، ثم كر على طمعهم بالحسم  
واعقبهم في تنقصه بالأس منه ؛ ويضاهي هذا من مستعملات الفقهاء : القول بالموجب ، لأن في أوله إطاعاً للحصم  
بالسليم ، ثم بتنا للطمع على قرب ، ولا شيء أقطع من الإطاع ثم اليأس بتلوه ويعقبه ، والله الموفق .

(٢) قوله وللربيعة ، في الصحاح : الربيعة الطليعة . (ع)

معاذيركم ولا يكافئكم على سوء دخلتكم. <sup>(١)</sup> وقرأ نافع بتخفيف الذال. فإن قلت : لم عدى فعل الإيمان بالإباء إلى الله تعالى ، وإلى المؤمنين باللام ؟ قلت : لأنه قصد التصديق بالله الذي هو نقيض الكفر به ، فعدى بالإباء وقصد السماع من المؤمنين ، وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقونه ، لكونهم صادقين عنده ، فعدى باللام ألا ترى إلى قوله (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) ما أنبأه <sup>(٢)</sup> عن الباء . ونحوه : فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه ، (أنتؤمن لك واتبعك الأرذلون) ، (أمتنتم له قبل أن أذن لكم) . فإن قلت : ما وجه قراءة ابن أبي عبلة : ورحمة بالنصب ؟ قلت : هي علة مغلها محذوف تقديره : ورحمة لكم بأذن لكم ، لحذف لأن قوله (أذن خير لكم) يدل عليه .

يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيَرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ

كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾

(لکم لیرضوکم) الخطاب للمسلمين وكان المنافقون يتكلمون بالمطاعن أو يتخلفون عن الجهاد ، ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالحلف ليعذروهم ويرضوا عنهم ، فقيل لهم : إن كنتم مؤمنين كما تزعمون فأحق من أرضيتم الله ورسوله بالطاعة والوفاق . وإنما وحد الضمير لأنه لا تفاوت بين رضا الله ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكانا في حكم مرضى واحد ، كقولك : إحسان زيد وإجماله نعتني وجبر مني . أو والله أحق أن يرضوه ، ورسوله كذلك .

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَلِكَ

الْحَزِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾

المحاذة مفاعلة من الحد كالمشاقة من الشق (فأن له) على حذف الخبر ، أى . لحق أن له (نار جهنم) وقيل . معناه فله ، وأن : تكرير ؛ لأن في قوله (أنه) تأكيداً ، ويجوز أن يكون (فأن له) معطوفاً على أنه ، على أن جواب (من) محذوف تقديره : ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله يهلك فأن له نار جهنم . وقرئ : ألم تعلموا بالتاء .

(١) قوله «على سوء دخلتكم» أى مذمتكم . وفي الصحاح أن دخلة الرجل بالعم : باطن أمره اه ، وأعلمها غلبت في المذمة . (ع)

(٢) قوله «ما أنبأه عن الباء» أى : ما أبعد . (ع)

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزَؤُوا

إِنَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾

كانوا يستهزئون بالإسلام وأهله وكانوا يحذرون أن يفضحهم الله بالوحي فيهم؛ حتى قال بعضهم: والله لا أرانا إلا شر خلق الله، لوددت أفي قدمت لجلدت مائة جلدة؛ وأن لا ينزل فينا شيء يفضحنا. والضمير في عليهم وتنبيه المؤمنين. وفي قلوبهم: للمنافقين. وصح ذلك لأن المعنى يقود إليه. ويجوز أن تكون الضمائر للمنافقين؛ لأن السورة إذا نزلت في معنهم فهي نازلة عليهم. ومعنى تنبيههم بما في قلوبهم، كأنها تقول لهم: في قلوبكم كيت وكيت، يعني أنها تذيب أسرارهم عليهم حتى يسمعوها مذاعة منتشرة فكأنها تخبرهم بها. وقيل: معنى يحذر: الأمر بالحذر، أي ليحذر المنافقون. فإن قلت: الحذر واقع على إنزال السورة في قوله: ﴿يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة﴾ فما معنى قوله ﴿يخرج ما تحذرون﴾؟ قلت: معناه حصل مبرز إنزال السورة. أو أن الله مظهر ما كنتم تحذرونه، أي تحذرون إظهاره من نفاقكم.

وَلَكِنَّ سَاءَ لَكُمْ لِمَقُولِكُمْ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ

نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير في غزوة تبوك وركب من المنافقين يسرون بين يديه فقالوا: انظروا إلى هذا الرجل يريد أن يفتح قصور الشام وحصونه، هيات هيات، فأطلع الله نبيه عليه السلام على ذلك فقال: احبسوا على الركب، فأتاهم فقال: قلتم كذا وكذا، فقالوا: يابني الله لا والله ما كنا في شيء من أمرك ولا من أمر أصحابك، ولكن كنا في شيء مما يخوض فيه الركب ليقصر بعضنا على بعض السفر<sup>(١)</sup> ﴿أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون﴾ لم يعبا باعتذارهم لأنهم كانوا كاذبين فيه، فجعلوا كأنهم معترفون باستهزائهم، وبأنه موجود منهم، حتى ونجوا بأخطائهم موقع الاستهزاء، حيث جعل المستهزأ به يلي حرف التقرير، وذلك إنما يستقيم بعد وقوع الاستهزاء وثبوته ﴿لا تعتذروا﴾ لا تستغلوا باعتذاراتكم الكاذبة، فإنها لا تنفعكم بعد ظهور سركم ﴿قد كفرتم﴾ قد ظهر كفركم باستهزائكم ﴿بعد إيمانكم﴾ يعد إظهاركم الإيمان ﴿إن نعف عن طائفة منكم﴾ بإحداشهم التوبة وإخلاصهم الإيمان بعد النفاق ﴿نعذب طائفة﴾

(١) ذكره الواحدى عن قتادة بغير سند، ورواه الطبري.

بأنهم كانوا مجرمين ﴿ مصرين على النفاق غير تائبين منه . أو إن نعتهم عن طائفة منكم لم يؤذوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يستهزؤا فلم نعتهم في العاجل ، نعتهم في العاجل طائفة بأنهم كانوا مجرمين مؤذنين لرسول الله صلى الله عليه وسلم مستهزئين . وقرأ مجاهد: إن نعتهم عن طائفة على البناء للمفعول مع التأنيت ، والوجه التذكير : لأن المسند إليه الظرف ، كما تقول : سير بالدابة ، ولا تقول : سيرت بالدابة ، ولكنك ذهبت إلى المعنى ، كأنه قيل : إن ترحم طائفة ، فأنت لذلك وهو غريب ، والجيد قراءة العامة : إن يعف عن طائفة ، بالتذكير . وتعتب طائفة ، بالتأنيت . وقرئ : إن يعف عن طائفة يعذب طائفة ، على البناء للفاعل وهو الله عز وجل .

الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنْفِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُنْفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿١٨﴾

﴿ بعضهم من بعض ﴾ أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين ، وتكذيبهم في قولهم ﴿ ويحلفون بالله إنهم لمنكم ﴾ وتقرير قوله ﴿ وما هم منكم ﴾ ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين ﴿ يأمرُونَ بالمنكر ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿ وينهون عن المعروف ﴾ عن الإيمان والطاعات ﴿ ويقبضون أيديهم ﴾ شحاً بالمبار والصدقات والإنفاق في سبيل الله ﴿ نسوا الله ﴾ أغفلوا ذكره ﴿ فنسيهم ﴾ فرحهم من رحمته وفضله ﴿ هم الفاسقون ﴾ هم الكاملون في الفسق الذي هو التردد في الكفر والانسلاخ عن كل خير ، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين حين بالغ في ذمهم ، وإذا كره رسول الله صلى الله عليه وسلم للإسلام أن يقول كسلت <sup>(١)</sup> ، لأن المنافقين وصفوا بالكسل في قوله ﴿ كسالى ﴾ فإظنك بالفسق ﴿ خالدين فيها ﴾ مقدرين الخلود ﴿ هي حسبهم ﴾ دلالة على عظم عذابها ، وأنه لا شيء أبلغ منه ، وأنه بحيث لا يزداد عليه ، نعوذ بالله من سخطه وعذابه ﴿ ولعنهم الله ﴾ وأهانهم من التعذيب ، وجعلهم مذمومين ملحقين بالشیاطين الملعونين ، كما عظم أهل الجنة وألحقهم بالملائكة <sup>(٢)</sup> المكرمين ﴿ ولهم عذاب مقيم ﴾ ولهم نوع من العذاب سوى الصلبي بالنار ، مقيم دائم كعذاب النار . ويجوز أن يريد :

(١) تقدم في أواخر البقرة .

(٢) قوله « وألحقهم بالملائكة » مبنى على مذهب المعتزلة ، من تفضيل الملك على البشر . (ع)

ولهم عذاب مقيم معهم في العاجل لا ينفكون عنه ، وهو ما يقاسونه من تعب النفاق ، والظاهر المخالف للباطن ، خوفاً من المسلمين وما يحذرونه أبداً من الفضيحة ونزول العذاب إن اطلع على أسرارهم.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَسْمُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٩﴾

الكاف محلها رفع على : أنتم مثل الذين من قبلكم . أو نصب على : فعلتم مثل ما فعل الذين من قبلكم وهو أنكم استمتعتم وخضتم كما استمتعوا وخاضوا . ونحوه قول النمر :

\* كَالْيَوْمِ مَطْلُوبًا وَلَا طَلَبًا \* (١)

ياضار لم أر ، وقوله ﴿ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً ﴾ تفسير لتشبيههم بهم ، وتمثيل فعلهم بفعلهم . والخلق : النصب ، وهو ما خلق للإنسان ، أى قدر من خير ، كما قيل له « قسم » لأنه قسم . ونصيب ، لأنه نصب ، أى أثبت . والخوض : الدخول في الباطل والهو ﴿ كالذى خاضوا ﴾ كاللوج الذى خاضوا ، وكالخوض الذى خاضوه . فإن قلت : أى فائدة في قوله ( فاستمتعوا بخلاقهم ) وقوله ( كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم ) مغن عنه كما أغنى قوله ( كالذى خاضوا ) عن أن يقال : وخاضوا فخضتم كالذى خاضوا ؟ قلت : فائدته أن يذم الأولين بالاستمتاع بما أوتوا من حظوظ الدنيا ورضاهم بها ، والتهائم بشهواتهم الفانية عن النظر في العاقبة وطلب الفلاح في الآخرة ، وأن يخس أمر الاستمتاع ويهجن أمر الرضى به ، ثم يشبه بعد ذلك حال المخاطبين بحالهم ، كما تريد أن تنبه بعض الظلة على ساجدة فعله فتقول : أنت مثل فرعون ، كان يقتل بغير جرم ويعذب ويعسف وأنت تفعل مثل فعله . وأما ( وخضتم كالذى خاضوا ) فمعطوف على ما قبله مستند إليه مستغن

(١) حتى إذا الكلاب قال لها كاليوم مطلوباً ولا طلباً  
لأوس بن حجر . وقيل : للحرين تولب ، وفيه حذف لا يستقيم إلا به ، أى قال لها : لم أنظر كاليوم مطلوباً ،  
والضمير لكلبة الصيد . والكلاب : معلم الكلاب أو الصياد بها ، أى ليس المطلوب والطلب في هذا اليوم مثلها  
في غيره بل أعظم . ولعل المراد بالطلب الطالب ، ثم يحتمل أن هذا مقول القول . ويحتمل أنه جواب إذا ومقول  
القول محذوف ، إشارة إلى سرعتها : أى قال لها : اذهبي مثلاً .

باستناده إليه عن تلك التقدمة ﴿حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾ نقيض قوله (وآتيناه أجره في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين) .

أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَحْزَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَنْتُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

(وأصحاب مدين) وأهل مدين وهم قوم شعيب (والمؤتفكات) مدائن قوم لوط . وقيل: قريات قوم لوط وهود وصالح . واتفقا كن : انقلاب أحوالهن عن الخير إلى الشر ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ فاصح منه أن يظلمهم وهو حكيم لا يجوز عليه القبيح وأن يعاقبهم بغير جرم ، ولكن ظلوا أنفسهم حيث كفروا به فاستحقوا عقابه .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكِنٍ طَيِّبَةٍ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

(بعضهم أولياء بعض) في مقابلة قوله في المنافقين (بعضهم من بعض) . (سيرحهم الله) السنين مفيدة وجود الرحمة لا محالة ، فهي تؤكد الوعد ، كما تؤكد الوعيد في قولك: سأنتقم منك يوماً ، تعني أنك لا تقوتني وإن تباطأ ذلك ، ونحوه (سيجعل لهم الرحمن وذا) ، ولسوف يعطيك ربك فترضى) . (سوف يؤتيهم أجورهم) . (عزيز) غالب على كل شيء قادر عليه ، فهو يقدر على الثواب والعقاب (حكيم) واضح كلا موضعه على حسب الاستحقاق ﴿ومساكن طيبة﴾ عن الحسن قصوراً من اللؤلؤ والياقوت الأحمر والزرجد . و (عدن) علم ، بدليل قوله (جنان عدن التي وعد الرحمن) ويدل عليه ما روى أبو الدرداء رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : عدن دار الله التي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر ، لا يسكنها غير ثلاثة : النبيون ، والصديقون ، والشهداء . يقول الله تعالى : طوبى لمن دخلك ،<sup>(١)</sup> وقيل: هي مدينة

(١) أخرجه البزار عن طريق زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عنه ، وقال : لا نعلمه =

في الجنة . وقيل : نهر جنته على حافته ﴿ورضوان من الله أكبر﴾ وشيء من رضوان الله أكبر من ذلك كله ، لأن رضاه هو سبب كل فوز وسعادة ، ولأنهم ينالون برضاه عنهم تعظيمه وكرامته ، والكرامة أكبر أصناف الثواب ، ولأن العبد إذا علم أن مولاه راض عنه فهو أكبر في نفسه مما وراه من النعم ، وإنما تنهأ له برضاه ، كما إذا علم بسخطه تنفصت عليه . ولم يجد لها لذة وإن عظمت . وسمعت بعض أولى الهمة البعيدة والنفس المزة<sup>(١)</sup> من مشايخنا يقول : لا تطمح عني ولا تنازع نفسي إلى شيء مما وعد الله في دار الكرامة ، كما تطمح وتنازع إلى رضاه عني ، وأن أحشر في زمرة المهديين المرضيين عنده ﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما وعد الله ، أو إلى الرضوان : أي هو ﴿الفوز العظيم﴾ وحده دون ما بعدة الناس فوزاً . وروى أن الله عز وجل يقول لأهل الجنة هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك ؟ قالوا : وأي شيء أفضل من ذلك ؟ قال : أدخل عليكم رضواني فلا أخط عليكم أبداً ،<sup>(٢)</sup>

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ  
وَبَشِّرِ الْمَصِيرُ<sup>(٣)</sup>

﴿جاهد الكفار﴾ بالسيف ﴿والمنافقين﴾ بالحجة<sup>(٤)</sup> ﴿واغلظ عليهم﴾ في الجهادين جميعاً ، ولا تحاربهم وكل من وقف منه على فساد في العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه ، يجاهد بالحجة ، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن منها . عن ابن مسعود : إن لم يستطع يده قبله ، فإن لم يستطع فليكهفه في وجهه<sup>(٥)</sup> ، فإن لم يستطع فليقلبه<sup>(٦)</sup> . يريد الكرامة والبغضاء والتبرأ منه . وقد حمل الحسن جهاد المنافقين على إقامة الحدود عليهم إذا تعاطوا أسبابها .

يَخْلُقُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهُمْ

== إلا من هذا الوجه وزيادة لا يعلم وروى عنه غير الليث وأخرجه الطبراني والدارقطني في الموثق وابن مردويه من هذا الوجه .

(١) قوله «والنفس المرة» أي القوة الشديدة العقل ، من المرة بالكسر ، وهي القوة وشدة العقل ، كما في الصحاح . (ع)

(٢) متفق عليه من حديث أبي سعيد .

(٣) قال محمود : «بمعناه جاهد الكفار بالسيف والمنافقين بالحجة ... الخ ، قال أحمد : واخذ الله الذي أنطقه بالحجة لنا في إغلاظنا عليه أحياناً ، والله الموفق .

(٤) قوله «فليكهفه في وجهه» في الصحاح «كفهه الرجل» إذا عيس . (ع)

(٥) أخرجه الطبري وابن مردويه من رواية عمرو بن أبي جندب عنه .



يَعْمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا قَعُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٧٤﴾

أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك شهرين ينزل عليه القرآن ، ويعيب المنافقين المتخلفين فيسمع من معه منهم ، منهم الجلاس بن سويد . فقال الجلاس : والله لئن كان ما يقول محمد حقاً لإخواننا الذين خلفناهم وهم ساداتنا وأشرافنا ، فنحن شر من الحخير . فقال عامر بن قيس الأنصاري للجلاس : أجل ، والله إن محمداً لصديق وأنت شر من الحمار . وبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستحضر خلف بالله ما قال ، فرفع عامر يده فقال : اللهم أنزل على عبدك ونبيك تصديق الكاذب وتكذيب الصادق <sup>(١)</sup> فنزلت ﴿ يحلفون بالله ما قالوا ﴾ فقال الجلاس : يا رسول الله ، لقد عرض الله على التوبة . والله لقد قلته وصدق عامر ، فتاب الجلاس وحسنت <sup>(٢)</sup> توبته ﴿ وكفروا بعد إسلامهم ﴾ وأظهروا كفرهم بعد إظهارهم الإسلام ﴿ وهموا بما لم ينالوا ﴾ وهو الفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك عند مرجعه من تبوك : توائق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنم العقبة بالليل ، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها وحذيفة خلفها يسوقها ، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة يوقع أخفاف الإبل وبقعة السلاح ، فالتفت فإذا قوم متلثمون ، فقال : إليكم إليكم يا أعداء الله <sup>(٣)</sup> ، فهربوا . وقيل :

(١) قوله « تصديق الكاذب وتكذيب الصادق » لعلة تصديق الصادق وتكذيب الكاذب . ويمكن أنه جعل نفسه كاذباً ، والجلاس صادقاً ، لأنه مقتضى ظاهر الحلف . (ع)

(٢) أخرجه الشعلبي عن الكلبي بغير سند لكن سنده إليه أول الكتاب . وروى ابن سعد وعبدالرزاق والطبري من رواية هشام بن عروة عن أبيه قال : كانت أم عمير بنت سعيد عند الجلاس بن سويد . فقال الجلاس بن سويد في غزوة تبوك إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحخير . فقال له عامر بن قيس الأنصاري ، وهو ابن عمه - فذكره . وكذا ذكره موسى بن عقبة في المغازي ليس فيه كانت أم عمير إلى آخره ، بل أوله في قصة تبوك إلى أن قال : وقال الجلاس حين سمع ما أنزل الله في المنافقين .

(٣) أخرجه أحمد من حديث أبي الطفيل قال « لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك أمر منادياً ينادي لا يأخذن العقبة أحد ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يسير وحده ، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يسير وحذيفة رضى الله عنه يقود به ، وعمار رضى الله عنه يسوق به . فأقبل رهط متلثمين على الرواحل حتى غشوا النبي صلى الله عليه وسلم ، فرجع عمار فضرب وجوه الرواحل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة : قد قد - فلحقه عمار فقال : سق سق حتى أناخ . فقال لعمار : هل تعرف القوم فقال : لا ، كانوا متلثمين . وقد عرفت عامة الرواحل . فقال : أتدري ما أرادوا برسول الله ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . فقال : أرادوا أن يمكروا برسول الله فطرحوه من العقبة . فلما كان بعد ذلك وقع بين عمار رضى الله عنه وبين رجل منهم شيء مما يكون بين الناس . فقال : أنشدكم الله ، كم أصحاب العقبة الذين أرادوا أن يمكروا برسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال : ترى أنهم =

هم المنافقون يقتل عامر لردّه على الجلاس . وقيل : أرادوا أن يتوجوا عبد الله بن أبي وإن لم يرض رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم ﴿ وما نقموا ﴾ وما أنكروا وما عابوا ﴿ إلا أن أغناهم الله ﴾ وذلك أنهم كانوا حين قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة في ضنك من العيش لا يركبون الخيل ولا يحوزون الغنيمة فأثروا بالغنائم وقتل للجلاس مولى ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بدبته اثني عشر ألفاً فاستغنى ﴿ فإن يتوبوا ﴾ هي الآية التي تاب عندها الجلاس ﴿ في الدنيا والآخرة ﴾ بالقتل والنار .

وَمِنْهُمْ مَنْ عٰهَدَ اللّٰهَ لَئِنْ ءَاتٰنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُوْنَنَّ مِنَ الصّٰلِحِيْنَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا ءَاتٰهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوْا بِهٖ وَتَوَلّٰوْا وَهُمْ مُّعْرِضُوْنَ ﴿٧٦﴾ فَاَعْقِبْهُمْ نِقَآءًا فِىْ قُلُوْبِهِمْ اِلٰى يَوْمٍ يَلْقَوْنَهُ بِمَا اَخْلَفُوْا اللّٰهَ مَا وَعَدُوْهُ وَبِمَا كَانُوْا يَكْذِبُوْنَ ﴿٧٧﴾

روى أن ثعلبة بن حاطب قال : يارسول الله ، ادع الله أن يرزقني مالا ، فقال صلى الله عليه وسلم : يا ثعلبة ، قليل تؤذى شكره خير من كثير لا تطيقه <sup>(١)</sup> ، فراجعته وقال : والذي بعثك بالحق لنن رزقني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه ، فدعاه ، فاتخذ غنما فنمت كما ينمي الدود حتى ضاقت بها المدينة ، فنزل واديا وانقطع عن الجماعة والجمعة ، فسأل عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل : كثر ماله حتى لا يسمعه واد . قال : يا ويح ثعلبة ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مصدقين لأخذ الصدقات ، فاستقبلهما الناس بصدقاتهم ، ومرا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرأه كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فيه الفرائض ، فقال : ما هذه إلا جزية ، ما هذه إلا أخت الجزية ، وقال : أرجعما حتى أرى رأيي ، فلما رجعا قال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يكلماه : يا ويح ثعلبة مرتين ، فنزلت ، فجاء ثعلبة بالصدقة ، فقال : إن الله منعي أن

== أربعة عشر ، فإن كنت فيهم فهم خمسة عشر ، ومن هذا الوجه رواه الطبراني والبخاري وقال روى من طريق عن حذيفة وهذا أحسنها وأصلحها إسنادا . ورواه ابن إسحاق في المنازى ومن طريقه البيهقي في الدلائل عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البخري عن حذيفة بن البيان . قال : كنت أخذنا عظام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقود به . وعمار رضى الله عنه يسوق الناقة حتى إذا كنا بالعقة وإذا اثني عشر راكبا قد اعترضوه فيها قال : فاتت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فصرخ بهم فولوا مدبرين .

(١) أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل والشعب وابن أبي حاتم والطبري وابن مردويه كلهم من طريق علي بن زيد عن القاسم بن عبد الرحمن عن أمامة . وهذا إسناد ضعيف جدا . فقال السبيل عن ابن إسحاق ثعلبة بن حاطب قر البدرين . وعن ابن إسحاق أيضا في المنافقين وذكر هذه الآية التي نزلت فيه . فلعلهما اثنا

أقبل منك ، فجعل التراب على رأسه فقال : هذا عملك قد أمرتك فلم تطعني ، فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاء بها إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبلها ، وجاء بها إلى عمر رضي الله عنه في خلافته فلم يقبلها ، وهلك في زمان عثمان رضي الله عنه . وقرئ ( لنصدقن ولنكونن ) بالنون الخفيفة فيهما ( من الصالحين ) قال ابن عباس رضي الله عنه : يريد الحج ( فأعقبهم ) عن الحسن وقتادة رضي الله عنهما : أن الضمير للبخل . يعني : فأورثهم البخل ( نفاقا ) متمكنا ( في قلوبهم ) لأنه كان سببا فيه وداعيا إليه . والظاهر أن الضمير لله عز وجل . والمعنى : نخذهم حتى نافقوا (١) وتمكن في قلوبهم نفاقهم فلا ينفك عنها إلى أن يموتوا بسبب إخلافتهم ما وعدوا الله من التصديق والصلاح وكونهم كاذبين . ومنه : جعل خلف الوعد ثلث النفاق . وقرئ : يكذبون ، بالتشديد . وألم تعلموا ، بالتاء . عن علي رضي الله عنه .

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨)

(سهرم ونجواهم) ما أسرتوه من النفاق والعزم على إخلاف ما وعدوه وما يتناجون به فيما بينهم من المطاعن في الدين ، وتسمية الصدقة جزية وتدبير منعها .

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)

(الذين يلزمون) محله النصب أو الرفع على المذم . ويجوز أن يكون في محل الجز بدلا من الضمير في سهرم ونجواهم . وقرئ : يلزمون ، بالضم ( المطووعين ) المتطوعين المتبرعين . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عبدالرحمن بن عوف بأربعين أوقية من ذهب . وقيل : بأربعة آلاف درهم وقال : كان لي ثمانية آلاف ، فأقرضت ربي أربعة وأمسكت أربعة لعيالي ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : بارك الله لك فيما أعطيت وفيما أمسكت (٢) ، فبارك الله له حتى صولحت تماضر امرأته عن ربع الثمن على ثمانين ألفا ،

(١) قوله دواعي نخذهم حتى نافقوا فسر بذلك على مذهب المعتزلة ، من أنه تعالى لا يخلق الشر . (ع)

(٢) أخرجه ابن مردويه من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله (الذين يلزمون المطووعين من المؤمنين - الآية) قال : جاء عبدالرحمن بن عوف بأربعين أوقية . من ذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء رجل من الأنصار بصاع من تمر . فقال بعض المنافقين والله ما جاء عبدالرحمن بن عوف بما جاء به إلا ربا . وإن كان الله ورسوله لغنيين عن هذا الصاع . ومن طريق عطية العوفي . وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إلى الناس ، فنادى فيهم : أن اجعوا صدقاتكم . فجمع الناس صدقاتهم . وجاء رجل بصاع من تمر . فقال : يا رسول الله بت ليلتي أجر بالجرير - الحديث . وجاء عبدالرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله مالي ثمانية آلاف ، فأربعة آلاف لي ، وأربعة آلاف أقرضها ربي - فذكره . وقال عبدالرزاق في تفسيره أخبرنا

وتصدق عاصم بن عدي بمائة وسق من تمر ، وجاء أبو عقيل الأنصاري رضي الله عنه بصاع من تمر فقال : بت ليلتي أجز بالجزير <sup>(١)</sup> على صاعين ، فتركت صاعا لعيالي ، وجئت بصاع فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يثره على الصدقات ، فلمزم المنافقون وقالوا : ما أعطى عبد الرحمن وعاصم إلا رياء ، وإن كان الله ورسوله لغنيين عن صاع أبي عقيل ، ولكنه أحب أن يذكر نفسه ليعطى من الصدقات ، فنزلت ﴿إلا جهدهم﴾ إلا طاقتهم . قرئ بالفتح والضم ﴿سخر الله منهم﴾ كقوله : الله يستهزئ بهم في أنه خبر غير دعاء . ألا ترى إلى قوله ﴿ولهم عذاب أليم﴾ .

أَسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرَ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٠﴾

سأل عبد الله بن عبد الله بن أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم - وكان رجلا صالحا - أن يستغفر لآبيه في مرضه ففعل ، فنزلت ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله قد رخص لي فسأزيد على السبعين <sup>(٢)</sup> ، فنزلت (سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم) وقد ذكرنا

== معمر بن قتادة قال : تصدق عبد الرحمن بن عوف بشطر ماله . وكان له ثمانية آلاف دينار . فتصدق بأربعة آلاف دينار . فقال أناس من المنافقين : إن عبد الرحمن لعظيم الرياء . فقال الله عز وجل (الذين يلزبون المطوعين) وكان لرجل من الأنصار صاعان من تمر . لجأ بأحدهما . فقال أناس من المنافقين : إن كان الله لغنيا عن صاع هذا . فقال الله عز وجل (إلا جهدهم) وروى البزار من رواية عمر بن أبي مسلمة عن أبيه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تصدقوا فاني أريد أن أثبت بعثا لجاء عبد الرحمن بن عوف فقال : يا رسول الله ، عندى أربعة آلاف درهم ألفان أقرضها ربي وألفان لعيالي - الحديث ، وفيه دواب رجل من الأنصار فأصاب صاعين من تمر ، أخرجه عن طالوت بن عباد عن أبي عوانة عنه وقال : تفرد طالوت بوصله ثم رواه عن أبي كامل عن أبي عوانة ومن طريقه ابن مردويه وفي المغازي بأربعة آلاف وقام عاصم بن عدي تصدق بمائة وسق من تمر فألقاه في الصدقة فتضاحكوا به وقالوا : إن الله لغني عن صاع أبي عقيل ، انتهى وقصة أبي عقيل أخرجهما إبراهيم الحربي والطبراني والطبري من رواية خالد بن يسار عن ابن أبي عقيل عن أبيه قال «بت أجر الجزير على ظهري على صاعين من تمر - الحديث ، وفي إسناده موسى بن عبيدة وهو ضعيف قلت : قصة أبي عقيل أخرجهما البخاري من حديث أبي مسعود الأنصاري باختصار وفيه «جاء إنسان آخر بأكثر من ذلك ، وفي رواية : بشئ كثير .

- (١) قوله «بالجزير» هو حبل البعير . وروى : أجر بالجزير الماء كذبحا ، من أجر . (ع)
- (٢) لم أجده بهذا السياق وأصله في المتفق عليه عن ابن عمر رضي الله عنهما قال «لما توفي عبد الله بن أبي جاء ابنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أن يعطيه قيصه يكفن فيه أباه ، فأعطاه ثم سأله أن يصلي عليه ، فقام يصلي عليه فأخذ عمر رضي الله عنه بشويه فقال : أتصلي عليه وقد نهاك الله أن تصلي عليه فقال إنما خيرني فقال : (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم الآية) وسأزيد على السبعين فصلي عليه فأنزل الله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) فتركت الصلاة عليهم - لفظ مسلم

أن هذا الأمر في معنى الخبر، <sup>(١)</sup> كأنه قيل : لن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ، وإن فيه معنى الشرط ، وذكرنا النكتة في المجيء به على لفظ الأمر ، والسبعون جار مجرى المثل في كلامهم للتكثير ، قال علي بن أبي طالب عليه السلام :

لَأَصْبَحَنَّ الْعَاصِ وَأَبْنُ الْعَاصِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَاقِدِي النَّوَاصِي <sup>(٢)</sup>

فإن قلت : كيف خفي على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام <sup>(٣)</sup> وتمثيلاته ، والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار ، كيف وقد تلاه بقوله ( ذلك بأنهم كفروا... الآية ) فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى قال : وقد رخص لي ربي فسأزيد على السبعين ، قلت : لم يخف عليه ذلك ، ولكشفه خيل بما قال إظهاراً لغاية

(١) قال محمود : « قد ذكرنا أن هذا الأمر في معنى الخبر ... الخ ، قال أحد : وما يدعيه العنصري في هذا وأمثاله من محذوف هو المقصود بالأمر وهذا واقع موقعه ، كقول كثير عزة : أسيتى بنا أو أحسنى لا ملومة . كأنه يقول لها : امتحنى عمك عندي وقوة محبتي لك ، وعامليني بالإساءة والاحسان ، وانظري هل يتفاوت حالى معك مدينة أو عسنة ؟ وكذلك معنى الآية ( استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ) وانظر هل يغفر لهم في حالتي الاستغفار وتركه ؟ وهل يتفاوت الحالان أولاً ؟ قال أحد : وقد ورد بصيغة الخبر في الآية الأخرى في قوله تعالى ( سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم ) .

(٢) لأصبحن العاصي وابن العاصي سبعين ألفاً عاقدي النواصي  
مستحقين خلق الدلاص قد جنبوا الخيل مع القلاص  
آساد محل حين لامناص

لعلي بن أبي طالب رضى الله عنه في عمرو بن العاص . وصبحه : سقاء الصبوح وقت الصباح . وروى : لأصبحن ، من الصلبة ولعله تحريف . شبه إنالة المكروه بإنالة المحبوب على سبيل التهكم ، فهو استعارة تصريحية تهكية . ويجوز أنه شبه الفرسان لانتمائهم صباحاً بالصبوح على سبيل المكنية التهكية . ولأصبحن : تمثيل . وسبعين ألفاً : مفعول ثانى . والمراد به الكثرة . والعاقدين : جمع عاقد ، والمراد : نواصي خيلهم أو أطراف عمامتهم من خلفهم أو شعور رؤوسهم . وعقد الناصية من أمارات الشجاعة والاشاحة في القتال . والمقارب : ما تلفة المرأة على وسطها ، ويطلق على ذات وسطها . والحقيية : خرج صغير خلف الراكب . والخلق - بالكسر - : جمع حلقة . والدلاص : الدرع الملساء المضيفة ، يوصف به الواحد والجمع . فالعنى : أنهم لا يسون الدروع . وأولاهى : في حقائبهم غيرها . والقلاص فتيات الابل : أى جمعوا بين النوعين ، وجعلهم كأساد الخيل ، أى الجذب ؛ ليقيد أنهم جياح وعطاش إلى لحوم الأعداء ودمائهم ، وحق اسم دلا ، أن يبنى على الفتح ، فيجوز أنه كسره للقافية . والأوجه أنه الاسم بمعنى غير كما في الصباح ، وأحيان غير مناص ، أوبنى على الكسر لنية الإضافة . وشبهه بزال ، أو هو مجرور بمن الاستترافية مقدره كما مر في دولات أوان ، ويجوز - على بعد - أن يكون في الكلام مضاف محذوف ، أى لاحق لا وقت مناص ، أى تأخر عن الحرب ، ويمكن أن دلا ، زائدة بين المتضامين ، كافى بترلا حورسرى ، أى حين مناص الفرسان وفرارهم .

(٣) عاد كلامه . قال : فإن قلت كيف خفي على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أفصح من نطق بالاضاد ... الخ ، قال أحد : وقد أنكر القاضى رضى الله عنه حديث الاستغفار ولم يصححه ، وتعالى قوم في قبوله حتى أنهم اتخذوه عمدة في مفهوم المخالفة ، وبنوه على أنه عليه السلام فهم من تحدت نفي الغفران بالسبعين يوت الغفران بالازايد عليه ، وذلك سبب إنكار القاضى عليهم .

رحمته ورأفته على من بعث إليه ، كقول إبراهيم عليه السلام ( ومن عصاني فإنك غفور رحيم ) وفي إظهار النبي صلى الله عليه وسلم الرأفة والرحمة : لطف لأمته ودعاء لهم إلى ترحم بعضهم على بعض .

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا

لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾

﴿المخلفون﴾ الذين استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من المنافقين فأذن لهم وخلفهم في المدينة في غزوة تبوك ، أو الذين خلفهم كسلهم ونفاقهم والشيطان ﴿بمقعدهم﴾ بقعودهم عن الغزو ﴿خلاف رسول الله﴾ خلفه . يقال : أقام خلاف الحى ، بمعنى بعدهم طعنوا ولم يظعن معهم ، وتشهد له قراءة أى حيوة : خلف رسول الله . وقيل : هو بمعنى المخالفة لأنهم خالفوه حيث قعدوا ونهض ، وانتصابه على أنه مفعول له أو حال ، أى قعدوا لمخالفته أو مخالفين له ﴿أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم﴾ تعريض بالمؤمنين ويحملهم المشاق العظام لوجه الله تعالى وبما فعلوا من بذل أموالهم وأرواحهم في سبيل الله تعالى وإيثارهم ذلك على الدعة والخفض . وكره ذلك المنافقون . وكيف لا يكرهونه وما فهم ما فى المؤمنين من باعث الإيمان وداعى الإيقان ﴿قل نار جهنم أشد حرا﴾ استجهال لهم ، لأن من تصون من مشقة ساعة فوقع بسبب ذلك التصون فى مشقة الأبد ، كان أجهل من كل جاهل : ولععضهم :

مَسْرَةٌ أَحْقَابٍ تَلَقَّيْتُ بَعْدَهَا مَسَاءَةً يَوْمِ أَرْبَاهَا شُبَّةُ الصَّابِ  
فَكَيْفَ بَأَنْ تَلَقَى مَسْرَةً مَسَاعَةٍ وَرَاءَ تَقْصِيهَا مَسَاءَةٌ أَحْقَابٍ (١)

فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

معناه : فيضحكون قليلا ، ويبكون كثيرا ﴿جزاء﴾ إلا أنه أخرج على لفظ الأمر ، للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره . يروى أن أهل النفاق سيكون فى النار عمر الدنيا ، لا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم .

(١) للزحشرى . و «الأحقاب» الأزمان الكثيرة المتتابة . جمع حقب بالضم بمعنى الدهر . و «الآرى» العسل . و «الشبه» المثل . و «الصاب» نبت مر الطعم . وقيل : هو الحنظل يقول إن مسرة أزمان كثيرة ترى بعدها مساة يوم واحد ، حالها الشبه بالعسل هو فى الحقيقة شبه بالحنظل . فكيف الحال يعكس ذلك ؟ .

فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا  
مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُفْعِلُوا مَعِيَ عِدًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا  
مَعَ الْخَالِفِينَ ﴿٨٣﴾

وإنما قال ﴿إلى طائفة منهم﴾ لأن منهم من تاب عن النفاق وندم على التخلف، أو اعتذر بعذر صحيح. وقيل: لم يكن المخافون كلهم منافقين، فأراد بالطائفة: المنافقين منهم ﴿فاستأذنوك للخروج﴾ يعني إلى غزوة بعد غزوة تبوك. و﴿أول مرة﴾ هي الخروج إلى غزوة تبوك، وكان إسقاطهم عن ديوان الغزاة عقوبة لهم على تخلفهم الذي علم الله أنه لم يدعمهم إليه إلا النفاق، بخلاف غيرهم من المتخلفين ﴿مع الخالفين﴾ قد مر تفسيره. قرأ مالك بن دينار رحمه الله. مع الخلفين، على قصر الخالفين. فإن قلت (مرة) نكرة وضعت موضع المرات للتفضيل، فلم ذكر اسم التفضيل المضاف إليها وهو دال على واحدة من المرات؟ قلت: أكثر اللتين: هند أكبر النساء، وهي أكبرهن. ثم إن قولك: هي كبرى امرأة، لا تكاد تعثر عليه. ولكن هي أكبر امرأة، وأول مرة، وآخر مرة. وعن قتادة: ذكر لنا أنهم كانوا اثني عشر رجلا قيل فيهم ما قيل.

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ  
وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ  
أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٨٥﴾  
روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم على قبور المنافقين ويدعو لهم (١) فلما

(١) لم أجده هكذا فأما أوله وهو «كان يقوم» إلى آخره «وأما قصة عبد الله في الجائر من المستدرك من طريق ابن إسحاق حدثني الزهري عن عروة عن أسامة بن زيد قال «دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عبد الله ابن أبي ليعوده في مرضه الذي مات فيه. فلما عرف فيه الموت قال له: أما والله إن كنت لأنهاك عن حب يهود فقال: قد أبغضتهم. أسعد بن زرارة. فما نفقه، فلما مات أتاه ابنه فقال: قد مات فأعطني قبصك أكفنه فيه فنزع عليه الصلاة والسلام قبصه فأعطاه إياه» وأما قوله «ويشت إليك لتستغفر لي لا لتوبختي» فزاده الطبراني من طريق معمر عن قتادة قال «أرسل عبد الله ابن أبي وهو مريض إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فلما دخل عليه قال له النبي صلى الله عليه وسلم: أهلكك حب يهود. قال: يا رسول الله، أرسلت إليك لتستغفر لي ولم أرسل إليك لتوبختي، وسأله قبصه أن يكفن فيه. فأعطاه إياه فاستغفر له ومات فكفنه في قبصه، ونفث في جلده ودلاه في قبره، فأُنزل الله تعالى (ولا تصل على أحد منهم مات أبدا) وفي الدلائل للبيهقي من طريق الواقدي بإسناده في هذه القصة قال: فقال ليس هذا بحين عتاب. هو الموت. فإن مات فاحضر غسل وأعطى قبصك أكفن فيه فأعطاه ثم قال: وصل على واستغفر لي، وفي رواية له فقال له ابنه. وكان يقال له الحجاب، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدا لله ==

مرض رأس النفاق عبد الله بن أبيّ بعث إليه ليأتيه ، فلما دخل عليه قال : أهلك حب اليهود . فقال : يا رسول الله بعثت إليك لتستغفر لي لا لتؤنّبني <sup>(١)</sup> وسأله أن يكفنه في شعاره الذي يلي جلده ويصلي عليه ، فلما مات دعاه ابنه حباب إلى جنازته ، فسأله عن اسمه فقال : أنت عبد الله ابن عبد الله . الحباب اسم شيطان . فلما همّ بالصلاة عليه قال له عمر : أتصلي على عدوّ الله ، فنزلت وقيل : أراد أن يصلي عليه لجذبه جبريل <sup>(٢)</sup> . فإن قلت : كيف جازت له تكريمة المنافق وتكفينه في قميصه ؟ قلت : كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له . وذلك أن العباس رضى الله عنه عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ أسيراً بيدرم يجدوا له قميصاً . وكان رجلاً طوالاً <sup>(٣)</sup> ، فكساه عبد الله قميصه <sup>(٤)</sup> وقال له المشركون يوم الحديبية : إنا لا نأذن لمحمد <sup>(٥)</sup> ولكننا نأذن لك ، فقال : لا ، إن لي في رسول الله أسوة حسنة <sup>(٦)</sup> فشكر رسول الله صلى الله عليه وسلم له ذلك ، وإجابة له إلى مسئلته إياه ، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يرد سائلاً ، وكان يتوفر على دواعي المروءة ويعمل بعبادات السكرام ، وإكراماً لابنه الرجل الصالح ، فقد روى أنه قال له : أسألك أن تكفنه في بعض قصائنك ، وأن تقوم على قبره ، لا يشمت به الأعداء <sup>(٧)</sup> ، وعلماً بأن تكفينه في قميصه لا ينفعه مع كفره ، فلا فرق بينه وبين غيره من الأكفان ، وليكون إلباسه إياه لطفاً

== يا رسول الله أعطه قميصك الذي يلي جلدك ، وأما قوله الحباب اسم شيطان فرواه ابن سعد والطبري من طريق عروة وغيره قال : لما نزل عبد الله بن أبيّ انطلق ابنه فقال : إن أبي احتضر وأحب أن تشهد وتصلّي عليه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما اسمك ؟ قال : الحباب بن عبد الله قال : بلى ، أنت عبد الله ، إن الحباب اسم شيطان . قال : فانطلق معه حتى شهده وألبسه قميصه وصلى عليه وأما قول عمر فقد قدماً أنه في الصحيحين .

- (١) قوله « لا تؤنّبني » أي تعنفني باللوم .
- (٢) أخرجه أبو يعلى من رواية يزيد الرقاشي عن أنس ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أراد أن يصلي على عبد الله بن أبي فأخذ جبريل بثوبه . وقال (ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره) ويزيد ضعيف .
- (٣) قوله « وكان رجلاً طوالاً » في الصحاح : الطوال - بالضم : الطويل . (ع)
- (٤) أخرجه البخاري من رواية عمرو بن دينار سمع جابراً « لما كان يوم بدر أتى بالعباس ، ولم يكن عليه ثوب فنظر النبي صلى الله عليه وسلم قميصاً . فوجدوا قميص عبد الله بن أبي يقدر عليه فكساه النبي صلى الله عليه وسلم إياه فلذلك نزع النبي صلى الله عليه وسلم قميصه الذي ألبسه . قال ابن عتبة كانت له عند النبي صلى الله عليه وسلم يد فأحب أن يكافئه . ورواه الحاكم في المستدرک من حديث جابر وأدرج فيه الكلام الأخير .
- (٥) قوله « إنا لا نأذن لمحمد » أي في دخوله مكة . (ع)
- (٦) أخرجه الواقدي في المغازي : حدثنا جابر بن سليم عن صفوان بن عثمان قال : كانت فريش يوم الحديبية أرسلت إلى عبد الله بن أبي : إن أحببت أن تدخل فتطوف فأفعل . وابنه جالس عنده . فقال له ابنه : يا أبت أذكر الله أن تطوف بالبيت قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتى ابن أبي وقال : لا أطوف حتى يطوف رسول الله صلى الله عليه وسلم فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم كلامه فسر .
- (٧) لم أجده . وأصل سؤال ابنه في الصحيح كما تقدم .



لغيره ، فقد روى أنه قيل له : لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر ؟ فقال : إن قبضي لن يغني عنه من الله شيئاً ، وإني أؤمل في الله أن يدخل في الإسلام كثير بهذا السبب ، <sup>(١)</sup> فيروى أنه أسلم ألف من الخزرج لما رأوه طلب الاستشفاء بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> وكذلك ترحمه واستغفاره كان للدعاء إلى التواضع والتعاطف ، لأنهم إذا رأوه يترحم على من يظهر الإيمان ويأطنه على خلاف ذلك ، دعا المسلم إلى أن يتعطف على من واطأ قلبه لسانه ورآه حتماً عليه . فإن قلت : فكيف جازت الصلاة عليه ؟ قلت : لم يتقدم نهى عن الصلاة عليهم . وكانوا يحرون مجرى المسلمين لظاهر إيمانهم ، لما في ذلك من المصلحة . وعن ابن عباس رضي الله عنه : ما أدرى ما هذه الصلاة ، إلا أني أعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يخادع <sup>(٣)</sup> مات ) صفة لأحد . وإنما قيل : مات ، وماتوا بلفظ الماضي - والمعنى على الاستقبال - على تقدير الكون والوجود ، لأنه كأن موجود لا محالة ﴿إنهم كفروا﴾ تعليل للنهي ، وقد أعيد قوله ﴿ولا تعجبك﴾ لأن تجديد النزول له شأن في تقرير ما نزل له وتأكيد كيدته ، وإرادة أن يكون على بال من المخاطب لا ينساه ولا يسهو عنه ، وأن يعتقد أن العمل به مهم يقتدر إلى فضل عناية به ، لاسيما إذا تراخى ما بين النزولين فأشبه الشيء الذي أهم صاحبه . فهو يرجع إليه في أثناء حديثه ويتخلص إليه ، وإنما أعيد هذا المعنى لقوته فيما يجب أن يحذر منه .

وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةً أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنَّ الرُّسُولَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْقَوْرُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾

(١) لم أره هكذا ، وأصله أخرجه الطبري من رواية معمر عن قتادة قال ذكر لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم كلمه في ذلك . فقال : وما يغني عنه قبضي من الله ، وإني لأرجو أن يسلم به ألف من قومه .

(٢) لم أره هكذا إلا في مرسل قتادة الذي قبله .

(٣) أخرجه سعيد بن داود في تفسيره من طريقه . قال حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرني الحكم بن أبان سمع عكرمة عن عباس قال : لما مرض عبد الله بن أبي مرثد الذي مات فيه قال للنبي صلى الله عليه وسلم آمن على فكفني في قبضك وصل على قال : فكففته في قبضه وصل عليه . قال ابن عباس : والله ما أدرى ما هذه الصلاة كانت : قاله أعلم ، وما خادع محمداً إفسان قط .

يجوز أن يراد السورة بتمامها، وأن يراد بعضها في قوله ﴿وإذا أنزلت سورة﴾ كما يقع القرآن والكتاب على كله وعلى بعضه. وقيل هي براءة، لأن فيها الأمر بالإيمان والجهاد ﴿أن آمنوا﴾ هي أب المفسرة ﴿أولو الطول﴾ ذوو الفضل والسعة، من طال عليه طولا ﴿مع القاعدين﴾ مع الذين لهم علة وعذر في التخلف ﴿فهم لا يفقهون﴾ ما في الجهاد من الفوز والسعادة وما في التخلف من الشقاء والهلاك ﴿لكن الرسول﴾ أى إن تخلف هؤلاء فقد نهى<sup>(١)</sup> إلى الغزو من هو خير منهم وأخلص نية ومعتقداً، كقوله (إن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً)، (فإن استكبروا فالذين عند ربك). ﴿الحيرات﴾ تتناول منافع الدارين لإطلاق اللفظ. وقيل: الحور، لقوله (فهن خيرات).

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ  
سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

﴿المعذرون﴾ من عذر في الأمر، إذا قصر فيه وتوانى ولم يجتهد: وحقيقته أنه يوم أن له عذراً فيما يفعل ولا عذره له: أو المعتذرون بإدغام التاء في الذال ونقل حركتها إلى العين ويجوز في العربية كسر العين لالتقاء الساكنين وضمها لإتباع الميم. ولكن لم تثبت بهما قراءة، وهم الذين يعتذرون بالباطل، كقوله: يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم وقرئ. المعذرون، بالتخفيف: وهو الذى يجتهد في العذر ويحتشد فيه. قيل: هم أسد وغطفان. قالوا: إن لنا عيالا: وإن بنا جهدا فائذن لنا في التخلف. وقيل: هم رهط عامر بن الطفيل قالوا: إن غزونا معك أغارت أعراب طي على أهاليها ومواشيها، فقال صلى الله عليه وسلم: سيغبنني الله عنكم. وعن مجاهد: نفر من غفار، اعتذروا فلم يعذرهم الله تعالى: وعن قتادة: اعتذروا بالكذب: وقرئ: المعذرون بتشديد العين والذال، من تعذر بمعنى اعتذر، وهذا غير صحيح: لأن التاء لا تدغم في العين إدغامها في الطاء والزاي والصاد، في المطوعين، وأزكى وأصدق. وقيل: أريد المعتذرون بالصحة، وبه فسر المعذرون والمعتذرون، على قراءة ابن عباس رضى الله عنه الذين لم يفرطوا في العذر ﴿وقعد الذين كذبوا الله ورسوله﴾ هم منافقوا الأعراب الذين لم يجيئوا ولم يعتذروا، وظهر بذلك أنهم كذبوا الله ورسوله في ادعائهم الإيمان. وقرأ أى: كذبوا، بالتشديد ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ﴾ من الأعراب ﴿عذاب أليم﴾ في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار

(١) قوله «قد نهى» أى نهى، كما في الصحاح. (ع)

لَيْسَ عَلَى الضَّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ  
إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾  
وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّلَ لَتَحْمِلَهُمْ قُلْتُ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ  
تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾

(الضعفاء) الهرمى والزمنى . والذين لا يجدون : الفقراء . وقيل : هم مريئة وجهينة وبنو  
عذرة . والنصح لله ورسوله : الإيمان بهما ، وطاعتهما في السر والعلن ، وتوليتهما ، والحب  
والبغض فيهما كما يفعل الموالي الناصح بصاحبه (على المحسنين) على المذدورين الناصحين ،  
ومعنى : لا سبيل عليهم : لا جناح عليهم . ولا طريق للعائب عليهم (قلت لا أجد) حال من  
الكاف في (أتوك) وقد قبله مضمرة ، كما قيل في قوله (أو جاؤكم حصرت صدورهم) أى إذا  
ماتوك قائلا لا أجد (تولوا) ولقد حصر الله المذدورين في التخلف الذين ليس لهم فى أبدانهم  
استطاعة ، والذين عدموا آلة الخروج ، والذين سألوا المعونة فلم يجدوها . وقيل : المستحملون ،  
أبو موسى الأشعرى وأصحابه . وقيل البكاؤن ، وهم ستة نفر من الأنصار (تفيض من الدمع)  
كقولك . تفيض دمعاً ، وهو أبلغ من يفيض دمعها ، لأن العين جعلت كأنها دمع فائض ،  
و . من ، للبيان كقولك : أفديك من رجل ، وعمل الجار والمجرور النصب على التمييز  
(ألا يجدوا) لئلا يجدوا . وحله نصب على أنه مفعول له ، وناصبه المفعول له الذى هو حزناً .

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ  
الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ  
إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ تُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ  
عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا  
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾

فإن قلت : (رضوا) ما موقعه ؟ قلت : هو استئاف ، كأنه قيل : ما بالهم استأذنوا وهم  
أغنياء ؟ فقيل : رضوا بالدناءة والضعفة والانتظام فى جملة الخوالم (وطبع الله على قلوبهم)  
يعنى أن السبب فى استئذانهم رضاهم بالدناءة وخذلان الله تعالى إياهم . فإن قلت : فهل يجوز أن

يكون قوله (قلت لا أجد) استثناءً مثله، كأنه قيل : إذا ما أتوك لتحملهم تولوا ، فقيل : ما لهم تولوا باكين ؟ فقيل : قلت لا أجد ما أحلهم عليه . إلا أنه وسط بين الشرط والجزاء كالاعتراض (قلت) نعم ويحسن (إن تؤمن لكم) علة للنهي عن الاعتذار ؛ لأن غرض المعتذر أن يصدق فيما يعتذر به ، فإذا علم أنه مكذب وجب عليه الإخلال (١) وقوله (قد نبأنا الله من أخباركم) علة لا تنفاه تصديقهم لأن الله عز وجل إذا أوحى إلى رسوله الإعلام بأخبارهم وما في ضمائرهم من الشر والفساد ، لم يستقم مع ذلك تصديقهم في معاذيرهم (وسيرى الله عملكم) أتييئون أم تثبتون على كفركم (ثم تردون) إليه وهو عالم كل غيب وشهادة وسر وعلانية ، فيجازيكم على حسب ذلك .

سَمِعْتُمْ لَكُمْ إِذَا أُنْقَلِبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ  
إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَا وَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥)

(لتعرضوا عنهم) فلا توبخوهم ولا تعاتبوهم (فأعرضوا عنهم) فأعطوهم طلبتهم (لهم رجس) تعليل لترك معابرتهم ، يعني أن المعاتبة لا تنفع فيهم ولا تصلحهم ، إنما يعاتب الأديب ذو البشارة . والمؤمن يوجب على زلة تفرط منه ، ليظهره التوبيخ بالحل على التوبة والاستغفار . وأما هؤلاء فأرجس لا سبيل إلى تطهيرهم (وما واهم جهنم) يعني وكفتهم النار عتاباً وتوبيخاً ، فلا تسكفوا عتابهم .

يَخْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ

الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)

(لترضوا عنهم) أي غرضهم في الحلف بالله طلب رضاهم لينفعهم ذلك في دنياهم (فإن رضوا عنهم) فإن رضاكم وحدكم لا ينفعهم إذا كان الله ساطعاً عليهم وكانوا عرضة لعاجل عقوبته وآجلها . وقيل إنما قيل ذلك لئلا يتوهم متوهم أن رضا المؤمنين يقتضى رضا الله عنهم . قيل : هم جد بن قيس ومعتب بن قشير وأصحابهما ، وكانوا ثمانين رجلاً منافقين فقال النبي صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة ، لا تجالسوهم ولا تكلموهم . وقيل : جاء عبد الله ابن أبي يخلف أن لا يتخلف عنه أبداً .

(١) قوله «وجب عليه الإخلال» أي الترك . يقال : أحل الرجل يتركه ، إذا تركه . (ع)

الْأَعْرَابُ أَشَدَّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ

وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٨﴾

﴿الاعراب﴾ أهل البدو ﴿أشد كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ من أهل الحضر لجفائهم وقسوتهم ونوحشهم ، ونشهم في بعد من مشاهدة العلماء ومعرفة الكتاب والسنة ﴿وأجدر أن لا يعلموا﴾ وأحق بجهل حدود الدين وما أنزل الله من الشرائع والأحكام . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> «إن الجفاء والقسوة في الفدادين» <sup>(٢)</sup> ﴿والله عليم﴾ يعلم حال كل أحد من أهل الوبر والمدر ﴿حكيم﴾ فيما يصيب به مسيئهم ومحسنهم ومخطئهم ومصيبهم من عقابه ونوابه .

وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُمْ سَيِّدٌ خَلَعَهُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩٩﴾

﴿مغرمًا﴾ غرامة وخسرانًا . والغرامة : ما ينفقه الرجل وليس يلزمه ، لأنه لا ينفق إلا تقية من المسلمين ورياء ، لا لوجه الله عز وجل وإبتغاء الثوبة عنده ﴿ويتربص بكم الدوائر﴾ دوائر الزمان : دوله وعقبه <sup>(٣)</sup> لتذهب غلبتكم عليه ليتخلص من إعطاء الصدقة ﴿عليهم دائرة السوء﴾ دعاء معترض ، دعى عليهم بنحو ما دعوا به ، كقوله عز وجل ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم﴾ وقرئ السوء بالضم وهو العذاب ، كما قيل له سيئة . والسوء بالفتح ، وهو ذم للدائرة ، كقولك : رجل سوء ، في نقیض قولك : رجل صدق ، لأن من دارت عليه ذامها ﴿والله سمیع﴾ لما يقولون إذا توجهت عليهم الصدقة ﴿عليم﴾ بما يضمرون . وقيل هم أعراب أسد وغطفان وتميم ﴿قربات﴾ مفعول ثان ليتخذ . والمعنى : أن ما ينفقه سبب لحصول القربات

(١) متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري في أثناء حديث فيه وإن الجفاء . وغلط القلوب في الفدادين عند أصول أذئاب الأبل ، كذا البخاري ومسلم وإن القسوة وغلط القلوب .

(٢) قوله «والقسوة في الفدادين» الفدادين : هم الذين تعلوا أصواتهم في حروثهم ومواسمهم . ورجل فداد : شديد القديد . وهو الصوت : أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قال محمود : «دوائر الزمان : دوله ، وعقبه لتذهب غلبتكم عليه ... الخ» قال أحمد : وفي آية براءة مزيد على مناسبة الدعاء لحال المدعو عليهم ولقولهم ، وذلك أن الذي نسب إليهم تربص الدوائر مطلقاً والذي دعى عليهم به دائرة السوء على التقييد بأسوأ الدوائر لأعلى الاخلاق ، والله الموفق .

عند الله ﴿وصلوات الرسول﴾ لأن الرسول كان يدعو للمتصدقين بالخير والبركة ويستغفر لهم ، كقوله اللهم صل على آل أبي أوفى <sup>(١)</sup> ، وقال تعالى (وصل عليهم) فلما كان ما ينفق سبباً لذلك قيل : يتخذ ما ينفق قربات وصلوات ﴿ألا إنها﴾ شهادة من الله للمتصدق بصحة ما اعتقد ، من كون نفقته قربات وصلوات وتصديق لرجائه على طريق الاستئناف . مع حرق التنبيه والتحقيق المؤذنين بثبات الأمر وتمسكه ، وكذلك ﴿سيدخلهم﴾ وما في السنين من تحقيق الوعد ، وما أدل هذا الكلام على رضا الله تعالى عن المتصدقين ، وأن الصدقة منه يمكن <sup>(٢)</sup> إذا خلصت النية من صاحبها . وقرئ (قربة) بضم الراء . وقيل : هم عبدالله وذو البجادين ورهطه .

وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿السابقون الأولون من المهاجرين﴾ هم الذين صلوا إلى القبلتين . وقيل الذين شهدوا بدرأ . وعن الشعبي : من بايع بالحدبية وهي بيعة الرضوان ما بين المجرتين ﴿و﴾ من ﴿الأنصار﴾ أهل بيعة العقبة الأولى ، وكانوا سبعة نفر . وأهل العقبة الثانية وكانوا سبعين ، والذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة مصعب بن عمير فعلمهم القرآن . وقرأ عمر رضي الله عنه : والآنصار بالرفع عطفاً على السابقون <sup>(٣)</sup> . وعن عمر أنه كان يرى أن قوله (والذين اتبعوهم بإحسان) بغير واو صفة للأنصار ، حتى قال له زيد : إنه بالواو ، فقال : اتئوني بأبي ، فقال تصديق ذلك في أول الجمعة (وآخرين منهم) وأوسط الخشر (والذين جاؤا من بعدهم) وآخر الأنفال (والذين آمنوا من بعد) . وروى أنه سمع رجلاً يقرؤه بالواو ، فقال : من أقرأك ؟ قال : أبي ، فدعاه فقال : أقرأني رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإنك لتبيع القرظ بالبيع ، قال : صدقت ، وإن شئت قلت : شهدنا وغبتم ، ونصرنا وأخذتم ، وآوينا وطردهم <sup>(٤)</sup> . ومن ثم قال عمر : لقد كنت أرانا

(١) متفق عليه من حديث عبدالله بن أبي أوفى قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أتاه قوم بصدقتهم قال : اللهم صل عليه فأتى أبو أوفى بصدقة . فقال : اللهم صل على آل أبي أوفى . »

(٢) قال محمود : وما أدل هذا الكلام على أن الصدقة من الله بمكان ... الخ . قال أحد : وللقدرية كما علمت مذهب في أن الفاسق ليس بمؤمن ولا كافر ، وأنه مخلد في النار وإن كان موحداً ، وغرض الزعشري أن يجعل الفسق الذي يسم به المنافق هو الذي يوسم به الموحداً ، حتى يكون استحقاقهما للخلود واحداً . فاحذره ، والله أعلم .

(٣) لم أره هكذا .

(٤) لم أره هكذا ، وفي الطبري من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب قال «مرعرب بن الخطاب برجل يقرأ (والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار) فأخذ عمر يده . وقال : من أقرأك هذا ؟ قال : أبي بن كعب فقال :

رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا ، وارتفع السابقون بالابتداء ، وخبره ﴿رضى الله عنهم﴾ ومعناه : رضى عنهم لأعمالهم ﴿ورضوا عنه﴾ لما أفاض عليهم من نعمته الدينية والدنيوية وفى مصاحف أهل مكة : تجرى من تحتها ، وهى قراءة ابن كثير ، وفى سائر المصاحف : تحتها ، بغير من .

وَمِنْ حَوْلِكُمُ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا عَلَى النَّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾  
﴿ومن حولكم﴾ يعنى حول بلدكم وهى المدينة ﴿منافقون﴾ وهم جهينة وأسلم وأشجع وغفار ، كانوا نازلين حولها ﴿ومن أهل المدينة﴾ عطف على خبر المبتدأ الذى هو بمن حولكم ويجوز أن يكون جملة معطوفة على المبتدأ والخبر إذا قدرت : ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق ، على أن ﴿مردوا﴾ صفة موصوف محذوف ، كقوله :

\* أَنَا أَبْنُ جَلَا ... .. \* (١)

وعلى الوجه الأول لا يخلو من أن يكون كلاما مبتدأ أو صفة لمنافقون ، فصل بينها وبينه بمعطوف على خبره ﴿مردوا على النفاق﴾ تمهروا فيه ، من مرن فلان عمله ، ومرد عليه : إذا درب به وضرى ، حتى لأن عليه ومهر فيه ، ودل على مراتبهم عليه ومهارتهم فيه بقوله ﴿لا تعلمهم﴾

== لا تفارقنى حتى أذهب بك إليه . فلما جاء عمر : قال : أنت أقرأت هذا هذه الآية ؟ قال : نعم ، وسمعتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : لقد كنت أرى أنا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا . فقال أبى : تصديق ذلك فى أول سورة الجمعة وفى سورة الحشر وفى الأنفال ، فذكرها . وروى ابن مردويه من طريق حبيب بن الشهيد عن عمرو ابن عامر عن عمر بن الخطاب - فذكر نحوه وفيه : فقال أبى : لقد أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت تبيع الخطب ، فقال عمر : نعم إذن .

(١) أنا ابن جلا وطلاع الثنايا متى أضح العامة تعرفونى  
وما ذا تبتغى الشعراء متى وقد جاوزت حد الأربعين

لسمج بن وثيل الرياحى ، كان عبدا حبشياً ، فاتهم ببيت مولاة . فقتله . وقبل للشعب العبدى ، ونسب البيت الأول للرجى . وجلا : صفة مخزوف ، أى ابن رجل جلا واتضح أمره بالشجاعة ، فالفعل لازم . وأوجلا غمة الحرب وكشفهما ، فهو متعد ، وحذف المنعوت هنا ضرورة ، لأنه لا يطرده إلا إذا صلح التعت لمباشرة العامل ، أو كان المنعوت بعض اسم مجرور بمن ، أو فى كما مر ، وإضافة وطلاع ، لمسا بعده لفظية ، فلا تقيده تعريفا . وتوسط الواو بين التعت لتوكيد ربطها بالمنعوت . والثنايا : العقبات الصعبة . استعارها لعظام الأمور على سبيل التصريح ، والطلع ترشيح «متى أضح» بيضة الحرب على رأسى وتعرفونى كناية عن نزول الحرب فنبت شجاعته . وروى «تدرى» بدل «تبتغى» وهو اقتفال من البراية ، أى : ماذا تستعلم الشعراء متى ، والحال أنى جاوزت حد الأربعين سنة ، وكسر نون الجمع لغة . ويجوز أنه جر بالكسر على لغة من يمر به كالحين .

أى يخفون عليك مع فطنتك<sup>(١)</sup> وشهامتك وصدق فراستك ، لفرط تنوقهم<sup>(٢)</sup> فى تحامى ما يشكك فى أمرهم ، ثم قال ﴿ نحن نعلمهم ﴾ أى لا يعلمهم إلا الله ، ولا يطلع على سرهم غيره ، لأنهم يبتغون الكفر فى سويداوات قلوبهم إبطانا ، ويرزون لك ظاهرا كظاهر المخلصين من المؤمنين ، لا تشك معه فى إيمانهم ، وذلك أنهم مردوا على النفاق وضروا به ، فلم فيه اليد الطولى ﴿ سنعذبهم مرتين ﴾ قيل : هما القتل وعذاب القبر . وقيل الفضيحة وعذاب القبر . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنهم اختلفوا فى هاتين المراتين ، فقال : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>(٣)</sup> خطيبا يوم الجمعة فقال : « اخرج يا فلان فإنك منافق » ، اخرج يا فلان فإنك منافق<sup>(٤)</sup> ، فأخرج ناسا وفضحهم ، فهذا العذاب الأول ، والثانى عذاب القبر . وعن الحسن : أخذ الزكاة من أموالهم ونهك أبدانهم ﴿ إلى عذاب عظيم ﴾ إلى عذاب النار .

وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

﴿ اعترفوا بذنوبهم ﴾ أى لم يعتذروا من تخلفهم بالمعاذير الكاذبة كغيرهم ، ولكن اعترفوا على أنفسهم بأنهم بئس ما فعلوا متذممين نادمين ، وكانوا ثلاثة . أبو لبابة مروان بن عبد المنذر ، وأوس بن ثعلبة ، ووديع بن حزام<sup>(٥)</sup> . وقيل : كانوا عشرة ، فسبعة منهم أوثقوا أنفسهم : بلغهم ما نزل فى المتخلفين فأيقنوا بالهلاك ، فأوثقوا أنفسهم على سوارى المسجد . فقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل المسجد فصلى ركعتين - وكانت عادته صلى الله عليه وسلم كلما قدم من سفر - فرآهم موثقين ، فسأل عنهم ، فذكر له أنهم أقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يحلهم ، فقال : وأنا أقسم أن لا أحلهم حتى أومر فيهم ، فزلت ،

(١) قال محمود : « معناه أنه مع شهامتك وفطنتك وصدق فراستك يخفون حالهم عليك ... الخ » قال أحمد : وكان قوله تعالى (مردوا على النفاق) توطئة لتقرير خفاء حالهم عنه عليه الصلاة والسلام لما لم من الخبرة فى النفاق والضاورة به والله أعلم .

(٢) قوله « لفرط تنوقهم » أى تأنقهم . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله « فقال قام رسول الله صلى الله عليه وسلم » ظاهره أن القائل هو ابن عباس . (ع)

(٤) أخرجه الطبرى وابن مردويه والطبرانى فى الأوسط من طريق السدى عن أبى مالك عن ابن عباس بهذا إلى قوله « وفضحهم » وزاد ولم يكن عمر بن الخطاب شهد تلك الجمعة لحاجة كانت له فلقبهم عمر فاختبأ منهم ، ثم دخل المسجد فقال له رجل : يا عمر أبشر ، فقد فضح الله المنافقين اليوم . فهذا العذاب الأول والعذاب الثانى عذاب القبر . (٥) قوله دروى أن الذين اعترفوا بذنوبهم كانوا ثلاثة : أبو لبابة مروان بن عبد المنذر وأوس بن ثعلبة ، ووديع بن حزام ، لم أجده .



فأطلقهم وعذرهم ، فقالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فتصدق بها وطهرنا ، فقال : ما أمرت أن أخذ من أموالكم شيئاً ، فنزلت : خذ من أموالهم <sup>(١)</sup> ﴿ عملاً صالحاً ﴾ خروجا إلى الجهاد ﴿ وآخر شيئاً ﴾ تخلفا عنه . عن الحسن وعن السكبي : التوبة والإثم . فإن قلت : قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً فما المخلوط به <sup>(٢)</sup> ؟ قلت : كل واحد منهما مخلوط ومخلوط به : لأن المعنى خلط كل واحد منهما بالآخر ، كقولك : خلطت الماء واللبن ، تريد : خلطت كل واحد منهما بصاحبه . وفيه ما ليس في قولك : خلطت الماء باللبن ؛ لأنك جمعت الماء مخلوطاً واللبن مخلوطاً به ، وإذا قلته بالواو جعلت الماء واللبن مخلوطين ومخلوطاً بهما ، كأنك قلت : خلطت الماء باللبن واللبن بالماء ، ويجوز أن يكون من قولهم : بعث الشاة شاة ودرهما ، بمعنى شاة بدرهم . فإن قلت : كيف قيل ﴿ أن يتوب عليهم ﴾ وما ذكرت توبتهم ؟ قلت : إذا ذكر اعترافهم بذنوبهم ، وهو دليل على التوبة ، فقد ذكرت توبتهم .

خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ

سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾

﴿ تطهرهم ﴾ صفة صدقة . وقرئ : تطهرهم . من أطهره بمعنى طهره . وتطهرهم ، بالجرم جواباً للأمر . ولم يقرأ ﴿ وتزكهم ﴾ إلا بإثبات الياء . والتساء في ﴿ تطهرهم ﴾ للخطاب أو لغيبة المؤنث . والتزكية : مبالغة في التطهير وزيادة فيه . أو بمعنى الإنماء والبركة في المال ﴿ وصل عليهم ﴾ واعطف عليهم بالنداء لهم وترحم ، والسنة أن يدعو المصدق لصاحب الصدقة <sup>(٣)</sup> إذا أخذها . وعن الشافعي رحمه الله : أحب أن يقول الوالي عند أخذ الصدقة : أجزك الله فيما أعطيت ، وجعله طهوراً ، وبارك لك فيما أبقيت . وقرئ : إن صلاتك ، على التوحيد <sup>(٤)</sup> ﴿ سكن لهم ﴾

(١) أخرجه البيهقي في الدلائل وابن مردويه من طريق علي ابن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية (وآخرون اعترفوا بذنوبهم - الآية) كانوا عشرة رهط تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك فلما حضر رجوع النبي صلى الله عليه وسلم أوثق سبعة منهم أنفسهم بسواري المسجد - الحديث .

(٢) قال محمود : « إن قلت قد جعل كل واحد منهما مخلوطاً فما المخلوط به ... الخ » قال أحد : والتحقيق في هذا أنك إذا قلت خلطت الماء باللبن فالمرح به في هذا الكلام أن الماء المخلوط واللبن مخلوط به ، والمذلول عليه لزوماً لا تعريحاً كون الماء مخلوطاً به واللبن مخلوطاً ، وإذا قلت : خلطت الماء واللبن ، فالمرح به جعل كل واحد منهما مخلوطاً . وأما ما خلط به كل واحد منهما فغير مصرح به ، بل من اللازم أن كل واحد منهما مخلوط به . ويحتمل أن يكون قرينة أو غيره . فقول الزمخشري : « إن قولك خلطت الماء واللبن يفيد ما يفيد مع الباء وزيادة ، ليس كذلك ، فالظاهر في الآية - والله أعلم - أن المذلول عن الباء إنما كان لتضمين الخلط معنى العمل ، كأنه قيل : عملوا عملاً صالحاً وآخر شيئاً ، ثم انضاف إلى العمل معنى الخلط فعبّر عنهما معاً به ، والله أعلم .

(٣) قوله « يدعو المصدق لصاحب الصدقة » المصدق اسم فاعل : الذي يأخذ الصدقات ، أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قوله « وقرئ : إن صلاتك هي التوحيد » بدل قراءة صلاتك على الجمع . (ع)

يسكنون إليه وتطمئن قلوبهم بأن الله قد تاب عليهم ﴿والله سميع﴾ يسمع اعترافهم بذنوبهم ودعائهم ﴿عليم﴾ بما في ضمائرهم ، والغم من الندم لما فرط منهم .

أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ

هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

قرئ ﴿ألم يعلموا﴾ بالياء والتاء ، وفيه وجهان ، أحدهما : أن يراد المتوب عليهم ، يعني : ألم يعلموا قبل أن يتاب عليهم وتقبل صدقاتهم ﴿أن الله هو يقبل التوبة﴾ إذا صحت ، ويقبل الصدقات إذا صدرت عن خلوص النية ، وهو للتخصيص والتأكيد ، وأن الله تعالى من شأنه قبول توبة التائبين . وقيل : معنى التخصيص في هو : أن ذلك ليس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما الله سبحانه هو الذي يقبل التوبة ويردها ، فاقصدوه بها ووجهوها إليه .

وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿وقل﴾ لهؤلاء التائبين ﴿اعملوا﴾ فإن عملكم لا يخفى - خير أكان أو شراً - على الله وعباده كما رأيتم وتبين لكم . والثاني : أن يراد غير التائبين ترغيباً لهم في التوبة ، فقد روى أنهم لما تيب عليهم قال الذين لم يتوبوا : هؤلاء الذين تابوا كانوا بالأمس معنا لا يكلمون ولا يجالسون فإلهم فزلت . فإن قلت : فما معنى قوله ﴿ويأخذ الصدقات﴾ قلت : هو مجاز عن قبوله لها ، وعن ابن مسعود رضى الله عنه : إن الصدقة تقع في يد الله تعالى قبل أن تقع في يد السائل <sup>(١)</sup> والمعنى : أنه يتقبلها ويضاعف عليها . وقوله ﴿فسيرى الله﴾ وعيد لهم وتحذير من عاقبة الإصرار والذهول عن التوبة .

وَأَخْرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

قرئ مرجون ومرجون من أرجيته . وأرجأته : إذا أخرته . ومنه المرجئة ، يعني : وآخرون من المتخلفين موقوف أمرهم ﴿إما يعذبهم﴾ إن بقوا على الإصرار ولم يتوبوا ﴿وإما﴾

(١) أخرجه عبد الرزاق والطبراني من طريق عبد الله بن قتادة المحاربي عنه . وفي الصحيحين عن أبي هريرة مرفوعاً « ما تصدق أحد بصدقة من طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن يمينه ... الحديث » .

يتوب عليهم ﴿١٠٧﴾ إن تابوا ، وهم ثلاثة : كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه أن لا يسلموا عليهم ولا يكلموهم ، ولم يفعلوا كما فعل أبو لبابة وأصحابه من شدة أنفسهم على السوارى وإظهار الجزع والغم ، فلما علموا أن أحدا لا ينظر إليهم فوضوا أمرهم إلى الله تعالى ، وأخلصوا نياتهم ، ونصحت توبتهم ، فرحمهم الله <sup>(١)</sup> ﴿١٠٨﴾ والله عليم حكيم ﴿١٠٩﴾ وفي قراءة عبد الله : غفور رحيم . وإما للعباد : أى خافوا عليهم <sup>(٢)</sup> العذاب ، وارجوا لهم الرحمة .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ ﴿١٠٨﴾

في مصاحف أهل المدينة والشام : الذين اتخذوا بغير واو ، لأنها قصة على حيا لها . وفي سائرهما بالواو على عطف قصة مسجد الضرار الذى أحدثه المنافقون على سائر قصصهم . روى أن بنى عمرو بن عوف لما بنوا مسجد قباء بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم ، فأتاهم فضلى فيه فحسدتهم إخوانهم بنو غنم بن عوف <sup>(٣)</sup> وقالوا : نبئى مسجدا ونرسل إلى

(١) لم أجده بهذا السياق . والقصة في الصحيحين من حديث كعب بن مالك : وهو حديث ابن عباس الذى قبله باختصار .

(٢) قوله « وإما للعباد أى خافوا عليهم » عبارة النسي : وإما للشك وهو راجع إلى العباد . (ع)

(٣) لم أجده بهذا السياق إلا في الثعلبي بلا إسناد ، وليس صدره بصحيح فإن مسجد قباء كان قد أسس والنبي صلى الله عليه وسلم بقباء أول ما هاجر ، وبنى مسجد الضرار وكان في غزوة تبوك فيبينهما تسع سنين لكن روى ابن مردويه من طريق محمد بن سعد العوفي عن أبيه عن عمه عن أبيه عن جده عطية بن سعد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « لما بنى رسول الله صلى الله عليه وسلم مسجد قباء خرج رجال منهم عرج جده عبد الله بن حنيف ، وودعة ابن حزام ، ومشجع بن حارثة ، فبنوا مسجدا - الحديث ، من قوله « فبنوا مسجدا إلى مسجد قباء إلى آخره وذكره ابن إسحاق في المغازى والطبرى من طريقه عن الزهرى وبزيد بن رومان وغيرهما قالوا : أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل بذي أوان بينه وبين المدينة ساعة من نهار . وكان أصحاب مسجد الضرار قد أتوه وهو متجهز لغزوة تبوك - الحديث ، ولم يذكر في الذين أرسلوا إلى هدمه سوى مالك بن النخشم ، ومعن بن عدى لم يذكر وحشيا قاتل حزة وعامر بن السكن ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق قال : ذكر الزهرى عن ابن أكيمة اللبث عن ابن أخى رهم أنه سمع أبا رهم الشفارى فذكر نحوه . رأما كونهم بنوه بسبب أبى عامر ، فرواه ابن مردويه من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما .

رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فيه ، ويصلى فيه أبو عامر الراهب إذا قدم من الشام .  
ليثبت لهم الفضل والزيادة على إخوانهم ، وهو الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاسق ،  
وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد : لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم ،  
فلم يزل يقاتله إلى يوم حنين ، فلما انهزمت هوازن خرج هارياً إلى الشام ، وأرسل إلى المنافقين .  
أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، فإنى ذاهب إلى قيصر وآت بجنود ومخرج محمدأ  
وأصحابه من المدينة ، فبنوا مسجداً بجنب مسجد قباء ، وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : بنينا  
مسجداً لذى العلة والحاجة واليلة المطيرة والشاتية ، ونحن نحب أن نصلى لنا فيه وتدعو لنا  
بالبركة ، فقال صلى الله عليه وسلم : إني على جناح سفر وحال شغل . وإذا قدمنا إن شاء الله  
صلينا فيه ، فلما قفل من غزوة تبوك سأله إتيان المسجد ، فزلت عليه ، فدعا بمالك بن الدخشم  
ومع بن عدى وعامر بن السكن ووحشى قاتل حمزة ، فقال لهم : انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم  
أهله فاهدموه واحرقوه ، ففعلوا ، وأمر أن يتخذ مكانه كناسة تلقى فيها الجيف والقمامة ،  
ومات أبو عامر بالشام بقنسرين ﴿ ضراراً ﴾ مضارة لإخوانهم أصحاب مسجد قباء ومعازة  
﴿ وكفراً ﴾ وتقوية للنفاق ﴿ وتفريقاً بين المؤمنين ﴾ لأنهم كانوا يصلون مجتمعين فى مسجد قباء  
فيغتص (١) بهم ، فأرادوا أن يتفرقوا عنه وتختلف كلمتهم ﴿ وإرصاداً ﴾ وإعداداً ﴿ لـ ﴾ أجل  
﴿ من حارب الله ورسوله ﴾ وهو الراهب : أعدوه له ليصلى فيه ويظهر على رسول الله  
صلى الله عليه وسلم . وقيل : كل مسجد بنى مباهاة أو رياء وسمعة أو لغرض سوى ابتغاء  
وجه الله أو مال غير طيب ، فهو لاحق بمسجد الضرار . وعن شقيق أنه لم يدرك الصلاة  
فى مسجد بنى عامر ؛ فقيل له : مسجد بنى فلان لم يصلوا فيه بعد ، فقال : لا أحب أن أصلى فيه ،  
فإنه بنى على ضرار ، وكل مسجد بنى على ضرار أو رياء أو سمعة فإن أصله ينتهى إلى المسجد  
الذى بنى ضراراً . وعن عطاء : لما فتح الله تعالى الأمصار على يد عمر رضى الله عنه أمر  
المسلمين أن يبنوا المساجد وأن لا يتخذوا فى مدينة مسجدين يضار أحدهما صاحبه . فإن  
قلت : ﴿ والذين اتخذوا ﴾ ما حله من الإعراب ؟ قلت : محله النصب على الاختصاص . كقوله  
(المقيم الصلاة) وقيل : هو مبتدأ خبره مخدوف ، معناه : وفيمن وصفنا الذين اتخذوا كقوله  
(والسارق والسارقة) ، فإن قلت : بهم يتصل قوله ﴿ من قبل ﴾ ؟ قلت : بالتخذوا ، أى اتخذوا  
مسجداً من قبل أن ينافق هؤلاء بالتخلف ﴿ إن أردنا ﴾ ما أردنا ببناء هذا المسجد ﴿ إلا ﴾  
الحصلة ﴿ الحسنى ﴾ أو الإرادة الحسنى ، وهى الصلاة . وذكر الله والتوسعة على المصلين

(لمسجد أسس على التقوى) قيل هو مسجد قباء أسسه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلى فيه أيام مقامه بقباء ، وهي يوم الاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس ، وخرج يوم الجمعة ، وهو أولى ، لأن الموازنة بين مسجدي قباء وأوقع . وقيل : هو مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة : وعن أبي سعيد الخدري : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المسجد الذي أسس على التقوى ، فأخذ حصباء فضرب بها الأرض وقال : هو مسجدكم هذا مسجد (١) المدينة (من أول يوم) من أول يوم من أيام وجوده (فيه رجال يحبون أن يتطهروا) قيل لما نزلت مشى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المهاجرون حتى وقف على باب مسجد قباء ، فإذا الأنصار جلوس فقال : أؤمنون أتم ؟ فسكت القوم . ثم أعادها : فقال عمر : يا رسول الله إنهم لمؤمنون وأنا معهم . فقال صلى الله عليه وسلم : أترضون بالقضاء ؟ قالوا : نعم . قال : أتصرون على البلاء ؟ قالوا : نعم . قال : أتشكرون في الرخاء ؟ قالوا : نعم . قال : صلى الله عليه وسلم : مؤمنون ورب الكعبة . فجلس ثم قال : يا معشر الأنصار ، إن الله عز وجل قد أتى عليكم فإلى الذي تصنعون عند الوضوء وعند الغائط ، فقالوا يا رسول الله ، نتبع الغائط الأحجار الثلاثة ، ثم نتبع الأحجار الماء . فتلا النبي صلى الله عليه وسلم (رجال يحبون أن يتطهروا) (٢) وقرئ : أن يطهروا ، بالإدغام . وقيل : هو عام في التطهر من النجاسات كلها . وقيل : كانوا لا ينامون الليل على الجنابة ، ويتبعون الماء أثر البول . وعن الحسن : هو التطهر من الذنوب بالتوبة . وقيل : يحبون أن يتطهروا بالحلمى المكفرة لذنوبهم ، فغفوا عن آخرهم . فإن قلت : ما معنى المحبتين ؟ قلت : محبتهم للتطهر أنهم يؤثرونه ويحرصون عليه حرص المحب للشيء المشتهى له على إيثاره . ومحبة الله تعالى إياهم : أنه يرضى عنهم ويحسن إليهم ، كما يفعل المحب بمحبوبه .

أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩)

قرئ أسس بنيانه ، وأسس بنيانه ، على البناء للفاعل والمفعول . وأسس بنيانه ، جمع أساس .

(١) رواه مسلم بلفظه .

(٢) لم أجده هكذا : وكأنه ملفق من حديثين : ذكر المخرج أولهما ، الطبراني في الأوسط قال : حدثنا الميمم ابن خلف الدوري بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنهما قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمر . ومعه أناس ، فقال : أؤمنون أتم ؟ فسكتوا ، ثلاث مرات ، فقال عمر رضى الله عنه يا رسول الله ، تؤمن بما أتيتنا به ونحمد الله في الرخاء ، ونصبر في البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال مؤمنون ورب الكعبة . انتهى ، وهذا فيه من المخالفة بين السياقين مالا يخفى ، وأما الثاني ، فروى ابن مردويه عن طريق ابن عباس نحوه

على الإضافة، وأساس بنيانه، بالفتح والكسر: جمع أس؛ وأساس بنيانه على أفعال، جمع أس أيضاً. وأس بنيانه، والمعنى: أفن أسس بنيان دينه<sup>(١)</sup> على قاعدة قوية محكمة وهي الحق الذي هو تقوى الله ورضوانه ﴿خير أم من﴾ أسسه على قاعدة هي أضعف القواعد وأرأها وأقلها بقاء، وهو الباطل والنفاق الذي مثله مثل ﴿شفا جرف هار﴾ في قلة الثبات والاستمسك، وضع شفا الجرف في مقابلة التقوى؛ لأنه جعل مجازاً عما ينافي التقوى. فإن قلت: فما معنى قوله ﴿فانهار به في نار جهنم﴾؟ قلت: لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل قيل: فانهار به في نار جهنم، على معنى: فطاح به الباطل في نار جهنم، إلا أنه رشح المجاز فجىء بلفظ الانهيار الذي هو للجرف، وليصور أن المبطل كأنه أسس بنياناً على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهوى في قعرها. والشفا: الحرف والشفير. وجرف الوادى: جانبه الذي يتحضر أصله بالماء وتجرفه السيول فيبقى واهياً. والهار: الهائر وهو المتصدع الذي أشنى على التهدم والسقوط. ووزنه فعل، قصر عن فاعل، تكلف من خالف. ونظيره: شاك وصات، في شائك وصائت. وألفه ليست بألف فاعل، إنما هي عينه. وأصله هور وشوك وصوت. ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ولا أدل على حقيقة الباطل وكنه أمره. وقرئ: جرف. بسكون الراء. فإن قلت: فما وجه ما روى سيبويه عن عيسى بن عمر: على تقوى من الله، بالتثنية؟ قلت: قد جعل الألف للإلحاق لا للتأنيث، كترى فيمن نون، ألحقها بجعفر. وفي مصحف أبي: فانهارت به قواعده. وقيل: حفرت بقعة من مسجد الضرار فرؤى الدخان يخرج منه. وروى أن مجمع بن حارثة كان إمامهم في مسجد الضرار، فكلّم بنو عمرو بن عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته أن يأذن لجمع فيؤتمهم في مسجدهم. فقال: لا، ولا نعمة عين، أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال: يأمر المؤمنين، لا تعجل على، فوالله لقد صليت بهم والله يعلم أنى لا أعلم ما أضمروا فيه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، كنت غلاماً قارئاً للقرآن وكانوا شيوخاً لا يقرؤون من القرآن شيئاً. فعدّره وصدّقه وأمره بالصلاة بقومه.

لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ

عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

﴿ريبية﴾ شكافى الدين ونفاقا، وكان القوم منافقين. وإنما حملهم على بناء ذلك المسجد كفرهم ونفاقهم كما قال عز وجل ﴿ضراراً وكفراً﴾ فلما هدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ازدادوا

(١) قوله «فن أسس بنيان دينه» هذا كما في الحديث «بنى الاسلام على خمس» . (ع)

لما غاظمهم من ذلك وعظم عليهم - تصميماً على النفاق ومقتاً للإسلام، فعنى قوله ﴿لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم﴾ لا يزال هدمه سبب شك و نفاق زائد على شكهم ونفاقهم لا يزول وسمه عن قلوبهم ولا يضمحل أثره ﴿إلا أن تقطع قلوبهم﴾ قطعاً وتفرق أجزاء، فحينئذ يسألون عنه. وأما ما دامت سالمة مجتمعة فالريبة باقية فيها متمكنة، فيجوز أن يكون ذكر التقطيع (١) تصويراً لحال زوال الريبة عنها. ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم أو في القبور أو في النار. وقرئ: يقطع، بالياء. وتقطع، بالتخفيف. وقطع، بفتح التاء بمعنى تقطع. وتقطع قلوبهم، على أن الخطاب للرسول أى إلا أن تقطع أنت قلوبهم بقتلهم. وقرأ الحسن: إلى أن. وفي قراءة عبد الله: ولو قطعت قلوبهم. وعن طلحة: ولو قطعت قلوبهم على خطاب الرسول أو كل مخاطب. وقيل: معناه إلا أن يتوبوا توبة تقطع بها قلوبهم ندماً وأسفاً على تفریطهم. **إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ**

### الْقَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)

مثل الله إنابتهم بالجنة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشورى (٢). وروى: تاجرهم فأغلى لهم الثمن. وعن عمر رضى الله عنه فجعل لهم الصفتين جميعاً. وعن الحسن أنفساً هو خلقها وأموالاً هو رزقها. وروى أن الأنصار حين بايعوه على العقبة قال عبد الله بن رواحة: اشترط لربك ولنفسك ما شئت (٣). قال: اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، واشترط لنفسى أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم. قال: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: لكم الجنة. قالوا: ربح البيع، لا نقيل ولا نستقيل. ومز برسول الله صلى الله عليه وسلم أعرابى وهو يقرؤها فقال: كلام من؟ قال كلام الله. قال: يبيع والله مريح لا نقيله ولا نستقبله، ونخرج إلى الغزو فاستشهد (٤) ﴿يقاتلون﴾ فيه معنى الأمر، كقوله (تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم)

(١) قوله «فيجوز أن يكون ذكر التقطيع» على قراءة (تقطع) بالتشديد، مبنيًا للفعول. (ع)

(٢) قوله «في سبيله بالشورى» كالجذوى. في المجاح والوشاح هي المثل. والظن أنها هنا اسم للاشتراء. (ع)

(٣) أخرجه الطبري من طريق أبي معشر عن محمد بن كعب القرظي وغيره، قال: لما بايعت الأنصار ليلة

العقبة - فذكره

(٤) ذكره الثعلبي هكذا بلا سند عن البصري مرسلًا لكن سنده إلى الحسن البصري أول كتابه. قلت: أخرجه

ابن أبي حاتم وابن مردويه من طريق أبي شيبة عن عطاء الخراساني عن جابر «نزلت هذه الآية على رسول الله»

وقرى : فيقتلون ويقتلون على بناء الأول للفاعل والثاني للمفعول ، وعلى العكس ﴿ وعدا ﴾ مصدر مؤكد . أخبر بأن هذا الوعد الذى وعده للمجاهدين فى سبيله وعد ثابت قد أثبتته ﴿ فى التوراة والإنجيل ﴾ كما أثبتته فى القرآن ، ثم قال ﴿ ومن أوفى بعهده من الله ﴾ لأن إخلاف الميعاد قبيح لا يقدم عليه الكرام من الخلق مع جوازه عليهم لحاجتهم ، فكيف بالغنى الذى لا يجوز عليه القبيح قط ، ولا ترى ترغيباً فى الجهاد أحسن منه وأبلغ .

التَّائِبُونَ الْعَمِيدُونَ الْحَمِيدُونَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُحْسِنُونَ الْآمِنُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾

﴿ التائبون ﴾ رفع على المدح . أى : هم التائبون يعنى المؤمنين المذكورين . ويدل عليه قراءة عبد الله وأبى رضى الله عنهما : التائبين ، بالياء إلى : والحافظين ، نصباً على المدح . ويجوز أن يكون جرأ صفة للمؤمنين . ويجوز الزجاج أن يكون مبتدأ خبره محذوف ، أى : التائبون العابدون من أهل الجنة أيضاً وإن لم يجاهدوا ، كقوله ( وكلا وعد الله الحسنى ) وقيل : هو رفع على البدل من الضمير فى يقاتلون . ويجوز أن يكون مبتدأ وخبره العابدون ، وما بعده خبر بعد خبر ، أى : التائبون من الكفر على الحقيقة الجامعون لهذه الخصال . وعن الحسن : هم الذين تابوا من الشرك وتبرؤا من النفاق . و ﴿ العابدون ﴾ الذين عبدوا الله وحده وأخلصوا له العبادة وحرصوا عليها . و ﴿ السائحون ﴾ الصائمون شهوا بدوى السياحة فى الأرض فى امتناعهم من شهواتهم . وقيل : هم طلبة العلم يسيحون فى الأرض يطلبونه فى مظانه .

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى

قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَفْجِسُ الْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾

قيل قال صلى الله عليه وسلم لعنه أبى طالب : أنت أعظم الناس على حقاً ، وأحسنهم عندى

— صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد (إن الله اشترى) فكبر الناس فى المسجد . فأقبل رجل من الأنصار . فقال : أنزلت هذه الآية ؟ فقال : نعم . فقال بيع راجح . لا تقبل ولا تستقبل . وأخرجه عبد بن حيد : حدثنا إبراهيم هو ابن عبد الحكم بن أبان عن أبيه عن عكرمة لما نزلت هذه الآية (إن الله اشترى ...) قال رجل من الأنصار يا لها بيعة ، ما أروعها . والله لا تقبل ولا تستقبل . وأخرجه الطبرى من طريق محمد بن كعب وغيره قالوا : قال عبد الله ابن رواحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم « اشترط لربك ولنفسك ما شئت قال : اشترط لربى أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً . واشترط لنفسى أن تمنعوا ما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال الجنة قالوا : ربح البيع ، لا تقبل ولا تستقبل . »



يداً ، فقل كلمة تجب لك بها شفاعتي ، فأبى ، فقال : لا أزال أستغفر لك ما لم أنه عنه <sup>(١)</sup> ، فنزلت .  
وقيل : لما افتتح مكة سأل أى أبويه أحدث به عهداً ؟ فقيل : أمك آمنه ، فزار قبرها بالأبواء ،  
ثم قام مستعبراً فقال : إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي ، واستأذنته في الاستغفار لها  
فلم يأذن لي ، فنزلت . وهذا أصح لأن موت أبي طالب كان قبل الهجرة ، وهذا آخر ما نزل  
بالمدينة . وقيل : استغفر لأبيه . وقيل : قال المسلمون ما يمنعنا أن نستغفر لآبائنا وذوي قرابتنا  
وقد استغفر إبراهيم لأبيه ، وهذا محمد يستغفر لعمه ﴿ ما كان للنبي ﴾ ما صح له الاستغفار في حكم  
الله وحكمته ﴿ من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ لأنهم ماتوا على الشرك .

وَمَا كَانَ آسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ

أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾

قرأ طلحة وما استغفر إبراهيم لأبيه ، وعنه : وما يستغفر إبراهيم ، على حكاية الحال الماضية  
﴿ إلا عن موعدة وعدّها إياه ﴾ أى وعدّها إبراهيم أباه ، وهو قوله ( لا تستغفرون لك ) ويدل  
عليه قراءة الحسن وحماد الراوية : وعدّها أباه . فإن قلت كيف خفي على إبراهيم أن الاستغفار  
للكافر غير جائز حتى وعده ؟ قلت : يجوز أن يظن أنه ما دام يرجى منه الإيمان جاز الاستغفار  
له ، على أن امتناع جواز الاستغفار للكافر إنما علم بالوحي ، لأن العقل يجوز أن يغفر  
الله للكافر . ألا ترى إلى قوله عليه السلام لعمه : لا تستغفرون لك ما لم أنه . وعن الحسن قيل لرسول  
الله صلى الله عليه وسلم : إن فلاناً يستغفر لآبائه المشركين ، فقال : ونحن نستغفر لهم فنزلت <sup>(٢)</sup>  
وعن علي رضي الله عنه : رأيت رجلاً يستغفر لأبويه وهما مشركان ، فقلت له ، فقال : أليس  
قد استغفر إبراهيم <sup>(٣)</sup> ؟ فإن قلت : فما معنى قوله ﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ ؟ قلت :  
معناه : فلما تبين له من جهة الوحي أنه لن يؤمن وأنه يموت كافراً وانقطع رجاءه عنه ، قطع استغفاره  
فهو كقوله ( من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ) . ﴿ أوّاه ﴾ فعال ، من أوّه كلال من اللؤلؤ ،  
وهو الذي يكثر التأوّه . ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته وحله كان يتعطف على أبيه الكافر ويستغفر  
له ، مع شكاسته عليه <sup>(٤)</sup> وقوله لأرجنك .

(١) متفق عليه من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه في حديث ، وغفل الحاكم فاستدركه .

(٢) لم أجده .

(٣) أخرجه الترمذى والنسائى والحاكم وأبو يعلى والبرار من طريق أبي الخليل عن علي

قال « سمعت رجلاً يستغفر لأبويه - الحديث » .

(٤) قوله ومع شكاسته عليه ، أى صموبته . وفى الصراح : رجل شكس - بالتسكين - أى صعب الخلق . (ع)

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ  
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ  
وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٦﴾

يعنى ما أمر الله باتقائه واجتنابه كالاستغفار للمشركين وغيره مما نهى عنه وبين أنه محذور  
لا يؤاخذ به عباده الذين هداهم للإسلام ، ولا يسميهم ضاللا ، ولا يخذلهم إلا إذا أقدموا عليه  
بعد بيان حظره عليهم وعليهم أنه واجب الاتقاء والاجتناب . وأما قبل العلم والبيان فلا سبيل  
عليهم ، كما لا يؤاخذون بشرب الخمر ولا ببيع الصاع بالصاعين قبل التحريم . وهذا بيان لعذر  
من خاف المؤاخذة بالاستغفار للمشركين قبل ورود النهى عنه . وفى هذه الآية شديدة ما ينبغى  
أن يغفل عنها : وهى أن المهدى للإسلام إذا أقدم على بعض محظورات الله داخل فى حكم الإضلال ،  
والمراد بما يتقون : ما يجب اتقاؤه للنهى . فأما ما يعلم بالعقل <sup>(١)</sup> كالصدق <sup>(٢)</sup> فى الخبر ، ورد الودعة  
فغير موقوف على التوقيف .

لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ  
الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ قَوْمٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ  
رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١١٧﴾

(تاب الله على النبي) كقوله ( ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ) وقوله ( واستغفر  
لذنبك ) وهو بعث المؤمنين على التوبة ، وأنه ما من مؤمن إلا وهو محتاج إلى التوبة والاستغفار  
حتى النبي والمهاجرون والأنصار ، وإبانة لفضل التوبة ومقدارها عند الله ، وأن صفة التوابين  
الأوابين صفة الأنبياء ، كما وصفهم بالصالحين ليظهر فضيلة الصلاح . وقيل : معناه تاب الله عليه  
من إذنه للمنافقين فى التخلف عنه ، كقوله ( عفا الله عنك ) : ( فى ساعة العسرة ) فى وقتها ،  
والساعة مستعملة فى معنى الزمان المطلق ، كما استعملت الغداة والعشية واليوم :

(١) قال محمود : « فأما ما يدرك حظره بالعقل ... الخ ، قال أحمد : هذا تفريع على قاعدة التحسين والتفويض ،  
وأن العقل حاكم ، والشرع كاشف لما غرض عليه ، تابع لمقتضاه . وهذه القاعدة قد سبق بطلانها فى غير ما موضع ،  
والله الموفق .

(٢) قوله « فأما ما يعلم بالعقل كالصدق » مبنى على مذهب المعتزلة أن الحكم قد يعلم بالعقل وعند أهل السنة  
لاحكم قيل للشرع . (ع)

• غَدَاةً طَفَتْ عَلَمَاءَ بَكْرُ بْنُ وَائِلٍ • (١)

وَكُنَّا حَسِبْنَا كُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةٍ عَشِيَّةً قَارِعًا جَذَامَ وَحْمِيرًا (٢)

إِذَا جَاءَ يَوْمًا وَارِئِي يَتَّبِعُنِي الْغَنَى يَجِدُ جُمُعَ كَفٍّ غَيْرَ مَلَأَى وَلَا صِفْرٍ (٣)

(١) غداة طفت علماء بكر بن وائل وعاجت صدور الحيل شطر تميم المراد بالغداة مطلق الزمن ليناسب المدح . طفت - بالغاء - علت وارتفعت . ويروى بالغين ، والمراد : العلو أيضاً . وعلماء : أصله على الماء ، والمراد : ارتفع قدرهم في المجد والمجد وانخفض غيرهم ، كما يرتفع الشيء على وجه الماء ويرسب الآخر . أو المعنى : أنهم طفوا بالغين على أغنى شيء كالماء ، فالماء طاع على الناس وهم طاعون عليه . وفيه دلالة على الشجاعة . وبكر بن وائل : اسم أبي قبيلة سميت به باسمه . والوائيل : أصله السابق الملتجئ . وعاجت : أى أمات صدور خيلها . وإيقاع الموج على الصدور ، لأن السير والتحول من جهة إلى أخرى يظهران بها . وشطر : أى جهة قبيلة تميم .

(٢) وَكُنَّا حَسِبْنَا كُلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةٍ عَشِيَّةً قَارِعًا جَذَامَ وَحْمِيرًا  
فلما قرعنا النبع بالنبع بمضه ييمض أبت عيدانه أن تسكرا

لوفر بن الحرث السكلاي من التابعين شهد رقعة صفين وغيرها . ويقال في المثل : ما كل بيضاء شحمة ، ولا كل سوداء نمرة فاهنا تلج له . والمراد بالشحمة : مطلق الزمن لا آخر النهار فقط ، لدلالة المقام على ذلك . والمقارنة : المضاربة بالرماح والسيوف . ويروى : لبلى لا قينا . وجذام : اسم قبيلة سميت به ، وهى من اليمن كانت تنزل جبال حسمى ، يقال : هى أول ما انحسر عنه الطوفان لارتفاعها ، وحير : أبو قبيلة أيضاً سميت باسمه . ويروى : جذاما ، بالتثنية للضرورة . والنبع : شجر تتخذ منه الرماح . يقول : كنا ظننا أنهم ضعفاء نظفر بهم كغيرهم ، فقله « كل بيضاء شحمة » استعارة تمثيلية لذلك . وعشية : نصب بحسبنا ، فلما التقت الرماح بيننا أبت أن تسكروا . وشبهها بما يصح منه الإباء على طريق الكناية . وأبت تخييل ، وبعد ذلك فهو كناية عن قوة القبيلتين وعدم انخداهما . وقيل : إنه يصفهما بالكرم وحسن القرى . فيكون الكلام كما بما فيه من الجاز والكناية ، منقول من هيئة التفاء الصغوف في الحرب إلى هيئة التفاء الضيفان مع المضيف وعدم مجزئه عن قراهم على طريق التخييل ، لكن العشية على حقيقتها . ومع توجهنا له بذلك ، يبعد قوله « حسبنا كل بيضاء شحمة » وهو قول من لم يقف على بقية القصيدة ، فانها مصرحة بأب الغنى عمارتهم إياهم ومكافأتهم لهم .

(٣) إِذَا جَاءَ يَوْمًا وَارِئِي يَتَّبِعُنِي الْغَنَى يَجِدُ جُمُعَ كَفٍّ غَيْرَ مَلَأَى وَلَا صِفْرٍ  
يجد فرسا مشتل العنان وصارما حساما إذا ماهر لم يرض بالهبر  
وأسر خطيبا كأن كموه نوى القصب قد أربى ذراعا على العشر

لحاتم الطائي . والمراد باليوم : مطلق الزمن ، بخلاف النهار فانه خاص بالمحدود الطرفين . وهكذا غالب استعمال العرب ، والمراد بالنقى : التركة ، لأنها سبه . وجمع الكف - بالضم - : الكف المقبوضة ، فهو من إضافة الصفة للوصف . والملاي : الممتلئة . وصفر الرجل - بالكسر - وأصفر فهو مصفر : افتقر . والصفر - بالضم ، وقيل بالكسر - : الخالي . والصارم : السيف القاطع . وحسن الشيء : قطعه بالحسام الشديد القطع . ويطلق على الحديد الحد . والهبر : قطع بضعة كثيرة من اللحم . والسمرة : لون بين البياض والأدمة . والخط : موضع تنسب له الرماح الحديدة . والكعب : ما بين القعدين . والقصب : نوع من الثمر صلب النوى . وربما الشيء وأربى : زاد ، وقد قلب =

والعسرة : حالم في غزوة تبوك كانوا في عسرة من الظهر : يعتقب العسرة على بعير واحد . وفي عسرة من الزاد : تزودوا التمر المدود والشعير المسوس والإهالة الزنخة<sup>(١)</sup> ، وبلغت بهم الشدة أن اقتسم التمرة اثنان ، وربما مصها الجماعة ليشربوا عليها الماء . وفي عسرة من الماء ، حتى نحروا الإبل واعتصروا فروشها . وفي شدة زمان ، من حمارة القيظ ومن الجذب والقحط والضيقة الشديدة ﴿ كاد يزيغ قلوب فريق منهم ﴾ عن الثبات على الإيمان ، أو عن اتباع الرسول في تلك الغزوة والخروج معه . وفي « كاد » ضمير الشأن ، وشبهه سيبويه بقولهم : ليس خلق الله مثله . وقرئ : يزيغ ، بالياء . وفي قراءة عبد الله : من بعد ما زاعت قلوب فريق منهم ، يريد المتخلفين من المؤمنين كأبي لبابة وأمثاله ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ تكرير للتوكيد . ويجوز أن يكون الضمير للفريق : تاب عليهم لكيد وذهابهم .

وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رُحِبَتْ وَصَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنْ اللَّهِ إِلَّا إِلَهُهُ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾

﴿ الثلاثة ﴾ كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية . ومعنى ﴿ خلفوا ﴾ خلفوا عن الغزو . وقيل : عن أبي لبابة وأصحابه حيث تيب عليهم بعدهم . وقرئ ﴿ خلفوا ﴾ أى خلفوا الغازين بالمدينة ، أو فسدوا من الخالفة وخلفو الفم<sup>(٢)</sup> . وقرأ جعفر الصادق رضى الله عنه : خالفوا . وقرأ الأعمش : وعلى الثلاثة المخلفين ﴿ بما رحبت ﴾ برحبها ، أى : مع سعتها ، وهو مثل للحيرة في أمرهم ، كأنهم لا يجدون فيها مكاناً يقرّون فيه قلقاً وجزعا مما هم فيه ﴿ وصاقت عليهم أنفسهم ﴾ أى قلوبهم ، لا يسعها أنس ولا سرور ؛ لأنها خرجت من فرط الوحشة والغم

== باؤه مباء ، كما روى : قد أرى . وذراعا : تميز ، أى زاد ذراعا على العشر الأذرع ، فيكون مقداره أحد عشر ذراعا ، والجملة وصف للأسمر . ويحتمل أنها حال من التوى ، أى : زاد التوى حال كونه مقدار ذراع على العشر من التوى ، فذراعا حال في ضمن الحال وإذا أشبهت كعوبه التوى في هذه الحالة ، فكل ذراع منه يزيد على عشرة كعوب . ويجوز أن ذراعا تمييز محول عن الفاعل ، أى : زاد كل ذراع من هذا الأسمر على عشرة كعوب . يقول : إذا طلب وارث تركتي يحد أشياء حقيقة بأن يقبض عليها بالكف حرصا عليها . فقله « جمع كف » كناية عن ذلك غير مثثلة عند من يجب المسأل ، وغير خالية عند ملاق الأبطال ، ويحد الثاني بدل من الأول . وشبه فرسه بالعنان في الضمور والمكانة إذا مر أى حرك ، كناية عن الضرب به ، وشبه بمن يصح منه الرضا على طريق الكناية ولم يرض تخييل : أى يحد فرسا ضامرا وسيفا قاطعا ورمحا طويلا أو صلبا . وجزم المضارع في جواب إذا وهو قليل .

(١) قوله « والإهالة الزنخة » أى الدهن المتن . وحمارة القيظ بتشديد الزاء شدة حره اه من الصحاح . (ع)

(٢) قوله « أو فسدوا من الخالفة وخلفو الفم » الخالفة : الذى لاخير فيه . وخلفو الفم : تعبيره : اه

(وظنوا) وعلوا (أن لا ملجأ من) سخط (الله إلا) إلى استغفاره (ثم تاب عليهم ليتوبوا) ثم رجع عليهم بالقبول والرحمة كثرة بعد أخرى، ليستقيموا على توبتهم ويثبتوا، وليتوبوا أيضاً فيما يستقبل إن فرطت منهم خطيئة، علماً منهم أن الله تواب على من تاب ولو عاد في اليوم مائة مرة. روى أن ناساً من المؤمنين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. منهم من بدا له وكره مكانه فلحق به. عن الحسن: بلغني أنه كان لأحدهم حائط كان خيراً من مائة ألف درهم فقال: يا حائطاه، ما خلفني إلا ظلك وانتظار ثمرك، اذهب فأنت في سبيل الله. ولم يكن لآخر إلا أهله فقال: يا أهلاه ما بطناني ولا خلفني إلا الضن بك لاجرم، والله لا كابدن المفاوز حتى ألحق برسول الله، فركب ولحق به. ولم يكن لآخر إلا نفسه لا أهل ولا مال، فقال يا نفس ما خلفني إلا حب الحياة لك والله لا كابدن الشدائد حتى ألحق برسول الله، فتأبط زاده ولحق به. قال الحسن: كذلك والله المؤمن يتوب من ذنوبه ولا يصبر عليها. وعن أبي ذر الغفاري: أن بعيره أبطأ به فحمل متاعه على ظهره واتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ماشياً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى سواده: كن أبا ذر، فقال الناس: هو ذاك، فقال: رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده<sup>(١)</sup> وعن أبي خيثمة<sup>(٢)</sup> أنه بلغ بستانه وكانت له امرأة حسناء، فرشت له في الظل، وبسطت له الحصر، وقربت إليه الرطب والماء البارد، فنظر فقال: ظل ظليل، ورطب يانع، وماء بارد، وامرأة حسناء، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الضح والريح<sup>(٣)</sup>: ما هذا بخير، فقام فرحل ناقته وأخذ سيفه ورمحه ومز كالريح، فذرع رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفه إلى الطريق، فإذا براكب يزهاه السراب فقال: كن أبا خيثمة فمكانه. ففرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم واستغفر له. ومنهم من بقي لم يلحق به، منهم الثلاثة قال كعب:

(١) أخرجه ابن إسحاق في المغازي والحاكم والبيهقي في الدلائل، قال: حدثني بريدة بن صفيان عن محمد بن كعب القرظي عن عبد الله بن مسعود قال: «لما سار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك جعل لا يزال الرجل يتخلف - فذكره مطولاً»

(٢) أخرجه ابن سعد بهذا بغير سند. وذكره الواقدي في المغازي حدثنا محمد بن رفاعة بن ثعلبة بن أبي مالك عن أبيه عن جده قال سألت زيد بن ثابت عن غزوة تبوك. فذكر القصة الطويلة وفيه وكان أبو خيثمة ويسمى عبداً ابن خيثمة - السلمي رجع بعد أن سار رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أيام، حتى دخل على امرأتين له في يوم حار - فذكره وأخرجه ابن إسحاق في المغازي والحاكم والبيهقي من طريقه قال حدثني عبادة بن أبي بكر بن عمرو بن حزم «أن أبا خيثمة سالم - فذكره. وله طريق أخرى عند الطبراني من طريق إبراهيم بن سعد بن خيثمة حدثنا أبي عن أبيه قال: تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، حتى مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلت سائلاً - فذكر الحديث نحوه، وفي الصحيحين في حديث كعب بن مالك الطويل «فلما بلغ تبوك قال النبي صلى الله عليه وسلم: ما فعل كعب بن مالك فذكر الحديث وفيه: فيينا هم كذلك إذا هم برجل يزول به السراب. فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: كن أبا خيثمة فإذا هو أبو خيثمة»

(٣) قوله في الضح والريح، الضح الشمس. ويزهاه السراب: يرفعه اه من الصحاح. (ع)

لما قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم سلبت عليه فردّ على كالمغضب بعد ما ذكرني وقال: ليت شعري ما خلف كعباً؟ فقيل له: ما خلفه إلا حسن برديه والنظر في عطفه. فقال: معاذ الله ما أعلم إلا فضلاً وإسلاماً<sup>(١)</sup> ونهى عن كلامنا أيها الثلاثة، فتذكر لنا الناس ولم يكلمنا أحداً من قريب ولا بعيد، فلما مضت أربعون ليلة أمرنا أن نعتزل نساءنا ولا نقربهن، فلما تمت خمسون ليلة إذا أنا بندا من ذروة سلع<sup>(٢)</sup>: أبشر يا كعب بن مالك، غفرت ساجداً وكنت كما وصفني ربي (وضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم) وتتابع البشارة، فلبست ثوبي وانطلقت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو جالس في المسجد وحوله المسلمون، فقام إلى طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صاحني وقال: لتهنك توبة الله عليك، فإن أنساها لطلحة، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستنير استنارة القمر: «أبشر يا كعب بخير يوم مرّ عليك منذ ولدتك أمك، ثم تلا علينا الآية. وعن أبي بكر الوراق أنه سئل عن التوبة النصوح فقال: إن تضيق على النائب الأرض بما رحبت، وتضيق عليه نفسه، كتوبة كعب بن مالك وصاحبيه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَلُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

(مع الصادقين) وقرئ: من الصادقين وهم الذين صدقوا في دين الله نية وقولا وعملا، أو الذين صدقوا في إيمانهم ومعاهدتهم لله ورسوله على الطاعة من قوله (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) وقيل: هم الثلاثة، أي كونوا مثل هؤلاء في صدقهم وثباتهم. وعن ابن عباس

(١) متفق عليه من حديث عبد الله بن كعب بن مالك عن كعب بن مالك مطولا، وقال فيه فقال رجل من بني سلمة حبسه برداه فقال معاذ بن جبل: بشا قلت - الحديث، قال المخرج: الوهم فيه من المصنف. وأخرجه أحمد وفيه: فقال رجل من قومي يا رسول الله خلفه برداه والنظر في عطفه، وأفاد الواقدي في المنازى: أن الذي قال ذلك عبد الله بن قيس.

(٢) قوله «من ذروة سلع» سلع هو جبل بالمدينة، اه من الصحاح. (ع)

رضى الله عنه : الخطاب لمن آمن من أهل الكتاب ، أى كونوا مع المهاجرين والانصار ، ووافقهم وانتظموا في جملتهم ، واصدقوا مثل صدقهم . وقيل لمن تخلف من الطلقاء عن غزوة تبوك . وعن ابن مسعود رضى الله عنه <sup>(١)</sup> : « ولا يصلح الكذب في جد ولا هزل ، ولا أن يعد أحدكم صديقه ثم لا ينجزه . اقموا إن شئتم : وكونوا مع الصادقين . فهل فيها من رخصة ؟ » « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه » أمروا بأن يصحبوه على اليأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واعتباط ، وأن يلقوا أنفسهم من الشدائد ما تلقاه نفسه ، علما بأنها أعز نفس عند الله وأكرمها عليه . فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول ، وجب على سائر الانفس أن تنافست <sup>(٢)</sup> فيما تعرضت له ، ولا يكثر لها أصحابها ولا يقيموا لها وزنا ، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه . فضلا عن أن يربثوا <sup>(٣)</sup> بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه ، وهذا نهى بليغ ، مع تقييد لا مرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهيج لمتابعتها بأنفة وحمة « ذلك » إشارة إلى ما دل عليه قوله : ما كان لهم أن يتخلفوا ، من وجوب مشايعته ، كأنه قيل ذلك الواجب « ! » سبب « أنهم لا يصيبهم » شيء من عطش . ولا تعب . ولا مجاعة في طريق الجهاد ، ولا يدوسون مكانا من أمكنة الكفار بحوافر خيولهم وأخفاف رواحلهم وأرجلهم . ولا يتصرفون في أرضهم تصرفا يغيظهم ويضيق صدورهم « ولا ينالون من عدو نيلا » ولا يرزءونهم شيئا يقتل أو أسر أو غنيمة أو هزيمة أو غير ذلك « إلا كتب لهم به عمل صالح » واستوجبوا الثواب ونيل الزلفى عند الله . وذلك مما يوجب المشايعة . ويجوز أن يراد بالوطء الإيقاع والإبادة ، لا الوطء بالأقدام والحوافر ، كقوله عليه السلام <sup>(٤)</sup> : « آخر وطأة وطئها الله بوج » <sup>(٥)</sup> ، والموطئ إما مصدر كالملورد ، وإما مكان . فإن كان مكانا فعنى يغيظ الكفار : يغيظهم وطرؤه . والنيل أيضاً يجوز أن يكون مصدراً مؤكداً ، وأن يكون بمعنى المنيل . ويقال : نال منه إذا رزأه ونقصه . وهو عام في كل ما يسوؤهم وينكهم ويلحق بهم ضرراً . وفيه دليل على أن من قصد خيراً كان سعيه فيه مشكوراً من قيام وقعود

(١) أخرجه الثعلبي من زواية وهب بن جرير عن شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي عبيدة عن أبيه ، موقوفاً وكذا أخرجه إسماعيل في مسنده عن وهب ورواه البيهقي في الشعب مختصراً . ورواه الحاكم مرفوعاً ، من رواية أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود رفعه « لا يصلح الكذب في جد ولا هزل ، ولا أن يعد الرجل ابنه ثم لا ينجزه » .  
(٢) قوله « تنافست » أى تنافطت . (ع)

(٣) قوله « يربثوا » أى يرتفعوا . اهـ من الصحاح . (ع)

(٤) أخرجه أحمد وابن سعد والطبراني والبيهقي في الأسماء من حديث يعلى بن مرة الثقفي في أثناء حديثه وأخرجه إسماعيل والبيهقي أيضاً والطبراني من رواية عمر بن عبد العزيز قال : دعت المرأة الصالحة خولة بنت حكيم .

(٥) قوله « بوج » هى بلد بالطائف اهـ صحاح . (ع)

ومشى وكلام وغير ذلك ، وكذلك الشر . وهذه الآية استشهد أصحاب أي حنيفة أن المدد القادم بعد انقضاء الحرب يشارك لنا الجيش في الغنيمة ، لأن وطء ديارهم عما يغيظهم وينكى فيهم ، ولقد أسهم النبي صلى الله عليه وسلم لابن عامر وقد قدما بعد تقضى الحرب <sup>(١)</sup> ، وأمد أبو بكر الصديق رضي الله عنه المهاجر بن أبي أمية وزياذ بن أبي لييد بعكرمة بن أبي جهل مع خمسمائة نفس ، فلحقوا بعد ما فتحوا فأسهم لهم <sup>(٢)</sup> . عند الشافعي : لا يشارك المدد الغائبين . وقرأ عبيد ابن عمير : ظلم بالمد . يقال : ظمى ظماء وظلم . ( ولا ينفقون نفقة صغيرة ) ولو تمرة ولو علاقة سوط . ( ولا كبيرة ) مثل ما أنفق عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة ( ولا يقطعون وادياً ) أي أرضاً في ذهابهم وبحيهم ، والوادي كل منفرج بين جبال وآكام يكون منفذاً للسيل ، وهو في الأصل فاعل ، من ودى إذا سال . ومنه الودي . وقد شاع في استعمال العرب بمعنى الأرض . يقولون : لا تصل في وادي غيرك ( إلا كتب لهم ) ذلك من الإتيان وقطع الوادي : ويجوز أن يرجع الضمير فيه إلى عمل صالح وقوله ( ليجزئهم ) متعلق بكتب أي أثبت في صحائفهم لأجل الجزاء .

وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢)

اللام لتأكيد النفي . ومعناه أن نفير المكافة عن أوطانهم لطلب العلم غير صحيح ولا ممكن <sup>(٣)</sup> .

(١) لم أره هكذا . وقد عزاه الطيبي لأبي داود والترمذي . وفي الصحيحين عن أبي موسى بلغنا عرج النبي صلى الله عليه وسلم ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه أنا وإخوان لي . أنا أصغرهم - الحديث قال : أسهم لنا ولم يسهم لأحد غاب عن فتح خيبر إلا أصحاب سفيثنا .

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة حدثنا عبد الله بن إدريس عن محمد بن إحقاق عن يزيد بن أبي حبيب « أن أبا بكر بعث عكرمة بن أبي جهل مدداً للمهاجر بن أبي أمية ، وزياذ بن أسد . فأتوها إلى القوم وقد فتح عليهم . قال : فأشركهم في الغنيمة ، رواه الواقدي في المغازي : حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن عتبة عن الحرث بن فضال قال : لما جاء كتاب زياد بن لييد - فذكر نحوه .

(٣) قال محمود : « معناه أن نفير المكافة لطلب العلم غير ممكن ... الخ » . قال أحمد : قوله ( وما كان المؤمنون لينفروا كافة ) على التفسير الأول : أمر لانهي . وعلى الثاني : خبر والمراد به النهي ، لأنه في الأول راجع إلى نفير أهل البلاد إلى المدينة للتعفة ، وهذا لو أمكن الجميع فقله لكان جائزاً أو واجباً ، وإن لم يكن وجب على بعضهم القيام عن باقيهم على طريق وجوب الكفاية . وأما في الثاني فلأن المؤمنين نفروا من المدينة للجهاد أجمعين وكان ذلك ممكناً بل واقعاً ، فهو عن إطراح التعفة بالكلية وأمرها به أمر كفاية والله أعلم . قال أحمد : ولا أجد في أخرى عن حضور الغزاة عذراً إلا صرف المعة لتحذير هذا المصنف ، فاني تفقعت في أصل الدين وقواعد العقائد مؤيداً بآيات الكتاب العزيز مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكاييد أهل البدع والأهواء ، وأنا مع ذلك أرجو من الله حسن التوجه بلفظ الله الحير ، ووقفنا لما يرضيه ، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم .



وفيه أنه لو صح وأمكن - ولم يؤد إلى مفسدة لوجب، لوجوب التفقه على الكافة، ولأن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ﴿فلولا نفر﴾ حين لم يمكن نفير الكافة ولم يكن مصلحة فهلا نفر ﴿من كل فرقة منهم طائفة﴾ أى من كل جماعة كثيرة جماعة قليلة منهم يكفونهم النفير ﴿ليتفقهوا في الدين﴾ ليتكفوا الفقه فيهم، ويتجشموا المشاق في أخذها وتحصيلها ﴿ولينذروا قومهم﴾ وليجعلوا غرضهم ومرى مهمهم في التفقه: إنذار قومهم وإرشادهم والنصيحة لهم، لا ما ينتجيه الفقهاء من الأغراض الخسيسة ويؤقونها من المقاصد الركيكة، من التصدر والتروس والتبسط في البلاد، والتشبه بالظلمة في ملابسهم ومراكبهم ومنافسة بعضهم بعضاً، وفشوق داء الضرائر بينهم، وانقلاب حاملق أحدهم <sup>(١)</sup> إذا لم يجد مدرسة لآخر، أو شذمة جشوا بين يديه، وتهالكه على أن يكون موطاً العقب دون الناس كلهم، فما أبعد هؤلاء من قوله عز وجل (لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً). ﴿لعلهم يحذرون﴾ إرادة أن يحذروا الله فيعملوا عملاً صالحاً. ووجه آخر: وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا بعث بعثاً - بعد غزوة نبوك وبعد ما أنزل في المتخلفين من الآيات الشداد - استبق المؤمنون عن آخرهم إلى النفير وانقطعوا جميعاً عن استماع الوحي والتفقه في الدين، فأمرهم أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة إلى الجهاد ويبقى أعقابهم يتفقهون، حتى لا ينقطعوا عن التفقه الذي هو الجهاد الأكبر، لأن الجدال بالحجة أعظم أثراً من الجلال بالسيف. وقوله (ليتفقهوا) الضمير فيه للفرق الباقية بعد الطواف، النافرة من بينهم، (ولينذروا قومهم) ولينذر الفرق الباقية قومهم النافرين إذا رجعوا إليهم بما حصلوا في أيام غيبتهم من العلوم وعلى الأول الضمير للطائفة النافرة إلى المدينة للتفقه.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ

غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾

﴿يلونكم﴾ يقربون منكم، والقتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم <sup>(٢)</sup>، ولكن الأقرب فالأقرب أوجب. ونظيره (وأندر عشيرتك الأقربين) وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه، ثم غيرهم من عرب الحجاز، ثم غزا الشام. وقيل: هم قريظة والنضير وفدك

(١) قوله «وانقلاب حاملق أحدهم، الخالق: هي ما يسوده الكحل من باطن الجفن. وقيل: ما غطته الأجفان من بياض المقلة. اه من الصحاح. (ع)

(٢) قال محمود: «القتال واجب مع كافة الكفرة قريبهم وبعيدهم... الخ» قال أحد: يتعين القتال على أحد فرقتين: إما من نزل بهم عدو وفيهم قوة عليه، ثم على من قرب منهم حتى يكتفوا. وإما من عينهم الامام لذلك وإن بعدت بهم الدار. وإذا أوجب الله على هذه الأمة القتال وإزعاج العدو من دياره وإخراجه من قراره، فوجوبه وقد نزل العدو بدار الاسلام أجدر.

وخير . وقيل : الروم ، لأنهم كانوا يسكنون الشام والشأم أقرب إلى المدينة من العراق وغيره ، وهكذا المفروض على أهل كل ناحية أن يقاتلوا من وليهم ، مالم يضطر إليهم أهل ناحية أخرى . وعن ابن عمر رضى الله عنه أنه سئل عن قتال الديلم ؟ فقال : عليك بالروم . وقرئ ( غلظة ) بالحركات الثلاث ، فالغلظة كالشدّة ، والغلظة كالضعطة ، والغلظة كالسخرطة ونحوه ( واغلظ عليهم ) ( ولا تهنوا ) وهو يجمع الجرأة والصبر على القتال وشدة العداوة والعنف في القتل والأسر ، ومنه ( ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ) . ( مع المتقين ) ينصر من اتقاه فلم يترأف على عدوه

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيْمَانًا الَّذِينَ آمَنُوا فَرَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَفْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿١٢٥﴾

( فهم من يقول ) من المنافقين من يقول بعضهم لبعض ( أيكم زادت هذه ) السورة ( إيماناً ) إنكاراً واستهزاء بالمؤمنين واعتقادهم زيادة الإيمان بزيادة العلم الحاصل بالوحي والعمل به . وأيكم : مرفوع بالابتداء . وقرأ عبيد بن عمير : أيكم ، بالفتح على إضمار فعل يفسره ( زادته ) تقديره : أيكم زادت زادته هذه إيماناً ( فزادتهم إيماناً ) لأنها أزيد لليقين والثبات ، وألج للصدر . أو فزادتهم عملاً ، فإن زيادة العمل زيادة في الإيمان . لأن الإيمان يقع على الاعتقاد والعمل ( فزادتهم رجساً إلى رجسهم ) كفراً مضموماً إلى كفرهم ، لأنهم كلما جددوا بتجديد الله الوحي كفراً ونفاقاً ، ازداد كفرهم واستحکم وتضاعف عقابهم .

أَوْ لَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ ﴿١٢٦﴾ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَأَوْكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ أَنْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

قرئ : ولا يرون ، بالياء والتاء ( يفتنون ) يبتلون بالمرض والقحط وغيرهما من بلاء الله ثم لا يتوبون ولا يتوبون عن نفاقهم ، ولا يذكرون ، ولا يعتبرون ، ولا ينظرون في أمرهم ، أو يبتلون في الجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعاينون أمره وما ينزل الله عليه من نصرته وتأييده . أو يفتنهم الشيطان فيكذبون وينقضون العهود مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيقتلهم وينكل بهم ، ثم لا ينجرون ( نظر بعضهم إلى بعض ) تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي<sup>(١)</sup>

(١) قال محمود : « معناه تغامزوا بالعيون إنكاراً للوحي ... الخ » قال أحمد : يحتمل الدعاء كما فسر . ويحتمل

وسخرية به قائلين ﴿هل يراكم من أحد﴾ من المسلمين لتنصرف ، فإننا لانصبر على استماعه ويغلبنا الضحك ، فتخاف الافتضاح بينهم . أو ترامقوا يتشاورون في تدبير الخروج والانسلاخ لو أذا يقولون : هل يراكم من أحد . وقيل : معناه : إذا ما أنزلت سورة في عيب المنافقين ﴿صرف الله قلوبهم﴾ دعاء عليهم بالخذلان وبصرف قلوبهم عما في قلوب أهل الإيمان من الانشراح ﴿بأنهم﴾ بسبب أنهم ﴿قوم لا يفقهون﴾ لا يتدبرون حتى يفقهوا .

أَقْدَ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

﴿من أنفسكم﴾ من جنسكم ومن نسبكم عربى قرشى مثلكم ، ثم ذكر ما يتبع المجانسة والمناسبة من النتائج بقوله ﴿عزیز عليه ما عنتم﴾ أى شديد عليه شاق - لكونه بعضاً منكم - عنتم ولقاؤكم المكروه ، فهو يخاف عليكم سوء العاقبة والوقوع في العذاب ﴿حريص عليكم﴾ حتى لا يخرج أحد منكم عن اتباعه والاستعداد بدين الحق الذى جاء به ﴿بالمؤمنين﴾ منكم ومن غيركم ﴿رءوف رحيم﴾ . وقرئ : من أنفسكم ، أى من أشرفكم وأفضلكم . وقيل : هى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفاطمة وعائشة رضى الله عنهما . وقيل : لم يجمع الله اسمين من أسمائه لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله ﴿رءوف رحيم﴾ . ﴿فإن تولوا﴾ فإن أعرضوا عن الإيمان بك وناصروك فاستعن وفوض إليه . فهو كافيك معزتهم <sup>(١)</sup> ولا يضرونك وهو ناصرك عليهم . وقرئ (العظيم) بالرفع . وعن ابن عباس رضى الله عنه : العرش لا يقدر أحد قدره . وعن أبى ابن كعب : آخر آية نزلت (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل على القرآن إلا آية آية وحرفاً حرفاً ، ما خلا سورة براءة وقل هو الله أحد ، فإنهما أنزلتا على ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة . <sup>(٢)</sup>

== الاخبار بأن الله صرف قلوبهم أى منهما من تلقى الحق بالقبول ، ولكن الزعششى يفر من جعله خيراً لأن صرف القلوب عن الحق لا يجوز على الله تعالى عنده . بناء على قاعدة الصلاح والأصلاح ، ولا يزال يؤول الظاهر إذا اقتضى ذلك كما مر له في قوله (ختم الله على قلوبهم) فلما احتملت هذه الآية الدعاء والخبر على حد سواء ، تعين عنده جعلها دعاء ، ثم في هذا الدعاء مناسبة الفعل الصادر منهم وهو الانصراف . كقول (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم) وكذا قوله (ويربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء) .

(١) قوله ﴿فهو كافيك معزتهم﴾ المرة : الاثم ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه الثعلبي من حديث عائشة باسناد واه .

## سورة يونس

مكية ، [ إلا الآيات ٤٠ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦ فمدنية ]

وهي مائة وتسع آيات [ نزلت بعد الإسراء ]

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَكُنْ مِنْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ① أَكُنَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا  
إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدَقَ عِنْدَ

رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ②

(الر) تعديد للحروف على طريق التحدى . و ( تلك آيات الكتاب ) إشارة إلى ما تضمنته  
السورة من الآيات والكتاب السورة . و ( الحكيم ) ذو الحكمة لاشتراكه عليها ونطقه بها .  
أو وصف بصفة محدثة . قال الأعشى :

وَعَرِيَّةٌ تَأْتِي الْمُلُوكَ حَكِيمَةً قَدْ قُلْتُمَا لِيُقَالَ مَنْ ذَا قَالُمَا ③

الهمزة لإنكار التعجب والتعجب منه . و ( أن أوحينا ) اسم كان ، وعجبا : خبرها . وقرأ  
ابن مسعود : عجب ، فجعله اسما وهو نكرة و ( أن أوحينا ) خبراً وهو معرفة ، كقوله :

\* يَكُونُ مِرَاجَهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ \* ④

(١) للأعشى . أى : ورب تصبده غريبة حكيمة ناطقة بالحكمة دالة عليها ، أو حكيم قائلها ، فهو من الاستناد للسبب ،  
لأنها سبب في وصف قائلها بالحكمة . قد قلتما ليعجب الناس ويقولوا من هذا الشاعر البليغ الذى قالها . وذا : اسم  
إشارة في لغة الحجاز ، واسم موصول في لغة طي ، وهى أقرب منا ، لجملة « قالها » صلة الموصول .

(٢) كأن سلافة من بيت رأس يكون مزاجها عسل وماء

على أنيابها أو طعم غصن من التفاح حمرة اجتناء

لحسان بن ثابت قبل تحريم الخمر . والسلافة : أول ما يسيل من ماء الغناب . ويروى « سينة » أى مشترقة . يقال :  
سبأ الخمر كسهر ، إذا اشتراها . ويروى خينة : أى مصونة في الحفاية . وبيت رأس : قرية بالشام . وقبل : =

والأجود أن تسكون «كان» تامة ، وأن أوحينا بدلا من عجب . فإن قلت : فما معنى اللام في قوله (أكان للناس عجباً) ؟ وما هو الفرق بينه وبين قولك : أكان عند الناس عجباً ؟ قلت : معناه أنهم جعلوه لهم أعجوبة يتعجبون منها ، ونصبوه علماً لهم يوجهون نحوه استهزاءهم وإنكارهم ، وليس في عند الناس هذا المعنى ، والذي تعجبوا منه أن يوحى إلى بشر ، وأن يكون رجلاً من أفتاء رجالهم <sup>(١)</sup> دون عظيم من عظائهم . فقد كانوا يقولون : العجب أن الله لم يجد رسولا يرسله إلى الناس إلا يتيم أبي طالب ، وأن يذكر لهم البعث وينذر بالنار ويبشر بالجنة ، وكل واحد من هذه الأمور ليس بعجب ، لأن الرسل المبعوثين إلى الأمم لم يكونوا إلا بشر مثلهم . وقال الله تعالى (قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) وإرسال الفقير أو اليتيم ليس بعجب أيضاً ، لأن الله تعالى إنما يختار من استحق الاختيار ، لجمعه أسباب الاستقلال بما اختير له من النبوة . والغنى والتقدم في الدنيا ليس من تلك الأسباب في شيء . وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلني) والبعث للجزاء على الخير والشر هو الحكمة العظمى ، فكيف يكون عجباً ؟ إنما العجب العجيب والمنكر في العقول تعطيل الجزاء (أن أنذر الناس) أن هي المفسرة ؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول . ويجوز أن تكون المخففة من الثقيلة ، وأصله : أنه أنذر الناس ، على معنى : أن الشأن قولنا أنذر الناس . و (أن لهم) الباء معه محذوف (قدم صدق عند ربهم) أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة <sup>(٢)</sup> . فإن قلت : لم سميت السابقة

== المراد بالرأس الرئيس ، وشراها أطيب من غيره ، ومزاجها خير يكون مع أنه معرفة . ودعل ، اسمها مع أنه نكرة ، وكان القياس العكس قلب الضرورة . وجوز ابن مالك في معمول «كان» و«إن» فلا قلب . وقال القارسي : إن انتصاب مزاجها على الظرفية المجازية . وروى برفع الكلمات الثلاث ، على أن اسم كان ضمير الشأن . وقول ابن السيد : زيادة «كان» هنا : غير مرضي ؛ لأن زيادة المضارع لا ترتكب إلا عند الضرورة ، ويرى بنصب العسل فقط ، فهو خبر ورفع ماء . بتقدير : وغالطها ماء . وجلة الكون صفة سلافة . وعلى أنها : خير «كان» الشدة . والمزاج : ما يميز به غيره . والمراد بالأنياب : الثفر كله . والغض : الطرى الرطب . والمصر : عطف الفصن وإماتته إليك من غير إبانة لتجني ثمره . والتحصير : مباينة فيه . وروى «الجناء» بدل «الاجتناء» . وهو بالقصر مصدر . لكن مد هنا ضرورة . وإسناد التفسير إلى ذلك مجاز عقلي ، من باب الاستناد للسبب . وإيقاعه على التفاح على تقدير مضاف ، أي : مصر غصنه . ويرى : أو طعم غصن ، فلا يجوز في تهيئه . لكن إضافة طعم إليه على تقدير مضاف . أي طعم ثمر غصن . شبه ريقها بالخمر الجيدة وطعمه بطعم تفاح ميل غصته الجاني ليجتنيه ، إشارة إلى أنه مجنى الآن لم يعض عليه شيء من الزمان . وتلويحاً لتشبيهه بمحبوبته بالأغصان في الرقة واللين والميلان .

(١) قوله «من أفتاء رجالهم» في الصحاح : يقال هو من أفتاء الناس . إذا لم يعلم من هو . (ع)

(٢) قال محمود : «أي سابقة وفضلاً ومنزلة رفيعة ... الخ» قال أحمد : ولم يرد في سابقة السوء تسميتها قدماً ، إما لأن المجاز لا يطرد ، وإما أن يكون مطرداً ولكن غلب العرف على قصرها كما يغلب في الحقيقة ، والله أعلم .

قدما ؟ قلت : لما كان السعي والسبق بالقدم ، سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما ، كما سميت النعمة يدا لأنها تعطى باليد ، وباعا لأن صاحبها يبوع بها ، فقليل : لفلان قدم في الخير . وإضافته إلى صدق دلالة على زيادة فضل ، وأنه من السوابق العظيمة وقيل : مقام صدق ﴿إن هذا﴾ إن هذا الكتاب وما جاء به محمد ﴿سحر﴾ ومن قرأ : لساحر ، فهذا إشارة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو دليل عجزهم واعترافهم به وإن كانوا كاذبين في تسميته سحرا . وفي قراءة أبي : ما هذا إلا سحر .

إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدُوَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيُجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٤﴾

﴿يُدبِر﴾ يقضى ويقدر على حسب مقتضى الحكمة ويفعل ما يفعل المتحرى للصواب الناظر في أدبار الأمور وعواقبها ، لئلا يلقاه ما يكره آخرأ . و ﴿الامر﴾ أمر الخلق كله وأمر ملكوت السموات والأرض والعرش . فإن قلت : ما موقع هذه الجملة ؟ قلت : قد دل بالجملة قبلها على عظمة شأنه وملكه بخلق السموات والأرض ، مع بسطتها واتساعها في وقت يسير ، وبالاستواء على العرش ، وأتبعها هذه الجملة لزيادة الدلالة على العظمة وأنه لا يخرج أمر من الأمور من قضائه وتقديره ، وكذلك قوله ﴿ما من شفيع إلا من بعد إذنه﴾ دليل على العزة والكبرياء ، كقوله ( يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ) و ﴿ذلك﴾ إشارة إلى المعلوم بتلك العظمة ، أى ذلك العظيم <sup>(١)</sup> الموصوف بما وصف به هوربكم ، وهو الذى يستحق منكم العبادة ﴿فاعبدوه﴾ وحده ولا تشركوا به بعض خلقه من ملك أو إنسان ، فضلا عن جباد لا يضر ولا ينفع ﴿أفلات ذكرون﴾ فإن أدنى التفكير والنظر ينهكم على الخطأ فيما أنتم عليه ﴿إليه مرجعكم جميعا﴾ أى لا ترجعون فى العاقبة إلا إليه فاستعدوا للقاءه ﴿وعد الله﴾ مصدر مؤكد لقوله ﴿إليه مرجعكم﴾ و ﴿حقا﴾ مصدر مؤكد لقوله ( وعد الله ) . ﴿إنه يبدؤ الخلق ثم يعيده﴾ استئناف معناه التعليل لوجوب المرجع إليه ، وهو أن الغرض ومقتضى الحكمة بابتداء الخلق وإعادته هو جزاء المكلفين على أعمالهم . وقرئ : أنه يبدؤ

(١) قوله «ذلك العظيم» لعله ذلك . (ع)

الخلق ، بمعنى لانه . أو هو منصوب بالفعل الذى نصب وعد الله : أى وعد الله وعداً بدأ الخلق ثم إعادته . والمعنى : إعادة الخلق بعد بدئه . وقرئ : وعد الله ، على لفظ الفعل . ويبدئ ، من أبدأ . ويجوز أن يكون مرفوعاً بما نصب حقاً ، أى حق حقاً بدأ الخلق ، كقوله :

أَحَقًّا عِبَادَ اللَّهِ أَنْ لَسْتُ جَائِيًا وَلَا ذَاهِبًا إِلَّا عَلَى رَقِيبٍ <sup>(١)</sup>

وقرئ : حق أنه يبدو الخلق ، كقولك : حق أن زيدا منطلق <sup>(بالقسط)</sup> بالعدل ، وهو متعلق بيجزى . والمعنى : ليجزيمهم بقسطه ويوفهم أجورهم . أو بقسطهم وبما أقسطوا وعدلوا ولم يظلموا حين آمنوا وعملوا صالحاً ، لأن الشك ظلم . قال الله تعالى (إن الشك لظلم عظيم) والعصاة ظلام أنفسهم ، وهذا أوجه ، لمقابلة قوله (بما كانوا يكفرون) .

هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ  
لِلسِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ <sup>(٥)</sup>

الياء فى ﴿ضياء﴾ منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها . وقرئ : ضياء بهزتين بينهما ألف على القلب ، بتقديم اللام على العين ، كما قيل فى عاق : عقا . والضياء أقوى من النور <sup>(وقدره)</sup> وقدر القمر . والمعنى : وقدر مسيره <sup>(منازل)</sup> أو قدره ذا منازل ، كقوله تعالى (والقمر قدرناه منازل) . <sup>(والحساب)</sup> وحساب الأوقات من الشهور والأيام والليالى <sup>(ذلك)</sup> إشارة إلى المذكور أى ما خلقه إلا ملتبساً بالحق الذى هو الحكمة البالغة ولم يخلقه عبثاً . وقرئ : يفصل ، بالياء .

إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ

لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ <sup>(٦)</sup>

خصص المتقين لأنهم يحذرون العاقبة فيدعوهم الحذر إلى النظر والتدبر .

(١) أحقا عباد الله أن لست جائياً ولا ذاهباً إلا على رقيب  
ولا زائراً فرداً ولا فى جماعة من الناس لإقبال أنت مرهيب

لعبد الله بن الدمينه الخثعمى . وقيل : لقيس بن الملوخ . قال المرزوقى : أحقا انتصب عند سيوفه على الظرفية ، كأنه قال : أفى الحق ذلك ، لأنهم كثيراً ما يقولون : أفى الحق كذا . وعند المبرد على المفعولية المطلقة ، أى أحق ذلك حقاً ، لانه مصدر . وعباد الله : منادى . وروى : أن لست وارداً ولا صادراً . والمعنى واحد . والرقيب : المانع من لقاء الحبيب . ويجوز أن يراد به ما فى قوله تعالى : (ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى مناظر حاضر ، أو قوله تعالى (إن كل نفس لىما عليها حافظ) .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنَّنُوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَٰئِكَ مَا لَهُمْ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾

﴿لا يرجون لقاءنا﴾ لا يتوقعونه أصلاً ، ولا يخطرونه بياهم لفصلتهم المستولية عليهم ، المذهلة بالذات وحب العاجل عن التفطن للحقائق . أو لا يأملون حسن لقاءنا كما يأمله السعداء أو لا يخافون سوء لقاءنا الذي يجب أن يخاف ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ من الآخرة ، وآثروا القليل الفاني على الكثير الباقي ، كقوله تعالى ﴿أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة﴾ . ﴿واطمأننوا بها﴾ وسكنوا فيها سكون من لا يزعج عنها ، فبنوا شديداً وأملوا بعيداً .

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِآيَاتِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعَوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾

﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ يستدعهم بسبب إيمانهم للاستقامة<sup>(١)</sup> على سلوك السبيل المؤدى إلى الثواب ، ولذلك جعل ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ بيانا له وتفسيرا ، لأن التمسك بسبب السعادة كالوصول إليها . ويجوز أن يريد : يهديهم في الآخرة بنور إيمانهم إلى طريق الجنة ، كقوله تعالى ﴿يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾ ومنه الحديث : «إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة حسنة ، فيقول له : أنا عملك ، فيكون له نوراً وقائداً إلى الجنة . والكافر إذا خرج من قبره صور له عمله في صورة سيئة فيقول له : أنا عملك ، فينطلق به حتى يدخله النار<sup>(٢)</sup> ، فإن قلت : فلماذا دلت هذه الآية على أن الإيمان الذي يستحق به العبد الهداية والتوفيق والنور يوم القيامة ، هو إيمان مقيد ، وهو الإيمان المقرون بالعمل الصالح .

(١) قال محمود : «معناه يهديهم بسبب إيمانهم للاستقامة ... الخ» قال أحمد : هو يقرر بذلك زعمه في أن شرط دخول الجنة العمل الصالح ، وأن من لم يعمل محله في النار كالكافر ، وأقوله ذلك وقد جعل الله سبب الهداية إلى الجنة مطلق الإيمان ، فقال ﴿يهديهم ربهم بإيمانهم﴾ وقول الزمخشري «أن المراد إضافة العمل» لا يتنقض من حيث الدعوى ، فإن الله لم يعمل بغير الإيمان وإن جرى تغييره ذكر أولا فلا يلزم إجراؤه ثانياً ولا يجوز إليه . وشبهته أن الإيمان المجهول سبباً مضاف إلى ضمير الصالحين ، فيلزم أخذ الصلاح قيداً في التسبب ، وهو ممنوع ؛ فإن الضمير إنما يعود على الذوات لإعتبار الصفات وقد تقدمت لهذه المباحة أمثال وأشكال ، والله الموفق .

(٢) أخرجه الطبري من طريق سعيد عن قتادة قال : بلغنا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن المؤمن إذا خرج من قبره - فذكره - وروى ابن أبي شيبة من طريق عمرو بن قيس عن عطية عن ابن عمر قال «يستقبل المؤمن عند خروجه من قبره عمله في أحسن صورة» . فذكر نحوه بتمامه .



والإيمان الذي لم يقرن بالعمل الصالح فصاحبه لا توفيق له ولا نور . قلت : الأمر كذلك . ألا ترى كيف أوقع الصلة بمجموعها فيها بين الإيمان والعمل ، كأنه قال : إن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، ثم قال : يا أيها الذين آمنوا ، أي يا أيها الذين آمنوا بهذا المضمون إليه العمل الصالح ، وهو بين واضح لا شبهة فيه ﴿ دعواهم ﴾ دعائهم ، لأن الله ، نداه الله ومعناه : اللهم إنا نسبحك ، كقول القانت في دعاء القنوت : اللهم إياك نعبد ولك نصلي ونسجد . ويجوز أن يراد بالدعاء : العبادة ( وأعتزلكم وما تدعون من دون الله ) على معنى أن لا تكليف في الجنة ولا عبادة ، وما عبادتهم إلا أن يسبحوا الله ويحمدوه . وذلك ليس بعبادة ، إنما يلهمونه فينطقون به تلذذاً بلا كلفة ، كقوله تعالى ( وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية ) . ﴿ وآخراً دعواهم ﴾ وخاتمة دعائهم الذي هو التسبيح ﴿ أن ﴾ بقولوا ﴿ الحمد لله رب العالمين ﴾ . ومعنى ( وتحيتهم فيها سلام ) أن بعضهم يحيى بعضاً بالسلام . وقيل : هي تحية الملائكة إياهم ، إضافة للمصدر إلى المفعول . وقيل : تحية الله لهم . وأن هي المخففة من الثقيلة ، وأصله : أنه الحمد لله ، على أن الضمير للشأن ، كقوله :

• أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَخْفَى وَيَتَعَلَّ • (١)

وقرئ : أن الحمد لله ، بالتشديد ونصب الحمد .

وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ  
الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١)

أصله ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر ﴾ تعجيله لهم الخير ، فوضع ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ موضع تعجيله لهم الخير (٢) إشعاراً بسرعة إجابته لهم وإسعافه بطلبهم ، حتى كأن استعجالهم بالخير

(١) وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاول مثل شاول شاول شاول  
في فتية كسيوف الهند قد علوا أن هالك كل من يخفى ويتعل

للأعشى ميمون بن قيس . والحانوت : محل البيع والشراء . والمراد : محل بيع الطعام والشراب . يتبعني شاول : أي غلام يشوى اللحم . مثل : أي مسرع . شاول : خفيف في العمل : شلعل : بالضم ، أي ماض في الخدمة وقضاء الحوائج : شول : ككتف - خفيف في العمل . وقيل : مخرج اللحم من القدر . في فتية : أي حال كوني مع فتيان كسيوف الهند في إنفاذ العزائم في المكارم . أوفى بياض الوجوه وتهلها . والأول أنسب بقوله : قد علوا أنه ، أي الحال والشأن . هالك وفان كل حاف : غير لابس للنعل ، ومنتل : لابس له ، وهما كناية عن الفقر والفتن ، وإذا استويا في الفتن فلا معنى للبخل الذي لا يوجب البقاء . ويجوز أنهما كناية عن جميع الناس مبالغة في التعميم .

(٢) قال محمود : « فوضع استعجالهم بالخير موضع تعجيله لهم الخير ... الخ » قال أحد : وهذا أيضاً من تنبيهات الوعظ الحسنة التي تقوم على دقة نظره شاهدة وبينة ، ولا يكاد يضع المصدر مؤكداً أو مقارناً لغير فعله في الكتاب العزيز بخلاف مثل هذه الفائدة الجليلة . والنحاة غايبتهم أن يقولوا في قوله تعالى ( والله أنبتكم من الأرض نباتاً ) أنه أجرى المصدر على الفعل مقدراً عدم الزيادة . أو هذا المصدر لفعل دل عليه المذكور تقديره : نبت نباتاً ، =

تعجيل لهم ، والمراد أهل مكة . وقولهم : فأمطر علينا حجارة من السماء ، يعنى : ولو عجّلنا لهم الشر الذى دعوا به كما نعجل لهم الخير ونجّيهم إليه ﴿ لقضى إليهم أجلهم ﴾ لا ميتوا وأهلكوا . وقرئ : لقضى إليهم أجلهم ، على البناء للفاعل ، وهو الله عز وجل ، وتنصره قراءة عبد الله : لقضينا إليهم أجلهم فإن قلت : فكيف اتصل به قوله ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا ﴾ وما معناه ؟ قلت : قوله (ولو يعجل الله ) متضمن معنى نفي التعجيل ، كأنه قيل : ولا نعجل لهم الشر ، ولا نقضى إليهم أجلهم فنذرهم ﴿ فى طغيانهم ﴾ أى فتمهلهم ونفيض عليهم النعمة مع طغيانهم ، إلزاما للحجة عليهم .

وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ  
ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسِّهِ كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا  
يَعْمَلُونَ ۝ ١٢

﴿ جنبه ﴾ فى موضع الحال . بدليل عطف الحالين عليه أى دعانا مضطجعا ﴿ أو قاعداً أو قائماً ﴾ . فإن قلت : فمافائدة ذكر هذه الأحوال ؟ قلت معناه أن المضرور لا يزال داعياً لا يفتر عن الدعاء حتى يزول عنه الضر ، فهو يدعونا فى حالاته كلها - إن كان منبطحاً عاجز النهض <sup>(١)</sup> متخاذل النوم <sup>(٢)</sup> أو كان قاعداً لا يقدر على القيام ، أو كان قائماً لا يطيق المشى والمضطرب - إلى أن يخف كل الحقة ويرزق الصحة بكاملها والمسحة <sup>(٣)</sup> بتمامها . ويجوز أن يراد أن من المضرورين من هو أشد حالاً وهو صاحب الفراش . ومنهم من هو أخف وهو القادر على القعود . ومنهم المستطيع للقيام ، وكلهم لا يستغنون عن الدعاء واستدفاع البلاء ، لأن الإنسان للجنس ﴿ مرّاً ﴾ أى مضى على طريقته الأولى قبل مس الضر ، ونسى حال الجهد . أو مرّاً عن موقف الابهال والتضرع لا يرجع إليه ، كأنه لا عهد له به ﴿ كأن لم يدعنا ﴾ ، كأنه لم يدعنا ، تخفف وحذف ضمير الشأن قال :

== ولا يريدون على ذلك ، وإذا راجع الفطن قريحته وتأجى فكرته ، هل قرن المصدر فى كتاب الله بغير فعله لفائدة أو لا - تسور بلفظ النظر على مثل هذه الفوائد العلية مراتبها ، فالفائدة - والله أعلم - فى اقتران قوله ( نباتاً ) بقوله ( أفنبئك ) التنبيه على تحتم نفوذ القدرة فى المقدور ، وسرعة إ قضاء حكمها حتى كان إنبات الله لهم نفس نباتهم أى إذا وجد من الله الانبات وجد لهم النبات حتماً فكان أحد الأمرين عين الآخر فقرن به والله أعلم .

(١) قوله «عاجز النهض» نهض نهضاً وتموضاً : قام . (ع)

(٢) قوله «متخاذل النوم» فى الصحاح : نام ينوم نوماً إذا نهض يجهد ومشقة . (ع)

(٣) قوله «والمسحة» فى الصحاح : وعى فلان مسحة من جمال . (ع)

## \* كَانُ نَذِيَاهُ حُقَانٌ \* (١)

(كذلك) مثل ذلك التزيين (زين للسرفين) زين الشيطان بوسوسته أو الله بخذلانه وتخليفه (ما كانوا يعملون) من الإعراض عن الذكر واتباع الشهوات .

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ

فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)

(لما) ظرف لأهلكنا : والواو في (وجاءتهم) للحال ، أى ظللوا بالتكذيب وقد جاءتهم رسلهم بالحجج والشواهد على صدقهم وهي المعجزات . وقوله : (وما كانوا ليؤمنوا) يجوز أن يكون عطفاً على ظللوا ، وأن يكون اعتراضاً واللام لتأكيد النفي . يعنى : وما كانوا يؤمنون حقاً ، تأكيذاً لنفي إيمانهم . وأن الله قد علم منهم أنهم يصرون على كفرهم ، وأن الإيمان مستبعد منهم . والمعنى : أن السبب في إهلاكهم تكذيب الرسل ، وعلم الله أنه لا فائدة في إهلاكهم بعد أن ألزموا الحجة ببعثه الرسل (كذلك) مثل ذلك الجزاء يعنى الإهلاك (نجزى) كل مجرم ، وهو وعيد لأهل مكة على إجرامهم بتكذيب رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقرئ . يجزى . بالياء (ثم جعلناكم) الخطاب للذين بعث إليهم محمد صلى الله عليه وسلم ، أى استخلفناكم في الأرض بعد القرون التي أهلكنا (لننظر) أتعلمون خيراً أم شراً فتعاملكم على حسب عملكم . و (كيف) في محل النصب بتعلمون لا ينتظر ، لأن معنى الاستفهام فيه يجب أن يتقدم عليه عامله . فإن قلت : كيف جاز النظر على الله تعالى وفيه معنى المقابلة (١)

(١) ونحر مشرق اللون كان نذياه حقان

أى : ورب نحر - ويروى بالرفع عطفاً على شيء تقدم ، أى ولها . والنحر : موضع العقلاء من الصدر . ويروى : صدر مشرق ، أى أبيض معنى . ويروى : وصدر مشرق النحر . ويروى : وجه مشرق اللون ، وكان مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن . وقال أبو حيان : لا حاجة للاضمار عند الاممال . وروى : كان نذيه بالاعمال مع التخفيف وهو قليل . وإضافة النذيين لضمير النحر للدلالة والضمير الوجه على تقدير مضاف ، أى : نذياه صاحبه . والحقان : ثنية حق وهو ما يعمل من العاج ونحوه ، يوضع فيه أعز الأشياء . وقيل ثنية حقة ، وحذفت منه التاء .

(٢) قال محمود : وإن قلت كيف جاز النظر على الله تعالى ... الخ ، قال أحمد : وكنت أحسب أن الزخشرى يقتصر على إنكار رؤية العبد لله تعالى ، فضم إلى ذلك إنكار رؤية الله ، والجمع بين هذين الترتين عقيدة طائفة من القدرية ، يقولون : إن الله لا يرى ولا يرى ، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً . وتقدم إبطال دعواهم أن النظر يستلزم المقابلة والجسمية فلا نعيده ، والله الموفق .

قلت : هو مستعار للعلم المحقق الذي هو العلم بالشئ موجوداً شبه بنظر الناظر وعيان المعاني في تحققه .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا يَئِنَّمَا قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَتَنْتِ بُرْءًا أَنْ  
خَيْرَ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدَّلهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا

مَا يَوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

غاطهم ما في القرآن من ذم عبادة الاوثان والوعيد للشركين ، فقالوا ﴿ ائت بقرآن ﴾ آخر ليس فيه ما يغيظنا من ذلك تتبعك ﴿ أو بدله ﴾ بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة ، وتسقط ذكر الآلهة وذم عبادتها ، فأمر بأن يجيب عن التبديل ، لأنه داخل تحت قدرة الإنسان ، وهو أن يضع مكان آية عذاب آية رحمة مما أنزل ، وأن يسقط ذكر الآلهة . وأما الإتيان بقرآن آخر ، فغير مقدور عليه للإنسان ﴿ ما يكون لي ﴾ ما ينبغي لي وما يحل ، كقوله تعالى ﴿ ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق ﴾ . ﴿ أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ من قبل نفسي . وقرئ بفتح التاء : من غير <sup>(١)</sup> أن يأمرني بذلك ربِّي ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ لا آتى ولا أذر شيئاً من نحو ذلك ، إلا متبعاً لوحى الله وأوامره . إن نسخت آية تبعت النسخ ، وإن بدلت آية مكان آية تبعت التبديل ، وليس لي تبديل ولا نسخ ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي ﴾ بالتبديل والنسخ من عند نفسي ﴿ عذاب يوم عظيم ﴾ . فإن قلت : أما ظهر وتبين لهم العجز عن الإتيان بمثل القرآن حتى قالوا : ﴿ ائت بقرآن غير هذا ﴾ ؟ قلت : بلى ، ولكنهم كانوا لا يعترفون بالعجز ، وكانوا يقولون : لو نشاء لقلنا مثل هذا . ويقولون : افترى على الله كذباً ، فينسبونه إلى الرسول ويزعمونه قادراً عليه وعلى مثله . مع علمهم بأن العرب مع كثرة فصاحتها وبلغائها إذا عجزوا عنه ، كان الواحد منهم أعجز . فإن قلت : لعلمهم أرادوا : ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، من جهة الوحي كما أتيت بالقرآن من جهته . وأراد بقوله : ﴿ ما يكون لي ﴾ ما يتسهل لي وما يمكنني أن أبدله . قلت : يرده قوله ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي ﴾ . فإن قلت : فما كان غرضهم وهم أدهى الناس وأنكرهم في هذا الاقتراح ؟ قلت : الكيد والمكر . أما اقتراح إبدال قرآن بقرآن ، ففيه أنه من عندك وأنت قادر على مثله ، فأبدل مكانه آخر ، وأما اقتراح التبديل والتغيير ، فلطمع ولاختبار الحال . وأنه إن وجد منه تبديل ، فأما أن يهلكه الله فينجو منه ، أو لا يهلكه فيسخره منه ، ويجعلوا التبديل حجة عليه وتصحيحاً لاقرائه على الله .

(١) قوله « من غير » لعله « أى من غير » . (ع)

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا أَذْرَأْتُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾

(لو شاء الله ما تلوته عليكم) يعني أن تلاوته ليست إلا بمشيئة الله وإحداثه أمراً عجيباً خارجاً عن العادات، وهو أن يخرج رجل أمي لم يتعلم ولم يستمع ولم يشاهد العلماء ساعة من عمره، ولا نشأ في بلد فيه علماء فيقرأ عليهم كتاباً فصيحاً، يهر كل كلام فصيح، ويعلو على كل منشور ومنظوم، مشحوناً بملوم من علوم الأصول والفروع، وأخبار عما كان وما يكون، ناطقاً بالغيوب التي لا يعلمها إلا الله، وقد بلغ بين ظهرانيكم <sup>(١)</sup> أربعين سنة تطلعون على أحواله، ولا يخفى عليكم شيء من أسرارهم، وما سمعتم منه حرفاً من ذلك، ولا عرفه به أحد من أقرب الناس منه وأصدقهم به (ولا أذراكم به) ولا أعلمكم به على لسانى. وقرأ الحسن: ولا أذراكم به، على لغة من يقول: أعطائه وأرضائه، في معنى أعطيته وأرضيته. وتعضده قراءة ابن عباس: ولا أذرتكم به. ورواه الفراء: ولا أذراكم به، وبالهز. وفيه وجهان، أحدهما: أن تقلب الألف همزة، كما قيل: لبأت بالحج. ورثأت الميت وحلأت <sup>(٢)</sup> السويق، وذلك لأن الألف والهمزة من واد واحد. ألا ترى أن الألف إذا مستها الحركة انقلبت همزة. والثاني: أن يكون من درأته إذا دفعته، وأذراته إذا جعلته دارئاً. والمعنى: ولا جعلتكم بتلاوته خصماء تدرؤوني بالجدال وتكذبوني. وعن ابن كثير: ولا ذراكم به، بلام الابتداء لإثبات الإدراء ومعناه: لو شاء الله ما تلوته أنا عليكم ولا أعلمكم به على لسان غيرى، ولكنه يمين على من يشاء من عباده، فخصني بهذه الكرامة ورأى لها أهلاً دون سائر الناس (فقد لبثت فيكم عمراً) وقرئ (عمراً) بالسكون. يعنى: فقد أقت فيما بينكم يافعا وكهلا، فلم تعرفوني متعاطياً شيئاً من نحوه ولا قدرت عليه، ولا كنت متواصفاً بعلم وبيان فتهمونى باختراعه (أفلا تعقلون) فتعلموا أنه ليس إلا من الله لا من مثلى. وهذا جواب عما دسوه تحت قولهم انت بقرآن غير هذا من إضافة الافتراء إليه.

قَمْنِ أَظْلَمُ مِمَّنْ آفَقَرِي عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾

(١) قوله «ظهرانيكم» في الصحاح: ظهرانيهم - بفتح النون. (ع)

(٢) قوله «وحلأت» أى جعلته حلواً. (ع)

(من افترى على الله كذبا) يحتمل أن يريد افتراء المشركين على الله في قولهم : إنه ذو شريك وذو ولد ، وأن يكون تفاديا بما أضافوه إليه من الافتراء .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أُنْتَبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

{ ما لا يضرهم ولا ينفعهم } الأوثان التي هي جاد لا تقدر على نفع ولا ضرر . وقيل : إن عبدوها لم تنفعهم ، وإن تركوا عبادتها لم تضرهم ، ومن حق المعبود أن يكون مثيراً على الطاعة معاقباً على المعصية . وكان أهل الطوائف يعبدون اللات ، وأهل مكة العزى ومناة وهبل وأسافا ونائلة { و } كانوا { يقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله } وعن النضر بن الحرث : إذا كان يوم القيامة شفت لى اللات والعزى { أنتبئون الله بما لا يعلم } أنخبرونه بكونهم شفعا عند الله ، وهو أنباء بما ليس بالمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوما له وهو العلم الذات المحيط بجميع المعلومات ، لم يكن شيئا لأن الشيء ما يعلم ويخبر عنه ، فكان خبراً ليس له مخبر عنه . فإن قلت : كيف أنبأوا الله بذلك ؟ قلت : هو تهكم بهم وبما ادعوه من المحال الذي هو شفاعة الأصنام ، وإعلام بأن الذي أنبأوا به باطل غير منظور تحت الصفة ، فكأنهم يخبرونه بشيء لا يتعلق به عليه كما يخبر الرجل الرجل بما لا يعلمه . وقرئ : أنتبئون ، بالتخفيف . وقوله { في السموات ولا في الأرض } تأكيد لنفيه ، لأن ما لم يوجد فيهما فهو منتف معدوم { تشركون } قرئ بالتاء والياء وما موصولة أو مصدرية ، أى عن الشركاء الذين يشركونهم به أو عن إشرائهم .

وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

{ وما كان الناس إلا أمة واحدة } حنفاء متفقين على ملة واحدة من غير أن يختلفوا بينهم ، وذلك في عهد آدم إلى أن قتل قابيل هابيل . وقيل : بعد الطوفان حين لم يذر الله من الكافرين ديارا { ولولا كلمة سبقت من ربك } وهو تأخير الحكم بينهم إلى يوم القيامة { لقضى بينهم } عاجلا فيما اختلفوا فيه ، ولميز الحق من المبطل ، وسبق كلمته بالتأخير لحكمة أوجبت أن تكون هذه الدار دار تكليف ، وتلك دار ثواب وعقاب . وقالوا { لولا أنزل عليه آية من ربه }

أرادوا آية من الآيات التي كانوا يقترحونها وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة التي لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر بديعة غريبة في الآيات ، دقيقة المسلك من بين المعجزات ، وجعلوا نزولها كلا نزول ، وكأنه لم ينزل عليه آية قط ، حتى قالوا : لولا أنزل عليه آية واحدة من ربه ، وذلك لفرط عنادهم وتماديهم في التمزّد وانهماكهم في الغي ﴿فقل إنما الغيب لله﴾ أي هو المختص بعلم الغيب المستأثر به لا علم لي ولا لأحد به ، يعني أن الصارف عن إزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو ﴿فانتظروا﴾ نزول ما اقترحتموه ﴿إني معكم من المنتظرين﴾ لما يفعل الله بكم لعنادكم ووجودكم الآيات .

وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسْتُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا  
قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنْ رُسُلَنَا يَكْتُوبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

سلط الله القحط سبع سنين على أهل مكة حتى كادوا يهلكون ، ثم رحمهم بالحيا ، فلما رحمهم طفقوا يطعنون في آيات الله ويعادون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكيدونه ، وإذا الأولى للشرط ، والآخرة جواها وهي المفاجأة ، والمكر : إخفاء الكيد وطيه ، من الجارية الممكورة المطوية الخلق . ومعنى ﴿مستم﴾ خالطتهم حتى أحسوا بسوء أثرها فيهم . فإن قلت : ما وصفهم بسرعة المكر ، فكيف صح قوله ﴿أسرع مكرًا﴾ ؟ قلت : بلى دلت على ذلك كلمة المفاجأة ، كأنه قال : وإذا رحمتهم من بعد ضراء فاجئوا وقوع المكر منهم ، وسارعوا إليه قبل أن يغسلوا ردوسهم من مس الضراء ، ولم يتلشوا ريثا يسبقون غصتهم . والمعنى : أن الله تعالى دبر عقابكم وهو موقعه بكم قبل أن تدبروا كيف تعملون في إطفاء نور الإسلام ﴿إن رسلنا يكتبون﴾ إعلام بأن ما تظنونونه خافيا مطويا لا يخفى على الله ، وهو منتقم منكم . وقرئ : يمكرون ، بالتاء والياء . وقيل : مكرهم قولهم سقيننا بنوء كذا . وعن أبي هريرة : إن الله ليصبح القوم بالنعمة ويمسيهم بها ، فتصبح طائفة منهم بها كافرين يقولون : مطرنا بنوء كذا <sup>(١)</sup> .

هُوَ الَّذِي يُسَبِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ

(١) أخرجه إمامي والطبري : والشعبي من طريق ابن إسحاق عن محمد بن إبراهيم الجني عن أبي سلة عن أبي هريرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى ليصبح عباده بالنعمة أو يمسهم بها فيصبح بها قوم كافرون ، يقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا ، قال محمد فذكرت الحديث لسعيد بن المسيب فقال : ونحن سمعناه من أبي هريرة . ولمسلم من وجه آخر عن أبي هريرة مرفوعا قال الله تعالى : ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق بها كافرين ، يقولون : الكوكب والكوكب مطرنا .

يَرْجِي طَيْمِيَّةً وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ  
وَضَلُّوا أَنَّهُمْ أَحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ  
لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ  
الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْخَلْقَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا  
مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾

قرأ زيد بن ثابت : ينشركم . ومثله قوله (فانتشروا في الأرض) ، (ثم إذا أتم بشر تنتشرون) .  
فإن قلت : كيف جعل الكون في الفلك غاية للتسير في البحر <sup>(١)</sup> ، والتسير في البحر إنما هو بالكون  
في الفلك ؟ قلت : لم يجعل الكون في الفلك غاية للتسير في البحر ، ولكن مضمون الجملة الشرطية  
الواقعة بعد «حتى» بما في حينها ، كأنه قيل : يسيركم حتى إذا وقعت هذه الحادثة وكان كيت وكيت  
من مجيء الريح العاصف وتراكم الأمواج والظن للهلاك <sup>(٢)</sup> والدعاء بالإنجاء . فإن قلت :  
ما جواب «إذا» ؟ قلت : جاءتها . فإن قلت : فدعوا ؟ قلت : بدل من ظنوا ؛ لأن دعاءهم من  
لوازم ظنهم الهلاك فهو ملتبس به . فإن قلت : ما فائدة صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة ؟  
قلت : المبالغة ، كأنه يذكر لغيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقيص . فإن  
قلت : ما وجه قراءة أتم الدرداء : في الفلكي ، بزيادة ياء النسب ؟ قلت : قيل هما زائدتان كما في  
الخارجي والآخرى . ويجوز أن يراد به اللجّ والماء الغمر الذي لا تجري الفلك إلا فيه .

(١) قال محمود : «إن قلت كيف جعل الكون في الفلك غاية ... الخ» قال أحد : وهذه أيضا من نكته التي  
لا يكتنه حسنا ، وقد سر لي قبيل الوقوف عليها مثل هذا النظر بعينه في توأمتها ، وذلك عند قوله تعالى (وابتلوا  
اليأس حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أمهاتهم) وقد استدلل الزحشرى بها لآي حنيفة في  
أن الصغير يبطل قبل البلوغ بأن يسلّم إليه قدر من المال يتحن فيه . خلافا لمالك ، فإنه لا يرى الابتلاء قبل البلوغ  
قال الزحشرى : ووجه الاستدلال أن الله تعالى جعل البلوغ غاية الابتلاء ، فيلزم وقوع الابتلاء قبله ضرورة كونه  
مغزيا به . واعتضدت هذا الاستدلال فيما سلف بأن المجموع غاية هو حله ما في حين «حتى» من البلوغ مقرونا بآيناس  
الرشد ، وهذا المجموع هو الذي يلزم وقوعه بعد الابتلاء ، ولا يلزم من ذلك أن يقع كل واحد من مفرديه بعد الابتلاء ،  
بل من الممكن أن يقع أحدهما قبل والآخر بعد ، فلا يحصل المجموع إلا بعد الابتلاء . وبوضوح ذلك هذه الآية ،  
فإنه تعالى جعل غاية تسيرهم في الفلك كونهم فيها ، مضافا إلى ما ذكر معه . ونحن نعلم أن كونهم في الفلك - وذلك  
أحد ما جعل غاية - متقدم على التسير وإن كان المجموع واقعا ، كوقوع الحادثة بجملة بعد الكون في الفلك والله  
أعلم . وإنما بسط القول هنا لفوائدهم ، لجدد بما مضى عهدا .

(٢) قوله «والظن للهلاك» عبارة النسفي : بالهلاك . (ع)



والضمير في ﴿جرين﴾ للفلك ، لأنه جمع فلك كالأسد ، في فعل أخى فعل <sup>(١)</sup> . وفي قراءة أم الدرداء : للفلك ، أيضاً : لأن الفلكي يدل عليه ﴿جاءتها﴾ جاءت الريح الطيبة ، أى تلقبها . وقيل : الضمير للفلك ﴿من كل مكان﴾ من جميع أمكنة الموج ﴿أحيط بهم﴾ أى أهلكوا جعل إحاطة العدو بالحى مثلاً في الهلاك ﴿مخلصين له الدين﴾ من غير إشراك به ؛ لأنهم لا يدعون حينئذ غيره معه ﴿لئن أنجيتنا﴾ على إرادة القول . أولان (دعوا) من جملة القول ﴿يبنون في الأرض﴾ يفسدون فيها ويعبثون مترافين في ذلك ، معنيين فيه ، من قولك : بنى الجرح إذا ترمى إلى الفساد . فإن قلت : فامعنى قوله ﴿بغير الحق﴾ والبغى لا يكون بحق؟ قلت : بلى ، وهو استيلاء المسلمين على أرض الكفرة ، وهدم دورهم ، وإحراق زروعهم وقطع أشجارهم <sup>(٢)</sup> كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم بنى قريظة . قرئ : متاع الحياة الدنيا ، بالنصب . فإن قلت : ما الفرق بين القراءتين؟ قلت : إذا رفعت كان المتاع خيراً للبئس الذي هو (بغيمكم) و (على أنفسكم) صلته ، كقوله (فبغى عليهم) ومعناه : إنما بغيمكم على أمثالكم والذين جنسهم جنسكم ، يعنى : بغى بعضهم على بعض منفعة الحياة الدنيا لبقاء لها . وإذا نصبت (فعلى أنفسكم) خبر غير صلة ، معناه . إنما بغيمكم وبال على أنفسكم ، و (متاع الحياة الدنيا) في موضع المصدر المؤكد ، كأنه قيل : تتمتعون متاع الحياة الدنيا . ويجوز أن يكون الرفع على : هو متاع الحياة الدنيا بعد تمام الكلام . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : لا تمكر ولا تعن ما كراً ، ولا تبغ ولا تعن باغياً ، ولا تنكث ولا تعن ناكثاً <sup>(٣)</sup> وكان يتلوها . وعنه عليه الصلاة والسلام : وأسرع الخير ثواباً صلة الرحم ، وأعجل الشر عقاباً البغى واليمين الفاجرة ، <sup>(٤)</sup> وروى : وثنان يعجلهما الله

(١) قوله «كالأسد في فعل» أى كما جاء «فعل» بالضم في «فعل» بفتحين ، كأسد في أسد ، جاز مجى . «فعل» بالضم في فعل «بالضم» كفلك في فلك ، وذلك لأن «فعلاً» بفتحين و«فعلاً» بالضم أخوان ، لأنهما يشتركان في الشئ الواحد ، كالعرب والعرب والعجم والعجم ، والرهب والرهب . فإجاز في أحدهما لا يمنع في الآخر ، وقد جاز «فعل» بالضم في «فعل» بالفتح ، فليجز «فعل» بالضم في «فعل» بالضم ، لأنهما أخوات . كذا في الصحاح ، فتأمل . (ع)

(٢) متفق على معناه من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

(٣) أخرجه ابن المبارك في الزهد : أخبرنا يونس بن يزيد عن الزهري : قال «بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تمكر ولا تعن ما كراً ، فإن الله تعالى يقول (ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله ولا تبغ ولا تعن باغياً ، فإن الله تعالى يقول (إنما بغيمكم على أنفسكم) ولا تنكث ولا تعن ناكثاً ، فإن الله تعالى يقول (ومن نكث فكنا ينكث على نفسه) وفي مستدرک الحاكم بعضه من حديث أبي بكره مرفوعاً «لا تبغ ولا تعن باغياً فإن الله تعالى يقول (إنما بغيمكم على أنفسكم)» .

(٤) أخرجه إمام في مسنده عن جرير عن يونس بن يسار عن مكحول رفعه وأعجل الخير ثواباً صلة الرحم وأعجل الشر عقاباً البغى واليمين الفاجرة ، تدع الديار بلاقع ، ولا يعلل من حديث عائشة بنت طلحة عن عائشة أم المؤمنين رفعته «أسرع الخير ثواباً صلة الرحم . وأسرع الشر عقوبة البغى» .

تعالى في الدنيا : البغى وعقوق الوالدين ، <sup>(١)</sup> وعن ابن عباس رضى الله عنه : لو بغى جبل على جبل لك الباغى . <sup>(٢)</sup> وكان المأمون يتمثل بهذين البيتين في أخيه :

يَا صَاحِبَ الْبَغَى إِنَّ الْبَغَى مَصْرَعَةٌ      فَارْبَعٌ فَخَيْرُ فِعَالِ الْمَرْءِ أَهْلُهُ  
فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ      لَأَنْذَكُ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ <sup>(٣)</sup>  
وعن محمد بن كعب : ثلاث من كن فيه كن عليه : البغى والنكث والمكر . قال الله تعالى :  
(لئنما يغتكم على أنفسكم)

إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ  
بِمَا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ  
أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ  
تَقْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ <sup>(٢٤)</sup>

هذا من التشبيه المركب ، شبهت حال الدنيا في سرعة تقضيها وانقراض نعيمها بعد الإقبال ،  
بحال نبات الأرض في جفافه وذهابه حطاماً بعدما التف ونكاثف ، وزين الأرض بخضرتها  
وريفه <sup>(١)</sup> (فاختلط به) فاشتبك بسببه حتى خالط بعضه بعضاً (أخذت الأرض زخرفها  
وازيّنت) كلام فصيح : جعلت الأرض أخذة زخرفها على التثيل بالعروس ، إذا أخذت الثياب  
الفاخرة من كل لون ، فاكتسبتها وتزيّنت بغيرها من ألوان الزين . وأصل (ازيّنت) تزيّنت ،

(١) أخرجه إسحاق في مسنده والطبراني من حديث عبدالله بن أبي بكرة عن أبيه . والبخاري في الأدب  
المفرد من رواية بكار بن عبدالعزیز عن أبيه عن جده رفته وكل الذنوب يؤخر الله منها ما شاء إلى يوم القيامة  
إلا البغى وعقوق الوالدين ، فانه يجعل لصاحبه في الدنيا قبل الموت .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب حدثنا أبو نعيم حدثنا قطر بن خليفة عن أبي يحيى اللقنات سمعت مجاهدا عن  
ابن عباس رضى الله عنهما موقوفا . ورواه ابن المبارك في الزهد عن قطر عن يحيى عن مجاهد مرسل . ورواه  
البيهقي في الشعب من طريق الأعمش عن أبي يحيى اللقنات عن مجاهد عن ابن عباس . ورواه ابن مردويه عن أنس  
رضى الله عنه أخرجه ابن حبان في الضعفاء في ترجمة أحمد بن الفضل . وقال : إنه كان يضع الحديث .

(٣) كان المأمون بن الرشيد يتمثل بهما في بنى أخيه عليه ، وكرر لفظ البغى تنفيذا عنه ، وشبهه بالمصرعة لأن  
صاحبه يرتكب فيه في العاقبة وربما هلك . وربع بربع ، إذا لم يتجاوز قدر نفسه . فاربع : أى الزم قدرك واعدل  
في فعلك . والقعال - بالفتح - : غالب في فعل الخير . والمراد هنا مطلق الفعل ، أى : بغير حمل المرء أقومه ، فلو  
بغى جبل على جبل يوما من الأيام لعوقب واندك منه أعاليه . ويلزم منه اندكك أسفله . وهذا عقد قول ابن عباس  
رضى الله عنهما : لو بغى جبل على جبل لك الباغى .

(٤) قوله «وريفه» أى بريقه وتلاؤه . وشجر رفيف : إذا تددت أوراقه ، كذا في الصحاح . (ع)

فأدغم . وبالأصل قرأ عبد الله . وقرئ : وأزيت ، أى أفعلت ، من غير إعلال الفعل كأغيت  
أى صارت ذات زينة . وأزيات ، بوزن اياضت ﴿قادرين عليها﴾ متمكنون من منفعتها  
محصلون لثمرتها ، رافعون لفلتها ﴿أناها أمرنا﴾ وهو ضرب زرعها ببعض العاهات بعد أمرهم  
واستيفانهم أنه قد سلم ﴿فجعلناها﴾ فجعلنا زرعها ﴿حصيدا﴾ شبيهاً بما يحصد من الزرع فى  
قطعه واستنصاله ﴿كأن لم تغن﴾ كأن لم يغن زرعها ، أى لم ينبت <sup>(١)</sup> على حذف المضاف  
فى هذه المواضع لا بد منه ، وإلا لم يستقم المعنى . وقرأ الحسن : كأن لم يغن ، بالياء على  
أن الضمير للمضاف المحذوف ، الذى هو الزرع . وعن مروان أنه قرأ على المنبر : كأن لم تغن  
بالأمس ، من قول الأعشى :

• طَوِيلُ الثَّوَاءِ طَوِيلُ التَّغْنَى • <sup>(٢)</sup>

والأمس مثل فى الوقت القريب ، كأنه قيل : كأن لم تغن آنفاً .

وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ <sup>(٢٥)</sup>

﴿دار السلام﴾ الجنة ، أضافها إلى اسمه تعظيماً لها . وقيل السلام السلامة ؛ لأن أهلها سالمون  
من كل مكروه . وقيل : لفشو السلام بينهم وتسليم الملائكة عليهم (إلا قليلاً سلاماً) (إلا قليلاً سلاماً)  
﴿ويهدى﴾ ويوفق ﴿من يشاء﴾ وهم الذين علم أن اللطف يهدى عليهم ، لأن مشيئته تابعة لحكمته  
ومعناه : يدعو العباد كلهم إلى دار السلام ، ولا يدخلها إلا المهديون .

(١) قوله «أى لم ينبت» لعله لم ينبت . وفى الصحاح : غنى بالمكان أى أقام ، وغنى أى عاش . (ع)

(٢) وكنت امرأ زمناً بالعراق طویل الثواء طویل التغنى

فأبنت قيساً ولم آتته على نأيه ساد أهل اليمن

لجنتك مرئاد ما أخبروا ولولا الذى خبروا لم ترت

للأعشى ، يستمتع قيس بن معديكرب ويقول : وكنت رجلاً طویل الثواء فى العراق ، طویل التغنى فيه دهرأ طویلأ .  
فزمناً : ظرف . ويجوز قرأته : زمناً ، كقدر : أى هرم . والثواء : الإقامة . وغنى بالمكان يغنى ، كرمى يرمى ؛  
أقام ومكث . وقد يقال : تغنى فغنيا كترضى ترضى ، إذا تمكك وتلبث . فالتغنى - بالتشديد - مصدر حذف لامه  
عند الوقف وإن كان حذفها قليلاً ، فأبنت قيساً والحال أنى لم أجته : مع أنه نادى أى بعيد غنى ، أى مع  
بعده ساد أهل اليمن بحجوده وكرمه على أهل الأرض ، لجملة «ساد» فى عمل المفعول الثانى ، ثم بعد ما قدم المدح  
التغنى إلى خطابه بقوله : لجنتك مرئاداً ومنعراً ومنظلاً لما أخبروا به من كرمك وجردك ، وإضافة مرئاد للوصول  
لانتقده التعريف ؛ لأنها إضافة الوصف لمعموله لفظياً ، فصح وقوعه حالاً ، ولولا الذى خبرونى به لم تنظرنى عندك  
ولم أجنى إليك . وروى : ولم أبله ، من - بلاه يبلوه إذا اختبره . وروى خبر أهل اليمن أى أنبته والحال أنى  
لو أختبره أفضل أهل اليمن ، لجنتك مختبراً خالكا .

لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهُهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ  
 أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾

(الحسنى) المثوبة الحسنى (وزيادة) وما يزيد على المثوبة وهى التفضل. ويدل عليه قوله تعالى (ويزيدهم من فضله) وعن على رضى الله عنه : الزيادة : غرفة من أولوة واحدة. وعن ابن عباس رضى الله عنه : الحسنى : الحسنة ، والزيادة : عشر أمثالها. وعن الحسن رضى الله عنه : عشر أمثالها إلى سبعائة ضعف. وعن مجاهد رضى الله عنه : الزيادة مغفرة من الله ورضوان. وعن يزيد بن شجرة : الزيادة أن تمر السحابة بأهل الجنة فتقول : ماتريدون أن أمطر كم؟ فلا يريدون شيئاً إلا أمطرهم. وزعمت المشبهة والمجبرة (١) أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى (٢) وجاءت بحديث مرقوع (٣) ، إذا دخل أهل الجنة الجنة نودوا أن يا أهل الجنة فيكشف الحجاب فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً هو أحب إليهم منه ، (٤) (ولا يرهق وجوههم) لا يغشاها (قتر) غبرة فيها سواد (ولاذلة) ولا أثر هوان وكسوف بال. والمعنى لا يرهقهم ما يرهق

(١) قوله «وزعمت المشبهة والمجبرة» يريد أهل السنة القائلين بجواز رؤيته تعالى ووقوعها فى الآخرة ، خلاف المعتزلة فى ذلك . (ع)

(٢) ذكر محمود فى الزيادة تفاسير كثيرة ، ثم قال : وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى... الخ . قال أحمد : نسبة تفسير الزيادة برؤية الله تعالى إلى زعم أهل السنة الملقين عنده بالمشبهة والمجبرة : مرور على دينه المعروف فى التكذيب بما لم يحط به علماً ، وهذا التفسير مستفيض منقول عن جملة الصحابة ، والحديث المروى فيه مدون فى الصحاح متفق على صحته ، وقد جعل أهل السنة جاؤا به من عند أنفسهم ، ومن قبل قال المصرون على الكفر لسيد البشر وصاحب السنة : اثبت بقرآن غير هذا أو بدله ، حملاً له على أنه جاء به من عنده ، فلاهل السنة إذا أسوة بصاحبها ، ولقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ، فابتلاء الحق بالباطل قديم ، والله الموفق . وإن فى قوله تعالى على أثر ذلك (ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة) مصداقاً لصحة هذا التفسير ، فإن فيه تنبيهاً على إكرام وجوههم بالنظر إلى وجه الله تعالى لجدير بهم أن لا يرهق وجوههم قتر البعد ولا ذلة الحجاب ، عكس المحرومين المحجوبين فإن وجوههم مرهقة بقتر الطرد وذلة البعد . نسأل الله الكفاية . فأولئك يغنى وجوههم أنوار المشاهدة ، وهؤلاء يغنى وجوههم كقطع الليل المظلم ، منهم شقى وسعيد .

(٣) قوله «بحديث مرقوع» بالقاف ، أى مقترى ، كذا قيل . وهو فى مقابلة المرفوع بالقاف ، أى المضاف إلى النبي صلى الله عليه وسلم . (ع)

(٤) قال الطيبي : قوله «مرقوع» هو عنده بالقاف أى مرقع معدى . وهو عند أهل السنة بالقاف اه . وقد أخرجه مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أصيب . ورواه الترمذى وقال : كذا رفعه حماد بن سلمة . وقد رواه سليمان بن المغيرة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قوله . انتهى . وفى الباب عن أبى موسى مرفوعاً أخرجه الطبرانى فى مسند الشاميين . والطبرى . وعن ابن عمر وأُسْرُ أخرجهما ابن مردويه بأسنادين ضعيفين . وعن أبى بكر الصديق أخرجه إسماعيل فى مسنده من رواية عامر بن سعد عنه . وعن ابن عباس وعلى أخرجهما ابن مردويه أيضاً .

أهل النار إذكاراً بما ينقدّم منه برحمته . ألا ترى إلى قوله تعالى ، ( ترهقها قفرة ) ( وترهقهم ذلة ) .

وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ يَمْثِلُهَا وَتَرَهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾

فإن قلت : ما وجه قوله ﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة يمثّلها ﴾ وكيف يتلّام ؟ قلت : لا يخلو ، إما أن يكون ( والذين كسبوا ) معطوفاً على قوله ( الذين أحسنوا ) كأنه قيل : والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة يمثّلها ، وإما أن يقدر : وجزاء الذين كسبوا السيئات جزاء سيئة يمثّلها على معنى : جزاؤهم أن تجازى سيئة واحدة بسيئة مثلاً لا يزداد عليها ، وهذا أوجه من الأول ، لأن في الأول عطفاً على عاملين وإن كان الاختفش يجيزه . وفي هذا دليل على أن المراد بالزيادة الفضل ، لأنه دل بترك الزيادة على السيئة على عدله ، ودل ثمة بإثبات الزيادة على المثوبة على فضله . وقرئ : يرهقهم ذلة ، بالياء ﴿ من الله من عاصم ﴾ أى لا يعصمهم أحد من سخط الله وعذابه . ويجوز ما لهم من جهة الله ومن عنده من يعصمهم كما يكون للمؤمنين ﴿ مظلاً ﴾ حال من الله . ومن قرأ ( قطعاً ) بالسكون من قوله ( بقطع من الليل ) جعله صفة له . وتعضده قراءة أبي بن كعب : كأنما يغشى وجوههم قطع من الليل مظلم . فإن قلت : إذا جعلت مظلاً حالاً من الليل ، فالعامل فيه ؟ قلت : لا يخلو إما أن يكون ( أغشيت ) من قبل إن ( من الليل ) صفة لقوله ( قطعاً ) فكان إفضاؤه إلى الموصوف كما فضائه إلى الصفة ، وإما أن يكون معنى الفعل في ( من الليل ) .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزِيلُنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا بَنَاتُنَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾

﴿ مكانكم ﴾ الزموا مكانكم لا تبرحوا حتى تنظروا ما يفعل بكم . و ﴿ وأنتم ﴾ أكد به الضمير في مكانكم لسد مسدّ قوله الزموا ﴿ وشركاؤكم ﴾ عطف عليه . وقرئ ( وشركاءكم ) على أن الواو بمعنى مع ، والعامل فيه ما في مكانكم من معنى الفعل ﴿ فزيلنا بينهم ﴾ ففرقنا بينهم وقطعنا أقرانهم . والوصل <sup>(١)</sup> التي كانت بينهم في الدنيا . أو فباعدنا بينهم بعد الجمع بينهم في

(١) قوله «أقرانهم» مفردة «قرن» بالتحريك وهو جبل يقرن به البعيران ، كما في الصحاح . وقوله «والوصل» مفردة «وصلة» أى اتصال وفريعة ، كما في الصحاح أيضاً . (ع)

الموقف . وتبرؤ شركائهم منهم ومن عبادتهم ، كقوله تعالى ( ثم قيل لهم أينما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا ) . وقرئ : فزايلا بينهم ، كقولك : صاعر خده وصعره ، وكلمته وكلته . ( ما كنتم إيانا تعبدون ) إنما كنتم تعبدون الشياطين ، حيث أمروكم أن تتخذوا لله أنداداً فأطعنوهم .

فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا يَبِينُنَا وَيُنْصِرُنَا إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾  
هَٰذَا لَكَ تَبَلُّوْا كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ  
مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

( إن كنا ) هي الخففة من الثقلية ، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية ، وهم الملائكة والمسيح ومن عبده من دون الله من أولى العقل ، وقيل : الأصنام ينطقها الله عز وجل فتشافهم بذلك مكان الشفاعة التي زعموها وغلقوا بها أطماعهم ( هنالك ) في ذلك المقام وفي ذلك الموقف أوفى ذلك الوقت على استعارة اسم المكان للزمان ( تبلوا كل نفس ) تختبر وتذوق ( ما أسلفت ) من العمل فتعرف كيف هو ، أفيح أم حسن ، أنافع أم ضار ، أمقبول أم مردود ؟ كما يختبر الرجل الشيء ويتعرفه ليكتنه حاله . ومنه قوله تعالى ( يوم تبلى السرائر ) وعن عاصم : تبلو كل نفس ، بالنون ونصب كل : أى تختبرها باختبار ما أسلفت من العمل ، فنعرف حالها بمعرفة حال عملها : إن كان حسناً فهي سعيدة ، وإن كان سيئاً فهي شقية . والمعنى : نفعل بها فعل الخابر ، كقوله تعالى ( ليلولكم أيكم أحسن عملاً ) ويجوز أن يراد نصيب بالبلاء وهو العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر . وقرئ : تلو ، أى تتبع ما أسلفت ؛ لأن عمله هو الذى يهديه إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار . أو تقرأ فى صحتها ما قدمت من خير أو شر ( مولا هم الحق ) ربهم الصادق ربوبيته ؛ لأنهم كانوا يتولون ما ليس لربوبيته حقيقة . أو الذى يتولى حسابهم وثوابهم ، العدل الذى لا يظلم أحداً . وقرئ : الحق ، بالفتح على تأكيد قوله ( ردوا إلى الله ) كقولك هذا عبد الله الحق لا الباطل . أو على المدح كقولك : الحمد لله . أهل الحمد ( وضل عنهم ما كانوا يفترون ) وضاع عنهم ما كانوا يدعون أنهم شركاء لله . أو بطل عنهم ما كانوا يختلقون من الكذب وشفاعة الآلهة .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمْتِ وَيُخْرِجُ الْمَمْتِ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يَدَّبِّرُ الْأُمُورَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ

قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ قَدْ لَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ  
فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ

### لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾

(قل من يرزقكم من السماء والأرض) أي يرزقكم منها جميعاً، <sup>(١)</sup> لم يقتصر برزقكم على جهة واحدة لفيض عليكم نعمته ويوسع رحمته (من يملك السمع والأبصار) من يستطيع خلقهما وتسويتهما على الحد الذي سوياً عليه من الفطرة العجيبة. أو من يحميهما ويحفظهما من الآفات مع كثرتها في المدد الطوال، وهما لطيفان يؤذيها أدنى شيء بكلامه وحفظه (ومن يدبر الأمر) ومن يلى تدبير أمر العالم كله، جاء بالعموم بعد الخصوص (أفلا تتقون) أفلا تقون أنفسكم ولا تحذرون عليها عقابه فيما أنتم بصدده من الضلال (فذلكم) إشارة إلى من هذه قدرته وأفعاله (ربكم الحق) الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه لمن حقق النظر (فماذا بعد الحق إلا الضلال) يعنى أن الحق والضلال لا واسطة بينهما، فن تخطى الحق وقع في الضلال (فأنى تصرفون) عن الحق إلى الضلال، وعن التوحيد إلى الشرك، وعن السعادة إلى الشقاء (كذلك) مثل ذلك الحق (حقّت كلمة ربك) أى كما حق وثبت أن الحق بعده الضلال، أو كما حق أنهم مصروفون عن الحق، فكذلك حقّت كلمة ربك (على الذين فسقوا) أى تمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه، و (أنهم لا يؤمنون) بدل من الكلمة أى حق عليهم انتفاء الإيمان، وعلم الله منهم ذلك. أو حق عليهم كلمة الله أنهم من أهل الخذلان، وأن إيمانهم غير كائن. أو أراد بالكلمة: العدة بالعذاب، وأنهم لا يؤمنون لتعليل، بمعنى: لأنهم لا يؤمنون.

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ  
ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ  
قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ  
يُهْدَىٰ قُلْ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٥﴾

(١) قال محمود: ومعناه أى من يرزقكم منها جميعاً... الخ، قال أحمد: وهذه الآية كالخلة لوجوه القدريّة الزاعمين أن الأرزاق منقسمة، فنها مازقة الله للعبد وهو الحلال، ومنها مازقة العبد لنفسه وهو الحرام وهذه الآية نافية عليهم هذا الشرك الحق لوسموا (أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون).

فإن قلت: كيف قيل لهم ﴿هل من شركائكم من يبدؤوا الخلق ثم يعيده﴾ وهم غير معترفين بالإعادة؟ قلت: قد وضعت إعادة الخلق لظهور برهانها موضع ما إن رفعه دافع كان مكابراً راداً للظاهر البين الذي لا مدخل للشبهة فيه، دلالة على أنهم في إنكارهم لها منكرون أمراً مسلماً معترفاً بصحته عند العقلاء، وقال لئليه صلى الله عليه وسلم ﴿قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده﴾ فأمره بأن ينوب عنهم في الجواب، يعنى أنه لا يدعهم لجأهم ومكابرتهم أن ينطقوا بكلمة الحق فكلم عنهم. يقال: هداه للحق وإلى الحق فجمع بين اللغتين: ويقال: هدى بنفسه بمعنى اهتدى، كما يقال: شرى بمعنى اشترى. ومنه قوله ﴿أمن لا يهدى﴾ (١) وقرئ لا يهتدى بفتح الهاء وكسرها مع تشديد الدال. والأصل: يهتدى، فأدغم وفتحت الهاء بحركة التاء، أو كسرت لانتقاء الساكنين، وقد كسرت الياء لاتباع ما بعدها. وقرئ: إلا أن يهدى من هداه وهداه للبالغة. ومنه قولهم: تهدى. ومعناه أن الله وحده هو الذى يهدى للحق، بما ركب في المكلفين من العقول وأعطاهم من التمكين للنظر في الأدلة التى نصبها لهم، وبما لطف بهم ووفقهم وألهمهم وأخطر بياهم ووقفهم على الشرائع، فهل من شركائكم الذين جعلتم أنداداً لله أحد من أشرفهم كالملائكة والمسيح وعزير، يهدى إلى الحق مثل هداية الله. ثم قال: أفن يهدى إلى الحق هذه الهداية أحق بالاتباع، أم الذى لا يهدى أى لا يهتدى بنفسه، أو لا يهدى غيره إلا أن يهديه الله وقيل: معناه أم من لا يهتدى من الأولاد إلى مكان فينتقل إليه ﴿إلا أن يهدى﴾ إلا أن ينقل، أو لا يهتدى ولا يصح منه الاهتداء إلا أن ينقله الله من حاله إلى أن يجعله حيواناً مكلفاً فيهديه ﴿فالكم كيف تحكمون﴾ بالباطل، حيث تزعمون أنهم أنداد الله.

وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ

عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

﴿وما يتبع أكثرهم﴾ فى إقرارهم بالله ﴿إلا ظناً﴾ لأنه قول غير مستند إلى برهان عندهم ﴿إن الظن﴾ فى معرفة الله ﴿لا يغنى من الحق﴾ وهو العلم ﴿شيئاً﴾ وقيل: وما يتبع أكثرهم فى قولهم للأصنام أنها آلهة وأنها شفعاء عند الله إلا الظن. والمراد بالأكثر: الجميع ﴿إن الله عليم﴾ وعيد على ما يفعلون من اتباع الظن وتقليد الآباء. وقرئ: تفعلون، بالتاء.

(١) قوله «أم من لا يهدى» من قولهم: هدى بنفسه. أم من لا يهدى، كبرى. وقوله: بفتح الهاء... الخ: بقيت القراءة بكسرها مع التشديد، وقد أشار إليها بقوله «أو كسرت» والقراءة كبرى بحرة وعلى. وبالفتح مع التشديد للسكى والشامى. وبالكسر مع المعاصم. والأصل: يهتدى. وهى قراءة عبد الله، أفاده النسي. (ع)



وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَأَرِيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّابَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَذَابُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾

(وما كان هذا القرآن) افتراء (من دون الله ولكن) كان (تصديق الذي بين يديه) وهو ما تقدمه من الكتب المنزلة، لأنه معجز دونها فهو عيار عليها وشاهد لصحتها، كقوله تعالى (هو الحق مصدق لما بين يديه) وقرئ: ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب، على: ولكن هو تصديق وتفصيل. ومعنى (وما كان أن يفترى) وما صح وما استقام، وكان محالاً أن يكون مثله في علو أمره وإعجازه مفترى (وتفصيل الكتاب) وتبيين ما كتب وفرض من الأحكام والشرائع، من قوله (كتاب الله عليكم). فإن قلت: بم اتصل قوله (لأريْب فيهِ من رب العالمين) قلت: هو داخل في حيز الاستدراك. كأنه قال: ولكن كان تصديقاً وتفصيلاً منتفياً عنه الزيب كائناً من رب العالمين. ويجوز أن يراد: ولكن كان تصديقاً من رب العالمين وتفصيلاً منه لأريْب في ذلك، فيكون (من رب العالمين) متعلقاً بتصديق وتفصيل، أو يكون (لأريْب فيهِ) اعتراضاً، كما تقول: زيد لا شك فيه كريم (أم يقولون افتراه) بل يقولون اختلقه، على أن الهمزة تقرير لإلزام الحجة عليهم. أو إنكار لقولهم واستبعاد. والمعنيان متقاربان (قل) إن كان الأمر كما تزعمون (فأتوا) أتم على وجه الافتراء (بسورة مثله) فأنتم مثلي في العرية والفصاحة. ومعنى (بسورة مثله) أي شبيهة به في البلاغة وحسن النظم. وقرئ: بسورة مثله، على الإضافة، أي: بسورة كتاب مثله (وادعوا) من دون الله (من استطعتم) من خلقه للاستعانة به على الإتيان بمثله، يعني: أن الله وحده هو القادر على أن يأتي بمثله لا يقدر على ذلك أحد غيره، فلا تستعينوه وحده، ثم استعينوا بكل من دونه (إن كنتم صادقين) أنه افتراء (بل كذبوا) بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن، وفاجؤه في بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه؛ وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم، كالناشئ على التقليد من الخشوية،

إذا أحسّ بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه - وإن كانت أضوا من الشمس في ظهور الصحة وبيان الاستقامة - أنكرها في أول وهلة ، واشتأز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر في صحة أو فساد ، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عدها من المذاهب . فإن قلت : ما معنى التوقع في قوله ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ ؟ قلت : معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل <sup>(١)</sup> ، تقليداً للآباء . وكذبوه بعد التدبر ، ترداداً وعناداً ، فقدمهم بالتسرع إلى التكذيب قبل العلم به ، وجاء بكلمة التوقع ليؤذن أنهم علموا بعد علو شأنه وإعجازه لما كثر عليهم التحذير ، ورازوا قواهم <sup>(٢)</sup> في المعارضة واستيقنوا عجزهم عن مثله ، فكذبوا به بغياً وحسداً ﴿ كذلك ﴾ أى مثل ذلك التكذيب ﴿ كذب الذين من قبلهم ﴾ يعنى قبل النظر في معجزات الأنبياء وقبل تدبرها من غير إنصاف من أنفسهم ، ولكن قلدوا الآباء وعاندوا . وقيل : هو في الذين كذبوا وهم شاكون . ويجوز أن يكون معنى ﴿ ولما يأتهم تأويله ﴾ ولم يأتهم بعد تأويل ما فيه من الإخبار بالغيوب أى عاقبته ، حتى يتبين لهم أهو كذب أم صدق ، يعنى أنه كتاب معجز من جهتين : من جهة إعجاز نظمه ، ومن جهة ما فيه من الإخبار بالغيوب ، ففسر عوا إلى التكذيب به قبل أن ينظروا في نظمه وبلوغه حد الإعجاز ، وقبل أن يخبروا أخباره بالمفنيات وصدقه وكذبه ﴿ ومنهم من يؤمن به ﴾ يصدق به في نفسه ، ويعلم أنه حق ، ولكنه يعاند بالتكذيب . ومنهم من يشك فيه لا يصدق به ، أو يكون للاستقبال ، أى : ومنهم من سيؤمن به ومنهم من سيعصر ﴿ وربك أعلم بالمفسدين ﴾ بالمعاندين ، أو المصرين .

وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ

وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾

﴿ وإن كذبوك ﴾ وإن تموا على تكذيبك <sup>(٣)</sup> ويثبت من إجابتهم ، فتنبرأ منهم وخلصهم فقد أعذرت ، كقوله تعالى ﴿ فإن عصوك فقل لى برى ﴾ وقيل : هى منسوخة بآية السيف .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَهَكَ أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ ﴿٤٢﴾  
وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَهَكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَى وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٤٣﴾

(١) قال محمود : « معناه أنهم كذبوا به على البديهة قبل التدبر ومعرفة التأويل ... الخ » قال أحد : وكان التكذيب قبل الإحاطة بعلمه ربما عذراً ما للكذب ، فجاءت كلمة لما مشعرة بأنهم قد أحاطوا بعلمه حتى تنحس أعذارهم ويتحقق شقاؤهم ، والله أعلم .

(٢) قوله « ورازوا قواهم » أى جربوها وخبروها . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله « وإن تموا على تكذيبك » أى مضوا عليه ولم يرجعوا عنه ، أفاده الصحاح . (ع)

﴿ومنهم من يستمعون إليك﴾ معناه: ومنهم ناس يستمعون إليك إذا قرأت القرآن وعلمت الشرائع، ولكنهم لا يعون ولا يقبلون، وناس ينظرون إليك ويعاينون أدلة الصدق وأعلام النبوة ولكنهم لا يصدقون. ثم قال: أطمع أنك تقدر على إسماع الصم ولو انضم إلى صميمهم عدم عقولهم؛ لأن الأصم العاقل ربما تفرس واستدل إذا وقع في صماخه دوى الصوت، فإذا اجتمع سلب السمع والعقل جميعاً فقد تم الأمر. وأتحسب أنك تقدر على هداية العمى ولو انضم إلى العمى - وهو فقد البصر - فقد البصيرة؛ لأن الأعمى الذى له في قلبه بصيرة قد يحس ويتظن<sup>(١)</sup>. وأما العمى مع الحق فجهد البلاء، يعنى: أنهم في اليأس من أن يقبلوا ويصدقوا، كالصم والعمى الذين لا بصائر لهم ولا عقول. وقوله ﴿أفأنت... أفأنت...﴾ دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقسر والإلجاء، كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى المسلوبى العقل حديدى السمع والبصر راجحى العقل، إلا هو وحده.

إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

﴿إن الله لا يظلم الناس شيئاً﴾ أى لا ينقصهم شيئاً مما يتصل بمصالحهم من بعثة الرسل وإزالة الكتب، ولكنهم يظلمون أنفسهم بالكفر والتكذيب. ويجوز أن يكون وعيداً للمكذبين، يعنى: أن ما يلحقهم يوم القيامة من العذاب لاحق بهم على سبيل العدل والاستيجاب، ولا يظلمهم الله به، ولكنهم ظلموا أنفسهم باقتراف ما كان سبباً فيه.

وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ

خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾

﴿إلا ساعة من النهار﴾ يستقربون وقت لبثهم في الدنيا. وقيل في القبور، لهول ما يرون ﴿يتعارفون بينهم﴾ يعرف بعضهم بعضاً، كأنهم لم يتعارفوا إلا قليلاً، وذلك عند خروجهم من القبور ثم ينقطع التعارف بينهم لشدة الأمر عليهم. فإن قلت: (كأن لم يلبثوا) و(يتعارفون) كيف موقعهما؟ قلت: أما الأولى فحال من دهم، أى يحشرهم مشبهين بمن لم يلبث إلا ساعة. وأما الثانية فإما أن تتعلق بالظرف، وإما أن تكون مبينة، لقوله: كأن لم يلبثوا إلا ساعة؛ لأن التعارف لا يبق مع طول العهد وينقلب تناكراً ﴿قد خسر﴾ على إرادة القول، أى يتعارفون بينهم قائلين ذلك، أو هي شهادة من الله تعالى على خسرانهم. والمعنى أنهم وضعوا في تجارتهم<sup>(٢)</sup>

(١) قوله «ويتظن» أى يعمل ظنه. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «وضعوا في تجارتهم» في الصحاح: وضع الرجل في تجارته وأرضع. على ما لم يسم فاعله. وضعاً فيها، أى خسر. (ع)

ويعمهم الإيمان بالكفر (وما كانوا مهتدين) للتجارة عارفين بها، وهو استئناف فيه معنى التعجب، كأنه قيل: ما أخسرهم!

وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾

(فإلينا مرجعهم) جواب توفينك، وجواب نرينك محذوف، كأنه قيل: وإما نرينك بعض الذي نعدهم في الدنيا فذاك، أو توفينك قبل أن نريكه فتحن نريكه في الآخرة. فإن قلت: الله شهيد على ما يفعلون في الدارين، فما معنى ثم؟ قلت: ذكرت الشهادة والمراد مقتضاها وتيجتها وهز العقاب، كأنه قال: ثم الله معاقب على ما يفعلون. وقرأ ابن أبي عبة: ثم، بالفتح، أى هنالك. ويجوز أن يراد: أن الله مؤدّ شهادته على أفعالهم يوم القيامة، حين ينطق جلودهم وألسنتهم وأيديهم وأرجلهم شاهدة عليهم.

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾

(ولكل أمة رسول) يبعث إليهم لينبئهم على التوحيد، ويدعوهم إلى دين الحق (فإذا جاءهم رسولهم) بالبينات فكذبوه ولم يتبعوه (قضى بينهم) أى بين النبي ومكذبيه (بالقسط) بالعدل، فأبغى الرسول وعذب المكذبون، كقوله (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) أولكل أمة من الأمم يوم القيامة رسول تنسب إليه وتدعى به، فإذا جاء رسولهم الموقف ليشهد عليهم بالكفر والإيمان، كقوله تعالى (وجيء بالثبين والشهداء وقضى بينهم بالحق).

وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

(متى هذا الوعد) استعجال لما وعدوا من العذاب استبعادا له (لا أملك لنفسي ضرا) من مرض أو فقر (ولا نفعا) من صحة أو غنى (إلا ما شاء الله) استثناء منقطع: أى ولكن ما شاء الله من ذلك كأن، فكيف أملك لكم الضرر وجلب العذاب؟ (لكل أمة أجل) يعنى أن عذابكم له أجل مضروب عند الله، وحد محدود من الزمان (إذا جاء) ذلك الوقت أنجز وعدكم لا محالة، فلا تستعجلوا. وقرأ ابن سيرين: فإذا جاء آجالهم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ يَبْتَئًا أَوْ نَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ  
 الْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَأَنْتُمْ إِذَا مَآوِعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلَانَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ  
 تَسْتَعِجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا  
 بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾

﴿يَا نَا﴾ نصب على الظرف، بمعنى . وقت يبات . فإن قلت : هلا قيل ليلاً أو نهاراً ؟ قلت :  
 لأنه أريد : إن أتاكم عذابه وقت يبات فيبتكم وأنتم ساهون نائمون لا تشعرون ، كما يبيت العدو  
 المباغت . والييات بمعنى التبييت ، كالسلام بمعنى التسليم ، وكذلك قوله ﴿نهاراً﴾ معناه في وقت  
 أنتم فيه مشتغلون بطلب المعاش والكسب . ونحوه ﴿يأاتا وهم نائمون﴾ ، (ضحى وهم يلعبون)  
 الضمير في ﴿منه﴾ للعذاب . والمعنى : أن العذاب كله مكروه من المذاق موجب للنفار ، فأى شيء  
 يستعجلون منه وليس شيء منه يوجب الاستعجال . ويجوز أن يكون معناه التعجب ، كأنه قيل :  
 أى شيء هول شديد <sup>(١)</sup> يستعجلون منه ، ويجب أن تكون من ، للبيان في هذا الوجه . وقيل :  
 الضمير في ﴿منه﴾ لله تعالى . فإن قلت : بهم تعلق الاستفهام ؟ وأين جواب الشرط ؟ قلت : تعلق  
 بأرايتم ؛ لأن المعنى : أخبروني ماذا يستعجل منه المجرمون ، وجواب الشرط محذوف وهو :  
 تندموا على الاستعجال ، أو تعرفوا الخطأ فيه . فإن قلت : فهلا قيل : ماذا تستعجلون منه <sup>(٢)</sup> .  
 قلت : أريدت الدلالة على موجب ترك الاستعجال وهو الإجماع ؛ لأن من حق المجرم أن يخاف  
 التعذيب على إجرامه ، وبذلك فرعاً من بحيته وإن أبطأ ، فضلاً أن يستعجله . ويجوز أن يكون  
 (ماذا يستعجل منه المجرمون) جواباً للشرط ، كقولك : إن أتيتك ماذا تطعمنى ؟ ثم تعلق الجملة  
 بأرايتم ، وأن يكون ﴿أنتم إذا ما وقع آمنتم به﴾ جواب الشرط ، و(ماذا يستعجل منه المجرمون)  
 اعتراضاً . والمعنى : إن أتاكم عذابه آمنتم به بعد وقوعه حين لا ينفعكم الإيمان ، ودخول حرف  
 الاستفهام على ثم ، كدخوله على الواو والفاء في قوله (أفأمن أهل القرى) ، (أو أمن أهل القرى) .  
 ﴿آلان﴾ على إرادة القول ، أى : قيل لهم إذا آمنوا بعد وقوع العذاب : آلاّن آمنتم به (وقد  
 كنتم به تستعجلون) معنى : وقد كنتم به تكذبون ؛ لأن استعجالهم كان على جهة التكذيب

(١) قوله «أى شيء هول شديد» لعله أى شيء أذى هولاً شديداً . (ع)

(٢) قال محمود : «إن قلت هلا قيل ماذا تستعجلون منه ... الخ» ؟ قال أحمد : وفي هذا النوع البليغ نكتتان ،  
 إحداها : وضع الظاهر مكان المضمّر . والأخرى : ذكر الظاهر بصيغة زائدة مناسبة للصدر ، وكلاهما مستقل  
 بوجه من البلاغة والمبالغة ، والله أعلم .

والإنكار. وقرئ: آلان، بحذف الهمزة التي بعد اللام وإلقاء حركتها على اللام ﴿ثم قبل الذين ظلموا﴾ عطف على ﴿قبل، المضر قبل آلان.

وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾  
 ﴿ويستنبئونك﴾ ويستخبرونك فيقولون ﴿أحق هو﴾ وهو استفهام على جهة الإنكار والاستهزاء. وقرأ الأعمش: ألحق هو، وهو أدخل في الاستهزاء، لتضمنه معنى التعريض بأنه باطل. وذلك أن اللام للجنس، فكأنه قيل: أهو الحق لا الباطل؟ أو أهو الذي سميتوه الحق، والضمير للعذاب الموعود. و﴿أى﴾ بمعنى نعم، في القسم خاصة، كما كان وهل، بمعنى قد، في الاستفهام خاصة. وسمعتهم يقولون في التصديق: إيوا. فيصلونه بواو القسم ولا ينطقون به وحده ﴿وما أنتم بمعجزين﴾ بفاتين العذاب، وهو لاحق بهم لا محالة.

وَلَوْ أَنَّ لِنَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ  
 لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ  
 مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾  
 هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

﴿ظلمت﴾ صفة لنفس على: ولو أن لكل نفس ظالمة ﴿ما في الأرض﴾ أى ما في الدنيا اليوم من خزائنها وأموالها وجميع منافعها على كثرتها ﴿لافتدت به﴾ لجعلته فدية لها. يقال: فداءه فافتدى. ويقال: افتداه أيضاً بمعنى فداه ﴿وأسروا الندامة لما رأوا العذاب﴾ لأنهم بهتوا لرؤيتهم ما لم يحتسبوه ولم يخطر ببالهم، وعانوا من شدة الأمر وتفاقم ما سابههم قواهم وبهرهم، فلم يطيقوا عنده بكاء ولا صراخاً ولا ما يفعله الجازع، سوى إسرار الندم والحسرة في القلوب، كما ترى المتقدم للصلب يشخه ما دهمه من فظاعة الخطب، ويغلب حتى لا ينبس بكلمة <sup>(١)</sup> ويبقى جامداً مبهوتاً. وقيل أسروا رؤسائهم الندامة من سفلتهم الذين أضلواهم، حياء منهم وخوفاً من توبيخهم. وقيل: أسروها أخلصوها، إما لأن إخفاءها إخلاصها، وإما من قولهم: سر الشيء، لخالصه. وفيه تهكم بهم وبأخطائهم وقت إخلاص الندامة. وقيل: أسروا الندامة: أظهروها، من قولهم: أسر الشيء وأشره إذا أظهره. وليس هناك تجلد ﴿وقضى بينهم﴾ أى بين الظالمين والمظلومين. دل على ذلك ذكر الظلم. ثم أتبع ذلك الإعلام بأن له الملك كله، وأنه

(١) قوله «لا ينبس بكلمة» أى لا يتكلم. أفاده الصحاح. (ع)

المثيب المعاقب ، وما وعده من الثواب والعقاب فهو حق . وهو القادر على الإحياء والإماتة ، لا يقدر عليهما غيره ، وإلى حسابه وجزائه المرجع ، ليعلم أن الأمر كذلك ، فيخاف ويرجى ، ولا يغتر به المغترون .

بِأَيِّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾

﴿ قد جاءكم موعظة ﴾ أى قد جاءكم كتاب جامع لهذه الفوائد من موعظة وتنبية على التوحيد ﴿ و ﴾ هو ﴿ شفاء ﴾ أى دواء ﴿ لما فى ﴾ صدوركم من العقائد الفاسدة ودعاء إلى الحق ﴿ ورحمة ﴾ لمن آمن به منكم . أصل السلام : بفضل الله وبرحمته فليفرحوا ، فبذلك فليفرحوا . والتسكير للتأكيد . التقرير ، وإيجاب اختصاص الفضل والرحمة بالفرح دون ما عدهما من فوائد الدنيا ، لحذف أحد الفعلين لدلالة المذكور عليه . والفاء داخلة لمعنى الشرط : كأنه قيل : إن فرحوا بشيء فليخصوهما بالفرح ، فإنه لا مفروح به أحق منهما . ويجوز أن يراد : بفضل الله وبرحمته فليعتنوا فبذلك فليفرحوا . ويجوز أن يراد : قد جاءكم موعظة بفضل الله وبرحمته ، فبذلك : فبمجئها فليفرحوا . وقرئ فلتفرحوا ، بالتاء وهو الأصل والقياس ، وهى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى . وعنه <sup>(١)</sup> ولتأخذوا مضاجعكم <sup>(٢)</sup> ، قالها فى بعض الغزوات . وفى قراءة أبى : فافرحوا ﴿ هو ﴾ راجع إلى ذلك . وقرئ : مما تجمعون ، بالياء والتاء . وعن أبى بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلا ﴿ قل بفضل الله وبرحمته ﴾ فقال بكتاب الله والإسلام <sup>(٣)</sup> ، وقيل « فضله ، الإسلام » ورحمته ، ما وعد عليه .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ ۚ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ

(١) هذا طرف من حديث أخرجه الترمذى من حديث معاذ بن جبل قال « أباطأ عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلاة الفجر حتى كادت الشمس تطلع ثم خرج فأقيمت الصلاة فصرى بنا صلاة تجوزها فلما سلم قال : فسانتم على مصافكم - الحديث ،

(٢) قوله « لتأخذوا مضاجعكم » لعل الرواية « مصافكم » . (ع)

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة من طريق مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى ﴿ قل بفضل الله ﴾ فذكره . وعن أبى سعيد كذلك أخرجه الطبرى ، وروى ابن مردويه من حديث أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قل بفضل الله وبرحمته » قال : بفضل الله القرآن وبرحمته أن جعلكم من الملة .

الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

### لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

(أرأيتم) أخبروني . و(ما أنزل الله) دماء في موضع النصب بأنزل ، أو بأرأيتم ، في معنى : أخبروني (لجعلتم منه حراما وحلالا) أى أنزل الله رزقا حلالا كله فبعضتموه وقتلتم : هذا حلال وهذا حرام وكقولهم (هذه أنعام وحرث حجر) ، (ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) (والله أذن لكم) متعلق بأرأيتم . وقل : تكرير للتوكيد . والمعنى : أخبروني الله أذن لكم في التحليل والتحريم فأنتم تفعلون ذلك بإذنه ، أم تتكذبون على الله في نسبة ذلك إليه . ويجوز أن تكون الهمزة للإنكار . وأم منقطعة بمعنى : بل أنفترون على الله ، تقريراً للافتراء . وكفى بهذه الآية زاجرة زجرأً بليغاً عن التجوز فيما يسئل عنه من الأحكام . وباعثة على وجوب الاحتياط فيه ، وأن لا يقول أحد في شيء جائز أو غير جائز إلا بعد إيقان وإتقان ، ومن لم يوقن فليثق بالله وليصمت ، وإلا فهو مفتر على الله (يوم القيامة) منصوب بالظن ، وهو ظن واقع فيه ، يعنى : أى شيء ظن المفتريين في ذلك اليوم ما يصنع بهم فيه وهو يوم الجزاء بالإحسان والإساءة ، وهو وعيد عظيم حيث أهم أمره . وقرأ عيسى بن عمر : وما ظن ، على لفظ الفعل . ومعناه : وأى ظن ظنوا يوم القيامة . وجيء به على لفظ الماضي لانه كأن فكأن قد كان (إن الله لذو فضل على الناس) حيث أنعم عليهم بالعقل ورحمهم بالوحى وتعليم الحلال والحرام (ولكن أكثرهم لا يشكرون) هذه النعمة ولا يتبعون ما هدوا إليه

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي

الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦١﴾

(وما تكون في شأن) دماء نافية والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والشأن : الأمر ، وأصله الهمز بمعنى القصد ، من شأنت شأنه إذا قصدت قصده . والضمير في (منه) للشأن لأن تلاوة القرآن شأن من شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل هو معظم شأنه ، أو للتزويل ، كأنه قيل : وما تتلو من التنزيل من قرآن ، لأن كل جزء منه قرآن ، والإضمار قبل الذكر تعظيم له . أو لله عز وجل . وما (تعملون) أنتم جميعاً (من عمل) أى عمل كان



﴿إلا كنا عليكم شهوداً﴾ شاهدين رقياء نحصى عليكم ﴿إذ تفيضون فيه﴾ من أفاض في الأمر إذا اندفع فيه ﴿وما يعزب﴾ قرئ بالضم والكسر : وما يبعد وما يغيب ، ومنه : الروض العازب ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ القراءة بالنصب والرفع ، والوجه النصب على نفي الجنس ، والرفع على الابتداء ليكون كلاماً برأسه ، وفي العطف على محل ﴿من مثقال ذرة﴾ أو على لفظ (مثقال ذرة) فتحاً في موضع الجزأ لا امتناع الصرف : إشكال ، لأن قولك لا يعزب عنه شيء إلا في كتاب ، مشكل . فإن قلت : لم قدمت الأرض على السماء ، بخلاف قوله في سورة سبأ (عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض) ؟ قلت : حق السماء أن تقدم على الأرض ، ولكنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ، ووصل بذلك قوله (لا يعزب عنه) لام ذلك أن قدم الأرض على السماء ، على أن العطف بالواو حكمه حكم التثنية .

أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا  
وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ  
لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾

﴿أولياء الله﴾ الذين يتولونه بالطاعة ويتولاهم بالكرامة . وقد فسر ذلك في قوله ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فهو توليهم إياه ﴿لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ فهو توليه إياهم . وعن سعيد بن جبیر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل : من أولياء الله ؟ فقال : هم الذين يذكر الله برؤيتهم <sup>(١)</sup> يعنى السمات والهيئات . وعن ابن عباس رضى الله عنه : الإخبات والسكينة . وقيل : هم المتحابون في الله . وعن عمر رضى الله عنه : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله ، قالوا يارسول الله ، خبرنا من هم وما أعمالهم ؟ فقلنا نحبهم ، قال : هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلی منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة من رواية أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبي المنيرة عنه به وابن مردويه من طريق يحيى الحماني عن يعقوب السهمي عن جعفر كذلك ووصله النسائي والبخاري من رواية محمد بن سعيد بن سابق عن يعقوب بذكر ابن عباس . قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولياء الله قال : الذين إذا رموا ذكر الله . قال البخاري : رواه غير محمد عن يعقوب بغير ذكر ابن عباس .

ثم قرأ الآية <sup>(١)</sup> (الذين آمنوا) نصب أو رفع على المدح أو على وصف الأولياء أو على الابتداء والخبر لهم البشرى، والبشرى في الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين في غير مكان من كتابه، وعن النبي صلى الله عليه وسلم «هي الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له» <sup>(٢)</sup>، وعنه عليه الصلاة والسلام: ذهب النبوة وبقيت المبشرات: وقيل: هي حجة الناس له والذكر الحسن. وعن أبي ذر: قلت: لرسول الله صلى الله عليه وسلم: الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس ففانك تلك عاجل بشرى المؤمن <sup>(٣)</sup>، وعن عطاء: لهم البشرى عند الموت تأتيم الملائكة بالرحمة. قال الله تعالى (تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة) وأما البشرى في الآخرة فتلقى الملائكة إياهم مسلمين مبشرين بالفوز والكرامة، وما يرون من بياض وجوههم وإعطاء الصحائف بأيمانهم وما يقرءون منها، وغير ذلك من البشارات

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه والطبري وأبو نعيم في أوائل الحليبة والبيهقي في الشعب من رواية جرير عن حمارة بن غزية عن أبي زرعة عن عمر به. قال البيهقي: أبو زرعة عن عمر مرسل. ورواه ابن مردويه من وجه آخر بذكر أبي هريرة بين أبي زرعة وعمر ورواه النسائي وابن حبان من وجه آخر عن أبي زرعة عن أبي هريرة. فلم يذكر عمر. وفي الباب عن أنس أخرجه ابن عدى والعقيلي والبيهقي في الشعب أيضا في العاشر منه وفيه واقد بن سلامة عن يزيد الرقاشي. وهما ضعيفان. وعن أبي الدرداء أخرجه الطبراني والبيهقي وفيه فرج بن فضالة وهو ساقط. وعن أبي مالك الأشعري. أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبراني والبيهقي وفيه شهر بن حوشب وعن ابن عمر أخرجه الحاكم من رواية زياد بن خيثمة عنه. وعن الملا بن زياد مرسلا. أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه.

(٢) أخرجه الترمذي وابن ماجه والحاكم والبيهقي وأحمد وإسحاق من طريق أبي سلة عن عبادة بن الصامت قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله (لهم البشرى في الحياة الدنيا)، قال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له، رجاله ثقات: إلا أنه معلول، فإن أبا سلة لم يسمع من عبادة، وقد أخرجه الترمذي والحاكم أيضا عن أبي سلة قال: ثبت عن عبادة، وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية حميد بن عبد الرحمن المروسي عن عبادة. وأخرجه الترمذي أيضا وأحمد وإسحاق وابن أبي شيبة وأبو يعلى والطبراني والبيهقي من طريق عطاء بن يسار عن رجل من أهل مصر: سألت أبا الدرداء عن قول الله تعالى (لهم البشرى في الحياة الدنيا) قال سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له، زاد بعضهم «وفي الآخرة الجنة» قال ابن أبي حاتم عن أبيه: هذا الرجل لا يعرف. وفي الباب عن ابن مسعود أخرجه ابن مردويه بلفظ «سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فلذكر مثل حديث عبادة» وعن جابر بن عبد الله بن رباب أخرجه البزار وابن عدى ومن طريق الكلبي عن أبي صالح عنه مرفوعا في قوله تعالى (لهم البشرى) - الحديث. وعن جابر أخرجه ابن مردويه من رواية جابر الجعفي عن أبي جعفر عن جابر. قال: جابر هذا هو ابن رباب. كذا قال فأخطأ. وقد أخرجه من وجه آخر عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر عن أبي هريرة أخرجه الطبراني وابن مردويه من رواية عمار بن محمد عن الأعمش عن أبي صالح عنه. قيل: انفراد به عمار. لكن أخرجه النسائي في الكشي من رواية إسحاق بن عبد الرحمن بن عمر: أن الأعمش حدثه، فذكره. وقال: أبو إسحاق لا أعرفه. والحديث خطأ. وعن عبد الله بن عمرو بن العاص أخرجه النسائي وأبو يعلى من رواية دراج عن عبد الرحمن بن جبير عنه. وزاد الرؤيا جزء من تسعة وأربعين جزءا من النبوة.

(٣) أخرجه مسلم بلفظ «فتحبه وتحمده الناس عليه».

﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ لا تغيير لأقواله ولا إخلاف لمواعيده ، كقوله تعالى ﴿ ما يبذل ﴾ القول لدى ) و ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى كونهم مبشرين في الدارين ، وكلنا المجلتين اعتراض ،

وَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

﴿ ولا يحزنك ﴾ وقرئ : ولا يحزنك ، من أحزنه ﴿ قولهم ﴾ تكذيبهم لك . وتهديدهم ، وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك ، وسائر ما يتكلمون به في شأنك ﴿ إن العزة لله ﴾ استئناف بمعنى التعليل ، كأنه قيل : ما لا أحزن ؟ فقيل : إن العزة لله جميعاً ، أى إن الغلبة والقهر في ملكه الله جميعاً ، لا يملك أحد شيئاً منها لاهم ولا غيرهم ، فهو يغلبهم وينصرهم عليهم ( كتب الله لأغلبن أنا ورسلي ) . ( إنا لننصر رسلنا ) وقرأ أبو حيوة . أن العزة ، بالفتح بمعنى : لأن العزة على صريح التعليل . ومن جعله بدلاً من قولهم ثم أنكروه ، فالمشكر هو تخريجهم ، لا ما أنكروا من القراءة به ﴿ هو السميع العليم ﴾ يسمع ما يقولون . ويعلم ما يدبرون ويعزمون عليه . وهو مكافئهم بذلك .

أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٦﴾

﴿ من في السموات ومن في الأرض ﴾ يعنى العقلاء المميزين وهم الملائكة والثقلان ، وإنما خصهم ، ليؤذن أن هؤلاء إذا كانوا له وفي ملكته فهم عبيد كلهم ، وهو سبحانه وتعالى ، ربهم ولا يصلح أحد منهم للرؤية ، ولا أن يكون شريكاً له فيها ، فما وراءهم مما لا يعقل أحق أن لا يكون له ندأ وشريكاً ، وليدل على أن من اتخذ غيره زباً من ملك أو إنسى فضلاً عن صنم أو غير ذلك ، فهو مبطل تابع لما أدى إليه التقليد وترك النظر . ومعنى : وما يتبعون شركاء ، أى : وما يتبعون حقيقة الشركاء وإن كانوا يسمونها شركاء ، لأن شركاء الله في الربوبية محال ﴿ إن يتبعون إلا ﴾ ظنهم أنها شركاء ﴿ وإن هم إلا يخرفون ﴾ يحزرون ويقدر أن تكون شركاء تقديراً باطلاً . ويجوز أن يكون ( وما يتبع ) فى معنى الاستفهام ، يعنى : وأى شىء يتبعون . و ( شركاء ) على هذا نصب يدعون ، وعلى الأول يتبع . وكان حقه . وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء شركاء ، فاقصر على أحدهما للدلالة . ويجوز أن تكون « ما ، موصولة معطوفة على « من ، كأنه قيل : والله ما يتبعه الذين يدعون من دون الله شركاء ، أى : وله شركاؤهم . وقرأ على بن أبى طالب رضى الله عنه : تدعون ، بالتاء ، ووجهه أن يحمل ( وما يتبع ) على الاستفهام ، أى : وأى شىء يتبع الذين تدعونهم شركاء من الملائكة والنبيين ، يعنى :

أنهم يتبعون الله ويطيعونه ، فما لكم لا تفعلون مثل فعلهم ؟ كقوله تعالى ( أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة ) ثم صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة فقال : إن يتبع هؤلاء المشركون إلا الظن ، ولا يتبعون ما يتبع الملائكة والنبيون من الحق

هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ

لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾

ثم نبه على عظيم قدرته ونعمته الشاملة لعباده التي يستحق بها أن يوحده بالعبادة ، بأنه جعل لهم الليل مظللاً ليسكنوا فيه مما يقاسون في نهارهم من تعب التردد في المعاش ، والنهار مضيقاً يبصرون فيه مطالب أرزاقهم ومكاسبهم ﴿ لقوم يسمعون ﴾ سماع معتبر مذكر .

قَالُوا آتَخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

﴿ سبحانه ﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد ، وتعجب من كثرتهم الحمقاء ﴿ هو الغني ﴾ علة لثني الولد لأن ما يطلب به الولد من يلد ، وما يطلبه له السبب في كله الحاجة ، فمن الحاجة متفتية عنه كان الولد عنه متفتياً ﴿ له ما في السموات وما في الأرض ﴾ فهو مستغن بملكه لم عن اتخاذ أحد منهم ولدا ﴿ إن عندكم من سلطان بهذا ﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله : ﴿ إن عندكم ﴾ على أن يجعل القول مكاناً للسلطان ، كقولك . ما عندكم بأرضكم موز ، كأنه قيل : إن عندكم فيما تقولون سلطان ﴿ أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾ لما نفي عنهم البرهان جعلهم غير عالمين ، فدل على أن كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس يعلم .

قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا

ثُمَّ إِنَّا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

﴿ يفترون على الله الكذب ﴾ بإضافة الولد إليه ﴿ متاع في الدنيا ﴾ أي افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا ، وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناصبه النبي صلى الله عليه وسلم بالتظاهر به ، ثم يلقون الشقاء المؤبد بعده .

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِن كَانَ كِبَارُكُمْ مُقَامِي

وَتَذَكِيرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ

لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ  
قَسَا لَكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَامِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ  
الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَتَبْجِئْهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ  
وَأَعْرِفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴿٧٣﴾

(كبر عليكم) عظم عليكم وشق وثقل . ومنها قوله تعالى ( وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين )  
ويقال : تعاضمه الأمر (مقاي) مكاني ، يعني نفسه . كما تقول : فعلت كذا المسكان فلان : وفلان  
ثقيل الظل . ومنه ( ولمن خاف مقام ربه ) بمعنى خاف ربه . أو قيامي <sup>(١)</sup> ومكثي بين أظهركم  
مدداً طويلاً ألف سنة إلا خمسين عاماً . أو مقامي <sup>(٢)</sup> وتذكيري : لأنهم كانوا إذا عطاوا الجماعة  
قاموا على أرجلهم يعظونهم ، ليسكون مكانهم بيناً وكلامهم مسموعاً ، كما يحكي عن عيسى صلوات  
الله عليه أنه كان يعظ الحراريين قائماً وهم قعود ( فأجمعوا أمركم وشركائكم ) من أجمع الأمر  
وأزمعه . إذا نواه وعزم عليه . قال :

\* هَلْ أَغْدُونَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعٌ \* (٣)

والواو بمعنى . مع . يعني : فأجمعوا أمركم مع شركائكم . وقرأ الحسن : وشركاؤكم بالرفع ، عطفاً  
على الضمير المتصل ، وجاز من غير تأكيد بالمنفصل لقيام الفاصل مقامه لطول الكلام ، كما  
تقول : اضرب زيداً وعمرو . وقرئ : فأجمعوا من الجمع . وشركاءكم نصب للعطف على  
المفعول . أو لأن الواو بمعنى . مع . وفي قراءة أبي : فأجمعوا أمركم وادعوا شركاءكم . فإن قلت :  
كيف جاز إسناد الإجماع إلى الشركاء ؟ قلت : على وجه التكميل ، كقوله ( قل ادعوا شركاءكم ثم  
كيدون ) . فإن قلت : ما معنى الأمرين ؟ أمرهم الذي يجمعونه . وأمرهم الذي لا يكون عليهم  
غمة ؟ قلت : أما الأمر الأول فالقصد إلى إهلاكه . يعني : فأجمعوا ما تريدون من إهلاكه  
واحتشدوا فيه وابدلوا وسعكم في كيدى . وإنما قال ذلك إظهاراً لقلة مبالاته وثقته بما وعده

(١) قوله «أو قيامي ومكثي» لعله أو مقامي بالضم . (ع)

(٢) قوله «أو مقامي وتذكيري» لعل هذا أو قيامي . (ع)

(٣) يالبت شعري والحوادث جمة هل أغدون يوماً وأمرى بجمع

قوله «والحوادث جمة» أي كثيرة . جملة اعتراضية . وأغدون : مؤكد بالنون الخفيفة . وأمرى بجمع : أي منوى  
مجزوم بامثاله . أو المضي : وشئلي بجمع بعد تفرقه ، وهي جملة حالية منفية عن خبر أغدون . أو خبرها . وزيدت  
الواو لتوكيد الربط . وأجمع بتعلق بالمفعول ، وجمع يتعلق بالمحسوس .

ربه من كلامه وعصمته إياه، وأنهم لن يجدوا إليه سبيلا . وأما الثاني ففيه وجهان ، أحدهما : أن يراد مصاحبهم له وما كانوا فيه معه من الحال الشديدة عليهم المكروهة عندهم ، يعنى : ثم أهلكونى لئلا يكون عيشكم بسببى غصة وحالكم عليكم غمة : أى غما وهما . والغم والغمة ، كالكرب والكربة . والثانى أن يراد به ما أريد بالأمر الأول ، والغمة السترة من غمه إذا ستره . ومنها قوله عليه السلام : ولا غمة فى فرائض الله ،<sup>(١)</sup> أى لا تستر ، ولكن يجاهر بها ، يعنى : ولا يكن قصدكم إلى إهلاكى مستورا<sup>(٢)</sup> عليكم ولكن مكشوفاً مشهوراً تجاهرونى به<sup>(٣)</sup> ثم أقضوا إلى<sup>(٤)</sup> ذلك الأمر الذى تريدون بى ، أى : أدوا إلى قطعته وتصحيحه ، كقوله تعالى ( وقضينا إليه ذلك الأمر ) أو أدوا إلى ما هو حق عليكم عندكم من هلاكى كما يقضى الرجل غريمه<sup>(٥)</sup> ولا تنظرون<sup>(٦)</sup> ولا تهملون . وقرئ : ثم أقضوا إلى<sup>(٧)</sup> ، بالفاء بمعنى : ثم انتهوا إلى بشركم . وقيل هو من أقضى الرجل إذا خرج إلى القضاء ، أى أصحروا به إلى<sup>(٨)</sup> وأبرزوه لى<sup>(٩)</sup> فإن توليت<sup>(١٠)</sup> فإن أعرضتم عن تذكيرى ونصيحى<sup>(١١)</sup> فإسألتكم من أجر<sup>(١٢)</sup> فما كان عندى ما ينفركم عنى وتهمونى لأجله من طمع فى أموالكم وطلب أجر على عظمتكم ( إن أجرى إلا على الله ) وهو الثواب الذى يثبني به فى الآخرة أى : ما نصحتكم إلا لوجه الله ، لا لغرض من أغراض الدنيا<sup>(١٣)</sup> وأمرت أن أكون من المسلمين<sup>(١٤)</sup> الذين لا يأخذون على تعليم الدين شيئا ولا يطلبون به دنيا ، يريد : أن ذلك مقتضى الإسلام ، والذى كل مسلم مأور به . والمراد أن يجعل الحجة لازمة لهم ويبرئ ساحتهم ، فذكر أن توليتهم لم يكن تفريط منه فى سوق الأمر معهم على الطريق الذى يجب أن يساق عليه ، وإنما ذلك لعنادهم وتمزدهم لا غير<sup>(١٥)</sup> فكذبوه<sup>(١٦)</sup> فتموا على تكذيبه<sup>(١٧)</sup> وكان تكذيبهم له فى آخر المدة المتطاولة كتكذيبهم فى أولها ، وذلك عند مشاركة الهلاك بالطوفان<sup>(١٨)</sup> وجعلناهم خلائف<sup>(١٩)</sup> يخلفون الهالكين بالغرق<sup>(٢٠)</sup> كيف كان عاقبة المنذرين<sup>(٢١)</sup> تعظيم لما جرى عليهم ، وتحذير لمن أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله ، وتسليته له .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ ٧٤

(من بعده) من بعد نوح (رسلا إلى قومهم) يعنى هودا وصالحا وإبراهيم ولوطا وشعبيا (فجاءهم

(١) هو طرف من حديث وائل بن حجر فى كتاب النبى صلى الله عليه وسلم إلى الأقبال ، وفيه : « ولا يؤصم فى الدين ولا غمة فى فرائض الله ، وقال : الغمة السترة ، أى لا تستر فى فرائض الله ، بل ظاهر بها .  
(٢) قوله « مستورا عليكم » لعله أراد ملتبسا ، فلذا قال عليكم ، كما أشار إليه النفس . (ع)  
(٣) قوله « فتموا على تكذيبه » أى استمروا . أفاده الصحاح . (ع)

بالبينات) بالحجج الواضحة المثبتة لدعواهم ﴿فأكانوا ليؤمنوا﴾ فأكان إيمانهم لإمتناعاً كالحال لشدة شكيمتهم في الكفر وتصميمهم عليه ﴿بما كذبوا به من قبل﴾ يريد أنهم كانوا قبل بعثة الرسل أهل جاهلية مكذبين بالحق . فما وقع فصل بين حالتهم بعد بعثة الرسل وقبلها ، كأن لم يبعث إليهم أحد ﴿كذلك نطبع﴾ مثل ذلك الطبع المحكم نطبع ﴿على قلوب المعتدين﴾ والطبع جار مجرى الكناية عن عنادهم ولجاجهم ، لأن الخذلان يتبعه . ألا ترى كيف أسند إليهم الاعتداء ووصفهم به .

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ وَهَارُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسِحْرٌ مُّبِينٌ ٧٦ قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ٧٧ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمًّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتِنَا وَتَكُونُ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمْ بِمُؤْمِنِينَ ٧٨

(من بعدهم) من بعد الرسل ﴿بآياتنا﴾ بالآيات التسع ﴿فاستكبروا﴾ عن قبولها ، وهو أعظم الكبر أن يتهاون العبيد برسالة ربهم بعد تبيينها ، ويتعظموا عن تقبلها ﴿وكانوا قوماً مجرمين﴾ كفاراً ذوى آثام عظام ، فلذلك استكبروا عنها واجترأوا على ردّها ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا﴾ فلما عرفوا أنه هو الحق ، وأنه من عند الله ، لا من قبل موسى وهرون ﴿قالوا﴾ لحجهم الشبهات ﴿إن هذا سحر مبين﴾ وهم يعلمون أن الحق أبعد شيء من السحر الذى ليس إلا تمويهاً وباطلاً . فإن قلت : هم قطعوا بقولهم ﴿إن هذا سحر مبين﴾ على أنه سحر ، (١) فكيف قيل لهم : أتقولون أسحر هذا ؟ قلت : فيه أوجه : أن يكون معنى قوله ﴿أتقولون للحق﴾ أتعيبونه وتطعنون فيه . وكان عليكم أن تذعنوا له وتعظموه ، من قولهم : فلان يخاف القالة ، وبين الناس نقاول إذا قال بعضهم لبعض ما يسوؤه ، ونحو القول : الذكر ، فى قوله (سمعنا فتي يذكرهم) ثم قال ﴿أسحر هذا﴾ فأنكر ما قالوه فى عيبه والطعن عليه ، بأن يحذف مفعول أتقولون وهو ما دل عليه قولهم ﴿إن هذا سحر مبين﴾ كأنه قيل . أتقولون ما تقولون ، يعنى قولهم : إن هذا سحر مبين ، ثم قيل : أسحر هذا ؟ وأن يكون جملة قوله ﴿أسحر هذا ولا يفلح الساحرون﴾ حكاية لكلامهم ، كأنهم قالوا : أجئنا بالسحر تطلبان به الفلاح ﴿ولا يفلح الساحرون﴾ كما قال

(١) قال محمود : «إن قلت هم قطعوا بقولهم إن هذا سحر مبين على أنه سحر ... الخ» قال أحد : وفى الفرق بين الوجهين غموض ، وإيضاحه أن نقول على الوجه الأول وقع كناية عن اللب ، فلا يتقاضى مفعولاً وفى الثانى على أنه يطلب مفعولاً والله أعلم .

موسى للسحرة: ما جئتم به آسحر، إن الله سيبطله ﴿ لتلفتنا ﴾ لتصرفنا . واللفت والقتل : أخوان ، ومطاوعهما الالتفات والافتتال ﴿ عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ يعنون عبادة الأصنام ﴿ وتكون لهما الكبرياء ﴾ أى الملك : لأن الملوك موصوفون بالكبر . ولذلك قيل للملك : الجبار ، ووصف بالصيد والشوس ، ولذلك وصف ابن الرقيات مصعباً فى قوله :

مُلْكُهُ مُلْكُ رَاقَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبْرُوتٌ مِنْهُ وَلَا كِبَرِيَاءُ <sup>(٣)</sup>

ينفى ما عليه الملوك من ذلك . ويجوز أن يقصدوا ذقهما وأنها إن ملسا أرض مصر تجبرا وتكبيرا ، كما قال القبطى لموسى عليه السلام : إن تريد إلا أن تكون جباراً فى الأرض ﴿ وما نحن لهما بمؤمنين ﴾ أى مصدقين لهما فيما جتما به . وقرئ : بطبع ، ويكون لهما ، بالياء .

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتَأْتُونِي بِكُلِّ سِحْرِ عَليمٍ <sup>(٧٩)</sup> فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلقُونَ <sup>(٨٠)</sup> فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ <sup>(٨١)</sup> وَيُخَيِّتُ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ <sup>(٨٢)</sup>

﴿ ما جئتم به ﴾ ما موصولة واقعة مبتدأ . و﴿ السحر ﴾ خبر ، أى الذى جئتم به هو السحر <sup>(١)</sup>

(١) لعبد الله بن قيس الرقيات . وقيل : لقيس الرقيات يمدح مصعباً ، سمي قيس الرقيات لأنه اتفق له أنه تزوج عدة نساء ، كل منهن تسمى رقية . وملك : وصف كحذر ، فلذلك نصب ذلك راقّة ، على المصدر . وروى دملكة ملكاً على المبتدأ والخبر . وضمير « فيه » للمصدر . أى : ليس فى ملكه جبروت منه ، أى من مصعب . ويحتمل أن الضميرين له . والجبروت : مبالغة فى الجبر والقهر ، أى : ليس فيه ذلك كغيره ، فهو أعظم الملوك .

(٢) قال محمود : « ما موصولة مبتدأ ، والسحر خبر أى الذى جئتم به ... الخ » قال أحمد : وليس المراد فى القراءة الأولى الاخبار بأن ماجاؤا به سحر خاصة ، ولكن مع تنزيه ماجا به عن كونه سحراً . وإنما يستفاد ذلك مما فى هذا النظم المخصوص من إعادة المحصر ، ولو مرت بخاطر الامام أبى المعالى فى مسألة تحريمه التكبير لم يبدل عن الاستشهاد بها على إعادة هذا النظم المحصر ، فانا نعلم أن موسى عليه السلام حيث أطلقه فانما أراد إضافة السحر إلى ماجاؤا به محصوراً فيه ، حتى لا يتعدى إلى الحق الذى جاء به هو منه شئ . وأما القراءة الثانية ففيها - والله أعلم - إرشاد إلى أن قول موسى عليه السلام أولاً ( أقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ) حكاية لقولهم ، ويكون ( أسحر هذا ) هو الذى قالوه ، ولا ينقض ذلك حكاية الله عنهم أنهم قالوا ( إن هذا لسحر مبين ) وذلك إما لأنهم قالوا الأمرين جميعاً : بدؤا بالاستفهام على سبيل الاستهزاء بالحق والاستهزاء بكونه حقاً ، والاستهزاء بالحق إنكاره ، بل قد يكون الاستفهام فى بعض المواضع أبت من الاخبار . الا ترى أنهم يقولون فى قوله : آنت أم سالم ، أبلغ فى البت من قوله : غفرا أنت أم سالم ؟ ثم ثنوا بصيغة الخبر الخاصة ببيت الإنكار ودعوى أنه سحر فقالوا : إن هذا لسحر مبين ، لحكى الله تعالى عنهم هذا القول الثاني ،



لا الذى سماه فرعون وقومه سحراً من آيات الله . وقرئ : السحر ، على الاستفهام . فعلى هذه القراءة وماه استفهامية ، أى : أى شيء جئتم به ، أهو السحر ؟ وقرأ عبدالله : ما جئتم به سحر . وقرأ أنى : ما أتيتم به سحر . والمعنى : لا ما أتيت به (إن الله سيظهره) سيمحقه أو يظهر بطلانه بإظهار المعجزة على الشعوذة (لا يصلح عمل المفسدين) لا يثبت ولا يديمه ، ولكن يسلط عليه الدمار (ويحق الله الحق) ويثبت (بكلماته) بأوامره وقضاياه . وقرئ : بكلمته ، بأمره ومشئته .

فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّنْ قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمُ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾

(فما آمن لموسى) فى أول أمره (إلا ذرية من قومه) إلا طائفة من ذرارى بنى إسرائيل ، كأنه قيل : إلا أولاد من أولاد قومه . وذلك أنه دعا الآباء فلم يجيبوه خوفاً من فرعون ، وأجابته طائفة من أبنائهم مع الخوف . وقيل : الضمير فى قومه لفرعون ، والذرية : مؤمن آل فرعون ، وآسية امرأته ، وخازنه ، وامرأة خازنه ، وماشطته . فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى قوله (وملئهم) ؟ قلت : إلى فرعون ، بمعنى آل فرعون ، كما يقال : ربيعة ومضر . أو لأنه ذو أصحاب يأتمرون له . ويجوز أن يرجع إلى الذرية ، أى على خوف من فرعون وخوف من أشراف بنى إسرائيل ، لأنهم كانوا يمنعون أعقابهم خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم . ويدل عليه قوله (أن يفتنهم) يريد أن يعذبهم (وإن فرعون لعال فى الأرض) لغالب فيها قاهر (وإنه لمن المسرفين) فى الظلم والفساد ، وفى الكبر والعن ، بادعائه الربوبية .

وَقَالَ مُوسَىٰ يَبْقَومُ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ

== ووبخهم موسى على قولهم الأول . ومعنى العبارتين ومآلها واحد . وإما أن لا يكونوا قالوا سوى (أسحر هذا) على سبيل الإنكار حسناً تقدم ، فكأن الله تعالى عنهم بآله ، لأنه يعلم أن مرادهم من الاستفهام الإنكار وسبب القول أنه سحر . وحكى موسى عليه السلام قولهم بلفظه ، ولم يؤده بعبارة أخرى . وحكاية القصص المتلوة فى الكتاب العزيز بصيغ مختلفة لأجل ما سرى أنها معان منقولة إلى اللغة العربية ، فيترجم عنها بالألفاظ المترادفة المتساوية المعاني . وحاصل هذا البحث : أن قول موسى عليه السلام (أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا) إنما حكى فيه قولهم ، وبرشد إلى ذلك أنه كافأهم عند ما أتوا بالسحر بمثل مقالهم مستفهماً ، فقال : ما جئتم به أسحر ؟ على قراءة الاستفهام قرصاً بوفاء على السواء ، والذي يحقق لك أن الاستفهام والاختيار فى مثل هذا المعنى مؤاهاهما واحد : أن الله تعالى حكى قول موسى عليه السلام (ما جئتم به السحر) على الوجهين : الخبر والاستفهام . على ما اقتضته القراءة ، وهو قول واحد دل على أن مؤدى الأمرين واحد ضرورة صدق الخبر . وإنما حمل الوبخ على تأويل القول بالنعيب ، أو إضمار مفعول تقولون . استشكالاً لوقوع الاستفهام حكياً بالقول ، والحكى أولاً عنهم الخبر . وقد أوضحنا أنه لا تنافر ولا تنافي بين الأمرين ، فشد هذا الفصل عرى التمسك ، فانه من دقائق الذكرك . والله الموفق .

مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾

وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾

(إن كنتم آمنتم بالله) صدقتم به وبآياته (فعليه توكلوا) فإليه أسندوا وأمركم في العصمة من فرعون . ثم شرط في التوكل الإسلام ، وهو أن يسلموا نفوسهم لله ، أي يجعلوها له سالمة خالصة لا حظاً للشيطان فيها ؛ لأن التوكل لا يكون مع التخليط . ونظيره في الكلام : إن ضربك زيد فاضربه ، إن كانت بك قوة (فقالوا على الله توكلنا) إنما قالوا ذلك ، لأن القوم كانوا مخلصين ، لا جرم أن الله سبحانه قبل توكلهم ، وأجاب دعاءهم ، ونجاهم وأهلك من كانوا يخافونه ، وجعلهم خلفاء في أرضه ، فمن أراد أن يصلح للتوكل على ربه والتفويض إليه ، فعليه برفض التخليط إلى الإخلاص (لا تجعلنا فتنة) موضع فتنة لهم ، أي : عذاب يعذبوننا ويفتنوننا عن ديننا . أو فتنة لهم يفتنون بنا ويقولون : لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا .

وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ يَبُوتَا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ

قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾

تبوأ المكان : اتخذها مباءة ، كقولك : توطنه ، إذا اتخذته وطناً . والمعنى اجعلوا بمصر بيوتاً من بيوتهم (١) مباءة لقومكما ومرجعاً يرجعون إليه للعبادة والصلاة فيه (واجعلوا بيوتكم) تلك (قِبْلَةً) أي مساجد متوجهة نحو القبلة وهي الكعبة ، وكان موسى ومن معه يصلون إلى الكعبة ، وكانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم في خفية من الكفرة ، لئلا يظهروا عليهم فيؤذوم ويفتنوم عن دينهم ، كما كان المؤمنون على ذلك في أول الإسلام بمكة . فإن قلت : كيف نوع الخطاب ، فتى أولاً ، ثم جمع ، ثم وحد آخر . قلت : خوطب موسى وهرون عليهما السلام أن يتبوأ لقومهما بيوتاً ، ويختاراهما للعبادة ، وذلك مما يفوض إلى الأنبياء . ثم سيق الخطاب عاماً لهما ولقومهما باتخاذ المساجد والصلاة فيها ، لأن ذلك واجب على الجمهور ، ثم خص موسى عليه السلام بالبشارة التي هي الغرض ، تعظيماً لها وللبشر بها .

وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ

فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾

(١) قوله « بمصر بيوتاً من بيوتهم » لعل الضمير لمصر . (ع)

الزينة : ما يزين به من لباس أو حلى أو فرش أو أثاث أو غير ذلك . وعن ابن عباس رضى الله عنه : كانت لهم من فسطاط مصر إلى أرض الحبشة جبال فيها معادن من ذهب وفضة وزبرجد وياقوت . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ ربنا ليضلوا عن سبيلك ﴾ ؟ قلت : هو دعاء بلفظ الأمر <sup>(١)</sup> ، كقوله (ربنا اطمس) ، (واشدد) ، وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيئاته عرضا مكثرا وردد عليهم النصائح والمواظظ زماناً طويلاً ، وحذرهم عذاب الله وانتقامه ، وأذهرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين ، ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً ، وعلى الإنذار إلا استكباراً ، وعن النصيحة <sup>(٢)</sup> إلا نبواً ، ولم يبق له مطمع فيهم ، وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا النفي والضلال ، وأن إيمانهم كالحال الذي لا يدخل تحت الصحة ، أو علم ذلك بوحى من الله - اشتد غضبه عليهم ، وأفرط مقته وكرهته لحالهم ، فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره ، كما تقول : لعن الله إبليس ، وأخرى الله الكفرة ، مع علمك أنه لا يكون غير ذلك ، وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم حيلة ، وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون <sup>(٣)</sup> فيه ، كأنه قال : ليثبتوا على ما هم عليه من الضلال . وليكونوا ضلالاً ، <sup>(٤)</sup> وليطبع الله على قلوبهم فلا يؤمنوا وما على منهم ، هم أحق بذلك وأحق ، كما يقوله الأب المشفق لولده الشاطر إذا ما لم يقبل منه ، حسرة على ما فاته من قبول نصيحته ، وحرماً <sup>(٥)</sup> عليه ، لا أن يريد خلاعته واتباعه هواه . ومعنى الشد على القلوب . الاستيثاق منها حتى لا يدخلها الإيمان ﴿ فلا يؤمنوا ﴾ جواب للدعاء الذى هو ، اشدد ، أو دعاء بلفظ النهى ، وقد

(١) قال محمود : « قلت هو دعاء بلفظ الأمر ... الخ » قال أحمد : وهذا من اعتزله الحنفى الذى هو أدق من ديب الفل ، يكاد الاطلاع عليه أن يكون كشفاً . ووجه ذلك أنه علم أن الظاهر بل والباطن أن اللام للتعليل ، وأن الفعل منصوب بها ، ومعنى ذلك إخبار موسى عليه السلام بأن الله إنما أهدم بالزينة والأموال وما يتبعها من النعم استدراجاً ليزدادوا إثماً وضلالة ، كما أخبر تعالى عن أمثالهم بقوله (إنما نلّى لهم ليزدادوا إثماً) وهذا المعنى منتظم على جعل اللام للتعليل ، والزخشرى بنى على القاعدة الفاسدة فى استحالة ذلك على الله تعالى ، لا اعتقاده أن من الجور أن يلى لهم فى الضلالة ويمأثمهم عليها ، فهو متبيل لما يرد من الآيات بعمل الحيلة فى تأويلها وردّها إلى معتقده وجعلها تبعاً له ، كما تقدم له فى تأويل قوله (ليزدادوا إثماً) وكأن من آية غراء رام أن يسترغتها ويطنى نورها بأمثال هذه التأويلات الرديئة لفظاً وعقداً ، وبأنى الله إلا أن يتم نوره ، ثم لا يسهله إلا أن يحمل موسى عليه السلام على أمثال هذه المعتقدات ، ولقد برأه الله وكان عند الله وجيباً .

(٢) قوله « وعن النصيحة ، لله وعلى » (ع)

(٣) قوله « يتسكعون ، فى الصحاح : « التسكع ، التماذى فى الباطل . » (ع)

(٤) قوله « وليكونوا ضلالاً ، هذا على قراءة ( ليضلوا ) بفتح الياء . والقراءة المشهورة ( ليضلوا ) بضمها .

وعبارة النسق : ليضلوا الناس عن طاعتك اهـ (ع)

(٥) قوله « وحرماً عليه ، فى الصحاح : الحرء - بالتحريك : الغضب . » (ع)

حلت اللام في ليضلوا على التعليل ، على أنهم جعلوا نعمة الله سبباً في الضلال ، فكأنهم أوتوها ليضلوا . وقوله ( فلا يؤمنوا ) عطف على ليضلوا . وقوله ( ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم ) دعاء معترض بين المعطوف والمعطوف عليه . وقرأ الفضل الرقاشي : أئتلك آيت؟ على الاستفهام ، واطمس بضم الميم .

قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

قرئ : دعواتكما . قيل : كان موسى يدعو وهرون يؤمن . ويجوز أن يكونا جميعاً يدعوان . والمعنى : إن دعاءكما مستجاب : وما طلبتما كائن ولكن في وقته ﴿ فاستقيما ﴾ فاتبنا على ما أتينا عليه من الدعوة والزيادة في إلزام الحجج ، فقد لبث نوح عليه السلام في قومه ألف عام إلا قليلا ولا تستعجلا . قال ابن جريج : فكث موسى بعد الدعاء أربعين سنة ﴿ ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون ﴾ أى لا تتبعنا طريق الجهلة بعادة الله في تعليقه الأمور بالمصالح ، ولا تعجلا فإن العجلة ليست بمصلحة . وهذا كما قال لنوح عليه السلام ( إني أعظك أن تكون من الجاهلين ) وقرئ : ولا تتبعان ، بالنون الخفيفة ، وكسرهما لالتقاء الساكنين تشبهاً بنون التثنية ، وبخفيف التاء من تبع .

وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُوا إِسْرَءِيلَ

وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾

قرأ الحسن : وجوزنا من أجاز المكان وجوزه وجأوزه ، وليس من جوز الذى فى بيت الأعشى :

\* وَإِذَا تَجَوَّزْنَا حِجَالَ قَبِيلَةٍ \* (٥)

(١) وإذا تجوزنا جبال قبيلة أخذت من الأخرى إليك جبالاً  
الأعشى . وشبه عهود الأمان التى يأخذها من القبيلة يتوثق ويتوصل بها إلى أخرى بالجبال ، بجامع التوثق بكل على طريق التصريح . أى : وإذا تجشمتنا مجاوزة عهود قبيلة وتكلفنا مجاوزة عمل أماتنا ؛ فابقاع التجوز على الجبال : بجاز عطف ، أخذت ناقى من القبيلة الأخرى حال كونها ذامبة إليك جبالاً ، أى عهوداً للتوصل للقبيلة الأخرى . وهكذا . وإستاد الأخذ لما بجاز عطف ، ويكنى فى الملازمة مجاورتها له حين الفعل . وإنما أسنده إليها للبالغة ، وتخييل أنها تعرف المدح وفضله ، فهى المسامرة إليه بنفسها . وروى بجوزها . وجبال بالجيم ، فعنى أخذت : قطعت من أرض القبيلة الأخرى بالسير إليك جبالاً غير تلك . وعلى كل ، ففيه دليل على صعوبة الطريق .

لأنه لو كان منه لكان حقه أن يقال وجوزنا بني إسرائيل في البحر كما قال :

• كَمَا جَوَّزَ السَّكِيُّ فِي الْبَابِ فَيَتَّقُ • (١)

﴿ فاتبعهم ﴾ فلحقهم . يقال : تبعته حتى أتبعته . وقرأ الحسن : وعدوا (٢) . وقرئ : أنه بالفتح على حذف الياء التي هي صلة الإيمان ، وإنه بالكسر على الاستئناف بدلا من آمنت . كرر المخذول المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول ، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته . وقاله حين لم يبق له اختيار قط ، وكانت المرة الواحدة كافية في حال الاختيار وعند بقاء التكليف .

آلآن وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١) قَالَهُمْ نُنَجِّيكَ يَدَنَّا

لَتَكُونُ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَايَتِنَا لَعَفُولُونَ (٩٢)

﴿ آلآن ﴾ أتومن الساعة في وقت الاضطرار حين أدركك الفرق (٣) وأيست من نفسك . قيل : قال ذلك حين أجمه الفرق يعني حين أوشك أن يغرق . وقيل : قاله بعد أن غرق في نفسه . والذي يحكى أنه حين قال ( آمنت ) أخذ جبريل من حال البحر (٤) فدسه في فيه ، فللغضب لله على الكافر في وقت قد علم أن إيمانه لا ينفعه . وأما ما يضمن إليه من قولهم : خشية أن تدركه رحمة الله فن زيادات الباهتين (٥) لله وملائكته : وفيه جهالتان ، إحداهما : أن الإيمان يصح بالقلب كما يمان الآخرس ، لحال البحر لا يمنع . والآخرى : أن من كره إيمان الكافر وأحب بقاءه على الكفر فهو كافر

(١) ولا بد من جار يميز سيلها كما جوز السكى في الباب فيتق

للأعشى يصف مقارعة الغزل فيها الملقح عن بني عكاظ كما يأتي قريباً . يقول : ولا بد لمريد قطعها من جار : أى قريب منها يعين المسافر على سلوك سبيلها . وجازه يجوزه : سلكه . وأجازه يجيزه : أسلكه . وكذا جوزه يجوزه بالتشديد فيها . والسكى : المسار ، نسبة للسك ، وهو تضبيب الباب وتسميره . والفتيق : التجار : لأنه يفتق الخشب بالمسار . ويروى : كما سلك السكى ، أى : لا يعد من معين ، ينفذه فيها كما أفقذ التجار المسار في الباب . وعبر بالماضى ليدل على أن المشبه به معهود للسامع .

(٢) قوله : : وقرأ الحسن وعدوا ، في الصحاح : عدا عدوا وعدوا وعداءه . وقد مر في قوله تعالى ( فيسبوا الله عدواً ) (ع)

(٣) قال محمود : « معناه أتومن الساعة في وقت اضطرارك حين أدركك الفرق . . . الخ ، قال أحمد : ولقد أنكر منكراً ، وغضب لله ولملائكته كما يجب لهم ، والله الموفق .

(٤) قوله : « من حال البحر فادسه ، أى طينه الأسود . أفاده الصحاح . وفي الحديث : قال جبريل يا محمد فلو رأيتى وأنا أخذ من حال البحر فادسه في فيه ، كذا في الخازن . (ع)

(٥) قوله « الباهتين لله ، في الصحاح « بهته » إذا قال عليه ما لم يفعله . (ع)

لأن الرضا بالكفر كفر<sup>(١)</sup> (من المفسدين) من الضالين المضلين عن الإيمان، كقوله (الذين كفروا وصعدوا عن سبيل الله زدناهم عذاباً فوق العذاب بما كانوا يفسدون) وروى أن جبريل عليه السلام أتاه بفتياً: ما قول الأمير في عبد لرجل نشأ في ماله ونعمته فكفر نعمته ووجد حقه وأدعى السيادة دونه؟ فكُتب فرعون فيه: يقول أبو العباس الوليد بن مصعب: جزاء العبد الخارج على سيده الكافر نكاه أن يغرق في البحر، فلما أُلجمه الغرق ناوله جبريل خطه فعرفه ﴿ننجيك﴾ بالتشديد والتخفيف: نبعدك مما وقع فيه قومك من قعر البحر. وقيل: نلقيك بنجوة من الأرض. وقرئ ننجيك، بالخاء: نلقيك بناحية مما يلي البحر، وذلك أنه طرح بعد الغرق بجانب البحر قال كعب: رماه الماء إلى الساحل كأنه ثور ﴿بيدك﴾ في موضع الحال، أى: في الحال التي لأروح فيك، وإنما أنت بدن، أو بيدك كاملاً سوى يالم ينقص منه شيء ولم يتغير. أو عرياناً لست إلا بدنًا من غير لباس. أو بدرعك. قال عمرو بن معد يكرب:

(١) قوله «والذي يحكى» . . . إلى قوله «لأن الرضا بالكفر كفر» هذا إفراط منه في الجهل بالمنقول والنقض من أهله. فإن الحديث صحيح الزيادات، وقد أخرجه الترمذي وصححه، والنسائي وابن حبان والحاكم وإسحاق والبرار وأبو داود والطيالسي كلهم من رواية شعبة عن عدى بن ثابت وغطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رفعه أحدهما إلى النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن جبريل كان يدس في فم فرعون الطين مخافة أن يقول لا إله إلا الله فيرحه الله» لفظ الترمذي والباقي نحوه، وله طريق أخرى أخرجا أحمد وإسحاق وعبد بن حميد والبرار والطبراني من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس، باقظ «لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل قال جبريل: يا أحمد فلو رأيتي وأنا آخذ الطين من حال البحر فأدسه في فيه مخافة أن تدركه الرحمة، وله طريق أخرى أخرجا يحيى بن عبد الجيد الخثاعي في مسنده عن أبي خالد الأحمر عن عمرو بن يعلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال قال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم: وذكر فرعون «فلقد رأيتي وأنا لأكبر فله بالخاء مخافة أن تدركه الرحمة، وفي الباب عن أبي هريرة أخرجه الطبراني وابن أبي حاتم والبيهقي في الشعب في السادس والخمسين وابن مردويه من طريق عتبة بن سعيد عن كثير بن زاذان عن أبي حازم عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال قال لي جبريل «لورأيتي وأنا آخذ من حال البحر فأدسه في فرعون مخافة أن يقول ربى الله، فتدركه رحمة الله» وعن ابن عمر رضى الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قال لي جبريل: يا أحمد ما غضب ربك على أحد غضبه على فرعون إذ قال: ما علمت لكم من إله غيري. وإذ نادى فقال: أنا ربكم الأعلى. فلما أدركه الفرق استغاث وأقبلت أحشوا فاه مخافة أن تدركه الرحمة، أخرجه الطبراني وابن مردويه من رواية محمد بن سليمان بن أبي خضرة عن عبد الله بن أبي قيس عنه، قلت: وأما الوجهان اللذان ذكرهما الزمخشري، فلحديث توجيه وجهه، لا يلزم منه ما ذكره الزمخشري، وذلك أن فرعون كان كافراً كافراً كفر عناد، ألا ترى إلى قصته حيث توقف الليل، وكيف توجه منفرداً وأظهر أنه مخلص، فأجرى له الليل، ثم عمادى على طغيانه وكفره غشى جبريل أن يعاود تلك العادة فيظهر الاخلاص بلسانه فتدركه رحمة الله فيؤخره في الدنيا فيستمر على غيه وطمغانه ففسد في فيه الطين، لينتهى التكلم بما يقتضى ذلك، هذا وجه الحديث. ولا يلزم منه جهل ولا رضا بكفر بل الجهل كل الجهل بمن اعترض على المنقول الصحيح برأيه الفاسد وأيضاً فإيمانه في تلك الحالة على تقدير أنه كان صدقاً بقلبه لا يقبل لأنه وقع في حال الاضطراب ولذلك عقب في الآية بقوله تعالى (الآن وقد عصيت قبل) وفيه إشارة في قوله تعالى (فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا).

أَعَاذِلْ شَكَّتِي بَدَنِي وَسَيَفِي وَكُلُّ مُقْلَصٍ سَلِسُ الْقِيَادِ (١)

وكانت له درع من ذهب يعرف بها . وقرأ أبو حنيفة رحمه الله : بأبدانك وهو على وجهين : إما أن يكون مثل قولهم : هوى بأجرأه ، يعنى : بيدك كله وافيأ بأجزائه . أو يريد : بدروعك كأنه كان مظاهراً بينها ﴿ لمن خلفك آية ﴾ لمن ورامك من الناس علامة ، وهم بنو إسرائيل ، وكان في أنفسهم أن فرعون أعظم شأناً من أن يفرق . وروى أنهم قالوا : ما مات فرعون ولا يموت أبداً . وقيل : أخبرهم موسى بهلاكه فلم يصدقوه ، فألقاه الله على الساحل حتى عاينوه ، وكان مطرحه كان على ممز من بنى إسرائيل حتى قيل : لمن خلفك . وقيل : ( لمن خلفك ) لمن يأتي بعدك من القرون . ومعنى كونه آية : أن تظهر للناس عبوديته ومهاتته ، وأن ما كان يدعيه من الربوبية باطل محال ، وأنه مع ما كان فيه من عظم الشأن وكبرياء الملك آل أمره إلى ما ترون لعصيانه ربه عز وجل ، فما الظن بغيره ، أو لتكون عبرة تعتبر بها الأمم بعدك ، فلا يجترئوا على نحو ما اجترأت عليه إذا سمعوا بحالك وبهوانك على الله . وقرئ : لمن خلقك ، بالقاف : أى لتكون لحافك آية كسائر آياته . ويجوز أن يراد : ليكون طرحك على الساحل وحدك وتميزك من بين المغرقين - لتلا يشبهه على الناس أمرك ، ولتلا يقولوا - لادعائك العظمة إن مثله لا يفرق ولا يموت - آية من آيات الله التي لا يقدر عليها غيره ، وليعلموا أن ذلك تعمد منه لإماطة الشبهة في أمرك .

وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ مَبْأَأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا  
حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٣)

﴿ مَبْأَأَ صِدْقٍ ﴾ منزلاً صالحاً مرضياً وهو مصر والشام ﴿ فَمَا اخْتَلَفُوا ﴾ في دينهم وما تشعبوا فيه شعباً إلا من بعد ما قرأوا التوراة وكسبوا العلم بدين الحق ولزمهم الثبات عليه واتحاد الكلمة ، وعلوا أن الاختلاف فيه تفرق عنه . وقيل هو العلم بمحمد صلى الله عليه وسلم واختلاف بنى إسرائيل ، وهم أهل الكتاب ، اختلافهم في صفته ونعته ، وأنه هو أم ليس به . بعد ما جادهم العلم والبيان أنه هو لم يرتابوا فيه . كما قال الله تعالى ( الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ) .

(١) لعمر بن معديكرب ، وكانت له درع من ذهب تعرفه بها العرب . يقول : يا عاذلة ، إن سلاحي درعي وسيفي وفرسى المكتنز اللحم المديج الخلق . وقيل : المقلص الطويل القوائم الهين القود . ويروى : سهل القيادة . والمعنى واحد . وإطلاق البدن على الدرع في الأصل مجاز علاقته المجاورة أو المحلية ، وأنى بأداة العموم في الفرس لأنه الذى يكثر تغييره .

فَإِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَابَ مِنْ  
قَبْلِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾  
الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ ﴿٩٥﴾

فإن قلت : كيف قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فإن كنت في شك مما أنزلنا  
إليك﴾ مع قوله في الكفرة (وإنهم لن في شك منه مريب) <sup>(١)</sup> قلت : فرق عظيم بين قوله  
(إنهم لن في شك منه مريب) بإثبات الشك لهم على سبيل التأكيّد والتحقيق ، وبين قوله (فإن  
كنت في شك) بمعنى الفرض والتشيل ، كأنه قيل : فإن وقع لك شك مثلاً وخيل لك الشيطان  
خيالاً منه تقديراً ﴿فاسأل الذين يقرءون الكتاب﴾ والمعنى : أن الله عز وجل قدم ذكر نبي  
إسرائيل وهم قراءة الكتاب ، ووصفهم بأن العلم قد جاءهم ، لأن أمر رسول الله صلى الله عليه  
وسلم مكتوب عندهم في التوراة والإنجيل ، وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فأراد أن يؤكد  
عليهم بصحة القرآن وصحة نبوة محمد عليه السلام ، ويبالغ في ذلك ، فقال : فإن وقع لك شك  
فرضا وتقديراً - وسبيل من خالجه شبهة في الدين أن يسارع إلى حلها وإمالتها ، إما بالرجوع  
إلى قوانين الدين وأدله ، وإما بمقادحة العلماء المنهين على الحق - فسل علماء أهل الكتاب ،  
يعني : أنهم من الإحاطة بصحة ما أنزل إليك وقتلها علماً بحيث يصلحون لمراجعة مثلك  
ومساءلتهم فضلاً عن غيرك ، فالغرض وصف الأحبار بالرسوخ في العلم بصحة ما أنزل إلى  
رسول الله ، لا وصف رسول الله بالشك فيه ، ثم قال ﴿لقد جاءك الحق من ربك﴾ أى  
ثبت عندك بالآيات والبراهين القاطعة أن ما أتاك هو الحق الذي لا مدخل فيه للريبة ﴿فلا  
تكوننَّ من الممترين ، ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله﴾ أى فائت ودم على ما أنت  
عليه من انتفاء المريبة عنك والتكذيب بآيات الله . ويجوز أن يكون على طريقة التيسيع  
والإلهاب ، كقوله (فلا تكونن ظهيراً للكافرين . ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت  
إليك) ولزيادة التثبيت والعصمة ، ولذلك قال عليه السلام عند نزوله ، لا أشك ولا أسأل بل  
أشهد أنه الحق <sup>(٢)</sup> ، وعن ابن عباس رضي الله عنه : لا والله ، ما شك طرفة عين ، ولا سألت

(١) قال محمود : « إن قلت كيف قال له عليه السلام : (فإن كنت في شك) مع قوله في الكفرة (وإنهم لن في شك منه مريب) ... الخ ؟ قال أحمد : ولو قال هذا المفسر : إن في الشك عنه عليه الصلاة والسلام توطئة لأمره  
بالسؤال لتقوم حجة على المسؤولين لا يستفيد بسؤالهم علماً لمزيد تدوين الأبرار بقوله له (قل لمن مافى السموات والأرض  
قل لله) فأمر بالسؤال والجواب جميعاً - لكان أقوم وأسلم ، والله أعلم .

(٢) أخرجه عبد الرزاق ، ومن طريقه الطبري عن معمر عن قتادة في هذه الآية ، قال : بلغنا أن النبي صلى الله  
عليه وسلم قال : « لا أشك ولا أسأل » .



أحداً منهم ، وقيل خوطب رسول الله صلى الله عليه وسلم والمراد خطاب أمته . ومعناه : فإن كنتم في شك مما أنزلنا إليكم ، كقولهم (وأُنزلنا إليكم نوراً مبيناً) وقيل : الخطاب للسامع من يجوز عليه الشك ، كقول العرب : إذا عز أخوك فهن . وقيل : «إن ، للنفى ، أى : فما كنت في شك فأسأل ، يعنى : لا تأمرك بالسؤال لأنك شاك ، ولكن لتزداد يقيناً ، كما ازداد إبراهيم عليه السلام بمعانيه لإحياء الموتى . وقرئ : فأسأل الذين يقرؤون الكتب .

إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَاءَهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

(حققت عليهم كلمة ربك) ثبت عليهم قول الله الذى كتبه فى اللوح وأخبر به الملائكة أنهم يموتون كفاراً فلا يكون غيره . وتلك كتابة معلوم لا كتابة مقدر ومراد (١) تعالى الله عن ذلك .

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَمَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا

كَشَفْنَا عَنْهُمْ ءَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾

(فلولا كانت) فهلا كانت (قرية) واحدة من القرى التى أهلكتها ، ثابت عن الكفر وأخلصت الإيمان قبل المعايضة وقت بقاء التكليف ، ولم تؤخر كما أخر فرعون إلى أن أخذ بمخنقه (ففعها إيمانها) بأن يقبله الله منها لوقوعه فى وقت الاختيار . وقرأ أبى . وعبد الله : فهلا كانت (إلا قوم يونس) استثناء من القرى : لأن المراد أهلها ، وهو استثناء منقطع بمعنى : ولكن قوم يونس لما آمنوا . ويجوز أن يكون متصلاً والجملة فى معنى النفي ، كأنه قيل : ما آمنت قرية من القرى الهالكة إلا قوم يونس ، وانتصابه على أصل الاستثناء . وقرئ بالرفع على البدل ، هكذا روى عن الجرمى والكسائى . روى أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه ، فذهب عنهم مغاضباً ، فلما فقدوه خافوا نزول العذاب ، فلبسوا المسوح ، وعجوا (٢) أربعين ليلة . وقيل : قال لهم يونس : إن أجلكم أربعون ليلة ، فقالوا : إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك ، فلما مضت خمس وثلاثون أغامت السماء غيماً أسود هائلاً يدخل دخاناً شديداً ثم يهبط حتى يغشى مدينتهم ويسود سطوحهم فلبسوا المسوح وبرزوا إلى

(١) قوله «لا كتابة مقدر ومراد» مبنى على مذهب المعتزلة أن الله لا يريد الشر . وذهب أهل السنة إلى أنه

تعالى يريد كل كائن خيراً كان أو شراً . (ع)

(٢) قوله «وعجوا» أى دفعوا أصواتهم . أفاده الصحاح . (ع)

الصعيد بأنفسهم ونسائهم وصبيانهم ودوابهم ، وفزقوا بين النساء والصبيان ، وبين الدواب وأولادها ، فحن بعضها على بعض ، وعلت الأصوات والعجيج ، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا ، فرحمهم الله وكشف عنهم ، وكان يوم عاشوراء يوم الجمعة . وعن ابن مسعود : بلغ من توبتهم أن تراءوا المظالم ، حتى إن الرجل كان يقتلع الحجر وقد وضع عليه أساس بنائه فيرده ، وقيل : خرجوا إلى شيخ من بقية علمائهم فقالوا : قد نزل بنا العذاب فما ترى ؟ فقال لهم : قولوا يا حيّ حين لا حيّ ، ويا حيّ يحيى الموتى ، ويا حيّ لا إله إلا أنت ، فقالوها فكشف عنهم . وعن الفضيل بن عياض : قالوا : اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت ، وأنت أعظم منها وأجل ، افعل بنا ما أنت أهله ، ولا تفعل بنا ما نحن أهله .

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ

حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾

﴿ولو شاء ربك﴾ مشيئة القسر <sup>(١)</sup> والإلجام <sup>(٢)</sup> ﴿لآمن من في الأرض كلهم﴾ على وجه الإحاطة والشمول ﴿جميعاً﴾ مجتمعين على الإيمان مطبقين عليه لا يختلفون فيه . ألا ترى إلى قوله ﴿أفأنت تكره الناس﴾ يعنى إنما يقدر على إكراههم واضطرارهم إلى الإيمان هو لا أنت . وإبلاء الاسم حرف الاستفهام ، للإعلام بأن الإكراه ممكن مقدور عليه ، وإنما الشأن في المكروه من هو ؟ وما هو إلا هو وحده لا يشارك فيه ، لأنه هو القادر على أن يفعل في قلوبهم ما يضطرون عنده إلى الإيمان ، وذلك غير مستطاع للبشر .

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ

لَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٠﴾

(١) قوله «مشيئة القسر» هذا مذهب المعتزلة ، وذلك أنهم أوجبوا على الله الصلاح والأصلح ، وإيمان الكل أصلح ، لكن الآية تخالف مذهبهم فقالوا : إنه تعالى أراد إيمان الكل إرادة تخيير للعباد ، فلم يلزم وقوع المراد ، ولو أراد إرادته إجبار لوقع ، وأهل السنة لم يوجبوا على الله شيئاً ، ولزوم وقوع المراد لا ينافي تخيير العباد ، لما لهم من الكسب في أفعالهم الاختيارية وإن كان فاعلها في الحقيقة هو الله ، كما تقرر في التوحيد . (ع)

(٢) قال محمود : «المراد مشيئة القسر والإلجام» قال أحمد : وهذا من دسه الاعتزال بخلسا ، وخطط الباطل بالحق مدلسا . ولما علم أن الآية تقتضى عدم مشيئة الله تعالى لإيمان الخلق بصيغة الكلية ، وأنه إنما شاء ذلك عن آمن لا من كفر - إذ مقتضى «لولا» امتناع ، وكان ذلك راد لمعتقد الفاسد ، إذ يزعمون أن الله تعالى شاء الإيمان من جميع أهل الأرض ، فلم يؤمن إلا بعضهم - أخذ يحرف مشيئة الإيمان إلى مشيئة القسر والإلجام ، لئيم له أن المشيئة المرادة في الآية لم تقع ؛ إلا أنا نوافقه على أن الله تعالى ما قسر الخلق ولا سلب اختيارهم ، بل أمرهم بالإيمان وخلق لهم اختياراً له وقصداً ، وهذا كما ترى لا يهد في التأويل . بل هو أجدر بالتعطل ، فوجب رده وإقرار الظاهر على حاله ، نعوذ بالله من زيغ الشيطان وإضلاله ، والله الموفق .

﴿وما كان لنفس﴾ يعنى من النفوس التى علم أنها تؤمن ﴿إلا بإذن الله﴾ أى بتسهيله وهو منح الألفاظ ﴿ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون﴾ قابل الإذن بالرجس وهو الخذلان<sup>(١)</sup> ، والنفس المعلوم إيمانها بالذين لا يعقلون وهم المصرون على الكفر ، كقوله (صم بكم عمى فهم لا يعقلون) وسمى الخذلان رجسا وهو العذاب لأنه سببه . وقرئ : الرجز ، بالزى . وقرئ ويجعل ، بالنون .

قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِي الْآيَاتِ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾

﴿ماذا فى السموات والارض﴾ من الآيات والعبر ﴿وماتفى الايات والنذر﴾ والرسل المنذرون ، أو الإنذارات ﴿عن قوم لا يؤمنون﴾ لا يتوقع إيمانهم ، وهم الذين لا يعقلون وقرئ : وما يغنى ، بالياء ، وهما نافية ، أو استفهامية .

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَجِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

﴿أيام الذين خلوا من قبلهم﴾ وقائع الله تعالى فيهم ، كما يقال « أيام العرب » لوقائعها ﴿ثم ننجى رسلنا﴾ معطوف على كلام محذوف يدل عليه قوله (إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم) كأنه قيل : نهلك الأمم ثم ننجى رسلنا ، على حكاية الأحوال الماضية ﴿والذين آمنوا﴾ ومن آمن معهم ، كذلك ﴿ننج المؤمنين﴾ مثل ذلك الإنجاء ننجي المؤمنين منكم ، ونهلك المشركين . و﴿حقاً علينا﴾ اعتراض ، يعنى : حق ذلك علينا حقاً . وقرئ : ننج ، بالتشديد .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَقَّعُكُمْ وَأَمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾

﴿يا أيها الناس﴾ يا أهل مكة ﴿إن كنتم فى شك من دىنى﴾ وصحته وسداده ، فهذا دىنى فاسمعوا وصفه ، واعرضوه على عقولكم ، وانظروا فيه بعين الإنصاف ، لتعلموا أنه دين

(١) قوله « وهو الخذلان » تأويل الرجس بالخذلان على مذهب المعتزلة ، وعلى مذهب أهل السنة لا حاجة

إل تأويله . (ع)

لا مدخل فيه للشك، وهو أنى لا أعبد الحجارة التى تعبدونها من دون من هو إلهكم وخالقكم ﴿ولكن أعبد الله الذى يتوفاكم﴾ وإنما وصفه بالتوفى، ليريهام أنه الحقيق بأن يخاف ويتقى، فيعبدون ما لا يقدر على شئ. ﴿وأمرت أن أكون من المؤمنين﴾ يعنى أن الله أمرنى بذلك، بما ركب فى من العقل، وبما أوحى إلى فى كتابه. وقيل: معناه إن كنتم فى شك من دينى وبما أنا عليه - أثبت عليه أم أتركه وأوافقكم - فلا تحذثوا أنفسكم بالحال ولا تشكوا فى أمرى، واقطعوا غنى أطاعكم. واعلموا أنى لا أعبد الذين تعبدون من دون الله، ولا أختار الضلالة على الهدى، كقوله (قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون). (أمرت أن أكون) أصله: بأن أكون، فحذف الجار، وهذا الحذف يحتمل أن يكون من الحذف المطرد الذى هو حذف الحروف الجارة مع «إن، و«أن، وأن يكون من الحذف غير المطرد، وهو قوله: أمرتك الخير فاصدع بما تؤمر.

وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٠٥

فإن قلت: عطفت قوله ﴿وَأَنْ أَقِمَّ﴾ على (أن أكون) فيه إشكال، لأن «أن، لا تخلو من أن تكون التى للعبارة، أو التى تكون مع الفعل فى تأويل المصدر، فلا يصح أن تكون للعبارة وإن كان الأمر مما يتضمن معنى القول، لأن عطفتها على الموصولة بأبى ذلك. والقول بكونها موصولة مثل الأولى، لا يساعد عليه لفظ الأمر، وهو (أقم) لأن الصلة حقها أن تكون جملة تحتمل الصدق والكذب. قلت: قد سوغ سبويه أن توصل «أن، بالأمر والنهى، وشبه ذلك بقولهم: أنت الذى تفعل، على الخطاب؛ لأن الغرض وصلها بما تكون معه فى معنى المصدر. والأمر والنهى دالان على المصدر دلالة غيرهما من الأفعال (أقم وجهك) استقم إليه ولا تلتفت يمينا ولا شمالا. و﴿حنيفاً﴾ حال من الدين، أو من الوجه.

وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا

مِنَ الظَّالِمِينَ ١٠٦

﴿فإن فعلت﴾ معناه: فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضررك، فكفى عنه بالفعل إيجازاً ﴿فإنك إذا من الظالمين﴾ إذا جزاء الشرط وجواب لسؤال مقدر، كأن سائلاً سأل عن تبعة عبادة الأوثان. وجعل من الظالمين؛ لأنه لا ظلم أعظم من الشرك، (إن الشرك لظلم عظيم).

وَأِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ

لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ١٠٧

أتبع النهى عن عبادة الأوثان ووصفها بأنها لا تنفع ولا تضر ، أن الله عز وجل هو الضار النافع ، الذى إن أصابك بضر لم يقدر على كشفه إلا هو وحده دون كل أحد ، فكيف بالجناد الذى لا شعور به . وكذلك إن أرادك بخير لم يرّد أحد ما يريده بك من فضله وإحسانه ، فكيف بالأوثان ؟ فهو الحقيق إذاً بأن توجه إليه العبادة دونها ، وهو أبلغ من قوله (إن أرادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره ، أو أرادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته) . فان قلت : لم ذكر المس فى أحدهما ، والإرادة فى الثانى ؟ قلت : كأنه أراد أن يذكر الأمرين جميعاً : الإرادة والإصابة فى كل واحد من الضر والخير ، وأنه لا راد لما يريده منهما ، ولا مزيل لما يصيب به منهما ، فأوجز الكلام بأن ذكر المس وهو الإصابة فى أحدهما ، والإرادة فى الآخر ؛ ليدل بما ذكر على ما ترك ، على أنه قد ذكر الإصابة بالخير فى قوله تعالى ﴿ يصيب به من يشاء من عباده ﴾ والمراد بالمشيئة : مشيئة المصاحبة .

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ آهْتَدَىٰ فَلَيْسَ يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلَيْسَ يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾

﴿قد جاءكم الحق﴾ فلم يبق لكم عذر ولا على الله حجة ، فمن اختار الهدى واتباع الحق فأنفع باختياره إلا نفسه ، ومن آثر الضلال فاضرر إلا نفسه ، واللام وعلى : دلا على معنى النفع والضر . وكل إليهم الأمر بعد إبانة الحق وإزاحة العلل . وفيه حث على إثبات الهدى وإطراح الضلال مع ذلك ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ بحفيظ موكل إلى أمركم وحملكم على ما أريد ، إنما أنا بشير ونذير .

وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

﴿واصبر﴾ على دعوتهم واحتمال أذاهم وإعراضهم ﴿حتى يحكم الله﴾ لك بالنصرة عليهم والغلبة . وروى أنها لما نزلت جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأنصار فقال : إنكم ستجدون بعدى أثره ، فاصبروا حتى تلقوني <sup>(١)</sup> ، يعنى أنى أمرت فى هذه الآية بالصبر على ما سامتنى الكفرة فصبرت فاصبروا أتم على ما يسومكم الأمراء الجورة ، قال أنس : فلم نصبر . وروى أن أبا قتادة تخلف عن تلقى معاوية حين قدم المدينة وقد تلقته الأنصار ، ثم دخل عليه من بعد ، فقال له : مالك لم تتلقنا ؟ قال : لم تكن عندنا دواب . قال : فأين النواضح ؟ قال : قطعناها

(١) ذكره الثعلبى عن أنس بن مالك . والقصة المذكورة متفق عليها من حديث عبد الله بن زيد فى أثناء حديثه ، ومن حديث أسيد بن حضير ، ليس فيه كون الآية سبب ذلك ، بل سببه قسمة غنائم حنين .

في طلبك وطلب أهلك يوم بدر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : يامعشر الانصار ، إنكم ستلقون بعدى أثره . قال معاوية : فماذا قال ؟ قال : قال فاصبروا حتى تلقوني ، قال فاصبر . قال : إذن نصبر . فقال عبد الرحمن بن حسان <sup>(١)</sup> :

أَلَا أَبْلِغُ مُعَاوِيَةَ بْنَ حَرْبٍ أَمِيرَ الظَّالِمِينَ نَمًّا كَلَامِي  
يَا نَا صَايِرُونَ فَمَنْظُرُكُمْ إِلَى يَوْمِ التَّغَابُنِ وَالْحِصَامِ <sup>(٢)</sup>

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قرأ سورة يونس أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق يونس وكذب به ، وبعدد من غرق مع فرعون <sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه . ومن طريقه الحاكم والبيهقي عن عبد الرزاق عن معمر عن ابن عقيل أن معاوية لما قدم المدينة لقبه أبو قتادة الأنصاري : فقال معاوية تلقانا الناس كلهم غيركم يامعشر الانصار فأيتمكم أن تلقوني ؟ قال : لم تكن لنا دواب . فقال معاوية : فأين التواضع . قال أبو قتادة . عقرناها في طلبك وطلب أهلك يوم بدر . ثم قال أبو قتادة : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أما إنكم سترون بعدى أثره . قال معاوية : فما أمركم ؟ قال : أمرنا أن نصبر حتى نلقاه . قال : فاصبروا حتى تلقوه . فقال عبد الرحمن بن حسان حين بلغه ذلك - فذكر البيت . وقال : يا أمير المؤمنين .

(٢) لعبد الرحمن بن حسان ، حين دخل معاوية بن أبي سفيان بن حرب المدينة ، فتلقتهم الانصار وتخلف أبو قتادة ، ثم دخل عليه فقال له : مالك تخلفت ؟ فقال : لم يكن عندنا دواب . قال : فأين التواضع ؟ قال : قطعناها في طلبك وطلب أهلك يوم بدر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : يامعشر الانصار ستلقون بعدى أثره . قال معاوية ، فإذا قال ؟ قال : فاصبروا حتى تلقوني . قال : فاصبروا . قال : إذا نصبر . والثناء يقال للخير ، وقد يقال للشر . والثناء خاص بالشر . وروى « ثنا كلامي » ومنظروكم : مهلكم . أي أنت وقومك . والثغابن : ظهور الغنم للعمال في تجارات الأعمال . والحصام : الخصامة والمجاداة ، أي إلى يوم القيامة .

(٣) تقدم إسناده في آل عمران . ويأتي في آخر القرآن .

## سورة هود عليه السلام

مكية [ إلا الآيات ١٢ و ١٧ و ١١٤ فدنية ]

وهي مائة وثلاث وعشرون آية [ نزلت بعد سورة يونس ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَبٌ أَحْكَمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ①

(أحكمت آياته) نظمت نظماً رصيناً محكماً لا يقع فيه نقض ولا خلل، كالبناء المحكم المرصف، ويجوز أن يكون نقلاً بالهمزة، من وحكم، بضم الكاف، إذا صار حكماً: أى جعلت حكيمه، كقوله تعالى (آيات الكتاب الحكيم) وقيل: منعت من الفساد، من قولهم: أحكمت الدابة إذا وضعت عليها الحكمة لتمنعها من الجراح. قال جرير:

أَبْنَى حَنِيفَةً أَحْكَمُوا سُفَهَاءَكُمْ  
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضِبَا ②

وعن قتادة: أحكمت من الباطل (ثم فصلت) كأن فصل القلائد بالفرائد، من دلائل التوحيد، والأحكام، والمواعظ، والقصص. أو جعلت فصولاً، سورة سورة، وآية آية. وفرقت في التنزيل ولم تنزل جملة واحدة. أو فصل فيها ما يحتاج إليه العباد: أى بين ولخص. وقرئ: أحكمت آياته ثم فصلت: أى أحكمتها أنا ثم فصلتها. وعن عكرمة والضحاك: ثم فصلت، أى فرقت بين الحق والباطل. فإن قلت: ما معنى ثم؟ قلت: ليس معناها التراخي في الوقت، ولكن في الحال، كما تقول: هى بحكمة أحسن الأحكام، ثم مفصلة أحسن التفصيل. وفلان كريم الأصل، ثم كريم الفعل. وكتاب: خبر مبتدأ محذوف. وأحكمت: صفة له. وقوله (من لدن حكيم خبير) صفة ثانية. ويجوز أن يكون خبراً بعد خبر، وأن يكون صلة لأحكمت وفصلت، أى: من عنده أحكامها وتفصيلها. وفيه طباق حسن؛ لأن المعنى: أحكمها حكيم وفصلها: أى بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور.

① لجرير، يقول: يا بني حنيفة! امنعوا سفهائكم عنى كما تمنع الدابة بالحكمة، فإن غضبي عليكم شديد. وفيه ضرب من التهديد، مخوفه عليهم كتابة عن ذلك. وأن أغضب: مفعول أخاف، أى أخاف عليكم غضبي.

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُغْفِرْ لَكُمْ مَتَّعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾

﴿ألا تعبدوا﴾ مفعول له على معنى : لتلا تعبدوا . أو تكون ، أن ، مفسرة ؛ لأن في تفصيل الآيات معنى القول ، كأنه قيل : قال لا تعبدوا إلا الله ، أو أمركم أن لا تعبدوا إلا الله ﴿وأن استغفروا﴾ أى أمركم بالتوحيد والاستغفار . ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأً منقطعاً عما قبله على لسان النبي صلى الله عليه وسلم ، إغراء منه على اختصاص الله بالعبادة . ويدل عليه قوله ﴿إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ كأنه قال : ترك عبادة غير الله ، إِنِّي لَكُمْ مِّنْهُ نَذِيرٌ ، كقوله تعالى ﴿فَضْرِبِ الرِّقَابَ﴾ والضمير في (منه) لله عز وجل ، أى : إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ من جهته ، كقوله (رسول من الله) أو هى صلة لنذير ، أى : أنذركم منه ومن عذابه إن كفرتم ، وأبشركم بثوابه إن آمنتم . فإن قلت : ما معنى ثم في قوله ﴿ثُمَّ تَوَبُّوا إِلَيْهِ﴾ ؟ قلت : معناه استغفروا من الشرك ، ثم ارجعوا إليه بالطاعة . أو استغفروا ، والاستغفار توبة . ثم أخلصوا التوبة واستقيموا عليها ، كقوله ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ . يطول نفعكم في الدنيا بمنافع حسنة مرضية ، من عيشة واسعة ، ونعمة متتابعة ﴿إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى أن يتوفاكم ، كقوله ﴿فَلَنَجْيِئَنَّ حَيَاةَ طَيِّبَةٍ﴾ ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ﴾ ويعطى في الآخرة كل من كان له فضل في العمل وزيادة فيه جزاءً فضله لا يبخس منه . أو فضله في الثواب ، والدرجات تتفاضل في الجنة على قدر تفاضل الطاعات ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ وإن تولوا ﴿عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ هو يوم القيامة . وصف بالكبر كما وصف بالعظم والثقل . وبين عذاب اليوم الكبير بأن مرجعهم إلى من هو قادر على كل شيء ، فكان قادراً على أشد ما أراد من عذابه لا يعجزه . وقرئ : وإن تولوا ، من ولى .

أَلَّا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَنْخِفُوا مِنْهُ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾

﴿يأتون صدورهم﴾ يزورون عن الحق وينحرفون عنه ؛ لأن من أقبل على الشيء استقبله بصدرة ، ومن أوزر عنه وانحرف ثنى عنه صدره وطوى عنه كشحه ﴿ليستخفوا منه﴾ بمعنى :



ويريدون ليستخفوا من الله ، فلا يطلع رسوله والمؤمنين على ازوارهم . ونظير إضمار يريدون - لقود المعنى <sup>(١)</sup> إلى إضماره - الإضمار في قوله تعالى (اعرب بعصاك البحر فانقلب) معناه فاضرب فانقلب . ومعنى ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ ويزيدون الاستخفاء <sup>(٢)</sup> حين يستغشون ثيابهم أيضاً ، كراهة لاستماع كلام الله تعالى ، كقول نوح عليه السلام (جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم) ثم قال ﴿يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ يعنى أنه لا تفاوت في علمه بين إسرارهم وإعلانهم ، فلا وجه لتوصلهم إلى ما يريدون من الاستخفاء ، والله مطلع على ثنيهم صدورهم واستغشائهم ثيابهم . ونفاقهم غير نافع عنده . روى أنها نزلت في الأخنس بن شريق وكان يظهر لرسول الله صلى الله عليه وسلم المحبة وله منطق حلو وحسن سياق للحديث ، فكان يعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم بحالته ومخادته ، وهو يضمر خلاف ما يظهر . وقيل : نزلت في المنافقين . وقرئ : تثنونى صدورهم ، واثنونى «افعلوا» من التثنية ، كاحلولى من الخلاوة ، وهو بناء مبالغة ، قرئ بالتاء والياء . وعن ابن عباس لثنونى . وقرئ تثنونى وأصله تثنونى «تفعول» من التثنية <sup>(٣)</sup> وهو ما هش وضعف من الكلام ، يريد : مطاوعة صدورهم للتثنية ، كما ينتى الهش من الثبات . أو أراد ضعف إيمانهم ومرض قلوبهم . وقرئ : تثثنى ، من اثثن ، «افعال» منه ، ثم همز كما قيل : أياضت ، وادهأمت وقرئ : تثنوى ، بوزن ترعوى .

وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلِّ

فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ٦

فإن قلت : كيف قال ﴿على الله رزقها﴾ بلفظ الوجوب <sup>(١)</sup> وإنما هو تفضل ؟ قلت : هو تفضل إلا أنه لما ضمن أن يتفضل به عليهم ، رجع التفضل واجباً كندور العباد . والمستقر : مكانه من الأرض ومسكنه . والمستودع حيث كان مودعاً قبل الاستقرار ، من صلب ، أو رحم .

(١) قوله «لقود المعنى» أى لتأدية المعنى . (ع)

(٢) قوله «ويريدون الاستخفاء» الظاهر أن هذا هو الخبر عن قوله : ومعنى ألا حين إلخ . كما قال أولاً ،

يعنى ويريدون . (ع)

(٣) قوله «من التثنية» فى الصحاح ، التثنية بالكسر : ييس الحشيش . (ع)

(٤) قال محمود «إن قلت كيف قال على الله رزقها بلفظ الوجوب ... إلخ» قال أحد : كل ما يسديه الله تعالى من رزق لبهية أو مكلف فى الدنيا أو ثواب فى الآخرة ، فذلك كله فضل ولا واجب على الله تعالى ، وإن ورد مثل هذه الصيغة فمحتمل على أن الله عز وجل لما وعدهم فضله - ووعد خبر ، وخبره صدق - وجب وقوع الموعود : أى يستحيل فى العقل أن لا يقع . للزوم الخلف فى خبر الصادق ، فغير عن ذلك بما يعبره عن وجوب التكليف ، وبينهما هذا الفرق المذكور . هذه قاعدة أهل الحق . وقد مر الكلام عليها عند قوله تعالى ( إنما التوبة على الله ) ، والله الموفق .

أو بيضة (كل) كل واحد من الدواب ورزقها ومستقرها ومستودعها في اللوح ، يعني ذكرها مكتوب فيه مبين .

وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَعْبُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾

(وكان عرشه على الماء) أى ما كان تحته خلق قبل خلق السموات والأرض . وارتفاعه فوقها إلا الماء . وفيه دليل على أن العرش والماء كانا مخلوقين قبل السموات والأرض . وقيل : وكان الماء<sup>(١)</sup> على متن الريح ، والله أعلم بذلك ، وكيفما كان فالله مسك كل ذلك بقدرته ، وكلما ازدادت الأجرام كانت أحوج إليه وإلى إمساكه (ليبلوكم) متعلق بخلق ، أى خلقهن لحكمة بالغة ، وهى أن يجعلها مساكن لعباده ، وينعم عليهم فيها بغنون النعم ، ويكلفهم الطاعات واجتناب المعاصي ، فمن شكر وأطاع أثابه ، ومن كفر وعصى عاقبه . ولما أشبه ذلك اختبار المختبر قال : ليبلوكم . يريد : ليفعل بكم ما يفعل المبلى لأحوالكم كيف تعملون . فإن قلت : كيف جاز تعليق فعل البلوى ؟ قلت : لما في الاختبار من معنى العلم : لأنه طريق إليه فهو ملابس له ، كما تقول : انظر أيهم أحسن وجهاً واسمع أيهم أحسن صوتاً ؛ لأن النظر والاستماع من طريق العلم . فإن قلت : كيف قيل : (أيكم أحسن عملاً) وأعمال المؤمنين هى التى تتفاوت إلى حسن وأحسن ، فأما أعمال المؤمنين والكافرين فتفاوتها إلى حسن وقبيح ؟ قلت : الذين هم أحسن عملاً هم المتقون ، وهم الذين استبقوا إلى تحصيل ما هو غرض الله من عباده ، فخصهم بالذكر واطرح ذكر من وراءهم تشريعاً لهم وتنبيهاً على مكانهم منه ، وليكون ذلك لطفاً للسامعين ، وترغيباً في حياة فضلكم . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : ليبلوكم أيكم أحسن عقلاً ، وأورع عن محارم الله وأسرع في طاعة الله<sup>(٢)</sup> ، قرئ : ولئن قلت إنكم مبعوثون ، بفتح الهمزة . ووجهه أن يكون من قولهم : ائت السوق عنك تشتري لنا لحماً ، وإنك تشتري بمعنى علك ، أى : ولئن قلت لهم لعلكم مبعوثون ، بمعنى : توقعوا بعثكم وظنوه ، ولا تبتوا القول بإنكاره ، لقالوا :

(١) قوله «وقيل : وكان الماء» لعله «كان» بدون واو . ويمكن أن المعنى كان عرشه على الماء

وكان الماء . (ع)

(٢) أخرجه داود بن الجبر في كتاب العقول والحرف في مسنده عنه ، والطبري وابن مردويه عن طريقه عن عبد الواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر . وداود ساقط . وأخرجه ابن مردويه أيضاً عن طريق محمد بن أمرس عن سليمان بن عيسى عن الثوري عن كليب كذلك ، وإسناده أسقط من الأول .

(إن هذا إلا سحر مبين) باتين القول ببطلانه . ويجوز أن تضمن «قلت» معنى «ذكرت» ومعنى قولهم (إن هذا إلا سحر مبين) أن السحر أمر باطل ، وأن بطلانه كبطلان السحر تشبيهاً له به . أو أشاروا<sup>(١)</sup> بهذا إلى القرآن لأن القرآن هو الناطق بالبعث ، فإذا جعلوه سحراً فقد اندرج تحته إنكار ما فيه من البعث وغيره . وقرئ : إن هذا إلا ساحر ، يريدون الرسول ، والساحر : كاذب مبطل ،

وَلَيْنَ أَخْرَنَّا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلَّا يَوْمَ يَأْتِيَهُمُ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ ٨

(العذاب) عذاب الآخرة . وقيل عذاب يوم بدر . وعن ابن عباس : قتل جبريل المستهزين (إلى أمة) إلى جماعة من الأوقات (ما يحبسه) ما يمنعه من النزول استعجالاً له على وجه التكذيب والاستهزاء . و (يوم يأتيهم) منصوب بخبر ليس ، ويستدل به من يستجيز تقديم خبر ليس على ليس ، وذلك أنه إذا جاز تقديم معمول خبرها عليها ، كان ذلك دليلاً على جواز تقديم خبرها ، إذ الم معمول تابع للعامل ، فلا يقع إلا حيث يقع العامل (وحاق بهم) وأحاط بهم (ما كانوا به يستهزون) العذاب الذي كانوا به يستعجلون . وإنما وضع يستهزون موضع يستعجلون ؛ لأن استعجالهم كان على جهة الاستهزاء . والمعنى : ويحقق بهم إلا أنه جله على عادة الله في أخباره .

وَلَيْنَ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَكَفُورٌ ۝ ٩  
وَلَيْنَ أَذَقْنَاهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولُنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝ ١٠  
وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ ١١

(الإنسان) للجنس (رحمة) نعمة من صحة وأمن وجدة (ثم نزعناها منه) ثم سلبنا تلك النعمة (إنه ليؤوس) شديد اليأس من أن تعود إليه مثل تلك النعمة المسلوقة . قاطع رجاءه من سعة فضل الله من غير صبر ولا تسليم لقضائه ولا استرجاع (كفور) عظيم الكفران لماسلف له من القلب في نعمة الله نسأله له (ذهب السيئات عني) أي المصائب التي ساءتني (إنه لفرح) أشر

(١) قوله «أو أشاروا بهذا» لعله : وأشاروا . (ع)

بطر ﴿بغور﴾ على الناس بما أذاقه الله من نعمائه ، قد شغله الفرح والفخر عن الشكر ﴿إلا الذين﴾ آمنوا ، فإن عادتهم إن نالهم رحمة أن يشكروا ، وإن زالت عنهم نعمة أن يصبروا .

فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٣﴾

كانوا يقترحون عليه آيات تعنتاً لا استرشاداً ، لأنهم لو كانوا مسترشدين لكانت آية واحدة بما جاء به كافية في رشادهم . ومن اقترحاتهم (لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك) وكانوا لا يعتقدون بالقرآن ويتهاونون به وبغيره بما جاء به من البينات ، فكان يضيق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يلقي إليهم ما لا يقبلونه ويضحكون منه ، فحزك الله منه وهيج له الرسالة وطرح المبالاة بردهم واستهزأهم واقتراحهم بقوله ﴿فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك﴾ أى لعلك ترك أن تلقى إليهم وتبلغه أيام مخافة ردهم له وتهاونهم به ﴿وضائق به صدرك﴾ بأن تتلوه عليهم ﴿أن يقولوا﴾ مخافة أن يقولوا ﴿لولا أنزل عليه كنز﴾ أى هلا أنزل عليه ما اقترحنا نحن من الكنز والملائكة ولم أنزل عليه ما لا نريده ولا نفكره ، ثم قال ﴿إنما أنت نذير﴾ أى ليس عليك إلا أن تنذرهم بما أوحى إليك وتبلغهم ما أمرت بتبليغه ، ولا عليك ردوا أو تهاونوا أو اقترحوا ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ يحفظ ما يقولون ، وهو فاعل بهم ما يجب أن يفعل ، فتوكل عليه ، وكل أمرك إليه ، و عليك تبليغ الوحي بقلب فسيح وصدر منشرح ، غير ملتفت إلى استكبارهم ولا مبال بسفهم واستهزأهم . فإن قلت : لم عدل عن ضيق إلى ضائق ؟ قلت : ليدل على أنه ضيق عارض غير ثابت ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أفصح الناس صدرا . ومثله قولك : زيد سيد وجواد ، تريد السيادة والوجود الثابتين المستقرين ، فإذا أردت الحدوث قلت : سائد وجائد ونحوه كانوا قوماً عامين في بعض القراءات ، وقول السمرى العكلى :

بَسَنَزِلَةٍ أَمَّا اللَّيْثِيُّ فَسَامِنٌ بِهَا وَكَرَامُ النَّاسِ بِأَدِ شُحُوبِهَا <sup>(١)</sup>

\*\*\*

أَمْ يَقُولُونَ اقْرَأْهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ

مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾

(١) للعكلى . والشحوب تغير اللون . وأنشده أبو زيد شاهداً على أن الشحوب في لغة بني كلاب الهزال ، وهو أنصب بالمقابلة لقوله بمنزلة مجدة صفتها أنها . أما الليثي الذي همه بطنه ، فهو سامن فيها لكثرة أكله . وأما كرام الناس فهم متغيرون فيها مهازيل ، لأنهم يطعمون ولا يطعمون . و«فاعل» من سمن شاذ ، وقياسه «فعل» .

(أم) منقطعة . والضمير في (أقترأه) لما يوحى إليك . تحداهم أولاً بعشر سور ، ثم بسورة واحدة ، كما يقول المخبر في الخط لصاحبه : اكتب عشرة أسطر نحو ما أكتب ، فإذا تبين له العجز عن مثل خطه قال : قد اقتصرت منك على سطر واحد (مثله) بمعنى أمثاله ، ذهاباً إلى بمائة كل واحدة منها له (مفتريات) صفة لعشر سور . لما قالوا : اقترت القرآن واختلقته من عند نفسك وليس من عند الله ، قاودهم<sup>(١)</sup> على دعواهم وأرخی معهم العنان وقال : هبوا أنى اختلقته من عند نفسي ولم يوح إلى وأن الأمر كما قلتم ، فأتوا أتم أيضاً بكلام مثله مختلق من عند أنفسهم ، فأتهم عرب فصحاء مثلي لا تعجزون عن مثل ما أقدر عليه من الكلام . فإن قلت : كيف يكون ما يأتون به مثله ، وما يأتون به مفترى وهذا غير مفترى ؟ قلت : معناه مثله في حسن البيان والنظم وإن كان مفترى .

فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ  
فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

فإن قلت : ما وجه جمع الخطاب بعد إفراده وهو قوله (لكم فاعلموا) بعد قوله (قل) ؟ قلت : معناه : فإن لم يستجيبوا لك وللمؤمنين لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كانوا يتحدوهم ، وقد قال في موضع آخر : (فإن لم يستجيبوا لك فاعلم) ويجوز أن يكون الجمع لتعظيم رسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله :

\* فَإِنْ شِئْتَ حَرَّمْتُ النَّسَاءَ سِوَاكُمْ \* (٢)

ووجه آخر : وهو أن يكون الخطاب للبشر كين ، والضمير في (لم يستجيبوا) لمن استطعتم ، يعني : فإن لم يستجب لكم من تدعونه من دون الله إلى المظاهرة على معارضته لعلمهم بالعجز عنه وأن طاعتهم أقصر من أن تبلغه (فاعلموا أنما أنزل بعلم الله) أي أنزل ملتبساً بما لا يعلمه إلا الله ، من نظم معجز للخلق ، وإخبار بغيوب لا سبيل لهم إليه (و) اعلموا عند ذلك (أن لا إله إلا الله وحده ، وأن توحيده واجب والإشراك به ظلم عظيم) (فهل أنتم مسلمون) مباعدون بالإسلام بعد هذه الحجة القاطعة ، وهذا وجه حسن مطرد . ومن جعل الخطاب للمسلمين فعنائه : فاثبتوا على العلم الذي أنتم عليه ، وازدادوا يقيناً وثبات قدم على أنه منزل من عند الله وعلى التوحيد . ومعنى (فهل أنتم مسلمون) فهل أنتم مخلصون ؟

(١) قوله «قاودهم» ضمن معنى وافقهم وسأبرهم .. (ع)

(٢) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ٢٩٤ فراجع إن شئت . اهـ مصححه .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْنِهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

(نوف إليهم) نوصل إليهم أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا، وهو ما يرزقون فيها من الصحة والرزق. وقيل: هم أهل الرياء. يقال للقرأء منهم: أردت أن يقال: فلان قارئ، فقد قيل ذلك. ولمن وصل الرحم وتصدق: فعلت حتى يقال، فقيل. ولمن قاتل فقتل: قاتلت حتى يقال فلان جرى، فقد قيل: وعن أنس بن مالك: هم اليهود والنصارى، إن أعطوا سائلا أو وصلوا رحماً، عجل لهم جزاء ذلك بتوسعة في الرزق وصحة في البدن. وقيل: هم الذين جاهدوا من المنافقين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسهم لهم في الغنائم. وقرئ: يوف، بالياء على أن الفعل لله عز وجل. وتوف إليهم أعمالهم بالثناء، على البناء للفعول. وفي قراءة الحسن: نوفي، بالتخفيف وإثبات الياء، لأن الشرط وقع ماضياً، كقوله:

\* يَقُولُ لَأَغَايِبُ مَالِي وَلَا حَرِمُ \* (١)

(وحبط ما صنعوا فيها) وحبط في الآخرة ما صنعوه، أو صنعهم، يعني: لم يكن له ثواب لأنهم لم يريدوا به الآخرة، إنما أرادوا به الدنيا، وقد وفي إليهم ما أرادوا (وباطل ما كانوا يعملون) أي كان عملهم في نفسه باطلاً، لأنه لم يعمل لوجه صحيح، والعمل الباطل لا ثواب له. وقرئ: وبطل على الفعل. وعن عاصم: وباطلاً بالنصب، وفيه وجهان: أن تكون ما إلهامية وينتصب يعملون، ومعناه: وباطلاً، أي باطل كانوا يعملون. وأن تكون بمعنى المصدر على: وبطل بطلاناً ما كانوا يعملون.

أَمَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

(أمن كان على بيعة) معناه: أمن كان يريد الحياة الدنيا فمن كان على بيعة (٢) أي لا يعقبونهم في المنزلة

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٥٣٧ فراجع إن شئت. اه مصححه.

(٢) قوله ومن كان على بيعة، عبارة النسق: كمن كان. وعبارة الحازن: أمن كان على بيعة من ربه، أي كن

كان يريد ... الخ. (ع)

ولا يقاربونهم ، يريد أن بين الفريقين تفاوتاً بعيداً وتبايناً بيناً ، وأراد بهم من آمن من اليهود كمحمد الله بن سلام وغيره ، كان على بينة ﴿من ربه﴾ أى على برهان من الله وبيان أن دين الإسلام حق وهو دليل العقل ﴿ويتلوه﴾ ويتبع ذلك البرهان ﴿شاهد منه﴾ أى شاهد يشهد بصحته ، وهو القرآن ﴿منه﴾ من الله ، أو شاهد من القرآن ، فقد تقدم ذكره آنفاً ﴿ومن قبله﴾ ومن قبل القرآن ﴿كتاب موسى﴾ وهو التوراة ، أى : ويتلو ذلك البرهان أيضاً من قبل القرآن كتاب موسى . وقرئ : كتاب موسى بالنصب ، ومعناه : كان على بينة من ربه ، وهو الدليل على أن القرآن حق ، ﴿ويتلوه﴾ : ويقرأ القرآن (شاهد منه) شاهد عن كان على بينة . كقوله (وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله) ، (قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب) ، (ومن قبله كتاب موسى) ويتلو من قبل القرآن والتوراة ﴿إماماً﴾ كتاباً مؤتماً به في الدين قدوة فيه ﴿ورحمه﴾ ونعمة عظيمة على المنزل إليهم ﴿أولئك﴾ يعنى من كان على بينة ﴿يؤمنون به﴾ يؤمنون بالقرآن ﴿ومن يكفر به من الأحزاب﴾ يعنى أهل مكة ومن ضامهم من المتحرزين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿فالنار موعده فلا تلك في مربة﴾ وقرئ : مربة ، بالضم وهما الشك ﴿منه﴾ من القرآن أو من الموعد .

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ آفَقَرِي عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ لَيْسَ يُعَرِّضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ  
الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ١٨  
الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ١٩  
أُولَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ  
أَوْلِيَاءَ يُضْعِفُ لَهُمُ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ٢٠  
أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ٢١ لَا جَرَمَ لَهُمْ فِي  
الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ٢٢

﴿يعرضون على ربهم﴾ يحبسون في الموقف وتعرض أعمالهم ويشهد عليهم ﴿الاشهاد﴾ من الملائكة والنبيين بأنهم الكذابون على الله بأنه اتخذ ولداً وشريكا ، ويقال ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ فواخزياء ووافضيحتاه . والاشهاد : جمع شاهد أو شهيد ، كأصحاب أو أشراف ﴿ويبغونها عوجاً﴾ يصفونها بالاعوجاج وهى مستقيمة . أو يبغون أهلها أن يعوجوا  
(٢٥ - كهاف - ٢)

بالارتداد ، وهم الثانية لتأكيد كفرهم بالآخرة واختصاصهم به ﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾ أى ما كانوا يعجزون الله في الدنيا أن يعاقبهم لو أراد عقابهم ، وما كان لهم من يتولاهم فينصرهم منه ويمنعهم من عقابه ، ولكنه أراد إظهارهم وتأخير عقابهم إلى هذا اليوم ، وهو من كلام الأشهاد ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ وقرئ : يضعف ﴿ما كانوا يستطيعون السمع﴾ أراد أنهم لفرط تصاتهم عن استماع الحق وكرهتهم له ، كأنهم لا يستطيعون السمع <sup>(١)</sup> ولعل بعض المجرة <sup>(٢)</sup> يتوهم إذا عثر عليه فيوعوع <sup>(٣)</sup> به على أهل العدل ، كأنه لم يسمع الناس يقولون في كل لسان : هذا كلام لا أستطيع أن أسمعه ، وهذا مما يمججه سمعى . ويحتمل أن يريد بقوله (وما كان لهم من أولياء) أنهم جعلوا آلهتهم أولياء من دون الله ، وولايتها ليست بشيء ، فما كان لهم في الحقيقة من أولياء ، ثم بين نفي كونهم أولياء بقوله (ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون) فكيف يصلحون للولاية . وقوله (يضاعف لهم العذاب) اعتراض بوعيد ﴿خسروا أنفسهم﴾ اشتروا عبادة الآلهة بعبادة الله ، فكان خسراهم في تجارتهم مالا خسرا أن أعظم منه ، وهو أنهم خسروا أنفسهم ﴿وضل عنهم﴾ وبطل عنهم وضاع ما اشتروه وهو ﴿ما كانوا يفترون﴾ من الآلهة وشفاعتها ﴿لاجرم﴾ فسر في مكان آخر ﴿هم الآخرون﴾ لا ترى أحداً أبين خسرانا منهم .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَاخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ

الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾

(١) قال محمود : وأراد أنهم لفرط تصامهم عن استماع الحق وكرهتهم له كأنهم ... الخ قال أحمد : أهل الحق وإن نفوا تأثير استطاعة العبد وخلصوا الخلق لقدرة الخالق عز وجل ، لا ينفوت استطاعة العبد نفسها ولا ما يجده من نفسه من الفرق حالة الحركات القسرية والاختيارية ، وإنما الذى يبنى الاستطاعة جملة هم المجرة حقيقة لأهل السنة . والحق مع الزمخشري في هذا الموضع إلا في غفلة حيث يقول : فيوعوع بها على أهل العدل ، يعنى الآية المذكورة . وهذه سقطة عظيمة ، وهب أن المجبر غلط في الاستدلال بالآية على معتقده ، فكيف يستحيز أن يطلق على إرادة الآية وعوعة ، وإنما كتاب الله تعالى غير أن خطأه في تصحيح معتقده الباطل به . وما للزمخشري إلا يتسامح كثيراً فيما يجب من الآداب للكتاب العزيز ، وإنما يليق التسامح إذا كانت بفسر شعر امرئ القيس أو الحارث بن حطيرة . وأما أدب القرآن فيضيق عن أسهل من ذلك ، والله الموفق .

(٢) قوله ولعل بعض المجرة ، إن كان مراده بهم أمل السنة كعادته ، فهم لا يسلبون عن العبد الاستطاعة في الفعل ، بل يثبتون له الكسب والاستطاعة مع الفعل ، وإن كان مراده القائلين بالمجر المحض وأنت العبد كالريشة المعلقة في الهواء فلا ضير . ونقل الحارث عن ابن عباس في هذه الآية أنه قال : أخبر الله تعالى أنه حال بين أهل الشرك وبين طاعته في الدنيا والآخرة . أما في الدنيا فانه قال : ما كانوا يستطيعون السمع ، وهو طاعته . وما كانوا

يبصرون . وأما في الآخرة فانه قال (لا يستطيعون) (خاشعة أبصارهم) . (ع)

(٣) قوله «فيوعوع» في الصحاح : الوعوة صوت الذئب . (ع)



(وأخبتوا إلى ربهم) واطمأنوا إليه وانقطعوا إلى عبادته بالخشوع والتواضع من الخبت وهي الأرض المطمئة . ومنه قولهم للشيء : الدق . الخبت . قال :

يَنْفَعُ الطَّهْبُ الْقَلِيلُ مِنَ الرِّزِّ قِ وَلَا يَنْفَعُ الْكَثِيرُ الْخَيْثُ <sup>(١)</sup>

وقيل : التاء فيه بدل من التاء .

مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ <sup>(٢٤)</sup>

شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع <sup>(٣)</sup> وهو من اللف والطباق . وفيه معنيان : أن يشبه الفريق تشبيهين اثنين ، كما شبه امرؤ القيس قلوب الطير بالحشف والعناب ، وأن يشبه بالذي جمع بين العمى والصمم ، أو الذي جمع بين البصر والسمع <sup>(٤)</sup> . على أن تكون الواو في (والأصم) وفي (والسميع) لعطف الصفة على الصفة ، كقوله :

\* الصَّابِحِ فَالْفَائِزِ فَالْآيِبِ \* <sup>(٥)</sup>

(هل يستويان) يعني الفريقين (مثلاً) تشبيهاً .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ <sup>(٢٥)</sup> أَنْ لَا تَعْبُدُوا

إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْيَمِّ <sup>(٢٦)</sup>

أى أرسلنا نوحاً بأنى لكم نذير . ومعناه أرسلناه ملتبساً بهذا الكلام ، وهو قوله (إنى لكم نذير مبين) بالكسر ، فلما اتصل به الجاز فتح كما فتح في (كأن) والمعنى على الكسر ،

(١) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ٥٤٣ فراجعه إن شئت اه مصححه .

(٢) قال محمود : «شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع إلى قوله أن تكون الواو ... الخ» قال أحمد : «بغلانها على الوجه الأول ، فانها لعطف الموصوف على الموصوف . وأما تنظيره الآية بتشبيه امرئ القيس في كونه شبه تشبيهين اثنين فقيه نظر . فان امرأ القيس شبه كل واحد من الرطب واليابس تشبيهاً واحداً ، والآية على التفسير الأول شبهت كل واحد من الكافر والمؤمن تشبيهين ، وإنما ينظر بيت امرئ القيس على الوجه الثاني ، فان مقتضاه أن كل واحد منهما شبه تشبيهاً واحداً ، ولكن في صفتين متعددين ، والأمر في ذلك قريب ، والله أعلم .

(٣) قوله «أو الذي جمع بين البصر والسمع» لعله : والذي . (ع)

(٤) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ٤١ فراجعه إن شئت اه مصححه .

وهو قولك : إن زيدا كالأسد . وقرئ بالكسر على إرادة القول ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾ بدل من (إني لكم نذير) أي أرسلناه بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ أو تكون «أن» مفسرة متعلقة بأرسلناه أو بنذير . وصف اليوم بأليم من الإسناد المجازي لوقوع الألم فيه . فإن قلت : فإذا وصف به العذاب ؟ قلت : مجازي مثله ، لأن الألم في الحقيقة هو المعذب ، ونظيرهما قولك : نهارك صائم ، وجدّ جدّة .

فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا تَرَاكَ  
آتَبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُارِثُوا وَمَا تَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ  
بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾

﴿الملاء﴾ الأشراف من قوهم : فلان ملء بكذا ، إذا كان مطبقاً له ، وقد ملؤا بالأمر ؛ لأنهم ملؤا بكفايات الأمور واضطلعوا بها وتبديروها . أو لأنهم يتماثلون أي يتظاهرون ويتساندون ، أو لأنهم يملئون القلوب هيبة والمجالس أبهة <sup>(١)</sup> أو لأنهم ملأوا بالأحلام والآراء الصائبة ﴿ما تراك إلا بشراً مثلاً﴾ تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة <sup>(٢)</sup> وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم ، فقالوا : هب أنك واحد من الملاء وموازي لهم في المنزلة ، فما جعلك أحق منهم ؟ ألا ترى إلى قوهم : وما نرى لكم علينا من فضل . أو أرادوا أنه كان ينبغي أن يكون ملكاً لا بشر . والآراذل جمع الآرذل : كقوله (أكار بجرمها) «أحاسنكم أخلاقاً» وقرئ : بادي الرأي ، بالهمز وغير الهمز ، بمعنى : اتبعوك أول الرأي أو ظاهر الرأي ، وانتصابه على الظرف ، أصله : وقت حدوث أول رأيهم ، أو وقت حدوث ظاهر رأيهم لخذف ذلك وأقيم المضاف إليه مقامه . أرادوا : أن اتباعهم لك إنما هو شيء عن لهم بديهة من غير روية ونظر ، وإنما استرذلو المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية ، لأنهم كانوا جهالاً ما كانوا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة الدنيا ، فكان الأشراف عندهم من له جاه ومال ، كما ترى أكثر المتسمين بالإسلام يعتقدون ذلك ويننون عليه إكرامهم وإهايتهم ، ولقد ذل عنهم

(١) قوله «والمجالس أبهة» كسرة : عظمة . (ع)

(٢) قال محمود : «هو تعريض بأنهم كانوا أحق منه بالنبوة ... الخ» قال أحد : ويحتمل في الوجهين أن يكون المراد أول الرأي . ولكنه ترك الهمز استقلاً : إلا أن يكون الثاني بها ياء ليس من مذهبه تسهيل الهمز ، والمعنيان متقاربان ، وقد زعم هؤلاء أن يحجوا نوحاً بن اتبعه من وجهين ، أحدهما : أن المتبعين أرادوا ليسوا قدوة ولا أسوة . والثاني : أنهم مع ذلك لم يقرؤوا في اتباعه . ولأما عن الفكرة في صحة ما جاء به ، وإنما يادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية . وغرض هؤلاء أن لا يقوم عليهم حجة بأنهم من صدقه وآمن به ، والله أعلم

أن التقدم في الدنيا لا يقرب أحداً من الله وإنما يبعده، ولا يرفعه بل يضعه، فضلاً أن يجعله سبباً في الاختيار للنبوّة والتأهيل لها، على أن الانبياء عليهم السلام بعثوا مرغبين في طلب الآخرة ورفض الدنيا، مزهدين فيها، مصغرين لشأنها وشأن من أدخل إليها، فما أبعد حالهم من الاتصاف بما يبعد من الله، والتشرف بما هو ضعة عند الله (من فضل) من زيادة شرف علينا توهمكم للنبوّة. (بل نظنكم كاذبين) فيما تدعون.

قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيتُ عَلَيْكُمْ أَنْزَلْتُكُمْهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاذِبُونَ ٢٨ وَيَقَوْمُ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْقُوا رَبَّهُمْ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ٢٩ وَيَقَوْمُ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٣٠ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ٣١

(أرايتهم) أخبروني (إن كنت على بينة) على برهان (من ربّي) وشاهد منه يشهد بصحة دعواي (وآتاني رحمة من عنده) بإتياء البينة على أن البينة في نفسها هي الرحمة، ويجوز أن يريد بالبينة: المعجزة، وبالرحمة: النبوّة. فإن قلت: فقوله (فعميت) ظاهر على الوجه الأول، فما وجهه على الوجه الثاني؟ وحقه أن يقال فعميتا؟ قلت: الوجه أن يقدر فعميت بعد البينة، وأن يكون حذفه للاقتصار على ذكره مرة: ومعنى عميت خفيت. وقرئ: فعميت بمعنى أخفيت. وفي قراءة أبي: فعماها عليكم. فإن قلت: فما حقيقته؟ قلت: حقيقته أن الحجّة كما جعلت بصيرة ومبصرة جعلت عمياء، لأنّ الاعمى لا يهتدي ولا يهتدي غيره، فعنى فعميت عليكم البينة فلم تهتدكم، كما لو عمى على القوم دليلهم في المفاضة بقوا بغير هاد. فإن قلت: فما معنى قراءة أبي؟ قلت: المعنى أنهم صمموا على الإعراض عنها غلام الله (١) وتصميمهم، فجعلت تلك التخلية تعمية منه، والدليل عليه قوله (أنزلتموها وأنتم لها كارهون) يعني

(١) قوله «غلام الله» لم يفسره بمعنى أخفاها، لأن الله لا يفعل الشر عند الموتلة، وعند أهل السنة يفعل كل ممكن. (ع)

أنكرهم على قبولها ونفسركم على الاهتداء بها ، وأتم تكروها ولا تختارونها ، ولا إكراه في الدين ؟ وقدجى . بضميرى المفعولين متصلين جميعاً . ويجوز أن يكون الثانى منفصلاً كقولك : أنزلهم إياها . ونحوه ( فسيكفيكم الله ) ويجوز : فسيكفيكم إياهم . وحكى عن أبى عمرو إسكان الميم . ووجهه أن الحركة لم تكن إلا خلسة خفيفة ، فظنها الراوى سكوناً . والإسكان الصريح لحن عند الخليل وسيبويه وحذاق البصريين ؛ لأن الحركة الإعرابية لا يسوغ طرحها إلا في ضرورة الشعر . والضمير في قوله ﴿ لا أسئلكم عليه ﴾ راجع إلى قوله لهم (إني لكم نذير مبين أن لا تعبدوا إلا الله) . وقرئ : وما أنا بطارد الذين آمنوا ، بالتثنية على الاصل . فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ إنهم ملاقو ربهم ﴾ ؟ قلت : معناه أنهم يلاقون الله فيعاقب من طردهم . أو يلاقونه فيجازيهم على ما في قلوبهم من إيمان صحيح ثابت ، كما ظهر لي منهم وما أعرف غيره منهم . أو على خلاف ذلك مما تقرّفونهم به <sup>(١)</sup> من بناء إيمانهم على بادئ الرأى من غير نظر وتفكر . وما على أن أشق عن قلوبهم وأتعرف سر ذلك منهم حتى أطردهم إن كان الأمر كما تزعمون . ونحوه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم) الآية . أو هم مصدقون ببقاء ربهم موقنون به عالمون أنهم ملاقوه لا محالة ﴿ تجهلون ﴾ تتسافهون على المؤمنين وتدعونهم أراذل ؛ من قوله :

\* أَلَا لَا تَجْهَلْنَ أَحَدًا عَلَيْنَا \* (٢)

أو تجهلون بقاء ربكم . أو تجهلون أنهم خير منكم ﴿ من ينصرني من الله ﴾ من يمنني من انتقامه ﴿ إن طردهم ﴾ وكانوا يسألونه أن يطردهم ليؤمنوا به ، أئمة من أن يكونوا معهم على سواء ﴿ أعلم الغيب ﴾ معطوف على (عندى خزائن الله) أى لا أقول عندى خزائن الله ، ولا أقول : أنا أعلم الغيب . ومعناه : لا أقول لكم : عندى خزائن الله فأدعى فضلاً عليكم فى الغنى ، حتى تجهدوا فضلى بقولكم (وما نرى لكم علينا من فضل) ولا أدعى علم الغيب حتى تنسبونى إلى الكذب والافتراء ، أو حتى أطلع على ما فى نفوس أتباعى وضماير قلوبهم ﴿ ولا أقول إني ملك ﴾ حتى تقولوا لى ما أنت إلا بشر مثلى ، ولا أحكم على من استرذلت من المؤمنين لفقرهم أن الله لن يؤتهم خيراً فى الدنيا والآخرة لهوائهم عليه ، كما تقولون ، مساعدة لكم ونزولاً على هواكم ﴿ إني إذا لمن الظالمين ﴾ إن قلبت شيئاً من ذلك ، والازدراء : افتعال من زرى عليه إذا عابه . وأزرى به : قصر به ، يقال ازدردته عينه ، واقتحمته عينه .

(١) قوله «ذلك مما تقرّفونهم به» أى ترمونهم وتعيونهم . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) أَلَا لَا تَجْهَلْنَ أَحَدًا عَلَيْنَا فَجْهَلْ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَ

لعمر بن كلثوم من مغلطته ، وهؤلاء استفتاحية نفيد التوكيد - وهؤلاء ناهية . والتون لتوكيد النهى . أى : لا يسهون أحد علينا ويبدأن بالشر ، ونجهل : نصب بأن مضرة بعد فاء السببية لأنه بعد النهى . وسى جراء الجهل جهلا مشاكلة ، أى : فيجازيه فوق فعله بنا ، أوفوق جهل كل جاهل وزيادة عليه .

قَالُوا يَسُوحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ

مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴿٣٢﴾

﴿جادلنا فأكثر جدالنا﴾ معناه: أردت جدالنا وشرعت فيه فأكثرته، كقولك: جاد فلان فأكثر وأطاب ﴿فأتنا بما تعدنا﴾ من العذاب المعجل .

قَالَ إِنَّمَا بِأَنتُمْ بِإِلَهِ اللَّهِ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أُنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَىٰ إِجْرَائِي وَأَنَا

بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

﴿إنما يأتيكم به الله﴾ أى ليس الإتيان بالعذاب إلى إنما هو إلى من كفرتم به وعصيتموه ﴿إن شاء﴾ يعنى إن اقتضت حكمته أن يعجله لكم . وقرأ ابن عباس رضى الله عنه : فأكثر جدالنا . فإن قلت : ما وجه ترادف هذين الشرطين ؟ <sup>(١)</sup> قلت : قوله ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ جزؤه مادل عليه قوله ﴿لا ينفعكم نصحي﴾ وهذا الدال فى حكم مادل عليه ، فوصل بشرط كما وصل الجزاء بالشرط فى قولك : إن أحسنت إلى أحسنت إليك إن أمكننى . فإن قلت : فما معنى قوله <sup>(٢)</sup> ﴿إن كان الله يريد أن يغويكم﴾ ؟ قلت : إذا عرف الله من الكافر الإصرار بخلافه وشأنه ولم يلجئه ، سعى ذلك إغواء وإضلالا ، كما أنه إذا عرف منه أنه يتوب ويرعى فلطف به : سعى إرشادا وهداية . وقيل ( أن يغويكم ) أن يهلككم من غوى الفصيل غوى ، إذا بشم فهلك <sup>(٣)</sup> . ومعناه : أنكم إذا كنتم من التضميم على الكفر بالمنزلة التى لا تنفعكم نصائح الله

(١) قال محمود : «إت قلت : ما وجه ترادف هذين الشرطين ... الخ، قال أحمد : ونظير هذه الآية من مسائل الفقهاء قول القائل : أنت طالق إن شربت إن أكلت . وهى المترجمة بمسئلة اعتراض الشرط على الشرط . والمنقول عن الشافعية أنها إن شربت ثم أكلت لم يحنث . وإن أكلت ثم شربت حنث . وهذا الفرق مبناه على جعل الجزاء للشرط الآخر ، أى الذى يليه . ثم جمعهما معا جزاء للشرط المتوسط ، ولذلك سرى العربية لا تطول بذكره وعليه أعزب الزمخشري هذه الآية كما رأيت ، والله أعلم .

(٢) قوله «فإن قلت فما معنى ... الخ» السؤال وجوابه منى على مذهب المعتزلة : أن الله لا يخلق الشر . أما على مذهب أهل السنة فالإغواء على ظاهره : خلق النى - أى الضلال - فى القلب . . (ع)

(٣) قوله «إذا بشم فهلك» فى الصحاح «البشم» التخم . يقال : بشمت من الطعام . بالكسر . وبشم الفصيل من كثرة شرب اللبن . (ع)

ومواعظه وسائر لطافته ، كيف ينفعكم نصحي ؟ (فعلى إجماعى) وإجماعى بلفظ المصدر والجمع ، كقوله : والله يعلم أسرارهم وأسرارهم . ونحو : جرم وأجرام قفل وأقفال . وينصر الجمع أن فسرهم الأولون بآثامى . والمعنى : إن صح وثبت أنى افتريته ، فعلى عقوبة إجماعى أى افترائى . وكان حق حينئذ أن تعرضوا عني وتألّبوا على<sup>(١)</sup> (وأنا برى) ، يعنى ولم يثبت ذلك وأنا برى منه . ومعنى (مما تجرمون) من إجماعكم فى إسناد الاقتراء إلى فلا وجه لإعراضكم ومعاداتكم .

وَأَوْحَىٰ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَأَصْنَعِ الْفُلَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾

(لن يؤمن) إقناط من إيمانهم ، وأنه كالحال الذى لا تعلق به للتوقع (إلا من قد آمن) إلا من قد وجد منه ما كان يتوقع من إيمانه ، وقد للتوقع وقد أصابت محزها (فلا تبتئس) فلا تحزن حزن بائس مستكين . قال :

مَا يَقْسِمُ اللَّهُ فَأَقْبَلَ غَيْرَ مُبْتَئِسٍ مِنْهُ وَاقْعُدْ كَرِيمًا نَائِمَ الْبَالِ<sup>(٢)</sup>

والمعنى : فلا تحزن بما فعلوه من تكذيبك وإيذائك ومعاداتك ، فقد حان وقت الانتقام لك منهم (بأعيننا) فى موضع الحال ، بمعنى : اصنعها محفوظا ، وحقيقته : ملتبسا بأعيننا ، كأن الله معه أعينا تكلؤه أن يزيغ فى صنعته عن الصواب ، وأن لا يحول بينه<sup>(٣)</sup> وبين عمله أحد من أعدائه . ووحيانا : وأنا نوحى إليك ونلهمك كيف تصنع . عن ابن عباس رضى الله عنه : لم يعلم كيف صنعة الفلك ، فأوحى الله إليه أن يصنعها مثل جؤجؤ الطائر (ولا تخاطبني فى الذين ظلموا) ولا تدعنى فى شأن قومك واستدفاع العذاب عنهم بشفاعتك (إنهم مغرقون) لأنهم محكوم عليهم بالإغراق ، وقد وجب ذلك وقضى به القضاء وجف القلم ، فلا سبيل إلى كفه ، كقوله :

(١) قوله «وتألّبوا على» أى تتجمعوا . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) لحسان ، يقال : ابتأس إذا حزن من كثرة وقوع البأس والمكارة به . والبال القلب أو الشان . يقول : ما يقسمه الله لك من نعمة أو نعمة فأقبله حال كونك غير متحزن منه ، أى بما قسمه الله لك . واقعد كريما غير مهان طيب الحال والشان ، أو مستريح القلب من نصب الدنيا . وروى : واقعد بقطع الهمة ، من أقعد المتعدي ، فكريما حال على الأول ، ومفعول على الثانى ، وفيه تجريد .

(٣) قوله «وأن لا يحول بينه» لعله : وأن يحول . (ع)

(يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جله أمر ربك وإنهم آتيم عذاب غير مردود).

وَيَصْنَعُ الْفُلَّ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾

(ويصنع الفلك) حكاية حال ماضية (سَخَرُوا مِنْهُ) ومن عمله السفينة، وكان يعملها في برية بهاء<sup>(١)</sup> في أبعاد موضع من الماء، وفي وقت عز الماء فيه عزة شديدة، فكانوا يتضاחקون ويقولون له: يا نوح، صرت نجاراً بعد ما كنت نبياً (فإننا نسخر منكم) يعني في المستقبل (كما تسخرون) منا الساعة، أى: نسخر منكم سخرية مثل سخريتكم إذا وقع عليكم الفرق في الدنيا والحرق في الآخرة. وقيل: إن تستجهلونا فيما نصنع فإننا نستجهلكم فيما أنتم عليه من الكفر والتعرض لسخط الله وعذابه، فأتم أولى بالاستجهال منا. أو إن تستجهلونا فإننا نستجهلكم في استجهالكم، لأنكم لا تستجهلون إلا عن جهل بحقيقة الأمر، وبناء على ظاهر الحال كما هو عادة الجهلة في البعد عن الحقائق. وروى أن نوحاً عليه السلام اتخذ السفينة في سنتين، وكان طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، وكانت من خشب الساج وجعل لها ثلاثة بطون، فحمل في البطن الأسفل: الوحوش والسباع والهوام، وفي البطن الأوسط: الدواب والأنعام، وركب هو ومن معه في البطن الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد، وحمل معه جسد آدم عليه السلام وجعله معترضاً بين الرجال والنساء، وعن الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة. وقيل: إن الحوارين قالوا لعيسى عليه السلام: لو بعثت لنا رجلاً شهد السفينة يحدثنا عنها، فانطلق بهم حتى انتهى إلى كتيب من تراب، فأخذ كفاً من ذلك التراب فقال: أتدرون من هذا؟ قالوا الله ورسوله أعلم. قال: هذا كعب بن حام. قال: فضرب الكتيب<sup>(٢)</sup> بعصاه فقال: قم ياذن الله، فإذا هو قائم ينفذ التراب عن رأسه وقد شاب فقال له عيسى عليه السلام: هكذا أهلكك؟ قال لا، مت وأنا شاب، ولكنني ظننت أنها الساعة فمن ثمت شبت. قال: حدثنا عن سفينة نوح. قال: كان طولها ألف ذراع ومائتي ذراع، وعرضها ستمائة ذراع، وكانت ثلاث طبقات: طبقة للدواب والوحوش، وطبقة للإنس، وطبقة للطير. ثم قال له: عد ياذن الله كما كنت، فعاد تراباً (من يأتیه) في محل النصب بتعلمون. أى:

(١) قوله «برية بهاء» أى لا يهتدى فيها الطريق. ويقال: المر أبهم، وكذا الرجل الشجاع أبهم، كذا

في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «قال فضرب الكتيب» أى راوى هذه القصة، ولكنه غير معلوم. (ح)

فسوف تعلمون الذى يأتيه عذاب يخزيه، ويعنى به إياهم، ويريد بالعذاب: عذاب الدنيا وهو الفرق (ويحل عليه) حلول الدين والحق اللازم الذى لا انفكك له عنه (عذاب مقيم) وهو عذاب الآخرة.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا آمَحِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ آثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

وَقَالَ آرْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ نَجْرِيهَا وَمُرسَاها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾

(حتى) هى التى يبتدأ بعدها الكلام، دخلت على الجملة من الشرط والجزاء. فإن قلت: وقعت غاية لماذا؟ قلت: لقوله: ويصنع الفلك، أى: وكان يصنعها إلى أن جاء وقت الموعد، فإن قلت: وإذا اتصلت «حتى» يصنع فما تصنع بما بينهما من الكلام؟ قلت: هو حال من يصنع، كأنه قال: يصنعها والحال أنه كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه. فإن قلت: فما جواب كلما؟ قلت: أنت بين أمرين: إما أن تجعل (سخروا) جواباً و (قال) استثناء، على تقدير سؤال سائل. أو تجعل (سخروا) بدلاً من (مر) أو صفة (ملأ) و (قال) جواباً. (وأهلك) عطف على اثنين، وكذلك (ومن آمن) يعنى: واحمل أهلك والمؤمنين من غيرهم. واستثنى من أهله من سبق عليه القول أنه من أهل النار، وما سبق عليه القول بذلك إلا للعلم بأنه يختار الكفر، لا لتقديره عليه <sup>(١)</sup> وإرادته به - تعالى الله عن ذلك - قال الضحاك: أراد ابنه وامرأته (إلا قليل) روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: كانوا ثمانية: نوح وأهله، وبنوه الثلاثة، ونسأؤهم، <sup>(٢)</sup> وعن محمد بن إسحق: كانوا عشرة: خمسة رجال وخمس نسوة. وقيل كانوا اثنين وسبعين رجلاً وامرأة، وأولاد نوح: سام وحام ويافث، ونسأؤهم. فالجميع ثمانية وسبعون: نصفهم رجال ونصفهم نساء. ويجوز أن يكون كلاماً واحداً وكلامين: فالكلام الواحد: أن يتصل (بسم الله) باركبوا حالاً من الواو، بمعنى: اركبوا فيها مسمين الله. أو قائلين بسم الله وقت إجرائها ووقت إرسائها، إما لأن المجرى والمرسى للوقت، وإما لأنهما مصدران كالإجراء والإرساء، حذف منهما الوقت المضاف. كقوله خفوق النجم. ومقدم الحاج. ويجوز أن يراد مكانا الإجراء والإرساء، وانتصابهما بما فى (بسم الله) من معنى الفعل، أو بما فيه

(١) قوله «يختار الكفر لا لتقديره عليه» هذا على مذهب المعتزلة من عدم سبق القضاء والقدر على الشر وعدم إرادته، ولكن مذهب أهل السنة أن كل ممكن مسبوق بالقضاء والقدر والارادة ولو شراً. (ع)

(٢) لم أره مرفوعاً. وذكره الطبري بإسناد عن قتادة قال: ذكر لنا أن لم يتم فى السفينة إلا نوح وامرأته وبنوه الثلاثة ونسأؤهم. لخميسهم ثمانية.



من إرادة القول . والكلامان : أن يكون ( بسم الله مجراها ومرساها ) جملة من مبتدأ وخبر مقتضية ، أى بسم الله إجراؤها وإرساؤها . يروى أنه كان إذا أراد أن تجرى قال : بسم الله فجرت ، وإذا أراد أن ترسو قال : بسم الله فرست . ويجوز أن يقم الاسم <sup>(١)</sup> ، كقوله :

\* ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمْ \* <sup>(٢)</sup>

ويراد : بالله إجراؤها وإرساؤها ، أى بقدرته وأمره . وقرئ ( مجراها ومرساها ) بفتح الميم ، من جرى ورسى ، إما مصدرين أو وقتين أو مكانين . وقرأ مجاهد : مجريها ومرسيها ، بلفظ اسم الفاعل ، مجرورى المحل ، صفتين لله . فإن قلت : ما معنى قولك : جملة مقتضية ؟ قلت : معناه أن نوحا عليه السلام أمرهم بالركوب ، ثم أخبرهم بأن مجراها ومرساها بذكر اسم الله أو بأمره وقدرته . ويحتمل أن تكون غير مقتضية بأن تكون في موضع الحال كقوله :

\* وَجَاؤُنَا بِهِمْ سَكَرٌ عَلَيْنَا \* <sup>(٣)</sup>

فلا تكون كلاما برأسه ، ولكن فضلة من فضلات الكلام الأول ، وانتصاب هذه الحال عن

(١) قال محمود : « ويجوز أن يقم الاسم ... الخ » قال أحمد : نفور من اعتقاد أن الاسم هو المسمى ، ولو اعتقد ذلك لما جعله مقبها ، والله أعلم .

(٢) تمنى ابتلى أن يعيش أبوها  
فإن كان يوما أنت يموت أبوكا  
وقولا هو المرء الذى لا صديقه  
إلى الحول ثم اسم السلام عليكما  
وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر  
فلا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر  
أهان ولا خان الأمين ولا غدر  
ومن يك حولا كاملا فقد اعتذر

للبيد بن ربيعة العامري ، يوصى ابنتيه أسماء ، ويسرة . وتمنى : ماض ، أو مضارع حذف منه إحدى التائين ، والاستفهام إنكارى وهو كناية عن تحتم الموت . ويوما : ظرف لكان . والمراد به : مطلق الزمن . وأن يموت : فاعل . وتخمش وجهه خمشا : جرحه بأظفاره ، أى : لا تبالغا في الجزع حتى تفعل ذلك ، ووقف على شعر منصوب بصورة المرفوع على لغة ، نهاهما عن الجزع وأمرهما بعد مناقبه . وصديقه : مفعول مقدم ، وإلى الحول : متعلق بقولا ، ولفظ « اسم » مقم بين ثم ولفظ السلام ، لأنه أراد تحيتهما بهذا اللفظ بخصوصه وإن أفاد غيره معناه . وقيل : أفحبه إشارة إلى أنه لا أمان لما بعد موته ، وفى « ثم » إيماء إلى أنه لم يسلم الآن ، وإنما ذلك بعد الحول ، والمراد أنه لا يخطر ببالها ولا يحزننا عليه بعد ذلك ، فبعد عنه بسلام المودة الذى يلزمه الافتراق ، والافتراق يلزمه عدم التذكر عادة . ويحتمل أن المراد الدلالة على أن الوصية قد تمت ، ثم قال : ومن يك مصلبه حولا كاملا فقد أبلغ في العذر ، كأنه يعتذر عن سكوته بأنه أدى ما عليه ، أى : وأتينا كذلك .

(٣) وجاؤنا بهم سكر علينا فأجلى القوم والسكران صاحبي

السكر والسكر : كالبعد والبعد ، و « بهم سكر » جملة حالية . ودعلينا ، متعلق بسكر : أى جاءنا القوم غضابا علينا ، فانكشفوا عن مكان الحرب ومضوا عنه . والحال أن السكران منهم مفلق من سكره . ويروى : فأجلى اليوم ، أى زال ومعنى ، أو انكشف ظلة الحرب في ذلك اليوم : أى لم يلبثوا إلا هو والحال أن الذى كان سكران صاح من سكره ، لعله أنه ليس أهلا لذلك ، فأجلى هنا لازم .

ضمير الفلك ، كأنه قيل : اركبوا فيها مجراة ومرساة بسم الله بمعنى التقدير ، كقوله تعالى (ادخلوها خالدين) . (إن ربى لغفور رحيم) لولا مغفرته لذنوبكم ورحمته إياكم لما نجاكم .

وَهِيَ تَجْرِي بِعَمِّ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ  
يَبْنَىٰ أَرْكَبَ مُعْنًا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَاوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي  
مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ  
فَكَانَ مِنَ الْمَغْرِقِينَ ﴿٤٣﴾

فإن قلت : بسم اتصل قوله (وهي تجري بهم) ؟ قلت : بمحذوف دل عليه (اركبوا فيها بسم الله) كأنه قيل : فركبوا فيها يقولون : بسم الله ، (وهي تجري بهم) أى تجري وهم فيها (في موج كالجبال) يريد موج الطوفان ، شبه كل موجة منه بالجبل في تراكمها وارتفاعها . فإن قلت : الموج : ما يرتفع فوق الماء عند اضطرابه وزخيره <sup>(١)</sup> وكان الماء قد التقي وطبق ما بين السماء والأرض ، وكانت الفلك تجري في جوف الماء كما تسبح السمكة ، فما معنى جريها في الموج ؟ قلت : كان ذلك قبل التطبيق ، وقبل أن يغمر الطوفان الجبال . ألا ترى إلى قول ابنه : سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ . قيل : كان اسم ابنه : كنعان . وقيل : يام . وقرأ على رضى الله عنه : ابنها ، والضمير لامرأته . وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير : ابنه ، بفتح الهاء ، يريدان ابنها ، فاكتميا بالفتحة عن الالف ، وبه ينصر مذهب الحسن . قال قتادة : سأله فقال : والله ما كان ابنه . فقلت : إن الله حكى عنه إن ابني من أهلي ، وأنت تقول : لم يكن ابنه ، وأهل الكتاب لا يختلفون في أنه كان ابنه ، فقال : ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب ، واستدل بقوله (من أهلي) ولم يقل : مني ، ولنسبته إلى أمه وجهان ، أحدهما : أن يكون ربيباً له ، كعمر بن أبي سلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن يكون لغير رشدة ، وهذه غضاضة عصمت منها الأنبياء عليهم السلام . وقرأ السدي : ونادى نوح ابنه ، على الندبة والترثي . أى : قال يا ابنه . والمعزل : مفعول ، من عزله عنه إذا نحاه وأبعده ، يعنى : وكان في مكان عزل فيه نفسه عن أبيه وعن مركب المؤمنين . وقيل : كان في معزل عن دين أبيه (يا بني) قرئ بكسر الياء اقتصاراً عليه من ياء الإضافة ، وبالفتح اقتصاراً عليه من الالف المبدلة من ياء الإضافة في قولك : يا بني ، أو سقطت

(١) قوله عند اضطرابه وزخيره ، في الصحاح «زخر الوادي» إذا امتد جداً وارتفع . ومنه يقال : يخر زخر .

الياء والآلف لالتقاء الساكنين ؛ لأنّ الراء بعدهما ساكنة (إلا من رحم) إلا الراحم وهو الله تعالى (١) ، أو لا عاصم اليوم من الطوفان إلا من رحم الله . أى إلا مكان من رحم الله من المؤمنين ، وكان لهم غفورا رحيا في قوله (إن ربي لغفور رحيم) وذلك أنه لما جعل الجبل عاصما من الماء قال له : لا يعصمك اليوم معصم قط من جيل ونحوه سوى معصم واحد وهو مكان من رحمهم الله ونجاهم يعنى السفينة . وقيل لا عاصم ، بمعنى : لا ذا عصمة إلا من رحمه الله ، كقوله (ماء دافق) و (عيشة راضية) وقيل : (إلا من رحم) استثناء منقطع ، كأنه قيل : ولكن من رحمه الله فهو المعصوم ، كقوله (ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) وقرئ (إلا من رُحِم) على البناء للفعول .

وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلَيْي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ  
وَأَسْتَوَتْ عَلَى الْجُودَى وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾

نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميز (٢) على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله (يا أرض) ، (ويا سماء) ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله (ابلعي ماءك) و (أقْلعي) من الدلالة على الاقتدار العظيم ، وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير متمتعة عليه ، كأنها عقلاء معززون قد عرفوا عظمتهم وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور ، وتبينوا تحتم طاعته عليهم وانقيادهم له ، وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته

(١) قال محمود : المراد إلا الراحم وهو الله تعالى أو لا عاصم اليوم ... الخ ، قال أحد : والاختلالات الممكنة أربعة : لا عاصم إلا راحم ، ولا معصوم إلا مرحوم ، ولا عاصم إلا مرحوم ، ولا معصوم إلا راحم . فالأولان استثناء من الجنس ، والآخران من غير الجنس . وزاد العنشرى خامسا : وهو لا عاصم إلا مرحوم ، على أنه من الجنس بتأويل حذف المضاف ، تقديره : لا مكان عاصم إلا مكان مرحوم . والمراد بالتى التعريض بعدم عصمة الجبل ، وبالمثبت التعريض بعصمة السفينة والكل جائز ، وبعضها أقرب من بعض ، والله أعلم .

(٢) قال محمود : « نداء الأرض والسماء بما ينادى به العاقل ... الخ » قال أحد : ومن هذا النظم في السكوت عن ذكر الموصوف اكتفاء بصفاته لانفرادها بها السكوت عن ذكر الأوصاف أحيانا ، اكتفاء بذكر الموصوف لثبته بها وتوحيده فيها ، وأنه متى ذكر مكانها قد ذكرت بذكره في مثل قوله (وهو الله في السموات وفي الأرض) الآية . والمراد : وهو الله الموصوف بصفات الكمال المنهورة بها في العالمين . ومنه :

• أنا أبو النجم وشعري شعري •

ولقد تحمّل الشعراء على التعلق بأذيال هذه المعاني اللطيفة ، فقال أبو الطيب يمدح عضد الدولة :

لا تحمّدها واحدها هماما إذ لم يسم حامدا سواكا

يعنى لا تمدح نفسك فانك المنفرد بالمادح ، حتى إذا ذكرت ولم يسم المعنى بها لم يسبق إلى ذهن أحد غيرك لتفردك بها .

على القور من غير ريث ، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولا لا حبس ولا إبطاء . والبلع : عبارة عن النشف . والإقلاع : الإمساك . يقال : أقلع المطر وأقلعت الحمى ( وغيض الماء ) من غاضه إذا نقصه ( وقضى الأمر ) وأنجز ما وعد الله نوحا من هلاك قومه ( واستوت ) واستقرت السفينة ( على الجودي ) وهو جبل بالموصل ( وقيل بعدا ) يقال بعد بعدا وبعدا ، إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ، ولذلك اختص بدعاء السوء وبحجاء أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر ، وتكوين مكون قاهر ، وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله ، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره : يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء ألقعي ، ولا أن يقضى ذلك الأمر الهائل غيره ، ولا أن تستوى السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره ، ولما ذكرنا من المعاني والنسك استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رؤسهم ، لا لتجانس الكلمتين ، وهما قوله ( ابلعي ) و ( ألقعي ) وذلك وإن كان لا يخلج الكلام من حسن ، فهو كثير المثلث إليه يازاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور . وعن قتادة : استقلت بهم السفينة لعشر خلون من رجب ، وكانت في الماء خمسين ومائة يوم ، واستقرت بهم على الجودي شهراً ، وهبط بهم يوم عاشوراء . وروى أنها مرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقد أعتقه الله من الفرق . وروى أن نوحا صام يوم الهبوط وأمر من معه فصاموا شكراً لله تعالى .

وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَكِيمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يُنُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾

نداءه ربه : دعاؤه له ، وهو قوله ( رب ) مع ما بعده من اقتضاء وعده في تنجية أهله . فإن قلت : فإذا كان النداء هو قوله ( رب ) فكيف عطف ( قال رب ) على ( نادى ) بالفاء ؟ قلت : أريد بالنداء إرادة النداء ، ولو أريد النداء نفسه لجاء ، كما جاء قوله ( إذ نادى ربه نداء خفياً قال رب ) بغير فاء ( إن ابني من أهلي ) أي بعض أهلي ، لأنه كان ابنه من صلبه ، أو كان ربيباً له فهو بعض أهله ( وإن وعدك الحق ) وأن كل وعد تعده فهو الحق الثابت الذي لا شك في إنجازه والوفاء به ، وقد وعدتني أن تنجي أهلي ، فما بال ولدي ؟ ( وأنت أحكم الحاكمين ) أي أعلم الحكام وأعدلهم <sup>(١)</sup> ؛ لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم والعدل . ورب غريق في الجهل

(١) قال محمود : وقال أي أعلم الحكام وأعدلهم ، لأنه لا فضل لحاكم على غيره إلا بالعلم ... الخ ، قال أحد : =

والجور من متقلدى الحكومة في زمانك قد لقب أقضى القضاة ، ومعناه أحكم الحاكمين فاعتبر واستعبر . ويجوز أن يكون من الحكمة ، على أن يبنى من الحكمة حاكم بمعنى النسبة كما قيل دارع من الدرع ، وحائض وطالق على مذهب الخليل (إنه عمل غير صالح) تعليل لا تتفاء كونه من أهله . وفيه إيذان بأن قرابة الدين غامرة لقرابة النسب ، وأن نسيبك في دينك ومعتقدك من الأبعد في المنصب <sup>(١)</sup> وإن كان حبشياً وكنت قرشياً لصيقك وخصيصك . ومن لم يكن على دينك - وإن كان أمس أقاربك رحماً - فهو أبعد بعيد منك ، وجعلت ذاته عملاً غير صالح ، مبالغة في ذمته ، كقولها :

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ إِقْبَالُ وَادِّبَارُ ﴾ <sup>(٢)</sup>

وقيل : الضمير لنداء نوح ، أى : إن نداءك هذا عمل غير صالح وليس بذاك - فإن قلت : فهلا قيل : إنه عمل فاسد <sup>(٣)</sup> ؟ قلت : لما نفاه عن أهله ، نفي عنه صفتهم بكلمة النفي التي يستبقى معها لفظ المنفي ، وأذن بذلك أنه إنما أنجى من أنجى من أهله لصلاحهم ، لا لأنهم أهلك وأقاربك . وإن هذا لما اتفق عنه الصلاح لم تنفعه أبوتك ، كقوله (كأنتا تحت عبيد من عبادنا صالحين تخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً) وقرئ : عمل غير صالح أى عمل عملاً غير صالح . وقرئ : فلا تسئلن ، بكسر التون بغير ياء الإضافة وبالنون الثقيلة بياء وبغير ياء ، يعنى فلا تلتمس مني ملتئماً أو التماساً لا تعلم أصواب هو أم غير صواب ، حتى تقف على كنهه . وذكر المسألة

== ثم حدث بعد الزعمى رفع عن أقضى القضاة إلى قاضى القضاة ، والذي تلاحظوا به في ارتفاع هذه الثانية على الأولى : أن الأولى تقتضى مشاركة القضاة لأعضائهم في الوصف ، وأن يراى عليهم ، فترفعوا أن يشركهم أحد في وصفهم من دونهم في المنصب ، فعدلوا عما يشاركه فيه إلى ما ليس كذلك ، فأفردوا رئيسهم بتلقيه بقاضى القضاة : أى هو الذى يقضى بين القضاة ولا يشاركهم منهم أحد في وصفه ، وجعلوا الذى يليه في الرتبة أقضى القضاة إلا أنهم إنما يعنون قاضى قضاة زمانه أو إقليمه . وإذا جاز أن يطلق على أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه أقضى قضاة الصحابة في زمانه كما أطلقه عليه النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال «أقضاكم على» ، فدخل في المخاطبين القضاة وغيرهم ، فلا حرج إن شاء الله أن يطلق على أعدل قضاة الزمان أو الأقليم وأعلمهم : قاضى القضاة ، وأقضى القضاة ، أى قضاة زمانه وبلده ، وكل قرن ناجم في زمن فهو شبيه زمن فيه بدا هذا اللقب .

(١) قوله «من الأبعد في المنصب» لعله تحريف ، وأصله في النسب . (ع)

(٢) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢١٨ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٣) قال محمود : «فهلا قيل : إنه عمل فاسد قلت لما نفاه عن أهله نفي عنه ... الخ» قال أحمد : ولهذا المعنى والله أعلم قيل له عليه الصلاة والسلام ( وأنذر عشيرتك الأقرين ) وإن كان مأموراً بالانذار على العموم ، ولكن لما كانت أهلية النبي عليه الصلاة والسلام مظنة الانكاثال والفتور عن العمل ، خص أهله بالانذار إيذاناً بذلك ، والله أعلم . ولهذا لما نزلت أنذرهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال : إني لأملك لكم من الله شيئاً ، أو قال ذلك لكل واحد منهم بخصوصه .

دليل على أن النداء كان قبل أن يغرق حين خاف عليه . فإن قلت : لم سمي نداؤه سؤالاً ولا سؤال فيه ؟ قلت : قد تضمن دعاؤه معنى السؤال وإن لم يصرح به ، لأنه إذا ذكر الموعد بنجاة أهله في وقت مشاركة ولده الغرق فقد استنجز . وجعل سؤال ما لا يعرف كنهه جهلاً وغباً ، ووعظه أن لا يعود إليه وإلى أمثاله من أفعال الجاهلين . فإن قلت : قد وعده أن ينجي أهله ، وما كان عنده <sup>(١)</sup> أن ابنه ليس منهم ديناً ، فلما أشقى على الغرق تشابه عليه الأمر ، لأن العدة قد سبقت له وقد عرف الله حكماً لا يجوز عليه فعل القبيح وخاف الميعاد ، فطلب إمالة الشبهة وطلب إمالة الشبهة واجب ، فلم زجر وسمى سؤاله جهلاً ؟ قلت : إن الله عز وعلا قدم له الوعد بإنجاء أهله مع استثناء من سبق عليه القول منهم ، فكان عليه أن يعتقد أن في جملة أهله من هو مستوجب للعذاب لكونه غير صالح ، وأن كلهم ليسوا بناجين ، وأن لا تتخالجه شبهة حين شاف ولده الغرق في أنه من المستثنى لا من المستثنى منهم ، فعوتب على أن اشتبه عليه ما يجب أن لا يشتبه .

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي

أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾

(أَنْ أَسْأَلَكَ) من أن أطلب منك في المستقبل ما لا علم لي بصحته ، تأدباً بأدبك واطعاً بموعظتك (وإلا تغفر لي) ما فرط مني من ذلك (وترحمني) بالنبوة على (أَكُنْ من الخاسرين) أعمالاً .

(١) قال محمد : «فإن قلت قد وعده الله أن ينجي أهله وما كان عنده ... الخ» قال أحد : وفي كلام الرعشمري ما يدل على أنه يعتقد أن نوحاً عليه السلام صدر منه ما أوجب نسبة الجهول إليه ومعاتبته على ذلك ، وليس الأمر كما تخيله الرعشمري ، ونحن نوضح الحق في الآية منزلاً على نصها مع تنزيه نوح عليه السلام عما توهم الرعشمري نسبته إليه فنقول : لما وعد نوح أولاً تنجيت أهله إلا من سبق عليه القول منهم ولم يكن كاشفاً لحال ابنه المذكور ولا مطلقاً على باطن أمره بل معتقداً بظاهر الحال أنه مؤمن ، بقي على التمسك بصيغة العموم الإلهية الثابتة ولم يعارضها يقين في كفر ابنه حتى يخرج من الأهل ويدخل في المستثنى ، فسأل الله فيه بناء على ذلك ، فتبين له أنه في علمه من المستثنى ، وأنه هو لا علم له بذلك ، فلذلك سأل فيه ، وهذا بأن يكون إبانة عذر أولى منه أن يكون عتياً ، فإن نوحاً عليه السلام لا يكلفه الله علماً استأثر به غيباً . وأما قوله (إني أعظمك أن تكون من الجاهلين) فالمراد منه انتهى عن وقوع السؤال في المستقبل بعد أن أعلمه الله باطن أمره ، وأنه إن وقع في المستقبل في السؤال كان من الجاهلين . والغرض من ذلك تقديم ما يقفه عليه السلام على سمة العصمة ، والموعظة لانتدعي وقوع ذنب ، بل المقصد منها أن لا يقع الذنب في الاستقبال ، ولذلك مثل عليه الصلاة والسلام ذلك ، واستعاذ بالله أن يقع منه ما نهى عنه والله أعلم .

قِيلَ يٰنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ

سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾

وقرئ: يا نوح اهبط، بضم الباء ﴿بسلام منا﴾ مسلماً محفوظاً من جهتنا أو مسلماً عليك مكزماً ﴿وبركات عليك﴾ ومباركاً عليك، والبركات الخيرات النامية. وقرئ: وبركة، على التوحيد ﴿وعلى أمة من معك﴾ يحتمل أن تكون من للبيان. فيراد الامم الذين كانوا معه في السفينة؛ لانهم كانوا جماعات. أو قيل لهم أمة، لأن الامم تنشعب منهم، وأن تكون لابتداء الغاية أى: على أمة ناشئة من معك، وهى الامم إلى آخر الدهر وهو الوجه. وقوله ﴿وأمة﴾ رفع بالابتداء. و﴿سنمتعهم﴾ صفة، والخبر محذوف تقديره: ومن معك أمة سنمتعهم، وإنما حذف لأن قوله (من معك) يدل عليه. والمعنى: أن السلام منا والبركات عليك وعلى أمة مؤمنين ينشؤون من معك، ومن معك أمة ممتعون بالدنيا منقلبون إلى النار، وكان نوح عليه السلام أبا الانبياء، والخلق بعد الطوفان منه ومن كان معه في السفينة. وعن كعب بن محمد القرظي: دخل في ذلك السلام كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، وفيما بعده من المتاع والعذاب كل كافر. وعن ابن زيد: هبطوا والله عنهم راض ثم أخرج منهم نسلاً، منهم من رحم ومنهم من عذب. وقيل: المراد بالامم الممتعة: قوم هود وصالح ولوط وشعيب.

تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ

قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

﴿تلك﴾ إشارة إلى قصة نوح عليه السلام. وعلمها الرفع على الابتداء، والجل بعدها أخبار، أى تلك القصة بعض أنباء الغيب موحاة إليك، بجهولة عندك وعند قومك ﴿من قبل هذا﴾ من قبل إيحائي إليك وإخبارك بها. أو من قبل هذا العلم الذى كسبته بالوحى. أو من قبل هذا الوقت ﴿فاصبر﴾ على تبليغ الرسالة وأذى قومك. كما صبر نوح وتوقع في العاقبة لك ولمن كذبك نحو ما قبض لنوح ولقومه ﴿إن العاقبة﴾ في الفوز والنصر والغلبة ﴿للمتقين﴾. وقوله (ولا قومك) معناه: إن قومك الذين أنت منهم على كثرتهم ووفور عددهم إذا لم يكن ذلك شأنهم ولا سمعوه ولا عرفوه، فكيف برجل منهم كما تقول لم يعرف هذا عبد الله ولا أهل بلده.

وإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ

أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَقُولُ لَأَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى  
الَّذِي قَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَقُولُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ  
السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَيزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾

(أخاهم) واحداً منهم ، وانتصابه للعطف على أرسلنا نوحا . و (هوداً) عطف  
بيان . و (غيره) بالرفع : صفة على محل الجار والمجرور . وقرئ : غيره ، بالجزء  
على اللفظ (إن أنتم إلا مفترون) تفترون على الله الكذب باتخاذكم الاوثان له شركاء . ما من  
رسول إلا واجه قومه بهذا القول ، لأن شأنهم النصيحة ، والنصيحة لا يحصها ولا يحصها  
إلا حسم الطامع ، وما دام يتوهم شيء منها لم تنجع ولم تنفع (أفلا تعقلون) إذ تردون نصيحة  
من لا يطالب عليها أجراً إلا من الله . وهو ثواب الآخرة ، ولا شيء أنفي للتهمة من ذلك . قيل  
(استغفروا ربكم) آمنوا به (ثم توبوا إليه) من عبادة غيره ، لأن التوبة لا تصلح إلا بعد  
الإيمان ، والمدرار : الكثير الدور ، كالمغزار . وإنما قصد استئمانهم إلى الإيمان وترغيبهم فيه  
بكثرة المطر وزيادة القوة ؛ لأن القوم كانوا أصحاب زروع وبساتين وعمارات ، حراساً عليها  
أشد الحرص ، فكانوا أحوج شيء إلى الماء . وكانوا مدلين <sup>(١)</sup> بما أوتوا من شدة القوة والبطش  
والبأس والنجدة ، مستحزين بها من العدو ، مبشرين في كل ناحية . وقيل : أراد القوة في المال .  
وقيل : القوة على النكاح وقيل : حبس عنهم القطر ثلاث سنين وعقمت أرحام نسائهم . وعن  
الحسين بن علي رضي الله عنهما أنه وفد على معاوية ، فلما خرج تبعه بعض حجاجه فقال : إني  
رجل ذو مال ولا يولد لي ، فعلنتي شيئاً لعل الله يرزقني ولداً ، فقال : عليك بالاستغفار ، فكان  
يكثّر الاستغفار حتى ربما استغفر في يوم واحد سبعاً وثلاثين مرة ، فولد له عشرة بنين ، فبلغ ذلك  
معاوية فقال : هلا سأله مم قال ذلك ، فوفد وفدة أخرى ، فسأله الرجل فقال : ألم تسمع قول  
هود عليه السلام (ويزدكم قوة إلى قوتكم) وقول نوح عليه السلام (ويمددكم بأموال وبنين) .  
(ولا تتولوا) ولا تعرضوا عني وعما أدعوكم إليه وأرغبكم فيه (مجرمين) مصرين على  
إجرامكم وآثامكم .

قَالُوا يَهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِ هَارُونَ عَنْ قَوْلِكَ وَمَا

نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

(١) قوله «وكانوا مدلين» من الدل . وفي الصحاح : الدل قريب من الهدى ، وهما من السكينة والوقار . (ع)



﴿ما جئتنا ببينة﴾ كذب منهم وجحد، كما قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لولا أنزل عليه آية من ربه، مع قوت آياته الحصر ﴿عن قولك﴾ حال من الضمير في تاركى آلهتنا، كأنه قيل: وما ترك آلهتنا صادرين عن قولك ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ وما يصح من أمثالنا أن يصدقوا مثلك فيما يدعوهم إليه، إقناطاً له من الإجابة.

إِنْ تَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾

﴿اعتراك﴾ مفعول نقول، وإلا لغو. والمعنى: ما نقول إلا قولنا اعتراك بعض آلهتنا بسوء، أى خبلك ومسك بجنون لسبك إياها وصدك عنها وعداوتك لها. مكافأة لك منها على سوء فعلك بسوء الجزاء، فن ثم تتكلم بكلام المجانين وتهذى بهذيان المبرسمين <sup>(١)</sup>. وليس بعجب من أولئك أن يسموا التوبة والاستغفار خيلاً وجنوناً وهم عاد أعلام الكفر وأوتاد الشرك. وإنما العجب من قوم من المتظاهرين بالإسلام ستمنعهم يسمون التائب من ذنوبه بجنونا والمنيب إلى ربه مخيلاً، ولم نجدهم معه على عشر مما كانوا عليه في أيام جاهليته من المواقعة، وما ذاك إلا لعرق من الإلحاد أى إلا أن ينبض، وضب من الزندقة <sup>(٢)</sup> أراد أن يطلع رأسه. وقد دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاة غلاظ الأكباد، لا يبالون بالبهت <sup>(٣)</sup> ولا يلتفتون إلى النصيح. ولا تلين شكيمتهم للرشد. وهذا الأخير دال على جهل مفرط وبه متناه. حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنتقم. ولعلمهم حين أجازوا العقاب كانوا يجهزون الثواب. من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجل واحد أمة عطاشاً إلى إراقة دمه. يرمونه عن قوس واحدة، وذلك لثقتهم بربه وأنه يعصمه منهم، فلا تنشب فيه مخالبهم. ونحو ذلك قال نوح عليه السلام لقومه (ثم اقضوا إلى ولا تنظرون) أكد براءته من آلهتهم وشركهم ووثقها بما جرت به عادة الناس من توثيقهم الأمور بشهادة الله وشهادة العباد، فيقول الرجل: الله شهيد على أنى لا أفعل كذا، ويقول لقومه: كونوا شهداء على أنى لا أفعله. فإن قلت: هلا قيل: إني أشهد الله وأشهدكم؟ <sup>(٤)</sup> قلت: لأن إشهد الله على البراءة من الشرك إشهد

(١) قوله «المبرسمين» في الصحاح، البرسام، علة معروفة. (ع)

(٢) قوله «وضب من الزندقة» في الصحاح «الضب» الحقد. والضب: واحد ضباب النخل، وهو طلمه. (ع)

(٣) قوله «لا يبالون بالبهت» أى الشخص بما ليس فيه. (ع)

(٤) قال محمود: «إن قلت هلا قيل أشهد الله وأشهدكم... الخ» قال أحد: وتلخيص ما قاله أن صبغة الخبر لا تحتل سوى الأخبار بوقوع الأشهاد منه، فلما كان إشهد الله واقعاً حقيقاً عبر عنه بصيغة الخبر. لأنه إشهد صحيح ثابت، وعبر في جانبهم بصيغة الأمر التى تتضمن الاستهانة بدينهم وقلة المبالاة به، وهو مراده في هذا المقام

صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معاقده ، وأما إظهارهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالة بهم فحسب ، فعدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر بالشهادة ، كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه . أشهد على أني لا أحبك ، تهكما به واستهانة بحاله ﴿ مما تشركون من دونه ﴾ من إشرأكم آلهة من دونه ، أو مما تشركونه من آلهة من دونه ، أي أنتم تجعلونها شركاء له ، ولم يجعلها هو شركاء . ولم ينزل بذلك سلطاناً ﴿ فكيدوني جميعاً ﴾ أنتم وآلهتكم أعجل ما تفعلون ، من غير إنظار : فإنني لا أبالي بكم وبكيدكم ، ولا أخاف معزتكم وإن تعاونتم عليّ وأنتم الأقوياء الشداد ، فكيف تضرنني آلهتكم ، وماهي إلا جناد لا تضرو ولا تنفع ، وكيف تنتقم مني إذا نلت منها وصدت عن عبادتها ، بأن تخيلني وتذهب بعقلي .

إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَبَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيفٌ ﴿٥٧﴾

ولما ذكر توكله على الله وثقته بحفظه وكلامه من كيدهم ، وصفه بما يوجب التوكل عليه من اشتغال ربوبيته عليه وعليهم . من كون كل دابة في قبضته وملكوته وتحت قهره وسلطانته ، والاختذ بنواصيها ، تمثيل لذلك ﴿ إن ربي على صراط مستقيم ﴾ يريد أنه على طريق الحق والعدل في ملكه ، لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به ﴿ فإن تولوا ﴾ فإن تتولوا . فإن قلت : الإيلاج كان قبل التولي ، فكيف وقع جزاء للشرط ؟ قلت : معناد فإن تتولوا لم أعاب على تفريط في الإيلاج ، وكنتم محجوجين بأن ما أرسلت به إليكم قد بلغكم فأيتهم إلا تكذيب الرسالة وعداوة الرسول ﴿ ويستخلف ﴾ كلام مستأنف ، يريد : ويهلككم الله ويحیی بقوم آخرين يخلفونكم في دياركم وأموالكم ﴿ ولا تضرونه ﴾ بتوليكم ﴿ شيئاً ﴾ من ضرر قط ، لأنه لا يجوز عليه المضار والمنافع ، وإنما تضرون أنفسكم . وفي قراءة عبده الله : ويستخلف ، بالجزم . وكذلك : ولا تضروه ، عطفاً على محل ( فقد أبلغتكم ) والمعنى : إن تتولوا يعذرنني ويستخلف قوماً غيركم ولا تضروا إلا أنفسكم ﴿ على كل شيء حفيظ ﴾ أي رقيب عليه مهيم ، فما تخفي

== معهم . ويحتمل أن يكون إظهارهم لما حقيقه ، والفرض إقامة الحجة عليهم ، وإنما عدل إلى صيغة الأمر عن صيغة الخبر ؛ للتمييز بين خطابه لله تعالى وخطابه لهم ، بأن يعبر عن خطاب الله تعالى بصيغة الخبر التي هي أجل وأدق للخطاب من صيغة الأمر ، والله الموفق للصواب .

عليه أعمالكم ولا يغفل عن مواخذتكم . أو من كان رقيباً على الأشياء كلها حافظاً لها وكانت مفتقرة إلى حفظه من المضار ، لم يضر مثله مثلكم .

وَمَا جَاءَ أَمْرُنَا تَنْجِيًا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجِّنَهُمْ

مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

(والذين آمنوا معه) قيل : كانوا أربعة آلاف . فإن قلت : مامعنى تكرير التنجية ؟ قلت : ذكر أولاً أنه حين أهلك عدوهم نجاهم ثم قال (ونجيناهم من عذاب غليظ) على معنى : وكانت تلك التنجية من عذاب غليظ ، وذلك أن الله عز وجل بعث عليهم السمووم فكانت تدخل في أنوفهم وتخرج من أديبارهم فتقطعهم عضواً عضواً . وقيل : أراد بالثانية التنجية من عذاب الآخرة ، ولا عذاب أغلظ منه وأشد . وقوله : برحمة منا ، يريد : بسبب الإيمان الذي أنعمنا عليهم بالتوفيق له .

وَتِلْكَ ءَادُ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا إِنَّ ءَادًا كَفَرُوا

رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِءَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

(وتلك عاد) إشارة إلى قبورهم وآثارهم ، كأنه قال : سيجوا في الأرض فانظروا إليها واعتبروا ، ثم استأنف وصف أحوالهم فقال (جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله) لأنهم إذا عصوا رسولهم فقد عصوا جميع رسل الله ، (لا نفرق بين أحد من رسله) قيل لم يرسل إليهم إلا هود وحده (كل جبار عنيد) يريد رؤسائهم وكبرائهم ودعاتهم إلى تكذيب الرسل . ومعنى اتباع أمرهم : طاعتهم . ولما كانوا تابعين لهم دون الرسل جعلت اللعنة تابعة لهم في الدارين تكبهم على وجوههم في عذاب الله . و(ألا) وتكرارها مع النداء على كفرهم والنداء عليهم ، تهويل لأمرهم وتفظيع له ، وبعث على الاعتبار بهم والحذر من مثل حالهم . فإن قلت : (بعداً) دعاء بالهلاك ، فما معنى الدعاء به عليهم بعد هلاكهم ؟ قلت : معناه الدلالة على أنهم كانوا مستأهلين له : ألا ترى إلى قوله :

إِخْوَتِي لَا تَتَّبِعُوا أَبَدًا وَيَلَىٰ وَاللَّهِ قَدْ يَعِدُوا <sup>(١)</sup>

إخوتي لا تتبعوا أبداً  
ما أمرت العيش بعدكم  
ليت شعري كيف شربكم  
وبلى والله قد يعدوا  
كل عيش بعدكم نكد  
إن شربى بعدكم نكد

(١)

(قوم هود) عطف بيان لعاد : فإن قلت : ما الفائدة في هذا البيان <sup>(١)</sup> والبيان حاصل بدونه ؟ قلت : الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوة وشما ، وتجعل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه ، ولأن عاداً عادان : الأولى القديمة التي هي قوم هود والقصة فيهم ، والأخرى إرم .

وإِلَىٰ نُوْدٍ أَخَاهُمْ صَلِحًا قَالَ يَاقَوْمَ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ سِوَاهُ  
هُوَ أَنشَأَكُمْ مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي  
قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَا أَتَنْهَانَا  
أَنْ نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدَ آبَاؤُنَا وَإِنَّآ لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾  
قَالَ يَاقَوْمِ إِرَءَيْتُمْ إِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّنْ رَبِّي وَءَاتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ  
يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَاقَوْمِ هَٰذِهِ  
نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ  
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ  
غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ

لغاطمة بنت الأحجم الخزاعية . وتقول العرب : بعد بالغنم في ضد القرب ، وبالكسر في الهلاك ، ومضارع الأول مضموم ، ومضارع الثاني مفتوح . وما في البيت منه . وما أمر : تعجب ، وشبهت العيش وهو الحياة أو ما يعاش به بشيء مر على طريق المكينة ، وإثبات المرارة تخييل ، أو استعارتها للنقص على طريق التصريحية . والنكد : العسر الضيق المنقص . والتمد : الماء القليل الذي لامادة له فينقطع سريعاً . ورجل مثمود ، إذا كثر عليه السؤال من العلم أو المال حتى نفد ماعنده . والمعنى : أن سرورى بعدكم منقطع كالماء القليل ، وهربت بذلك لمشاكلة ما قبله . ويروى لها بعد البيت الأول :

لو تملتهم عشيرتهم لاقتناء العز أو ولدوا      هان من بعض الرزية أو  
هان من بعض الذي أجد      كل ما حى وإن أمروا      وأردوا الحوض الذي وردوا

ومعنى تملتهم : عاشوا معهم ملياً من الزمان ، وأفحمت ذممهم ، مع إغواء بعض عنها ، للدلالة على تبغيض البعض . ودماء مقحمة ، بنى كل حتى مبالغة في العموم . وأمروا بالكسر : كثروا . والحوض : تمثيل للذات .  
(١) قال محمود : «إن قلت ما الفائدة في هذا البيان وجعل قوم هود عطف بيان على عاد ... الخ» قال أحمد : فيه أيضاً فائدتان جليلتان ، إحداهما : النسبة بذكر هود الذي إنما استحقوا الهلاك بسببه على موجب الدعاء عليهم ، ولأنه قبل : عاد قوم هود الذي كذبوه ، والأخرى تناسب الآى بذلك ، فإن قبلها (واتبعوا أمر كل جبار عنيد) وقبل ذلك حفيظ وغليظ ، وغير ذلك مما هو على وزن فيعل المناسب لعمول في القوافي ، والله أعلم .

مِنَّا وَمِنْ خَزَائِرِ يَوْمَئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصُّمُوتَ فَاصْبَحُوا فِي دِيَرِهِمْ جَنِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا إِنَّ نَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ آلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

(هو أنشأكم من الأرض) لم ينشئكم منها إلا هو ، ولم يستعمركم فيها غيره . وإنشأوهم منها خلق آدم من التراب (واستعمركم فيها) وأمركم بالعارة ، والعارة متنوعة إلى واجب وندب ومباح ومكروه ، وكان ملوك فارس قد أكثروا من حفر الأنهار وغرس الأشجار ، وعمروا الأعمار الطوال ، مع ما كان فيهم من عسف الرعايا ، فسأل نبي من أنبياء زمانهم ربه عن سبب تعميرهم ، فأوحى إليه : إنهم عمروا بلادى فعاش فيها عبادى . وعن معاوية بن أبى سفيان أنه أخذ فى إحياء الأرض فى آخر أمره ، فقيل له ، فقال : ما حملنى عليه إلا قول القائل :

لَيْسَ الْفَتَى بِقَتَى لَا يُسْتَضَاءُ بِهِ وَلَا تَكُونُ لَهُ فِي الْأَرْضِ آثَارُ (١)

وقيل : استعمركم من العمر ، نحو استبقاكم من البقاء ، وقد جعل من العمرى . وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون استعمر فى معنى أعمار ، كقولك استهلكك فى معنى أهلكك . ومعناه : أعماركم فيها دياركم ، ثم هو وارثها منكم عند انقضاء أعماركم . والثانى أن يكون بمعنى جعلكم معمرين دياركم فيها ، لأن الرجل إذا ورث داره من بعده فكأنما أعمارها إياها ، لأنه يسكنها عمره ثم يتركها لغيره (قريب) داني الرحمة سهل المطلب (محبب) لمن دعاه وسأله (فيما) فيما بيننا (مرجوا) كانت بلوح فيك مخايل الخير وأمارات الرشد فكنا نرجوك للتنفع بك ، وتكون مشاوراً فى الأمور ومسترشداً فى التدابير ، فلما نطق بهذا القول انقطع رجائنا عنك وعلينا أن لا خير فيك . وعن ابن عباس : فاضلا خيرا نقدمك على جميعنا . وقيل : كنا نرجو أن تدخل فى ديننا وتوافقنا على ما نحن عليه (يعبد آباؤنا) حكاية حال ماضية (مريب) من أرابه إذا أوقعه فى الريبة وهى قلق النفس وانتفاء الطمأنينة باليقين . أو من أراب الرجل ، إذا كان ذا ريبة على الإسناد المجازى . قيل (إن كنت على بينة من ربى) بحرف الشك وكان على

(١) قوله وبقتى خبر ليس . ولا يستضاء به ، صفته . ويجوز أنه حال من الفتى الأول ، شبهه فى حسن الرأى وهداية المستشير بسراج منير . ويمكن أن شبهه بكوكب فى السماء ، ليقابل الأرض بعده . والجامع ماهر . ويجوز أن الجامع أنه يكشف غمة الفقر ، كما أن المشبه به يكشف ظلة الليل ، وعلى كل حال فالاستضاءة تخييل . روى أنه قيل لمعاوية : لم أكثر من حفر الأنهار وغرس الأشجار وإحياء الفقار ؟ فقال : ما حملنى عليه إلا هذا البيت ، فالآثار هى ما كان يفعل . ويحتمل أنها المكارم الموجهة للشاء بعد الفناء .

يقين أنه على بينة ، لأن خطابه للجاحدين ، فكأنه قال : قدروا أنى على بينة من ربى ، وأنى نبى على الحقيقة ، وانظروا إن تابعتكم وعصيت ربى فى أوامره ، فمن ينعنى من عذاب الله ؟ ﴿فأزيدوننى﴾ إذن حيثئذ <sup>(١)</sup> ﴿غير تخسير﴾ يعنى تخسرون أعمالى وتبطلونها . أو فإزيدوننى بما تقولون لى وتحملوننى عليه غير أن أخسركم ، أى أنسبكم إلى الخسران وأقول لكم إنكم خاسرون ﴿آية﴾ نصب على الحال قد عمل فيها ما دل عليه اسم الإشارة من معنى الفعل . فإن قلت : فبم يتعلق ﴿لكم﴾ قلت : بآية حالا منها متقدمة ؛ لأنها لو تأخرت لكانت صفة لها ، فلما تقدمت انتصبت على الحال ﴿عذاب قريب﴾ عاجل لا يستأخر عن مسكم لها بسوء إلا يسيراً ، وذلك ثلاثة أيام ثم يقع عليكم ﴿تمتعوا﴾ استمتعوا بالعيش ﴿فى داركم﴾ فى بلدكم . وتسمى البلاد الديار ؛ لأنه يدار فيها أى يتصرف . يقال : ديار بكر ، لبلادهم . وتقول العرب الذين حوالى مكة : نحن من عرب الدار ، يريدون من عرب البلد . وقيل : فى دار الدنيا . وقيل : عقرها يوم الأربعاء وهلكوا يوم السبت ﴿غير مكذوب﴾ غير مكذوب فيه ، فاتسع فى الظرف بحذف الحرف واجرائه مجرى المفعول به ، كقولك : يوم مشهود ، من قوله :

﴿ وَيَوْمَ شَهِدْنَاهُ ... .. ﴾ <sup>(٢)</sup>

أو على المجاز ، كأنه قيل للوعد : نبى بك ، فإذا وفى به فقد صدق ولم يكذب . أو وعد غير كذب ، على أن المكذوب مصدر كالمجلود والمعقول ، وكالمصدوقة بمعنى الصدق ﴿ومن خزى يومئذ﴾ قرئ مفتوح الميم لأنه مضاف إلى إذ ، وهو غير متمكن ، كقوله :

﴿ عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا ﴾ <sup>(٣)</sup>

(١) قوله «إذن حيثئذ» لعل إحداهما مزيدة . (ع)

(٢) ويوم شهدناه سلباً وعامراً قليل سوى الطعن التهام نوافله يقول : ورب يوم شهدناه فيه ، غذف الجار وأوصل الضمير بالفعل ، فصار الفعل كأنه متعد لمفعولين : الأول الضمير ، والثانى : سلباً ، أى قبيلتهما «قليل» صفة ليوم . و «نوافله» فاعل به ، وقلة الغنائم لأن قومه لأراعى حيازتها . أو المعنى أن أعداءه لا يبالغون من قومه إلا الطعن ، تهكأ بهم ، فالاستثناء متصل . ويجوز أنه منقطع . ووصف المفرد بالجمع باعتبار أنواعه وأمراته ، فهو متعدد أيضاً . والتهال : جمع ناهل ، أى ريان أو عطشان على التشبيه هنا ، فهو من الأضداد ، ووصف الطعن بأنه ناهل مجاز عقل : لأن الذى يوصف به الرمح أو الفارس . والمعنى : أنهم يقشفون من غيظ قلوبهم بذلك الطعن .

(٣) على حين عاتبت المشيب على الصبا فقلت لما أصبح والمشيب وازع للتأنيب الديباقى ، وبنى على الفتح لضافته إلى مبنى ، وشبه المشيب بمن يصح معه العتاب على طريق المكنية والعتاب تخيل ، ويحتمل أن إقحام العتاب على المشيب مجاز عقل . والمعنى : عاتبت نفسى زمن العيب على الصبا ، أى الميل إلى الهوى كما يفعل الثبان . وقوله «فقلت» بيان للعتاب ، أى : إلى الآن لم أفق من سكرة الصبا ، والحال =

فإن قلت : علام عطف ؟ قلت : على نجينا ، لأنّ تقديره ونجيناهم من خزي يومئذ ، كما قال (ونجيناهم من عذاب غليظ) على : وكانت النجاة من خزي يومئذ ، أى من ذله ومهانتهم وفضيحتهم ، ولا خزي أعظم من خزي من كان هلاكة يغضب الله وانتقامه . ويجوز أن يريد بيومئذ يوم القيامة ، كما فسر العذاب الغليظ بعذاب الآخرة . وقرئ (ألا إن ثمود) و (ثمود) كلاهما بالصرف وامتناعه ، فالصرف للذهاب إلى الحى أو الأب الأكبر ، ومنعه للتعريف والتأنيث ، بمعنى القبيلة .

وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قِمَا آيَتْ أَنْ  
جَاءَ رِجْلٌ حَنِيدٌ ٦٩ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ  
مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ٧٠ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ  
فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ٧١ قَالَتْ يَوَيْلَتَى  
أَلِدْتُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ٧٢ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ  
مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكَّتْهُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ٧٣  
(رسلنا) يريد الملائكة . عن ابن عباس : جاءه جبريل عليه السلام وملكاه معه . وقيل :  
جبريل وميكائيل وإسرافيل . وقيل : كانوا تسعة . وعن السدى : أحد عشر (بالبشرى)  
هى البشارة بالولد . وقيل : بهلاك قوم لوط ، والظاهر الولد (سلاما) سلنا عليك سلاما  
(سلام) أمركم سلام . وقرئ : فقالوا سلنا قال سلم ، بمعنى السلام . وقيل : سلم وسلام ، لحرم  
وحرام ، وأنشد :

مَرَرْنَا قُتُلْنَا إِيَّاهُ سَلِمٌ فَسَلِمْتُ كَمَا اسْتَلَمْتُ بِالْبَرْقِ الْغَمَامُ الْوَأْنَحُ ١١

(فما لبث أن جاءه) فمالبت فى المحي به ، بل عجل فيه . أو فمالبت بجيئه . والعجل : ولد  
البقرة ، ويسعى الحسيل والخبش بلغة أهل السراة ، وكان مال إبراهيم عليه الصلاة والسلام

== أن الغيب زاجرا لى عن موجب العتاب ، والاستفهام توبيخى : أى لا ينبغي ذلك ، ووزعته فانزع : كفته فامتنع ؛  
فالوازع الذى يصلح الصف ومنعه عن الاعوجاج ، وأوزعنى : ألهمنى ما يصلح شأنى .

(١) لذى الرمة غيلان بن عتبة ، يقول : مررنا بديار المحبوبة مـ ، فقلنا إيه ، أى حدثنى واستأنسى ، فأسرنا  
سلم . أى سلامة وأنس ، فسلمت علينا ولمعت ثناياها وغابت بسرعة ، كما لمع الغمام بلمعان البرق وغاب البرق بسرعة .  
واكتل اكتلالا : لمع لمعانا والوازع الظواهر : صفة للغمام ، لتعددته معنى .

البقر (حنيد) مشوى بالرضف<sup>(١)</sup> في أخدود . وقيل (حنيد) يقطر دمه ، من حنذت الفرس إذا أقيت عليها الجل حتى تقطر عرقا ، ويدل عليه (بعجل سمين) . يقال : نكره وأنكره واستنكره ، ومنكور قليل في كلامهم ، وكذلك : أنا أنكرك ، ولكن منكرو مستنكر ، وأنكرك . قال الأعشى :

وَأُنْكِرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتُ مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلَاعَ<sup>(٢)</sup>

قيل : كان ينزل في طرف من الأرض يخاف أن يرويدوا به مكروها<sup>(٣)</sup> . وقيل : كانت عادتهم أنه إذا مس من يطرقهم طعامهم أمنوه وإلا خافوه ، والظاهر أنه أحسن بأنهم ملائكة ، ونكرهم لأنه يخوف أن يكون نزولهم لامرأته أنكره الله عليه أو لتعذيب قومه ، ألا ترى إلى قولهم (لا تخف) إنا أرسلنا إلى قوم لوط) وإنما يقال هذا لمن عرفهم ولم يعرف فيم أرسلوا (فأوجس) فأخبر<sup>(٤)</sup> . وإنما قالوا (لا تخف) لأنهم رأوا أثر الخوف والتغير في وجهه . أو عرفوه بتعريف الله . أو علموا أن عليه بأنهم ملائكة موجب للخوف ، لأنهم كانوا لا ينزلون إلا بعذاب (وامرأته قائمة) قيل : كانت قائمة وراء الستر تسمع تحاورهم . وقيل : كانت قائمة على رؤسهم تخدمهم . وفي مصحف عبد الله : وامرأته قائمة وهو قاعد (فضحكك) سرورا بزوال الخيفة<sup>(٥)</sup> أو بهلاك أهل الخبائث . أو كان ضحكها ضحك إنكار لغفلتهم وقد

(١) قوله «مشوى بالرضف» أي الحجارة المحماة ، كما في الصحاح . (ع)

(٢) للأعشى . ويقال : أنكره ونكره : جهله ونفر منه : أي جهلتي المحبوبة ، وما كان الذي أنكرته من الحوادث إلا القبيح والصليح وهو انحسار شعر الرأس . وقيل : إن أبا عبيدة سمع بشرا ينكر نسبة هذا البيت للأعشى ويقول : إنه مصنوع عليه لا يشبه كلامه ، فتعجب أبو عبيدة من فطنته ، كأنه صبح عنده إنكاره .

(٣) قال محمود : وقيل إنه كان ينزل في طرف من الأرض يخاف أن يرويدوا به مكروها ... الخ . قال أحمد : وقد وردت قصة إبراهيم هذه في ثلاثة مواضع : هذا أحدها ، وهو دال على أنه إنما أوجس منهم خيفة لعله أنهم ملائكة وعدم علمهم بما جاؤا . الثاني : في الحجر قوله (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) إلى قوله (لا توجل إنا نبشرك) فلم يطمئنتوا بأعلامه أنهم ملائكة ، ولكن بأنهم يبشرون له . فدل على استعظامهم أنه علم كونهم ملائكة ووجل بما جاؤا فيه . الثالث : في الذاريات (فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه) فهو أيضا كذلك . وأما لوط فلم يشعر أنهم ملائكة حتى أعلموه بذلك . ألا ترى إلى قوله تعالى ( قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك ) فأول ما أعلموا به أنهم رسل ، فالفرق بين هذه الآية وبين أي إبراهيم ، مصداق لأن إبراهيم علم كونهم ملائكة ولوط لم يعلم ذلك ، ولا يبعد من فضل إبراهيم على لوط أن يبعد على فراسته أن يعلم أنهم ملائكة دون لوط عليهما السلام .

(٤) عاد كلامه . قال : «ومعنى أوجس أخبر وإنما قالوا لا تخف لأنهم رأوا أثر الخوف ... الخ» قال أحمد : وهذا التأويل وهم فيه الزعمشري وأهله أعلم ، لأنهم إنما علموا خوفه ووجهه بأخباره إياهم بذلك ، ويدل عليه قوله تعالى في آية أخرى (قال إنا منكم وعلون قالوا لا توجل) والقصه واحدة ، والله الموفق للصواب .

(٥) عاد كلامه . قال : «وضحك زوجته لأنها سرت يذهب الخيفة ... الخ» قال أحمد : ويبعد هذا التأويل ==



أظلمهم العذاب . وقيل : كانت تقول لإبراهيم : اضمم لوطاً ابن أخيك إليك فإنني أعلم أنه ينزل بهؤلاء القوم عذاب ، فضحكك سروراً لما أتى الأمر على ما توهمت . وقيل ضحكك لخاضت . وقرأ محمد بن زياد الأعرابي ( فضحكك ) بفتح الحاء ( يعقوب ) رفعه بالابتداء ، كأنه قيل : ومن وراء إسحق يعقوب مولود أو موجود ، أى من بعده . وقيل الورا : ولد الولد . وعن الشعبي أنه قيل له : أهذا ابنك ؟ فقال نعم ، من الورا ، وكان ولد ولده . وقرئ ( يعقوب ) بالنصب ، كأنه قيل . ووهبنا لها إسحق . ومن وراء إسحق يعقوب ، على طريقة قوله :

... لَيْسُوا مُصْلِحِينَ عَشِيرَةً وَلَا نَاعِبٍ ... (١)

الآلف في ( يا ويلتا ) مبدلة من ياء الإضافة . وكذلك في « يا لهفأ » و « يا عجبا » ، وقرأ الحسن : يا ويلتي ، بالياء على الأصل . و ( شيخاً ) نصب بمادل عليه اسم الإشارة . وقرئ شيخ ، على أنه خبر مبتدأ محذوف ، أى : هذا بعلي هو شيخ . أو بعلي : بدل من المبتدأ ، وشيخ : خبر ، أو يكونان معاً خبرين . قيل : بشرت ولها ثمان وتسعون سنة ، ولإبراهيم مائة وعشرون سنة ( إن هذا لشيء عجيب ) أن يولد ولد من هرمين ، وهو استبعاد من حيث العادة التي أجراها الله . وإنما أنكرت عليها الملائكة تعجبها ( قالوا أتعجبين من أمر الله ) لأنها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمور الخارقة للعادات ، فكان عليها أن تتوقر . ولا يزددها (٢) ما يزدهي سائر النساء الناشئات في غير بيوت النبوة ، وأن تسبح الله وتمجده مكان التعجب ، وإلى ذلك أشارت الملائكة صلوات الله عليهم في قولهم ( رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت ) أرادوا أن هذه وأمثالها بما يكرمكم به رب العزة ويخصكم بالإنعام به يأهل بيت النبوة ، فليست بمكان عجب . وأمر الله : قدرته وحكمته : وقوله ( رحمت الله وبركاته عليكم ) كلام مستأنف علل به إنكار التعجب ، كأنه قيل : إياك والتعجب ، فإن آمثال هذه الرحمة والبركة متكاثرة من الله عليكم . وقيل : الرحمة النبوة ، والبركات الأسباط من بني إسرائيل . لأن الأنبياء منهم ، وكلهم من ولد إبراهيم ( حميد ) فاعل ما يستوجب به الحمد من عبادة ( حميد ) كريم كثير الإحسان إليهم . وأهل البيت : نصب على النداء أو على الاختصاص . لأن ( أهل البيت ) مدح لهم : إذ المراد : أهل بيت خليل الرحمن .

== أنها قالت بعد ( يا ويلتا ألدرا أنا عجوز وهذا بعلي شيخاً إن هذا لشيء عجيب ) فلو كان حبصاً قبل بشارتها لما تعجبت ، إذ لا عجب في حمل من تحيض ، والحيض في العادة مهماز على إمكان الحمل ، والله الموفق .

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٨١ فراجع إن شئت أم صححه .

(٢) قوله « ولا يزددها » في الصحاح : زدها وازدها : استخفه وتهاون به . (ع)

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَىٰ يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾

(الروح) ما أوجس من الخيفة . حين نكر أضيافه . والمعنى : أنه لما اطمأن قلبه بعد الحرف وملك سروراً بسبب البشري بدل الغم ، فرغ للجدالة ، فإن قلت : أين جواب لما ؟ قلت : هو محذوف كما حذف قوله (فلما ذهبوا به وأجمعوا) وقوله ﴿يُجَادِلُنَا﴾ كلام مستأنف ذال على الجواب . وتقديره : اجترأ على خطائنا ، أو فطن لمجادلتنا ، أو قال : كيت وكيت : ثم ابتداء فقال (يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ) وقيل في (يُجَادِلُنَا) : هو جواب لما ، وإنما جرى به مضارعاً لحكاية الحال : وقيل : إن ، ولما ، ترد المضارع إلى معنى الماضي ، كما ترد ، إن ، الماضي إلى معنى الاستقبال ، وقيل : معناه أخذ يُجَادِلُنَا ، وأقبل يُجَادِلُنَا . والمعنى : يُجَادِلُ رسلنا . ويُجَادِلُنَا إِيَّاهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا (إِنَّا مَهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ) فقال : أَرَأَيْتُمْ لَوْ كَانَ فِيهَا خَمْسُونَ رَجُلًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَهْلِكُونَهَا ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَأَرَبِعُونَ ؟ قَالُوا : لَا . قَالَ : فَثَلَاثُونَ ؟ قَالُوا : لَا . حَتَّى بَلَغَ الْعَشْرَةَ . قَالُوا : لَا . قَالَ : أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ فِيهَا رَجُلٌ وَاحِدٌ مُسْلِمٌ أَتَهْلِكُونَهَا ؟ قَالُوا : لَا . فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ (إِنَّ فِيهَا لَوْطًا) (قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ) . ﴿فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ فِي مَعْنَاهُمْ . وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ : قَالُوا لَهُ : إِنْ كَانَ فِيهَا خَمْسَةٌ يَصْلُونَ رَفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ . وَعَنْ قَتَادَةَ : مَا قَوْمٌ لَا يَكُونُ فِيهِمْ عَشْرَةٌ فِيهِمْ خَيْرٌ <sup>(١)</sup> . وَقِيلَ : كَانَ فِيهَا أَرْبَعَةٌ أَلْفَ أَلْفِ إِنْسَانٍ ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ غَيْرُ عَجُولٍ عَلَى كُلِّ مَنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ ﴿أَوَّاهٌ﴾ كَثِيرُ التَّأَوُّهِ مِنَ الذَّنُوبِ ﴿مُنِيبٌ﴾ تَائِبٌ رَاجِعٌ إِلَى اللَّهِ بِمَا يَحِبُّ وَيَرْضَى . وَهَذِهِ الصِّفَاتُ دَالَّةٌ عَلَى رِقَّةِ الْقَلْبِ وَالرَّافِقَةِ وَالرَّحْمَةِ ، فَبَيَّنَ أَنَّ ذَلِكَ مِمَّا حَمَلَهُ عَلَى الْمَجَادَلَةِ فِيهِمْ رَجُلَهُ أَنْ يَرْفَعَ عَنْهُمْ الْعَذَابَ ، وَيَهْلُوا لِعَلِّهِمْ يَحْدِثُونَ التَّوْبَةَ وَالْإِنَابَةَ كَمَا حَمَلَهُ عَلَى الْاسْتِغْفَارِ لِأَيِّهِ .

يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَاتَبِعُونَ

عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

(يا إبراهيم) على إرادة القول : أي قالت له الملائكة ﴿أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ الجدل وإن كانت الرحمة ديدنك ، فلا فائدة فيه ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ وهو قضاؤه وحكمه الذي لا يصدر إلا عن صواب وحكمة ، والعذاب نازل بالقوم لا بحالة ، لا مرّة له بجدال ولا دعاء ولا غير ذلك .

(١) قوله «عشرة فيهم خير» لعله عشرة يصلون . (ع)

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقَ بِهِمْ وَصَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا  
يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾

كانت مساءة لوط وضيق ذرعه <sup>(١)</sup> لأنه حسب أنهم إنس ، تخاف عليهم خبث قومه وأن يعجز عن مقاومتهم ومدافعتهم . ووى أن الله تعالى قال لهم : لا تهلكوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات ، فلما مشى معهم منطلقاً بهم إلى منزله قال لهم : أما بلغكم أمر هذه القرية ؟ قالوا : وما أمرهم ؟ قال : أشهد بالله إنها لشرقية في الأرض عملاً ، يقول ذلك أربع مرات ، فدخلوا معه منزله ولم يعلم بذلك أحد ، فخرجت امرأته فأخبرت بهم قومها . يقال : يوم عصيب ، وعصو صب ، إذا كان شديداً من قولك : عصبه ، إذا شدّه .

وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَبْقَوُ  
هُؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي صَیْنِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ  
رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ  
لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾

(يهرعون) يسرعون كأنما يدفعون دفعا (ومن قبل كانوا يعملون السيئات) ومن قبل ذلك الوقت كانوا يعملون الفواحش ويكثرونها ، فضرروا بها ومرتوا عليها وقل عندهم استقباحها ، فلذلك جاؤا يهرعون مجاهرين لا يكفهم حياء . وقيل معناه : وقد عرف لوط عادتهم في عمل الفواحش قبل ذلك (هؤلاء بناتي) أراد أن يقي أضيافه ببنااته ، وذلك غاية الكرم ، وأراد : هؤلاء بناتي فتزوجوهن وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزا ، كما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنتيه من عتبة بن أبي لهب وأبي العاص بن وائل قبل الوحي وهما كافران <sup>(٢)</sup>

(١) قوله «وضيق ذرعه» في الصحاح : يقال ضقت بالأم ذرعا ، إذا لم تطفه ولم تقو عليه . وأصل الذرع إنما هو بسط اليد ، فكأنك تريد : مددت يدي إليه فلم تله . (ع)

(٢) قلت : قوله «أبو العاص بن وائل» غلط فاحش وإنما هو أبو العاص بن الربيع ، ليس في نسبه من اسمه وائل . وكأنه انتقل ذهنه إلى العاص بن وائل السهمي والد عمرو ، وليس له في هذه القضية مدخل ، وأما قصة تزويج أبي العاص بن الربيع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذا عتبة بن أبي لهب فذكرها ابن إسحاق في المغازي والطبراني من طريقه قال : كان أبو العاص بن الربيع من رجال مكة مالا وأمانة وكانت خديجة حالته . فسألت خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزوجه بزيب وكان لا يخالفها . وذلك قبل أن ينزل عليه فلما أكرم الله نبيه صلى الله عليه وسلم بالنبوّة آمنت خديجة وبنااته وثبت أبو العاص على شركه . قال : وكان

وقيل كان لهم سيدان مطاعان ، فأراد أن يزوجهما ابنتيه : وقرأ ابن مروان : هن أظهر لكم ، بالنصب ، وضعفه سيويه وقال : احتج ابن مروان في لحنه . وعن أبي عمرو بن العلاء : من قرأ (هن أظهر) بالنصب فقد تربح في لحنه ، وذلك أن انتصابه على أن يجعل حالا قد عمل فيها ما في هؤلاء من معنى الفعل ، كقوله (هذا بعلي شيخاً) أو ينصب هؤلاء بفعل مضمر ، كأنه قيل : خذوا هؤلاء ، وبناتي : بدل ، ويعمل هذا المضمر في الحال ، و(هن) فصل ، وهذا لا يجوز لأن الفصل يختص بالوقوع بين جزأى الجملة ، ولا يقع بين الحال وذى الحال ، وقد خرج له وجه لا يكون (هن) فيه فصلاً ، وذلك أن يكون هؤلاء مبتدأ و (بناتي هن) جملة في موضع خبر المبتدأ ، كقولك : هذا أخي هو ، ويكون (أظهر) حالا ﴿ فاتقوا الله ﴾ بإيثار هن عليهم ﴿ ولا تخزوني ﴾ ولا تهينوني ولا تفضحوني ، من الخزي . أو ولا تخجلوني ، من الخزاية وهي الحياء ﴿ في ضيبي ﴾ في حق ضيوفي فإنه إذا خزي ضيف الرجل أو جاره فقد خزي الرجل ، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة ﴿ أليس منكم رجل رشيد ﴾ رجل واحد يهتدى إلى سبيل الحق وفعل الجميل ، والكف عن السوء . وقرئ : ولا تخزون ، بطرح الياء . ويجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغته في تواضعه لهم وإظهاراً لشدة امتعاضه<sup>(١)</sup> مما أوردوا عليه . طمعاً أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك ، فيتركوا له ضيوفه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا منة بينه وبينهم ، ومن ثم ﴿ قالوا لقد علمت ﴾ مستشعدين بعلبه ﴿ ما لنا في بناتك من حق ﴾ لأنك لا ترى منا كتماناً ، وما هو إلا عرض سارى<sup>(٢)</sup> . وقيل : لما اتخذوا إتيان الذكران مذهباً وديناً اتوا طوهم عليه ، كان عندهم أنه هو الحق ، وأن نكاح الإناث من الباطل ، فلذلك قالوا : ما لنا في بناتك من حق قط ؛ لأن نكاح الإناث أمر خارج من مذهبنا الذى نحن عليه . ويجوز أن يقولوه على وجه الخلاعة ، والغرض نفي الشهوة ﴿ لتعلم ما تريد ﴾ عنوا إتيان الذكور وما لهم فيه من الشهوة .

قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوَى إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ۝ ٨٠

== رسول الله صلى الله عليه وسلم قد زوج عتبة بن أبي لهب بنتاً رقية . فلما دعا قريشا إلى أمرين قال بعضهم لبعض : قد فرغتم محمداً من همه بيناته . فردوهن عليه فوشوا إلى أبي العاص . فأتى عليهم . ثم مشوا إلى عتبة بن أبي لهب . فقارق رقية . وزوجوه بنت سعيد بن العاص . فزوجها بعده عثمان بن عفان . فذكر قصة أبي العاص وأسرته بيده وروى البيهقي في الدلائل من طريق قتادة « أن النبي صلى الله عليه وسلم زوج ابنته أم كلثوم في الجاهلية دتية ابن أبي لهب . ورقية آتاه . فلما جاء الإسلام أمر أبو لهب ولديه فطلقا البنتين .

(١) قوله « شدة امتعاضه » امتعض من الأمر : غضب منه وشق عليه ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) قوله « وما هو إلا عرض سارى » عرض سارى يفتح العين : نوع من الثياب رقيق ، منسوب إلى سابور من الأكاسرة ، كذا بهامش . وفي الصحاح : عرضت له الشيء . أى أظهرته له وأبرزته إليه . يقال : عرضت له ثوباً مكان حقه . وفي المثل : عرض سارى ؛ لأنه ثوب جيد يشتري بأول عرض ولا يبالغ فيه . (ع)

جواب لو، محذوف، كقوله تعالى (ولو أن قرآننا سيرت به الجبال) يعني لو أن لي بكم قوة ففعلت بكم وصنعت. يقال: مالى به قوة، ومالى به طاقة. ونحوه (لا قبل لهم بها) ومالى به يدان؛ لأنه فى معنى لا أضطلع به ولا أستقل به. والمعنى لو قويت عليكم بنفسى، أو أويت إلى قوى أستند إليه وأتمتع به فيحميني منكم. فشبه القوى العزيز بالركن من الجبل فى شدته ومنعته، ولذلك قالت الملائكة - وقد وجدت عليه - : إن ركنك لشديد. وقال النبى صلى الله عليه وسلم : رحم الله أخى لوطاً، كان يأوى إلى ركن شديد، <sup>(١)</sup> وقرئ (أو أوى) بالنصب بإضمار وأن، كأنه قيل: لو أن لي بكم قوة أو أوى، كقولها:

\* لَلْبَسُ عِبَادَةً وَتَقَرَّ عَيْنِي \* <sup>(١)</sup>

وقرئ (إلى ركن) بضمين. وروى أنه أغلق بابه حين جاؤوا وجعل يرادهم ما حكى الله عنه ويحادلهم، ففسرُوا الجدار.

قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتُكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابُهُمْ إِن مَوْعِدُهُمُ الصُّبْحُ  
الَّذِينَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ <sup>(٨١)</sup>

فلما رأت الملائكة ما لى لوط من الكرب قالوا: يالوط، إن ركنك لشديد ﴿إنا رسل ربك لن يصلوا إليك﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم، ففتح الباب فدخلوا، فاستأذن جبريل عليه السلام ربه فى عقوبتهم فأذن له، فقام فى الصورة التى يكون فيها فتنسر جناحه - وله جناحان وعليه وشاح من دَر منظوم وهو براق الثنايا - فضرب بجناحه وجوههم فطمس أعينهم فأعماهم، كما قال الله تعالى (فطمسنا أعينهم) فصاروا لا يعرفون الطريق، فخرجوا وهم يقولون: النجاء النجاء، فإِن فى بيت لوط قوماً سحرة (لن يصلوا إليك) جملة موضحة للتي قبلها؛ لأنهم إذا كانوا

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة فى أثناء حديث.

(٢) لبيت تخفق الأرواح فيه أحب إلى من قصر منيف

ولبس عبادة وتقر عيني أحب إلى من لبس الشفوف

لميسون بنت بحدل الكلية أم يزيد بن معاوية، ضاق صدرها من عشرة معاوية فقال: أنت اليوم فى ملك لا تدرين قدره، وكنت قبله فى العباد، فقالت ذلك، أى: لبيت من الشعر تضطرب الرياح فيه، أحب إلى من قصر عال مرتفع، من أناف إنافة: ارتفع. ومن العرب من يقول: أرياح فى جمع ريح، خوف الاشتباه بجمع روح، كأعياد فى عيد، خوف الاشتباه بالعود. وليس: عطف على ما قبله. ورواية «لبس» على أنه هو المبتدأ تحريف وإن كثرت. ولبس عبادة خشفة من الصفوف وقرة عيني مع ذلك. وسرورى، أحب إلى من لبس الشفوف وسخونة عيني وحزنى. والشفوف: جمع شف: الرقيق من الثياب، وكأنه لا يحجب ما وراءه. وشف يشف شفوناً، نحل جسمه، وشفه يشفه بالكسر شفاً: نخله.

رسل الله لم يصلوا إليه ولم يقدرُوا على ضرره . قرئ : ﴿ فأسر ﴾ بالقطع والوصل . و ﴿ إلا امرأتك ﴾ بالرفع والنصب . وروى أنه قال لهم : متى موعد هلاكهم ؟ قالوا : الصبح . فقال : أريد أسرع من ذلك . فقالوا ﴿ أليس الصبح قريب ﴾ وقرئ ﴿ الصبح ﴾ بضمين . فإن قلت : ما وجه قراءة من قرأ ﴿ إلا امرأتك ﴾ بالنصب ؟ قلت : استثناء من قوله ﴿ فأسر بأهلك ﴾ والدليل عليه قراءة عبد الله : فأسر بأهلك بقطع من الليل إلا امرأتك . ويجوز أن ينتصب عن لا يلتفت ، على أصل الاستثناء . وإن كان الفصح هو البدل ، أعني قراءة من قرأ بالرفع ، فأبدلها عن أحد . وفي إخراجها مع أهل روايتان : روى أنه أخرجهما معهم ، وأمر أن لا يلتفت منهم أحد إلا هي ، فلما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت : يا قوماء ، فأدركها حجر فقتلها . وروى أنه أمر بأن يخلفها مع قومها . فإن هواها إليهم ، فلم يسرها . واختلاف القراءتين لاختلاف الروایتين .

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىٰ مَنَاسِكُهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّنْ سِجِّيلٍ

مَنْضُودٍ ٨٢ مَسُومَةٌ عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ٨٣

﴿ جعلنا عاليها سافلها ﴾ جعل جبريل جناحه في أسفلها ، ثم رفعها إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح السلاب وصياح الديكة ، ثم قلبها عليهم وأتبعوا الحجارة من فوقهم ﴿ من سجيل ﴾ قيل هي كلبة معربة من سنككل ، بدليل قوله حجارة من طين . وقيل : هي من أسجله ؛ إذا أرسله لأنها ترسل على الظالمين . ويدل عليه قوله ﴿ لنرسل عليهم حجارة ﴾ وقيل : مما كتب الله أن يعذب به من السجل ، وسجل لفلان ﴿ منضود ﴾ <sup>(١)</sup> نضد في السماء نضداً معداً للعذاب . وقيل يرسل بعضه في أثر بعض متتابعاً ﴿ مسومة ﴾ معلة للعذاب . وعن الحسن كانت معلة بياض وحمرة . وقيل عليها سيما يعلم بها أنها ليست من حجارة الأرض . وقيل : مكتوب على كل واحد اسم من يرمى به ﴿ وما هي ﴾ من كل ظالم ببعيد . وفيه وعيد لأهل مكة . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنه سأل جبريل عليه السلام ؟ فقال : يعني ظالمى أمتك ، مامن ظالم منهم إلا وهو بعرض حجر يسقط عليه من ساعة إلى ساعة <sup>(٢)</sup> . وقيل الضمير للقرى ، أى هي قريبة من ظالمى مكة يمرون بها في مسائرهم ﴿ ببعيد ﴾ بشئ بعيد . ويجوز أن يراد : وما هي بمكان بعيد ؛ لأنها وإن كانت في السماء وهي مكان بعيد ، إلا أنها إذا هوت منها فهي أسرع شئ لحوقاً بالمرمى ، فكأنها بمكان قريب منه .

(١) قوله ومنضود في الصحاح : نضد متاعه ينضده بالكسر نضداً ، أى : وضع بعضه فوق بعض . (ع)

(٢) ذكره الثعلبي عن أنس بن مالك .

وَالِى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَبْقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ  
وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّى أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ  
يَوْمٍ مُحِيطٍ ٨٤ وَيَبْقَوْمِ أُوفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ  
أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٨٥ يَقِيْتُ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِن كُنْتُمْ  
مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ٨٦

(إني أراكم بخير) يريد : بثروة واسعة تغنيكم عن التطفيف . أو أراكم بنعمة من الله  
حقها أن تقابل بغير ما تفعلون . أو أراكم بخير فلا تزيلوه عنكم بما أنتم عليه ، كقول مؤمن  
آل فرعون ( يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا )  
( يوم محيط ) مهلك من قوله ( وأحيط بشمره ) وأصله من إحاطة العدو . فإن قلت : وصف  
العذاب بالإحاطة أبلغ ، أم وصف اليوم بها ؟ قلت : بل وصف اليوم بها ، لأن اليوم زمان  
يشتمل على الحوادث ، فإذا أحاط بعذابه فقد اجتمع للعذب ما اشتمل عليه منه كما إذا أحاط  
بنعيمه . فإن قلت : النهى عن النقصان أمر بالإيفاء <sup>(١)</sup> فما فائدة قوله أوفوا ؟ قلت : نهوا  
أولاً عن عين التيسيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان ، لأن في التصريح بالتيسيح نعيماً  
على المنهى وتعبيراً له ، ثم ورد الأمر بالإيفاء الذى هو حسن في العقول مصرحاً بلفظه ، لزيادة  
ترغيب فيه وبعث عليه ، وجىء به مقيداً بالقسط : أى ليكون الإيفاء على وجه العدل والتسوية ،  
من غير زيادة ولا نقصان ، أمراً بما هو الواجب ، لأن ما جاوز العدل فضل وأمر مندوب  
إليه . وفيه توقيف على أن الموفى عليه أن ينوى بالوفاء بالقسط ؛ لأن الإيفاء وجه حسنه أنه  
قسط وعدل ، فهذه ثلاث فوائد .

البخس : الهضم والنقص . ويقال للكس : البخس . قال زهير :

(١) قال محمود : وإن قلت النهى عن النقصان أمر بالإيفاء ... الخ « قال أحمد : ولمن قال إن الأمر بالشئ ليس نهيًا  
عن ضده أن يستدل بهذه الآية ، فإن الأمر لو كان عين النهى عن الضد ، لكان وروده عقيب تكراراً . وفي كلام  
الوخشري ما يدل على أنه وهم ، فاعتقد أن النهى في الآية قبل الأمر ، وذلك سهو وغفلة ، وكل مأخوذ من قوله  
ومتروك إلا المعصوم : وأما قوله : إن الإيفاء حسن في العقول ، فنزيع على قاعدة التحسين والتقيح ، وقد سبق  
بطلانها ، وبيننا أن التحسين والتقيح موظفان من الشرع ، ولا مجال للعقل في حكم سمى .

\* وَفِي كُلِّ مَبَايِعَ أَمْرٌ يُخْسُ دِرْهَمٌ \* (١)

وروى : مكس درهم ، وكانوا يأخذون من كل شيء يباع شيئاً ، كما تفعل السماسرة . أو كانوا يمكسون الناس . أو كانوا ينقصون من أثمان ما يشترون من الأشياء ، فنهوا عن ذلك . والعش في الأرض نحو السرقه والغارة وقطع السيل . ويجوز أن يجعل التطفيف والبخس عتياً منهم في الأرض ﴿ بقيت الله ﴾ ما يبقى لكم من الحلال (٢) بعد التنزه عما هو حرام عليكم ﴿ خير لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ بشرط أن تؤمنوا ، وإنما خوطبوا بترك التطفيف والبخس والفساد في الأرض وهم كفرة بشرط الإيمان . فإن قلت : بقية الله خير للكفرة ، لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس (٣) والتطفيف ، فلم شرط الإيمان ؟ قلت : لظهور فائدتها مع الإيمان من حصول الثواب مع النجاة من العقاب ، وخفاء فائدتها مع فقدته لانفاس صاحبها في غمرات الكفر . وفي ذلك استظام للإيمان ، وتنبيه على جلالة شأنه . ويجوز أن يراد : إن كنتم مصدقين لي فيما أقول لكم وأنصح به إياكم . ويجوز أن يراد . ما يبقى لكم عند الله من الطاعات خير (٤) لكم ،

(١) أفى كل أسواق العراق إناوة وما كل ماباع امرؤ مكس درهم

الأنسحى منا ملوك وتنقى عارمنا لا تنقى الدم بالدم

لرهير . وقيل : لجابر بن حبي التلخي ، والاستفهام للتعجب أولئك التويخ ، والاناوة كالكتابة : الرشوة والجمالة : يقال : أتوته أتوته أتوا وإناوة : أعطيته الخراج ، فهي في الأصل مصدر . والمكس : ما يأخذه العشار . ويرى «بخس درهم» أى نقص درهم ، وكان أهل العراق يفعلون ذلك في أسواقهم مع العرب وغيرهم ، فقال زهير : لا ينبغي ذلك . و«الآ» في الأصل مركبة من همزة الاستفهام التويخ ولا النافية ، فصارت أداة تحضيض . ويقال : استحيا واستحى كما هنا ، بنقل حركة الياء إلى الحاء وحذفها ، أى : لتستح منا الملوك ، وتتوق عقوبة التعرض لمخارمنا وأموالنا ، لتلا تتوق القتل منا لم يقتلنا لبعضهم ، أى لتلا ترجع إلا بذلك ، أولئلا تتوق أخذ الدم بدل الدم . وروى «ألا يستحى منا المليك ويتق» إلى آخره ، وهو لغة في المالك ، والمراد به ملك العراق .

(٢) قال محمود : «بقية الله ما يبقى لكم من الحلال ... الخ» قال أحد : المنقول عن المعتزلة أن الكفار غير مخاطبين بفروع الشريعة ، لانها ولا أمراً ، وقد جوز بعضهم خطابهم بالنهى . وهذه الآية تدل على أنهم مخاطبون في حال الكفر بشرط الإيمان ، وقد قررها الزمخشري على ذلك .

(٣) عاد كلامه . قال : «فإن قلت بقية الله خير للكفرة لأنهم يسلمون معها من تبعة البخس ... الخ» قال أحد : وهذا أيضاً من إقرار الزمخشري للآية على ظاهرها ، ومعنى السؤال : أن الكفار إذا قدرنا خطابهم بالفروع ، انتفخوا باجتنااب المنهيات في الدار الآخرة ؛ لأن ثمرة الخلاف في مسئلة خطاب الكفار إنما تظهر في الدار الآخرة . وإذا كانوا ينتفخون بذلك فلا معنى لاشتراط الإيمان والحال مع وجوده وعده في الانتفاع بالأمثال سواء . ومعنى الجواب : أن ظهور الانتفاع بالأمثال إنما يتحقق مع الإيمان ، وأما مع الكفر فهم مخلدون في العذاب ، فأنما تظهر الفائدة على خفاء في تحقيق مأمن العذاب ، والله الموفق .

(٤) عاد كلامه . قال : «ويجوز أن يراد ما يبقى لكم من الطاعات عند الله ... الخ» قال أحد : قد تقدم أن عقيدة أهل السنة : أن لا خالق ولا رازق إلا الله ، إيماناً بقوله (هل من خالق غير الله يرزقكم) وإذا كان الرزق عبارة عن كل ما يقيم به الخلق بنيتهم ، لزم اندراج الحرام في هذا الإطلاق عقداً وحقيقة . وأما إطلاق القول بأضافته إلى الخصوص إلى الله تعالى ، فأمر خارج عن الاعتقاد راجع إلى الاتباع ، والله الموفق .



كقوله (والباقيات الصالحات خير عند ربك) وإضافة البقية إلى الله من حيث أنها رزقه الذى يجوز أن يضاف إليه . وأما الحرام فلا يضاف إلى الله ولا يسمى رزقاً <sup>(١)</sup> ، وإذا أريد بها الطاعة فكما تقول : طاعة الله . وقرئ : تقية الله ، بالتاء وهى تقواه ومراقبته التى تصرف عن المعاصى والقبائح ﴿وما أنا عليكم بحفيظ﴾ وما بعثت لأحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم عليها ، وإنما بعثت مبلغاً ومنبهاً على الخير وناصحاً ، وقد أعذرت حين أنذرت .

قَالُوا بِشُعَيْبٍ أَصْلَوَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ تَفْعَلَ فِي

أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات ، وكان قومه إذا رأوه يصلى تغامزوا وتضاحكوا ، فقصدهوا بقولهم ﴿أصلواتك تأمرك﴾ السخرية والهزء - والصلوة وإن جاز أن تكون آمرة على طريق المجاز ، كما كانت ناهية فى قوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وأن يقال : إن الصلاة تأمر بالجميل والمعروف ، كما يقال : تدعو إليه وتبعث عليه - إلا أنهم ساقوا الكلام مساق الطنز <sup>(٢)</sup> وجعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهم بصلاته ، وأرادوا أن هذا الذى تأمر به من ترك عبادة الآوثان باطل لا وجه لصحته ، وأن مثله لا يدعوك إليه داعى عقل ، ولا يأمرك به أمر فظنة ، فلم يبق إلا أن يأمرك به أمر هذيان ووسوسة شيطان ، وهو صلواتك التى تداوم عليها فى ليلى ونهارك ، وعندهم أنها من باب الجنون ومما يتولع به المجانين والموسوسون من بعض الأقوال والأفعال . ومعنى تأمرك ﴿أن تترك﴾ تأمرك بتكليف أن تترك <sup>(٣)</sup> ﴿ما يعبد آباؤنا﴾ لحذف المضاف الذى هو التكليف ، لأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره . وقرئ (أصلواتك) بالتوحيد . وقرأ ابن عبلة : أو أن تفعل فى أموالنا ما تشاء ، بتاء الخطاب فيها . وهو ما كان يأمرهم به من ترك التطفيف والبخس ، والاقتناع بالحلال القليل من الحرام الكثير .

(١) قوله «ولا يسمى رزقاً» هذا مذهب المعتزلة وأما مذهب أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حراماً . (ع)

(٢) قوله «مساق الطنز» فى الصحاح : الطنز السخرية . وطنز يطنز فهو طناز ، وأظنه مولداً أو مبرهاً . (ع)

(٣) قال محمود : «معناه تأمرك بتكليف أن تترك ما يعبد آباؤنا إلى قوله بتاء الخطاب فيها» قال أحمد : فعلى هذه القراءة يكون (أن تفعل) معطوفاً على أن تترك ، وعلى المشهور : لا يجوز ذلك والله أعلم لاستحالة المعنى ، فيتعين العطف فيها على (ما يعبد) كأنهم قالوا : أصلواتك تأمرك أن تترك عبادة آباؤنا أو معبود آباؤنا ، على أنها مصدرية أو موصولة ، ثم قالوا : أو أن تفعل ، أى أو أن تترك فعلنا فى أموالنا ما تشاء ، هذه لطيفة فتنه لها ، ولا حاجة إلى إضمار الزمخشري لمضاف تقديره : تأمرك بتكليف أن تترك ، واحتجاجه لذلك بأن الإنسان لا يؤمر بفعل غيره إذا والمستلة فرع من فروع خلق الأفعال ، ومع ذلك كله فتقدير المضاف فى الآية متوجه ليس بناء على القراءة المذكورة ، ولكن لأن عرف المتخاطب فى مثله يقتضى ذلك ، والله أعلم .

وقيل : كان ينههم عن حذف الدراهم <sup>(١)</sup> والدنانير وتقطيعها ، وأرادوا بقولهم ﴿إنك لانت الحليم الرشيد﴾ نسبته إلى غاية السفه والغى ، فعكسوا ليهكموا به ، كما يتهكم بالشحيح الذى لا يبيض حجره <sup>(٢)</sup> فيقال له : لو أبصرك حاتم لسجد لك . وقيل : معناه إنك للتواصف بالحلم والرشد فى قومك ، يعنون أن ما تأمر به لا يطابق حالك وما شهرت به .

قَالَ يَقَوْمُ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا  
وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ  
وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

﴿ورزقنى منه﴾ أى من لدنه ﴿رزقا حسنا﴾ وهو ما رزقه من النبوة والحكمة . وقيل (رزقا حسنا) حلالا طيبا من غير بخس ولا تطفيف . فإن قلت : أين جواب (أرأيتهم) وما له لم يثبت كما أثبت فى قصة نوح ولوط ؟ قلت : جوابه محذوف ، وإنما لم يثبت لأن إثباته فى القصتين دلّ على مكانه ، ومعنى الكلام ينادى عليه . والمعنى : أخبرونى إن كنت على حجة واضحة ويقين من ربى وكنت نبياً على الحقيقة ، أيصح لى أن لا آمركم بترك عبادة الأوثان والكف عن المعاصى ؟ والأنياء لا يبعثون إلا لذلك ؟ . يقال : خالفنى فلان إلى كذا : إذا قصده وأنت مول عنه ، وخالفنى عنه إذا ولى عنه وأنت قاصده . ويلقاك للرجل صادراً عن الماء فتسأله عن صاحبه ؟ فيقول : خالفنى إلى الماء ، يريد أنه قد ذهب إليه وارداً وأنا ذاهب عنه صادراً . ومنه قوله تعالى (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه) يعنى أن أسبقكم إلى شهواتكم التى نهيتكم عنها ، لاستبذها دونكم ﴿إن أريد إلا الإصلاح﴾ ما أريد إلا أن أصلحكم بموعظتى ونصيحتى وأمرى بالمعروف ونهى عن المنكر ﴿ما استطعت﴾ ظرف ، أى : مدة استطاعتي <sup>(٣)</sup> للإصلاح ،

(١) قوله «عن حذف الدراهم» الذى فى الصحاح : حذف من شعرى ومن ذنب الدابة ، أى : أخذت اه (ع)

(٢) قوله «لا يبيض حجره» فى الصحاح : يبيض الماء بضيضاً : سال قليلا قليلا . وفى المثل : ما يبيض حجره ، أى ما تندى صفاته . (ع)

(٣) قال مجاهد : «ما استطعت ظرف أى مدة استطاعتي للإصلاح وما دمت متمكناً منه ، ويجوز أن يكون على حذف مضاف تقديره إلا الإصلاح إصلاح ما استطعت ، أو يكون مفعولا للصدر كقوله : «ضعيف النكاية أعداء» قال أحد : واظلم أنه ظرف . كبر فى قوله (فاتقوا الله ما استطعتم) وأما جعله مفعولا للصدر وقد عرف بالآلف واللام فبعد : لأن إعمال المصدر المجرى فى المفعول المجرى ليس بذاك . قالوا : ولم يوجد فى القرآن أملا فى مفعول صريح ولا فى غيره إلا فى قوله (لا يحب الله الجهر بالسوء) فأعله فى الجار والمعدول عن إقفاء الأعراب إلى وجوهه وهي ممكنة عديدة متعين خصوصا فى أفصح الكلام . والله أعلم ،

ومادمت متمكناً منه لا آلو فيه جهداً . أو بدل من الإصلاح ، أى : المقدار الذى استطعته منه .  
ويجوز أن يكون على تقدير حذف المضاف على قولك : إلا الإصلاح إصلاح . ما استطعت .  
أو مفعول له كقوله :

**\* ضَعِيفُ النُّكَايَةِ أَغْدَاهُ \* (١)**

أى ما أريد إلا أن أصلح ما استطعت إصلاحه من فاسدكم (وما توفيقى إلا بالله) وما كونى  
موفقاً لإصابة الحق فيما آتى وأذر ، ووقوعه موافقاً لرضا الله إلا بمعونه وتأيد . والمعنى : أنه  
استوفى ربه فى إمضاء الأمر على سنته ، وطلب منه التأيد والإظهار على عدوه ، وفى ضمنه تهديد  
للكفار وحسم لأطاعهم فيه .

وَيَقُومُ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ  
هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ (٨٩) وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ  
تُوبُوا إِلَهُهُ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠)

« جرم ، مثل كسب فى تعديه إلى مفعول واحد ، وإلى مفعولين تقول : جرم ذنباً وكسبه ،  
وجرمته ذنباً وكسبته إياه ، قال :

**\* جَرِمَتْ فَرَارَةٌ بَعْدَهَا أَنْ يَفْضُبُوا \* (٢)**

ومنه قوله تعالى ﴿ لا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم ﴾ أى لا يكسبنكم شقاقى إصابة العذاب .  
وقرأ ابن كثير بضم الياء ، من أجرمته ذنباً ، إذا جعلته جارماً له ، أى كاسباً ، وهو منقول من  
جرم المتعدى إلى مفعول واحد ، كما نقل : أكسبه المال ، من كسب المال . وكما لا فرق بين  
كسبته مالا وأكسبته إياه ، فكذلك لا فرق بين جرمته ذنباً وأجرمته إياه . والقراءتان مستويتان  
فى المعنى لا تفاوت بينهما ، إلا أن المشهورة أفصح لفظاً ، كما إن كسبته مالا أفصح من أكسبته .

(١) ضعیف النکایة أعـداه یخال الفرار یراخی الاجل

نکأ الفرح نکأ بالهمز : جرحه بعد اندماله ، ونکی العدو نکایة : قتله وجرحه . وأعداه : مفعول النکایة . وعمل  
المصدر المقرون بالـ كما هنا نادر . یخال : أى یظن الحرب من العدو یطیل الاجل من جبهه .

(٢) ولقد طعنت أبا عیینه طعنة جرمت فرارة بعدها أن یفضبوا

لزيادة بن أسماء . ويقال : جرم ذنباً إذا اكتسبه . وجرم النخل : قطعاه . وجرمته كذا : إذا أكسبه إياه أو حمله  
عليه . يقول : طعنت ذلك الرجل الفزارى طعنة قتلته . « جرمت فرارة ، أى حق لها بعدها الغضب ، أو اكتسبت  
فرارة بعدما الغضب فقط ، واشتهر الرفع عنهم ؛ لكن قال الجوهري « فرارة » مفعول أول ، أى : أحقهم الغضب ،  
أو أكسبهم إياه ، أو حملتهم على أن یفضبوا بعدها ، فهو على إسقاط الخافض .

والمراد بالفصاحة : أنه على السنة الفصحاء من العرب الموثوق بعريبتهم أدور ، وهم له أكثر استعمالا . وقرأ أبو حيوة ، ورويت عن نافع : (مثل ما أصاب) ، بالفتح لإضافته إلى غير متمكن ، كقوله :

\* لَمْ يَمْنَعِ الشَّرْبَ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ نَطَقْتُ \* (١)

(وما قوم لوط منكم يبعيد) يعنى أنهم أهلكوا في عهد قريب من عهدكم ، فهم أقرب الهاالكين منكم . أولا يبعدون منكم في الكفر والمساوى وما يستحق به الهلاك . فان قلت : ما لبعيد لم يرد على ما يقتضيه قوم من حمله على لفظه أو معناه (٢) ؟ قلت : إما أن يراد : وما إهلاكمهم يبعيد ، أو ما هم بشيء بعيد أو بزمان أو مكان بعيد . ويجوز أن يسوى في قريب وبعيد ، وقليل وكثير ، بين المذكر والمؤنث لورودها على زنة المصادر التي هي الصهيل والنبيق ونحوهما (رحيم ودود) عظيم الرحمة للتائبين ، فاعل بهم ما يفعل البليغ المودة بمن يوده ، من الإحسان والإجمال .

(١) ثم ارعويت وقد طال الوقوف بنا . فيها فصرت إلى وجناء . والشمال تعطيك مشيا وإرقالا ودأداة إذا تسربلت الآكام بالآل لم يمنع الشرب منها غير أن نطقت حسامة فوق غصن ذات أوقال

لأبي قيس بن رقاعة يصف ناقته . وقوله «فها» أى في دار المحبوبة . والوجناء : الشديدة الصلبة . والشمال : الخفيفة السريعة . والأرقال والدأداة : نوعان من السير ، وقد شبه استتار الآكام وهي الجبال الصغيرة بالآل ، وهو السراب الذي يرى في الهاجرة أبيض يشبه الماء في جريانه على وجه الأرض ، بالتسربل وهو لبس السراويل : أى الثياب على طريق التصريحية ، ثم وصفها بحدة الفؤاد وهو محمود عندهم ، أو بجنيها إلى وطنها ، وعطفها لما سمعت صوت الحامة . والشرب - بالكسر - : النصب من الماء . وبالضم المصدر . والأوقال : جمع وقل بكبيل وهي الحجارة ، أو البقايا التي بقيت في جذع الشجرة بعد تقليم بعض أغصانها . بارزة يمكن الارتقاء عليها . يقول : لم يمنع نصيبها من الماء عنها ، أولم يمنعها من شربها الماء . ففيه قلب على الثاني وغير فاعل لأنه تضرع إليه العامل ، ونهى على الفتح لإضافته إلى مبنى ، واستعمار النطق لتفريد الحامة على سبيل التصريحية ، وكأنها كانت داخل الفصون فسمعت الناقه صوتها ولم ترها ففرغت . أو كانت على غصن من الشجرة فكان تفريدها مطريا لذبا ، فحنت الناقه إلى وطنها . وذات أوقال : وصف لنصن ؛ لأنه جمع غصن كما قيل في فلك ، المفرد والجمع باعتبار التغير التقديرى . ويجوز أن يقرأ بإضافة غصن إلى ذات . والمعنى : غصن أرض أو شجرة ذات أوقال ، لكن الأول أحسن في الوزن . وقد روى : في غصون ذات أوقال ، أى : ذات قطع بارزة بعد التعليم ، فتكون مشوهة المنظر توجب النفرة والوحشة ، أو صاحبها أحجار ، فتكون أنضر حيث ترى محضرة وسط أرض قفرة ، أو لتكون في غير محلها فتوجب حنين الناقه إلى محلها أو فزعها لفرابة ذلك . وقيل : إنه جمع دوقل ، بالسكون ، وهو شجر المقل . وقيل : يجوز أنه من وقل كوعد إذا صعد ، أى ذات ارتفاعات .

(٢) قوله « على ما يقتضيه قوم من عمله » وذلك بأن يعامل معاملة المؤنث ، نحو ( كذبت قوم نوح المرسلين ) أو معاملة جمع الذكور ، نحو ( إذ قال لم أخوم نوح الاتقون ) لأن الأول مقتضى حمله على لفظه ، كما سيأتى في سورة الشعراء ، من أن القوم مؤنثة وتصغيرها قومة ، والثاني مقتضى حمله على معناه وهو ظاهر . (ع)

قَالُوا بُشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا  
 رَهْمُكَ لَرَجَّخْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ٩١ قَالَ يَقَوْمِ أَرْهَطِي أَعْرُ  
 عَلَيَّكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِي إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ٩٢  
 وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلْتُ سَوْفَ تَعْمَلُونَ مِنْ بَأْسِنِي عَذَابٌ  
 يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ٩٣ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا  
 شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا  
 فِي دِئَرِهِمْ جَثِينٍ ٩٤ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا آلَا بُدَا لِدَيْنِ كَمَا  
 بَدَتْ ثَمُودُ ٩٥

(ما نفقه) ما نفهم (كثيراً مما تقول) لأنهم كانوا لا يلقون إليه أذهانهم رغبة عنه  
 وكرهية له، كقوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه). أو كانوا يفقهونه ولكنهم لم يقبأوه،  
 فكأنهم لم يفقهوه. وقالوا ذلك على وجه الاستهانة به، كما يقول الرجل لصاحبه إذا لم يعبأاً بحديثه:  
 ما أدري ما تقول. أو جعلوا كلامه هذياناً وتخليطاً، لا ينفعهم كثير منه، وكيف لا ينفعهم  
 كلامه وهو خطيب الأنبياء، وقيل: كان ألثغ (فيينا ضعيفاً) لا قوة لك ولا عز فيما بيننا<sup>(١)</sup>،  
 فلا تقدر على الامتناع منا إن أردنا بك مكروها. وعن الحسن (ضعيفاً) مهيناً. وقيل (ضعيفاً)  
 أعمى. وحير تسمى المكشوف: ضعيفاً، كما يسمى ضريباً، وليس بسديد؛ لأن (فيينا) ياباه.  
 ألا ترى أنه لو قيل إنا لنراك فينا أعمى، لم يكن كلاماً؛ لأن الأعمى أعمى فيهم وفي غيرهم،  
 ولذلك قللوا قومه حيث جعلوهم رهطاً. والرهط: من الثلاثة إلى العشرة. وقيل: إلى السبعة.  
 وإنما قالوا: ولولاهم، احتراماً لهم واعتداداً بهم؛ لأنهم كانوا على ملتهم، لا خوفاً من شوكتهم  
 وعزتهم (لرجحناك) لقتلناك شر قتلة (وما أنت علينا بعزير) أي لا تعز علينا ولا تكرم،  
 حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم. وإنما يعز علينا رهطك، لأنهم من أهل ديننا  
 لم يختاروك علينا ولم يتبعوك دوننا، وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع

(١) قال محمود: «معنى قولهم ضعيفاً، أي: لا قوة لك ولا عز فيما بيننا، .. الخ. قال أحد: وهذا من محاسن  
 نكتته الدالة على أنه كان ملياً بالحدافة في علم البيان والله المستعان».

في الفاعل لافي الفعل ، كأنه قيل : وما أنت علينا بعزير ، بل رهطك هم الاعزة علينا ، ولذلك قال في جوابهم ﴿ أرهطى أعز عليكم من الله ﴾ ولو قيل : وما عززت علينا ، لم يصح هذا الجواب . فإن قلت : فالكلام واقع فيه وفي رهطه وأنهم الاعزة عليهم دونه ، فكيف صح قوله ( أرهطى أعز عليكم من الله ) قلت : تهاونهم به - وهو نبي الله - تهاون بالله . فحين عز عليهم رهطه دونه كان رهطه أعز عليهم من الله . ألا ترى إلى قوله تعالى ( من يطع الرسول فقد أطاع الله ) ، ﴿ واتخذتموه وراكم ظهريا ﴾ ونسيتموه وجعلتموه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يعاب به ، والظهري : منسوب إلى الظهر والكسر من تغييرات النسب . ونظيره قولهم في النسبة إلى أمس : أمسى ﴿ بما تعملون محيط ﴾ قد أحاط بأعمالكم علماً ، فلا يخفى عليه شيء منها ﴿ على مكاتكم ﴾ لا تخلو المكاة من أن تكون بمعنى المكان ، يقال : مكان ومكانة ، ومقام ومقامة . أو تكون مصدراً من مكن مكانة فهو مكين . والمعنى : اعملوا قازين على جهتكم التي أنتم عليها من الشرك والشئان لى . أو اعملوا متمكنين من عداوتى مطيقين لها ﴿ إني عامل ﴾ على حسب ما يؤتيني الله من النصرة والتأييد ويمكئني ﴿ من يأتيه ﴾ يجوز أن تكون ( من ) استفهامية ، معلقة لفعل العلم عن عمله فيها ؛ كأنه قيل : سوف تعلمون أينما يأتيه عذاب يخزيه ، وأينما هو كاذب . وأن تكون موصولة قد عمل فيها ، كأنه قيل : سوف تعلمون الشق الذي يأتيه عذاب يخزيه والذي هو كاذب . فإن قلت : أى فرق بين إدخال الفاء ونزعها في ( سوف تعلمون ) ؟ قلت : إدخال الفاء : وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ، ونزعها : وصل خفي تقديرى بالاستئناف الذي هو جواب لسؤال مقدر ، كأنهم قالوا : فإذا يكون إذا عملنا نحن على مكاتتنا وعملت أنت ؟ فقال : سوف تعلمون ، فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف ، للتفنن في البلاغة كما هو عادة بلغاء العرب ، وأقوى الوصلين وأبلغهما الاستئناف ، وهو باب من أبواب علم البيان تسكاثر محاسنه ﴿ وارتقبوا ﴾ وانتظروا العاقبة وما أقول لكم ﴿ إني معكم رقيب ﴾ أى منتظر . والرقيب بمعنى الراقب ، من رقبه ، كالضرب والصريم بمعنى الضارب والصارم . أو بمعنى المراقب ، كالعشير والنديم . أو بمعنى المرتقب ، كالفقير والرفيع بمعنى المفتقر والمترفع . فإن قلت : قد ذكر عملهم على مكاتهم <sup>(١)</sup> وعمله على مكانته ، ثم أتبعه ذكر عاقبة العاملين منه ومنهم ،

(١) قال محمود : وإن قلت قد ذكر عملهم على مكاتهم ... الخ ، قال أحد : والظاهر - والله أعلم - أن الكلامين جميعاً لم ، فالأول وهو قوله ( من يأتيه عذاب يخزيه ) مضمن ذكر جرهم الذي يجازون به وهو الكذب ، ويكون من باب عطف الصفة على الصفة والموصوف واحد ، كما نقول لمن تهدده : ستعلم من يهان ومن يعاقب ، وإنما يعنى المخاطب في الكلامين ، فإذا ثبت صرف الكلامين إليهم لم يغل ذلك من دلالة على ذكر عاقبته هو ، لأن أحد الفريقين إذا كان مبطلاً فالآخر هو المحق قطعاً ، فذكره لاجدى العاقبتين صريحاً بفهم ذكر الآخرة ترميها : =

فكان القياس أن يقول : من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو صادق . حتى ينصرف من يأتيه عذاب يخزيه إلى الجاحدين ، ومن هو صادق إلى النبي المبعوث إليهم . قلت : القياس ما ذكرت ، ولكنهم لما كانوا يدعونه كاذباً قال ﴿ ومن هو كاذب ﴾ يعني في زعمكم ودعواكم ، تجهيلاً لهم . فإن قلت : ما بال ساقى قصة <sup>(٩٦)</sup> عاد وقصة مدين جاءتا بالواو ، والساقتان الوسطيان بالفاء ؟ قلت . قد وقعت الوسطيان بعد ذكر الوعد ، وذلك قوله (إن موعدهم الصبح) ، (ذلك وعد غير مكذوب) فجاء بالفاء الذي هو للتسبيح ، كما تقول : وعدته فلما جاء الميعاد كان كيت وكيت . وأما الآخران فلم تقعا بتلك المثابة . وإنما وقعنا مبتدأتين ، فكان حقهما أن تعطفاً بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة . الجاثم : اللازم لمكانه لا يريم ، كاللابد ، <sup>(٩٧)</sup> يعني أن جبريل صاح بهم صيحة فزهق روح كل واحد منهم بحيث هو قصصاً <sup>(٩٨)</sup> ﴿ كأن لم يغنوا ﴾ كأن لم يقيموا في ديارهم أحياء متصرفين مترددين . البعد : بمعنى البعد وهو الهلاك ، كالرشد بمعنى الرشد . ألا ترى إلى قوله ﴿ كما بعدت ﴾ ؟ وقرأ السلي : بعدت ، بضم العين ، والمعنى في المنام واحد ، وهو نقيض القرب ، إلا أنهم أرادوا التفصلة بين البعد من جهة الهلاك وبين غيره ، فغيروا البناء كما فرقوا بين ضامني الخير والشر فقالوا : وعد وأوعد ، وقرأة السلي جاءت على الأصل اعتباراً لمعنى البعد من غير تخصيص ، كما يقال : ذهب فلان ومضى ، في معنى الموت . وقيل : معناه بعداً لهم من رحمة الله كما بعدت ثمود منها .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ٩٦ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ  
فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ٩٧ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ  
فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ٩٨ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ أَمْنَةً وَيَوْمَ  
الْقِيَمَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ٩٩

== والتعريض كما علمت في كثير من مواضعه أبلغ وأوقع من التصريح ، وهذا منه ، والذي يدل على أن الكلامين لما وأن عاقبة أمر شعيب لم تذكر ، استغناء عنها بذكر عاقبتهم ، كما بيّنا في الآية التي في أول هذه السورة ، وهي قوله تعالى (قال إن تسخروا منا فانا نسخر منكم) كما تسخرون فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم) ألا تراه كيف اكتفى بذلك عن أن يقول : ومن هو على خلاف ذلك ، وكذلك قوله في سورة الأنعام (قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار) فذكر هناك أيضاً إحدى العاقبتين ، لأن المراد بهذه العاقبة عاقبة الخير ، ومتى أطلقت فلا معنى إلا ذلك . كقوله (والعاقبة للمتقين) واستغنى عن ذكر مقابلتها ، والله أعلم . فتأمل هذا الفصل فإنه تحفة لمن هم نظم درر الكتاب العزيز ، وضم بعضها إلى بعض ، والله الموفق للصواب .

(١) قوله «ساقى قصة» في الصحاح : ساقه الجيش مؤخره له . ومثله ساقه القصة هنا . (ع)

(٢) قوله «كاللابد» أى المتلبد اللاصق بالأرض . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله «بحيث هو قصصاً» في الصحاح : يقال مات فلان قصصاً ، إذا أصابه ضربة فمات مكانه . (ع)

(بآياتنا وسلطان مبين) فيه وجهان: أن يراد أن هذه الآيات فيها سلطان مبين لموسى على صدق نبوته، وأن يراد بالسلطان المبين: العصا؛ لأنها أبهرها ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ تجهيل لمتبعيه حيث شايعوه على أمره، وهو ضلال مبين لا يخفى على من فيه أدنى مسكة من العقل، وذلك أنه ادعى الإلهية <sup>(١)</sup> وهو بشر مثلهم، وجاهر بالعسف والظلم والشر الذى لا يأتى إلا من شيطان مارد، ومثله بمنزل من الإلهية ذاتاً وأفعالا، فاتبعوه وسلبوا له دعواه، وتتابعوا على طاعته. والأمر الرشيد: الذى فيه رشد: أى: وما فى أمره رشد إنما هو غي تصرّح وضلال ظاهر مكشوف، وإنما يتبع العقلاء من يرشدهم ويهديهم، لا من يضلهم ويفويهم. وفيه أنهم عاينوا الآيات والسلطان المبين فى أمر موسى عليه السلام، وعلوا أن معه الرشد والحق، ثم عدلوا عن اتباعه إلى اتباع من ليس فى أمره رشد قط ﴿يقدم قومه﴾ أى كما كان قدوة لهم فى الضلال كذلك يتقدمهم إلى النار وهم يتبعونه. ويجوز أن يريد بقوله: (وما أمر فرعون برشيد) وما أمره بصالح حيد العاقبة. ويكون قوله (يقدم قومه) تفسيراً لذلك وإيضاحاً. أى: كيف يرشد أمر من هذه عاقبته. والرشد مستعمل فى كل ما يحمد ويرتضى، كما استعمل الغنى فى كل ما يذم ويتسخط. ويقال: قدمه بمنى تقدمه. ومنه: قادمة الرحل، كما يقال: قدمه بمعنى تقدمه. ومنه مقدمة الجيش. وأقدم بمعنى تقدم. ومنه: مقدم العين. فإن قلت: هلا قيل: يقدم قومه فيوردهم؟ ولم جئ بلفظ الماضى؟ قلت: لأن الماضى يدل على أمر موجود مقطوع به، فكأنه قيل: يقدمهم فيوردهم النار لا محالة. و﴿الورد﴾ المورد. و﴿المورود﴾ الذى وردوه. شبهه بالفارط الذى يتقدم الواردة إلى الماء. وشبه أتباعه بالواردة، ثم قيل: بئس الورد الذى يردونه النار؛ لأن الورد إنما يراد لتسكين العطش وتبريد الآكباد، والنار ضدّه ﴿وأتبعوا فى هذه﴾ فى هذه الدنيا ﴿لعنة﴾ أى يلعنون فى الدنيا، ويلعنون فى الآخرة ﴿بئس الرفد المرفود﴾ رفدهم. أى: بئس العون المعان. وذلك أن اللعنة فى الدنيا رقد للعذاب ومدد له، وقد رفدت باللعنة فى الآخرة. وقيل: بئس العطاء المعطى.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ۝١٠٠ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْنِيبٍ ۝١٠١

(ذلك) مبتدأ ﴿من أنباء القرى نقصه عليك﴾ خبر بعد خبر، أى: ذلك النبأ بعض أنباء القرى المهلكة مقصور عليك ﴿منها﴾ الضمير للقرى، أى: بعضها باق وبعضها عانى الأثر،



كالزراع القائم على ساقه والذي حصده . فإن قلت : ما محل هذه الجملة ؟ قلت : هي مستأنفة لاجل لها ( وما ظلمناهم ) بإهلاكنا إياهم ( ولكن ظلموا أنفسهم ) بارتكاب ما به أهلكوا ( فما أغنت عنهم آلهم ) فما قدرت أن ترد عنهم بأس الله ( يدعون ) يعبدون وهي حكاية حال ماضية . و ( لما ) منصوب بما أغنت ( أمر ربك ) عذابه ونقمته ( تنيب ) تحسير . يقال تب إذا خسر . وتنبيه غيره ، إذا أوقعه في الخسران .

وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾

عمل الكاف الرفع ، تقديره : ومثل ذلك الأخذ ( أخذ ربك ) والنصب فيمن قرأ : وكذلك أخذ ربك ، بلفظ الفعل . وقرئ : إذ أخذ القرى ( وهي ظالمة ) حال من القرى ( أليم شديد ) وجميع صعب على المأخوذ . وهذا تحذير من وخامة عاقبة الظلم لكل أهل قرية ظالمة من كفار مكة وغيرها ، بل لكل من ظلم غيره أو نفسه بذنب يقترفه . فعلى كل من أذنب أن يحذر أخذ ربه الأليم الشديد ، فيبادر التوبة ولا يغتر بالإمهال .

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ

وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾

( ذلك ) إشارة إلى ما قص الله من قصص الأمم الهالكة بذنوبهم ( لآية لمن خاف ) لعبرة له ، لأنه ينظر إلى ما أحل الله بالمجرمين في الدنيا ، وما هو إلا أنموذج مما أعد لهم في الآخرة ، فإذا رأى عظمه وشدته اعتبر به عظم العذاب الموعود ، فيكون له عبرة وعظة ولطفاً في زيادة التقوى والخشية من الله تعالى . ونحوه ( إن في ذلك لعبرة لمن يخشى ) . ( ذلك ) إشارة إلى يوم القيامة ، لأن عذاب الآخرة دل عليه . و ( الناس ) رفع باسم المفعول الذي هو مجموع كما يرفع بفعله إذا قلت يجمع له الناس . فإن قلت : لأي فائدة أوتر اسم المفعول على فعله ؟ (١) قلت : لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم وأنه يوم لا بد من أن يكون ميعاداً

(١) قال محمود : « إن قلت لم عدل عن الفعل إلى اسم المفعول ... الخ ، قال أحمد : ولهذا السر ورد قوله تعالى ( إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق ، والطير محشورة ) فاستعمل الفعل حيث يليق به ، واسم المفعول حيث يحسن استعماله أيضاً ... الخ

(٢) قوله « من دلالة » عبارة النسخ : دلالاته . (ع)

مضروباً لجمع الناس له، وأنه الموصوف بذلك صفة لازمة، وهو أثبت أيضاً لإسناد الجمع إلى الناس، وأنهم لا ينفكون منه، ونظيره قول المتهدد: إنك لمنهوب مالك محروب قومك، فيه من تمكن الوصف وثباته ما ليس في الفعل، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله (يوم يجمعكم ليوم الجمع) تعثر على صحة ما قلت لك. ومعنى يجمعون له: يجمعون لما فيه من الحساب والثواب والعقاب ﴿يوم مشهود﴾ مشهود فيه، فأتسع في الظرف <sup>(١)</sup> بإجرائه مجرى المفعول به، كقوله:

\* وَيَوْمَ شَهِدْنَاهُ سُلَيْمًا وَعَاقِرًا \* <sup>(٢)</sup>

أى يشهد فيه الخلائق الموقف لا يغيب عنه أحد. والمراد بالشهود: الذى كثر شاهده. ومنه قولهم: لفلان مجلس مشهود، وطعام محضور. قال:

\* فِي مَحْفَلٍ مِنْ نَوَاصِي النَّاسِ مَشْهُودٍ \* <sup>(٣)</sup>

فإن قلت: فما منعك أن تجعل اليوم مشهوداً في نفسه دون أن تجعله مشهوداً فيه، كما قال الله تعالى (فن شهد منكم الشهر فليصمه)؟ قلت: الغرض وصف ذلك اليوم بالهول والعظم وتميزه من بين الأيام، فإن جعلته مشهوداً في نفسه فسائر الأيام كذلك مشهودات كلها، ولكن يجعل مشهوداً فيه حتى يحصل التميز كما تميز يوم الجمعة عن أيام الأسبوع بكونه مشهوداً فيه دونها، ولم يحز أن يكون مشهوداً في نفسه؛ لأن سائر أيام الأسبوع مثله يشهداها كل من يشهده، وكذلك قوله: (فن شهد منكم الشهر فليصمه) الشهر منتصب ظرفاً لا مفعولاً به، وكذلك الضمير في (فليصمه) والمعنى: فن شهد منكم في الشهر فليصمه فيه: يعنى: فمن كان منكم مقياً حاضراً لوطنه في شهر رمضان

(١) قال محمود: «المراد مشهود فيه فأتسع في الظرف ... الخ» قال أحمد: يكون المشهود الذى هو المفعول به مسكوتاً عنه مبهماً، ومن الإبهام ما يكون تفهماً، وهذا مكانه.

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٤٠٨ فراجع إن شئت أمه تصححه.

(٣) من الخصوم إذا جد الضجاج بهم بعد ابن سعد ومن للضمير أقود ومشهد قد كفت الغائبين به في محفل من نواصي أقوم مشهود فرجته بإسناد غير ملتبس عند الحفاظ وقلب غير مزود

لام قيس الغنية. وضع ضجيجاً وضجاجاً: صاح. وضع البعير من الخلل: تعب من ثقله، والضرع بالشديد: جمع ضامر. وفرس أقود: طويل العنق. ورجل أقود: يقبل بوجهه ولا ينتقى. والقرود: جمه. ومشهد: عطف على الخصوم. ويجوز جره برب، أى مجلس كفت فيه الغائبين عنه بالتكلم عنهم بين محفل من رؤساء الناس وأشرافهم، فالنواصي: استعارة لهم. وفرجته، فككت كرتيه، وكشفت غنمه بكلام واضح الدلالة صادر عن قلب معلمين غير غائف عند الحفاظ، أى غيرة الخصوم وبخافطة كل منهم على رأيه أو المغانضة. ويقال: أحفظه إحفاظاً إذا أغضبه.

فليصم فيه ، ولو نصبته مفعولا فالسافر والمقيم كلاهما يشهدان الشر ، لا يشهده المقيم ، ويغيب عنه المسافر :

وَمَا تُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾

الأجل : يطلق على مدة التأجيل كلها وعلى منتهائها ، فيقولون : انتهى الأجل ، وبلغ الأجل آخره ، ويقولون : حل الأجل ( فإذا جاء أجلهم ) يراد آخر مدة التأجيل ، والعذ إنما هو للدة لا لغايتها ومنتهائها ، فعنى قوله ﴿ وما يؤخره إلا لأجل معدود ﴾ إلا لانتها مدة معدودة تحذف المضاف . وقرئ : وما يؤخره بالياء .

يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾

قرئ ﴿ يوم يأت ﴾ بغير ياء . ونحوه قولهم : لا أدر ، حكاة الخليل وسيبويه . وحذف الياء والاجتزاء عنها بالكسرة كثير في لغة هذيل . فإن قلت : فاعل يأتي ماهو ؟ قلت : الله عز وجل ، كقوله ( هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله ) ، ( أو يأتي ربك ) ، ( وجاهدك ) وتعضده قراءة : وما يؤخره ، بالياء . وقوله ﴿ بإذنه ﴾ ويجوز أن يكون الفاعل ضمير اليوم ، كقوله تعالى ( أن تأتيهم الساعة ) . فإن قلت : بما انتصب الظرف ؟ قلت : إما أن ينتصب بلا تكلم . وإنا يا ضمائر ، اذكر ، وإما بالانتها المحذوف في قوله ( إلا لأجل معدود ) أى ينتهى الأجل يوم يأتي ، فإن قلت : فإذا جعلت الفاعل ضمير اليوم ، فقد جعلت اليوم وقتاً لإتيان اليوم وحددت الشيء بنفسه قلت : المراد إتيان هوله وشدائده ﴿ لا تكلم ﴾ لا تكلم ، وهو نظير قوله ( لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن ) . فإن قلت : كيف يوفق بين هذا وبين قوله تعالى ( يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها ) وقوله تعالى ( هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون ) ، قلت : ذلك يوم طويل له مواقف ومواطن ، ففي بعضها يجادلون عن أنفسهم ، وفي بعضها يكفون عن الكلام فلا يؤذن لهم ، وفي بعضها يؤذن لهم فيتكلمون . وفي بعضها : يختم على أفواههم وتكلم أيديهم وتشهد أرجلهم ﴿ ففهم ﴾ الضمير لأهل الموقف ولم يذكروا ؛ لأن ذلك معلوم ، ولأن قوله ( لا تكلم نفس ) يدل عليه ، وقد مر ذكر الناس في قوله ( مجموع له الناس ) والشيء الذى وجبت له النار لإساءته ، والسعيد الذى وجبت له الجنة لإحسانه .

فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَيُنَادُونَهم فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا

مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾

قراءة العامة بفتح الشين . وعن الحسن (شقوا) بالضم ، كما قرئ (سعدوا) . والزفير : إخراج النفس . والشهيق : رده . قال الشماخ :

بَعِيدُ مَدَى التَّطَرِّيبِ أَوَّلُ صَوْتِهِ زَفِيرٌ وَيَتْلُوهُ شَهيقٌ مُحْشَرَجٌ <sup>(١)</sup>

(مادامت السموات والأرض) فيه وجهان ، أحدهما : أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد . والدليل على أن لها سموات وأرضاً قوله تعالى (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات) وقوله . (وأورثنا الأرض تنبؤاً من الجنة حيث نشاء) ولأنه لا بد لأهل الآخرة مما يقلهم ويظلمهم : إما سماء يخلقها الله ، أو يظلمهم العرش ، وكل ما أظلك فهو سماء . والثاني أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع ، كقول العرب : مادام تعار ، وما أقام ثبير ، وما لاح كوكب ، وغير ذلك من كلمات التأييد . فإن قلت : فما معنى الاستثناء في قوله (إلا ماشاء ربك) وقد ثبت خلود أهل الجنة والنار في الأبد من غير استثناء ؟ قلت : هو استثناء من الخلود في عذاب النار ، ومن الخلود في نعيم الجنة : وذلك أن أهل النار لا يخلدون في عذاب النار وحده ، بل يعذبون بالمهزير وبأنواع من العذاب سوى عذاب النار ، وبما هو أغلظ منها كلها وهو سخط الله عليهم وخسؤه لهم وإهانته إليهم . وكذلك أهل الجنة لهم سوى الجنة ما هو أكبر منها وأجل موقعاً منهم ، وهو رضوان الله ، كما قال (وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر) ولهم ما يفضل الله به عليهم سوى ثواب الجنة مما لا يعرف كنهه إلا هو ، فهو المراد بالاستثناء . والدليل عليه قوله (عطاء غير مجدوذ) ومعنى قوله في مقابلته (إن ربك فعال لما يريد) أنه يفعل بأهل النار ما يريد من العذاب ، كما يعطي أهل الجنة عطاءه الذي لا انقطاع له ، فتأمله فإن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، ولا يخدعك عنه قول المجرة <sup>(٢)</sup> . إن المراد بالاستثناء خروج أهل الكبائر من النار بالشفاعة : فإن الاستثناء الثاني ينادى على تكذيبهم ويسجل بافترائهم . وما ظنك بقوم نبذوا كتاب الله لما روى لهم بعض النوابت <sup>(٣)</sup>

(١) للشماخ يصف حمار وحشى . والمدى : المسافة والناية . والتطريب : ترديد الصوت وترخيمة . والزفير : إخراج النفس بشدة . والمحشرج اسم مفعول : الصوت الذى يردده في حلقه وصدره .

(٢) قوله « ولا يخدعك عنه قول المجرة » يريد أهل السنة . أما المعتزلة فيقولون : فاعل الكبيرة واسطة بين المؤمن والكافر وخلوده في النار أبدي ، وتحقيق بطلانه في علم التوحيد . (ع)

(٣) قوله « لما روى لهم بعض النوابت » في الصحاح : إن بنى فلان لنابتة شر . والنوابت من الأحداث

عن عبد الله بن عمرو بن العاص : ليأتين على جهنم يوم تصفق فيه أبوابها ليس فيها أحد<sup>(١)</sup> ؛ وذلك بعد ما يلبثون فيها أحقاباً ، وقد بلغنى أن من الضلال من اغتر بهذا الحديث ، فاعتقد أن الكفار لا يخلدون في النار ، وهذا ونحوه والعياذ بالله من الخذلان المبين ، زادنا الله هداية إلى الحق ومعرفة بكتابيه ، وتنبيهاً على أن نعقل عنه ، ولئن صح هذا عن ابن العاص ، فعناه أنهم يخرجون من حر النار إلى برد الزمهرير فذلك خلوت جهنم وصفق أبوابها ، وأقول : ما كان لابن عمرو في سيفيه ، ومقاتلته بهما على بن أبي طالب رضى الله عنه ، ما يشغله عن عن تسيير هذا الحديث .

وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ  
إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُودٍ (١٠٨) فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِمَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ

مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمَوْفُوهُمْ نَصِيصُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (١٠٩)  
﴿غير مجذود﴾ غير مقطوع ، ولكنه تمتد إلى غير نهاية ، كقوله (لم أجر غير ممنون) . لما قص قصص عبدة الأوثان ، وذكر ما أحل بهم من نعمة ، وما أعد لهم من عذابه قال : ﴿فلا تك في مرية مما يعبد هؤلاء﴾ أى : فلا تشك بعد ما نزل عليك من هذه القصص في سوء عاقبة عبادتهم وتعرضهم بها لما أصاب أمثالهم قبلهم تسليمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعدة بالانتقام منهم ووعداً لهم ثم قال ﴿ما يعبدون إلا كما يعبد آباؤهم﴾ يريد أن حالهم في الشرك مثل حال آباؤهم من غير تفاوت بين الحالين ، وقد بلغك ما نزل بآبائهم فسينزل بهم مثله ، وهو استئناف معناه تعليل النهى عن المرية . و « ما » في مما ، وكما : يجوز أن تكون مصدرية وموصولة ، أى : من عبادتهم ، وكعبادتهم . أو مما يعبدون من الأوثان ، ومثل ما يعبدون منها ﴿وإنما لموفوهم نصيبهم﴾ أى حظهم من العذاب<sup>(٢)</sup> كما وفينا آباءهم أنصباهم . فإن قلت :

(١) الحديث أخرجه البزار قال : حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود حدثنا شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال « يأتى على النار زمان تحقق أبوابها ليس فيها أحد ، يعنى من الموحدين » كذا فيه ورجاله ثقات . والتفسير لأدرى من هو ، وهو أولى من تفسير المصنف ، ويؤيده ما رواه ابن عدى عن أنس رضى الله عنه مرفوعاً « ليأتين على جهنم يوم تصفق أبوابها ، ما فيها من أمة محمد أحد » وفى الباب عن أبي أمامة رفعه « يأتى على جهنم يوم ما فيها من بنى آدم أحد ، تحقق أبوابها ، يعنى من الموحدين » وأما الحديث الذى أخرجه البخاري بن أبي أمامة فى مسنده من طريق الحسن بن عمرو رفعه « إن جهنم تخلو حتى يفت فيها الجرجير ، فهو منقطع . ومراسيل الحسن عندهم واهية . لأنه كان يأخذ من كل أحد . فإن كانت محظوظة فعلى التأويل الأول ، والله أعلم .

(٢) قال محمود : « أى حظهم من العذاب ، وإنما نصب غير منقوص حالاً من النصيب الموفى ، لأنه يجوز أن =

كيف نصب ﴿غير منقوص﴾ حالاً عن النصيب الموفى ؟ قلت يجوز أن يوفى وهو ناقص ، ويوفى وهو كامل . ألا تراك تقول . وفيه شطر حقه ، وثالث حقه ، وحقه كاملاً وناقصاً ،

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَأَوَّلًا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ

لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾

﴿فاختلف فيه﴾ آمن به قوم وكفر به قوم ، كما اختلف في القرآن ﴿ولولا كلمة﴾ يعني كلمة الإنظار إلى يوم القيامة ﴿لقضى بينهم﴾ بين قوم موسى أو قومك . وهذه من جملة التسلية أيضاً .

وَإِنْ كُلًّا لَّمَّا لَهَوْ فَيَنْهَمُ رَبُّكَ أَعْمَلَهُمْ إِنَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١١﴾

﴿وإن كلا﴾ التثوين عوض من المضاف إليه . يعني : وإن كلهم ، وإن جميع المختلفين فيه ﴿ليوفينهم﴾ جواب قسم محذوف . واللام في ﴿لما﴾ موطنة للقسم ، و﴿ما﴾ مزيدة . والمعنى : وإن جميعهم والله ليوفينهم ﴿ربك أعملهم﴾ من حسن وقبيح وإيمان وجحود . وقرئ : وإن كلا بالتخفيف على إعمال الخفضه عمل الثقيلة ، اعتباراً لأصلها الذي هو التشكيل . وقرأ أبي : وإن كل لما ليوفينهم ، على أن إن نافية . ولما بمعنى إلا . وقراءة عبد الله مفسرة لها . وإن كل إلا ليوفينهم ، وقرأ الزهري وسليمان بن أرقم : وإن كلا لما ليوفينهم ، بالتثوين ، كقوله (أكلأ لما) والمعنى : وإن كلا ملبومين ، بمعنى مجموعين ، كأنه قيل : وإن كلا جميعاً ، كقوله (فسجد الملائكة كلهم أجمعون) .

فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾

﴿فاستقم كما أمرت﴾ فاستقم استقامة مثل الاستقامة التي أمرت بها على جادة الحق ، غير عادل عنها ﴿ومن تاب معك﴾ معطوف على المستقر في استقام . وإنما جاز العطف عليه ولم يؤكد بمفصل لقيام الفاصل مقامه . والمعنى : فاستقم أنت وليستقم من تاب على الكفر وآمن معك ﴿ولا تطغوا﴾ ولا تخرجوا عن حدود الله ﴿إنه بما تعملون بصير﴾ عالم فهو مجازيكم به ، فاتقوه . وعن ابن عباس : ما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم في جميع القرآن آية كانت

== يوفى وهو ناقص ويوفى وهو كامل . ألا تراك تقول : وفيه شطر حقه وحقه كاملاً قال أحد : وهم والله أعلم ، فإن التوفية تستلزم عدم نقصان الموفى كاملاً كان أو ناقصاً ، فقولك : وفيه نصف حقه يستلزم عدم نقصانه ، فوجه انتصابه حالاً عنه ؟ والأوجه أن يقال : استعملت التوفية بمعنى الاعطاء ، كما استعمل التوفى بمعنى الأخذ . ومن قال : أعطيت فلاناً حقه . كان جديراً أن يؤكد بقوله «غير منقوص» والله أعلم

أشد ولا أشقّ عليه من هذه الآية . ولهذا قال : شيتنى هود والواقعة وأخواتهما <sup>(١)</sup> . وروى أن أصحابه قالوا له : لقد أسرع فيك الشيب . فقال : شيتنى هود . وعن بعضهم : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت له : روى عنك أنك قلت : شيتنى هود . فقال : نعم . فقلت : ما الذى شيبك منها ؟ أفصص الانبياء وهلاك الأمم ؟ قال : لا ، ولكن قوله (فاستقم كما أمرت) . وعن جعفر الصادق رضى الله عنه (فاستقم كما أمرت) قال : افتقر إلى الله بصحة العزم .

وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِن  
أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿١١٣﴾

قري : ولا تركنوا ، بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء . وعن أبي عمرو : بكسر التاء وفتح الكاف ، على لغة تميم فى كسرهم حروف المضارعة إلا الياء فى كل ما كان من باب علم يعلم . ونحوه قراءة من قرأ (فتمسككم النار) بكسر التاء . وقرأ ابن أبى عبة : ولا تركنوا ، على البناء للفعول ، من أركنه إذا أماله ، والنهى متناول للانحطاط فى هواهم ، والانقطاع إليهم ، ومصاحبهم وبجالتهم وزيارتهم ومداهنتهم ، والرضا بأعمالهم ، والتشبه بهم ، والتزى بزيهم ، ومدّ العين إلى زهرتهم . وذكرهم بما فيه تعظيم لهم . وتأمل قوله (ولا تركنوا) فإن الركون هو الميل اليسير . وقوله (إلى الذين ظلموا) أى إلى الذين وجد منهم الظلم ، ولم يقل إلى الظالمين . وحكى أن الموفق صلى خلف الإمام فقرأ بهذه الآية فغشى عليه ، فلما أفاق قيل له ، فقال : هذا فيمن ركن إلى من ظلم ، فكيف بالظالم . وعن الحسن رحمه الله : جعل الله الدين بين لامين : (ولا تظفوا) ، (ولا تركنوا) ولما خالط الزهرى السلاطين كتب إليه أخ له فى الدين : عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن ، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك : أصبحت شيخاً كبيراً وقد أثقلتك نعم الله بما فهمك الله من كتابه وعليك من سنة نبيه ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء ، قال الله سبحانه (لتبيننه للناس ولا تكتمونه) واعلم أن أيسر ما ارتكبت وأخف

(١) وفى الترمذى من حديث شيان عن أبى إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال قال أبو بكر : يا رسول الله قد شيت ، قال : قد شيتنى هود والواقعة والمرسلات ، وعم يتساءلون . وإذا الشمس كورت ، وقال حسن غريب . وأخرجه البزار من هذا الوجه . وقال : اختلف فيه على أبى إسحاق ، فقال شيان كذا . وقال على بن صالح : عن أبى إسحاق عن أبى حجة قال : وقال زكريا عن أبى إسحاق عن مسروق أن أبا بكر قال . وأطال الدارقطى فى ذكر علله - واختلف طرقة فى أوائل كتاب الملل - ورواه البيهقى فى الدلائل من رواية عطية بن سعيد قال قال عمر ابن الخطاب : يا رسول الله لقد أسرع إليك الخيب . فقال شيتنى هود وأخواتها : الواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت ، وأخرجه ابن سعد وابن عدى من رواية يزيد الرقاشى عن أنس . وفيه «الواقعة والقارعة وسأل وإذا الشمس كورت» .

ما احتملت : أنك آنتست وحشة الظالم ، وسهلت سبيل الغي بدتوك بمن لم يؤذ حقاً ولم يترك باطلا ، حين أدناك اتخذوك قطباً تدور عليك رحي باطلهم ، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم ، وسلماً يصعدون فيك إلى ضلالهم ، يدخلون الشك بك على العلماء ، ويقتادون بك قلوب الجهلاء ، فما أيسر ما عمروا لك في جنب ما خربوا عليك ، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك <sup>(١)</sup> من دينك ، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله فيهم (نخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً) فإنك تعامل من لا يجهل ، ويحفظ عليك من لا يغفل ، فداو دينك فقد دخله سقم ، وهني زادك فقد حضر السفر البعيد ، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء ، والسلام . وقال سفيان : في جهنم واد لا يسكنه إلا القراء الزائرون للبلوك . وعن الأوزاعي : ما من شيء أبغض إلى الله من عالم يزور عاملاً . وعن محمد ابن مسلمة : الذباب على العذرة ، أحسن من قارئ على باب هؤلاء . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه <sup>(٢)</sup> ، ولقد سئل سفيان عن ظالم أشرف على الهلاك في بركة ، هل يسقى شربة ماء ؟ فقال : لا ، فقيل له : يموت ؟ فقال : دعه يموت . (وما لكم من دون الله من أولياء) حال من قوله (فتمسك) أي : فتمسك النار وأتم على هذه الحال . ومعناه : وما لكم من دون الله من أنصار يقدرون على منعكم من عذابه ، لا يقدر على منعكم منه غيره (ثم لا تنصرون) ثم لا ينصركم هو ، لأنه وجب في حكمته تعذيبكم وترك الإبقاء عليكم . فإن قلت : فما معنى ثم ؟ قلت : معناها الاستبعاد ، لأن النصرة من الله مستبعدة مع استيجابهم العذاب واقتضاء حكمته له .

وَأَمِ الْصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ  
ذَلِكَ ذِكْرِي لِلذَّاكِرِينَ (١١٤)

(طرفي النهار) غدوة وعشية (وزلفاً من الليل) وساعات من الليل وهي ساعات القرية من آخر النهار ، من أزلفه إذا قربه وازدلف إليه ، وصلاة الغدوة : الفجر . وصلاة العشية : الظهر والعصر ؛ لأن ما بعد الزوال عشية . وصلاة الزلف : المغرب والعشاء . وانتصاب طرفي النهار على الظرف ، لأنهما مضافان إلى الوقت ، كقولك : أقيمت عنده جميع النهار ، وأتيته نصف النهار

(١) قوله « وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك » لعل هنا سقطاً تقديره : في جنب ما أعطوك ، وما أقل ما أصلحو لك في جنب ما أفسدوا ... الخ . (ع)

(٢) قد روله البيهقي السادس والستين من الشعب من رواية يونس بن عبد عن الحسن من قوله . وذكره أبو نعيم في الحلية من قول سفيان الثوري .



وأوله وآخره، تنصب هذا كله على إعطاء المضاف حكم المضاف إليه. ونحوه (وأطراف النهار) وقرئ: وزلفا، بضمين. وزلفا، بسكون اللام. وزلني: بوزن قرني. فالزلف: جمع زلفة، كظم في ظلة. والزلف بالسكون: نحو بسرة وبسر. والزلف بضمين نحو بسر في بسر. والزلفي بمعنى الزلفة، كما أن القرني بمعنى القرية: وهو ما يقرب من آخر النهار من الليل. وقيل: وزلفا من الليل: وقربا من الليل، وحققها على هذا التفسير أن تعطف على الصلاة، أي: أقم الصلاة طرفي النهار، وأقم زلفا من الليل، على معنى: وأقم صلاة تتقرب بها إلى الله عز وجل في بعض الليل ((إن الحسنات يذهبن السيئات)) فيه وجهان، أحدهما: أن يراد تكفير الصغائر بالطاعات، وفي الحديث: «إن الصلاة إلى الصلاة كفارة ما بينهما ما اجتنبت الكبائر»<sup>(١)</sup>، والثاني: إن الحسنات يذهبن السيئات، بأن يكن لطفاً في تركها، كقوله (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) وقيل: نزلت في أبي اليسر عمرو بن غزية الأنصاري، كان يبيع التمر فأتته امرأة فأعجبته، فقال لها: إن في البيت أجود من هذا التمر، فذهب بها إلى بيته فضمها إلى نفسه وقبلها، فقالت له: اتق الله، فتركها وندم، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بما فعل، فقال صلى الله عليه وسلم: أنتظر أمر ربي، فلما صلى صلاة العصر نزلت، فقال: نعم، اذهب فإنها كفارة لما عملت: وروى أنه أتى أبا بكر فأخبره فقال: استر على نفسك وتب إلى الله. فأتى عمر رضى الله عنه فقال له مثل ذلك، ثم أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت، فقال عمر: أهذا له خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل للناس عامة. وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: تَوْضِئاً وَضَوْءاً حَسَناً وصل ركعتين ((إن الحسنات يذهبن السيئات))<sup>(٢)</sup> (ذلك) إشارة إلى قوله (فاستقم) فما بعده (ذكرى للذاكرين) عظة للتعظين.

(١) أخرجه الحاكم من حديث أبي هريرة رفعه والصلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر.

(٢) كان في الأصل أبو اليسر عمرو بن غزية وهو غاط. وإما هو أبو اليسر كعب بن عمرو. وكذا هو في كتب أسماء الصحابة. وإنما تبع المصنف الثعلبي فإنه قال كذلك نزلت في عمرو بن غزية الأنصاري. والحديث عند الترمذي والنسائي والبخاري والطبري من رواية عثمان بن عبد الله بن موهب عن موسى بن طلحة بن أبي اليسر ابن عمرو قال: أتت امرأة نبتاح تمرًا. فقلت لها: في البيت تمر أطيب من هذا فدخلت معي في البيت. فأهويت إليها فقبلتها. فقالت: اتق الله. فأتيت أبا بكر فذكرت ذلك له: فقال استر على نفسك وتب. فأتيت عمر فقال مثل ذلك. فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأطرق طويلاً حتى أوحى إليه (أقم الصلاة... الآية) قال ابن أبي اليسر: أتيت فقرأها على. فقال أصحابي: يا رسول الله، لهذا خاصة أم للناس عامة؟ فقال: بل للناس عامة. وفي رواية لأحمد فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، أله وحده أم للناس كافة؟ وللدارقطني والحاكم والبيهقي من رواية عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ أنه كان قاعداً عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال: يا رسول الله، ما تقول في رجل أصاب من امرأة لا تحل له فلم يدع شيئاً يأتيه الرجل من امرأته إلا أصاب منها غير أنه لم يجامعها. =

### وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

ثم كثر إلى التذكير بالصبر بعد ما جاء بما هو خاتمة للتذكير، وهذا السرور لفضل خصوصية ومزية وتنبية على مكان الصبر ومحلّه، كأنه قال: وعليك بما هو أهم مما ذكرت به وأحق بالتوصية، وهو الصبر على امثال ما أمرت به والانتها عما نهيت عنه، فلا يتم شيء منه إلا به ﴿فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ جاء بما هو مشتمل على الاستقامة وإقامة الصلوات والانتها عن الطغيان والركون إلى الظالمين والصبر وغير ذلك من الحسنات.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةَ يَبْقَوْنَ فِي الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ

﴿إلا قليلاً﴾ يَمُنُّ أَنْ تَنْجُوْنَا مِنْهُمْ وَأَتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أَتَرَفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾  
﴿فلولا كان من القرون﴾ فهلا كان. وقد حكوا عن الخليل: كل ولولا في القرآن فعناها وهلا، إلا التي في الصافات، وما صحت هذه الحكاية في غير الصافات (لولا أن تداركة نعمة من ربه لنبد بالعرام)، (ولولا رجال مؤمنون)، (ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم). ﴿أولو بقية﴾ أولو فضل وخير. وسمى الفضل والجودة بقية لأن الرجل يستبقى مما يخرج من أجوده وأفضله، فصار مثلاً في الجودة والفضل. ويقال: فلان من بقية القوم، أي من خيارهم. وبه فسر بيت الحماسة:

\* إِنْ تَذُنُّوا نُمُّ يَأْتِنِي بَقِيَّتُكُمْ \* (١)

== فقال له النبي صلى الله عليه وسلم توحاً وضواً حسناً ثم صل. فأرسل الله تعالى الآية. فقال معاذ: أي له خاصة أم للسليين عامة؟ قال: بل للسليين عامة. وأصل الحديث في الصحيحين عن ابن مسعود وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: إني عالجت امرأة في أقصى المدينة وإني أصبت منها دون أن أفسها وأنا هذا فاقض في ما شئت. فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك ولم يرد عليه النبي صلى الله عليه وسلم شيئاً فانطلق الرجل فأتبعه النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً. فدعا فتلا عليه (أقم الصلاة طرفي النهار... الآية) فقال رجل من القوم: يا رسول الله أله خاصة أم للناس؟ فقال: بل للناس كافة.

(١) يا أيها الراكب المزجي مطيته      سائل بني أسد ما هذه الصوت  
وقل لم بادروا بالعدو واتقوا      قولا يبرئكم إني أنا الموت  
إن تذنّبوا ثم يأتي بقتلكم      فما على بذنّب عندكم فوت

لروشد بن كثير الطائي. وزجاء - بالتخفيف والتشديد - وأزجاء: ساقه. وأراد بالصوت: الصيحة أو الفصّة التي بلغت عته، وأخبر عن نفسه بالموت مبالغة. وبقيّة القوم: خيارهم، وتأتى مصدراً بمعنى البقوى، كالتقية بمعنى التقوى. والمعنى على الأول: إن تذنّبوا ثم يأتي بقتلكم أمثالكم يمتدّون عنكم فلا فوت، ولا بأس على بسبب ذنب غيركم. وعلى الثاني: ثم يأتي بقتلكم ذو الأبقاء على أنفسهم، يقولون: لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا، فكذلك، ويجوز أن المعنى: إن تمشعوا على اللجاجة أو للاعتذار، فلا تقوتى مؤاخذتكم بل لا بد منها. وإثبات الياء في يأتي، للاشباع، لكن الأخير غير مناسب لقوله «بادروا بالعدو».

ومنه قولهم : في الزوايا خبايا ، وفي الرجال بقايا . ويجوز أن تكون البقية بمعنى البقوى ، كالتقية بمعنى التقوى ، أى : فهلا كان منهم ذوو بقاء على أنفسهم وصيانة لها من سخط الله وعقابه . وقرئ : أولو بقية ، بوزن لقية ، من بقاء يبقيه إذا راقبه وانتظره ومنه : «بقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم»<sup>(١)</sup> ، والبقية المزة من مصدره . والمعنى : فلو كان منهم أولو مراقبة وخشية من انتقام الله ، كأنهم ينتظرون إيقاعه بهم لإشفاقهم ﴿إلا قليلا﴾ استثناء منقطع ، معناه : ولكن قليلا من أنجينا من القرون نهوا عن الفساد ، وسائرهم تاركون للنهى . و(من) في ﴿من أنجينا﴾ حقها أن تكون للبيان لا للتبويض ؛ لأن النجاة إنما هي للناهين وحدهم ، بدليل قوله تعالى (أنجينا الذين يهتدون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا) . فإن قلت : هل لوقوع هذا الاستثناء متصلا وجه يحمل عليه ؟ قلت : إن جعلته متصلا على ما عليه ظاهر الكلام ، كان المعنى فاسدا ؛ لأنه يكون تخصيصاً لأولى البقية على النهى عن الفساد ، إلا للقليل من الناجين منهم كما تقول : هلا قرأ قومك القرآن إلا الصالحاء منهم ، تريد استثناء الصالحاء من المحضضين على قراءة القرآن وإن قلت في تخصيصهم على النهى عن الفساد معنى نفى عنهم ، فكأنه قيل : ما كان من القرون أولو بقية إلا قليلا ، كان استثناء متصلا ومعنى صحيحاً ، وكان انتصابه على أصل الاستثناء ، وإن كان الألفصح أن يرفع على البدل ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أراد بالذين ظلموا : تاركى النهى عن المنكرات ، أى : لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين ، وهو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعقدوا همهم بالشهوات ، واتبعوا ما عرفوا فيه التمتع والترف ، من حب الرياسة والثروة ، وطلب أسباب العيش الهنيء . ورفضوا ما وراء ذلك ونبذوه وراء ظهورهم . وقرأ أبو عمرو في رواية الجعفي ، واتبع الذين ظلموا ، يعنى : واتبعوا جزاء ما أترفوا فيه . ويجوز أن يكون المعنى في القراءة المشهورة : أنهم اتبعوا جزاء إترافهم . وهذا معنى قوى لتقدم الإنجاء ، كأنه قيل : إلا قليلا من أنجينا منهم وهلك السائر . فإن قلت : علام عطف قوله (واتبع الذين ظلموا) ؟ قلت : إن كان معناه : واتبعوا الشهوات ، كان معطوفاً على مضمير ، لأن المعنى إلا قليلا من أنجينا منهم نهوا عن الفساد ، واتبع الذين ظلموا شهواتهم ، فهو عطف على نهوا . وإن كان معناه واتبعوا جزاء الإتراف ، فالواو للحال ، كأنه قيل : أنجينا القليل وقد اتبع الذين ظلموا جزاءهم . فإن قلت : فقوله ﴿وكانوا مجرمين﴾ ؟ قلت : على أترفوا أى : اتبعوا الإتراف وكونهم مجرمين ؛ لأن تابع الشهوات مغمور بالآثام . أو أريد بالإجرام

(١) أخرجه أبو داود من حديث معاذ بن جبل قال : «بقينا رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلاة الغنمة ، فتأخر حتى ظن الظان أنه ليس بخارج ... الحديث» .

إغفالهم للشكر. أو على اتبعوا، أى اتبعوا شهواتهم وكانوا مجرمين بذلك. ويجوز أن يكون اعتراضاً وحكماً عليهم بأنهم قوم مجرمون.

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾

﴿كان﴾ بمعنى صح واستقام. واللام لتأكيد النفي. و﴿بظلم﴾ حال من الفاعل. والمعنى: واستحال في الحكمة أن يهلك الله القرى ظالماً لها ﴿وأهلها﴾ قوم ﴿مصلحون﴾ تزيهاً لذاته عن الظلم، وإيداناً بأن إهلاك المصلحين من الظلم. وقيل: الظلم الشرك، ومعناه أنه لا يهلك القرى بسبب شرك أهلها وهم مصلحون يتعاطون الحق فيما بينهم ولا يضمنون إلى شركهم فساداً آخر.

وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾  
إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾

﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة﴾ يعنى لا اضطهرم إلى أن يكونوا أهل أمة واحدة أى ملة واحدة وهى ملة الإسلام، كقوله (إن هذه أمتكم أمة واحدة) وهذا الكلام يتضمن نفي الاضطرار، وأنه لم يضطرهم إلى الاتفاق على دين الحق، ولكنه مكنهم من الاختيار الذى هو أساس التكليف، فاختار بعضهم الحق وبعضهم الباطل، فاختلّفوا، فلذلك قال ﴿ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك﴾ إلا ناساً هداهم الله ولفظ بهم، فاتفقوا على دين الحق غير مختلفين فيه ﴿ولذلك خلقهم﴾ ذلك إشارة إلى ما دل عليه الكلام الأول وتضمنه، يعنى: ولذلك من التمكين والاختيار الذى كان عنه الاختلاف خلقهم، ليثيب مختار الحق بحسن اختياره، ويعاقب مختار الباطل بسوء اختياره ﴿وتمت كلمة ربك﴾ وهى قوله للبلائكة ﴿لا ملأنا جهم من الجنة والناس أجمعين﴾ لعله بكثرة من يختار الباطل.

وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ

مَكَاتِبِكُمْ إِنَّا عَمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَانتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾

﴿وكلاً﴾ التنوين فيه عوض من المضاف إليه كأنه قيل. وكل نبأ ﴿نقص عليك﴾ و﴿من أنباء الرسل﴾ بيان لكل. ﴿وما نثبت به فؤادك﴾ بدل من كلا. ويجوز أن يكون المعنى: كل واقصص

نقص عليك، على معنى : وكل نوع من أنواع الاقتصاد نقص عليك، يعنى : على الأساليب المختلفة، و (ما ثبت به) مفعول نقص. ومعنى تثبتت فؤاده : زيادة يقينه وما فيه طمأنينة قلبه، لأن تكاثر الأدلة أثبت للقلب وأرسخ للعلم ﴿وجاءك في هذه الحق﴾ أى فى هذه السورة . أو فى هذه الأنبياء المقتصة فيها ما هو حق ﴿وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون﴾ من أهل مكة وغيرهم ﴿اعملوا﴾ على حالكم وجهتكم التى أنتم عليها ﴿إنا عاملون وانتظروا﴾ بنا الدوائر ﴿إنا منتظرون﴾ أن ينزل بكم نحو ما اقتص الله من النعم النازلة بأشباهم .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأُمُورُ كُلُّهَا فاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿ولله غيب السموات والأرض﴾ لا تخفى عليه خافية مما يجرى فيها، فلا تخفى عليه أعمالكم ﴿وإليه يرجع الأمر كله﴾ فلا بد أن يرجع إليه أمرهم وأمرك، فينتقم لك منهم ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾ فإنه كافيك وكافلك ﴿وما ربك بغافل عما يعملون﴾ وقرئ : تعملون، بالتاء : أى أنت وهم على تغليب المخاطب .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة هود أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح ومن كذب به ، وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وموسى وكان يوم القيامة من السعداء إن شاء الله تعالى ذلك <sup>(١)</sup>

## سورة يوسف

مكية [ إلا الآيات ١ و ٢ و ٣ و ٧ فدنية ]

وهي مائة وإحدى عشرة آية [ نزلت بعد سورة هود ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ① إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ② نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ③

( تلك ) إشارة إلى آيات السورة . و ( الكتاب المبين ) السورة ، أى تلك الآيات التى أنزلت إليك فى هذه السورة آيات السورة الظاهر أمرها فى إعجاز العرب وتبكيهم . وألّى تبين لمن تدبرها أنها من عند الله لا من عند البشر . أو الواضحة التى لا تشبه على العرب معانيها لنزولها بلسانهم . أو قد أبين فيها ما سألت عنه اليهود من قصة يوسف . فقد روى أن علماء اليهود قالوا للكبراء المشركين : سلوا محمداً لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن قصة يوسف ( أنزلناه ) أنزلنا هذا الكتاب الذى فيه قصة يوسف فى حال كونه ( قرآنًا عربيًا ) وسمى بعض القرآن قرآنًا ، لأن القرآن اسم جنس يقع على كله وبعضه ( لعلكم تعقلون ) إرادة أن تفهموه وتحيطوا بمعانيه ولا يلتبس عليكم ( ولو جعلناه قرآنًا أعجميًا لقالوا لولا فصلت آياته ) . ( القصص ) على وجهين : يكون مصدرًا بمعنى الاقتصاص ، تقول : قص الحديث يقصه قصصاً ، كقولك : شله يشله شللاً ، إذا طرده . ويكون « فعلاً » بمعنى « مفعول » ، كالنفض والحسب . ونحوه النبأ والخبر : فى معنى المنبأ به والخبر به . ويجوز أن يكون من تسمية المفعول بالمصدر ، كالخاق والصيد . وإن أريد المصدر ، فعناه : نحن نقص عليك أحسن القصص ( بما أوحينا إليك هذا القرآن ) أى بإيحائنا إليك هذه السورة ، على أن يكون أحسن منصوباً نصب المصدر ، لإضافته إليه ، ويكون المقصوص محذوفاً ؛ لأن قوله ( بما أوحينا إليك هذا القرآن ) مغنى عنه . ويجوز أن

ينتصب هذا القرآن بنقص<sup>١</sup>، كأنه قيل: نحن نقص عليك أحسن الاقتصاص هذا القرآن بإيجائنا إليك. والمراد بأحسن الاقتصاص: أنه اقتصر على أبعد طريقة وأعجب أسلوب. ألا ترى أن هذا الحديث مقتصر في كتب الأولين وفي كتب التواريخ، ولا ترى اقتصاصه في كتاب منها مقارباً لاقتصاصه في القرآن. وإن أريد بالقصص المقصوص، فعنايه: نحن نقص عليك أحسن ما يقص من الأحاديث، وإنما كان أحسنه لما يتضمن من العبر والنكت والحكم والعجائب التي ليست في غيرها<sup>(١)</sup> والظاهر أنه أحسن ما يقتصر في بابيه، كما يقال في الرجل: هو أعلم الناس وأفضلهم، يراد في فنه. فإن قلت: مم اشتقاق القصص؟ قلت: من قص أثره إذا اتبعه، لأن الذي يقص الحديث يتبع ما حفظ منه شيئاً فشيئاً، كما يقال: تلا القرآن، إذا قرأه، لأنه يتلو أى يتبع ما حفظ منه آية بعد آية ﴿وإن كنت﴾ إن مخففة من الثقيلة. واللام هي التي تفرق بينها وبين النافية. والضمير في ﴿قبله﴾ راجع إلى قوله: ما أوحينا. والمعنى: وإن الشأن والحديث كنت من قبل إيجائنا إليك من الغافلين عنه، أى: من الجاهلين به، ما كان لك فيه علم قط ولا طرق سمعك طرف منه.

إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَيِّهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ  
رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ٤

﴿إذ قال يوسف﴾ بدل من أحسن القصص، وهو من بدل الاشتغال، لأن الوقت مشتمل على القصص وهو المقصوص، فإذا قص وقته فقد قص. أو بإضمار «اذكر» ويوسف اسم عبراني، وقيل عربي وليس بصحيح: لأنه لو كان عربياً لانصرف لخلوة عن سبب آخر سوى التعريف. فإن قلت: فما تقول فيمن قرأ (يوسف) بكسر السين، أو (يوسف) بفتحها، هل يجوز على قراءته أن يقال «هو عربي»، لأنه على وزن المضارع المبني للفاعل أو المفعول من آسف. وإنما منع الصرف للتعريف ووزن الفعل؟ قلت: لا؛ لأن القراءة المشهورة قامت بالشهادة، على أن الكلمة أعجمية، فلا تكون عربية تارة وأعجمية أخرى، ونحو يوسف: يونس، رويت فيه هذه اللغات الثلاث ولا يقال هو عربي لأنه في لغتين منها بوزن المضارع من آنس وأونس. وعن النبي صلى الله عليه وسلم: إذا قيل: من الكريم؟ فقولوا: الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم<sup>(٢)</sup>، ﴿ياأبت﴾

(١) قوله «ليست في غيرها» لعله «في غيره» كعبارة النسفي. (ع)

(٢) أخرجه الترمذي والنسائي والحاكم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم =

قرئ بالحركات الثلاث . فإن قلت : ماهذه التاء ؟ قلت : تاء تأنيث وقعت عوضاً من ياء الإضافة ، والدليل على أنها تاء تأنيث قلبها هاء في الوقف . فإن قلت : كيف جاز إلحاق تاء التأنيث بالمذكر ؟ قلت : كما جاز نحو قولك : حمامة ذكر ، وشاة ذكر ، ورجل ربعة ، وغلام يفعة . فإن قلت : فلم ساغ تعويض تاء التأنيث من ياء الإضافة ؟ قلت : لأن التأنيث والإضافة يتناسبان في أن كل واحد منهما زيادة مضمومة إلى الاسم في آخره . فإن قلت : فما هذه الكسرة ؟ قلت : هي الكسرة التي كانت قبل الياء في قولك : يا أباي ، قد زحلت إلى التاء ، لاقتضاء تاء التأنيث أن يكون ما قبلها مفتوحاً : فإن قلت : فما بال الكسرة لم تسقط بالفتحة التي اقتضتها التاء وتبقى التاء ساكنة ؟ قلت : امتنع ذلك فيها ، لأنها اسم ، والأسماء حقها التحريك لأصالتها في الإعراب ، وإنما جاز تسكين الياء وأصلها أن تحرك تخفيفاً ، لأنها حرف لين . وأما التاء فخرف صحيح نحو كاف الضمير ، فلزم تحريكها . فإن قلت : يشبه الجمع بين التاء وبين هذه الكسرة الجمع بين العوض والمعوض منه ، لأنها في حكم الياء ، إذا قلت : يا غلام . فكما لا يجوز « يا أباي » ، لا يجوز « يا أبت » . قلت الياء والكسرة قلبا شيان والتاء عوض من أحد الشئين ، وهو الياء والكسرة غير متعرض لها ، فلا يجمع بين العوض والمعوض منه ، إلا إذا جمع بين التاء والياء لا غير . ألا ترى إلى قولهم « يا أبتا » مع كون الالف فيه بدلا من التاء ، كيف جاز الجمع بينها وبين التاء ، ولم يعد ذلك جمعاً بين العوض والمعوض منه ، فالكسرة أبعد من ذلك . فإن قلت : فقد دلت الكسرة في يا غلام على الإضافة ؛ لأنها قرينة الياء ولصيقتهما . فإن دلت على مثل ذلك في « يا أبت » ، فالتاء المعوضة لغو : وجودها كعدمها . قلت : بل حالها مع التاء كحالها مع الياء إذا قلت يا أباي . فإن قلت : فما وجه من قرأ بفتح التاء وضما ؟ قلت : أما من فتح فقد حذف الالف من « يا أبتا » واستبقى الفتحة قبلها ، كما فعل من حذف الياء في « يا غلام » ، ويجوز أن يقال : حركها بحركة الياء المعوض منها في قولك « يا أباي » . وأما من ضم فقد رأى اسماً في آخره تاء تأنيث ، فأجراه مجرى الأسماء المؤنثة بالتاء فقال : « يا أبت » ، كما تقول « يا تبة » <sup>(١)</sup> من غير اعتبار لكونها عوضاً من ياء الإضافة . وقرئ :

== « إن الكريم ابن الكريم إلى آخره » وفي البخاري عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكريم بن الكريم إلى آخره » وهو في المتفق عليه عن أبي هريرة لكن بلفظ « مثل الذي صلى الله عليه وسلم : أي الناس أكرم ؟ فقال أكرمهم عند الله أقامهم . قالوا : يا رسول الله ليس عن هذا نسألك . قال : فأكرم الناس يوسف نبى الله بن نبى الله بن نبى الله بن خليل الله . »

(١) قوله « كما تقول ياتبة » بكسر التاء وتشديد الباء : الحالة الشديدة . وفي نسخة : يا تبة ، كذا بهامش



إني رأيت ، بتحريك الياء . وأحد عشر : بسكون العين ، تخفيفاً لتوالي المتحركات فيها هو في حكم اسم واحد ، وكذا إلى تسعة عشر ، إلا اثني عشر ، لئلا يلتقي ساكنان ، ورأيت من الرؤيا ، لامن الرؤية ، لأنّ ما ذكره معلوم أنه منام : لأنّ الشمس والقمر لو اجتمعا مع الكواكب ساجدة ليوسف في حال اليقظة ، لكانت آية عظيمة ليعقوب عليه السلام ، ولما خفيت عليه وعلى الناس . فإن قلت : ما أسماء تلك الكواكب ؟ قلت : روى جابر أنّ يهودياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، أخبرني عن النجوم التي رآهنّ يوسف ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم : فنزل جبريل عليه السلام فأخبره بذلك ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لليهودي : إن أخبرتك هل تسلم ، ؟ قال : نعم . قال : جريان ، والطارق ، والذبال ، وقابس ، وعمودان ، والفليق ، والمصبح ، والضروح ، والفرغ . ووثاب ، وذو الكتفين . رآها يوسف والشمس والقمر نزلن من السماء وسجدن له <sup>(١)</sup> ، فقال اليهودي : إني والله ، إنها لأسمائها . وقيل : الشمس والقمر أبواه . وقيل : أبوه وخالته : والكواكب . إخوته . وعن وهب أنّ يوسف رأى وهو ابن سبع سنين أنّ إحدى عشرة عصا طوالا كانت مركوزة في الأرض كهيئة الدارة ، وإذا عصا صغير تثب عليها حتى اقتلعتها وغلبتها ، فوصف ذلك لأبيه فقال : إياك أن تذكر هذا لإخوتك ، ثم رأى وهو ابن ثلثي عشرة سنة الشمس والقمر والكواكب تسجد له ، فقصها على أبيه فقال له : لا تقصها عليهم ، فيبغوا لك الغوائل . وقيل : كان بين رؤيا يوسف ومصير إخوته إليه أربعون سنة . وقيل : ثمانون . فإن قلت لم أخرج الشمس والقمر ؟ قلت : أخرهما ليعطفهما على الكواكب على طريق الاختصاص ، بياناً لفضلهما واستبدادهما بالمزية على غيرهما من الطوالع ، كما أخر جبريل وميكائيل عن الملائكة ، ثم عطفهما عليها لذلك ، ويجوز أن تكون الواو بمعنى مع ، أي : رأيت الكواكب مع الشمس والقمر . فإن قلت : مامعنى تكرار رأيت <sup>(٢)</sup> قلت : ليس بتكرار ، إنما هو كلام مستأنف

(١) أخرجه الحاكم من طريق أسباط عن السدي عن عبد الرحمن بن سابط عن جابر قال جاء بستان اليهودي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، هل تعرف النجوم التي رآها يوسف فسجدن له ؟ فسكت الحديث ، ولم يذكر فيه الشمس والقمر وقال : رآها يوسف محبطة بأكتاف السماء ساجدة له ، وزاد : قصها على أبيه فقال له : إن هذا أمر قد نشئت وسيجعله الله بعد ، رواه أبو يعلى والبرار والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل والطبراني وأبو حاتم في رواية الحاكم بن زهير عن السدي نحوه ، وذكره العقيلي من حديثه وقال : لا يثبت . وقال البرار : لا تعلم له طريقاً إلا هكذا . والحاكم ليس بقوي ، وكذا قال البيهقي : إن الحاكم يقرده به . وغفل عن طريق شيخ الحاكم وذكره ابن الجوزي في الموضوعات . وأعله بالحاكم . وطريق الحاكم يدفع على الحكم وذكر ابن أبي حاتم في العلل عن أبي زرعة أنه قال : حديث منكر .

(٢) قال محمود : وإن قلت مامعنى تكرار رأيت به . الخ قال أحمد : وأحسن من ذلك أن الكلام طال بين الفعل . الحال ، فطري ذكر الفعل لمناسبة الحال وهي المقصودة ، إذ الآية في السجود كانت ، والله أعلم .

على تقدير سؤال وقع جواباً له ، كأن يعقوب عليه السلام قال له عند قوله (إني رأيت أحد عشر كوكبا) كيف رأيتها سائلا عن حال رؤيتها ؟ فقال (رأيتهم لى ساجدين) . فإن قلت . فلم أجريت مجرى العقلاء فى رأيتهم لى ساجدين ؟ قلت : لأنه لما وصفها بما هو خاص بالعقلاء وهو السجود . أجرى عليها حكمهم ، كأنها عاقلة ، وهذا كثير شائع فى كلامهم ، أن يلبس الشيء الشيء من بعض الوجوه ، فيعطى حكما من أحكامه إظهاراً لأثر الملابس والمقاربة .

قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّمَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

عرف يعقوب عليه السلام دلالة الرؤيا على أن يوسف يبلغه الله مبلغاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوّة ، وينم عليه بشرف الدارين ، كما فعل بآبائه ، تخاف عليه حسد الإخوة وبغهم . والرؤيا بمعنى الرؤية ؛ إلا أنها مختصة بما كان منها فى المنام دون اليقظة ، فرق بينهما بحرفى التانيث كما قيل : القرية والقري . وقرئ : رويك ، بقلب الهمزة واوا . وسمع الكسائي : رِيَاكَ وَرِيَاكَ ، بالإدغام وضم الراء وكسرها ، وهى ضعيفة ؛ لأن الواو فى تقدير الهمزة فلا يقوى إدغامها كالم يقوى الإدغام فى قولهم «اتزر» من الإزار ، و«انجر» من الأجر (فيكيدوا) منصوب بإضمار «أن» ، والمعنى : إن قصصتها عليهم كادوك : فإن قلت : هلا قيل : فيكيدوك ، كما قيل : فيكيدونى ؟ قلت : ضمن معنى فعل يتعدى باللام ، ليفيد معنى فعل الكيد ، مع إفادة معنى الفعل المضمن ، فيكون آكد وأبلغ فى التخويف ، وذلك نحو : فيحتالوا لك . ألا ترى إلى تأكيده بالمصدر ﴿عدو مبين﴾ ظاهر العداوة لما فعل بآدم وحواء ، ولقوله (لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم) فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر ، ليورط من يحمله ، ولا يؤمن أن يحملهم على مثله ﴿وكذلك﴾ ومثل ذلك الاجتناء ﴿يجتنبك ربك﴾ يعنى وكما اجتنبك لمثل هذه الرؤيا العظيمة الدالة على شرف وعز وكبرياء شأن ، كذلك يجتنبك ربك لأمور عظام . وقوله ﴿ويعلِّمك﴾ كلام مبتدأ غير داخل فى حكم التشبيه ، كأنه قيل : وهو يعلِّمك ويتم نعمة عليك . والاجتناء . الاصطفاء ، افتعال من جيت الشيء إذا حصلته لنفسك ، وجيت المساء فى الحوض : جمعه . والاحاديث : الرؤيا : لأن الرؤيا إما حديث نفس أو ملك أو شيطان . وتأويلها . عبارتها وتفسيرها ، وكان يوسف عليه السلام أعبر الناس للرؤيا ، وأصحهم

عبارة لها . ويجوز أن يراد بتأويل الأحاديث معاني كتب الله وسنن الأنبياء ، وما غمض واشتبه على الناس من أغراضها ومقاصدها ، يفسرها لهم ويشرحها ويدلهم على مودعات حكمها . وسميت أحاديث ؛ لأنه يحدث بها عن الله ورسله ، فيقال : قال الله وقال الرسول كذا وكذا . ألا ترى إلى قوله تعينالى ( فبأى حديث بعده يؤمنون ) ، ( الله نزل أحسن الحديث ) وهو اسم جمع للحديث وليس بجمع أحداثه . ومعنى إتمام النعمة عليهم أنه وصل لهم نعمة الدنيا بنعمة الآخرة ، بأن جعلهم أنبياء فى الدنيا وملوكا . ونقلهم عنها إلى الدرجات العلا فى الجنة . وقيل : أتمها على إبراهيم بالخلة ، والإنجاء من النار ، ومن ذبح الولد . وعلى إسحق بإنجائه من الذبح ، وفدائه بذبح عظيم ، وبإخراج يعقوب والاسباط من صلبه . وقيل : علم يعقوب أن يوسف يكون نبياً وإخوته أنبياء استدلالاً بضوء الكواكب ، فلذلك قال ( وعلى آل يعقوب ) وقيل : لما بلغت الرؤيا إخوة يوسف حسدوه وقالوا : ما رضى أن يسجد له إخوته حتى يسجد له أبواه . وقيل : كان يعقوب مؤثراً له بزيادة المحبة والشفقة لصغره ، ولما يرى فيه من الخايل . وكان إخوته يحسدونه ، فلما رأى الرؤيا ضاعف له المحبة ، فكان يضمه كل ساعة إلى صدره ولا يصبر عنه ، فتبالغ فيهم الحسد . وقيل : لما قص رؤياه على يعقوب قال : هذا أمر مشئت بجمع الله لك بعد دهر طويل . وآل يعقوب : أهله وهم نسله وغيرهم . وأصل آل : أهل ، بدليل تصغيره على أهيل ، إلا أنه لا يستعمل إلا فيمن له خطر . يقال : آل النبي ، وآل الملك . ولا يقال : آل الحائك ، ولا آل الحجام ، ولكن أهلها . وأراد بالآبوين : الجد ، وأبا الجد ؛ لأنهما فى حكم الأب فى الأصلة . ومن ثم يقولون : ابن فلان ، وإن كان بينه وبين فلان عدة . و ( إبراهيم وإسحق ) عطف ببيان لأبويك ( إن ربك عليم ) يعلم من يحق له الاجتناء ( حكيم ) لا يتم نعمته إلا على من يستحقها .

### لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِلْمُتَلَكِّينَ ٧

( فى يوسف وإخوته ) أى فى قصتهم وحديثهم ( آيات ) علامات ودلائل على قدرة الله وحكمته فى كل شيء ( للمتلكين ) لمن سأل عن قصتهم وعرفها . وقيل آيات على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم للذين سألوه من اليهود عنها ، فأخبرهم بالصحة من غير سماع من أحد ولا قراءة كتاب . وقرئ : آية ، وفى بعض المصاحف : عبرة . وقيل : إنما قص الله تعالى على النبي عليه الصلاة والسلام خبر يوسف وبغى إخوته عليه ، لما رأى من بغى قومه عليه ليتأسى به . وقيل أساميتهم : يهوذا : وروبييل ، وشمعون ، ولاوى ، وربالون ، ويشجر ، ودينه ، ودان ، ونفتالى ، وجاد ، وآشر : السبعة الأولون كانوا من ليا بنت خالة يعقوب ، والأربعة الآخرون من سريتين : زلفة ، وبلهة :

فلما توفيت ليا تزوج أختها راحيل ، فولدت له بنيامين ويوسف .

إِذْ قَالُوا لْيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ آبَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ آبَانَا لَفِي

ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾

(ليوسف) اللام للابتداء . وفيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة . أرادوا أن زيادة محبة لها أمر ثابت <sup>(١)</sup> لا شبهة فيه (وأخوه) هو بنيامين . وإنما قالوا أخوه وهم جميعاً لإخوته ، لأن أمهما كانت واحدة . وقيل (أحب) في الاثنين ، لأن أفعل من لا يفرق فيه بين الواحد وما فوقه ، ولا بين المذكر والمؤنث إذا كان معه ومن ، ولا بد من الفرق مع لام التعريف ، وإذا أضيف جاز الأمران . والواو في (ونحن عصبه) واو الحال . يعنى : أنه يفضلهما في المحبة علينا ، وهما اثنان صغيران لا كفاية فيهما ولا منفعة ، ونحن جماعة عشرة رجال كفاة نقوم بمراقبته ، فنحن أحقّ بزيادة المحبة منهما ، لفضلنا بالكثرة والمنفعة عليهما (إن آبانا لفي ضلال مبين) أى في ذهاب عن طريق الصواب في ذلك . والعصبة والعصابة : العشرة فصاعداً . وقيل : إلى الأربعين ، سمو بذلك لأنهم جماعة تعصب بهم الأمور ويستكفون الثواب . وروى النزال بن سبرة عن علي رضي الله عنه : ونحن عصبه . بالنصب . وقيل : معناه ونحن نجتمع عصبه . وعن ابن الأنباري هذا كما تقول العرب : إنما العامري عمته ، أى يتعهد عمته .

أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَيِّكُمْ وَتَكُونُوا مِنَ

بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾

(١) قال محمود : واللام للتوكيد ، دخلت للاشعار بأن زيادة محبة أبيهم لها أمر ثابت ... الخ . قال أحمد : وهذه تؤيد قراءة ابن مروان (هؤلاء بناتى من أظهر لكم) بالنصب . وقد قال سيويه فيها : احتج ابن مروان في لحنه ، أى تمسك . وحيث تأيدت بقراءة أمير المؤمنين كرم الله وجهه ، فلا بد من الناس الحمل الصحيح لها وليس ذلك يبعد إن شاء الله فنقول : لو قالوا «ليوسف وأخوه أحب إلى آبينا منا ونحن نحن» على طريقة :

• أنا أبو النجم وشعري شعري •

ونحو : أنا أنا وأنت أنت . لم يكن في فصاحته مقال : وقد علمت أن معنى أنا أنا : أى أنا الموصوف بالأوصاف الشهيرة التى استغنى عن ذكرها ، فلا بد من الحالة هذه في حذف الخبر ، لمساواته المبتدأ وعدم زيادته عليه لفظاً ، وراحة من تكرار اللفظ بعينه ، والسياق يرشد إلى المحذوف ، وإذا كان كذلك فنقول القائلين (ليوسف وأخوه أحب إلى آبينا منا ونحن) معناه : ونحن نحن ، ولكن استغنوا عن الخبر للمرا الذى ذكرناه ، فقولهم : (نحن) كلام تام بالتقدير المذكور ، فلا غرو في وقوع الحال بعده ، وهذا بعينه يجرى في قوله (هؤلاء بناتى من أظهر لكم) فقوله (من) في حكم الكلام التام . والمراد : هؤلاء بناتى من المشهورات بالأوصاف الحيدة الظاهرة . وأصل الكلام : من ، فوقع الحال بعد التام ، والله أعلم .

﴿اقتلوا يوسف﴾ من جملة ما حكى بعد قوله: إذ قالوا، كأنهم أطبقوا على ذلك إلا من قال ﴿لا تقتلوا يوسف﴾ وقيل: الأمر بالقتل شمعون، وقيل: دان، والباقي كانوا راضين، فجعلوا أمرين ﴿أرضاً﴾ أرضاً منكورة مجهولة بعيدة من العمران، وهو معنى تنكيرها وإخلائها من الوصف، وإلهاؤها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المهمة ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ يقبل عليكم إقبالة واحدة لا يلتفت عنكم إلى غيركم. والمراد: سلامة محبته لهم بمن يشاركون فيها وينازعونهم إياها، فكان ذكر الوجه لتصوير معنى إقباله عليهم؛ لأن الرجل إذا أقبل على الشيء أقبل بوجهه. ويجوز أن يراد بالوجه الذات، كما قال تعالى (ويبقى وجه ربك) وقيل (يخل لكم) يفرغ لكم من الشغل يوسف ﴿من بعده﴾ من بعد يوسف، أى من بعد كفايته بالقتل أو التغريب، أو يرجع الضمير إلى مصدر اقتلوا أو اطرخوا ﴿قوما صالحين﴾ تائبين إلى الله عما جئتم عليه. أو يصلح ما بينكم وبين أبيكم بعذر تهمدونه. أو تصلح دنياكم وتنتظم أموركم بعده بخلو وجه أبيكم. و﴿تكونوا﴾ إما مجزوم عطفاً على (يخل لكم) أو منصوب بإضمار «أن والواو» بمعنى مع، كقوله (وتكتموا الحق).

قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَاقُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ قَاعِلِينَ ١٠

﴿قائل منهم﴾ هو يهوذا، وكان أحسنهم فيه رأياً. وهو الذى قال: فلن أبرح الأرض. قال لهم: القتل عظيم ﴿ألقوه في غيابة الجب﴾ وهى غوره وما غاب منه عن عين الناظر وأظلم من أسفله. قال المنخل:

وَإِنِّ أَنَا يَوْمًا غَوَّبْتُ غَيَّابَتِي فَسِيرُوا بِسَيْرِي فِي الْعَشِيرَةِ وَالْأَهْلِ (١)

أراد غيابة حفرة التى يدفن فيها. وقرئ غيابات، على الجمع. وغيابات، بالتشديد. وقرأ الجحدري: غيبة. والجب: البئر لم تطو، لأن الأرض تجب جبالاً لا غير ﴿يلتقطه﴾ يأخذه بعض السيارة بعض الأقدام الذين يسرون فى الطريق. وقرئ: تلتقطه. بالتاء على المعنى؛ لأن بعض السيارة سيارة، كقوله:

\* كَمَا شَرِقَتْ صَدْرُ الْقَنَازَةِ مِنَ الدَّمِ \* (٢)

(١) للمنخل. والغياة: ما غاب عن الناظر من أسفل البئر ونحوه. يقول: وإن غيبتى مقبرتى، كناية عن موته، فسيروا بسيرى، أى فانونى وسيروا بذكر خصالى، على عادة العرب إذا مات منها رئيس. ويحتمل أنه يوصى أقربيه بالخير، وأنهم يسرون بمثل سيره، ويقبلون كفهله فى جيرانه وقرباته.

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٣٩٥ فراجع إن شئت اه مصححه

ومنه : ذهبت بعض أصابعه ﴿إن كنتم فاعلين﴾ إن كنتم على أن تفعلوا ما يحصل به غرضكم ، فهذا هو الرأي .

قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَنَحْفُظُونَ ﴿١٢﴾

﴿مالك لا تأمن﴾ قرئ بإظهار التنوين ، وبالإدغام بإشمام وبغير إشمام . و : تيمنا : بكسر التاء مع الإدغام . والمعنى : لم تخافنا عليه ونحن نريد له الخير ونحبه ونشفق عليه ؟ وما وجد منا في بابه ما يدل على خلاف النصيحة والمقة <sup>(١)</sup> وأرادوا بذلك لما عزموا على كيد يوسف استنزاله عن رأيه وعادته في حفظه منهم . وفيه دليل على أنه أحسن منهم بما أوجب أن لا يأمنهم عليه ﴿ترتع﴾ تنسع في أكل الفواكه وغيرها . وأصل الرتعة : الخصب والسعة . وقرئ : ترتع ، من ارتعى يرتعى . وقرئ : يرتع ويلعب ، بالياء ، ويرتع ، من ارتع ماشيته . وقرأ العلامة بن سيابة : يرتع بكسر العين ، ويلعب ، بالرفع على الابتداء . فإن قلت : كيف استجاز لهم يعقوب عليه السلام اللعب ؟ قلت : كان لعبهم الاستباق والانتضال . ليضروا أنفسهم بما يحتاج إليه لقتال العدو لا للهو ، بدليل قوله ﴿إنا ذهبنا نستبق﴾ وإنما سموه لعباً لأنه في صورته .

قَالَ إِنِّي لَحَزُنْتُيَ أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾

﴿ليحزنني﴾ اللام لام الابتداء ، كقوله ﴿إن ربك ليحكم بينهم﴾ ودخولها أحد ما ذكره سيويه من سببي المضارعة . اعتذر إليهم بشيئين ، أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقتها إياه بما يحزنه ، لأنه كان لا يصبر عنه ساعة . والثاني : خوفه عليه من عدوة الذئب إذا غفلوا عنه <sup>(٢)</sup> برعيهم ولعبهم ، أو قل به اهتمامهم ولم تصدق بحفظه عنايتهم . وقيل : رأى في النوم أن الذئب قد شذ على يوسف فكان يحذره ، فمن ثم قال ذلك فلحقهم العلة ، وفي أمثالهم : «البلاء موكل بالمنطق» . وقرئ (الذئب) بالهمزة على الأصل وبالتخفيف . وقيل : اشتقاقه من «تذاءبت الرياح» إذا أتت من كل جهة .

(١) قوله «ما يدل على خلاف النصيحة والمقة» أي الحجة . وقد وقع يمه ، بالكسر فهما : أي أحبه ، فهو واثق ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : «اعتذر لهم بأمرين : أحدهما حزنه لمفارقتها ، والثاني خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه ... الخ» قال أحد : وكان أشغل الأمرين لقلبه خوف الذئب عليه ، لأنه مظنة هلاكه . وأما حزنه لمفارقتها فربما يرتع ويلعب ويعدو سالماً إليه عما قليل ، فأمر سهل : فكأنهم لم يشتغلوا إلا بتأمينه وتطمينه من أشد الأمرين عليه ، والله أعلم .

قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذَّنْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا خَاسِرُونَ ﴿١٤﴾

القسم محذوف تقديره : والله ﴿لئن أكله الذنب﴾ واللام موطئة للقسم . وقوله ﴿إننا إذا لخاسرون﴾ جواب للقسم مجزئ عن جزاء الشرط ، والواو في ( ونحن عصبه ) واو الحال : حلقوا له لئن كان ماخافه من خطفة الذنب أخاهم من بينهم - وحالهم أنهم عشرة رجال ، يمثلهم تعصب الأمور وتكفي الخطوب - إنهم إذا لقوم خاسرون ، أى هالكون ضعفاً وخوراً وعجزاً . أو مستحقون أن يهلكوا لأنه لا غناء عندهم ولا جدوى في حياتهم . أو مستحقون لأن يدعى عليهم بالخسارة والدمار ، وأن يقال : خسروهم الله ودمروهم حين أكل الذنب بعضهم وهم حاضرون . وقيل : إن لم تقدر على حفظ بعضنا فقد هلكت مواشينا إذا وخسرناها . فإن قلت : قد اعتذر إليهم بعدذين ، فلم أجابوا عن أحدهما دون الآخر ؟ قلت : هو الذى كان يغيبهم ويذيقهم الأملين<sup>(١)</sup> فأعاروه أذناناً صماً ولم يعبئوا به .

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ

بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

﴿أن يجعلوه﴾ مفعول (اجمعوا) من قولك : أجمع الامر وأزمعه (فأجمعوا أمركم) . وقرئ : في غيبات الجب : قيل هو بئر بيت المقدس . وقيل : بأرض الأردن . وقيل : بين مصر ومدين . وقيل : على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب . وجواب لما ، محذوف . ومنه : فعلوا به ما فعلوا من الأذى ، فقد روى أنهم لما برزوا به إلى البرية أظهروا له العداوة وأخذوا يهينونه ويضربونه ، وكلما استغاث بواحد منهم لم يغثه إلا بالإهانة والضرب ، حتى كادوا يقتلونه . فجعل يصيح : يا ابتاه ، لو تعلم ما يصنع بابنك أو لاد الإماء ، فقال يهوذا : أما أعطيتهم موني موثقاً ألا تقتلوه فلما أرادوا إلقائه في الجب تعلق بثيابهم فزعرها من يده ، فتعلق بجائط البئر فربطوا يديه ونزعوا فيصه . فقال : يا إخوتاه ، ردوا على قميصي أنوارى به ، وإنما نزعه ليلطخوه بالدم ويحتالوا به على أبيهم ، فقالوا له : ادع الشمس والقمر والأحد عشر كوكبا تونسك ، ودلوه في البئر ، فلما بلغ نصفها ألقوه ليموت ، وكان في البئر ماء فسقط فيه ، ثم أوى إلى صخرة فقام عليها وهو يبكي ، فنادوه فظن أنها رحمة أدركتهم ، فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه ليقتلوه فشنعهم يهوذا ، وكان

(١) قوله ويذيقهم الأمرين ، الأمرين - بنون الجمع - : الدواهي ، كذا بهامش . وفي الصحاح : الأمران : الفقر والحرم . وفيه أيضاً : الأمر : المهاجرين مجتمع فيها القرب . قال الشاعر :

فلا تهتد الأمر وما يليه ولا تهتد معروف العظام

وقال أبو زيد : لفيت منه الأمرين ، بنون الجمع : وهي الدواهي اهـ (ع)

يهودا يأتيه بالطعام . ويرى أن إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار وجرد عن ثيابه أتاه جبريل بقميص من حرير الجنة فألبسه إياه ، فدفعه إبراهيم إلى إسحق ، وإسحق إلى يعقوب ، فجعله يعقوب في تيممة علقها في عنق يوسف ، فجاء جبريل فأخرجه وألبسه إياه ﴿ وأوحينا إليه ﴾ قيل أوحى إليه في الصغر كما أوحى إلى يحيى وعيسى : وقيل كان إذ ذاك مدركا . وعن الحسن : كان له سبع عشرة سنة ﴿ لننبئهم بأمرهم هذا ﴾ وإنما أوحى إليه ليؤنس في الظلمة والوحشة ، ويشير بما يؤول إليه أمره . ومعناه : لتتخلصن مما أنت فيه ، ولتحدثن إخوتك بما فعلوا بك ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ أنك يوسف لعلو شأنك وكبرياء سلطانك ، وبعد حالك عن أوهامهم ، ولطول العهد المبذل للهيات والاشكال ، وذلك أنهم حين دخلوا عليه بمتارين ففرهم وهم له منكرون ، دعا بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فطن فقال : إنه ليخبرني هذا الجام أنه كان لكم أخ من أئكم يقال له يوسف ، وكان يدينه دونكم ، وأنكم انطلقتم به وألقيتموه في غيابة الجب ، وقلتم لأئكم : أكله الذئب ، وبعتموه بشمن نجس . ويجوز أن يتعلق ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ بقوله ﴿ وأوحينا ﴾ على أننا أنسناه بالوحى وأزلنا عن قلبه الوحشة ، وهم لا يشعرون ذلك ويحسبون أنه مرهق مستوحش لا أنيس له . وقرئ : لننبئهم ، بالنون على أنه وعيد لهم . وقوله ﴿ وهم لا يشعرون ﴾ متعلق بأوحينا لا غير .

وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا فَاكْلَهُ الذَّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾

وعن الحسن : عشيا ، على تصغير عشي . يقال : لقيته عشيا وعشيانا ،<sup>(١)</sup> وأصيلا وأصيلانا ورواه ابن جني : عشى ، بضم العين والقصر . وقال عشوا من البكاء . وروى أن امرأة حاكت إلى شريح فبكت ، فقال له الشعبي : يا أبا أمية ، أما تراها تبكي ؟ فقال : قد جاء إخوة يوسف ليكون وهم ظلمة : ولا ينبغي لأحد أن يقضى إلا بما أمر أن يقضى به من السنة المرضية . وروى أنه لما سمع صوتهم<sup>(٢)</sup> فرح وقال : ما لكم يا بني ؟ هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا : لا . قال : فالكم وأين يوسف ؟ ﴿ قالوا يا أبا نانا إنا ذهبنا نستبق ﴾ أي تنساق ، والافتعال والتفاعل يشتركان

(١) قوله « يقال : لقيته عشيا وعشيانا » وهذا لو حذف نونه صار عشيا ، كقراءة الحسن . (ع)

(٢) قال محمود : « روى أنه لما سمع أصواتهم قال : يا بني ، هل أصابكم في غنمكم شيء ؟ قالوا لا ... الخ » قال أحمد : وقواه على اتهامهم أنهم ادعوا الوجه الخاص الذي خاف يعقوب عليه السلام هلاكه بسببه أولا ، وهو أكل الذئب إياه ، فاتهمهم أن يكونوا تلقفوا العذر من قوله لهم (وأخاف أن يأكله الذئب) وكثيرا ما تلقف الأعذار الباطلة من قلق في المخاطب المعتذر إليه ، حتى كان بعض أمراء المؤمنين يلقنون السارق الإنكار .



كالاتصال والتناضل : والارتقاء والتراعى ، وغير ذلك . والمعنى . تنسابق في العدو أو في الرمي .  
وجاء في التفسير : نتفضل ﴿ بمؤمن لنا ﴾ بمصدق لنا ﴿ ولو كنا صادقين ﴾ ولو كنا عندك  
من أهل الصدق والثقة ، لشدة محبتك ليوسف ، فكيف وأنت سيئ الظن بنا ، غير واثق بقولنا ؟  
وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً قَصِيراً  
جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

﴿ بدم كذب ﴾ ذى كذب . أو وصف بالمصدر مبالغة ، كأنه نفس الكذب وعينه ، كما  
يقال للكذاب : هو الكذب بعينه ، والزور بذاته . ونحوه :

\* فَهِنَّ بِهٖ جُودٌ وَأَنْتُمْ بِهٖ بُخْلٌ \*

وقرئ ، كذباً . نصباً على الحال ، بمعنى : جاءوا به كاذبين ، ويجوز أن يكون مفعولاً له .  
وقرأت عائشة رضی الله عنها : كذب ، بالدال غير المعجمة ، أى كدر . وقيل : طرى ، وقال ابن  
جنى : أصله من الكذب ، وهو الفوف <sup>(١)</sup> البياض الذى يخرج على أظفار الأحداث . كأنه دم  
قد أثر في قميصه . روى أنهم ذبحوا سخله ولطخوه بدمها ، وزل عنهم أن يمزقوه . وروى أن  
يعقوب لما سمع بخبر يوسف صاح بأعلى صوته وقال : أين القميص ؟ فأخذه وألقاه على وجهه  
وبكى حتى خضب وجهه بدم القميص وقال : تالله ما رأيت كاليوم ذنباً أحلم من هذا ، أكل ابني  
ولم يمزق عليه قميصه . وقيل كان في قميص يوسف ثلاث آيات : كان دليلاً ليعقوب على كذبهم ،  
وألقاه على وجهه فارتد بصيراً ، ودليلاً على براءة يوسف حين قذفه من دبر . فإن قلت : (على قميصه)  
ما محله ؟ قلت : محله النصب على الظرف ، كأنه قيل : وجاءوا فوق قميصه بدم كما تقول : جاء على  
جماله بأحمال . فإن قلت : هل يجوز أن تكون حالاً متقدمة ؟ قلت : لا ، لأن حال المجرور  
لا تتقدم عليه ﴿ سَوَّلَتْ ﴾ سهلت من السول وهو الاسترخاء ، أى : سهلت ﴿ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً ﴾  
عظيماً ارتكبتموه من يوسف وهوته في أعينكم : استدلل على فعلهم به بما كان يعرف من حسدهم  
وبسلامة القميص . أو أوحى إليه بأنهم قصدوه ﴿ فصبر جميل ﴾ خبر أو مبتدأ ، لكونه موصوفاً  
أى فأمرى صبر جميل ، أو فصبر جميل أمثل . وفى قراءة أبى : فصبراً جميلاً . والصبر الجميل جاء  
في الحديث المرفوع ، أنه الذى لا شكوى فيه إلى الخلق ، <sup>(٢)</sup> ألا ترى إلى قوله (إنما أشكوا بشى وحزنى

(١) قوله «وهو الفوف البياض» عبارة الصحاح : الفوف البياض الذى يكون في أظفار الأحداث اه ، فجعل

البياض خبراً عن الفوف وتفسيره له ، فلمله هنا : أى البياض . (غ)

(٢) أخرجه الطبرى من طريق حيان بن أبى حنبل قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله (فصبر

جميل) قال : «صبر لا شكوى فيه . من بث لم يصبر» هذا مرسل .

إلى الله) وقيل: لا أعاشكم على كآبة الوجه، بل أكون لكم كما كنت. وقيل: سقط حاجبا يعقوب على عينيه فكان يرفعهما بعصاة، فقيل له: ما هذا؟ فقال: طول الزمان وكثرة الأحزان. فأوحى الله تعالى إليه: يا يعقوب أتشكوني؟ قال: يارب. خطيئة فاغفرها لي (والله المستعان) أى أستعينه (على) احتمال (ما تصفون) من هلاك يوسف وانصر على الرزء فيه.

وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَامٌ  
وَأَسْرُوهُ بِضَعَّةٍ ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾

(وجاءت سيارة) رفقة تسير من قبل مدين إلى مصر، وذلك بعد ثلاثة أيام من إلقاء يوسف في الجب، فأخطئوا الطريق فنزلوا قريباً منه، وكان الجب في قفرة بعيدة من العمران لم يكن إلا للرعاة. وقيل: كان ماؤها ملحاً. فعذب حين ألقى فيه يوسف (فأرسلوا) رجلاً يقال له مالك ابن ذعر الخزاعي، ليطلب لهم الماء. والوارد: الذى يرد الماء ليستقي للقوم (يا بشرى) نادى البشرى، كأنه يقول: تعالى، فهذا من آوتك. وقرئ: يا بشرى، على إضافتها إلى نفسه. وفي قراءة الحسن وغيره: يا بشرى، بالياء مكان الألف، جعلت الياء بمنزلة الكسرة قبل ياء الإضافة، وهى لغة للعرب مشهورة سمعت أهل السروات يقولون فى دعائهم: يا سيدي ومولى. وعن نافع: يا بشرى بالسكون، وليس بالوجه لما فيه من التقاء الساكنين على غير حذو، إلا أن يقصد الوقف. وقيل: لما أدلى دلوه أى أرسلها فى الجب تعلق يوسف بالحبل، فلما خرج إذا هو بغلام أحسن ما يكون، فقال: يا بشرى (هذا غلام) وقيل: ذهب به، فلما دنا من أصحابه صاح بذلك يبشرهم به (وأسروه) الضمير للوارد وأصحابه: أخفوه من الرفقة. وقيل: أخفوا أمره ووجدانهم له فى الجب، وقالوا لهم: دفعه إلينا أهل الماء لتبيعه لهم بمصر. وعن ابن عباس أن الضمير لإخوة يوسف، وأنهم قالوا للرفقة هذا غلام لنا قد أبق فاشروه منا، وسكت يوسف مخافة أن يقتلوه. و(بضاعة) نصب على الحال، أى: أخفوه متاعاً للتجارة. والبضاعة: ما يوضع من المال للتجارة، أى قطع (والله عليم بما يعملون) لم يخف عليه أسرارهم، وهو وعيد لهم حيث استبضعوا ما ليس لهم. أو: والله عليم بما يعمل إخوة يوسف بأبيهم وأخيهم من سوء الصنيع.

وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾

(وشروه) وباعوه (بثمن بخص) مبخوس ناقص عن القيمة نقصاناً ظاهراً، أو زيف

ناقص العيار (دراهم) لا دنانير (معدودة) قليلة<sup>(١)</sup> تعدّ عدّاً ولا توزن ، لأنهم كانوا لا يزنون إلا ما بلغ الأوقية وهي الأربعون ، ويعدون ما دونها . وقيل للقليلة معدودة : لأن الكثرة يمتنع من عدّها لكثرتها . وعن ابن عباس : كانت عشرين درهماً . وعن السدي : اثنين وعشرين (وكانوا فيه من الزاهدين) ممن يرغب عما في يده فيبيعه بما طف من الثمن<sup>(٢)</sup> لأنهم التقطوه ، والمثلث للشيء متهاون به لا يبالى بمباعه ، ولأنه يخاف أن يعرض له مستحق ينزعه من يده فيبيعه من أول مساوم بأوكس الثمن . ويجوز أن يكون معنى (وشروه) واشتروه ، يعنى الرفقة من إخوته (وكانوا فيه من الزاهدين) لأنهم اعتقدوا أنه آبق غافوا أن يخطروا بهم فيهم . ويروى أن إخوته اتبعوهم يقولون لهم : استوثقوا منه لا يآبق . وقوله (فيه) ليس من صلة (الزاهدين) لأن الصلة لا تتقدم على الموصول . ألا تراك لا تقول : وكانوا زيدا من الضارين ، وإنما هو بيان ، كأنه قيل : في أي شيء زهدوا ؟ فقال : زهدوا فيه .

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِمَرْأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا  
أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ  
الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾

(الذى اشتراه) قيل هو قطفير أو أطفير، وهو العزيز الذى كان على خزائن مصر، والملك يوسف الرمان بن الوليد رجل من العالقي، وقد آمن بيوسف ومات في حياة يوسف، فلك بعده قابوس بن مصعب، فدعاه يوسف إلى الإسلام فأبى، واشتراه العزيز وهو ابن سبع عشرة سنة، وقام في منزله ثلاث عشرة سنة، واستوزره رمان بن الوليد وهو ابن ثلاثين سنة، وآناه الله العلم والحكمة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، وتوفي وهو ابن مائة وعشرين سنة. وقيل : كان الملك في أيامه فرعون موسى، عاش أربعائة سنة بدليل قوله (ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات) وقيل : فرعون موسى من أولاد فرعون يوسف. وقيل : اشتراه العزيز بعشرين ديناراً وزوجى نعل وثوبين أبيضين. وقيل : أدخلوه السوق يعرضونه فترافعوا في ثمنه، حتى بلغ ثمنه وزنه

(١) قال محمود : « المددودة كناية عن القليلة ... الخ » قال أحمد : ومن التمييز عن القلة بالعدد : الدعوة المأثورة على الكفرة : « اللهم أحصهم عددا ، واحتاصلهم بددا ولا تبق منهم أحداً ، فالمدعوبه وإن كان إحصاءهم عدداً في الظاهر ، إلا أن هذا ليس مراداً لأن الله تعالى أحصى كل شيء عدداً وأحاط به علماً ، فلا بد من مقصود وراء ذلك وهو لازم العدد وذلك القلة ، فلما كان كل قليل معدوداً وكل كثير غير معدود ، دعى عليهم بالقلة وعبر عنها بلازمها وهو الإحصاء . والله أعلم .

(٢) قوله « فيبيعه بما طف من الثمن » أي قل . وفي الصحاح : الطافيف القليل . (ع)

مسكا وورقا وحريراً ، فابتاعه قبطير بذلك المبلغ ﴿أكرمى مثواه﴾ اجعلنى منزله ومقامه عندنا كريماً ، أى حسناً مرضياً ، بدليل قوله (إنه ربي أحسن مثواى) والمراد تفقديه بالإحسان وتعهديه بحسن الملكة ، حتى تكون نفسه طيبة في صحبتنا ، ساكنة في كنفنا . ويقال للرجل : كيف أبو مثواك وأم مثواك لمن ينزل به من رجل أو امرأة ، يراد : هل تطيب نفسك بثوائك عنده ، وهل يراعى حق نزولك به . واللام في (لامراته) متعلقة بقال ، لا باشتراه ﴿عسى أن ينفعنا﴾ لعله إذا تدرّب وراض الأامور وفهم مجاريها ، نستظهر به على بعض ما نحن بسبيله ، فينفعنا فيه بكفايته وأمانته . أو تنبأه ونقمه مقام الولد ، وكان قبطير عقياً لا يولد له ، وقد تفرس فيه الرشد فقال ذلك . وقيل : أفرس الناس ثلاثة : العزيز حين تفرس في يوسف ، فقال لامراته (أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا) والمرأة التى أتت موسى وقالت لآبيها (ياأبت استأجره) وأبو بكر حين استخلف عمر رضى الله عنهما . وروى أنه سأله عن نفسه ، فأخبره بنسبه فعرفه ﴿وكذلك﴾ الإشارة إلى ما تقدم من إنجائه وعطف قلب العزيز عليه ، والكاف منصوب تقديره : ومثل ذلك الإنجاء والعطف ﴿مكننا﴾ له ، أى : كما أنجيناك وعطفنا عليه العزيز ، كذلك مكننا له في أرض مصر وجعلناه ملكاً يتصرف فيها بأمره ونهيه ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ كان ذلك الإنجاء والتمكين لأن غرضنا ليس إلا ما تحمد عاقبته من علم وعمل ﴿والله غالب على أمره﴾ على أمر نفسه : لا يمنع عما يشاء ولا ينازع ما يريد ويقضى . أو على أمر يوسف بدبره لا يكله إلى غيره ، قد أراد إخوته به ما أرادوا ، ولم يكن إلا ما أراد الله ودبره ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أن الأمر كله بيد الله .

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

قبل في الأشد : ثمانى عشرة ، وعشرون ، وثلاث وثلاثون ، وأربعون . وقيل : أقصاه ثنتان وستون ﴿حكماً﴾ حكمة وهو العلم بالعمل واجتناب ما يجهل فيه . وقيل : حكماً بين الناس وفقها ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ تنبيه على أنه كان محسناً في عمله ، متقياً في عتقوا ن أمره ، وأن الله آتاه الحكم والعلم جزاء على إحسانه . وعن الحسن : من أحسن عبادة ربه في شيبته آتاه الله الحكمة في اكتهاله .

وَرَأَوْنَاهُ أَلْتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْت لَكَ

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾

المرأودة : مفاعلة ، من راد يرود إذا جاء وذهب ، كأن المعنى : خادعته عن نفسه ، أى :

فعلت ما يفعل المخادع لصاحبه عن الشيء الذي لا يريد أن يخرج من يده ، يحتمل أن يقلبه عليه ويأخذه منه ، وهى عبارة عن التحمل لمواقفته إياها (وغلقت الأبواب) قيل : كانت سبعة . وقرئ (هيت) بفتح الهاء وكسرهما مع فتح التاء ، وبنائوه كبناء أين ، وعيط . وهيت كجبر وهيت كحيث . وهنت بمعنى تهايت . يقال : هاء يهيه ، كجاء ينجي . إذا تهايا . وهيت لك . واللام من صلة الفعل . وأما فى الأصوات ففليان <sup>(١)</sup> كأنه قيل : لك أقول هذا ، كما تقول : هلم لك (معاذ الله) أعوذ بالله معاذاً (إنه) (إن الشآن والحديث) (ربى) سيدى ومالكى ، يريد قطفير (أحسن مثواى) حين قال لك أكرمى مثواه ، فما جزاؤه أن أخلفه فى أهله سوء الخلافة وأخونه فيهم (إنه لا يفلح الظالمون) الذين يجاوزون الحسن بالسيئ . وقيل : أراد الزناة لأنهم ظالمون أنفسهم . وقيل : أراد الله تعالى ، لأنه مسبب الأسباب .

وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَمَّا بُرْهَنَ رَبِّهٖ كَذٰلِكَ لِنَبْعِرَفَ عَنْهُ

الشَّوْءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾

هم بالامر إذا قصده وعزم عليه . قال :

هَمَّتْ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكَذْتُ وَلَهْتَنِي تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَالَتُهُ <sup>(٢)</sup>

ومنه قولك : لا أفعل ذلك ولا أكيداً ولا هما . أى ولا أكاد أن أفعله كيداً ، ولا أهم بفعله هما ، حكاه سيبويه ، ومنه : الهمام وهو الذى إذا هم بأمر أمضاه ولم ينكل عنه . وقوله (ولقد همت به) معناه . ولقد همت بمخالطته (وهم بها) وهم بمخالطتها (لولا أن رأى برهان ربه) جوابه محذوف ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لمخالطتها ، لحذف : لأن قوله (وهم بها) يدل

(١) قوله «وأما فى الأصوات ففليان» فى الصحاح : هيت به وهوت به ، أى صاح به ودعاه . وفيه أيضاً

قولهم «هيت لك» أى هلم لك وفيه . هلم يارجل - بفتح الميم - : بمعنى تعال . (ع)

(٢) لعمر بن ضابط البرجمي ، دخل على عثمان وهو مقتول فوطئ بطنه وكسر ضلعه وقال : عزمت على قتل عثمان ولم أفعله ، وكذت أن أفعل وليتني قتلته . وكفى عن ذلك بقوله : «ترك على عثمان تبكي حلالته» وهو من باب التنازع . وأصله : تركت على عثمان حلالته تبكي فجعل حلالته فاعلاً . وحذف مفعول تركت الأول لعله من الكلام ، ولأنه فضلة وهى لا تضمر فى هذا الباب . والمعنى ليتني قتلته فصيرت نساء تبكي عليه ، ودخل هذا الرجل على الحجاج وقال : يا أمير المؤمنين : أنا شيخ ضعيف ، وخرج اسمي فى هذا البعث ، فاقبل ابني بديلاً عنى ففعله منه وخرج فقال عتبة بن سعيد : أيها الأمير ، هذا هو الذى فعل بعثمان كذا وكذا ، فقال : رده على ، فقال له : أيها الشيخ ، فلا بعثت إلى عثمان أمير المؤمنين بديلاً يوم الدار ؟ إن فى ذلك صلاحاً ، يا حريبي ، اضربا عنقه . أمر الحريبي بقتله وخاطبه خطاب ابني على لغة الحرس الذين نسب الخطاب إليهم هذا . وقيل : إن القصة مع ضابط نفسه ، وأن عثمان كان حبسه فى جهنم بنى نهشل ، فلما قتل عثمان أفلت وفعل به ذلك .

عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أني خفت الله ، معناه لولا أني خفت الله . فإن قلت : كيف جاز على نبي الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصد إليها ؟ قلت : المراد أن نفسه مالت إلى المخالطة ونازعت إليها عن شهوة الشباب وقرمه <sup>(١)</sup> ميلا يشبه الهم به والقصد إليه ، وكما تقتضيه صورة تلك الحال التي تكاد تذهب بالعقول والعزائم ، وهو يكسر ما به ويرده بالنظر في برهان الله المأخوذ على المكلفين من وجوب اجتناب المحارم ، ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى همًا لشدته لما كان صاحبه ممدوحا عند الله بالامتناع ؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته . ولو كان همه كهمها عن عزيمة ، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين . ويجوز أن يريد بقوله (وهم بها) وشارف أن يهم بها ، كما يقول الرجل : قتلته لو لم أخف الله ، يريد مشاركة القتل ومشافهته <sup>(٢)</sup> . كأنه شرع فيه فإن قلت : قوله (وهم بها) داخل تحت حكم القسم في قوله (ولقد هممت به) أم هو خارج منه ؟ قلت : الأمران جائزان . ومن حق القارئ إذا قدر خروجه من حكم القسم وجعله كلاما برأسه أن يقف على قوله (ولقد هممت به) وابتدئ قوله (وهم بها) لولا أن رأى برهان ربه) وفيه أيضاً إشعار بالفرق بين الهممين . فإن قلت : لم جعلت جواب لولا محذوفاً يدل عليه هم بها ، وهلا جعلته هو الجواب مقدما ؟ قلت : لأن لولا لا يتقدم عليها جوابها ، من قبل أنه في حكم الشرط ، وللشرط صدر الكلام وهو مع ما في حيزه من الجملتين مثل كلمة واحدة ، ولا يجوز تقديم بعض الكلمة على بعض . وأما حذف بعضها إذا دلّ الدليل عليه لجائز ، فإن قلت : فلم جعلت «لولا» متعلقة بهم بها وحده ولم تجعلها متعلقة بجملة قوله (ولقد هممت به وهم بها) لأن الهم لا يتعلق بالجواهر ولكن بالمعاني ، فلا بد من تقدير المخالطة والمخالطة لا تكون إلا من اثنين معاً ، فكأنه قيل : ولقد هما بالمخالطة لولا أن منع مانع أحدهما ؟ قلت : نعم ما قلت ، ولكن الله سبحانه وتعالى قد جاء بالهممين على سبيل التفصيل حيث قال (ولقد هممت به وهم بها) فكان إغفاله إلغاء له ، فوجب أن يكون التقدير . ولقد هممت بمخالطته وهم بمخالطتها ، على أن المراد بالمخالطتين توصلهما إلى ما هو حظها من قضاء شهوتها منه ، وتوصله إلى ما هو حظها من قضاء شهوته منها . لولا أن رأى برهان ربه ، فترك التوصل إلى حظها من الشهوة ؛ فلذلك كانت «لولا» حقيقة بأن تعلق بهم بها وحده ، وقد فسرهم يوسف بأنه حل الهميان وجلس منها مجلس الجامع ، وبأنه حل تسكة سراويله وقعد بين شعبها الأربع وهي مستلقية على قفاها ، وفسر البرهان بأنه سمع صوتاً : إياك وإياها ، فلم يكثر له ، فسمعها ثانياً فلم يعمل به ، فسمع ثالثاً : أعرض عنها ، فلم ينجع فيه حتى مثل له يعقوب

(١) قوله «وقرمه» أي شدة شهوته ، أفاده الصحاح .

(٢) قوله «مشافهته» لعله : ومشافهته .

عاضاً على أُنملته . وقيل : ضرب يده في صدره فخرجت شهوته من أنامله . وقيل : كل ولد يعقوب له اثنا عشر ولداً إلا يوسف ، فإنه ولد له أحد عشر ولداً من أجل ما نقص من شهوته حين هم ، وقيل : صبح به : يا يوسف ، لا تكن كالطائر : كان له ريش ، فلما زنى قعد لاريش له . وقيل : بدت كف فيما بينهما ليس لها عضد ولا معصم ، مكتوب فيها ( وإن عليكم لحافظين كراماً كاتبين ) فلم ينصرف ، ثم رأى فيها ( ولا تقر بوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلاً ) فلم ينته ، ثم رأى فيها ( واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ) فلم ينجع فيه ، فقال الله لجبريل عليه السلام : أدرك عبدى قبل أن يصيب الخطيئة ، فانحط جبريل وهو يقول : يا يوسف ، أتعلم عمل السفهاء وأنت مكتوب في ديوان الأنبياء ؟ وقيل : رأى تمثال العزير . وقيل : قامت المرأة إلى صنم كان هناك فسترته وقالت : أستحي منه أن يرانا . فقال يوسف : استحييت من لا يسمع ولا يبصر ، ولا أستحي من السميع البصير ، العليم بذوات الصدور . وهذا ونحوه . مما يورده أهل الحشو والجبر<sup>(١)</sup> الذين دينهم بهت الله تعالى وأنبيائه ، وأهل العدل والتوحيد ليسوا من مقالاتهم ورواياتهم بحمد الله بسبيل ، ولو وجدت من يوسف عليه السلام أدنى زلة لنعيت عليه وذكرت توبته واستغفاره ، كما نعيت على آدم زلته ، وعلى داود ، وعلى نوح ، وعلى أيوب . وعلى ذى النون ، وذكر توبتهم واستغفارهم ، كيف وقد أثى عليه وسمى مخلصاً ، فعلم بالقطع أنه ثبت في ذلك المقام الدحض ، وأنه جاهد نفسه مجاهدة أولى القوة والعزم ، ناظراً في دليل التحريم ووجه القبح ، حتى استحق من الله الثناء فيما أنزل من كتب الأولين ، ثم في القرآن الذى هو حجة على سائر كتبه ومضاد لها ، ولم يقتصر إلا على استيفاء قصته وضرب سورة كاملة عليها ، ليجعل له لسان صدق في الآخرين ، كما جملة لجده الخليل إبراهيم عليه السلام ، وليقتدى به الصالحون إلى آخر الدهر في العفة وطيب الإزار والثبوت في مواقف العثار ، فأخزى الله أولئك في إيرادهم ما يؤدى إلى أن يكون إنزال الله السورة التي هي أحسن القصص في القرآن العربى المبين ليقضى بنى من أنبياء الله ، في القعود بين شعب الزانية وفى حل تكته للوقوع عليها ، وفى أن ينباه ربه بثلاث كثرات ويصاح به من عنده ثلاث صيحات بقوارع القرآن ، وبالتوبيخ العظيم ، وبالوعيد الشديد ، وبالتشبيه بالطائر الذى سقط ريشه حين سفد غير أنثاه ، وهو جاثم فى مريضه لا يتحلجل ولا ينتهى ولا ينتبه ، حتى يتداركه الله بجبريل ويأجباره . ولو أن أوقع الزناة وأشطرهم وأحدهم حدة وأصلحهم وجهاً لى بأدنى مالتى به

(١) قوله مما يورده أهل الحشو والجبر الذين دينهم بهت الله تعالى يريد بهم أهل السنة ، ويريد بأهل العدل المعتزلة . وبهت الشخص : نسبته إلى فبيح لم يفعله ، ولولا أن ذلك دأب بين الساب لما أورده . (ع)

نبي الله مما ذكروا ، لما بقى له عرق ينبض ولا عضو يتحرك . فإياه من مذهب ما أخشاه ، ومن ضلال ما أيناه ( كذلك ) الكاف منصوب المحل ، أى مثل ذلك التثنية ثبتناه . أو مرفوعه ، أى الأمر مثل ذلك ( لنصرف عنه السوء ) من خيانة السيد ( والفحشاء ) من الزنا ( إنه من عبادنا المخلصين ) الذين أخلصوا دينهم لله ، وبالفتح . الذين أخلصهم الله لطاعته بأن عصمهم . ويجوز أن يريد بالسوء . مقدمات الفاحشة ، من القبلة والنظر بشهوة ، ونحو ذلك . وقوله ( من عبادنا ) معناه بعض عبادنا ، أى : هو مخلص من جملة المخلصين . أو هو ناشئ منهم ، لأنه من ذرية إبراهيم الذين قال فيهم ( إنا أخلصناهم بخالصة ) .

وَأَسْبَقَ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَأَوْدَتُنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِنْ كَانَتْ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَتِّدٍ كُنَّ إِنْ كَتِّدَ كُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكَ إِنَّكَ

كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩)

( واستبقا الباب ) وتسابقا إلى الباب على حذف الجاز وإيصال الفعل ، كقوله ( واختار موسى قومه ) على تضمين ( استبقا ، معنى ) ابتدرا ، نفر منها يوسف ، فأسرع يريد الباب ليخرج وأسرعت وراءه لتمنعه الخروج . فإن قلت : كيف وحد الباب ، وقد جمعه في قوله ( وغلقت الأبواب ) ؟ قلت : أراد الباب البرانى الذى هو المخرج من الدار والمخلص من العار . فقد روى كعب أنه لما هرب يوسف جعل فراش القفل (١) يتناثر ويسقط حتى خرج من الأبواب ( وقدت قميصه من دبر ) اجتذبه من خلفه فانقد ، أى انشق حين هرب منها إلى الباب وتبعته تمنعه ( وألفيا سيدها ) وصادفا بعاها وهو قطفير ، تقول المرأة لبعائها : سيدى بر وقيل : إنما لم يقل سيدهما ، لأن ملك يوسف لم يصح ، فلم يكن سيدها له على الحقيقة . قيل : أليفاه مقبلا يريد أن يدخل . وقيل جالسا مع ابن عم المرأة . لما اطلع منها زوجها على تلك

(١) قوله ( فراشة القفل ) ، هو ما يلبس فيه . يقال أقفل فأفرش . ( ع )



الهيئة المريبة وهى متناظرة على يوسف إذ لم يؤاتها <sup>(١)</sup> جادت بحيلة جمعت فيها غرضها : وهما تبرئة ساحتها عند زوجها من الريبة والغضب على يوسف ، وتخفيفه طمعاً فى أن يؤاتها خيفة منها ومن مكرها ، وكرها لما أيست من مؤاتاته طوعاً . ألا ترى إلى قولها (ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن) ودماً ، نافية ، أى : ليس جزاؤه إلا السجن . ويجوز أن تكون استهزامية ، بمعنى : أى شئ جزاؤه إلا السجن ، كما تقول : من فى الدار إلا زيد . فإن قلت : كيف لم تصرح فى قولها بذكر يوسف ، وإنه أرادها سوءاً ؟ <sup>(٢)</sup> قلت : قصدت العموم ، وأن كل من أراد بأهلك سوءاً فحقه أن يسجن أو يعذب ، لأن ذلك أبلغ فيما قصده من تخويف يوسف . وقيل : العذاب الاليم الضرب بالسياط . ولما أغرت به وعرضته للسجن والعذاب وجب عليه الدفع عن نفسه فقال : <sup>(٣)</sup> (هى روادتنى عن نفسى) ولولا ذلك لكتم عليها <sup>(٤)</sup> (شهد شاهد من أهلها) قيل كان ابن عم لها ، إنما ألقى الله الشهادة على لسان من هو من أهلها ؛ لتكون أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة عنه . وقيل : هو الذى كان جالساً مع زوجها لدى الباب . وقيل كان حكيماً يرجع إليه الملك ويستشير به . ويجوز أن يكون بعض أهلها كان فى الدار فبصر بها من حيث لا تشعر ، فأغضبته الله ليوسف بالشهادة له والقيام بالحق . وقيل : كان ابن خال لها صديداً فى المهد . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : تكلم أربعة وهم صفار : ابن ماشطة فرعون ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ، <sup>(٥)</sup>

(١) قوله « إذ لم يؤاتها » فى الصحاح : وتقول آتيته على ذلك الأمر مؤاتاة ، إذا وافقته وطاعته . والعامة تقول : وآتيته . (ع)

(٢) قال محمود : « إن قلت : لم قالت ما قالت غير مصرحة بذكر يوسف ... الخ ، قال أحمد : أرأيت أن يظهر بهذا الإجمال الحياء . والحكمة أن تقول لبعولها : هذا أراد بى سوءاً ولذلك أيضاً كنت بالسوء عما أضرته من الهناة مبالغة فى المكرو والكيد ، وإبعاد للتهمة عنها بتوق ما يضر منها بالتبرج والقفعة ، وعلى العبد من مقصودها وإن وافق ملاحظتها بحكمة الإجمال : قول ابنة شعيب تمدح موسى عليه السلام فيما حكى الله عنها ( قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ) ولم تقل : إنه قوى أمين ، حياء من التبيين وحشمة وخفراً ، ولكن هذه إنما بعثت على هذا الأدب شيمة الحياء ، وامرأة العزيز إنما بعثت عليه التكلف والاستعمال لذلك القرض الفاسد من المكرو ، والله أعلم .

(٣) أخرجه الحاكم وابن حبان وأحمد وابن أبى شيبة والبرار وأبو يعلى . والطبرى والبيهقى فى السادس عشر من الشعب كلهم من رواية حماد بن سلمة عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما رفعه « لما أسرى بى مرت رائحة طيبة - الحديث » فيه قصة المشاطة ، وفى آخره قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تكلم فى المهد أربعة ، وهم صفار : هذا ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وعيسى ابن مريم » وفى الحاكم أيضاً من رواية مسلم بن إبراهيم عن جريج بن حازم عن محمد بن سيرين عن أبى هريرة رفعه « لم يتكلم فى المهد إلا أربعة وهم صفار : عيسى ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وابن ماشطة فرعون » وذكره بلفظ ثلاثة . وذكر الثالث ابن المرأة التى أقيمت فى النار . فثبت على ولدهما فكلمها ، وفى الصحيحين من وجه آخر عن أبى هريرة مرفوعاً : —

فإن قلت : لم سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة ؟ <sup>(١)</sup> قلت : لما أدى مؤدى الشهادة في أن ثبت به قول يوسف وبطل قوله لما سمي شهادة : فإن قلت : الجملة الشرطية كيف جازت حكايها بعد فعل الشهادة ؟ قلت : لأنها قول من القول ، أو على إرادة القول ، كأنه قيل : وشهد شاهد فقال إن كان قيصة . فإن قلت : إن دل قد قيصة من دبر على أنها كاذبة وأنها هي التي تبعته واجتذبت ثوبه إليها فقدته ، فمن أين دل قدته من قبل على أنها صادقة ، وأنه كان تابعها ؟ قلت : من وجهين ، أحدهما : أنه إذا كان تابعها وهي دافعه عن نفسها قدت قيصة من قدومه بالدفع . والثاني : أن يسرع خلفها ليلحقها فيتعثّر في مقدم قيصة فيشقه <sup>(٢)</sup> . وقرئ : من قبل ،

« لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة : عيسى ابن مريم ، وصاحب جريج ، وصبي كان يرضع فرج رجل راكب على دابة - الحديث . اقتصر الطيبي على هذا الأخذ فلم يصب ، وهذا الاعتبار صاروا خمسة . وروى الثعلبي عن الضحاك أنهم ستة زاهم يحيى بن زكريا .

(١) قال محمود : وإن قلت لم سمي قوله شهادة وما هو بلفظ الشهادة ... الخ ، قال أحمد : مهما قدره من ذلك في اتباعها لما ، يحتمل مثله في اتباعها له ، فانها إنما قد قيصة من قبل بتقدير أن يكون اجتذبتها حتى صارا متقابلين فدفعته عن نفسها ، وهذا بعينه يحتمل إذا كانت هي التابعة أن تكون اجتذبت حتى صارا متقابلين ، ثم جذبت قيصة إليها من قبل ، بل ههنا أظهر ؛ لأن الموجب لقد القميص غالبا الجذب لا الدفع .

(٢) عاد كلامه . قال : « والثاني أن يسرع خلفها ليلحقها فيعثّر في مقدم قيصة فينقده » قال أحمد : وهذا بعينه يحتمل لو كانت هي التابعة وهو فار منها فانقد قيصة في إسماعه للفرار ، والله أعلم . فليس كلام الزخشرى في هذا الفصل بذلك . والحق - والله ولي التوفيق - أن الشاهد المذكور إن كان صيبا في المهد كما ورد في بعض الحديث ، فالآية في مجرد كلامه قبل أوامره ، حتى لو قال : صدق يوسف وكذبت ، لكني برهانا على صدقه عليه السلام ، كما كان مجرد إخبار عيسى عليه السلام في المهد برهانا على صدق مريم ، فلا تبقى المناسبة بين الأمانة المنصوبة ومارتب عليها ؛ لأن العمدة في الدلالة نصها لامتناسبتها ، وإن كان الشاهد بعض أهلها كان في الدار فبصرها من حيث لا تشعر ، فأغضبه الله ليوسف بالشهادة له وإقامة الحق كما ذكر الزخشرى . فهذا والله أعلم كان من حقه أن يصرح بما رأى فيصدق يوسف ويكذبها ، ولكنه أراد أن لا يكون هو الفاضح لها ، ووثق بأن انقطاع قيصة إنما كان من دبر فنصبه أمانة لصدقه وكذبها ، ثم ذكر القسم الآخر وهو قد من قبل ، على علم بأنه لم ينقد من قبل حتى يثني عن نفسه التهمة في الشهادة وقصد الفضيحة ، وينصفهما جميعا فيذكر أمانة على صدقها المعلوم نفيه ، كما ذكر أمانة على صدقه المعلوم وجوده . ومن ثم قدم أمانة صدقها على أمانة صدقه في الذكر ، إزاحة للتهمة ووثوقا بأن الأمانة الثانية هي الواقعة ، فلا يضره تأخيرها . وهذه اللطيفة بعينها - والله أعلم - هو التي راعاها مؤمن آل فرعون في قوله (وإن يك كاذبا فعليه كذبه وإن يك صادقا يصبك بعض الذي يعدكم) فقدم قسم الكذب على قسم الصدق إزاحة للتهمة التي خشى أن تنطرق إليه في حق موسى عليه السلام ، ووثوقا بأن القسم الثاني وهو صدقه هو الواقع . فلا يضره تأخيرها في الذكر لهذه الفائدة . ومن ثم قال (بعض الذي يعدكم) ولم يقل : كل ما يعدكم تعريضا بأنه معهم عليه ، وأنه حريص على أن ينخسه حقه ، وينجو هذا النحو تأخير يوسف عليه السلام لكشف وعاء أخيه ؛ لأنه لو بدأ به لفظوا أنه هو الذي أمر بوضع السقاية فيه ، والله أعلم . فقصد هذا الشاهد الأمانة الآخرة فقط . والمناسبة فيها محققة . وأما الأمانة الأولى فليست مقصودة ، وإنما ذكرها توطئة كما تقدم . فلم يلتبس لها مناسبة جليلة صحيحة على اليقين ، وإسماعلي كالفرض والتقدير والله أعلم . وكأنه قال : إن كان قيصة قد من قبل فهي صادقة .

ومن دبر ، بالضم على مذهب الغايات . والمعنى : من قبل القميص ومن دبره . وأما التنكير فعناه من جهة يقال لها قبل ، ومن جهة يقال لها دبر . وعن ابن أبي إسحاق أنه قرأ : من قبل ومن دبر بالفتح . كأنه جعلهما علمين للجهتين فمنعهما الصرف للعلية والتأنيث . وقرئنا <sup>(١)</sup> بسكون العين . فبن قلت : كيف جاز الجمع بين « إن » الذي هو للاستقبال وبين « كان » ؟ قلت : لأن المعنى أن يعلم أنه كان فيصه قد ، ونحوه كقولك : إن أحسنت إلى فقد أحسنت إليك من قبل ، لمن يمتن عليك بإحسانه ، تريد : إن تمتن عليّ أمتنّ عليك ﴿ فلما رأى ﴾ يعنى قطفير وعلم براءة يوسف وصدقه وكذبها ﴿ قال إنه ﴾ إن قولك ﴿ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً ﴾ <sup>(٢)</sup> أو إن الأمر وهو طمعها في يوسف ﴿ من كيدكن ﴾ الخطاب لها ولأمتها . وإنما استعظم كيد النساء لأنه وإن كان في الرجال ، إلا أن النساء أطف كيداً وأنفذ حيلة . ولهنّ في ذلك نيفة <sup>(٣)</sup> وورق ، وبذلك يغلبن الرجال . ومنه قوله تعالى ( ومن شر التفائات في العقد ) والقصربات من بينهنّ معهنّ ما ليس مع غيرهنّ من البوائق <sup>(٤)</sup> وعن بعض العلماء : أنا أخاف من النساء أكثر ما أخاف من الشيطان ، لأن الله تعالى يقول ( إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ) وقال للنساء ( إن كيدكنّ عظيم ) . ﴿ يوسف ﴾ حذف منه حرف النداء لأنه منادى قريب مفاطن للحديث وفيه ت قريب له وتلطيف لمحله ﴿ أعرض عن هذا ﴾ الأمر واكتمه ولا تحدث به ﴿ واستغفرى ﴾ أنت ﴿ لذنبك إنك كنت من الخاطئين ﴾ من جملة القوم المتعمدين للذنوب . يقال : خطئ ، إذا أذنب متعمداً ، وإنما قال ( من الخاطئين ) بلفظ التذكير تعليماً للذكور على الإناث ، وما كان العزيز إلا رجلاً حليماً . وروى أنه كان قليل الغيرة .

== ولكنه يعلم انتفاء الأمانة المذكورة ، فعلق صدقها على حال وهو وجود قده من قبل حالة ، فهذا التقرير هو الصواب والحق للباب ، والله الموفق . وأما إن كان الشاهد الحكيم الذي كان الملك يرجع إليه ويستشير كما ورد في بعض التفاسير ، فلا بد من التماس المناسبة في الطرفين لأنها عهدة الحكيم . وأقرب وجه في المناسبة أن قد القميص من دبر دليل على إدباره عنها ، وقده من قبل دليل على إقباله عليها بوجهه ، والله أعلم .

(١) قوله « وقرئنا » أى : قبل ودبر ، وقوله « بسكون العين » : أى الباء . (ع)

(٢) قال محمود : « الضمير راجع إلى قولها ماجزأ من أراد بأهلك سوءاً ... الخ » قال أحمد : وفيما قاله هذا العالم نظر ، لأن الآية التي ذكر فيها كيد الشيطان من قول الله تعالى غير عكس . وأما هذه الآية فكيد النساء فيها من قول العزيز ، ولكن حكاه الله تعالى عنه فيحتمل حكايته عنه أن يكون تصحيحاً له ، ويحتمل أن لا يكون المراد تصويبه ، وأيضاً فإن كيد الشيطان المذكور في الآية مقابلاً لكيد الله تعالى ، فكان ضعيفاً بالنسبة إليه . ألا ترى أول الآية ( الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ) فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفاً ( وأيضاً فإن الكيد الذي يتعاطاه النساء وغيرهن مستفاد من الشيطان بوسوسته وتسويله وشواهد الشرع قائمة على ذلك ، فلا يتصور حينئذ أن يكون كيدهن أعظم من كيده ، والله أعلم .

(٣) قوله « نيفة » اسم للتأتق في الأمر . أفاده الصحاح . (ع)

(٤) قوله « مع غيرهن من البوائق » أى الدواعى . أفاده الصحاح . (ع)

وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا  
 إِنَّا نَنظُرُهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ  
 لَهُنَّ مُتْكِنًا وَاَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَاتِ أَخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ  
 أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا  
 مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ قَدْ لَبِئْنَا لَكَ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ  
 فَاسْتَعْصَمَ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾

(وقال نسوة) وقال جماعة من النساء وكن خمساً : امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة  
 صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن ، وامرأة الحاجب . والنسوة : اسم مفرد لجمع المرأة  
 وتأنيثه غير حقيقى كتأنيث الله ، ولذلك لم تلحق فعله تاء التأنيث . وفيه لغتان : كسر النون  
 وضمها ( فى المدينة ) فى مصر ( امرأة العزيز ) يردن قطفير ، والعزير : الملك بلسان العرب  
 ( فتاها ) غلامها . يقال : فتأى وفتأتى ، أى غلامى وجارىتى ( شغفها ) خرق حبه شغاف  
 قلبها حتى وصل إلى الفؤاد ، والشغاف حجاب القلب ، وقيل جلدة رقيقة يقال لها لسان القلب .  
 قال النابغة :

وَقَدْ حَالَ مُمُّ دُونَ ذَلِكَ وَاجِجَ مَكَانَ الشَّغَافِ تَبْتَغِيهِ الْأَصَابِعُ <sup>(١)</sup>

(١) وقد حال مم دون ذلك واجج مكان الشغاف تبغيه الأصابع  
 وعيد أبى قابوس فى غير كنهه أثنى ودونى راكش فالضواجع

للتابغة ، يعتذر إلى النعمان ملك العرب عما قذفه به الواشون ، أى وقد حال مم دون التغزل فى المحبوبة وغيره من  
 اللذات . واجج . داخل مكان الشغاف . ويروى « ولوج الشغاف » أى كولوجه ، والشغاف : داء فى القلب جهة  
 اليمين يخرجها الأطباء ، فتبغيه الأصابع : من صفته على أنه حال منه . وقيل : حجاب القلب ، أو جلدة  
 رقيقة يقال لها لسان القلب ، فتبغيه : صفة للهم ، وشبه الأصابع بمن يصح منه الطلب على طريق الممكنية والابتغاء  
 تخيل ، ثم إنه شبه الهم المعقول بحسوس وبالغ فى ذلك حتى ادعى أن الأصابع تغش عليه فلا تجده لشدة ولوجه  
 وكونه فى القلب . أو تلمسه وتريد إخراج . وبين الهم بقوله : وعيد النعمان أبى قابوس وتهديده حال كونه فى غير  
 كنهه وحقيقته ، أى : لم يلبقى بكاله . أو لأنه بلاسبب حصل منى ، بل أفرى الوشاة على كذباً جاء . ودونى :  
 أى أمانى هذين الموضعين وهما مسافة بعيدة ، ومع ذلك أدركنى الخوف أو بعد المسافة ، دلالة على غضب الملك  
 عليه غضباً شديداً .

وقرئ: شعفها، بالعين، من شفف البعير إذا هنأه<sup>(١)</sup> فأحرقه بالقطران، قال:

\* كَمَا شَعَفَ الْمُهْنُوَّةَ الرَّجُلُ الطَّالِي \*<sup>(٢)</sup>

و﴿حباً﴾ نصب على التمييز ﴿في ضلال مبين﴾ في خطأ وبعد عن طريق الصواب ﴿بمكرهن﴾ باغتيالهن وسوء فالهن، وقولهن: امرأة العزيز عثقت عبدها الكنعاني ومقتها، وسمى الاغتيال مكرأ لأنه في خفية وحال غيبة، كما يخفى الماكر مكره. وقيل: كانت استكتمتهن سرها فأفشينه عليها ﴿أرسلت إليهن﴾ دعتهن. قيل: دعت أربعين امرأة منهن الخمس المذكورات ﴿وأعتدت لهن متكأ﴾ ما يتكئن عليه من نارق، قصدت بتلك الهيئة وهي فعودهن متكئات والسكاكين في أيديهن: أن يدهشن<sup>(٣)</sup> ويهتن عند رؤيته، ويشغلن عن نفوسهن فتقع أيديهن على أيديهن فيقطعنها، لأن المتكئ إذا هت لشيء وقعت يده على يده، ولا يبعد أن تقصد الجمع بين المكربه وبهن، فتضع الخناجر في أيديهن ليقطعن أيديهن، فتبكتهن بالحجة، ولنهول يوسف من مكرها إذا خرج على أربعين نسوة مجتمعات في أيديهن الخناجر، وتوهمه أنهن يثن عليه. وقيل: متكأ: مجلس طعام لأنهم كانوا يتكئون للطعام والشراب والحديث كعادة المترفين، ولذلك نهى أن يأكل الرجل متكأ<sup>(٤)</sup> وآتتهن السكاكين ليعالجن بها ما يأكلن. وقيل (متكأ) طعاماً، من قولك اتكأنا عند فلان: طعمنا<sup>(٥)</sup>، على سبيل السكناية؛ لأن من دعوته ليطعم عندك اتخذت له

(١) قوله «إذا هنأه» في الصحاح «هنأت البعير» إذا طليته بالهناء. وهو القطران. (ع)

(٢) أقتلني وقد شغفت فزادها كما شفف المهنة الرجل الطال

لامرئ القيس، والاستغهام للانكار والاستبعاد، أو التعجب. وشفف الجمل: إذا أحرقه بالقطران المقل على النار، وهنأ: دمه بذلك القطران، فأطلق الشفف وأريد منه مطاق الاحراق، ثم أريد منه الاحراق بالعشق مجازاً مرسلًا ليصح التشبيه في قوله: كما أحرق الابل المدهونة الداهن لها. وإن كان شغفت بالعين المعجمة فالمعنى: أصبت شغاف قلبها بالحب، وهو حجاب القلب أولسائه أوجبة سوداء في وسطه، كما شفف: أي أغاف الابل المدهونة وراع قلبها الرجل الداهن لها. لأنها تخافه في الأول. وقيل: شبه حبها باستلذاذ الابل لذلك الطلى بدم دهنها به.

(٣) قوله «يدهشن» أي يتحيرن. أفاده الصحاح. (ع)

(٤) من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن ابن الزبير عن جابر قال «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل أحدنا بشماله وأن يأكل متكأ» وفي الطبري من حديث ابن مسعود «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صومين وصلاتين ولباسين ومطعمين وبيعتين، ومنسكحين» إلى أن قال: وأما الطعام فإن يأكل الرجل بشماله ويمينه صحيح. وأن يأكل متكأ، إسناده جيد. وله في الأوسط وفي مسند الشاميين من حديث أبي الدرداء رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأنأكل متكأ». ولا تخط رقاب الناس يوم الجمعة، وأعله ابن حبان في الضعفاء بزيق بن عبد الله رواية عن عمرو بن الأسود عن أبي الدرداء. وفي الباب عن ابن أبي هاشم. أخرجه البزار بلفظ «نهى أن يأكل متكئين».

(٥) قوله «طعمنا» لعله «أى طعمنا». (ع)

تَكَاءُ يَتَكَمَّى عَلَيْهَا . قَالَ جَمِيل :

فَقَظَلَلْنَا بِنِعْمَةٍ وَأَنْتَكُنَّا وَشَرِبْنَا الْحَلَالَ مِنْ قُلَّةٍ<sup>(١)</sup>

وعن مجاهد (متكأ) طعاماً يحزّ حزاً ، كأن المعنى يعتمد بالسكين ؛ لأن القاطع يتكوى على المقطوع بالسكين . وقرئ متكأ بغير همز . وعن الحسن : متكأ بالمد ، كأنه مفتعل ، وذلك لإشباع فتحة الكاف ، كقوله «بِمُنْزَاحٍ»<sup>(٢)</sup> بمعنى بمنزح . ونحوه «يَنْبَاعُ»<sup>(٣)</sup> بمعنى ينبع . وقرئ : متكأ وهو الأنرج ، وأنشد :

فَأَهْدَتْ مَتَكَةً لِبَنِي آيِيهَا تَعْبُ بِهَا الْعِثْمَمَةُ الْوِقَاحُ<sup>(٤)</sup>

وكانت أهدت أنرجة على ناقة . وكانها الأنرجة التي ذكرها أبو داود في سننه أنها شقت بنصفين ، وحملها لعدلين على جبل . وقيل : الزماورد<sup>(٥)</sup> وعن وهب : أنرجا وموزاً وبطيخا . وقيل : أعتدت لمنّ ما يقطع ، من متك الشيء بمعنى بتكه إذا قطعه . وقرأ الأعرج : (متكأ) مفعلاً ، من تكوى يتكأ ، إذا اتكأ (أكبرته) أعظمته وهب ذلك الحسن الرائع والجمال الفائق . قيل : كان فضل يوسف على الناس في الحسن كفضل القمر ليلة البدر على نجوم السماء . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : ومررت بيوسف الليلة التي عرج بي إلى السماء ، فقلت لجبريل : من هذا ؟ فقال يوسف ، فقيل : يا رسول الله ، كيف رأيته ؟ قال : كالقمر ليلة البدر<sup>(٦)</sup> ، وقيل كان يوسف إذا سار في أزقة مصر يرى تلالؤ وجهه على الجدران ، كما يرى نور الشمس من الماء عليها .

(١) لحيد بن ثور . وقيل لجبل بن معمر . وظل يظل من باب علم . يقول : فظلالاً في نعمة أرملة تبسّم بنعمة . وأنكنا : أصله ارتكنا فتاؤه الأولى وار : أى اتخذنا متكأ اضطرنا عليه ، وشربنا الشراب الحلال يعنى النبيذ ، من قللة : جمع قلة ، وهى الجرة العظيمة . ففى ذكر القليل دلالة على التوسع فى الشرب وعدم التحجر فيه .

(٢) قوله «بِمُنْزَاحٍ» هو من قول الشاعر :

وَأَنْتَ مِنَ الذَّوَاتِلِ حِينَ تَرَى وَعَنْ ذِمِّ الرِّجَالِ بِمُنْزَاحٍ

والبيت لابن هرمة يرثى ابنه . والذوالتل : الحوادث التى تقتال النفوس وتهلكها . ومنزح : إذا بعد ، والمنزح : اسم لمكان البعد ، وأشبهت فتحة فتولدت منها الألف كقولهم : ينباع فى ينبع ، وعقرب فى عقرب .

(٣) قوله «يَنْبَاعُ» هو من قول الشاعر :

يَنْبَاعٌ مِنْ ذَفْرِ أُسَيْلِ حَرَّةٍ زِيَاةٌ مِثْلُ الْفَنِيقِ الْمَكْدَمِ

وقد مر شرح هذا البيت فى سورة الأعراف بهذا الجزء . صفحة ١٢٢ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٤) المتكة : الأنرجة ، وكأنه الذى ذكر أبو داود فى سننه أنها شقت نصفين وحملت على ناقة . والخبب : نوع من السير . والشمشة : العلبة . والوقاح - بالفتح - : شديدة وقع الخف على الأرض .

(٥) قوله «الزماورد» هو الرقاق المحشو باللحم . (ع)

(٦) أخرجه الثعلبى من رواية أبى هارون العبدى عن أبى سعيد . وأخرجه الحاكم والبيهقى فى الدلائل وابن مردويه من هذا الوجه مطولاً .

وقيل : ما كان أحد يستطيع وصف يوسف . وقيل : كان يشبه آدم يوم خلقه ربه . وقيل : ورث الجمال من جدته سارة . وقيل : أكبرن بمعنى حصن ، والهاء للسكت . يقال : أكبرت المرأة إذا حاضت ، وحقيقته : دخلت في الكبر لأنها بالحيض تخرج من حد الصغر إلى حد الكبر ، وكأن أبا الطيب أخذ من هذا التفسير قوله :

خَفِ اللَّهَ وَاسْتَرْ ذَا الْجَمَالِ بِرُفْعِ فَإِنْ لُحِتْ حَاضَتْ فِي الْخُدُورِ الْعَوَاتِقُ <sup>(١)</sup>

(قطعن أيدين) جرحها ، كما تقول : كنت أقطع اللحم فقطع يدي ، تريد : جرحتها (حاشا) كلمة تفيد معنى التنزيه في باب الاستثناء . تقول : أساء القوم حاشا زيد . قال :

حَاشَا أَبِي ثَوْبَانَ إِنَّ بِهِ ضَنَا عَنِ الْمَلْحَةِ وَالشَّمِ <sup>(٢)</sup>

وهي حرف من حروف الجر ، فوضعت موضع التنزيه والبراءة ، فمعنى «حاشا الله» براءة الله وتنزيهه الله ، وهي قراءة ابن مسعود ، على إضافة حاشا إلى الله إضافة البراءة . ومن قرأ : حاشا لله ، فنحو قولك : سقيا لك ؛ كأنه قال : براءة ، ثم قال : لله ، لبيان من يبرأ وينزه . والدليل على تنزيل «حاشا» منزلة المصدر : قراءة أبي السمال : (حاشا لله) ، بالتثوين . وقراءة أبي عمرو (حاش لله) بحذف الألف الآخرة . وقراءة الأعمش (حشا لله) بحذف الألف الأولى . وقرئ (حاش لله) بسكون الشين ، على أن الفتحه تبع الألف في الإسقاط ، وهي ضعيفة لما فيها من التقاء الساكنين على غير حده . وقرئ : حاشا الإله . فإن قلت : فلم جاز في حاشا لله أن لا يتون بعد إجرائه مجرى : براءة لله ؟ قلت : مراعاة لأصله الذي هو الحرفية . ألا ترى إلى

(١) لآبي الطيب ، يقول : اتق الله واستر هذا الجمال الذي في وجهك برقع ، لأنك إن ظهرت حاضت العواتق ، أي خيار النساء ومن في خدورهن ، لما ينظرن من جمالك . ولاح يلوح : ظهر يظهر .

(٢) حاشا أبي ثوبان إن أبا ثوبان ليس ببيكة قدم عمرو بن عبد الله إن به ضنا عن الملحاة والشتم

للقنذ بن الطاح وهو الجميع الأسدي . وحاشا : كلمة تبرئة وتنزيه واقعة موقع المصدر مضافة لما بعدها ، كسبحان الله . ويجوز أنها حاشا الاستثنائية ، وهي حرف جر عند الأكثر . ورواه الضي : حاشا أبا ثوبان بالنصب ، فهو فعل ، واحتمال لغة القصر ضعيف لشبهة لغة الأعراب بالحروف . وعلى الأول فبناؤها لمشايتها للحرفية لفظا ومعنى . وبكم الرجل - كنعب - : إذا عجز عن الكلام . وقدم كسهل وظرف ، إذا عجز عن الحجج كأنه قد مسدود . والعن - بالكسر - : البخل . والملاحاة : مفعلة ، من لحا إذا لاه . واللحاء - كالرداء - : مفاعلة من اللحن والعدل ، من لحوت العود إذا قشرته . وتكرر أبي ثوبان لتعظيمه والتثويه باسمه ، ليس ببيكة بالضم ، أي ذى بكة ، أي : ليس بأبيكم ، ولا قدم : أي عاجز عن الكلام . وعمرو : قيل إنه بدل من أبي ثوبان ، فقوله : إن أبا ثوبان الخ : جملة اعتراضية مبنية لوجه التنزيه . وفي قوله : إن به ضنا ، بيان لوجه سكوته عن مؤاخذه اللثام . والمعنى : إن به امتناعا ونزها عن اللوم والشتم .

قولهم : جلست من عن يمينه ، كيف تركوا « عن » غير معرب على أصله ؟ وعلى <sup>(١)</sup> في قوله « غدت من عليه » ، منقلب الالف إلى الياء مع الضمير ؟ والمعنى : تنزيه الله تعالى من صفات العجز ، والتعجب من قدرته على خلق جميل مثله . وأما قوله « حاشا لله ما علينا عليه من سوء » فالتعجب من قدرته على خلق عفيف مثله « ما هذا بشرأ » نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه <sup>(٢)</sup> ، لماعليه محاسن الصوب ، وأثبتن له الملكية وبتن بها الحكم ، وذلك لأن الله عز وجل ركز في الطباع أن لا أحسن من الملك ، كما ركز فيها أن لا أقبح من الشيطان ، ولذلك يشبه كل متناه في الحسن والقبح بهما ، وما ركز ذلك فيها إلا لأن الحقيقة كذلك ، كما ركز في الطباع أن لا أدخل في الشر من الشياطين ، ولا أجمع للخير من الملائكة ، إلا ما عليه الفنة الحاسمة <sup>(٣)</sup> المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك ، وما هو إلا من تعكيسهم للحقائق ، وجحودهم للعلوم الضرورية ، ومكابرتهم في كل باب ، وإعمال ما ، عمل « ليس » هي اللغة القدي الحجازية <sup>(٤)</sup> وبها ورد القرآن . ومنها قوله تعالى « ما هن أمهاتهم » ومن قرأ على سليقته من بني تميم ، قرأ ( بشر ) بالرفع . وهي في قراءة ابن مسعود . وقرئ : ما هذا بشرى ، أى ما هو بعبد مملوك لثيم « إن هذا إلا ملك كريم » تقول هذا بشرى ، أى حاصل بشرى ، بمعنى : هذا مشرى . وتقول : هذا لك بشرى أم بكرى ؟ والقراءة هي الأولى ، لموافقها المصحف ؛ ومطابقة بشر لملك « قالت فذلكن » ولم تهمل فهذا وهو حاضر <sup>(٥)</sup> ، رفعا لمزنته في الحسن ، واستحقاق أن يحب ويفتن به ، وربنا بحاله واستبعادا

(١) قوله « على أصله وعلى في قوله » عطفه بحتاج إلى تكلف ، أى : وإلى قوله غدت من عليه بعد ما تمظهرها كيف ترك على في قوله . ويمكن أن التقدير : ألا ترى إلى قولهم الخ وعلى في قوله أى : وألا ترى على ... الخ . (ع)  
(٢) قال محمود : « نفين عنه البشرية لغرابة جماله ومباعدة حسنه ... الخ » قال أحمد : تقدم القول في مسئلة التفضيل شافيا ، والزبحرى لا يدعه التعصب المعتقد الفاسد أن يحمله على مثل هذه المشافهات ، يرى بها أهل الحق فينسب إليهم الاجبار والخسار والمكابرة في الضرورات وجحد الحقائق تعكسيا ، وهذا كله هم برآ منه ، وحسبه من المقابلة بذلك خطؤه في اعتقاد أن تفضيل الملك عند قائله ليس ضروريا ولا عقليا نظريا ، ولكن سمعيا ، وقد قنع في الاستدلال على هذه العقيدة بالضرورة التي ادعى أنها مركوزة في الطباع ، ثم حكم بأن كل مركوز في الطباع حق ، وخصوصا والكلام في طباع النساء القائلات : ما هذا بشرأ . وإذا كان كل مركوز في الطباع حقاً ، فأركز فيها حب الشهوات وإثبات العاجلة وجميع أمهات الذنوب مركوز في الطباع ، أفيكون ذلك حقاً إلا عند ناظر بعين الهوى ، أعشى في سبيل الهدى ، والله ولي التوفيق .

(٣) قوله « إلا ما عليه الفنة الحاسمة » يريد أهل السنة ، وقد أساء في تعصبه للمعتزلة فعفا الله عنه . (ع)

(٤) قوله « ليس هي اللغة القدي الحجازية » بمعنى القديمة ، لكن لم يذكرها في الصحاح . (ع)

(٥) قال محمود : « لم تهمل فهذا وهو حاضر ... الخ » قال أحمد : وهذا أجبت عما أورده من السؤال في قوله تعالى أول البقرة ( ألم ذلك الكتاب ) لما جعل الإشارة إلى الحروف المذكورة فقال : إن قلت كيف أشار إليها وهي قريبة كما يشار إلى البعيد ، وأجاب هو بأن كل متقضى بعيد ، وأجبت أنا بأن الإشارة بذلك إلى بعد منزلة هذا الكتاب بالنسبة إلى كتب الله تعالى .



لمحله . ويجوز أن يكون إشارة إلى المعنى بقولهن : عشقت عبدها الكنعاني . تقول : هو ذلك العبد الكنعاني الذي صوّرتن في أنفسكن ، ثم لمتني فيه . تعني : أنكن لم تصوّرنه بحق صورته . ولو تصوّرنه بما عاينتن لعذرتني في الاقتناع به . الاستعصام : بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ، كأنه في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها . ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي واستفحل الخطب . وهذا بيان لما كان من يوسف عليه السلام لا مزيد عليه ، وبرهان لا شيء أنور منه ، على أنه يرى بما أضاف إليه أهل الحشو مما فسروا به الهم والبرهان . فإن قلت : الضمير في ﴿ أمره ﴾ راجع إلى الموصول ، أم إلى يوسف ؟ قلت : بل إلى الموصول . والمعنى : ما أمر به ، فحذف الجار كما في قولك : أمرتك الخير ، ويجوز أن تجعل دماء مصدرية ، فيرجع إلى يوسف . ومعناه : ولئن لم يفعل أمرى إياه ، أى موجب أمرى ومقتضاه . قرئ ( وليكونا ) بالتشديد والتخفيف . والتخفيف أولى ، لأن النون كتبت في المصحف ألفاً على حكم الوقف ، وذلك لا يكون إلا في الخفيفة .

قَالَ رَبُّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾

وقرئ ( السجن ) بالفتح ، على المصدر . وقال ﴿ يدعونني ﴾ على إسناد الدعوة إليهن جميعاً ، لأنهن تنصحن له وزين له مطاوعتها ، وقلن له : إياك وإلقاء نفسك في السجن والصغار ، فالتجأ إلى ربه عند ذلك وقال : ربّ نزول السجن أحبّ إلي من ركوب المعصية . فإن قلت : نزول السجن مشقة على النفس شديدة ، وما دعونه إليه لذة عظيمة ، فكيف كانت المشقة أحبّ إليه من اللذة ؟ قلت : كانت أحبّ إليه وآثر عنده نظراً في حسن الصبر على احتمالها لوجه الله ، وفي قبح المعصية ، وفي عاقبة كل واحدة منهما ، لا نظراً في مشتهى النفس ومكروها ﴿ وإلا تصرف عني كيدهن ﴾ فزع منه إلى ألطاف الله وعصمته ، كعادة الأنبياء والصالحين فيما عزم عليه ووطن عليه نفسه من الصبر ، لا أن يطلب منه الإجماع على التعفف والإجاء إليه ﴿ أصب إليهن ﴾ أمل إليهن . والصبوة : الميل إلى الهوى . ومنها : الصبا : لأن النفوس تصبو إليها لطيب نسيما وروحها . وقرئ : أصب إليهن ، من الصباية ﴿ من الجاهلين ﴾ من الذين لا يعملون بما يعلمون . لأن من لا جدوى لعله فهو ومن لا يعلم سواء . أو من السفهاء ، لأن الحكيم لا يفعل القبيح . وإنما ذكر الاستجابة ولم يتقدم الدعاء ، لأن قوله ﴿ وإلا تصرف عني ﴾

فيه معنى طلب الصرف والدعاء باللطف ﴿السميع﴾ لدعوات الملتجئين إليه ﴿العليم﴾ بأحوالهم وما يصلحهم .

ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لَيْسَجُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾

﴿بدأ لهم﴾ فاعله مضمر ، لدلالة ما يفسره عليه وهو : ليسجنه ، والمعنى : بدأ لهم بداء ، أى : ظهر لهم رأى ليسجنه ، والضمير فى ( لهم ) للعزير وأهله ( من بعد ما رأوا الآيات ) وهى الشواهد على برأته ، وما كان ذلك إلا باستنزال المرأة لزوجها . وقتلها منه فى الذروة والغارب <sup>(١)</sup> وكان مطواعة لها وجيلاً ذلولاً زمامه فى يدها ، حتى أنساه ذلك ما عين من الآيات وعمل برأيها فى سجنه وإلحاق الصغار به كما أوعده به ، وذلك لما أيسر من طاعته لها ، أو لطمعها فى أن يذلل السجين ويسخره لها . وفى قراءة الحسن : لتسجنه ، بالتاء . على الخطاب : خاطب به بعضهم العزيز ومن يليه ، أو العزيز وحده على وجه التعظيم ﴿حتى حين﴾ إلى زمان ، كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه . وفى قراءة ابن مسعود : عتى حين ، وهى لغة هذيل . وعن عمر رضى الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ ( عتى حين ) فقال : من أقرأك ؟ قال : ابن مسعود . فكتب إليه : إن الله أنزل هذا القرآن لجعله عربياً وأنزله بلغة قريش ، فأقرئ الناس بلغة قريش ولا تقرئهم بلغة هذيل ، والسلام .

وَدَخَلَ مَعَهُ السَّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ  
إِنِّي أَرَانِي أُحْمَلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ  
مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

ومع ، يدل على معنى الصحبة واستحداثها . تقول : خرجت مع الأمير ، تريد مصاحباً له ، فيجب أن يكون دخولهما السجن مصاحبين له ﴿فتيان﴾ عبدان للملك : خبازه وشرابه : رقى إليه أنهما يسمانه ، <sup>(٢)</sup> فأمر بهما إلى السجن ، فأدخلا ساعة أدخل يوسف عليه السلام ﴿إلى أرائى﴾ يعنى فى المنام ، وهى حكاية حال ماضية ﴿أعصر خمرًا﴾ يعنى عنباً ، تسمية للعنب بما يؤول إليه . وقيل : الخمر - بلغة عمان - : اسم للعنب . وفى قراءة ابن مسعود : أعصر عنباً ﴿من المحسنين﴾ من الذين يحسنون عبارة الرؤيا ، أى : يجيدونها ، رأياه يقص عليه بعض أهل السجن

(١) قوله « وقتلها منه فى الذروة » أى دوراتها من وراء خديعته . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قوله « رقى إليه أنهما يسمانه ، فى الصحاح : رقى إليه الكلام ترقية ، أى : رفع إليه . (ع)

رؤياه فيؤوقها له ، فقالا له ذلك . أو من العلماء ، لأنهما سمعا يذكر للناس ما علما به أنه عالم . أو من المحسنين إلى أهل السجن . فأحسن إلينا بأن تفرج عنا الغمة بتأويل ما رأينا إن كانت لك يد في تأويل الرؤيا . روى أنه كان إذا مرض رجل منهم قام عليه ، وإذا أضاقت وسع له ، وإذا احتاج جمع له . وعن قتادة : كان في السجن ناسي قد انقطع رجالهم وطال حزنهم ، فجعل يقول : أبشروا . اصبروا توجروا ، إن لهذا لأجرا ، فقالوا : بارك الله عليك ما أحسن وجهك وما أحسن خلقك ! لقد بورك لنا في جوارك ، فمن أنت يا فتى ؟ قال : أنا يوسف ابن صفي الله يعقوب ابن ذبيح الله إسحق ابن خليل الله إبراهيم ، فقال له عامل السجن : لو استطعت خليت سبيلك ، ولكنني أحسن جوارك ، فكن في أي بيوت السجن شئت . وروى أن الفتيين قالاه إنا لنحبك من حين رأيناك ، فقال : أنشدكما بالله أن لا تحباني ، فوالله ما أحبني أحد قط إلا دخل عليّ من حبه بلاء ، لقد أحببتني عمي فدخل عليّ من حبه بلاء ، ثم أحبني أبي فدخل عليّ من حبه بلاء ، ثم أحببتني زوجة صاحبي فدخل عليّ من حبه بلاء ، فلا تحباني - بارك الله فيكما - وعن الشعبي أنهما تحالما له ليمتحناه فقال الشراي : إني أراي في بستان ، فإذا بأصل حبله <sup>(١)</sup> عليها ثلاثة عناقيد من عنب ، فقطقتها وعصرتها في كأس الملك ، وسقيته . وقال الحناز : إني أراي وفوق رأسي ثلاث سلال فيها أنواع الاطعمة ، وإذا سباع الطير تنهش منها . فإن قلت : إلام يرجع الضمير في قوله ( نبئنا بتأويله ) ؟ قلت : إلى ما قصا عليه . والضمير يجري مجرى اسم الإشارة في نحوه كأنه قيل : نبئنا بتأويل ذلك .

قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا  
ذَلِكَ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ  
هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ  
لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾

لما استعبراه ووصفاه بالإحسان ، افترض ذلك <sup>(٢)</sup> فوصل به وصف نفسه بما هو فوق

(١) قوله « فإذا بأصل حبله » في الصحاح « الحبل » بالضم : ثمر العناب . وفيه « العناب » كل شجر يعظم وله شوك والحبل - بالتحريك - : التضييق من الكرم . وفيه أيضا : سلة الخبز معروفة . (ع) .

(٢) قوله « افترض ذلك » ، أي اتخذ فرصة ، أي نوبة وحظا ونصيبا ، أفاده الصحاح . (ع)

علم العلماء ، وهو الإخبار بالغيب ، وأنه ينبتهما بما يحمل إليهما من الطعام في السجن قبل أن يأتيهما ويصفه لهما ، ويقول : اليوم يأتيكما طعام من صفته كيت وكيت ، فيجدا أنه كما أخبرهما ، وجعل ذلك تخلصاً إلى أن يذكر لها التوحيد ويعرض عليهما الإيمان ويزينه لهما ، ويقبح إليهما الشرك بالله ، وهذه طريقة على كل ذي علم أن يسلكها مع الجهال والفسقة ، إذا استفته واحد منهم أن يقدم الهداية والإرشاد والموعظة والنصيحة أولاً ، ويدعوه إلى ما هو أولى به وأوجب عليه مما استغنى فيه ثم يفتيه بعد ذلك ، وفيه أن العالم إذا جهلت منزلته في العلم فوصف نفسه بما هو بصدده - وغرضه أن يقتبس منه وينتفع به في الدين - لم يكن من باب التزكية ﴿ بتأويله ﴾ ببيان ماهيته وكيفيته ؛ لأن ذلك يشبه تفسير المشكل والإعراب عن معناه ﴿ ذلكا ﴾ إشارة لها إلى التأويل ، أى ذلك التأويل والإخبار بالمغيبات ﴿ بما علنى ربى ﴾ وأوحى به إلى ولم أقله عن تكهن وتنجيم ﴿ إني تركت ﴾ يجوز أن يكون كلاماً مبتدأ ، وأن يكون تعليلاً لما قبله . أى علنى ذلك وأوحى إلى : لأنى رفضت ملة أولئك واتبعت ملة الانبياء المذكورين وهى الملة الخفيفة ، وأراد بأولئك الذين لا يؤمنون : أهل مصر ومن كان الفتيان على دينهم ، وتكريرهم للدلالة على أنهم خصوصاً كافرون بالآخرة ، وأن غيرهم كانوا قوماً مؤمنين بها ، وهم الذين على ملة إبراهيم ، ولتوكيد كفرهم بالجزء تنبيهاً على ما هم عليه من الظلم والكبرياء التى لا يرتكبها إلا من هو كافر بدار الجزاء . ويجوز أن يكون فيه تعريض بما منى به من جهتهم حين أودعوه السجن ، بعد ما رأوا الآيات الشاهدة على برامته ، وأن ذلك ما لا يقدم عليه إلا من هو شديد الكفر بالجزاء وذكر آباءه ليريهما أنه من بيت النبوة بعد أن عرفهما أنه نبي يوحى إليه ، بما ذكر من إخباره بالغيوب ليقوى رغبتهما فى الاستماع إليه واتباع قوله ﴿ ما كان لنا ﴾ ماصح لنا معشر الانبياء ﴿ أن نشرك بالله ﴾ أى شئ كان من ملك أو جنى أو إنسى ، فضلاً أن نشرك به صنأ لا يسمع ولا يبصر ، ثم قال ﴿ ذلك ﴾ التوحيد ﴿ من فضل الله علينا وعلى الناس ﴾ أى على الرسل وعلى المرسل إليهم ؛ لأنهم نهوهم عليه وأرشدوهم إليه ﴿ ولكن أكثر الناس ﴾ المبعوث إليهم ﴿ لا يشكرون ﴾ فضل الله فيشركون ولا يتنبهون . وقيل : إن ذلك من فضل الله علينا لأنه نصب لنا الأدلة التى ننظر فيها ونستدل بها . وقد نصب مثل تلك الأدلة لسائر الناس من غير تفاوت ، ولكن أكثر الناس لا ينظرون ولا يستدلون اتباعاً لأهوائهم ، فيبقون كافرين غير شاكرين .

يَصْحَبِ السَّجْنِ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾

مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ

سُلْطَنَ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ  
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾

(يا صاحبي السجن) يريد يا صاحبي في السجن، فأضافهما إلى السجن كما تقول: يا سارق الليلة، فكما أن الليلة مسروق فيها غير مسروقة، فكذلك السجن مصحوب فيه غير مصحوب، وإنما المصحوب غيره وهو يوسف عليه السلام، ونحوه قولك لصاحبيك: يا صاحبي الصدق فتضيفهما إلى الصدق، ولا تريد أنهما صحبا الصدق، ولكن كما تقول رجلا صدق، وسميتهما صاحبين لأنهما صحباك. ويجوز أن يريد: يا ساكني السجن، كقوله (أصحاب النار وأصحاب الجنة) (أرأيت من تفرقون) يريد التفرق في العدد والتكاثر. يقول أن تكون لكأر باب شتى، يستعبد كما هذا ويستعبدك هذا (خير) لكما (أم) أن يكون لكما رب واحد قهار لا يغالب ولا يشارك في الربوبية، بل هو (القهار) الغالب، وهذا مثل ضربه لعبادة الله وحده ولعبادة الأصنام (ما تعبدون) خطاب لها ولمن على دينهما من أهل مصر (إلا أسماء) يعني أنكم سميتم ما لا يستحق الإلهية آلهة. ثم طفقت تعبدونها، فكأنكم لا تعبدون إلا أسماء فارغة لا مسميات تحتها. ومعنى (سميتموها) سميتم بها. يقال: سميته يزيد، وسميته زيدا (ما أنزل الله بها) أي بتسميتها (من سلطان) من حجة (إن الحكم) في أمر العبادة والدين (إلا الله) ثم بين ما حكم به فقال (أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم) الثابت الذي دلت عليه البراهين.

يُصْحَبِ السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ

الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَضَيَّ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾

(أما أحدكما) يريد الشرابي (فيسقي ربه) سيده. وقرأ عكرمة: فيسقي ربه، أي يسقي ما يروى به على البناء للفعول. روى أنه قال للأزول: ما رأيت من الكرمة وحسنها هو الملك وحسن حاله عنده؛ وأما القضبان الثلاثة فإنها ثلاثة أيام تمضي في السجن، ثم تخرج وتعود إلى ما كنت عليه، وقال للثاني: ما رأيت من السلال ثلاثة أيام ثم تخرج فتقتل (قضى الأمر) قطع وتم ما (تستفتيان) فيه من أمركما وشأنكما. فإن قلت: ما استفتيا في أمر واحد، بل في أمرين مختلفين، فما وجه التوحيد؟ قلت: المراد بالأمر ما اتفقا به من سم الملك وما سجننا من أجله، وظننا أن ما رأياه في معنى ما نزل بهما، فكأنهما كانا يستفتيان في الأمر الذي نزل بهما أعاقبه نجاة أم هلاك، فقال لهما: قضى الأمر الذي فيه تستفتيان، أي: ما يجزئ إليه من العاقبة، وهي هلاك أحدهما ونجاة الآخر. وقيل: جحدا وقالوا: ما رأينا شيئا، على ما روى

أنهما تحالما له ، فأخبرهما أن ذلك كائن صدقاً أو كذباً .

وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ

رَبِّهِ فَلَيْثَ فِي السَّجْنِ بَضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

(ظن أنه ناج) الظان هو يوسف إن كان تأويله بطريق الاجتهاد ، وإن كان بطريق الوحي فالظان هو الشراي ، ويكون الظن بمعنى اليقين (اذكُرني عند ربك) صفني عند الملك بصفتي ، وقص عليه قصتي لعله يرحمني وينتاشني من هذه الورطة (فأنساه الشيطان) فأنسى الشراي (ذكر ربه) أن يذكره لربه . وقيل فأنسى يوسف ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره (بضع سنين) البضع ما بين الثلاث إلى التسع ، وأكثر الأقاويل على أنه لبث فيه سبع سنين . فإن قلت : كيف يقدر الشيطان على الإنسان ؟ قلت : يوسوس إلى العبد بما يشغله عن الشيء من أسباب النسيان ، حتى يذهب عنه ويزل عن قلبه ذكره . وأما الإنسَاء ابتداء فلا يقدر عليه إلا الله عز وجل (ما ننسخ من آية أو ننسها) . فإن قلت : ماوجه إضافة الذكر إلى ربه إذا أريد به الملك ؟ وما هي إضافة المصدر إلى الفاعل ولا إلى المفعول ؟ قلت : قد لا يسه في قولك : فأنساه الشيطان ذكر ربه ، أو عند ربه فجازت إضافته إليه ، لأن الإضافة تكون بأدنى ملابسة . أو على تقدير : فأنساه الشيطان ذكر أخبار ربه ، فحذف المضاف الذي هو الإخبار . فإن قلت : لم أنكر على يوسف الاستغاثه بغير الله في كشف ما كان فيه ، وقد قال الله تعالى (وتعاونوا على البر والتقوى) وقال حكاية عن عيسى عليه السلام (من أنصاري إلى الله) وفي الحديث «الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه المسلم» (١) . من فرج عن مؤمن كربة فرج الله عنه كربة من كربات الآخرة ، وعن عائشة رضی الله عنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يأخذ النوم ليلة من الليالي ، وكان يطلب من يجرسه حتى جاء سعد فسمعت غطيظه (٢) . وهل ذلك إلا مثل التدأوى بالأدوية والتقوى بالآشربة والأطعمة . وإن كان ذلك لأن الملك كان كافراً ، فلا خلاف في جواز أن يستعان بالكفار في دفع الظلم والغرق والحرق ونحو ذلك من المضار ؟ قلت : كما اصطفى الله تعالى الأنبياء على خليفته فقد اصطفى لهم أحسن الأمور وأفضلها وأولاها

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة في أثناء حديث .

(٢) متفق عليه من طريق عبد الله بن عامر بن ربيعة عنها بلفظ «أرق رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة . فقال : ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يجرسني الليلة . قال : وسمعت صوت السلاح فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقال سعد بن أبي وقاص : يا رسول الله جئت أحرك . فقالت عائشة فنام حتى سمعت غطيظه وغفل الحاكم فاستدركه .

والأحسن والأولى بالنبي أن لا يكل أمره إذا ابتلى ببلاء إلا إلى ربه ، ولا يعتضد إلا به ، خصوصاً إذا كان المعتضد به كافراً ؛ لئلا يشمت به الكفار ويقولوا لو كان هذا على الحق وكان له رب يغيثه لما استغاث بنا . وعن الحسن أنه كان يبكي إذا قرأها ويقول : نحن إذا نزل بنا أمر فزعنا إلى الناس .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ  
سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَةٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ  
لِلرُّءْيَا تَعْبِرُونَ ﴿٤٣﴾

لما دنا فرج يوسف ، رأى ملك مصر ، الريان بن الوليد ، رؤيا عجيبة حالته : رأى سبع بقرات سمان خرجن من نهر يابس . وسبع بقرات عجاف ، فابتلعت العجاف السمان . ورأى سبع سنبلات خضر قد انعقد حبها ، وسبعاً آخر يابسات قد استحصدت وأدركت ، فالتوت الياصابات على الخضر حتى غلبن عليها ، فاستعبرها فلم يجد في قومه من يحسن عبارتها (سمان) جمع سمين وسمينة ، وكذلك رجال ونسوة كرام . فإن قلت : هل من فرق بين إيقاع (سمان) صفة للبز وهو (بقرات) دون المميز وهو (سبع) وأن يقال : سبع بقرات سمانا ؟ قلت : إذا أوقعها صفة لبقرات . فقد قصدت إلى أن تميز السبع بنوع من البقرات وهى السمان منهن لا بمجنسهن . ولو وصفت بها السبع لقصدت إلى تمييز السبع بمجنس البقرات لا بنوع منها ، ثم رجعت فوصفت المميز بالجنس بالسمن . فإن قلت : هلا قيل : سبع عجاف على الإضافة ؟ قلت ، التمييز موضوع لبيان الجنس ، والعجاف وصف لا يقع البيان به وحده . فإن قلت : فقد يقولون : ثلاثة فرسان وخمسة أصحاب . قلت : الفارس والصاحب والراكب ونحوها : صفات جرت مجرى الأسماء فأخذت حكمها وجاز فيها ما لم يجز في غيرها . ألا تراك لا تقول : عندي ثلاثة ضخام وأربعة غلاظ . فإن قلت : ذلك مما يشكل وما نحن بسيله لا إشكال فيه . ألا ترى أنه لم يقل بقرات سبع عجاف ، له قورع العلم بأن المراد البقرات ؟ قلت : ترك الأصل لا يجوز مع وقوع الاستغناء عما ليس بأصل ، وقد وقع الاستغناء بقولك (سبع عجاف) عما تقترحه من التمييز بالوصف . والعجف : الهزال الذى ليس بعده ، والسبب في وقوع عجاف ، جمع العجفاء ، وأفعل وفعلاء لا يجمعان على فعال : حملة على سمان ، لأنه نقيضه ، ومن دأبهم حمل النظر على النظر ، والنقيض على النقيض . فإن قلت : هل في الآية دليل على أن السنبلات اليايسة كانت سبعاً كالخضر ؟ قلت : الكلام مبنى على انصباؤه إلى هذا العدد

في البقرات السمان والعجاف والسنايل الخضر ، فوجب أن يتناول معنى الآخر السبع ، ويكون قوله (وأخر يابسات) بمعنى وسبعاً آخر . فإن قلت : هل يجوز أن يعطف قوله (وأخر يابسات) على (سنايلات خضر) فيكون مجرور المحل ؟ قلت : يؤدي إلى تدافع ، وهو أن عطفها على (سنايلات خضر) يقتضى أن تدخل في حكمها فتكون معها ميمزاً للسبع المذكورة ، ولفظ الآخر يقتضى أن تكون غير السبع ، بيانه : أنك تقول : عندي سبعة رجال قيام وقيوم ، بالجزء ، فيصح ؛ لأنك ميزت السبعة رجال موصوفين بالقيام والقيوم ، على أن بعضهم قيام وبعضهم قعود ؛ فلو قلت : عنده سبعة رجال قيام وآخرين قعود ، تدافع ففسد (يا أيها الملأ) كأنه أراد الأعيان من العلماء والحكماء . واللام في قوله (للويا) إما أن تكون للبيان ، كقوله (وكانوا فيه من الزاهدين) وإما أن تدخل ؛ لأن العامل إذا تقدم عليه معموله لم يكن في قوته على العمل فيه مثله إذا تأخر عنه ، فعضدها كما يعضدها اسم الفاعل ، إذا قلت : هو عابر للرويا ، لانحطاطه عن الفعل في القوة . ويجوز أن يكون للرويا خبر كان ، كما تقول : كان فلان لهذا الأمر إذا كان مستقلاً به متمكناً منه . و (تعبرون) خبر آخر . أو حال ، وأن يضمن (تعبرون) معنى فعل يتعدى باللام ، كأنه قيل : إن كنتم تنتدبون لعبارة الرويا . وحقيقة عبرت الرويا ذكرت عاقبتها وآخر أمرها ، كما تقول : عبرت النهر ، إذا قطعت حتى تبلغ آخر عرضه وهو عبره <sup>(١)</sup> . ونحوه : أولت الرويا إذا ذكرت ماؤها وهو مرجعها . وعبرت الرويا - بالتخفيف ، هو الذي اعتمده الأثبات ، ورأيتهم يشكرون . وعبرت ، بالتشديد والتعبير والمعبر . وقد عثرت على بيت أنشده المبرد في كتاب الكامل لبعض الأعراب :

رَأَيْتُ رُؤْيَا ثُمَّ عَبَّرْتُهَا وَكُنْتُ لِلْأَحْلَامِ عَبَّارًا <sup>(٢)</sup>

قَالُوا أَضْغَثُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ <sup>(٣)</sup>

(أضغاث أحلام) تخاليلها وأباطيلها ، وما يكون منها من حديث نفس أو وسوسة شيطان . وأصل الاضغاث : ما جمع من أخلاط النبات وحزم ، الواحد : ضغث ، فاستعيرت لذلك ،

(١) قوله «آخر عرضه وهو عبره» في الصحاح : «عبر النهر ، وعبر شطره وجانبه . (ع)

(٢) أنشده المبرد في كتابه . والرويا - بالآلف - مصدر رأى المنامية ، ويقال مجيء بالناء . ومصدر البصرية بالنعكس ، وعبرت الرويا - بالتخفيف وبالتضمين كما هنا - : ذكرت عاقبتها وأدركت غايتها كأولتها . إذا ذكرت ماؤها ومرجعها . والأحلام : جمع حلم بالضم ، وهو ما يراه النائم . والعبار : مبالغة في المعبر أو في العابر ، واللام نداء في الممول لتقوية العامل إذا ضغث بالتأخر ، أو بكونه فرعاً عن الفعل ، وقد اجتمع الأمران هنا فزيدت اللام .



والإضافة بمعنى «من» أى أضغاث من أحلام. والمعنى: هى أضغاث أحلام. فإن قلت: ما هو إلحاح واحد، فلم قالوا: أضغاث أحلام فجمعوا؟ قلت: هو كما تقول: فلان يركب الخيل ويلبس عمامة الخبز، لمن لا يركب إلا فرساً واحداً وما له إلا عمامة فردة، تزيدا في الوصف، فهؤلاء أيضاً تزيدوا في وصف الحلم بالبطلان، فجعلوه أضغاث أحلام. ويجوز أن يكون قد قص عليهم مع هذه الرؤيا رؤيا غيرها (وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين) إما أن يريدوا بالأحلام المنامات الباطلة<sup>(١)</sup> خاصة، فيقولوا: ليس لها عندنا تأويل، فإن التأويل إنما هو للمنامات الصحيحة الصالحة، وإما أن يعترفوا بقصور علمهم وأنهم ليسوا في تأويل الأحلام بنحارير<sup>(٢)</sup>.

وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾

قرئ (وادكر) بالدال وهو الفصح. وعن الحسن: واذكر، بالذال المعجمة. والاصل: تذكر، أى تذكر الذى نجا من الفتين من القتل يوسف وما شاهد منه (بعد أمة) بعد مدة طويلة، وذلك أنه حين استفتى الملك في رؤياه وأعزل على الملأ تأويلها، تذكر الناجى يوسف وتأويله رؤياه ورؤيا صاحبه، وطلبه إليه أن يذكره عند الملك. وقرأ الأشهب العقيلي (بعد أمة) بكسر الهمزة، والإالة النعمة. قال عدى:

ثُمَّ بَعْدَ الْفَلَاحِ وَالْمُلْكِ وَالْإِمَّةِ وَارْتَهُمُ هُنَاكَ الْقُبُورُ<sup>(٣)</sup>

(١) قال محمود: «يحتمل أن يكون مرادهم بالأحلام المنامات ... الخ» قال أحمد: وهذا هو الظاهر، وحل الكلام على الأول يصيره من وادى:

• على لاجب لا يبتدى بماره •

كانهم قالوا: ولا تأويل للأحلام الباطلة فتكون به عالمين. وقول الملك لهم أولا (إن كنتم للرؤيا تعبرون) دليل على أنهم لم يكونوا في علمه عالمين بها، لأنه أتى بكلمة الشك، وجاء اعتراضهم بالقصور مطابقاً لشك الملك الذى أخرجه مخرج استفهامهم عن كونهم عالمين بالرؤيا أولا. وقول الفتى: أنا أنبئكم بتأويله - إل قوله - لعل أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون دليل أيضاً على ذلك. والله أعلم.

(٢) قوله «بنحارير» جمع نحير وهو العالم المتقن، كما في الصحاح. (ع)

(٣) أين كسرى كسرى الملوك أبوسا سب بل أين قبيله سابور

ثم بعد الفلاح والملك والاممة وارتم هناك القبور

ثم صاروا كأنهم ورق جف فآلوت به الصبا والديور

لعدي بن زيد. وكسرى وساسان وسابور: أسماء ملوك وساسان هو أبو الأكرسة. ويرى: أنوشروان، بدل أبوساسان؛ فهو كلمة واحدة. وكسرى الثاني بدل من الأول، مضاف لمبايعة؛ كما يقال: ملك الملوك، وهو فارسى معرب، وأصله خسرو، فغيرته العربية. وإن كان عربياً مأخوذاً من الكسر؛ فالحق أنه كان بكسر شوكه الملوك، ومبايعة مصنف بيان له وقيله متعلق بمحذوف حال من سابور وفي «بل» دلالة على أن سابور أعظم منهما. ونم - بالفتح - ظرف خبر لمحذوف أى هم نم. وإن ضمت فهي عاطفة على محذوف، أى أفلحوا ثم بعد الفلاح، أى البقاء أو الفوز والملك. وروى =

أى بعد ما أنعم عليه بالنجاة. وقرئ (بعد أمه) بعد نسيان<sup>(١)</sup>. يقال: أمه يأمه أمها، إذا نسي. ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ<sup>(٢)</sup> (أنا أنبئكم بتأويله) أنا أخبركم به عن عنده عليه. وفي قراءة الحسن: أنا آتاكم بتأويله (فأرسلون) فابعثوني إليه لاسأله، ومروني باستعباره. وعن ابن عباس: لم يكن السجن في المدينة.

يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ مِمَّانِ يَا كُلُّهُنَّ سَبْعُ عِجَافٍ  
وَسَبْعُ سُذُبَلَاتٍ خُضِرٍ وَأَخْرَ يَا بَسْتِ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾  
المعنى فأرسلوه إلى يوسف، فأناه فقال (يوسف أيها الصديق) أيها البليغ في الصدق، وإنما قال له ذلك لأنه ذاق أحواله وتعرف صدقه في تأويل رؤياه ورؤيا صاحبه حيث جاء كما أول، ولذلك كله كلام محترز فقال (لعلّي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون) لأنه ليس على يقين من الرجوع، فرجما اخترم دونه ولا من علمهم فرجما لم يعلموا. أو معنى (لعلهم يعلمون) لعلهم يعلمون فضلك ومكانك من العلم، فيطلبوك ويخلصوك من محنتك.

قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ مِثَالٍ دَابًّا قَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا  
مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَا كُلُّنَّ مَا قَدَّمْتُمْ  
لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ  
النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

(تزرعون) خبر في معنى الأمر، كقولهم: (تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون) وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للبالغة في إيجاب إيجاد المأمور به، فيجعل كأنه يوجد، فهو يخبر عنه. والدليل على كونه في معنى الأمر قوله (فذرّوه في سنبله). (دأبا) بسكون الهمزة وتحريكها، وهما مصدران: دأب في العمل، وهو حال من المأمورين، أى دأبين: إمّا على تدأبون دأبا، وإمّا على إيقاع المصدر حالا، بمعنى: ذوى دأب (فذرّوه في سنبله) ثلاثا يتسوس. (و) (يا كلن)

== بدله «الرشد». والامة - بالكسر - : النعمة، وبالضم: الجيش العظيم. وارتهم: أى سترتهم قبورهم في ذلك المكان، كناية عن موتهم، فيدفنون في باطن الأرض بعد عظمتهم على وجهها، ثم شههم بالورق الذى جف فاختلفت به الصيا والدبور، فهذه نظيرة كذا وهذه نظيرة كذا، فألوت بمعنى التوت، أو بمعنى: أوقمت به إلى، بمعنى تطاول بهم الزمان حتى تفتت عظامهم وصارت كذلك

(١) قوله «قرئ بعد أمه بعد نسيان» لعله أى بعد. (ع)

(٢) قوله «ومن قرأ بسكون الميم فقد خطئ» بمعنى أثم من الخطأ بالكسر، وهو اللام. أفاده الصحاح. (ع)

من الإسناد المجازي : جعل أكل أهلهم مسنداً إليهم ﴿تحصنون﴾ تحرزون وتخجون (يغاث الناس) من الغوث أو من الغيث . يقال : غيثت البلاد ، إذا مطرت . ومنه قول الأعرابية : غثنا ماشئنا . (يعصرون) بالياء والتاء : يعصرون العنب والزيتون والسمسم . وقيل : يحلبون الضروع . وقرئ : يعصرون ، على البناء للفعول ، من عصره إذا أنجاه ، وهو مطابق للإغاثه . ويجوز أن يكون المبني للفاعل بمعنى ينجون ، كأنه قيل : فيه يغاث الناس وفيه يغيثون أنفسهم ، أى يغيثهم الله ويغيث بعضهم بعضاً . وقيل (يعصرون) يمحطون ، من أعصرت السحابة . وفيه وجهان : إما أن يضمن أعصرت معنى مطرت ، فيعذى تعديته . وإما أن يقال : الأصل أعصرت عليهم فحذف الجار وأوصل الفعل . تأول البقرات السمان والسنبلات الحضر بسنين مخاصيب ، والجفاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بعد الفراغ من تأويل الرؤيا بأن العام الثامن يحى مباركاً خصيباً كثير الخير غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي . وعن قتادة : زاده الله علم سنة . فإن قلت : معلوم أن السنين المجدبة إذا انتهت كان انتهاءها بالخصب ، وإلا لم توصف بالانتهاء ، فلم قلت إن علم ذلك من جهة الوحي ؟ قلت : ذلك معلوم علماً مطلقاً لا مفصلاً . وقوله (فيه يغاث الناس وفيه يعصرون) تفصيل لحال العام ، وذلك لا يعلم إلا بالوحي .

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْمِنُ بِهِ فَمَا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَأَسْأَلُهُ  
مَابَالُ النَّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَافٍ عَلَيْهِنَّ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ  
إِذْ رَأَوْنَهُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ  
الْعَزِيزِ الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَأَوْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾

إنما تأني وتثبت في إجابة الملك ، وقدم سؤال النسوة ليظهر براءة ساحته عما قرف به .<sup>(١)</sup> وبوصحن فيه ،  
لثلاثا يتسلق به الحاسدون<sup>(٢)</sup> إلى تقييح أمره عنده ، ويجعلوه سلباً إلى حط منزلته لديه ، ولثلاثا يقولوا  
ما خلد في السجن سبع سنين إلا لأمر عظيم وجرم كبير حق به أن يسجن ويعذب ويستكف شره .  
وفيه دليل على أن الاجتهاد في نفي التهم واجب وجوب اتقاء الوقوف في مراقفها ، قال عليه السلام :

(١) قال محمود : «إنما تأني وتثبت في إجابة الملك لتظهر براءة ساحته عما قرف به... الخ» قال أحمد : ولقد مدحه النبي صلى الله عليه وسلم على هذه الأناة بقوله : ولو لبثت في السجن بعض ما لبت يوسف لأجبت الداعي ، وكان في طي هذه المدحة بالأناة والتثبت تنزيهه وتبرئته عما لعله يسبق إلى الوم من أنه لم يزلخا بها يؤخذ به ، لأنه إذا صبر وتثبت فيها له أن لا يصبر فيه وهو الخروج من السجن ، مع أن الدواعي متوفرة على الخروج منه ، فلا ن يصبر فيها عليه أن يصبر فيه من أهم أول وأجدر ، والله أعلم .

(٢) قوله «عما قرف به الخ» أى اتهم به . والتسلق : التوسل . (ع)

ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يقفن مواقف التهم<sup>(١)</sup>، ومنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - للبارزين به في معتكفه وعنده بعض نسائه - «هي فلانة»<sup>(٢)</sup> انتقاء للثمة، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: «لقد عجبت من يوسف وكرمه وصبره - والله يغفر له - حين سئل عن البقرات المعجاف والسمان، ولو كنت مكانه ما أخبرتهم حتى أشرط أن يخرجوني. ولقد عجبت منه حين أتاه الرسول فقال: ارجع إلى ربك. ولو كنت مكانه ولبثت في السجن ما لبث، لأسرعت الإجابة»<sup>(٣)</sup> وبادرتهم الباب ولما ابتغيت العذر، إن كان لجليا ذا أناة، وإنما قال: سل الملك عن حال النسوة ولم يقل سله أن يفتش عن شأنهن، لأن السؤال مما يهيج الإنسان ويحركه للبحث عما سئل عنه، فأراد أن يورد عليه السؤال ليجد في التفتيش عن حقيقة القصة وفصل الحديث<sup>(٤)</sup> حتى يتبين له برأته يباناً مكشوفاً يتميز فيه الحق من الباطل. وقرئ (النسوة) بضم النون ومن كرمه وحسن أدبه: أنه لم يذكر سيده مع ما صنعت به وتسببت فيه من السجن والعذاب، واقتصر على ذكر المقطعات أيديهن (إن ربى) إن الله تعالى (بكيدهن عليم) أراد أنه كيد عظيم لا يعلمه إلا الله، لبعد غوره. أو استشهد بعلم الله على أنهن كدنه، وأنه برى بما قرف به. أو أراد الوعيد لمن، أى: هو عليم بكيدهن فجازيهن عليه (ما خطبكن) ما شأنكن (إذ راودتن يوسف) هل وجدتن منه ميلاً إلیكن (قلن حاش لله) تعجباً من عفته وذهابه بنفسه عن شيء من الريبة ومن نزاهته عنها (قالت امرأت العزيز الآن حصحص الحق) أى ثبت واستقر. وقرئ (حصحص) على البناء للمفعول، وهو من حصحص البعير إذا ألقى ثقلاته<sup>(٥)</sup> للإناخة. قال

## (١) يأتي في الأحزاب.

(٢) متفق عليه من حديث علي بن الحسين عن صفية بنت حيي قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يمكث فأتيته أزوره ليلاً لخدمته ثم قلت فأنظمت فقام معي ليلتي. وكان مسكنها في دار أسامة بن زيد فرجلان من الأنصار. فلما رأياه أسرع. فقال: على رسلنا، إنها صفية - الحديث.

(٣) أخرجه عبد الرزاق والطبري من طريقه عن ابن عيينة عن عمرو عن عكرمة هذا بدون قوله «إن كان لجليا ذا أناة» وصله إسحاق من رواية إبراهيم بن يزيد الجوزي عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس بمعناه وزاد: ولولا الكلمة التي قالها مالبث في السجن حتى يبتغي الفرج من عند غير الله - يعني قوله (أذكرني عند ربك) وأخرجه الطبراني وابن مردويه من طريق إسحاق. وأما قوله «إن كان لجليا ذا أناة» فأخرج الطبري من رواية أبي إسحاق عن رجل لم يسم عن أبي الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يرحم الله يوسف، لو كنت أنا المحبوس ثم أرسل إلى لخرجت سريعاً، إن كان لجليا ذا أناة» ورواه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق عن عبد الله بن أبي بكر عن الزهري وعن الأعرج عن أبي هريرة.

(٤) قوله «وفصل الحديث» في الصحاح «فصل الأمر» مفصلة. (ع)

(٥) قوله «ألقى ثقلاته للإناخة» هي ما يقع على الأرض من أعضاء البعير إذا استنخ وغلط كالركبتين وغيرهما، كذا في الصحاح. (ع)

فَحَصَّصَ فِي صُومِ الْأَصْفَاءِ تَقَاتِيَهُ وَنَاءَ يَسْلَى نَوَّةً ثُمَّ صَمًا <sup>(١)</sup>  
ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة والنزاهة <sup>(٢)</sup> واعترافهن على أنفسهن بأنه لم يتعلق بشيء  
مما قرفته به ، لأنهن خصومه . وإذا اعترف الخصم بأن صاحبه على الحق وهو على الباطل ، لم  
يبق لأحد مقال . وقالت المجبرة والحشوية <sup>(٣)</sup> نحن قد بقي لنا مقال ، ولا بد لنا من أن ندق  
في فروة من ثبتت نزاهته .

ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

(ذلك ليعلم) من كلام يوسف ، <sup>(١)</sup> أى ذلك الثبوت والتشمر لظهور البراءة ليعلم العزيز  
(أنى لم أخنه) بظهر الغيب فى حرمة . وعمل (بالغيب) الحال <sup>(٢)</sup> من الفاعل أو المفعول ،  
على معنى : وأنا غائب عنه خفى عن عينه أو وهو غائب عني خفى عن عيني . ويجوز أن يكون  
ظرفاً ، أى بمكان الغيب ، وهو الخفاء والاستتار وراء الأبواب السبعة المغلقة (و) ليعلم  
(أن الله لا يهدي كيد الخائنين) لا ينفذه ولا يستدده ، وكأنه تعريض بامرأته فى خيانتها  
أمانة زوجها ، وبه فى خيانتها أمانة الله حين ساعدها بعد ظهور الآيات على حبسه . ويجوز أن  
يكون تأكيداً لأمانته ، وأنه لو كان خائناً لما هدى الله كيده ولا سدده .

(١) حميد بن ثور يصف بعيراً بأنه أتى فى الحجارة الصلبة أعضاء التى يبرك عليها عند الاناقة ، وأهم جمع  
صماء أو أصم أى صلب . وناء : أى قام مثاقلاً يسلى محبوبى نواة ونهضة واحدة لم يتردد ، ثم صم وعزم على  
السير . وروى أن سمرة بن جندب أتى برجل عنين ، فاشتري له جارية من بيت المال وأدخلها معه ليلة ، فلما  
أصبح قال له : ما صنعت ؟ قال : فعلت حتى حصصت فيه ، فسألها فقالت : لم يصنع شيئاً . فقال : خل سيلها .  
(٢) قال محمود : ولا مزيد على شهادتهن له بالبراءة واعترافهن على أنفسهن ... الخ قال أحد : الصحيح من  
مذاهب أهل السنة تنزيه الأنبياء عن الكبائر والصغار جميعاً ، وتنبع الآية المشفرة بوقوع الصغار بالتأويل . وذهب  
منهم طائفة مع القدريّة إلى تجرّيز الصغار عليهم ، بشرط أن لا تكون منفردة . والصحيح عندنا فى قصة يوسف عليه  
السلام أنه مبرأ عن الوقوع فيها يؤاخذ به ، وإن الوقف عند قوله (همت به) ثم يتبدأ (ومها) . لولا أن رأى  
برهان (به) كما نقول . فقلت زيدا لولا أننى أخاف الله ، فلا يكون المم واقفاً لوجود المانع منه ، وهو رؤية  
البرهان . فإن كان الزمخشري يعرض بأهل السنة فقد بينا معتقدهم ، وإن كان يعرض بالمجبرة والحشوية حقيقة ،  
فكأنه وإياهم .

(٣) قوله «وقالت المجبرة والحشوية نحن قد بقي لنا مقال ولا بد لنا من أن ندق فى فروة» يريد أهل السنة  
وقوله نحن قد بقي لنا الخ يعنى أن حالهم فى تفسير المم والبرهان يمثل بذلك . والفروة : جلدة الرأس . (ع)  
(٤) عاد كلامه . قال : «وقوله (ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب) الخ : من كلام يوسف عليه السلام والمعنى  
أن ذلك الجدل فى ظهور البراءة ليعلم ... الخ» قال أحد : وإرادته لصوم الأحوال أدخل فى تنزيهه ، وأدل على  
أن النرض بهذا الكلام التواضع منه والتبري من تزكية النفس ، فهو أدل على هذا المعنى من حمله على الحادثة الخاصة  
واقه أعلم .

(٥) قوله «وعمل بالغيب الحال من الفاعل» لعله عمل الحال أو التصب على الحال . (ع)

وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي

غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾

ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مركزا وبها لها في الامانة معجبا ومفتخرا ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا سيد ولد آدم ولا فخر ، <sup>(١)</sup> وليبين أن ما فيه من الامانة ليس به وحده ، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه وعصمته فقال ﴿ وما أبرئ نفسي ﴾ من الزلل ، وما أشهد لها بالبراءة السكلية ولا أذكيا . ولا يخلو ، إفا أن يريد في هذه الحادثة ، لما ذكرنا من الهم الذي هو ميل النفس عن طريق الشهوة البشرية لا عن طريق القصد والعزم . وإفا أن يريد به عموم الاحوال ﴿ إن النفس لامارة بالسوء ﴾ أراد الجنس ، أى إن هذا الجنس يأمر بالسوء ويحمل عليه بما فيه من الشهوات ﴿ إلا ما رحم ربي ﴾ إلا البعض الذي رحمه ربي بالعصمة كاللائكة . ويجوز أن يكون ( ما رحم ) في معنى الزمن ، أى : إلا وقت رحمة ربي ، يعنى أنها أمارة بالسوء في كل وقت وأوان ، إلا وقت العصمة . ويجوز أن يكون استثناء منقطعاً ، أى : ولكن رحمة ربي هي التي تصرف الإساءة ، كقوله ( ولا هم ينقدون إلا رحمة ) وقيل معناه : ذلك ليعلم أني لم أخنه لأن المعصية خيانة . وقيل : هو من كلام امرأة العزيز ، <sup>(٢)</sup> أى ذلك الذي قلت ليعلم

(١) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة ، دون قوله « ولا فخر » وذكره بإثباتها أبو نعيم في الدلائل ، من رواية سهيل عن أبيه عنه في أثناء حديث . ورواه ابن أبي عاصم في الآداب له من حديث عائشة بإثباتها . وأخرجه ابن حبان من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص وواثلة وأبي بكر الصديق . ورواه الترمذي من رواية أبي نضرة عن أبي سعيد بلفظ « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » الحديث وقال : حسن . ورواه بعضهم عن أبي نضرة ابن عاصم . وهو عند أحمد وأبي يعلى وأبي نعيم والبيهقي في الدلائل . وهما من طريق أبي نضرة قال : خطبنا ابن عباس على منبر البصرة فذكره . والحديث ابن عباس طريق آخر أخرجهما الدارقطني في الأفراد من رواية خارجة بن مصعب . وهو ضعيف عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس . وأخرى عن ابن مردويه في أثناء حديث الاسراء بأسناد واه . وفي الباب عن عباد بن عباد بن الصامت عند الحاكم وإسناده منقطع وعن أنس عن البزار . وفيه مبارك بن محبوب . وهو متروك ، وعند أبي يعلى وفيه زيادة بن ميمون البخري وعن عبدالله بن سلام أخرجه أبو يعلى والطبراني من رواية بشر بن شفاف عنه . وهو معلول . والمحفوظ عن بشر بن شفاف عن عبدالله بن عمرو . وعن جابر أخرجه الحاكم . وفيه القاسم بن محمد بن عبدالله بن عقيل . وهو متروك .

(٢) عاد كلامه . قال : « وقيل ذلك كله كلام امرأة العزيز أى ذلك الذي قلت ... الخ » قال أحمد : وإنما يجرى الكلام على هذا الوجه إذا ألجأ إليه محوج ، كقوله ( فإذا تأمرون ) إذ لا يمكن جعله من قول الملائكة بوجه ، فتعين أن يصرف الضمير عنه إلى فرعون . وأما هذه الآية فهي تتلو قوله ( وإنه لمن الصادقين ) إلى ما قبل ذلك من الضمير العائدة إلى يوسف عليه السلام قطعاً ، ولا ضرورة تدعو إلى حل الضمير في ( ليعلم ) على العزيز وجعله من كلام يوسف ، وقد تضمنته الآية المصدرة بقول زليخا ، وذلك قوله ( قالت امرأة العزيز ) وفي سياق الآية ما يرشد إلى أن هذا القول جرى منها ويوسف عليه السلام بعد في السجن لم يحضر إلى الملك ، وأنه لما تحتمت براءته بقولها إنه يخرج من السجن ، فذلك قوله ( وقال الملك اتنوني به أستخلصه لنفسي ) .

يوسف أني لم أخنه ولم أكذب عليه في حال الغيبة وجئت بالصحيح والصدق فيما سئلت عنه وما أبرئ نفسي مع ذلك من الخيانة ، فإنني قد خنته حين قرفته <sup>(١)</sup> وقلت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن وأودعته السجن - تريد الاعتذار بما كان منها - إن كل نفس لأثمارة بالسوء إلا ما رحم ربي : إلا نفساً رحمها الله بالعصمة كنفس يوسف (إن ربي غفور رحيم) استغفرت ربها واسترحمتها بما ارتكبت . فإن قلت : كيف صح أن يجعل من كلام يوسف ولا دليل على ذلك ؟ قلت : كفي بالمعنى دليلاً قائداً <sup>(٢)</sup> إلى أن يجعل من كلامه . ونحوه قوله ( قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره ) ثم قال ( فإذا تأمرون ) وهو من كلام فرعون يخاطبهم ويستشيرهم . وعن ابن جريج : هذا من تقديم القرآن وتأخيرها ، ذهب إلى أن ( ذلك ليعلم ) متصل بقوله ( فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن ) ولقد لفقت المبطلات <sup>(٣)</sup> روايات مصنوعة ، <sup>(٤)</sup> فزعموا أن يوسف حين قال ( أني لم أخنه بالغيبة ) قال له جبريل : ولا حين هممت بها ، وقالت له امرأة العزيز : ولا حين حللت تكه سراويلك يا يوسف ، وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله <sup>(٥)</sup> .

وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِنِي فِيهِ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ

لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ٥٤

يقال استخلصه واستخصه ، إذا جعله خالصاً لنفسه وخاصاً به ( فلما كلمه ) وشاهد منه ما لم يحتسب ( قال ) أيها الصديق ( إنك اليوم لدينا مكين ) ذو مكانة ومنزلة ( أمين ) مؤتمن على كل شيء . روى أن الرسول جاءه فقال : أجب الملك ، فخرج من السجن ودعا لاهله : اللهم أعطف عليهم قلوب الاخيار ولا تعم عليهم الاخبار ، فهم أعلم الناس بالاخبار في الوقائع . وكتب على باب السجن : هذه منازل البلوى <sup>(٦)</sup> وقبور الأحياء وشماتة الأعداء وتجربة

(١) قوله « حين قرفته ، أي اتهمته . (ع)

(٢) قوله « دليلاً قائداً ، أي مؤدياً . (ع)

(٣) قوله « ولقد لفقت المبطلات روايات مصنوعة » يريد أهل السنة الذين ساءم المجرة فيما مر . (ع)

(٤) عاد كلامه . قال : « ولقد لفقت المبطلات روايات مصنوعة ... الخ » قال أحمد : ولقد صدق في التوريق على نقله هذه الروايات بالبهت ، وذلك شأن المبطلات من كل طائفة ، كما لفقت القدرة على قصة موسى حين طلب الرؤية وخر صعباً أن الملائكة جعلت تلكوه بأرجلها وتقول : يا ابن النساء الحيض طمعت في رؤية رب العزة ، كل ذلك ليتم لهم غرضهم في أنه طلب محلاً في القول على الله تعالى ، ويحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل ، والله الموفق .

(٥) قوله « وذلك لتهالكهم على بهت الله ورسله ، أي اتهاؤهم بما لم يفعل . أفاده الصحاح . (ع)

(٦) قوله « البلوى » عبارة للنفس البلاء . (ع)

الأصدقاء، ثم اغتسل وتنظف من درن السجن، ولبس ثياباً جدداً<sup>(١)</sup> فلما دخل على الملك قال : اللهم إني أسألك بخيرك من خيره ، وأعوذ بعزتك وقدرتك من شره ، ثم سلم عليه ودعا له بالعبرانية ، فقال : ما هذا اللسان ؟ قال : لسان آبائي ، وكان الملك يتكلم بسبعين لساناً ، فكلّمه بها فأجابته بجميعها ، فتعجب منه وقال : أيها الصديق ، إني أحب أن أسمع رؤياي منك . فقال : رأيت بقرات فوصف لونهن وأحوالهن ومكان خروجهن ، ووصف السنابل وما كان منها على الهيئة التي رآها الملك لا يخرج منها حرفاً ، وقال له : من حقاك أن تجمع الطعام في الأهرام<sup>(٢)</sup> ، فيأتيك الخلق من النواحي يمتارون منك ، ويجمع لك من السكّوز ما لم يجمع لاحد قبلك .

قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْمُ ﴿٥٥﴾

(اجعلني على خزائن الأرض) ولني خزائن أرضك (إني حفيظ عليهم) أمين أحفظ ما تستحفظنيه ، عالم بوجوه التصرف ، وصفا لنفسه بالأمانة والكفاية اللتين هما طلبه المملوك من بولونه ، وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل ، والتكّن مما لأجله تبعث الانبياء إلى العباد ، ولعله أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا حب الملك والدنيا . وعن النبي صلى الله عليه وسلم «رحم الله أخى يوسف ، لو لم يقل اجعلني على خزائن الأرض ، لاستعمله من ساعته ، ولكنه أخر ذلك سنة<sup>(٣)</sup>» فإن قلت : كيف جاز أن يتولى عملاً من يد كافر ويكون تبعاً له وتحت أمره وطاعته ؟ قلت : روى مجاهد أنه كان قد أسلم : وعن قتادة . هو دليل على أنه يجوز أن يتولى الإنسان عملاً من يد سلطان جائر ، وقد كان السلف يتولون القضاء من جهة البغاة ويرونه . وإذا علم النبي أو العالم أنه لا سبيل إلى الحكم بأمر الله ودفع الظلم إلا بتمكين الملك الكافر أو الفاسق . فله أن يستظهر به . وقيل : كان الملك يصدر عن رأيه ولا يعترض عليه في كل ما رأى ، فكان في حكم التابع له والمطيع .

وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ شَاءَ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا

مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾

(١) قوله «لبس ثياباً جدداً» في الصحاح : جديد وجدد ، كسرير وسرور . (ع)

(٢) قوله «أن تجمع الطعام في الأهرام» كذا عبارة النسفي أيضاً ولكنه ليس في الصحاح بل الذي فيه هراء البرد يهراء هراً أي أشد عليه حتى كاد يقتله وهري المال وهري القوم فهم مهروون أي فأصل الأهرام مواضع يشتد فيها البرد . (ع)

(٣) أخرجه الثعالب عن ابن عباس من رواية إسماعيل بن بشر عن جوير عن الضحاك عنه ، وهذا إسنادناقص



(وكذلك) ومثل ذلك التمكن الظاهر (مكننا ليوسف) في أرض مصر. روى أنها كانت أربعين فرسخاً في أربعين (يتبوأ منها حيث يشاء) قرئ بالنون والياء، أى: كل مكان أراد أن يتخذ منزلاً ومتبوأ له، لم يمنع منه لاستيلائه على جميعها ودخوله تحت ملكته وسلطانه. روى أن الملك توجه، وختمه بخاتمه، ورداه بسيفه. ووضع له سريراً من ذهب مكللاً بالدر والياقوت. روى أنه قال له: أما السرير فأشده به ملكك. وأما الخاتم فأدبر به أمرك، وأما التاج فليس من لباسي ولا لباس آبائي. فقال: قد وضعته لإجلالك وإقراراً بفضلك. فجلس على السرير وأنت له الملوكة، وفوض الملك إليه أمره وعزل قظفير، ثم مات بعده، فزوجه الملك امرأته زليخا، فلما دخل عليها قال: أليس هذا خيراً مما طلبت؟ فوجدها عذراء، فولدت له ولدين: إفرائيم وميشا، وأقام العدل بمصر، وأحبته الرجال والنساء، وأسلم على يديه الملك وكثير من الناس، وباع من أهل مصر في سنى القحط الطعام بالدنانير والدرهم في السنة الأولى حتى لم يبق معهم شيء منها، ثم بالحلى والجواهر، ثم بالدواب، ثم بالضياع والعقار، ثم برقابهم حتى استرقهم جميعاً، فقالوا: والله مارأينا كاليوم ملكاً أجلاً ولا أعظم منه، فقال للملك: كيف رأيت صنع الله في فيما خولني فاترى؟ قال: الرأى رأيك: قال: فإني أشهد الله وأشهدك أنى أعتقت أهل مصر عن آخرهم. ورددت عليهم أملاً كههم، وكان لا يبيع من أحد من الممتارين أكثر من حمل بعير، تقسيطاً بين الناس. وأصاب أرض كنعان وبلاد الشام نحو ما أصاب أرض مصر، فأرسل يعقوب بنيه ليمتاروا واحتبس بنيامين (برحمته) بمطائنا في الدنيا من الملك والغنى وغيرهما من النعم (من نشاء) من اقتضت الحكمة أن نشاء له ذلك (ولا نضيع أجر المحسنين) أن نأجرهم في الدنيا.

وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

(ولا جزاء الآخرة خير) لهم. قال سفيان بن عيينة: المؤمن يثاب على حسناته في الدنيا والآخرة، والفاجر يعجل له الخير في الدنيا، وماله في الآخرة من خلاق، وتلا هذه الآية.

وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَحَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَقَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾

لم يعرفوه لطول العهد <sup>(١)</sup> ومفارقتهم إياهم في سن الحداثة، ولاعتقادهم أنه قد هلك، ولذا هابه عن أوهامهم لقلة فكرهم فيه واهتمامهم بشأنه، ولبعد حاله التي بلغها من الملك والسلطان

(١) قال محمود: «إنما أنكره بعد العهد وتغير الصورة... الخ» قال أحمد: وتوارد المتقدمين في دخولهم عليه ومعرفة لم عند ذلك، تدل على أن مجرد دخولهم عليه استعقبته المعرفة بلا مهلة، والله أعلم.

عن حاله التي فارقه عليها طريقاً في البئر ، مشرياً بدراهم معدودة ، حتى لو تخيل لهم أنه هو لكذبوا أنفسهم وظنونهم ، ولأن الملك مما يبدل الزي ويلبس صاحبه من الثياب والاستعظام ما ينكر له المعروف . وقيل : رأوه على زي فرعون <sup>(١)</sup> عليه ثياب الحرير جالساً على سرير في عنقه طوق من ذهب وعلى رأسه تاج ، فسا خطر ببالهم أنه هو . وقيل : مارأوه إلا من بعيد بينهم وبينه مسافة وحجاب ، وما وقفوا إلا حيث يقف طلاب الخواج ، وإنما عرفهم لأنه فارقه وهم رجال ورأى زيمهم قريباً من زيمهم إذ ذاك ، ولأن همته كانت معقودة بهم وبمعرفتهم ، فكان يتأمل ويتفطن . وعن الحسن : ما عرفهم حتى تعرفوا له .

وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتَتُونِي بِأَخٍ لَّكُمْ مِّنْ أَيْسِكُمْ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي  
أَوْفَى السَّكِيلِ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ قَابَ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَّكُمْ  
عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾

(ولما جهزهم بجهازهم) أى أصلحهم بعدتهم وهى عادة السفر من الزاد وما يحتاج إليه المسافرين وأوفر ركابتهم بما جاؤا من الميرة . وقرئ (بجهازهم) بكسر الجيم (قال اتتوني بأخ لكم من أيسكم) لا بد من مقدمة سبقت له معهم ، حتى اجتر القول هذه المسئلة . روى أنه لما رآهم وكلبوه بالعبانية قال لهم : أخبروني من أتم وما شأنكم ؟ فأنى أنكركم . قالوا : نحن قوم من أهل الشام رعاة ، أصابنا الجهد فحشنا نمتار ، فقال : لعلكم جئتم عيوناً تنظرون عورة بلادى ؟ قالوا : معاذ الله ، نحن إخوة بنو أب واحد ، وهو شيخ صديق نبي من الأنبياء ، اسمه يعقوب . قال : كم أتم ؟ قالوا : كنا اثني عشر ، فهلك منا واحد . قال : فكم أتم ههنا ؟ قالوا : عشرة . قال : فأين الأخ الذى تقولون حق ؟ قالوا : هو عند أبيه يتسلى به من الهالك . قال : فمن يشهد لكم أنكم لستم بعيون وأن الذى تقولون حق ؟ قالوا : إنا ببلاد لا يعرفنا فيها أحد فيشهد لنا . قال : فدعوا بعضكم عندى رهينة واتتوني بأخيك من أيسكم ، وهو يحمل رسالة من أيسكم حتى أصدقكم ، فافترعوا بينهم فأصابته القرعة شمعون . وكان أحسنهم رأياً فى يوسف . فلفوه عنده ، وكان قد أحسن إزالهم وضياقتهم (ولا تقربون) فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون داخلًا فى حكم الجزاء مجزوماً ، عطفًا على محل قوله (فلا كيل لكم) كأنه قيل : فإن لم تأتوني به تحرموا ولا تقربوا ، وأن يكون بمعنى النهى .

(١) قوله وقيل رأوه على زي فرعون، إن أريد فرعون موسى ، فلم يكن قد وجد . وعبارة الخازن : زى

ملوك مصر عليه ثياب الخ . (ع)

قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾

(سنراوده عنه أباه) سنخادعه عنه ، وسنجهده ونحتال حتى ننتزعه من يده (وإننا لفاعلون) وإننا لقادرون على ذلك لا نتعابى به . أو وإننا لفاعلون ذلك لا محالة لا نفرط فيه ولا تتوانى .

وَقَالَ لِفَتْمَانِهِ آجِعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِجَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا أُنْقِلِبُوا

إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

(لفتيمته) وقرئ (لفتيانه) وهما جمع فتى ، كإخوة وإخوان في أخ ، و د فعلة ، للقلة . و د فعلان ، للكثرة ، أى لغلماه السكياين (لعلهم يعرفونها) لعلهم يعرفون حق ردها وحق التكرم بإعطاء البدلين (إذا انقلبوا إلى أهلهم) وفرغوا ظروفهم (لعلهم يرجعون) لعل معرفتهم بذلك تدعوهم إلى الرجوع إلينا ، وكانت بضاعتهم النعال والأدم . وقيل : تخوف أن لا يكون عند أبيه من المتاع ما يرجعون به . وقيل : لم ير من السكرم أن يأخذ من أبيه وإخوته ثمناً . وقيل : علم أن ديانتهم تحملهم على رد البضاعة لا يستحلون إمساكها فيرجعون لأجلها . وقيل : معنى (لعلهم يرجعون) لعلهم يردونها .

فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنًا

نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾

(منع منا الكيل) يريدون قول يوسف فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ، لأنهم إذا أئذروا بمنع الكيل فقد منع الكيل (نكتل) نرفع المانع من الكيل ، ونكتل من الطعام ما نحتاج إليه . وقرئ (يكتل) بمعنى يكتل . أخونا ، فينضم اكتياله إلى اكتيالنا . أو يكن سبباً للاكتيال فإن امتناعه بسببه .

قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللَّهُ خَبِيرٌ حَفِظًا

وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾

(هل آمنكم عليه) يريد أنكم قلتم في يوسف (وإننا له لحافظون) كما تقولونه في أخيه ، ثم ختم بضمانكم ، فسا يؤمننى من مثل ذلك . ثم قال (فإنه خير حافظاً) فتوكل على الله فيه ودفعه إليهم . و (حافظاً) تمييز ، كقولك : هو خيرهم رجلاً . والله درّه فارساً . ويجوز أن يكون حالاً .

وقرئ (حفظاً) وقرأ الأعمش: قاله خير حافظ. وقرأ أبو هريرة: خير الحافظين ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ فأرجو أن ينم على تحفظه ولا يجمع على مصيدين.

وَلَمَّا فَتَحُوا مَتْعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَانَا مَا نَبْغِي  
هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَبِيرُ أَهْلِنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَزَدَادُ كَمَلٍ بَعِيرٍ

ذَلِكَ كَمَلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾

وقرئ (ردت إلينا) بالكسر، على أن كسرة الدال المدغمة نقلت إلى الراء، كما في: قيل ويبيع. وحكى قطرب ضرب زيد. على نقل كسرة الراء فيمن سكنها إلى الضاد ﴿ما نبغي﴾ للنبى، أى: ما نبغى فى القول، وما نزيد فيما وصفنا لك من إحسان الملك وإكرامه، وكانوا قالوا له: إنا قدمنا على خير رجل، أنزلنا وأكرمنا كرامة لو كان رجلاً من آل يعقوب ما أكرمنا كرامته. أو ما نبغى شيئاً وراء ما فعل بنا من الإحسان. أو على الاستفهام، بمعنى أى شيء نطلب وراء هذا؟ وفى قراءة ابن مسعود. ما نبغى، بالناء على مخاطبة يعقوب، معناه: أى شيء أطلب وراء هذا من الإحسان، أو من الشاهد على صدقنا؟ وقيل: معناه ما نزيد منك بضاعة أخرى. وقوله ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ جملة مستأنفة موضحة لقوله (ما نبغى) والجل بعدها معطوفة عليها، على معنى: إن بضاعتنا ردت إلينا، فنستظهر بها ﴿ونمير أهلنا﴾ فى رجوعنا إلى الملك ﴿ونحفظ أخانا﴾ فما يصيبه شيء مما تخافه، وزداد باستصحاب أخينا وسق بعير زائد على أوساق أباعرنا، فأى شيء نبغى وراء هذه المباغى التى نستصلح بها أحوالنا ونوسع ذات أيدينا: وإنما قالوا ﴿وزداد كيل بعير﴾ لما ذكرنا أنه كان لا يزيد للرجل على حمل بعير للتقييط. فإن قلت: هذا إذا فسر البغى بالطلب، فأما إذا فسرت به بالكذب والتزيد فى القول، كانت الجملة الأولى وهى قوله (هذه بضاعتنا ردت إلينا) بياناً لصدقهم وانتفاء التزيد عن قيلهم، فما تصنع بالجل البواقى؟ قلت: أعطفها على قوله (ما نبغى) على معنى: لا نبغى فيما نقول (ونمير أهلنا) ونفعل كيت وكيت. ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ، كقولك: وينبغى أن نمير أهلنا، كما تقول: سمعت فى حاجة فلان، واجتهدت فى تحصيل غرضه. ويجب أن أسعى، وينبغى لى أن لا أقصر. ويجوز أن يراد: ما نبغى وما ننطق إلا بالصواب فيما نشير به عليك من تجهيزنا مع أخينا، ثم قالوا: هذه بضاعتنا نستظهر بها ونمير أهلنا ونفعل ونصنع، بياناً لأنهم لا يبيغون فى رأيهم وأنهم مصيبون فيه، وهو وجه حسن واضح ﴿ذلك كيل يسير﴾ أى ذلك مكيل قليل لا يكفيننا، يعنون: ما يكال لهم. فأرادوا أن يزدادوا إليه ما يكال لأخيهم. أو يكون ذلك إشارة إلى كيل بعير، أى ذلك الكيل شيء قليل يجهينا إليه الملك ولا يضايقنا فيه، أو سهل عليه

متيسر لا يتعاضده . ويجوز أن يكون من كلام يعقوب ، وأن حمل بعير واحد شيء يسير لا يحاطر  
لمثله بالولد ، كقوله ( ذلك ليعلم )<sup>(١)</sup>

قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾

(لن أرسله معكم) مناف لحال<sup>(٢)</sup> - وقد رأيت منكم ما رأيت - إرساله معكم (حتى تؤتون موثقاً من الله) حتى تعطوني ما أتوq به من عند الله ، أراد أن يحلفوا له بالله : وإنما جعل الحلف بالله موثقاً منه لأن الحلف به مما تؤكد به العهود وتشدد . وقد أذن الله في ذلك فهو إذن منه (لتأتني به) جواب اليمين : لأن المعنى : حتى تحلفوا لتأتني به (إلا أن يحاط بكم) (إلا أن تغلبوا)<sup>(٣)</sup> فلم تطيقوا الإتيان به . أو إلا أن تهلكوا . فإن قلت : أخبرني عن حقيقة هذا الاستثناء ففيه إشكال ؟ قلت : (أن يحاط بكم) مفعول له ، والكلام المثبت الذي هو قوله (لتأتني به) في تأويل النفي . معناه : لا تمتنعون من الإتيان به إلا للإحاطة بكم ، أى : لا تمتنعون منه لعله من العلل إلا لعله واحدة : وهى أن يحاط بكم ، فهو استثناء من أعم العام في المفعول له ، والاستثناء من أعم العام لا يكون إلا في النفي وحده ، فلا بد من تأويله بالنفي . ونظيره من الإثبات المتأول بمعنى النفي قولهم : أقسمت بالله ما فعلت وإلا فعلت ، تريد : ما أطلب منك إلا الفعل (على ما نقول) من طلب الموثق وإعطائه (وكيل) رقيب مطلع .

(١) قوله «كقوله ذلك ليعلم» هل المراد أن جوانه كونه من كلام يعقوب ، لأن المعنى يؤدي إليه ، كما جاز في قوله تعالى (ذلك ليعلم) كونه من كلام يوسف ؛ لأن المعنى يقود إليه ، فتدبر . (ع)  
(٢) قال محمود : «معناه أن إرساله معكم مناف ... الخ» قال أحمد : لن للنفي المؤكد . وأما قول الزمخشري في المناقاة له ، فله وراء ذلك غرض إنما يطلع عليه من قتل كلامه علماً ، وذلك أنه اعتمد في إحالة الرؤية على الله تعالى ، على أن قوله تعالى (لن تراه) معناه أن الرؤية منافية لحال ، وجعل هذه المناقاة من مقتضى (لن) ثم ألزم ذلك في هذه اللفظة حينما وقعت ، بكل ذلك لقرن الأذهان على أن هذا مقتضى (لن) وقد سبق وجه الرد عليه في ذلك .

(٣) عاد كلامه . قال : «وقوله (لتأتني به إلا أن يحاط بكم) معناه إلا أن تغلبوا فلا تطيقوا الإتيان ... الخ» قال أحمد : وإنما اختص هذا النوع من الاستثناء بالنفي ، لأن المستثنى منه مسكوت عنه ، والنفي عام . إذ يلزم من نفي الإتيان مثلاً نفي جميع العوارض اللاحقة به ضرورة ، فكأنه لعمومه مقرون بذكر المستثنى منه ، ولا كذلك الإتيان ؛ فإنه لا إشعار له بعموم الأحوال ؛ لأنه لا يتوقف إلا على أحدها ، والله أعلم . ولقد صدقت هذه القصة المثل السائر ، وهو قولهم «البلاء موكل بالمنطق» فإن يعقوب عليه السلام قال أولاً في حق يوسف : وأخاف أن يأكله الذئب ، فابتنى من ناحية هذا القول . وقال ههنا ثانياً : إلا أن يحاط بكم ، أى تغلبوا عليه ، فابتنى أيضاً بذلك ، وأحيى بهم ، وغلبوا عليه .

وَقَالَ يَبْنِي لَأَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾

وإنما ناهم أن يدخلوا من باب واحد، لأنهم كانوا ذوى بها، وشارة حسنة، <sup>(١)</sup> اشتهرهم أهل مصر بالقرابة عند الملك والتكرمة الخاصة التي لم تكن لغيرهم، فكانوا مظنة لطموح الأبصار إليهم من بين الوفود، وأن يشار إليهم بالأصابع. ويقال هؤلاء أضياف الملك، انظروا إليهم ما أحسنهم من قتيان، وما أحقهم بالإكرام، لأمرنا أكرمهم الملك وقربهم وفضلهم على الوافدين عليه، تخاف لذلك أن يدخلوا كوكبة واحدة، فيعانوا لجلالهم وجماله وأمرهم في الصدور، فيصيبهم ما يسوؤهم؛ ولذلك لم يوصهم بالتفرق في الكثرة الأولى، لأنهم كانوا بجهولين مغمورين بين الناس. فإن قلت: هل للإصابة بالعين وجه تصح عليه؟ قلت: يجوز أن يحدث الله عز وجل عند النظر إلى الشيء والإعجاب به، نقصاناً فيه وخللاً من بعض الوجوه، ويكون ذلك ابتلاء من الله وامتحاناً لعباده، ليشتمز المحققون من أهل الحشو <sup>(٢)</sup> فيقول المحقق: هذا فعل الله، ويقول الحشوى: هو أثر العين، كما قال تعالى: (وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا) الآية. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يعوذ الحسن والحسين فيقول: أعينك بكلمات الله الساتمة، من كل عين لامة، ومن كل شيطان وهامة، <sup>(٣)</sup> ﴿وما أغنى عنكم من الله من شيء﴾. يعني إن أراد الله بكم سوءاً لم ينفعكم ولم يدفع عنكم ما أشرت به عليكم من التفرق، وهو مصيبتكم لا محالة ﴿إن الحكم إلا لله﴾ ثم قال ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم﴾ أى متفرقين ﴿ما كان يغني عنهم﴾ رأى يعقوب ودخولهم متفرقين شيئاً قط، حيث أصابهم ما ساءهم مع

(١) قوله وكانوا ذوى بها. وشارة حسنة اشتهرهم، في الصحاح: الشارة: اللباس والهيئة. وفيه. اشتهر الأمر، أى وضع. ولفلان فضيلة اشتهرها الناس. (ع)

(٢) قوله وليشتمز المحققون من أهل الحشو، إن كان مراده أهل السنة، فهم يقولون: تأثير العين من قبيل ربط الأسباب بالمسببات، كربط النار بالأحراق، فالسبب مؤثر في الظاهر، والله هو الفاعل في الحقيقة. قال النسق: وأنكر الجبائي العين اه وهو من مشايخ المعتزلة. (ع)

(٣) أخرجه البغاري وأصحاب السنن من رواية المظالم بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس هذا وأتم منه.

تفرقهم ، من إضافة السرقة إليهم وافتضاحهم بذلك ، وأخذ أخيهما بوجدان الصواع في رحله ، وتضاعف المصيبة على أبيهم ﴿ إلا حاجة ﴾ استثناء منقطع ، على معنى : ولكن حاجة ﴿ في نفس يعقوب قضاها ﴾ وهى شفقتة عليهم وإظهارها بما قاله لهم ووصاهم به ﴿ وإنه لذو علم ﴾ يعنى قوله ﴿ وما أغنى عنكم ﴾ وعله بأن القدر لا يغنى عنه الحذر .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾

﴿ آوى إليه أخاه ﴾ ضم إليه بنيامين . وروى أنهم قالوا له : هذا أخونا قد جئتاك به ، فقال لهم : أحسنتم وأصبتم ، وتستجدون ذلك عندى . فأنزلهم وأكرمهم ، ثم أضافهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة . فبقى بنيامين وحده فبكى وقال : لو كان أخى يوسف حياً لاجلسنى معه ، فقال يوسف : بقى أخوك وحيداً ، فأجلسه معه على مائدته وجعل يواكبه ، قال : أنتم عشرة فليزل كل اثنين منكم بيتاً ، وهذا لاثانى له فيكون معى ، فبات يوسف يضمه إليه ويشم رائحته حتى أصبح ، وسأله عن ولده فقال : لى عشرة بنين اشتقت أسماءهم من اسم أخ لى هالك ، فقال له : أتحب أن أكون أخاك بدل أخيك الهالك ؟ قال : من يجد أخاً مثلك ، ولكن لم يلدك يعقوب ولا راحيل ، فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال له ﴿ إنى أنا أخوك ﴾ يوسف ﴿ فلا تبتئس ﴾ فلا تحزن ﴿ بما كانوا يعملون ﴾ بنا فيما مضى ، فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا على خير ، ولا تعلمهم بما أعلمتك . وعن ابن عباس : تعزف إليه . وعن وهب : إنما قال له : أنا أخوك بدل أخيك المفقود ، فلا تبتئس بما كنت تلقى منهم من الحسد والأذى فقد أمنتهم . وروى أنه قال له : أنا لأفارقك . قال : قد علمت اعتماد والدى بى ، فإذا حبستك ازداد غمه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا أن أنسبك إلى ما لا يحمل . قال : لا أبالى فافعل ما بدا لك . قال : فإنى أدس صاعى فى رحلك ، ثم أنادى عليك بأنك قد سرقته ، ليتيأ لى ردك بعد تسريحك معهم . قال : افعل .

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذِنَ مُؤَدِّنُ أَيُّهَا الْعَبْرُ  
إِنَّكُمْ لَسَرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقَدُ صُوعًا

الْمَلِكِ وَلَيْنَ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾

﴿ السقاية ﴾ مشربة يسقى بها وهى الصواع . قيل : كان يسقى بها الملك ، ثم جعلت صاعاً يكال

به . وقيل : كانت الدواب تسقى بها ويكال بها . وقيل : كانت إناء مستطيلاً يشبه المكوك .  
 وقيل : هي المكوك الفارسي الذي يلتقي طرفاه تشرب به الأعاجم . وقيل : كانت من فضة مموهة  
 بالذهب ، وقيل كانت من ذهب . وقيل : كانت مرصعة بالجواهر ﴿ثم أذن مؤذن﴾ ثم نادى  
 مناد . يقال : آذنه أعلمه . وأذن : أكثر الإعلام . ومنه المؤذن ، لكثرة ذلك منه . روى :  
 أنهم ارتحلوا وأمهلهم يوسف حتى انطلقوا ، ثم أمر بهم فأدركوا وحبسوا ، ثم قيل لهم ذلك .  
 والعير : الإبل التي عليها الأحمال ، لأنها تعير : أي تذهب وتجيء . وقيل : هي قافلة الحير ،  
 ثم كثر حتى قيل لكل قافلة عير ، كأنها جمع عير ، وأصلها فعل كسقف وسقف ، فعل به ما فعل  
 بيض وعيد <sup>(١)</sup> ، والمراد أصحاب العير كقوله : يا خيل الله اركبي . وقرأ ابن مسعود : وجعل  
 السقاية ، على حذف جواب لما ، كأنه قيل : فلما جهزهم بجهازهم وجعل السقاية في رحل أخيه ،  
 أمهلهم حتى انطلقوا ، ثم أذن مؤذن . وقرأ أبو عبد الرحمن السلي : تفقدون ، من أفقدته إذا  
 وجدته فقيداً . وقرئ : صواع ، وصاع ، وصوع ، وصوع . بفتح الصاد وضمها ، والعين  
 معجمة وغير معجمة ﴿وأنا به زعيم﴾ يقوله المؤذن ، يريد : وأنا بحمل البعير كفيل ، أؤديه  
 إلى من جاء به ؛ وأراد وسق بغير من طعام جعلاً لمن حصله .

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾

﴿تالله﴾ قسم فيه معنى التعجب مما أضيف إليهم . وإنما قالوا (لقد علمتم) فاستشهدوا  
 بعلومهم . لما ثبت عندهم من دلائل دينهم وأمانتهم في كرتي مجيئهم ومدخلتهم لذلك ، ولأنهم  
 دخلوا وأفواه رواحهم مكعومة <sup>(٢)</sup> ؛ لكلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد من أهل السوق .  
 ولأنهم ردوا بضاعتهم التي وجدوها في رحالهم ﴿وما كنا سارقين﴾ وما كنا قط نوصف  
 بالسرقة وهي منافية لحالنا .

قَالُوا مَا جَزَاءُؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاءُؤُهُ مَنْ وَجِدَ فِي

رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاءُؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾

﴿فما جزاؤه﴾ الضمير للصواع ، أي ، فما جزاء سرقة (إن كنتم كاذبين) في جحودكم

(١) قوله وما فعل بيض وعيد له : وغيد ، باعمام الغين ، وهو جمع غيداء أي ناعمة . أو أعيد ، بمعنى وستان

مانل العنق ، كذا في الصحاح ، فليحذر لفظ المصنف . (ع)

(٢) قوله « وأفواه رواحهم مكعومة » يقال : كعمت البعير ، إذا شددت فيه بالكمام ، وهو شيء يجعل في

فم البعير عند هياجه ، كذا في الصحاح . (ع)



وإذعانكم البراءة منه ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله﴾ أى جزاء سرقة أخذ من وجد في رحله ، وكان حكم السارق في آل يعقوب أن يسترق سنة ، فلذلك استفتوا في جزائه . وقولهم ﴿فهو جزاؤه﴾ تقرير للحكم ، أى : فأخذ السارق نفسه وهو جزاؤه لا غير ، كقولك : حق زيد أن يكسى ويطعم وينعم عليه ، فذلك حقه ، أى : فهو حقه لتقرر ما ذكرته من استحقاقه وتلزمه <sup>(١)</sup> ويجوز أن يكون (جزاؤه) مبتدأ ، والجملة الشرطية كما هي خبره ، على إقامة الظاهر فيها مقام المضمَر . والأصل : جزاؤه من وجد في رحله فهو هو . فوضع الجزاء موضع هو ، كما تقول لصاحبك : من أخو زيد ؟ فيقول لك : أخوه من يقعد إلى جنبه ، فهو هو ، يرجع الضمير الأول إلى من ، والثاني إلى الأخ ، ثم تقول «فهو أخوه» مقيما للظهور مقام المضمَر . ويحتمل أن يكون جزاؤه خبر مبتدأ محذوف ، أى : المسؤول عنه جزاؤه ، ثم أفتوا بقولهم : من وجد في رحله فهو جزاؤه ، كما يقول : من يستغنى في جزاء صيد المحرم جزاء صيد المحرم ، ثم يقول : (ومن قتله منكم متعمدا جزاء مثل ما قتل من النعم) .

فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

﴿فبدأ بأوعيتهم﴾ قيل : قال لهم من وكل بهم : لا بد من تفتيش أوعيتكم ، فانصرف بهم إلى يوسف ، فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء بنيامين لنفي التهمة حتى بلغ وعاءه فقال : ما أظن هذا أخذ شيئا ، فقالوا : والله لا تتركه حتى تنظر في رحله ، فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ، فاستخرجوه منه . وقرأ الحسن : وعاء أخيه ، بضم الواو ، وهي لغة . وقرأ سعيد ابن جبير : إعاء أخيه ، بقلب الواو همزة . فإن قلت : لم ذكر ضمير الصواع مرات ثم أنه ؟ قلت : قالوا رجع بالتأنيث على السقاية ، أو أنت الصواع لأنه يذكر ويؤنث ، ولعل يوسف كان يسميه سقاية وعبيده صواعا ، فقد وقع فيما يتصل به من الكلام سقاية ، وفيما يتصل بهم منه صواعا ﴿كذلك كدنا﴾ مثل ذلك الكيد العظيم كدنا ﴿ليوسف﴾ يعنى علمناه إياه وأوحينا به إليه ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ تفسير للكيد ويان له ، لأنه كان في دين ملك مصر ، وما كان يحكم به في السارق أن يغرم مثلي ما أخذ ، لا أن يلزم ويستعبد ﴿إلا أن يشاء الله﴾

(١) قوله «من استحقاقه وتلزمه» . ويجوز أن يكون جزاؤه مبتدأ . سيذكر أن حكم السارق في دين ملك مصر : أن يغرم مثلي ما أخذ . لأن يلزم ويستعبد . (ع)

أى ما كان يأخذه إلا بمشيئة الله وإذنه فيه ﴿نرفع درجات من نشاء﴾ فى العلم كما رفعنا درجة يوسف فيه . وقرئ : يرفع بالياء . ودرجات بالتونين ﴿وفوق كل ذى علم علم﴾ فوقه أرفع درجة منه فى علمه ، أو فوق العلماء كلهم عليهم هم دونه فى العلم ، وهو الله عز وجل . فإن قلت : ما أذن الله فيه يجب أن يكون حسناً ، فمن أى وجه حسن هذا الكيد ؟ وما هو إلا بهتان ، وتسريق لمن لم يسرق ، وتكذيب لمن لم يكذب ، وهو قوله (إنكم لسارقون) ، (فما جزاؤه إن كنتم كاذبين) ؟ قلت : هو فى صورة البهتان وليس بهتان فى الحقيقة ؛ لأن قوله (إنكم لسارقون) تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف . وقيل : كان ذلك القول من المؤذن لامن يوسف ، وقوله (إن كنتم كاذبين) فرض لا تتفاء برأيتهم . وفرض التكذيب لا يكون تكديباً ، على أنه لو صرح لهم بالتكذيب كما صرح لهم بالتسريق . لكان له وجه ؛ لأنهم كانوا كاذبين فى قولهم : (وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب) هذا وحكم هذا الكيد حكم الحيل الشرعية التى يتوصل بها إلى مصالح ومنافع دينية ، كقوله تعالى لا يوب عليه السلام : (وخذ يدك ضغثاً) ليتخلص من جلدها ولا يحنث ، وكقول إبراهيم عليه السلام : هى أختى ، لتسلم من يد الكافر . وما الشرائع كلها إلا مصالح وطرق إلى التخلص من الوقوع فى المفاسد ، وقد علم الله تعالى فى هذه الحيلة التى لقنها يوسف مصالح عظيمة فجعلها سلباً وذريعة إليها ، فكانت حسنة جميلة وانزاحت عنها وجوه القبح لما ذكرنا .

قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَسْكَانٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾

﴿أخ له﴾ أرادوا يوسف . روى أنهم لما استخرجوا الصاع من رحل بنيامين نكس إخوته رؤوسهم حياء ، وأقبلوا عليه وقالوا له : ما الذى صنعت ؟ فضحكتنا وسودت وجوهنا ، يا بني راحيل ما يزال لنا منك بلاء ، متى أخذت هذا الصاع ؟ فقال : بنو راحيل الذين لا يزال منكم عليهم البلاء ، ذهبتم بأخى فأهلكتموه ، ووضع هذا الصواع فى رحلى الذى وضع البضاعة فى رحالكم . واختلف فيما أضافوا إلى يوسف من السرقة ، فقيل : كان أخذ فى صباه صنما لجده أبى أمه فكسره وألقاه بين الجيف فى الطريق . وقيل : دخل كنيسة فأخذ تمثالا صغيراً من ذهب كانوا يعبدونه فدفنه . وقيل : كانت فى المنزل عناق أو دجاجة فأعطاها السائل . وقيل كانت لإبراهيم عليه السلام منطقة يتوارثها أكبر ولده ، فورثها إسحق ثم وقعت إلى ابنته وكانت أكبر أولاده ، فحضنت يوسف - وهى عمته - بعد وفاة أمه وكانت لا تصبر عنه ، فلما شب أراد يعقوب أن ينتزعه منها ، فعمدت إلى المنطقة فخرمتها على يوسف تحت ثيابه وقالت : فقدت منطقة إسحق .

فانظروا من أخذها ، فوجدوها محزومة على يوسف ، فقالت : إنه لي سلم أفعل به ما شئت ،  
 غلاه يعقوب عندها حتى ماتت ﴿ فأسرها ﴾ إضمار على شريطة التفسير ، تفسيره ﴿ أنتم شر  
 مكاناً ﴾ وإنما أنت لأن قوله ﴿ أنتم شر مكاناً ﴾ جملة أو كلمة ، على تسميتهم الطائفة من الكلام  
 كلمة ، كأنه قيل : فأسر الجملة أو الكلمة التي هي قوله ﴿ أنتم شر مكاناً ﴾ والمعنى : قال في نفسه :  
 أنتم شر مكاناً ؛ لأن قوله ﴿ قال أنتم شر مكاناً ﴾ بدل من أسرها . وفي قراءة ابن مسعود : فأسرها ،  
 على التذكير ، يريد القول أو الكلام . ومعنى ﴿ شر مكاناً ﴾ أنتم شر منزلة في السرق ؛ لأنكم  
 سارقون بالصحة ، لسرقتكم أحاكم من أبيكم ﴿ والله أعلم بما تصفون ﴾ يعلم أنه لم يصح لي ولا  
 لآخي سرقة ، وليس الأمر كما تصفون .

قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ

مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

استعطفوه بإذكارهم إياه حق أبيهم يعقوب ، وأنه شيخ كبير السن أو كبير القدر ، وأن  
 بنيامين أحب إليه منهم ، وكانوا قد أخبروه بأن ولداً له قد هلك وهو عليه ثكلان ،<sup>(١)</sup>  
 وأنه مستأنس بأخيه ﴿ فخذ أحداً مكانه ﴾ فخذ بدلاً على وجه الاسترهان أو الاستبعاد  
 ﴿ إنا نراك من المحسنين ﴾ إلينا فأتتم إحسانك . أو من عادتكم الإحسان فآجروا على  
 عادتكم ولا تغيرها :

قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مِنْ وَجْدِنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُ إِنَّا إِذَا لَطَلِمُونَ ﴿٧٩﴾

﴿ معاذ الله ﴾ هو كلام موجه ، ظاهره : أنه وجب على قضية فتواكم أخذ من وجد الصواع  
 في رحله واستعباده ، فلو أخذنا غيره كان ذلك ظلياً في مذهبكم ، فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ،  
 وباطنه : إن الله أمرني وأوحى إليّ بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصلحة جملة علمها في ذلك ،  
 فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالماً وعاملاً على خلاف الوحي . ومعنى ﴿ معاذ الله أن  
 نأخذ ﴾ نعوذ بالله معاذاً من أن نأخذ ، فأضيف المصدر إلى المفعول به وحذف من . و ﴿ إذا ﴾  
 جواب لهم وجزاء ؛<sup>(٢)</sup> لأن المعنى : إن أخذنا بدلاً ظلمنا .

فَلَمَّا آسَفُونَا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ

(١) قوله « قد هلك وهو عليه ثكلان » أي حزين أسيف على فقد ولده . (ع)

(٢) قوله « وإذا جواب لهم وجزاء » أي لقولهم ( فخذ أحداً مكانه ) . (ع)

عَلَيْكُمْ مَوْتًا مِّنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا قَرَّبْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنَ أَبْرِحَ الْأَرْضَ حَتَّى  
يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾

(استأيسوا) يئسوا . وزيادة السين والتاء في المبالغة نحو ما مر في استعصم . و «النجى» على معنيين : يكون بمعنى المناجى ، كالعشير والسمير بمعنى : المعاشر والمسامر ، ومنه قوله تعالى (وقربناه نجياً) : وبمعنى المصدر الذى هو التناجى . كما قيل النجوى بمعناه . ومنه قيل : قوم نجى ، كما قيل (وإذ هم نجوى) تنزيلاً للمصدر منزلة الأوصاف . ويجوز أن يقال : هم نجى ، كما قيل : هم صديق ، لأنه بزنة المصادر وجمع أنجية . قال :

\* إِنِّي إِذَا مَا الْقَوْمُ كَانُوا أَنْجِيَّةٌ \* (١)

ومعنى (خلصوا) اعتزلوا وانفردوا عن الناس خالصين لا يخالطهم سواهم (نجياً) ذوى نجوى ، أو فوجاً نجياً ، أى مناجياً لمناجاة بعضهم بعضاً . وأحسن منه أنهم تمحصوا تناجياً : لاستجماعهم لذلك ، وإفاضتهم فيه بجد واهتمام ، كأنهم فى أنفسهم صورة التناجى وحقيقته ، وكان تناجيهم فى تدبير أمرهم ، على أى صفة يذهبون ؟ وماذا يقولون لأبيهم فى شأن أخيه ؟ كقوم تعاينوا بما دهمهم من الخطب ، فاحتاجوا إلى التشاور (كبيرهم) فى السن وهو روبيل . وقيل : رئيسهم وهو شمعون : وقيل : كبيرهم فى العقل والرأى وهو يهوذا (ما قرظتم فى يوسف) فيه وجوه : أن تكون دماء صلبة ، أى : ومن قبل هذا قصرتم فى شأن يوسف ولم تحفظوا عهد أيكم . وأن تكون مصدرية ، على أن محل المصدر الرفع على الابتداء وخبره الظرف . وهو (من قبل)

(١) إني إذا ما القوم كانوا أنجيه — واضطرب القوم اضطراب الأرشية  
وشدد فوق بعضهم بالأروية هناك أوصيتى ولا توصى بيه

من أبيات الحماسة . و «ما» زائدة . والأنجية . جمع نجى بمعنى المناجى ، كالسمير والجلس والعشير ، بمعنى المفاعل . أو النجى : مصدر كالذى والأزير والنشج والنشج والضميل ، كلها أنواع من الصوت ، فيكون على حد «زيد عدل» ولو قلت : إنه جمع نجاء مصدر ناجاه ، كقتال مصدر قاتله لجاز ، وكان كالأرشية جمع رشاء وهو حبل الاستقاء والأروية جمع رواء وهو حبل الارتواء والاستقاء أيضاً ، أى : كانوا فرقا متناجين ومتشاورين فيما نزل بهم واضطربوا قياماً وقعوداً وذهاباً وإياباً ، كاضطراب الأرشية على الماء . ويرى : واضطربت أعناقهم كالأرشية . وشد : مبنى للجهول ، أى : شد بعضهم بعضاً وشمره وحزمه بحبال الاستقاء ، كناية عن استعدادهم للحرب . ويعد كونه كناية عن الاستعداد للاستقاء فى الزمن الجذب هناك ، أى : فى ذلك الزمان أو المكان . قيل : أوفيهما أكون شجاعاً صبوراً ، فأوصيتى بغيرى ولا توصى بغيرى . وظاهر البيت جواز الأخبار عن اسم إن بجملة إنشائية وليس كذلك ، بل هو على التأويل كما ترى . والخطاب لمؤتة . ويجوز : أنه لذكر . وثبوت الباء فى الفعلين للإشباع . والهاء فى «بيه» للسكت . فهذا كناية عن شجاعته وتجلده . أو كناية عن كرمه على البعد .

ومعناه : ووقع من قبل تفريطكم في يوسف . أو النصب عطفاً على مفعول ( ألم تعلموا ) وهو ( أن أباكم ) كأنه قيل : ألم تعلموا أخذ أبيكم عليكم موثقاً وتفريطكم من قبل في يوسف ، وأن تكون موصولة بمعنى : ومن قبل هذا ما فرطتموه ، أى قدتموه في حق يوسف من الجنابة العظيمة . ومحل الرفع أو النصب على الوجهين ( فلن أبرح الأرض ) فلن أفارق أرض مصر ( حتى يأذن لى أبى ) فى الانصراف إليه ( أو يحكم الله لى ) بالخروج منها ، أو بالتصاف بمن أخذ أخى ، أو بخلاصه من يده بسبب من الأسباب ( وهو خير الحاكمين ) لأنه لا يحكم أبداً إلا بالعدل والحق .

أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَيْكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا

عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾

وقرى ( سُرِّق ) أى نسب إلى السرقة ( وما شهدنا ) عليه بالسرقة ( إلا بما علمنا ) من سرقة (١) وتيقناه ؛ لأن الصواع استخرج من وعائه ولا شيء أبين من هذا ( وما كنا للغيب حافظين ) وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق . (٢) أو ما علمنا أنك تصاب به كما أصبت بيوسف . ومن قرأ ( سُرِّق ) فعناه : وما شهدنا إلا بقدر ما علمنا من التسريق ، وما كنا للغيب : للأمر الخفى حافظين ، أسرق بالصحة أم دس الصاع فى رحله ولم يشعر .

وَأَسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ ﴿٨٢﴾

قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً

إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾

(١) قال : محمود ومعناه وما شهدنا عليه بالسرقة إلا بما علمناه من سرقة ... الخ قال أحمد : إما أن يكون مقتضى شرعهم حينئذ أن مجرد وجود الشيء بيد المدعى عليه بعد إنكاره يوجب له أحكام السارق فيكون العلم على ظاهره إذا . وإما أن لا يكون كذلك ، فهذا القدر من مجرد وجوده فى رحله لا يوجب علم كونه سارقاً . وغايته أن يفيد ظناً يبتأ ، فيكون المراد بالعلم ههنا الظن . وقد ورد مثله ، ويكون قولهم ( وما كنا للغيب حافظين ) تنبيهاً على أن مستندهم فيما قالوه ظن بمقتضى ظاهر الحال . وأما كشف باطن الأمر الموجب للعلم فليسوا يدعون عليه .

(٢) عاد كلامه . قال : « وقولهم ( وما كنا للغيب حافظين ) معناه : وما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الموثق ... الخ » قال أحمد : وإنما تلتم القراءتان على التأويل الذى ذكرته ، وهو أنهم إنما أضافوا إليه السرقة ظناً بمقتضى ظاهر الحال ، واحترزوا أن يعتقد أنهم علموا ذلك حقيقة فقالوا : وما كنا للغيب حافظين فالقراءتان على التأويل المذكور يقتضيان تبرئتهم من دعوى العلم الجازم عليه . وأما على غيره من التأويلات المذكورة فلا تنظم القراءتان لأن مقتضى الأولى الجرم عليه بالسرقة علماً . ومقتضى الثانية التبرى من الجرم ، والله أعلم .

(القرية التي كنا فيها) هي مصر، أي أرسل إلى أهلها فسلمهم عن كنه القصة (والعير التي أقبلنا فيها) وأصحاب العير، وكانوا قوماً من كنعان من جيران يعقوب. وقيل من أهل صنعاء، معناه: فرجعوا إلى أبيهم فقالوا له ما قال لهم أخوهم فـ (قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً) أردتموه (١) وإلا فما أدري ذلك الرجل أن السارق يؤخذ بسرقة لولا فتواكم وتعليمكم (بهم جميعاً) يوسف وأخيه ورويل أو غيره (لأنه هو العليم) بحالي في الحزن والأسف (الحكيم) الذي لم يبتلى بذلك إلا الحكمة ومصلحة.

وَقَوَّلَىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاسِنَىٰ عَلَىٰ يُونُسَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ

فَهُوَ كَظِيمٌ ٨٤

(وتولى عنهم) وأعرض عنهم كراهة لما جأؤا به (ياأسنى) أضاف الأسف وهو أشد الحزن والحسرة إلى نفسه، والألف بدل من ياء الإضافة، والتجانس بين لفظي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمد فيملح ويبدع، ونحوه (انألقتم إلى الأرض أراضيتهم) (وهم يبهون عنه وينأون عنه). (يحسبون أنهم يحسنون)، (من سبيل نبيا) وعن النبي صلى الله عليه وسلم لم تعط أمة من الأمم - إنا لله وإنا إليه راجعون - عند المحصية إلا أمة محمد صلى الله

(١) قال محمود: وإن هذا شيء أردتموه... الخ، قال أحد: وهذا من الزمخشري إسلاف جواب عن سؤال، كان قائلاً يقول: هم في الواقعة الأولى سولت لهم أنفسهم أمراً بلا مراء، وأما في هذه الواقعة الثانية فلم يتعمدوا في حق بنيامين سوداً، ولا أخبروا أباهم إلا بالواقع على جلبته وماتركوه بمصر لإملاؤين عن استصحابه، فما وجه قوله ثانياً (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) كما قال لهم أولاً، وإذا ورد السؤال على هذا التقرير فلا بد من زيد بسط في الجواب فنقول: كانوا عند يعقوب عليه السلام حينئذ متهمين، وهم قن باتهامه لما أسلفوه في حق يوسف عليه السلام وقامت عنده قرينة تؤكد التهمة وتقويها، وهي أخذ الملك له في السرقة، ولم يكن ذلك إلا من دين يعقوب وحده لامن دين غيره من الناس ولامن عاداتهم، وإلى ذلك وقعت الإشارة بقوله تعالى (ما كان ليأخذ أعاه في دين الملك) تنبيهاً من الله تعالى على وجه اتهام يعقوب لهم، فلم أن الملك إنما فعل ذلك بفتواهم له به، وظن أنهم أفتوه بذلك بعد ظهور السرقة تعمداً ليتخلف أخوهم، وكان الواقع أنهم استفتوا من قبل أن يدعى عليهم السرقة، فذكروا ما عندهم، ولم يشعروا أن المقصود إلزامهم بما قالوا واتهام من هو بحيث تطرق التهمة إليه لاجراء فيه، وخصوصاً فيما يرجع إلى الوالد من الولد. ويحتمل - والله أعلم - أن يكون الوجه الذي سوغ له هذا القول في حقهم أنهم جعلوا مجرد وجود الصواع في رحل من يوجد في رحله سرقة، من غير أن يحيلوا الحكم على ثبوت كونه سارقاً بوجه معلوم، وهذا في شرعنا لا يثبت السرقة على من ادعى عليه، فإن كان شرعهم مثل شرعنا في ذلك ففتواهم إذاً غير محرمة، وهو إشعار بأنهم كانوا حراساً على ثبوت السرقة عليه، ويؤكد ذلك قولهم (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) يؤكدون بذلك ثبوت السرقة عليه، والله أعلم. وقوله لم (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) واقع بمكانه من حاله، وإن كان شرعهم يقتضي ذلك مخالفاً لشرعنا، فالمعدة على الجواب الأول، والله المستعان.

عليه وسلم<sup>(١)</sup>. ألا ترى إلى يعقوب حين أصابه ما أصابه لم يسترجع. وإنما قال بأسنى « فإن قلت : كيف تأسف على يوسف دون أخيه ودون الثالث ، والرزة الأحداث أشد على النفس وأظهر أثراً ؟ قلت : هو دليل على تهادي أسفه على يوسف ، وأنه لم يقع فائت عنده موقعه ، وأن الرزة فيه مع تقادم عهده كان غصاً عنده طرياً .

\* وَلَمْ تُنْفِسْني أَوْفَى الْمُصِيبَاتِ بَعْدَهُ \* (٢)

ولأن الرزة في يوسف كان قاعدة مصيباته التي ترتبت عليها الرزايا في ولده : فكان الأسف عليه أسفاً على من لحق به ﴿وابيضت عيناه﴾ إذا كثرت الاستعبار تحقت العبرة سواد العين وقلبت إلى بياض كدر . قيل : قد عني بصره . وقيل : كان يدرك إدراكاً ضعيفاً . قرئ من الحزن . ومن الحزن ، الحزن كان سبب البكاء الذي حدث منه البياض . فكأنه حدث من الحزن . قيل ما جفت عينا يعقوب من وقت فراق يوسف إلى حين لقائه ثمانين عاماً ، وما على وجه الأرض أكرم على الله من يعقوب . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سأل جبريل عليه السلام : ما بلغ من وجد يعقوب على يوسف<sup>(٣)</sup> ؟ قال : وجد سبعين ثكلى . قال : فما كان له من الأجر ؟ قال : أجر مائة شهيد ، وما ساء ظنه بالله ساعة قط . فإن قلت : كيف جاز لنبي الله أن يبلغ به الجزع ذلك المبلغ ؟ قلت : الإنسان مجبول على أن لا يملك نفسه عند الشدائد من الحزن ، ولذلك حمد صبره وأن يضبط نفسه حتى لا يخرج إلى ما لا يحسن ، ولقد بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ولده

(١) أخرجه الثعلبي من حديث محمد بن سعيد الهادي عن إسماعيل بن الربيع بن سفيان بن زياد المصفرى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بهذا مرفوعاً وأخرجه الطبراني في الدعاء من وجه آخر عن سفيان بن زياد . ورواه عبد الرزاق من طريق الطبري عن الثوري عن سفيان عن زياد المصفرى عن سعيد بن جبير أقول وكذا رواه البيهقي في الشعب من رواية أبي عامر عن الثوري قال : ورفعه بعض الضعفاء وليس بشيء .

(٢) تعزيت عن أوفى بغيلان بعده عزاء وجفن العين ملاسن . وترع

فلم تنسني أوفى المصيبات بعده ولكن نكاه القرح بالقرح أوجع

لشمام بن عتبة العذري ، يرثي أخاه ذي الرمة ، واسمه غيلان بن عتبة . ويرثي أوفى بن دلم . وقيل : يرثي أخويه . يقول : تعزيت أي تسليت عن أوفى بموت غيلان بعده ، أي نأبى ما يوجب النسيان الأول ولم أنسه . والحال أن جفن عيني عتلى بالدموع . أو المعنى : تكلفت التسلي فلم أقدر . ويقال : أترع الحوض إذا ملأه بالماء في المترع توكيد . ويجوز تشبيه الجفن بالحوض على طريق المكنية والارتفاع تخيل ، فلم تنسني أوفى المصيبات التي أصابني بعده موت أخي غيلان ، ولكن زادني حزناً على حزني . والقرح : الجرح إذا اندمل ويشت جليته . والنكاه : كشط تلك الجلبة . ويرى : ولكن نكاه بتشديد النون . والنكاه : التي منها وزن الضرب ، فصبه حال مصيبته الأولى التي طرأ عليها غير ما فزادها بحال ذلك الجرح على سبيل التثنية ، أي : ولكن نكاه القرح أوجع به من الحالة الأولى . وأظهر محل المضمر لأظهار التوجع والتفجع . أو المعنى : ولكن نكاه القرح الأول بقرح غيره أوجع بالإنسان مما كان ، فبالقرح متعلق بأوجع ، أو بشكاه .

(٣) لم أجده مرفوعاً ، وأخرجه الطبري من رواية عيسى بن يزيد عن الحسن البصري أنه قيل له : ما بلغ ... فذكره .

إبراهيم وقال : « القلب يجزع ، والعين تدمع ، ولا نقول ما يسخط الرب ، وإنا عليك يا إبراهيم لمخزونون <sup>(١)</sup> » ، وإنما الجزع المذموم ما يقع من الجهلة من الصباح والنياحة ، ولطم الصدور والوجوه ، وتمزيق الثياب . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه بكى على ولد بعض بناته وهو يجود بنفسه ، فقيل : يا رسول الله ، تبكى وقد نهيتنا عن البكاء ؟ فقال : ما نهيتكم عن البكاء وإنما نهيتكم عن صوتين أحقن : صوت عند الفرح ، وصوت عند الترح <sup>(٢)</sup> . وعن الحسن أنه بكى على ولد أو غيره ، فقيل له في ذلك ، فقال : ما رأيت الله جعل الحزن عاراً على يعقوب ﴿ فهو كظيم ﴾ فهو مملوء من الغيظ <sup>(٣)</sup> على أولاده ولا يظهر ما يسوؤهم ، فعيل بمعنى مفعول ، بدليل قوله (وهو مكظوم) من كظم السقاء إذا شدته على ملته ، والكظم بفتح الظاء : مخرج النفس . يقال : أخذ بأ كظامة .

قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُوا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْمَلِكِينَ <sup>(٤)</sup>  
﴿ تفتؤ ﴾ أراد : لا تفتؤ ، فحذف حرف النفي لأنه لا يلتبس بالإثبات ، لأنه لو كان إثباتاً لم يكن بدّ من اللام والنون . ونحوه :

\* فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا \* <sup>(٥)</sup>

(١) متفق عليه من حديث أنس .

(٢) قال الخرج : عزاه الطيبي إلى الصحيحين فلم يصب . ولم يرد هذا في ولد بعض بناته وإنما ورد في ولده إبراهيم كأخريجه الترمذي وابن أبي شبة وإسحاق وعبد بن حميد وغيرهما من حديث جابر . وأخريجه الحاكم من حديث عبد الرحمن ابن عوف نحوه . والذي ورد في بعض بناته متفق عليه من حديث أسامة وفيه « ففاضت عيناه فقال له سعد : ما هذا يا رسول الله ؟ قال هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده ، قلت والأول إنما هو بلفظ « قال عبد الرحمن بن عوف : أتبكي ، أو لم تكن نهيت عن البكاء ؟ قال : لا ، ولكن نهيت عن صوتين أحقن : صوت عند مصيبة ، ونخش وجوه ، ورنه شيطان ، وشق جيوب . وصوت زفمة لمب وهو ومزامير شيطان » .

(٣) قوله « فهو مملوء من الغيظ » أي الغضب الكامن . أفاده الصحاح . قوله « ولا يظهر ما يسوؤهم » أي لما صنعوا بيوسف وأخيه . (ع)

(٤) سموت إليها بعد ما نام أهلها سمو حجاب الماء حالا على حال ولوقطعوا رأسى لديك وأوصالى

لأمرئ القيس . يقول : سموت إلى محبوبتي سلى بعد نوم أهلها ، ولم يسمع لي أحد صوتاً ، ولم تشعر بي هي إلا وأنا عندها ، كسمو حجاب الماء فوقه بسهولة . وحجاب الماء - بالضم : اسم لثياني الماء . وحجاب الماء - بالفتح : فقاؤه التي تعالوه . وقوله : « حالاهي حال » واقع موقع الحال المؤكدة للتشبيه ، أي : حالاً منطبقاً على حال ومساوياً له ، كقولك « سواء بسواء » وههنا حذف ، أي : غففتي بالقوم ، فقلت : يمين الله أبرح ، أي : لا أبرح قاعدا . وحذف دلاء النافية للمضارع بعد القسم كثير لأن اللبس ، ولأنه لو لا تقديرها لوجب اقتران الفعل بلام جواب القسم أو بنون التوكيد أو بهما . ويمين : نصب بمحذوف ، أي أحلف يمين الله ، فهو كالمصدر النائب عن فعله . وبقية القصة تقدمت .



ومعنى (لا نفتق) لا تزال . وعن مجاهد : لا تفتقر من حبه ، كأنه جعل الفتور والفتور أخوين .  
يقال : ما فتى يفعل . قال أوس :

فَمَا فَتَيْتُ خَيْلُ تَثُوبٍ وَتَدْعِي وَيَلْحَقُ مِنْهَا لَاحِقٌ وَفَقَطُ<sup>(١)</sup>

(حرضاً) مشغياً على الهلاك مرضاً ، وأحرضه المرض ، ويستوى فيه الواحد والجمع والمذكر والمؤنث ، لأنه مصدر . والصفة : حرض ، بكسر الراء . ونحوهما : دنف ودنف ، وجاءت القراءة بهما جميعاً . وقرأ الحسن : حرضاً ، بضمين ، ونحوه في الصفات : رجل جنب وغرب .

قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ<sup>(٨٦)</sup>

البث : أصعب الهم الذي لا يصبر عليه صاحبه ، فيثبته إلى الناس أى ينشره . ومنه : باثه أمره ، وأبثه إياه . ومعنى (إنما أشكو) إني لا أشكو إلى أحد منكم ومن غيركم ، إنما أشكو إلى ربى داعياً له وملتجئاً إليه ، غلوني وشكائى . وهذا معنى توليه عنهم ، أى فتولى عنهم إلى الله والشكاية إليه . وقيل : دخل على يعقوب جاره فقال : يا يعقوب ، قد تهشمت وفنيت وبلغت من السن ما بلغ أبوك ! فقال : هشمى وأفنائى ما ابتلانى الله به من هم يوسف ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكونى إلى خلقى ؟ قال : يارب خطيئة أخطأتها فاعف عني ، فغفر له ، فكان بعد ذلك إذا سئل قال : إنما أشكو بئى وحزنى إلى الله . وروى أنه أوحى إلى يعقوب : إنما وجدت عليكم لأنكم ذبحتم شاة فقام يياكم مسكين فلم تطعموه ، وإن أحب خلقى إلى الانبياء ، ثم المساكين ، فاصنع طعاماً وادع عليه المساكين . وقيل : اشترى جارية مع ولدها ، فباع ولدها فبكت حتى عميت (وأعلم من الله ما لا تعلمون) أى أعلم من صنعته ورحمته وحسن ظنى به أنه يأتينى بالفرج من حيث لا أحسب . وروى أنه رأى ملك الموت فى منامه فسأله : هل قبضت روح يوسف ؟ فقال ، لا والله هو حى قاطله . وقرأ الحسن : وحزنى ، بفتحين . وحزنى ، بضمين : قتادة .

يَسْبِي آذَهُبُوا فَتَحَسُّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُؤُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ

لَا يَبْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ<sup>(٨٧)</sup>

(١) لادرس بن حجر ، وكنى بالخيل عن أصحابها . ويقال : ثاب وثوب . إذا لوح بطرف ثوبه عند النداء من بعيد . وتدعى : تفعل من الدعاء أى يدعو بعضهم بعضاً . ويحتمل أن ثوب بمعنى ترجع ، أى تذهب وترجع . ومعنى تدعى ، تلاحق وينتصب بعضها إلى بعض مجازاً ، فيجوز أن الخيل حقيقة . أو شبه الخيل بالناس على طريق المكنية ، والادعاء بمعنى التنادى تخيل ، وهذان الوجهان أنسب بقوله ويلحق أى يسبق منها سابق . وتقطع : أى تنقطع وينقطع بعضها عن بعض قطعاً قطعاً ، فهي تجتمع وتفرق : صور الحرب من أولها إلى آخرها فى هذا البيت ، أى : فإزالت الخيل تفعل كذلك حتى انتهت الحرب .

﴿فَتَحْسَبُوا مِنْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ فتعترفوا منهما وتطلبوا خبرهما. وقرئ بالجيم ، كما قرئ بهما في الحجرات ، وهما تفعل من الإحساس وهو المعرفة (فلما أحس عيسى منهم الكفر) ومن الجس ، وهو الطلب . ومنه قالوا المشاعر الإنسان : الحواس ، والجواس ﴿من روح الله﴾ من فرجه وتنفيسه . وقرأ الحسن وقتادة : من روح الله ، بالضم : أى من رحمته التى يحيا بها العباد .

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَيْنَا الضَّرُّ وَجِئْنَا بِبِصَاصٍ مُرْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾

﴿الضر﴾ الهزال من الشدة والجوع ﴿مزجاة﴾ مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً لها ، من أزجيتها إذا دفعته وطرده ، والريح ترحى السحاب ، قيل : كانت من متاع الأعراب صوفاً وسمناً . وقيل : الصنوبر وحب الخضراء . وقيل : سوق المقل والأقط . وقيل : دراهم زيوفاً لا تؤخذ إلا بوضيعة ﴿فأوف لنا الكيل﴾ الذى هو حقنا ﴿وتصدق علينا﴾ وتفضل علينا بالمساحة والإغماض عن رداء البضاعة ، أو زدنا على حقنا ، فسموا ما هو فضل وزيادة لا تلزمه صدقة ، لأن الصدقات محظورة على الأنبياء . وقيل كانت تحمل لغير نبينا . وسئل ابن عينة عن ذلك فقال : ألم تسمع ﴿وتصدق علينا﴾ أراد أنها كانت حلالاً لهم . والظاهر أنهم تمسكوا له وطلبوا إليه أن يتصدق عليهم ، ومن ثم رقب لهم وملكتهم الرحمة عليهم ، فلم يتمالك أن عرفهم نفسه . وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ شاهد لذلك لذكر الله وجزأته ، والصدقة : العطية التى تبتغى بها المثوبة من الله : ومنه قول الحسن - لمن سمعه يقول : اللهم تصدق على :- إن الله تعالى لا يتصدق ؛ إنما يتصدق الذى يبتغى الثواب . قل : اللهم أعطني ، أو تفضل على ، أو ارحمنى .

قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾

﴿قال هل علمتم﴾ أناهم من جهة الدين وكان حليماً موقفاً ، ﴿١﴾ فكلهم مستغفراً عن وجه القبح الذى يجب أن يراعيه التائب ، فقال : هل علمتم قبح ﴿ما فعلتم يوسف وأخيه﴾ إذ أنتم

(١) قال محمود : «أناهم من جهة الدين وكان حليماً موقفاً ، فكلهم مستغفراً عن معرفة وجه القبح ... الخ» قال أحد : ومن نطقه بهم قوله (إذ أنتم جاهلون) كالأعتذار عنهم ، لأن فعل القبح على جهل بمقدار قبحه أسهل من فعله على علم ، وهم لوضربوا فى طرق الاعتذار لم يلقوا عذراً كهذا ، ألا ترى أن موسى عليه السلام لما اعتذر عن نفسه لم يرد على أن قال : فعلتها إذا وأنا من الضالين .

جاهلون) لا تعلمون قبجه، فلذلك أقدمتم عليه، يعنى: هل علمتم قبجه فتبتم إلى الله منه، لأن علم القبح يدعو إلى الاستقباح، والاستقباح يحترق إلى التوبة، فكان كلامه شفقة عليهم وتنصيحاً لهم في الدين. لامعاقبة وثريراً: إشاراً لحق الله على حق نفسه، في ذلك المقام الذى يتنفس فيه المكروب، وينفث المصدور،<sup>(١)</sup> ويتشقى المغيظ المحقق، ويدرك ثأره الموتور، فله أخلاق الأنبياء ما أوطأها وأسجحها<sup>(٢)</sup> والله حصا عقولهم ما أرزنها وأرجحها. وقيل: لم يرد نفي العلم عنهم، لأنهم كانوا علماء، ولكنهم لما لم يفعلوا ما يقتضيه العلم ولا يقدم عليه إلا جاهل<sup>(٣)</sup>، سباهم جاهلين. وقيل: معناه إذ أنتم صبيان في حد السفه والطيش قبل أن تبلغوا أو أن الحلم والرزنة. روى أنهم لما قالوا: مسنا وأهلنا الضر، وتضرعوا إليه: أرفضت عيناه، ثم قال هذا القول. وقيل: أدوا إليه كتاب يعقوب: من يعقوب إسرائيل الله بن إسحق ذبيح الله بن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر. أما بعد، فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء: أما جدى، فشددت يداه ورجلاه ورمى به في النار ليحرق فتجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاماً، وأنا أبى فوضع السكين على قفاه ليقتل ففداه الله. وأما أنا فكان لى ابن وكان أحب أولادى إلى فذهب به إخوته إلى البرية ثم أتونى بقميصه ملطخاً بالدم وقالوا قد أكله الذئب، فذهبت عيشتى من بكائى عليه، ثم كان لى ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به، فذهبوا به ثم رجعوا وقالوا: إنه سرق، وأنت حبسته لذلك. وإننا أهل بيت لا نسرق ولا نلدسارفاً، فإن رددته على وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابع من ولدك والسلام. فلما قرأ يوسف الكتاب لم يتمالك وعيل صبره، فقال لهم ذلك. وروى أنه لما قرأ الكتاب بكى وكتب الجواب: اصبر كما صبروا تظفر كما ظفروا. فإن قلت: ما فعلهم بأخيه؟ قلت: تعريضهم إياه للغم والشكل<sup>(٤)</sup> بإفراذه عن أخيه لآيئهم وأمه، وجفاؤهم به، حتى كان لا يستطيع أن يكلم أحداً منهم إلا كلام الدليل للعزيز، وإيذاؤهم له بأنواع الأذى.

قَالُوا أَيْنَ نَكَ لَا نَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ

(١) قوله «وينفث المصدور... الخ» المصدور: الذى يشكى صدره. والمحقق: المغيظ. والموتور: الذى قتل له قتل فلم يدرك بدمه، كذا في الصحاح. (ع)

(٢) قوله «ما أوطأها وأسجحها» أى ما أسهلها وما أرفقها، أفاده الصحاح. وفيه: فلان ذو حصاة، أى ذو عقل ولب، لحصا عقولهم: إضافة بيانية. (ع)

(٣) قوله «ولا يقدم عليه إلا جاهل» لعله عطف على المعنى لأن قوله «لم يفعلوا... الخ» بمعنى فعلوا ما لا يقتضيه العلم. (ع)

(٤) والشكل: فقدان المرأة ولدها، كما في الصحاح. والمراد هنا الحزن. (ع)

مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكُمُ اللَّهُ عَلَمًا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقِيصَى هَذَا قُلُوبُهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

قرئ (أنتك) على الاستفهام. وأنتك، على الإيجاب. وفي قراءة أبي: أنتك وأنت يوسف، على معنى أنتك يوسف أو أنت يوسف، لحذف الأول لدلالة الثاني عليه، وهذا كلام متعجب مستغرب لما يسمع، فهو يكرر الاستثبات. فإن قلت: كيف عرفوه؟ قلت: رأوا في روايته<sup>(١)</sup> وشبائله حين كلمهم بذلك ما شعروا به أنه هو، مع علمهم بأن ما خاطبهم به لا يصدر مثله إلا عن حنيف مسلم من سنخ إبراهيم، لا عن بعض أعزاء مصر. وقيل: تبسم عند ذلك فعرفوه بشباياه وكانت كاللؤلؤ المنظوم. وقيل: ما عرفوه حتى رفع التاج عن رأسه فنظروا إلى علامة بقرنه كانت ليعقوب وسارة مثلها، تشبه الشامة البيضاء. فإن قلت: قد سألوهم عن نفسه فلم أجابهم عنها وعن أخيه؟ على أن أخاه كان معلوماً لهم. قلت: لأنه كان في ذكر أخيه بيان لما سألوهم عنه ﴿من يتق﴾ من يخف الله وعقابه ﴿ويصبر﴾ عن المعاصي وعلى الطاعات ﴿فإن الله لا يضيع﴾ أجرهم، فوضع المحسنين موضع الضمير لاشتراكه على المتقين والصابرين ﴿لقد آثرك الله علينا﴾ أى فضلك علينا بالتقوى والصبر وسيرة المحسنين. وإن شأنتنا وحالنا أنا كنا خاطئين متعمدين للإثم، لم نتق ولم نصبر، لا جرم أن الله أعزك بالملك وأذلنا بالتمسك بين يديك ﴿لا تثريب عليكم﴾ لا تأنيب عليكم ولا عتب. وأصل التثريب من الثرب وهو الشحم الذى هو غاشية الكرش. ومعناه: إزالة الثرب، كما أن التجليد والتفريع إزالة الجلد والقرع<sup>(٢)</sup>، لأنه إذا ذهب كان ذلك غاية الهزال والعجف الذى ليس بعده، فضرِب مثلاً للتفريع الذى يمزق الأعراض ويذهب بماء الوجوه. فإن قلت: بم تعلق اليوم؟ قلت: بالتثريب، أو بالمقدر فى (عليكم)

(١) قوله «قلت رأوا فى روايته» بالضم، أى منظره. أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «والقرع» فى الصحاح «القرع، بالتحريك: بثر أبيض، يخرج بالنصال. والتفريع: معالجة

الفصيل من القرع، يتوع ذلك منه. (ع)

(٣) قال: «فإن قلت بم تعلق اليوم فى قوله (لا تثريب عليكم اليوم) ... الخ، قال أحد: وهذا المعنى إنما يتوجه على الاعراب الأول وهو الأوجه. ألا ترى إلى قولهم بعد ذلك (يا أيها الذين آمنوا استغفروا ذنوبنا إنا كنا خاطئين) وقوله (سوف استغفر لكم ربى) دل على أنهم كانوا بعد فى عهد الذنب، ولو كان متعلّقاً بغيره لزم أن يقطعوا بغفران ذنوبهم حينئذ بأخبار النبى الصديق. ويحتمل أن يقال: إنما أراد مغفرة ما يرجع إلى حقه دون حق أبيه، إذ الإثم كان مشتركاً بينهما، والله أعلم.

من معنى الاستقرار . أو يغفر . والمعنى : لا أثربكم اليوم ، وهو اليوم الذى هو مظنة التثريب ، فما ظنكم بغيره من الأيام ، ثم ابتداء فقال ﴿ يغفر الله لكم ﴾ فدعا لهم بمغفرة ما فرط منهم . يقال : غفر الله لك ، ويغفر الله لك ، على لفظ الماضى والمضارع جميعاً . ومنه قول المشمت « يهديكم الله ويصاح بالكم » و ( اليوم يغفر الله لكم ) بشارة بعاجل غفران الله ، لما تجدد يومئذ من توبتهم وندمهم على خطيئتهم . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ بعضادى باب الكعبة يوم الفتح ، فقال لقريش : ما تروتنى فاعلا بكم ؟ قالوا : نظن خيراً ، أخ كريم وابن أخ كريم : وقد قدرت . فقال : أقول ما قال أنى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم <sup>(١)</sup> . وروى أن أباسفيان لما جاء ليسلم قال له العباس : إذا أتيت الرسول فاتل عليه ( لا تثريب عليكم ) ففعل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : غفر الله لك ولمن علمك <sup>(٢)</sup> . ويروى أن إخوته لما عرفوه وأرسلوا إليه : إنك تدعونا إلى طعامك بكرة وعشية ، ونحن نستحي منك لما فرط منا فيك ، فقال يوسف : إن أهل مصر وإن ملكك فيهم ، فإنهم ينظرون إلى بالعين الأولى ويقولون سبحان من بلغ عبداً بيع بعشرين درهما ما بلغ ، ولقد شرفت الآن بكم وعظمت فى العيون حيث علم الناس أنكم إخوتى . وأنى من حفدة إبراهيم ﴿ اذهبوا بقميصى هذا ﴾ قيل هو القميص المتوارث الذى كان فى تعويد يوسف وكان من الجنة ، أمره جبريل عليه السلام أن يرسله إليه فإن فيه ريح الجنة ، لا يقع على مبتلى ولا سقيم إلا عوفى ﴿ يأت بصيراً ﴾ يصر بصيراً ، كقولك : جام البناء حكا ، بمعنى صار . ويشهد له ( فارتد بصيراً ) أو يأت إلى وهو بصير . وينصره قوله ﴿ وأأتونى بأهلكم أجمعين ﴾ أى يأتنى أبى ، ويأتنى آلهم جميعاً وقيل : يهوذا هو الحامل ، قال : أنا أحزنته بحمل القميص ملطوخاً بالدم إليه ، فأفرجه كما أحزنته . وقيل : حمله وهو حاف حاسر <sup>(٣)</sup> من مصر إلى كنعان ، وبينهما مسيرة ثمانين فرسخاً .

وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّى لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنِ تُفَنِّدُون <sup>(٩٤)</sup>  
 قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِى ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ <sup>(٩٥)</sup> فَلَمَّا أَنَّ جَاءَ الْيَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى  
 وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّى أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ <sup>(٩٦)</sup>

(١) أخرجه النسائى والبيهقى من رواية ثابت عن عبد الرحمن بن رباح عن أبى هريرة بمناه وأتم منه . وأخرجه التلبي من رواية سمعان بن عطاء عن ابن عباس بهذا اللفظ وأتم منه . وكذا ذكره ابن إسحاق عن بعض أهل العلم وقال فيه « قدرت فاسمع ، وكذا أخرجه الواقدى فى المغازى من حديث برة بنت تيمارة . ورواه أبو عبيد فى الأموال عن إسماعيل بن عياش عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين .

(٢) لم أجده

(٣) قوله « وهو حاف حاسر » أى لا مغفر له ولا درع ، أفاده الصحاح . (ع)

﴿فصلت العير﴾ خرجت من عريش مصر. يقال: فصل من البلد فصولا، إذا انفصل منه وجاوز حيطانه. وقرأ ابن عباس: فلما انفصل العير ﴿قال﴾ لولد ولده ومن حوله من قومه: ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ أوجده الله ريح القميص حين أقبل من مسيرة ثمان. والتنفيد: النسبة إلى الفند، وهو الحرف وإنكار العقل من هرم. يقال: شيخ مفند، ولا يقال عجوز مفندة؛ لأنها لم تكن في شببتها ذات رأى فتفند في كبرها. والمعنى: لولا تنفيديكم إياي لصدقتموني ﴿لني ضللك القديم﴾ لني ذهابك عن الصواب قدما في إفراط محبتك ليوسف، ولهجك بذكره، ورجائك للقائه، وكان عندهم أنه قد مات ﴿ألقاه﴾ طرح البشير القميص على وجهه يعقوب. أو ألقاه يعقوب ﴿فارتد بصيرا﴾ فرجع بصيرا. يقال: رده فارتد، وارتده إذا ارتجعه ﴿ألم أقل لكم﴾ يعني قوله ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ أو قوله ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ وقوله ﴿إني أعلم﴾ كلام مبتدأ لم يقع عليه القول، ولك أن توقعه عليه وترد قوله ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ وري: أنه سأل البشير كيف يوسف؟ فقال: هو ملك مصر: فقال: ما أصنع بالملك؟ على أي دين تركته؟ قال: على دين الإسلام. قال: الآن تمت النعمة.

قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ

لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

﴿سوف أستغفر لكم﴾ قيل: أخر الاستغفار إلى وقت السحر. وقيل: إلى ليلة الجمعة ليتعمد به وقت الإجابة. وقيل: ليتعترف حالهم في صدق التوبة وإخلاصها. وقيل: أراد الدوام على الاستغفار لهم. فقد روى أنه كان يستغفر لهم كل ليلة جمعة في نيف وعشرين سنة. وقيل: قام إلى الصلاة في وقت السحر، فلما فرغ رفع يديه وقال: اللهم اغفر لي جزعي على يوسف وقلة صبري عنه، واغفر لولدي ما أتوا إلى أخيهم، فأوحى إليه: إن الله قد غفر لك ولهم أجمعين. وروى أنهم قالوا له وقد علمهم الكتابة: ما يغني عنا عفوكا إن لم يعف عنا ربنا، فإن لم يوح إليك بالعفو فلا قرت لنا عين أبدا، فاستقبل الشيخ القبلة قائما يدعو، وقام يوسف خلفه يؤتمن، وقاموا خلفهما أذلة خاشعين عشرين سنة حتى بلغ جهدهم وظنوا أنها الهلكة نزل جبريل عليه السلام فقال: إن الله قد أجاب دعوتك في ولدك، وعقد موافقهم بعدك على النبوة، وقد اختلف في استنبائهم.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجْدًا وَقَالَ يَا بَنِي هَذَا

تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ

لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾

﴿فلما دخلوا على يوسف﴾ قيل وجه يوسف إلى أبيه جهازاً ومائتي راحلة ليتجهز إليه بمن معه . وخرج يوسف والملك في أربعة آلاف من الجند والعطاء وأهل مصر بأجمعهم ، فتلقوا يعقوب وهو يمشى يتوكأ على يهوذا ، فنظر إلى الخيل والناس فقال : يا يهوذا ، أهذا فرعون مصر ؟ قال لا ، هذا ولدك ، فلما لقيه قال يعقوب عليه السلام : السلام عليك يا مذهب الأحزان . وقيل إن يوسف قال له لما التقيا : يا أبت ، بكيت على حتى ذهب بصرك ، ألم تعلم أن القيامة تجمعنا ؟ فقال : بلى ، ولكن خشيت أن تسلب دينك فيحال بيني وبينك ، وقيل : إن يعقوب وولده دخلوا مصر وهم اثنان وسبعون ، ما بين رجل وامرأة ، وخرجوا منها مع موسى ومقاتلتهم ستائة ألف وخمسمائة وبضعة وسبعون رجلا سوى الذرية والهرمى ، وكانت الذرية ألف ألف ومائتي ألف ﴿أوى إليه أبويه﴾ ضمهما إليه واعتنقهما . قال ابن أبي إسحق : كانت أمه تحي . وقيل : هما أبوه وخالته . ماتت أمه فترجها وجعلها أحد الأباوين : لأن الرابة تدعى أمًا ، لقيامها مقام الأم . أو لأن الحالة أم كما أن العم أب . ومنه قوله (واله أباك إبراهيم وإسماعيل وإسحق) فإن قلت : ما معنى دخولهم عليه قبل دخولهم مصر ؟ قلت : كأنه حين استقبالهم نزل لهم في مضرب <sup>(١)</sup> أو بيت ثم ، فدخلوا عليه وضم إليه أبويه ، ثم قال لهم ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ ولما دخل مصر وجلس في مجلسه مستويا على سريره واجتمعوا إليه ، أكرم أبويه فرفعهما على السرير ﴿وخزوا له﴾ بمعنى الإخوة الأحد عشر والأباوين ﴿سجدا﴾ ويجوز أن يكون قد خرج في قبة من قباب الملوك التي تحمل على البغال ، فأمر أن يرفع إليه أبواه ، فدخلا عليه القبة . فأواهما إليه بالضم والاعتناق وقربهما منه . وقال بعد ذلك : ادخلوا مصر . فإن قلت : بهم تعلقت المشيئة ؟ قلت : بالدخول مكيفاً بالآمن ، لأن القصد إلى اتصافهم بالآمن في دخولهم ، فكأنه قيل لهم : اسلبوا وأمنوا في دخولكم إن شاء الله . ونظيره قولك للغاى : ارجع سالماً غانماً إن شاء الله . فلا تعلق المشيئة بالرجوع مطلقاً ، ولكن مقيداً بالسلامة والغنيمة ، مكيفاً بهما . والتقدير : ادخلوا مصر آمين إن شاء الله دخلتم آمين ، ثم حذف الجزاء لدلالة الكلام عليه ، ثم اعترض بالجملة الجزائية بين الحال وذى الحال . ومن بدع التفسير أن قوله

(١) قوله «في مضرب» عبارة النسبي : مضرب خيمة . (ع)

(إن شاء الله) من باب التقديم والتأخير، وأن موضعها ما بعد قوله (سوف أستغفر لكم ربي) في كلام يعقوب، وما أدرى ما أقول فيه وفي نظائره. فإن قلت: كيف جاز لهم أن يسجدوا لغير الله؟ قلت: كانت السجدة عندهم جارية مجرى التحية والتكرمة، كالقيام، والمصافحة وتقبيل اليد. ونحوها مما جرت عليه عادة الناس. من أفعال شهرت في التعظيم والتوقير. وقيل: ما كانت إلا انحناء دون تغيير الجباه، وخروهم سجداً ياباه. وقيل: معناه وخزوا لأجل يوسف سجداً لله شكراً. وهذا أيضاً فيه نبوة. يقال: أحسن إليه وبه، وكذلك أساء إليه وبه. قال:

\* أَسِيئِي بِنَا أَوْ أَحْسِنِي لَأَمْلُومَةٌ \* (١)

(من البدو) من البادية؛ لأنهم كانوا أهل عمد وأصحاب مواش ينتقلون في المياه والمناجع (نزع) أفد بيننا وأغرى، وأصله من نخس الرائض الدابة وحمله على الجرى. يقال: نزعته ونسغه، إذا نخسه (لطيف لما يشاء) لطيف التدبير لأجله، رفيق حتى يجيء على وجه الحكمة والصواب. وروى أن يوسف أخذ يسد يعقوب فطاف به في خزائنه، فأدخله خزائن الورق والذهب، وخزائن الحلي، وخزائن الثياب، وخزائن السلاح وغير ذلك، فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بني، ما أعقك: عندك هذه القراطيس وما كتبت إلى علي ثمان مراحل؟ قال: أمرني جبريل. قال أو ما تسأله؟ قال: أنت أبسط إليه مني فسله. قال جبريل عليه السلام: الله تعالى أمرني بذلك لقولك (وأخاف أن يأكله الذئب) قال: فهلا خفتني؟ وروى أن يعقوب أقام معه أربعاً وعشرين سنة ثم مات. وأوصى أن يدفنه بالشام إلى جنب أبيه إسحق. ففسي بنفسه ودفنه ثمة، ثم عاد إلى مصر، وعاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم له، طلبت نفسه الملك الدائم الخالد، فتأقت نفسه إليه فتعنى الموت. وقيل: ماتناه نبي قبله ولا بعده، فتوفاه الله طيباً طاهراً، فتخاصم أهل مصر وتشاحوا في دفنه: كل يحب أن يدفن في محلاتهم حتى هموا بالقتال، فرأوا من الرأي أن عملوا له صندوقاً من مرمر وجعلوه فيه، ودفنوه في النيل بمكان يمز عليه الماء ثم يصل إلى مصر ليكونوا كلهم فيه شرعاً واحداً (٢)، وولد له: إفرايم وميشا، وولد لإفرايم نون؛ ولنون يوشع فتى موسى، ولقد توارثت الفراعنة من العماليق بعده مصر، ولم يزل بنو إسرائيل تحت أيديهم على بقايا دين يوسف وآبائه. إلى أن بعث الله موسى صلى الله عليه وسلم.

(١) مر شرح هذا الشاهد صفحة ٢٧٩ من هذا الجزء فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله « ليكونوا كلهم فيه شرعاً واحداً »، في الصحاح: الناس في هذا الأمر شرع، أى سواء. يحرك ويمكن. (ع)



رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ  
وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾

«من، في ﴿من الملك﴾ و﴿من تأويل الأحاديث﴾ للتبويض، لأنه لم يعط إلا بعض ملك الدنيا، أو بعض ملك مصر وبعض التأويل ﴿أنت ولي﴾ أنت الذي تتولاني بالنعمة في الدارين، وبوصل الملك الفاني بالملك الباقي ﴿توفى مسلماً﴾ طلب للوفاة على حال الإسلام، ولأن يتختم له بالخير والحسن، كما قال يعقوب لولده (ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون) ويجوز أن يكون تمنياً للوفاة على ما قيل ﴿والحقني بالصالحين﴾ من آبائي أو على العموم. وعن عمر ابن عبد العزيز: أن ميمون بن مهران بات عنده فرآه كثير البكاء والمسألة للوفاة، فقال له: صنع الله على يدك خيراً كثيراً: أحيت سننا وأمت بدعا وفي حياتك خير وراحة للمسلمين، فقال: أفلا أكون كالعبد الصالح لما أقز الله عينه وجمع له أمره قال: توفى مسلماً والحقني بالصالحين. فإن قلت: علام انتصب فاطر السموات؟ قلت على أنه وصف لقوله (رب) كقولك أخازيد حسن الوجه. أو على النداء.

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا  
أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾

﴿ذلك﴾ إشارة إلى ما سبق من نبأ يوسف، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومحلّه الابتداء. وقوله ﴿من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ خبر إن. ويجوز أن يكون اسماً موصولاً بمعنى الذي، و﴿من أنباء الغيب﴾ صلته و﴿نوحيه﴾ الخبر. والمعنى: أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي، لأنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم وهو إلقاءهم أخاهم في البئر، كقوله (وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب)؛ وهذا تهكم بقریش وبمن كذبه؛ لأنه لم يخف على أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه، ولا لقي فيها أحداً ولا سمع منه. ولم يكن من علم قومه. فإذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حملته ورواته، لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي، فإذا أنكروه تهكم بهم. وقيل لهم: قد علمت بامكابرة أنه لم يكن مشاهداً لمن مضى من القرون الخالية: ونحوه: (وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر)، ﴿وهم يمكرون﴾ يوسف ويعقوب له الفوائد.

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ

أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾

﴿وما أكثر الناس﴾ يريد العموم ، كقوله (واكثر أ كثر الناس لا يؤمنون) وعن ابن عباس رضى الله عنه . أراد أهل مكة ، أى وما هم بمؤمنين ﴿ولو حرصت﴾ ونها لكت على إيمانهم لتصميمهم على الكفر وعنادهم ﴿وما تسألهم﴾ على ما تحذشهم به وتذكركم أن ينيلوك منفعة وجدوى ، كما يعطى حملة الاحاديث والاخبار ﴿إن هو إلا ذكر﴾ عظة من الله ﴿للعالمين﴾ عامة ، وحث على طلب النجاة على لسان رسول من رسله .

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾  
﴿من آية﴾ من علامة ودلالة على الخالق وعلى صفاته وتوحيده ﴿يمرون عليها﴾ يمررون عليها . ويشاهدونها وهم معرضون عنها لا يعتبرون بها . وقرئ (والارض) بالرفع على الابتداء ، ويمرون عليها : خبره . وقرأ السدى (والارض) بالنصب على : ويطنون الارض يمزون عليها . وفى مصحف عبد الله : والارض يمشون عليها ، برفع الارض ، والمراد ما يرون من آثار الالام الهالكة وغير ذلك من العبر .

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾

﴿وما يؤمن أكثرهم﴾ فى إقراره بالله وبأنه خلقه وخلق السموات والارض ، إلا وهو مشرك بعبادته الوثن ، وعن الحسن : هم أهل الكتاب معهم شرك وإيمان . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هم الذين يشبهون الله بخلقه .

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾

﴿غاشية﴾ نقمة تغشاهم . وقيل : ما يغمرهم من العذاب ويحللهم . وقيل : الصواعق .

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَسُبْحَانَ اللَّهِ

وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

﴿هذه سبيلي﴾ هذه السبيل التى هى الدعوة إلى الإيمان والتوحيد سبيل . والسبيل والطريق : يذكرا ويؤثان ، ثم فسر سبيله بقوله ﴿أدعوا إلى الله على بصيرة﴾ أى أدعو إلى دينه مع حجة واضحة غير عمياء . و﴿أنا﴾ تأكيد للاستتر فى (أدعو) . ﴿ومن اتبعني﴾ عطف عليه . يريد : أدعو إليها أنا ، ويدعو إليها من اتبعني . ويجوز أن يكون (أنا) مبتدأ ، و (على بصيرة) خبراً مقدماً ، و (من اتبعني) عطفاً على (أنا) إخباراً مبتدأ بأنه ومن اتبعه على حجة

وبرهان ، لا على هوى . ويجوز أن يكون (على بصيرة) حالاً من (أدعو) عاملة الرفع في (أنا ومن اتبعني) ، (وسبحان الله) وأنزهه من الشركاء .<sup>(١)</sup>

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾

(إلا رجالاً) لا ملائكة ؛ لأنهم كانوا يقولون (لو شاء ربنا لأنزل ملائكة) وعن ابن عباس رضى الله عنهما : يريد ليست فيهم امرأة . وقيل : في سجاح المنتبئة

\* وَلَمْ تَزَلْ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ ذُكْرَانًا \*<sup>(٢)</sup>

وقرى : نوحى إليهم ، بالنون<sup>(٣)</sup> . (من أهل القرى) لأنهم أعلم وأحل ، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة (ولدار الآخرة) ولدار الساعة ، أو الحال الآخرة (خير للذين اتقوا) للذين خافوا الله فلم يشركوا به ولم يعصوه . وقرئ : أفلا تعقلون ، بالتاء والياء .

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرِدُ بَاسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

نَشَاءُ وَلَا يُرِدُ بَاسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾

(١) قوله « وأنزهه من الشركاء » ، لعله « عن » . (ع)

(٢) أخصت نبيتنا أنثى نساء بها ولم تزل أنبياء الله ذكراً  
فلعننا الله والأقوام كلهم على سجاح ومن بالافك أغرانا .  
أعنى مسيلة الكذاب لاسقيت أصدائه ماء مزون حيثما كانا

لقيس بن عاصم . وروى : نطيف بها ، بدل نساء بها . وطاف به يطوف : دار حوله . وطاف به بطيف : أتى عليه ونزل به . وهذا مبنى للجهول منه ، عطف على أخصت . وروى بدل الشطر الأول ، فاستمعت بأثى قط أرسلها ، فالفاعل ضمير الله وإن لم يتقدم له مرجع لظهوره . وروى بدل الثانى : وأصبحت أنبياء الناس ذكراً . وسجاح : علم امرأة من سجع إذا سجع وعفا ، وهى بنت المنذر ، كانت شريفة فى قومها بنى حنيفة ، فادعت النبوة ، ثم تزوجت بمسيلة الكذاب فأنبئه قومها ، ثم حارب أبو بكر رضى الله عنه فقتل على يدي وحشى قاتل حمزة ، فأسلمت بعده وحسن إسلامها . وروى « بالقوم » بدل الافك . ولاسقيت : جلة دغائية . والأصداء : جمع صدى ، وهو ذكر البوم : كانت العرب تزعم أن عظام رأس القليل تصير يومئذ ترقو وتصيح : أدركنى أدركونى ، حتى يؤخذ بثأره ، وهى هنا مجاز عن جنته كلها . والمزنت واحدة مزنة وهو السحاب ، أى : اللهم اجعل قبره حاراً عليه لا يناله غيث .

(٣) قوله « وقرئ » (نوحى إليهم) بالنون مبني للمعلوم ؛ فتكون القراءة الأصلية بالياء ، مبني للجهول . (ع)

(حتى) متعلقة بمحذوف دل عليه الكلام ، كأنه قيل : (وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا) فترأى نصرهم حتى استيأسوا عن النصر (وظنوا أنهم قد كذبوا) أى كذبتهم أنفسهم<sup>(١)</sup> حين حدثتهم بأنهم ينصرون ، أو رجاؤهم لقولهم : رجاء صادق ، ورجاء كاذب ، والمعنى أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت ، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم فى الدنيا ، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله من النصر<sup>(٢)</sup> وقال : كانوا بشرأ ، وتلا قوله (وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله) فإن صح هذا عن ابن عباس ، فقد أراد بالظن : ما يخطر بالبال ويهجس فى القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية . وأما الظن الذى هو ترجيح أحد الجانبين على الآخر ، فغير جائز على رجل من المسلمين ، فما بال رسل الله الذين هم أعرف الناس بربهم ، وأنه متعال عن خلف الميعاد ، منزه عن كل قبيح ؟ وقيل : وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا ، أى : أخلفوا . أو : وظن المرسل إليهم أنهم كذبوا من جهة الرسل ، أى : كذبتهم الرسل فى أنهم ينصرون عليهم ولم يصدقهم فيه . قرئ : كذبوا ، بالتشديد على : وظن الرسل أنهم قد كذبتهم قومهم فيما وعدوهم من العذاب والنصرة عليهم . وقرأ مجاهد : كذبوا ، بالتخفيف ، على البناء للفاعل ، على : وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به قومهم من النصرة ، إما على تأويل ابن عباس ، وإما على أن قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثراً قالوا لهم : إنكم قد كذبتهمونا فيكونون كاذبين عند قومهم . أو وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا . ولو قرئ بهذا مشدداً ، لكان معناه : وظن الرسل أن قومهم كذبوهم فى موعدهم . قرئ : فننجى ، بالتخفيف والتشديد ، من أنجاه ونجاه . وفتنجى ، على لفظ الماضى المبني للفعول . وقرأ ابن محيصن : فنجا . والمراد بـ (من نشاء) المؤمنون ، لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم . وقد بين ذلك بقوله (ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين)

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولَى الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)

(١) قال محمود : «معناه يشعروا من النصر وظنوا أن أنفسهم كذبتهم... الخ ، قال أحد : ولا يلزم أن يكون الله وعدهم بالنصر فى الدنيا ، بل كانوا يظنون ذلك ويرجونه لاعتبار أخبار ووحى ،  
(٢) ما دكلامه . قال : «ونقل عن ابن عباس أنه قال : فظنوا حين ضعفوا وغلبوا... الخ ، قال أحد : وهذا أيضاً تأويل حسن ينظم بين القراءتين : لأن ظن الأمم كذب رسلهم تكذيب لهم ، فيؤدى مؤدى قراءة التشديد .

الضمير في ﴿قصصهم﴾ للرسل ، وينصره قراءة من قرأ ﴿في قصصهم﴾ بكسر القاف . وقيل : هو راجع إلى يوسف وإخوته . فإن قلت : فالإلام يرجع الضمير في ﴿ما كان حديثاً يفترى﴾ فيمن قرأ بالكسر ؟ قلت : إلى القرآن . أى : ما كان القرآن حديثاً يفترى ﴿ولكن﴾ كان ﴿تصديق الذى بين يديه﴾ أى قبله من الكتب السماوية ﴿وتفصيل كل شيء﴾ يحتاج إليه فى الدين ، لأنه القانون الذى يستند إليه السنة والإجماع والقياس بعد أدلة العقل . وانتصاب مانصب بعد ﴿لكن﴾ للعطف على خبر كان . وقرئ (ذلك) بالرفع على : ولكن هو تصديق الذى بين يديه .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : علموا أرقامكم سورة يوسف ، فإنه أيماناً مسلم تلاها وعلما أهله وما ملكت يمينه هؤن الله عليه سكرات الموت ، وأعطاه القوة أن لا يحسد مسلماً (١) .

## سورة الرعد

[ مدنية ، وقيل [ مختلف فيها ]

وهي ثلاث وأربعون آية [ نزلت بعد سورة محمد ]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَرِّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ

أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١)

﴿ تلك ﴾ إشارة إلى آيات السورة . والمراد بالكتاب السورة ، أى : تلك الآيات آيات السورة الكاملة العجيبة فى بابها ، ثم قال ﴿ والذى أنزل إليك ﴾ من القرآن كله هو ﴿ الحق ﴾ الذى لا مزيد عليه ، لا هذه السورة وحدها ، وفى أسلوب هذا الكلام قول الأنبارية : هم كالحلقة (٢) المفرعة ، لا يدري أين طرفاها ؟ تريد الكلمة .

(١) تقدم إسناده فى تفسير آل عمران وهو فى آخر آل عمران ، وفى آخر الكتاب أيضاً .

(٢) قوله « الأنبارية هم كالحلقة » أى فى أولادها . (ع)

اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ  
 لِلشَّمْسِ وَالْقَمَرِ كُلَّ يَوْمٍ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ  
 بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا  
 وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
 لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾

(الله) مبتدأ. و (والذي) خبره، بدليل قوله (وهو الذي مَدَّ الأرض) ويجوز أن يكون  
 صفة. وقوله (يدبر الأمر يفصل الآيات) خبر بعد خبر. وينصره ما تقدمه من ذكر الآيات  
 (رفع السموات بغير عمد ترونها) كلام مستأنف استشهاد برؤيتهم لها كذلك. وقيل هي صفة  
 لعمد. ويعضده قراءة أي. ترونها. وقرئ: عمد، بضمين (يدبر الأمر) يدبر أمر ملكوته  
 وربوبيته (يفصل) آياته في كتبه المنزل (لعلكم - توقنون) بالجزاء وبأن هذا المدبر والمفصل  
 لا بد لكم من الرجوع إليه. وقرأ الحسن: ندبر. بالثون (جعل فيها زوجين اثنين) خلق  
 فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت. وقيل:  
 أراد بالزوجين: الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير، وما أشبه ذلك  
 من الأصناف المختلفة (يغشى الليل النهار) يلبسه مكانه، فيصير أسود مظلاً بعد ما كان أبيض  
 منيراً. وقرئ: يغشى، بالتشديد.

وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَرَزْعٌ وَنَخِيلٌ صُنُوفٌ وَغَيْرُ  
 صُنُوفٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَّضْلُ بَعْضُهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ  
 لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

(قطع متجاورات) بقاع مختلفة، مع كونها متجاورة متلاصقة: طيبة إلى سبخة، وكريمة  
 إلى زهيدة، (١) وصلبة إلى رخوة، وصالحة للزرع للشجر إلى أخرى على عكسها، مع انتظامها  
 جميعاً في جنس الأرضية. وذلك دليل على قادر مريد، موقع لأفعاله على وجه دون وجه.  
 وكذلك الزروع والسكريوم والنخيل النابتة في هذه القطع، مختلفة الاجناس والأنواع، وهي  
 تسقى بماء واحد، وتراها متغايرة الثمر في الأشكال والألوان والطعوم والروائح، متفاضلة فيها.

(١) قوله «زهيدة» في الصحاح: واد زهيد قليل الأخذ للاء، وأرض زهاد: أي لاتيل إلا عن مطركثير. (ع)

وفي بعض المصاحف: قطعاً متجاورات على: وجعل. وقرئ: وجنات، بالنصب للعطف على زوجين. أو بالجر على كل الثمرات. وقرئ: وزرع ونخيل، بالجر عطفاً على أعناب أو جنات والصنوان: جمع صنو، وهي النخلة لها رأسان، وأصلهما واحد. وقرئ بالضم. والكسر: لغة أهل الحجاز، والضم: لغة بني تميم وقيس (تسقى) بالتاء والياء (ونفضل) بالنون. وبالياء على البناء للفاعل والمفعول جميعاً (في الأكل) بضم الكاف وسكونها.

وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ إِذْ ذَا كُنَّا نُرَآبَا أَيْنَا لَقَىٰ خَلْقٍ جَدِيدٍ أَوَلَيْكَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَهَبُ النَّارِ  
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾

(وإن تعجب) يا محمد من قولهم في إنكار البعث، فقولهم عجيب حقيق بأن يتعجب منه؛ لأن من قدر على إنشاء ما عدد عليك من الفطر العظيمة ولم يعي بخلقهن، كانت الإعادة أهون شيء عليه وأيسره، فكان إنكارهم أعجوبة من الأعاجيب (أئذا كنا) إلى آخر قولهم: يجوز أن يكون في محل الرفع بدلاً من قولهم، وأن يكون منصوباً بالقول. وإذا نصب بما دل عليه قوله (أئنا لقي خلق جديد). (أولئك الذين كفروا برهم) أولئك الكاملون المتأدون في كفرهم (وأولئك الأغلال في أعناقهم) وصف بالإصرار، كقوله (إننا جعلنا في أعناقهم أغلالاً). ونحوه:

\* لَّهُمْ عَنِ الرُّشْدِ أَغْلَالٌ وَأَفْيَادُ \* (١)

أو هو من جملة الوعيد

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ

لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾

(بالسيئة قبل الحسنة) بالثقة قبل العافية، والإحسان إليهم بالإمهال. وذلك أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتهم بالعذاب استهزاء منهم بإثذاره (وقد خلت من قبلهم المثلثات) أي عقوبات أمثالهم من المكذبين، فالهم لم يعتبروا بها فلا يستهزؤا. والمثلة:

(١) ضلوا وإن سيل النى مقصدم لهم عن الرشد أغلال وأفياذ

سيل النى: مجاز مما هم عليه من الأحوال الخبيثة. والغل: ما تشد به اليد إلى العنق والقيد للرجلين، وهما مجاز عن الغفلة واتباع رأى النفس. يقول: سلكوا طريق الهوى وتركوا طريق الهدى.

العقوبة ، بوزن السمرة . والمثلة لما بين <sup>(١)</sup> العقاب والمعاقب عليه من المائلة ، ( وجزاء سيئة سيئة مثلها ) ويقال : أثلت الرجل من صاحبه وأقصصته منه . والمثال : القصاص . وقرئ ( المثلثات ) بضمثين لإتباع الفاء العين . والمثلثات ، بفتح الميم وسكون الثاء ، كما يقال : السمرة <sup>(٢)</sup> . والمثلثات بضم الميم وسكون الثاء ، تخفيف المثلثات بضمثين . والمثلثات جمع مثلة كركبة وركبات <sup>(٣)</sup> ( لذر مغفرة للناس على ظلمهم ) أى مع ظلمهم أنفسهم بالذنوب . وعمله الحال ، بمعنى ظالمين لأنفسهم <sup>(٤)</sup> وفيه أوجه . أن يريد السيئات المكفرة لمجنب الكبائر . أو الكبائر بشرط التوبة . أو يريد بالمغفرة السر والإمهال . وروى أنها لما نزلت قال النبي عليه الصلاة والسلام : لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحد العيش ، ولولا وعيده وعقابه لانتكل كل أحد ، <sup>(٥)</sup>

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ

وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

( لولا أنزل عليه آية من ربه ) لم يعتدوا بالآيات المنزلة على رسول الله صلى الله عليه وسلم عناداً ، فاقترحوا نحو آيات موسى وعيسى ، من انقلاب العصا حية ، وإحياء الموتى ، فقبل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما أنت رجل أرسلت منذراً ومخوفاً لهم من سوء العاقبة ، وناصحاً كغيرك من الرسل ، وما عليك إلا الإتيان بما يصح به أنك رسول منذر ، وصحة ذلك حاصلة بأية آية كانت ، والآيات كلها سواء في حصول صحة الدعوة بها لا تفاوت بينها ، والذي عنده كل شيء بمقدار يعطى كل نبي آية على حسب ما اقتضاه عليه بالمصالح وتقديره لها ( ولكل قوم هاد ) من الأنبياء يهديهم إلى الدين ، ويدعوهم إلى الله بوجه من الهداية ، وبآية خص بها ، ولم يجعل الأنبياء شرعاً واحداً <sup>(٦)</sup> في آيات مخصوصة . ووجه آخر : وهو أن يكون المعنى أنهم

(١) قوله « المثلة لما بين » عبارة النسخي « والمثلة العقوبة لما بين ... الخ . (ع)

(٢) قوله « كما يقال السمرة » لعله السمرة والسمرات . (ع)

(٣) قوله « كركبة وركبات » في الصحاح الركبة معروفة وجمع القلة ركبات وركبات وركبات . وفي هامشه عن

مرتضى : أى بسكون الكاف وضها وفتحها ، والراء مضمومة فين . (ع)

(٤) قال محمود : « وعمل على ظلمهم الحال بمعنى ظالمين لأنفسهم ... الخ » قال أحد : والوجه الحق بقاء الوعد على إطلاقه إلا حيث دل الدليل على التقييد في غير الموحدة ، فإن ظلمه أعنى شركه لا ينفر وما عدا الشرك ففقرانه في المشيئة . والزعشرى يبنى على عقيدته التي وضع فسادها ، في استحالة الغفران لصاحب الكبائر وإن كان موحداً إلا بالتوبة ، فيقيد مطلقاً ، ويحجر واسعاً ، والله الموفق .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم والثعلبي من رواية حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن سعيد بن المسيب : لما نزلت

( وإن ربك لذر مغفرة ) الآية ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ... فذكره .

(٦) قوله « ولم يجعل الأنبياء شرعاً واحداً » أى سواء ، كذا في الصحاح . (ع)



يحددون كون ما أنزل عليك آيات ويعاندون ، فلا يهمنك ذلك ، إنما أنت منذر ، فما عليك إلا أن تنذر لا أن تثبت الإيمان في صدورهم ، ولست بقادر عليه ، ولكل قوم هاد قادر على هدايتهم بالإلجاء ، وهو الله تعالى . ولقد دل بما أوردته من ذكر آيات علمه وتقديره الأشياء على قضاء حكمته أن إعطائه كل منذر آيات خلاف آيات غيره : أمر مدبر بالعلم النافذ مقدر بالحكمة الربانية ، ولو علم في إجابتهم إلى مقترخهم خيراً ومصلحة ، لأجابهم إليه . وأما على الوجه الثاني ، فقد دل به على أن من هذه قدرته وهذا علمه ، هو القادر وحده على هدايتهم ، العالم بأى طريق يهديهم ، ولا سبيل إلى ذلك لغيره .

اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَالِمُ الْغُيُوبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾

(الله يعلم) يحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً ، وأن يكون المعنى : هو الله ، تفسيراً لهاذ على الوجه الأخير ، ثم ابتدئ بقيل (يعلم ما تحمّل كل أنثى) ، وما ، في (ما تحمّل) ، (وما تغيض) ، (وما تزدد) . إما موصولة ، وإما مصدرية . فإن كانت موصولة ، فالمعنى : أنه يعلم ما تحمله من الولد على أى حال هو . من ذكورة وأنوثة ، وتمازج وخداج <sup>(١)</sup> ، وحسن وقبح ، وطول وقصر ، وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترتبة ، ويعلم ما تغيضه الأرحام : أى تنقصه . يقال : غاض الماء وغضته أنا . ومنه قوله تعالى (وغيض الماء) وما تزداده : أى تأخذه زائداً ، تقول : أخذت منه حق ، وازددت منه كذا . ومنه قوله تعالى (وازدادوا تسعاً) ويقال : زدته فزاد بنفسه وازداد ، وما تنقصه الرحم وتزداده عدد الولد ، فإنها تشتمل على واحد ، وقد تشتمل على اثنين وثلاثة وأربعة . ويروى أن شريكاً كان رابع أربعة في بطن أمه . ومنه جسد الولد ، فإنه يكون تاماً ومخدجاً . ومنه مدة ولادته ، فإنها تكون أقل من تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبى حنيفة ، وإلى أربع عند الشافعى ، وإلى خمس عند مالك . وقيل : إن الضحاك ولد لسنتين ، وهرم بن حيان بقى في بطن أمه أربع سنين ، ولذلك سمى هرماً . ومنه الدم ، فإنه يقل ويكثر . وإن كانت مصدرية ، فالمعنى أنه يعلم حمل كل أنثى ، ويعلم غيض الأرحام وازديادها ، لا يخفى عليه شيء من ذلك ، ومن أوقاته وأحواله . ويجوز أن يراد غيوض ما في الأرحام وزيادته ، فأستند الفعل إلى الأرحام وهو لما فيها ، على أن الفعلين غير متعديين ، ويعضده قول الحسن : الغيوضنة أن تضع لثمانية أشهر أو أقل من ذلك ، والازدياد أن تزيد

(١) قوله ومخدج ، في الصحاح : خدجت الناقة خداجاً : ألقت ولدها قبل تمام الأيام ، فهي خادج ، وهو

خدج ، وأخدجت : إذا جاءت به ناقص الخلق ، فهو مخدج ، وهو مخدج اه . (ع)

على تسعة أشهر. وعنه. الغيظ الذي يكون سقطاً لغير تمام، والازدياد ما ولد لتام (بمقدار) بقدر وحد لا يجاوز ولا ينقص عنه، كقوله (إنا كل شيء خلقناه بقدر). (الكبير) العظيم الشأن الذي كل شيء دونه (المتعال) المستعلى على كل شيء. بقدرته، أو الذي كبر عن صفات المخلوقين وتعالى عنها.

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)

(سارب) ذاهب في سره - بالفتح - أى في طريقه ووجهه. يقال: سرب في الأرض مروبا. والمعنى: سواء عنده من استخفى: أى طلب الخفاء في تخيل بالليل في ظلمته، ومن يضطرب في البطرات ظاهراً بالنهار يبصره كل أحد. فإن قلت: كان حق العبارة أن يقال: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار<sup>(١)</sup>، حتى يتناول معنى الاستواء المستخفى والسارب؛ وإلا فقد تناول واحداً هو مستخف وسارب. قلت: فيه وجهان: أحدهما أن قوله (وسارب) عطف على من هو مستخف، لا على مستخف، والثاني أنه عطف على مستخف؛ إلا أن (من) في معنى الاثنين، كقوله:

\* نَكُنْ مِثْلَ مَنْ يَذِئْبُ يَصْطَحِبَانِ \* (٢)

(١) قال محمود: وإن قلت كان من حق الكلام أن يقال: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار... الخ، قال أحد: فقطعنى السؤال الذى أورده الزمخشري أن تكون الواو عاطفة لاحدى الصفتين على الأخرى، ومقتضى ما أجاب به أن يعطف أحد الموصوفين على الآخر، وتحتل الآية وجهاً آخر: وهو أن يكون الموصول محذوفاً وصلته باقية. والمعنى: ومن هو مستخف بالليل ومن هو سارب بالنهار، وحذف الموصول المعطوف وبقاء صلته شائع، وخصوصاً وقد تكرر الموصول في الآية ثلاثاً، ومنه قوله تعالى (وما أدرى ما يفعل بي ولا بكم) والأصل: ولا ما يفعل بكم، وإلا كان حرف النفي دخيلاً في غير موضعه؛ لأن الجملة الثانية لو قدرت داخلة في صلة الأول بواسطة العاطف لم يكن للنهي موقع، وإذنا يجب في الأول الموصول لالصلة. ومنه:

فمن هجو رسول الله منك ويمدحه وينصره سواء

أى ومن يمدحه وينصره، والله أعلم.

(٢) فبت أقد الواد بينى وبينه  
فقلت له لما تكسر ضاحكاً  
تعال فان عاهدتى لا تخوتى  
أأنت امرؤ ياذنب والنذر كنتا

على ضوء ناز مرة ودخان  
وقائم سبى من يدى بمكان  
نكن مثل من ياذب يصطحبان  
أخين كانا أرضعا بلبان

كأنه قيل : سواء منكم اثنان : مستخف بالليل ، وسارب بالنهار . والضمير في (له) مردود على (من) كأنه قيل : لمن أسر ومن جهر ، ومن استخفي ومن سرب (معقبات) جماعات من الملائكة تعقب في حفظه وكلامه ، والأصل : معقبات ، فأدغمت التاء في القاف ، كقوله (وجاء المعذرون) بمعنى المعتذرون . ويجوز معقبات ، بكسر العين ولم يقرأ به . أو هو مفعلات من عقبه إذا جاء على عقبه ، كما يقال : ققاء ، لأن بعضهم يعقب بعضاً . أو لأنهم يعقبون ما يتكلم به فيكتبونه (يحفظونه من أمر الله) هما صفتان جميعاً ،<sup>(١)</sup> وليس (من أمر الله) بصلة للحفظ ، كأنه قيل : له معقبات من أمرو الله . أو يحفظونه من أجل أمر الله ، أى : من أجل أن الله أمرهم بحفظه . والدليل عليه قراءة على رضى الله عنه وابن عباس وزيد بن على وجعفر بن محمد وعكرمة : يحفظونه بأمر الله . أو يحفظونه من بأس الله ونقمته إذا أذنب ، بدعائهم له ومستلهم ربهم أن يمهلهم رجاء أن يتوب وينيب ، كقوله (قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن) وقيل : المعقبات الحرس والجلالوة<sup>(٢)</sup> حول السلطان ، يحفظونه في توهمه وتقديره من أمر الله أى من قضاياه ونوازله ، أو على التكلم به ، وقرئ له معاقب جمع معقب أو معقبة . والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير (إن الله لا يغير ما بقوم) من العافية والنعمة (حتى يغيروا ما بأنفسهم) من الحال الجميلة بكثرة المعاصي (من وال) عن يلى أمرهم ويدفع عنهم .

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)

== للفرزدق ، يصف ذبا أنه في مفازة فبات يقطع الزاد ويقسمه بينه وبينه ، حال كونها مشرفين على ضوء نار تارة وعلى دخانها أخرى ، دلالة على تكرار إيقادها . وتكثر : أبدى أنباه كالضاحك . وقام سبي : أى والحال أن مقبض سبي بمكان عظيم من يدى ، دلالة على الحرص والجرأة . تعال : أى أقبل إلى تعاود . ويروى تعش أى كل العشاء ، فإن عاهدتني بعد ذلك والتزمت أنك لا تخوتني : نكن مثل من يصطحبان بأذنب . ومعنى «من» متى ، فعاد عليه الرابط كذلك . والنداء . اعتراض بين الصلة والموصول . وأنت : استفهام توبيخ . وتكرير النداء فيه نوع توبيخ أيضاً . وأخيين : مصغر أخوين . واللبان : لبن المرأة خاصة . شبه الذئب والقدر بتوامين تفاعما من صغرها ترضعهما أم واحدة ، دلالة على كمال التلازم والتآلف . وتسمية الذئب امرأ ، مبنية على تنزيله منزلة العاقل المصحح لخطابه . وشبههما بالأخوين من نوع الانسان ، كما دل على ذلك لفظ اللبان ؛ لأن التآلف فيه أكل وأظهر منه في غيره .

(١) عاد كلامه . قال : ومعنى قوله (لمعقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) هما صفتان جميعا وليس من أمر الله بصلة للحفظ كأنه قيل له ... الخ قال أحد : وحقيقة هذا الوجه أنهم يحفظونه من الأمر الذى علم الله أنه يدفعه عنه بسبب دعائهم . ولولا هذا السبب لكان في علم الله أن النعمة تحمل عليه ؛ لأن الله عز وجل يعلم ما لا يكون لو كان كيف كان يكون ، وسع ربنا كل شيء علما .

(٢) قوله «والجلالوة» في الصحاح «الجلواز» الشرطى ، والجمع الجلالوة . (ع)

وَيَسْبِحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقُ فَيُصِيبُ بِهَا  
مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)

﴿خَوْفاً وطمعاً﴾ لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما (١) لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلن إلا على تقدير حذف المضاف، أى: إرادة خوف وطمع. أو على معنى إخافة وإطاعاً. ويجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق، كأنه في نفسه خوف وطمع. أو على: ذا خوف وذا طمع. أو من الخاطبين، أى: خائفين وطماعين. ومعنى الخوف والطمع: أن وقوع الصواعق يخاف عند البرق، ويطمع في الغيث. قال أبو الطيب:

فَتَى كَالسَّحَابِ الْجُونِ تُخْشَى وَتُرْتَجَى يُرْجَى الْحَيَا مِنْهَا وَيُخْشَى الصَّوَاعِقُ (٢)

وقيل: يخاف المطر من له فيه ضرر، كالمسافر، ومن له في جريته التمر والزبيب، ومن له بيت يكف (٣)، ومن البلاد ما لا ينتفع أهله بالمطر كأهل مصر، ويطمع فيه من له فيه نفع، ويحيا به (السحاب) اسم الجنس، والواحدة سحابة. و(الثقال) جمع ثقيلة: لأنك تقول سحابة ثقيلة، وسحاب ثقال، كما تقول: امرأة كريمة ونساء كرام، وهى الثقال بالماء (ويسبح الرعد بحمده) ويسبح سامع الرعد من العباد الراجين للمطر حامدن له. أى يضجون بسبحان الله والحمد لله. وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: سبحان من يسبح الرعد بحمده (٤) وعن علي رضي الله عنه: سبحان من سبحت له. وإذا اشتدت الرعد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك (٥) وعن ابن عباس أن اليهود سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد ما هو؟ فقال: ملك من

(١) قال محمود: «خَوْفاً وطمعاً لا يصح أن يكون مفعولاً لهما لأنهما ليسا بفعل... الخ» قال أحد: أو مفعولاً لهما، على أن المفعول له في مثل هذا الفعل فاعل في المعنى، لأنه إذا أرام فقد رأوا، والأصل: وهو الذي يريكم البرق قدرته خوفاً وطمعاً، أى: ترتبونه وتترامونه، تارة لأجل الخوف وتارة لأجل الطمع، والله أعلم.

(٢) يقول: هو فتى يشجع جواد، يخشى شره، ويرجى خيره، فهو كالسحاب الأسود. والجون: الأسود. ويطلق على الأبيض. ورواه ابن جني بالضم ليكون جمعاً، أى السود المظلمات: لأن السحاب جمع في المعنى. يرتجى الحياء: أى المطر، منها. ونخشى صواعقها، وهى قطع النار التى تنزل منها.

(٣) قوله «ومن له بيت يكف» وكف البيت يكف: قطر يقطر، كذا في الصحاح. (ع)

(٤) أخرجه الطبري من رواية إسرائيل عن ليث عن رجل عن أبي هريرة رفعه، وأنه كان إذا سمع الرعد قال سبحان من يسبح الرعد بحمده. ورواه البخاري في الأدب المفرد، موقوفاً على كعب بن مالك.

(٥) أخرجه الترمذي والنسائي وأحمد وأبو يعلى والحاكم من رواية الحجاج بن أرطاة عن أبي معمر عن سالم بن عبد الله عن أبيه قال الترمذي: غريب.

الملائكة موكل بالسحاب ، معه مخاريق <sup>(١)</sup> من نار يسوق بها السحاب ، <sup>(٢)</sup> وعن الحسن : خلق من خلق الله ليس بملك . ومن بدع المتصوفة . الرعد صعقات الملائكة ، والبرق زفرات أفئدتهم ، والمطر بكاؤهم <sup>(٣)</sup> والملائكة من خيفته <sup>(٤)</sup> ويسبح الملائكة من هيئته وإجلاله . ذكر عليه النفاذ في كل شيء واستواء الظاهر والباطن عنده ، وما دل على قدرته الباهرة ووحدانيته ثم قال <sup>(٥)</sup> وهم <sup>(٦)</sup> يعنى الذين كفروا وكذبوا رسول الله وأنكروا آياته <sup>(٧)</sup> يجادلون في الله <sup>(٨)</sup> حيث ينكرون على رسوله ما يصفه به من القدرة على البعث وإعادة الخلق بقولهم <sup>(٩)</sup> من يحيى العظام وهى رميم <sup>(١٠)</sup> ويردون الوجدانية باتخاذ الشركاء والأنداد ، ويجعلونه بعض الأجسام المتوالدة بقولهم <sup>(١١)</sup> الملائكة بنات الله <sup>(١٢)</sup> فهذا جداهم بالباطل ، كقولهم <sup>(١٣)</sup> وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق <sup>(١٤)</sup> وقيل : الواو للحال . أى : فيصيب بها من يشاء في حال جداهم . وذلك أن أريد أحاليد ابن ربيعة العامري قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم - حين وفد عليه مع عامر بن الطفيل قاصدين لقتله فرمى الله عامراً بغدة كغدة البعير <sup>(١٥)</sup> وموت في بيت سلوية ، وأرسل على أريد صاعقة فقتلته - أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد ؟ <sup>(١٦)</sup> <sup>(١٧)</sup> المحال <sup>(١٨)</sup> المماثلة ، وهى شدة المماكرة والمكابدة . ومنه : تمحل الكذا ، إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه . ومحل بفلان إذا كاده وسعى به إلى السلطان . ومنه الحديث : « ولا تجعله علينا ماحلاً » <sup>(١٩)</sup> مصدقاً ، وقال الأعشى :

(١) قوله «معه مخاريق من نار» في الصحاح الخراق : مندبل يلف ليضرب به . (ع)

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى وأحمد من رواية بكر بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أقيمت يهود إلى النبي صلى الله عليه وسلم - فقالوا : أخبرنا يا أبا القاسم عن الرعد - فذكره - وزاد : قالوا : فإذا هذا الصوت قال : زجره للسحاب قالوا : صدقت ، وفى الطبرانى والأوسط من رواية أنى عمران الكوفى عن ابن جريج وعن عطاء عن جابر أن خزيمة بن ثابت وليس بالأنصارى - سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الرعد . فقال : هو ملك يده غرق إذا رفع برق وإذا زجر رعدت وإذا ضرب صعقت ، .

(٣) قوله «بغدة كغدة البعير» في الصحاح : غدة البعير : طاهونه . (ع)

(٤) أخرجه الثعلبى من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس . وأخرجه الطبرانى وابن مردويه عنه من رواية زيد بن أسلم عن عطاء عنه «أن أريد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة - فذكر الحديث مطولاً وأخرجه النسائى والطبرى والعقلى وأبو يعلى من رواية على بن أبي سارة عن ثابت عن أنس قال «بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً إلى رجل من خزاعة العرب فقال : ادع قال : يا رسول الله هو أخى من ذلك . قال : اذهب فادعه . فأتاه . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوك . قال : وما الله ؟ أم ذهب هو أو من فضة ، أم من نحاس - الحديث . وفيه : فأنزل الله تعالى (ويرسل الصواعق...) الآية قال العقلى : لما منع على حديثه إلا آمن هو دونه . وقد رواه البرزلى والبيهقى فى الدلائل من رواية ديلم بن غزوان عن ثابت نحوه .

(٥) قلت : الذى فى الحديث والقرآن شافع مشفع وماحل مصدق ، أخرجه ابن حبان من رواية أنى سفیان عن جابر والمحكم من حديث معقل بن يسار ، والطبرانى من حديث ابن مسعود عن أنس . أخرجه أبو عبيد فى فضائل القرآن .

فَرَعُ نَبْعٍ يَهَشُّ فِي غُصْنِ الْمَجِّ بِدَغْزِيرٍ نَدَى شَدِيدٍ الْحَالِ (١)

والمعنى أنه شديد المكر والكيد لأعدائه ، يأثمهم بالهلكة من حيث لا يحتسبون . وقرأ الأعرج بفتح الميم ، على أنه مفعول ، من حال يحول محالاً إذا احتال . ومنه : أحول من ذئب ، أى أشد حيلة . ويجوز أن يكون المعنى : شديد الفقر (٢) ، ويكون مثلاً في القوة والقدرة كما جاء : فساعد الله أشد ، وموساه أحد ؛ لأن الحيوان إذا اشتد محاله ، كان منعوتاً بشدة القوة والاضطلاع بما يعجز عنه غيره . ألا ترى إلى قولهم : فقرته الفواق ؟ وذلك أن الفقار عمود الظهر وقوامه .

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤)

(دعوة الحق) فيه وجهان ، أحدهما : أن تضاف الدعوة إلى الحق (٣) الذي هو نقيض الباطل ، كما تضاف الكلمة إليه في قولك : كلمة الحق ، للدلالة على أن الدعوة ملازمة للحق المختصة به ، وأنها بمعزل من الباطل . والمعنى أن الله سبحانه يدعى فيستجيب الدعوة ، ويعطى الداعي سؤاله إن كان مصلحة له ، فكانت دعوة ملازمة للحق ، لكونه حقيقة بأن يوجه إليه الدعاء ، لما في دعوته من الجدوى والنفع ، بخلاف ما لا ينفع ولا يجدى دعاؤه . والثاني : أن

(١) فرع كل شئ . أعلاه . والنبع : شجرتنخ منه القس . والحش من كل شئ . : ما فيه رخاوة وليونة . وهش إليه ، من باب تعب وضرب : ضحك وانبط إليه ، أى هو كفرع النبع في العلو وللصلاة في الحروب . وشبه المجذ بشجرة طيبة على طريق المكنية ، فإضافة النصن إليه تخيل لذلك . ويحتمل أنه شبه قومه بأغصان الشجرة المثمرة على طريق التصريحية ، وإضافتها للجدد قرينة على ذلك . وفيها دلالة على أن المجد منهم كالثمر من الأغصان ، غير الندى كثير العطاء شديد المحال ، أى المحاولة والمكابدة ، وهو كالتفسير للتشبيه الأول ، وغزير الندى كالتفسير الثاني ، وهو من بديع الكلام .

(٢) قوله « ويجوز أن يكون المعنى شديد الفقر ، في الصحاح : والحالة أيضا : الفقارة ، وفيه « الفقارة » واحدة فقار الظهر . (ع)

(٣) قال محمود : « فيه وجهان : أحدهما أن تضاف الدعوة إلى الحق ... الخ » قال أحمد : « دس تحت تأويل الأول نبذة من الاعتزال على وجه الاعتزال . لحجر واسماً من لطف الله واستجابته أدعية عباده ، وحتم رعاية المصالح ، وجعل معنى إضافة الدعوة إلى الحق التباساً بالمصلحة ، وقد انكشف العطاء . وتبين أن الله تعالى لا تغفل أفعاله ولا تنف استجابته على الشرط المذكور ، وغرضنا إيقاظ المطالع لهذه المواضع من غفلة يتحيز بها إلى بدعة وضلالة ، والله الموفق .

تضاف إلى الحق الذي هو الله عز وعلا ، على معنى : دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب .  
وعن الحسن : الحق هو الله ، وكلّ دعاء إليه دعوة الحق . فإن قلت : ما وجه اتصال هذين الوصفين  
بما قبله <sup>(١)</sup> ؟ قلت . أما على قصة أوبد فظاهر ؛ لأن إصابته بالمصاعقة محال من الله ومكره به من  
حيث لم يشعر . وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وعلى صاحبه بقوله : اللهم اخسفهما  
بما شئت ، فأجيب فيهما <sup>(٢)</sup> ، فكانت الدعوة دعوة حق . وأما على الأول فوعيد للكفرة على  
مجادلتهم رسول الله بحلول محاله بهم ، وإجابة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن دعا عليهم  
فيهم ( والذين يدعون ) والآلهة الذين يدعوه الكفار ( من ) دون الله ( لا يستجيبون لهم  
شيء ) من طلباتهم ( إلا كباط كفيه ) إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه ، أى كاستجابة الماء  
من بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه ، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته  
إليه ، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه ، وكذلك ما يدعونه جماد لا يحس بدعائهم ولا يستطيع  
إجابتهم ولا يقدر على نفهمهم . وقيل : شبهوا في قلة جدوى دعائهم لألهتهم بمن أراد أن يغرف  
الماء بيديه ليشربه ، فسطهما ناشراً أصابعه ، فلم تاق كفاه منه شيئاً ولم يبلغ طلبته من شربه .  
وقرى : تدعون ، بالتاء . كباط كفيه ، بالتنوين ( إلا في ضلال ) إلا في ضياع لا منفعة فيه ؛  
لأنهم إن دعوا الله لم يجبه ، وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا لَّهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۖ (١٥)

( والله يسجد ) أى ينقادون لإحداث ما أراه فيهم من أفعاله ، شاؤا أو أبوا . لا يقدر  
أن يمتنعوا عليه ، وتتفادله ( ظلالم ) أيضاً ، حيث تنصرف على مشيئته في الامتداد والتقلص ،  
والتي والزوال . وقرئ : بالغدو والإيصال ، من آصلوا : إذا دخلوا في الأصيل .

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ  
لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ  
تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ  
عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦)

(١) قوله واتصال هذين الوصفين بما قبله ، عبارة النسخ : واتصال ( شديد المحال ) و ( له دعوة الحق )

بما قبله . (ع)

(٢) ذكره الواحدي في الأسباب عن ابن عباس في القصة المذكورة . ولم أره فيها في الطريقتين المتقدمتين من

رواية الكلبي وغيره .

(قل الله) حكاية لاعترافهم وتأكيده عليهم؛ لأنه إذا قال لهم: من رب السموات والأرض، لم يكن لهم بد من أن يقولوا الله. كقوله (قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم سيقولون لله) وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهدأ قولك. فإذا قال: هذا قولي قال: هذا قولك، فيحكي إقراره تقريراً له عليه واستيثاقاً منه، ثم يقول له: فيلزملك على هذا القول كيت وكيت. ويجوز أن يكون تلقيناً، أى: إن كموا عن الجواب<sup>(١)</sup> فلقنهم، فإنهم يتلقونه ولا يقدرّون أن ينكروه (أفأنتخذتم من دونه أولياء) أبعد أن علمتموه رب السموات والأرض أنتخذتم من دونه أولياء، فجعلتم ما كان يجب أن يكون سبب التوحيد من علمكم وإقراركم سبب الإشراك (لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً) لا يستطيعون لأنفسهم أن ينفعوها أو يدفعوا عنها ضرراً، فكيف يستطيعونه لغيرهم وقد آثرتهم على الخالق الرازق المنيب المعاقب، فما أين ضلالتكم! (أم جعلوا) بل أجعلوا. ومعنى الهمزة الإنكار<sup>(٢)</sup> و(خلقوا) صفة لشركاء، يعنى أنهم لم يتخذوا الله شركاء خالقين قد خلقوا مثل خلق الله (فتشابه) عليهم خلق الله وخلقهم، حتى يقولوا: قدر هؤلاء على الخلق كما قدر الله عليه، فاستحقوا العبادة، فتخذهم له شركاء. ونعبدكم كما يعبد، إذ لا فرق بين خالق وخالق؛ ولكنهم اتخذوا له شركاء عاجزين لا يقدرّون على ما يقدر عليه الخلق، فضلاً أن يقدرّوا على ما يقدر عليه الخالق (قل الله خالق كل شيء) لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق، فلا يكون له شريك في العبادة (وهو الواحد) المتوحد بالربوبية (القهّار) لا يغالب، وما عداه مرعوب ومقهور.

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِعًا وَمِمَّا

- (١) قوله «أى إن كموا عن الجواب» أى امتنعوا جبناً أو احتبسوا. أفاده الصحاح. (ع)  
 (٢) قال محمود: دأب مقدرة بل والهمزة ومعناها هنا الإنكار... الخ. قال أحد: وفي قوله تعالى (خلقوا كحفه) في سياق الإنكار تمكيم بهم؛ لأن غير الله لا يخلق خلقاً البتة، لا بطريق المشابهة والمساواة لله - تقدس عن التشبيه - ولا بطريق الاعطاط والقصور. فقد كان يكفي في الإنكار عليهم أن الشركاء اتخذوها لا يخلقون مطلقاً، ولكن جاء في قوله تعالى (كحفه) تمكيم يزيد الإنكار تأكيداً. والزخشرى لا يطبق التنبيه على هذه السكتة مع كونه أفتان من أن تستقر عنه؛ لأن معتقده أن غير الله يخلق وهم العبيد يخلقون أفعالهم على زعمه، ولكن لا يخلقون كخلق الله؛ لأن الله تعالى يخلق الجواهر والأعراض، والعبيد لا يخلقون سوى أفعالهم لا غير. وفي قوله عز من قائل (الله خالق كل شيء) إقام لأفواه المشركين الأولين، ثم لأفواه التابعة لهم في هذه الضلالة كالقدرة، فإن الله تعالى بت هذه البتة أن كل شيء يصدق عليه أنه مخلوق جوهر أو عرضاً، فعلاً لعبيده أو غيره، فالله خالقه، فلا يبقى بقية يحتمل معها الاشتراك إلا عند كل أثيم أفاك، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصير مستكبراً كأن لم يسمها، كأن في أذنيه قرأاً فبشره بعذاب أليم، فلا تمر ما تقاصر لسان الزخشرى عند هذه الآيات وقرن شفاشفه، والله الموفق.



يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ

كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧)

هذا مثل ضربه الله للحق وأهله والباطل وحزبه، كما ضرب الأمي والبصير والطلبات والنور مثلاً لها، فمثل الحق وأهله بالماء الذي ينزله من السماء فتسيل به أودية الناس فيحيون به وينفعهم أنواع المنافع، وبالفلز الذي ينتفعون به<sup>(١)</sup> في صوغ الحلي منه واتخاذ الأواني والآلات المختلفة، ولو لم يكن إلا الحديد الذي فيه البأس الشديد لكني به، وأن ذلك ما كثر في الأرض باق بقاء ظاهراً، يثبت الماء في منافعه. وتبقى آثاره في العيون والثمار والحبوب، والثمار التي تنبت به بما يدخر ويكنز، وكذلك الجواهر تبقى أزمنة متطاولة. وشبه الباطل في سرعة اضمحلاله ووشك زواله وانسلاخه عن المنفعة، بزبد السيل الذي يرمى به، وبزبد الفلز الذي يطفو فوقه إذا أذيب. فإن قلت: لم نكرت الأودية؟ قلت: لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض. فإن قلت: فما معنى قوله (بقدراها)؟ قلت: بمقدارها الذي عرف الله أنه نافع للمطور عليهم غير ضار. ألا ترى إلى قوله (وأما ما ينفع الناس) لأنه ضرب المطر مثلاً للحق، فوجب أن يكون مطراً خاصاً للنفع غالباً من المضرة، ولا يكون ك بعض الأمطار والسيول الجواحف<sup>(٢)</sup>. فإن قلت: فما فائدة قوله (ابتغاء حلية أو متاع)؟ قلت: الفائدة فيه كالفائدة في قوله (بقدراها) لأنه جمع الماء والفلز في النفع في قوله (وأما ما ينفع الناس) لأن المعنى: وأما ما ينفعهم من الماء والفلز فذكر وجه الانتفاع بما يوقد عليه منه ويذاب، وهو الحلية والمتاع. وقوله (ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع) عبارة جامعة لأنواع الفلز، مع إظهار الكبرياء في ذكره على وجه التهاون به كما هو هيجري الملوك، نحو ما جاء في ذكر الآجر (أو قد لي يا هامان على الطين) و. من، لا بتداه الغاية: أي: ومنه ينشأ زبد مثل زبد الماء. أو للتبعض بمعنى وبعضه زبداً رايماً متفخاً مرتفعاً على وجه السيل، أي يرمى به. وجفأت القدر بزبدها، وأجفأ السيل وأجفل. وفي قراءة رؤية ابن العجاج: جفالا. وعن أبي حاتم: لا يقرأ بقراءة رؤية، لأنه كان يأكل الفار. وقرئ: يوقدون، بالياء: أي يوقد الناس.

(١) قوله «وبالفلز الذي ينتفعون به» في الصحاح «الفلز» بالكسر وتشديد الزاي: ما ينفيه الكبر مما يذاب من جواهر الأرض أه فليحرر، ولعله ما يقيه الكبر... الخ. (ع)  
(٢) قوله «السيول الجواحف» في الصحاح «سيل جحاف» بالضم: إذا جرف كل شيء وذهب به. (ع)

لَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِائِ  
الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ

### وَبَشِّرِ الصَّالِحِينَ (١٨)

(الذين استجابوا) اللام متعلقة بيضرب. أى كذلك يضرب الله الامثال للمؤمنين الذين استجابوا ، وللكافرين الذين لم يستجيبوا ، أى : هما مثلاً الفريقين . و (الحسنى) صفة لمصدر استجابوا ، أى : استجابوا الاستجابة الحسنى . وقوله (لو أن لهم) كلام مبتدأ فى ذكر ما أعد لغير المستجيبين . وقيل : قدمت الكلام عند قوله (كذلك يضرب الله الامثال) وما بعده كلام مستأنف . والحسنى : مبتدأ ، خبره (الذين استجابوا) والمعنى : لهم المثوبة الحسنى ، وهى الجنة (والذين لم يستجيبوا) مبتدأ خبره . ولو ، مع ما فى حيزه و (سوء الحساب) المناقشة فيه . وعن النخعى : أن بحاسب الرجل بذنبه كله لا يغفر منه شيء .

أَفَن يَعْزِلُ عَنْهُ أَنْزَلَ إِلَهُكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمُنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا

### يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٩)

دخلت همزة الإنكار على الفاء فى قوله (أفنى يعلم) لإنكار أن تقع شبهة بعد ما ضرب من المثل فى أن حال من علم (إنما أنزل إليك من ربك الحق) فاستجاب ، بمعزل من حال الجاهل الذى لم يستبصر فيستجيب : كبعد ما بين الزبد والماء والخبث والإبريز (إنما يتذكر أولو الالباب) أى الذين عملوا على قضايا عقولهم ، فنظروا واستبصروا .

الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصُلُونَ مَا مَرَّ  
اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوَصَّلَ وَيَخْشُونَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا  
آيَاتِنَا وَجِهَ رَبَّهُمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ  
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ  
صَلَحَ مِنْ عِبَادِنَا وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ  
كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)

(والذين يوفون بعهد الله) مبتدأ . و (أولئك لهم عقي الدار) خبره كقوله : والذين ينقضون عهد الله أولئك لهم اللعنة . ويجوز أن يكون صفة لأولى الآليات ، والأول أوجه . وعهد الله : ما عقدوه على أنفسهم من الشهادة بربوبيته (وأشهدهم على أنفسهم ألسنت بربكم قالوا بلى) . (ولا ينقضون الميثاق) ولا ينقضون كل ما وثقوه على أنفسهم وقبلوه : من الإيمان بالله وغيره من الموائيق بينهم وبين الله وبين العباد ، تعميم بعد تخصيص (ما أمر الله به أن يوصل) من الأرحام والقرابات ، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان (إنما المؤمنون إخوة) بالإحسان إليهم على حسب الطاقة ، ونصرتهم ، والذب عنهم ، والشفقة عليهم ، والنصيحة لهم ، وطرح التفرقة بين أنفسهم وبينهم ، وإفشاء السلام عليهم ، وعيادة مرضاهم ، وشهود جنازتهم . ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر ، وكل ما تعلق منهم بسبب ، حتى الهرة والدجاجة . وعن الفضيل بن عياض أن جماعة دخلوا عليه بمكة فقال : من أين أنتم ؟ قالوا : من أهل خراسان . قال : اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم ، واعلموا أن العبد لو أحسن الإحسان كله وكانت له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين (ويخشون ربهم) أى يخشون وعيده كله (ويخافون) خصوصاً (سوء الحساب) فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا (صبروا) مطلق فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف (ابتغاء وجهه) الله ، لا ليقال : ما أصبره وأحمله للنوازل ، وأوقره عند الزلازل ، ولا لئلا يعاب بالجزع ولئلا يشمت به الأعداء كقوله :

• وَتَجَلَّدَى لِلشَّامِتِينَ أَرْيَهُمْ • <sup>(١)</sup>

ولا لأنه لا طائل تحت الملح ولا مرد فيه للفات ، كقوله :

مَا إِنْ جَزِعْتُ وَلَا هَلَّةٌ ت وَلَا يَرُدُّ بَكَايَ زَنْدَا <sup>(٢)</sup>

(١) وإذا المنية أشبت أظفارها ألفت كل تيممة لا تنفع  
وتجلى للشامتين أريهم أتى لرب الدهر لا أنضع

لأبي ذؤيب خويلد بن خالد الخزرمي ، روى ابنه . روى أن معاوية مرض ، فعاده الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال : كلوني والبسوني حمامي ، وأظهر القوة وأنفذ له البيت الثاني ، فأجابه الحسن بنتة بالأول . وشبه المنية بالسبع على طريق المكينة . وإنشأ الأظفار : تخيل . ومثى له : قدر له . والمنية : الموت لأنه مقدر . والإنشأ : الفرز والتعليق . ألفت : أى وجدت كل تيممة لا تنفع ، وهى ما يعلق على الولدان خوف الجن والحسد . وتجلى : أى تصبرى وتصلبى . مبتدأ . وأريهم : خبره ، أى أظهر لهم به أنى لا أنضع وأنضع وأضعف لأجل ريب الدهر ، أى حداته الطارىء من حيث لا أشعر .

(٢) ليس الجمال بمنزور فاعلم وإن رديت برداً  
إن الجمال معادن ومناقب أورتن مجداً

وكل عمل له وجوه يعمل عليها ، فعلى المؤمن أن ينوى منها ما به كان حسناً عند الله ، وإلا لم يستحق به ثواباً ، وكان فعلاً كلاً فعل ﴿عما رزقناهم﴾ من الحلال ؛ لأن الحرام لا يكون رزقاً<sup>(١)</sup> ولا يسند إلى الله<sup>(٢)</sup> ﴿سراً وعلانية﴾ يتناول النوافل ، لأنها في السر أفضل . والفرائض ، لوجوب المجاهرة بها نصياً للثمة ﴿ويدرؤن بالحسنة السيئة﴾ ويدفعونها . عن ابن عباس : يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سيئ غيرهم . وعن الحسن : إذا حرموا أعطوا ، وإذا طلبوا عفوا ، وإذا قطعوا وصلوا . وعن ابن كيسان : إذا أذنبا تابوا . وقيل : إذا رأوا منكراً أمروا بتغييره ﴿عقبى الدار﴾ عاقبة الدنيا وهى الجنة ، لأنها التى أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها .<sup>(٣)</sup> و ﴿جنات عدن﴾ بدل من عقبى الدار . وقرئ : فنعم ، بفتح النون .

أعدن للحدثات سا بقة وعداء عندى  
نهذا وإذا شطب يقد البيض والأبدان قدأ  
كم من أخ لى صالح بوائه ييدى لحدا  
ما إن هلمت ولاجز عت ولايرد بكأى زندا

لعمرو بن معد يكرب . يقول : ليس الجبال بآخر الثياب . وقاعلم : اعتراض . والخطاب لغير معين ، أى ليس كذلك وإن ألبستها والبرد ، ثوب سابغ يرتدى به إن الجبال خصال حميدة أكسبت أصحابها الشرف . والحدثان : مكروه الدهر المنقلب . والسابغة الدرع ، وكانت له درع من ذهب . والعداء : الفرس الكثير العدو . والعندى - بالفتح - : الغليظ الحديد السريع . وشئى : غلند : صلب - واعلندى البعير : اشتد . والتهد : الضخم الطويل . والشطب - بالضم - : طرائق السيف . والأبدان : الدروع القصيرة ، وإذا قطع البيضة والبدن مع أنهما من الحديد ، قطع غيرهما بالأولى : مدح نفسه بالشجاعة ، ثم بالصبر فقال : كثير من إخوانى أنزلتهم للحدود يدي ، ومع ذلك ماجزعت لأقليل ولا كثيراً فان زائدة . والمهلج : شدة الجزع . وفى الحديث : ومن شر ما أوتى العبد : شح هالغ ، وجبن خالغ ، أى يهلج فيه وكأنه يخلع فؤاده . وترند فلان . ضاق بالجواب وغضب . والمزند : مثل فى الشئ . ويقال للحقير : زندان فى مرقعة ، فالزند : الشئ الحقير . ويروى : زيداً ، بالياء ، على أنه زيد بن الخطاب أخو عمر رضى الله عنه ، كان صديقاً له فى الجاهلية . ويروى : وهل يرد بكأى ؟ أى : لم أجزع ، لعلى أنه لا ينفع .

(١) قوله «لأن الحرام لا يكون رزقاً» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فيكون رزقاً كالحلال . (ع)  
(٢) قال محمود : والمراد بما رزقناهم من الحلال ، لأن الحرام لا يكون رزقاً ولا يسند إلى الله تعالى ، قال أحد : الحق أن لارازق إلا الله (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) كما أنه لا خالق إلا الله (هل من خالق غير الله) فإذا اقتضى العقل والسمع جميعاً أن لارازق إلا الله فأى مقال بعد ذلك يبقى للقدرى الزاعم أن أكثر العبيد يرزقون أنفسهم لأن الغالب الحرام وهو مع ذلك مصمم على معتقده الفاسد لا يدعه ولا تكشفه القوارع السمعية والعقلية ولا تردعه فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون .

(٣) قال محمود : والمراد عاقبة الدنيا ومرجع أهلها ... الخ قال أحد : قد تكرر مجيء العاقبة المطلقة مثل (وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) ، (من تكون له عاقبة الدار) . (والعاقبة للتقين) والمراد فى جميع ذلك : عقبى الخير والسعادة ، والزمخشري يستنبط من تكرار مجيء العاقبة المطلقة والمراد عاقبة الخير أنها هى التى أرادها الله فهى الأصل والعاقبة الأخرى لما لم تكن مرادة بل عارضة على خلاف المراد والأصل لم يكن من حقها أن يعبر عنها إلا بتقيد يفهما كقوله (وعقبى الكافرين النار) كل ذلك من الزمخشري نهالك على أن ينسب إلى الله إرادة ما لم يقع =

والأصل: نعم. فن كسر النون فلتقل كسرة العين إليها، ومن فتح فقد سكن العين ولم ينقل وقرئ: (يدخلونها) على البناء للفعول. وقرأ ابن أبي عبلة (صلح) بضم اللام، والفتح أفصح، أعلم أن الأنساب لا تنفع إذا تجردت من الأعمال الصالحة. وآباؤهم جمع أبوي كل واحد منهم، فكأنه قيل من آباؤهم وأمهاتهم ﴿سلام عليكم﴾ في موضع الحال، لأن المعنى: قائلين سلام عليكم، أو مسلمين. فإن قلت: هم تعلق قوله ﴿بما صبرتم﴾؟ قلت: بمحذوف تقديره: هذا بما صبرتم، يعنون هذا الثواب بسبب صبركم، أو بدل ما احتملتم من مشاق الصبر ومتاعبه هذه الملاذ والنعم. والمعنى: لأن تعتم في الدنيا لقد استرحتم الساعة، كقوله:

﴿بِمَا قَدْ أَرَى فِيهَا أَوَانِسَ بُدْنًا﴾ (١)

وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يأتي قبور الشهداء على رأس كل حول فيقول: السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار، (٢) ويجوز أن يتعلق بسلام، أى نسلم عليكم ونكرمكم بصبركم.

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)

﴿من بعد ميثاقه﴾ من بعد ما أوثقوه به من الاعتراف والقبول ﴿سوء الدار﴾ يحتمل أن يراد سوء عاقبة الدنيا، لأنه في مقابلة عقبى الدار، ويجوز أن يراد بالدار جهنم، وبسوءها عذابها.

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦)

﴿الله يبسط الرزق﴾ أى الله وحده هو يبسط الرزق ويقدره دون غيره، وهو الذى بسط

== ومثبته مالم يكن مصادمة لما أنطق الله به السنة حلة الشريعة ماشاء الله كانوما لم يشأ لم يكن، وليس في مجيء ذلك على الإطلاق ما يعين أنه الأصل باعتبار الإرادة، ففعله الأصل باعتبار الأمر، ونحن نقول: إن المؤدى إلى حد العاقبة مأمور به، والمؤدى إلى سوءها منهى عنه، فن ثم كانت عاقبة الخير هي الأصل، والله الموفق.

(١) أرى الوحش ترعى اليوم في ساحة الحما بما قد أرى فيها أوانس بدنا يقول: أرى الوحش ترعى في ساحة الحما في هذا الزمان، بدل ما كنت أرى فيها الأحبة، فقد أرى: حكاية حال ماضية، وقد لتقرئها. والأوانس: جمع آنسة. والبدن: جمع بادنة، أى سمينة البدن.

(٢) أخرجه عبد الرزاق والطبري من رواية سهيل بن أبي صالح عن محمد بن إبراهيم التيمي قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم - فذكره، وزاد «كان أبو بكر وعمر وعثمان يفعلون ذلك».

رزق أهل مكة ووسعه عليهم ﴿وفرحوا﴾ بما بسط لهم من الدنيا فرح بطر وأشر لا فرح سرور بفضل الله وإنعامه عليهم ، ولم يقابلوه بالشكر حتى يستوجبوا نعيم الآخرة ، وخفى عليهم أن نعيم الدنيا في جنب نعيم الآخرة ليس إلا شيئاً نزرأ يتمتع به كعجالة الرأكب ، وهو ما يتعجله من تمرات أو شربة سويق أو نحو ذلك .

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَثَابٍ ﴿٢٩﴾

فإن قلت : كيف طابق قولهم ﴿لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ قوله ﴿قل إن الله يضل من يشاء﴾ ؟ قلت : هو كلام يجري مجرى التعجب من قولهم ، وذلك أن الآيات الباهرة المتكاثرة التي أوتيتها رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يؤتها نبي قبله ، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية ، فإذا جحدوها ولم يعتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط ، كان موضعاً للتعجب والاستنكار ، فكأنه قيل لهم : ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم : إن الله يضل من يشاء من كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة في الكفر ، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ﴿ويهدي إليه من﴾ كان على خلاف صفتكم ﴿أناب﴾ أقبل إلى الحق ، وحقيقته دخل في نوبة الخير ، و﴿الذين آمنوا﴾ بدل من ﴿من أناب﴾ . ﴿وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ بذكر رحمته ومنغفرته بعد القلق والاضطراب من خشيته ، كقوله ﴿ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ أو تطمئن بذكر دلائله الدالة على وحدانيته ، أو تطمئن بالقرآن لأنه معجزة بينة تسكن القلوب وتثبت اليقين فيها ﴿الذين آمنوا﴾ مبتدأ ، و﴿طوبى لهم﴾ خبره . ويجوز أن يكون بدلا من القلوب ، على تقدير حذف المضاف ، أى : تطمئن القلوب قلوب الذين آمنوا ، وطوبى مصدر من طاب ، كبشرى وزانى . ومعنى طوبى لك ، أصبت خيراً وطيباً ، ومحله النصب أو الرفع ، كقولك : طيباً لك ، وطيب لك ، وسلاماً لك ، وسلام لك . والقراءة في قوله ﴿وحسن مآب﴾ بالرفع والنصب ، تدل على محايها . واللام في ﴿لهم﴾ للبيان مثلها في سقيالك ، والواو في طوبى منقلبة عن ياء لضمه ما قبلها ، كموقن وموسر . وقرأ مكوزة الأعرابي : طيبى لهم ، فكسر الطاء لتسلم الياء ، كما قيل : بيض ومعيشة .

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لَتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٠﴾

(كذلك أرسلناك) مثل ذلك الإرسال أرسلناك ، يعنى : أرسلناك إرسالا له شأن وفضل على سائر الإرسالات ، ثم فسر كيف أرسله فقال (في أمة قد خلت من قبلها أمة) أى أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمة كثيرة فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء (لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك) لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذى أوحينا إليك (وهم يكفرون) وحال هؤلاء أنهم يكفرون (بالرحمن) بالبليغ الرحمة الذى وسعت رحمته كل شيء ، وما بهم من نعمة فنه ، فكفروا بنعمته فى إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم (قل هو ربى) الواحد المتعالى عن الشركاء (عليه توكلت) فى نصرته عليكم (وإليه متاب) فيثبني على مصابرتكم ومجاهدتكم .

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ بِهِ الْمَوْتُ بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْمُرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

(ولو أن قرآنا) جوابه مخدوف ، كما تقول لغلامك : لو أنى قت إليك ، وترك الجواب والمعنى : ولو أن قرآنا (سيرت به الجبال) عن مفازها ، وزعزت عن مضاجعها (أو قطعت به الأرض) حتى تنصدع وتترايل قطعاً (أو كلم به الموتى) فتسمع وتجب ، لكان هذا القرآن لكونه غاية فى التذكير ونهاية فى الإنذار والتخويف ، كما قال (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعاً متصدعاً من خشية الله) هذا يعضد ما فسرته به قوله (لتتلوا عليهم الذى أوحينا إليك) من إرادة تعظيم ما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن . وقيل : معناه ولو أن قرآنا وقع به تسير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى وتنبههم ، لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله (ولو أنزلنا إليهم الملائكة) الآية . وقيل : إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى تنسح لنا فتتخذ فيها البساتين والقطائع ، (٣٤ - كشف ٢٠)

كما سحرت لداود عليه السلام إن كنت نبياً كما تزعم ، فليست بأهون على الله من داود . وسخر لنا به الريح لتركبها وتنجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا ، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سحرت لسليمان عليه السلام . أو ابعت لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا : منهم قصي بن كلاب<sup>(١)</sup> فزت . ومعنى تقطيع الأرض على هذا : قطعها بالسير ومجاوزتها . وعن الفراء : هو متعلق بما قبله . والمعنى : وهم يكفرون بالرحمن (ولو أن قرأنا سيرت به الجبال) وما بينهما اعتراض ، وليس ببعيد من السداد . وقيل (قطعت به الأرض) شققت فجعلت أنهارا وعيوناً (بل لله الأمر جميعاً) على معنيين ، أحدهما : بل لله القدرة على كل شيء ، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها ؛ إلا أن عليه بأن إظهارها مفسدة يصرفه . والثاني : بل لله أن يلجئهم إلى الإيمان ، وهو قادر على الإلجاء لولا أنه نبى أمر التكليف على الاختيار . ويعضده قوله (أفلم يئس الذين آمنوا أن لو يشاء الله) يعني مشيئة الإلجاء والقسر<sup>(٢)</sup> (لهدى الناس جميعاً) ومعنى (أفلم يئس) أفلم يعلم . قيل : هي لغة قوم من النجع . وقيل : إنما استعمل اليأس بمعنى العلم لتضمنه معناه : لأن اليأس عن الشيء عالم بأنه لا يكون ، كما استعمل الرجاء في معنى الخوف ، والنسيان في معنى الترك لتضمن ذلك . قال سحيم بن وثيل الرياحي :

أَقُولُ لَهُمْ بِالشَّعْبِ إِذْ يَيْسُرُونِي أَلَمْ تَيَأْسُوا أَنَّ ابْنَ قَارِسٍ زَهَدِمَ<sup>(٣)</sup>

ويدل عليه أن علياً وابن عباس وجماعة من الصحابة والتابعين قرؤا : أفلم يتبين ، وهو تفسير (أفلم يئس) وقيل : إنما كتبه الكاتب وهو ناعس مستوى السيئات ، وهذا ونحوه مما لا يصدق

(١) لم أجده هذا السياق ، وقد روى ابن ربيعة عن أبي أسامة عن مجاهد عن الشعبي قال قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم إن كنت نبياً كما تزعم فباعد بين جبلي مكة - أحسها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة حتى نزرع فيها ونرعى ، وابتعت لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرون أنك نبى ، أو احملنا إلى الشام ، أو إلى اليمن ، أو إلى الحيرة ، حتى نذهب ونجي . في ليلة كما زعمت أنك فعلت . فأنزل الله تعالى (ولو أن قرأنا - الآية) وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن طريق عطية بن أبي سعيد قال قالوا لمحمد صلى الله عليه وسلم : ولوسيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فتحرث فيها ، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه الريح ، وروى أبو يعلى عن حديث الزبير بن العوام يقول «ما نزلت : وأنذر عشيرتك الأقربين» صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا آل قريش ، لجأته قريش . فخذروهم وأنذروهم فقالوا : تزعم أنك نبى وأن سليمان سخر له الريح والجبال ، وأن موسى سخر له البحر ، وأن عيسى كان يحيى الموتى . فادع الله أن يسير عنا هذه الجبال وتنفجر لنا الأرض أنهاراً فتتخذها عمارت فنزوعاً وكل أوداع الله أن يحيى لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا أوداع الله أن يصبر هذه الصخرة التي مجنبك ذهباً فتنتح منها ويغتنبنا قال : فبينما نحن حوله إذ نزل عليه الوحي . فلما سرى عنه قال : والذي نفسي بيده ، لقد أعطاني ما سألت ولو شئت كان ولكن أخبرني أنه إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم يعذبكم . نزلت .

(٢) قوله «أن لو يشاء الله يعني مشيئة الإلجاء» هذا عند المعتزلة دون أهل السنة . (ع)

(٣) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ٢٦١ فراجع إن شئت اه مصححه .



في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وكيف يخفى مثل هذا حتى يبقى ثابتا بين دفتي الإمام . وكان متقلبا في أيدي أوائك الأعلام المحتاطين في دين الله المهيمنين عليه لا يغفلون عن جلالة ودقائه ، خصوصا عن القانون الذي إليه المرجع ، والقاعدة التي عليها البناء ، وهذه والله فرية مافيا مرية . ويجوز أن يتعلق ( أن لو يشاء ) بآمنوا ، على : أولم يقنط عن إيمان هؤلاء الكفرة الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا ولهداهم ( تصيبهم بما صنعوا ) من كفرهم وسوء أعمالهم ( قارعة ) داهية تفرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم ( أو تحل ) القارعة ( قريبا ) منهم فيفزعون ويضطربون ويتطارر إليهم شرارها ، ويتعدى إليهم شرورها ( حتى يأتي وعد الله ) وهو موتهم ، أو القيامة . وقيل : لا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم من العداوة والتكذيب قارعة ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يزال يبعث سرايا (١) فتغير حول مكة وتختطف منهم ، وتصيب من مواشيهم . أو تحل أنت يا محمد قريبا من دارهم بجيشك ، كما حل بالحديبية ، حتى يأتي وعد الله وهو فتح مكة ، وكان الله قد وعده ذلك ولقد استهزئ برسل من قبلك فأمليت للذين كفروا ثم أخذتهم

فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

الإملاء : الإمهال ، وأن يترك ملاوة من الزمان في خفض وأمن ، كالبهيمة يملئ لها في المرعى وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم . استهزاء به وتسليته له .

أَمَّنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَبْظِهَرُ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ( أفن هو قائم ) احتجاج عليهم في إشرأ كههم بالله ، يعني أفا الله الذي هو قائم رقيب ( على كل نفس ) صالحة أو طالحة ( بما كسبت ) يعلم خيره وشره ، ويعتد لكل جزاءه ،

(١) قلت : هو موجود في المنار لابن اسحق . والواقدي ، وطبقات ابن سعد في عدة سرايا منها سرية زيد ابن حارثة ليلق غير قريش ، وسرية على الحر بن سعد بن بكر وغيرهما .

كمن ليس كذلك . ويجوز أن يقدر ما يقع خبراً للابتداء ويعطف عليه وجعارا ، وتمثيله : أفن هو بهذه الصفة لم يوحده **﴿وجعلوا﴾** له وهو الله الذي يستحق العبادة وحده **﴿شركاء قل سموهم﴾** أى جعلتم له شركاء فسموهم له من هم ونبؤوه بأسمائهم ، ثم قال : **﴿أم تنبؤونه﴾** على أم المنقطعة ، كقولك للرجل : قل لى من زيد أم هو أقل من أن يعرف ، ومعناه : بل أنبؤونه بشركاء <sup>(١)</sup> لا يعلمهم فى الأرض وهو العالم بما فى السموات والأرض ، فإذا لم يعلمهم علم أنهم ليسوا بشئ . يتعلق به العلم ، والمراد نفي أن يكون له شركاء . ونحوه : **﴿قل أننبئون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض﴾** ، **﴿أم بظاهر من القول﴾** بل أتمونهم شركاء بظاهر من القول من غير أن يكون لذلك حقيقة ، كقوله **﴿ذلك قولهم بأفواههم﴾** ، **﴿ماتعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها﴾** وهذا الاحتجاج وأساسه العجيبة <sup>(٢)</sup> التى ورد عليها مناد على نفسه بلسان طلق ذلق : أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه ، فتبارك الله أحسن الخالقين . وقرئ **﴿أننبؤونه﴾** بالتخفيف **﴿مكرهم﴾** كيدهم للإسلام بشر كهم **﴿وصدوا﴾** قرئ بالحركات الثلاث . وقرأ ابن أبي إسحاق : **﴿وصد بالثنوين﴾** **﴿ومن يضلل الله﴾** ومن يخذله لعله أنه لا يهتدى **﴿فما له من هاد﴾** فما له من أحد يقدر على هدايته **﴿لهم عذاب فى الحياة الدنيا﴾** وهو ما ينالهم من القتل والأسر وسائر المحن ، ولا يلحقهم إلا عقوبة لهم على الكفر ، ولذلك سماه عذابا **﴿وما لهم من الله من واق﴾** وما لهم من حافظ من عذابه . أو ما لهم من جهته واق من رحمته .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلُّهَا دَائِمٌ

وَزَلَّتْهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)

**﴿مثل الجنة﴾** صفتها التى هى فى غرابة المثل ، وارتفاعه بالابتداء والخبر محذوف على مذهب سيبويه . أى فيما قصصناه عليكم مثل الجنة . وقال غيره : الخبر **﴿تجرى من تحتها الأنهار﴾** كما تقول : صفة زيد أسمر . وقال الزجاج : معناه مثل الجنة جنة تجرى من تحتها الأنهار ، على حذف الموصوف تمثيلا لما غاب عنا بما نشاهد . وقرأ على رضى الله عنه : أمثال الجنة ، على

(١) قال محمود : «معناه بل أننبؤونه بشركاء ... الخ» قال أحد : وحقيقة هذا النفي أنهم ليسوا بشركاء ، وأن الله لا يعلمهم كذلك ، لأنهم ليسوا كذلك وإن كانت لهم ذوات ثابتة يعلمها الله ، إلا أنها مربية حادثة لا آلهة معبودة ، ولكن عصى النفي على هذا السنن المتلو بديع ، لانه بلاغته وبراعته ، ولو أن الكلام على الأصل غير على هذا التعريف البديع لكان : وجعلوا لله شركاء . وما هم بشركاء ، فلم يكن بهذا الموقع التى اقتضته التلاوة .

(٢) عاد كلامه . قال : وهذا الاحتجاج وأساسه العجيبة التى ورد عليها ... الخ قال أحد : هذه الخاتمة لكلى حق أراد بها باطلا ، لأنه يعرض فيها بخلق القرآن فتنه لها ، وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ويحتسبه وهو غافل عما تحتته ، لولا هذا التنبيه والایقاط ، والله أعلم .

الجمع. أى صفاتها ﴿أكلها دائم﴾ كقوله (لا مقطوعة ولا ممنوعة) ﴿وظلها﴾ دائم لا ينسخ ، كما ينسخ في الدنيا بالشمس .

وَالَّذِينَ آمَنُوا لَهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا

### وَالَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٦﴾

﴿والذين آتيناهم الكتاب﴾ يريد من أسلم من اليهود ، كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما ، ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً : أربعون بنجران ، واثنان وثلاثون بأرض الحبشة ، وثمانية من أهل اليمن ، هؤلاء ﴿يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب﴾ يعنى ومن أحزابهم وهم كفرتهم الذين تحزبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعداوة نحو كعب بن الأشرف وأصحابه ، والسيد والعاقب أسقفي نجران وأشياهما ﴿من ينكر بعضه﴾ لأنهم كانوا لا ينكرون الأفاصيل وبعض الأحكام والمعاني هو ثابت في كتبهم غير محرف ، وكانوا ينكرون ما هو نعت الإسلام ونعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما حذفوه وبدلوه من الشرائع . فإن قلت : كيف اتصل قوله ﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله﴾ بما قبله ؟ قلت : هو جواب للسكرين معناه : قل إنما أمرت فيما أنزل إلى بأن أعبد الله ولا أشرك به . فإنكاركم له إنكار لعبادة الله وتوحيده فانظروا ماذا تنكرون مع ادعائكم وجوب عبادة الله وأن لا يشرك به ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً﴾ وقرأ نافع في رواية أبي خليل : ولا أشرك بالرفع على الاستئناف كأنه قال : وأنا أشرك به ويجوز أن يكون في موضع الحال على معنى : أمرت أن أعبد الله غير مشرك به . ﴿إليه أَدْعُوا﴾ خصوصاً لا أدعو إلى غيره ﴿وإليه﴾ لا إلى غيره مرجعى ، وأنتم تقولون مثل ذلك ، فلامعنى لإنكاركم . وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنْ

### الْعِلْمِ مَالَكٌ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾

﴿وكذلك أنزلناه﴾ ومثل ذلك الإنزال أنزلناه ما موراً فيه بعبادة الله وتوحيده والدعوة إليه وإلى دينه ، والإنذار بدار الجزاء ﴿حكماً عربياً﴾ حكمة عربية مترجمة بلسان العرب ، وانتصابه على الحال . كانوا يدعون رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أمور يوافقهم عليها منها أن يصلى إلى قبلتهم بعد ما حوله الله عنها ، فقليل له : لأن تابعتهم على دين ما هو إلا أهواء وشبه بعد ثبوت العلم عندك بالبراهين والحجج القاطعة ، خذلك الله فلا ينصرك ناصر ، وأهلكك

فلا يتيك منه واق ، وهذا من باب الإلهاب والتهيج ، والبحث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه ، وأن لا يزل زال عند الشبهة بعد استمساكه بالحجة ، وإلا فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم من شدة الشكيمة بمكان .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾

كانوا يعيونه بالزواج والولاد ، كما كانوا يقولون : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ، وكانوا يقترحون عليه الآيات ، وينسكرون النسخ . فقيل : كان الرسل قبله بشرأ مثله ذوى أزواج وذرية . وما كان لهم أن يأتوا بآيات برأيهم ولا يأتون بما يقترح عليهم ، والشرائع مصالح تختلف باختلاف الأحوال والأوقات ؛ فلكل وقت حكم يكتب على العباد ، أى : يفرض عليهم على ما يقتضيه استصلاحهم ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ ينسخ ما يستصوب نسخه ، ويثبت بدله ما يرى المصلحة في إثباته ، أو يتركه غير منسوخ ، وقيل : يمحو من ديوان الحفظه ما ليس بحسنة ولا سيئة ؛ لأنهم مأمورون بكتابة كل قول وفعل ﴿ويثبت﴾ غيره . وقيل : يمحو كفر التائبين ومعاصيهم بالتوبة ، ويثبت إيمانهم وطاعتهم . وقيل : يمحو بعض الخلائق ويثبت بعضاً من الأناسى وسائر الحيوان والنبات والأشجار وصفاتها وأحوالها ، والكلام فى نحو هذا واسع المجال ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ ، لأن كل كائن مكتوب فيه . وقرئ : ويثبت .

وَإِنْ مَأْتِرَيْتَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَقَّعُوكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾

﴿وإن ما ترينك﴾ وكيف دارت الحال أريناك مصارعهم وما وعدناهم من إزال العذاب عليهم . أو توفيناك قبل ذلك ، فما يجب عليك الإلتبليغ الرسالة فحسب ، وعلينا لاعليك حسابهم وجزاؤهم على أعمالهم ، فلا يهمنك إعراضهم ، ولا تستعجل بعذابهم .

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لِمُعَقَّبٍ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾

﴿أو لم يروا أنا نأتى الأرض﴾ أرض الكفر ﴿ننقصها من أطرافها﴾ بما نفتح على

المستلين من بلادهم ، فننقص دار الحرب ونزيد في دار الإسلام ، وذلك من آيات النصرة والغلبة ونحوه (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) ، (أفهم الغالبون) ، (سنرهم آياتنا في الآفاق) والمعنى : عليك بالبلاغ الذى حملته ؛ ولا تبتم بما وراء ذلك فنحن نكشفكم ونتم ما وعدناك من الظفر ، ولا يضجرك تأخره ؛ فإن ذلك لما نعلم من المصالح التى لاتعلمها ثم طيب نفسه ونفس عنها بما ذكر من طلوع تبشير الظفر . وقرئ : تنقصها ، بالتشديد (لأمعقب لحكمه) لارادته لحكمه . والمعقب : الذى يكثر على الشئ فيبطله . وحقيقته : الذى يعقبه أى يقيقه بالردة والإبطال . ومنه قيل لصاحب الحق : معقب ؛ لأنه يقفى غريمه بالافتضاء والطلب . قال لييد :

### \* طَلَبُ الْمُعَقَّبِ حَقُّ الْمَظْلُومِ \* (١)

والمعنى : أنه حكم للإسلام بالغلبة والإقبال ، وعلى الكفر بالإدبار والانتكاس (وهو سريع الحساب) فعما قليل يحاسبهم فى الآخرة بعد عذاب الدنيا . فإن قلت : ما محل قوله لأمعقب لحكمه ؟ قلت : هو جملة عملها النصب على الحال ، كأنه قيل : والله يحكم نافذاً حكمه ، كما تقول جادى زيد لاعمامة على رأسه ولا قلنسوة ، تريد حاسراً .

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ

### وَسَيَعْلَمُ الْكَافَرُ لِمَنْ عُقِيَ الدَّارِ (٤٢)

(وقد مكر الذين من قبلهم) وصفهم بالمكر ، ثم جعل مكرهم كلا مكر بالإضافة إلى مكره فقال (فله المكر جميعاً) ثم فسر ذلك بقوله (يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكافر لمن عقي الدار) لأن من علم ما تكسب كل نفس ، وأعد لها جزاءها فهو المكر كله ؛ لأنه يأتهم من حيث لا يعلمون . وهم فى غفلة بما يراد بهم . وقرئ : الكفار . والكافرون . والذين كفروا . والكفر : أى أهله . والمراد بالكافر الجنس : وقرأ جناح بن حبيش ، وسيعلم الكافر ، من أعلاه أى سيخبر :

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا يَتَّبِعُنِي وَيَذَنُّكُمْ

### وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)

(١) حتى تهرج فى الزواح وماجها طلب المعقب حقه المظلوم  
للبيد بن ربيعة ، يصف حمار وحش خرج فى الهجرة وراء أناته ، وماجها : أى يمتها على السير ونفطها لبرقة سيره فى طلبها ، كما يطلب المعقب المظلوم حقه ودينه عن هو عليه ، فالمظلوم بالرفع صفة للمعقب ، لأنه فاعل فى المعنى . ومعناه الذى رجع إلى حقه الذى كان أعطاه للدين ، فكأنه رجع على عقبه ، أو لأنه يعقب المدين ويتبعه .

﴿كفى بالله شهيداً﴾ لما أظهر من الأدلة على رسالتي ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ والذي عنده علم القرآن <sup>(١)</sup> وما ألف عليه من النظم المعجز الفائق لقوى البشر . وقيل : ومن هو من علماء أهل الكتاب <sup>(٢)</sup> الذين أسلموا . لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم : وقيل هو الله عز وجل <sup>(٣)</sup> والكتاب : اللوح المحفوظ . وعن الحسن : لا والله ما يعنى إلا الله . والمعنى : كفى بالذى يستحق العبادة والذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو ، شهيداً بيني وبينكم . وتعضده قراءة من قرأ ومن عنده علم الكتاب ، على من الجارة ، أى . ومن لدنه علم الكتاب ، لأن علم من علمه من فضله وإطفه . وقرئ : ومن عنده علم الكتاب على من الجارة . وعلم ، على البناء للمفعول . وقرئ : ومن عنده علم الكتاب . فان قلت : بم ارتفع علم الكتاب ؟ قلت : في القراءة التي وقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالمقدر في الظرف ، فيكون فاعلاً ؛ لأن الظرف إذا وقع صلة أو غل في شبه الفعل لا يعتمد على الموصول ، فعمل عمل الفعل ، كقولك : مررت بالذى في الدار أخوه . فأخوه فاعل ، كما تقول : بالذى استقر في الدار أخوه . وفي القراءة التي لم يقع فيها عنده صلة يرتفع العلم بالابتداء .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة الرعد أعطى من الأجر عشر حسنات بوزن كل صحاب مضى وكل صحاب يكون إلى يوم القيامة ، وبعث يوم القيامة من المؤمنين بعهد الله <sup>(٤)</sup>

- 
- (١) قال محمود : « المراد والذي عنده علم القرآن ... الخ ، قال أحد : فيكون المراد حينئذ : جنس المؤمنين .  
 (٢) قال محمود : « وقيل ومن هو من علماء أهل الكتاب الذين أسلموا لأنهم يشهدون بنعته في كتبهم ، قال أحد : فالكتاب على التأويل الأول مراد به القرآن خاصة ، وعلى الثاني جنس الكتب المتقدمة عليه .  
 (٣) قال محمود : « وقيل هو الله عز وجل ، والكتاب ، اللوح المحفوظ . وعن الحسن : لا والله ما يعنى إلا الله والمعنى : كفى بالذى يستحق العبادة والذي لا يعلم ما في اللوح المحفوظ إلا هو ، شهيداً بيني وبينكم . وتعضده قراءة من قرأ ( ومن عنده علم الكتاب ) على من الجارة » قال أحد : وإنما قدر الزخشرى في المعطوف عليه اسم الله بالذى يستحق العبادة ، حذراً من عطف الصفة على الموصوف ، وعدولاً إلى أنه عطف إحدى الصفتين على الأخرى تقديراً ، وإنما أخذ المحصر حيث يقول : ومن لا يعلم علم الكتاب إلا هو من أنه قدم الخبر الذى هو عنده على مبتدئه ، وشأن الزخشرى أخذ المحصر من التقديم ، والله الموفق للصواب .  
 (٤) تقدم إسناده في آل عمران .

## سورة إبراهيم

مكية ، [ إلا آيتي ٢٨ و ٢٩ فدينيتان ]

وآياتها ٥٢ [ نزلت بعد سورة نوح ]

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كِتَبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ  
إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١) اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ  
وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى  
الْآخِرَةِ وَبُذُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣)

(كتاب) هو كتاب ، يعنى السورة . وقرئ : ليخرج الناس . والظلمات والنور :  
استعارتان للضلال والهدى ( بإذن ربهم ) بتسهيله وتيسيره ، مستعار من الإذن الذى هو تسهيل  
للحجاب ، وذلك ما يمنحهم من اللطف والتوفيق ( إلى صراط العزيز الحميد ) بدل من قوله إلى  
النور بتكرير العامل ؛ كقوله ( الذين استضعفوا لمن آمن منهم ) ويجوز أن يكون على وجه  
الاستئناف ، كأنه قيل : إلى أى نور ؟ فقيل : إلى صراط العزيز الحميد . وقوله ( الله ) عطف بيان  
للعزيز الحميد ؛ لأنه جرى مجرى الأسماء الأعلام لغلبيته واختصاصه بالمعبود الذى تحق له العبادة  
كما غلب النجم فى الثريا . وقرئ بالرفع على : هو الله . الويل : نقيض الوأل ، وهو النجاة اسم  
معنى ، كالهلاك ؛ إلا أنه لا يشتق منه فعل ، إنما يقال : ويل له ؛ فينصب نصب المصادر ، ثم يرفع  
رفعها لإفادة معنى الثبات ، فيقال : ويل له ، كقوله سلام عليك . ولما ذكر الخارجين من ظلمات  
الكفر إلى نور الإيمان توعده الكافرين بالويل . فإن قلت : ما وجه اتصال قوله ( من عذاب  
شديد ) بالويل ؟ قلت : لأن المعنى أنهم يولولون من عذاب شديد ، ويضجون منه ، ويقولون :  
يا ويلاه ، كقوله ( دعوا هنالك نبورا ) ( الذين يستحبون ) مبتدأ خبره : أولئك فى ضلال بعيد  
ويجوز أن يكون مجرورا صفة للكافرين ، ومنصوبا على الذم ، أو مرفوعا على أعنى الذين يستحبون  
أو هم الذين يستحبون . والاستحباب : الإيثار والاختيار ، وهو استعمال من المحبة ؛ لأن المؤثر

للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخر. وقرأ الحسن: ويصدون، بضم الياء وكسر الصاد. يقال: صدّه عن كذا، وأصدّه. قال:

﴿أَنَّا مَصَّدُوا النَّاسَ بِالسَّيْفِ عَنْهُمْ﴾ \* (١)

والهمزة فيه داخلة على صد صدوداً، لتثقله من غير التعدى إلى التعدى. وأما صدّه، فموضوع على التعدية كمنعه، وليست بفضيحة كأوقفه؛ لأنّ الفصحاء استغنوا بصدّه ووقفه عن تكلف التعدية بالهمزة ﴿ويبغونها عوجاً﴾ ويطلبون لسبيل الله زينةً واعوجاجاً، وأن يدلوا الناس على أنها سبيل ناكبة عن الحق غير مستوية، والأصل: ويبغون لها، فحذف الجار وأوصل الفعل ﴿في ضلال بعيد﴾ أى ضلوا عن طريق الحق، ووقفوا دونه بمراحل. فإن قلت: فما معنى وصف الضلال بالبعد. قلت: هو من الإسناد المجازى، والبعد في الحقيقة للضلال؛ لأنه هو الذى يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، كما تقول: جدّ جدّه. ويجوز أن يراد: فى ضلال ذى بعد. أو فيه بعد: لأنّ الضلال قد يضلّ عن الطريق مكاناً قريباً وبعيداً.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

﴿إلا بلسان قومه ليبين لهم﴾ أى ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه، فلا يكون لهم حجة على الله (٢)

(١) أناس أصدوا الناس بالسيف عنهم صدود السواني فى أنوف الحوامى لدى الرمة، أنقده عنه القراء، يقال: صدّه عن كذا، ولغة كلب: أصدّه عنه إذا منعه، فوضع الصدود موضع الأصداد. والسوانى - بالفاء - : الرياح، لأنها تسفو التراب. وقيل: هي بالقاف جمع ساق أو ساقية، وهى فوق الجدول. والحوامى: الجبال المطاش؛ لأنها تحوم حول الماء جمع حايمة، ويطلق على طير إذا اشتد عطشه حام حول الماء، فإذا ناله سقط ريشه فيغرق فيه. وجمعه حوامى أيضاً. ويجوز أن يراد منها: أو الجبال لأنها لا ارتفاعها تشرف من بعد كأنها حايمة، أو لأن الطير يحوم فوقها فنسب الفعل إليها مجاز لأنها علم، يقول: قوم منعوا الناس عن أنفسهم بالسيف لمنع الرياح وضربها فى أنوف الجبال، أو فى أعالي الجبال، أو كنع السقاء إبل غيرهم عن إبلهم فى السقى، أو كنع الأنهار لبعدها إبل المطاش أو الطيور المطاش عن الشرب، لأن الطيور تخاف الفرق فيه. ويرى: عن أنوف الحوامى. وفيه تقييد الأعداء بالمطاش وأصحاب السيوف، أو السيوف بالرياح ضمناً.

(٢) قال محمود: «أى ليفقهوا عنه ما يدعوهم إليه فلا يكون لهم حجة... الخ» قال أحمد: جميع الفصل مرضى، لكن فى هذه الخاتمة نظر، لأن فيها إشعاراً بأن إعجاز القرآن من حيث اللغة القرية خاصة يتقاصر عن إعجازه، لو قدر منزلاً بكل لسان، حتى إنه لو يزل بجميع اللغات لبلغ من الوضوح إلى حد يكاد أن يكون إلجاء إلى الإبان به، وهذا فيه نظر، والقول به غير متين؛ لأن المعجز يفيد العلم بصدق من ظهر على يده، ومتى حصل العلم لم يكن بين علم وعلم تفاوت ولا ترجيح، فلو نزل القرآن بجميع اللغات، لكان العلم الحاصل منه وقد نزل بلفظ واحدة، هو العلم الحاصل منه لو نزل بالجميع، لا تفاوت ولا ترجيح بين العالين، هذا هو التحقيق، والله أعلم. والزعزعى =



ولا يقولوا: لم نفهم ما خاطبنا به، كما قال (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته).  
 فإن قلت: لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس  
 جميعاً (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً) بل إلى الثقلين، وهم على السنة مختلفة،  
 فإن لم تكن للعرب حجة فغيرهم الحجة وإن لم تكن لغيرهم حجة فلو نزل بالعجمية، لم تكن  
 للعرب حجة أيضاً. قلت: لا يخلو إما أن ينزل بجميع الآلسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله  
 بجميع الآلسنة، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد،  
 فكان أولى الآلسنة لسان قوم الرسول: لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوّل  
 عنهم وانتشر. قامت التراجم ببيانها وتفهمه، كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم في كل  
 أمة من أمم العجم، مع ما في ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة، والأقطار المتنازحة،<sup>(١)</sup>  
 والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة، على كتاب واحد، واجتهادهم في تعلم لفظه وتعلم معانيه،  
 وما يتشعب من ذلك من جلائل الفوائد، وما يتكاثر في إتعاب النفوس وكثرة القرائح فيه، من  
 القرب والطاعات المفضية إلى جنيل الثواب، ولأنه أبعد من التحريف والتبديل، وأسلم من  
 التنازع والاختلاف، ولأنه لو نزل باللسنة الثقلين كلها - مع اختلافها وكثرتها، وكان مستقلاً  
 بصفة الإعجاز في كل واحد منها، وكلم الرسول العربي كل أمة بلسانها كما كلم أمة التي هو منها  
 يتلوه عليهم معجراً - لكان ذلك أمراً قريباً من الإلجاء. ومعنى (بلسان قومه) بلغة قومه. وقرئ:  
 بلسن قومه. واللسن واللسان: كالريش والرياش، بمعنى اللغة. وقرئ: بلسن قومه بضم اللام  
 والسين مضمومة أو ساكنة، وهو جمع لسان. كعناد وعمد وعمد على التخفيف. وقيل: الضمير  
 في قومه لمحمد صلى الله عليه وسلم، ورووه عن الضحاك. وأن الكتب كلها نزلت بالعربية، ثم  
 أذاها كل نبي بلغة قومه، وليس بصحيح؛ لأن قوله ليبين لهم ضمير القوم وهم العرب، فيؤدى إلى  
 أن الله أنزل التوراة من السماء بالعربية ليبين للعرب، وهذا معنى فاسد ﴿فيضل الله من يشاء  
 ويهدي من يشاء﴾ كقوله (فمنكم كافر ومنكم مؤمن) لأن الله لا يضل إلا من يعلم أنه لن يؤمن.  
 ولا يهدي إلا من يعلم أنه يؤمن. والمراد بالإضلال: التخليّة ومنع الإلطاف<sup>(٢)</sup>، وبالهداية:  
 التوفيق واللفظ، فكان ذلك كناية عن الكفر والإيمان (وهو العزيز) فلا يغلب على  
 مشيئته (الحكيم) فلا يخذل إلا أهل الخذلان، ولا يلطف إلا بأهل اللطف

== يبنى في كثير من كلامه على أن العلوم تتفاوت وتنقسم إلى جلي وأجل، وهو من الحق بعزل، وإنما ظن ذلك طائفة ظاهرية، والله الموفق.

(١) قوله «والأقطار المتنازحة، أى المتباعدة جداً». أفاده الصحاح. (ع)

(٢) قوله «والمراد بالإضلال التخليّة ومنع الإلطاف». هذا عند المعتزلة. أما عند أهل السنة فخلق الضلال في القلب، لأن الله لا يخلق الشر عند المعتزلة، ويخلق الخير عند أهل السنة. (ع)

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ  
وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾

﴿أن أخرج﴾ بمعنى أى أخرج : لأن الإرسال فيه معنى القول ، كأنه قيل : أرسلناه وقلنا له أخرج . ويجوز أن تكون أن الناصبة للفعل ، وإنما صلح أن توصل بفعل الأمر ، لأن الغرض وصلها بما تكون معه في تأويل المصدر وهو الفعل والأمر ، وغيره سواء في الفعلية . والدليل على جواز أن تكون الناصبة للفعل : قولهم أوعز إليه بأن افعل ، فأدخلوا عليها حرف الجر . وكذلك التقدير بأن أخرج قومك ﴿وذكرهم بأيام الله﴾ وأنذرهم بوقائعه التي وقعت على الأمم قبلهم : قوم نوح وعاد وثمود . ومنه أيام العرب لحروبها وملاحمها ، كيوم ذي قار ، ويوم الفجار ، ويوم قضة وغيرها ، وهو الظاهر . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : نجاؤه وبلاؤه . فأما نجاؤه ، فإنه ظلل عليهم الغمام ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وقلق لهم البحر . وأما بلاؤه فإهلاك القرون ﴿لكل صبار شكور﴾ يصبر على بلاء الله ويشكر نعماءه ، فإذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأمم ، أو أفاض عليهم من النعم . تنبه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر . وقيل : أراد لكل مؤمن ، لأن الشكر والصبر من سبحاياه ، تنبيهاً عليهم .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ  
يُسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ  
بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾

﴿إذ أنجاكم﴾ ظرف للنعمة بمعنى الإنعام ، أى إنعامه عليكم ذلك الوقت . فإن قلت : هل يجوز أن ينتصب بـعليكم ؟ قلت : لا يخلو من أن يكون صلة للنعمة بمعنى الإنعام ، أو غير صلة إذا أردت بالنعمة العطية . فإذا كان صلة لم يعمل فيه ، وإذا كان غير صلة بمعنى اذكروا نعمة الله مستقرة عليكم عمل فيه ، ويتبين <sup>(١)</sup> الفرق بين الوجهين أنك إذا قلت : نعمة الله عليكم ، فإن جعلته صلة لم يكن كلاماً حتى تقول فائضة أو نحوها ، وإلا كان كلاماً . ويجوز أن يكون ، إذ ، بدلاً من نعمة الله ، أى : اذكروا وقت إنجائكم ، وهو من بدل الاشتغال . فإن قلت : في سورة البقرة (يذبحون) وفي الاعراف (يقتلون) وههنا ﴿ويذبحون﴾ مع الواو ، فما الفرق ؟ قلت : الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب ويباناً له ، وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على

جنس العذاب ، وزاد عليه زيادة ظاهرة كأنه جنس آخر . فإن قلت : كيف كان فعل آل فرعون بلاء من ربهم ؟ قلت : تمكينهم وإمهالهم ، حتى فعلوا ما فعلوا ابتلاء من الله . ووجه آخر وهو أن ذلك إشارة إلى الإنجاء وهو بلاء عظيم ، والبلاء يكون ابتلاء بالنعمة والمحنة جميعا ، قال تعالى ( ونبلوكم بالشر والخير فتنة ) وقال زهير :

\* فَأَبْلَاهُمَا خَيْرَ الْبَلَاءِ الَّذِي يَبْلُوهُ \* (١)

\*\*\*

وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ لَنِ شُكْرُكُمْ لَا زِيدُنْكُمْ وَلَئِنَّ كَفْرَكُمْ إِنِّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾

( وَإِذْ تَأْذَنَ رَبُّكُمْ ) من جملة ما قال موسى لقومه ، وانتصابه للعطف على قوله ( نعمة الله عليكم ) كأنه قيل : وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ، واذكروا حين تأذن ربكم . ومعنى تأذن ربكم : أذن ربكم . ونظير تأذن وأذن : توعده وأوعده ، تفضل وأفضل . ولا بد في تفعل من زيادة معنى ليس في أفعل ، كأنه قيل : وإذ أذن ربكم إيدانا بليغا تنتفي عنده الشكوك وتنزاح الشبهة . والمعنى : وإذ تأذن ربكم فقال ( لئن شكرتم ) أو أجرى ( تأذن ) مجرى ، قال : لأنه ضرب من القول . وفي قراءة ابن مسعود : وإذ قال ربكم لئن شكرتم ، أى لئن شكرتم يابني إسرائيل ما خولتكم من نعمة الإنجاء وغيرها من النعم بالإيمان الخالص والعمل الصالح ( لا يزيدكم ) نعمة إلى نعمة ، ولأضاعفن لكم ما آتيتكم ( ولئن كفرتم ) وغمظتم (١) ما أنعمت به عليكم ( إن عذابي لشديد ) لمن كفر نعمتي .

وَقَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَفِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

( وقال موسى ) إن كفرتم أنتم يابني إسرائيل والناس كلهم ، فإنما ضررتم أنفسكم وحرمتموها الخير الذي لا بد لكم منه وأنتم إليه محاييج ، والله غنى عن شكركم ( حميد ) مستوجب للحمد بكثرة أنعمه وأياديه ، وإن لم يحمده الحامدون .

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُؤُا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهِمُ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة ٢٠٨ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله « وغمظتم ما أنعمت به عليكم » في الصحاح « غمط الشيء » بظره وحقره . (ع)

﴿والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله﴾ جملة من مبتدأ وخبر، وقعت اعتراضاً: أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح. و (لا يعلمهم إلا الله) اعتراض. والمعنى: أنهم من السكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله. وعن ابن عباس رضى الله عنه: بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون، وكان ابن مسعود إذا قرأ هذه الآية قال: كذب النسابون، يعنى أنهم يدعون علم الأنساب، وقد نفي الله عنها عن العباد ﴿فردوا أيديهم في أفواههم﴾ فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل<sup>(١)</sup>، كقوله (عضوا عليكم الأنامل من الغيظ) أو ضحكاً واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه. أو وأشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم ﴿إنا كفرنا بما أرسلتم به﴾ أى هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره، إقناطاً لهم من التصديق. ألا ترى إلى قوله (فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به) وهذا قول قوى. أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: أطبقوا أفواهكم واسكتوا. أو ردوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت. أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون. وقيل: الأيدي، جمع يد وهى النعمة بمعنى الأيادى، أى: ردوا نعم الأنبياء التى هى أجل النعم من مواعظهم ونصائحهم وما أوحى إليهم من الشرائع والآيات فى أفواههم، لأنهم إذا كذبوها ولم يقبلوها، فكأنهم ردوها فى أفواههم ورجعوها إلى حيث جاءت منه على طريق المثل ﴿مما تدعوننا إليه﴾ من الإيمان بالله. وقرئ: تدعوننا، بإدغام النون ﴿مريب﴾ موقع فى الريبة أو ذى ريبة، من أرابه، وأراب<sup>(٢)</sup> الرجل، وهى قلق النفس وأن لا تطمئن إلى الأمر.

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ  
مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَى آجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ

تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (١٠)

﴿أفى الله شك﴾ أدخلت همزة الإنكار على الظرف، لأن الكلام ليس فى الشك، إنما هو فى المشكوك فيه، وأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة وشهادتها عليه ﴿يدعوكم ليغفر لكم من

(١) قال محمود: «معناه عضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل... الخ» قال أحمد: وأقوى هذه الوجوه هذا الوجه الذى نبه المصنف على اختصاصه بالقوة، وإنما كان كذلك لأن إقناطهم الرسل من الإيمان قولاً وفعلًا بوضع اليد فى الفم، هو المناسب لحسدهم فى الكفر. وتصدير العبارة بالحرف المؤكد ومواجهة الرسل بضمائر الخطاب وإعادة ذلك مبالغة فى التأكيد وليس السياق مناسب للضحك ولا التيقظ ولا تصحيت الرسل كناسبته لإقناطهم من القبول. ألا ترى أنهم لما أعادوا الرسل القول ولم ينكروا عليهم عودهم إلى المجادلة، دل على أنهم لم يسكتوهم أولاً، ولا كان غرضهم ذلك، والله أعلم.

(٢) قوله «وآراب الرجل، لعله: أو أراب» (ع)

ذنوبكم) أى يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم أو يدعوكم لأجل المغفرة كقوله : دعوته لينصرفنى ، ودعوته ليأكل معى ، وقال :

دَعَوْتُ لِمَا نَأْتِي مَسُورًا قَلْبِي قَلْبِي يَدَى مَسُورٍ (١)

فإن قلت : مامعنى التبعض فى قوله : من ذنوبكم ؟ قلت : ماعلمته جاء هكذا إلا فى خطاب الكافرين ، كقوله (واتقوه وأطيعوا يغفر لكم من ذنوبكم) ، (يا قومنا أجيئوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم) وقال فى خطاب المؤمنين : (هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم) إلى أن قال (يغفر لكم ذنوبكم) وغير ذلك مما يقفك عليه الاستقراء ، وكان ذلك للتفرقة بين الخطائين ، ولئلا يسوى بين الفريقين فى الميعاد . وقيل : أريد أنه يغفر لهم ما بينهم وبين الله ، بخلاف ما بينهم وبين العباد من المظالم ونحوها (ويؤخركم إلى أجل مسمى) إلى وقت قد سماه الله وبين مقداره ، يبلغكموه إن آتمتم ، وإلا عاجلكم بالهلاك قبل ذلك الوقت (إن أتمتم) ما أنتم (إلا بشر مثلنا) لافضل بيننا وبينكم ، ولا فضل لكم علينا ، فلم تخصون بالنبوة (٢) دوننا ، ولو أرسل الله إلى البشر رسلا لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة (٣) (بسلطان مبين) بحجة بينة ، وقد جاءتهم رسلهم بالبينات والحجج ، وإنما أرادوا بالسلطان المبين آية قد اقترحوها تعنتاً ولجاجاً .

(١) لأعراي من بنى أسد . ولبي : بمعنى أجاب ، ووجه ابن حبيب بالالف وإن كان يأتيما للفرق بينه وبين المتى بعده . ولبي من الأسماء اللازمة للاضافة إلى الضمير ، وشذ إضافته للظاهر كما هنا ، من لب المكان ليا أقام به وانراد ملازمة إجابته بعد إجابة لاثنين فقط ، وهو منصوب على المصدرية بفعل محذوف . هذا مذهب سيويه . وذهب يونس أنه مفرد مقصور ، قلبت ألفه مع الضمير ياء كدى وعلى ، فرد عليه سيويه بأنه لو كانت كذلك لم تتقلب ألفه مع الظاهر ياء كدى وعلى ، لكنهم لما أخافوه للظاهر قلبوها ياء كما فى البيت . يقول : دعوت مسورا لما أصابنى ، فأجابتى قلبى يديه ، أى أجاب الله دعاه إجابة بعد إجابة ، وأقمم اليدين لأنهما يرفعان عند الدعاء ، فكأنهما المجابتان : أولان نصره حصل بهما ، ففيه إشارة إلى أنه أنقذه . وقيل : إنه دعاه ليغرم عنه الدية ، فأجابه ، فذكر يديه لأنه بذل بهما . قيل : وكانت عادة العرب ذلك فنهى عنه . روى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم أنه قال . إذا دعا أحدكم أخاه فقال : لييك ، فلا يقول لى يديك ، وليقل أجابك الله بما تحب .

(٢) عاد كلامه . قال : «وقولهم إن أتمم إلا بشر مثلنا : معناه فلم تخصون بالنبوة دوننا ؟ ولو أرسل الله إلى البشر رسلا لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة» ؟ قال أحد : ومن تهالكه على الاتصاف باعتقاده بتفضيل الملائكة على الرسل من البشر ، يستعين حتى يحمل الكفار على أنهم كانوا يعتقدون كاعتقاد القدرية فى تفضيل الملك على الرسول ، لأنه يدعى ذلك أمراً مركزاً فى الطباع معلوما ضرورياً ، والله الموفق .

(٣) قوله «لجعلهم من جنس أفضل منهم وهم الملائكة» هذا على مذهب المعتزلة ، أما عند أهل السنة فيعص البشر أفضل . (ع)

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ  
يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ  
فَلْتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا  
وَأَنْصُرِينَ عَلَى مَا أَدَّيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

(إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) تسليم لقولهم ، وأنهم بشر مثلهم ، يعنون أنهم مثلهم في البشرية  
وحدها ، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم ، ولكنهم لم يذكرُوا فضاهم تواضعاً منهم ، واقتصروا  
على قولهم (ولكن الله يمين على من يشاء من عباده) بالنبوة ، لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك  
الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها ، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم (إلا  
بإذن الله) أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا ، وما هو إلا  
أمر يتعلق بمشيئة الله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أمر منهم للتوكل كافة بالتوكل ، وقصدوا  
به أنفسهم قصداً أولياً وأمرها به ، كأنهم قالوا : ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على  
معاندتكم ومعاداتكم وما يجري علينا منكم . ألا ترى إلى قوله (وما لنا أن لا نتوكل على الله)  
ومعناه : وأى عذر لنا في أن لا نتوكل عليه (وقد هدانا) وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه ،  
وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين ، فإن قلت : كيف كثر  
الأمر بالتوكل (١) ؟ قلت : الأول لاستحداث التوكل ، وقوله (فليتوكل المتوكلون) معناه فليثبت  
المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدتهم إلى أنفسهم على ما تقدم .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا  
فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ  
ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾

(لَنُخْرِجَنَّكُمْ) ، (أو لتعودن) ليكون أحد الأمرين لا محالة ، إما إخراجكم وإما عودكم  
حالفين (٢) على ذلك . فإن قلت : كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها . قلت : معاذ الله ،  
ولكن العود بمعنى الصيرورة ، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعونهم يستعملون

(١) قال محمود : «إن قلت كيف كرر ذلك بعد قوله (وعلى الله فليتوكل المؤمنون) ... الخ» قال أحد : وبهذا

يخرج عن رادى «من قتل قتيلا فله سلبه» والله أعلم .

(٢) قوله «حالفين» حال من فاعل قال . وعبارة النسب «وحلفوا» . (ع)

صار ، ولكن عاد ، ماعدت أراه عاد لا يكلمني ، ماعاد لفلان مال . أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به ، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد ﴿ لنهلك الظالمين ﴾ حكاية تقتضي إضمار القول ، أو إجراء الإيحاء مجرى القول ، لأنه ضرب منه . وقرأ أبو حية : ليهلكن ، وليسكنكنم : بالياء اعتباراً لأوحى ، وأن لفظه لفظ الغيبة ، ونحوه قولك : أقسم زيد ليخرجن ولاخرجن . والمراد بالارض . أرض الظالمين وديارهم ، ونحوه ( وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها ) ، ( وأورثكم أرضهم وديارهم ) . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : من آذى جاره ورثه الله داره <sup>(١)</sup> ، واقد عاينت هذا في مدة قريبة : كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها ويؤذني فيه . فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته ، فنظرت يوماً إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحدثهم به ، وسجدنا شكر الله ﴿ ذلك ﴾ إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين وإسكان المؤمنين ديارهم ، أي ذلك الأمر حق ﴿ لمن خاف مقامي ﴾ موقفي وهو موقف الحساب ، لأنه موقف الله الذي يقف <sup>(٢)</sup> فيه عباده يوم القيامة ، أو على إقحام المقام . وقيل : خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله . والمعنى أن ذلك حق للمؤمنين ، كقوله ( والعاقبة للمتقين ) .

وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ <sup>(١٥)</sup> مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ <sup>(١٦)</sup> يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَمْتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ <sup>(١٧)</sup>

﴿ واستفتحوا ﴾ واستنصروا الله على أعدائهم (إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح) أو استحقوا الله وسأله القضاء بينهم من الفتاحة وهي الحكومة ، كقوله تعالى ( ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق ) وهو معطوف على ( أوحى إليهم ) وقرئ : واستفتحوا ، بلفظ الأمر . وعطفه على ( لنهلكن ) أي : أوحى إليهم ربهم وقال لهم لنهلكن وقال لهم استفتحوا ﴿ وخاب كل جبار عنيد ﴾ معناه فنصروا وظفروا وأفلحوا ، وخاب كل جبار عنيد ، وهم قومهم . وقيل : واستفتح الكفار على الرسل ، ظناً منهم بأنهم على الحق والرسل على الباطل ، وخاب كل جبار عنيد منهم ولم يفلح باستفتاحه ﴿ من ورائه ﴾ من بين يديه . قال :

(١) لم أجده .

(٢) قوله « يقف فيه عباده » في الصحاح : يتعدى ولا يتعدى ، (ع)

## عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أُمْسِيَتْ فِيهِ يَكُونُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيبٌ (١)

وهذا وصف حاله وهو في الدنيا ، لأنه مرصد لجهنم ، فكانها بين يديه وهو على شفيرها أو وصف حاله في الآخرة حين يبعث ويوقف . فان قلت : علام عطف ﴿ ويسقى ﴾ ؟ قلت : على محذوف تقديره : من ورائه جهنم يلقي فيها ما يلقي ويسقى من ماء صديد ، كأنه أشد عذابها تفصيلا بالذكر مع قوله ( ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ) . فإن قلت : ما وجه قوله تعالى ﴿ من ماء صديد ﴾ ؟ قلت : صديد عطف بيان لماء . قال ( ويسقى من ماء ) فأفهمه إلهاما ثم بينه بقوله ( صديد ) وهو ما يسيل من جلود أهل النار ﴿ يشجره ﴾ بتكلف جرعه ﴿ ولا يكاد يسيغه ﴾ دخل كاد للبالغة . يعنى : ولا يقارب أن يسيغه ، فكيف تكون الإساغة . كقوله ( لم يكدرها ) أى لم يقرب من رؤيتها فكيف يراها ﴿ ويأتيه الموت من كل مكان ﴾ كأن أسباب الموت وأصنافه كلها قد تألفت عليه (٢) وأحاطت به من جميع الجهات ، تفضيها لما يصيبه من الآلام . وقيل ( من كل مكان ) من جسده حتى من إلهام رجله . وقيل : من أصل كل شعرة ﴿ ومن ورائه ﴾ ومن بين يديه ﴿ عذاب غليظ ﴾ أى فى كل وقت يستقبله يتلقى عذابا أشد مما قبله وأغلظ . وعن الفضيل : هو قطع الأنفاس وحبسها فى الأجساد . ويحتمل أن يكون أهل مكة قد استفنحوا أى استمطروا - والفتح المطر - فى سنى القحط التى أرسلت عليهم بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يسقوا ، فذكر سبحانه ذلك ، وأنه خيب رجاء كل جبار عنيد وأنه يسقى فى جهنم بدل سقيه ماء آخر ، وهو صديد أهل النار . واستفتحوا - على هذا التفسير - :

(١) يورقنى اكتاب أبى نعيم      فقلبى من كآبته كئيب  
فقلت له هداك الله مهلا      وخير القول ذو اللب المصيب  
عسى الكرب الذى أمسيت فيه      يكون وراءه فرج قريب

لهدي بن خشرم العذرى . ويروى : خرشم . وكان مسجوناً للقتل . والتأريق : التسيير ، والا كتاب : الانسكار وتقدير اللون من الحزن ، والكتابة كذلك . وأبو نعيم كان صديقا له ، فزاره لك السجن وحزن عليه . ومهلا : مصدر بدل من اللفظ بفعله . وخبر القول : جملة اعتراضية فى أثناء مقول القول . واللـب : العقل . وعسى الكرب : تنمة مقول القول . ويروى : أمسيت ، بالضم والفتح . وقال الجوهري «وراء» يأتي بمعنى خلف ، وقد يأتي بمعنى فدام ، فهو من الازدحام اه ؛ لأنه ما وراء الشخص بجرمه عن نفسه أو عن غيره ، ومواراته عن نفسه لا يمكن إلا فى الخلف ، فكثير فيه . أو هو مكان المواراة مطلقا ، وهو فى الخلف أكثر . واسم ويكون، ضمير الكرب ، ووراءه متعلق بمحذوف خبر ليكون ، و«فرج» فاعل بالظرف . ويجوز أن «فرج» مبتدأ و«وراءه» متعلق بمحذوف خبر له ، والجملة خبر ليكون ، ويجب كون المحذوف كونا تاما لا ناقصا ؛ لتلا يحتاج إلى تقدير محذوف أيضا ، فيستلزم التقدير ، ولم يجعل «فرج» مرفوع ليكون ؛ لأن خبر أعمال المقاربة لا يرفع الأجني عن أمثالها . وجملة «يكون» خبر ليس ، ونريد خبرها من «أن» ، فليل أى عسى أن يحصل الفرج بعد الكرب .

(٢) قوله «قد تألفت عليه» أى تجمعت . أفاده الصحاح . (ع)



كلام مستأنف منقطع عن حديث الرسل وأممهم

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨)

هو مبتدأ محذوف الخبر عند سيبويه ، تقديره : وفيما يقص عليك ﴿ مثل الذين كفروا بربهم ﴾ والمثل مستعار للصفة التي فيها غرابة وقوله ﴿ أعملهم كرماد ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤال سائل يقول : كيف مثلهم ؟ فقيل : أعمالهم كرماد . ويجوز أن يكون المعنى : مثل أعمال الذين كفروا بربهم . أو هذه الجملة خبرا للببتدأ ، أى صفة الذين كفروا أعمالهم كرماد ، كقولك صفة زيد عرضه مصون وماله مبذول ، أو يكون أعمالهم بدلا من ﴿ مثل الذين كفروا ﴾ على تقدير : مثل أعمالهم ، وكرماد : الخبر . وقرئ : الرياح ﴿ في يوم عاصف ﴾ جعل العصف لليوم ، وهو لما فيه ، وهو الريح أو الرياح ، كقولك : يوم ماطر وليلة ساكرة . وإنما السكور لريحها (١) وقرئ : في يوم عاصف ، بالإضافة . وأعمال الكفرة المسكارم التي كانت لهم ، من صلة الأرحام وعق الرقاب ، وفداء الأسارى ، وعقر الإبل للأضياف ، وإغاثة الملهوفين ، والإجازة ، وغير ذلك من صنائعهم ، شبهها في جيوطها وذهابها هباء منثورا لبنائها على غير أساس من معرفة الله والإيمان به ، وكونها لوجهه : بزمام طيرته الريح العاصف ﴿ لا يقدرُونَ ﴾ يوم القيامة ﴿ مما كسبوا ﴾ من أعمالهم ﴿ على شيء ﴾ أى لا يرون له أثرا من ثواب ، كما لا يقدر من الرماد المطير في الريح على شيء ﴿ ذلك هو الضلال البعيد ﴾ إشارة إلى بعد ضلالهم عن طريق الحق أو عن الثواب ﴿ بالحق ﴾ بالحكمة والغرض الصحيح (٢) والأمر العظيم ، ولم يخلقها عبثا ولا شهوة

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئُوسَ الْيَهُودِ كَذِبٌ

بِخَلْقِ جَدِيدٍ (١٩) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (٢٠)

وقرئ : خالق السموات والأرض ﴿ إن يئس يذهبكم ﴾ أى هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقا آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم ، إعلاما منه باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم ، يقدر على الشيء وجنس ضده ﴿ وما ذلك على الله بعزيز ﴾ بمتعذر ،

(١) قوله : « وإنما السكور لريحها » ، في الصحاح : سكرت الريح ، أسكر سكورا : سكنت بعد الهبوب . (ع)

(٢) قال محمود : « معناه خلقها بالحكمة والغرض الصحيح ... الخ » قال أحمد : وهذا من اعتزاله الحق وقد

بل هو هين عليه يسير <sup>(١)</sup> ، لأنه قادر الذات لا اختصاص له بمقدور دون مقدور ، فإذا خلص له الداعي إلى شيء وانتفى الصارف ، تكون من غير توقف : كتحريك أصبعك إذا دعاك إليه داع ولم يعترض دونه صارف . وهذه الآيات بيان لإبعادهم في الضلال وعظيم خطيئهم في الكفر بالله ، لوضوح آياته الشاهدة له الدالة على قدرته الباهرة وحكمته البالغة وأنه هو الحقيق بأن يعبد ، ويخاف عقابه ويرجى ثوابه في دار الجزاء .

وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١)

(وبرزوا لله) وبرزون يوم القيامة . وإنما جيء به بلفظ الماضي ، لأن ما أخبر به عز وجل الصدقة كأنه قد كان ووجد ، ونحوه (ونادى أصحاب الجنة) ، (ونادى أصحاب النار) ونظائرله . ومعنى بروزهم لله - والله تعالى لا يتوارى عنه شيء حتى يبرزه - أنهم كانوا يستترون من العيون عند ارتكاب الفواحش ، ويظنون أن ذلك خاف على الله ، فإذا كان يوم القيامة انكشفوا لله عند أنفسهم وعلما أن الله لا يخفى عليه خافية . أو خرجوا من قبورهم فبرزوا لحساب الله وحكمه . فإن قلت : لم كتب (الضعفاء) بواو قبل الهمزة ؟ قلت : كتب على لفظ من يفخم الألف قبل الهمزة فيميلها إلى الواو . ونظيره (علوًا بنى إسرائيل) والضعفاء : الاتباع والعوام . والذين استكبروا : ساداتهم وكبرائهم ، الذين استتبعوهم واستغفروهم وصدوهم عن الاستماع إلى الأنبياء وأتباعهم (تبعًا) تابعين : جمع تابع على تبع ، كقولهم : خادم وخدم وغائب وغيب <sup>(٢)</sup> أو ذوى تبع . والتبع : الاتباع ، يقال : تبعه تبعًا . فان قلت : أى فرق بين من في (من عذاب الله) وبينه في (من شيء) ؟ قلت : الأولى للتيين ، والثانية للتبعيض ، كأنه قيل : هل أنتم مغنون عنا بعض الشيء الذى هو عذاب الله . ويجوز أن تكونا للتبعيض معًا ، بمعنى : هل أنتم مغنون عنا بعض شيء هو بعض عذاب الله ، أى : بعض بعض عذاب الله

(١) عاد كلامه . قال : معناه وما ذلك على الله بعزيز ، أى : هين عليه ، لأنه قادر بالذات الخ ... قال أحمد : وهذا اعتزال صراح لم يتقنع في إبرازه ، وما أبشع قوله عن الله جل جلاله ، خلصه الداعي وأمضى الصارف ، وما أبناه عن سمع المحققين العارفين بأدب الله تعالى وبما يجب في حق جلاله ، وقد تقدم ما فيه كفاية .  
(٢) قوله «خادم وخدم وغائب وغيب» في الصحاح : وإنما ثبت فيه الياء في التحريك ، لأنه شبه بصيد وإن كان جمعًا ، وصيد مصدر قولك «بغير أصيد» لأنه يجوز أن ينوى المصدر . (ع)

فإن قلت : فما معنى قوله ﴿لوهذا أنا الله لهديناكم﴾ ؟ قلت الذى قال لهم الضعفاء كان توبيخا لهم<sup>(١)</sup> وعتابا على استتباعهم واستغوائهم . وقولهم ( فهل أتم مغنون عنا ) من باب التبكيت ؛ لأنهم قد علموا أنهم لا يقدرّون على الإغناء عنهم ، فأجابوهم معتردين عما كان منهم إليهم : بأن الله لو هداهم إلى الإيمان لهدوهم ولم يضلّوهم ، إماموركين الذنب<sup>(٢)</sup> في ضلالهم وإضلالهم على الله ، كما حكى الله عنهم وقالوا ( لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ) ، ( لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ) يقولون ذلك في الآخرة كما كانوا يقولونه في الدنيا . ويدل عليه قوله حكاية عن المنافقين ( يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ) . وإما أن يكون المعنى : لو كنّا من أهل اللطف فلطف بنا ربنا واهدنا لهديناكم إلى الإيمان . وقيل : معناه لو هدانا الله طريق النجاة من العذاب لهديناكم ، أى : لا غيتنا عنكم وسلكنا بكم طريق النجاة كما سلكنا بكم طريق الهدى . ﴿سواء علينا أجزعنا أم صبرنا﴾ مستويان علينا الجزع والصبر . والهمزة وأم للتسوية . ونحوه : ( اصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم ) وروى أنهم يقولون : تعالوا نجزع ، فيجزعون خمسمائة عام فلا ينفعهم ، فيقولون : تعالوا نصبر ، فيصبرون كذلك ثم يقولون : سواء علينا . فإن قلت : كيف اتصل قوله سواء علينا بما قبله ؟ قلت : اتصاله به من حيث أن عتابهم لهم كان جزعا بما هم فيه ، فقالوا : سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ، يريدون أنفسهم وإياهم ، لاجتماعهم في عقاب الضلالة التي كانوا مجتمعين فيها ، يقولون : ما هذا الجزع والتوبيخ ، ولا فائدة في الجزع كما لا فائدة في الصبر والأمر من ذلك أظلم . أو لما قالوا لوهذا أنا الله طريق النجاة لا غيتنا عنكم وأنجيتناكم ، أتبعوه الإقناط من النجاة فقالوا ﴿مالنا من محيص﴾ أى منجى ومهرب ، جزعنا أم صبرنا . ويجوز أن يكون من كلام الضعفاء والمستكبرين جميعاً ، كأنه قيل : قالوا جميعاً سواء علينا ، كقوله ( ذلك ليعلم أنى لم

(١) قال محمود : « الذى قال لهم الضعفاء كان توبيخاً لهم ... الخ » . قال أحد : لما استشعر دلالة الآية لعقيدة السنة المشتعلة على أن الله تعالى مهما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأن هداية المشركين بما لم يشاء ، ولو شاءوا . وإنما تنشأ هذه الدلالة من إيراد هذا الكلام عن الكفار في دار الحق حين حقت لهم الحقائق وانكشف الغطاء . والمقصود من اقتصاصه : إبداء أمثالهم في الدنيا ، وتحذيرهم من الحمرة والندم في الآخرة إذا حق عليهم العذاب واعترفوا بالحق وقالوا القول المذكور ، وهذا يرشد إلى أنه كلام صحيح المعنى ، فلما فطن الزحشرى لذلك شرع في تقرير تحطّتهم في هذا القول في الآخرة كما خطأهم في الدنيا . ليتم له اعتقاد أن الله يشاء ما لا يكون ويكون ما لا يشاء . ومن ذلك هداية الكفار فإن الله تعالى يشاؤها في الدنيا ، لكنها لم تكن . وأتى له ذلك ، وسياق الآية يصبو الكلام المذكور وينذر الغافلين عنه في الدنيا ، ويحذرهم من التورط فيما يؤدي إلى هذا الندم ، حيث لا ينفع ويجر إلى هذه الحسرة ، إذ لا ينجع ، كما أورد كلام الشيطان عقيب ذلك حين يعترف بالحق في دار الحق ، وحيث لا ينفعه إيمانه ، فيقول : إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفكم ... الخ . وإنما سبق تحذيراً وإنذاراً اتفاقاً ، والله الموفق

(٢) قوله «موركين الذنب» في الصحاح : ورك فلان ذنبه على غيره ، أى : قرفه به أم ، أى : اتهمه به . (ع)

أخذه) والمحيص يكون مصدراً ، كالغيب والمشيب . ومكاناً ، كالميت والمصيف . ويقال : حاص عنه وجاض ، بمعنى واحد .

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا أَنْفُسُكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِي إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾

﴿لما قضى الأمر﴾ لما قطع الأمر وفرغ منه ، وهو الحساب ، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار . وروى أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً<sup>(١)</sup> في الأشقياء من الجن والإنس فيقول ذلك ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ﴾ وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم ﴿ووعدتكم﴾ خلاف ذلك ﴿فأخلفتم وما كان لي عليكم من سلطان﴾ من تسلط وقهر فأقسمكم على الكفر والمعاصي وألجسكم إليها ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ﴾ لإدعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني ، وليس الدعاء من جنس السلطان ، ولكنه كقولك : ما تحيتهم إلا الضرب . ﴿فلا تلموني ولولوا أنفسكم﴾ حيث اغتررتم بي وأطعتموني إذ دعوتكم ، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم . وهذا دليل على أن الإنسان هو الذي يختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه ،<sup>(٢)</sup> وليس من الله إلا التمكين ، ولا من الشيطان إلا التزيين . ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقال : فلا تلموني ولا أنفسكم ، فإن الله قضى عليكم الكفر وأجبركم عليه . فإن قلت :

(١) قال محمود : دروى أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيباً ... الخ ، قال أحد : قد حمل قول الكفار في الآية الأولى على إبطال الانتحال ، لأنه لا يلائم معتقده ، واستشهد على أن الكذب حيثئذ غير ممتنع ولا متعذر بقوله تعالى (فيحلفون له كما يحلفون لكم) ثم لما ظن أن قول الشيطان هذا يلائم معتقده ، اجتهد في الاستدلال على تصويبه وتصحيحه وإن كان قائله الشيطان ؛ كل ذلك منه اتباع للهوى حينما توجه بأية سلك . ونحن معاشراً أهل السنة الملقين عنده بالمجبرة نقول : إن الله تعالى إنما أورد هذا الكلام غير راد له ، ولا خطي . فيه الشيطان ، كما اقتض كلام الكفار في الآية الأولى كذلك . ونحن نعتقد أن الملامة إنما توجه على المكلف وأما الله تعالى فقدس عن ذلك . ووجهه الباطنة ، وقضاؤه الحق . وذلك أننا نعتزف بما خلقه الله تعالى للعبد من الاختيار الذي يحمده من نفسه عند تجاذب طرفي الأفعال الإرادية ضرورة ، وبذلك قامت الحجة له على خلقه ، وإن سلبنا عن قدرة الخلق تأثيرها في الفعل ، فلا تنافض إذاً بين عقيدة السنة وبين صرف الملامة إلى المكلف ، والله الموفق .

(٢) قوله ويختار الشقاوة أو السعادة ويحصلها لنفسه ، هذا مذهب المعتزلة ، وقوله «المجبرة» يعني أهل السنة ، ومذهبهم أن الله هو الخالق لأسباب السعادة وأسباب الشقاوة ، لكن البعده فيها الكسب . ومن هذا يتوجه عليه اللوم ، خلافاً للمعتزلة في قولهم : إن العبد هو الخالق لها ، وهو الذي يحصل لنفسه . وتحقيقه في علم التوحيد . (ع)

قول الشيطان باطل لا يصح التعلق به . قلت : لو كان هذا القول منه باطلا لبين الله بطلانه وأظهر إنكاره ، على أنه لا طائل له في النطق بالباطل في ذلك المقام : ألا ترى إلى قوله ( إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ) كيف أتى فيه بالحق والصدق ، وفي قوله ( وما كان لى عليكم من سلطان ) وهو مثل قول الله تعالى : ( إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين ) ، ﴿ ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخى ﴾ لا ينجى بعضنا بعضا من عذاب الله ولا يغيثه . والإصراخ : الإغاثة . وقرئ : بمصرخى ، بكسر الياء وهى ضعيفة ، واستشهدوا لها بيت مجهول :

قَالَ لَهَا هَلْ لَكَ يَا نَا فِي قَالَتْ لَهُ مَا أَنْتَ بِالْمَرْضَى (١)

وكأنه قد رى ياء الإضافة ساكنة وقبلها ياء ساكنة ، فحزكها بالكسر لما عليه أصل التقاء الساكنين ، ولكنه غير صحيح ، لأن ياء الإضافة لا تكون إلا مفتوحة ، حيث قبلها ألف في نحو عصاى ، فما بالها وقبلها ياء ؟ فإن قلت : جرت الياء الأولى مجرى الحرف الصحيح لأجل الإدغام ، فكأنها ياء وقعت ساكنة بعد حرف صحيح ساكن ، فحزكت بالكسر على الأصل . قلت : هذا قياس حسن ، ولكن الاستعمال المستفيض الذى هو بمنزلة الخبر المتواتر تنضال إليه القياسات . ما ، فى ﴿ بما أشركتمونى ﴾ مصدرية ، و ﴿ من قبل ﴾ متعلقة بأشركتمونى ، يعنى : كفرت اليوم بإشراككم إياى من قبل هذا اليوم ، أى فى الدنيا ، كقوله تعالى ( ويوم القيامة يكفرون بشرككم ) ومعنى كفره بإشراكهم إياه : تبرؤه منه واستنكاره له ، كقوله تعالى ( إنا برآء منكم وما تعبدون من دون الله كفرنا بكم ) وقيل : ( من قبل ) يتعلق بكفرت . وما موصولة ، أى : كفرت من قبل حين أبيت السجود لآدم بالذى أشركتمونيه وهو الله عز وجل ، تقول : شركت زيدا ، فإذا نقلت بالهمزة قلت : أشركنيه فلان . أى : جعلنى له شريكا . ونحو ما ، هذه ما ، فى قولهم : سبحان ما سخركن لنا . ومعنى إشراكهم الشيطان بالله : طاعتهم

(١) قال لها هل لك يا نانا في قالت له ما أنت بالمرضى

• ماض إذا ماض بالضى •

قائله مجهول . وتا : اسم إشارة ، أى : هل لك يا هذه المرأة رغبة فى . وأصل ياء المتكلم السكون ، فان حركت فبالفتح ، لكن لما التقت هنا ساكنة مع الياء قبلها ساخ كسرهما ، على الأصل فى التخلص من التقاء الساكنين . وقالت : استئناف ، كأنه قيل له : فماذا قالت ؟ فقال : قالت له است مرضيا ، فانك رجل ماض ، فى كل أمرهم فيه ، فاض : خبر مبتدأ محذوف . والجملة : استئناف جواب للسؤال عن علة عدم الرضا . وعبر بضمير الغيبة فى قوله : هم نظراء للخير . ويجوز تقدير المبتدأ لفظ وهو : فيكون التفتا من الخطاب إلى الغيبة ، دلالة على الاعراض عنه ، وذكر السبب لغيره .

له فيما كان يزينه لهم من عبادة الأوثان وغيرها ، وهذا آخر قول إبليس . وقوله ﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ﴾ قول الله عز وجل . ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس ، وإنما حكى الله عز وجل ما سيقوله في ذلك الوقت ، ليكون لطفًا للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بد لهم من الوصول إليه ، وأن يتصوروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول ، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم . وقرئ : فلا يلوموني ، بإيلاء على طريقة الالتفات ، كقوله تعالى ( حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ) .

وَأَدْخَلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ

خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾

وقرأ الحسن وعمر بن عبيد : وأدخل الذين آمنوا ، <sup>(١)</sup> على فعل المتكلم ، بمعنى : وأدخل أنا وهذا دليل على أنه من قول الله ، لا من قول إبليس ﴿بإذن ربهم﴾ متعلق بأدخل ، أى : أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره . فإن قلت : فبم يتعلق في القراءة الأخرى ، وقولك : وأدخلهم أنا بإذن ربهم ، كلام غير ملتزم ؟ قلت : الوجه في هذه القراءة أن يتعلق قوله : ﴿بإذن ربهم﴾ بما بعده ، أى ﴿تحيتهم فيها سلام﴾ بإذن ربهم ، يعنى : أن الملائكة يحيونهم بإذن ربهم .

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ

لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾

قرئ ﴿ألم تر﴾ ساكنة الراء ، كما قرئ : من يتق ، وفيه ضعف ﴿ضرب الله مثلاً﴾ اعتمد مثلاً ووضعه . و ﴿كلمة طيبة﴾ نصب بمضمر ، أى : جعل كلمة طيبة ﴿كشجرة طيبة﴾ وهو

(١) قال محمود : «وقرأ الحسن وعمر بن عبيد : وأدخل الذين آمنوا على فعل المتكلم ... الخ» قال أحمد : فإن قلت : ما الذى صرف العشرى عن حله على الالتفات من التكلم إلى الغيبة ، والجاه إلى تعليق بما بعده ، وقد كانت له في ذلك مندوحة ، والالتفات على هذا الوجه كثير مستفيض . ألا ترى إلى قوله تعالى (طه ما أنزلنا عليك لتشق) ثم قال (تنزيلاً من خلق الأرض) ولم يقل تنزيلاً منا . قلت : لأسر ما صرف الكلام عن هذا الوجه ، وهو أن ظاهر (أدخل) بلفظ المتكلم ، يشعر بأن إدخالهم الجنة لم يكن بواسطة ، بل من الله تعالى مباشرة ، وظاهر الاذن يشعر بإضافة الدخول إلى الوسطة ، فينبغي تنافر ، ولكن يحسن عندى أن يعلق بخالدين ، والخلود غير الدخول ، فلا تنافر ، والله أعلم .

تفسير لقوله (ضرب الله مثلا) كقولك: شرف الأمير زيداً: كساه حلة، وحمله على فرس. ويجوز أن ينتصب (مثلا) و(كلمة) بضرب، أى: ضرب كلمة طيبة مثلاً، بمعنى: جعلها مثلاً ثم قال (كشجرة طيبة) على أنها خبر مبتدأ محذوف، بمعنى: هي كشجرة طيبة (أصلها ثابت) يعنى فى الأرض ضارب بعروقه فيها (وفرعها) وأعلاها ورأسها (فى السماء) ويجوز أن يريد: وفروعها، على الاكتفاء بلفظ الجنس. وقرأ أنس بن مالك: كشجرة طيبة ثابت أصلها فإن قلت: أى فرق بين القراءتين؟ قلت: قراءة الجماعة أقوى معنى؛ لأن فى قراءة أنس أجريت الصفة على الشجرة، وإذا قلت: مررت برجل أبوه قائم، فهو أقوى معنى من قولك: مررت برجل قائم أبوه؛ لأن الخبر عنه إنما هو الأب لارجل. والكلمة الطيبة: كلمة التوحيد. وقيل: كل كلمة حسنة كالتيديحة والتحميدة والاستغفار والتوبة والدعوة. وعن ابن عباس: شهادة أن لا إله إلا الله. وأما الشجرة فكل شجرة مثمرة طيبة النار، كالنخلة والتين والعنب والرمان وغير ذلك. وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم: «إن الله ضرب مثل المؤمن شجرة فأخبرونى ما هى» (١) فوقع الناس فى شجر البوادي، وكنت صدياً، فوقع فى قلبي أنها النخلة، فهبت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أقولها وأنا أصغر القوم. وروى: فنحنى مكان عمر واستحييت، فقال لى عمر: يا بنى لو كنت قلتها لكانت أحب إلى من حمر النعم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا إنها النخلة، وعن ابن عباس رضى الله عنهما: شجرة فى الجنة وقوله (فى السماء) معناه فى جهة العلو والصعود، ولم يرد المظلة، كقولك فى الجبل: طويل فى السماء تريد ارتفاعه وشموخه (توتى أكلها كل حين) تعطى ثمرها كل وقت ووقته الله لإثمارها (يأذن ربها) بتيسير خالقها ونكوينه (لعلهم يتذكرون) لأن فى ضرب الأمثال زيادة إفهام وتذكير وتصوير للعانى.

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَيْرَةٍ مِنْ شَجَرَةٍ خَيْرَةٍ أَجْتُنْتُمْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَالَهَا مِنْ قَرَارٍ ۖ (٢٦)

(كشجرة خيثة) كمثل شجرة خيثة، أى: صفقتها كصفقتها. وقرئ: ومثل كلمة بالنصب، عطفاً على كلمة طيبة. والكلمة الخيثة: كلمة الشرك. وقيل: كل كلمة قبيحة. وأما الشجرة الخيثة فكل شجرة لا يطيب ثمرها كشجرة الحنظل والكشوت (٢) ونحو ذلك. وقوله (اجتنت من فوق الأرض) فى مقابلة قوله (أصلها ثابت) ومعنى (اجتنت) استوصلت. وحقيقة الاجتثاث

(١) متفق عليه وله ألفاظ.

(٢) قوله «والكشوت» فى الصحاح الكشوت نبت يعلق بأغصان الشجر من غير أن يعنرب بعرق فى الأرض. قال الشاعر: هو الكشوت فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا ثمـر (ع)

أخذ الجنة كلها (مالها من قرار) أى استقرار . يقال : قز الشيء قراراً ، كقولك : ثبت ثباتاً ، شبه بها القول الذى لم يعصد بحجة ، فهو داحض غير ثابت والذى لا يبقى إنما يضمحل عن قريب لبطلانه ، من قولهم : الباطل للجلج<sup>(١)</sup> . وعن قتادة أنه قيل لبعض العلماء : ماتقول فى كلمة خبيثة ؟ فقال : ما أعلم لها فى الأرض مستقراً ، ولا فى السماء مصعداً ، إلا أن تلزم عنق صاحبها حتى يوافى بها القيامة .

يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ

اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾

(القول الثابت) الذى ثبت بالحجة<sup>(٢)</sup> والبرهان فى قلب صاحبه وتمكن فيه ، فاعتقده واطمأنت إليه نفسه . وتثبيتهم به فى الدنيا : أنهم إذا فتنوا فى دينهم لم يزولوا ، كما ثبت الذين فتنهم أصحاب الاخدود ، والذين نشروا بالمنشير ومشطت لحومهم بأمشاط الحديد ، وكأنت جرجيس وشمسون وغيرهما . وتثبيتهم فى الآخرة . أنهم إذا سئلوا عند تواقف الأشهاد عن معتقدهم ودينهم ، لم يتلعثموا ولم يبهتوا ، ولم تحيرهم أهوال الحشر . وقيل معناه الثبات عند سؤال القبر . وعن البراء ابن عازب رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر قبض روح المؤمن فقال وثم يعاد روحه فى جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فى قبره ويقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : ربى الله ، ودينى الإسلام ، ونبى محمد ، فينادى مناد من السماء أن صدق عبدى فذلك قوله : يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت<sup>(٣)</sup> . (ويضل الله الظالمين) الذين لم يتمسكوا بحجة فى دينهم ، وإنما اقتصرُوا على تقليد كبارهم وشيوخهم ، كما قلد المشركون آباءهم فقالوا (إنا وجدنا آباءنا على أمة) وإضلالهم فى الدنيا أنهم لا يثبتون فى مواقف الفتن وتزل أقدامهم أول شيء ، وهم فى الآخرة أضل وأذل (ويفعل الله ما يشاء) أى ما توجه الحكمة ؛ لأن مشيئة الله تابعة

(١) قوله « من قولهم الباطل للجلج » فى الصحاح : الحق أبلج ، والباطل للجلج ، أى : يردد من غير أن ينفذ . (ع)

(٢) قوله « القول الثابت الذى ثبت بالحجة » لما فسرت الكلمة الطيبة بكلمة التوحيد والخبثية بكلمة الشرك ، فالنتجه تفسير القول الثابت بقول « لا إله إلا الله محمد رسول الله » وإضلال الظالمين بأفانهم على كلمة الشرك ، (إن الشرك لظلم عظيم) وأما التمسك بالحجة وتقليد الشيوخ فبعيد عن السياق . وفيه رد على أهل السنة المكلفين بالتقليد فى تحقق الإيمان . (ع)

(٣) هذا طرف من حديث له طويل أخرجه أبو داود وأبو عوانة والحاكم وأحمد وابن راهويه وابن أبي شيبة وأبو يعلى من رواية سعد بن عبيدة عند البخارى مرفوعاً فى قوله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) قال : نزلت فى عذاب القبر . يقال له : من ربك وما دينك ؟ فيقول : ربى الله . ونبى محمد صلى الله عليه وسلم . وذلك قوله تعالى (يثبت الله الذين آمنوا ... الآية) .



للحكمة ، من تثبيت المؤمنين وتأيدهم ، وعصمتهم عند ثباتهم وعزمهم ، ومن إضلال الظالمين وخذلانهم ، والتخلية بينهم وبين شأهم عند زلهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا

فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾

(بدلوا نعمة الله) أى شكر نعمة الله (كفراً) لأن شكرها الذى وجب عليهم وضعوا مكانه كفراً ، فكأنهم غيروا الشكر إلى الكفر وبدلوه تبديلاً ، ونحوه (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أى شكر رزقكم حيث وضعتم التكذيب موضعه . ووجه آخر : وهو أنهم بدلوا نفس النعمة كفراً على أنهم لما كفروها سلبوها فبقوا مسلوبى النعمة موصوفين بالكفر ، حاصلهم الكفر بدل النعمة . وهم أهل مكة : أسكنهم الله حرمة ، وجعلهم قوام بيته ، وأكرمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فكفروا نعمة الله بدل ما لهم من الشكر العظيم . أو أصابهم الله بالنعمة فى الرخاء والسعة لإيلافهم الرحلتين ، فكفروا نعمته ، فضر بهم بالقطيع سبع سنين ، فحصل لهم الكفر بدل النعمة ، كذلك حين أسروا وقتلوا يوم بدر وقد ذهبت عنهم النعمة وبقي الكفر طوقاً فى أعناقهم . وعن عمر رضى الله عنه : هم الأجران من قريش : بنو المغيرة وبنو أمية ، فأما بنو المغيرة فكفبتهم يوم بدر . وأما بنو أمية فتمعوا حتى حين . وقيل : هم منتصرة العرب : جيلة بن الأيهم وأصحابه (وأحلوا قومهم) من تابعهم على الكفر (دار البوار) دار الهلاك . وعطف (جهنم) على دار البوار عطفاً بيان . قرئ (ليضلوا) بفتح الياء وضمة . فإن قلت : الضلال والإضلال لم يكن غرضهم فى اتخاذ الأنداد ، فما معنى اللام ؟ قلت : لما كان الضلال والإضلال نتيجة اتخاذ الأنداد ، كما كان الإكرام فى قولك : جئتك لتكرمى ، نتيجة المجئ . دخلته اللام وإن لم يكن غرضاً ، على طريق التشبيه والتقريب (تمتعوا) إيذان بأنهم لا تنفاسهم فى التمتع بالحاضر ، وأنهم لا يعرفون غيره ولا يريدونه ، مأمورون به ، قد أمرهم أمر مطاع لا يسعهم أن يخالفوه ولا يملكون لأنفسهم أمراً دونه ، وهو أمر الشهوة . والمعنى : إن دمت على ما أنتم عليه من الامتثال لأمر الشهوة (فإن مصيركم إلى النار) ويجوز أن يراد الخذلان والتخلية ونحوه (قل تمتع بكفرك قليلاً إنك من أصحاب النار) .

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً

مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَنْفَعُ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾

المقول محذوف ، (١) لأن جواب ( قل ) يدل عليه ، وتقديره ( قل لعبادى الذين آمنوا ) أقيموا الصلاة وأنفقوا ( بقيموا الصلاة وينفقوا ) وجوزوا أن يكون يقيموا وينفقوا ، بمعنى : لقيموا ولينفقوا ، ويكون هذا هو المقول ، قالوا : وإنما جاز حذف اللام ، لأن الأمر الذى هو ( قل ) عوض منه ، ولو قيل : يقيموا الصلاة وينفقوا ابتداءً بحذف اللام ، لم يحز . فإن قلت : علام انتصب ( سرا وعلانية ) ؟ قلت : على الحال ، أى : ذوى سرّ وعلانية ، بمعنى : مسرّين ومعلنين . أو على الظرف ، أى : وقتى سرّ وعلانية ، أو على المصدر ، أى : لإنفاق سرّ وإنفاق علانية ، المعنى : إخفاء المتطوع به من الصدقات والاعلان بالواجب : والحلال : المخالفة . فإن قلت : كيف طابق الأمر بالإتفاق وصف اليوم بأنه ( لا يبيع فيه ولا خلال ) ؟ قلت : من قبل أن الناس يخرجون أموالهم فى عقود المعاوضات ، فيعطون بدلاً ليأخذوا مثله ، وفى المكارمات ومهاداة الأصدقاء ليستجروا بهداياهم أمثالها أو خيراً منها . وأما الإتفاق لوجه الله خالصاً كقوله ( وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى ) فلا يفعله إلا المؤمنون الخالص ، فبعثوا عليه ليأخذوا بدله فى يوم لا يبيع فيه ولا خلال ، أى : لا انتفاع فيه بمبايعة ولا بمخالفة ، ولا بما ينفقون به أموالهم من المعاوضات والمكارمات ، وإنما ينتفع فيه بالإتفاق لوجه الله . وقرئ : لا يبيع فيه ولا خلال ، بالرفع .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ۝ ٣٢ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِمَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ ٣٣

(١) قال محمود : والمقول محذوف ... الخ ، قال أحد : وفى هذا الاعراب نظر ، لأن الجواب حيثئذ يكون خبراً من الله تعالى ، بأنه إن قال لم هذا القول امثلوا مقتضاه فأقاموا الصلاة وأنفقوا ، لكنهم قد قيل لهم فلم يمثل كثير منهم ، وخبر الله تعالى بجل عن الخلف ، وهذه النكتة هى الباعثة لكثير من المعربين على العدول عن هذا الوجه من الاعراب مع تبادره فيما ذكر بآدى الرأى ، ويمكن تصحيحه بحمل العام على الغالب لا على الاستغراق ، ويقوى بوجهين لطيفين ، أحدهما : أن هذا النظم لم يرد إلا لموصوف بالآيمان الحق المنزه بإيمانه عند الأمر ، كهنه الآية وكقوله ( وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ) ، ( وقل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ) ، ( وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ) الثانى : تكرر مجيئه للموصوفين بأنهم عباد الله المشرفون بأصافتهم إلى اسم الله ، وقد قالوا إن لفظ العباد لم يرد فى الكتاب العزيز إلا ممدحة للمؤمنين ، وخصوصاً إذا انضاف إليه تعالى إضافة التشريف ، فالخامس من ذلك أن المأمور فى هذه الآية من هو بصدد الامتثال وفى حيز المسارعة للطاعة ، فالجهر فى أمثالهم حق وصدق ، إما على العموم إن أريد ، أو على الغالب ، والله أعلم .

(٢) قوله « بأنه لا يبيع فيه ولا خلال » هذه القراءة بالبناء على الفتح . (ع)

وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَآسَاءٍ لُتْمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنْ الْإِنْسَانُ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

(الله) مبتدأ، و (الذي خلق) خبره، و (من الثمرات) بيان للرزق، أى: أخرج به رزقا هو ثمرات. ويجوز أن يكون (من الثمرات) مفعول أخرج، و (رزقا) حالا من المفعول، أو نصبا على المصدر من أخرج، لأنه فى معنى رزق (بأمره) بقوله كن (دائبين) يدأبان فى سيرهما وإنارتها ودرتهما الظلمات، وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات (ونحر لكم الليل والنهار) يتعاقبان خلفه لمعاشكم وسباتكم<sup>(١)</sup> (وأتاكم من كل مأسأتموه) من التبعيض، أى أتاكم بعض جميع ما سألتوه، نظراً فى مصالحكم. وقرئ من كل بالتثنية، وما سألتوه نفي ومحله النصب على الحال أى: أتاكم من جميع ذلك غير سائله، ويجوز أن تكون (ما) موصولة، على: وأتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعاشكم إلا به، فكأنكم سألتوه أو طلبتموه بلسان الحال (لا تحصوها) لا تحصروها ولا تطبقوا عددها وبلوغ آخرها، هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال. وأما التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله (لظلم) يظلم النعمة بإغفال شكرها (كفار) شديد الكفران لها. وقيل ظلم فى الشدة يشكو ويجزع، كفار فى النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِ فَإِنَّهُ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾

(هذا البلد) يعنى البلد الحرام، زاده الله آمناً، وكفاه كل باغ وظالم، وأجاب فيه دعوة خليله إبراهيم عليه السلام (آمناً) ذا أمن. فإن قلت: أى فرق بين قوله (اجعل هذا بلداً آمناً) وبين قوله (اجعل هذا البلد آمناً)؟ قلت: قد سأل فى الأول أن يجعله من جملة البلاد التى يأمن أهلها ولا يخافون، وفى الثانى أن يخرجهم من صفة كان عليها من الخوف إلى ضدها من الأمن، كأنه قال: هو بلد مخوف، فاجعله آمناً (واجنبني) وقرئ: واجنبني، وفيه ثلاث لغات: جنبه الشر، وجنبه، وأجنبه؛ فأهل الحجاز يقولون: جنبني شره بالتشديد، وأهل نجد

(١) قوله «وسباتكم» فى الصحاح: السبات النوم، وأصله الراحة، ومنه قوله تعالى (وجعلنا نومكم سباتاً). (ع)

جنني وأجنني، والمعنى: ثبتنا وأدمننا على اجتناب عبادتها ﴿وبني﴾ أراد بنيه من صلبه. وسئل ابن عيينة: كيف عبدت العرب الأصنام؟ فقال: ما عبد أحد من ولد إسماعيل صنما، واحتج بقوله (واجنني وبني) ﴿أن نعبد الأصنام﴾ إنما كانت أنصاب حجارة لكل قوم، قالوا: البيت حجر، فحينما نصبنا حجراً فهو بمنزلة البيت، فكانوا يدورون بذلك الحجر ويسمونه الدوار، فاستحب أن يقال: طاف بالبيت، ولا يقال: دار بالبيت ﴿إنهم أضلن كثيراً من الناس﴾ فأعوذ بك أن تعصمني <sup>(١)</sup> وبني من ذلك، وإنما جعلن مضلات: لأن الناس ضلوا بسببهن، فكأنهن أضللنهم، كما تقول: فتنهم الدنيا وغرتهم، أى افتنوا بها واغرتوا بسببها ﴿فن تبعني﴾ على ملتي وكان حنيفاً مسلماً مثلي ﴿فانه مني﴾ أى هو بعضى لفرط اختصاصه بي وملاسته لى، وكذلك قوله: من غشنا فليس منا، <sup>(٢)</sup> أى ليس بعض المؤمنين، على أن الغش ليس من أفعالهم وأوصافهم ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ تغفر له ما سلف منه من عصياني إذا بدا له فيه واستحدث الطاعة لى. وقيل: معناه ومن عصاني فيما دون الشرك.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ  
رَبَّنَا لِئَقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنْ  
الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾

﴿من ذريتي﴾ بعض أولادى وهم إسماعيل ومن ولد منه ﴿بوادٍ﴾ هو وادى مكة ﴿غير ذى زرع﴾ لا يكون فيه شيء من زرع قط، كقوله ﴿قرآن أعرياً غير ذى عوج﴾ بمعنى لا يوجد فيه اعوجاج، ما فيه إلا الاستقامة لا غير. وقيل للبيت المحرم، لأن الله حرم التعرض له والتهاون به، وجعل ما حوله حرماً لمكانه، أو لأنه لم يزل بمنعاً عزيزاً يهابه كل جبار، كالشيء المحرم الذى حقه أن يحتنب، أو لأنه محترم عظيم الحرمة لا يحل انتهاكه، أو لأنه حزم على الطوفان أى منع منه، كما سمي عتيقاً لأنه أعتق منه فلم يستول عليه ﴿ليقيموا الصلاة﴾ اللام متعلقة بأسكنت، أى: ما أسكنتهم هذا الوادى الخلاء البلقع من كل مرتفق ومرتق، إلا ليقيموا

(١) قوله «فأعوذ بك أن تعصمني، لعله أن لا تعصمني». (ع)

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة وابن جبان من حديث ابن سعد وإسحاق والبرار من حديث ابن عمر. والبخارى فى التاريخ. والطبرانى فى الأوسط من حديث البراء. والبرار من حديث عائشة. وابن أبي شيبة من حديث أبي الخراء. والحاكم من رواية عمير بن سعيد النخعي وابن أبي شيبة من رواية جميع بن عمير عن خالد بن برزة والطبرانى من حديث أبي موسى والبيهقى فى الشعب من طريق حسين بن عبد الله بن ضمرة عن أبيه عن جده عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه، كذلك أخرجه البيهقى فى الشعب، وأخرجه الطبرانى من هذا الوجه. فلم يذكر علياً. وأخرجه أبو نعيم عن أنس وعن إسماعيل بن إبراهيم بن عبد الله بن أبي ربيعة عن جده به.

الصلاة عند بيتك المحرم ، ويعمره بذكرك وعبادتك وما تعمر به مساجدك ومتعبداتك ، متبركين بالبقعة التي شرفتها على البقاع ، مستسعين بجوارك الكريم ، متقربين إليك بالكوف عند بيتك ، والطواف به ، والركوع والسجود حوله ، مستزلين الرحمة التي آثرت بها سكان حرمك ﴿ أفئدة من الناس ﴾ أفئدة من أفئدة الناس ، ومن للتبعض ، ويدل عليه ما روى عن مجاهد : لو قال أفئدة الناس لاحتكم عليه فارس والروم ، وقيل : لو لم يقل ( من ) لآزدهما عليه حتى الروم والترك والهند . ويجوز أن يكون ( من ) للابتداء ، كقولك : القلب منى سقيم ، تريد قلبي ، فكأنه قيل : أفئدة ناس ، وإنما نكرت المضاف إليه في هذا التثنية لتذكير أفئدة ، لأنها في الآية نكرة ليتناول بعض الأفئدة . وقرئ : أفئدة ، بوزن عاقدة . وفيه وجهان ، أحدهما : أن يكون من القلب كقولك : آدر ، في أدور . والثاني : أن يكون اسم فاعلة من أفئت الرحلة إذا عجلت ، أى : جماعة أو جماعات يرتحلون إليهم ويعجلون نحوهم . وقرئ : أفئدة ، وفيه وجهان : أن تطرح الهمزة للتخفيف ، وإن كان الوجه أن تخفف بإخراجها بين يين . وأن يكون من أفئ ( تهوى إليهم ) تسرع إليهم وتطير نحوهم شوقاً ونزاعاً من قوله :

### • يَهْوَى مَحَارِمَهَا هَوًى الْأَجْدَلِ • (١)

وقرئ : تهوى إليهم ، على البناء للفعول ، من هوى إليه وأهواه غيره . وتهوى إليهم ، من هوى يهوى إذا أحب ، ضمن معنى تنزع فعدي تعديته ( وادزقهم من الثرات ) مع سكنهم

(١)	فاذا نبئت له الحصة رأيته . ينزو لوقتها طمور الأخبيل
	وإذا يهب من المنام رأيته كرتوب كعب الساق ليس بزم
	وإذا رميت به الفجاج رأيته يهوى غارمها هوى الأجدل
	وإذا نظرت إلى أسرة وجهه برقت كبرق العارض المتهلل

لأبي كبير المذلل ، يصف تأبط شراً بالتيقظ والشجاعة ، يقول : إذا رميت له الحصة مجرباً له هل هو نائم أو صاح ، ينزو : أى يلب بسرعة ، طمور الأخبيل : أى وثوب الأخبيل ، أى ينهض كنهوضه : وهو طير تنظام منه العرب ، وأصله من التخييل ، وقيل من الخيلاء . ورتب رتوباً : انتصب انتصاباً وارتفع ارتفاعاً ، أى : رأيته يرتفع عن الأرض كارتفاع كعب الساق . والزمل والزمال والزمل - بتشديد الميم فيها - : هو الضيف الملتف بلبابه ، ثم قال : وإذا قذفته في نواحي الأمكنة المتسعة ، رأيته يهوى غارمها ، أى : يسرع في سلوك ممالكها الضيقة ، كيهوى الأجدل وهو الصقر ، أى كسرعه في الطيران . ويروى : الجندل وهو الحجر . والأسرة : خطوط الجبهة جمع سرار . والعارض : السحاب المعترض في الأفق . والمتهلل : اللامع ، أو المرتفع الذي سيمطر . وروى عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : كنت قاعدة أغزل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخفف نعله ، فنحضر جبينه عرقاً ، فتولد في عيني نوراً ، فجعلت أنظر إليه فقال : ماتنظرين ؟ فقلت له ذلك ، وقلت : أما والله لو رآك المذلل لعلم أنك أحق بشعره ، فقال : وما قال ؟ قلت : وإذا نظرت... البيت . فوضع ما في يده وقام فقبل ما بين عيني وقال : جزاك الله خيراً ، ماسررت كسرورى بكلامك .

وإديا ما فيه شيء منها ، بأن تجلب إليهم من البلاد ﴿لعلهم يشكرون﴾ النعمة في أن يرزقوا أنواع الثمرات حاضرة في وادٍ يباب ليس فيه نجم <sup>(١)</sup> ولا شجر ولا ماء . لا جرم أن الله عز وجل أجاب دعوته فجعله حرماً آمناً تجي إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنه ، ثم فضله في وجود أصناف الثمار فيه على كل ريف وعلى أخصب البلاد وأكثرها ثماراً ، وفي أي بلد من بلاد الشرق والغرب ترى الإعجوبة التي يريكمها الله بوادٍ غير ذي زرع ، وهي اجتماع البواكير والفواكه <sup>(٢)</sup> المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد ، وليس ذلك من آياته بعجيب ، متعنا الله بسكنى حرمة ، ووقفنا لشكر نعمه ، وأدام لنا التقشرف بالدخول تحت دعوة إبراهيم عليه السلام ، ورزقنا طرفاً من سلامة ذلك القلب السليم .

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ  
إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾

النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى ﴿إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ﴾ تعلم السرَّ كما تعلم العلن علماً لا تفاوت فيه ، لأن غيباً من الغيوب لا يحتجب عنك . والمعنى : أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا ، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها ، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب ، وإنما ندعوك إظهاراً للعبودية لك ، وتخشعاً لعظمتك ، وتذلاً لعزتك ، وافتقاراً إلى ما عندك ، واستعجالاً لنيل أياديك ، وولهاً إلى رحمتك ، وكما يتملق العبد بين يدي سيده ، رغبة في إصابة معروفه ، مع توفر السيد على حسن المصلحة . وعن بعضهم : أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح ، فأراد أن يذكره فقال : مثلك لا يذكر استقصاراً ولا توهما للغفلة عن حوائج السائلين ، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها . وقيل : ما نخفي من الوجد لما وقع بيننا من الفارقة . وما نعلن من البكاء والدعاء . وقيل : ما نخفي من كآبة الافتراق . وما نعلن : يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع : إلى من تكلنا ؟ قال : إلى الله أكلكم . قالت : آله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذن لا نخشى ، تركتنا إلى كاف ﴿وما يخفى على الله من شيء﴾ من كلام الله عز وجل تصديقاً لإبراهيم عليه السلام ، كقوله (وكذلك يفعلون) أو من كلام إبراهيم ، يعني : وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان . ومن ، للاستغراق ، كأنه قيل : وما يخفى عليه

(١) قوله «في وادي باب ليس فيه نجم» أي خراب . والنجم : نبات لاساق له ، كذا في الصحاح . (ع)

(٢) قوله «وهي اجتماع البواكير والفواكه» الباكورة : أول الفاكهة ، كما في الصحاح . (ع)

شيء ما . (على) في قوله ﴿عَلَى الْكَبِيرِ﴾ بمعنى مع ، كقوله :

إِنِّي عَلَى مَا تَرَيْنَ مِنْ كِبَرِي أَعْلَمُ مِنْ حَيْثُ تُؤَكِّلُ الْكَتِفُ <sup>(١)</sup>

وهو في موضع الحال ، معناه : وهب لي وأنا كبير وفي حال الكبر . روى أن إسماعيل ولد له وهو ابن تسع وتسعين سنة ، وولد له إسحق وهو ابن مائة وثنى عشرة سنة ، وقد روى أنه ولد له إسماعيل لأربع وستين . وإسحق لتسعين . وعن سعيد بن جبير : لم يولد لإبراهيم إلا بعد مائة وسبع عشرة سنة ، وإنما ذكر حال الكبر لأن المنة بهبه الولد فيها أعظم ، من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة . والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم وأحلاها في نفس الظافر ، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم ﴿لَنْ رَى لِسَمِيعِ الدَّعَاءِ﴾ كان قد دعا ربه وسأله الولد ، فقال : رب هب لي من الصالحين ، فشكر الله ما أكرمه به من إجابته فإن قلت : الله تعالى يسمع كل دعاء ، أجابه أو لم يجبه . قلت : هو من قولك : سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله . ومنه : سمع الله لمن حمده . وفي الحديث <sup>(٢)</sup> : «سأذن الله لشيء كإذنه لئبي يتقنى بالقرآن» <sup>(٣)</sup> ، فإن قلت : ماهذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟ قلت : إضافة الصفة إلى مفعولها ، وأصله لسميع الدعاء . وقد ذكر سيبويه فعילה في جملة أبنية المبالغة العاملة عمل الفعل ، كقولك : هذا ضرب زيداً ، وضراب أخاه ، ومنحار إليه ، وحذر أموراً ، ورحيم أباه ويجوز أن يكون من إضافة فعيل إلى فاعله . ويجعل دعاء الله سميعاً على الإسناد المجازي . والمراد سماع الله .

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ <sup>(٤٠)</sup> رَبَّنَا اغْفِرْ لِي

وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ <sup>(٤١)</sup>

﴿ومن ذريتي﴾ وبعض ذريتي ، عطفاً على المنصوب في اجمعلي ، وإنما بعض لأنه علم بإعلام الله أنه يكون في ذريته كفار ، وذلك قوله ( لا ينال عهدى الظالمين ) . ﴿وتقبل دعائي﴾ أي

(١) ترين : أصله ترأين كتفعلين ، نقلت فتحة الهمزة إلى الراء ، ثم حذفت وحذفت الياء الأولى بعد قلبها ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها . يقول : إني مع ما تنتظرينه من كبري وهري الموجب للتعرف عادة ، عارف بالأمور متيقظ لها . وكفى عن ذلك بقوله : أعرف من أين تؤكل الكتف ، أي : أعرف جواب هذا الاستفهام ، ويروي : من حيث ، فلعل من زائدة . قال بعضهم : تؤكل الكتف من أسفلها ويشق أكلها من أعلاها ، وهو مثل يضرب للجرّب المتفطن للأمور .

(٢) متفق عليه من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

(٣) قوله «كأذنه لئبي يتقنى بالقرآن» في الصحاح : كأذنه لمن يتقنى ... الخ . (ع)

عبادتي (وأعزلكم وما تدعون من دون الله) في قراءة أبيّ: ولا بوى. وقرأ سعيد بن جبير: ولوالدى، على الإفراد، يعنى أباه. وقرأ الحسن بن علي رضي الله عنهما: ولولدى، يعنى إسماعيل وإسحق. وقرئ: لولدى، بضم الواو. والولد بمعنى الولد، كالعدم والعدم. وقيل: جمع ولد، كأسد في أسد. وفي بعض المصاحف: ولذريقى. فإن قلت: كيف جازله أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟ قلت: هو من مجاوزات العقل<sup>(٣)</sup> لا يعلم امتناع جوازه إلا بالتوقيف. وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء. وقيل: بشرط الإسلام. ويأباه قوله (إلا قول إبراهيم لأبيه لاستغفرن لك) لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفاراً صحيحاً لا مقال فيه، فكيف يستثنى الاستغفار انصحيح من جملة ما يؤتى فيه بإبراهيم (يوم يقوم الحساب) أى يثبت، وهو مستعار من قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها. ونحوه قولهم: ترجلت الشمس: إذا أشرقت وثبت ضوءها، كأنها قامت على رجل. ويجوز أن يسند إلى الحساب قيام أهله إسناداً مجازياً، أو يكون مثل (واسئل القرية) وعن مجاهد: قد استجاب الله له فيما سأل، فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته، وجعل البلد آمناً، ورزق أهله من الثمرات. وجعله إماماً، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كانت الطوائف من أرض فلسطين، فلما قال إبراهيم (ربنا إني أسكنت) الآية، رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم.

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ

الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِطِينَ مُقْنِعِينَ رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْتَدِيَهُمْ هَوَاءً ﴿٤٣﴾

فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الناس به غافلاً حتى قيل (ولا تحسبن الله غافلاً)؟ قلت: إن كان خطاباً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقيه وجهان. أحدهما التثنية على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلاً، كقوله (ولا تكونن من المشركين)، (ولا تدع مع الله إلهاً آخر، كما جاء في الأمر) (بأبيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله) والثاني: أن المراد بالنهي عن حسبانته غافلاً، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: (والله بما تعملون عليم) يريد الوعيد. ويجوز أن يراد: ولا تحسبته يعاملهم معاملة

(٣) قوله «هو من مجوزات العقل» يعنى على مذهب المعتزلة أن العقل قد يدرك الحكم بدون شرع، ومذهب أهل السنة أن لاحكم قبل الشرع حتى يدرك بدونه، فانهم . (ع)



الغافل عما يعملون ، ولكن معاملة الرقيب عليهم ، المحاسب على النقيير والقطمير ، وإن كان خطاباً لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلاً ، لجهله بصفاته ، فلا سؤال فيه . وعن ابن عيينة : تسلياً للظلم وتهديد للظالم ، فقيل له . من قال هذا ؟ فنضب وقال : إنما قاله من عليه . وقرئ : يؤخرهم ، بالنون والياء ( تشخص فيه الأبصار ) أى أبصارهم لانقتر في أما كتبها من هول ما ترى ( مهطعين ) مسرعين إلى الداعي . وقيل : الإهطاع أن تقبل يبصرك على المرئى تدبم النظر إليه لاتطرف ( مقنعي رؤوسهم ) رافعيها ( لا يرد إليهم طرفهم ) لا يرجع إليهم أن يطرفوا بعيونهم ، أى : لا يطرفون ، ولكن عيونهم مفتوحة ممدودة من غير تحريك للأجفان . أو لا يرجع إليهم نظرم فينظروا إلى أنفسهم . الهواء : الحلاء الذى لم تشغله الأجرام ، فوصف به فقيل : قلب فلان هواء إذا كان جباناً لا قوة في قلبه ولا جرأة . ويقال للأحقق أيضاً : قلبه هواء . قال زهير :

\* مِنْ الظُّلْمَانِ جُوجُوهُ هَوَاهُ \* (١)

لأن النعام مثل في الجبن والحق . وقال حسان :

\* فَأَنْتَ مُجَوِّفٌ نَخْبَ هَوَاهُ \* (٢)

(١) كأن الرجل منها فوق صعل من الظلمان جوجوه هواه  
أصك معلم الأذنين أجنى له بالس تنوم وآ  
لزهير بن أبي سلمى يصف ناقته . والصعل : المنجرد شعر الرأس والصغير الرأس . والظلمان : جمع ظلم وهو ولد النعام ، والجوجو : الصدر . والهواء : الخالي الفارغ ، وجعل صدره فارغاً ليكون أسرع في السير إلى طعامه . والأصك : الذى تقصطك ركبته عند المشي لطول رجله . وصله : قطعه . والتصليم : مبالغة . ويقال : أجنى الثمر إذا أدرك ، وأجنت الأرض : كثرت كلوها وخصبها . والسن ، المكان المستوى واسم موضع بعينه . والتنوم - وزن تنور - : شجر تغلق كاهه عن حب صغير تأكله أهل البادية ، يغلب على لونه السواد . قيل : وهو شجر الشهدانج . والآه : جنس من الشجر واحدة آة . وقيل : ثمر ذلك الشجر يطلق على نوع من الصوت : والتنوم : فاعل أجنى ، أى كثرت له في ذلك المكان هذان النوعان .

(٢) ألا أبلغ أبا سفيان عنى  
بأن سيوفنا تركت عبيداً  
مومت محمداً فأجبت عنه  
أنهجه ولس له بكشف  
أمن يهجو رسول الله منكم  
فأنت أبى ووالده وعرضى  
فأنت مجوف نخب هواه  
وعبد الدار ساداتها الاماء  
وعند الله في ذلك الجزاء  
فشركا لحيركا القداء  
ويعده وينصره سواه  
لعرض محمد منكم وقاه

لحسان يهجو أبا سفيان قبل إسلامه . وألا للتنبيه ، والمأمور بالبلاغ غير معين ، وكان الظن أن يقول : فانه ، أى : أبا سفيان ، لكن خاطبه بالندم لأنه أقيظ . ويجوز أن المأمور أبو سفيان ، فهو منادى بحذف حرف النداء . والمجوف والنخب والهواء : خالي الجوف ، أو فارغ القلب من العقل والشجاعة . وروى بدل هذا الشطر ومغلطة فقد برح الحياء والمغلطة : الحارة من الغلة بالضم ، وهي شدة العطش والحاررة . وقيل . المتقولة من مكان لآخر ،

وعن ابن جريج (أفدتهم هواء) صفر من الخير غاوية منه . وقال أبو عبيدة : جوف لاقول لهم .

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ④٤ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِينِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ④٥ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ④٦ فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ تَخْلِفَ وَعْدَهُ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو أَنْتِقَامٍ ④٧

(يوم يأتيهم العذاب) مفعول ثان لأنذر وهو يوم القيامة . ومعنى ﴿أخرنا إلى أجل قريب﴾ ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحد من الزمان قريب ، تتدارك ما فرطنا فيه من إجابة

== وبرز كسمع : ذهب زوال . وقيل : ظهر واتضح من براح الأرض وهو البارز منها ، فالجها بمعنى التستر أو السر . وإسناد الترك للسبوف مجاز عقل ، لأنها آلة للفعل . وعبيد بالتصغير قبيلة . وكذلك عبدالدار ، وسادتها مبتدا . والامام خبره ، والجملة في محل المفعول الثاني لترك ، أى صيرت عبيدا لاسادة لها لإلانة ، وصيرت عبدالدار كذلك ، معنى : أننا أوفينا رجالها الرضاء الأشراف ، فأشرافهما النساء لاغير ، بل يجوز أنهم سواء الحارث أيضا ، فلم يبق إلا الرافق . وأتهجوه : استفهام توبيخى ، والواو بعده للعال ، أى : لا ينبغي ذلك شر وخير ، من قبيل أفعل التفضيل ، واختصا بحذف هزتها تخفيفا لكثرة استعمالها ، لكن المراد بهما هنا أصل الوصف لا الزيادة فيه والشر أبو سفيان ، والجملة دعائية ، دعا عليه بأن يكون فداء الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبرزه في صورة الإهتام لأجل الانصاف في الكلام ، ولذلك لما سمعه الحاضرون قالوا : هذا نصف بيت قاله العرب ، فمليك بالانصاف وأمن بهجوه : استفهام إنكارى ، أى ليس من بهجوه منكم ومن يدعه وينصره منا مستويين . ويحتمل أن الهمة للتنبيه ، أو للنداء ، والمنادى بحذوف ، أى : يا قوم أبى سفيان إن الذى بهجوه رسول الله منكم الذى يدعوه وينصره منكم مستويان في عدم الاكترات بهما وروى : فن ، ولابد من تقدير ، أى : من بهجوه ويخذه منكم ليقابل الخذلان النصر كالهجو والمدح ، ثم إن في هذا دليلا على جواز حذف الموصول ، وقد أجازوه الكوفيون والأخفش ، وتبعهم أبو مالك ، وشرط كونه معطوفا على موصول آخر كما هنا . وقوله : ووالده ، أى والد أبى . ويروى : ووالدنى . والوفاء : ما يتوق به المكروه . كالترس وزن الحزام والرباط اللغول به الفعل ، فهو إما بمعنى اسم مفعول أو اسم الآلة . ورأيت في كلام الزمخشري ما يفيد تسمية هذا الوزن باسم المفعول . وفي الجمع ما يفيد أنه جاء شادا من أوزان الآلة ، كأثرات لما توثرت به النار ، أى تضرم به ، وسراد لما يسرد به ، أى يحز به . ولما سمع صلى الله عليه وسلم قوله «وعند الله في ذلك الجزاء» قال : جزاء الله الجنة باحسان . ولما سمع قوله «فإن أبى» قال : وذاك الله حر النار باحسان . وتقريره صلى الله عليه وسلم على المكافأة بالدم ، يدل على الجواز .

دعوتك واتباع رسلك . أو أريد باليوم : يوم هلاكهم بالعذاب العاجل ، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى ، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب ، كقوله (لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق) . ﴿أولم تكونوا أقسمتم﴾ على إرادة القول ، وفيه وجهان : أن يقولوا ذلك بطراً وأشراً ، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه ، وأن يقولوه بلسان الحال حيث بنوا شديداً وأملوا بعيداً . و ﴿مالككم﴾ جواب القسم . وإنما جاء بلفظ الخطاب لقوله (أقسمتم) ولو حكى لفظ المقسمين لقليل : مالنا ﴿من زوال﴾ والمعنى أقسمتم أنكم باقون في الدنيا لاتزالون بالموت والفناء . وقيل . لاتنتقلون إلى دار أخرى يعنى كفرهم بالبعث ، كقوله (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت) يقال : سكن الدار وسكن فيها . ومنه قوله تعالى ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ لأن السكنى من السكون الذى هو اللبث ، والأصل تعديه بنى ، كقولك : قر في الدار وغنى فيها وأقام فيها ، ولكنه لما نقل إلى سكون خاص تصرف فيه فقليل : سكن الدار كما قيل : تبوأها وأوطنها . ويجوز أن يكون : سكنوا <sup>(١)</sup> ، من السكون ، أى : قروا فيها واطمأنوا طيبى النفوس ، سائر من سيرة من قبلهم في الظلم والفساد ، لا يتحدثونها بما لقي الأولون من أيام الله وكيف كان عاقبة ظلمهم ، فيعتبروا ويرتدعوا ﴿وتبين لكم﴾ بالإخبار والمشاهدة ﴿كيف﴾ أهلكناهم وانتقمنا منهم . وقرئ : وتبين لكم ، بالنون ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أى صفات ما فعلوا وما فعل بهم ، وهى في الغرابة كالأمثال المضروبة لكل ظالم ﴿وقد مكروا مكرم﴾ أى مكرم العظيم الذى استفرغوا فيه جهدهم ﴿وعند الله مكرم﴾ لا يخلوا إما أن يكون مضافاً إلى الفاعل كالأول ، على معنى : ومكتوب عند الله مكرم ، فهو مجازيهم عليه بمكر هو أعظم منه ، أو يكون مضافاً إلى المفعول على معنى : وعند الله مكرم الذى يمكرهم <sup>(٢)</sup> به ، وهو عذابهم الذى يستحقونه يأثمهم به من حيث لا يشعرون ولا يحتسبون ﴿وإن كان مكرمهم لتزول منه الجبال﴾ وإن عظم مكرمهم وتبالغ في الشدة ، فضرب زوال الجبال منه مثلاً لتفاقه وشدته ، أى : وإن كان مكرمهم مسوى لإزالة الجبال . معداً لذلك ، وقد جعلت إن نافية واللام مؤكدة لها ، كقوله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) والمعنى : ومحال أن تزول الجبال بمكرهم . على أن الجبال مثل آيات الله وشرائعه ، لأنها بمنزلة الجبال الراسية ثباتاً وتمسكاً . وتنصره قراءة ابن

(١) قوله « ويجوز أن يكون سكنوا » لعله : سكنتم . (ع)

(٢) قوله « وعند الله مكرم الذى يمكرهم به » الذى فى الصحاح المكر : الاحتيال والخديعة . وقد مكر به . والمكر أيضاً : المفرة ، وقد مكره فامتكر ، أى خضب فاختضب له . وهو يفيد أن المكر يعنى الاحتيال لا يتعدى بنفسه ، فتدبر . (ع)

مسعود: وما كان مكرم . وقرئ: لتزول ، بلام الابتداء ، على : وإن كان مكرم من الشدة بحيث تزول منه الجبال وتنقلع من أماكنها . وقرأ على وعمر رضي الله عنهما : وإن كاد مكرم (مخلف وعده رسله) يعنى قوله (إنا لننصر رسلنا) ، (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) . فإن قلت : هلا قيل : مخلف رسله وعده ؟ ولم قدم المفعول الثانى على الاول (١) ؟ قلت : قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلاً ، كقوله (إن الله لا يخلف الميعاد) ثم قال (رسله) ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً - وليس من شأنه إخلاف المواعيد - كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته ؟ وقرئ : مخلف وعده رسله ، بحز الرسل ونصب الوعد . وهذه فى الضعف كمن قرأ (قتل أولادهم شركائهم) . (عزيز) غالب لا يماكر (ذو انتقام) لأوليائه من أعدائه .

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ٤٨  
وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ٤٩ سَرَّايْلُهُمْ مِنْ قِطْرَانٍ  
وَتَنْقَشُ وُجُوهُهُمْ النَّارُ ٥٠ لِمَعْزِيَةِ اللَّهِ كُلِّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ  
سَرِيعُ الْحِسَابِ ٥١

(يوم تبدل الأرض غير الأرض) انتصابه على البدل من يوم يأتيهم . أو على الظرف للانتقام . والمعنى : يوم تبدل هذه الأرض التى تعرفونها أرضاً أخرى غير هذه المعروفة ، وكذلك السموات . والتبديل : التغيير ، وقد يكون فى الذوات كقولك : بذلت الدرهم دنانير . ومنه (بدلناهم جلوداً غيرها) و (بدلناهم بجنتيهم جنتين) وفى الأوصاف ، كقولك : بذلت الحلقة خاتماً ، إذا أذبتها وسويتها خاتماً ، فنقلتها من شكل إلى شكل . ومنه قوله تعالى (فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات) واختلف فى تبديل الأرض والسموات ، فقيل : تبدل أوصافها فتفسير عن الأرض جبالها وتجزر بحارها . وتسوى فلا يرى فيها عوج ولا أمت . وعن ابن عباس : هى تلك الأرض وإنما تغير ، وأنشد :

(١) قال محمود : «إن قلت لم قدم المفعول الثانى على الاول ... الخ. ؟ قال أحد : وفيما قاله نظر : لأن الفعل متى قيد بمفعول انقطع إطلاعه ، فليس تقديم الوعد فى الآية دليلاً على إطلاق الفعل باعتبار الموعد ، حتى يكون ذكر الرسل بابتداء كالأجن من الإطلاقات الاول ، ولا فرق فى المعنى الذى ذكره بين تقديم ذكر الرسل وتأخيرها ولا يفيد تقديم المفعول الثانى إلا الإيذان بالثبات فى مقصود المتكلم والأمر بهذه المثابة فى الآية ، لأنها وردت فى سياق الإنذار والتهديد للظالمين بما توعدهم الله تعالى به على أسنة الرسل ، فالهمم فى التهديد ذكر الوعيد . وأما كونه على أسنة الرسل فذلك أمر لا يفتق الخوف عليه ولا بد ، حتى لو فرض التوعد من الله تعالى على غير لسان رسول ، لكان الخوف منه حسيباً كافياً ، والله أعلم .

وَمَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَاهَدْتَهُمْ وَلَا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي كُنْتَ تَعْلَمُ<sup>(١)</sup>  
وتبدل السماء بانتثار كواكبها، وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها، وكونها أبواباً.  
وقيل: يخلق بدلها أرض وسموات أخرى. وعن ابن مسعود وأنس: يحشر الناس على أرض بيضاء  
لم يخطئ عليها أحد خطيئة. وعن علي رضي الله عنه: تبدل أرضاً من فضة، وسموات من ذهب.  
وعن الضحاك: أرضاً من فضة بيضاء كالصحائف. وقرئ: يوم تبدل الأرض؛ بالنون.<sup>(٢)</sup>  
فإن قلت: كيف قال ﴿الواحد القهار﴾؟ قلت: هو كقوله (لن الملك اليوم لله الواحد القهار)  
لأن الملك إذا كان لواحد غلاب لا يغالب ولا يعاز فلا مستغاث لأحد إلى غيره ولا مستجار،  
كان الأمر في غابة الصعوبة والشدة ﴿مقرنين﴾ قرن بعضهم مع بعض. أو مع الشياطين.  
أو قرنت أيديهم إلى أرجلهم مغلولين. وقوله ﴿في الأصفاذ﴾ إما أن يتعلق بمقرنين، أي:  
يقرون في الأصفاذ. وإما أن لا يتعلق به، فيكون المعنى: مقرنين مصفين. والأصفاذ:  
القيود: وقيل الأغلال، وأنشد لسلامة بن جندل:

وَزَيْدُ الْخَيْلِ قَدْ لَاقَى صَفَاذًا بَعْضُ بَسَاعِدٍ وَبَعْظُ سَاقٍ<sup>(٣)</sup>

القطران: فيه ثلاثة لغات: قطران، وقطران، وقطران: بفتح القاف وكسرها مع سكون الهمزة،  
وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأهل فيطبخ، فتنبأ به الإبل الجربى، فيحرق الجرب بحزبه وحدثه،  
والجلد، وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به،  
وهو أسود اللون ممتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرايل وهي  
القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران. وحرقة، وإسراع النار في جلودهم، واللون  
الوحش، وثن الريح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله  
أو وعد به في الآخرة، فينبه ويبين ما نشاهد من جنسه ما لا يقادر قدره. وكأنه ما عندنا من إلا  
الاسمى والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجيننا من عذابه.  
وقرئ: من قطرآن، والقطر: النحاس أو الصفر المذاب. والآي: المتناهي حزه. وتغشى  
وجوههم النار ﴿كقوله تعالى﴾ (أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب)، (يوم يسحبون في النار على

(١) يقول: ليس الناس اليوم هم الناس الذين عاهدتهم سابقاً، لغناء الأحياء من بينهم، وليست الدار اليوم هي  
الدار التي كنت تعلمها، لتبدل أحوالها وتغير أوصافها.

(٢) قوله «وقرئ» تبدل الأرض بالنون، لعله ونصب الأرض والسموات، فلتحرر القراءة. (ع)

(٣) سلامة بن جندل. وزيد الخيل: هو الذي سماه النبي صلى الله عليه وسلم زيد الخير. قد لاقى: أى نال  
من أعدائه صفاداً، أى قيداً وغلاً. واستعار البعض لقرص الصفاد اليابس الصلب على طريق التعريحية. والباء  
للإصاق، وأنهم لفظ العظم للبالغة في العض حتى وصل العظم.

وجوهم) لأن الوجه أعن موضع في ظاهر البدن وأشرفه، كالقلب في باطنه، ولذلك قال (تطلع على الأفق) وقرئ: وتغشى وجوهم، بمعنى تتغشى: أى يفعل بالمجرمين ما يفعل ﴿ليجزى الله كل نفس﴾ مجرمة ﴿ما كسبت﴾ أو كل نفس من مجرمة ومطبعة لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم علم أنه يثيب المطيعين لطاعتهم.

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذْكُرَ

### أُولُوا الْأَلْبَابِ ٥٢

﴿هذا بلاغ للناس﴾ كفاية في التذكير والموعظة، يعنى بهذا ما وصفه من قوله (ولا تحسبن) إلى قوله (سريع الحساب). ﴿وليُنذروا﴾ معطوف على محذوف، أى لينصحووا وليُنذروا ﴿به﴾ بهذا البلاغ. وقرئ: وليُنذروا، بفتح الياء، من نذره إذا علمه<sup>(١)</sup> واستعدله ﴿وليعلموا﴾ أنما هو إله واحد ﴿لأنهم إذا خافوا ما أنذروا به، دعتهم المخافة إلى النظر حتى يتوصلوا إلى التوحيد، لأن الخشية أم الخير كله.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قرأ سورة إبراهيم أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد كل من عبد الأصنام وعدد من لم يعبد<sup>(٢)</sup>

(١) قوله «من نذره به إذا علمه» في الصحاح: نذر القوم بالعدو - بكسر الهمزة - إذا علموا. (ع)

(٢) يأتي إسناده في آخر الكتاب.

## سورة الحجر

مكية | إلا آية ٨٧ فمدنية |

وهي تسع وتسعون آية | نزلت بعد سورة يوسف |

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ①

(تلك) إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات . والكتاب . والقرآن المبين : السورة . وتشكير القرآن للتفخيم . والمعنى : تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتاباً وأى قرآن مبين . كأنه قيل : الكتاب الجامع للكمال والغرابة في البيان .

رَبَّمَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ② ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا

وَيُلْبِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③

قرئ : ربما ، وربما . بالتشديد . وربما ، وربما : بالضم والفتح مع التخفيف . فإن قلت : لم دخلت على المضارع وقد أبوا دخولها إلا على الماضي ؟ قلت : لأن المترقب في إخبار الله تعالى بمنزلة الماضي المقطوع به في تحققه . فكأنه قيل : ربما ود . فإن قلت : متى تكون ودادتهم ؟ قلت : عند الموت ، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين . وقيل : إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار ، وهذا أيضاً باب من الودادة . فإن قلت : فما معنى التقليل ؟ ① قلت : هو وارد على

(١) قال محمود : « إن قلت : مامعنى تقليل ودادتهم ... الخ » قال أحمد : لاشك أن العرب تعبر عن المعنى بما يؤدي عكس مقصوده كثيراً ، ومنه قوله :

• قد أترك القرن مضرباً أنامله •

وإنما يمتدح بالاكثر من ذلك ، وقد عبر بقدر المفيدة للتقليل ، ومنه والله أعلم . (وقد تعللون أنى رسول الله) والمقصود توبيخهم على أذاهم لموسى عليه السلام على توفر عذبتهم برسائله ومناصحته لهم ، وقد اختلف توجيه علماء البيان لذلك ، فهم من وجهه بما ذكره الزمخشري أنفا من التنبيه بالأدنى على الأعلى ، ومنهم من وجهه بأن المقصود في ذلك الإيهان بأن المعنى قد بلغ الغاية حتى كاد أن يرجع إلى التند ، وذلك شأن كل ما انتهى لنهايته أن يعود إلى عكسه . وقد أصح أبو الطيب ذلك بقوله :

مذهب العرب في قولهم : لعلك ستندم على فعلك ، وربما ندم الإنسان على ما فعل ، ولا يشكون في تندمه ، ولا يقصدون تقليه ، ولكنهم أرادوا : لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل ، لأن العقلاء يتحذرون من التعرض للغم المظنون ، كما يتحذرون من المتيقن ومن القليل منه ، كما من الكثير ، وكذلك المعنى في الآية : لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة ، فبالحرى أن يسارعوا إليه . فكيف وهم يودونه في كل ساعة ﴿ لو كانوا مسلمين ﴾ حكاية ودادتهم ، وإنما جرى بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم ، كقولك : حلف بالله ليفعلن . ولو قيل : حلف بالله لأفعلن ، ولو كنا مسلمين ، لكان حسناً سديداً . وقيل : تدهشهم أهوال ذلك اليوم فييقنون مبهوتين ، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الاوقات من سكرتهم تمنوا ، فلذلك قلل ﴿ ذرهم ﴾ يعني اقطع طمعك من ارجعواهم ، ودعهم عن النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة ، وخلصهم ﴿ يأكلوا ويتمتعوا ﴾ بدنيهم <sup>(١)</sup> وتنفيذ شهواتهم ، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال ، وأن لا يلقوا في العاقبة إلا خيراً ﴿ فسوف يعلمون ﴾ سوء صنيعهم . والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان ، وأنهم لا يحىء منهم إلا ما هم فيه ، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما يندرون به حين لا ينفعهم الوعظ ، ولا سبيل إلى اتعاضهم قبل ذلك ، فأمر رسوله بأن يخلصهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته ، وأن يبالي في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندما في العاقبة . وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه . وفيه تنبيه على أن إثارة التلذذ والتنعيم وما يؤدي إليه طول الأمل . وهذه هيجري أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين . وعن بعضهم : التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين .

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ ۖ ﴿٤﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا

وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ۖ ﴿٥﴾

﴿ ولها كتاب ﴾ جملة واقعة صفة لقرية ، والقياس أن لا يتوسط الواو بينهما كما في قوله تعالى ( وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرين ) وإنما توسطت لتأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، كما يقال في الحال : جاءني زيد عليه ثوب ، وجاءني وعليه ثوب . كتاب ﴿ معلوم ﴾ مكتوب معلوم ،

ولجدت حتى كدت تنخل حائلا للنهني ومن السرور بكاء

وكلا هذين الوجهين يحمل الكلام على المبالغة بنوع من الابقاظ إليها ، والعمدة في ذلك على سياق الكلام ، لأنه إذا اقتضى مثلاً تكثيراً ، فدخلت فيه عبارة يشعر ظاهرها بالتقليل استيقظ السامع بأن المراد المبالغة على إحدى الطريقتين المذكورتين ، والله أعلم .

(١) قوله « ويتمتعوا بدنيهم » في الصحاح : سميت الدنيا لدنوها ، واجمع دنى ، مثل الكبرى والكبر ،

والصغرى والصغر . (ع)



وهو أجلها الذي كتب في اللوح وبين ، ألا ترى إلى قوله ﴿ ما تسبق من أمة أجلها ﴾ في موضع كتابها ، وأنت الأمة أولاً ثم ذكرها آخر ، حملاً على اللفظ والمعنى : وقال ﴿ وما يستأخرون ﴾ بحذف و عنه ، لأنه معلوم .

وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ٦

قرأ الأعمش : يا أيها الذي ألقى عليه الذكر ، <sup>(١)</sup> وكان هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء ، كما قال فرعون ( إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون ) وكيف يقرّون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون . والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع . وقد جاء في كتاب الله في مواضع ، منها ( فبشرهم بعذاب أليم ) ، ( إنك لأنت الحليم الرشيد ) وقد يوجد كثيراً في كلام العجم ، والمعنى : إنك لتقول قول المجانين حين تدعى أن الله نزل عليك الذكر .

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِیْنَ ٧

ولو ، ركبت مع « لا » و « ما » ، لمعنيين : معنى امتناع الشيء لوجود غيره ، ومعنى التخصيص ، وأما « هل » فلم تتركب إلا مع « لا » ، وحدها للتخصيص : قال ابن مقبل :

لَوْ مَا الْحَيَاءُ وَلَوْ مَا الدِّينُ عِبْتُكُمْ بِبَعْضِ مَا فِیْكُمْ إِذْ عِبْتُمَا عَوْرِي ٢

والمعنى : هلا تأتينا بالملائكة يشهدون بصدقك ويعضدونك على إنذارك ، كقوله تعالى ( لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ) أو : هلا تأتينا بالملائكة للعقاب على تكذيبنا لك إن كنت صادقاً كما كانت تأتي الأمم المكذبة برسلكها ؟ .

مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ٨

قرئ : تنزل ، بمعنى تنزل وتنزل على البناء للمفعول من نزل ، ونزل الملائكة : بالنون ونصب الملائكة ﴿ إلا بالحق ﴾ إلا تنزلاً ملتبساً بالحكمة والمصلحة ، ولا حكمة في أن تأتيم عياناً تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار . ومثله قوله تعالى ( وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق ) وقيل : الحق

(١) قوله « الذي ألقى عليه الذكر » له : إليه . (ع)

(٢) لابن مقبل ، ولولا ولوما : أصلها « لو » التي تفيد امتناع الشيء لامتناع غيره ، فركبت مع « لا » و « ما » ، فأفادت معهما امتناع الشيء لوجود غيره ، لأن نفي الثاني إثبات ، فإن لم يكن لها جواب أفادت معهما في المضارع التخصيص ، وفي غيره التنديم أو التوبيخ ، يقول : لولا الحياء موجود ، ولوما الدين موجود لعبتك ببعض ما فيك من العيوب ، لأنك عبتني بعوري ، أو عددتموه عيباً .

الوحى أو العذاب. و﴿إذا﴾ جواب وجزاء، لأنه جواب لهم وجزاء لشرط مقدر تقديره :  
ولو نزلنا الملائكة ما كانوا منظرين وما أخرج عذابهم .

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾

﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ رد لإنكارهم واستهزائهم<sup>(١)</sup> فى قولهم (بأيها الذى نزل عليه الذكر)  
ولذلك قال : إنا نحن ، فأكد عليهم أنه هو المنزل على القطع والبتات ، وأنه هو الذى بعث به  
جبريل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وبين يديه ومن خلفه رصد ، حتى نزل وبلغ محفوظا من الشياطين  
وهو حافظه فى كل وقت من كل زيادة ونقصان وتحريف وتبدل ، بخلاف الكتب المتقدمة :  
فإنه لم يتول حفظها . وإنما است حفظها الربانيين والأحبار فاختلقوا فيما بينهم بغيا فكان التحريف  
ولم يسكل القرآن إلى غير حفظه . فإن قلت : لحين كان قوله (إنا نحن نزلنا الذكر) رداً لإنكارهم  
واستهزائهم ، فكيف اتصل به قوله ﴿وإنا له لحافظون﴾ ؟ قلت : قد جعل ذلك دليلاً على أنه  
منزل من عنده آية ؛ لأنه لو كان من قول البشر أو غير آية لتطرق عليه الزيادة والنقصان كما  
يتطرق على كل كلام سواء . وقيل : الضمير فى (له) لرسول الله صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى  
(والله يعصمك) .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا

كَأَنَّهُمْ بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾

﴿فى شيع الأولين﴾ فى فرقهم وطوائفهم . والشيعه : الفرقة إذا اتفقوا على مذهب  
وطريقة . ومعنى أرسلناه فيهم : نبأناه فيهم وجعلناه رسولا فيما بينهم ﴿وما يأتيهم﴾ حكاية حال  
ماضية ، لأن ما لا تدخل على مضارع إلا وهو فى معنى الحال . ولا على ماض إلا وهو  
قريب من الحال .

كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ

سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

يقال : سلكت الخيط فى الإبرة ، وأسلكته إذا أدخلته فيها ونظمته . وقرئ : نسلكه .

(١) قال محمود : وهذا رد لإنكارهم واستهزائهم ... الخ ، قال أحمد : ويحتمل أن يراد حفظه بما يشبهه  
من تناقض واختلاف لا يخلو عنه الكلام المفترى . وذلك أيضا من الدليل على أنه من عند الله ، كما قال تعالى فى آية  
أخرى (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) .

المذكر ، أى : مثل ذلك السلك ، ونحوه : نسلك الذكر فى ﴿ قلوب المجرمين ﴾ على معنى أنه يلقى فى قلوبهم <sup>(١)</sup> مكذباً مستزماً به غير مقبول ، كما لو أنزلت بليث حاجة فلم يجلبك إليها فقلت : كذلك أنزلها بالثام ، تعنى مثل هذا الإنزال أنزلها بهم مردودة غير مقضية . وحمل قوله ﴿ لا يؤمنون به ﴾ النصب على الحال ، أى غير مؤمن به . أو هو بيان لقوله ( كذلك نسلكه ) . ﴿ سنة الأولين ﴾ طريقةهم التى سنّها الله فى إهلاكهم حين كذبوا برسولهم وبالدكر المنزل عليهم ، وهو وعيد لاهل مكة على تكذيبهم .

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

قرئ ﴿ يعرجون ﴾ بالضم والكسر . و ﴿ سكرت ﴾ حيرت أو حبست من الإبصار ، من السكر أو السكر . وقرئ : سكرت بالتخفيف <sup>(٢)</sup> أى حبست كما يحبس النهر من الجرى . وقرئ : سكرت من السكر ، أى حارت كما يحار السكران . والمعنى أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم فى العناد : أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء ، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها ، ورأوا من العيان ما رأوا : لقالوا : هو شئ نتخايله لاحقيقة له ، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك . وقيل : الضمير للملائكة ، أى : لو أريناهم الملائكة يصعدون فى السماء عياناً لقالوا ذلك . وذكر الظلول ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون . وقال : إنما ، ليدل على أنهم يتنون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيراً للإبصار .

(١) قال محمود : « معناه يلقى فى قلوبهم مكذباً به ... الخ » قال أحمد : والمراد والله أعلم إقامة الحجة على المكذبين بأن الله تعالى سلك القرآن فى قلوبهم وأدخله فى سويدائهم ، كما سلك ذلك فى قلوب المؤمنين المصدقين ، فكذب به هؤلاء وصدق به هؤلاء كل على علم وفهم ، ( لهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة ) ولئلا يكون للكفار على الله حجة بأهم ما فهموا وجوه الإعجاز كما فهموا من آمن ، فأعلمهم الله تعالى من الآن وهم فى مهلة (وكان منهم ما كفروا لإلا على علم معاندين باغين غير معذورين ، والله أعلم . ولذلك عقبه الله تعالى بقوله ( ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون ) أى هؤلاء فهموا أقرآن وعلوا وجوه إعجازه ، وولج ذلك فى قلوبهم ووفر ، ولكنهم قوم يحيطهم العناد وشيمتهم اللدد . حتى لو سلك بهم أوضح السبل وأدعاهما إلى الإيمان بضرورة المشاهدة ، وذلك بأن يفتح لهم باباً فى السماء ويعرج بهم إليه حتى يدخلوا منه نهاراً . وإلى ذلك الإشارة بقوله ( فظلوا ) لأن الظلول إنما يكون نهاراً ، اقالوا بعد هذا الإيضاح العظيم المكشوف : إنما سكرت أبصارنا وسحرنا محمد ، وما هذه إلا خيالات لاحقائق تحتها ، فأسجل عليهم بذلك أنهم لا عذر لهم فى التشكيب من عدم سماع ووعى ووصول إلى القلوب ، وفهم كما فهم غيرهم من المصدقين لأن ذلك كله حاصل لهم وإنما بهم العناد واللدد والاصرار لاغير والله أعلم .

(٢) قوله : وقرئ ( سكرت ) بالتخفيف : لعل هذا من السكر بالفتح كما أن ما أتى من السكر بالضم . (ع)

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝١٦ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ۝١٧ إِلَّا مِنْ أَسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ ۝١٨ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ۝١٩ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ۝٢٠

(من استرق) في محل النصب على الاستثناء . وعن ابن عباس : أنهم كانوا لا يحجبون عن السموات ، فلما ولد عيسى منعوا من ثلاث سموات ، فلما ولد محمد منعوا من السموات كلها (شهاب مبین) ظاهر للبصرين (موزون) وزن بميزان الحكمة ، وقدر بمقدار تقتضيه ، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان ، أو له وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة . وقيل : ما يوزن من نحو الذهب والفضة والنحاس والحديد وغيرها (معاش) بياء صريحة . بخلاف الشئال والخبائث ونحوهما ، فإن تصریح الياء فيها خطأ ، والصواب الهمزة ، أو إخراج الياء بين بين . وقد قرئ : معاش ، بالهمزة على التشبيه (ومن لستم له برازقين) عطف على معاش ، أو على محل لكم ، كأنه قيل : وجعلنا لكم فيها معاش ، وجعلنا لكم من لستم له برازقين ، أو : وجعلنا لكم معاش ولمن لستم له برازقين . وأراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويحفظون ، فإن الله هو الرزاق ، يرزقهم وإياهم ، ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة ، مما الله رازقه ، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرازقون . ولا يجوز أن يكون مجرورا عطفاً على الضمير المجرور في (لكم) لأنه لا يعطف على الضمير المجرور .

وَأَنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ۝٢١

ذكر الخزان تمثيل . والمعنى : وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجادها وتسكينه والإناعام به ، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلحة له ، فضرر الخزان مثلاً لاقتداره على كل مقدور .

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَا كُؤُهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ۝٢٢

(لواقح) فيه قولان ، أحدهما : أن الريح لاقح إذا جاءت بخير ، من إنشاء سحب ماطر كما قيل التي لا تأتي بخير : ريح عقيم . والثاني : أن اللواقح بمعنى الملاقح ، كما قال :

### • وَخُتِّبَتْ لِمَا تُطِيعُ الطَّوَانِحُ • (١)

يريد المطاوح جمع مطيحة . وقرئ : وأرسلنا الريح ، على تأويل الجنس (فأسقيناهم) جعلناه لكم سقياً (وما أنتم له بخازنين) نفى عنهم ما أثبتته لنفسه في قوله (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه) كأنه قال : نحن الخازنون للماء ، على معنى : نحن القادرون على خلقه في السماء وإزاله منها ، وما أنتم عليه بقادرين : دلالة على عظيم قدرته وإظهاراً لعجزهم .

وإِنَّا لَنَعْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤) وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ

### حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥)

(ونحن الوارثون) أى الباقون بعد هلاك الخلق كله . وقيل للباقي . وارث ، استعارة من وارث الميت ، لأنه يبقى بعد فئاته . ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في دعائه . واجعله الوارث منا ، (٢٣) (ولقد علمنا) من استقدم ولادة وموتاً ، ومن تأخر من الأولين والآخرين . أو من خرج من أصلاب الرجال ومن لم يخرج بعد . أو من تقدم في الاسلام وسبق إلى الطاعة

(١) ليك يزيد . ضارع الخصومة . وختبب عما تطيع الطوانح . لضرار بن نهشل يرى أخاه يزيد بن نهشل . وقيل غير ذلك . وليك : مبنى بالفعل ، واللام للطلب ، ويزيد نائب الفاعل ، وضارع فاعل لفعل محذوف ، وفي الكلام سؤال المقدر . كأنه قيل : من يبيكه ؟ فقيل يبيكه ضارع وهو الدليل ، وختبب وهو السائل ، كأنه يختبب أبواب المستولين . وما مصدرية . وتطيع تلك . وقال الجوهري : طوحت الطوانح فذنته القوافض ، ولا يقال : المطوحات ، وهو من النوادر ، والقياس المطبحات من أطاح . أو المطوحات من طوح . وقال الأصمعي : هو جمع طائفة . يقال : ذهبت طائفة من العرب أى طائفة منها . أى : يبيكه المختبب من أجل إهلاك الطوانح ماله ، فما يتعلق بمختبب . وقيل : يجوز تعلقه بالفعل المقدر ، كقوله الخصومة . ونقل العصام عن العارف الروي : أن يزيد منادى ، وحرف النداء محذوف ، وضارع نائب الفاعل : لأن الضارع والمختبب أحق بالبكاء عليهما بعد يزيد الذي كان يفتيهما . وروى ليك يزيد بالناء للفاعل ونصب يزيد ، فضارع فاعل للفعل المذكور ، ولو ضم يزيد على النداء لجاز هنا أيضاً ، أى : ليك عليك يا يزيد ضارع ومختبب .

(٢) أخرجه الترمذى والنسائى والبخارى . والحاكم من حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال «قلنا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوم من مجلس حتى يدعو بهذه الدعوات : اللهم اقم لنا من خشيتك - الحديث ، وفيه «واجعله الوارث منا» قال الترمذى : حديث حسن وقال البخارى : تفرد به عبد الله بن رواحة . وهو وهى الحديث ، وأخرج من رواية حبيب بن أبى ثابت عن عروة عن عائشة «أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول : اللهم عاقني في جسدى ، وعاقني في بصرى ، واجعله الوارث منى» وأخرجه أبو يعلى أيضاً . وفي الترمذى والحاكم من حديث أبى هريرة قال «كان من دعا النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم متنى بصرى واجعلهما الوارث منى» وفي الطبرانى الأوسط عن علي رضى الله عنه قال «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو - فذكر مثله .

ومن تأخر . وقيل : المتقدمين في صفوف الجماعة والمتأخرين . وروى أن امرأة حسناء كانت في المصليات خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان بعض القوم يستقدم لئلا ينظر إليها ، وبعض يستأخر ليبصرها فزلت <sup>(١)</sup> (هو يحشرهم) أي هو وحده القادر على حشرهم ، والعالم يحصرهم مع إفراط كثرتهم وتباعد أطراف عددهم (إنه حكيم عليم) بآهر الحكمة واسع العلم ، يفعل كل ما يفعل على مقتضى الحكمة والصواب ، وقد أحاط علماً بكل شيء .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ﴿٢٧﴾

الصلصال : الطين اليابس الذي يصلصل وهو غير مطبوخ ، وإذا طبخ فهو غيار . قالوا : إذا توهمت في صوته ماذا فهو صليل ، وإن توهمت فيه ترجيعاً فهو صلصلة . وقيل : هو تضعيف صل ، إذا أتن . والحمأ : الطين الأسود المتغير . والمسنون : المصور ، من سنة الوجه <sup>(٢)</sup> ، وقيل : المصوب المفرغ ، أي : أفرغ صورة إنسان كما تفرغ الصور من الجواهر المذوبة في أمثلتها . وقيل : المنتن ، من سنتت الحجر على الحجر إذا حككته به ، فالذي يسيل بينهما سنتين ، ولا يكون إلا منتناً (من حمأ) صفة لصلصال ، أي : خلقه من صلصال كائن من حمأ وحق (مسنون) بمعنى مصور ، أن يكون صفة لصلصال . كأنه أفرغ الحمأ فصور منها تمثال إنسان أجوف ، فببس حتى إذا نفر صلصل ، ثم غيره بعد ذلك إلى جوهر آخر (والجان) للجن كآدم للناس . وقيل : هو إبليس . وقرأ الحسن وعمر بن عبيد : والجآن ، بالهمز (من نار السموم) من نار الحز الشديد النافذ في المسام . قيل : هذه السموم جزء من سبعين جزءاً من سموم النار التي خلق الله منها الجآن .

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَأِئِكَةُ

(١) أخرجه الترمذی والنسائی وابن ماجه وابن حبان والحاكم وأبو يعلى وأحمد والبخاري والطبري وابن أبي حاتم من رواية أبي الجوزاء أوس بن عبدالله عن ابن عباس . قال وكانت امرأة حسناء من أحسن الناس تهلى خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لأن لا يراها أو يستأخر بعضهم حتى يكون في الصف الآخر . فإذا ركع نظروا تحت إبطه . فأنزل الله هذه الآية . قال البخاري : لأنهم رآه ابن عباس ولله طريق إلا هذه . وقال الترمذی : روى عن أبي الجوزاء مرسلًا ، وهو أشبه به

(٢) قوله ومن سنة الوجه ، في الصحاح : سنة الوجه صورته . (ع)

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ٣٠ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٣١  
 قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ٣٢ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ  
 خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ٣٣ قَالَ فَخُذْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ٣٤  
 وَإِنْ عَلَيْكَ اللَّعْنَةُ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ٣٥ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ٣٦  
 قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ٣٧ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ٣٨ قَالَ رَبِّ  
 بِمَا اغْوَيْتَنِي لَأَرِيَنَّهُمْ هُمُ فِي الْأَرْضِ وَلَا غُيُوبَهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ  
 مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ٤٠ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ٤١ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ  
 لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ٤٢ وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ  
 أَجْمَعِينَ ٤٣ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ٤٤

(وإذا قال ربك) واذكر وقت قوله (سوته) عدلت خلقته وأكملت أفعالها وهياتها لنفخ الروح فيها. ومعنى (ونفخت فيه من روحي) وأحييته. وليس ثمة نفخ ولا منفوخ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه. واستثنى إبليس من الملائكة؛ لأنه كان بينهم مأموراً معهم بالسجود، فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغليب كقولك: رأيتمهم إلا هنداً. و(أبى) استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه. وقيل: معناه ولكن إبليس أبى. حرف الجر مع وأن، محذوف. وتقديره (مالك) في (ألا تكون مع الساجدين) بمعنى أى غرض لك في إبانك السجود. وأى داعاك إليه. اللام في (لا يسجد) لتأكيد النفي. ومعناه: لا يصح منى وينافى حالى. ويستحيل أن أسجد لبشر (رجيم) شيطان من الذين يرجون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله؛ لأن من يطرد يرمى بالحجارة. ومعناه: ملعون؛ لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها. والضمير في (منها) راجع إلى الجنة أو السماء، أو إلى جملة الملائكة. وضرب يوم الدين حداً للعنة، إما لأنه غاية يضربها الناس في كلامهم، كقوله (مادامت السموات والأرض) في التأيد. وإما أن يراد أنك مذموم مدعوق عليك باللعن في السموات والأرض إلى يوم الدين، من غير أن تعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت

بما ينسى اللعن معه . و (يوم الدين) و (يوم يبعثون) و (يوم الوقت المعلوم) في معنى واحد ، ولكن خواف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة . وقيل : إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون ثلاث يموت ؛ لأنه لا يموت يوم البعث أحد ، فلم يجب إلى ذلك ، وأنظر إلى آخر أيام التكليف ﴿بما أغويتني﴾ الباء للقسم . و ما ، مصدرية وجواب القسم ﴿لازين﴾ المعنى : أقسم يا غوائك إياي لأزين لهم . ومعنى إغوائه إياه : تسييبه لغيره . بأن أمره بالسجود لآدم عليه السلام ، فأفضى ذلك إلى غير . وما الأمر بالسجود لإحسان وتعريض للثواب بالتواضع والخضوع لأمر الله ، ولكن إبليس اختار الإباء والاستكبار فهلك ، والله تعالى رى . من غيه <sup>(١)</sup> ومن إرادته والرضا به ، ونحو قوله (بما أغويتني لأزين لهم) : قوله (فبعزتكم لاغوينهم أجمعين) في أنه إقسام ، إلا أن أحدهما إقسام بصفته والثاني إقسام بفعله ، وقد فرق الفقهاء بينهما . ويجوز أن لا يكون قسما ، ويقدر قسم محذوف ، ويكون المعنى : بسبب تسييبك لإغوائى أقسم لأفعلن بهم نحو ما فعلت بـ من التسييب لإغوائهم ، بأن أزين لهم المعاصى وأوسوس إليهم ما يكون سبب هلاكهم ﴿في الأرض﴾ في الدنيا التي هي دار الغرور ، كقوله تعالى (أخذه إلى الأرض واتبع هواه) أو أراد أنى أقدر على الاحتيال لآدم والتزين له الأكل من الشجرة وهو في السماء ، فأنا على التزين لآدم في الأرض أقدر . أو أراد : لأجعلن مكان التزين عندهم الأرض ، ولأوقعن تزينى فيها ، أى : لأزيننها في أعينهم ولأحدثنهم بأن الزينة في الدنيا وحدها ، حتى يستجوها على الآخرة ويطمثنوا إليها دونها . ونحوه :

• ... • يَجْرَحُ فِي عَرَاقِيهَا تَفْصِي <sup>(٢)</sup>

(١) قوله والله تعالى برى من غير ، هذا على مذهب المعتزلة : أن الله لا يريد الشر ولا يخلفه . ومذهب أهل السنة : أن كل كائن فهو بخلقه تعالى وإرادته ، خيرا كان أو شرا . وإن كان لا يرضى الشر من العبد . وتفصيله في التوحيد . (ع)

(٢) وما لأم من يوم أخ وهو صادق إخال ولا اعتلت على ضيفها إلى  
إذا كان فيها الرسل لم تأت دونه فصالي ولو كانت عجافا ولا أهل  
وإن تفتنر بالحل عن ذى ضرورها إلى الضيف يجرح في عراقيها تفصيل

لذى الرمة يمدح نفسه ، والاخاء مصدر آخاء ، كالوفاق مصدر وافقه ، والصحاب مصدر صاحبه ، وزنا ومعنى . يقول : وما لأم من يوم أى في يوم . وعبر بين إيشعارها بالاستغراق . أى : لم لم ، والحال أنه صادق في لومه ، أو في أخوته مصاحبة لى معه ، وفصر الاخاء للوزن ، وضمن لام معنى عاب ؛ فعداه إليه . ويجوز أن إجماع اللوم عليه مجاز عقلى ؛ لأن الاخاء كأنه محل اللوم ، ولا اعتلت أى أبدت لضيفها علة في التأخر عن قراء ، وإسناد الفعل للابل وإضافة الضيف إليها لأنها محل قراء ، وذلك كناية عن غاية كرمه ، ويجوز أن إسناد الفعل إليها مجاز عقلى ، لأنها سبب في اعتلال صاحبها للضيف عنها إذا كانت بخيلا ، وإضافة الضيف إليها ترشيح لذلك . ويحتمل أنه شبه الابل بالكرماء على طريق الممكنية ، فذلك تغليل ، وبين عدم الاعتلال =



استثنى المخلصين ؛ لأنه علم أن كيدته لا يعمل فيهم ولا يقبلون منه . أى ﴿ هذا ﴾ طريق حق ﴿ على ﴾ أن أراعيه ، وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادى ، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته : وقرئ على ، وهو من علو الشرف والفضل ﴿ لموعدهم ﴾ الضمير للغاوين . وقيل : أبواب النار أطباقها وأدراكها ، فأعلاها للوحدين ، والثانى لليهود ، والثالث للنصارى ، والرابع للصائين ، والخامس للجوس ، والسادس للمشركين ، والسابع للنافقين . وعن ابن عباس رضى الله عنه : إن جهنم لمن ادعى الربوبية ، ولظى لعبد النار ، والحطمة لعبد الأصنام وسقر لليهود ، والسعير للنصارى ، والجحيم للصائين ، والهاوية للوحدين . وقرئ : جزء ، بالتخفيف والتثقل . وقرأ الزهرى : جز ، بالتشديد ؛ كأنه حذف الهمزة وألقى حركتها على الزاى ، كقولك : خب فى خبء ، ثم وقف عليه بالتشديد ، كقولهم : الرجل ، ثم أجرى الوصل مجرى الوقف .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۖ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ۖ (٤٦) وَتَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُورٍ مُّتَقَابِلِينَ ۖ (٤٧) لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ۖ (٤٨)

المتقى على الإطلاق : من يتقى ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : اتقوا الكفر والفواحش ، ولهم ذنوب تكفرها الصلوات وغيرها ﴿ ادخلوها ﴾ على إرادة القول . وقرأ الحسن : ادخلوها ﴿ بسلام ﴾ سالمين أو مسلما عليكم : تسلم عليكم الملائكة . الغل : الحقد الكامن فى القلب ، من انغل فى جوفه وتغلغل ، أى : إن كان لأحدهم فى الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم . وعن على رضى الله عنه : أرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير منهم . وعن الحرث الأعور : كنت جالسا عنده إذ جاء ابن طلحة فقال له على :

== بقوله « إذا كان بها الرسل » وهو اللين القليل ، ويطلق على الجبل السهل ، لم تأت دونه : أى قريبا من اللين . فصالى : جمع فضيل . وهو ولد الناقة . ونفى قربها كناية عن نفي ارتضاعها له ، ولو كانت عجافا : أى مهزبل ، ولا أهلى : ولا جياعا ، وإن تعذر الأبل بالجل والجذب ، عن ذى ضروعها : كناية عن اللين ، لأنه ملازم للضرع يجرح نصلى : أى سبى أوسهى فى عراقيا ، وهى بمنزلة الركب للانسان ، وإسناد الاعتذار إليها مجاز ، وكذلك إسناد الجرح للنصل ، لأنه آله . ومعنى الجرح فى المراقب : أنه يجعلها مكانا معدا له ، ولوقال : يجرح عراقيا ، لغات ذلك المعنى . وقيل : ضمنه معنى يعثر أى يفسد ، وكانت عادة العرب أن يفصدوا الأبل ويجمعوها دماها ويضعوها على النار فتصير كالسكب ، ويقرون بها الضيقان فى الجذب ، لحرمة الله : ويجوز أنه كناية عن نحرها ، لأنهم كانوا يعقرون الجبل الصعب قبل نحره ليسهل عليهم ، وهذا هو الذى يقتضيه مقام المدح .

مرحباً بك يا ابن أخى . أما والله إنى لأرجو أن أكون أنا وأبوك ممن قال الله تعالى (ونزعتنا ما فى صدورهم من غل) فقال له قائل : كلا ، الله أعدل من أن يجمعك وطلحة فى مكان واحد ، فقال : فلن هذه الآية لا أتم لك <sup>(١)</sup> ؟ وقيل : معناه طهر الله قلوبهم من أن يتحاسدوا على الدرجات فى الجنة ، ونزع منها كل غل ، وألقى فيها التواء والتحاب . و﴿إخوانا﴾ نصب على الحال . و﴿على سرر متقابلين﴾ كذلك . وعن مجاهد . تدور بهم الأسرة حيثما داروا ، فيكونون فى جميع أحوالهم متقابلين .

نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ٥٠

لما أتم ذكر الوعد والوعيد أتبعه ﴿نبي عبادى﴾ تقريراً لما ذكر وتمكيناً له فى النفوس . وعن ابن عباس رضى الله عنه : غفور لمن تاب ، وعذابه لمن لم يتب . وعطف ﴿ونبئهم﴾ على نبي عبادى ، ليتخذوا ما أحل من العذاب بقوم لوط عبرة يعتبرون بها سخط الله وانتقامه من المجرمين ، ويتحققوا عنده أن عذابه هو العذاب الاليم .

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ صَيفِ إِبْرَاهِيمَ ٥١ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ٥٢ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ٥٣ قَالَ أَبَشِّرْتُمُونِى عَلَى أَنْ مَسْنِىَ الْكَبِيرُ قَبِيمٌ نُبَشِّرُونَ ٥٤ قَالُوا بَشِّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ ٥٥ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ٥٦

﴿سلاماً﴾ أى . نسلم عليك سلاماً ، أو سلمت سلاماً ﴿وجلون﴾ خائفون ، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل . وقيل : لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت . وقرأ الحسن : لا توجل ، بضم التاء من أوجه يوجه إذا أخافه . وقرئ : لا تأجل . ولا توجل ، من واجله بمعنى أوجهه . وقرئ ﴿نبشرك﴾ بفتح النون والتخفيف ﴿لإنا نبشرك﴾ استئناف فى معنى التعليل للنهى عن

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط والعقلى وابن سعد من طريق الحارث الأعور قال : كنت عند على بن أبى طالب إذ جاءه عمران بن طلحة فذكره . وفيه «فقال الحرك - يعنى الراوى - : الله أجل وأعدل من ذلك وله طريق أخرى أخرجها الحاكم من طريق ربيع بن خراش قال «إنى لعند على جالس إذ جاءه ابن طلحة ، فسلم عليه فرحب به ، فقال : ترحب فى يا أمير المؤمنين ، وقد قتلت والدى ، وأخذت مالى ؟ قال : أما مالك فهو معزول فى بيت المال ، أعد إليه غذاه . وأما أبوك فانى أرجو أن أكون أنا وأبوك من الذين قال الله تعالى (ونزعتنا ما فى صدورهم من غل) - الآية) فقال رجل من ممدان ، فذكره . ورواه الحاكم أيضاً والطبرى من طريق أبى حبيبة مولى طلحة قال : دخل عمران بن طلحة على على رضى الله عنه . وذكر نحوه .

الوجل : أرادوا أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل . يعنى ﴿أبشرونى﴾ مع مس الكبير ، بأن يولد لى . أى : أن الولادة أمر عجيب مستنكر فى العادة مع الكبير ﴿فيم تبشرون﴾ هى ما الاستفهامية ، دخلها معنى التعجب ، كأنه قال : فبأى أعجوبة تبشرون . أو أراد : أنكم تبشروننى بما هو غير متصور فى العادة ، فبأى شىء تبشرون ، يعنى : لا تبشروننى فى الحقيقة بشىء ؛ لأن البشارة بمثل هذا إشارة بغير شىء . ويجوز أن لا يكون صلة لبشر ، ويكون سؤالا عن الوجه والطريقة يعنى : بأى طريقة تبشروننى بالولد ، والبشارة به لا طريقة لها فى العادة . وقوله ﴿بشرك بالحق﴾ يحتمل أن تكون الباء فيه صلة ، أى : بشرك باليقين الذى لا لبس فيه ، أو بشرك بطريقة هى حق وهى قول الله ووعد ، وأنه قادر على أن يوجد ولد آمن غير أبوين ، فكيف من شيخ فان ويجوز عاقر . وقرئ : تبشرون ، بفتح النون وبكسر ها على حذف نون الجمع ، والأصل تبشرون ، وتبشرون<sup>(١)</sup> . يادغام نون الجمع فى نون العاد . وقرئ : من القنطين ، من قنط يقنط . وقرئ : ومن يقنط ، بالحركات الثلاث فى النون ، أراد : ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب ، أو إلا الكافرون ، كقوله ( لا يبيس من روح الله إلا القوم الكافرون ) يعنى : لم أستنكر ذلك قنوطاً من رحمته ، ولكن استبعاداً له فى العادة التى أجزاها الله .

قَالَ قَمَا خَطَبُكُمْ أَهْلُهَا الْمُرْسَلُونَ ٥٧ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ٥٨  
إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجِّوهُمْ أَجْمَعِينَ ٥٩ إِلَّا امْرَأَتُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَيْرِينَ ٦٠  
فإن قلت قوله تعالى : ﴿إلا آل لوط﴾ استثناء متصل أو منقطع ؟ (١) . قلت ، لا يخلو من أن يكون استثناء من قوم ، فيكون منقطعاً ؛ لأن القوم موصوفون بالإجرام ، فاختلف لذلك الجنسان وأن يكون استثناء من الضمير فى مجرمين ، فيكون متصلاً ، كأنه قيل : إلى قوم قد أجزموا كلهم إلا آل لوط وحدهم ، كما قال ( فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين ) . فإن قلت : فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين ؟ قلت : نعم ، وذلك أن آل لوط مخرجون فى المنقطع من حكم الإرسال ، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة ، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلاً . ومعنى إرسالهم إلى القوم المجرمين ، كما إرسال الحجر أو السهم إلى المرمى . فى أنه فى معنى التعذيب

(١) قوله «وتبشرون» بكسر النون والتشديد . قله النفس . (ع)

(٢) قال محمود : «إن قلت هل الاستثناء الأول متصل ... الخ» قال أحد : وجهه الأول منقطعاً أولى وأمكن ، وذلك أن فى استثناءهم من الضمير بالعائد على قوم منكرين بعداً ، من حيث أن موقع الاستثناء إخراج ما لولاه لدخل المستثنى فى حكم الأول ، وهذا الدخول متعذر من التنكير ، ولذلك قلنا نجد السكرة يستثنى منها إلا فى سياق نفي ، لأنها حينئذ أعم ، فيتحقق الدخول لولا الاستثناء ، ومن ثم لم يحسن رأيت قوماً إلا زيدا وحسن ما رأيت أحداً إلا زيدا ، والله أعلم .

والإهلاك، كأنه قيل: إنا أهلكنا قوما مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم. وأما في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعاً لهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصاً<sup>(١)</sup> بمعنى الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول. فإن قلت: فقله ﴿إنا لمنجوم﴾ بم يتعلق على الوجهين؟ قلت: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر. ولكن، في الاتصال بآل لوط، لأن المعنى. لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلاماً مستأنفاً، كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم: فإحال آل لوط، فقالوا: إنا لمنجوم. فإن قلت: فقله ﴿إلا امرأته﴾ مم استثنى؛ وهل هو استثناء من استثناء؟ قلت: استثنى من الضمير المجرور في قوله (لمنجوم) وليس من الاستثناء من الاستثناء في شيء؛ لأن الاستثناء من الاستثناء إنما يكون فيما اتحد الحكم فيه، وأن يقال: أهلكناهم إلا آل لوط، إلا امرأته، كما اتحد الحكم في قول المطلق: أنت طالق ثلاثاً، إلا اثنتين، إلا واحدة. وفي قول المقر: لفلان على عشرة دراهم، إلا ثلاثة، إلا درهما. فأما في الآية فقد اختلف الحكان، لأن (إلا آل لوط) متعلق بأرسلنا، أو بمجرمين. و (إلا امرأته) قد تعلق بمنجوم، فأنى يكون استثناء من استثناء. وقرئ (لمنجوم) بالتخفيف والتثنية. فإن قلت: لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله ﴿قدرنا إنما لمن الغابرين﴾<sup>(٢)</sup> والتعليق من خصائص أفعال القلوب؟ قلت: لتضمن فعل التقدير معنى العلم، ولذلك فسر العلماء تقدير الله أعمال العباد بالعلم. فإن قلت: فلم أسند الملائكة فعل التقدير - وهو الله وحده - إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدر الله؟ قلت: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما

(١) قوله «فلا يكون الإرسال مخلصاً» لعله: مختصاً. (ع)

(٢) عاد كلامه. قال مجاهد: «فإن قلت لم جاز تعليق فعل التقدير في قوله ﴿قدرنا إنما لمن الغابرين﴾ الخ» قال أحمد: وهذه أيضاً من دقاته الاعتزالية في جحد القضاء والقدر، واعتقاد أن الأمر آت، لأنهم لا يستقدرون أن الله تعالى مرید لاكثر أفعال عبده من معصية ومباح ونحوهما ولا مقدر لها على العبد، بمعنى أنه مرید ولكنه عالم بما سيفعله على خلاف مشيئته وإرادته. فالتقدير عندهم هو العلم بالإرادة، ثم استد على أن التقدير هو العلم بتقدير فعله عن العمل، وذلك من خواص فعل العلم وأخواته، فانظر إلى بعد غوره ودقة فطته في ابتداء آية يلقها ويغاد بها البراهين الواضح فلقها، وفي كلامه شاهد على رده، فإن التقدير عنده مضمين معنى العلم، ومن شأن الفعل المضمن معنى آخر: أن يبقى على معناه الأصلي، مضافاً إليه المعنى الطارئ فيفيدهما جميعاً، فالتقدير إذاً كما أناد العلم الطارئ فيفيد الإرادة أصلاً ووضعاً. والله أعلم؛ على أن من الناس من جعل قوله تعالى ﴿قدرنا إنما لمن الغابرين﴾ من كلامه تعالى غير محكي عن الملائكة، وهو الظاهر؛ فإن الذي يجعله من قول الملائكة يحتاج في نسبتهم التقدير إلى أنفسهم إلى تأويل، ويجعله من باب قول خواص الملك: دبرنا كذا، وأمرنا بكذا، وإنما يمتنون دبر الملك وأمر، وبذلك أوله الزمخشري. وإن كان أصله لا يحتاج معه إلى التأويل، لأنه إذا جعل قدرنا بمعنى علنا إنما لمن الغابرين، فلا غرو في علم الملائكة ذلك باخبار الله تعالى إياهم به، وإنما يحتاج إلى التأويل: من جعل قدرنا بمعنى أردنا وقضينا وجعله من قول الملائكة، والله أعلم.

يقول خاصة الملك : دبرنا كذا وأمرنا بكذا ، والمدير والامر هو الملك لا هم ، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنهم لا يتميزون عنه . وقرئ : قدرنا ، بالتخفيف .

فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾  
قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسِرْ بِأَهْلِكَ يَقْطَعِ مِنَ الْأَمَلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

(منكرون) أي تنكركم نفسي وتنفر منكم ، فأخاف أن تطرقوني بشرّ ، بدليل قوله (بل جئناك بما كانوا فيه يمترون) أي ما جئناك بما تنكرنا لأجله ، بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوك ، وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله ، فيمترون فيه ويكذبونك (بالحق) باليقين من عذابهم (وإننا لصادقون) في الإخبار بنزوله بهم . وقرئ : فأسر ، بقطع الهمزة وصلها ، من أسرى وسرى . وروى صاحب الإقليد : فسر ، من السير والقطع في آخر الليل . قال :

أَفْتَحِي الْبَابَ وَانْظُرِي فِي النُّجُومِ كَمْ عَلِمْنَا مِنْ قِطْعِ لَيْلٍ بِهِمْ (١)

وقيل : هو بعد ما يمضي شيء صالح من الليل . فإن قلت : ما معنى أمره باتباع أدبارهم (٢) ونهيمهم عن الالتفات ؟ قلت قد بعث الله الهلاك على قومه ، ونجاء وأهله إجابة لدعوته عليهم ، وخرج مهاجراً فلم يكن له بد من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره وتفرغ باله لذلك ، فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه ، وليكون مطلعاً عليهم وعلى أحوالهم ، فلا تفرط منهم التفاتة احتشاماً منه ولا غيرها من الهفوات في تلك الحال الموهلة المحذورة ، ولئلا يتخلف منهم

(١) يقول لصاحبه وكان يجب طول الليل ويدعيه : افتحي باب البيت وانظري وتأمل في النجوم ، أمالت جهة الغرب أم لا ؟ وكـ : يحتمل أنها خبرية للتكثير ، ويحتمل أنها استفهامية ، ثم يحتمل أنها مستأنفة . ويحتمل أن الفعل قبلها معلق عن العمل في لفظها لأن لها الصدارة . والمراد من هذا الأمر طلب إخباره بما تعلمه بعد النظر من جراب الاستفهام المذكور . وقطع الليل : ظلمته . وقال في الصحاح : ظلة آخره ، والمراد به هنا جزء الليل . والهيم : شديد الظلام لانهم الأشياء فيه ، ووصفه بذلك ملائم للقيام .

(٢) قال محمود : إن قلت : ما معنى أمره باتباع أدبارهم ،... الخ ، قال أحمد : وليمض هذه المقاصد عاتب الله تعالى نبيه موسى عليه السلام حيث تقدم قومه فقال (وما أجلك عن قومك يا موسى) والله أعلم .

أحد لقرض له فيصيبه العذاب ، وليكون مسيره مسير الهارب الذي يقدم سربه ويفوت به ، ونهوا عن الالتفات لثلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب <sup>(١)</sup> فيرقوا لهم ، وليوطنوا نفوسهم على المهجرة <sup>(٢)</sup> ويطيّبوها عن مساكنهم ، ويمضوا قدماً <sup>(٣)</sup> غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحصر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوى إليه أعادعه ، كما قال :

تَلَفْتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّى وَجَدْتُنِي وَجِئْتُ مِنَ الْإِصْغَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعًا <sup>(٤)</sup>

أوجعل النهى عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف . لأن من يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة (حيث تؤمرون) قيل : هو مصر ، وعدى (وامضوا) إلى (حيث) تعديته إلى الطرف المهم ، لأن (حيث) مهم في الامكنة ، وكذلك الضمير في (تؤمرون) وعدى (قضيئا) بإلى لانه ضمن معنى : أوحينا ، كأنه قيل : وأوحينا إليه مقضياً مبتوتاً . وفسر (ذلك الأمر) بقوله (أن دابر هؤلاء مقطوع) وفي إيهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له . وقرأ الأعشى : إن ، بالكسر على الاستئناف ، كأن قاتلاً قال : أخبرنا عن ذلك

(١) عاد كلامه . قال : «وإنما نهوا عن الالتفات لثلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب ... الخ» قال أحمد : ولقد شملت هذه الآية على جازتها آداب المسافرين لهم ديني أردنيوي ، من الأمر والمأمور والتابع والمتبوع (ما فرطنا في الكتاب من شيء) .

(٢) قوله «وليوطنوا نفوسهم على المهجرة ويطيّبوها عن مساكنهم» لعل فيه تقديم ، والأصل : على المهجرة عن مساكنهم ويطيّبوها ، فليحرو . (ع)

(٣) قوله «ويمضوا قدماً» في الصحاح ومعنى قدماً ، يضم الدال : لم يعرج ولم ينثن . (ع)

(٤) ولما رأيت البشر أعرض دوننا وحالت بنات الشوق يحن نوحا

بكت عيني اليسرى فلما زجرتها عن الجهل بعد الحلم أسبلتنا معا

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجئت من الاصغاء ليثا وأخدعا

للصمة بن عبدالله بن طقيل بن الحرث ، والبشر : السرور وما به السرور ، وأعرض : ظهر أمامنا ، وحالت بالهمزة - أي صارت حائلاً بيننا وبين البشر ومنعتنا عنه ، وبكت : جواب لما ، وخص اليسرى أولاً : لأنه كان أعور . ويروى : جالت ، بالجيم أي حامت خواطر القلب الناشئة من الشوق في قلبي ، حال كونها نحن إلى المحبوبة ، نازعات شائفات إليها ، يقال : نزع نوحاً إذا مال قلبه واشتاق إلى حبه . والنزع : جمع نازع ، فصبه الخواطر بالبنات على طريق التصريح ، لتولدها من الشوق وإثبات الجولان والحنين ، والنزوع ترشيح : لأن الأول خاص بالمحسوس ، والآخران بالمدرَك . وإسناد الحنين والنزوع إليها مجاز عقلي : لأنها في الحقيقة محلها وهو القلب ، بل للشخص وهو سببها . والجهل ضد الحلم . أسبلتنا : سالت دموعهما ، وإسناد البكاء للعين مجازاً ، ومعناه دمعت عيني ، فيجوز تشبيهها بالإنسان على طريق المكنية ، وزجرها ترشيح ، وجهلها وحلها تحييل ، وتلفت : أي كثرت الالتفات جهة الحي ، حتى وجع ليني وأخدعي . يقال : وجع وجعا كتعب تعباً . واليت - بالكسر - : صفة العتق . والأخدع : عرق فيها ، وهما تمييزان محمولان عن الفاعل ، وذلك مبالغة في كثرة التلفت .

الأمر، فقال: إن دابر هؤلاء. وفي قراءة ابن مسعود: وقلنا إن دابر هؤلاء. ودابرهم: آخرهم،  
يعنى: يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد.

وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا  
تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَوْ لَمْ تُنْهَكَ عَنِ  
الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي  
سَكْرَتِهِمْ بِعَمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّحَابَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا  
سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ  
لِلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبَسِيلٌ مَقِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

(أهل المدينة) أهل سدوم التي ضرب بقاضها المثل في الجور، مستبشرين بالملائكة  
(لا تفضحون) بفضيحة ضيفي، لأن من أسى إلى ضيفه أو جاره فقد أسى إليه، كما أن من  
أكرم من يتصل به فقد أكرم (ولا تخزون) ولا تذلون بإذلال ضيفي، من الخزي وهو  
المهوان. أو ولا تشؤروا<sup>(١)</sup> بي، من الخزاية وهي الحياء (عن العالمين) عن أن تجير منهم  
أحداً، أو تدفع عنهم، أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يتعرضون لكل أحد، وكان يقوم  
صلى الله عليه وسلم بالنهي عن المنكر، والحجر بينهم وبين المتعرض له، فأوعده وقالوا: لن لم  
نته بالوط لتكونن من المخرجين. وقيل: عن ضيافة الناس وإزاهم، وكانوا نهوه أن يضيف  
أحداً فقط (هؤلاء بناتي) إشارة إلى النساء: لأن كل أمة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونسأؤهم  
بناته، فكانه قال لهم: هؤلاء بناتي فانسكحوهن، واخلوا بنى فلا تعرضوا لهم (إن كنتم فاعلين)  
شك في قبولهم لقوله، كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون. وقيل: إن كنتم  
تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم (لعمرك) على إرادة القول، أى قالت الملائكة  
للوط عليه السلام: لعمرك (إنهم لفي سكرتهم) أى غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتميزهم بين  
الخطأ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم، من ترك البنين إلى البنات (يعمّهون)

(١) قوله «ولا تشؤروا بي» في الصحاح «شوار» فرج المرأة والرجل. ومنه قيل: شور به، أى كأنه

يتحiron ، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك . وقيل : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له ، والعمر والعمر واحد ، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثارة الألف فيه ، وذلك لأن الحلف كثير الدور على ألسنتهم ، ولذلك حذفوا الخبر ، وتقديره : لعمرك مما أقسم به ، كما حذفوا الفعل في قولك : بالله . وقرئ : في سكرهم وفي سكراتهم (الصيحة) صيحة جبريل عليه السلام (مشرقين) داخلين في الشروق وهو بزوع الشمس (من سجيل) قيل : من طين ، عليه كتاب من السجل . ودليله قوله تعالى : (حجارة من طين مسومة عند ربك) أى معلة بكتاب (للمتوسمين) للمتوسمين المتأملين . وحقيقة المتوسمين النظائر المنتهون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء . يقال : توسمت في فلان كذا ، أى عرفت وسمه فيه . والضمير في (عاليها سافلها) لقرى قوم لوط (وإنها) وإن هذه القرى يعنى آثارها (لبسيل مقيم) ثابت يسلكه الناس لم يتدرس بعد ، وهم يبصرون تلك الآثار ، وهو تنبيه لقريش كقوله (وإنكم لتزرون عليهم مصبحين) .

وَإِنْ كَانَ أَفْحَبُ الْأَيْكَةِ لَظُلْمِينَ ٧٨ فَأَتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا

لِبِأَمَامٍ مُّبِينٍ ٧٩

(أصحاب الأيكة) قوم شعيب (وإنهما) يعنى قرى قوم لوط والأيكة . وقيل : الضمير للأيكة ومدین ، لأن شعيباً كان مبعوثاً إليهما فلما ذكر الأيكة دلّ به ذكرها على مدین فجاء بضميرهما (لبأمام مبين) لطريق واضح ، والامام اسم لما يؤتم به ، فسمى به الطريق ومطمربناء واللوح الذى يكتب فيه ، لأنها مما يؤتم به .

وَلَقَدْ كَذَّبَ أَفْحَبُ الْحَجَرِ الْمُرْسَلِينَ ٨٠ وَءَاتَيْنَاهُمْ ءَايَاتِنَا فَكَانُوا

عَنْهَا مُعْرِضِينَ ٨١ وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ٨٢

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ٨٣ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ٨٤

(أصحاب الحجر) ثمود ، والحجر وادبهم ، وهو بين المدينة والشام (المرسلين) يعنى يسكنذبهم صالحاً ، لأن من كذب واحداً منهم فكأنما كذبهم جميعاً ، أو أراد صالحاً ومن معه من المؤمنين . كما قيل : الحبيون في ابن الزبير وأصحابه . وعن جابر : مررنا مع النبي صلى الله عليه وسلم (١) على الحجر

(١) لم أجده من حديث جابر ، وهو في الصحيح من حديث ابن عمر بهذا اللفظ دون قوله وناقته ، وفي رواية : أن ذلك كان في غزوة تبوك .



فقال لنا ولا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين ، حذرا أن يصيبكم مثل ما أصاب هؤلاء ، ثم زجر النبي صلى الله عليه وسلم راحلته فأسرع حتى خلفها ﴿آمنين﴾ لو ثاقبة البيوت واستحكامها من أن تهدم ويتداعى بنيانها ، ومن نقب الأنصوص ومن الأعداء وحوادث الدهر . أو آمنين من عذاب الله يحسبون أن الجبال تحميمهم منه ﴿ما كانوا يكسبون﴾ من بناء البيوت الوثيقة والأموال والعدد .

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ

فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾

﴿إلا بالحق﴾ إلا خلقاً ملتبساً بالحق والحكمة ، لا باطلا وعسياً . أو بسبب العدل والإنصاف يوم الجزاء على الأعمال ﴿وإن الساعة لآتية﴾ وإن الله ينتقم لك فيها من أعدائك ، ويجازيك وإياهم على حسناتك وسيئاتهم ؛ فإنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا لذلك ﴿فاصفح﴾ فأعرض عنهم واحتمل ما تلقى منهم إعراضاً جميلاً بحلم وإغضاء . وقيل : هو منسوخ بآية السيف . ويجوز أن يراد به المخالفة<sup>(١)</sup> فلا يكون منسوخاً .

إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾

﴿إن ربك هو الخلاق﴾ الذى خلقك وخلقهم ، وهو ﴿العليم﴾ بحالك وحالم ، فلا يخفى عليه ما يجرى بينكم وهو يحكم بينكم . أو إن ربك هو الذى خلقكم وعلم ما هو الأصلح لكم ، وقد علم أن الصفع اليوم أصلح إلى أن يكون السيف أصلح . وفي مصحف أبي وعثمان : إن ربك هو الخالق وهو يصلح للقليل والكثير ، والخلق للكثير لا غير ، كقولك : قطع الثياب ، وقطع الثوب والثياب .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾

﴿سبعاً﴾ سبع آيات وهى الفاتحة . أو سبع سور وهى الطوال ، واختلف فى السابعة فقليل الأنفال وبراءة ، لأنهما فى حكم سورة واحدة ، ولذلك لم يفصل بينهما بآية التسمية . وقيل سورة يونس . وقيل : هى آل حم ، أو سبع صحائف وهى الأسباع . و﴿المثاني﴾ من الثنية وهى التكرير ؛ لأن الفاتحة مما تكرر قراءتها فى الصلاة وغيرها ، أو من الثناء لاشتغالها على ما هو ثناء على الله ، الواحدة مثناة أو مثنية صفة للآية . وأما السور أو الأسباع فلما وقع فيها من تكرير

(١) قوله «يراد به المخالفة» أى المعاملة بحسن الخلق . وفى الصحاح : يقال خالص المؤمن ، وخالق

القصص والمواعظ والوعيد وغير ذلك ، ولما فيها من الثناء ، كأنها تنثي على الله تعالى بأفعاله العظمى وصفاته الحسنى . ومن ، إما للبيان أو للتبعض إذا أردت بالسبع الفاتحة أو الطوال ، وللبيان إذا أردت الأسباع . ويجوز أن يكون كتب الله كلها مثاني ، لأنها تنثي عليه ، ولما فيها من المواعظ المسكرة ، ويكون القرآن بعضها ، فإن قلت : كيف صح عطف القرآن العظيم على السبع ، وهل هو إلا عطف الشيء على نفسه ؟ قلت : إذا عني بالسبع الفاتحة أو الطوال ، فما وراءه ينطلق عليه اسم القرآن ، لأنه اسم يقع على البعض كما يقع على الكل . ألا ترى إلى قوله ( بما أوحينا إليك هذا القرآن ) يعنى سورة يوسف ؛ وإذا عني الأسباع فالمعنى : ولقد آتيناك ما يقال له السبع المثاني والقرآن العظيم ، أى : الجامع لهذين النعتين ، وهو الثناء أو الثنية والعظم .

لَا تَمُدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَآمَتَيْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاحْصِصْ  
جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾

أى : لا تطمح ببصرك طموح راغب فيه متمن له ( إلى مآمتنا به أزواجاً منهم ) أصنافاً من الكفار . فإن قلت : كيف وصل هذا بما قبله ؟ (١) قلت : يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : قد أوتيت النعمة العظمى التى كل نعمة وإن عظمت فهى إليها حقيرة ضئيلة ، وهى القرآن العظيم ؛ فعليك أن تستغنى به ، ولا تمدن عينيك إلى متاع الدنيا . ومنه الحديث « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » (٢) وحديث أبى بكر « من أوتى القرآن فرأى أن أحداً أوتى من الدنيا أفضل مما أوتى ، فقد صغر عظيماً وعظم صغيراً » (٣) وقيل : وافقت من بصرى وأذرعات : سبع قوافل ليهود

(١) قال محمود : « إن قلت كيف وصل هذا بما قبله ... الخ ؟ قال أحمد : وهذا هو الصواب فى معنى الحديث ، وقد حمله كثير من العلماء على الفناء ، وادعى هؤلاء أن « تنفى » إنما بينى من الثناء الممدود لامن التنى المقصور ، وأن فعله استغنى خاصة ، وقد وجدت بناء تنفى من التنى المقصور فى الحديث الصحيح فى الجبل . وأما التى هى ستر فرجل ربطها تغنياً وتعتفاً ، وإنما هذا من التنى المقصور قطعاً واتفاقاً ، وهو مصدر تنفى ، فدل ذلك على أنه مستعمل من البناءين جميعاً على خلاف دعوى المخالف ، والله الموفق .

(٢) أخرجه البخارى من طريق أبى سبلة عن أبى هريرة وفى الباب عن سعد وأبى لباة عند أبى داود . قال المخرج ذهل النووى وقبله المذرى ، ثم الطبرى فمزوره لآبى داود ولم يعزوه للبخارى وأخطأ القرطبى فعزاه لمسلم لا للبخارى ، ولم يذكره صاحب جامع الأصول ، وعزاه الحاكم للشيخين والذى فى الصحيحين حديث أبى هريرة « ما أذن الله لشيء كاذنه لئلا يتغنى بالقرآن بجهل به » .

(فائدة) قال البيهقى فى السنن فى كتاب الشهادات ، أخبرنا الحاكم عن أبى الأصم سمعت الربيع يقول : سمعت الشافعى يقول : ليس منا من لم يتغن بالقرآن . فقال له رجل : يستغن ؟ قال : ليس هذا معناه ، أى معناه يقرأه تحزينا .

(٣) لم أجده من أبى بكر ، وأخرجه ابن عدى فى ترجمة حمزة النصيبى عن زيد بن رفيع عن أبى عبيدة عن ابن

بنى قريظة والنضير، فيها أنواع البر والطيب والجواهر وسائر الامتعة، فقال المسلمون: لو كانت هذه الأموال لنا لتقويتنا بها، ولا نفقناها في سبيل الله، فقال لهم الله عز وعلا: لقد أعطيتكم سبع آيات هي خير من هذه القوافل السبع ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أى لا تمنن أموالهم ولا تحزن عليهم أنهم لم يؤمنوا فيتقوى بمكانهم الإسلام وينتعش بهم المؤمنون، وتواضع لمن معك من فقراء المؤمنين وضعفائهم، وطب نفساً عن إيمان الأغنياء والأقوياء ﴿وقل﴾ لهم ﴿إني أنا النذير المبين﴾ أنذرهم ببيان وبرهان أن عذاب الله نازل بكم.

كَمَا أُنزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾

فإن قلت: بم تعلق قوله ﴿كما أنزلنا﴾؟ قلت: فيه وجهان، أحدهما: أن يتعلق بقوله: (ولقد آتيناك) أى أنزلنا عليك مثل ما أنزلنا على أهل الكتاب وهم المقتسمون ﴿الذين جعلوا القرآن عضين﴾ حيث قالوا بعنادهم وعدوانهم بعضه حق موافق للتوراة والإنجيل، وبعضه باطل مخالف لهما، فاقسموه إلى حق وباطل، وعضوه<sup>(١)</sup>. وقيل: كانوا يستهزئون به فيقول بعضهم: سورة البقرة لى، ويقول الآخر: سورة آل عمران لى. ويجوز أن يراد بالقرآن: ما يقرؤنه من كتبهم، وقد اقساموه بتحريفهم، وبأن اليهود أقرت ببعض التوراة وكذبت ببعض، والنصارى أقرت ببعض الإنجيل وكذبت ببعض، وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم، وقولهم سحر وشعر وأساطير، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب نحو فعلهم. والثاني أن يتعلق بقوله: ﴿وقل إني أنا النذير المبين﴾ أى: وأنذر قريشاً مثل ما أنزلنا من العذاب على المقتسمين، يعنى اليهود، وهو ما جرى على قريظة والنضير، جعل المتوقع منزلة الواقع، وهو من الإعجاز؛ لأنه إخبار بما سيكون وقد كان. ويجوز أن يكون الذين جعلوا القرآن عضين منصوباً بالنذير، أى: أنذر المعضين الذين يجزؤون القرآن إلى سحر وشعر وأساطير، مثل ما أنزلنا على المقتسمين وهم الاثنى عشر الذين اقساموا مداخل مكة أيام الموسم، فقعدها في كل مدخل متفرقين لينفروا الناس عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول بعضهم: لا تعترفوا بالخارج منا فإنه ساحر. ويقول الآخر: كذاب، والآخر: شاعر، فأهلكهم الله يوم بدر وقبله بأفات، كالوليد بن المغيرة،

== مسعود رفعه «من تعلم القرآن فظن أن أحداً أغنى منه فقد حقر عظمياً وعظم صغيراً، وحمزة اتهموه بالوضع. وأخرجه إصحاق والطبري من حديث عبد الله بن عمر بلفظ «من أعطى القرآن فرأى أن أحداً أعطى أفضل مما أعطى فقد عظم ما عظم الله وصغر ما عظم الله - الحديث»

(١) قوله «وعضوه» في الصحاح: عضيت الشاة تعضية، إذا جراتها أعضاء. وعضيت الشيء تعضية، إذا فرسته. (ع)

والعاص بن وائل ، والأسود بن المطلب وغيرهم ، أو مثل ما أنزلنا على الرهط الذين تقاسموا على أن يبيتوا صالحاً عليه السلام ، والافتسام بمعنى التقاسم . فإن قلت : إذا علقت قوله : ( كما أنزلنا ) بقوله : ( ولقد آتيناك ) فما معنى توسط ( لامتدّن ) إلى آخره بينهما ؟ قلت : لما كان ذلك تسلياً لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن تكذيبهم وعداوتهم ، اعترض بما هو مدد لمعنى التسلي . من النهي عن الالتفات إلى دنياهم والتأسف على كفرهم ، ومن الأمر بأن يقبل بمجامعه على المؤمنين (عضين) أجزاء ، جمع عضه ، وأصلها عضوة فعلة من عضى الشاة إذا جعلها أعضاء . قال رؤبة :

• وَلَيْسَ دِينَ اللَّهِ بِالْمَعْصِيَّةِ •

وقيل : هي فعلة ، من عضهته إذا بهته <sup>(١)</sup> . وعن عكرمة : العضة السحر ، بلغة قريش ، يقولون للساحر عاضه . ولعن النبي صلى الله عليه وسلم العاضة <sup>(٢)</sup> والمستعضة ، نقصانها على الأول واو ، وعلى الثاني هاء .

فَوَرَبُّكَ لَنَسَآئَلُكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

( لنسألهم ) عبارة عن الوعيد . وقيل . يسألهم سؤال تقييع . وعن أبي العالية : يسأل العباد عن خلتين : عما كانوا يعبدون ، وماذا أجابوا المرسلين .

فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾

( فاصدع بما تؤمر ) فاجهر به وأظهره . يقال : صدع بالحجة إذا تكلم بها جهاراً ، كقولك : صرح بها ، من الصديق وهو الفجر ، والصدع في الوجاجة : الإبانة . وقيل : ( فاصدع ) فافرق بين الحق والباطل بما تؤمر ، والمعنى : بما تؤمر به من الشرائع لحذف الجاز ، كقوله :

• أَمَرْتُكَ الْخَيْرَ فَأَفْعَلْ مَا أَمَرْتُ بِهِ • <sup>(٣)</sup>

(١) قوله « إذا بهته » أى انتهته . (ع)

(٢) أخرجه أبو يعلى وابن عدى من حديث ابن عباس . وفي إسناده زمعة بن صالح عن سلية بن وهرام . ومما ضيفان . وله شاهد عند عبد الرزاق من رواية عن ابن جريج عن عطاء .

(٣) فقال لى قول ذى رأى ومقدرة محرر نزه خال من الريب

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نسب

لخفاف بن ندية ، وقيل : لعباس بن مرداس . وقيل : لعمر بن معديكرب . وقيل : لياس بن موسى ، والمقدرة : مثلك الدال : القوة ، والمحرر النزه - كحفر - : الخالص من الغش . والريب ، أى الشبه ، وهو نعت لذى رأى .

ولو جعلته نعتاً لرأى لكان فيه الفصل بين النعت والمنعوت بالمعطف . ويجوز رفعه على أنه نعت مقطوع للقول .

ويجوز أن تكون (ما) مصدرية، أى بأمرك مصدر من المبنى للمفعول.

إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِمِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾

عن عروة بن الزبير في المستهزئين: هم خمسة نفر ذوو أسنان وشرف: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والحارث بن الطلائع. وعن ابن عباس رضى الله عنه: ماتوا كلهم قبل بدر. قال جبريل عليه السلام للنبي صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أكفيكم، فأومأ إلى ساق الوليد فمز بنبال فتعلق بثوبه سهم، فلم ينعطف تعظماً لاخذه، فأصاب عرقاً في عقبه فقطعه فمات، وأومأ إلى أحصص العاص بن وائل، فدخلت فيها شوكة، فقال: لدغت لدغت وانتفخت رجله، حتى صارت كالرحى ومات، وأشار إلى عيني الأسود بن المطلب، فعمى وأشار إلى أنف الحارث بن قيس، فامتخط قيحاً فمات، وإلى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد في أصل شجرة، فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات (١).

وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنتَ لَْيُضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ

وَكَُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

(بما يقولون) من أقاويل الطاعنين فيك وفي القرآن (فسبح) فافزع فيما نابك إلى الله. والافزع إلى الله: هو الذكر الدائم وكثرة السجود، يكفك ويكشف عنك الغم. ودم

== والنسب: المال الأصل صامتاً أو ناطقاً، فهو من عطف الخاص على العام. ويروى: ذا نسب، بالهمزة: أى نسب عظيم، وأمر: يتعدى للثاني بالباء. ويقال: أمرتك الخير على التوسع، أو تضمن التكليف، وجمعهما الفاعل في البيت.

(١) لم أجد هذا السياق. وأخرجه الطبراني في معجمه. وأبو نعيم والبيهقي في الدلائل لها. وابن مردويه كلهم من طريق جعفر بن إياس عن سعيد عن ابن عباس في قوله تعالى (إنا كفيناك المستهزئين) قال: هم الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد يغوث والأسود بن المطلب وأبو زمعة والحارث بن عيطل السهمي قال أنه جبريل فشكاهم إليه. فأراه الوليد بن المغيرة فأومأ جبريل إلى أكله. فقال: ما صنعت؟ قال: كفيته. فساق الحديث. قال: فأما الوليد بن المغيرة فرجل من خزاعة وهو يرش نبلاً له فأصاب أكله فقطعه. وأما الأسود ابن المطلب فعمى. وأما الأسود بن عبد يغوث فخرج في رأسه قروح فمات منها، وأما العاص بن وائل فركب إلى الطائف فربط به حماره على شجرة يعنى شوكة. فدخلت في أحصص قدمه فقتلته. وأما الحارث بن عيطل فأخذه ألم الأصفر في بطنه حتى خرج غره من فيه فمات منها.

على عبادة ربك (حتى يأتيك اليقين) أى الموت، أى مادمت حياً فلا تخل بالعبادة. وعن النبي صلى الله عليه وسلم : أنه كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة <sup>(١)</sup>.  
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة الحجر كان له من الأجر عشر حسنات بعدد المهاجرين والأنصار، والمستهزئين بحمد صلى الله عليه وسلم» <sup>(٢)</sup>.

## سورة النحل

مكية ، غير ثلاث آيات في آخرها

وتسمى سورة النعم ، وهى مائة وثمان وعشرون آية [نزلت بعد سورة الكهف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَنَّى أَمَرَ اللَّهُ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ <sup>(١)</sup>

كانوا يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة أو نزول العذاب بهم يوم بدر ، استهزاء وتكديفاً بالوعد ، فقيل لهم (أنى أمر الله) الذى هو بمنزلة الآتى الواقع وإن كان منتظراً لقرب وقوعه (فلا تستعجلوه) روى أنه لما نزلت (اقتربت الساعة) قال الكفار فيما بينهم إن هذا يزعم أن القيامة قد قربت ، فأمسكوا عن بعض ما تعملون حتى ننظر ما هو كائن ، فلما تأخرت قالوا : ما نرى شيئاً ، فنزلت (اقرب للناس حسابهم) فأشفقوا وانتظروا قربها ، فلما امتدت الأيام قالوا : يا محمد ، ما نرى شيئاً مما تخوفنا به ، فنزلت (أنى أمر الله) فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع الناس رؤوسهم ، فنزلت (فلا تستعجلوه) فاطمأنوا وقرئ : تستعجلوه ، بالتاء والياء (سبحانه وتعالى عما يشركون) تبرأ عز وجل عن أن يكون له شريك ، وأن تكون آلهتهم له شركاء . أو عن إشراركهم ، على أن دما ، موصولة أو مصدرية . فإن قلت : كيف اتصل

(١) تقدم في البقرة .

(٢) رواه الثعلبي من طريق أبي الخليل عن علي بن زيد عن زر بن حبیش عن أبي بن كعب . وقد تقدمت أسانيدُهُ في آخر آل عمران .

هذا باستعجالهم؟ قلت: لأن استعجالهم استهزاء وتكذيب وذلك من الشرك. وقرئ: تشركون، بالتاء والياء.

يَنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا  
أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾

قرئ (ينزل) بالتخفيف والتشديد. وقرئ (تنزل الملائكة) أى تنزل ﴿بالروح من أمره﴾ بما يحيى القلوب الميتة بالجهل من وحيه، أو بما يقوم فى الدين مقام الروح فى الجسد، و﴿أن أنذروا﴾ بدل من الروح، أى ينزلهم بأن أنذروا. وتقديره: بأنه أنذروا، أى: بأن الشأن أقول لكم أنذروا. أو تكون، أن، مفسرة: لأن تنزيل الملائكة بالوحي فيه معنى القول. ومعنى أنذروا ﴿أنه لا إله إلا أنا﴾ أعلموا بأن الأمر ذلك، من نذرت بكذا إذا علمته. والمعنى: يقول لهم أعلموا الناس قولى لا إله إلا أنا ﴿فاتقون﴾.

خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ  
مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾

ثم دل على وحدانيته وأنه لا إله إلا هو بما ذكر، بما لا يقدر عليه غيره من خلق السموات والأرض وخلق الإنسان وما يصلحه، وما لا بد له منه من خلق البهائم لا كله وركوبه وجز أفعاله وسائر حاجاته، وخلق ما لا يعلمون من أصناف خلائقه. ومثله متعال عن أن يشرك به غيره. وقرئ: تشركون، بالتاء والياء ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ فيه معنيان، أحدهما: فإذا هو منطبق مجادل عن نفسه مكافح للخصوم مبين للحجة، بعد ما كان نطفة من منى جماداً لا حس به ولا حركة، دلالة على قدرته. والثانى: فإذا هو خصيم لربه، منكر على خالقه، قائل: من يحيى العظام وهى رميم. وصفاً للإنسان بالإفراط فى الوقاحة والجهل، والتفادى فى كفران النعمة. وقيل نزلت فى أبى بن خلف الجحى حين جاء بالعظم الرميم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، أترى الله يحيى هذا بعدما قد رمى؟<sup>(١)</sup>

وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾

﴿الأنعام﴾ الأزواج الثمانية، وأكثر ما تقع على الإبل، واتصافها بمضمهر يفسره

الظاهر ، كقوله ( والقمر قدرناه ) ويجوز أن يعطف على الإنسان ، أى : خلق الإنسان والأنعام ، ثم قال ﴿ خلقها لكم ﴾ أى ما خلقها إلا لكم ولمصالحكم يا جنس الإنسان . والدفع : اسم ما يدفع به ، كما أن الماء اسم ما يثلاً به ، وهو الدفاع من لباس معمول من صوف أو وبر أو شعر . وقرئ : دف ، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الفاء ﴿ ومنافع ﴾ هى نسلها وذرها وغير ذلك . فإن قلت : تقديم الظرف فى قوله ﴿ ومنها تأكلون ﴾ مؤذن بالاختصاص ، وقد يؤكل من غيرها . قلت : الأكل منها هو الأصل <sup>(١)</sup> الذى يعتمد به الناس فى معاشهم . وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد البر والبحر فكغير المعتد به وكالجارى مجرى التفكه . ويحتمل أن طعمتم منها ، لأنكم تخرثون بالبقر فالحب والثمار التى تأكلونها منها وتسكتسبون إكراه الإبل وتبيعون نتائجها وألبانها وجلودها .

### وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ٦

من الله بالتجمل بها كما من بالانتفاع بها ، لأنه من أغراض أصحاب المواشى . بل هو من معاضمتها : لأن الرعيان إذا رتحوها بالعشى وسرحوها بالغداة - فزينت بإزاحتها وتسريحها الألفية وتحابوب فيها الثناء والرغاء <sup>(٢)</sup> - أنست أهلها وفرحت أربابها ، وأجلتهم فى عيون الناظرين إليها ، وكسبتهم الجاه والحرمة عند الناس . ونحوه ( لتركبوها وزينة ) ، ( يوارى سواكم وريشا ) . فإن قلت : لم قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت : لأن الجمال فى الإراحة أظهر ، إذا أقبلت ملأى البطون حافلة الضروع ، ثم أوت إلى الحظائر حاضرة لأهلها . وقرأ عكرمة : حين تريحون وحين تسرحون ، على أن ( تريحون وتسرحون ) وصف للحين . والمعنى : تريحون فيه وتسرحون فيه ، كقوله تعالى ( يوما لا يجزى والد ) .

وَتَحْمِيلُ أَثْقَالِكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِآفِيهِ إِلَّا يَشُقُّ الْأَنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ

### أَرُءَوْفٌ رَحِيمٌ ٧

قرئ : بشق الأنفس ، بكسر الشين وفتحها . وقيل : هما لغتان فى معنى المشقة ، وبينهما فرق : وهو أن المفتوح مصدر شق الأمر عليه شقا ، وحقيقته راجعة إلى الشق الذى هو الصدع .

(١) قال محمود : « إن قلت لم قدم المجزى وأجاب بأن الأكل منها هو الأصل ... الخ » ؟ قال أحمد : ومدار هذا التقرير على أن تقديم معمول الفعل يوجب حصره فيه فكأنه قال وإنما تأكلون منها .  
(٢) قوله « وتحابوب فيها الثناء والرغاء » الثناء صوت الشاة والمز وماشا كلهما . والرغاء صوت ذوات الخف ، كذا فى الصحاح .



وأما الشق فالنصف ، كأنه يذهب نصف قوته لما يناله من الجهد . فإن قلت : مامعنى قوله : ﴿ لم تكونوا بالغيه ﴾ كأنهم كانوا زمانا يتحملون المشاق في بلوغه حتى حملت الإبل أثقالهم . قلت : معناه وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه في التقدير لولم تخلق الإبل إلا بجهد أنفسكم ، لأنهم لم يكونوا بالغيه في الحقيقة . فإن قلت : كيف طابق قوله : ﴿ لم تكونوا بالغيه ﴾ قوله : ﴿ وتحمل أثقالكم ﴾ وهلا قيل : لم تكونوا حاملينها إليه <sup>(١)</sup> ؟ قلت : طباقه من حيث أن معناه : وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمت أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة ، فضلا أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم . ويجوز أن يكون المعنى : لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس . وقيل : أثقالكم أجرامكم . وعن عكرمة : البلد مكة ﴿ لرؤف رحيم ﴾ حيث رحمكم بخلق هذه الحوامل وتيسير هذه المصالح .

### وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

﴿ والخيول والبغال والحمر ﴾ عطف على الأنعام ، أى : وخلق هؤلاء للركوب والزينة ، وقد احتج على حرمة أكل لحومهن بأن علل خلقها بالركوب والزينة . ولم يذكر الأكل بعد ما ذكره في الأنعام . فإن قلت : لم انتصب ﴿ وزينة ﴾ ؟ قلت : لأنه مفعول له ، وهو معطوف على محل لتركبوها . فإن قلت : فهلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد <sup>(٢)</sup> ؟ قلت : لأن الركوب فعل المخاطبين ، وأما الزينة ففعل الزائن وهو الخالق . وقرئ : لتركبوها زينة ، بغير واو ، أى : وخلقها زينة لتركبوها . أو تجعل زينة حالاً منها ، أى : وخلقها لتركبوها وهى زينة وجمال ﴿ ويخلق ما لا تعلمون ﴾ يجوز أن يريد به : ما يخلق فينا ولنا عما لا نعلم كنهه وتفاصيله ويمن علينا بذكره كما من بالآشياء المعلومه مع الدلالة على قدرته . ويجوز أن يخبرنا بأن له من الخلاق ما لا علم لنا به ، ليزيدنا دلالة على اقتداره بالإخبار بذلك ، وإن طوى عنا علمه لحكمة

(١) قال محمود : « إن قلت كيف طابق قوله لم تكونوا بالغيه قوله وتحمل أثقالكم ... الخ ؟ قال أحمد : ويحتمل أن يكون المراد تحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه بها إلا بشق الأنفس واستثنى بذكر البلوغ عن ذكر حملها لأن العادة أن المسافر لا يستثنى عن أفعال يستصحبها والمعنى الأول أعلى ، والله أعلم .

(٢) قال محمود : « إن قلت هلا ورد المعطوف والمعطوف عليه على سنن واحد ... الخ ؟ قال أحمد : يعنى لجاز أن ينتصب مجرداً من لام التعليل لأنه فعل فاعل الفعل الأول ، ويعينه اقتران الركوب باللام لأنه فعل المخاطبين ، ومضى لم يتحد الفاعل تعيين لحاق اللام ، وفى هذا الجواب نظر ، فان لقائل أن يقول : كان من الممكن مجيئهما معاً باللام فيأتيان على سنن واحد . ولاغرو في ذلك فالسؤال قائم ، والجواب العتيد عنه : أن المقصود المعتبر الأصل في هذه الأصناف هو الركوب . وأما التزين بها فأمر تابع غير مقصود قصد الركوب . فاقترن المقصود المهم باللام المفيدة للتعليل ، تنبيها على أنه أمر الغرضين وأقوى السببين وتجرد التزين منها تنبيها على تبعيته أو قصوره عن الركوب . والله أعلم

له في طيه ، وقد حمل على ما خلق في الجنة والنار ، مما لم يبلغه وهم أحد ، ولا خطر على قلبه .

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

المراد بالسبيل : الجنس ، ولذلك أضاف إليها القصد وقال ( ومنها جائر ) . والقصد مصدر بمعنى الفاعل وهو القاصد . يقال : سبيل قصد وقاصد ، أى : مستقيم ، كأنه يقصد الوجه الذى يؤمه السالك لا يعدل عنه . ومعنى قوله ﴿ وعلى الله قصد السبيل ﴾ أن هداية الطريق الموصل <sup>(١)</sup> إلى الحق واجبة عليه ، <sup>(٢)</sup> كقوله ( إن علينا للهدى ) . فإن قلت : لم غير أسلوب الكلام في قوله ﴿ ومنها جائر ﴾ ؟ قلت : ليعلم ما يجوز إضافته إليه من السبيلين وما لا يجوز ، ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة <sup>(٣)</sup> لقيل : وعلى الله قصد السبيل وعليه جائرهما أو وعليه الجائر . وقرأ عبد الله : ومنكم جائر ، يعنى : ومنكم جائر جار عن القصد بسوء اختياره ، والله يرى منه ﴿ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴾ قسراً وإلجاءً <sup>(٤)</sup> .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾

(١) قال محمود : « ومعناه أن هداية الطريق الموصل إلى الحق واجبة ... الخ » قال أحد : أين يذهب به عن تنمة الآية . وذلك قوله تعالى ( ولو شاء لهداكم أجمعين ) ولو كان الأمر كما تزعم القدرية لكأن الكلام : وقد هداكم أجمعين . وما كانهم إلا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ، فإن ذهبوا إلى تأويل الهداية بالفسر والإلجاء ، فسأكنهم إلا يحرفون الكلم من بعد مواضعه . وأما المخالفة بين الالويين ، فلأن سياق الكلام لإقامة حجة الله تعالى على الخلق بأنه بين السبيل القاصد والجائر ، وهدى قوما اختاروا الهدى ، وأضل قوما اختاروا الضلالة لأنفسهم . وقد تقدم في غير ماموضع أن كل فعل صدر على يد العبد فله اعتباران ، هو من حيث كونه موجوداً مخلوق لله تعالى ومضاف إليه بهذا الاعتبار ، وهو من حيث كونه مقترناً باختيار العبد له ويتأتى له وتيسره عليه يضاف إلى العبد ، وأن تعدد هذين الاعتبارين ثابت في كل فعل ، فناسب إقامة الحجة على العباد إضافة الهداية إلى الله تعالى باعتبار خلقه لها ، وإضافة الضلال إلى العبد باعتبار اختياره له ، والحاصل أنه ذكر في كل واحد من الفعلين نسبة غير النسبة المذكورة في الآخر ، ليناسب ذلك إقامة الحجة ( ألا لله الحجة البالغة ) والله الموفق للصواب .

(٢) قوله والطريق الموصل إلى الحق واجبة عليه ، هذا مذهب المعتزلة ولا وجوب عليه تعالى عند أهل السنة ، بل ذلك فضل منه تعالى ؛ لكن الكريم يبرز الوعد بالخير في صورة الواجب . (ع)

(٣) قوله « ولو كان الأمر كما تزعم المجبرة لقيل : وعلى الله قصد السبيل » يعنى أهل السنة من أنه تعالى يخلق الشر كالخير . وقوله « ولقيل » الخ : الملازمة بمنوعة لأن الكريم يحب الخير دون الشر ، وإن كان كل منهما من عنده ( قل كل من عند الله ) . (ع)

(٤) قوله « ولو شاء لهداكم أجمعين قسراً وإلجاءً » هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة فإنه لو شاء لهدى الكل اختياراً ، وذلك أن المعتزلة أوجبوا على الله الصلاح ، وهداية الكل صلاح ؛ فظاهر الآية يخالف مذهبهم . ولذا قالوا : إنه أراد هداية الكل ، لكن إرادة لاتنافى بتخيير العبد ، لئلا يبطل تكليفه . وهذه الإرادة لاتستلزم وقوع المراد . وأهل السنة لم يوجبوا على الله تعالى شيئاً ، وكل ما أراده الله لا بد من وقوعه . وهذه الإرادة لاتنافى اختيار العبد عندهم لما تقرر له من الكسب ، كما بين في علم التوحيد . (ع)

يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾

(لكم) متعلق بأنزل، أو بشراب، خبراً له. والشراب ما يشرب (شجر) يعني الشجر الذي ترعاه المواشي. وفي حديث عكرمة: لا تأكلوا ثمن الشجر فإنه سحت. <sup>(١)</sup> يعني السكلا (تسيمون) من سامت الماشية إذا رعت، فهي سائمة، وأسامها صاحبها، وهو من السومة وهي العلامة، لأنها تؤثر بالرعي علامات في الأرض. وقرئ: ينبت، بالياء والنون. فإن قلت: لم قيل (ومن كل الثمرات)؟ قلت: لأن كل الثمرات لا تكون إلا في الجنة، وإنما أنبت في الأرض بعض من كلها للتذكير (يتفكرون) ينظرون فيستدلون بها عليه وعلى قدرته وحكمته. والآية: الدلالة الواضحة. وعن بعضهم: ينبت، بالتشديد. وقرأ أبي بن كعب: ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب، بالرفع.

وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي سَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾

قرئت كلها بالنصب على: وجعل النجوم مسخرات. أو على أن معنى تسخيرها للناس: تصييرها نافعة لهم، حيث يسكنون بالليل، ويتنعمون من فضله بالنهار، ويعلمون عدد السنين والحساب بمسير الشمس والقمر، ويهتدون بالنجوم. فكأنه قيل: ونفعكم بها في حال كونها مسخرات لما خلقن له بأمره. ويجوز أن يكون المعنى: أنه سخرها أنواعاً من التسخير جمع مسخر، بمعنى تسخير، من قولك: سخره الله مسخراً، كقولك: سرحه مسرحاً، كأنه قيل: وسخرها لكم تسخيرات بأمره. وقرئ: ينصب الليل والنهار وحدهما، ورفع ما بعدهما على الابتداء والخبر. وقرئ: والنجوم مسخرات، بالرفع. وما قبله بالنصب، وقال (إن في ذلك آيات لقوم يعقلون) فجمع الآية. وذكر العقل: لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على القدرة الباهرة، وأبين شهادة للكبرياء والعظمة.

وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾

(١) أخرجه أبو عبيد في الأحوال عنه موقوفاً. وزاد نحوه. وروى عبدالرزاق من طريق وهب بن منبه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «انقروا السحت قالوا: وما السحت؟ قال: بيع الشجر، وثمن الحجر، وإجارة الأمة المساقفة».

﴿وما ذرأ لكم﴾ معطوف على الليل والنهار . يعنى : ما خلق فيها من حيوان وشجر وثمر وغير ذلك مختلف الهيات والمناظر .

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبُسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

﴿لحماً طرياً﴾ هو السمك ، ووصفه بالطراوة : (١) لأن الفساد يسرع إليه ، (٢) فيسارع إلى أكله خيفة للفساد عليه . فإن قلت : ما بال الفقهاء قالوا : إذا حلف الرجل لا يأكل لحماً ، فأكل سمكاً ، لم يحنث . والله تعالى ساء لحماً كما ترى ؟ قلت : مبنى الإيمان على العادة ، وعادة الناس إذا ذكر اللحم على الإطلاق أن لا يفهم منه السمك ، وإذا قال الرجل لغلامه : اشتر هذه الدراهم لحماً فجاء بالسمك ، كان حقيقاً بالإنكار . ومثاله أن الله تعالى سى الكافر دابة في قوله : إن تشر الدواب عند الله الذين كفروا . فلو حلف حالف لا يركب دابة فركب كافراً لم يحنث . ﴿حلية﴾ هى اللؤلؤ والمرجان . (٣) والمراد بلبسهم : لبس نسائهم ، لأنهن من جملتهم ، ولأنهن إنما يتزين بها من أجلهم . فكأنها زينتهم ولباسهم . المخر : شق الماء بحيزومها . وعن الفراء : هو صوت جرى الفلك بالرياح . وابتغاء الفضل : التجارة .

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾

وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾

﴿أن تميد بكم﴾ كراهة أن تميل بكم وتضطرب . والمائد : الذى يدار به إذا ركب البحر . قيل : خلق الله الأرض فجعلت تمر ، فقالت الملائكة : ما هى بمنز أحد على ظهرها ، فأصبحت وقد أرسيت بالجبال ، لم تدر الملائكة مم خلقت ﴿وأنهاراً﴾ وجعل فيها أنهاراً ، لأن (ألقى) فيه معنى : جعل . ألا ترى إلى قوله (ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً) . ﴿وعلامات﴾

(١) قوله «الطراوة» فى الصحاح : طرو اللحم . وطرى طراوة وطراء وطراة . (ع)

(٢) عاد كلامه . قال : «هو السمك ، ووصفه بالطراوة لأن الفساد يسرع إليه ... الخ» قال أحمد : فكأن ذلك تعليم لا كله وإرشاد إلى أنه لا ينبغي أن يتناول إلا طرياً . والأطباء يقولون : إن تناوله بعد ذهاب طراوته أضر شيء يكون ، والله أعلم .

(٣) قال محمود : «الحلية هى اللؤلؤ والمرجان ... الخ» قال أحمد : والله در مالك رضى الله عنه حيث جعل للزوج الحجر على زوجته فيما له بال من مالها ، وذلك مقدر بالزائد على الثلث لحقه فيه بالتجمل ، فانظر إلى مكنة حظ الرجال من مال النساء ومن زينتين ، حتى جعل المرأة من مالها وزينتها حلية له ، فعبّر عن حظه فى لبسها بلبسه ، كما يعبر عن حظها سواء ، مؤيداً بالحديث المروى فى الباب ، والله أعلم .

هي معالم الطرق وكل ما تستدل به السابلة من جبل ومنهل وغير ذلك . والمراد بالنجم : الجنس ، كقولك . كثر الدرهم في أيدي الناس . وعن السدى : هو الثريا ، والفرقدان ؛ وبنات نفض ، والجدى . وقرأ الحسن : وبالنجم ، بضمتين ، وبضمة وسكون ، وهو جمع نجم ، كرهن ورهن ، والسكون تخفيف . وقيل حذف الواو من النجوم تخفيفاً . فإن قلت : قوله ( وبالنجم هم يهتدون ) مخرج عن سنن الخطاب ، مقدم فيه ( النجم ) ، مقحم فيه ( هم ) ، كأنه قيل : وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون ، فمن المراد بـ ( هم ) ؟ قلت : كأنه أراد قريناً : كان لهم اهتداء بالنجوم في مسائرهم ، وكان لهم بذلك علم لم يكن مثله لغيرهم ، فكان الشكر أوجب عليهم ، والاعتبار ألزم لهم ، فخصصوا

أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾

فإن قلت : ( من لا يخلق ) أريد به الأصنام ، <sup>(١)</sup> فلم جئ بمن الذي هو لأولى العلم ؟ قلت : فيه أوجه ، أحدها : أنهم سموها آلهة وعبدوها ، فأجروها بجرى أولى العلم . ألا ترى إلى قوله على أثره ( والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ) والثاني : المشاكلة بينه وبين من يخلق . والثالث : أن يكون المعنى أن من يخلق ليس كمن لا يخلق من أولى العلم ، فكيف بما لا علم عنده ، كقوله ( ألهم أرجل يمشون بها ) يعني أن الآلهة حالهم منحلة عن حال من لهم أرجل وأيد وأذان وقلوب ، لأن هؤلاء أحياء وهم أموات ، فكيف تصح لهم العبادة ؟ لأنها لو صحت لهم هذه الأعضاء لصح أن يعبدوا . فإن قلت : هو إلزام للذين عبدوا الأوثان <sup>(٢)</sup> وسموها آلهة تشبيهاً بالله ، فقد جعلوا غير الخالق مثل الخالق ، فكان حق الإلزام أن يقال لهم : أفمن لا يخلق كمن يخلق ؟ قلت : حين جعلوا غير الله مثل الله في تسميته باسمه والعبادة له وسقوا بينه وبينه ، فقد جعلوا الله تعالى من جنس المخلوقات وشبيهاً بها ، فأنكر عليهم ذلك بقوله ( أفمن يخلق كمن لا يخلق )

وَأِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصَوْهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ

مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾

(١) قال محمود : « إن قلت من لا يخلق أريد به الأصنام ... الخ » قال أحد : هو تحوم على أن العباد يخلقون أفعالهم ، وأن المراد إظهار التفاوت بين من يخلق منهم ومن لا يخلق كالعاجزين والزمن ، حتى يثبت التفاوت بين من يخلق منهم وبين الأصنام بطريق الأولى ، ولقد تمكن منه الطمع حتى اعتقد أنه يثبت خلق العبد لآفعاله بتزويل الآية على هذا التأويل ، ويتمنى لو تم له ذلك .

• وما كل ما يمتنى المرء يدركه •

(٢) عاد كلامه . قال : « فإن قلت هو إلزام للذين عبدوا الأوثان وسموها آلهة تشبيهاً بالله تعالى وكان من حق الإلزام ... الخ » قال أحد : وقد تقدم الكلام في ذلك عند قوله تعالى ( وليس الذكر كالأُنثى ) فجدد بها عهداً .

﴿ لا تحسوها ﴾ لا تضبطوا عددها ولا تبلغه طاقتكم ، فضلاً أن تطيقوا القيام بحفظها من أداء الشكر ، أتبع ذلك ما عتد من نعمه تنبيهاً على أن وراءها ما لا ينحصر ولا ينعد ﴿ إن الله لغفور رحيم ﴾ حيث يتجاوز عن تقصيركم في أداء شكر النعمة ، ولا يقطعها عنكم لفريطكم ، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها ﴿ والله يعلم ما تسرون وما تعلنون ﴾ من أعمالكم ، وهو وعيد .

وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْواتٌ غَيْرُ

أَحْيَاءَ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾

﴿ والذين يدعون ﴾ والآلهة الذين يدعوهم الكفار ﴿ من دون الله ﴾ وقرئ بالتاء . وقرئ : يدعون ، على البناء للمفعول . نفي عنهم خصائص الإلهية بنفي كونهم خالقين وأحياء لا يموتون وعالمين بوقت البعث . وأثبت لهم صفات الخلق بأنهم مخلوقون وأنهم أموات وأنهم جاهلون بالغيب . ومعنى ﴿ أموات غير أحياء ﴾ أنهم لو كانوا آلهة على الحقيقة لكانوا أحياء غير أموات ، أى غير جائز عليها الموت كالحى الذى لا يموت وأمرهم على العكس من ذلك . والضمير فى ( يبعثون ) للداعين ، أى لا يشعرون متى تبعث عبادتهم . وفيه تهكم بالمشركون وأن آلهتهم لا يعلمون وقت بعثهم ، فكيف يكون لهم وقت جزاء منهم على عبادتهم . وفيه دلالة على أنه لا بد من البعث وأنه من لوازم التكليف . ووجه آخر : وهو أن يكون المعنى أن الناس يخلقونهم بالنعمة والتصور ، وهم لا يقدرُونَ على نحو ذلك ، فهم أعجز من عبادتهم أموات جمادات لا حياة فيها ، غير أحياء يعنى أن من الأموات ما يعقب موته حياة ، كالنطف التى ينشئها الله حيواناً ، وأجساد الحيوان التى تبعث بعد موتها . وأما الحجارة فأموات لا يعقب موتها حياة ، وذلك أعرق فى موتها ﴿ وما يشعرون أيان يبعثون ﴾ أى وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء تهكماً بحالها ، لأن شعور الجاد محال ، فكيف بشعور ما لا يعلمه حى إلا الحى القيوم سبحانه . ووجه ثالث : وهو أن يراد بالذين يدعون الملائكة ، وكان ناس منهم يعبدونهم ، وأنهم أموات : أى لا بد لهم من الموت ، غير أحياء : غير باقية حياتهم . وما يشعرون : ولا علم لهم بوقت بعثهم . وقرئ : إيان ، بكسر الهمزة .

إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ

(١) قوله « لأن شعور الجاد محال » أى شعوره بما يشعر به الحيوان محال ، فكيف بشعوره بما لا يعلمه حيوان وإنما يعلمه الحى القيوم ، وهو وقت البعث . ولعل فى عبارة المصنف سقطاً تقديره : شعور الجاد بما يشعر به الحيوان . (ع)

مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنْ اللَّهُ يَعْلَمَ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ  
الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

﴿إلهمك إله واحد﴾ يعنى أنه قد ثبت بما تقدم من إبطال أن تكون الإلهية لغيره ، وأنها له وحده لا شريك له فيها ، فكان من نتيجة ثبات الوجدانية ووضوح دليلها : استمرارهم على شركهم ، وأن قلوبهم منكورة للوجدانية ، وهم مستكبرون عنها وعن الإقرار بها ﴿لا جرم﴾ حقا ﴿أن الله يعلم﴾ سرهم وعلايتهم فيجازيهم ، وهو وعيد ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾ يجوز أن يريد المستكبرين عن التوحيد يعنى المشركين . ويجوز أن يعنى كل مستكبر . ويدخل هؤلاء تحت عمومته .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالَُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا  
أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ  
مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾

﴿ما ذا﴾ منصوب بأنزل ، بمعنى : أى شئ . ﴿أنزل ربكم﴾ أو مرفوع بالابتداء ، بمعنى : أى شئ . أنزله ربكم ، فإذا نصبت فعنى ﴿أساطير الأولين﴾ ما يدعون نزوله أساطير الأولين ، وإذا رفعته فالمعنى : المنزل أساطير الأولين ، كقوله ( ما ذا ينفقون قل العفو ) فيمن رفع . فإن قلت : هو كلام متناقض ، لأنه لا يكون منزل ربهم وأساطير ؟ قلت : هو على السخرية كقوله : إن رسولكم <sup>(١)</sup> وهو كلام بعضهم لبعض ، أو قول المسلمين لهم . وقيل : هو قول المقتسمين : الذين اقتسموا مداخل مكة ينفرون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا سألهم وفود الحاج عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالوا أحاديث الأولين وأباطيلهم ﴿ليحملوا أوزارهم﴾ أى قالوا ذلك إضلالا للناس وصداً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لحملوا أوزار ضلالهم ﴿كاملة﴾ وبعض أوزار من ضل بضالهم . وهو وزر الإضلال ، لأن المضل والضال شريكان : هذا يضلّه ، وهذا يطاوعه على إضلاله ، فيتحملان الوزر . ومعنى اللام التعليل من غير أن يكون غرضاً ، كقولك : خرجت من البلد مخافة الشر ﴿بغير علم﴾ حال من المفعول أى يضلون من لا يعلم أنهم ضلال وإنما وصف بالضلال واحتمال الوزر من أضلوه وإن لم يعلم لأنه كان عليه أن يبحث وينظر بعقله حتى يميز بين الحق والمبطل .

(٢) قوله «على السخرية كقوله إن رسولكم» لعله : إن رسولكم الذى أرسل إليكم ليجنون . (ع)

قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَانَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ الْقِسْمَةِ يَجْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِذْ أَلَّهِ عَلَيْهِمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَئْسَ ثَمَوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

القواعد: أساطين البناء التي تعمد به. وقيل: الأساس. وهذا تمثيل، يعني: أنهم سقوا منصوبات ليمكروا<sup>(١)</sup> بها الله ورسوله، فجعل الله هلاكهم في تلك المنصوبات، كحال قوم بنوا بنياناً وعمدوه بالأساطين، فأتى البنيان من الأساطين بأن ضعفت، فسقط عليهم السقف وهلكوا. ونحوه: من حفر لأخيه جباً وقع فيه منكباً. وقيل: هو نمرود بن كنعان حين بنى الصرح بابل طوله خمسة آلاف ذراع. وقيل فرسخان، فأهب الله الريح فخر عليه وعلى قومه فهلكوا. ومعنى إتيان الله: إتيان أمره ﴿من القواعد﴾ من جهة القواعد ﴿من حيث لا يشعرون﴾ من حيث لا يحتسبون ولا يتوقعون. وقرئ: فأتى الله بيتهم. فخر عليهم السقف، بضمين ﴿يجزيهم﴾ بذلمهم بعذاب الخزي (ربنا إنك من تدخل النار فقد أخرجني) يعني هذا لهم في الدنيا، ثم العذاب في الآخرة ﴿شركائِيَ﴾ على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم، ليوبحهم بها على طريق الاستهزاء بهم ﴿تشاققون فيهم﴾ تعادون وتخاصمون المؤمنين في شأنهم ومعناهم. وقرئ: تشاققون، بكسر النون، بمعنى: تشاققتي؛ لأن مشاققة المؤمنين كأنها مشاققة الله ﴿قال الذين أوتوا العلم﴾ هم الأنبياء والعلماء من أمهم الذين كانوا يدعونهم إلى الإيمان ويعظونهم، فلا يلتفتون إليهم ويتكبرون عليهم ويشاققونهم، يقولون ذلك شتماً بهم وحكى الله ذلك من قولهم ليكون لطفاً لمن سمعه. وقيل: هم الملائكة. قرئ: تتوفاهم، بالتاء والياء. وقرئ: الذين توفاهم، بإدغام التاء في التاء ﴿ألقوا السلم﴾ فسالوا وأخبتوا، وجاءوا بخلاف ما كانوا عليه في الدنيا من الشقاق والكبر، وقالوا: ﴿ما كنا نعمل من سوء﴾ وجحدوا ما وجد منهم من الكفر والعدوان، فرد عليهم أولو العلم ﴿إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ فهو يجازيكم عليه، وهذا أيضاً من الشتمة وكذلك ﴿فادخلوا أبواب جهنم﴾.

(١) قوله «ليمكروا بها الله ورسوله» لعل تعديده فعل المكر إلى مفعول لتضمنه معنى الخديعة. (ع)



وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ آذْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾

(خيراً) أنزل خيراً. فإن قلت: لم نصب هذا ورفع الأول؟ قلت: فصل بين جواب المقتز وجواب الجاحد، يعنى أن هؤلاء لما سئلوا لم يتلعثموا، وأطبقوا الجواب على السؤال بينا مكشوفاً مفعولاً للإزالة، فقالوا خيراً: أى أنزل خيراً، وأولئك عدلوا بالجواب عن السؤال فقالوا: هو أساطير الأولين، وليس من الإزالة فى شيء. وروى أن أحياء العرب كانوا يبعثون أيام الموسم من يأتيهم بخبر النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا جاء الوافد كيفه المقتسمون وأمره بالانصراف وقالوا: إن لم تلقه كان خيراً لك، فيقول: أنا شرّ وافد إن رجعت إلى قومي دون أن أستطلع أمر محمد وأراه، فيلقى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبرونه بصدقه، وأنه نبي مبعوث، فهم الذين قالوا خيراً. وقوله (للذين أحسنوا) وما بعده بدل من خيراً، حكاية لقوله الذين اتقوا، أى: قالوا هذا القول، فقدم عليه تسميته خيراً ثم حكاه. ويجوز أن يكون كلاماً مبتدأ عدة للقائلين، ويجعل قولهم من جملة إحسانهم وبحمدوا عليه (حسنة) مكافأة في الدنيا بإحسانهم، ولهم في الآخرة ما هو خير منها، كقوله (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة). (ولنعن دار المتقين) دار الآخرة، لخص بالمدح لتقدم ذكره. و(جنت عدن) خبر مبتدأ محذوف. ويجوز أن يكون المخصوص بالمدح (طيبين) طاهرين من ظلم أنفسهم بالكفر والمعاصي. لانه فى مقابلة ظالمى أنفسهم (يقولون سلام عليكم) قيل: إذا أشرف العبد المؤمن على الموت جاءه ملك فقال: السلام عليك ياولى الله، الله يقرأ عليك السلام، وبشره بالجنة

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾ (تأتيهم الملائكة) قرئ بالياء والياء، يعنى: أن تأتيهم لقبض الأرواح. و(أمر ربك)

العذاب المستأصل ، أو القيامة ( كذلك ) أى مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب ( فعل )  
الذين من قبلهم وما ظلمهم الله ( بتدميرهم ) ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ( لأنهم فعلوا  
ما اسنوجوا به التدمير ) سيئات ما عملوا ( جزاء سيئات أعمالهم . أو هو كقوله ) ( جزاء  
سيئة سيئة مثلاً )

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا  
آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَبَلَ عَلَى

### الرُّسُلُ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥)

هذا من جملة ما عُدَّ من أصناف كفرهم وعنادهم ، من شركهم بالله وإنكار وحدانيته بعد  
قيام الحجج وإنكار البعث واستعجاله ، استهزاء منهم به وتكذيبهم الرسول ، وشقاقهم ،  
واستكبارهم عن قبول الحق ، يعنى : أنهم أشركوا بالله وحرموا ما أحل الله ، من البحيرة والسائبة  
وغيرهما ، ثم نسبوا فعلهم إلى الله وقالوا : لو شاء لم نفعل ، وهذا مذهب المجبرة بعينه (١)  
( كذلك فعل الذين من قبلهم ) أى أشركوا وحرموا حلال الله (٢) ، فلما نهوا على قبح فعلهم

(١) قوله « وقالوا لو شاء الله لم نفعل » ، وهذا مذهب المجبرة بعينه ، يعنى أهل السنة ، وليس كما قال ، بل قاله  
المشركون استهزاء ، وأهل السنة اعتقاداً ، كما أفاده النسخ . وكل ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، شراً كان  
أو خيراً . وكل أمر بقضائه تعالى وقدره ، شراً كان أو خيراً . وهو الخالق لأفعال العباد وإنت كانت يكسبهم  
واختيارهم ، خلافاً للمعتزلة في جميع ذلك ، كما أطلت به فيما سأتى هنا انتصاراً للمعتزلة . ( ع )

(٢) قال محمود : « يعنى أنهم أشركوا بالله وحرموا ما أحل الله ... الخ » قال أحمد : قد تكرر منه مثل هذا الفصل  
في أخت الآية المتقدمة في سورة الأنعام ، وقد قدمنا حيث مذ فيه مقتع إن شاء الله ، والذي زاده هنا ثبت معتقده  
على زعمه بقوله تعالى ( ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ) ووجه تمسكه به أن الله  
تعالى قسم العبادة إلى قسمين : مأمور به ومنهى عنه . والأمر والنهى عند المصنف راجعان إلى المهيمنة بناء على زعم  
القدرية في إنكار كلام النفس وحمل الاقتضاء على الإرادة ، فالخالف حيث مذ من هذه التهمة أن الله شاء عبادة الخلق  
له وشاء اجتنابهم عبادة الطاغوت ، ولم يشأ منهم أن يشركوا به ، وأخبر بهذه المشيئة على لسان كل رسول بعثه إلى  
أمة من الأمم ، فجاءت التهمة مترجمة عن معنى صدر الآية ، مؤكدة بمقتضاها . هذا هو الذى زاده المصنف منها ،  
وقد بينا أن مبناه على إنكار كلام النفس الثابت قطعاً ، فهو باطل جزماً . والعجب أن الله تعالى أوضح في الآيتين  
جبراً أن الذى أنكره من القائلين ( لو شاء الله ما أشركنا ) إنما هو احتجاجهم على الله تعالى بمشيئته التى لا حجة لهم  
فيها ، مع ما خلق لهم من الاختيار بقوله منها ( فتنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ) وبقوله في آخر آية  
الأنعام ( والله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ) فتبين فيما أنه هو الذى شاء منهم الإشراك والضلالة ، ولو شاء  
هدايتهم أجمعين لاهدوا عن آخرهم . وحصل من هذا البيان : صرف الإنكار عليهم إلى غير نسبة المشيئة لله تعالى ،  
وذلك هو الذى قدمناه في إقامتهم الحجة على الله بمشيئته مع أن حجبتهم في ذلك داحضة ، والله عليهم الحجة البالغة  
الواضحة ، والله الموفق .

وَرَكَّوْهُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ ۚ (فهل على الرسل) إلا أن يبلغوا الحق، وأن الله لا يشاء الشرك والمعاصي بالبيان والبرهان. ويطلعوا على بطلان الشرك وقبحه وبراءة الله تعالى من أفعال العباد، وأنهم فاعلوها بقصدهم وإرادتهم واختيارهم. والله تعالى باعثهم على جميلها وموفقهم له، وزاجرهم عن قبيحها وموعدهم عليه.

وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطُّغُوتَ فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَىٰ اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذِبِينَ ﴿٣٦﴾

ولقد أمد إبطال قدر السوء ومشية الشر بأنه ما من أمة إلا وقد بعث فيهم رسولا يأمرهم بالخير الذي هو الإيمان وعبادة الله، وباجتناب الشر الذي هو طاعة الطاغوت (فمنهم من هدى الله) أى لطف به لأنه عرفه من أهل اللطف (ومنهم من حقَّت عليه الضلالة) أى ثبت عليه الخذلان والترك من اللطف، لأنه عرفه مصمما على الكفر لا يأتى منه خير (فسيروا في الأرض فانظروا) ما فعلت بالمكذِبِينَ حتى لا يبقى لكم شبهة فى أنى لا أقدر الشر ولا أشاؤه، حيث أفعل ما أفعل بالأشرار.

إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٧﴾  
ثم ذكر عناد قریش وحرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على إيمانهم، وعزفه عنهم من قسم من حقَّت عليه الضلالة، وأنه (لا يهدي من يضل) أى لا يُلطف بمن يخذل، لأنه عبث، والله تعالى متعال عن العبث؛ لأنه من قبيل القبائح التى لا تجوز عليه. وقرئ: لا يهدي<sup>(١)</sup>، أى: لا تقدر أنت ولا أحد على هدايته وقد خذله الله. وقوله (وما لهم من ناصرين) دليل على أن المراد بالإضلال: الخذلان الذى هو نقيض النصرة. ويجوز أن يكون (لا يهدي) بمعنى لا يهتدى. يقال: هداه الله فهدى. وفى قراءة أبى: فإن الله لا هادى لمن يضل، ولمن أضل<sup>(٢)</sup>، وهى معاضدة لمن قرأ (لا يهدي) على البناء للفعول. وفى قراءة عبد الله: يهدى، بإدغام تاء يهتدى، وهى معاضدة للأولى. وقرئ (يضل) بالفتح. وقرأ النخعي: إن تحرص، بفتح الراء، وهى لغية.

(١) قوله «وَرَكَّوْهُ عَلَىٰ رِجْلَيْهِ» أى اتهمه به. (ع)

(٢) قوله «وَقَرَأَ لَا يَهْدِي» أى بالبناء المجهول، كما أفاده النسخ. (ع)

(٣) قوله «وَقَرَأَ قِرَاءَةً أُخْرَى» أى: فأتى الله لا هادى لمن يضل ولمن أضل، ظاهره أن هذه قراءة أخرى لأبى،

فليحذر. (ع)

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِمْ حَقًّا  
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لَيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ  
الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾

(وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ) معطوف على (وقال الذين أشركوا) إيداناً بأنهما كفرتان عظيمتان  
موصوفتان، حقيقتان بأن تحكما وتدقنا: توريك ذنوبهم على مشيئة<sup>(١)</sup> الله، وإنكارهم البعث  
مقسمين عليه. و(بلى) إثبات لما بعد النفي، أى: بلى يبعثهم. ووعد الله: مصدر مؤكد  
لما دل عليه بلى، لأن يبعث موعود من الله، وبين أن الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في  
الحكمة (ولكن أكثر الناس لا يعلمون) أنهم يبعثون أو أنه وعد واجب<sup>(٢)</sup> على الله؛ لأنهم  
يقولون: لا يجب على الله شيء، لا ثواب عامل ولا غيره من مواجب الحكمة (ليبين لهم)  
متعلق بما دل عليه بلى، أى يبعثهم ليبين لهم. والضمير لمن يموت، وهو عام للمؤمنين  
والكافرين، والذي اختلفوا فيه هو الحق (وليعلم الذين كفروا أنهم) كذبوا في قولهم:  
لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء، وفي قولهم: لا يبعث الله من يموت. وقيل: يجوز أن يتعلق  
بقوله (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا) أى بعثناه ليبين لهم ما اختلفوا فيه، وأنهم كانوا على الضلالة  
قبله، مفترين على الله الكذب.

إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

(قولنا) مبتدأ، و(أن نقول) خبره. (كن فيكون) من كان التامة التي بمعنى الحدوث  
والوجود، أى: إذا أردنا وجود شيء فليس إلا أن نقول له: احدث، فهو يحدث عقيب ذلك  
لا يتوقف، وهذا مثل لأن مراداً لا يمتنع عليه، وأن وجوده عند إرادته تعالى غير متوقف،  
كوجود المسامير به عند أمر الأمر المطاع إذا ورد على المسامير المطيع الممثل، ولا قول ثم.  
والمعنى: أن إيجاد كل مقدور على الله تعالى بهذه السهولة، فكيف يمتنع عليه البعث الذي هو من  
شق المقدورات. وقرئ: فيكون، عطفاً على (نقول).

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَ  
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

(١) قوله «توريك ذنوبهم على مشيئة الله» أى نسبة ذنوبهم إلى مشيئته تعالى وإتاهما بها. (ع)

(٢) قوله «أو أنه وعد واجب على الله... إلخ» الكلام في الكفار. وعرض فيه المصنف بأهل السنة تعصبا  
للحزلة في قولهم بوجوب الصلاح عليه تعالى فأفهم. (ع)

﴿والذين هاجروا﴾ هم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ظلهم أهل مكة ففروا بدينهم إلى الله ، منهم من هاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة لجمع بين الهجرتين . ومنهم من هاجر إلى المدينة . وقيل : هم الذين كانوا محبوسين معذبين بعيد هجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلما خرجوا تبعوهم فردوهم : منهم بلال ، وصهيب ، وخباب ، وعمار . وعن صهيب أنه قال لهم : أنا رجل كبير ، إن كنت معكم لم ألقكم ، وإن كنت عليكم لم أضركم ، فافقدى منهم بماله وهاجر ، فلما رآه أبو بكر رضى الله عنه قال له : ربح البيع يا صهيب . وقال له عمر : نعم الرجل صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه ، وهو ثناء عظيم : يريد لو لم يخلق الله تاراً لأطاعه (١) ، فكيف ﴿فى الله﴾ فى حقه ولوجه ﴿حسنة﴾ صفة للبصير ، أى لنبوأنهم تبوءة حسنة . وفى قراءة على رضى الله عنه : لتتوبنهم . ومعناه : أنوأة حسنة . وقيل : لنزلنهم فى الدنيا منزلة حسنة ، وهى الغلبة على أهل مكة الذين ظلّوهم ، وعلى العرب قاطبة ، وعلى أهل المشرق والمغرب . وعن عمر رضى الله عنه أنه كان إذا أعطى رجلاً من المهاجرين عطاء قال : خذ بارك الله لك فيه ، هذا ما وعدك ربك فى الدنيا ، وما ذخرك فى الآخرة أكثر . وقيل : لنبوأنهم مباءة حسنة وهى المدينة ، حيث آواهم أهلها ونصروهم ﴿لو كانوا يعلمون﴾ الضمير للكفار ، أى : لو علموا أن الله يجمع هؤلاء المستضعفين فى أيديهم الدنيا والآخرة ، لرغبوا فى دينهم . ويجوز أن يرجع الضمير إلى المهاجرين ، أى : لو كانوا يعلمون ذلك لزدادوا فى اجتهادهم وصبرهم ﴿الذين صبروا﴾ على : هم الذين صبروا . أو أعنى الذين صبروا ، وكلاهما مدح ، أى : صبروا على العذاب وعلى مفارقة الوطن الذى هو حرم الله المحبوب فى كل قلب ، فكيف بقلوب قوم هو مسقط رؤسهم ، وعلى المجاهدة وبذل الأرواح فى سبيل الله .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾

قالت قریش : الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فقيل ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً يوحي إليهم﴾ على السنة الملائكة ﴿فاستلوا أهل الذکر﴾ وهم أهل الكتاب ، ليعلموكم أن الله لم يبعث إلى الأمم السالفة إلا بشراً . فإن قلت : بهم تعلق قوله ﴿بالبينات﴾ ؟ قلت : له متعلقات شتى ، فاما أن يتعلق بما أرسلنا داخل تحت حكم الاستثناء مع رجالاً أى : وما أرسلنا

(١) قوله لو لم يخلق الله تاراً لأطاعه فكيف ، أى فكيف لا يطيعه . وقد خلقها لمن عصى . (ع)

إلأرجالا بالبينات ، كقولك : ماضرت إلأزيداً بالسوط ، لأن أصله : ضربت زيداً بالسوط وإما برجالا ، صفة له : أى رجالا ملتجئين بالبينات . وإما بأرسلنا مضمرأ . كأنما قيل : هم أرسلوا ؟ فقلت بالبينات ، فهو على كلامين ، والأول على كلام واحد . وإما يوحى ، أى : يوحى إليهم بالبينات . وإما بلا تعلمون . على أن الشرط فى معنى التبكيت والإلزام ، كقول الأجير : إن كنت عملت لك فأعطني حق . وقوله ( فاستلوا أهل الذكر ) اعتراض على الوجوه المتقدمة ، وأهل الذكر : أهل الكتاب . وقيل للكتاب الذكر ؛ لأنه موعظة وتنبيه للغافلين ﴿ مازل إليهم ﴾ يعنى مازل الله إليهم فى الذكر عما أمروا به ونهوا عنه ووعدوا وأوعدوا ﴿ ولعلمهم يتفكرون ﴾ وإرادة أن يصغوا إلى تنبيهاته فيقننوها ويتأملوا .

أَقَامِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَاتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِيمٍ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾

﴿ مكروا السيئات ﴾ أى المكرات السيئات ، وهم أهل مكة ، وما مكروا به رسول الله صلى الله عليه وسلم <sup>(١)</sup> ﴿ فى تقليم ﴾ متقلبين فى مساربهم ومتاجرهم وأسباب دنياهم ﴿ على تخوف ﴾ متخوفين ، وهو أن يهلك قوما قبلهم فيتخوفوا فيأخذهم بالعذاب وهم متخوفون متوقعون ، وهو خلاف قوله ( من حيث لا يشعرون ) وقيل : هو من قولك : تخوفته وتخوته ، إذا تنقصته : قال زهير :

تَخَوُّفَ الرَّحْلِ مِنْهَا تَائِمًا قَرَدًا كَمَا تَخَوُّفَ عُودِ النَّبْعَةِ السَّقْنُ <sup>(٢)</sup>

أى يأخذهم على أن ينقصهم شيئاً بعد شئ . فى أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا . وعن عمر رضى الله عنه . أنه قال على المنبر : ماتقولون فيها ؟ فسكتوا فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا : التخوف :

(١) قوله « وما مكروا به رسول الله صلى الله عليه وسلم » ضمن المكر معنى الخدع ، فعدى إلى المفعول . (ع)  
(٢) لأن كبر الهذلى . وقيل لزهير . والتخوف : التنقص شيئاً فشيئاً . وللتامك : السنام المرتفع . والقرد : الذى أكله القراد من كثرة أسفاره . أو الذى تنقب وفسد من الرحل فى السفر . والنبة : واحدة النبع ، وهو شجر تتخذ منه القسي . وبرى : ظهر النبة . والسفن : المبرد الحديد الذى ينحت به الخشب ، بقول : تنقص رحلها سنامها المرتفع الذى تنقب من كثرة السفر ، كما تنقص المبرد عود النبة . وفيه تشبيهها فى الصلابة . وروى أن عمر قال على المنبر : ماتقولون فى قوله تعالى ( أو يأخذكم على تخوف ) فسكتوا ، فقال شيخ من هذيل : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص ، وأنشد البيت . فقال عمر : عليكم يدوانكم لاتضلوا . قالوا : وما دياننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم .

الشفص . قال : فهل تعرف العرب ذلك في أشعارها ؟ قال : نعم ، قال شاعرنا . وأنشد البيت . فقال عمر : أيها الناس ، عليكم بديوانكم لا يضل . قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ﴿ فَإِنْ رَبِّكُمْ لَرْؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ حيث يحلم عنكم ، ولا يعاجلكم مع استحقاقكم .  
أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَوَّضُوا ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ  
سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾

قرئ : أو لم يروا . ويتفوضوا ، بالياء والتاء . و(ما) موصولة بخلق الله ، وهو مبهم بيانه ﴿ من شيء يتفوضوا ظلاله ﴾ . واليمين ، بمعنى الإيمان . و﴿ سجدوا ﴾ حال من الظلال . ﴿ وهم داخرون ﴾ حال من الضمير في ظلاله ، لأنه في معنى الجمع وهو ما خلق الله من كل شيء له ظل ، وجمع بالواو ، لأن الدخور من أوصاف العقلاء ، أو لأن في جملة ذلك من يعقل فقلب . والمعنى : أو لم يروا إلى ما خلق الله من الأجرام التي لها ظلال متفوضة عن أيمانها وشمائنها ، أى عن جانبي كل واحد منها . وشقيه استعارة من يمين الإنسان وشماله للجانبين الشيء ، أى : ترجع الظلال من جانب إلى جانب منقادة الله ، غير ممتنعة عليه فيما سخرها له من التفويض ، والأجرام في أنفسها داخرة أيضاً ، صاغرة منقادة لأفعال الله فيها ، لا تمتنع .

وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

﴿ من دابة ﴾ يجوز أن يكون بيانا لما في السموات وما في الأرض جميعا ، على أن في السموات خلقا لله يدبون فيها كما يدب الاناس في الأرض ، وأن يكون بيانا لما في الأرض وحده ، ويراد بما في السموات : الخلق الذي يقال له الروح ، وأن يكون بيانا لما في الأرض وحده ، ويراد بما في السموات : الملائكة . وكثر ذكرهم على معنى : والملائكة خصوصا من بين الساجدين : لأنهم أطوع الخلق وأعبدهم . ويجوز أن يراد بما في السموات : ملائكتهم . وبقوله والملائكة : ملائكة الأرض من الحفظة وغيرهم . فإن قلت : سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف بسجود غيرهم ، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد ؟ قلت : المراد بسجود

(١) قال محمود : « إن قلت سجود المكلفين مما انتظمه هذا الكلام خلاف سجود غيرهم ، فكيف عبر عن النوعين بلفظ واحد ... الخ ؟ قال أحد : وهذا ما يتسك به لمن اختار تناول اللفظ الواحد لحقيقته ومجازه شمو لا ولم يرد ذلك متناقضا ، فإن السجود يتناول هل المكلف حقيقة يتناول حال غير المكلف بطريق مجاز التشبيه ، وقد أريد جميعا من الآية ، والزمخشري ينكر ذلك في مواضع مررت عليها من كتابه ، وهذا ظاهر مراده ههنا أن السجود عبارة عن قدر مشترك بين فعل المكلف وحال غير المكلف ، وهو عدم الامتناع عند القدرة ، وغرضه من =

المكلفين : طاعتهم وعبادتهم ، وبسجود غيرهم : انقياده لإرادة الله وأنها غير ممتنعة عليها ، وكلا السجودين يجمعها معنى الانقياد فلم يختلفا ، فلذلك جاز أن يعبر عنهما بلفظ واحد . فإن قلت : فهلا جئ به من دون هاء تغليبا للعقلاء من الدواب على غيرهم ؟ قلت : لأنه لو جئ به من لم يكن فيه دليل على التغليب ، فكان متناولا للعقلاء خاصة . فجئ بهما هو صالح للعقلاء وغيرهم ، إرادة العموم ( يخافون ) يجوز أن يكون حالا من الضمير <sup>(١)</sup> في ( لا يستكبرون ) أى : لا يستكبرون خائفين ، وأن يكون بيانا لنفي الاستكبار وتأكيده ؛ لأن من خاف الله لم يستكبر عن عبادته ( من فوقهم ) إن علقته بيخافون ، فعنائه : يخافونه أن يرسل عليهم عذابا من فوقهم . وإن علقته برهبهم حالا منه فعنائه : يخافون ربهم عاليا لهم قاهرا ، كقوله ( وهو القاهر فوق عباده ) ، ( وإنا فوقهم قاهرون ) وفيه دليل على أن الملائكة مكلفون مدارون على الأمر والنهي والوعود والوعيد كسائر المكلفين ، وأنهم بين الخوف والرجاء .

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِلَّا هُنَّ آتَيْنِ إِيَّاهُ وَاحِدٌ قَائِلًا فَارْهَبُونِ ٥١

فإن قلت : إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنين ، فقالوا عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة ؛ لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص . وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان . فمعدودان فهما دلالة على العدد . فلا حاجة إلى أن يقال : رجل واحد ورجلان اثنان ، فواجه قوله إلهين اثنين <sup>(٢)</sup> ؟ قلت : الاسم الحامل لمعنى الإفراد والتثنية دال على شيئين : على الجنسية والعدد المخصوص . فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما ، والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده ، فدل به على القصد إليه والعناية به . ألا ترى أنك لو قلت : إنما هو إله ، ولم تؤكده بواحد : لم يحسن ، وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية ( فإياي فارهبون ) نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم ، وجاز لأن الغالب هو المتكلم . وهو من طريقة الالتفات ، وهو أبلغ في الترهيب من قوله : وإياه فارهبوه . ومن أن يجيء ما قبله على لفظ المتكلم .

== ذلك أن يكون اللفظ متواظفا فهما جميعا ، ليس من الجمع بين الحقيقة والجاز ، لأنه يأتى ذلك ، ولا يتم له هذا المقصد في الآية - والله أعلم - لأن كونها آية سجدة يدل على أن المراد من السجود المذكور فيها منسوبا للمكلفين هو الفعل الخاص المتعارف شرعا ، الذى يكون ذكره سببا لفعله سببية معتادة في عزائم السجود . لا القدر الأعم المشترك ، والله أعلم .

(١) قال محمود : « يجوز أن يكون حالا من الضمير ... الخ » قال أحد : هذا الثانى هو الوجه ليس الأول . وأما الحال فيطى انتقالا ، ويومئ نفي عدم استكبارهم . مع أن الواقع أرفع استكبارهم مطلق غير مقيد بحال . والله الموفق .

(٢) قال محمود : « إن قلت ما فائدة قوله اثنين مع إغناء التثنية عن ذلك ... الخ » قال أحد : وهذا الفصل من حسناته التى لا يدافع عنها ، والله الموفق .



وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾

(الدِّينُ) الطاعة (وَاصِبًا) حال عمل فيه الظرف. والواصب: الواجب الثابت؛ لأن كل نعمة منه فالطاعة واجبة له على كل منعم عليه. ويجوز أن يكون من الوصب، أى: وله الدين ذا كلفة مشقة، ولذلك سمي تكليفاً. أو: وله الجزاء ثابتاً دائماً سرمداً لا يزول، يعنى الثواب والعقاب.

وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾

ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾

لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ فَتَمَتُّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ) أى: شئ حل بكم، أو اتصل بكم من نعمة، فهو من الله (فإليه تجأرون) فما تتضرعون إلا إليه. والجوار: رفع الصوت بالدعاء والاستغاثة. قال الأعشى يصف راهباً:

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيكِ طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارًا (١)

وقرى: تجرون، بطرح الهمزة وإلقاء حركتها على الجيم. وقرأ قتادة: كاشف الضر على: فاعل بمعنى فعل، وهو أقوى من كشف؛ لأن بناء المغالبة يدل على المبالغة. فإن قلت: فما معنى قوله: (إذا فريق منكم بربههم يشركون)؟ قلت: يجوز أن يكون الخطاب في قوله (وما بكم من نعمة فمن الله) عاماً، ويريد بالفريق: فريق الكفرة وأن يكون الخطاب للمشركين ومنكم للبيان، لا للتبعض. كأنه قال: فإذا فريق كافر، وهم أنتم. ويجوز أن يكون فيهم من اعتبر، كقوله (فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصد)، (ليكفروا بما آتيناهم) من نعمة الكشف عنهم،

(١)

وما آبل على هيك

يراجح من صلوات المليك

بك طور اسجودا وطورا جؤارا

إذا النسمات تفيض النبارا

للاعشى. والآبل: الراهب، نسبة إلى آبل وهو قيم البيعة. والهيكل: بيت الصنم. وصلب: أى صور الصليب. وألف صاراً للاطلاق. ويراجح: خبره، وإن لم عليه التضمين مراعاة لجزالة المعنى، والمراوحة في العمل: الانتقال من حالة إلى أخرى. والصلوات: الدعوات. والسجود: الانخفاض والخشوع. والجوار: رفع الصوت بالدعاء. وبأعظم: خبر آبل. وتيق: تميز. يقول: ليس الراهب الماكف على هيكله الذى صور فيه الصليب، وصار يتابع ويتقل من بعض دعوات الله إلى بعض، فتارة يسجد سجوداً، وتارة يجأر جؤاراً، فتعاد أعظم من تذاك يوم الحساب إذا قام الناس من قبورهم، فنفضهم النبار: كناية عن ذلك.

كَأَنَّهُمْ جَعَلُوا غُرُضَهُمْ فِي الشَّرْكِ كُفْرَانَ النِّعْمَةِ ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تَخْلِيَةً وَوَعِيداً . وَقُرْئُ : فَيَمْتَعُوا ، بِالْيَاءِ مَبْنِيًّا لِلْفِعُولِ ، عَطْفًا عَلَى (لِيَكْفُرُوا) وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ : لِيَكْفُرُوا فَيَمْتَعُوا ، مِنْ الْأَمْرِ الْوَارِدِ فِي مَعْنَى الْخُذْلَانِ وَالتَّخْلِيَةِ ، وَاللَّامُ لَامُ الْأَمْرِ .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيْبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَنْهُ كُنْتُمْ

تَقْتَرُونَ ﴿٥٦﴾

(لِمَا لَا يَعْلَمُونَ) أَي لَأَهْلِهِمْ . وَمَعْنَى لَا يَعْلَمُونَهَا : أَنَّهُمْ يَسْمُونَهَا آلِهَةً ، وَيَعْتَقِدُونَ فِيهَا أَنَّهَا تُضُرُّ وَتَنْفَعُ وَتُسْفَعُ عِنْدَ اللَّهِ ، وَلَيْسَ كَذَلِكَ . وَحَقِيقَتُهَا أَنَّهَا جُمَادٍ لَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ ، فَهِيَ إِذَا جَاهَلُونَ بِهَا . وَقِيلَ : الضَّمِيرُ فِي (لَا يَعْلَمُونَ) لِلْآلِهَةِ . أَي : لِأَشْيَاءٍ غَيْرِ مَوْصُوفَةٍ بِالْعِلْمِ ، وَلَا تَشْعُرُ أَجْعَلُوا لَهَا نَصِيْبًا فِي أَنْعَامِهِمْ وَزُرُوعِهِمْ أَمْ لَا ؟ وَكَانُوا يَجْعَلُونَ لَهُمْ ذَلِكَ تَقَرُّبًا إِلَيْهِمْ (لَتُسْأَلُنَّ) وَوَعِيدٌ ﴿عَمَّا كُنْتُمْ تَقْتَرُونَ﴾ مِنَ الْإِفْكِ فِي زَعْمِكُمْ أَنَّهَا آلِهَةٌ ، وَأَنَّهَا أَهْلٌ لِلتَّقَرُّبِ إِلَيْهَا .

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ

بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ

مَا بُشِّرَ بِهِ أُمَسِّكُهَا عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾

كَانَتْ خِزَاعَةً وَكِنَانَةً يَقُولُ : الْمَلَائِكَةُ بَنَاتُ اللَّهِ ﴿سُبْحَانَهُ﴾ تَنْزِيهِ لِدَاتِهِ مِنْ نِسْبَةِ الْوَالِدِ إِلَيْهِ . أَوْ تَعْجَبُ مِنْ قَوْلِهِمْ ﴿لَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ يَعْنِي الْبَنِينَ . وَيَجُوزُ فِي (مَا يَشْتَهُونَ) الرِّفْعُ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ ، وَالنَّصَبُ عَلَى أَنْ يَكُونَ مَعْطُوفًا عَلَى الْبَنَاتِ ، أَي : وَجْعَلُوا لِأَنْفُسِهِمْ مَا يَشْتَهُونَ مِنَ الذَّكَورِ . وَ(ظَلَّ) بِمَعْنَى صَارَ <sup>(١)</sup> كَمَا يَسْتَعْمَلُ بَاتٌ وَأَصْبَحَ وَأَمْسَى بِمَعْنَى الصَّيْرُورَةِ . وَيَجُوزُ أَنْ يَجِيءَ ظَلَّ : لِأَنَّ أَكْثَرَ الْوَضْعِ يَتَّفِقُ بِاللَّيْلِ ، فَيُظِلُّ نَهَارُهُ مَغْتَمًا مَرِيدَ الْوَجْهِ <sup>(٢)</sup> مِنَ السَّكَايَةِ وَالْحَيَاءِ مِنَ النَّاسِ ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مَمْلُوءٌ حَقِيقًا عَلَى الْمَرْأَةِ ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ﴾ يَسْتَخْفِي مِنْهُمْ ﴿مِنْ﴾ أَجْلِ ﴿سُوءِ﴾ الْمُبَشِّرِ بِهِ ، وَمِنْ أَجْلِ تَعْيِيرِهِمْ وَيَحْدِثُ نَفْسَهُ وَيَنْظُرُ أَيْمَسَّكَ مَا بُشِّرَ بِهِ ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾

(١) قَالَ مُحَمَّدٌ : «ظَلَّ بِمَعْنَى صَارَ» قَالَ أَحْمَدُ : وَجَازٌ أَنْ يَرَادَ الطُّولُ نَهَارًا لِقَصْدِ الْمُبَالَغَةِ فِي وَصْفِهِمْ بِالْعِنَادِ وَالْإصرَارِ وَأَنَّهُمْ لَوْ عَرَجُوا نَهَارًا فِي الْوَقْتِ الَّذِي لَا يَتَغَايَىٰ عَلَى الْبَصَرِ فِيهِ شَيْءٌ إِلَى السَّمَاءِ لَتَنَادَوْا عَلَى كُفْرِهِمْ وَتَسْكَذِبِهِمْ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

(٢) قَوْلُهُ «وَيَجُوزُ أَنْ يَجِيءَ ظَلَّ ... الخ» أَي يَرُدُّ وَيَسْتَعْمَلُ فِي الْآيَةِ بِمَعْنَاهِ الْأَصْلِي ، وَهُوَ أَنْصَافُ الشَّيْءِ .  
(٣) قَوْلُهُ «لَا أَكْثَرَ الْوَضْعِ ... الخ» وَمَرِيدُ الْوَجْهِ : مُتَعَبُهُ مِنَ الْغَضَبِ ، كَمَا يُفِيدُهُ الصَّحَاحُ . (ع)

على هوان وذل (أم يدسه في التراب) أم يئده<sup>(١)</sup>. وقرئ: أيمسكها على هون أم يدسها، على التأنيث. وقرئ: على هوان (ألا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون الولد الذي هذا محله عندهم لله، ويجعلون لأنفسهم من هو على عكس هذا الوصف.

لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

(مثل السوء) صفة السوء: وهي الحاجة إلى الأولاد الذكور وكراهة الإناث ووأدهن خشية الإملاق، وإقرارهم على أنفسهم بالشح البالغ (ولله المثل الأعلى) وهو الغنى عن العالمين، والتزاهة عن صفات المخلوقين وهو الجواد الكريم.

وَأَوْ يُوَٰخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾

(بظلمهم) بكفرهم ومعاصيهم (ماترك عليها) أي على الأرض (من دابة) قط ولاهلكها كلها بشؤم ظلم الظالمين. وعن أبي هريرة: أنه سمع رجلا يقول: إن الظالم لا يضر إلا نفسه، فقال: بلى والله، حتى أن الجباري تموت في وكرها بظلم الظالم<sup>(٢)</sup>. وعن ابن مسعود: كاد الجمل يهلك في جحره بذنوب ابن آدم<sup>(٣)</sup>. أو من دابة ظالمة. وعن ابن عباس (من دابة) من مشرك يدب عليها. وقيل: لو أهلك الآباء بكفرهم لم تكن الأبناء.

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَآجِرَمَ

أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾

(ويجعلون لله ما يكرهون) لأنفسهم من البنات ومن شركاء في رياستهم، ومن الاستخفاف برسلمهم<sup>(٤)</sup>

(١) قوله «أم يئده» أي يدنه في القبر حيا . (ع)

(٢) أخرجه الطبري والبيهقي في الشعب التاسع والأربعين . وفي إسناده محمد بن جابر التميمي . وهو متروك .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة والحاكم والطبراني من طريق أبي الأحوص قال : قرأ ابن مسعود (ولو يؤاخذ الله الناس - الآية) قال : كاد الجمل يعذب في جحره بذنوب ابن آدم .

(٤) قال محمود : والمراد بما يكرهونه البنات ، وشركاء في رياستهم ، واستخفاف برسلمهم . . . الخ ، قال أحد : ونقيض هؤلاء من إذا أعجبه شيء من ماله جعله لله ، بل إذا أحب أمة له اعتقها ، وإذا اشتى طعاما قدم إليه تصدق به على جبه ، وإنما ينقل مثل هذا عن السلف الصالح من الصحابة ، كابن عمر ونظرانه ومن تابعهم فيها ، ويجعلون لله ما يشتهون . اللهم إن لم تنل رتبة أوليائك فأنلنا محبتهم ، فن أحب قوما حشر معهم .

والتهاون برسالاتهم . ويجعلون له أرذل أموالهم ولاصنامهم أكرمها ﴿وتصف ألسنتهم﴾ مع ذلك ﴿أن لهم الحسنی﴾ عند الله كقوله (ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده الحسنی) . وعن بعضهم أنه قال لرجل من ذوى اليسار : كيف تكون يوم القيامة إذا قال الله تعالى : هاتوا مادفع إلى السلاطين وأعوانهم ، فيؤتى بالدواب والثياب وأنواع الاموال الفاخرة . وإذا قال : هاتوا مادفع إلى فيؤتى بالكسر والحرق وما لا يؤبه له ، أما تستحي من ذلك الموقف ؟ وقرأ هذه الآية . وعن مجاهد : أن لهم الحسنی ، هو قول قريش : لنا البنون ، وأن لهم الحسنی : بدل من الكذب . وقرئ (الكذب) جمع كذوب ، صفة الألسنة ﴿مفرطون﴾ قرئ مفتوح الراء ومكسورها مخففاً ومشدداً ، فالمفتوح بمعنى مقدمون إلى النار معجلون إليها ، من أفرطت فلانا ، وفزطته في طلب الماء ، إذا قدمته . وقيل . منسيون متروكون ، من أفرطت فلانا خلت إذا خلفته ونسيته . والمكسور المخفف ، من الإفراط في المعاصي . والمشدد ، من التفريط في الطاعات وما يلزمهم .

ثَالِثًا لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ وَآلَهُمْ

الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾

﴿فهو وليهم اليوم﴾ حكاية الحال الماضية التي كان يزين لهم الشيطان أعمالهم فيها . أو فهو وليهم في الدنيا فجعل اليوم عبارة عن زمان الدنيا . ومعنى (وليهم) قرينهم وبئس القرين . أو يجعل (فهو وليهم اليوم) حكاية للحال الآتية ، وهي حال كونهم معذبين في النار ، أى فهو ناصرهم اليوم لناصر لهم غيره ، نفيًا للناصر لهم على أبلغ الوجوه . ويجوز أن يرجع الضمير إلى مشركي قريش ، أنه زين للكفار قبلهم أعمالهم ، فهو ولي وهؤلاء ؛ لأنهم منهم . ويجوز أن يكون على حذف المضاف ، أى : فهو ولي أمثالهم اليوم .

وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً

لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾

﴿وهدى رحمة﴾ معطوفان على محل (لتبين) إلا أنهما انتصبا على أنهما مفعول لهما ؛ لأنهما فعلا الذى أنزل الكتاب . ودخل اللام على لتبين : لأنه فعل المخاطب لا فعل المنزل . وإنما ينتصب مفعولا له ما كان فعل فاعل الفعل المعلل . والذى اختلفوا فيه : البعث ؛ لأنه كان فيهم من يؤمن به ، ومنهم عبد المطلب ، وأشياء من التحريم والتحليل والإنكار والإقرار ﴿لِقَوْمٍ

يسمعون) سماع إنصاف وتدبر؛ لأن من لم يسمع بقلبه، فكأنه أصم لا يسمع.  
وَأَنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ

لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾

ذكر سيويه الأنعام في باب ما لا ينصرف في الأسماء المفردة الواردة على أفعال، كقولهم: ثوب أكياش؛ ولذلك رجع الضمير إليه مفرداً. وأما (في بطونها) في سورة المؤمنين: فلأن معناه الجمع. ويجوز أن يقال في الأنعام وجهان، أحدهما: أن يكون تكثير نعم<sup>(١)</sup> كأجبال في جبل، وأن يكون اسماً مفرداً مقتضياً لمعنى الجمع كنعم، فإذا ذكر فكما يذكره نعم، في قوله: فِي كُلِّ عَامٍ نَعْمٌ تَحْوُونَهُ يُلْقِحُهُ قَوْمٌ وَتَذْتَجُونَهُ<sup>(٢)</sup>

وإذا أنت فقيه وجهان: أنه تكسير نعم. وأنه في معنى الجمع. وقرئ (نسقيكم) بالفتح والضم، وهو استئناف، كأنه قيل: كيف العبرة، فقيل نسقيكم (من بين فرث ودم) أي يخلق الله اللبن وسيطاً بين الفرث والدم يكتشفانه، وبينه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ولا طعم ولا رائحة، بل هو خالص من ذلك كله. قيل: إذا أكلت البهيمة العلف فاستقر في كرشها طبخته، فكان أسفل فرثاً، وأوسطه لبناً، وأعلاه دماً. والكبد مسطرة على هذه الاصناف

(١) قوله أن يكون تكثير نعم، لعله «تكسير» بالسين. (ع)

(٢) في كل عام نعم تحوونه يلقيحه قوم وتذتجونه  
أربابه نوكتي فلا يحسونه ولا يلاقون طماناً دونه  
أنعم الأبناء تحسونه هيأت هيأت لما ترجونه

لصبى من بنى أسد اسمه قيس بن الحصين الحارثي. والنعم: اسم جمع يعامل معاملة المفرد. وقد يراعى معناه فيعامل كالجمع. والأنعام عده سيويه من المفردات المبينة على أفعال، كأخلاق وأمهات، فيعامل بالتذكير تارة اعتباراً بلفظه، وبالتأنيث أخرى اعتباراً بمعناه. وقيل: هو جمع نعم كاسباب وسبب، والكلام تحسر وتحزن في صورة الاخبار. ويحتمل تقدير همزة الاستفهام التويهي أو التمجيز قبل في، أي: أنى كل عام تفعلون ذلك. وروى: أكل عام، بالاستفهام. وقيل: نصب على الظرفية. وفيه الاخبار بالزمان عن اسم العين وهو نعم. إما لأنه يشبه المعنى لتجدده كل عام كما قاله ابن مالك وغيره في مثله. أو على تقدير مضاف كما ذهب إليه جمهور البصريين، أي: نهب نعم. وجملة تحوونه: صفة نعم، ويجوز أنها خبره، وكل عام: ظرف لتحوونه، وقدم لأنه عطف الاستفهام. وعليه فالمسوخ للابتداء بنعم وقوعه في حيز الاستفهام. أو تقديم معمول الخبر عليه لأنه كقديم الخبر. يلقيحه قوم أي يطلقون لحوله على إنائه فتجمل عندهم. وتذتجونه أتم: أي تستولدونه عندهم، كناية عن نهبه منهم. والأرباب الأصحاب. والنوكتي: جمع أنوكتي كحقق جمع أحق وزنا ومعنى. والطمان: المطاعنة بالرماح، أي: لا يجاربون أمامه ويصبرون للحرب. وقوله أنعم: استفهام إنكاري تويهي، أي: لا تحسبوا نعمنا نعم أولئك الحق الضعاف. وهيأت بمعنى إعد، وكرره للتوكيد وقطع الأطماع. وقوله لما ترجونه، متعلق بمحذوف، أي: أقول ذلك لما ترجونه، واللام فيه لتبيين الفاعل. ويجوز أنها زائدة فيه، والرجاء: الطمع، ويجوز أنه الظن.

الثلاثة تقسمها ، فتجري الدم في العروق ، واللبن في الضرع ، وتبقى الفرث في الكرش . فسبحان الله ما أعظم قدرته وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل . وسئل شقيق عن الإخلاص فقال : تميز العمل من العيوب ، كتمييز اللبن من بين فرث ودم (سائغاً) سهل المرور في الحلق . ويقال : لم يغص أحد باللبن قط . وقرئ : سيعاً ، بالتشديد . وسيعاً ، بالتخفيف . كهين ولين . فإن قلت : أى فرق بين ومن ، الأولى والثانية ؟ قلت : الأولى للتبخيص ؛ لأن اللبن بعض ما في يطونها ، كقولك : أخذت من مال زيد ثوباً . والثانية لابتداء الغاية ؛ لأن بين الفرث والدم مكان الإسقاء الذى منه يبتدأ ، فهو صلة لنسقيكم ، كقولك : سعيته من الخوض ، ويجوز أن يكون حالاً من قوله (لبناً) مقدماً عليه ، فيتعلق بمحذوف ، أى : كائناً من بين فرث ودم . ألا ترى أنه لو تأخر فصيل : لبناً من بين فرث ودم كان صفة له ، وإنما قدم لأنه موضع العبارة ، فهو قن بالتقديم . وقد احتج بعض من يرى أن المنى طاهر على من جعله نجساً ، لجريه في مسلك البول بهذه الآية ، وأنه ليس بمستنكر أن يسلك مسلك البول وهو طاهر ، كما خرج اللبن من بين فرث ودم طاهراً .

وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي

ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

فإن قلت : هم تعلق قوله (ومن ثمرات النخيل والأعناب) ؟ قلت : بمحذوف تقديره : ونسقيكم من ثمرات النخيل والأعناب ، أى : من عصيرها ، وحذف لدلالة نسقيكم قبله عليه ، وقوله (تتخذون منه سكرًا) بيان وكشف عن كنه الإسقاء . أو يتعلق بتتخذون ، ومنه من تمكير الظرف للتوكيد ، كقولك : زيد في الدار فيها . ويجوز أن يكون (تتخذون) صفة موصوف محذوف ، كقوله :

\* ... بِكُنْفِي كَانَ مِنْ أَرْمَى الْبِشْرِ \* (١)

(١) مالك عندي غير سوط وحجر وغير كبداء شديدة الوتر

\* جادت بكُنْفِي كان من أرمى البشر \*

السوط : آلة للضرب ، معموله من الجلد . وكبداء صفة لمحذوف ، أى قوس كبداء غليظة الكبد ، أى المقبض . وقيل : واسعته . والوتر : جبل تشد به القوس . وجادت : صارت جيدة . ويروى بدله : ترى . وشبه الرمي لها مجاز عقلي . وكُنْفِي مضاف لمحذوف قامت صفته في اللفظ مقامه ، وهى جملة «كان» وحذف المنعوت الأول مطرد ، والثاني ضرورة ؛ لأنه لا يجوز حذف المنعوت إلا إذا كان بعض اسم مجرور بمن أو «في» ، أو صلح نعته لمباشرة العامل . و«كان» هنا ليس بمعنى ، بل مجرد الثبوت والدوام ، أى : بكفى رجل متصف بأنه دائماً من أشد الناس =

تقديره: ومن ثمرات النخيل والأعناب ثمر تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً، لأنهم يأكلون بعضها ويتخذون من بعضها السكر. فإن قلت: فالإلام يرجع الضمير في منه إذا جعلته ظرفاً مكرراً؟ قلت: إلى المضاف المحذوف الذي هو العصير كما رجعت في قوله تعالى (أو هم قائلون) إلى الأهل المحذوف، والسكر: الخمر، سميت بالمصدر من سكر سكر أو سكرأ. نحو رشد رشداً ورشداً. قال:

وَجَاؤْنَا بِهِمْ سَكْرٌ عَلَيْنَا فَأَجَلَى الْيَوْمَ وَالسُّكْرَانُ صَاحِبِي<sup>(١)</sup>

وفيه وجهان: أحدهما أن تكون منسوخة. ومن قال بنسخها: الشعبي والنخعي. والثاني أن يجمع بين العتاب والمثنة. وقيل: السكر النثيد، وهو عصير العنب والزبيب والتمر إذا طبخ حتى يذهب ثلثاه، ثم يترك حتى يشتد، وهو حلال عند أبي حنيفة إلى حد السكر ويحتاج بهذه الآية وبقوله صلى الله عليه وسلم الخمر حرام لعينها والسكر من كل شراب،<sup>(٢)</sup> وبأخبار جمة. ولقد صنف شيخنا أبو علي الجبائي قدس الله روحه غير كتاب في تحليل النثيد، فلما شيخ<sup>(٣)</sup> وأخذت منه السن العالية قيل له: لو شربت منه ما تقوى به، فأبى. فقيل له: فقد صنف في تحليله، فقال: تناولته الدعارة<sup>(٤)</sup> فسمعت في المرومة. وقيل: السكر الطعم<sup>(٥)</sup> وأنشد:

\* جَعَلْتُ أَعْرَاضَ السُّكْرَامِ سَكْرًا \*

أى تنقلت بأعراضهم<sup>(٦)</sup>. وقيل هو من الخمر، وإنه إذا ابتكر<sup>(٧)</sup> في أعراض الناس، فكانت تخمر بها. والرزق الحسن: الخل والرب والتمر والزبيب وغير ذلك. ويجوز أن يجعل السكر رزقاً حسناً، كأنه قيل: تتخذون منه ما هو سكر ورزق حسن.

== ربما، يعنى نفسه. ففيه تجميد. يقول لعدوه: ليس لك عندى غير هذه الأشياء، وهو ضرب من التهديد والتفريع: هدده بالسوط عند القرب، وبالحجر عند المفارقة، وبالسهم عند البعد: ويرى سهم، بدل سوط، فيضيق الترتيب.

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء ص ٣٩٥ فراجع إن شئت اه مصححه.

(٢) أخرجه النسائي من حديث ابن عباس رضى الله عنهما مرفوعاً. ورواه العقيلي من وجه آخر عن علي مرفوعاً. وفيه محمد بن الفرات الكوفي، وهو منكر الحديث.

(٣) قوله «فلما شيخ وأخذت منه السن العالية» في الصحاح: شاخ الرجل يشيخ شيخاً بالتحريك، وشيخ

تشيخاً: أى شاخ. (ع)

(٤) قوله «فقال تناولته الدعارة» في الصحاح: الدعارة الفسق والخبث. (ع)

(٥) قوله «وقيل السكر الطعم» في الصحاح: الطعم بالضم: الطعام. (ع)

(٦) قوله «أى تنقلت بأعراضهم» في الصحاح: النقل بالضم ما ينتقل به على الشراب. (ع)

(٧) قوله «وإنه إذا ابتكر» في الصحاح: ابتكر، أى أسرع في العدو وجد. (ع)

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا  
يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلَالًا يَخْرُجُ مِن  
بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً  
لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

الإيحاء إلى النحل : الإلهام والنفذ في قلوبها وتعليمها على وجه هو أعلم به ، لاسيلا لأحد  
إلى الوقوف عليه ، وإلا فنيقتها<sup>(١)</sup> في صنعها ، ولطفها في تدبير أمرها ، وإصابتها فيما يصلحها ،  
دلائل بينة شاهدة على أن الله أودعها علما بذلك وفطنها ، كما أولى أولى العقول عقولهم . وقرأ  
يحيى بن وثاب (إلى النحل) بفتحيتين . وهو مذكور كائنخل ، وتأنيثه على المعنى «أن اتخذي» هي  
أن المفسرة ؛ لأن الإيحاء فيه معنى القول . وقرئ : ﴿بيوتا﴾ بكسر الباء لأجل الياء . و﴿يعرشون﴾  
بكسر الراء وضمها : يرفون من سقوف البيوت . وقيل : ما يبنون للنحل في الجبال والشجر  
والبيوت من الأماكن التي تتعسل فيها . والضمير في (يعرشون) للناس . فإن قلت : ما معنى  
من ، في قوله ( أن اتخذي من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ) وهلا قيل في الجبال  
وفي الشجر ؟ قلت : أريد معنى البعضية ، وأن لا تبني بيوتها<sup>(٢)</sup> في كل جبل وكل شجر وكل ما يعرش  
ولا في كل مكان منها ﴿من كل الثمرات﴾ إحاطة بالثمرات التي تجرسها النحل<sup>(٣)</sup> وتعتاد أكلها ،  
أى ابني البيوت ، ثم كل من كل ثمرة تشتهيها ، فإذا أكلتها ﴿فاسلكي سبل ربك﴾ أى الطرق  
التي ألهمك وأفهمك في عمل العسل . أو فاسلكي ما أكلت في سبل ربك ، أى في مسالكه التي  
يحيل فيها بقدرته النور المتز عسلا من أجوافك ومنافذ ما كلك . أو إذا أكلت الثمار في المواضع  
البعيدة من بيوتك ، فاسلكي إلى بيوتك راجعة سبل ربك ، لا تتوعر عليك ولا تضلين فيها ،

(١) قوله «وإلا فنيقتها» أى تأنيها . أفاده الصحاح . (ع)

(٢) قال محمود : «قلت أريد معنى البعضية وأن لا تبني بيوتها ... الخ. قال أحد : ويزن هذا المعنى الذى نبه  
عليه الهمشري في تبعض ومن» المتعلقة باتخاذ البيوت باطلاق الأكل ، كأنه تعالى وكل الأكل إلى شهوتها واختيارها  
فلم يحجر عليها فيه وإن حجر عليها في البيوت وأمرت باتخاذها في بعض المواضع دون بعض ؛ لأن مصلحة الأكل  
على الإطلاق باستمراء مشتهاها منه . وأما البيوت فلا تحصل مصلحتها في كل موضع . ولهذا المعنى دخلت ثم لتفاوت  
الأمر بين الحجر عليها في اتخاذ البيوت والاطلاق لها في تناول الثمرات ، كما نقول : راع الحلال فيما تأكله ، ثم كل  
أى شئ شئت ، فتوسط ثم لتفاوت الحجر والاطلاق ، فسبحان اللطيف الخبير .

(٣) قوله «الثمار التي تجرسها النحل» في الصحاح «الجرس» الصوت الخفي ، وجرست النحل العرط إذا  
أكلته . وفيه أيضا والعرط ، شجر من العضاء . وفيه «العضاء» كل شجر يعظم وله شوك . (ع)



فقد بلغني أنها ربما أجذب عليها ما حولها فتسافر إلى البلد البعيد في طلب النجعة . أو أراد بقوله ( ثم كلى ) ثم اقصى أكل الثمرات فاسلكى في طلبها في مظانها سبل ربك ( ذللا ) جمع ذلول ، وهي حال من السبل ؛ لأن الله ذللها لها ووطأها وسهلها ، كقوله ( هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً ) أو من الضمير في ( فاسلكى ) أى : وأنت ذلل منقادة لما أمرت به غير ممنعة ( شراب ) يريد العسل ، لأنه لما يشرب ( مختلف ألوانه ) منه أبيض وأسود وأصفر وأحمر ( فيه شفاء للناس ) لأنه من جملة الأشفية والأدوية المشهورة النافعة ، وقل معجون من المعاجين لم يذكر الأطباء فيه العسل ، وليس الغرض أنه شفاء لكل مريض ، كما أن كل دواء كذلك . وتكثيره إما لتعظيم الشفاء الذي فيه ، أو لأن فيه بعض الشفاء ، وكلاهما محتمل . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أن رجلاً جاء إليه فقال : إن أخى يشكى بطنه ، فقال : « اذهب واسقه العسل » ، فذهب ثم رجع فقال : قد سقيته فما نفع ، فقال : « اذهب واسقه عسلاً » ، فقد صدق الله وكذب بطن أخيك ، فسقاه فشفاه الله فبرأ ، كأنما أنشط من عقال . (١) وعن عبد الله بن مسعود : العسل شفاء من كل داء ، والقرآن شفاء لما في الصدور ، فعليكم بالشفاهين : القرآن والعسل . (٢) ومن بدع تأويلات الرافضة : أن المراد بالنحل على وقومه : وعن بعضهم أنه قال عند المهدي : إنما النحل بنوهاشم ، يخرج من بطونهم العلم ، فقال له رجل : جعل الله طعامك وشرابك بما يخرج من بطونهم فضحك المهدي وحدث به المنصور ، فأتخذه أضحوكة من أضاحيكهم .

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لَكُمْ لَا يَعْلَمُ

بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾

( إلى أردل العمر ) إلى أخسه وأحقره وهو خمس وسبعون سنة عن علي رضي الله عنه . وتسعون سنة عن قتادة : لأنه لا عمر أسوأ حالاً من عمر الهرم ( لكيلا يعلم بعد علم شيئاً ) ليصير إلى حالة شبيهة بحال الطفولة في النسيان ، وأن يعلم شيئاً ثم يسرع في نسيانه فلا يعلمه إن

(١) متفق عليه من حديث أبي سعيد وغفل الحاكم فاستدركه .

(٢) لم أره هكذا . وفي الكامل لابن عدى من رواية لابن إحقاق عن أبي الأحوص عن عبد الله رفته « عليكم بالشفاهين : العسل : شفاء من كل داء . والقرآن شفاء لما في الصدور » ، قال : لم يرفعه عن وكيع عن الثوري إلا سفيان بن وكيع . قال ورواه زيد بن الحباب عن الثوري أيضاً مرفوعاً له وأخرجه ابن ماجه وابن خزيمة والحاكم من رواية زيد بن الحباب بهذا الإسناد مرفوعاً بلفظ « عليكم بالشفاهين : العسل والقرآن » ، وابن أبي شيبة عن وكيع مرفوعاً ولفظه « العسل شفاء من كل داء » والقرآن شفاء لما في الصدور . ومن هذا الوجه أخرجه الحاكم والعلابي أيضاً . قال ابن أبي شيبة : وحدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن حبيبة عن الأسود عن عبد الله قال « عليكم بالشفاهين القرآن والعسل » .

سئل عنه . وقيل : لتلا يعقل من بعد عقله الأول شيئاً : وقيل : لتلا يعلم زيادة علم على علمه .

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ  
عَلَى مَأْمَلِكْتِ أَيْمَانِهِمْ فُتْمٌ فِيهِ سَوَاءٌ أَفْنِئِمَةً اللَّهُ يَجْحَدُونَ (٧١)

أى : جعلكم متفاوتين فى الرزق ، فرزقكم أفضل مما رزق ممالككم وهم بشر مثلكم وإخوانكم فكان ينبغى أن تردوا فضل ما رزقتموه عليهم ، حتى تتساووا فى اللبس والمطعم ، كما يحكى عن أبى ذر أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقول : إنما هم إخوانكم ، فاكسوهم بما تلبسون ، وأطعموهم بما تطعمون (١) فما روى عبده بعد ذلك إلا وورداؤه رداؤه وإزاره إزاره من غير تفاوت (٢) ﴿ أفنئمة الله يجحدون ﴾ فجعل ذلك من جملة جحود النعمة . وقيل : هو مثل ضربه الله للذين جعلوا له شركاء ، فقال لهم : أنتم لاتسبون بينكم وبين عبيدكم فيما أنعمت به عليكم ، ولا تجعلونهم فيه شركاء ، ولا ترضون ذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تجعلوا عبيدى لى شركاء . وقيل المعنى أن الموالى والممالك أنا رازقهم جميعاً ، فهم فى رزقى سواء ، فلا تحسبن الموالى أنهم يردون على ممالكهم من عندهم شيئاً من الرزق . فإنما ذلك رزقى أجريه إليهم على أيديهم . وقرئ : يجحدون ، بالتاء والياء .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً  
وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبَا لَبِطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

﴿ من أنفسكم ﴾ من جنسكم . وقيل : هو خلق حواء من ضلع آدم . والحفدة : جمع حافد ، وهو الذى يحفد ، أى يسرع فى الطاعة والخدمة . ومنه قول القانت . وإليك نسعى ونحفد وقال :

حَفَدَ الْوَلَانِدَ بَيْنَهُنَّ وَأَسْلَمَتْ بِأَكْثَرِهِنَّ أَرْمَةَ الْأَجْمَالِ (٣)

واختلفت فيهم فقيل : هم الاختان على البنات (٤) وقيل : أولاد الأولاد . وقيل : أولاد المرأة

(١) متفق عليه . وأخرجه أصحاب السنن .

(٢) لم أره .

(٣) يقول ، حفد من باب ضرب ، أى أسرع . الولاند : جمع وليدة وهى البنت الصغيرة ، بينهن : أى بين النساء الطاعنات . وأسلت : مبنى للجهول ، أى تركت فى أكف الظلمات والولاند . أرمة الأجمال : جمع زمام ، وذلك دليل على حفظهن وصونهن ، حتى لا يتخلل ركبهن إلا الولاند .

(٤) قوله « فقيل هم الاختان على البنات » فى الصحاح : الحفدة الأعوان والخدم . وفيه أيضاً : الحفن بالتحريك كل من كان من قبل المرأة كالأب والابن ، وهم الاختان ، كذا عند العرب وأما عند العامة فحن الرجل زوج ابنته اه فلهذا أيضاً ضمن الاختان معنى الأعوان أو الخلفاء فعداه بعلى . وفى الخازن عن ابن مسعود : الحفدة أختان الرجل على بناته . (ع)

من الزوج الأول . وقيل : المعنى وجعل لكم حفدة ، أى خدما يحفدون فى مصالحكم ويعينونكم ويجوز أن يراد بالحفدة : البنون أنفسهم ؛ كقوله ( سكرأ ورزقاً حسناً ) كأنه قيل : وجعل لكم منهن أولاداً هم بنون وهم حافدون ، أى جامعون بين الأمرين ﴿ من الطيبات ﴾ يريد بعضها ؛ لأن كل الطيبات فى الجنة ، وما طيبات الدنيا إلا أنموذج منها ﴿ أفعال باطل يؤمنون ﴾ وهو ما يعتقدون من منفعة الأصنام وبركتها وشفاعتها ، وما هو إلا وهم باطل لم يتوصلوا إليه بدليل ولا أمانة ، فليس لهم إيمان إلا به ، كأنه شئ معلوم مستيقن . ونعمة الله المشاهدة المعينة التى لا شبهة فيها لذى عقل وتميز : هم كافرون بها منكرون لها كما ينكر المحال الذى لا يتصوره العقول . وقيل : الباطل ما يستول لهم الشيطان من تحريم البحيرة والسائبة وغيرهما . ونعمة الله : ما أحل لهم .

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا

وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾

الرزق يكون بمعنى المصدر ، وبمعنى ما يرزق ، فإن أردت المصدر نصبت به ﴿ شيئاً ﴾ كقوله ( أو إطعام ..... يتيا ) على : لا يملك أن يرزق شيئاً . وإن أردت المرزوق كان شيئاً بدلاً منه بمعنى قليلاً . ويجوز أن يكون تأكيداً للإيلاك : أى لا يملك شيئاً من . الملك . و ( من السموات والأرض ) : صلة للرزق إن كان مصدراً بمعنى : لا يرزق من السموات مطراً ، ولا من الأرض نباتاً . أو صفة إن كان اسماً لما يرزق . والضمير فى ﴿ ولا يستطيعون ﴾ لما ؛ لأنه فى معنى الألهة ، بعد ما قيل ( لا يملك ) على اللفظ . ويجوز أن يكون للكفار ، يعنى : ولا يستطيع هؤلاء - مع أنهم أحياء متصرفون أو أولو ألباب - من ذلك شيئاً ، فكيف بالجماد الذى لا حس به . فإن قلت : ما معنى قوله ( ولا يستطيعون ) بعد قوله ( لا يملك ) ؟ وهل هما إلا شئ واحد ؟ قلت : ليس فى ( لا يستطيعون ) تقدير راجع ، وإنما المعنى : لا يملكون أن يرزقوا ، والاستطاعة منفية عنهم أصلاً ؛ لأنهم موات ، إلا أن يقدر الراجع ويراد بالجمع بين نفي الملك والاستطاعة للتوكيد أو يراد : أنهم لا يملكون الرزق ولا يمكنهم أن يملكوه ، ولا يتأتى ذلك منهم ولا يستقيم .

فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

﴿ فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به <sup>(١)</sup> ؛ لأن من يضرب الأمثال

(١) قال محمود : وتمثيل للإشراك بالله والتشبيه به ... الخ ، قال أحمد : فعل تفريده الأول يكون موهله ( لله ) متعلقاً بالأمثال ، كأنه قيل : فلا تمثلوا الله ولا تشبهوه . وعلى الثانى يكون متعلقاً بالفعل الذى هو تضربوا ، كأنه قيل : فلا تمثلوا لله الأمثال ، فان ضرب المثل إنما يستعمل من العالم لغير العالم ، ليبين له ما خفى عنه ، والله تعالى هو العالم وأنتم لاتعلمون ، فتمثيل غير العالم للعالم عكس للحقيقة ، والله أعلم .

مشبه حالاً بحال وقصة بقصة (إن الله يعلم) كنه ما تفعلون وعظمه ، وهو معاقبكم عليه بما يوازيه في العظم ؛ لأن العقاب على مقدار الإثم (وأنتم لاتعلمون) كنهه وكنهه عقابه ، فذاك هو الذى جزكم إليه وجرأكم عليه ، فهو تعليل للنهى عن الشرك . ويجوز أن يراد : فلا تضربوا الله الأمثال ، إن الله يعلم كيف يضرب الأمثال ، وأنتم لاتعلمون .

صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥)

ثم عليهم كيف تضرب فقال : مثلكم فى إشراككم بالله الأوثان : مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حر مالك قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه وينفق منه كيف شاء . فإن قلت : لم قال (مملوكا لا يقدر على شيء) (١) وكل عبد مملوك ، وغير قادر على التصرف ؟ قلت : أما ذكر المملوك فليميز من الحر ؛ لأن اسم العبد يقع عليهما جميعا ، لأنهما من عباد الله . وأما (لا يقدر على شيء) فليجعل غير مكاتب ولا مأذون له ؛ لأنهما يقدران على التصرف .

(١) عاد كلامه . قال : «فإن قلت لم قال مملوكا لا يقدر على شيء... الخ» قال أحد : والقول بصحة ملكه هو مذهب الإمام مالك رضى الله عنه . وفى هذه الآية له معنم ، لأن الله تعالى مثل بالمملوك لأنه مظنة العجز وعدم الملك والتصرف غالبا ، ثم أفصح عن المعنى المقصود : وهو أن هذا المملوك ليس بمن اتفق أن ملكه سيده فملك وقدر ، بل هو على الأصل الممهور فى المالك عاجز غير قادر ، ولولم يكن ملك العبد متصورا ومعهودا شرعا وعرفا ، لكان قوله تعالى (لا يقدر على شيء) كالتكرار لما فهم من قوله (عبدا مملوكا) وقول القائل يقول إنه احتراز من المكاتب ، بعيد من فصاحة القرآن : فانه لو كان العبد لا يصح منه ملك البتة إلا فى حال الكتابة ، لكانت إرادته حينئذ من إطلاق اللفظ ، كالإجاز الذى لا يعهد مثله فى بيان القرآن واستيلائه على صنوف البلاغة . ومثل هذا أنكره الإمام أبو المعالى على من حمل قوله عليه السلام : «أيماء امرأة نكحت بغير إذن وليها» على الكتابة لبعد القصد إليها على شذوذه . وأما الاحتراز به عن المأذون له فينبى على القول بأن المراد بعدم القدرة عدم الممكنة من التصرف ، وإن لم يكن المأذون له مالكا عند هذا القائل . وهذا بعيد عن مطابقة قوله (ومن رزقناه منا رزقا حسنا) فانها توجب أن يكون المراد بقوله (لا يقدر على شيء) لا ذلك شيئا من الرزق ، كما تقول فى الحر المفلس : فلان لا يقدر على شيء ، أى لا يملك شيئا يقدر على التصرف فيه . فتلخص من هذا البحث أن فى الآية مجالا لنصرة مذهب مالك ، وإن كان لقائل أن يقول : هذه الصفة لازمة كالايضاح لفائدة ضرب المثل بالمملوك ، كأنه قيل : وإنما ضربنا المثل بالمملوك ؛ لأن صفته اللازمة له وسميته المعروفة به ، أنه لا يقدر على شيء . أى لا يصح منه ملك ، وكعبير أياجي الحال والصفة لا يقصد بواحد منهما تقييد ولا تخصيص ، ولكن إيضاح وتفسير . ومن ذلك قوله تعالى (ومن يدع مع الله إلها آخر لا برهان له) فقول له برهان له به . لا يقصد به تمييز له سوى (الله) من (إله) لأن كل مدعو إلها غير الله تعالى ، لا برهان به . وإنما أريد أن عدم البرهان من لوازم دعاء إله غير الله تعالى ، فهذا أقصى ما يمكن أن ينتصر به للقائل بعدم صحة ملك العبد . ولنا أن نقول فى دفعه أن الأصل فى الصفة والحال وشبههما التخصيص والتقييد . وأما الوارد من ذلك لازما فتندر على خلاف الأصل ، وافقه الموفق .

واختلفوا في العبد هل يصح له ملك ؟ والمذهب الظاهر أنه لا يصح له . فإن قلت : ( من ) في قوله ( ومن رزقناه ) ما هي ؟ قلت : الظاهر أنها موصوفة ، كأنه قيل : وحرأرزقناه ؛ ليطابق عبداً . ولا يمتنع أن تكون موصولة . فإن قلت : لم قيل ( يستون ) على الجمع ؟ قلت : معناه : هل يستوى الأحرار والعبيد ؟

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

الأبكم الذي ولد أخرس ، فلا يفهم ولا يفهم ( وهو كل على مولاه ) أى ثقل وعيال على من يلى أمره ويعوله ( أينما يوجهه ) حيثما يرسله ويصرفه في مطلب حاجة أو كفاية مهم ، لم ينفع ولم يأت بنجح ( هل يستوى هو ومن ) هو سليم الخواس نفاعا ذو كفايات ، مع رشد وديانة ، فهو ( يأمر ) الناس ( بالعدل ) والخير ( وهو ) في نفسه ( على صراط مستقيم ) على سيرة صالحة ودين قويم . وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه ولما يفيض على عباده ويشملهم من أنار رحمته والطفاه ونعمه الدينية والدنيوية . وللأصنام التي هي أموات لا تضر ولا تنفع وقرئ : أينما يوجه ، بمعنى أينما يتوجه ، من قولهم : أينما أوجه ألق سعداً : وقرأ ابن مسعود : أينما يوجه ، على البناء للمفعول .

وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ

أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾

( ولله غيب السموات والأرض ) أى يختص به علم ما غاب فيهما عن العباد وخفى عليهم عليه . أو أراد بغيب السموات والأرض : يوم القيامة ، على أن غلبه غائب عن أهل السموات والأرض لم يطلع عليه أحد منهم ( إلا كلمح البصر أو هو أقرب ) أى هو عند الله وإن تراخى ، كما تقولون أتم في الشيء الذى تستقربونه : هو كلمح البصر أو هو أقرب ، إذا بالغتم في استقرا به . ونحوه قوله : ( ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون ) أى هو عنده دان وهو عندكم بعيد . وقيل : المعنى أن إقامة الساعة وإمارة الأحياء وإحياء الأموات من الأولين والآخرين ، يكون فى أقرب وقت وأوحاه <sup>(١)</sup> ، ( إن الله على

(١) قوله « وأوحاه » أى : وأسرعه . أفاده الصحاح . (ع)

كل شيء قدير) فهو يقدر على أن يقيم الساعة ويبعث الخلق ، لأنه بعض المقدورات . ثم دل على قدرته بما بعده .

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

قرئ: (أمهاتكم) بضم الهمزة وكسر ها . والهاء مزيدة في أمات ، كما زيدت في أراق ، فقبل : أهرق . وشذت زيادتها في الواحدة قال :

\* أُمّهَتِي خِنْدِفٌ وَإِلْيَاسُ أَبِي \* (١)

(لأنهم تعلمون شيئاً) في موضع الحال . ومعناه : غير عالمين شيئاً من حق المنعم الذي خلقكم في البطون ، وسواكم وصوركم ، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة . وقوله (وجعل لكم) معناه : وما ركب فيكم هذه الأشياء إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به ، من شكر المنعم وعبادته ، والقيام بحقوقه ، والترقي إلى ما يسعدكم . والأفئدة في فؤاد ، كالأغربة في غراب ، وهو من جموع القلة التي جرت مجرى جموع الكثرة . والقلة إذا لم يرد في السماع غيرها ، كما جاء شسوع في جمع شسع لاغير ، فحرت ذلك المجرى .

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

قرئ: ألم يروا ، بالتاء والياء (مسخرات) مذلات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية (٢) لذلك . والجو : الهواء المتباعد من الأرض في سمت العلو والسكاك (٣)

(١) إلى لدى الحرب رضى اللبب معتم الصـ ولة على النسب

أمهتي خندف وإلياس أبي

لقصى بن كلاب بن مرة جد النبي صلى الله عليه وسلم . ورضى اللبب . رحب الصدر واسع البال . واللبب في الأصل جبل في صدر المطية يمنع الرحلة من الاستخار ، أطلق على ذلك للجأورة . ومعتم : مصمم . والصولة : تحشم المكروه واقتحامه . وزيادة الهاء في أمهة شاذ . وخندف ، بكسر الخاء والذال : امرأة إلياس بن مضر ، وهذا لقبها ، واسمها ليلي . والخندفة : مشية كالمرولة . وإطلاق الأم والأب على الجدة والجد : مجاز أطلق الأصل .

(٢) قوله « والأسباب المواتية لذلك » في الصحاح آتية على ذلك الأمر . وإانة إذا وافقته والعامية تقول :

واتيته . (ع)

(٣) قوله « والسكاك أبعد منه » في الصحاح السكاك والسكاكة الهواء الذي يلاق أعنان السماء وفيه أيضاً أعنان السماء صفائحها وما تعرض من أقطارها . والعنان بالفتح السحاب . (ع)

أبعد منه ، واللوح مثله ﴿ما يسكنهن﴾ في قبضهن وبسطهن ووقوفهن ﴿إلا الله﴾ بقدرته .  
 وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا  
 تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَانًا  
 وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾

﴿من بيوتكم﴾ التي تسكنونها من الحجر والمدر والأخبية وغيرها . والسكن : فعل بمعنى  
 مفعول ، وهو ما يسكن إليه وينقطع إليه من بيت أو إلف ﴿بيوتا﴾ هي القباب والأبنية من الأدم  
 والأنطاع ﴿تستخفونها﴾ ترونها خفيفة الحمل في الضرب والنقض والنقل ﴿يوم ظعنكم ويوم  
 إقامتكم﴾ أى يوم ترحلون خف عليكم حملها ونقلها <sup>(١)</sup> ، ويوم تنزلون وتقيمون في مكان لم ينقل  
 عليكم ضربها . أو هي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر جميعاً ، على أن اليوم بمعنى الوقت  
 ﴿ومتاعاً﴾ وشيئاً ينتفع به ﴿إلى حين﴾ إلى أن تقضوا منه أوطاركم . أو إلى أن يبلى ويفنى ، أو  
 إلى أن تموتوا . وقرئ : يوم ظعنكم ، بالسكون .

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ  
 لَكُم سَرَائِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَائِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ لَكُمْ نِعْمَتَهُ  
 عَلَيَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨١﴾

﴿مما خلق﴾ من الشجر وسائر المستظلات ﴿أكناناً﴾ جمع كن ، وهو ما يستكن به من  
 البيوت المنحوتة في الجبال والغيان والكهوف ﴿سرايل﴾ هي القمصان والثياب من الصوف  
 والكتان <sup>(٢)</sup> والقطن وغيرها ﴿تقيكم الحر﴾ لم يذكر البرد ؛ لأن الوقاية من الحر أهم عندهم ،  
 وقلبا يهجم البرد لكونه يسيراً محتملاً . وقيل : ما بقى من الحر يبق من البرد <sup>(٣)</sup> فدل ذكر الحر

(١) قال محمود : «المراد يخف عليكم حملها ونقلها ... الخ» قال أحد : والتفسير الأول أول ؛ لأن ظهور  
 المنة في خفتها إنما يتحقق في حال السفر . وأما المستوطن فغير منقل ، وما أحسن قول الزمخشري في يوم إقامتكم :  
 أن المراد خفة ضربها وسهولة ذلك عليهم ، والله أعلم .

(٢) قال محمود : «هي القمصان والثياب من الصوف والكتان وغيرها ... الخ» قال أحد : يعني عند العرب  
 وخصوصاً قطان الحجاز ، وهم الأصل في هذا الخطاب .

(٣) عاد كلامه . قال : «وقيل إن ما بقى الحر بقى البرد فدل ذكره عليه» قال أحد : والأول أظهر . الاترى إلى تقديم  
 المنة بالظلال التي تقى من الضحا ، في قوله تعالى (جعل لكم مما خلق ظلالاً) فدل على أن الأهم عند المخاطبين وقاية  
 الحر ، فأمّن الله عليهم بأعظم نعمه موقفاً عندهم . وقول القائل «إن ما بقى الحر بقى البرد» مشهود عليه بالعرف ، =

على البرد ﴿وسرايل تقيمكم بأسكم﴾ يريد الدروع والجواشن <sup>(١)</sup> والسربال عام يقع على كل ما كان من حديد وغيره ﴿لعلكم تسلبون﴾ أى تنظرون فى نعمه الفائضة فتؤمنون به وتتقادون له . وقرئ : تسلبون ، من السلامة : أى تشكرون فتسلبون من العذاب . أو تسلم قلوبكم من الشرك . وقيل : تسلبون من الجراح بلبس الدروع .

فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ

يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٣﴾

﴿فإن تولوا﴾ فلم يقبلوا منك فقد تمهد عذرك بعد ما أدت ماوجب عليك من التبليغ ، فذكر سبب العذر وهو البلاغ ليدل على المسبب ﴿يعرفون نعمت الله﴾ التى عددناها حيث يعرفون بها وأنها من الله ﴿ثم ينكرونها﴾ بعبادتهم غير المنعم بها وقولهم : هى من الله ولكنها بشفاعه آلهتنا . وقيل : إنكارهم قولهم ورثناها من آباءنا . وقيل : قولهم لولا فلان ما أصبت كذا لبعض نعم الله . وإنما لا يجوز التكلم بنحو هذا إذا لم يعتقد أنها من الله وأنه أجراها على يد فلان وجعله سبباً فى نيلها ﴿وأكثرهم الكافرون﴾ أى الجاحدون غير المعترفين . وقيل (نعمت الله) نبوة محمد عليه السلام ، كانوا يعرفونها ثم ينكرونها عناداً ، وأكثرهم الجاحدون المنكرون بقلوبهم . فإن قلت : ما معنى ثم ؟ قلت : الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة ؛ لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ

يُنْظَرُونَ ﴿٨٥﴾

﴿شهاداً﴾ نبيها يشهد لهم وعليهم بالإيمان والتصديق ، والكفر والتكذيب ﴿ثم لا يؤذن للذين كفروا﴾ فى الاعتذار . والمعنى . لاجحة لهم ، فدل بترك الإذن على أن لاجحة لهم ولا عذر ، وكذا عن الحسن ﴿ولا هم يستعتبون﴾ ولا هم يسترضون ، أى : لا يقال لهم أرضوا ربكم ؛ لأن الآخرة ليست بدار عمل . فإن قلت : فما معنى ثم هذه ؟ قلت : معناها أنهم يمتنون <sup>(٢)</sup> بعد

== قال الذى يبق به الحر من الثمنان رقيقها ورفيعها ، وليس ذلك من لبوس البرد ، بل لو لبس الانسان فى كل واحد من الفصلين - القبط والبرد - لباس الآخر ، يعد من الثقل .

(١) قوله «الجواشن» فى الصحاح : الجوشن الصدر . والجوشن الدرع . (ع)

(٢) قوله «يمنون» فى الصحاح : منوته ومنيته إذا ابتليته . (ع)



شهادة الانبياء بما هو أطم منها ، وهو أنهم يمنعون الكلام فلا يؤذن لهم في إلقاء معذرة ولا إدلاء بحجة . وانتصاب اليوم بمحذوف تقديره : واذكر يوم نبعث ، أو يوم نبعث وقعوا فيها وقعوا فيه ، وكذلك إذا رأوا العذاب بغتهم ونقل عليهم ﴿ فلا يخفف عنهم ولا هم ينظرون ﴾ كقوله ( بل تأتيهم بغتة فتبهم .. الآية )

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾

إن أرادوا بالشركاء آلهتهم ، فعنى ﴿ شركائنا ﴾ آلهتنا التي دعوناها شركاء . وإن أرادوا الشياطين ، فلأنهم شركائهم في الكفر وقرنائهم في الفی : ﴿ ندعو ﴾ بمعنى نعبد . فإن قلت : لم قالوا ﴿ إنكم لكاذبون ﴾ وكانوا يعبدونهم على الصحة ؟ قلت : لما كانوا غير راضين بعبادتهم فكان عبادتهم لم تكن عبادة . والدليل عليه قول الملائكة ( كانوا يعبدون الجن ) يعنون أن الجن كانوا راضين بعبادتهم لأنهم ، فهم المعبودون دوننا . أو كذبهم في تسميتهم شركاء وآلهة تنزيها لله من الشريك . وإن أريد بالشركاء الشياطين ، جاز أن يكون كاذبين ، في قولهم ( إنكم لكاذبون ) كما يقول الشيطان : إني كفرت بما أشركتموني من قبل ﴿ وألقوا ﴾ يعنى الذين ظلموا . وإلقاء السلم : الاستسلام لأمر الله وحكمه بعد الإباء والاستكبار في الدنيا ﴿ وضل عنهم ﴾ وبطل عنهم ﴿ ما كانوا يفترون ﴾ من أن الله شركاء ، وأنهم ينصرونهم ويشفعون لهم حين كذبهم وتبرؤا منهم .

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

﴿ الذين كفروا ﴾ في أنفسهم ، وحملوا غيرهم على الكفر : يضاعف الله عقابهم كما ضاعفوا كفرهم . وقيل في زيادة عذابهم حيات أمثال البخت وعقارب أمثال البغال تلسع إحداهن اللسعة فيجد صاحبها حتما <sup>(١)</sup> أربعين خريفا . وقيل : يخرجون من النار إلى الزمهرير فيبادرون من شدة برده إلى النار ﴿ بما كانوا يفسدون ﴾ بكونهم مفسدين الناس بصدتهم عن سبيل الله .

(١) قوله « حتما » حمة المقرب بالتخفيف ، والهاء عوض عن اللام وهي سبها . وأما حمة الحر ، فبالتشديد ، وهي معظمه ، أفاده الصحاح . (ع)

وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً

وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾

(شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ) يعني نبيهم؛ لأنه كان يبعث أنبياء الأمم فيهم منهم (وجئنا بك) يا محمد (شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ) على أمتك (تِبْيَانًا) بياناً بليغاً ونظير «تبيان» «تلقاء» في كسر أوله، وقد جوز الزجاج فتحه في غير القرآن. فإن قلت: كيف كان القرآن تبياناً (لكل شيء)؟ قلت: المعنى أنه بين كل شيء من أمور الدين، حيث كان نصاً على بعضها وإحالة على السنة، حيث أمر فيه باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وطاعته. وقيل: وما ينطق عن الهوى. وحثاً على الإجماع في قوله (ويتبع غير سبيل المؤمنين) وقد رضى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته اتباع أصحابه، والافتداء بآثارهم في قوله صلى الله عليه وسلم «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم»<sup>(١)</sup> وقد اجتهدوا وقاسوا ووطؤا طرق القياس والاجتهاد، فكانت السنة والإجماع والقياس والاجتهاد، مستندة إلى تبيان الكتاب، فمن ثم كان تبياناً لكل شيء.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ

وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

العدل هو الواجب؛<sup>(٢)</sup> لأن الله تعالى عدل فيه على عباده<sup>(٣)</sup> فجعل ما فرضه عليهم واقعاً

(١) أخرجه الدارقطني في المؤتلف من مرواية سلام بن سليم عن الحرث بن غصن عن الأعمش عن أبي سفيان عن جابر مرفوعاً. وسلام ضعيف. وأخرجه في غرائب مالك من طريق حميد بن زيد عن مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر في أثناء حديث: وفيه «فأبى قول أصحابي أخذتم اهتديتم، إنما مثل أصحابي مثل النجم من أخذ بنجم منها اهتدى» وقال: لا يثبت عن مالك. ورواته دون مالك مجهولون. ورواه عبد بن حميد والدارقطني في الفضائل من حديث حمزة الحريري عن نافع عن ابن عمر. وحزرة اتموه بالوضع. ورواه القضاعي في مسند الشهاب من حديث أبي هريرة وفيه جعفر بن عبد الواحد الهاشمي وقد كذبه. ورواه ابن طاهر من رواية بشر بن الحسين عن الزبير بن هدى عن أنس. وبشر كان متهماً أيضاً. وأخرجه البيهقي في المدخل من رواية جوير عن الضحاك عن ابن عباس وجوير موقوف. ومن رواية جوير أيضاً عن حباب بن عبد الله مرفوعاً وهو مرسل، قال البيهقي هذا المتن مشهور وأسانيده كلها ضعيفة. وروى في المدخل أيضاً عن عمر ورفقه وسألت ربي فيما يختلف فيه أصحابي من بعدى. فأوحى إلى: يا محمد إن أصحابك عندى بمنزلة النجوم في السماء. بعضها أضوأ من بعض فن أخذ بشيء مما هو عليه من اختلافهم فهو عندى على هدى، وفي إسناد عبد الرحمن بن زيد السهمي، وهو متروك.

(٢) قال محمود: «العدل: الواجب. والاحسان: الندب» قال أحمد: وفي جمعهما تحت الأمر ما يدل لمن قال إن صيغة الأمر - أعنى هذه المبنيّة من الهمة والميم والراء - لاصيغة أفعال - تتناول القليلين بطريق التواطؤ وموضعا القدر المشترك بينهما من الطلب والله أعلم.

(٣) ماد كلامه. قال: «وإنما كان الواجب عدلاً لأن الله تعالى عدل فيه على عباده... إلخ» قال أحمد: =

تحت طاعتهم ﴿والإحسان﴾ الندب ؛ وإنما علق أمره بهما جميعاً ؛ لأنَّ الفرض لابد من أن يقع فيه تفريط <sup>(١)</sup> فيجبره الندب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - لمن علمه الفرائض فقال : والله لازدت فيها ولا نقصت - : « أفلح إن صدق » <sup>(٢)</sup> فعقد الفلاح بشرط الصدق والسلامة من التفريط . وقال صلى الله عليه وسلم « استقيموا وإن تحصوا » <sup>(٣)</sup> فما ينبغي أن يترك ما يجبر كسر التفريط من النوافل . والفواحش : ما جاوز حدود الله ﴿ والمنكر ﴾ ما تشكره العقول <sup>(٤)</sup> ﴿ والبغى ﴾ طلب التناول بالظلم <sup>(٥)</sup> ، وحين أسقطت من الخطب <sup>(٦)</sup> لعنة الملاعين على أمير المؤمنين على رضي الله عنه ، أقيمت هذه الآية مقامها . ولعمري إنها كانت فاحشة ومنكراً وبغياً ، ضاعف الله لمن سنّها غضباً ونكالا وخزياً ، إجابة لدعوة نبيه :

== وهذه وليجة من الاعتزال . ومعتقد المعتزلة استحالة تكليف ما لا يطاق لأنه ظلم وجور ، وذلك على الله محال . والحق والسنة أن كل قضاء الله عدل ، وأن تكليف ما لا يطاق جائز عليه وعدل منه ( لا يسل عما يفعل وهم يسئلون ) بل التكاليف كلها على خلاف الاستطاعة ، على مقتضى توحيد أمل السنة ، المعتقدين أن كل موجود بقدرته الله تعالى حدث ووجد ، لا شريك له في ملكه ، وكيف يكون شريكه عبداً مسخراً في قبضة ملكه ، هذا هو التوحيد المحض . وإذا كان العبد مكلفاً بما هو من فعل الله ، فهذا عين التكليف بما لا يطاق ، ولكن ذلك عدل من الله تعالى ، وحجته البالغة قائمة على المكلف بما خلقه له من التأتى والتيسر في الأفعال الاختيارية التي هي محال التكاليف ، (١) عاد كلامه . قال : « وإنما قرنهما في الأمر ، لأن الفرض لا يخلو من خلل وتفريط يجبره الندب ... الخ » قال أحمد : وهذه نكتة حسنة يجاب بها عن قول القائل : لم حكم عليه الصلاة والسلام بفلاح المصر على ترك السنن ، فيقال : المحكوم بفلاحه لأجله إنما هو الصدق في سلامة الفرائض من خلل النقص والزيادة ، والله أعلم . (٢) متفق عليه من رواية طلحة بن عبيد الله أحد العشرة رضي الله عنهم .

(٣) أخرجه ابن ماجه والحاكم وأحمد وابن أبي شيبة والداري وأبو يعلى من رواية سالم بن أبي الجعد عن ثوبان . وهو منقطع . ورواه ابن حبان والطبراني من وجه آخر عن ثوبان . ورواه الحاكم من رواية الأعمش عن أبي سفيان عن جابر . ورواه الطبراني والعقيلي من حديث سلمة بن الأكوع وفيه الواقدي . وأخرجه ابن أبي شيبة وإسحاق والبزار والطبراني عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو . وليث ضعيف . وأشار البزار إلى أنه تفرد به .

(٤) عاد كلامه . قال : « والفواحش ما جاوز حدود الله ، والمنكر ما تشكره العقول » قال أحمد : وهذه أيضاً لفظة إلى الاعتزال ، ولو قال : والمنكر ما أنكره الشرع لوافق الحق ، ولكنه لا يدع بدعة المعتزلة في التحسين والتفبيح بالعقل ، والله الموفق .

(٥) عاد كلامه . قال : « والبغى طلب التناول بالظلم » قال أحمد : وأصل موضوعه الطلب ، ومنه ابتغاء وجه الله ، ابتغاء مرضاة الله ، ولكن صار مطلقه خاصاً بطلب الظلم عرفاً .

(٦) عاد كلامه . قال : « وحين أسقطت من الخطب لعنة الملاعين على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .. الخ » قال أحمد : ولعل المعروض بهذه الآية عن تلك الهناء ، لاحظ التطبيق بين ذكر الهوى عن البغى فيها ، وبين الحديث الوارد : في أن المناصب لعل باغ ، حيث يقول عليه الصلاة والسلام لمار وكاث من حزب علي : تقتلك الفئة الباغية ، والله أعلم ، فقتل مع علي يوم صفين .

وَعَادَ مِنْ عَادَاهُ، <sup>(١)</sup> وَكَانَتْ سَبَبَ إِسْلَامِ عُثْمَانَ بْنِ مَظْعُونٍ .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ <sup>(١١)</sup> وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ <sup>(١٢)</sup>

عهد الله : هي البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام (إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) . ﴿ولا تنقضوا﴾ أيان البيعة ﴿بعدتوكيدها﴾ أى بعدتوثيقها باسم الله . وأكد ووكد : لثقتان فصيحتان ، والأصل الواو ، والهمزة بدل ﴿كفيلا﴾ شاهد أورقياً ؛ لأن الكفيل

(١) هذا طرف من حديث غدير خم الوارد في فضل علي بن أبي طالب رضى الله عنه . وقد أخرجه النسائي وابن حبان والحاكم من رواية الأعشى عن حبيب بن أبي ثابت عن الطفيل عن زيد بن أرقم . وفيه هذا اللفظ . ورواه النسائي أيضاً من رواية شريك : قلت لأبي إسحاق : سمعت البراء يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال يوم غدير خم «من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» قال : نعم . وأخرجه ابن أبي شيبة وأبو يعلى والبزار من وجه آخر عن شريك عن إدريس بن يزيد الأشددي عن أبيه عن أبي هريرة وتابعه عكرمة بن إبراهيم عن إدريس عند الطبراني ، ورواه الطبري أيضاً من طريق سليمان بن قرم عن أبي إسحاق عن حبيش بن جندة . وأخرجه النسائي أيضاً من طريق مهاجر بن مسمار عن عائشة بنت سعد عن أبيها أن النبي صلى الله عليه وسلم «أخذ بيد علي يوم غدير خم فقال : من كنت وليه فهذا وليه . اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وأخرجه الحاكم من رواية مسلم الملقب عن حشمة بن عبد الرحمن عن سعد بن مالك نحوه وفي الباب عن ابن عمر أخرجه الطبراني من طريق عطية عنه والبزار من طريق جميل بن عمار عن سالم عن أبيه وعن أنس وغيره أخرجه الطبراني في الصغير من رواية طلحة بن مصرف عن عميرة بن سعد قال : شهدت علياً على المنبر ناشد الصحابة : من سمعه يقول يوم غدير خم ما قال ؟ فقام اثنا عشرة ، منهم أبو هريرة وأبو سعيد وأنس ، وعن جرير أخرجه الطبراني مطولاً : وعن طلحة أخرجه الحاكم من رواية رفاعه بن إياس العمي عن أبيه عن جده قال «كنا مع علي يوم الجمل فبك إلى طلحة فقال له نشدتك الله ، ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول - فذكره - فقال : نعم . قال : فلم تقاتلني ؟ قال : لم أذكره وانصرف طلحة» وعن جابر أخرجه أبو يعلى ، والطبراني في مسند الشاميين من طريق ابن أبي عمير عن بكر بن سواد عن قبيصة بن ذؤيب وأبي سلمة عن جابر ، وعن حذيفة بن أسيد أخرجه الطبراني وجمع ابن عقدة طرف حديث غدير خم . فأخرجه من رواية جماعة آخرين من الصحابة مع هؤلاء . منهم عمار بن ياسر ، والعباس وابنه ، والحسن بن علي والحسين بن علي ، وعبد الله بن جعفر ، وسلمان الفارسي ، وسمرة بن جندب ، وسلة بن الأكوع ، وزيد بن حارثة . وأبو رافع ، وزيد بن ثابت الأنصاري ، ويعلى بن مرة وآخرون .

مراع لحال المكفول به مهيم عليه ﴿ولا تكونوا﴾ في نقض الايمان كالمرأة التي أنحت على غزلها بعد أن أحكته وأبرمته لجعلته ﴿أنكاثا﴾ جمع نكث وهو ما ينكث فثله . قيل : هي ربطة بنت سعد بن تيم وكانت خرقاء ، اتخذت مغزلا قدر ذراع وصنارة مثل أصبع وفلكة عظيمة على قدرها ، فكانت تغزل هي وجواربها من الغداة إلى الظهر ، ثم تأمرهن فينقضن ماغزلن ﴿تتخذون﴾ حال و ﴿ودخلا﴾ أحد مفعولى اتخذ . يعنى : ولا تنقضوا ايمانكم متخذوها دخلا ﴿بينكم﴾ أى مفسدة ودغلا <sup>(١)</sup> ﴿أن تكون أمة﴾ بسبب أن تكون أمة يعنى جماعة قريش ﴿هى أربى من أمة﴾ هى أزيد عدداً وأوفر مالا . من أمة من جماعة المؤمنين ﴿إنما يبلوكم الله به﴾ الضمير لقوله : أن تكون أمة ؛ لأنه فى معنى المصدر ، أى : إنما يختبركم بكونهم أربى ، لينظر أتمسكون بحبل الوفاء بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم ووكدتم من ايمان البيعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أم تغتروا بكثرة قريش وثروتهم وقوتهم وقلة المؤمنين وفقيرهم وضعفهم ؟ ﴿وليبين لكم﴾ إنذار وتحذير من مخالفة ملة الإسلام .

وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ

يَشَاءُ وَلَتَسْلُتُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ <sup>(٩٣)</sup>

﴿ولو شاء الله لجمعكم أمة واحدة﴾ حنيفة مسلمة على طريق الإلجام والاضطرار ، <sup>(١)</sup> وهو قادر على ذلك ﴿ولكن﴾ الحكمة اقتضت أن يضل ﴿من يشاء﴾ وهو أن يخذل من علم أنه يختار <sup>(٢)</sup> الكفر ويصم عليه ﴿ويهدى من يشاء﴾ وهو أن يطفى بمن علم أنه يختار الإيمان . يعنى : أنه بنى الأمر على الاختيار وعلى ما يستحق به اللطف والخذلان ، والثواب والعقاب ، ولم يبنه على الإجبار الذى لا يستحق به شيء من ذلك ، وحققه بقوله ﴿ولتسلتن عما كنتم

(١) قوله «ودغلا» فى الصحاح «الدغل» بالتحريك : الفساد ، مثل الدخل (ع)

(٢) قال محمود : ومعناه على طريقة الإلجام والقسر ، قال أحد : وهذا تفسير اعتزلى قد قدم أمثاله فى أخوات هذه الآية ، وغرضه الفرار من الحق المستفاد من تعليل المشيئة بلو ، الدالة على أن مشيئة الله تعالى لايمان الخلق كلهم ماوقف ، وأنه إنما شاء منهم الافتراق والاختلاف ، فأيمان وكفر ، وتصدق وتكذيب كما وقع منهم ، ولو شاء شمولهم بالإيمان لوقع ، فيصادم الزمخشري هذا النص ويقول : قد شاء جعلهم أمة واحدة حنيفة مسلمة ، ولكن لم يقع مراده . فاذا قبل له : فعلام تحمل المشيئة فى الآية ؟ قال : على مشيئة إيمانهم قسراً لا اختياراً ، وهذه المشيئة لم تقع اتفاقاً .

(٣) قوله «وهو أن يخذل من علم أنه يختار الكفر» هذا عند المعتزلة . أما عند أهل السنة ، فالاحلال :

خلق الضلال فى القلب ؛ لأنه يجوز على الله خلق الشر عندهم دون المعتزلة ، كما بين فى محله . (ع)

تعملون) ولو كان هو المضطر إلى الضلال (١) والاهتداء ، لما أثبت لهم عملاً يستلون عنه (٢) .

وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا

السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

ثم كرر النهي عن اتخاذ الأيمان دخلاً بينهم ، تأكيداً عليهم وإظهاراً لعظم ما يركب منه (فتزل قدم بعد ثبوتها) فزل أقدامكم عن حجة الإسلام بعد ثبوتها عليها (وتذوقوا السوء) في الدنيا بصودكم (عن سبيل الله) وخروجكم من الدين . أو بصدمكم غيركم ؛ لأنهم لو نقضوا أيمان البيعة وارتدوا ، لاتخذوا نقضها سنة لغيرهم يستنون بها (ولكم عذاب عظيم) في الآخرة .

وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥)

كان قوما ممن أسلم بمكة زين لهم الشيطان - جزعهم بما رأوا من غلبة قريش واستضعافهم المسلمين ، وإيذائهم لهم ، ولما كانوا يعدونهم إن رجعوا من المواعيد - أن ينقضوا ما بايعوا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنبههم الله ، (ولا تشتروا) ولا تستبدلوا (بعهد الله) وبيعة رسول الله صلى الله عليه وسلم (ثمناً قليلاً) عرضاً من الدنيا يسيراً ، وهو ما كانت قريش يعدونهم ويمنونهم إن رجعوا (إنما عند الله) من إظهاركم وتغنيمكم ، ومن ثواب الآخرة (خيرٌ لكم) .

مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ

مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦)

(ما عندكم) من أعراض الدنيا (ينفد وما عند الله) من خزان رحمته (باق) لا ينفد . وقرئ (لنجزين) بالثبوت واليباء (الذين صبروا) على أذى المشركين ومشاق الإسلام . فإن

(١) قوله «ولو كان هو المضطر إلى الضلال» على معنى اسم الفاعل ، أى الذى يضطر العباد ويلجئهم . وقوله «لما أثبت .. الخ» مسلم ، ولكنه لم يضطرهم ولم يلجئهم ولو كان هو الخالق لأهملهم في الحقيقة ، لما لهم فيها من الكسب كما قرره أهل السنة في علم التوحيد ، فلينظر . (ع)

(٢) عاد كلامه . قال محمود : ومما يدل على أن الله لم يبن الأمر على الاجبار وإنما بناء على الاختيار قوله تعالى (ولتسئلن عما كنتم تعملون) ولو كان هو المضطر للهداية والضلال لما أثبت لهم ما يسلون عنه ، قال أحمد : أما أهل السنة الذين يسميهم المصنف مجرة فهم من الاجبار بمعزل ، لأنهم يشبثون للعبد قدرة واختياراً وأفعالا ، وهم مع ذلك يروحدون الله حق توحيد ، فيجعلون قدرته تعالى هى الموجودة والمؤثرة ، وقدرة العبد مقارنة لحسب ، تميزاً بين الاختياري والقسري وتقوم بها حجة الله على عبده ، والله الموفق .

قلت : لم وحدت القدم ونكرت ؟ (١) قلت : لاستعظام أن تزل قدم واحدة عن طريق الحق بعد أن ثبتت عليه ، فكيف بأقدام كثيرة ؟

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً  
وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾

فإن قلت : ( من ) متناول في نفسه للذكر والأنثى ، فما معنى تبيينه بهما ؟ قلت : هو مبهم صالح على الإطلاق للنوعين إلا أنه إذا ذكر كان الظاهر تناوله للذكور ، فقيل ( من ذكر أو أنثى ) على التبيين ، ليعم الموعد النوعين جميعاً ( حياة طيبة ) يعنى في الدنيا وهو الظاهر ، لقوله ( ولنجزينهم ) وعده الله ثواب الدنيا والآخرة ، كقوله ( فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ) وذلك أن المؤمن مع العمل الصالح موسراً كان أو معسراً يعيش عيشاً طيباً إن كان موسراً ، فلا مقال فيه . وإن كان معسراً ، فعه ما يطيب عيشه وهو القناعة والرضا بقسمة الله . وأما الفاجر فأمره على العكس : إن كان معسراً فلا إشكال في أمره ، وإن كان موسراً فالحرص لا يدعه أن يتهنا بعيشه . وعن ابن عباس رضى الله عنه : الحياة الطيبة : الرزق الحلال . وعن الحسن : القناعة . وعن قتادة : يعنى في الجنة . وقيل : هى حلاوة الطاعة والتوفيق في قلبه .

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْءَانَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ  
سُلْطٰنٌ عَلَى الَّذِينَ ءٰمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطٰنُهُ عَلَى الَّذِينَ  
يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

لما ذكر العمل الصالح ووعد عليه ، وصل به قوله ( فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ) لإيداناً بأن الاستعاذة من جملة الأعمال الصالحة التى يحزل الله عليها الثواب . والمعنى : فإذا أردت قراءة القرآن فاستعذ كقوله ( إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ) وكقولك : إذا أكلت فسم الله . فإن قلت : لم عبر عن إرادة الفعل بلفظ الفعل ؟ قلت : لأن الفعل يوجد عند القصد والإرادة بغير فاصل وعلى حسبه ، فكان منه بسبب قوى وملاسة ظاهرة . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : أعوذ بالسميع العليم من الشيطان الرجيم ،

(١) قال محمود : وإن قلت لم وحدت القدم ونكرت ... الخ ، قال أحمد : ومن جنس إفادة التشكيك هنا للتقليل : إفادته له في قوله تعالى ( وتعبها أذن واعية ) وفي قوله عز وجل ( اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ) فذكر الأذن والنفس تقليلاً للرأى من الناس لما يقضى بسداده ، ولناظر من الخلق في أمر معاده ، والله الموفق .

فقال لي : يا ابن أم عبد . قل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام عن القلم عن اللوح المحفوظ ، <sup>(١)</sup> ﴿ ليس له سلطان ﴾ أى تسلط وولاية على أولياء الله ، يعنى : أنهم لا يقبلون منه ولا يطيعونه فيما يريد منهم من اتباع خطواته ﴿ إنما سلطانه ﴾ على من يتولاه ويطيعه ﴿ به مشركون ﴾ الضمير يرجع إلى ربهم . ويجوز أن يرجع إلى الشيطان ، على معنى : بسبيته وغروره ووسوسته .

وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ  
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ <sup>(١٠١)</sup>

تبديل الآية مكان الآية : هو النسخ . والله تعالى ينسخ الشرائع بالشرائع لأنها مصالح ، وما كان مصلحة أمس يجوز أن يكون مفسدة اليوم ، وخلافه مصلحة . والله تعالى عالم بالمصالح والمفاسد ، فيثبت ما يشاء وينسخ ما يشاء بحكمته . وهذا معنى قوله ﴿ والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر ﴾ وجدوا مدخلا للظعن فطعنوا ، وذلك لجهلهم وبعدهم عن العلم بالناسخ والمنسوخ وكانوا يقولون : إن محمدا يسخر من أصحابه : يأمرهم اليوم بأمر وينهاهم عنه غدا ، فيأتهم بما هو أهون ؛ ولقد افتروا ، فقد كان ينسخ الأشق بالاهون ، والاهون بالأشق ، والاهون بالاهون ، والأشق بالأشق ، لأن الغرض المصلحة ، لاهوان والمشقة . فإن قلت : هل في ذكر تبديل الآية بالآية دليل على أن القرآن إنما ينسخ بمثله ، ولا يصح بغيره من السنة والإجماع والقياس ؟ قلت : فيه أن قرآنا ينسخ بمثله وليس فيه نفي نسخه بغيره ، على أن السنة المكشوفة المتواترة مثل القرآن في إيجاب العلم ، فنسخه بها كنسخه بمثله ، وأما الإجماع والقياس والسنة غير المقطوع بها فلا يصح نسخ القرآن بها .

قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى  
وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ <sup>(١٠٢)</sup>

في (ينزل) و﴿ نزله ﴾ وما فهمما من التنزيل شيئا فثبتا على حسب الحوادث والمصالح : إشارة إلى أن التبديل من باب المصالح كالتنزيل ، وأن ترك النسخ بمنزلة إزاله دفعة واحدة في خروجه عن الحكمة . و﴿ روح القدس ﴾ جبريل عليه السلام ، أضيف إلى القدس وهو الطهر ، كما يقال : حاتم الجود وزيد الخير ، والمراد الروح المقدس ، وحاتم الجواد ، وزيد الخير . والمقدس : المطهر

(١) . رواه الثعلبي مسلا عن شيخه أبي الفضل محمد بن جعفر الخزازي إلى ابن مسعود . ورواه الواحدى فى الوسيط عن الثعلبي .



من المآثم . وقرئ : بضم الدال وسكونها ﴿ بالحق ﴾ في موضع الحال ، أي نزله ملتبساً بالحكمة ، يعني أن النسخ من جملة الحق ﴿ ليثبت الذين آمنوا ﴾ ليلوهم بالنسخ ، حتى إذا قالوا فيه : هو الحق من ربنا والحكمة ، حكم لهم بثبات القدم وصحة اليقين وطمأنينة القلوب ، على أن الله حكيم فلا يفعل إلا ما هو حكمة وصواب ﴿ وهدى وبشرى ﴾ مفعول لهما معطوفان على محل ليثبت . والتقدير : تثبتنا لهم وإرشاداً وبشارة ، وفيه تعريض بحصول أضعاف هذه الخصال لغيرهم . وقرئ : ليثبت ، بالتخفيف .

وَلَقَدْ كَفَّمْهُمْ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبِي

وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٠٣﴾

أرادوا بالبشر : غلاماً كان لحويطب بن عبد العزى قد أسلم وحسن إسلامه اسمه عائش أو يعيش وكان صاحب كتب . وقيل : هو جبر ، غلام روى كان لعامر بن الحضرمي . وقيل عبدان : جبر ويسار ، كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا مرّ وقف عليهما يسمع ما يقرآن ، فقالوا : يعلمنا ، فقليل لأحدهما ، فقال : بل هو يعلمني . وقيل : هو سليمان الفارسي . واللسان : اللغة . ويقال : ألد القبر ولده ، وهو ملحد وملحود ، إذا أمال حفرة عن الاستقامة ، فحفر في شق منه ثم استعير لكل إمالة عن استقامة ، فقالوا : ألد فلان في قوله ، وألد في دينه . ومنه الملحد ؛ لأنه أمال مذهبه عن الأديان كلها ، لم يله عن دين إلى دين . والمعنى : لسان الرجل الذي يميلون قولهم عن الاستقامة إليه لسان ﴿ أعجمي ﴾ غير بين ﴿ وهذا ﴾ القرآن ﴿ لسان عربي مبين ﴾ ذو بيان وفصاحة ردّ أقولهم وإبطالا لطعنهم . وقرئ ﴿ يلحدون ﴾ بفتح الياء والحاء . وفي قراءة الحسن : اللسان الذي يلحدون إليه بتعريف اللسان . فإن قلت : الجملة التي هي قوله ( لسان الذي يلحدون إليه أعجمي ) ما محلها ؟ قلت : لا محل لها ؛ لأنها مستأنفة جواب لقولهم . ومثله قوله ( الله أعلم حيث يجعل رسالته ) بعد قوله ( وإذا جاءتهم آية قالوا لن تؤمن حتى تنوفى مثل ما أوتى رسل الله ) .

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِّبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

﴿ إن الذين لا يؤمنون بآيات الله ﴾ أي يعلم الله منهم أنهم لا يؤمنون ﴿ لا يهديهم الله ﴾ لا يلفظ بهم ؛ لأنهم من أهل الخذلان في الدنيا والعذاب في الآخرة ، لا من أهل اللطف والثواب ﴿ إنما يفتري الكذب ﴾ ردّ لقولهم ﴿ إنما أنت مفتر ﴾ يعني : إنما يليق افتراء الكذب بمن لا يؤمن ، لأنه لا يترقب عقاباً عليه ﴿ وأولئك ﴾ إشارة إلى قريش ﴿ هم الكاذبون ﴾ أي هم

الذين لا يؤمنون فهم الكاذبون . أو إلى الذين لا يؤمنون . أى أولئك هم الكاذبون على الحقيقة الكاملون في الكذب ؛ لأن تكذيب آيات الله أعظم الكذب : أو أولئك هم الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كل شيء ، لا تحجبهم عنه مروءة ولا دين . أو أولئك هم الكاذبون في قولهم ( إنما أنت مفتر ) .

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيْمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَصَمَّعِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَاجِرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخُسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

(من كفر) بدل من الذين لا يؤمنون بآيات الله ، على أن يجعل (وأولئك هم الكاذبون) اعتراضاً بين البدل والمبدل منه . والمعنى : إنما يفترى الكذب من كفر بالله من بعد إيمانه . واستثنى منهم المكره فلم يدخل تحت حكم الافتراء ، ثم قال (ولكن من شرح بالكفر صدراً) أى طاب به نفساً واعتقده (فعليهم غضب من الله) ويجوز أن يكون بدلاً من المبتدأ الذى هو (أولئك) على : ومن كفر بالله من بعد إيمانه هم الكاذبون . أو من الخبر الذى هو الكاذبون ، على : وأولئك هم من كفر بالله من بعد إيمانه . ويجوز أن ينتصب على النظم . وقد جوزوا أن يكون (من كفر بالله) شرطاً مبتدأ ، ويحذف جوابه : لأن جواب (من شرح) دال عليه . كأنه قيل : من كفر بالله فعليهم غضب ، إلا من أكره ، ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب . روى أن ناساً من أهل مكة فتنوا فارتدوا عن الإسلام بعد دخولهم فيه ، وكان فيهم من أكره فأجرى كلمة الكفر على لسانه وهو معتقد للإيمان ، منهم عمار ، وأبواه - ياسر وسمية - وصهيب ، وبلال ، وخباب ، وسالم : عذبوا . فأما سمية فقد ربطت بين بعيرين ووجئ في قبلها بحربة ، وقالوا : إنك أسلمت من أجل الرجال فقتلت ، وقتل ياسر وهما أول قتيلين في الإسلام ، وأما عمار فقد أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها ، فقيل يارسول الله ، إن عماراً كفر ، فقال : كلا . إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يبكى ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يمسح عينيه وقال : «مالك ! إن عادوا لك فعد لهم بما قلت ، ومنهم جبر مولى الحضرمي ، أكرهه سيده فكفر ثم أسلم مولاه

وأسلم ، وحسن إسلامهما ، وهاجرا <sup>(١)</sup> . فإن قلت : أى الأمرين أفضل ، أفعل عمار أم فعل أبويه ؟ قلت : بل فعل أبويه ؛ لأن في ترك التقية والصبر على القتل إعزازاً للإسلام . وقد روى أن مسيلة أخذ رجلين فقال لأحدهما : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله . قال : فما تقول في ؟ قال أنت أيضاً ، نغلاه . وقال للآخر : ما تقول في محمد ؟ قال : رسول الله . قال : فما تقول في ؟ قال أنا أصم . فأعاد عليه ثلاثاً ، فأعاد جوابه ، فقتله ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : « أما الأول فقد أخذ برخصة الله . وأما الثاني فقد صدع بالحق فهنيئاً له <sup>(٢)</sup> ، (ذلك) » إشارة إلى الوعيد ، وأن الغضب والعذاب يلحقانهم بسبب استحبابهم الدنيا على الآخرة ، واستحقاقهم خذلان الله بكفرهم <sup>(٣)</sup> (وأولئك هم الكافرون) الكاملون في الغفلة ، الذين لا أحد أغفل منهم ؛ لأن الغفلة عن تدبر العواقب هي غاية الغفلة ومنتهىها .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا مِنْ جِهَادٍ وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَدِّدُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوقَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾

(ثم إن ربك) دلالة على تباعد حال هؤلاء من حال أولئك ، وهم عمار وأصحابه . ومعنى : إن ربك لهم ، أنه لهم لا عليهم ، بمعنى أنه وليهم وناصرهم لاعدوهم وخادهم ، كما يكون الملك الرجل لآعليه ، فيكون محمياً منفعوا غير مضرور <sup>(٤)</sup> (من بعد ما قتلوا) بالعذاب والإكراه على

(١) هكذا أورده الثعلبي عن ابن عباس بغير سند . وروى الحاكم من حديث زر عن ابن مسعود قال : « أول من أظهر إسلامه سبعة : فذكرهم إلى أن قال : فأخذهم المشركون فألبسوه أذراع الحديد - الحديد ، ورواه ابن سعد من طريق منصور عن مجاهد قال « أول من أظهر فذكر مثله - وزاد لجاء أبو جهل يشتم سمية ويرفث ثم طعنها فقتلها . فهي أول شهيد في الإسلام . قلت قوله صلى الله عليه وسلم « إن عماراً ملئ إيماناً » رواه <sup>(٥)</sup> وقوله « اختلط الإيمان بلحمه ودمه ، رواه <sup>(٥)</sup> وقوله « إن عادوا لك فعدلهم » رواه <sup>(٥)</sup> »

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة قال : حدثنا إسماعيل بن علية عن يونس عن الحسن « أن عيونا لمسيلة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ فأهوى إلى أذنيه وقال : إني أصم ، فأعاد عليه ، فقال مثله ، فأمر بقتله . وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أني رسول الله ؟ قال : نعم ، فأرسله . فأق النبي صلى الله عليه وسلم فقال : هلك . فقال : وما شأنك ؟ فأخبره بقصته وقصة صاحبه فقال أما صاحبك فعصى على إيمانه . وأما أنت فأخذت بالرخصة . وأخرجه عبد الرزاق في التفسير عن معمر قال : سمعت أن مسيلة أخذ رجلين فذكره بنحوه . وذكر الواحدى في المنازى أن اسم المقتول : حبيب بن زيد عم عباد بن تميم ، واسم الآخر : عبد الله بن وهب الأسلمي . قال : وكان في الساقة . وذكروا أنه قطعه عضواً عضواً وأحرقه بالنار .

الكفر . وقرى (فتنوا) على البناء للفاعل ، أى : بعد ما عذبوا المؤمنين كالحصرمى وأشباهه (من بعدها) من بعد هذه الأفعال وهى الهجرة والجهاد والصبر (يوم تأتى) منصوب برحيم . أو يا ضمار اذكر . فإن قلت : ما معنى النفس المضافة إلى النفس ؟ قلت : يقال لعين الشيء وذاته نفسه ، وفى نقيضه غيره ، والنفس الجملة كما هى ، فالنفس الأولى هى الجملة ، والثانية عينها وذاتها ، فكانه قيل : يوم يأتى كل إنسان يجادل عن ذاته لايهمه شأن غيره ، كل يقول : نفسى نفسى . ومعنى المجادلة عنها : الاعتذار عنها كقوله ( هؤلاء أضلونا ) ، ( ما كنا مشركين ) ونحو ذلك .

وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾

( وضرب الله مثلاً قرية ) أى جعل القرية التى هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة ، فكفروا وتولوا ، فأزل الله بهم نعمته . فيجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة ، وأن تكون فى قرى الأولين قرية كانت هذه حالها ، فضربها الله مثلاً لمكة إنذاراً من مثل عاقبتها ( مطمئنة ) لا يعجزها خوف ، لأن الطمأنينة مع الأمن ، والازعاج والقلق مع الخوف ( رغداً ) واسعاً . والأنعم : جمع نعمة ، على ترك الاعتداد بالناء ، كدفع وأدفع . أو جمع نعم ، كبؤس وأبؤس . وفى الحديث . نادى منادى النبى صلى الله عليه وسلم بالموسم بنى : « إنها أيام طعم ونعم فلا تصوموا » (١) . فإن قلت : الإذاقة واللباس استعارتان ، فما وجه صحتها ؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار ، فما وجه صحة إيقاعها عليه (٢) ؟ قلت :

(١) لم أجده هكذا .

(٢) قال محمود : « إن قلت الإذاقة واللباس استعارتان فما وجه صحة إيقاع الإذاقة على اللباس ... الخ » ؟ قال أحمد : وهذا الفصل من كلامه يستحق على علماء البيان أن يكتبوه بذب التبر لا بالخبر ، وقد نظر إليهما جميعاً فى قوله تعالى ( أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ) فاستعير الشراء لاختيارهم الضلالة على الهدى ، وقد كانوا متمكنين من اختياره عليها ، ثم جاء ملاحظاً للشراء المستعار قوله ( فما ربحت تجارتهم ) فاستعمل التجارة والربح ليناسب ذلك لاستعارة الشراء ، ثم جاء ملاحظاً للحقيقة الأصلية المستعار لها قوله ( وما كانوا مهتدين ) فانه مجرد عن الاستعارة ، إذ لو قيل أولئك الذين ضلوا وما كانوا مهتدين ، لكان الكلام حقيقة معرى عن ثوب الاستعارة والنظر إلى المستعار فى بابه ، كترشيع المجاز فى بابه . ومنه :

أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا والشدائد وما يمس الناس منها ، فيقولون : ذاق فلان البؤس والضر ، وأذاقه العذاب : شبه ما يدرك من أثر الضرر والالم بما يدرك من طعم المر والبشع <sup>(١)</sup> . وأما اللباس فقد شبه به لاشتغاله على اللباس : ماغشى الإنسان والتبس به من بعض الحوادث . وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف ، فلأنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس ، فكأنه قيل : فأذاقه ماغشيه من الجوع والخوف ، ولهم في نحو هذا طريقان لا بد من الإحاطة بهما ، فإن الاستنكار لا يقع إلا لمن فقدهما ، أحدهما : أن ينظروا فيه إلى المستعار ، كما نظر إليه ههنا . ونحوه قول كثير :

عَمَرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكًا غَلَقَتْ لِضَحَكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ <sup>(٢)</sup>

استعارة الرداء للمعروف ، لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلقى عليه . ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف <sup>(٣)</sup> والنوال ، لصفة الرداء ، نظر إلى المستعار له . والثاني : أن ينظروا فيه إلى المستعار ، كقوله :

بُنَارِغِي رِدَائِي عَبْدٌ عَمْرٍو رُوَيْدُكَ يَا أَخَا عَمْرِو بْنِ بَكْرٍ  
لِي السُّطْرُ الَّذِي مَلَكَتْ يَمِينِي وَدُونَكَ فَأَعْتَجِرْ مِنْهُ بَشِيرٍ <sup>(٤)</sup>

إذا الشيطان فصع في قفاهما تنفقناه بالجبل التوام

جعل الشيطان في قفاهما قاصدا ثم ناقا ، ثم جملة مستخرجا بالجبل المحكم المثنى كما يستخرج الحيوان من جحره ، والسطوط في هذا الفن البديع فطين ، والله الموفق .

- (١) قوله « بما يدرك من الطعم المر والبشع » عبارة غيره : طعم المر والبشع ، ولعله المر بالبشع بدون واو . (ع)  
(٢) لكثير . والغمر : الكثير . وشبه العطاء بالرداء ، لأنه يصورت عرض صاحبه أو يستقر فقر السائل ، فاستعاره له على سبيل التصريحية وإضافة الغمر إليه تجريد ، لأنه يلائم المشبه . هذا وقد يقال الغمر ، يطلق على الماء الذي يغمر قامة المتغمس فيه ، فيجوز أنه يشبه العطاء من حيث صونه عرض صاحبه بالرداء ، فيكون استعارة مصرحة ، وتكون إضافة الغمر إليه من إضافة المشبه به للمشبه ، بجامع عموم كل ونفقه ، والقرينة على كل ذلك قوله : إذا تبسم . شارحا في الضحك ، غلقت لضحكته رقاب المال : يقال : غلق الرجل إذا صجر وغضب ، وغلق الرهن إذا ملكه المرتين ولم يقدر صاحبه على فككه ، وكانت تلك عادتهم . فالغنى : إذا ضحك غضبت الأموال لعلها أهما ستؤخذ ويملكها غيره ، أو ثبتت في أيدي السائلين وملكوها . ورقاب المال : مجاز مرسل ، أى أعيانه .  
(٣) قوله « ووصفه بالغمر الذى هو وصف المعروف » فى الصحاح الغمر الماء الكثير . وفيه والاعتجاء لف العامة على الرأس ، وفيه والضافى السابق . (ع)  
(٤) استعار المنازعة لتسبيه فى امتداد السيف إليه حتى توسط بينهما ، كالشئ يتجاذبه اثنان . واستعار الرداء للسيف بجامع حفظ كل لصاحبه وعدم الاستغناء عنه . والاعتجاء ترشيح ، ومعناه : التعم أو التلقع ، فهو ملائم للرداء . ويحتمل أن التركيب كله من باب التثيل . وعبد عمرو : فاعل . ورويدك : اسم فعل ، بمعنى أمهل ، والكاف حرف خطاب ، قاله الجوهري . وبالنظر لأصله فهو مصدر ، والكاف مضاف إليه ، وفيه التثفات . وبكر :

أراد بردائه سيفه ، ثم قال : فاعتجر منه بشطر ، فنظر إلى المستعار في لفظ الاعتجار ، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقليل : فكساهم لباس الجوع والخوف ، ولقال كثير : ضافى الرداء إذا تبسم ضاحكا (وم ظالمون) في حال التباسهم بالظلم ، كقوله (الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) نعوذ بالله من مفاجأة النعمة والموت على الغفلة . وقرئ (والخوف) عطفاً على اللباس ، أو على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه . أصله : ولباس الخوف . وقرئ : لباس الخوف والجوع .

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالْدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أَهْلُ لَيْعٍ لَّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ قَمْنٍ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٥﴾

لما وعظهم بما ذكر من حال القرية وما أوتيت به من كفرها وسوء صنيعها ، وصل بذلك بالفاء في قوله (فكلوا) صدم عن أفعال الجاهلية ومذاهبهم الفاسدة التي كانوا عليها ، بأن أمرهم بأكل ما رزقهم الله من الحلال الطيب ، وشكر إنعامه بذلك ، وقال (إن كنتم إياه تعبدون) يعنى تطيعون . أو إن صح زعمكم أنكم تعبدون الله بعبادة الآلهة ، لأنها شفعاؤكم عنده . ثم عدد عليهم محرمات الله ، ونهاهم عن تحريمهم وتحليلهم بأهوائهم وجهالاتهم ، دون اتباع ما شرع الله على لسان أنبيائه .

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَمْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَّعْ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾

وانتصاب (الكذب) بلا تقولوا ، على : ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم من البهائم بالحل والحرم في قولكم (ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ومحرم على أزواجنا) من غير استناد ذلك الوصف إلى وحى من الله أو إلى قياس مستند إليه . واللام مثلها في قولك : ولا تقولوا لما أحل الله هو حرام . وقوله (هذا حلال وهذا حرام) بدل من الكذب . ويجوز أن يتعلق بتصف على إرادة القول ، أى : ولا تقولوا الكذب لما تصفه ألسنتكم ،

== أبو قبيلة . والبطر الذى ملكته يمينه : هو مقيض السيف . ودونك : اسم فعل بمعنى خذ ، أى خذ فلتلق منه بالبطر الآخر وهو صدره ، والأمر للإباحة ، وفيه نوع تهكم .

فقول هذا حلال وهذا حرام . ولك أن تنصب الكذب بتصف ، وتجعل ما ، مصدرية ، وتعلق (هذا حلال وهذا حرام) بلا تقولوا ، على : ولا تقولوا هذا حلال وهذا حرام لوصف ألسنتكم الكذب ، أى : لا تحرموا ولا تحلوا لأجل قول تنطق به ألسنتكم ويجول في أفواصكم ، لا لأجل حجة وبينه ، ولكن قول ساذج ودعوى فارغة . فإن قلت : مامعنى وصف ألسنتهم الكذب ؟ قلت : هو من فصيح الكلام وبلغه ، جعل قولهم كأنه عين الكذب ومحضه ، فإذا نطقت به ألسنتهم فقد حلت الكذب بحليته وصورته بصورته ، كقولهم : وجهها يصف الجمال . وعينها تصف السحر ، وقرئ (الكذب) بالجر صفة لما المصدرية ، كأنه قيل : لوصفها الكذب . بمعنى الكاذب ، كقوله تعالى (بدم كذب) والمراد بالوصف : وصفها البهايم بالحل والحرمة . وقرئ (الكذب) جمع كذوب بالرفع ، صفة للألسنة ، وبالنصب على الشتم . أو بمعنى : الكلم الكواذب ، أو هو جمع الكذاب من قولك : كذب كذايا ، ذكره ابن جني . واللام في ﴿ لتفتروا ﴾ من التعليل الذى لا يتضمن معنى الغرض ﴿ متاع قليل ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى منفعتهم فيما هم عليه من أفعال الجاهلية منفعة قليلة وعقابها عظيم .

وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ

كَانُوا أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

(ماقصصنا عليك) معنى فى سورة الأنعام .

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا

إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَفَوْرٌ رَحِيمٌ ﴿١١٩﴾

(بجهالة) فى موضع الحال ، أى : عملوا سوء جاهلين غير عارفين بالله وبعقابه ، أو غير متدبرين للعاقبة لغلبة الشهوة عليهم (من بعدها) من بعد التوبة .

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾

شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا

حَسَنَةً وَآتَاءَهُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٢﴾

(كان أمة) فيه وجهان ، أحدهما : أنه كان وحده أمة من الأمم <sup>(١)</sup> لكماله فى جميع صفات

(١) قال محمود : « فى قوله أمة وجهان ، أحدهما : أنه كان وحده أمة من الأمم ... الخ » قال أحد : ويقوى =

الخير ، كقوله :

وَلَيْسَ عَلَى اللَّهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ الْعَالَمَ فِي وَاحِدٍ <sup>(١)</sup>

وعن مجاهد : كان مؤمناً وحده والناس كلهم كفار . والثاني : أن يكون أمة بمعنى مأموم ، أى : يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير ، أو بمعنى مؤتم به كالرحلة <sup>(٢)</sup> والتخبة . وما أشبه ذلك مما جاء من فعلة بمعنى مفعول ، فيكون مثل قوله ( قال إني جاعلك للناس إماماً ) وروى الشعبي عن فروة بن نوفل الأشجعي عن ابن مسعود أنه قال : إن معاذاً كان أمة قانتاً لله ، فقلت : غلطت ، إنما هو إبراهيم . فقال : الأمة : الذى يعلم الخير . والقانت المطيع لله ورسوله <sup>(٣)</sup> . وكان معاذ كذلك . وعن عمر رضى الله عنه أنه قال - حين قيل له : ألا تستخلف ؟ - : لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته : ولو كان معاذ حياً لاستخلفته . ولو كان سالم حياً لاستخلفته فإني سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم يقول : « أبو عبيدة أمين هذه الأمة » ، ومعاذ أمة قانت لله . ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون ، وسالم شديد الحب لله . لو كان لا يخاف الله لم يعصه <sup>(٤)</sup> . وهو ذلك المعنى ، أى : كان إماماً في الدين : لأن الأئمة معلبو الخير .

== هذا الثاني قوله تعالى ( ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً ) أى كان أمة يؤمه الناس ليقتبسوا منه الخيرات ويقفوا بآثاره المباركات ، حتى أنت على جلالة قدرك قد أوحينا إليك أن اتبع ملة ووافق سيرته ، واه أعلم .

(١) قولاً لهرون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد

أنت على مابك من قدرة فقلت : مثل الفضل بالواجد

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

لأن نواس يعطف هرون الرشيد على الفضل البرمكي حين توعده بالقتل ، غيره منه لما سمع من نهايته في الكرم ، وخاطب الاثنين تأسيساً بعبادة العرب ، والاحتفال : الاجتماع . والحاشد الجامع ، وعلى بمعنى مع ، أى : أنت مع كونك في غاية الاقتدار لست واجداً مثل الفضل في العالم كله ، ودخلت الفاء في خبر المبتدأ لما فيه خبره من راحة الثمر ، أى : وإن كنت قادراً ، ودخلت الباء في خبر ليس لتوكيد النفي ، واستدل على ذلك بقوله : ليس مستنكراً على الله جمعه خصال العالم كلها في رجل واحد كالفضل ، هذا ما يقاوم منه ظاهر النظم ، لكنه خلاف مقتضى مقام الاستعظام ، فالتمنى فلا يكن منك غيره من الفضل ، فإن كرمه بعض صفاتك ، فإن الله قادر على جمع صفات العالم كلها فيك ، وقد فعل . ويروى : من الله بدل على الله . ويروى : يستبدع ، بدل بمستنكر .

(٢) قوله « كالرحلة » في الصحاح « الرحلة » بالضم : الوجه الذى تريد ، وبالكسر : الارتحال . (ع)

(٣) أخرجه الطبراني والحاكم وأبو نعيم في الحلية . من رواية علي بن منصور عن عبد الرحمن عن الشعبي حدثني فروة بن نوفل الأشجعي قال قال ابن مسعود . فذكره . لكن ليس فيه : فقلت له « غلطت » بل فيه فقيل له : إن إبراهيم . وفيه . وكان معاذ بن جبل يعلم الناس الخير . وكان مطيعاً لله ورسوله . ورواه الحاكم أيضاً من رواية شعبة عن فراس عن الشعبي عن مسروق عن عبد الله قال « إن معاذاً كان أمة قانتاً لله ، فقال رجل من أنجب يقال له : فروة ابن نوفل : إنما ذاك إبراهيم . فقال عبد الله : إنا كنا نشبهه بإبراهيم - الحديث » وأخرجه عبد الرزاق . ومن طريق الحاكم قال أخبرنا الثوري عن فراس نحوه .

(٤) لم أجده



والقانت : القائم بما أمره الله . والخفيف : المائل إلى ملة الإسلام غير الزائل عنه . ونفى عنه الشرك تكذيباً لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملة أبيهم إبراهيم ﴿شاكراً لأنعمه﴾ روى أنه كان لا يتغذى إلا مع ضيف . فلم يجد ذات يوم ضيفاً ، فأخر غداه ، فإذا هو بموج من الملائكة في صورة البشر ، فدعاهم إلى الطعام فخلوا له أن بهم جذاماً ؟ فقال : الآن وجبت مواكلتكم شكر الله على أنه عافاني وابتلاككم ﴿اجتباها﴾ اختصه واصطفاه للنبوّة ﴿وهدها إلى صراط مستقيم﴾ إلى ملة الإسلام ﴿حسنة﴾ عن قتادة : هي تنويه الله بذكره ، حتى ليس من أهل دين إلا وهم يتولونه . وقيل : الأموال والأولاد . وقيل : قول المصلي منا : كما صليت على إبراهيم ﴿لمن الصالحين﴾ لمن أهل الجنة .

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾  
﴿ثم أوحينا إليك﴾ في ثم ، هذه ما فيها من تعظيم منزلة رسول الله <sup>(١)</sup> صلى الله عليه وسلم ، وإجلال محله ، والإيذان بأن أشرف ما أوتي خليل الله إبراهيم من الكرامة ، وأجل ما أوتي من النعمة : اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ملته . من قبل أنها دلت على تباعد هذا الثمت في المرتبة من بين سائر النعوت التي أثنى الله عليه بها .

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهَ حَكْمٌ يَوْمَ

الْقِسْمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

﴿السبت﴾ مصدر سببت اليهود إذا عظمت سبتها . والمعنى : إنما جعل وبال السبت وهو المسخ ﴿على الذين اختلفوا فيه﴾ واختلافهم فيه أنهم أحلوا الصيد فيه تارة وحرموه تارة ، وكان الواجب عليهم أن يتفقوا في تحريمه على كلمة واحدة بعد ما حتم الله عليهم الصبر عن الصيد فيه وتعظيمه . والمعنى في ذكر ذلك ، نحو المعنى في ضرب القرية التي كفرت بأنعم الله مثلاً ، وغير ما ذكر ، وهو الإنذار من سخط الله على العصاة والمخالفين لأوامره والخالفين ربة طاعته . فإن قلت : ما معنى الحكم بينهم إذا كانوا جميعاً محلين أو محرمين ؟ قلت : معناه أنه يجازيهم جزاء اختلاف

(١) عذ كلامه . قال محمود : «وفي ثم هذه ما فيها من تعظيم منزلة محمد صلى الله عليه وسلم ... الخ» قال أحد : وإنما تفيد لك ثم لأنها في أصل وضعها لقراخي المعطوف عليه في الزمان ، ثم استعملت في تراخيه عنه في علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى رتبة وأشنع علا عما عطف عليه ، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى : وههنا ما هو أعلى من ذلك كله قدراً وأرفع رتبة وأبعد رفعة ، وهو أن النبي الأمي الذي هو سيد البشر متبع لملة إبراهيم ، مأمور باتباعه بالوحى ، مثل أمره بذلك في القرآن العظيم . ففي ذلك تعظيم لما جميعاً ، لكن نصيب النبي صلى الله عليه وسلم من هذا التعظيم أوفر وأكبر على ما مهدناه ، والله الموفق للصواب .

فعلهم في كونهم محلين تارة ومحذرين أخرى ووجه آخر: وهو أن موسى عليه السلام أمرهم أن يجعلوا في الأسبوع يوما للعبادة وأن يكون يوم الجمعة، فأبوا عليه وقالوا: نريد اليوم الذي فرغ الله فيه من خلق السموات والأرض وهو السبت، إلا شذمة منهم قد رضوا بالجمعة، فهذا اختلافهم في السبت لأن بعضهم اختاره وبعضهم اختار عليه الجمعة، فأذن الله لهم في السبت وابتلاهم بتحريم الصيد فيه، فأطاع أمر الله الراضون بالجمعة، فكانوا لا يصيدون فيه، وأعقابهم لم يصبروا عن الصيد فسخمهم الله دون أولئك، وهو يحكم ﴿بينهم يوم القيامة﴾ فيجازي كل واحد من الفريقين بما يستوجبه. ومعنى جعل السبت: فرض عليهم تعظيمه وترك الاصطياد فيه. وقرئ: إنما جعل السبت، على البناء للفاعل. وقرأ عبد الله: إنا أنزلنا السبت.

أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدْ لَهُمُ الْبَلَىٰ هِيَ أَحْسَنُ  
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صَلَّى عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

﴿إلى سبيل ربك﴾ إلى الإسلام ﴿بالحكمة﴾ بالمقالة المحكمة الصحيحة، وهي الدليل الموضح للحق المزيل للشبهة ﴿والموعظة الحسنة﴾ وهي التي لا يخفى عليهم أنك تناصهم بها وتقصد ما ينفعهم فيها. ويجوز أن يريد القرآن، أي: ادعهم بالكتاب الذي هو حكمة وموعظة حسنة ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ بالطريقة التي هي أحسن طرق المجادلة من الرق واللين، من غير فظاظ ولا تعنيف ﴿إن ربك هو أعلم﴾ بهم فمن كان فيه خير كفاه الوعظ القليل والنصيحة اليسيرة، ومن لا خير فيه عجزت عنه الحيل، وكأنك تضرب منه في حديد بارد.

وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَإِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾  
وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَلُوقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾  
إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

سمى الفعل الأول باسم الثاني للزواجة. والمعنى: إن صنع بكم صنيع سوء من قتل أو نحوه، فقا بلوه بمثله ولا تزيدوا عليه. وقرئ: وإن عقبتهم فعقبوا، أي: وإن قفيتهم بالانتصار فقفوا بمثل ما فعل بكم. روى أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد: بقروا بطونهم وقطعوا مذاكيرهم، ما تركوا أحدا غير يمثول به إلا حنظلة بن الراهب، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على حمزة وقدمثل به، وروى:

فَرَأَاهُ مَبْقُورَ الْبَطْنِ فَقَالَ : «أَمَا وَالَّذِي أَحْلَفَ بِهِ ، لئن أظفرتني الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك»<sup>(١)</sup> ، فنزلت ، فكفر عن يمينه وكف عما أَرَادَهُ ، ولا خلاف في تحريم المثلة . وقد وردت الأخبار بالنهي عنها<sup>(٢)</sup> حتى بالكلب العقور . إما أن يرجع الضمير في ﴿هُوَ﴾ إلى صبرهم وهو مصدر صبرتم . ويراد بالصابرين : المخاطبون ، أي : ولئن صبرتم لصبركم خير لكم ، فوضع الصابرون موضع الضمير ثناء من الله عليهم بأنهم صابرون على الشدائد . أو وصفهم بالصفة التي تحصل لهم إذا صبروا عن المعاقبة . وإما أن يرجع إلى جنس الصبر - وقد دل عليه صبرتم - ويراد بالصابرين جنسهم . كأنه قيل : وللصبر خير للصابرين . ونحوه قوله تعالى ( فمن عفا وأصلح فأجره على الله ) . ( وأن تعفوا أقرب للتقوى ) ثم قال لرسوله صلى الله عليه وسلم ﴿واصبر﴾ أنت فعزم عليه بالصبر ﴿وما صبرك إلا بالله﴾ أي بتوفيقه وتثيته وربطه على قلبك ﴿ولا تحزن عليهم﴾ أي على الكافرين . كقوله ( فلا تأس على القوم الكافرين ) أو على المؤمنين وما فعل بهم الكافرون ﴿ولا تك في ضيق﴾ وقرئ : ولا تكن في ضيق ، أي : ولا يضيق صدرك من مكرهم . والضيق : تخفيف الضيق ، أي في أمر ضيق . ويجوز أن يكون الضيق والضيق مصدرين . كالقيل والقول ﴿إن الله مع الذين اتقوا﴾ أي هو ولي الذين اجتنبوا المعاصي ﴿و﴾ ولي ﴿الذين هم محسنون﴾ في أعمالهم . وعن هرم بن حيان أنه قيل له حين احتضر : أوص . فقال : إنما الوصية من المال ولا مال لي ، وأوصيكم بخواتم سورة النحل .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من قرأ سورة النحل لم يحاسبه الله بما أنعم عليه في دار الدنيا وإن مات في يوم تلاها أو ليته . كان له من الأجر كالذي مات وأحسن الوصية »<sup>(٣)</sup>

(١) أخرجه الثعلبي بغير سند . وقصة حزة أخرجهما البزار والطبراني من رواية سليمان التيمي عن ابن عثمان عن أبي هريرة وأن النبي صلى الله عليه وسلم نظر يوم أحد إلى حزة وقد قتل ومثل به . فرأى منظرًا لم يرق قط أوجع قلبه منه . وذكر باقي الحديث أتم مما ذكره هنا ورواية صالح سهو عن سليمان . وصالح ضعيف . وله طريق أخرى أخرجهما الدارقطني من رواية إسماعيل بن عباس قال « لما انهصرف المشركون عن قتلى أحد فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعمة حزة منظرًا أساءه ، وقد شق بطنه واضطلم أنفه . فذكر القصة » وفيها : لأمثلن مكانه بسبعين رجلاً . وذكر الصلاة عليه وعلى آله . قال : فلما دفنوا وفرغ منهم نزلت ( ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة - الآية ) فصبر ولم يمثل بأحد ، قال الدارقطني : تفرد به إسماعيل وهو ضعيف عن غير الشاميين . قلت : وأما أول الكلام فذكره .

(٢) قلت روى ذلك عن جماعة من الصحابة .

(٣) رواه الثعلبي وابن مردويه . وقد تقدم سند في آل عمران .

## سورة الإسراء

مكية | إلا الآيات ٢٦ و ٣٢ و ٣٣ و ٥٧ ، ومن آية ٧٣ إلى غاية آية ٨٠ فمدنية |  
وآياتها ١١١ | نزلت بعد القصص |

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَعَلَّ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا  
الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)

(سبحان) علم للتسبيح كعثمان للرجل ، وانتصابه بفعل مضمر متروك إظهاره ، تقديره :  
أسبح الله سبحانه ، ثم نزل سبحانه منزلة الفعل فسد مسدده ، ودل على التنزيه البليغ من جميع القبائح  
التي يضيفها إليه أعداء الله . (١) و (أسرى) وسرى لغتان . و (ليلا) نصب على الظرف .  
فإن قلت : الإسراء لا يكون إلا بالليل ، فما معنى ذكر الليل ؟ (٢) قلت : أراد بقوله ( ليلا )  
بلفظ التشكير : تقليل مدة الإسراء ، وأنه أسرى به في بعض الليل من مكة إلى الشام مسيرة  
أربعين ليلة ، وذلك أن التشكير فيه قد دل على معنى البعضية . ويشهد لذلك قراءة عبد الله

(١) قوله «القبائح التي يضيفها إليه أعداء الله» يريد بهم أهل السنة القائلين بأنه تعالى هو الخالق لجميع الحوادث  
من أفعال العباد وغيرها ، خيراً كانت أو شراً ، خلافاً لمنزلة في قولهم : إن العبد هو الخالق لفعل نفسه حتى يكون  
مقدوراً له ، فيصح تكليفه به ، ولكن استند أهل السنة لمثل قوله تعالى (الله خالق كل شيء) (و الله خلقكم وما تعملون)  
وهذا لا ينافي اختيار العباد في أفعالهم ، لأنهم أثبتوا لهم الكسب فيها ، كما تقرر في علم التوحيد . (ع)

(٢) قال محمود : «فإن قلت : الإسراء لا يكون إلا بالليل ، فما معنى ذكر الليل ... الخ ؟ قال أحد وقد  
قرن الإسراء بالليل في موضع لا يليق الجواب عنه بهذا ، كقوله (فأسر بأهلك بقطع من الليل) وكقوله تعالى (فأسر  
بعبادي ليلا) فالظاهر - والله أعلم - أن الغرض من ذكر الليل وإن كان الإسراء يفيد تصوير السير بصورته في  
ذهن السامع ، وكان الإسراء لما دل على أسرى ، أحدهما : السير ، والآخر : كونه ليلا . أريد أفراد أحدهما  
بالذكر تثبيته في نفس المخاطب ، وتنبهها على أنه مقصود بالذكر . ونظيره في أفراد أحد مادل عليه اللفظ المتقدم  
مضموماً لغيره قوله تعالى (وقال الله لا تتخذوا إلجين اثنين ، إنما هو إله واحد) فالاسم الحامل للتنبيه دال عليها  
وعلى الجنسية ، وكذلك المفرد ، فأريد التنبيه لأن أحد المثنين وهو الشبهة مراد مقصود ، وكذلك أريد الإيقاظ :  
لأن الوحدانية هي المقصودة في قوله (إنما هو إله واحد) ولو اقتصر على قوله (إنما هو إله) لأدوم أن المهم إثبات  
الإلهية له ، والغرض من الكلام ليس إلا الإثبات للوحدانية ، والله أعلم .

وحذيفة : من الليل ، أى : بعض الليل ، كقوله (ومن الليل قمجد به نافلة ) يعنى الأمر بالقيام فى بعض الليل . واختلف فى المكان الذى أسرى منه ف قيل : هو المسجد الحرام بعينه . وهو الظاهر . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم : « بينا أنا فى المسجد الحرام فى الحجر عند البيت بين النائم واليقظان إذ أتانى جبريل عليه السلام بالبراق<sup>(١)</sup> » وقيل : أسرى به من دار أم هانئ بنت أبي طالب والمراد بالمسجد الحرام : الحرم ، لإحاطته بالمسجد والتباسة به . وعن ابن عباس : الحرم كله مسجد . وروى أنه كان نائماً فى بيت أم هانئ بعد صلاة العشاء فأسرى به<sup>(٢)</sup> ورجع من ليلته ، وقص القصة على أم هانئ . وقال : مثل لى التنيون فصليت بهم وقام ليخرج إلى المسجد فتشبثت أم هانئ بثوبه فقال : مالك ؟ قالت : أخشى أن يكذبك قومك إن أخبرتهم ، قال : وإن كذبتى ، فخرج لجلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بحديث الإسراء ، فقال أبو جهل : يا معشر بنى كعب بن لؤى ، هلم فخذتهم ، فن بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجباً وإنكاراً . وارتد ناس ممن كان قد آمن به ، وسعى رجال إلى أبي بكر رضى الله عنه فقال : إن كان قال ذلك لقد صدق . قالوا : أتصدق على ذلك ؟ قال : إني لأصدق على أبعد من ذلك ، فسمى الصديق . وفيهم من سافر إلى مائمه ، فاستنعتوه المسجد فجلى له بيت المقدس ، فطلق ينظر إليه وينعته لهم ، فقالوا : أما التعت فقد أصاب ، فقالوا : أخبرنا عن غيرنا ، فأخبرهم بعدد جمالها وأحوالها ، وقال : تقدم يوم كذا مع طلوع الشمس ، يقدمها جل أورك ، فخرجوا يشتدون ذلك اليوم نحو الثانية ، فقال قائل منهم : هذه والله الشمس قد شرقت ، فقال آخر : وهذه والله العير قد أقبلت يقدمها جل أورك كما قال محمد ، ثم لم يؤمنوا وقالوا : ما هذا إلا سحر مبين ، وقد عرج به إلى السماء فى تلك الليلة ، وكان العروج به من بيت المقدس وأخبر قريشاً أيضاً بما رأى فى السماء من العجائب وأنه لقي الأنبياء وبلغ البيت المعمور وسدرة المنتهى واختلفوا فى وقت الإسراء فقيل كان قبل الهجرة بسنة . وعن أنس والحسن أنه كان قبل البعث واختلف فى أنه كان فى اليقظة أم فى المنام فعن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : « والله ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن عرج بروحه »<sup>(٣)</sup> وعن معاوية : إنما عرج بروحه . وعن الحسن . كان فى المنام رؤيا رآها . وأكثر

(١) متفق عليه من حديث مالك بن صعصعة مطولاً .

(٢) ذكره الثعلبي عن ابن عباس بغير سند . وكأنه من رواية الكلبي عن أبي صالح عنه . ثم رأيت من رواية جبرير عن الضحاك عن ابن عباس . أخرجه الحاكم والبيهقي عنه . لكن لم يسبق لفظه . وقد رواه النسائي باختصار عن هذا من رواية عوف عن زائدة بن أوفى عن ابن عباس . وأورده ابن سعد وأبو يعلى والطبراني من حديث أم هانئ مطولاً .

(٣) قال ابن إسحاق فى المغازى : حدثني بعض آل أبي بكر عن عائشة بهذا « لكن أسرى » بدل « عرج » قال ابن إسحاق : وحدثني يعقوب بن عتبة عن ابن معاوية قال : كانت رؤيا من الله صادقة .

الأقوال بخلاف ذلك . والمسجد الأقصى : بيت المقدس ، لأنه لم يكن حينئذ وراءه مسجد ﴿ باركنا حوله ﴾ يريد بركات الدين والدنيا ، لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى ومهبط الوحى ، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة . وقرأ الحسن : ليريه بالياء ، ولقد تصرف الكلام على لفظ الغائب والمتكلم وقيل : أسرى ثم باركنا ثم ليريه . على قراءة الحسن ، ثم من آياتنا . ثم إنه هو ، وهى طريقة الالتفات التى هى من طرق البلاغة ﴿ إنه هو السميع ﴾ لأقوال محمد (البصير) بأفعاله ، العالم بتهذيبها وخلوصها ، فيكرمه ويقزبه على حسب ذلك .

وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِنْ

دُونِي وَكِيلًا ۝ ٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ۝ ٣

﴿ ألا تتخذوا ﴾ قرئ بالياء على : ثلاث يتخذوا . وبالتاء على : أى لا تتخذوا . كقولك : كتبت إليه أن أفعل كذا ﴿ وكيلا ﴾ ربا تسلكون إليه أموركم ﴿ ذرية من حملنا ﴾ نصب على الاختصاص . وقيل : على النداء فيمن قرأ ﴿ لا تتخذوا ﴾ بالتاء على التثنية ، يعنى : قلنا لهم لا تتخذوا من دونى وكيلا يا ذرية من حملنا ﴿ مع نوح ﴾ وقد يجعل ﴿ وكيلا ذرية من حملنا ﴾ مفعولى تتخذوا ، أى لا تجعلوهم أرباباً كقوله ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً ومن ذرية المحمولين مع نوح عيسى وعزير عليهم السلام . وقرئ ﴿ ذرية من حملنا ﴾ بالرفع بدلا من واو ﴿ تتخذوا ﴾ وقرأ زيد بن ثابت : ذرية ، بكسر الذال . وروى عنه أنه قد فسرهما بولد الولد ، ذكرهم الله النعمة فى إنجاء آبائهم من الفرق ﴿ إنه ﴾ إن نوحاً ﴿ كان عبدا شكورا ﴾ قيل : كان إذا أكل قال : الحمد لله الذى أطعمنى . ولو شاء أجاعنى . وإذا شرب قال : الحمد لله الذى سقانى ، ولو شاء أظمأنى . وإذا اكتسى قال : الحمد لله الذى كسأنى ، ولو شاء أعرانى . وإذا احتذى قال : الحمد لله الذى حذانى ، ولو شاء أحفانى . وإذا قضى حاجته قال : الحمد لله الذى أخرج عنى أذاه فى عافية ، ولو شاء حبسه . وروى أنه كان إذا أراد الإفطار عرض طعامه على من آمن به ، فإن وجده محتاجاً آثره به . فإن قلت : قوله إنه كان عبداً شكوراً ما وجه ملامته لما قبله ؟ قلت : كأنه قيل : لا تتخذوا من دونى وكيلا . ولا تشركوأى ، لأن نوحا عليه السلام كان عبداً شكورا ، وأنتم ذرية من آمن به وحمل معه ، فاجعلوه أسوتكم كما جعله آبائكم أسوتهم . ويجوز أن يكون تعليلاً لاختصاصهم والثناء عليهم بأنهم أولاد المحمولين مع نوح ، فهم متصلون به ، فاستأهلوا لذلك الاختصاص . ويجوز أن يقال ذلك عند ذكره على سبيل الاستطراد .

وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ  
عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ  
شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ  
عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾

{ وقضينا إلى بني إسرائيل } وأوحينا إليهم وحياً مقضياً، أى مقطوعاً مبتوتاً بأنهم يفسدون في الأرض لا محالة، ويعلون. أى: يتعظمون ويغيغون { في الكتاب } في التوراة، و{ لتفسدن } جواب قسم محذوف. ويجوز أن يجرى القضاء المبتوت بجرى القسم، فيكون { لتفسدن } جواباً له، كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن. وقرئ: لتفسدن، على البناء للمفعول. ولتفسدن، بفتح التاء من فسد { مرتين } أولاهما: قتل زكريا وحبس أرميا حين أنذرهم سخط الله، والآخرة: قتل يحيى بن زكريا وقصد قتل عيسى ابن مريم { عباداً لنا } وقرئ عبيداً لنا. وأكثر ما يقال: عباد الله وعبيد الناس: سنحاريب وجنوده<sup>(١)</sup> وقيل يختصر. وعن ابن عباس: جالوت. قتلوا علماءهم وأحرقوا التوراة. وخرّبوا المسجد، وسبوا منهم سبعين ألفاً. فإن قلت: كيف جاز أن يبعث الله الكفرة<sup>(٢)</sup> على ذلك ويسلطهم عليه<sup>(٣)</sup>. قلت: معناه خلبنا بينهم وبين ما فعلوا ولم نمنعهم، على أن الله عزّ وجلّ أسند بعث الكفرة عليهم إلى نفسه، فهو كقوله تعالى (وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون) وكقول الداعى. وخالف بين كلمهم. وأسند الجوس وهو التردد خلال الديار بالفساد إليهم، فتخريب المسجد وإحراق التوراة من جملة الجوس المسند إليهم. وقرأ طلحة (فجاسوا) بالحاء. وقرئ: فجسوا. وخلل الديار. فإن قلت: ما معنى { وعد أولاهما }؟ قلت: معناه وعد عقاب أولاهما { وكان وعداً مفعولاً } يعنى: وكان وعد العقاب وعداً لا بد أن يفعل { ثم رددنا لكم الكرة } أى الدولة والغلبة على الذين بعثوا عليكم حين تبتم ورجعتم عن الفساد والعلو. قيل: هى قتل مختصر واستنقاذ بني إسرائيل أسراهم وأموالهم ورجوع الملك إليهم، وقيل: هى قتل داود جالوت { أكثر نفيراً } مما كنتم.

(١) قوله «سنحاريب وجنوده» كان ملك بابل، ويختصر هو ابن ابنة، وكان من كتابه. كذا في الحازن. (ع)

(٢) قوله «فإن قلت كيف جاز أن يبعث الله الكفرة على ذلك» مبنى على أنه تعالى لا يفعل الشر ولا يريد. وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة كل كائن فهو فعله ومراده ولو شراً، فلا سؤال. (ع)

(٣) قال محمود: «إن قلت كيف جاز أن يبعث الله الكفرة... الخ» قال أحمد: «هذا السؤال إنما يتوجه على قدرى يوجب على الله تعالى بزمه رعاية ما يتوهمه بعقله مصلحة، وأما السئ إذا سئل هذا السؤال أجاب عنه بقوله (لا يهمل عما يفعل) والله الموفق.

والتفكير، من ينفر مع الرجل من قومه، وقيل: جمع نفر كالعيد والمعيز.

إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوهَا وَجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّوْا

مَاعَلَوْا تَتَّبِعُوا ٧

أى الإحسان والإساءة: كلاهما مختص بأنفسكم، لا يتعدى النفع والضرر إلى غيركم. وعن على رضى الله عنه: ما أحسنت إلى أحد ولا أسأت إليه، وتلاها ﴿فإذا جاء وعد﴾ المرة ﴿الآخرة﴾ بعشام<sup>(١)</sup> ﴿ليسووا وجوهكم﴾ حذف لدلالة ذكره أولا عليه. ومعنى ﴿ليسووا وجوهكم﴾ ليجعلوها بادية آثار المساءة والكآبة فيها، كقوله (سيئت وجوه الذين كفروا) وقرئ: ليسوء والضمير لله تعالى، أو للوعد، أو للبعث. وانسوه: بالنون. وفي قراءة على: لنسوان: وليسوان: وقرئ: لنسوان، بالنون الخفيفة. واللام في ﴿ليدخلوا﴾ على هذا متعلق بمحذوف وهو: وبعشام ليدخلوا. ولنسوان: جواب إذا جاء ﴿ماعلوا﴾ مفعول ليتبروا، أى ليهلكوا كل شيء غلبوه واستولوا عليه. أو بمعنى: مدة علوهم.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُذْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ٨

﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ بعد المرة الثانية إن تبتم توبة أخرى وانزجرتم عن المعاصى ﴿وإن عدتم﴾ مرة ثالثة ﴿عدنا﴾ إلى عقوبتكم وقد عادوا، فأعاد الله إليهم العقوبة بتسليط الأكاكسة وضرب الأتاوة عليهم. وعن الحسن: عادوا فبعث الله محمدا، فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون. وعن قتادة: ثم كان آخر ذلك أن بعث الله عليهم هذا الحى من العرب، فهم منهم فى عذاب إلى يوم القيامة ﴿حصيرا﴾ محبسا يقال للسجن محصر وحصير. وعن الحسن: بساطا كما يبسط الحصير المرمول<sup>(٢)</sup>

إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ أَن يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ

(١) قوله: ﴿فإذا جاء وعد﴾ المرة (الآخرة) بعشام: أى عبادنا وهم فى هذه المرة: الفرس والروم، بعث الله عليهم ملكا من ملوك بابل يقال له خروش. حتى دخل الشام بمجنود يقتل وسي. حتى كاد يفتى بنى إسرائيل، وبقى منهم بقايا حتى كثروا، وكانت لهم الرئاسة فى بيت المقدس إلى أن بدلوا وأحدثوا الأحداث فسلط الله عليهم طاطوس بن أسينا نوس الرومى فغرب بلادهم وطردهم عنها، وبقى بيت المقدس خرابا إلى خلافة عمر بن الخطاب، فعصره المسلمون بأمره. اه من الحازن. (ع)

(٢) قوله: كما يبسط الحصير المرمول، أى المنسوج، فأعاده الصلاح. (ع)



الصَّلِحَتِ أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ① وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ②

(التي هي أقوم) للحالة التي هي أقوم الحالات وأسدّها . أولّليلة . أولّلطريقة . وأينا قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع الحذف ، لما في إبهام الموصوف بحذفه من تخامة تفقد مع إيضاحه . وقرئ : ويبشر ، بالتخفيف ، فإن قلت : كيف ذكر المؤمنين الأبرار والكفار ولم يذكر الفسقة ؟ قلت : كان الناس حينئذ إما مؤمن تقي ، وإما مشرك ، وإنما حدث أصحاب المنزلة ③ بين المنزلتين بعد ذلك . فإن قلت : علام عطف (وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) ؟ قلت : على (أَنْ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) على معنى : أنه بشر المؤمنين ببشارتين اثنتين : بثوابهم ، وبمعقاب أعدائهم ويجوز أن يراد : ويخبر بأن الذين لا يؤمنون معذبون .

وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ④

أى : ويدعو الله عند غضبه بالشر على نفسه وأهله وماله ، كما يدعوهم بالخير ، كقوله (ولو يجعل الله للناس الشر استعجالهم بالخير) . (وكان الإنسان عجولاً) يتسرع إلى طلب كل ما يقع في قلبه ويخطر بباله . لا يتأني فيه تأني المتبصر . وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه دفع إلى سودة بنت زمعة أسيراً ، فأقبل ين بالليل ، فقالت له : مالك تن ؟ فشكا ألم ⑤ القدم ، فأرخت من كتافه ، فلما نامت أخرج يده وهرب ، فلما أصبح النبي صلى الله عليه وسلم دعا به فأعلم بشأنه ، فقال صلى الله عليه وسلم اللهم اقطع يديها ، فرفعت سودة يديها فتوقع الإجابة ، وأن يقطع الله يديها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : وإن سألت الله أن يجعل لعنتي ودعائي على من لا يستحق من أهلي رحمة لأنني بشر أغضب كما يغضب البشر فلترد سودة يديها ⑥ ، ويجوز أن يريد بالإنسان الكافر ، وأنه يدعو بالعذاب استهزاء ويستعجل به ، كما يدعو بالخير إذا مسته الشدة . وكان

(١) قوله وإنما حدث أصحاب المنزلة ، معنى الفسقة . وإثبات الواسطة مذهب المعتزلة دون أهل السنة ، فان فسق لا يزيل الإيمان عندهم . (ع)

(٢) قوله «فشكا ألم القدم» في الصحاح والقدم بالكسر : سير يقدر من جلد غير مدبوغ . (ع)

(٣) لم أجد من هذه الجهة . وقد أخرجه الواقدي في المغازي من رواية ذكوان عن عائشة ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم دخل عليها بأسير ، وقال لها : احتظلي به . قالت : فلهوت مع امرأة فخرج ولم أشعر . فدخل يسأله فقالت والله ما أدري . فقال : قطع الله يدك ، فذكر نحو ما تقدم . ورويناه في الجزء التاسع من حديث المخلص تخريج البقال . قال : حدثنا ابن أبي داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن محمد بن عمرو بن عطاء عن ذكوان بهذا .

الإنسان عجولا : يعنى أن العذاب آتية لا محالة ، فها هذا الاستعجال ، وعن ابن عباس رضى الله عنهما : هو النضر بن الحرث قال : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك الآية ، فأجيب له ، فضربت عنقه صبرا .

وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً  
لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ  
فَعَلْنَاهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾

فيه وجهان ، أحدهما : أن يراد أن الليل والنهار آيتان في أنفسهما ، فتكون الإضافة في آية الليل وآية النهار لليتين ، كإضافة العدد إلى المعداد ، أى : فمحونا الآية التى هى الليل وجعلنا الآية التى هى النهار مبصرة . والثانى : أن يراد : وجعلنا نرى الليل والنهار آيتين ، يريد الشمس والقمر . فمحونا آية الليل : أى جعلنا الليل ممحوق الضوء مظموسه مظلمًا ، لا يستبان فيه شئ . كما لا يستبان ما فى اللوح المحفوظ . وجعلنا النهار مبصرًا أى تبصر فيه الأشياء وتستبان . أو فمحونا آية الليل التى هى القمر حيث لم يخلق لها شعاعا كشعاع الشمس ، فترى به الأشياء رؤية بينة . وجعلنا الشمس ذات شعاع يبصر فى ضوئها كل شئ . ﴿ لتبتغوا فضلا من ربكم ﴾ لتتوصلوا ببياض النهار إلى استبانة أعمالكم والتصرف فى معاشكم ﴿ ولتعلموا ﴾ باختلاف الجديدين ﴿ عدد السنين ﴾ و﴿ الحساب ﴾ وما تحتاجون إليه منه ولولا ذلك لما علم أحد حساب الأوقات ، ولتعطلت الأمور ﴿ وكل شئ ﴾ مما تفكرون إليه فى دينكم ودنياكم ﴿ فصلناه ﴾ بيناه يانا غير ملتبس ، فأزحنا عنكم ، وماتركنا لكم حجة علينا .

وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كِتَابًا  
يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾

﴿ طائرته ﴾ عمله وقد حققنا القول فيه فى سورة النمل . وعن ابن عيينة : هو من قولك : طار له سهم ، إذا خرج ، يعنى : ألزمناه ماطر من عمله . والمعنى أن عمله لازم له لزوم القلادة أو النعل لا يفك عنه ، ومنه مثل العرب : تقلدها طوق الحمامة . وقولهم : الموت فى الرقاب . وهذا رقيقة فى رقبته . عن الحسن : يا ابن آدم بسطت لك صحيفة إذا بعثت قلدها فى عنقك : وقرئ ﴿ فى عنقه ﴾ بسكون النون . وقرئ ﴿ نخرج ﴾ بالنون . ويخرج ، بالياء ، والضمير لله عز وجل . ويخرج ، على البناء للفعول . ويخرج من خرج ، والضمير للطائر . أى : يخرج الطائر كتابًا ، واتصاب ﴿ كتابا ﴾ على الحال . وقرئ : يلقاه ، بالتشديد مبنيًا للفعول . و﴿ يلقاه منشورا ﴾

صفتان للكتاب . أو (يلقاه) صفة و (منشورا) حال من يلقاه (اقرأ) على إرادة القول . وعن قتادة : يقرأ ذلك اليوم من لم يكن في الدنيا قارئاً . و (بنفسك) فاعل كفى . و (حسبياً) تمييز وهو بمعنى حاسب كضرب القداح بمعنى ضاربها . و صريم بمعنى صارم ذكرهما سيويوه . وعلى متعلق به من قولك حسب عليه كذا . ويجوز أن يكون بمعنى السكافي وضع موضع الشهيد فعذى بعلى لأن الشاهد يكفى المذعبي ما أهمه . فإن قلت : لم ذكر حسبياً ؟ قلت : لأنه بمنزلة الشهيد والقاضي والأمير : لأن الغالب أن هذه الأمور يتولاها الرجال ، فكأنه قيل : كفى بنفسك رجلاً حسبياً . ويجوز أن يأول النفس بالشخص ، كما يقال : ثلاثة أنفس . وكان الحسن إذا قرأها قال : يا ابن آدم ، أنصفك والله من جعلك حسيب نفسك .

مِنْ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾

أى : كل نفس حاملة وزرا ، فإنما تحمل وزرها لا وزر نفس أخرى (وما كنا معذبين) وماصح منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب<sup>(١)</sup> قوما لإلأبعد أن (نبعث) إليهم (رسولا) فتلزمهم الحجة . فإن قلت : الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل ، لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله ، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه ، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم ، وكفرهم لذلك ، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف ، والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان . قلت : بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة ، لا يقولوا : كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا ينهنا على النظر في أدلة العقل .

وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ

فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾

(١) قال محمود : «معناه وماصح منا صحة تدعو إليها الحكمة أن نعذب قوما حتى تلزمهم الحجة يبعث الرسول... الخ» قال أحد : وهذا السؤال أيضاً إنما يتوجه على قدرى يزعم أن العقل يرشد إلى وجوب النظر وإلى كثير من أحكام الله تعالى ، وإن لم يبعث رسول فيكلف بعقله ويرتب على ترك أمثال التكليف استيجاب العذاب ، إذ العقل كافٍ عندهم في إيجاب المعرفة بل في جميع الأحكام ، بناء على قاعدة التحسين والتفويض العقلين . وأما السبى فلا يتوجه عليه هذا السؤال ، فإن العقل عنده شرط في وجوب عموم الأحكام ، ولا تكليف عنده قبل ورود الشرائع وبعث الأنبياء ، وحينئذ يثبت الحكم وتقوم الحجة ، كما أنبأت عنه هذه الآية التي يروم العنصري تحريفها فتعناصر عليه وتسد طرق الجدل بين يديه ، لأنه الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، نعم العقل حمدة في حصول المعرفة لافي وجوبها ، وبين الحصول والوجوب بون بعيد ، والله الموفق .

(وإذا أردنا) وإذا دنا وقت إهلاك قوم ولم يبق من زمان إهلاكهم إلا قليل، أمرناهم (ففسقوا) أي أمرناهم بالفسق ففعلوا، والأمر مجاز : لأن حقيقة أمرهم بالفسق أن يقول لهم : افسقوا ، وهذا لا يكون فبقى أن يكون مجازاً (١). ووجه المجاز أنه صب عليهم النعمة صباً ، فجعلوها ذريعة إلى المعاصي واتباع الشهوات ، فكانهم مأمورون بذلك لتسبب إيلاء النعمة فيه ، وإنما خولم إياها ليشكروا ويعملوا فيها الخير ويتمكنوا من الإحسان والبر ، كما خلقهم أصحاء أقوياء ، وأقدرهم على الخير والشر . وطلب منهم إثبات الطاعة على المعصية فأثروا الفسوق ، فلما فسقوا حق عليهم القول وهو كلفة العذاب فدمرهم . فإن قلت : هذا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟ قلت : لأن حذف ما لا دليل عليه غير جائز ، فكيف يحذف ما لا دليل قائم على نقيضه ، وذلك أن المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه ، وهو كلام مستفيض . يقال : أمرته فقام ، وأمرته فقرأ لا يفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قراءة ، ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من مخاطبك علم الغيب ، ولا يلزم على هذا قولهم : أمرته فمضائق ، أو فلم يمثل أمرى . لأن ذلك مناف للأمر مناقض له ، ولا يكون ما يناقض الأمر مأموراً به ، فكان محالاً أن يقصد أصلاً حتى يجعل دالاً على المأمور به ، فكان المأمور به في هذا الكلام غير مدلول عليه ولا متوى : لأن من يتكلم بهذا الكلام فإنه لا ينوى لأمره مأموراً به ، وكأنه يقول : كان منى أمر فلم تكن منه طاعة ، كما أن من يقول : فلان يعطى ويمنع ، ويأمر وينهى ، غير قاصد إلى مفعول . فإن قلت : هذا كان ثبوت العلم بأن الله لا يأمر بالفحشاء وإنما يأمر بالصدق والخير ، دليلاً على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا ؟ قلت : لا يصح ذلك : لأن قوله (ففسقوا) يدافعه ، فكانت أظهرت شيئاً وأنت تدعى إضمار خلافه ، فكان صرف الأمر إلى المجاز هو الوجه ، ونظير (أمر) شاء : في أن مفعوله استفاض فيه الحذف ، لدلالة ما بعده عليه ، تقول : لو شاء لأحسن إليك ، ولو شاء لاساء إليك . تريد : لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة . فلو ذهبت تضرع خلاف ما أظهرت - وقلت : قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل الإحسان أو من أهل الإساءة . فانترك الظاهر المنطوق به وأضمر مادلت عليه حال صاحب المشيئة - لم تكن على سداد . وقد فسر بعضهم (أمرنا) بكثرتنا ، وجعل أمرته فأمر من باب فعلته

(١) قوله وأمرناهم ففسقوا في النسخ : أمرنا مقترفاً : منهمها وجابرتها . (ع)

(٢) قال محمود : حقيقة أمرهم أن يقول لهم : افسقوا . ولا يكون هذا ، فبقى أن يكون مجازاً ... الخ قال أحمد : نص حسن لإقوله أنهم خولوا النعم ليشكروا ، فانه فرعه ، على قاعدة وجوب إرادة الله تعالى للطاعة . والحق أنهم خولوها وأمروا بالفكر ، ففسقوا وكفروا على خلاف الأمر ، والأمر غير الإرادة على قاعدة أهل الحق ، والله الموفق .

ففعل . كثرته فثبر . وفي الحديث : « خير المال سكة »<sup>(١)</sup> مأبورة ومهرة مأبورة<sup>(٢)</sup> ، أى كثيرة التناج . وروى أن رجلا من المشركين قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أرى أمرك هذا حقيراً ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنه سيأمر<sup>(٣)</sup> . أى سيكثر وسيكبر .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبٍ عِبَادِهِ  
خَيْرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾

وقرئ : آمرا من أمر وأمره غيره . وأمرنا بمعنى أمرنا ، أو من أمر إمارة ، وأمره الله . أى : جعلناهم أمراء وسلطانهم (كم) مفعول (أهلكنا) و (من القرون) بيان لكم وتميز له ، كما يميز العدد بالجنس . يعنى عادا وثمودا وقرونا بين ذلك كثيرا . ونبه بقوله (وكفى ربك بذنوب عباده خيرا بصيرا) على أن الذنوب هى أسباب الهلكة لا غير ، وأنه عالم بها ومعاقب عليها .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِيَنْ يُرِيدَ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ  
بِصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ  
مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾

من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة<sup>(١)</sup> . فضلنا عليه من منافعه بما نشاء لمن يريد ، فقيد الامر تقيدين ، أحدهما : تقييد المعجل بمشيئته . والثاني : تقييد المعجل بإرادته ، وهكذا الحال : ترى كثيرا من هؤلاء . يتمنون ما يتمنون ولا يعطون إلا بعضاً منه ، وكثيرا منهم يتمنون ذلك البعض وقد حرموه ، فاجتمع عليهم فقر الدنيا وفقر الآخرة ، وأما

(١) قوله « كثرته فثبر » ، وفي الحديث خير المال سكة مأبورة « في الصحاح » ثبرته ، أى حبته . وفيه « الطريقة من التخل » . وفيه « أبرغظه » أى لقحه وأصلحه . (ع)

(٢) أخرجه حميد وإسحاق وابن أبي شيبة والحريث والطبراني وأبو عبيد من رواية مسلم بن بديل عن إياس بن زهير عن سويد بن هبيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « خير مال المرء مأة مأبورة أو سكة مأبورة » . قال ابن إسحاق ومعه النضر بن شميل وغيره يرفعه .

(٣) لم أجده .

(٤) قال محمود : « أى من كانت العاجلة همه ولم يرد غيرها كالكفرة وأكثر الفسقة ... الخ » قال أحد : ومثل ذلك التقييد ورد في الآية الأخرى ، وهو قوله تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه . ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب) فأدخل « من » المبيضة على حرث الدنيا . ونحل الطالب حرث الآخرة مراده ، وزاد عليه .

المؤمن التقي فقد اختار مراده وهو غنى الآخرة ، فاييالي : أوق حظا من الدنيا أو لم يؤث فإن أوق فيها وإلا فربما كان الفقر خيرا له وأعون على مراده . وقوله ﴿ لمن نريد ﴾ بدل من له ، وهو بدل البعض من الكل : لأن الضمير يرجع إلى « من » وهو في معنى الكثرة . وقرئ : يشاء . وقيل : الضمير لله تعالى ، فلا فرق إذا بين القراءتين في المعنى ويجوز أن يكون للعبد ، على أن للعبد ما يشاء من الدنيا ، وأن ذلك لواحد من الدهماء <sup>(١)</sup> يريد به الله ذلك . وقيل : هو من يريد الدنيا بعمل الآخرة ، كالمتأفق ، والمرائي ، والمهاجر للدنيا ، والمجاهد للغنيمة والذكر ، كما قال صلى الله عليه وسلم ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها فهجرته إلى ما هاجر إليه <sup>(٢)</sup> ، ﴿ مدحورا ﴾ مطرودا من رحمة الله ﴿ سعيها ﴾ حقها من السعي وكفائها من الأعمال الصالحة . اشترط ثلاث شرائط في كون السعي مشكورا : إرادة الآخرة بأن يعقد بها همه ويتجافى عن دار الغرور ، والسعي فيما كلف من الفعل والترك ، والإيمان الصحيح الثابت . وعن بعض المتقدمين : من لم يكن معه ثلاث لم ينفعه عمله : إيمان ثابت ، ونية صادقة ، وعمل مصيب . وتلا هذه الآية . وشكر الله : الثواب على الطاعة .

كَلَّا نُمَدِّهُ هُوْلَاءَ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾

﴿ كلا ﴾ كل واحد من الفريقين ، والتنوين عوض من المضاف إليه ﴿ نمد ﴾ هم : نزيدهم من عطائنا ، ونجعل الآنف منه مددا للسايف لا نقطعه ، ففرق المطيع والعاصي جميعا على وجه التفضل ﴿ وما كان عطاء ربك ﴾ وفضله ﴿ محظورا ﴾ أي ممنوعا ، لا يمتعه من عاصر لعصيانه

أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضُهمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ

وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾

﴿ انظر ﴾ بعين الاعتبار ﴿ كيف ﴾ جعلناهم متفاوتين في التفضل . وفي الآخرة التفاوت أكبر ، لأنها ثواب وأعواض وتفضل ، وكلها متفاوتة . وروى أن قوما من الأشراف فن دونهم اجتمعوا بباب عمر رضي الله عنه ، فخرج الإذن لبلال وصهيب ، فشق على أبي سفيان ، فقال سهيل بن عمرو : إنما أتينا من قبلنا ، إنهم دعوا ودعينا يعني إلى الاسلام ، فأسرعوا وأبطأنا ، وهذا باب عمر ، فكيف التفاوت في الآخرة ، ولئن حسدتموه على باب عمر

(١) قوله « لواحد من الدهماء » في الصحاح « دهماء الناس » جماعتهم . (ع)

(٢) متفق عليه من حديث عمر .

لما أعد الله لهم في الجنة أكثر. وقرئ: وأكثر تفضيلاً. وعن بعضهم: أيها المباهي بالرفع منك في مجالس الدنيا، أما ترغب في المباهاة بالرفع في مجالس الآخرة وهي أكبر وأفضل؟

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

(فتقعد) من قولهم شخذ الشفرة حتى قعدت، كأنها حربة بمعنى صارت، يعني: فتصير جامعا على نفسك الذم وما يتبعه من الهلاك من إلهك، والخذلان والعجز عن النصرة ممن جعلته شريكاً له.

وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ

أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾

وَآخِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾

(وقضى ربك) وأمر أمراً مقطوعاً به (ألا تعبدوا) أن مفسرة ولا تعبدوا نهى. أو بأن لا تعبدوا (وبالوالدين إحساناً) وأحسنوا بالوالدين إحساناً. أو بأن تحسنوا بالوالدين إحساناً وقرئ: وأوصى. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ووصى. وعن بعض ولد معاذ بن جبل: وقضاء ربك. ولا يجوز أن يتعلق الباء في بالوالدين بالإحسان: لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته (إمّا) هي وإن، الشرطية زيدت عليها داء تأكيد لها، ولذلك دخلت النون المؤكدة في الفعل، ولو أفردت وإن، لم يصح دخولها، لا تقول: إن تكرمن زيداً يكرمك، ولكن إمّا تكرمنه. و(أحدهما) فاعل يبلغن، وهو فيمن قرأ يبلغان بدل من ألف الضمير الراجع إلى الوالدين. و(كلاهما) عطف على أحدهما فاعلاً وبدلاً. فإن قلت: لو قيل إمّا يبلغان كلاهما، كان كلاهما توكيداً لبدلاً، فالك زعمت أنه بدل؟ قلت: لأنه معطوف على ما لا يصح أن يكون توكيداً للآخرين، فانتظم في حكمه، فوجب أن يكون مثله. فإن قلت: ما ضرّك لوجعته توكيداً مع كون المعطوف عليه بدلاً، وعطفت التوكيد على البدل؟ قلت: لو أريد توكيد التثنية لقيل: كلاهما، لحسب، فلما قيل: أحدهما أو كلاهما، علم أن التوكيد غير مراد، فكان بدلاً مثل الأول (أف) صوت يدل على تعجز. وقرئ: أف. بالحركات الثلاث منوناً وغير منون: الكسر على أصل البناء، والفتح تخفيف للضمة والتشديد كثم، والضم اتباع كئذ. فإن قلت: ما معنى عندك؟ قلت: هو أن يكبرا ويعجزا، وكانا كلا على ولدهما لا كافل لهما غيره، فهما عنده في بيته وكنفه، وذلك أشق عليه وأشدّ احتمالاً وصبراً، وربما تولى منهما ما كانا يتوليان منه في حال الطفولة، فهو مأثور بأن يستعمل معهما وطأة الخلق ولين الجانب والاحتمال، حتى لا يقول لهما إذا أضجره ما يستغذر منهما أو يستثقل من مؤثهما: أف، فضلاً عما يزيد عليه. ولقد بالغ سبحانه في التوضيحية

بهما حيث افتتحها بأن شفع الإحسان إليهما بتوحيده . ونظمهما في سلك القضاء بهما معا ، ثم ضيق الأمر في مراعاتهما حتى لم يرخص في أدنى كلمة تنفلت من المتضرر مع موجبات الضرر ومقتضياته . ومع أحوال لا يكاد يدخل صبر الإنسان معها في استطاعة ﴿ ولا تنهرهما ﴾ ولا تزجرهما عما يتعاطيان عما لا يعجبك . والنهي والنهر والنهم : أخوات ﴿ وقل لهما ﴾ بدل التأفيف والنهر ﴿ قولا كريما ﴾ جيلا . كما يقتضيه حسن الأدب والنزول على المروءة . وقيل : هو أن يقول : يا ابتاه ، يا أماء ، كما قال إبراهيم لآبيه : يا أبت ، مع كفره ، ولا يدعوها بأسمائهما فإنه من الجفاء وسوء الأدب وعادة الدعار <sup>(١)</sup> . قالوا : ولا بأس به في غير وجهه . كما قالت عائشة رضي الله عنها : نخلني أبو بكر كذا <sup>(٢)</sup> . وقرئ : جناح الذل ، والذل : بالضم والكسر فإن قلت : ما معنى قوله ﴿ جناح الذل ﴾ ؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون المعنى : واخفض لهما جناحك كما قال (واخفض جناحك للمؤمنين) فأضافه إلى الذل أو الذل ، كما أضيف حاتم إلى الجود على معنى : واخفض لهما جناحك الدليل أو الذلول . والثاني : أن تجعل لذه أو لذه لهما جناحا خفيضا ، كما جعل لبید للشمال <sup>(٣)</sup> يدأ . وللقوة زماما ، مبالغة في التذلل والتواضع لهما ﴿ من الرحمة ﴾ من فرط رحمتك لهما وعطفك عليهما . لكبرهما وافتقارهما اليوم إلى من كان أفقر خلق الله إليهما بالأمس . ولا تكف برحمتك عليهما التي لا بقاء لها وادع الله بأن يرحمهما رحمة الباقية ، واجعل ذلك جزاء لرحمتكما عليك في صغرك وتربيتهما لك . فان قلت : الاسترحام لهما إنما يصح إذا كانا مسلمين . قلت : وإذا كانا كافرين فله أن يسترحم لهما بشرط الإيمان ، وأن يدعو الله لهما بالهداية والارشاد ، ومن الناس من قال : كان الدعاء للكفار جائزا ثم نسخ . وسئل ابن عيينة عن الصدقة عن الميت فقال : كل ذلك واصل إليه ، ولا شيء أنفع له من الاستغفار . ولو كان شيء أفضل منه لأمركم به في الآبوين . ولقد كثر الله سبحانه في كتابه الوصية بالوالدين . وعن النبي صلى الله عليه وسلم « رضا الله في رضا الوالدين ، وسخطه في سخطهما » <sup>(٤)</sup> ، وروى « يفعل البار ما يشاء أن يفعل فلن يدخل النار ، ويفعل

(١) قوله « وسوء الأدب وعادة الدعار » من الدعار وهي الفسق والحبس والفساد . كذا في الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه في الموطأ عن الزمري عن عائشة قالت « إن أبا بكر كان نخلني جداد عشرين وسقا من ماله بالعالية . فلما حضرته الوفاة . قال : ما من الناس أحب إل منكم . »

(٣) قوله « كما جعل لبید للشمال يدأ » في قوله :

وغداة ربح قد كشفت وقرة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها (ع)

(٤) أخرجه الترمذي عن عبد الله بن عمرو قال : روى موقفا . ورواه للبرار وقال : لا نعلم أحدا أسنده إلا خالد بن الحارث . وفيه نظر ، لأن الحاكم أخرجه من طريق عبد الرحمن بن مهدي عن شعبة مرفوعا وكذا أخرجه الطبراني والبيهقي من رواية القاسم بن سليم عن شعبة مرفوعا . وللبیهقي أيضا من رواية الحسين بن الوليد



العاق ما يشاء أن يفعل فلن يدخل الجنة <sup>(١)</sup>، وروى سعيد بن المسيب : إن البار لا يموت ميتة سوء . وقال رجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى فى الصغر ، فهل قضيتهما ؟ قال : لا ، فإنهما كان يفعلان ذلك وهما يجبان بقاءك ، وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما <sup>(٢)</sup> . وشكا رجل إلى رسول الله أباه وأنه يأخذ ماله ، فدعا به فإذا شيخ يتوكأ على عصا ، فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوى ، وفقيراً وأنا غنى ، فكنت لأمنعه شيئاً من مالى ، واليوم أنا ضعيف وهو قوى ، وأنا فقير وهو غنى ، ويخل على بماله ، فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : مامن حجر ولا مدر يسمع هذا إلا بكى ، ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك ، أنت ومالك لأبيك <sup>(٣)</sup> . وشكا إليه آخر سوء خلق أمه فقال <sup>(٤)</sup> : لم تكن سيئة الخلق حين حملتك تسعة أشهر ؟ قال : إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أرضعتك حولين ؟ قال إنها سيئة الخلق . قال : لم تكن كذلك حين أسهرت لك ليلها وأظلمات نهارها ؟ قال : لقد جازيتها . قال : ما فعلت ؟ قال : حججت بها على عاتق . قال : ماجزيتها ولو طلقة <sup>(٥)</sup> وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً فى الطواف يحمل أمه ويقول :

إِنِّى لَمَّا مَطِئْتُ لَأَتَذَعُرُ إِذَا الرُّكَّابُ نَفَرَتْ لَأَتَنَفِرُ  
مَاحَمَلْتُ وَأَرْضَعْتَنِى أَكْثَرُ اللَّهُ رَبِّى ذُو الْجَلَالِ الْأَكْبَرِ <sup>(٦)</sup>

== عن شعبة مرفوعاً . قال : وروينا أيضاً من رواية أبى إسحاق الفزارى وزيد بن أبى الرها وغيرهم مرفوعاً . ورواية أبى إسحاق عند أبى يعلى . وقال البخارى . فى الأدب المفرد : حدثنا آدم بن أبى إياس حدثنا شعبة فذكره موقوفاً وفى الباب عن ابن عمر أخرجه البزار وقال : تفرد به عصمة بن محمد الأنصارى عن يحيى بن سعيد .

(١) أخرجه الثعلبى من طريق محمد بن السماك عن عابد بن شريح عن عطاء عن عائشة . وفيه أحد بن محمد بن غالب غلام الخليل . وهو كذاب ، لكن رواه أبو نعيم فى الحلية من وجه آخر عن حمون السماك بلفظ «فانى سأغفر لك» ، ولفظ «فانى لأغفر لك» .

(٢) لم أجده .

(٣) لم أجده . قلت أخرجه فى معجم الصحابة من طريق .

(٤) لم أجده .

(٥) قوله «قال ماجزيتها ولو طلقة» فى الصحاح الطلاق وجع الولادة أمه فالطلة المرة منه . (ع)

(٦) أنفذه ابن عمر عن رجل يحمل أمه فى الحج : شبه نفسه بالمطية تشبهاً بليفاً ، و «إذا الركب نفر» صفة لها ، أى أنه خافض لها جناح الذل من الرحمة ، ولا يسأم منها كثيره ، فان حملها إياه وإرضاعها إياه أكثر من بره بها ، وذعر يذعر كتمب يتمب : خاف وفزع ، والمراد لازم الفزع والنفرة وهو الجزع والعجز وعدم إقراره على ظهوره ، ثم كبر لأنه شعار الحج من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق .

تظنني جازيتها يا ابن عمر<sup>(١)</sup> ؟ قال : لاولو زفرة واحدة<sup>(٢)</sup> . وعنه عليه الصلاة والسلام  
 « يا اباكم وعقوق الوالدين ، فإن الجنة توجد ربحها من مسيرة ألف عام<sup>(٣)</sup> ، ولا يحد ربحها عاق  
 ولا قاطع رحم ولا شيخ زان ولا جاز إزاره خيلاء ، إن الكبرياء لله رب العالمين ، وقال  
 الفقهاء : لا يذهب بأبيه إلى البيعة<sup>(٤)</sup> ، وإذا بعث إليه منها ليحملة فعل ، ولا يناوله الخمر . ويأخذ  
 الإناء منه إذا شربها . وعن أبي يوسف : إذا أمره أن يوقد تحت قدره وفيها لحم الخنزير أوقد .  
 وعن حذيفة أنه استأذن النبي صلى الله عليه وسلم في قتل أبيه وهو في صف المشركين ، فقال :  
 دعه يليه غيرك<sup>(٥)</sup> . وسئل الفضيل بن عياض عن برّ الوالدين فقال : أن لا تقوم إلى خدمتهما  
 عن كسل . وسئل بعضهم فقال : أن لا ترفع صوتك عليهما ، ولا تنظر شرراً إليهما<sup>(٦)</sup> ، ولا  
 يريامتك مخالفة في ظاهر ولا باطن ، وأن ترحم عليهما ما عاشا ، وتدعو لهما إذا ماتا ، وتقوم  
 بخدمة أودائهما من بعدهما . فعن النبي صلى الله عليه وسلم : « إن من أبر البر أن يوصل الرجل  
 أهل وذأبيه<sup>(٧)</sup> » .

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُورًا ۝ ٢٥

(بما في نفوسكم) بما في ضمائركم من قصد البر إلى الوالدين واعتقاد ما يجب لهما من التوقير  
 (إن تكونوا صالحين) قاصدين الصلاح والبر ، ثم فرطت منكم - في حال الغضب ، وعند  
 حرج الصدر وما لا يخلو منه البشر ، أو لحماية الاسلام - هنة تؤدى إلى أذاهما ، ثم أنبتم إلى الله  
 واستغفرتن منها ، فإن الله غفور (للأوابين) للتوابين . وعن سعيد بن جبير : هي في البادرة  
 تكون من الرجل إلى أبيه لا يريد بذلك إلا الخير . وعن سعيد بن المسيب : الآواب الرجل

(١) قوله « تظنني جازيتها يا ابن عمر » لعنه ثم قال تظنني . (ع)

(٢) أخرجه ابن المبارك في البر والصلة : أخبرنا سعيد بن سعيد بن أبي بردة عن أبيه قال كان ابن عمر  
 يطوف بالبيت فرأى رجلاً - فذكره . وهذا إسناد صحيح وأخرجه البيهقي في الشعب في الخامس والخمسين وأخرجه  
 البخاري في الأدب المفرد عن آدم عن سعيد مختصراً .

(٣) أخرجه ابن عدى من رواية محمد بن الفرات عن أبي إسحاق عن الحرث عن علي بهذا وأتم منه . وفيه  
 مسيرة خمسمائة بدل ألف . ورواه الطبراني في الأوسط من طريق جابر الجعفي عن أبي جعفر عن جابر بن عبد الله  
 فذكره بلفظ ألف عام ، وجابر ومحمد بن الفرات مقروكان .

(٤) قوله « لا يذهب بأبيه إلى البيعة » في الصحاح : البيعة بالكسر للنسابة . (ع)

(٥) لم أجده : ولا يصح عن والد حذيفة أنه كان في صف المشركين : فإنه استشهد بأحد مع المسلمين بأيدي  
 المسلمين خطأ . وهم يحسبونه من الكفار ، كما في صحيح البخاري لكن نحو القصة المذكورة وردت لأبي عبيدة  
 ابن الجراح .

(٦) قوله « ولا تنظر شرراً إليهما » هو نظر الغضب بؤخر العين ، كذا في الصحاح . (ع)

(٧) أخرجه مسلم من حديث ابن عمر مرفوعاً وفيه قصة .

كلما أذنب بادر بالتوبة . ويجوز أن يكون هذا عامّاً لكل من فرطت منه جناية ثم تاب منها ، ويندرج تحته الجاني على أبيه الثائب من جنائته . لوروده على أثره .

وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾

إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾

(وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ) وصى بغير الوالدين من الأقارب بعد التوصية بهما ، وأن يؤتوا حقهم : وحقهم إذا كانوا محارم كالأبوين والولد ، وفقراء عاجزين عن الكسب ، وكان الرجل موسراً : أن ينفق عليهم عند أبي حنيفة . والشافعي لا يرى النفقة إلا على الولد والوالدين فحسب . وإن كانوا ميسير ، أو لم يكونوا محارم : كأبناء العم ، فحقهم صلتهم بالمودة والزيارة وحسن المعاشرة والمؤالفة على السراء والضراء والمعاضدة ونحو ذلك (والمسكين وابن السبيل) يعني وآت هؤلاء حقهم من الزكاة . وهذا دليل على أن المراد بما يؤتى ذوى القرابة من الحق : هو تعهدهم بالمال . وقيل : أراد بذى القربى أقرباء رسول الله صلى الله عليه وسلم .

التبذير . تفريق المال فيما لا ينبغي . وإفناقه على وجه الإسراف . وكانت الجاهلية تنحرف إبلها وتيأسر عليها وتبذر أموالها في الفخر والسمعة ، وتذكر ذلك في أشعارها ، فأمر الله بالنفقة في وجوهها عما يقرب منه ويؤلف . وعن عبد الله : هو إنفاق المال في غير حقه . وعن مجاهد : لو أنفق مائة في باطل كان تبذيراً وقد أنفق بعضهم نفقة في خير فأكثر ، فقال له صاحبه : لا خير في السرف : فقال : لا سرف في الخير . وعن عبد الله بن عمرو : مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بسعد وهو يتوضأ فقال : ما هذا السرف يأسعد ؟ قال : أو في الوضوء سرف ؟ قال . نعم وإن كنت على نهر جار <sup>(١)</sup> (إخوان الشياطين) أمثالهم في الشراة وهي غاية المذمة : لأنه لا شر من الشيطان . أو هم إخوانهم وأصدقاؤهم لأنهم يطيعونهم فيما يأمرونهم به من الإسراف . أو هم قرناؤهم في النار على سبيل الوعيد (وكان الشيطان لربه كفوراً) فما ينبغي أن يطاع ، فإنه لا يدعو إلا إلى مثل فعله . وقرأ الحسن : إخوان الشيطان .

وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

وإن أعرضت عن ذى القربى والمسكين وابن السبيل حياء من الرد (فقل لهم قولاً ميسوراً) فلا تتركهم غير مجابين إذا سألوك . وكان النبي صلى الله عليه وسلم <sup>(٢)</sup> إذا سئل شيئاً وليس عنده

(١) أخرجه ابن ماجه وأبو يعلى والبيهقي من حديثه . وفي إسناده ابن لهيعة وهو ضعيف .

(٢) أخرجه ابن حبان والحاكم عن أنس : قال كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يسهل شيئاً إلا أعطاه أو سكت =

أعرض عن السائل وسكت حياء . قوله ( ابتغاء رحمة من ربك ) إما أن يتعلق بجواب الشرط مقدماً عليه ، أى : فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدم وعداً جميلاً ، رحمة لهم وتطليماً لقلوبهم ، ابتغاء رحمة من ربك ، أى : ابتغ رحمة الله التى ترجوها برحمتك عليهم . وإما أن يتعلق بالشرط ، أى : وإن أعرضت عنهم لفقد رزق من ربك ترجو أن يفتح لك ، فسمى الرزق رحمة ، فردهم رذاً جميلاً ، فوضع الابتغاء موضع الفقد ؛ لأن فاقده الرزق مبتغ له . فكان الفقد سبب الابتغاء والابتغاء مسبباً عنه ، فوضع المسبب موضع السبب . ويجوز أن يكون معنى ( وإما تعرض عنهم ) وإن لم تنفعهم ولم ترفع خصائصهم لعدم الاستطاعة . ولا يريد الإعراض بالوجه كناية بالإعراض عن ذلك ؛ لأن من أبى أن يعطى : أعرض بوجهه . يقال : يسر الأمر وعسر ، مثل سعد الرجل ونحس <sup>(١)</sup> فهو مفعول . وقيل معناه : فقل لهم رزقنا الله وإياكم من فضله . على أنه دعاء لهم ييسر عليهم فقرهم ، كأن معناه : قولاً ميسوراً ، وهو اليسر <sup>(٢)</sup> ، أى : دعاء فيه يسر .

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ۖ (٢٩)

هذا تمثيل لمنع التشجيع وإعطاء المسرف ، وأمره بالاعتصام الذى هو بين الاسراف والتقير ( فتقعد ملوماً ) فتصير ملوماً عند الله . لأن المسرف غير مرضى عنده وعند الناس ، يقول المحتاج : أعطى فلاناً وحرمنى . ويقول المستغنى : ما يحسن تدبير أمر المعيشة . وعند نفسك : إذا احتجت فتدتمت على ما فعلت ( محسوراً ) منقطعاً بك لاشئ عندك ، من حصره السفر إذا بلغ منه وحصره بالمسألة . وعن جابر : بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس أتاه صبي فقال : إن أمى تستكسيك درعا ، فقال من ساعة إلى ساعة يظهر ، فعد إلينا ، فذهب إلى أمه فقالت له قل له : إن أمى تستكسيك الدرع الذى عليك ، فدخل داره ونزع قميصه وأعطاه وقعد عرياناً ، وأذن بلال وانتظروا فلم يخرج للصلاة <sup>(٣)</sup> . وقيل أعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل وعيينة بن حصن <sup>(٤)</sup> ، فجاء عباس بن مرداس ، وأنشأ يقول :

== وفيه قصة : وفي الطبراني الأوسط عن علي رضي الله عنه « كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئاً فأراد أن يفعله قال : نعم . وإذا أراد أن لا يفعل سكت ولم يقل قط لشيء : لا . فذكر قصة . وإسناده ضعيف .

(١) قوله « مثل سعد الرجل ونحس » في الصحاح : سعد الرجل بالكسر فهو سعيد : مثل سلم فهو سليم . وسعد بالضم فهو مسعود . (ع)

(٢) قوله « قولاً ميسوراً وهو اليسر » في الصحاح : الميسور ضد الميسور . وهما مصدران . وقال سيبويه :

ما صفتان . (ع)

(٣) لم أجده

(٤) قوله « مائة من الإبل وعيينة بن حصن » لعل بعده سقطاً تقديره : مائة .

أَتَجْعَلُ نَهْيِي وَنَهْيَ الْعَبِيدِ بَيْنَ عُمَيْنِةٍ وَالْأَفْرَعِ  
وَمَا كَانَ حِصْنٌ وَلَا حَابِسٌ يَفُوقَانِ جَدِّي فِي مَجْمَعٍ  
وَمَا كُنْتُ دُونَ أَمْرِي مِنْهُمَا وَمَنْ تَصْعَقَ الْيَوْمَ لَا يُرْفَعُ<sup>(١)</sup>

فقال : يا أبا بكر ، اقطع لسانه عني ، أعطه مائة من الإبل<sup>(٢)</sup> فنزلت .

إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ مَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا<sup>(٣٠)</sup>

ثم سلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يرهبه من الإضافة ، بأن ذلك ليس له وإن منك عليه ، ولا لبخل به عليك ولكن لأن مشيئته في بسط الأرزاق وقدرها<sup>(٣)</sup> تابعة للحكمة والمصلحة . ويجوز أن يريد أن البسط والقبض إنما هما من أمر الله الذي الخزان في يده ، فأما العبيد فعليهم أن يقتصدوا . ويحتمل أنه عز وجل بسط لعباده أو قبض ، فإنه يراعى أوسط الحالين ، لا يبلغ بالمبسوط له غاية مراده ، ولا بالمقبوض عليه أقصى مكروهه ، فاستنوا بسنته .

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنْ قَتَلْتُمْ كَانَ

خَطًّا كَبِيرًا<sup>(٣١)</sup>

(١) للعباس بن مرداس رضى الله عنه يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ، روى أنه أعطى كلا من الأفرع بن حابس وعيينة بن حصن مائة من الإبل تأليفا لقلوبهما ، فأنشأ العباس ذلك ، فرفعه أبو بكر للنبي صلى الله عليه وسلم فقال : اقطعوا عني لسانه ، ففزع وفزع أناس ، وإنما أراد إعطائه تأليفا لقلبه أيضا . والاستفهام للتعجب . ويحتمل أنه للانكار ، ولكنه بعيد من الصحابي ، أى : أنقم نهى ونهى العبيد فرسى بين هذين ، والحال أن أبويهما ما كانا يفوقان أبى مرداس بمنع الصرف للضرورة . وقد يروى «العبيد» مصفرا . وروى بدله «جدى» وروى «شخي» في مجمع ، من مجامع الحرب ، وأنا لست أقل من واحد منهما ، فنحن سواء أصلا وفرعا ، فكيف تفاوت بينهما الآن ؟ مع أن من تخلف قدره لا يرتفع عمره . وروى «منهم» أى من الأربعة . وروى «ومن يخلف» مبنيا للجھول . وفي ذكر حصن وحابس بعد عيينة والأفرع : لف ونشر مرتب .

(٢) أخرجه مسلم من رواية عتبة بن رفاعة بن رافع عن رافع بن خديج قال «أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وعيينة بن حصن والأفرع بن حابس كل إنسان منهم مائة من الإبل» . وأعطى عباس بن مرداس دون ذلك . فقال عباس - فذكر الشعر - قال : فأنتم له رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ، وأخرجه ابن إسحاق في المغازي حديثي عبدالله بن أبي بكر بن حزم وغيره - فذكر القصة وقال في آخرها : اذهبوا فاقطعوا لسانه . فزادوه حتى رضى ، وكذا ذكره موسى بن عقبة والوافدى وابن سعد وليس في شيء من طرقهم أن المخاطب بذلك كان أبا بكر

(٣) قوله «في بسط الأرزاق وقدرها» أى تضيقها . أفاده الصحاح . (ع)

قتلهم أولادهم : هو وأدم بناتهم <sup>(١)</sup> ، كانوا يندونهن خشية الفاقة وهي الاملاق ، فنهاهم الله  
وضمن لهم أرزاقهم . وقرئ (خشية) بكسر الحاء . وقرئ (خطأ) وهو الإثم ، يقال : خطئ خطأ ،  
كأثم إثمًا ، وخطأ وهو ضد الصواب ، اسم من أخطأ . وقيل : هو والخطء كالحذر والحذر ،  
وخطاء بالكسر والمد . وخطاء بالفتح والمد . وخطأ بالفتح والسكون . وعن الحسن : خطا  
بالفتح وحذف الهزة كالحب . وعن أبي رجا : بكسر الحاء غير مهموز .

وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ مَبِيلًا ﴿٣٢﴾

(فاحشة) فيحة زائدة على حد القبح (وساء سيلا) وبئس طريقا طريقه ، وهو أن  
تغصب على غيرك امرأته أو أخته أو بنته من غير سبب ، والسبب ممكن وهو الصهر الذي  
شرعه الله <sup>(٢)</sup> .

وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا

لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسِيرُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٣٣﴾

(إلا بالحق) إلا بإحدى ثلاث : إما بأن تكفر ، أو تقتل مؤمناً عمداً ، أو تزني بعد  
إحصان . (مظلوما) غير راكب واحدة منهم (لولي) الذي بينه وبينه قرابة توجب المطالبة  
بدمه ، فإن لم يكن له ولي فالسلطان وليه (سلطانا) تسلطا على القاتل في الاقتصاص منه . أو  
حجة يثب بها عليه (فلا يسرف) الضمير للولي . أى : فلا يقتل غير القاتل . ولاتئين والقاتل  
واحد ، كمعادة الجاهلية : كان إذا قتل منهم واحد قتلوا به جماعة ، حتى قال مهلهل حين قتل  
بجير بن الحارث بن عباد : يؤ بشسع نعل كليب <sup>(٣)</sup> . وقال :

كُلُّ قَتِيلٍ فِي كُليبٍ غُرَّةٌ حَتَّى يَبَالَ الْقَتْلُ آلَ مَرْءٍ <sup>(٤)</sup>

وكانوا يقتلون غير القاتل إذا لم يكن بواء . وقيل : الإسراف المثلة . وقرأ أبو مسلم صاحب  
الدولة : فلا يسرف ، بالرفع على أنه خبر في معنى الأمر . وفيه مبالغة ليست في الأمر . وعن

(١) قوله «هو وأدم بناتهم» وأد البنات : دفنها في القبر وهي حية . كما في الصحاح . (ع)

(٢) قوله «وهو الصهر الذي شرعه الله» أى الزوج . أفاده الصحاح . (ع)

(٣) قوله «يؤ بشسع نعل كليب» في الصحاح يقال يؤ به أى كن بمن يقتل به وفيه البواء . السواء . وفيه الشفع : واحد

شعوع النعل الذى تعد إلى زمامها . وفيه الغرة : العبد أو الأمة . (ع)

(٤) الغرة : الرقيق ، يعنى : كل قتيل قتلناه في هذه القبيلة ليس كفؤا لمن قتلوه منا . حتى يصل قتلنا آل مرة

فهم كفؤه .

مجاهد : أن الضمير للقاتل الأول . وقرئ : فلا تسرف ، على خطاب الولي أو قاتل المظلوم .  
وفى قراءة أبي : فلا تسرفوا ، رده على : ولا تقتلوا ( إنه كان منصوراً ) الضمير إما للولي ،  
يعنى حسبه أن الله قد نصره بأن أوجب له القصاص فلا يسترد على ذلك ، وبأن الله قد نصره (١)  
بمعونة السلطان ويأظهار المؤمنين على استيفاء الحق ، فلا يبيع ما وراء حقه . وإما للظلم ؛  
لأن الله نصره وحيث أوجب القصاص بقتله ، وينصره في الآخرة بالثواب . وإما الذى يقتله  
الولي بغير حق ويسرف فى قتله ، فإنه منصور بإيجاب القصاص على المسرف .

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ  
إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ۝٣٤

(بالتى هى أحسن) بالخصلة أو الطريقة التى هى أحسن ، وهى حفظه عليه وتشميره (إن  
العهد كان مسئولاً) أى مطلوباً يطلب من المعاهد أن لا يضيعه ويفى به (٢) . ويجوز أن يكون  
تخيلاً ، كأنه يقال للعهد : لم نكثت ؟ وهلا وفى بك ؟ تبكيتاً للناكث ، كما يقال للوادة : بأى  
ذنب قتلت ؟ ويجوز أن يراد أن صاحب العهد كان مسئولاً .

وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ  
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝٣٥

وقرئ (بالقسطاس) بالضم والكسر ، وهو القرسطون (٣) . وقيل : كل ميزان صغر أو  
كبر من موازين الدراهم وغيرها (وأحسن تأويلاً) وأحسن عاقبة ، وهو تفعيل ، من آل إذا  
رجع ، وهو ما يؤول إليه .

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ  
كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ۝٣٦

(١) قوله «وبأن الله قد نصره» لعله أو أن . (ع)

(٢) قال مجاهد : «أى يطلب من المعاهد أن يفى به ولا ينكته ... الخ» قال أحد ، كلام حسن إلا لفظة  
التخييل فقد تقدم إنكارها عليه ، ويبنى أن يعرض بالتخييل . والظاهر التأويل الأول ، ويكون المجرور الذى هو  
«عنه» حذف تخفيفاً ، وقد ذكر فى بقية الآى (كل أولئك كان عنه مسئولاً) والله أعلم . وبعضه تأويل سؤال  
العهد نفسه على وجه التخييل وقوف الرحم بين يدى الله وسؤالها فيمن وصلها وقطعها . وقد ورد ذلك فى الحديث  
الصحيح ، والله الموفق .

(٣) قوله «بالقسطاس بالضم والكسر وهو القرسطون» أى القبان ، كذا فى النسب . (ع)

(ولا تنقف) ولا تتبع . وقرئ : ولا تنقف ، يقال : قفا أثره وقافه ، ومنه : القافة ، يعنى : ولا تسكن فى اتباعك ما لا تعلم لك به من قول أو فعل ، كمن يتبع مسلكا لا يدري أنه يوصله إلى مقصده فهو ضال . والمراد : النهى عن أن يقول الرجل ما لا يعلم ، وأن يعمل بما لا يعلم ، ويدخل فيه النهى عن التقليد دخولا ظاهرا . لأنه اتباع لما لا يعلم صحته من فساد . وعن ابن الحنفية : شهادة الزور وعن الحسن : لا تنقف أحاك المسلم إذا مز بك ، فتقول : هذا يفعل كذا ، ورأيتك يفعل ، وسمعتك ، ولم تر ولم تسمع . وقيل : القفو شبيه بالعضية <sup>(١)</sup> . ومنه الحديث : من قفى مؤمنا بما ليس فيه حبه الله فى ردة الخبال <sup>(٢)</sup> حتى يأتي بالخروج <sup>(٣)</sup> ، وأشد :

وَمِثْلُ الدُّمِيِّ ثُمَّ الْعَرَّائِينَ مَا كُنَّ بَيْنَ الْحَيَاءِ لَا يُشْعِنُ التَّقَافِيَا <sup>(٤)</sup>  
أى التقاذف . وقال السكيت :

وَلَا أَرْمِي الْبَرِيَّ بِغَيْرِ ذَنْبٍ وَلَا أَقْفُو الْحَوَاصِنَ إِنْ قُفِينَا <sup>(٥)</sup>

(١) قوله وقيل القفو شبيه بالعضية ، فى الصحاح العضية البنية ، وهى الافك والبهتان . (ع)  
(٢) قوله « حبه الله فى ردة الخبال » فى الصحاح الردة - بالتحريك - : الماء والطين والوحل الشديد وكذلك الردة بالتسكين . وفيه الخبال : العناء والفساد وأما الذى فى الحديث من قفا مؤمنا بما ليس فيه وقفه الله تعالى فى ردة الخبال حتى يجيء بالخروج منه ، فيقال : هو صديد أهل النار .  
(٣) لم أره بهذا اللفظ مرفوعا . وإنما ذكره أبو عبيد فى الريب من قول حسان بن عطية . فقال : حدثنا محمد بن كثير عن الأوزاعى عنه بهذا . وروى أحمد والطبرانى من رواية معاذ بن أنس - رفعه ومن قفا مؤمنا بما ليس فيه يريد شينه به حبه الله على جسر جهنم حتى يخرج مما قاله ، وفى مسند الشاميين للطبرانى من طريق مطر الوراق عن عطاء الخراسانى عن نافع عن ابن عمر « من قذف مؤمنا أو مؤمنة حبس فى ردة الخبال حتى يأتي بالخروج ، وهو عند أبي داود من رواية يحيى بن راشد عن ابن عمر بلفظ « من قال فى مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردة الخبال حتى يأتي بالخروج » وهو يخرج مما قاله ، وأخرجه الحاكم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رفعه « من قال فى مؤمن ما ليس فيه حبه الله فى ردة الخبال حتى يأتي بالخروج » .

(٤) يصف نساء بأنهن جيلات مثل الدى ، جمع دبة بالضم ، وهو الصنم والصورة من العاج المرصعة بالجواهر والشمع ؛ جمع شمام كشم ونحوه ، والمرأتين : الأنوف ، أى مرتفعات الأنوف كناية عن شرفهن وارتفاع قدرهن . أركانها عن كونهن كرائم حرائر ؛ لأن انخفاض الألق خاص بالعبيد والأماه . وشبههن بالبيوت . وشبه الحياء بكونهن على طريق المكنية والسكنى تخيل لذلك ، وهو كناية ومبالغة وملازمة الحياء لمن ، لا يشعن : أى لا يظنون التقافى ، أى المتابعة بالقذف ، من قفوته إذا أتيت بالقبية . وفى إشاعته : كناية عن نفيه ، لأنها لازمة له ، حيث أنه لا يكون إلا بين اثنين فأكثر .

(٥) يقال : حصنت المرأة بالضم حصانة ، فهى حاصن وحصانة وحصان . والحواصن : جمع حاصن : أى عفت فهى عفيفة ، يقول : لا أتهم البرى بشئ زور ، بل يذنب بحق . والظاهر أن هذا فى معنى الاستثناء المنقطع ؛ لأن البرى . مادام بريئا لا ذنب له ، ولا أتبع العفاف وأنكلم فيه بفض مادمي عفاف إن قفاهي الناس ، فتكلموا فيه فكيف إذا لم يتكلم فيه أحد ؟



وقد استدل به مبطل الاجتهاد ولم يصح؛ لأن ذلك نوع من العلم، فقد أقام الشرع غالب الظن مقام العلم، وأمر بالعمل به ﴿أولئك﴾ إشارة إلى السمع والبصر والفؤاد، كقوله:

\* وَالْعَيْشَ بَعْدَ أَوْلَئِكَ الْآيَاتُ \* (١)

و﴿عنه﴾ في موضع الرفع بالفاعلية، أى: كل واحد منها كان مسئولاً عنه، فمسئول: مسند إلى الجار والمجرور، كالمغضوب في قوله (غير المغضوب عليهم) بقال للإنسان: لم سمعت ما لم يحل لك سماعه، ولم نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه، ولم عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟ وقرئ (والفؤاد) بفتح الفاء والواو، قلبت الهمزة واوا بعد الضمة في الفؤاد، ثم استصحب القلب مع الفتح.

وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنَ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنَ تَبْلُغَ  
الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨)

(مرحاً) حال، أى: ذا مرح. وقرئ (مرحلاً) وفضل الأخفش المصدر على اسم الفاعل لما فيه من التأكيد ﴿لن تخرق الأرض﴾ لن تجعل فيها خرقاً (٣٨) بدوسك لها وشدة وطأتك.

(١) لولا مراقبة العيون أوتينا  
مل ينبتك أن تقتل مرقشاً  
مقل الماها وسوائف الآرام  
أو مافعلن بعروة بن حزام  
والعيش بعد أولئك الأيام

لجرير بن عطية يخاطب نفسه على طريق التجريد، يقول: لولا مراقبة النساء للعيون، أى الرقباء المتطلعين علينا، لبرزن لنا وأرينا عيونهن التي هي كميون بقر الوحش، فقل الماها: استعارة مصرجة، وكذلك سوائف الآرام. والسائفة: مقدم العنق وصفحته. والآرام: جمع رثم بالكسر والهمز، وهو الفزال الأبيض، وأصله دارآم. يهزم بمدود بعد الراء وزن أحمال، قلب إلى ما قبلها. ويجوز أنه جمع ريم بالفتح وهو الفزال الأبيض، فهزم وقلب. وهل بمعنى قد. أول التقرير. أى: أنه ينهاك عنهن مقتلهن مرفشاً العاشق المشهور. أو فعلن بعروة العاشق أيضاً. ودم: فعل أمر، كأنه تذكر عبوبته في تلك الديار وتلك الأيام، فقال: ذم المنازل كلها حال كونها بعد، أى: غير منزلة اللوى. أو بعد مجاوزتك منزلة اللوى بلازم. واللوى: موضع يعينه من الرمل المتنوى، ودم الحياة كلها بعد حياتنا في تلك الأيام، أو ذم مدة الحياة كلها بعد تلك الأيام السابقة، وأشار لها بما للعقلاء لعظمتها عنده، ولأن تخصصه بالعقلاء طارىء في الاستعمال كما قيل ويجوز أن بعد ظرف المنازل والعيش وبعض النجاة جعل «ذم» مبنياً للمجهول، وما بعده مرفوع به على النيابة.

(٢) قال محمود: «معناه لن تجعل فيها خرقاً... الخ» قال أحمد: وفي هذا التهمك والتفريع لمن يعتاد هذه المشية كفاية في الانزجار عنها، ولقد حفظ الله عوام زماننا عن هذه المشية، وتورط فيها قراؤنا وفقهاؤنا، بينا أحدهم قد عرف مسئلتين أو أجلس بين يديه طالبين، أو شدا طرفاً من رياسة الدنيا، إذ هو يتخترق في مشيه ويترجع، ولا يرى أنه يطاول الجبال، ولكن يحك يافوخه عنان السماء، كأنهم يمحون عليها وهم عنها معرضون، وماذا يفيد أن يقرأ القرآن أو يقرأ عليه، وقلبه عن تدبره على مراحل، والله ولي التوفيق.

وقرى\* . لن تحرق ، بضم الراء ﴿ولن تبلغ الجبال طولا﴾ بتطاورك . وهوتكم بالختال . قرى\*  
سيئة وسيئه ، على إضافة سيئ إلى ضمير كل ، وسيثا في بعض المصاحف . وسيثا . وفي قراءة أبي  
بكر الصديق رضى الله عنه : كان شأنه . فإن قلت : كيف قيل سيئه مع قوله مكروها ؟ قلت :  
السيئة في حكم الأسماء بمنزلة الذنب والإثم زال عنه حكم الصفات ، فلا اعتبار بتأنيته . ولا فرق  
بين من قرأ سيئة وسيئا . ألا تراك تقول : الزنا سيئة ، كما تقول : السرقة سيئة ، فلا تفرق بين  
إسنادهما إلى مذكر ومؤنث . فإن قلت : فما ذكر من الحاصل بعضها سيئ وبعضها حسن ، ولذلك  
قرأ من قرأ (سيئه) بالإضافة ، فما وجه من قرأ سيئة ؟ قلت : كل ذلك إحاطة بما نهى عنه خاصة  
لأجمع الحاصل المعدودة .

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ

فَتَلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

(ذلك) إشارة إلى ما تقدم من قوله (لا تجعل مع الله إلها آخر) إلى هذه الغاية . وسماه حكمة  
لأنه كلام محكم لا مدخل فيه للفساد بوجه . وعن ابن عباس : هذه الثماني عشرة آية كانت في  
ألواح موسى ، أولها : لا تجعل مع الله إلها آخر ، قال الله تعالى (وكتبناه في الألواح من كل شيء موعظة)  
وهي عشر آيات في التوراة . ولقد جعل الله فاتحتها وخاتمتها النهي عن الشرك ؛ لأن التوحيد هو  
رأس كل حكمة وملاكها ، ومن عدمه لم تنفعه حكمه وعلومه وإن بذ فيها الحكاء<sup>(١)</sup> وحك  
يافوخه السماء ، وما أغنت عن الفلاسفة أسفار الحكم ، وهم عن دين الله أضل من النعم .

أَفَاصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ

قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾

(أفأصفاكم) خطاب للذين قالوا (الملائكة بنات الله) والهمزة للإنكار . يعني : أخفصكم  
ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد وهم البنون . لم يجعل فيهم نصيباً لنفسه .  
واتخذ أدونهم وهي البنات ؟ وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعاداتكم ، فإن العبيد  
لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفاها من الشوب ، ويكون أردأها وأدونها للسادات ﴿إنكم  
لتقولون قولا عظيما﴾ يا صفاكم إليه الأولاد وهي خاصة بالأجسام ، ثم بأنكم تفضلون عليه أنفسكم  
حيث تجعلون له ما تكرهون ، ثم بأن تجعلوا الملائكة وهم أعلى خلق الله وأشرفهم<sup>(٢)</sup> أدون

(١) قوله «وإن بذ فيها الحكاء» في الصحاح «بذ» غلبه وفاقه . (ع)

(٢) قوله «وهم أعلى خلق الله وأشرفهم» هذا على مذهب المعتزلة . أما عند أهل السنة فبعض البشر أفضل

خلق الله وهم الإناث .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ أَنْ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ٤١

(ولقد صرفنا في هذا القرآن) يجوز أن يزيد هذا القرآن إبطال إضافتهم إلى الله البنات ؛ لأنه مما صرفه وكرر ذكره ، والمعنى : ولقد صرفنا القول في هذا المعنى . أو أوقفنا التصريف فيه وجعلناه مكانا للتكرير . ويجوز أن يشير بهذا القرآن إلى التنزيل ويريد . ولقد صرفناه ، يعنى هذا المعنى في مواضع من التنزيل ، فترك الضمير لأنه معلوم . وقرئ : صرفنا بالتخفيف وكذلك (ليذكروا) قرئ مشددا ومخففا . أى : كررناه ليتعظوا ويعتبروا ويطمثوا إلى ما يحتاج به عليهم (فما يزيدهم إلا نفورا) عن الحق وقلة طمأنينة إليه . وعن سفيان : كان إذا قرأها قال . زادنى لك خضوعا مازاد أعداءك نفورا .

قُلْ لَوْ كَانَتْ مَعَهُ إِلَهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ٤٢

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ٤٣

قرئ : كما تقولون ، بالتاء والياء . و (إذا) دالة على أن ما بعدها وهو (لا تبتغوا) جواب عن مقالة المشركين وجزاء أهله . ومعنى (لا تبتغوا إلى ذى العرش سبيلا) لطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة ، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض ، كقوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) وقيل : لتقربوا إليه ، كقوله (أو لئلك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة) . (علوا) فى معنى تعاليا . والمراد البراءة عن ذلك والنزاهة . ومعنى وصف العلو بالكبر : المبالغة فى معنى البراءة والبعد عما وصفوه به .

تَسْبِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ

بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ٤٤

والمراد أنها تسبح له بلسان الحال (١) ، حيث تدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته ، فكانها

(١) قال محمود : « المراد تسبيحها بلسان الحال من حيث تدل على الصانع ... الخ » قال أحمد : ولما قلنا أن يقول : فما يصنع بقوله (كان حلما غفورا) وهو لا يفكر للمشركين ولا يتجاوز عن جهلهم وكفرهم وإشراكهم ، وإنما يخاطب بهاتين الصفتين المؤمنين ، والظاهر أن المخاطب المؤمنون . وأما عدم فقها للتسبيح الصادر من الجادات ، فكانه - والله أعلم - من عدم العمل بمقتضى ذلك ، فإن الإنسان لو يقيظ حق التيقظ إلى أن الله والبعوضة وكل ذرة من ذرات الكون تسبح الله وتزهده وتشهد بجلاله وكبريائه وقهره ، وعمر خاطره بهذا الفهم ، لكان ذلك يعضله عن القوت فضلا عن فضول الكلام والأفعال ، والمالك على النية التي هي فاكهتها في زماننا هذا ،

تنطلق بذلك ، وكأنها تنزه الله عز وجل مما لا يجوز عليه من الشركاء وغيرها . فإن قلت : فما تصنع بقوله ( ولكن لا تفقهون تسبيحهم ) وهذا التسبيح مفقوه معلوم ؟ قلت : الخطاب للمشركين ، وهم وإن كانوا إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض قالوا : الله ؛ إلا أنهم لما جملوا معه آلهة مع إقرارهم ، فكأنهم لم ينظروا ولم يفقهوا : لأن نتيجة النظر الصحيح والإقرار الثابت خلاف ما كانوا عليه ، فإذا لم يفقهوا التسبيح ولم يستوضحوا الدلالة على الخالق . فإن قلت : من فيهن يسبحون على الحقيقة وهم الملائكة <sup>(١)</sup> والثقلان ، وقد عطفوا على السموات والأرض ، فما وجهه ؟ قلت : التسبيح المجازي حاصل في الجميع فوجب الحمل عليه ، وإلا كانت الكلمة الواحدة في حالة واحدة محمولة على الحقيقة والمجاز ( إنه كان حليما غفورا ) حين لا يعاجلكم بالعقوبة على غفلتكم وسوء نظركم وجهلكم بالتسبيح وشرككم .

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ٤٥ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَى أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا ٤٦ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْتُورًا ٤٧ أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ٤٨

(حجابا مستورا) ذا ستر كقولهم . سبل مفعم ذو إفعام . وقيل : هو حجاب لا يرى فهو مستور . ويجوز أن يراد أنه حجاب من دونه حجاب أو حجب ، فهو مستور بغيره . أو حجاب يستر أن يبصر ، فكيف يبصر المحتجب به ، وهذه حكاية لما كانوا يقولونه ( وقالوا قلوبنا في

== لو استشر حال إقامته فيها أن كل ذرة وجوهر من ذرات لسانه الذي يلفقه في يحيط الله تعالى عليه ، مغفولة معلومة بتقدير الله تعالى وتسبيحه وتخريف عقابه وإرهاب جبروته ، وتيقظ لذلك حق التيقظ ، لكاد أن لا ينكم قبضه ، فالظاهر والله أعلم أن الآية إنما وردت خطابا على الغالب في أحوال المنافقين وإن كانوا مؤمنين ، والله الموفق ، فالحمد لله الذي كان حليما غفورا .

(١) عاد كلامه . قال : إن قلت « من فيهن يسبحون حقيقة وهم الملائكة ... الخ » قال أحد : وقد تقدم نقل عنه أنه يأتي حمل اللفظ على حقيقته ومجازه دفعة واحدة عند آية السجدة في النحل ، ولكن ظهر من كلامه ثم جعل السجود عبارة عن الانقياد وعدم الامتناع على القدرة ، ليعكس متناولا للكافرين وغير المكلفين بطريق التواطؤ ، وقد يكون أراد ثم المجاز ، والله الموفق .

أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب) كأنه قال: وإذا قرأت القرآن جعلنا على زعمهم (أن يفقهوه) كراهة أن يفقهوه. أو لأن قوله (وجعلنا على قلوبهم أكنة) فيه معنى المنع من الفقه، فكأنه قيل: ومنعناهم أن يفقهوه. يقال: وحده وحدا وحدة، نحو وعد يعدو وعدة، و (وحده) من باب رجوع عوده على بدته، وافعله جهداً وطاقتك في أنه مصدر ساذ مسد الحال، أصله: يحده وحده بمعنى واحداً، وحده. والنفور: مصدر بمعنى التولية. أو جمع نافر كقاعد وقعود، أى: يحبون أن تذكر معهم آلهتهم لأنهم مشركون، فإذا سمعوا بالتحديد نفروا (بما يستمعون به) من الهزؤ بك وبالقرآن، ومن اللغو: كان يقوم عن يمينه إذا قرأ رجلان من عبد الدار، ورجلان منهم عن يساره، فيصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار. و (به) في موضع الحال كما تقول يستمعون بالهزؤ، أى هازئين. و (إذ يستمعون) نصب بأعلم، أى: أعلم وقت استماعهم بما به يستمعون (وإذ هم نجوى) وبما يتناجون به، إذ هم ذوو نجوى (إذ يقول) يدل من إذ هم (مسحوراً) مسحرجن. وقيل: هو من السحر وهو الرثة، أى: هو يشر مثلكم (ضربوا لك الأمثال) مثلك بالشاعر والساحر والمجنون (فصلوا) في جميع ذلك ضلال من يطلب في التيه طريقاً يسلكه فلا يقدر عليه، فهو متحير في أمره لا يدري ما يصنع.

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَوَّانَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ٤٩  
قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَوْفَ لَوْنَ  
مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْفِضُونَ إِلَيْكُمْ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ  
مَتَى هُوَ قُلْ صَبْرًا ٥١

لما قالوا: أنذا كنا عظاماً قيل لهم (كونوا حجارة أو حديداً) فردّ قوله: كونوا، على قولهم: كنا، كأنه قيل: كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاماً، فإنه يقدر على إحيائكم والمعنى: أنكم تستبعدون أن يجدد الله خلقكم، ويردّه إلى حال الحياة وإلى رطوبة الحى وغضاضته بعد ما كنتم عظاماً يابسة، مع أن العظام بعض أجزاء الحى، بل هى عمود خلقه الذى يبنى عليه سائرّه، فليس يبدع أن يردها الله بقدرته إلى حالتها الأولى، ولكن لو كنتم أبعد شيء من الحياة ورطوبة الحى ومن جنس ما ركب منه البشر - وهو أن تكونوا حجارة يابسة أو حديداً مع أن طباعها الجسارية والصلابة - لكان قادراً على أن يردهم إلى حال الحياة (أو خلقاً مما يكبر في صدوركم) يعنى أو خلقاً مما يكبر عندكم عن قبول الحياة ويعظم في زعمكم على الخالق إحياءه فإنه يحياه. وقيل: ما يكبر في صدورهم الموت. وقيل: السموات والأرض (فسينفضون)

فسيحزكونها نحوك تعجباً واستهزاء :

يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتُظَنُّونَ إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ٥٢

والدعاء والاستجابة كلاهما مجاز . والمعنى : يوم يبعثكم فتنبعثون مطاوعين منقادين لا تمتنعون . وقوله ( بحمده ) حال منهم . أى حامدين ، وهى مبالغة فى انقيادهم للبحث ، كقولك لمن تأمره بركوب ما يشق عليه فيتأبى ويتمنع ، سركبه وأنت حامد شاكر ، يعنى : أنك تحمل عليه وتفسر قسرا حتى أنك تلين لين المسمع<sup>(١)</sup> الراغب فيه الحامد عليه ، وعن سعيد بن جبير : ينفذون التراب عن رؤوسهم ويقولون : سبحانك اللهم وبحمدك ( وتظنون ) وترون الهول ، فعنده تستقصرون مدة لبثكم فى الدنيا ، وتحسبونها يوماً أو بعض يوم . وعن قتادة : تحاقرت الدنيا فى أنفسهم حين عاينوا الآخرة .

وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ٥٣

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ٥٤

(وقل لعبادى) وقول للؤمنين (يقولوا) للشركين الكلمة (التي هى أحسن) وألين ولا تخاشنهم ، كقوله : وجادلهم بالتي هى أحسن . وفسر التي هى أحسن بقوله (ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم أو إن يشأ يعذبكم) يعنى يقولوا لهم هذه الكلمة ونحوها ، ولا يقولوا لهم : إنكم من أهل النار وإنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر . وقوله (إن الشيطان ينزغ بينهم) اعتراض ، يعنى يلقى بينهم الفساد ويغرى بعضهم على بعض ليقع بينهم المشاركة والمشاركة (وما أرسلناك عليهم وكيلاً) أى ربا موكولاً إليك أمرهم تقصرهم على الإسلام وتجبرهم عليه ، وإنما أرسلناك بشيراً ونذيراً فدارهم ومر أصحابك بالمداراة والاحتياط وترك الحاقة والمكاشفة ، وذلك قبل نزول آية السيف . وقيل : نزلت فى عمر رضى الله عنه : شتمه رجل فأمره الله بالعفو . وقيل : أفرط إيداء المشركين للسلين ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت . وقيل : الكلمة التي هى أحسن : أن يقولوا يهديكم الله ، يرحمكم الله . وقرأ طلحة : ينزغ ، بالكسر وهما لفتان ، نحو يعرشون ويعرشون .

وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ٥٥

(١) قوله «المسمع» فى الصحاح «استحقت قروفته» أى ذلك نفسه وتابعته على الأمر . (ع)

هو رد على أهل مكة في إنكارهم واستبعادهم أن يكون يقيم أبي طالب نبيا ، وأن تكون العراة الجوع أصحابه ، كصهيب وبلال وخباب وغيرهم ، دون أن يكون ذلك في بعض أكابرهم وصناديدهم ، يعني : وربك أعلم بمن في السموات والأرض وأحوالهم ومقاديرهم ربما يستأهل كل واحد منهم . وقوله ﴿ ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض ﴾ إشارة إلى تفضيل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوله ﴿ وآتينا داود زبوراً ﴾ دلالة على وجه تفضيله ، وهو أنه خاتم الأنبياء ، وأن أمته خير الأمم ؛ لأن ذلك مكتوب في زبور داود . قال الله تعالى ( ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ) وهم محمد وأمه . فإن قلت : هلا عرّف الزبور كما عرّف في قوله ( ولقد كتبنا في الزبور ) ؟ قلت : يجوز أن يكون الزبور وزبور كالعباس وعباس ، والفضل وفضل ، وأن يريد : وآتينا داود بعض الزبور وهي الكتب ، وأن يريد ما ذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الزبور ، فسمى ذلك زبوراً ، لأنه بعض الزبور ، كما سمي بعض القرآن قرآناً .

قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾

هم الملائكة . وقيل : عيسى ابن مريم ، وعزير . وقيل نفر من الجن ، عيدهم ناس من العرب ثم أسلم الجن ولم يشعروا . أي : ادعوهم فهم لا يستطيعون أن يكشفوا عنكم الضر من مرض أو فقر أو عذاب ، ولأن يحولوه من واحد إلى آخر أو يبدلوه . ﴿ أولئك ﴾ مبتدأ ، و ﴿ الذين يدعون ﴾ صفة ، و ﴿ يبتغون ﴾ خبره ، يعني : أن آلهتهم أولئك يبتغون الوسيلة وهي القرابة إلى الله تعالى . و ﴿ أيهم ﴾ بدل من واو يبتغون ، وأي موصولة ، أي : يبتغي من هو أقرب منهم وأزلف الوسيلة إلى الله ، فكيف بغير الأقرب . أو ضمن يبتغون الوسيلة معنى يحرصون ، فكانه قيل : يحرصون أيهم يكون أقرب إلى الله . وذلك بالطاعة وازدياد الخير والصلاح ، ويرجون ، ويخافون ، كما غيرهم من عباد الله فكيف يزعمون أنهم آلهة ؟ ﴿ إن عذاب ربك كان ﴾ حقيقة بأن يحذر كل أحد من ملك مقرب ونبي مرسل ، فضلا عن غيرهم .

وَأَنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا

شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾

﴿نحن مهلكوها﴾ بالموت والاستئصال ﴿أو معذبوها﴾ بالقتل وأنواع العذاب . وقيل : الهلاك للصالحه ، والعذاب للطالحه . وعن مقاتل : وجدت في كتب الضحاك بن مزاحم في تفسيرها : أمامك فيخربها الحبشة ، وتملك المدينة بالجوع ، والبصرة بالغرق ، والكوفة بالترك ، والجبال بالصواعق والرواجف . وأما خراسان فعذابها ضروب ، ثم ذكرها بلداً بلداً ﴿في الكتاب﴾ في اللوح المحفوظ .

وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا نُوحًا  
الدَّاقَّةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ٥٩

استعير المنع لترك إرسال الآيات من أجل صارف الحكمة . و. أن. الأولى منصوبة والثانية مرفوعة ، تقديره : وما منعنا إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين . والمراد : الآيات التي اقترحتها قريش من قلب الصفا ذهباً ومن إحياء الموتى وغير ذلك : وعادة الله في الأمم أن من افترح منهم آية فأجيب إليها ثم لم يؤمن أن يعاجل بعذاب الاستئصال ، فالمعنى : وما صرفنا عن إرسال ما يقترحونه من الآيات إلا أن كذب بها الذين هم أمثالهم من المطبوع على قلوبهم كعاد ونمود ، وأنها لو أرسلت لكذبوا بها تكذيب أولئك وقالوا هذا سحر مبين كما يقولون في غيرها ، واستوجبوا العذاب المستأصل . وقد عزمنا أن نؤخر أمر من بعثت إليهم إلى يوم القيامة . ثم ذكر من تلك الآيات - التي اقترحها الأولون ثم كذبوا بها لما أرسلت فأهلكوا - واحدة : وهي ناقة صالح ؛ لأن آثار هلاكهم في بلاد العرب قريبة من حدودهم يبصرها صادرهم وواردهم ﴿مبصرة﴾ بينة . وقرئ : مبصرة ، بفتح الميم ﴿فظلموا بها﴾ فكفروا بها ﴿وما نرسل بالآيات﴾ إن أراد بها الآيات المقترحة فالمعنى لا نرسلها ﴿إلا تخويفاً﴾ من نزول العذاب العاجل كالطليعة والمقدمة له ، فإن لم يخافوا وقع عليهم وإن أراد غيرها فالمعنى : وما نرسل ما نرسل من الآيات كآيات القرآن وغيرها إلا تخويفاً وإنذاراً بعذاب الآخرة .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ٦٠

﴿وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس﴾ واذكر إذ أوحينا إليك أن ربك أحاط بقريش ، يعنى : بشرناك بوقعة بدر وبالنصرة عليهم . وذلك قوله ( سيهزم الجمع ويولون الدبر ) ، ( قل



الذين كفروا يستغلبون وتحشرون) وغير ذلك ، فجعله كأن قد كان ووجد ، فقال : أحاط بالناس على عادته في إخباره ، وحين تزاحف الفريقان يوم بدر والنبي صلى الله عليه وسلم في العريش مع أبي بكر رضى الله عنه كان يدعو ويقول : « اللهم إني أسألك عهدك ووعدك ، ثم خرج عليه الدرع يحرض الناس ويقول « سبهم الجمع ويولون الدبر » <sup>(١)</sup> ولعل الله تعالى أراه مصارعهم في منامه ، فقد كان يقول حين ورد ماء بدر « والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم » <sup>(٢)</sup> وهو يومئ إلى الأرض ويقول : هذا مصرع فلان ، هذا مصرع فلان ، فتسامعت قریش بما أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من أمر يوم بدر وما أرى في منامه من مصارعهم ، فكانوا يضحكون ويستسخرون ويستعجلون به استهزاء وحين سمعوا بقوله : « إن شجرة الزقوم طعام الآثيم » <sup>(٣)</sup> جعلوها شجرة وقالوا : إن محمداً يزعم أن الجحيم تحرق الحجارة ، ثم يقول ينبت فيها الشجر . وما قدر الله حق قدره من قال ذلك ، وما أنكروا أن يجعل الله الشجرة من جنس لاتأكله النار ! فهذا وبر السمندل وهو دويبة بيلاد الترك تتخذ منه مناديل ، إذا اتسخت طرحت في النار فذهب الوسخ وبقي المنديل سالماً لاتعمل فيه النار . وترى النعامة تبتلع الجر وقطع الحديد الحركا لجر يأحماء النار فلا تضرها ، ثم أقرب من ذلك أنه خلق في كل شجرة ناراً فلا تحرقها ، فما أنكروا أن يخلق <sup>(٤)</sup> في النار شجرة لاتحرقها . والمعنى : أن الآيات إنما يرسل بها تخويفاً للعباد ، وهؤلاء قد خوفوا بعذاب الدنيا وهو القتل يوم بدر . فما كان ما (أرىناك) منه في منامك بعد الوحي إليك (إلا فتنه) لهم حيث اتخذوه سخرياً وخوفوا بعذاب الآخرة وشجرة الزقوم فما أثر فيهم ، ثم قال فيهم (ونخوفهم) أى نخوفهم بمخاوف الدنيا والآخرة (فما يزيدهم) التخويف (إلا طغياناً كبيراً) فكيف يخاف قوم هذه خالهم بإرسال ما يقترحون من الآيات . وقيل : الرقيا هي الإسراء <sup>(٥)</sup> ، وبه تعلق من يقول : كان الإسراء في

(١) لم أجده هكذا فأما أوله في البخارى عن عكرمة عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو في قننه يوم بدر : اللهم إني أشدك عهدك ووعدك اللهم إني أشدك عهدك ووعدك . اللهم إن تهلك هذه العصابة لاتعبد بعد اليوم . فأخذ أبو بكر بيده وقال : - حسب . فخرج وهو يقول : سبهم الجمع ويولون الدبر ،  
(٢) أخرجه مسلم من حديث أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا مصرع فلان ويضع يده على الأرض منها . قال : فما حاط أحد عن موضع يده ،

(٣) قال محمود : « افتنانهم بالشجرة أنهم حين سمعوا بقوله : إن شجرة الزقوم ... الخ » قال أحمد : والعمدة في ذلك أن النار لاتؤثر إحراقاً في شيء . ولكن الله تعالى أجرى العادة أنه يخلق الحرق عند ملاقاته جسم النار لبعض الأجسام ، فإذا كانت ذلك من فعل الله لامن فعل النار فله تعالى أن لايفعل الحرق في الشجرة التي في أصل الجحيم .

(٤) قوله « وما أنكروا أن يخلق » عبارة النسفي : لجاز أن يخلق . (ع)

(٥) عاد كلامه . قال : « وأما الرقيا فقبيل الاسراء ، وتعلق من جعله مناماً بهذه الآية . وقيل : إنما سماها =

المنام ، ومن قال : كان في اليقظة ، فسر الرؤيا بالرؤية . وقيل : إنما سماها رؤيا على قول المكذبين حيث قالوا له : لعلها رؤيا رأيته ، وخيال خيل إليك ، استبعاداً منهم ، كما سمي أشياء بأسامها عند الكفرة . نحو قوله : (فراغ إلى آلهتهم) ، (أين شركائي) ، (ذق إنك أنت العزيز الكريم) وقيل : هي رؤياه أنه سيدخل مكة . وقيل : رأى في المنام أن ولد الحكم يتداولون منبره كما يتداول الصبيان الكرة . فإن قلت : أين لعنت شجرة الرقوم في القرآن ؟ قلت : لعنت حيث لعن طاعموها من الكفرة والظلمة : لأن الشجرة لا ذنب لها حتى تلعن على الحقيقة ، وإنما وصفت بلعن أصحابها على المجاز . وقيل : وصفها الله باللعن ، لأن اللعن الإبعاد من الرحمة ، وهي في أصل الجحيم في أبعد مكان من الرحمة . وقيل تقول العرب لكل طعام مكروه ضار : ملعون ، وسألت بعضهم فقال : نعم الطعام الملعون القشب الممحق <sup>(١)</sup> . وعن ابن عباس : هي الكشوث التي تتلوى بالشجر يجعل في الشراب . وقيل : أبو جهل . وقرئ : والشجرة الملعونة بالرفع ، على أنها مبتدأ محذوف الخبر ، كأنه قيل : والشجرة الملعونة في القرآن كذلك .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ۖ ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أُخِرْتُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ۖ ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ قَنَّ تَبِيعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ۖ ﴿٦٣﴾ وَاسْتَغْفِرْ مَنْ اسْتَكْبَرْتَ مِنْهُمْ بِصَوْنِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخُمُوكَ وَرَجُلِكَ وَشَارِكُكُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ۖ ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَكَ عَلَنِمٌ ۖ سُلْطَنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ۖ ﴿٦٥﴾

(طيناً) حال إما من الموصول والعامل فيه أسجد ، على : أسجد له وهو طين ، أى أصله طين .

== رؤيا على زعم المكذبين ... الخ « قال أحمد : ويعد ذلك قوله تعالى (طلعها كأنه رءوس الشياطين) وقوله (فانهم لا تكون منها) والله أعلم .

(١) قوله «الطعام الملعون القشب الممحق» الخلط الضار يمزج بالطعام أو الشراب كالسم . والممحق المذاب حتى يذوب عنه . أفاده الصحاح . وفيه «الكشوث» نبت يتعلق بأغصان الشجر من غير أن يضرب بعرق في الأرض ، قال الشاعر :

هو الكشوث فلا أصل ولا ورق ولا نسيم ولا ظل ولا نسيم (ع)

أو من الراجع إليه من الصلة على : أأسجد لمن كان في وقت خلقه طينا ﴿أرأيتك﴾ الكاف للخطاب . و﴿هذا﴾ مفعول به . والمعنى : أخبرني عن هذا ﴿الذي كرمته﴾ ﴿على﴾ أى فضله ، لم كرمته على . وأنا خير منه ؟ فاختصر الكلام بحذف ذلك ، ثم ابتدأ فقال ﴿لئن أخرجتني﴾ واللام موطنه للقسم المحذوف ﴿لاحتسكن ذريته﴾ لاستأصلانهم بالإغواء ، من احتسك الجراد الأرض إذا جرد ما عليها أكلا . وهو من الحنك . ومنه ما ذكر سيدييه من قولهم : أحنك الشاتين أى أكلهما . فإن قلت : من أين علم أن ذلك يتسهل له وهو من الغيب ؟ قلت : إما أن سمعه من الملائكة وقد أخبرهم الله به ، أو خرجه من قولهم : أتجعل فيها من يفسد فيها ، أو نظر إليه فتوسم في مخايله أنه خلق شهوأتى . وقيل : قال ذلك لما عملت وسوسته في آدم ، والظاهر أنه قال ذلك قبيل أكل آدم من الشجرة ﴿أذهب﴾ ليس من الذهاب للذى هو تقيض الجبىء ، إنما معناه : امض لشأنك الذى اخترته خذ لا ناوتحلية ، وعقبه بذكر ما جزه سوء اختياره في قوله ﴿فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم﴾ كما قال موسى عليه السلام للسامرى (فأذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس) . فإن قلت : أما كان من حق الضمير في الجزاء أن يكون على لفظ الغيبة ليرجع إلى من تبعك ؟ قلت : بلى ، ولكن التقدير : فإن جهنم جزاؤهم وجزاؤك ، ثم غلب المخاطب على الغائب فقيس : جزاؤكم . ويجوز أن يكون للتابعين على طريق الالتفات ، وانتصب ﴿جزاء موفورا﴾ بما في (فإن جهنم جزاؤكم) من معنى تجازون . أو بإضمار تجازون . أو على الحال : لأن الجزاء موصوف بالموفور ، والموفور الموفر . يقال : فر لصاحبك عرضه فرة .

استغفرت : استخفه . والفز : الخفيف ﴿وأجاب﴾ من الجلبة وهى الصياح <sup>(١)</sup> . والخيال : الخيالة . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : يا خيل الله اركبي ، <sup>(٢)</sup> . والرجل اسم جمع للراجل . ونظيره :

(١) قوله «من الجلبة وهى الصياح» فى الصراح : جلب على فرسه وأجلب عليه : صاح به من خلفه واستحثه للسبق اه (ع)

(٢) أخرجه أبو الشيخ فى التامخ والمنسوخ من طريق أبي حمزة السكرى عن عبد الكريم : حدثني سعيد بن جبير عن قصة المحاربين قال «كان ناس أتوا النبي صلى الله عليه وسلم . فقالوا : نابعك على الإسلام - وذكر القصة وفيها فأمر النبي صلى الله عليه وسلم فتدوى فى الناس : يا خيل الله اركبي : فركبوا لا ينتظر فارس فارسا . وروى ابن عائد فى المغازى عن الوليد بن مسلم عن سعيد بن بشر عن قتادة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم - يعنى يوم قرظة يوم الأحزاب مناديا ينادى : يا خيل الله اركبي . وعزا السهيلي فى الروض فى غزوة حنين هذه اللفظة فى صحيح مسلم . فينظر فيه . وقال أبو داود فى السنن : باب النداء عند النفير : يا خيل الله اركبي وساق فى الباب حديث سمرة بن جندب وأن النبي صلى الله عليه وسلم سمى خيلنا خيل الله . قلت أشكل هذا على المخرج فقال : فيه نظر لمن تأمله . فكأنه لم يتجه له ، مطابقة الحديث للترجمة . وهو ظاهر ما لأن المراد صحة هذه الإضافة . وقد وردت عن علي وعلاء بن الوليد . فى المستدرک للحاكم فى قصة أويس من حديث أبي نضرة عن أسيد بن جابر فذكر القصة . فقال فى آخرها فتدوى على : يا خيل الله اركبي . وفى الردة للوافدى من رواية عاصم بن عمر عن محمود بن لبيد أن خالد بن الوليد قال لصحابه يوم البامة «يا خيل الله اركبي فركبوا وساروا إلى بنى حنيفة .

الركب والصحب . وقرئ : ورجلك ، على أن فعلا بمعنى فاعل ، نحو : تعب وتعب . ومعناه : وجمعك الرجل ، وتضم جيمه أيضا ، فيكون مثل حدث وحدث ، وندس وندس <sup>(١)</sup> ، وأخوات لها . يقال : رجل رجل . وقرئ : ورجالك ورجالك . فإن قلت : ما معنى استفزاز إبليس بصوته وإجلا به بخيله ورجله ؟ قلت : هو كلام ورد مورد التثنية ، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أو وقع على قوم فصوت بهم صوتا يستفزهم من أما كنهم ويقلقهم عن مرا كزهم ، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم . وقيل : بصوته ، بدعائه إلى الشر . وخيله ورجله : كل راكب وماش من أهل العيث <sup>(٢)</sup> . وقيل : يجوز أن يكون لإبليس خيل ورجال . وأما المشاركة في الأموال والأولاد فكل معصية يحملهم عليها في بابهما ، كالربا والمكاسب المحرمة ، والبحيرة والسائبة ، والإنفاق في الفسوق ، والإسراف ، ومنع الزكاة ، والتوصل إلى الأولاد بالسبب الحرام ، ودعوى ولد بغير سبب ، والتسمية بعبد العزى وعبد الحرث ، والتهود والتنصير ، والحمل على الحرف المذمومة والأعمال المحظورة ، وغير ذلك <sup>(٣)</sup> وعدم المواعيد الكاذبة <sup>(٤)</sup> ، من شفاعة الآلهة والكرامة على الله بالأنساب الشريفة ، وتسويق التوبة ومغفرة الذنوب بدونها ، والاتكال على الرحمة ، وشفاعة الرسول في الكبار والخروج من النار بعد أن يصيروا حما <sup>(٥)</sup> ، وإيثار العاجل على الآجل <sup>(٦)</sup> « إن عبادي » يريد الصالحين <sup>(٧)</sup> ليس لك عليهم سلطان <sup>(٨)</sup> أى لا تقدر أن تنوهم <sup>(٩)</sup> « وكفى بربك وكلاء » لهم يتوكلون به في الاستعاذة منك ، ونحو قوله ( إلا عبادك منهم المخلصين ) فإن قلت : كيف جاز أن يأمر الله إبليس بأن يتسلط على عباده مغويا مضلا ، داعيا إلى الشر ، صاذا عن الخير ؟ قلت : هو من الأوامر الواردة على سبيل الخذلان والتخيلة ، كما قال للعصاة : اعملوا ما شئتم .

(١) قوله « مثل حدث وحدث ، وندس وندس » في الصحاح : رجل حدث وحدث ، بضم الدال وكررها أى حسن الحديث . وفيه : رجل ندس وندس ، أى : فهم . (ع)

(٢) قوله « العيث » في الصحاح « العيث » الفساد . (ع)

(٣) قال محمود : والمراد بعدم المواعيد الكاذبة ... الخ . قال أحمد : وهذا من تهمى المصنف على السنة ومتبعها ، فانه جعل المغفرة المقرونة بالمشيئة وإن لم تكن توبة للذمتين من مواعيد الشيطان ، مع العلم بأنها ثابتة بقواطع القرآن وعدا من الرحمن ، وكذلك الشفاعة المتفق عليها بين أهل السنة والجماعة التي وعد بها الصادق المصدوق ، وميزه الله تعالى بها على كل مخلوق ، من مواعيد الشيطان الباطل وأمانيه الساحلة . اللهم ارزقنا الشفاعة ، واحشرنا في ذمة السنة والجماعة .

(٤) قوله « بعد أن يصيروا حما » في الصحاح : الحم : الرماذ والقحم : الواحدة حمة ، ثم ماأفاده من توقف المغفرة على التوبة وعدم الشفاعة في الكبار ، وعدم خروج أهلها من النار بعد احتراقهم هو مذهب المعتزلة . رآهل السنة على خلاف ذلك ، كما تقرر في علم التوحيد . (ع)

رَبِّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ  
بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا  
نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ ائْتَوْا أَجْرَ ضَمٍّ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾

(يزجي) يحرك ويسير. والضرب: خوف الفرق (ضل من تدعون إلا إياه) ذهب عن  
أوامركم وخواطركم كل من تدعونه في حوادثكم إلا إياه وحده، فإنكم لا تذكرن سواه،  
ولا تدعونه في ذلك الوقت ولا تعقدون برحمته رجاءكم، ولا تخطرون ببالكم أن غيره يقدر على  
إغاثتكم، أولم يهتدوا لنفاذكم أحد غيره من سائر المدعويين. ويجوز أن يراد: ضل من تدعون  
من الآلهة عن إغاثتكم، ولكن الله وحده هو الذي ترجونه وحده (١) على الاستثناء المنقطع.

أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخْصِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا  
لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا  
مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلِيًّا بِهِ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾

(أفأمنتم) الهمة للإنكار، والفاء للعطف على محذوف تقديره: أنجوتهم فأمنتم،  
فعلكم ذلك على الإعراض. فإن قلت: بم انتصب (جانب البر)؟ قلت: يخسف مفعولا به،  
كالأرض في قوله (خسفنا به وبداره الأرض). و(بكم) حال. والمعنى: أن يخسف جانب  
البر، أي يقبله وأنتم عليه. فإن قلت: فما معنى ذكر الجانب؟ قلت: معناه أن الجوانب  
والجهات كلها في قدرته سواء، وله في كل جانب برأ كان أو بحرأ سبب مرصد من أسباب  
الهلكة، ليس جانب البحر وحده مختصاً بذلك؛ بل إن كان الفرق في جانب البحر، ففي جانب  
البر مآه ومثله وهو الخسف؛ لأنه تغيب تحت التراب كما أن الفرق تغيب تحت الماء، فالبر  
والبحر عنده سياتن يقدر في البر على نحو ما يقدر عليه في البحر، فعلى العاقل أن يستوى خوفه  
من الله في جميع الجوانب وحيث كان (أو يرسل عليكم حاصباً) وهي الريح التي تحصب أي  
ترمي بالحصباء، يعني: أو إن لم يصبكم بالهلاك من تحتكم بالخسف، أصابكم به من فوقكم بريح  
يرسلها عليكم فيها الحصباء يرميكم بها، فيكون أشد عليكم من الفرق في البحر (ووكيلاً) من  
يتوكل بصرف ذلك عنكم (أم أمنتم) أن يتقوى دواعيكم ويوفر حوائجكم إلى أن ترجعوا

(١) قوله «ولكن الله وحده هو الذي ترجونه وحده» كأنه تكرر، وأسقطه الخازن في عبارته. (ع)

فتركوا البحر الذي نجاكم منه فأعرضتم ، فبنتقم منكم بأن يرسل ﴿عليكم قاصفا﴾ وهي الريح التي لها قصيف وهو الصوت الشديد ، كأنها تنقص أي تنكسر . وقيل : التي لا تميز شيء إلا قصفته ﴿فيغرقكم﴾ وقرئ بالتاء . أي الريح . وبالنون . وكذلك : نخسف ، ونرسل . ونعيدكم . قرئت بالياء والنون . التبع : المطالب ، من قوله (فاتباع بالمعروف) أي مطالبة . قال الشماخ :

• كَمَا لَاذَ الْغَرِيمُ مِنَ التَّبِيعِ •<sup>(١)</sup>

يقال : فلان على فلان تبيع بحقه ، أي مصيطر عليه مطالب له بحقه . والمعنى : أنا فعل ما نفعل بهم ، ثم لا نجد أحدا يطالبنا بما فعلنا انتصارا منا ودركا للثأر من جهتنا . وهذا نحو قوله (ولا يخاف عقباها) . ﴿بما كفرتم﴾ بكفرانكم النعمة ، يريد : إعراضهم حين نجاهم . وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ

وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا<sup>(٢)</sup>

قيل في تكريم ابن آدم : كرمه الله بالعقل ، والنطق ، والتمييز ، والخط ، والصورة الحسنة والقامة المعتدلة ، وتدبير أمر المعاش والمعاد . وقيل بتسليطهم على ما في الأرض وتسخيرهم لهم . وقيل : كل شيء يأكل فيه إلا ابن آدم . وعن الرشيد : أنه أحضر طعاما فدعا بالملاعق وعنده أبو يوسف ، فقال له : جاء في تفسير جدك ابن عباس قوله تعالى (ولقد كرمنا بني آدم) جعلنا لهم أصابع يأكلون بها ، فأحضرت الملاعق فردها وأكل بأصابعه ﴿على كثير من خلقنا﴾ هو ما سوى الملائكة ،<sup>(٣)</sup> وحسب بني آدم تفضيلا أن ترفع عليهم الملائكة وهم هم

(١) يلوذ ثعالب الشرقيين منها كما لاذ الغريم من التبيع  
لشماخ ، يصف عقابا تهرب منها ثعالب الشرقيين ، وهو اسم موضع ، أوجه الجنوب ووجه الشمال ، كالشرقيين ، كما لاذ : أي هرب والتجأ ، الغريم : أي المدين ، من التبيع : أي اللذان المطالب .  
(٢) قال محمود : « المراد فضلناهم على ما سوى الملائكة ... الخ » قال أحد : وقد بلغ إلى حد من السفه بوجب الحد ، ولنا لمساجلته لإلّا من حيث العلم ، لا من حيث السفه . والقدرا الذي تختص به هذه الآية أن حل كثير على الجميع غير مستبعد ولا مستنكر . ألا ترى أنه ورد حل القليل على العدم . والزعشري يختار ذلك في قوله تعالى (فقليل) ما يؤمنون) وأشابهه كثير . وقد لمح الشاعر ذلك في قوله  
• قليل بها الأصوات إلا بغاها •

أي لا أصوات بها ، ولنا أن نبقه على ما هو عليه ، ونقول : إن المخلوق قسمان : بنو آدم أحدهما وغيرهم من جميع المخلوقين القسم الآخر ، ولا شك أن غيرهم أكثر منهم وإن لم يكونوا أكثر منهم كثيرا ، فعنى قوله (وفضلناهم على كثير من خلقنا) أي على غيرهم من جميع المخلوقين ، وتلك الأغيار كثير بلا مرا ، وذلك مرادف لقولك : وفضلناهم على جميع من عداهم من خلقنا ، فظاهر الآية إذا مع الأشربة الذين سماهم بحجرة ، وتمشق في سبهم وشقق عبارات في ثلهم ، وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ، والله ولي التوفيق والتسديد .

ومنزلتهم عند الله منزلتهم . والعجب من المجرة كيف عكسوا<sup>(١)</sup> في كل شيء وكابروا ، حتى جسرهم عادة المكابرة على العظيمة التي هي تفضيل الإنسان على الملك ، وذلك بعد ماسمعوا تفخيم الله أمرهم وتكثيره مع التعظيم ذكرهم ، وعلموا أين أسكنهم ، وأنى قزبهم ، وكيف نزلهم من أنبيائه منزلة أنبيائه من أعينهم ، ثم جزم فرط التعصب عليهم إلى أن لفقوا أقوالا وأخبارا منها : قالت الملائكة<sup>(٢)</sup> : ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون منها ويتمتعون ولم تعطنا ذلك ، فأعطناه في الآخرة . فقال : وعزى وجلالى ، لا أجعل ذرية من خلقت يدي كن قلت له كن فكان<sup>(٣)</sup> . ورووا عن أبي هريرة أنه قال : لمؤمن<sup>(٤)</sup> أكرم على الله من الملائكة الذين عنده . ومن ارتكبهم أنهم فسروا (كثيراً) بمعنى « جميع » في هذه الآية ، وخذلوا حتى سلبوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم : وفضلناهم على جميع من خلقنا ، على أن معنى قولهم « على

(١) قوله « والعجب من المجرة كيف عكسوا » يعنى أهل السنة . وقوله « تفضيل الإنسان » يعنون المؤمن . ويدل لمذهبهم (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية) وأما الذين كفروا فهم شر البرية ، ودعوى العكس من فرط التعصب للمنزلة . (ع)

(١) قوله « قالت الملائكة ربنا إنك أعطيت بني آدم الدنيا » صدره كما في الحازن : لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة ، وقوله « خلقت يدي » في الحازن : ونفخت فيه من روحي . (ع)

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط من طريق محمد بن مامان حدثنا طلحة بن زيد عن صفوان بن سليم عن عطاء بن يسار عن عبدالله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الملائكة قالت رب أعطيت بني آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون : ونحن نسبح بحمدك لأنأكل ولا نشرب ولا نلهد . فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة . قال : لا أجعل ذرية من خلقت يدي كن قلت له . كن فكان » قال : لم يروه عن صفوان إلا طلحة وأبو غسان تفرد به طلحة محمد بن مامان . وعن أبي غسان حجاج الأعور أخرجه طريق حجاج في المعجم الكبير ورجاله ثقات . وله شاهد عند عبد الرزاق في تفسيره عن معمر بن زيد بن أسلم قال قالت الملائكة فذكر نحوه موقوفاً عليه . وقال الدارقطني في المال : روى عبد المجيد بن أبي داود عن معمر بن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عمر . فذكر نحوه قال : ورواه شريح بن يونس عن عبد المجيد موقوفاً . وهو أصح . وله شاهد آخر أخرجه الطبراني في مسند الشاميين والبيهقي في الأسماء والصفات من رواية عبد بن صالح عن عروة بن رويح أنه سمعه يحدث عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما خلق الله آدم وذريته قالت الملائكة يارب خلقتهم يأكلون ويشربون وينسجون ويركون فاجعل لهم الدنيا ولنا الآخرة . فقال تعالى لا أجعل من خلقت يدي كن قلت له : كن فكان » ومنها ما رواه عن أبي هريرة رضى الله عنه أنه قال « لمؤمن أكرم على الله من الملائكة الذين عنده ، البيهقي في الشعب من رواية حماد بن سلمة عن أبي المهزم عن أبي هريرة موقوفاً . وأخرجه ابن ماجه من هذه الطريق موقوفاً . وأبو المهزم متروك : وله شاهد أخرجه الطبراني والبيهقي في الشعب من رواية عبيد الله بن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما شئ أكرم على الله يوم القيامة من بني آدم . قيل : ولا الملائكة . قال : ولا الملائكة . الملائكة مجبورون كالشمس والقمر ، قال البيهقي : تفرد به عبيد الله بن تمام يروى أحاديث معاوية وهو ضعيف .

(٣) قوله « قال لمؤمن أكرم على من الملائكة » في الحازن : المؤمن . (ع)

جميع من خلقنا، أشجى لحلوهم وأقذى لعيونهم ، ولكنهم لا يشعرون . فانظر إلى تحملهم وتشبههم بالتأويلات البعيدة في عداوة الملائكة الأعلى ، كأن جبريل عليه السلام غاظهم حين أهلك مدائن قوم لوط ، فتلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم <sup>(١)</sup>

يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا <sup>(٧١)</sup>

قرئ : يدعو ، بالياء والنون . ويدعى كل أناس ، على البناء للفعول . وقرأ الحسن : يدعوا كل أناس ، على قلب الالف واو أو في لغة من يقول : افعوا . والظرف نصب بإضمار اذكر . ويجوز أن يقال : إنها علامة الجمع ، كما في ( وأسرنا النجوى الذين ظلموا ) والرفع مقدرا كما في : يدعى ، ولم يؤت بالنون ، قلة مبالاة بها ، لأنها غير ضمير ، ليست إلا علامة ( بإمامهم ) بمن اتهموا به من نبي أو مقدم في الدين ، أو كتاب ، أو دين <sup>(٢)</sup> ، فيقال : يا أتباع فلان ، يا أهل دين كذا وكتاب كذا . وقيل : بكتاب أعمالهم ، فيقال : يا أصحاب كتاب الخير ، ويا أصحاب كتاب الشر . وفي قراءة الحسن : بكتابهم . ومن بدع التفسير : أن الإمام جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأسمائهم ، وأن الحكمة في الدعاء بالأسماء دون الألباء رعاية حق عيسى عليه السلام ، وإظهار شرف الحسن والحسين ، وأن لا يفتضح أولاد الزنا . وليت شعري أيهما أبداع ؟ أصح لفظه أم بهاء حكمته ؟ ( فمن أوتي ) من هؤلاء المدعوقين ( كتابه يمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ) قيل أولئك ، لأن من أوتي في معنى الجمع . فإن قلت : لم خص أصحاب اليمين بقراءة كتابهم ؟ كأن أصحاب الشمال لا يقرؤن كتابهم . قلت : بلى ، ولكن إذا اطلعوا على ما في كتابهم ، أخذهم ما يأخذ المطالب بالنداء على جنائياته ، والاعتراف بمساويه ، أمام التشكيل به والانتقام منه ، من الحياء والخجل والانخزال ، وحبسة اللسان ، والتتبع ، والمعجز عن إقامة حروف الكلام ، والذهاب عن تسوية القول : فكان قراءتهم كلا قراءة . وأما أصحاب اليمين فأمرهم علم . عكس ذلك ، لاجرم أنهم يقرؤن كتابهم أحسن قراءة وأبينها ، ولا يقنعون بقراءتهم وحدهم حتى يقول القارىء لأهل المحشر : (هاؤم

(١) قوله « تلك السخيمة لا تنحل عن قلوبهم » في الصحاح « السخيمة » الضغينة والموعدة في النفس . (ع)

(٢) قال محمود : « بإمامهم » معناه بمن اتهموا به من نبي أو كتاب أو دين ... الخ . قال أحمد : ولقد استبدع بدعا لفظا ومعنى ، فإن جمع الأم المعروف أمهات ، أما رعاية عيسى عليه السلام بذكر أمهات الخلائق لذكر أمه . فيستدعي أن خلق عيسى من غير أب غيرة في منصبه ، وذلك عكس الحقيقة ، فإن خلقه من غير أب كان آية له ، وشرفا في حقه ، والله أعلم .



اقرأ كتابه). (ولا يظنون قليلاً) ولا ينقصون من ثوابهم أدنى شيء، كقوله (ولا يظنون شيئاً)، (فلا يخاف ظلماً ولا هضماً).

وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَصْلُ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾

معناه: ومن كان في الدنيا أعمى، فهو في الآخرة أعمى كذلك (وأصل سبيلاً) من الأعمى: والأعمى مستعار بمن لا يدرك المبصرات لفساد حاسته، لمن لا يهتدى إلى طريق النجاة: أما في الدنيا فللفقد النظر. وأما في الآخرة، فلأنه لا ينفعه الاهتداء إليه، وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل<sup>(١)</sup>. ومن ثم قرأ أبو عمرو الأول ممالاً، والثاني مفخماً<sup>(٢)</sup>، لأن أفعال التفضيل تمامه بمن، فكانت ألفه في حكم الواقعة في وسط الكلام<sup>(٣)</sup>، كقولك: أعمالكم وأما الأول فلم يتعلق به شيء، فكانت ألفه واقعة في الطرف معرضة للإمالة.

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنِ الَّذِي أُوتِيتَ وَإِنَّمَا لِفِتْنَتِكَ غَيْرُكَ وَإِذَا لَا تَتَّخِذُكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ بُنِيتَ لَكَ قَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذَا لَادَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ

عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾

روى أن ثقيفا قالت للنبي صلى الله عليه وسلم: لا تدخل في أمرك حتى تعطينا خلاصاً نفتخر بها على العرب: لا نعشر: ولا نحشر، ولا نجبي<sup>(١)</sup> في صلاتنا، وكل رباً لنا فهو لنا، وكل رباً علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة، ولا تكسرهما بأيدينا عند رأس الحول، وأن تمنع من قصد وادينا وجّ فعضد شجره، فإذا سألتك العرب: لم فعلت ذلك؟ فقل: إن الله أمرني

(١) عاد كلامه. قال: وقد جوزوا أن يكون الثاني بمعنى التفضيل... الخ. قال أحد: أي لأنه من عى القلب لا من عى البصر، جاز أن يتنبى منه أفعال.

(٢) عاد كلامه. قال: ومن ثم أمال أبو عمرو الأولى وغم الثانية... الخ. قال أحد: يمتثل أن تكون هذه الآية قسيمة الأولى: أي: فن أوتى كتابه يمينه فهو الذي يصره ويقرؤه، ومن كان في الدنيا أعمى غير مبصر في نفسه ولا ناظر في معاده، فهو في الآخرة كذلك غير مبصر في كتابه، بل أعمى عنه أو أشد عى مما كان في الدنيا على اختلاف التأويلين، والله أعلم.

(٣) قوله «الواقعة في وسط الكلام» لعله الكلمة، كعبارة النسق. (ع)

(٤) قوله «لا نعشر ولا نحشر ولا نجبي» في المصاحح «التجبية» أن يقوم الإنسان قيام الراكع. وقال أبو عبيدة: تكون في حالين، أحدهما: أن يضع يديه على ركبتيه، والآخر ينكب على وجهه باركاً وهو السجود. وفيه «وجّ» بلد الطائف: وفيه أيضاً: عضدت الشجر، أي قطعت. (ع)

به، وجلّوا بكتابتهم فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم: هذا كتاب من محمد رسول الله لثقيف: لا يعشرون ولا يحشرون، فقالوا: ولا يجبون. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قالوا للكاتب: اكتب: ولا يجبون، والكاتب ينظر إلى رسول الله، فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فسل سيفه وقال: أسعرت قلب نبينا يا معشر ثقيف أسعرت الله قلوبكم نارا، فقالوا: لسنا نكلم إياك، إنما نكلم محمدا<sup>(١)</sup>. فنزلت. وروى أن قريشا قالوا له: اجعل آية رحمة آية عذاب، وآية عذاب آية رحمة، حتى تؤمن بك. فنزلت ﴿وإن كادوا ليفتنونك﴾ إن مخففة من الثقيلة، واللام هي الفارقة بينها وبين النافية. والمعنى: أن الشأن قاربوا أن يفتنوك أى يخدعوك فأتين ﴿عن الذى أوحينا إليك﴾ من أوامرنا ونواهيها ووعدنا ووعدنا ﴿لنفترى علينا﴾ لنقول علينا ما لم نقل، يعنى ما أرادوه عليه من تبديل الوعد وعيدا والوعيد وعدا، وما اقترحت عليه من أن يضيف إلى الله ما لم ينزله عليه ﴿وإذا لاتخذوك﴾ أى ولو اتبعت مرادهم لاتخذوك ﴿خليلا﴾ ولكنت لهم وليا وخرجت من ولايتي ﴿ولولا أن ثبتناك﴾ ولولا تثبيتنا لك وعصمتنا ﴿لقد كدت تركن إليهم﴾ لقاربت أن تميل إلى خدعهم ومكرهم، وهذا تهيج من الله له وفضل تثيت، وفي ذلك لطف المؤمنين ﴿إذا﴾ لو قاربت تركن إليهم أذن ركنه ﴿لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات﴾ أى لأذقناك عذاب الآخرة وعذاب القبر مضاعفين. فإن قلت: كيف حقيقة هذا الكلام؟ قلت: أصله لأذقناك عذاب الحياة وعذاب المات، لأن العذاب عذابان: عذاب فى المات وهو عذاب القبر، وعذاب فى حياة الآخرة وهو عذاب النار. والضعف يوصف به، نحو قوله (فأتهم عذابا ضعفا من النار) بمعنى مضاعفا، فكان أصل الكلام: لأذقناك عذابا ضعفا فى الحياة، وعذابا ضعفا فى المات<sup>(٢)</sup>. ثم حذف الموصوف

(١) لم أجده. وذكره العلبي عن ابن عباس من غير سند.

(٢) قال محمود: والمراد ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب المات... الخ. قال أحد: أمانتليل الكيدودة فالذى يبنى أن يحمل عليه كونه الواقع فى علم الله تعالى: لأن الله عز وجل يعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فعلم تعالى أن الركون الذى كاد يحصل منه عليه السلام وإن كان ما حصل أمر قليل وخطب يسير، فذلك إخبار من الله تعالى عن الواقع فى علمه تقديرا، فلا يليق أن يحمل على المبالغة والتنبيه. فإن ذلك لا يكون فى الإخبار. ألا ترى أنه لو كان الواقع كيدودة ركون كثير، لكان تقليله خافا فى الخبر، ولا يترك أن الذنب يعظم بحسب فاعله على ما ورد: حسنت الأبرار سيئات المقربين. وأما نقل المفسرى عن مشايخه استعظام نسبة الفواحش والقبايح إلى الله عز وجل، فلقد استعظموا عظيما حق على كل مسلم أن يستغفره، ولكنهم جهلوا باعتقاد القبح وصفا ذاتيا للقبس، فلم يعمروا على ذلك أن كل فعل يستقبح من العبد استقبح من الله تعالى، وهم غالطون فى ذلك، فعنى كون الفعل قبيحا أن الله تعالى نهى عنه عبده، وإن كان الله تعالى أن يفعله، وهو حسن بالنسبة إليه (لا يثقل عما يفعل وهم يستلون) ألا ترى أن الملك يصح منه أن يستقبح من عبده أن يجلس على كرسى الملك، ونهاه عذ ذلك، ولا يستقبح =

وأقيمت الصفة مقامه وهو الضعف . ثم أضيفت الصفة إضافة الموصوف فقيل : ضعف الحياة وضعف المات ، كما لو قيل : لا ذنبا لك أليم الحياة وأليم المات . ويجوز أن يراد بضعف الحياة : عذاب الحياة الدنيا . وبضعف المات : ما يعقب الموت من عذاب القبر وعذاب النار . والمعنى : لصاعفتك العذاب المعجل للعصاة في الحياة الدنيا ، وما تؤخره لما بعد الموت . وفي ذكر السكيدة وتقليلها ، مع اتباعها الوعيد الشديد بالعذاب المضاعف في الدارين - دليل بين على أن القبيح يعظم قبحه بمقدار عظم شأن فاعله وارتفاع منزلته ، ومن ثم استعظم مشايخ العدل والتوحيد <sup>(١)</sup> رضوان الله عليهم نسبة المجبرة القبايح إلى الله - تعالى عن ذلك علواً كبيراً - وفيه دليل على أن أدنى مداينة للغواة مضادة لله وخروج عن ولايته ، وسبب موجب لغضبه ونكاله . فعلى المؤمن إذا تلا هذه الآية أن يحثو عندها ويتدبرها ، فهي جديرة بالتدبر ، وبأن يستشعر الناظر فيها الحشية وازدياد التصلب في دين الله . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنها لما نزلت كان يقول : اللهم لا تسكني إلى نفسي طرفة عين ، <sup>(٢)</sup>

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبِثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا <sup>(٧٦)</sup> سُنَّةٌ مِّنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا <sup>(٧٧)</sup>

(وإن كادوا) وإن كاد أهل مكة (ليستفزونك) ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم (من الأرض) من أرض مكة (وإذا لا يلبثون) لا يبقون بعد إخراجك (إلا) زماناً (قليلاً) فإن الله مهلكهم وكان كما قال ، فقد أهلكوا بيد بعد إخراجهم بقليل . وقيل : معناه ولو أخرجوك لاستوصلوا عن بكرة أبيهم . ولم يخرجوه ، بل هاجر بأمر ربه . وقيل : من أرض العرب . وقيل : من أرض المدينة ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما هاجر حسدته اليهود وكرهوا قربه منهم ، فاجتمعوا إليه وقالوا : يا أبا القاسم ، إن الأنبياء إنما بعثوا بالشام وهي بلاد مقدسة وكانت مهاجر إبراهيم ، فلو خرجت إلى الشام لآمننا بك واتبعناك ، وقد علمنا أنه لا يمنعك من الخروج إلا خوف الروم ، فإن كنت رسول الله فانه مانعك منهم ، فعمسك رسول الله صلى الله عليه وسلم على أميال من المدينة وقيل بذى الحليفة ، حتى يجتمع إليه

== ذلك من نفسه ، بل هو منه حسن جميل . ولقد كان لمشايعه شغل باستعظام ما لهم من الاشرار ، عن استعظام غيره مما هو توحيد محض وإيمان صرف ، ولكنهم زين لهم سوء اعتقادهم فأروه حسناً ، والله الموفق .

(١) قوله «ومن ثم استعظم مشايخ العدل» يعنى المعتزلة . ويريد بالمجبرة : أهل السنة . حيث قالوا : إن الخير والشر كلاهما من عند الله بخلقه وإرادته ، ولو كان من فعل العبد ظاهراً . (ع)

(٢) لم أجده ، وذكره الثعلبي عن قتادة مرسلًا

أصحابه ويراه الناس عازما على الخروج إلى الشام لحرصه على دخول الناس في دين<sup>(١)</sup> الله ،  
فزلت ، فرجع . وقرئ : لا يلبثون . وفي قراءة أبي : لا يلبثوا على أعمال ، إذا . فإن قلت :  
ما وجه القراءةين ؟ قلت : أما الشائعة فقد عطف فيها الفعل على الفعل ، وهو مرفوع لوقوعه  
خبر كاد ، والفعل في خبر كاد واقع موقع الاسم . وأما قراءة أبي ففيها الجملة برأسها التي هي  
إذا لا يلبثوا ، عطف على جملة قوله ( وإن كادوا ليستفزونك ) . وقرئ : خلافا<sup>(٢)</sup> . قال :

صَتَّ الدِّيَارُ خِلَافَهُمْ فَكَأَنَّمَا بَسَطَ الشَّوَاطِبُ يَمِينَهُنَّ حَصِيرًا<sup>(٣)</sup>

أى بعدمهم ( سنة من قد أرسلنا ) يعنى أن كل قوم أخرجوا رسولهم من بين ظهرانيهم ،  
فسنة الله أن يهلكهم ، ونصبت نصب المصدر المؤكد . أى : سن الله ذلك سنة .

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ  
كَانَ مَشْهُودًا<sup>(٧٨)</sup> وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ

مَقَامًا مَحْمُودًا<sup>(٧٩)</sup>

دلكت الشمس : غربت . وقيل : زالت . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم<sup>(٤)</sup> : أتاني  
جبريل عليه السلام لدلوك الشمس حين زالت الشمس ، فصلى في الظهر . واشتقاقه من ذلك ،  
لأن الإنسان يدلك عينه عند النظر إليها ، فإن كان الدلوك الزوال فالآية جامعة للصلوات الخمس ،  
وإن كان الغروب فقد خرجت منها الظهر والعصر . والغسق : الظلمة ، وهو وقت صلاة العشاء  
( وقرآن الفجر ) صلاة الفجر ، سميت قرآنا وهو القراءة ، لأنها ركن ، كما سميت ركوعا وسجودا

(١) لم أجده . وذكره السبيل في الروض عن عبد المجيد بن بهرام بن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم « أن  
اليهود أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا أبا القاسم ، إن كنت صادقا أنك نبي فالحق بالشام . فذكر نحوه ،  
لكن قال : ففزا غروة تبوك لا يريد إلا الشام . فلما بلغ تبوك أنزل الله تعالى : فذكره . وزاد : وأمره بالرجوع  
» وقال : فيها عياك ومما تكت ومنها تبعث . »

(٢) قوله « وقرئ » خلافا ، كانت القراءة التي سبق تفسيرها : خلك . (ع)

(٣) عفت : درست وهلكت ، خلافا : أى بعدمهم . والشواطب : النساء يشققن شطب النخل : أى سفعه  
الأخضر ، يعلنه حصيرا : بصف ديارهم بعدمهم بدروسها وكثرة قامتها لعدم كنهها

(٤) أخرجه البيهقي من طريق أيوب بن عتبة عن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن عروة عن ابن مسعود  
قال « جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين دلكت الشمس - يعنى حين زالت - فقال : قم فصل : فقام فصلى  
الظهر » قال إسماعيل في مسنده : حدثنا بشر بن عمر حدثنا سليمان بن بلال حدثنا يحيى بن سعيد حدثني أبو بكر بن  
حزم عن ابن مسعود قال جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له : قم فصل . وذلك لدلوك الشمس حين  
مالت . فقام فصلى الظهر أربعاً ومن هذا الوجه أخرجه ابن مردويه . وهذا منقطع .

وقنونا . وهى حجة على ابن عليه والاصم فى زعمهما أن القراءة ليست بركن (مشهدا) يشهده ملائكة الليل والنهار ، ينزل هؤلاء ، ويصعد هؤلاء ؛ فهو فى آخر ديوان الليل وأول ديوان النهار . أو يشهده الكثير من المصلين فى العادة . أو من حقه أن يكون مشهوداً بالجماعة الكثيرة . ويجوز أن يكون (وقرآن الفجر) حشاً على طول القراءة فى صلاة الفجر ، لكونها مكثوراً عليها ، لسمع الناس القرآن فيكثر الثواب ؛ ولذلك كانت الفجر أطول الصلوات قراءة (ومن الليل) وعليك بعض الليل (فتجهد به) والتجهد ترك المجهود للصلاة ، ونحوه التأثم والتخرج . ويقال أيضاً فى النوم : تجهد (نافلة لك) عبادة زائدة لك على الصلوات الخمس . وضع نافلة موضع تهجد ؛ لأن التهجد عبادة زائدة فكان التهجد والنافلة يجمعهما معنى واحد . والمعنى أن التهجد زيد لك على الصلوات المفروضة فريضة عليك خاصة دون غيرك ، لأنه تطوع لهم (مقاما محمودا) نصب على الظرف ، أى : عسى أن يبعثك يوم القيامة فيقيمك مقاماً محموداً . أو ضمن يبعثك معنى يقيمك . ويجوز أن يكون حالاً بمعنى أن يبعثك ذامقام محمود . ومعنى المقام المحمود : المقام الذى يحمده القائم فيه ، وكل من رآه وعرفه وهو مطلق فى كل ما يجب الحمد من أنواع الكرامات . وقيل : المراد الشفاعة ، وهى نوع واحد مما يتناوله . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : مقام يحمذك فيه الأولون والآخرون ، وتشرف فيه على جميع الخلائق : تسأل فتعطى ، وتشفع فتشفع ، ليس أحد إلا تحت لوائك . وعن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم : هو المقام الذى أشفع فيه لأمتي <sup>(١)</sup> . وعن حذيفة يجمع الناس فى صعيد واحد ، فلا تتكلم نفس ، فأقول مدعو محمد صلى الله عليه وسلم يقول : ه ليك وسعديك والشر ليس إليك ، والمهدى من هديت ، وعبدك بين يديك وبك وإليك ، لاملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، تباركت وتعاليت ، سبحانه رب البيت ، قال : فهذا قوله (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) <sup>(٢)</sup> .

(١) أخرجه أحمد وابن أبى شبة والترمذى من طريق داود بن يزيد الأودى عن أبيه عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى (عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً) وسئل عنه فقال : هى الشفاعة ، وفى الباب عن أنس عند البخارى فى التوحيد وعن ابن عمر عنده فى الزكاة . وعن ابن مسعود عند النسائى والحاكم وله طريق آخر عند أحمد والحاكم مطولاً . وعن كعب بن مالك عند الحاكم . وأصله عند مسلم وعن جابر عند أحمد والحاكم واختلف فى وصله وإرساله على الزهرى . عن على بن الحسين . وعن أبى سعيد عند الترمذى وابن ماجه وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عند ابن مردويه مطولاً . وعن سعد بن أبى وقاص عند ابن مردويه من رواية محمد بن الحسن عن أبى حنيفة عن عبد العزيز بن ربيع عن مصعب بن سعد عن أبيه قال سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن المقام المحمود فقال : هو الشفاعة .

(٢) أخرجه النسائى والحاكم وابن أبى شبة والطبرى وأبو يعلى والبرار وأبو نعيم فى ترجمة حذيفة فى الحلية كلهم من طريق شعبة وإسرائيل كلاهما عن أبى إسحاق سمعت عتبة بن زفر يقول سمعت حذيفة يقول يجمع الناس ، فذكره .

وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِيْ مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِيْ مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِّيْ مِنْ لَّدُنْكَ

سُلْطَانًا نَّصِيْرًا ﴿٨٠﴾

قري\* : مدخل ومخرج بالضم والفتح : بمعنى المصدر . ومعنى الفتح : أدخلني فأدخل مدخل صدق ، أى : أدخلني القبر مدخل صدق : إدخالاً مرضياً على طهارة وطيب من السيئات ، وأخرجني منه عند البعث إخراجاً مرضياً ، ملق بالكرامة ، آمناً من السخط ، يدل عليه ذكره على أثر ذكر البعث . وقيل : نزلت حين أمر بالهجرة ، يريد إدخال المدينة والإخراج من مكة . وقيل : إدخاله مكة ظاهراً عليها بالفتح ، وإخراجه منها آمناً من المشركين . وقيل : إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً . وقيل : إدخاله فيما حمله من عظيم الامر - وهو النبوة - وإخراجه منه مؤدياً لما كلفه من غير تعريض . وقيل : الطاعة . وقيل : هو عام في كل ما يدخل فيه ويلبسه من أمر ومكان ﴿سلطاناً﴾ حجة تنصرنى على من خالفنى . أو ملكاً وعزاً قوياً ناصراً للإسلام على الكفر مظهراً له عليه ، فأجبت دعوته بقوله ( والله يعصمك من الناس ) . ( فإن حزب الله هم الغالبون ) ، ( ليظهره على الدين كله ) ، ( ليستخلفهم فى الأرض ) ووعده لينزعن ملك فارس والروم ، فيجعله له . وعنه صلى الله عليه وسلم : أنه استعمل عتاب بن أسيد على أهل مكة وقال : انطلق فقد استعملتك على أهل الله ، فكان شديداً على المريب . لينأ على المؤمن وقال : لا والله لا أعلم متخلفاً يتخلف عن الصلاة فى جماعة إلا ضربت عنقه ، فإنه لا يتخلف عن الصلاة إلا منافق . فقال أهل مكة : يا رسول الله ، لقد استعملت على أهل الله عتاب بن أسيد أعراياً جافياً ، فقال صلى الله عليه وسلم : « إني رأيت فيما يرى النائم كأن عتاب بن أسيد أتى باب الجنة . فأخذ بحلقة الباب (١) فقلقلها قلقلًا شديداً حتى فتح له فدخلها . فأعز الله به الإسلام لنصرتة المسلمين على من يريد ظلمهم ، فذلك السلطان النصير » .

وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾

كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً صنم كل قوم بحياهم . وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كانت لقبائل العرب يحجون إليها وينحرون لها . فشكا البيت إلى الله عز وجل فقال : أى رب ، حتى متى تعبد هذه الأصنام حولي دونك ، فأوحى الله إلى البيت : إني سأحدث لك

(١) أخرجه الثعلبى بإسناده عن الكلبي . قال (سلطاناً نصيراً) عتاب بن أسيد . استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل مكة ، فذكره سواء . وأخرجه ابن مردويه عن طريق إسماعيل بن خليفة الكلبي عن أبي صالح . عن ابن عباس . دون الحديث الذى فى آخره .

نوبة جديدة . فأملأك خدوداً سجداً ، يدفون إليك دفيف النصور <sup>(١)</sup> ، يحنون إليك حنين الطير إلى بيضها . لهم عجيج حولك بالتلبية . ولما نزلت هذه الآية يوم الفتح قال جرير عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم : خذ مخصرتك ثم ألقها ، فجعل يأتى صناعتنا وهو ينسكت بالخنصرة في عينه ويقول : جاء الحق وزهق الباطل ، فينكسب الصنم لوجهه حتى ألقاها جميعاً ، وبقي صنم خزاعة فوق الكعبة وكان من قوارير صفر فقال : يا على ، ارم به ، فحمله رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى صعد فرمى به فكسره ، فجعل أهل مكة يتعجبون ويقولون : ما رأينا رجلاً أسحر من محمد <sup>(٢)</sup> صلى الله عليه وسلم . وشكاية البيت والوحى إليه : تمثيل وتحليل ﴿ وزهق الباطل ﴾ ذهب وهلك ، من قولهم : زهقت نفسه ، إذا خرجت . والحق : الإسلام . والباطل : الشرك ﴿ كان زهوقاً ﴾ كان مضمحلاً غير ثابت في كل وقت .

وَنَزَّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ

### إِلَّا خَسَارًا ٨٢

﴿ ونزل ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد ﴿ من القرآن ﴾ من للتبيين ، كقوله : من الاوثان . أوللتبعض ، أى : كل شئ نزل من القرآن فهو شفاء للمؤمنين ، يزدادون به إيماناً ، ويستصلحون به دينهم . فوقعه منهم موقع الشفاء من المرضى . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : من لم يستشف بالقرآن فلا شفاؤه الله <sup>(٣)</sup> ، ولا يزداد به الكافرون ﴿ إلا خساراً ﴾ أى نقصاناً لتكذيبهم به وكفرهم ، كقوله تعالى : ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ .

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَا بِنِعْمَتِنَا وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ٨٣

قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَأْنِهِ فَإِذَا دُعِيَ إِلَى الْإِسْلَامِ فَعَلَى الْإِسْلَامِ أَعْرَضَ ٨٤

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان ﴾ بالصحة والسعة ﴿ أعرض ﴾ عن ذكر الله ، كأنه مستغن عنه

(١) قوله « يدفون إليك دفيف النصور » في الصحاح « الدفيف » الديب . وهو السير اللين ، وفيه « العج » رفع الصوت ، وقد عج عجم عجم . (ع)

(٢) قال : لم أجده . وروى النسائي والحاكم من طريق ابن أبي مريم عن علي . قال « انطلقت مع النبي صلى الله عليه وسلم حتى أتينا الكعبة فقال لي اجلس جلست . وصعد على منكبى فنهض به . فذكر الحديث ، وليس فيه أن ذلك كان في فتح مكة . ولا تلاوة الآية . وروى النسائي (٥)

(٣) أخرجه الثعلبي من طريق أحمد بن الحرث النسائي . حدثنا سائكة بنت الجعد ، قالت : سمعت رجلاً الغزوى يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . فذكره .

(٥) كذا بالأصلين اهـ مصححه

مستبد بنفسه (ونأى بجانبه) تأكيد الإعراض ؛ لأن الإعراض عن الشيء أن يوليه عرض وجهه . والنأى بالجانب : أن يولى عنه عطفه ويوليه ظهره ، وأراد الاستكبار ؛ لأن ذلك من عادة المستكبرين ( وإذا مسه الشر ) من فقر أو مرض أو نازلة من النوازل ( كان يؤساً ) شديد اليأس من روح الله ( إنه لا يأس من روح الله إلا القوم الكافرون ) . وقرئ : ونأى بجانبه ، بتقديم اللام على العين ، كقولهم : راء ، في رأى ، ويجوز أن يكون من : ناء ، بمعنى : نهض ، ( قل كل ) أحد ( يعمل على شاكلته ) أى على مذهبه وطريقته التى تشاكل حاله فى الهدى والضلالة ، من قولهم : طريق ذو شواكل ، وهى الطرق التى تتشعب منه ، والدليل عليه قوله ( فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً ) أى أسد مذهباً وطريقة .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ

### إِلَّا قَلِيلًا ٨٥

الاكثر على أنه الروح الذى فى الحيوان . سألوه عن حقيقته فأخبر أنه من أمر الله ، أى مما استأثر بعلمه . وعن ابن أبى بريدة . لقد مضى النبى صلى الله عليه وسلم وما يعلم الروح <sup>(١)</sup> . وقيل : هو خالق عظيم روحانى أعظم من الملك . وقيل : جبريل عليه السلام . وقيل : القرآن . و ( من أمر ربى ) أى من وحيه وكلامه ، ليس من كلام البشر ، بعثت اليهود إلى قريش أن سلوه عن أصحاب الكهف ، وعن ذى القرنين ، وعن الروح ؛ فإن أجاب عنها أو سكت فليس بنبي ، وإن أجاب عن بعض وسكت عن بعض فهو نبي ، فبين لهم القصتين وأبهم أمر الروح وهو مبهم فى التوراة ، فندموا على سؤالهم <sup>(٢)</sup> ( وما أوتيتم ) الخطاب عام . وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال لهم ذلك قالوا : نحن مختصون بهذا الخطاب أم أنت معنا فيه ؟ فقال : بل نحن وأنتم لم تؤت من العلم إلا قليلاً ، فقالوا : ما أعجب شأنك : ساعة تقول ( ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ) وساعة تقول هذا <sup>(٣)</sup> ، فنزلت : ( ولو أن ما فى الأرض من شجرة

(١) ذكره الواحدى فى الوسيط عن عبدالله بن بريدة بهذا فى حديث لم يسبق إسناده

(٢) لم أجده هكذا . وذكره ابن هشام فى السيرة عن زياد عن أبى إسحاق . وكذا أخرجه البيهقى فى الدلائل من طريقه . وأن أهل مكة بعثوا رجلاً منهم إلى اليهود يسألونهم عن أشياء يمتخون بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا لهم سلوه عن ثلاث . فإذا عرفها فهو نبي : سلوه عن أقوام ذهبوا فى الأرض فلم يدر ما صنعوا . . . . . القصة بطولها

(٣) ذكره الثعلبى فى تفسير لقمان بنير سند ولا راو . وروى ابن مردويه من طريق عل بن عاصم عن داود ابن أبى هند عن عكرمة . لأعله إلا عن ابن عباس . قال : لما نزلت هذه الآية ( وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً ) قالت اليهود : أوتينا علماً كثيراً . أوتينا التوراة ومن يؤت التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً . فأنزل الله تعالى ( قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفذ البحر ) .



أقلام) وليس ما قالوه بلازم ؛ لأن القلة والكثرة تدوران مع الإضافة ، فيوصف الشيء بالقلة مضافاً إلى ما فوقه ، وبالكثرة مضافاً إلى ما تحته . فالحكمة التي أوتيتها العبد خير كثير في نفسها ؛ إلا أنها إذا أضيفت إلى علم الله فهي قليلة . وقيل : هو خطاب لليهود خاصة ؛ لأنهم قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : قد أوتينا التوراة وفيها الحكمة ، وقد تلوت (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) فقليل لهم ؛ إن علم التوراة قليل في جنب علم الله .

وَلَيْنِ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾

إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

(لنذهب) جواب قسم محذوف مع نيابته عن جزاء الشرط . واللام الداخلة على إن موطة للقسم . والمعنى : إن شئنا ذهبنا بالقرآن ومحواه عن الصدور والمصاحف فلم نترك له أثراً وبقيت كما كنت لا تدري ما الكتاب (ثم لا تجد لك) بعد الذهاب (به) من يتوكل علينا باسترداده وإعادته محفوظاً مستوراً (إلا رحمة من ربك) إلا أن يرحمك ربك فيرده عليك ، كأن رحمته تتوكل عليه بالرد ، أو يكون على الاستثناء المنقطع بمعنى : ولكن رحمة من ربك تركته غير مذهب به ، وهذا امتنان من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنة العظيمة في تنزيله وتحفيظه ، فعلى كل ذي علم أن لا يغفل عن هاتين المنتين والقيام بشكرهما ، وهما منة الله عليه بحفظ العلم ورسوخه في صدره ، ومنته عليه في بقاء المحفوظ . وعن ابن مسعود : إن أول ما تفقدون من دينكم الأمانة ، وآخر ما تفقدون الصلاة ، وليصلين قوم ولا دين لهم ، وإن هذا القرآن تصبحون يوماً وما فيكم منه شيء . فقال رجل : كيف ذلك وقد أثبتناه في قلوبنا وأثبتناه في مصاحفنا نعلمه أبناءنا ويعلمه أبناءنا أبناءهم ؟ فقال : يسرى عليه ليلاً فيصبح الناس منه فقراء ترفع المصاحف وينزع ما في القلوب (١) .

قُلْ لَّيْنِ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَآ يَأْتُونَ

بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾

(لا يأتون) جواب قسم محذوف ، ولولا اللام الموطئة ، لجاز أن يكون جواباً

للشرط . كقوله :

(١) أخرجه عبد الرزاق ومن طريقه الطبراني ، وأخرجه ابن أبي شيبة وابن مردويه كلهم من طريق شداد بن معقل عن عبد الله بن مسعود وزاد في آخره ثم قرأ عبده (ولئن شئنا لنذهب بالذي أوحينا إليك) .

\* يَقُولُ لَأَعَابُ مَالِي وَلَا حَرِمٌ \* (٨٩)

لأن الشرط وقع ماضياً ، أى : لو تظاهروا على أن يأتوا بمثل هذا القرآن فى بلاغته وحسن نظمه وتأليفه ، وفيهم العرب العاربة أرباب البيان لعجزوا عن الإتيان بمثله ، والعجب من النوابت (١) ومن زعمهم أن القرآن قديم (٢) مع اعترافهم بأنه معجز (٣) ، وإنما يكون العجز حيث تكون القدرة ، فيقال : الله قادر على خلق الأجسام والعباد عاجزون عنه . وأما المحال الذى لا مجال فيه للقدرة ولا مدخل لها فيه كثنائى القديم ، فلا يتناول للفاعل : قد عجز عنه ، ولا هو معجز . ولو قيل ذلك لجاز وصف الله بالعجز ، لأنه لا يوصف بالقدرة على المحال ، إلا أن يكابروا فيقولوا هو قادر على المحال ، فإن رأس ما لهم (٤) المكابرة وقلب الحقائق .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)

(ولقد صرّفنا) ردّدنا وكثرنا (من كل مثل) من كل معنى هو كالمثل فى غرابته وحسنه . والكفور : الجحود . فإن قلت : كيف جاز (فأبى أكثر الناس إلا كفوراً) ولم يحز ضربت إلا زيدا ؟ قلت : لأن أبى متأول بالثنى ، كأنه قيل : فلم يرضوا إلا كفوراً .

وَقَالُوا لَنُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ٥٣٧ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) قوله «النوابت» فى الصحاح والنوابت من الأحداث ، الأعمار . وفيه : رجل غر : لم يحرب . (ع)

(٣) قال محمود : «والعجب من النوابت ومن زعمهم أن القرآن قديم مع اعترافهم بأنه معجز ... الخ» قال أحد :

وعما يدلك على حيد المصنف عن سنن المنصف أنه تدلس على الضعفة فى مثل هذه المسئلة التى طبقت طبق الأرض ظهوراً وشبوعاً ، ومع ذلك يرضى لنفسه أن يتجاهل فيها عن معتقد القوم ، وذلك أن عقيدة أهل السنة أن مدلول العبارات صفة قديمة قائمة بذات البارئ تعالى ، يطلق عليها قرآن ، ويطلق أيضاً على أدلتها وهى هذه الكلمات الفصيحة والآى الكريمة قرآن ، وأن المعجز عندهم الدليل لا المدلول ، لكنهم يتحرزون من إطلاق القول بأنه مخلوق لوجهين ، أحدهما : أنه إطلاق موهوم . والثانى : أن السلف الصالح كفوا عنه فاقته وآثارهم واقتبسوا أنوارهم . وكفى من معتقد لا يطلق القول به خشية إيهام غيره بما لا يجوز اعتقاده ، فلا ربط بين الاعتقاد والأخلاق ، ولا كرامة لمعتقد ذلك والمنتهى الزامه ، والله يقول الحق وهو يهتدى السبيل .

(٤) قوله «ومن زعمهم أن القرآن قديم» يريد بهم أهل السنة حيث يقولون : إن القرآن قديم ، لكن لا بمعنى اللفظ الذى يسمعه بعضنا من بعض ، فإن هذا حادث بل بمعنى كلام الله الذى هو صفة له قائمة بذاته تعالى ، فهذا

هو القديم ، كدله تعالى وإرادته . (ع)

(٥) قوله «فإن رأس ما لهم المكابرة» ليس كما قال غفر الله له . بل رأس ما لهم التمسك بالكتاب والسنة ،

وتحرى الحقائق . (ع)

لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْإِنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْفِطُ السَّمَاءَ  
كَمَا رَعِمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِي بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونُ لَكَ  
بَيْتٌ مِّنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَأَنْ تَوْمِنَ لِرُفِيقِكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا  
كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٣

لما تبين إعجاز القرآن وانضمت إليه المعجزات الآخر والبيّنات ولزمتهم الحجة وغلبوا ،  
أخذوا يتعللون باقتراح الآيات : فعل المبهوت المحجوج المتعثر في أذيال الحيرة ، فقالوا : لن  
نؤمن لك حتى ... وحتى ﴿ تفجر ﴾ تفتح . وقرئ : تفجر ، بالتخفيف ﴿ من الأرض ﴾ يعنون  
أرض مكة ﴿ ينبوعا ﴾ عينا غزيرة من شأنها أن تنبع بالماء لا تقطع : « يفعل ، من نبع الماء ،  
كيعبوب من عب الماء ﴾ كما زعمت ﴿ يعنون قول الله تعالى ( إن نشأ نخسف بهم الأرض أو  
نسقط عليهم كسفا من السماء ) . قرئ : كسفا ، بسكون السين جمع كسفة ، كسدرة وسدر . وبفتح  
﴿ قبيل ﴾ كقبلا بما تقول شاهداً بصحته . والمعنى : أو تأتي بالله قبيلًا ، وبالملائكة قبيلًا ، كقوله :  
... كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي بَرِيًّا ... (١)

\*\*\*

\* فَأَوْتِي وُقْيَارًا بِهَا لَغَرِيبٌ \* (١)

أو مقابلا ، كالعشير بمعنى المعاشر ، ونحوه ( لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ) أو جماعة  
حالا من الملائكة ﴿ من زخرف ﴾ من ذهب ﴿ في السماء ﴾ في معارج السماء ، فحذف المضاف .  
يقال : رقى في السلم وفي الدرجة ﴿ ولن تؤمن لرقيق ﴾ ولن تؤمن لأجل رقيق ﴿ حتى تنزل

(١) رماني بأمر كنت منه ووالدي برى ومن جود الطوى رماني  
للفرزق . يقول : قذفني بأمر أنا برى منه ووالدي ، فكان : مجردة عن الماضي ، وحذف خبر الوالد للدلالة عليه ،  
والعطف من عطف الجمل . وبرى : في نية التقديم ، فلم يلزم تقدم شيء من المظوف عليه على المعطوف : هذا رأى  
الجمهور . وأجاز بعضهم أن « والدي » عطف على اسم كان ، فيكون « برى » خبره ، وخبر اسمها محذوفاً أو بالعكس ،  
والعطف من عطف المفردات . ويجوز أن « برى » خبر عنهما ؛ لأن فعلا يقال للواحد والمتعدد ، لموازنته المصدر :  
كصبيل وضجيج ونحيب ونسب ، وإن كان استعماله كذلك بمعنى فاعل قليلا . وجود الطوى - بالضم - : جانب  
البحر المطوى . والمضى : أنه رماني بأمر يرجع عليه هو ، كأنه رماني وهو في أسفل البحر بحجر فيرجع عليه ، كناية  
عن مكافأته بأمر أعظم مما رماه به . ويجوز أن الأمر الذي رماه به متصف به الرامي ، وهو أسب بالتشبيه .  
وبرى ومن أجل الطوى . فليجرح .

(٢) تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول ص ٦٢٩ فراجع إن شئت اه مصححه

علينا كتاباً) من السماء فيه تصديقك . عن ابن عباس رضى الله عنهما : قال عبد الله بن أبي أمية :  
 لن تؤمن لك حتى تتخذ إلى السماء سلماً . ثم ترقى فيه وأنا أنظر حتى تأتيها ثم تأتي معك بصك  
 منشور ، معه أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول . وما كانوا يقصدون بهذه الاقتراحات  
 إلا العناد واللجاج ، ولو جاءهم كل آية لقالوا : هذا سحر . كما قال عز وجل ( ولو نزلنا عليك  
 كتاباً فى قرطاس ) ، ( ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون ) وحين أنكروا  
 الآية الباقية التى هى القرآن وسائر الآيات وليست بدون ما اقترحوه - بل هى أعظم - لم يكن  
 إلى تبصرتهم سبيل ﴿ قل سبحان ربي ﴾ وقرئ : قال سبحان ربي ، أى قال الرسول . ( وسبحان  
 ربي ) تعجب من اقتراحاتهم عليه ﴿ هل كنت إلا ﴾ رسولا كسائر الرسل ﴿ بشر ﴾ مثلهم ،  
 وكان الرسل لا يأتون قومهم إلا بما يظهره الله عليهم من الآيات ، فليس أمر الآيات إلى ، إنما  
 هو إلى الله فما بالكم تخيرونها على .

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ  
 بَشَرًا رَسُولًا ﴿٩٤﴾ قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ  
 لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٥﴾

﴿ أن ﴾ الاولى نصب مفعول ثانٍ لمنع . والثانية رفع فاعل له . و﴿ الهدى ﴾ الوحي ، أى :  
 وما منعهم الإيمان بالقرآن وبنبوة محمد صلى الله عليه وسلم إلا شبهة تلجلجت في صدورهم ، وهى  
 إنكارهم أن يرسل الله البشر . والهمزة فى ﴿ أبعث الله ﴾ للإنكار ، وما أنكروه بخلافه هو  
 المنكر عند الله ، لأن قضية حكمته أن لا يرسل ملك الوحي إلا إلى أمثاله ، أو إلى الأنبياء ، ثم قرر  
 ذلك بأنه ﴿ لو كان فى الأرض ملائكة يمشون ﴾ على أقدامهم كما يمشى الإنسان ولا يطيرون بأجنحتهم  
 إلى السماء <sup>(١)</sup> فيسمعوا من أهلها ويعلموا ما يجب عليه ﴿ مطمئنين ﴾ ساكنين فى الأرض قازين ﴿ لنزلنا  
 عليهم من السماء ملكا رسولا ﴾ يعلمهم الخير ويهديهم المارشد . فأما الإنسان ففهم هذه المتابعة ، إنما  
 يرسل الملك إلى مختار منهم للتبوة ، فيقوم ذلك المختار بدعوتهم وإرشادهم . فإن قلت : هل يجوز أن  
 يكون بشرا وملكاً ، منصوبين على الحال من رسولا ؟ قلت : وجه حسن ، والمعنى له أجوب .

قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩٦﴾

(١) قال محمود : « معناه لو كانوا يمشون مشى الإنسان ولا يطيرون بأجنحتهم إلى السماء ... الخ » قال أحمد :  
 وقد اشتمل كلامه هذا على جواب حسن عن سؤال مقدر ، وهو قول القائل : إن مجرد وجود الملائكة فى الأرض  
 يناسب إرسال الملك إليهم ، فإفادة هذه الزيادة ؟ فيكون جوابه ما تقدم ، والله الموفق .

﴿شهاداً بيني وبينكم﴾ على أن بلغت ما أرسلت به إليكم ، وأنكم كذبتهم وعاندتم ﴿إنه كان لعباده﴾ المنذرين والمنذرين ﴿خبيراً﴾ عالماً بأحوالهم ، فهو مجازيهم . وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ووعيد للكفرة . وشهاداً : تمييز أو حال .

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ  
وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمِّيًّا وَبُكَمًّا وَضَمًّا مَاوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا  
خَبَّتْ ذِرْنَاهُمْ سَحِيرًا ﴿٩٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا  
كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَيْنَا لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾

﴿ومن يهد الله﴾ ومن يوفقه ويلطف به ﴿فهو المهتدي﴾ لأنه لا يلطف إلا بمن عرف أن اللطف ينفع فيه ﴿ومن يضل﴾ ومن يخذل ﴿فلن تجد لهم أولياء﴾ أنصاراً . ﴿على وجوههم﴾ كقوله : ﴿يوم يسحبون في النار على وجوههم﴾ وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : كيف يمشون على وجوههم قال : « إن الذي أمشاهم على أقدامهم ، قادر على أن يمشيهم على وجوههم <sup>(١)</sup> ، ﴿عمياء وبكاً وضماً﴾ كما كانوا في الدنيا ، لا يستبصرون ولا ينطقون بالحق ، ويتصامون عن استماعه . فهم في الآخرة كذلك : لا يبصرون ما يقر أعينهم ، ولا يسمعون ما يلد مسامعهم <sup>(٢)</sup> ولا ينطقون بما يقبل منهم . ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى . ويجوز أن يحشروا مؤثى الحواس من الموقف إلى النار بعد الحساب ، فقد أخبر عنهم في موضع آخر أنهم يقرؤون ويتكلمون ﴿كلما خبت﴾ كلما أكلت جلودهم ولحومهم وأفتتها فسكن لها ، بدلوا غيرها ، فرجعت ملهبة مستعرة . كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتغنيها ثم يعيدها ، لا يزالون على الإفناء والإعادة ، ليزيد ذلك في تحسره على تكذيبهم البعث ؛ ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد ، وقد دل على ذلك بقوله ﴿ذلك جزاؤهم﴾ إلى قوله ﴿أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ .

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ

(١) أخرجه الترمذى وأحمد وإسحاق والبخاري من حديث أبي هريرة بهذا في حديث . وفيه على بن مرثد وهو ضعيف . قال البخاري لا نعلمه من حديث أبي هريرة إلا بهذا الإسناد . ورواه ابن مردويه من رواية أبي داود نفي عن أنس مثله . وأصله في الصحيحين عن أنس أن رجلاً قال : يا رسول الله ، كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال : « ليس الذي أمشاه على رجله في الدنيا قادراً على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة » .

(٢) قوله « ولا يسمعون ما يلد مسامعهم » الذي في الصحاح : لذت الشيء - بالكسر - : وجدته لا يذبا . (ع)

مِنْهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَّارِيبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾

فإن قلت : علام عطف قوله ( وجعل لهم أجلاً ) ؟ قلت : على قوله ( أو لم يروا ) لأن المعنى قد علموا بدليل العقل أن من قدر على خلق السموات والأرض فهو قادر على خلق أمثالهم من الإنس ، لأنهم ليسوا بأشد خلقاً منهم كما قال : أنتم أشد خلقاً أم السماء ( وجعل لهم أجلاً لا ريب فيه ) وهو الموت أو القيامة ، فأبوا مع وضوح الدليل إلا جحوداً .

قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ

وَكَانَ الْإِنْسُنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾

( لو ) حقها أن تدخل على الأفعال دون الاسماء ، فلا بد من فعل بعدها في ( لو أنتم تملكون ) وتقديره لو تملكون تملكون ، فأخير تملك إضماراً على شريطة التفسير ، وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل ، وهو أنتم ، اسقوط ما يتصل به من اللفظ ، فأنتم : فاعل الفعل المضمر . وتملكون : تفسيره ! وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب ، فأما ما يقتضيه علم البيان ، فهو : أن أنتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص ؛ وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ ، ونحوه قول حاتم : \* لَوْ ذَاتُ سِوَارٍ كَطَمْتَنِي \*

وقول المتلس : \* وَلَوْ غَيْرُ أَخَوَالِي أَرَادُوا نَقِصَتِي \* <sup>(١)</sup>

وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر ، برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر . ورحمة الله : رزقه وسائر نعمه على خلقه ، ولقد بلغ هذا الوصف بالشح الغاية التي لا يبلغها الوهم . وقيل : هو لاهل مكة الذين اقترحوا ما اقترحوا من الينبوع والأنهار وغيرها ، وأنهم لو ملكوا خزائن الأرزاق لبخلوا بها ( قتورا ) ضيقاً بخيلاً . فإن قلت : هل يقدر ( لامسكتم ) مفعول ؟ قلت : لا ؛ لأن معناه : لبختهم ، من قولك للبخیل : ممسك .

(١) ولو غير إخواني أرادوا نقيصتي جعلت لهم فوق العرائن ميسما  
وهل كنت إلا مثل قاطع كفه بكف له أخرى عليه تقدما

للمتلس حال طريقة بن العبد ، ودلوه من حروف الشرط ، فتي كان في حيزها فعل فهي أحق به ، فغير إخواني فاعل لمخدوف يفسره المذكور ، أي : ولو أراد غير إخواني . ويروى : أخوالي ، نقيصتي : أي ظلي ، لوسمتهم بالذل وسما ظاهراً ، كأنه فوق الأنوف ، وخصها لأنها لا تخفى . والميسم : آلة الوسم بالذار ، والمراد أثره وهو السمة . وهل : استفهام إنكاري ، أي : لو كافأت إخواني لا أكون إلا مثل من قطع كفه بكفه الأخرى ، والكف يذكر ويؤنث ؛ فلذلك وصفه بأنه تقدم على الكف الآخر واعتدى عليه ووصفه بأخرى . والمقابلة بين الكفين تؤيد رواية إخواني بالنون .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَأَسَاءَلَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ  
فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾

عن ابن عباس رضى الله عنهما : هى العصا : واليد ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ،  
والدم ، والحجر ، والبحر ، والطور الذى نثقه على بنى إسرائيل . وعن الحسن : الطوفان ،  
والسنون ، ونقص الثمرات : مكان الحجر ، والبحر ، والطور . وعن عمر بن عبد العزيز أنه سأل  
محمد بن كعب فذكر اللسان والطمس <sup>(١)</sup> . فقال له عمر : كيف يكون الفقيه إلا هكذا ، أخرج  
يا غلام ذلك الجراب . فأخرجه فنفضه ، فإذا بيض مكسور بنصفين ، وجوز مكسور ، وفوم <sup>(٢)</sup>  
وحص وعدس ، كلها حجارة . وعن صفوان بن عسال أن بعض اليهود سأل النبي صلى الله عليه  
وسلم عن ذلك فقال : أوحى الله إلى موسى : أن قل لبنى إسرائيل : لا تشرخوا بالله شينا ،  
ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ، ولا تسحروا ، ولا تأكلوا  
الربا ، ولا تمشوا ببرىء إلى ذى سلطان ليقتله ، ولا تنفذوا محصنة . ولا تفزوا من الزحف ،  
وأتم يا يهود خاصة لا تعدوا فى السبت <sup>(٣)</sup> ﴿ فاسأل بنى إسرائيل ﴾ فقلنا له : سل بنى إسرائيل ،  
أى : سلهم من فرعون <sup>(٤)</sup> وقل له : أرسل معى بنى إسرائيل . أو سلهم عن إيمانهم وعن حال  
دينهم . أو سلهم أن يعاضدوك وتسكون قلوبهم وأيديهم معك . وتدل عليه قراءة رسول الله  
صلى الله عليه وسلم : فسأل بنى إسرائيل ، على لفظ الماضى بغير همز ، وهى لغة قريش . وقيل :  
فسل يارسول الله المؤمنين من بنى إسرائيل . وهم عبد الله بن سلام وأصحابه عن الآيات ليزدادوا  
يقيناً وطمأنينة قلب ؛ لأن الأدلة إذا تظاهرت كان ذلك أقوى وأثبت ، كقول إبراهيم (ولكن  
ليطمئن قلبي) . فإن قلت : هم تعاقب ﴿ إذ جاءهم ﴾ ؟ قلت : أما على الوجه الأول فبالقول المحذوف ، أى  
فقلنا لهم سلهم حين جاءهم ، أو بسأل فى القراءة الثانية . وأما على الآخر فبآتيناه . أو بإضمار

(١) قوله « فذكر اللسان والطمس » لهه العقدة التى كانت بلسانه خلها كما عده الخازن . وأما الطمس : فهو  
إحابة دعائه فى قوله (ربنا احمس على أموالهم) ويشير إلى ذلك ذكر ما فى الجواب . (ع)

(٢) قوله « وفوم » فى الصحاح « الفوم » الثوم . ويقال له : الخنطة . (ع)

(٣) أخرجه الترمذى والنسائى وابن ماجه والحاكم . وأحمد وإسحاق وأبو يعلى والطبرانى : كلهم من رواية  
عبد الله بن سلام عن صفوان بن عسال أن يهوديين قال أحدهما لصاحبه اذهب بنا إلى هذا الذى نساءه : فقال لا تقل  
له نبي فان سمعك صارت له أربعة أعين . فأتيا النبي صلى الله عليه وسلم فسألاه . فذكر الحديث . ولم يقل أحدهم  
« أوحى إلى موسى أن قل لبنى إسرائيل » والباقي سواء ، عبد الله بن سلام كبر فساء . حفظه وكان المسئول عنه العشر  
كلمات ، لأن عددها عشرة لا تسع آيات . لأن العشر وصايا كذبه . والتسع حجج على فرعون وقومه

(٤) قوله « سلهم من فرعون » يعنى اطلبهم منه . (ع)

اذكر، أو يخبروك. ومعنى (إذ جاءهم) إذ جاء آبائهم (مسحوراً) سحرت غيول عفاك.  
 قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي  
 لَأُظَنُّكَ يَافِرَعُونَ مُتَّبِئِينَ ١٠٢ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِيزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ  
 مَعَهُ جَمِيعًا ١٠٣ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ آسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ  
 وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ١٠٤

(لقد علمت) يافرعون (ما أنزل هؤلاء) الآيات إلا الله عز وجل (بصائر) بينات  
 مكشوفات، ولكنك معاند مكابر ونحوه: (وجدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً)  
 وقرئ (علمت) بالضم، على معنى: إني لست بمسحور كما وصفتني، بل أنا عالم بصحة الأمر.  
 وأن هذه الآيات من لها رب السموات والأرض. ثم قارع ظنه بظنه، كأنه قال: إن ظننتني  
 مسحوراً فأنا أظنك (مشوراً) هالكا، وظني أصح من ظنك: لأن له أماره ظاهرة وهي  
 إنكارك ما عرفت صحته، ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها. وأما ظنك فكذب بحت؛  
 لأن قولك مع عليك بصحة أمرى، إني لأظنك مسحوراً قول كذاب. وقال الفراء: (مشوراً)  
 مصروفاً عن الخير مطبوعاً على قلبك، من قولهم: ما تبرك عن هذا؟ أى: ما منعك وصرفك؟  
 وقرأ أبو بن كعب: وإن إخالك يافرعون لمشوراً. على: إن الخففة واللام الفارقة (فأراد)  
 فرعون أن يستخف موسى وقومه من أرض مصر ويخرجهم منها، أو ينقهم عن ظهر الأرض  
 بالقتل والاستئصال، خافق به مكره بأن استفزه الله بإغراقه مع قطه (أسكنوا الأرض) التي  
 أراد فرعون أن يستفزكم منها (فإذا جاء وعد الآخرة) يعنى قيام الساعة (جئنا بكم لفيفاً) جمعاً  
 محتلطين إياكم وإياهم، ثم يحكم بينكم ويميز بين سعدائكم وأشقيائكم: واللفيف: الجماعات من قبائل شتى.

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ١٠٥

(وبالحق أنزلناه وبحق نزل) وما أنزلنا القرآن إلا بالحكمة المقتضية لإنزاله، وما نزل  
 إلا ملتبهاً بالحق والحكمة لاشماله على الهداية إلى كل خير. أو ما أنزلناه من السماء إلا بالحق  
 محفوظاً بالرصد من الملائكة، وما نزل على الرسول إلا محفوظاً بهم من تخليط الشياطين  
 (وما أرسلناك) إلا لتبشرهم بالجنة وتنذرهم من النار، ليس إليك وراء ذلك شيء، من  
 إكراه على الدين أو نحو ذلك.

وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ١٠٦



﴿وقرآنًا﴾ منصوب بفعل يفسره ﴿فرقناه﴾ وقرأه أبى: فرقناه، بالتشديد، أى: جعلنا نزوله مفترقا منجما. وعن ابن عباس رضى الله عنه أنه قرأ مشدداً وقال: لم ينزل في يومين أو ثلاثة، بل كان بين أوله وآخره عشرون سنة، يعنى: أن فرق بالتخفيف يدل على فصل متقارب ﴿على مكث﴾ بالفتح والضم: على مهل وتؤدة وثبت ﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ على حسب الحوادث قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ ١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝ ١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۝ ١٠٩

﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ أمر بالإعراض عنهم واحتقارهم والإزدراء بشأنهم، وأن لا يكثر بهم ويأيمانهم وبامتناعهم عنه، وأنهم إن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك، فإن خيراً منهم وأفضل - وهم العلماء الذين قرؤا الكتب وعلّموا ما الوحي وما الشرائع - قد آمنوا به وصدقوه، وثبت عندهم أنه النبي العربي الموعود في كتبهم، فإذا تلى عليهم خزوا سجداً وسبحوا الله تعظيماً لأمره ولإنجازه ما وعد في الكتب المنزلة وبشر به من بعثة محمد صلى الله عليه وسلم وإنزال القرآن عليه، وهو المراد بالوعد في قوله ﴿إن كان وعد ربنا لمفعولاً ... .. ويزيدهم خشوعاً﴾ أى يزيدهم القرآن لين قلب ورطوبة عين. فإن قلت: (إن الذين أوتوا العلم من قبله) تعليل لماذا؟ قلت: يجوز أن يكون تعليلاً لقوله ﴿آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ وأن يكون تعليلاً لقل على سبيل التسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتطبيب نفسه، كأنه قيل: تسل عن إيمان الجاهلة بإيمان العلماء. وعلى الأول: إن لم تؤمنوا به لقد آمن<sup>(١)</sup> به من هو خير منكم. فإن قلت: مامعنى الخرو للذقن؟ قلت: السقوط على الوجه، وإنما ذكر الذقن وهو مجتمع اللحين، لأن الساجد أول ما يلقى به الأرض من وجهه الذقن. فإن قلت: حرف الاستعلاء ظاهر المعنى إذا قلت خز على وجهه وعلى ذقنه، فما معنى اللام في خز لذقنه ولو وجهه؟ قال:

\* فخر صريعاً للدين وللقيم \* (٢)

(١) قوله ولقد آمن، لعله «قد». (ع)

(٢) فيوم الكلاب قد أزالتم رماحنا

شرحيل إذ آلى آية مقسم

أبو حنن عن ظهر شفاء صلوم

لينزعن أرماحنا فأزاله

تناوله بالرمح ثم اثنى له

فخر صريعاً للدين وللقيم

لجابر الثعلبي. وقيل: البيت الثالث لشرح العباسي. وقيل: لزهير. والكلاب بالضم اسم موضع الواقعة. وآلى: =

قلت : معناه جعل ذقنه ووجهه للخروج واختصه به : لأن اللام للاختصاص . فإن قلت : لم كثر يخرون للأذقان ؟ قلت : لاختلاف الحالين وهما خروجهما في حال كونهم ساجدين ، وخروجهما في حال كونهم باكين .

قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرُوا

بَصَاطِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾

عن ابن عباس رضى الله عنهما سمعه أبو جهل يقول : يا الله يا رحمن ، فقال : إنه ينهانا أن نعبد إلهين وهو يدعو إلهًا آخر . وقيل : إن أهل الكتاب قالوا : إنك لتقل ذكر الرحمن وقد أكثر الله في التوراة هذا الاسم فزالت . والدعاء بمعنى التسمية لا بمعنى النداء ، وهو يتعدى إلى مفعولين ، تقول : دعوته زيداً ، ثم يترك أحدهما استغناء عنه فيقال : دعوت زيداً . والله والرحمن ، المراد بهما الاسم لا المسمى . وأو للتخيير ، فعني ﴿ ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ﴾ سموا بهذا الاسم أو بهذا ، واذكروا إما هذا وإما هذا . والتنوين في ﴿ أيا ﴾ عوض من المضاف إليه . و﴿ ما ﴾ صلة للإبهام المؤكد لما في أى ، أى : أى هذين الاسمين سميتم وذكرتم ﴿ فله الاسماء الحسنى ﴾ والضمير في ﴿ فله ﴾ ليس برافع إلى أحد الاسمين المذكورين ، ولكن إلى مسماهما وهو ذاته تعالى : لأن التسمية للذات لا للاسم . والمعنى : أيا ما تدعوا فهو حسن ، فوضع موضعه قوله ﴿ فله الاسماء الحسنى ﴾ لأنه إذا حسنت أسماءها كلها حسن هذان الاسمان : لأنها منها ، ومعنى كونهما أحسن الاسماء . أنها مستقلة بمعاني التمجيد والتقديس والتعظيم ﴿ بصلواتك ﴾ بقراءة صلاتك على حذف المضاف : لأنه لا يلبس . من قبل أن الجهر والخافتان صفتان تعقبان على الصوت لا غير ، والصلاة أفعال وأذكار وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرفع صوته بقراءته ، فإذا سمعها المشركون لغوا وسبوا ، فأمر بأن يخفض من صوته . والمعنى : ولا تجهر حتى تسمع المشركين ﴿ ولا تخافت ﴾ حتى لا تسمع من خلفك ﴿ وابتغ بين ﴾ الجهر والخافت ﴿ سبيلاً ﴾ وسطاً . وروى أن أبا بكر رضى الله عنه كان يخفي صوته بالقراءة في صلاته ويقول :

== أى حلف . والعتقاء : الطويلة من الخيل . والصلدم - بكسر المهملة - : القوة . ويرى : ثم اتى له . وأصله : انثى ، فأدغمت النون بعد قلبها ثاء في ثاء . ولوقرى : ثم اتقى ، من أنق وتهل لجاز . ويرى : دلفت له بالرخ من تحت بزه . ويرى : شققت له بالرخ جيب قبضة . وأهل اختلاف الروايات لاختلاف القائل . والتنازل : الأخذ ، فالمعنى : لحقه فقطعته بالرخ ، كأنه أخذه ، ثم انثى له : أى طعنه مرة أخرى . فسقط مطروحاً ، وجعل ذلك يديه رفه : لأنها التي يستقبل بها الأرض أولاً حين سقوطه على وجهه ، واللام هنا بمعنى على كما ذكره النجاشي ، وإن أنكره النجاشي . ودلفت دلفاً كتمتبع تبعاً : إذا تقدم بسرعة وقارب بين خطاه . وجيب قبضة : كناية عن صدره : لأنه إذا شق طوق القميص بالرخ فقد شق الصدر .

أناجى ربي وقد علم حاجتى ، وكان عمر رضى الله عنه يرفع صوته ويقول : أزعج الشيطان وأوقظ الوسنان ، فأمر أبا بكر أن يرفع قليلا وعمر أن يخفض <sup>(١)</sup> قليلا . وقيل : معناه ولا تجهر بصلاتك كلها ولا تخافت بها كلها ، وابتغ بين ذلك سبيلا بأن تجهر بصلاة الليل وتخافت بصلاة النهار . وقيل (بصلاتك) بدعائك . وذهب قوم إلى أن الآية منسوخة بقوله (ادعوا ربكم تضرعا وخفية) وابتغاء السبيل : مثل لانتحاء الوجه الوسط في القراءة (ولى من الدل) ناصر من الدل ومانع له منه لاعتزازه به ، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالياته .

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الدَّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا ۝ (١١١)

فإن قلت : كيف لاق وصفه بنى الولد والشريك والدل بكلمة التمجيد <sup>(٢)</sup> ؟ قلت : لأن من هذا وصفه هو الذى يقدر على إيلاء كل نعمة ، فهو الذى يستحق جنس الحمد ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أفصح الغلام من بنى عبد المطلب عليه هذه الآية <sup>(٣)</sup> .

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : من قرأ سورة بنى إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قنطار فى الجنة ، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية . . رزقنا الله بفضله العقيم وإحسانه الجسيم .

(١) أخرجه أبو داود والترمذى وابن حبان والحاكم من رواية يحيى بن إسحاق السليجى عن حماد عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن أبي قتادة بمعناه . وليس فيه قوله «قد علم حاجتى» وفيه أن كلام كل منهما كان لما سأله النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك . قال الترمذى . رواه أكثر الناس فلم يدركوا أبا قتادة . وقال ابن أبى حاتم عن أبيه لفظا فيه يحيى بن إسحاق والصواب مرسل . وفى الباب عن على أخرجه البيهقى فى الشعب . وعن أبى هريرة أخرجه أبو داود من رواية محمد بن عمر . وعن أبى سلمة عنه مختصراً . وأخرجه الطبرى من رواية محمد بن سيرين قال : نبئت أن أبا بكر فذكره ، وقال فيه : أناجى ربي وقد علم حاجتى .

(٢) قال محمود : «إن قلت : كيف لاق وصفه بنى الولد والشريك ... الخ» قال أحد : وقد لاحظ الزمخشري ههنا ما أغفله عند قوله تعالى (الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون) وقد رددت هذا الوجه فيما تقدم ، بأن هذه الجملة لا يلىق اقترانها بكلمة التمجيد ولا تناسبها ، فانك لو قلت ابتداء : الحمد لله الذى الذى كفروا به يعدلون ، لم يكن مناسبا ، والله أعلم .

(٣) أخرجه ابن أبى شعبة وعبد الرزاق . قالوا أخبرنا ابن عيينة عن عبد الكريم عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده .

## سورة الكهف

مكية [إلا آية ٣٨ ومن آية ٨٣ إلى غاية آية ١٠١ فمدنية]

وآياتها ١١٠ [نزلت بعد الغاشية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ①  
 قَمِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ أَدْنَاهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ  
 أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ② مَا كُنِينَ فِيهِ أَبَدًا ③ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا  
 اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ④ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ  
 أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ⑤

لقن الله عباده وفقهم كيف يثنون عليه ويحمدونه على أجزل نعماته عليهم وهي نعمة الإسلام ، وما أنزل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم من الكتاب الذي هو سبب نجاتهم وفوزهم (ولم يجعل له عوجاً) ولم يجعل له شيئاً من العوج قط ، والعوج في المعاني كالعوج في الأعيان ، والمراد نفي الاختلاف والتناقض عن معانيه ، وخروج شيء منه من الحكمة والإصابة فيه . فإن قلت : بم انتصب (قيماً) ؟ قلت : الأحسن أن ينتصب بمضمرة ولا يجعل حالاً من الكتاب ؛ لأن قوله (ولم يجعل) معطوف على أنزل ، فهو داخل في حين الصلة ، فجاعله حالاً من الكتاب فاصل بين الحال وذى الحال ببعض الصلة ، وتقديره : ولم يجعل له عوضاً جعله قيماً ؛ لأنه إذا نفي عنه العوج فقد أثبت له الاستقامة . فإن قلت : ما فائدة الجمع بين نفي العوج وإثبات الاستقامة ، وفي أحدهما غنى عن الآخر ؟ قلت : فائدته التأكيد ، فرب مستقيم مشهود له بالاستقامة ولا يخلو من أدنى عوج عند السبر والتصفح . وقيل : قيماً على سائر الكتب مصداقاً لها ، شاهداً بصحتها . وقيل : قيماً بمصالح العباد وما لا بد لهم منه من الشرائع . وقرئ قيماً . وأنذر ، متعد إلى مفعولين ، كقوله (إنا أنذرناكم عذاباً قريباً) فاقتصر على أحدهما ، وأصله

﴿ لينذر ﴾ الذين كفروا ﴿ بأساً شديداً ﴾ والبأس من قوله (بعذاب بئيس) وقد يؤس العذاب وبؤس الرجل بأساً وبأسه ﴿ من لدنه ﴾ صادرا من عنده . وقرئ : من لدنه ، بسكون الدال مع إتمام الضمة وكسر النون ﴿ ويبشر ﴾ بالتخفيف والتثقيل . فإن قلت : لم اقتصر على أحد مفعولى أنذر ؟ قلت : قد جعل المنذر به هو الغرض المسبوق إليه ، فوجب الاختصار عليه . والدليل عليه تكرير الإنذار في قوله ﴿ وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً ﴾ متعلقاً بالمنذرين من غير ذكر المنذر به ، كما ذكر المبشر به في قوله ﴿ أن لهم أجراً حسناً ﴾ استغناء بتقدم ذكره . والاجر الحسن : الجنة ﴿ ما لهم به من علم ﴾ أى بالولد أو باتخاذ ، يعنى أن قولهم هذا لم يصدر عن علم ولكن عن جهل مفرط وتقليد للأباء ، وقد اشتملته <sup>(١)</sup> آباؤهم من الشيطان وتسويله . فإن قلت : اتخذ الله ولداً في نفسه محال ، فكيف قيل : ما لهم به من علم <sup>(٢)</sup> ؟ قلت : معناه ما لهم به من علم : لأنه ليس مما يعلم لاستحالته ، وانتفاء العلم بالشئ . إما للجهل بالطريق الموصل إليه ، وإما لأنه في نفسه محال لا يستقيم تعلق العلم به . قرئ : كبرت كلمة ، وكلمة : بالنصب على التمييز والرفع على الفاعلية ، والنصب أقوى وأبلغ . وفيه معنى التعجب ، كأنه قيل : ما أكبرها كلمة . و﴿ تخرج من أفواههم ﴾ صفة للكلمة تفيد استعظاما لاجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم . فإن كثيراً مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتألمون أن يتفوهوا به ويطلقوا به ألسنتهم ، بل يكظمون عليه تشورا <sup>(٣)</sup> من إظهاره ، فكيف بمثل هذا المنكر ؟ وقرئ : كبرت بسكون الباء مع إتمام الضمة . فإن قلت : لإلام يرجع الضمير في كبرت ؟ قلت : إلى قولهم ( اتخذ الله ولداً ) وسميت كلمة كما يسمون القصيدة بها .

فَلَمَّا كَلَبَ الْبَايِعُ نَفْسَهُ عَلَىٰ مَا نَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ هَذَا الْخَبَرُ أَسْفَا ٦

شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم ، رجل فارقه أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويخضع نفسه وجدا عليهم وتلهفاً

(١) قوله « وقد اشتملته » لعله : اشتملته ، بإعمال السين وسكون الميم . (ع)

(٢) قال محمود : « إن قلت اتخذ الله ولداً في نفسه محال فكيف قيل لهم ... الخ » قال أحمد : قد مضى له في قوله تعالى ( وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ) أن ذلك وارد على سبيل التهكم ، وإلا فلا سلطان على الشرك حتى يؤزل . ونظيره :

ولا يرى العنب بها ينحجر

وقد قدمت حينئذ أن الكلام وارد على سبيل الحقيقة والأصل ، وأن نفي إنزال السلطان تارة يكون لاستحالة إنزاله وجوده ، وتارة يكون ، لأنه لم يقع وإن كان ممكناً ، والله أعلم .

(٣) قوله « تشورا من إظهاره » أى تباعداً من إظهاره ، كأنه عورة . وفي الصحاح « الفوار » الفرج . ومنه قيل : شور به ، كأنه أبدى عورته . (ع)

على فراقتهم . وقرئ : باخع نفسك ، على الأصل ، وعلى الإضافة : أى قاتلتها ومهلكها ، وهو للاستقبال فيمن قرأ : إن لم يؤمنوا . وللبنى فيمن قرأ : أن لم يؤمنوا ، بمعنى : لأن لم يؤمنوا . ( بهذا الحديث ) بالقرآن ( أسفاً ) مفعول له ، أى : لفرط الحزن . ويجوز أن يكون حالا . والأسف : المبالغة في الحزن والغضب . يقال : رجل أسف وأسيف .

إِنَّا جَعَلْنَا مَاعِلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۖ (٧)  
وإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَاعِلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ۝ (٨) أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ  
وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ ءَايَاتِنَا عَجَبًا ۝ (٩) إِذْ أَوْيَ الْفِتْنَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا  
ءَاتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ۝ (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ  
فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ۝ (١١)

(ماعلى الأرض) يعنى ما يصلح أن يكون زينة لها ولاهاها من زخارف الدنيا وما يستحسن منها (لنبلوهم أيهم أحسن عملا) وحسن العمل : الزهد فيها وترك الاغترار بها ، ثم زهد في الميل إليها بقوله (وإنا لجاعلون ماعليها) من هذه الزينة (صعيداً جرزاً) يعنى مثل أرض بيضاء لا نبات فيها . بعد أن كانت خضراء معشبة ، في إزالة بهجته ، وإماطة حسنه ، وإبطال ما به كان زينة : من إماتة الحيوان وتحفيف النبات والأشجار ، ونحو ذلك ذكر من الآيات الكلية تزيين الأرض بما خلق (١) فوقها من الاجناس التى لاحصر لها وإزالة ذلك كله كأن لم يكن ، ثم قال (أم حسبت) يعنى أن ذلك أعظم من قصة أصحاب الكهف وإبقاء حياتهم مدة طويلة . والكهف : الفار الواسع في الجبل (والرقيم) اسم كلهم . قال أمية ابن أبى الصلت :

وَلَيْسَ بِهَا إِلَّا الرَّقِيمُ مُجَاوِرًا وَصِيدُهُمْ وَالْقَوْمُ فِي الْكَهْفِ هُمْدٌ (٢)

وقيل : هو لوح من رصاص رقت فيه أسماءهم جعل على باب الكهف . وقيل : إن الناس رقبوا حديثهم نقرأ في الجبل . وقيل : هو الوادى الذى فيه الكهف . وقيل : الجبل . وقيل :

(١) قوله بما خلق ، لعله بما خلق . (ع)  
(٢) لامية بن أبى الصلت ، والرقيم : كلب أصحاب الكهف . والصيد : فناء البيت وبابه وعتيقه ، والبيت يحتملها . والحمد : جمع هامد ، أى : رافد . والقوم : عطف على الرقيم . يقول : ليس في تلك الصحراء إلا الكلب حال كونه مجاوراً لفناء غارهم ، وإلا القوم حال كونهم رقبوا في الكهف : أى الفار .

قريتهم . وقيل : مكانهم بين غضبان وأيلة دون فلسطين ﴿كانوا﴾ آية ﴿عجبا﴾ من آياتنا وصفا بالمصدر ، أو على : ذات عجب ﴿من لدنك رحمة﴾ أى رحمة من خزائن رحمتك ، وهى المغفرة والرزق والأمن من الأعداء ﴿وهي لنا من أمرنا﴾ الذى نحن عليه من مفارقة الكفار ﴿رشداً﴾ حتى نكون بسببه راشدين مهتدين ، أو اجعل أمرنا رشداً كله . كقولك : رأيت منك أسداً ﴿فضربنا على آذانهم﴾ أى ضربنا عليها حجاباً من أن تسمع ، يعنى : أنعمناهم إنامة ثقيلة لاتنبههم فيها الأصوات ، كما ترى المستنقل فى نومه يصاح به فلا يسمع ولا يستنبه ، فحذف المفعول الذى هو الحجاب كما يقال : بنى على امرأته ، يريدون : بنى عليها القبة ﴿سنين عددا﴾ ذوات عدد ، فيحتمل أن يريد الكثرة وأن يريد القلة ؛ لأن الكثير قليل عنده . كقوله : (لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) . وقال الزجاج : إذا قل فهم مقدار عدده فلم يحتاج أن يعد ، وإذا كثّر احتاج إلى أن يعد

ثُمَّ بَعَثْنَا لَهُمْ نَعْلَمَ أَيُّ الْحَزِينِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾

﴿أى﴾ يتضمن معنى الاستفهام ، فعاق عنه ﴿انعلم﴾ فلم يعمل فيه . وقرئ ، يعلم ، وهو معلق عنه أيضاً ؛ لأن ارتفاعه بالابتداء لا بإسناد . يعلم ، إليه ، وفاعل « يعلم » مضمون الجملة ، كما أنه مفعول « نعلم » ﴿أى الحزين﴾ المختلفين منهم فى مدة لبثهم : لأنهم لما انتبهوا اختلفوا فى ذلك ، وذلك قوله ( قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبيثنا يوماً أو بعض يوم قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ) وكان الذين قالوا ربكم أعلم بما لبثتم : هم الذين علموا أن لبثهم قد تطاول . أو أى الحزين المختلفين من غيرهم ، و﴿أحصى﴾ فعل ماضى أى أيهم ضبط <sup>(١)</sup> ﴿أمدا﴾ لأوقات لبثهم . فإن قلت : فما تقول فيمن جعله من أفعال التفضيل ؟ قلت : ليس بالوجه السديد ، وذلك أن بناءه من غير الثلاثى المجزأ ليس بقياس . ونحو « أعدى من الجرب » ، و « أفلس من ابن المذلق » ، شاذ . والقياس على الشاذ فى غير القرآن ممنوع ، فكيف به ؟ ولأن ( أمدا ) لا يخلو : إما أن ينتصب بأفعل <sup>(٢)</sup> فأفعل لا يعمل . وإما أن ينصب بلبثوا ، فلا يستد عليه المعنى . فإن زعمت أنى

(١) قال محمود « أحصى فعل ماضى ، أى : لنعلم أيهم ضبط أمدا ... الخ » قال أحمد : وقد جعل بعض النحاة بناء أفعل من المزيد فيه الهمز قياساً . وادعى ذلك مذهباً لسيبويه ، وعلمه بأن بناءه منه لا يغير نظم الكلمة ، وإنما هو تعريض حمزة بهجرة .

(٢) عاد كلامه . قال : وأيضاً فلو كان للتفضيل لم يخل انتصاب أمداً إما بأفعل ... الخ ، قال أحمد : ولقائل أن ينصبه على التمييز ، كانتصاب العدد تمييزاً فى قوله تعالى ( أحصى كل شئ عدداً ) ويهتد حمله على أفعال التفضيل وروده فى نظير الواقعة واختلاف الأحزاب فى مقدار اللبث ، وذلك فى قوله تعالى ( إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً ) فأمثلهم طريقة : هو أحصاهم لما لبثوا عدداً . وكلا الوجهين جائز ، والله أعلم .

أنصبه بإضمار فعل يدل عليه أحصى ، كما أضمر في قوله :

\* وَأَضْرَبَ مِنَّا بِالسُّوفِ الْقَوَانِسَا \* (١)

على : نضرب القوانس ، فقد أبعدت المتناول وهو قريب ، حيث أبيت أن يكون أحصى فعلا ، ثم رجعت مضطرا إلى تقديره وإضماره . فإن قلت : كيف جعل الله تعالى العلم بإحصائهم المدة غرضاً في الضرب على آذانهم ؟ قلت : الله عز وجل لم يزل عالماً بذلك ، وإنما أراد ما تعلق به العلم من ظهور الأمر لهم ، ليزدادوا إيماناً واعتباراً ، ويكون أطقاً لمؤمنى زمانهم ، وآية بينة لكفاره .

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَرِذْنَاهُمْ هُدًى (١٣)  
وَرَبَّنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَا  
مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ  
إِلَٰهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥)

ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا  
وأضرب منا بالسوف القوانسا  
صدر المذاكي والرماح المداعسا  
عليهم فإ يرجعن إلا عواسا

(١) فلم أر مثل الحى حيا مصبحا  
أكرر وأحيى للحقيقة منهم  
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا  
إذا الخيل حالت عن صريع نكرها

للعباس بن مرداس السلى ، والحى بنو زيد من النين . وأكر : أشد كرا . وأحيى : أشد حماية . والحقيقة : ما يستحق الذب عنه من عرض ومال . والقوانس : جمع قونس ، وهو أعلى بيضة الفارس وأعلى رأس القرس . والمذاكى : الخيل العناق العتاق التى أتى عليها بعد فروجها سنة ، جمع المذاكى اسم مفعول . والمداعس : الرماح الهم التى يطعن بها . والدعس بالتحريك الأثر ، والمداعسة المطاعنة . والمدعس : الرمح الأصم الذى يطعن به . ويروى : جالت ، بدل حالت أى : مالت إلى جول بالجيم أى ناحية . وأما الحول بالحاء فهو التحول . والصرع : الطريح على الأرض ، ونكرها : ترجمها . والعوايس : كالحات الوجوه من الجرى في التيار . وحيا مصبا ، أى : مأتيا في الصباح مفعول . ومثل الحى : حال ، على أن رأى بصرية . أو مفعول ثان ، على أنها عليه ، وأكر : بدل من حيا ، ولا يصح جعله صفة أو مفعول ثان ؛ لأنك لو قلت : مارأيت مثل زيد رجلا أفضل منه لم يستقم المعنى إلا على البدلية ؛ لأن المائلة تنافى المفاضلة ، إلا أن تكون المائلة في صفة والمفاضلة في أخرى ، فلا مانع منه حينئذ . وأضرب : أفعل تفضيل ، بدل من فوارس على ما تقدم ، فهو لف وأنش مرتب . وأفعل التفضيل لا يعمل النصب والمنفعل به ، بل حكى الإجماع على ذلك ، فالقوانس نصب بمحذوف ، أى : يضرب القوانس أى الروس ، لكن قال محمد بن مسعود في كتابه البديع : غلط من قال : إن اسم التفضيل لا ينصب للمفعول به ، واستشهد بهذا البيت وغيره . وبين مدح الفريقين بقوله : إذا شددنا عليهم مرة قابلونا بالخيل العتاق والرماح الجيدة ، فهم شجعان . ويقول : إذا مالت خيلنا أو تحولت عن قتيل منا ، ترجمها عليهم لأجل الثأر ، فترجع إلا كوالح ، فنحن أجمع منهم .



(وزدناهم هدى) بالتوفيق والتثبيت (وربطنا على قلوبهم) وقويناها بالصبر على هجر الأوطان والنعيم، والقرار بالدين إلى بعض الغيران، وجسرناهم على القيام بكلمة الحق والتظاهر بالإسلام (إذ قاموا) بين يدي الجبار وهو دقيانوس، من غير مبالاة به حين عاتبهم على ترك عبادة الصنم (فقالوا ربنا رب السموات والأرض ... شططا) قولاً شاططاً، وهو الإفراط في الظلم والإبعاد فيه، من شط: إذا بعد. ومنه: أشط في السوم وفي غيره (هؤلاء) مبتدأ، و(قومنا) عطف بيان (واتخذوا) خبر وهو إخبار في معنى إنكار (لولا يأتون عليهم) هلا يأتون على عبادتهم، لخدف المضاف (بسلطان بين) وهو تبسكت؛ لأن الإتيان بالسلطان على عبادة الأوثان محال، وهو دليل على فساد التقليد، وأنه لا بد في الدين من الحجة حتى يصح ويثبت (افترى على الله كذباً) بنسبة الشريك إليه.

وَإِذْ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ

مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرِيقًا ﴿١٦﴾

(وإذ اعتزلتموهم) خطاب من بعضهم لبعض، حين صممت عزيمتهم على الفرار بدينهم (وما يعبدون) نصب، عطف على الضمير، يعني: وإذا اعتزلتموهم واعتزلتم معبوديهم (إلا الله) يجوز أن يكون استثناء متصلاً، على ما روى: أنهم كانوا يقرون بالخالق ويشركون معه كأهل مكة. وأن يكون منقطعاً. وقيل: هو كلام معترض إخبار من الله تعالى عن الفئة أنهم لم يعبدوا غير الله (مرفقاً) قرئ بفتح الميم وكسرهما، وهو ما يترفق به: أي يتنفع. إما أن يقولوا ذلك ثقة بفضل الله وقوة في رجائهم لتوكلهم عليه ونصوع يقيهم. وإما أن يخبرهم به نبي في عصرهم، وإما أن يكون بعضهم نبياً.

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشَّامِلِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَوْقَ

الْمُهْتَدِ وَمَن يُضِلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾

(تزاور) أي تمايل، أصله: تزاور، تخفف بإدغام التاء في الزاى أو حذفها. وقد قرئ بهما. وقرئ: تزور. وتزوار: بوزن تحمز ونحاز، وكلها من الزور وهو الميل. ومنه زاره إذا مال إليه. والزور: الميل عن الصدق (ذات اليمين) جهة اليمين. وحقيقتها: الجهة المسماة باليمين (تقرضهم) تقطعهم لاتقربهم من معنى القطيعة والصرم. قال ذو الرمة:

إِلَى طُغْيَانٍ يَبْرِضْنَ أَقْوَارًا مُشْرِفٍ شِمَالًا وَعَنْ أَيْمَانِهِنَّ الْقَوَارِمُ<sup>(١)</sup>

(وهم في فجوة منه) وهم في متسع من الكهف . والمعنى أنهم في ظل نهارهم كله لا تصيبهم الشمس في طلوعها ولا غروبها ، مع أنهم في مكان واسع منفتح معرض لإصابة الشمس لولا أن الله يحجبها عنهم . وقيل : في متفسح من غارهم ينالهم فيه روح الهواء وبرد النسيم ولا يحسون كرب الغار (ذلك من آيات الله) أى ما صنعه الله بهم - من ازورار الشمس وقرضها طالعة وغاربة - آية من آياته ، يعنى : أن ما كان في ذلك السميت تصيبه الشمس ولا تصيبهم . اختصاصاً لهم بالكرامة . وقيل : باب الكهف شمالى مستقبل لبنات نعش ، فهم في مقناة<sup>(٢)</sup> أبدا . ومعنى (ذلك من آيات الله) أن شأنهم وحديثهم من آيات الله (من يهد الله فهو المهتد) ثناء عليهم بأنهم جاهدوا في الله وأسلموا له وجوههم ، فلفظ بهم وأعانهم . وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة السنية والاختصاص بالآية العظيمة ، وأن كل من سلك طريقة المهتدين الراشدين فهو الذى أصاب الفلاح ، واهتدى إلى السعادة ، ومن تعرض للخذلان ، فلن يجد من يليه ويرشده بعد خذلان الله .

وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقِلْتُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُغْبًا

١٨

(وتحسبهم) بكسر السين وفتحها : خطاب لكل أحد . والأيقاظ : جمع يقظ ، كأنكاد في نكد . قيل : عيونهم مفتحة وهم نيام ، فيحسبهم الناظر لذلك أيقاظا . وقيل : لكثرة تقلبهم

(١) نظرت بجرجاء السبية نظرة ضحى وسواد العين في الماء شامس  
إلى طغيان يبرضن أقوار مشرف شمالا وعن أيمنهن القوارس

لذئ الرمة . وجرجاء السبية : اسم موضع ، والجار والمجرور متعلق بمحذوف حال من الفاعل . وضحى : ظرف ، وسواد العين ... الخ . جملة حالية ، في الماء ، أى : الدمع شامس ، أى كثير الحركة والاضطراب . يقال : شمس الفرس والرجل شموسا ، إذا ساء خلقه ، والظلمة : المرأة في المودج أو المطبة عليها امرأة أولا ، أو المودج فيه امرأة أولا . والجمع طغيان وطمعان وطمعانى ويطغى أى يقطع . وأقوار مشرف : أعلى جبل مشرف . ويروى أجواز جمع جوز بمعنى الجواز والطريق ، أى : يفصلنه عنهن ، وشمالا : جهة الشمال ، والقوارس : اسم موضع ، وجعله جمع فارس ، كما قيل : تبعده المقابلة .

(٢) قوله «فهم في مقناة» فى الصحاح : قال أبو هريرة «المقناة» والمقنوة الذى لا تطلع عليه الشمس . وقال : غير مقناة . ومقنوة . بغير همز : نقيض المضناة . (ع)

وقيل : لهم تقلبتان في السنة . وقيل : تقلبة واحدة في يوم عاشوراء . وقرئ : ويقلبهم . بالياء والضمير لله تعالى . وقرئ : وتقلبهم ، على المصدر منصوباً ، وانتصابه بفعل مضمر يدل عليه ( وتحسبهم أيقاظاً ) كأنه قيل : وترى وتشاهد تقلبهم . وقرأ جعفر الصادق : وكالبهم أى وصاحب كلهم ( باسط ذراعيه ) حكاية حال ماضية : لأن اسم الفاعل لا يعمل إذا كان في معنى المضى ، وإضافته إذا أضيف حقيقة معرفة ، كغلام زيد ، إلا إذا نويت حكاية الحال الماضية . والوصيد : الغناء ، وقيل : العتبة . وقيل : الباب . وأنشد :

بَارِضٍ فَضَاءٍ لَا يُبَدُّ وَصِيدُهَا عَلَى وَمَعْرُوفٍ بِهَا غَيْرُ مُنْكَرٍ <sup>(١)</sup>

وقرئ : ولملت ، بتشديد اللام للبالغة . وقرئ : بتخفيف الهمزة وقلبها ياء . و( رعباً ) بالتخفيف والثقل ، وهو الخوف الذى يرعب الصدر أى يملؤه ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة . وقيل : لطول أظفارهم وشعورهم وعظم أجرامهم . وقيل : لوحشة مكانهم . وعن معاوية أنه غزا الروم فز بالكهف فقال : لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم ، فقال له ابن عباس رضى الله عنه : ليس لك ذلك ، قد منع الله تعالى منه من هو خير منك فقال : ( لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ) فقال معاوية ، لا أنتهى حتى أعلم عليهم ، فبعث ناساً وقال لهم : اذهبوا فانظروا ، ففعلوا ، فلما دخلوا الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأحرقتهم <sup>(٢)</sup> . وقرئ : لو اطلعت ، بضم الواو .

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ كُنْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا كُنْتُمْ فَا بَعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا <sup>(١٩)</sup> إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا <sup>(٢٠)</sup>

(وكذلك بعثناهم) وكما أنماهم تلك النومة كذلك بعثناهم ، إذ كارا بقدرته على الإنامة والبعث

(١) لزهير . والوصيد : الغناء والباب والعتبة . يقول : نزلت في أرض خالية من البناء ، تصلى فيها الضيفان والقفاة ، ليس فيها بناء له وصيد . فيسد على فتحجب عن الضيفان كأهل الحضر ، فتنى السد كناية عن نفي الوصيد من أصله ، وإحسانى بها معروف لا يذكره أحد من الناس .

(٢) أخرجه ابن أبى حاتم وعبيد بن محمد وأبو بكر بن أبى شبة من رواية يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس . وإسناده صحيح .

جميعاً ، ليسأل بعضهم بعضاً ويعرفوا حالهم وما صنع الله بهم ، فيعتبروا ويستدلوا على عظم قدرة الله تعالى ويزدادوا يقيناً ، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم وكرموا به ﴿ قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ﴾ جواب مبنى على غالب الظن . وفيه دليل على جواز الاجتهاد والقول بالظن الغالب ، وأنه لا يكون كذباً وإن جاز أن يكون خطأ ﴿ قالوا ربكم أعلم بما لبثتم ﴾ إنكار عليهم من بعضهم ، وأن الله أعلم بمدة لبثهم ، كأن هؤلاء قد علموا بالادلة أو بإلهام من الله أن المدة متطاولة ، وأن متدأرها مبهم لا يعلمه إلا الله . وروى أنهم دخلوا الكهف غدوة وكان انتباههم بعد الزوال ، فظنوا أنهم في يومهم . فلما نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك . فإن قلت : كيف وصلوا قولهم ﴿ فابعثوا ﴾ بتدأ كحديث المدة ؟ قلت : كأنهم قالوا : ربكم أعلم بذلك ، لا طريق لكم إلى علمه ، نخدوا في شيء آخر مما يهمكم . والورق : الفضة ، مضروبة كانت أو غير مضروبة . ومنه الحديث أن عرجة أصيب أنفه يوم الكلاب <sup>(١)</sup> فاتخذ أنفاً من ورق فأتين ، فأمره رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يتخذ أنفاً من ذهب . <sup>(٢)</sup> وقرئ : بورقكم ، بسكون الراء والواو مفتوحة أو مكسورة . وقرأ ابن كثير : بورقكم ، بكسر الراء وإدغام القاف في الكاف . وعن ابن محيصن أنه كسر الواو وأسكن الراء وأدغم . وهذا غير جائز لالتقاء الساكنين لا على حده . وقيل : المدينة طرسوس . قالوا : وتزودهم ما كان معهم من الورق عند فرارهم : دليل على أن حمل النفقة وما يصلح المسافر هو رأى المتوكلين على الله ، دون المتكئين على الاتفاقات وعلى ما في أوعية القوم من النفقات . ومنه قول عائشة رضى الله عنها - لمن سألها عن محرم يشد عليه هميانه - : أوثق عليك نفقتك . <sup>(٣)</sup> وما حكى عن بعض صعاليك العلماء <sup>(٤)</sup> أنه كان شديد الحنين إلى أن يرزق حج بيت الله ، وتعلم منه ذلك ، فكانت مياسير أهل بلده كلما عزم منهم فوج على حج أتوه فبذلوا له أن يحجوا به وألحوا عليه ، فيعتذر إليهم ويحمد إليهم بذلم ، فإذا انفضوا عنه قال لمن عنده : ما لهذا السفر إلا شيآن : شد الهميان ، والتوكل على الرحمن ﴿ أيها ﴾ أى أهلها ، فحذف الأهل كما في قوله ( واسئل القرية ) ، ( أذكرى طلعاً ) أحل وأطيب وأكثر وأرخص ﴿ وليتلطف ﴾ وليتكنف اللطف والنيقة <sup>(٥)</sup> فيما يباشره من أمر المباينة حتى لا يغيب . أو في أمر التخفي حتى لا يعرف ﴿ ولا يشعرن بكم أحداً ﴾

(١) قوله « يوم الكلاب » في وقعة الكلاب ، وهو بالضم : اسم ماء كانت عنده الوقعة ، أفاده الصحاح . (ع)

(٢) أخرجه أصحاب السنن من رواية عبد الرحمن بن طرفة . عن عرجة . وفي رواية بعضهم « أن عرجة » .

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة بسند صحيح عنها بذلك .

(٤) قوله « عن بعض صعاليك العلماء » أى فقرائهم . (ع)

(٥) قوله « والنيقة » أى : الاتقان . (ع)

يعنى : ولا يفعلن ما يؤدى من غير قصد منه إلى الشعور بنا ، فسمى ذلك إشعارا منه بهم ؛ لأنه سبب فيه الضمير في ﴿إنهم﴾ راجع إلى الأهل المقدر في (أيها) . (يرجوكم) يقتلوكم أخبث القتة وهي الرجم ، وكانت عادتهم ﴿أو يعيدوكم﴾ أو يدخلوكم (في ملتهم) بالإكراه العنيف ويصيرونكم إليها . والعود في معنى الصيرورة أكثر شيء في كلامهم ، يقولون : ما عدت أفعل كذا . يريدون ابتداء الفعل ﴿ولن تفلحوا إذا أبدا﴾ إن دخلتم في دينهم .

وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

﴿وكذلك أعتارنا عليهم﴾ وكما أنماهم وبعثناهم ، لما في ذلك من الحكمة أطلعنا عليهم ، ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم ﴿أن وعد الله حق﴾ وهو البعث ؛ لأن حالهم في نومتهم وانتباهتهم بعدها كحال من يموت ثم يبعث . و﴿إذ يتنازعون﴾ متعلق بأعتارنا . أى : أعتارناهم عليهم حين يتنازعون بينهم أمر دينهم ويختلفون في حقيقة البعث ، فكان بعضهم يقول : تبعث الأرواح دون الأجساد . وبعضهم يقول : تبعث الأجساد مع الأرواح ، ليرفع الخلاف ، وليتبين أن الأجساد تبعث حية حساسة فيها أرواحها كما كانت قبل الموت ﴿فقالوا﴾ حين توفي الله أصحاب الكهف ﴿ابنوا عليهم بنيانا﴾ أى على باب كهفهم . لئلا يتطرق إليهم الناس ضناً بتربهم وحفاظة عليها كما حفظت تربة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحظيرة ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم﴾ من المسلمين وملكهم وكانوا أولى بهم وبالبناء عليهم ﴿لنتخذن﴾ على باب الكهف ﴿مسجدا﴾ يصلى فيه المسلمون ويتبركون بمكانهم . وقيل : إذ يتنازعون بينهم أمرهم أى : يتذاكر الناس بينهم أمر أصحاب الكهف ، ويتكلمون في قصتهم وما أظهر الله من الآية فيهم . أو يتنازعون بينهم تدبير أمرهم حين توفوا ، كيف يخفون مكانهم ؟ وكيف يستدون الطريق إليهم ؟ فقالوا : ابنوا على باب كهفهم بنيانا . روى أن أهل الإنجيل عظمت فيهم الخطايا وطغت ملوكهم حتى عبدوا الأصنام وأكروها على عبادتها ، ومن شدد في ذلك دقيانوس ، فأراد فتية من أشراف قومه على الشرك وتوعدهم بالقتل ، فأبوا إلا الثبات على الإيمان والتصلب فيه ، ثم هربوا إلى الكهف ومزوا بكلب فتبعهم فطردوه ، فأنطقه الله فقال : ما تريدون مني ، أنا أحب أحياء الله ، فناموا وأنا أحرسكم . وقيل : مزوا براع معه كلب فتبعهم<sup>(١)</sup>

(١) قوله وقيل : مزوا براع معه كلب فتبعهم على دينهم ، لعل بعده سقطا تقديره : وتبعهم الكلب ، كما في الحازن . (ع)

على دينهم ، ودخلوا الكهف فكانوا يعبدون الله فيه ، ثم ضرب الله على آذانهم ، وقبل أن يبعثهم الله ملك مدينتهم رجل صالح مؤمن . وقد اختلف أهل ملكته في البعث معترفين وجاحدين ، فدخل الملك بيته وأغلق بابه ولبس مسحاً وجلس على رماد . وسأل ربه أن يبين لهم الحق ، فألقى الله في نفس رجل من رعيانهم فهدم ماسد به فم الكهف ليتخذة حظيرة لغنمه ، ولما دخل المدينة من بعثوه لابتياح الطعام وأخرج الورق وكان من ضرب دقيانوس : اهتموه بأنه وجد كنزا ، فذهبوا به إلى الملك فقصّ عليه القصة ، فانطلق الملك وأهل المدينة معه وأبصروهم ، وحمدوا الله على الآية الدالة على البعث ، ثم قالت الفتية للملك : نستودعك الله ونعيذك به من شرّ الجنّ والإنس ، ثم رجعوا إلى مضاجعهم وتوفي الله أنفسهم ، فألقى الملك عليهم ثيابه ، وأمر فجعل لكل واحد تابوت من ذهب ، فرآهم في المنام كارهين للذهب ، فجعلها من الساج ، وبني على باب الكهف مسجداً . ( ربههم أعلم بهم ) من كلام المتنازعين . كأنهم تذاكروا أمرهم وتناقلوا الكلام في أنسابهم وأحوالهم ومدة لبثهم ، فلما لم يهتدوا إلى حقيقة ذلك قالوا : ربههم أعلم بهم . أو هو من كلام الله عز وجل ردّ لقول الخائضين في حديثهم من أولئك المتنازعين ، أو من الذين تنازعوا فيهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب .

سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُمْ كَلْبَهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجَا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُقَارِبْ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٢٢

(سَيَقُولُونَ) الضمير لمن خاض في قصتهم في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب والمؤمنين ، سألوهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم فأخبر الجواب إلى أن يوحى إليه فيهم ، فنزلت إخباراً بما سيجرى بينهم من اختلافهم في عددهم ، وأن المصيب منهم من يقول سبعة وثامنهم كلبهم . قال ابن عباس رضي الله عنه : أنا من أولئك القليل . روى أن السيد والعاصب وأصحابهما من أهل نجران كانوا عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فجرى ذكر أصحاب الكهف ، فقال السيد وكان يعقوبيا : كانوا ثلاثة رابعهم كلبهم . وقال العاصب وكان نسطوريا : كانوا خمسة سادسهم كلبهم . وقال المسلمون : كانوا سبعة وثامنهم كلبهم ، لحقق الله قول المسلمين . وإنما عرفوا ذلك بإخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن لسان جبريل عليه السلام . وعن علي رضي الله عنه : هم سبعة نفر أسماءهم : يعلينا ، ومكشليشيا ، ومشلينيا : هؤلاء أصحاب يمين الملك ، وكان عن يساره : مرنوش ، ودبرنوش ، وشادنوش . وكان يستشير هؤلاء الستة في أمره .

والسابع : الراعى الذى وافقهم حين هربوا من ملكهم دقيانوس . واسم مدينتهم : أفسوس . واسم كلهم : قطمير . فإن قلت : لم جاء بسين الاستقبال فى الأول دون الآخرين ؟ قلت : فيه وجهان : أن تدخل الآخرين فى حكم السين ، كما تقول : قدأ كرم وأنهم ، تريد معنى التوقع فى الفعلين جميعاً ، وأن تريد يفعل معنى الاستقبال الذى هو صالح له ( رجماً بالغيب ) رمية بالخبر الحقيقى وإتيانابه كقوله ( ويتدفون بالغيب ) أى يأتون به . أو وضع الرجم موضع الظن ، فكانه قيل : ظناً بالغيب ؛ لأنهم أكثروا أن يقولوا رجم بالظن مكان قولهم ظن ، حتى لم يبق عندهم فرق بين العبادات . ألا ترى فى قول زهير :

• وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ \* (١)

أى المظنون . وقرئ : ثلاث رابعهم ، بإدغام التاء فى تاء التأنيث . و ( ثلاثة ) خبر مبتدأ محذوف ، أى : هم ثلاثة . وكذلك ( خمسة ) و ( سبعة ) و ( رابعهم كلهم ) جملة من مبتدأ وخبر واقعة صفة لثلاثة ، وكذلك ( سادسهم كلهم ) ، ( وثامنهم كلهم ) . فإن قلت : فما هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة ، ولم دخلت عليها دون الأولين (٢) ؟ قلت : هى الواو التى تدخل على الجملة الواقعة صفة للمنكرة ، كما تدخل على الواقعة حالا عن المعرفة فى نحو قولك : جاء فى رجل ومعه آخر . ومررت بزيد وفى يده سيف . ومنه قوله تعالى : ( وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ) وفائدتها تأكيد لصوق الصفة بالموصوف ، والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت

(١) وما الحرب إلا ما علمت وذقت وما هو عنها بالحديث المرجم

لزهير من معلقته ، بنهى عبداً وذيان عن القتال . يقول : ليست الحرب إلا التى علمتموها وجربتموها ، وشبهها بمعلوم مكروه على طريق الكناية والدق تخييل ، وما هو : أى الحديث عن الحرب ، ولما كان الضمير عائداً على المصدر فى المعنى صح تعلق المجرور به ، ويبعد تعلقه بما بعده . والترجيم : الرمي بالرجام وهى الحجارة الصفار ، استعمال لالتقاء الكلام بلا روية ولا فكر على طريق التمهيد .

(٢) قال محمود : إن قلت : لم دخلت الواو فى الجملة الأخيرة ... الخ ، قال أحمد : وهو الصواب ، لا كمن يقول : إنها وار الثانية . فان ذلك أمر لا يستقر لثبته قدم ، ويعدون مع هذه الواو فى قوله فى الجنة ( وفتحت أبوابها ) بخلاف أبواب النار ، فانه قال فيها ( فتحت أبوابها ) قالوا : لأن أبواب الجنة ثمانية ، وأبواب النار سبعة . وهب أن فى اللغة وأوآ تصحب الثمانية فتختص بها ، فحين ذكر العدد فى أبواب الجنة حتى ينتهى إلى الثامن فتصحبه الواو ، وربما عدوا من ذلك ( والثاهون عن المنكر ) وهو الثامن من قوله ( الثائبون ) وهذا أيضاً مردود بأن الواو إنما اقترنت بهذه الصفة ، لترابط بينها وبين الأولى التى هى الأمور بالمعروف ، لما بينهما من التناسب والترابط . ألا ترى اقترانها فى جميع مصادرهما ومواردهما ، كقوله ( يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر ) وكقوله ( وأمر بالمعروف وانه عن المنكر ) وربما عد بعضهم من ذلك الواو فى قوله ( ثيبات وأبكاراً ) لأنه وجدها مع الثامن ، وهذا غلط فاحش ، فان هذه وار التقسيم ، ولو ذهبت تحذفها فنقول : ثيبات أبكاراً ، لم يستد الكلام ، فقد وضع أن الواو فى جميع هذه المواضع المعدودة وأردت لغير ما زعمه هؤلاء ، والله الموفق .

مستقر ، وهذه الواو هي التي آذنت بأن الذين قالوا : سبعة وثامنهم كلهم ، قالوه عن ثبات علم وولد أئينة نفس ولم يرجوا بالظن كما غيرهم . والدليل عليه أن الله سبحانه أتبع القولين الأولين قوله ( رجماً بالغيب ) وأتبع القول الثالث قوله ( ما يعلمهم إلا قائل ) وقال ابن عباس رضي الله عنه : حين وقعت الواو انقطعت العدة ، أي : لم يبق بعدها عدة عاذ يلتفت إليها . وثبت أنهم سبعة وثامنهم كلهم على القطع والثبات . وقيل : إلا قليل . من أهل الكتاب . والضمير في ( يقولون ) على هذا لأهل الكتاب خاصة ، أي : سيقول أهل الكتاب فيهم كذا وكذا ، ولا علم بذلك إلا في قليل منهم ، وأكثرهم على ظن وتخمين ( فلا تمار فيهم ) فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلا جدالاً ظاهراً غير متعمق فيه ، وهو أن نقص عليهم ما أوحى الله إليك فحسب ولا تزيد ، من غير تجهيل لهم ولا تعنيف بهم في الرد عليهم ، كما قال ( وجادلهم بالتي هي أحسن ) . ( ولا تستفت ) ولا تسأل أحداً منهم عن قصتهم سؤال متعنت له ، حتى يقول شيئاً فترده عليه وتزيف ما عنده ؛ لأن ذلك خلاف ما وصيت به من المداراة والمجاملة ، ولا سؤال مسترشد ؛ لأن الله قد أرشدك بأن أوحى إليك قصتهم .

وَلَا تَقُولَنَّ لشيءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَآذْكُرْ

رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ (٢٤)

( ولا تقولن لشيءٍ ) ولا تقولن لأجل شيء تعزم عليه ( إنني فاعل ذلك ) الشيء ( غداً ) أي فيما يستقبل من الزمان ، ولم يرد الغد خاصة ( إلا أن يشاء الله ) متعلق بالنهي لا بقوله : إنني فاعل ؛ لأنه لو قال : إنني فاعل كذا إلا أن يشاء الله ، كان معناه : إلا أن تعترض مشيئة الله دون <sup>(١)</sup> فعله ، وذلك مما لا مدخل فيه للنهي ، وتعلقه بالنهي على وجهين ، أحدهما : ولا تقولن ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقوله ، بأن يأذن لك فيه . والثاني : ولا تقوله إلا بأن يشاء الله ، أي : إلا بمشيئة الله ، وهو في موضع الحال . يعني : إلا ملتبساً بمشيئة الله قائلاً :

(١) قال محمود : « كان معناه إلا أن تعترض مشيئة الله دون فعله ... الخ » قال أحد : ولا بد من حل الكلام على أحد الوجهين المذكورين ، ولو لا ذلك لكان المعنى على الظاهر ببادي الرأي : ولا تقولن لشيءٍ إنني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله أن تقول هذا القول ، وليس الغرض ذلك ، وإنما الغرض النهي عن هذا القول إلا مقروناً بقول المشيئة ، وليت شعري ما معنى قول الرخخشري في تفسير الآية : كأن المعنى : إلا أن تعترض المشيئة دونه ، معتقداً أن مشيئة الله تعالى لا تعترض على فعل أحد ، فكأن شاء من الأفعال فتركت ، وكأن شاء من التروك ففعلت على زعم القدورية ، فلا معنى على أصلهم الفاسد لتعليق الفعل بالمشيئة قولاً وهو غير متعلق بها وقوعاً ، حتى أن قول القائل : لا أفعل كذا إلا أن يشاء الله أن أفعله : كذب وخلف بتقدير فعله إذا كان من قبيل المباح ، لأن الله تعالى لا يشاؤه على وجههم الفاسد ، فما أبعد عقدهم من قواعد الشرع ! فسحقاً سحقاً .



إن شاء الله . وفيه وجه ثالث ، وهو : أن يكون (إن شاء الله) <sup>(١)</sup> في معنى كلمة تأييد ، كأنه قيل ولا تقولنه أبدا . ونحوه قوله (وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله) لأن عودهم في ملتهم مما لن يشاءه الله . وهذا نهى تأديب من الله لنبيه حين قالت اليهود لقريش : سلوه عن الروح ، وعن أصحاب الكهف ، وذى القرنين . فسألوه فقال : اتنوني غدا أخبركم ولم يستثن ، فأبطأ عليه الوحي حتى شق عليه وكذبه قريش (واذكر ربك) أي مشيئة ربك . وقيل : إن شاء الله إذا فرط منك نسيان لذلك . والمعنى : إذا نسيت كلمة الاستثناء ثم تنهت عليها فتداركها بالذكر <sup>(٢)</sup> . وعن ابن عباس رضي الله عنه : ولو بعد سنة مالم تحت . وعن سعيد بن جبير : ولو بعد يوم أو أسبوع أو شهر أو سنة . وعن طاوس : هو على ثيابه <sup>(٣)</sup> مادام في مجلسه . وعن الحسن نحوه . وعن عطاء : يستثنى على مقدار حلب ناقة غزيرة . وعند عامة الفقهاء أنه لا أثر له في الأحكام مالم يكن موصولا . ويحكى أنه بلغ المنصور أن أبا حنيفة خالف ابن عباس رضي الله عنه في الاستثناء المنفصل ، فاستحضره لينكر عليه : فقال أبو حنيفة : هذا يرجع عليك ، إنك تأخذ البيعة بالآيمان ، أفترضني أن يخرجوا من عندك فيستثنوا فيخرجوا عليك ؟ فاستحسن كلامه ورضى عنه . ويجوز أن يكون المعنى : واذكر <sup>(٤)</sup> ربك بالتسبيح والاستغفار إذا نسيت كلمة الاستثناء ، تشديدا في البعث على الاهتمام بها . وقيل : واذكر ربك إذا تركت بعض ما أمرك به . وقيل : واذكره إذا اعتراك النسيان ليدركك المنسى ، وقد حمل على أداء الصلاة المنسية عند ذكرها . و (هذا) إشارة إلى نيا أصحاب الكهف . ومعناه : لعل الله يؤتيني من البينات والحجج على أني صادق ما هو أعظم في الدلالة وأقرب رشدًا من نيا أصحاب الكهف . وقد فعل ذلك حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك وأدل ، والظاهر أن يكون المعنى : إذا نسيت شيئا فاذكر ربك . وذكر ربك عند نسيانه أن تقول : عسى ربي أن يهديني لشئ آخر بدل هذا المنسى أقرب منه (رشدًا) وأدنى خيرا ومنفعة . ولعل النسيان كان خيرة ، كقوله (أو نفسها نات بخير منها) .

(١) قوله «إن شاء الله» لعله أن يشاء الله . (ع)

(٢) عاد كلامه . قال : وقوله (واذكر ربك إذا نسيت) أي كلمة الاستثناء ثم تنهت لها ، فتداركها بالذكر . وعن ابن عباس : ولو بعد سنة مالم تحت إلى قوله : وعند عامة الفقهاء ... الخ ، قال أحمد : أما ظاهر الآية فقتضاه الأمر بتدارك المشيئة متى ذكرت ولو بعد الطول . وأما حلها لليمين حيث فلا دليل عليه منها ، والله أعلم

(٣) قوله «هو على ثيابه» في الصحاح «الثياب» بالضم : الاسم من الاستثناء . (ع)

(٤) قال محمود : «يجوز أن يكون المعنى واذكر ربك بالتسبيح ... الخ» قال أحمد : ويؤيد هذا التأويل بقوله تعالى أول القصة (أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا) فافتتح ذكر القصة بتقليل شأنها وإنكار عدده من عجائب آيات الله . ثم ختمها بأمره عليه الصلاة والسلام بطلب ما هو أرشد وأدخل في الآية والله أعلم .

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ۖ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا  
لَبِثُوا لَهُ غَمْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصَرُ بِهِ وَأَنْتُمْ مَالِمُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيِّ  
وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ۖ ﴿٢٦﴾

(ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين) يريد لبثهم فيه أحياء مضروباً على آذانهم هذه المدة ، وهو بيان لما أجمل في قوله (فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً) ومعنى قوله ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ أنه أعلم من الذين اختلفوا فيهم بمدة لبثهم ، والحق ما أخبرك الله به . وعن قتادة : أنه حكاية لكلام أهل الكتاب . و (قل الله أعلم) رد عليهم . وقال في حرف عبد الله : وقالوا لبثوا . وسنين : عطف بيان لثلاثمائة . وقرئ : ثلاثمائة سنين ، بالإضافة ، على وضع الجمع موضع الواحد في التمييز ، كقوله (بالأخسرين أعمالاً) وفي قراءة أبي : ثلاثمائة سنة . ﴿تسْعاً﴾ تسع سنين ؛ لأن ما قبله يدل عليه . وقرأ الحسن : تسعاً بالفتح ، ثم ذكر اختصاصه بما غاب في السموات والأرض وخفي فيها من أحوال أهلها ومن غيرها وأنه هو وحده العالم به . وجاء بما دل على التعجب من إدراك المسموعات والمبصرات ، للدلالة على أن أمره في الإدراك خارج عن حد ما عليه إدراك السامعين والمبصرين ، لأنه يدرك أल्प الأشياء وأصغرها ، كما يدرك أكبرها حجماً وأكثفها جرماً ، ويدرك البواطن كما يدرك الظواهر ﴿ما لهم﴾ الضمير لأهل السموات والأرض ﴿من ولي﴾ من متول لامورهم ﴿ولا يشرك في حكمه﴾ في قضائه ﴿أحداً﴾ منهم . وقرأ الحسن : ولا تشرك ، بالناء والجرم على النهي .

وَأَنْتَ مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ

دُونِهِ مُلْتَحِدًا ۖ ﴿٢٧﴾

كانوا يقولون له : انت بقرآن غير هذا أو بدله ، فقل له ﴿وانت ما أوحى إليك﴾ من القرآن ولا تسمع لما يهذون به من طلب التبديل ، فلامبدل لكلمات ربك ، أي : لا يدر أحد على تبديلها وتغييرها ، إنما يقدر على ذلك هو وحده (وإذا بدلنا آية مكان آية) . ﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ ملتحداً تعدل إليه إن هممت بذلك .

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعِشْيِ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا  
تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا  
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ۖ ﴿٢٨﴾

وقال قوم من رؤساء الكفرة لرسول الله صلى الله عليه وسلم : نخ هؤلاء الموالي الذين كأن ريحهم ريح الضأن ، وهم : صهيب وعمار وخباب وغيرهم من فقراء المسلمين ، حتى نجاسك كما قال قوم نوح : ( أتؤمن لك واتبعك الأرذلون ) فنزلت : ﴿ واصبر نفسك ﴾ واحبسها معهم وثبتها . قال أبو ذؤيب :

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لِذَلِكَ حُرَّةٌ تَرُسُو إِذَا نَفْسُ الْجَبَّانِ تَطَّلَعُ <sup>(١)</sup>

(بالغداة والعشي) دائبين على الدعاء في كل وقت . وقيل : المراد صلاة الفجر والعصر . وقرئ : بالغدوة ، وبالغداة أجود ؛ لأن غدوة علم في أكثر الاستعمال . وإدخال اللام على تأويل التذكير كما قال :

\* ... وَالزَّيْدُ زَيْدُ الْمَعَارِكِ \* <sup>(٢)</sup>

ونحوه قليل في كلامهم . يقال : عداه إذا جاوزته ومنه قوله . عدا طوره . وجاءني القوم عدا زيدا . وإنما عدى يعن ، للتضمين عدا معنى نبا وعلا ، في قولك : نبت عنه عينه وعلت عنه عينه : إذا اقتحمته ولم تعلق به . فإن قلت : أى غرض في هذا التضمين ؟ وهلا قيل : ولا تعدم عينك ، ألا تعلق عينك عنهم ؟ قلت الغرض فيه إعطاء مجموع معنيين ، وذلك أقوى من إعطاء معنى فذ . ألا ترى كيف رجع المعنى إلى قولك : ولا تقتحمهم عينك مجاوزتين إلى غيرهم ؟ ونحوه قوله تعالى ( ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ) أى ولا تضموها إليهما أكلين لها . وقرئ : ولا تعد عينيك ، ولا تعد عينيك ، من أعداه وعداه نقلا بالهمزة وتشقيلا الحشو . ومنه قوله :

\* فَعَدُّ عَمَّا تَرَى إِذْ لَا أَرْتَجِّعُ لَهُ \* <sup>(٣)</sup>

(١) لابي ذؤيب في مريثة بنيه ، وصبرت : أى حبست نفسا عارفة لذلك البلاء ، وضمن عارفة معنى صابرة فعداه باللام ، جسرة : أى قوية صلبة . ويرى : حرة ، بضم الهاء ، أى جيدة . ترسو : تطلعن وتسلكن ، إذا تطلع نفس الجبان وتخرج كأنها تريد الفرار وأصله تتطلع ، حذف منه إحدى التاءين تنقيفاً .

(٢) وقد كان منهم حاجب وابن أمه أبو جندل والزيد المعارك دخلت وال ، المعرفة على «زيد» وهو علم لتأويله بالمسمى يزيد ، ولذلك أضافه للمعارك ، أى أمكنة الحروب . يقول : وقد كان من هؤلاء القوم حاجب بن لقيط بن زرارة وابن أمه ، أى أخوه أبو جندل والمسمى يزيد ، المحدث للحروب . وفيه إشارة إلى أنه يعرف بذلك فيما بين الناس .

(٣) فعد عما ترى إذ لا أرتجع له وإنما القنود على عيرانة أجد للناطقة الديباني . ونما ينمى نمياً : زاد وارتفع . ونما ينميه نمياً : رفعه وزاده . ونما ينمو نمواً من باب دخل . ونما ينمو نمواً أيضاً ، لكن الواوى قليل ، والقنود : جمع أفتاد ، جمع قند : وهى عيذان الرجل بلا أداة . والعيرانة : العظيمة بالعير في سرعة السير . والأجد : الصلبة الموثقة الخلق . يقول : انصرف عما ترى من آثار الديار ، أو عما تظن رجوعه ؛ لأنه لا تدارك له أو لارجوع له ، وارفع عيذان الرجل على ناقة سريعة صلبة ، كناية عن أمره بالسفر ؛ لأن شد الرحال لا يكون إلا له .

لأن معناه : فقد همك عما ترى . نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يزدري بفقراء المؤمنين ، وأن تنبو عينه عن رثائه زعيم طموحا إلى زى الأغنياء وحسن شارتهم <sup>(١)</sup> (تريد زينة الحياة الدنيا) في مرضع الحال (من أغفلنا قلبه) من جعلنا قلبه غافلا <sup>(٢)</sup> عن الذكر بالخذلان <sup>(٣)</sup> . أو وجدناه غافلا عنه ، كقولك : أجبته وأخمته <sup>(٤)</sup> وأبخلته ، إذا وجدته كذلك . أو من أغفل إبله إذا تركها <sup>(٥)</sup> بغير سمة ، أى : لم نسمه بالذكر ولم نجعلهم من الذين كتبنا في قلوبهم الإيمان وقد أبطل الله توهم المجبرة <sup>(٦)</sup> بقوله (واتبع هواه) وقرئ : أغفلنا قلبه ، بإسناد الفعل إلى القلب على معنى : حسبنا قلبه غافلين ، من أغفلته إذا وجدته غافلا (فرطاً) متقدماً للحق والصواب <sup>(٧)</sup> نابذاً له وراء ظهره من قولهم : فرس فرط ، متقدم للخيال .

وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهَا كُلُّ شَيْءٍ كَائِمٍ فِي السَّمَاءِ وَالدُّنْيَا لَهُمْ صُورَةُ أُنثَىٰ وَتُنَادُونَهُنَّ مِنَ الْغُيُوبِ ۚ أُولَٰئِكَ هُنَّ السَّعِيرَاتُ ۖ يَوْمَ يُنْفَخُ الْفُجَاءُ فَتُلَاقِيَهُنَّ أَصْحَابُ الْأَنْجَارِ ۚ يُسْقَوْنَ مِنْهَا حَمِيمًا ۚ عَلَيْهِمْ صُورَةُ إِنَاثٍ ۚ لَهُمْ فِيهَا زُجُجٌ ۚ وَهُمْ لَهُمْ خُيُوتٌ ۚ وَهُمْ يُصَارِفُونَ فِيهَا آلِهَتَهُنَّ الْأُنثَىٰ ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مَقَرٌّ وَمَسْكَنٌ ۖ وَسَاءَ لَمَاقِلِ الْيَوْمِ ۖ

الْوُجُوهَ بِشَسِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ۖ

(١) قوله «وحسن شارتهم» في الصحاح : الشوار والشار : اللباس والحينة . (ع)

(٢) قال محمود : «معناه جعلنا قلبه غافلا عن الذكر ... الخ» قال أحمد : هو يشمر للهرب من الحق ، وهو أن المراد خلقنا له ، وجدير به أن يشمر في اتباع هواه ، فإن حمل «أغفل» على بابه صرفه إلى الخذلان ، وإلا أخرجه بالكناية عن بابه إلى باب أغفل للمصادفة ، ولا يشجرا على تفسير فعل أسنده الله إلى ذاته بالمصادفة إلى تفهيم وجدان الشيء بغتة عن جهل سابق وعدم علم .

(٣) قوله «غافلا عن الذكر بالخذلان» يتحاشى بذلك عن خلق النفلة في قلبه ؛ لأن الله لا يخلق الشر عند الممثلة ، وأهل السنة على خلاف ذلك كما أشار إليه بقوله : توهم المجبرة . ثم إن اتباعه هواه لا ينافي خلق الله النفلة في قلبه ، لجواز أن يكون ذلك ناشئاً عن النفلة . (ع)

(٤) قوله «وكقولك أجبته وأخمته» في الصحاح «أخمت» وجدته مفحماً لا يقول الشعر . (ع)

(٥) عاد كلامه . قال : «ويجوز أن يكون المعنى من أغفل إبله إذا ... الخ» قال أحمد : وهذا التأويل منهرة حاشية ولطافة معنى ، وغرضه منه الخلاص مما قدمناه ، لأنه وإن أتي خلق الله للنفلة في القلب فلا يأتى عدم كتب الإيمان ، وإنما غرضنا التنبيه على أن مقصد الزمخشري الحيد من القاعدة المتقدمة ، والتأويل إنما يصار إليه إذا اعتاص الظاهر وهو عندنا ممكن ، فوجب الاعتصام به ، والله الموفق .

(٦) عاد كلامه . قال : «وقد أبطل الله توهم المجبرة بقوله : واتبع هواه» قال أحمد . قد تقدم في غير ماموضع أن أهل السنة يضيفون فعل العبد إلى الله تعالى من حيث كونه مخلوقاً له ، وإلى العبد من حيث كونه مقرباً بقدرته واختياره ، ولا تنافي بين الإضافتين ، فبراهين السنة تتبعه أينما سلك وأية توجه ، فلا يحصى له عنها بوجه .

(٧) قوله «متقدماً للحق والصواب» أى سابق له ويجاوز له ، وفي الصحاح : أمر فرط ، أى مجاوز فيه الحد . ومنه قوله تعالى (وكان أمره فرطاً) .

﴿وقل الحق من ربكم﴾ الحق خبر مبتدأ محذوف . والمعنى : جاء الحق وزاغت العمل<sup>(١)</sup> فلم يبق إلا اختياركم لأنفسكم ما شئتم من الأخذ في طريق النجاة أو في طريق الهلاك . وجيء بلفظ الامر والتخير ، لأنه لما مكن من اختيار أيهما شاء ، فكأنه يخبر مأمور بأن يتخير ما شاء من النجدين . شبه ما يحيط بهم من النار بالسرادق ، وهو الحجر التي تكون حول الفسطاط ، وبيت مسردق : ذو سرادق وقيل : هو دخان يحيط بالسكفار قبل دخولهم النار . وقيل : حائط من نار يطيف بهم<sup>(٢)</sup> ﴿يغاثوا بماء كالمهل﴾ كقوله :

\* ..... فَأَعْتَبُوا بِالصَّيْلِمْ \*<sup>(٣)</sup>

وفيه تهكم . والمهل : ما أذيب من جواهر الأرض . وقيل : دردى الزيت ﴿يشوى الوجوه﴾ إذا قدم ليشرب انشوى الوجه من حرارته . عن النبي صلى الله عليه وسلم : هو كعكر الزيت<sup>(٤)</sup> ، فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه ﴿بئس الشراب﴾ ذلك ﴿وسامت﴾ النار ﴿مرتفقاً﴾ متكا من المرفق ، وهذا لمشكاة قوله (وحسنت مرتفقاً) وإلا فلا ارتفاق لأهل النار ولا اتكاء ، إلا أن يكون من قوله :

إِنِّي أَرَقْتُ قِمْتُ اللَّيْلِ مُرْتَفَقًا كَأَنَّ عَيْنِي فِيهَا الصَّابُ مَذْبُوحٌ<sup>(٥)</sup>

\* \* \*

إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝<sup>(٦)</sup>  
أُولَٰئِكَ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ

(١) قوله ودأغت الاملء فى الصبح ذراح الشئء بعد وذهب . وأزاحت علته فزاحت . (ع)

(٢) قوله «يطيف بهم» الذى يفيد الصبح : طاف بطوف حول الشئ : دار حوله ، وطاف يطيف بالشئ :

جاءه وألم به ، فتدبر . (ع)

(٣) تقدم شرح هذا القاعد بالجزء الأول ص ١٠٥ فراجع إن شئت اه مصححه .

(٤) أخرجه الترمذى من طريق رشدين بن سعد . عن عمرو بن الحارث عن دواج عن أبى الميم عن أبى سعيد . واستنبره . وقال : لا يعرف إلا من حديث رشدين بن سعد وتمقب قوله : بأن أحمد وأبا يعلى أخرجاه من طريق ابن لهيعة عن دراج ، وبأن ابن حبان والحاكم أخرجاه من طريق ابن وهب عن عمرو بن الحارث .

(٥) لأبى ذؤيب الهذلى . وبرى بدل الشطر الأول : مقام الخلى وبث الليل مشتجراً . والارتفاق : الاتكاء . على المرفق مع نصب الساعد . والاشتجار : وضع اليد تحت الشجر وهو ما بين الحيين والاتكاء عليها ، وهى هيئة المتحزن المتحسر . والأرق : السهر . والصاب : نبت مر كالحنظل . والمذبوح : المشقوق . وهو كناية عن البكاء وانصباب الدموع .

ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكِلِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ  
نَعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرَقَفَاتُكَ (٣١)

(أولئك) خبران و (إنا لانضيغ) اعتراض، ولك أن تجعل (إنا لانضيغ) و (أولئك) خبرين معاً. أو تجعل (أولئك) كلاماً مستأنفاً بيانا للأجر المبهم. فإن قلت: إذا جعلت (إنا لانضيغ) خبراً، فأين الضمير الراجع منه إلى المبتدأ؟ قلت: (من أحسن عملاً) و (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) ينتظمهما معنى واحد، فقام (من أحسن) مقام الضمير. أو أردت: من أحسن عملاً منهم، فكان كقولك: السمن منوان بدرهم. من الأولى للابتداء. والثانية للتبيين. وتشكير (أساور) لإبهام أمرها في الحسن. وجمع بين السندس: وهو مارق من الديباج، وبين الإستربق: وهو الغليظ منه، جمعاً بين النوعين. وخص الانكاء، لأنه هيئة المنعمين والملوك على أسرته.

وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ  
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا (٣٢) كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا  
وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا

أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤)

(واضرب لهم مثلاً رجلين) أي ومثل حال الكافرين والمؤمنين، بحال رجلين وكانا أخوين في بني إسرائيل: أحدهما كافر اسمه قطروس، والآخر مؤمن اسمه يهوذا. وقيل: هما المذكوران في سورة والصافات في قوله (قال قائل منهم إني كان لي قرين) ورثا من أبيهما ثمانية آلاف دينار، فتشاطرهما. فاشتري الكافر أرضاً بألف، فقال المؤمن: اللهم إن أخى اشتري أرضاً بألف دينار، وأنا أشتري منك أرضاً في الجنة بألف، فتصدق به. ثم بنى أخوه داراً بألف، فقال: اللهم إني أشتري منك داراً في الجنة بألف فتصدق به. ثم تزوج أخوه امرأة بألف، فقال: اللهم إني جعلت ألفاً صداقاً للحرور. ثم اشتري أخوه خدماً ومتاعاً بألف، فقال: اللهم إني اشتريت منك الولدان المخلدين بألف، فتصدق به ثم أصابته حاجة، فجلس لأخيه على طريقه فتر به في حشمة، فتعرض له، فطرده ووجهه على التصديق بماله. وقيل: هما مثل لأخوين من بني مخزوم: مؤمن وهو أبو سلمة عبد الله بن عبد الأشد، وكان زوج أم سلمة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكافر وهو الأسود بن عبد الأشد (جنتين من

أعقاب) بستانين من كروم (وحفظناهما بنخل) وجعلنا النخل محيطاً بالجنتين، وهذا مما يؤثره الدهاقين (١) في كرومهم: أن يجعلوها مؤزرة بالأشجار المشمرة. يقال: حفوه، إذا أطافوا به: وحففته بهم. أى جعلتهم حافين حوله، وهو متعد إلى مفعول واحد، فزيده الباء مفعولاً ثانياً، كقولك: غشيه، وغشيته به (وجعلنا بينهما زرعاً) جعلناهما أرضاً جامعة للأقوات والقواكه. ووصف العماره بأنها متواصلة متشابهة لم يتوسطها ما يقطعها ويفصل بينها، مع الشكل الحسن والترتيب الآتيق، ونعتهما بوفاء الثمار وتمام الأكل من غير نقص، ثم بما وهو أصل الخير ومادته من أمر الشرب فجعله أفضل ما يسقى به، وهو السجج بالنهر الجاري فيها. والأكل: الثمر. وقرئ بضم الكاف (ولم تظلم) ولم تنقص. وآتت: حمل على اللفظ، لأن (كلنا) لفظه لفظ مفرد، ولو قيل: آتا على المعنى، لجاز. وقرئ: وجفونا، على التخفيف. وقرأ عبد الله: كل الجنتين آتى أكله برد الضمير على كل (وكان له ثمر) أى أنواع من المال، من ثمر ماله (٢) إذا كثر. وعن مجاهد: الذهب والفضة، أى: كانت له إلى الجنتين الموصوفتين الأموال الدثرة (٣) من الذهب والفضة وغيرهما، وكان وافر اليسار من كل وجه، متمكناً من عمارة الأرض كيف شاء (وأعز نفراً) يعنى أنصاراً وحشياً. وقيل: أولاداً ذكوراً، لأنهم ينفرون معه دون الإناث. يحاوره: يراجعه الكلام. من حار يحور إذا رجع، وسألته فما أحر كلمة.

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥)

وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَآيِنُ رُدِّدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)

يعنى قطروس أخذ بيد أخيه المسلم يطوف به في الجنتين ويريه ما فيها ويعجبه منها ويفاخره بما ملك من المال دونه. فإن قلت: فلم أفرد الجنة بعد التثنية؟ قلت: معناه ودخل ما هو جنته ماله الجنة غيرها، يعنى أنه لا نصيب له في الجنة التي وعد المؤمنين، فما ملكه في الدنيا هو جنته لا غير، ولم يقصد الجنتين ولا واحدة منهما (وهو ظالم لنفسه) وهو معجب بما أوتى مفتخر به كافر لنعمة ربه، معرض بذلك نفسه لسخط الله، وهو أخش الظلم. إخباره عن نفسه

(١) قوله «الدهاقين» واحد دهقان. (ع)

(٢) قوله «من ثمر ماله» الذى فى الصحاح: أن الثمر جمع ثمار، ككتب وكتاب. وأن الثمر أيضاً: المال المشمر، ويحفظ ويقتل. وأثر الرجل: إذا كثر ماله، وثمر الله ماله، أى: كثره. وبارة الحازن: وكان له ثمر. قرئ بالفتح جمع ثمرة، وقرئ بالضم وهو الأموال الكثيرة المنشرة من كل صنف من الذهب والفضة وغيرهما. وفى النسق: له ثمر، وأحيط بثمره بفتح الميم والثاء، وبضم الثاء وسكون الميم، وبضمهما. (ع)

(٣) قوله «الأموال الدثرة» الكثيرة. أفاده الصحاح. (ع)

بالشك في يمدودة جنته : لطول أمله واستيلا الحرص عليه وتمادى غفلته واغتراره بالمهلة وإطراحه النظر في عواقب أمثاله . وترى أكثر الأغنياء من المسلمين وإن لم يطلقوا بنحو هذا ألسنتهم ، فإن السنة أحوالهم ناطقة به منادية عليه ﴿ ولئن رددت إلى ربي ﴾ إقسام منه على أنه إن رد إلى ربه على سبيل الغرض والتقدير وكما يزعم صاحبه ؟ ليجدن في الآخرة خيرا من جنته في الدنيا ، تطمعا وتمنياً على الله ، وادعاء لكرامته عليه ومكاته عنده ، وأنه ما أولاه الجنة إلا لاستحقاقه واستئماله ، وأن معه هذا الاستحقاق أينما توجه ، كقوله (إن لي عنده للحسنى) ، (لأوتين ما لا وولدا) . وقرئ : خيرا منهما ، رداً على الجنة (منقلبا) مرجعاً وعاقبة . وانتصاه على التميز ، أى : منقلب تلك ، خير من منقلب هذه ، لأنها فانية وتلك باقية .

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفْطَةٍ  
ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾

﴿ خلقك من تراب ﴾ أى خلق أصلك ، لأن خلق أصله سبب في خلقه ، فكان خلقه خلقاً له ﴿ سواك ﴾ عدلك وملكك إنساناً ذكراً بالغاً مبلغ الرجال . جعله كافراً بالله جاحداً لأنعمه لشكه في البعث ، كما يكون المكذب بالرسول صلى الله عليه وسلم كافراً

لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾

﴿ لكن هو الله ربى ﴾ أصله لكن أنا ، لحذفت الهمزة وألقيت حركتها على نون لكن ، فتلاقت النونان فكان الإدغام . ونحوه قول القائل :

وَتَرَمِيَنِي بِالطَّرْفِ أَيْ أَنْتَ مُذْنِبٌ وَتَقْلِبُنِي لَكِنِّ إِيَّاكَ لَا أَقْلِي <sup>(١)</sup>  
أى : لكن أنا لا أقليك وهو ضمير الشأن ، والشأن الله ربى ، والجملة خبر أنا ، والراجع منها إليه ياء الضمير . وقرأ ابن عامر بإثبات ألف أنا فى الوصل والوقف جميعاً ، وحسن ذلك وقوع الألف عوضاً من حذف الهمزة . وغيره لا يثبتها إلا فى الوقف . وعن أبي عمرو أنه وقف بالهاء :

(١) يقول : وترميتني بإعجوبة بطرفك ، أى : نصبرين إلى به . فالرمى : استعارة مصرحة ، لأنه شبه إطلاق البصر بإطلاق الحجر . ويجوز أن الباء للالة ، فالرمى محذوف فمره بقوله : أى أنت مذنب ، فأى تفسيرية ، يعنى أن مارته به هو ادعاؤها أنه مذنب . وقلاء يقلبه ، وقليه يقلاه . وقد يقال : قلاء يقلاه بمعنى بغضه أشد البغض ، ولكن أصله : ولكن أنا ، فنقلت حركة الهمزة إلى النون ثم حذفت ، ثم أدغمت النون فى النون بعدما ، وحذفت الألف الأخيرة فى الرسم كاللفظ . ولو أجرى الوصل مجرى الوقف لثبت ، وقدم المقول وهو إياك ، للاهتمام ببراءتها من قلاء وتخصيصها بذلك دون غيرها من النساء .



لكنه . وقرئ : لكن هو الله ربى ، بسكون النون وطرح أنا . وقرأ أبى بن كعب : لكن أنا على الأصل . وفى قراءة عبد الله : لكن أنا لا إله إلا هو ربى . فإن قلت : هو استدراك لماذا ؟ قلت : لقوله ( أ كفرت ) قال لأخيه : أنت كافر بالله ، لكنى مؤمن موحد ، كما تقول : زيد غائب ، لكن عمرا حاضر .

وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَ  
مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُوَفِّيَنَّ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ  
عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاءً غَورًا فَلَن  
تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

﴿ ماشاء الله ﴾ يجوز أن تكون (ما) موصولة مرفوعة المحل على أنها خبر مبتدأ محذوف تقديره : الأمر ماشاء الله . أو شرطية منصوبة الموضع والجزاء محذوف ، بمعنى : أى شئ شاء الله كان . ونظيرها فى حذف الجواب (لو) فى قوله ﴿ ولو أن قرأنا سيرت به الجبال ﴾ والمعنى : هلا قلت عند دخولها والنظر إلى ما رزقك الله منها الأمر ماشاء الله ، اعترافا بأنها وكل خير فيها إنما حصل بمشيئة الله وفضله ، وأن أمرها بيده : إن شاء تركها عامرة وإن شاء خربها ، وقلت ﴿ لا قوة إلا بالله ﴾ إقراراً بأن ما قويت به على عمارتها وتدمير أمرها إنما هو بمعونته وتأيدته ، إذ لا يقوى أحد فى بدنه ولا فى ملك يده إلا بالله تعالى . وعن عروة بن الزبير أنه كان يثلم حائطه أيام الرطب ، فيدخل من شاء . وكان إذا دخله ردده هذه الآية حتى يخرج . من قرأ ﴿ أ قل ﴾ بالنصب فقد جعل أنا فصلا ، ومن رفع جعله مبتدأ وأقل خبره ، والجملة مفعولا ثانياً لترى . وفى قوله ﴿ وولدا ﴾ نصرة لمن فسر النفر بالأولاد فى قوله ( وأعز نفرا ) والمعنى : إن ترى أفقر منك فأنا أتوقع من صنع الله أن يقلب ما بيني وما بينك من الفقر والغنى ، فيرزقني لإيمانى الجنة ( خيرا من جنتك ) ويسلبك لكفرتك نعمته ويخرب بستانك . والحسبان : مصدر كالغفران والبطلان ، بمعنى الحساب ، أى : مقدارا قدره الله وحسبه ، وهو الحكم بتخريبها وقال الزجاج : عذاب حسبان ، وذلك الحسبان حساب ما كسبت يداك . وقيل حسباناً مرأى الواحدة حسبانة وهى الصواعق ﴿ صعيدا زلقا ﴾ أرضاً بيضاء يزلق عليها ملائمتها زلقا . و ( غورا ) كلاهما وصف بالمصدر .

وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَىٰ مَا أَتَقَقَّ فِيهَا وَيَمْسِي خَاوِيَةً عَلَىٰ عُرُوشِهَا

وَقَوْلُ يَسْلِمَنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ٤٢ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ

دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ٤٣

(وأحيط) به عبارة عن إهلاكه . وأصله من أحاط به العدو ؛ لأنه إذا أحاط به فقد ملكه واستولى عليه ، ثم استعمل في كل إهلاك . ومنه قوله تعالى (إلا أن يحاط بكم) ومثله قولهم : أتى عليه ، إذا أهلكه ، من أتى عليهم العدو : إذا جاءهم مستعلاً عليهم . وتقلب الكفين : كناية عن الندم والتحسر ، لأن النادم يقلب كفيه ظهراً لبطن ، كما تنى عن ذلك بعض الكف والسقوط في اليد ، ولأنه في معنى الندم عدى تعديته بعلى ، كأنه قيل : فأصبح يندم (على ما أنفق فيها) أى أنفق في عمارتها (وهي خاوية على عروشها) يعنى أن كرومها المعرشة سقطت عروشها على الأرض ، وسقطت فوقها الكروم . قيل : أرسل الله عليها ناراً فأكلتها (يأليتي) تذكر موعظة أخيه فعلم أنه أتى من جهة شركه وطغيانه ، فتمنى لو لم يكن مشركاً حتى لا يهلك الله بستانه . ويجوز أن يكون توبة من الشرك ، وندما على ما كان منه ، ودخولا في الإيمان . وقوى : (ولم يكن) بالياء والتاء ، وحمل (ينصرونه) على المعنى دون اللفظ ، كقوله (فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة برونهم) . فإن قلت : ما معنى قوله (ينصرونه من دون الله) ؟ قلت : معناه بقدرهم على نصرته من دون الله ، أى : هو وحده القادر على نصرته لا يقدر أحد غيره أن ينصره إلا أنه لم ينصره لصارف وهو استيجا به أن يخذل (وما كان منتصراً) وما كان ممتعاً بقوته عن انتقام الله .

هَذَا لَكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ٤٤

(الولاية) بالفتح النصر والتولى ، وبالكسر السلطان والملك ، وقد قرئ بهما . والمعنى هنالك ، أى : في ذلك المقام وتلك الحال النصر لله وحده ، لا يملكها غيره ، ولا يستطيعها أحد سواه ، تقريراً لقوله (ولم يكن له فئة ينصرونه من دون الله) أو : هنالك السلطان والملك لله لا يغلب ولا يمتنع منه . أو في مثل تلك الحال الشديدة يتولى الله ويؤمن به كل مضطر . يعنى أن قوله (يأليتي لم أشرك بربى أحداً) كلمة ألجئ إليها فقلها جزعاً بما دهاه من شؤم كفره ، ولولا ذلك لم يقلها . ويجوز أن يكون المعنى : هنالك الولاية لله ينصر فيها أولياء المؤمنين على الكفرة وينتقم لهم ، ويشفي صدورهم من أعدائهم ، يعنى : أنه نصر فيما فعل بالكافر أخاه المؤمن ، وصدق قوله (عسى ربي أن يؤتيني خيراً من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء) ويعضده قوله (خير ثواباً وخير عقباً) أى لأولائه . وقيل (هنالك) إشارة إلى الآخرة أى في تلك الدار

الولاية لله ، كقوله ( لمن الملك اليوم ) . وقرئ ( الحق ) بالرفع والجر صفة للولاية والله <sup>(١)</sup> .  
وقرأ عمرو بن عبيد بالنصب على التأكيد ، كقولك : هذا عبد الله الحق لا الباطل ، وهي قراءة  
حسنة فصيحة ، وكان عمرو بن عبيد من أفصح الناس وأنصحهم . وقرئ ( عقبا ) بضم القاف  
وسكونها ، وعقبى على فعلى ، وكلها بمعنى العاقبة .

وَأَخْضِرَ لَهُمْ مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ

فَأَصْبَحَ حَشِيبًا تَذَرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾

( فاختلط به نبات الأرض ) فالتف بسببه وتكاثف حتى خالط بعضه بعضا . وقيل : نجع  
في النبات الماء فاختلط به حتى روى ورف <sup>(٢)</sup> رفيفا ، وكان حق اللفظ على هذا التفسير :  
فاختلط بنبات الأرض . ووجه صحته أن كل مختلطين موصوف كل واحد منهما بصفة صاحبه .  
والهشيم : ماتشم وتحطم ، الواحدة هشيمة . وقرئ : تذرؤه الريح . وعن ابن عباس : تذريره  
الرياح ، من أذرى : شبه حال الدنيا في نضرتها وبهجتها وما يتعقبها من الهلاك والفناء ، بحال النبات  
يكون أخضر وارفا <sup>(٣)</sup> ثم يهيج فتطيره الرياح كأن لم يكن ( وكان الله على كل شيء ) من الإنشاء  
والإفناء ( مقتدرا ) .

الْعَالِ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ

ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلًا ﴿٤٦﴾

( الباقيات الصالحات ) أعمال الخير التي تبقى ثمرتها للإنسان وتغني عنه كل ما تطمح إليه  
نفسه من حظوظ الدنيا . وقيل هي الصلوات الحسن . وقيل : سبحان الله والحمد لله ولا إله  
إلا الله والله أكبر . وعن قتادة : كل ما أريد به وجه الله ( خير ثوابا ) أى ما يتعلق بها من

(١) قال محمود : « قرئ بالرفع والجر صفة للولاية والله تعالى ... الخ » قال أحمد : وقد تقدم الإنكار عليه  
في مثل هذا القول فإنه يوم أن القراءات موكولة إلى رأى القضاة واجتهاد البلغاء ، فتفاوتت في الفصاحة لغاوتهم  
فيها ، وهذا منكر شنيع . والحق : أنه لا يجوز لأحد أن يقرأ إلا بما سمعه فوعاه متصلا بخلق إليه صلى الله عليه  
وسلم منزلا كذلك من السماء ، فلا وقع لفصاحة القصيح ، وإنما هو ناقل كغيره ، ولكن العجشرى لا يفوته  
الثناء على رأس البدعة ومعدن الفتنة ، فإن عمرو بن عبيد أول مصمم على إنكار القدر وهلم جرا إلى سائر البدع  
الاعتزالية ، فمن أنى عليه .

(٢) قوله « ورف رفيفا » في الصحاح : رف لونه رفا ورفيفا : برق وتلاؤلا . وشجر رفيف : إذا تددت  
أوراقه . (ع)

(٣) قوله « بحال النبات يكون أخضر وارفا » في الصحاح : ورف النبات ، أى : اهنز من نضارته ، فهو  
وارف ، أى : ناضر وقاف شديد الخضرة . (ع)

الثواب وما يتعلق بها من الأمل؛ لأن صاحبها يأمل في الدنيا ثواب الله، ويصيبه في الآخرة.

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾  
وَعَرِّضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ

نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾

قرئ: تسير، من سيرت. ونسير، من سیرنا. وتسیر، من سارت، أى: تسير في الجو. أو يذهب بها، بأن تجعل هباء منبثا. وقرئ: وترى الأرض على البناء للمفعول ﴿بارزة﴾ ليس عليها ما يسترها مما كان عليها ﴿وحشرناهم﴾ وجعناهم إلى الموقف. وقرئ: فلم نغادر، بالنون والياء، يقال: غادره وأغدره إذا تركه. ومنه الغدر. ترك الوفاء. والغدير: ما غادره السيل. وشبهت حالهم بحال الجند المعروضين على السلطان ﴿صفا﴾ مصطفين ظاهرين، يرى جماعتهم كما يرى كل واحد لا يحجب أحد أحدا ﴿لقد جئتمونا﴾ أى قلناهم: لقد جئتمونا. وهذا المضمر هو عامل النصب في يوم نسير. ويجوز أن ينصب بإضمار اذكر. والمعنى لقد بعثناكم كما أنشأناكم ﴿أول مرة﴾ وقيل جئتمونا عراة لاشئ معكم كما خلقناكم أولا، كقوله (ولقد جئتمونا فرادى). فإن قلت لم جئهم بحشرناهم ماضيا بعد نسير وترى؟ قلت: للدلالة على أن حشرهم قبل التسيير وقبل البروز، ليعاينوا تلك الأحوال العظام، كأنه قيل: وحشرناهم قبل ذلك ﴿موعدا﴾ وقتا لإنجاز ما وعدتم على السنة الانبياء من البعث والنشور.

وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ إِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا

وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

﴿الكتاب﴾ للجنس وهو صحف الأعمال ﴿يا ويالتنا﴾ ينادون ملكتهم التي ملكوها خاصة من بين الملوكات ﴿صغيرة ولا كبيرة﴾ هنة صغيرة ولا كبيرة، وهى عبارة عن الإحاطة، يعنى: لا يترك شيئا من المعاصي إلا أحصاه، أى: أحصاها كلها كما تقول: ما أعطاني قليلا ولا كثيرا؛ لأن الأشياء إما صغار وإما كبار. ويجوز أن يريد: وإما كان عندهم صغائر وكبائر. وقيل: لم يحتبوا الكبائر فكتبت عليهم الصغائر وهى المناقشة. وعن ابن عباس: الصغيرة التسم، والكبيرة التفهقه. وعن سعيد بن جبیر: الصغيرة المسيس، والكبيرة الزنا. وعن الفضيل: كان إذا قرأها قال: ضجوا والله من الصغائر قبل الكبائر ﴿إلا أحصاها﴾

إلا ضبطها وحصرها (ووجدوا ما عملوا حاضراً) في الصحف عتيداً . أو جزاء ما عملوا (ولا يظلم ربك أحداً) فيكتب عليه ما لم يعمل . أو يزيد في عقاب المستحق ، أو يعذبه بغير جرم ، كما يزعم من ظلم الله (١) في تمذيب أطفال المشركين بذنوب آبائهم .

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَمَنْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝ (٥٠) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ۝ (٥١)

(كان من الجن) كلام مستأنف (١) جار مجرى التعليل بعد استثناء إبليس من الساجدين ، كأن قائلنا قال : ما له لم يسجد ؟ ف قيل : كان من الجن (ففسق عن أمر ربه) والفاء للتسيب أيضاً ، جعل كونه من الجن سبباً في فسقه ؛ لأنه لو كان ملكاً كسائر من سجد لآدم لم يفسق عن أمر الله ، لأن الملائكة معصومون البتة لا يجوز عليهم ما يجوز على الجن والإنس ، كما قال (لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون) وهذا الكلام المعترض نعت من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم . فما أبعد البون بين ما تعمد الله ، وبين قول من ضاده وزعم أنه كان ملكاً ورئيساً على الملائكة ، فعصى ، فلعن ومسح شيطاناً ، ثم وزكه (٣) على ابن عباس . ومعنى (فسق عن أمر ربه) خرج عما أمره به ربه من السجود . قال :

\* فَوَاسِقًا عَنْ قَصْدِهَا جَوَازًا \* (٤)

أو صار فاسقاً كافراً بسبب أمر ربه الذي هو قوله (اسجدوا لآدم) . (أفتتخذونه) الهمزة للإنكار والتعجب ، كأنه قيل : أعقيب ما وجدته تتخذونه (وذريته أولياء من دوني) وتستبدلونهم بي ، بئس البديل من الله إبليس لمن استبدله ، فأطاعه بدل طاعته (ما أشهدتهم) وقرئ : ما أشهدناهم ، يعني : أنكم اتخذتموهم شركاء لي في العبادة ، وإنما كانوا يسكنون شركاء

(١) قوله « كما يزعم من ظلم الله » لعله بالتشديد ، أي : نسب إليه الظلم . (ع)

(٢) قال محمود : « قوله تعالى كان من الجن مستأنف تعليل لقصوره ... الخ » قال أحمد : « والحق معه في هذا الفصل غير أن قوله « تعمد الله تعالى » لفظة لا تزوق ولا تليق ، فان التعمد إنما يوصف به عرقان يفعل في بعض الأحيان خطأ وفي بعضها تعمداً ، فاجتنابها في حق الله تعالى واجب ، والله الموفق .

(٣) قوله « ثم وزكه » أي اتهمه به . (ع)

(٤) مر شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة ١١٩ فراجع إن شئت اه مصبحة .

فيها لو كانوا شركاء في الإلهية ، فنفي مشاركتهم في الإلهية بقوله ( ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ) لا اعتضد بهم في خلقها <sup>(١)</sup> ( ولا خلق أنفسهم ) أى ولا أشهدت بعضهم خلق بعض كقوله ( ولا تقتلوا أنفسكم ) . ( وما كنت متخذ المضلين ) بمعنى وما كنت متخذهم ( عضداً ) أى أعواناً ، فوضع المضلين موضع الضمير ذمّاً لهم بالإضلال ، فإذا لم يكونوا عضداً لى في الخلق ، فما لكم تتخذونهم شركاء لى في العبادة ؟ وقرئ : وما كنت ، بالفتح : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : وما صح لك الاعتضاد بهم ، وما ينبغى لك أن تعز بهم . وقرأ على رضى الله عنه : وما كنت متخذاً المضلين ، بالتنوين على الأصل . وقرأ الحسن : عضداً ، بسكون الضاد ، ونقل ضمها إلى العين . وقرئ : عضداً ، بالفتح وسكون الضاد . وعضداً ، بضمين وعضداً بفتحين : جمع عاضد ، تكادم وخدم ، وراصد ورصد ، من عضده : إذا قواه وأعانه ، وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا <sup>(٢)</sup> وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ

يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا <sup>(٣)</sup>

( يقول ) بالياء والنون . وإضافة الشركاء إليه على زعمهم : تويخاً لهم وأراد الجن . والمربق : المهلك ، من وبق يبق وبوقا ، ووبق يوبق وبقا : إذا هلك . وأوبقه غيره . ويجوز أن يكون مصدراً كال مورد والموعد ، يعنى : وجعلنا بينهم وادياً من أودية جهنم هو مكان الهلاك والعذاب الشديد مشتركاً يهلكون فيه جميعاً . وعن الحسن ( موبقاً ) عداوة . والمعنى : عداوة هى فى شدتها هلاك ، كقوله : لا يسكرن حبك كلفاً ، ولا بغضك تلفاً . وقال الفراء : البين الوصل أى : وجعلنا توأصلهم فى الدنيا هلاكاً يوم القيامة . ويجوز أن يريد الملائكة وعزيراً وعيسى ومريم ، وبالموبق : البرزخ البعيد ، أى : وجعلنا بينهم أمداً بعيداً تهلك فيه الاشواط لفرط بعده : لأنهم فى قعر جهنم وهم فى أعلى الجنان ( فظنوا ) فأيقنوا ( مواقعوها ) مخالطوها واقعون فيها ( مصرفاً ) معدلاً . قال . \* أَزْهَبَ هَلْ عَنْ شَيْبَةٍ مِنْ مَصْرِفٍ \* <sup>(٤)</sup>

(١) قوله لا اعتضد بهم فى خلقها أى لا استعين بهم . (ع)

(٢) أزهر هل عن شية من مصرف أم لا خلود لبازل متكلف

(٣) لأن كبر الهذلى . والمهزة للنداء . وزمير ترخيم زهيرة اسم امرأة . والاستفهام إنكارى ، أى : لا انصراف عن الغيب أولاً مهرب ولا مفر منه . وأم للاضطراب الانتقال والاستفهام الانكارى ، أى : بل لا يبتنى خلود الكريم البازل لما عنده المتكلف غير طاقته فى قرى الضيقان : لأن البذل لا يمنع الخلود كأنها كانت لامته على البذل مع الشيب والمفر ، فأجابها بذلك . وفيه دلالة على غابة الكرم .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾

(أكثر شيء جدلاً) أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل إن فصلتها واحدا بعد واحد، خصومة وممارسة بالباطل. وانتصاب (جدلاً) على التمييز، يعني: أن جدل الإنسان أكثر من جدل كل شيء. ونحوه (فاذا هو خصم مبين)

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ

تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾

(أن) الأولى نصب. والثانية رفع، وقبلها مضاف محذوف تقديره (وما منع الناس) الإيمان والاستغفار (إلا) انتظار (أن تأتيهم سنة الأولين) وهي الإهلاك (أو) انتظار (أن يأتيهم العذاب) يعني عذاب الآخرة (قبلاً) عياناً. وقرئ (قبلاً) أنواعاً: (١) جمع قيل. و(قبلاً) بفتحين: مستقبلاً.

وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا

بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِنَا وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوعًا ﴿٥٦﴾

(ليدحضوا) ليزيلوا ويبطلوا، من إدحاض القدم وهو إزلاقها وإزالتها عن موطنها (وما أنذروا) يجوز أن تكون (ما) موصولة، ويكون الراجع من الصلة محذوفاً، أى: وما أنذروه من العذاب. أو مصدرية بمعنى: وإنذارهم. وقرئ: هزأ، بالسكون، أى: اتخذوها موضع استهزاء. وجدالهم: قولهم للرسول (ما أنتم إلا بشر مثلنا ولو شاء الله لآنزل ملائكة) وما أشبه ذلك.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ

فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

(آيات ربه) بالقرآن، ولذلك رجع إليها الضمير مذكراً في قوله (أن يفقهوه)

(١) قوله (قبلاً) عياناً. وقرئ قبلاً أنواعاً، هذه القراءة بكسر ففتح. والثانية بصمتين، كما يفيد الصراح. (ع)

﴿فأعرض عنها﴾ فلم يتذكر حين ذكر ولم يتدبر ﴿ونسى﴾ عاقبة ﴿ما قدمت يداه﴾ من الكفر والمعاصي ، غير مفكر فيها ولا ناظر في أن المسىء والمحسن لابد لها من جزاء . ثم علل إعراضهم ونسيانهم بأنهم مطبوع على قلوبهم ، وجمع بعد الافراد جملا على لفظ من ومعناه ﴿فلن يهتدوا﴾ فلا يكون منهم اهتداء البتة ، كأنه محال منهم لشدة تصميمهم ﴿أبدا﴾ مدة التكليف كلها . و﴿إذا﴾ جزاء وجواب ، فدل على انتفاء اهتدائهم لدعوة الرسول ، بمعنى أنهم جعلوا ما يجب أن يكون سبب وجود الاهتداء سبباً في انتفائه ، وعلى أنه جواب للرسول على تقدير قوله : مالي لأدعوهم حرصاً على إسلامهم ؟ فقل : وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا .

وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ لَأَعَجَلَ لَكُمْ الْعَذَابَ بَلْ

لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِلًا ۝٥٨

﴿الغفور﴾ البليغ المغفرة ﴿ذو الرحمة﴾ الموصوف بالرحمة ، ثم استشهد على ذلك بترك مؤاخذه أهل مكة عاجلاً من غير إهمال ، مع إفراطهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿بل لهم موعد﴾ وهو يوم بدر ﴿لن يجدوا من دونه موثلاً﴾ منجى ولا ملجأ . يقال : دوال ، إذا نجا ، ودوال إليه ، إذا لجأ إليه .

وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ۝٥٩

﴿وتلك القرى﴾ يريد قرى الأولين من ثمود وقوم لوط وغيرهم : أشار لهم إليها ليعتبروا . (تلك) مبتدأ ، و﴿القرى﴾ صفة : لأن أسماء الإشارة توصف بأسماء الاجناس ، و﴿أهلكناهم﴾ خبر . ويجوز أن يكون (تلك القرى) نصباً بإضمار أهلكنا على شريطة التفسير . والمعنى : وتلك أصحاب القرى أهلكناهم ﴿لما ظلموا﴾ مثل ظلم أهل مكة ﴿وجعلنا لمهلكهم موعداً﴾ وضرربنا لإهلاكهم وقتاً معلوما لا يتأخرون عنه كما ضرربنا لأهل مكة يوم بدر . والمهلك : الإهلاك ووقته . وقرى (لمهلكهم) بفتح الميم ، واللام مفتوحة أو مكسورة ، أى : هلاكهم أو وقت هلاكهم . والموعِد : وقت ، أو مصدر .

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۝٦٠

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلُهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۝٦١

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتَاهُ إِنَّا غَدَاة نَأْتِيَنَّكُمْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۝٦٢



قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْخُوتَ وَمَا أَنَسَيْتُهُ إِلَّا  
الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا  
نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً  
مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

(لفناه) لعبده . وفي الحديث : ليقل أحدكم فتاى وفتاى ، ولا يقل : عبدى <sup>(١)</sup> وأمتى .  
وقيل : هو يوشع ابن نون . وإنما قيل : فناه : لأنه كان يخدمه ويتبعه . وقيل : كان يأخذ منه  
العلم . فإن قلت : (لأبرح) إن كان بمعنى لا أزل - من برح المكان - فقد دل على الإقامة  
لا على السفر . وإن كان بمعنى : لا أزال ، فلا بد من الخبر . قلت : هو بمعنى لا أزال ، وقد حذف  
الخبر ؛ لأن الحال والكلام معاً يدلان عليه . أما الجال فلأنها كانت حال سفر . وأما الكلام  
فلأن قوله (حتى أبلغ مجمع البحرين) غاية مضروبة تستدعى ما هي غاية له ، فلا بد أن يكون  
المعنى : لا أبرح أسير حتى أبلغ مجمع البحرين . ووجه آخر : وهو أن يكون المعنى : لا يبرح مسيرى  
حتى أبلغ ، على أن حتى أبلغ هو الخبر ، فلما حذف المضاف أقيم المضاف إليه مقامه وهو ضمير  
المتكلم ، فانقلب الفعل عن لفظ الغائب إلى لفظ المتكلم ، وهو وجه لطيف . ويجوز أن يكون  
المعنى : لا أبرح ما أنا عليه ، بمعنى : ألزم المسير والطلب ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغ ، كما  
تقول : لا أبرح المكان . ومجمع البحرين : المكان الذى وعد فيه موسى لقاء الخضر عليهما السلام ،  
وهو ملتقى بحرى فارس والروم مما يلي المشرق . وقيل : طنجة . وقيل : أفريقية . ومن بدع  
التفاسير : أن البحرين موسى والخضر ، لأنهما كانا بحرین في العلم . وقرئ (بجمع) بكسر الميم ،  
وهى فى الشذوذ من يفعل ، كالمشرق والمطلع من يفعل (أو أمضى حقبا) أو أسير زمانا طويلا .  
والحقب ثمانون سنة . وروى أنه لما ظهر موسى على مصر مع نبي إسرائيل واستقروا بها بعد  
هلاك الفبط ، أمره الله أن يذكر قومه النعمة ، فقام فيهم خطيباً فذكر نعمة الله وقال : إنه  
اصطفى نبيكم وكله . فقالوا له : قد علمنا هذا ، فأى الناس أعلم ؟ قال : أنا . فغضب الله عليه حين  
لم يرد العلم إلى الله ، فأوحى إليه : بل أعلم منك عبدى عند مجمع البحرين وهو الخضر ، وكان  
الخضر فى أيام أفريدون قبل موسى عليه السلام ، وكان على مقدمة ذى القرنين الأكبر ، وبقى  
إلى أيام موسى . وقيل : إن موسى سأل ربه : أى عبادك أحب إليك ؟ قال الذى يذكرنى ولا  
ينساى . قال : فأى عبادك أقضى ؟ قال : الذى يقضى بالحق ولا يتبع الهوى . قال : فأى عبادك

(١) متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى الله عنه به وأتم منه .

أعلم؟ قال: الذي يتنقى علم الناس إلى عليه، عسى أن يصيب كلمة تدله على هدى، أو ترده عن ردى. فقال: إن كان في عبادك من هو أعلم مني فادلني عليه. قال: أعلم منك الخضر. قال: أين أطلبه؟ قال: على الساحل عند الصخرة. قال: يارب، كيف لي به؟ قال: تأخذ حوتاً في مكث، حيث فقدته فهو هناك. فقال لفتاه: إذا فقدت الحوت فأخبرني، فذهبا يمشيان، فرقد موسى، فاضطرب الحوت ووقع في البحر، فلما جاء وقت الغذاء طلب موسى الحوت، فأخبره فتاه بوقوعه في البحر، فأتيا الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوبه، فسلم عليه موسى، فقال: وأنى بأرضنا السلام، فعزفه نفسه، فقال: ياموسى، أنا على دلم علمي الله لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمك الله لا أعلمه أنا. فلما ركبا السفينة جاء عصفور فوق على حرفها فنقر في الماء فقال الخضر: ما ينقص على وعليك من علم الله مقدار ما أخذ هذا العصفور من البحر (نسباً حوتهما) أى نسباً تفقد أمره وما يكون منه مما جعل أماراً على الظفر بالطلبة. وقيل: نسي يوشع أن يقدمه، ونسى موسى أن يأمره فيه بشيء. وقيل: كان الحوت سمكة مملوكة. وقيل: إن يوشع حمل الحوت والخبز في المكث، فنزلاً ليلة على شاطئ عين تسمى عين الحياة، ونام موسى، فلما أصاب السمكة برد الماء وروحه عاشت. وروى: أنهما أكلتا منها. وقيل: توضع يوشع من تلك العين فانتضج الماء على الحوت فعاش ووقع في الماء (سرباً) أمسك الله جرية الماء على الحوت فصار عليه مثل الطاق، وحصل منه في مثل السرب (١) معجزة لموسى أو للخضر (فلما جاوزا) الموعد وهو الصخرة لنسيان موسى تفقد أمر الحوت وما كان منه. ونسيان يوشع أن يذكر لموسى ما رأى من حياته ووقوعه في البحر. وقيل: سارا بعد مجاوزة الصخرة الليلة والغد إلى الظهر، وألقى على موسى النصب والجوع حين جاوز الموعد، ولم ينصب ولا جامع قبل ذلك، فتذكر الحوت وطلبه. وقوله (من سفرنا هذا) إشارة إلى مسيرهما وراء الصخرة. فإن قلت: كيف نسي يوشع ذلك، ومثله لا ينسى (٢) لكونه أماراً لها على الطلبة التي

(١) قوله دلم علمي الله لا تعلمه أنت، في الصحاح والسرب، بيت في الأرض. تقول منه: انسرب الوحش في سربه، وانسرب الثعلب في جحره. (ع)

(٢) قال محمود: وإن قلت كيف نسي يوشع ذلك ومثله لا ينسى... الخ؟ قال أحد: وقد ورد في الحديث: أن موسى عليه السلام لم ينصب ولم يقل لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً، إلا منذ جاوز الموضع الذي حده الله تعالى له، ففعل الحكمة في إنسائه تعالى ليوشع أن يتيقظ موسى عليه السلام لما حده الله تعالى على المسافر في طاعة وطلب علم، فالتيسر عليه وحل الأعباء عنه، وذلك سنة الله الجارية في حق من سمح له نية في عبادة من العبادات: أن يسرها ويعمل عنه مؤنتها، ويتكفل به ما دام على تلك الحالة، وموقع الإيقاظ أنه وجد بين حالة سفره للموعد وحالة مجاوزته يونانيته، والله أعلم. وإن كان موسى عليه السلام متيقظاً لذلك، فالمطلوب إيقاظ غيره من أمته، بل من أمة محمد عليه الصلاة والسلام إذا قص عليهم القصة، فإورد الله تعالى قصص أنبيائه ليسر بها الناس، ولكن ليسر الخلق لتدبرها واقتباس أنوارها ومنافعها عاجلاً وأجلاً، والله أعلم.

تناهضنا من أجلها ولكونه معجزتين نثنتين : وهما حياة السمكة المملوحة المسأكول منها - وقيل : ما كانت إلا شق سمكة - وقيام الماء وانتصابه مثل الطاق ونفوذها في مثل السرب منه ؟ ثم كيف استمر به النسيان حتى خلفا الموعد وسارا مسيرة ليلة إلى ظهر الغد ، وحتى طلب موسى عليه السلام الحوت ؟ قلت : قد شغله الشيطان بوساوسه فذهب بفكره كل مذهب ، حتى اعتراه النسيان وانضم إلى ذلك أنه ضرى بمشاهدة أمثاله عند موسى عليه السلام من العجائب ، واستأنس بإخوانه فأعان الإلف (٢) على قلة الاهتمام (أرأيت) بمعنى أخبرني . فإن قلت : ما وجه التثام هذا الكلام ؟ فإن كل واحد من (أرأيت) و (إذ أوتينا) و (فإني نسيت الحوت) لا متعلق له ؟ قلت : لما طلب موسى عليه السلام الحوت ، ذكر يوشع مارأى منه وما اعتراه من نسيانه إلى تلك الغاية ، فدهش وطفق يسأل موسى عليه السلام عن سبب ذلك ، كأنه قال : أرأيت ماذا أتينا إلى الصخرة ؟ فإنني نسيت الحوت ، فحذف ذلك . وقيل : هي الصخرة التي دون نهر الزيت . و (أن أذكره) بدل من الهاء في (أنسانيه) أي : وما أنساني ذكره إلا الشيطان . وفي قراءة عبدالله : أن أذكره . و (عجبا) ثاني مفعولي اتخذ ، مثل (سربا) يعني : واتخذ سيده سيلا عجبا ، وهو كونه شبيه السرب . أو قال : عجبا في آخر كلامه ، تعجبا من حاله في رؤية تلك العجبية ونسيانه لها أو مما رأى من المعجزتين ، وقوله (وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره) اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه . وقيل : إن (عجبا) حكاية لتعجب موسى عليه السلام ، وليس بذلك (ذلك) إشارة إلى اتخاذ سيلا ، أي : ذلك الذي كنا نطلب ، لأنه أمانة الظفر بالطلبة من لقاء الخضر عليه السلام . وقرئ (نبغ) بغير ياء في الوصل ، وإثباتها أحسن ، وهي قراءة أبي عمرو ، وأما الوقف ، فالأكثر فيه طرح الياء اتباعا لخط المصحف (فارتدا) فرجعا في أدراجهما (٣) (قصصا) يقصان قصصا ، أي : يتبعان آثارهما اتباعا . أو فارتدا مقتصين (رحمة من عندنا) هي الوحي والنبوة (من لدنا) مما يختص بنا من العلم ، وهو الإخبار عن الغيوب .

قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أُتْبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ۖ (٦٦)

(رشدًا) قرئ بفتحين ، وبضمة وسكون ، أي : علما ذارشد ، أرشد به في ديني . فإن قلت : أما دلت حاجته إلى التعلم من آخر في عهده أنه - كما قيل - موسى بن ميثا ، لا موسى بن عمران

(٢) قوله «وأعان الإلف على قلة الاهتمام» لعل المراد إلف يوشع ، لرؤيته العجائب عند موسى . (ع)

(٣) قوله «فرجعا في أدراجهما» الدرج : الطريق ، والجمع الأدراج . ومنه قولهم : رجعت أدراجي ، أي :

رجعت في الطريق الذي جئت منه ، كذا في الصحاح . (ع)

لأن النبي يجب أن يكون أعلم أهل زمانه وإمامهم المرجوع إليه في أبواب الدين ؟ قلت : لاغضاضة بالنبي في أخذ العلم من نبي مثله : وإنما بغض منه أن يأخذه عن دونه . وعن سعيد ابن جبير أنه قال لابن عباس : إن نوحاً ابن امرأة كعب يزعم أن الخضر ليس بصاحب موسى ، وأن موسى هو موسى بن ميثا ، فقال : كذب عدو الله .<sup>(١)</sup>

قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خَيْرًا ۖ ﴿٦٨﴾

نفي استطاعة الصبر معه على وجه التأكيد ،<sup>(٢)</sup> كأنها بما لا يصح ولا يستقيم ، وعلل ذلك بأنه يتولى أموراً هي في ظاهرها مناكير . والرجل الصالح - فكيف إذا كان نبياً - لا يتألم أن يشمئز ويمتعض ويجزع إذا رأى ذلك ويأخذ في الإنكار . و﴿خبراً﴾ تمييز ، أى : لم يحط به خبرك بمعنى لم تجربه ، فنصبه نصب المصدر .

قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ۖ ﴿٦٩﴾

﴿ولا أعصى﴾ في محل نصب ، عطف على ( صابراً ) أى : ستجدني صابراً وغير عاص . أولاً في محل ، عطفاً على ستجدني . رجا موسى عليه السلام لحرصه على العلم وازدياده ، أن يستطيع معه صبراً بعد إفصاح الخضر عن حقيقة الأمر ، فوعده بالصبر معلقاً بمشيئة الله ، علماً منه بشدة الأمر وصعوبته ، وأن الحمية التي تأخذ المصلح عند مشاهدة الفساد شيء لا يطاق ، هذا مع علمه أن النبي المعصوم الذي أمره الله بالمسافة إليه واتباعه واقتباسه العلم منه ، برى من أن يباشر ما فيه غمضة في الدين ، وأنه لا بد لما يستسمع ظاهره من باطن حسن جميل ، فكيف إذا لم يعلم .

قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ۖ ﴿٧٠﴾

(١) أخرجه ابن إسحاق في المنازي عن الحسن بن عمار عن الحاكم عن سعيد بن جبير بهذا . وساق القصة كلها في الصحيحين بغير هذا اللفظ من رواية عمرو بن دينار عن سعيد .

(٢) قال محمود : « نفي الاستطاعة على وجه التأكيد ... الخ » قال أحد : وما يدل على أن موسى عليه السلام إنما حله على المبادرة بالإنكار الإلتهاب والحمية لاحق : أنه قال حين خرق السفينة : أخرجتها لتفرق أهلها ، ولم يقل لتفرقنا ، فنفى نفسه واشتغل بغيره ، في الحالة التي كل أحد فيها يقول نفسي نفسي ، لا يلوي على مال ولولده ، وتلك حالة الفرق ؛ فسبحان من جبل أنبياء وأصفياء على نصيح الخلق والشفقة عليهم والرأفة بهم ، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

قرئ ﴿فَلَا تَسْتَلْنِي﴾ بالنون الثقيلة ، يعنى : فمن شرط اتباعك لى أنك إذا رأيت منى شيئاً - وقد علمت أنه صحيح إلا أنه غي عليك وجه صحته فحيت <sup>(١)</sup> وأنكرت فى نفسك - أن لا تفتأخنى بالسؤال ولا تراجعنى فيه ، حتى أكون أنا الفاتح عليك . وهذا من آداب المتعلم مع العالم ، والمتبوع مع التابع .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ

جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا <sup>(٧١)</sup> قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا <sup>(٧٢)</sup>

﴿فانطلقا﴾ على ساحل البحر يطلبان السفينة ، فلما ركبا قال أهلها : هما من اللصوص ، وأمرهما بالخروج ، فقال صاحب السفينة : أرى وجوه الأنبياء . وقيل : عرفوا الخضر فحملواهما بغير نول ، فلما لججوا أخذ الخضر الفأس فغرق السفينة بأن قلع لومحين من أواحها مما يلى الماء فجعل موسى يسد الخرق بذيابه ويقول ﴿أخرقتها لتغرق أهلها﴾ وقرئ : لتغرق ، بالتشديد . وليغرق أهلها . من غرق وأهلها مرفوع ﴿جئت شيئاً إمراً﴾ أتيت شيئاً عظيماً ، من أمر الأمر : إذا عظم ، قال :

\* دَاهِيَةٌ دَهْيَاءٌ إِذَا إِمْرًا \* <sup>(٢)</sup>

\*\*\*\*\*

قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا <sup>(٧٣)</sup>

﴿بما نسيت﴾ بالذى نسيت . أو بشئ نسيت ، أو بنسيانى : أراد أنه نسى وصيته ولا مؤاخذه على الناسى . أو أخرج الكلام فى معرض النهى عن المؤاخذه بالنسيان ، يوهمه أنه قد نسى ليبسط عذره فى الإنكار ، وهو من معاريض الكلام التى يتق بها الكذب ، مع التوصل إلى الغرض ، كقول إبراهيم : هذه أختى ، وإنى سقيم . أو أراد بالنسيان : الترك ، أى : لا تؤاخذنى بما تركت من وصيتك أول مرة . يقال : رهقه إذا غشيه ، وأرهقه إياه . أى : ولا تغشنى ﴿عسراً﴾ من أمرى ، وهو اتباعه إياه ، يعنى : ولا تعسر على متابعتك ، ويسرها على بالإغضاء . وترك المناقشة . وقرئ : عسراً ، بضمتين .

(١) قوله «فحيت» فى الصحاح «حيت عليه» بالكسر . غضبت . (ع)

(٢) لقد لقي الأقوام منى أنكرا داهية دهياء إذا إمرا

النكر : المنكر . والداهية : الحادثة المكروهة من شدائد الدهر . والدهياء : مبالغة فى شدتها . والاد : المنكر كل الانكار . والامر : الشئ العظيم . يقال : أمر الشئ . بالكسر - : عظم ، يصف نفسه بهذة الشكاية للأعداء . ويجوز أن الكلام من قيل التجريد .

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا ۖ (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۖ (٧٥)

(فقتله) قيل : كان قتله قتل عنقه . وقيل : ضرب برأسه الحائط ، وعن سعيد بن جبير : أضجمه ثم ذبحه بالسكين . فإن قلت : لم قيل (حتى إذا ركبنا في السفينة خرقتها) بغير فاء ؟ و (حتى إذا لقينا غلاما فقتله) بالفاء ؟ قلت : جعل خرقها جزاء للشرط ، وجعل قتله من جملة الشرط معطوفا عليه ، والجزاء (قال أقتلت) . فإن قلت : فلم خولف بينهما ؟ قلت : لأن خرق السفينة لم يتعقب الركوب ، وقد تعقب القتل لقاء الغلام . وقرئ : زاكية . وزكية . وهي الطاهرة من الذنوب ، إما لأنها طاهرة عنده لأنه لم يرها قد أذنبت ، وإما لأنها صغيرة لم تبلغ الحنث (بغير نفس) يعني لم تقتل نفساً فيقتص منها . وعن ابن عباس أن نجدة الحروري كتب إليه : كيف جاز قتله ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتل الولدان ؟ فكسب إليه : إن علمت من حال الولدان ما علمه عالم موسى فلك أن تقتل <sup>(١)</sup> (نكرا) وقرئ : بضمين وهو المنكر وقيل النكر أقل من الإمر ؛ لأن قتل نفس واحدة أهون من إغراق أهل السفينة . وقيل : معناه جئت شيئا أنكرا من الأول ، لأن ذلك كان خرقا يمكن تداركه بالسد ، وهذا لاسيل إلى تداركه . فإن قلت : مامعنى زيادة (لك) ؟ قلت : زيادة المكافأة بالعتاب على رفض الوصية ، والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية .

قَالَ إِنَّ سَأْلَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ۖ (٧٦)

(بعدها) بعد هذه الكرة أو المسئلة (فلا تصاحبني) فلا تقاربنى ، وإن طلبت صحبتك فلا تتابعني على ذلك . وقرئ (فلا تصحبني) فلا تكن صاحبي . وقرئ (فلا تصحبني) أى فلا تصحبني إياك ولا تجعلني صاحبك (من لدني عذرا) قد أعذرت . وقرئ : لدني ، بتخفيف النون . ولدني ، بسكون الدال وكسر النون ، كقولهم في عضد : عضد . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : رحم الله أخى موسى استحيا فقال <sup>(٢)</sup> ذلك ، وقال : رحمة الله علينا وعلى أخى موسى ، لو لبث

(١) أخرج أبو يعلى نحوه وقال في آخره «وكان لك ذلك» وفي رواية له «فقلت ولكنك لا تعلم» فاجتنهم وأصله في مسلم بغير هذا السياق . وأوله : كتب نجدة بن عامر إلى ابن عباس يسأله عن قتل الولدان - الحديث « وفيه وسألني عن قتل الولدان ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتلهم إلا أن يعلم منهم ما علم صاحب موسى من الغلام الذي قتله .

(٢) أخرجه ابن مردويه من رواية داود بن أبي هند عن عبد الله بن هب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكر القصة . وفيها «رحمة الله علينا وعلى موسى استحيا عند ذلك . فقال (إني سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني - الآية) .

مع صاحبه لا يصر أعجب الاعاجيب (١).

فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتُ لَتَمَخَذْتُ عَلَيْهِ أَجْرًا (٧٧)

(أهل قرية) هي أنطاكية . وقيل : الابل . وهي أبعد أرض الله من السماء (أن يضيفوهما) وقرئ : يضيفوهما . يقال : ضافه إذا كان له ضيفاً . وحقيقته : مال إليه ، من ضاف السهم عن الغرض ، ونظيره : زاره ، من الازورار . وأضافه وضيغه : أنزله وجعله ضيفه . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : كانوا أهل قرية ثلثاً (٢) . وقيل شر القرى التي لا يضاف الضيف فيها ولا يعرف لابن السبيل حقه (يريد أن ينقض) استعيرت الإرادة للمدانة والمشاركة ، كما استعير الهمم والعزم لذلك . قال الراعي :

فِي مَهْمَةٍ فَلَقْتُ بِهِ هَامَاتَهَا فَلَقَ الْفُئُوسِ إِذَا أَرَدَنْ نَصُولًا (٣)

وقال :

بُرِيدُ الرُّمَحِ صَدَرَ أَبِي بَرَاءٍ وَيَعْدِلُ عَنْ دِمَاءِ بَنِي عَقِيلٍ (٤)

وقال حسان :

إِنَّ دَهْرًا يَلِفُ شَمْلِي بِجَمَلٍ لَزَمَانٌ يَهُمُّ بِالْإِحْسَانِ (٥)

(١) أخرجه أبو داود والنسائي وابن جبان . من رواية حمزة الزيات . عن أبي إسحاق عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس عن أبي . في أثناء حديث . وأصله في مسلم .

(٢) أخرجه النسائي من رواية إسرائيل عن ابن إسحاق عن سعيد بن جبيرة عن ابن عباس عن أبي عن النبي صلى الله عليه وسلم ، في قوله (فأبوا أن يضيفوهما) . قال «كانوا أهل قرية ثلثاً» وهو في مسلم باللفظ (فانطلقا حتى أتيا أهل قرية ثلثاً) .

(٣) للراعي يصف الابل بأنها في مهمه : أي مغارة ، فلقط : أي تحركت فيه هاماتها : أي ردوسها . فلق الفئوس : أي كتشرك الفئوس جمع فأس وهي آلة الحفر ، إذا أردن : أي الفئوس ، نصولا : أي قرب منه ، فالارادة مجاز مرسل ، ونصولها : خروج الحديد من المقبض . والنصول في كل شيء : الخروج ، والانصال : الانخراج ، ولقد شبه ردوس الابل مع أعناقها بالفئوس .

(٤) الارادة هنا مجاز عن التوجه . ويحوز أن الاستاد مجاز ، لأن المرید صاحب الرمح . والأوجه أنه شبه الرمح بأنسان على طريق المكينة ، وإستاد الارادة والعدول إليه تخييل ، أي : يريد أن يشرب من صدر أبي براء ، لأن دماء هؤلاء .

(٥) لحسان بن ثابت ، ولفقت الشيء : طويته وأدرجته ، من باب رد . والشميل : المنفرق ، ويطلق على المجتبع من الأمور . وجل : اسم محبوبه . وبروى : بسعدى . يقول : إن الدهر الذي يجمع شملى بحبوى =

وسمعت من يقول : عزم السراج أن يطفأ ، وطلب أن يطفأ . وإذا كان القول والنطق والشكاية والصدق والكذب وال سكوت والتمرد والإباء والعزة والطواعية وغير ذلك مستعارة للجناد ولما لا يعقل ، فما بال الإرادة ؟ قال :

\* إِذَا قَاتَ الْأَنْسَاءُ لِلْبُنِّ الْخَقِ \* (١)

\*\*\*\*

\* تَقُولُ سِنِّي لِلنَّوَةِ طَيِّ

\*\*\*\*

\* لَا يَنْطِقُ اللَّهُ حَتَّى يَنْطِقَ الْعُودُ \* (٢)

\*\*\*\*

\* وَشَكَآ إِلَى بَعْبَرَةٍ وَتَحْمَحُمُ \* (٣)

\*\*\*\*

\* فَإِنْ يَكُ ظَنِّي صَادِقًا وَهُوَ صَادِقُ \* (٤)

== لدهريهم بالاحسان ويريده ، وهم من باب رد أيضا ، أى : دهر يريد الاحسان لا الاساءة كهادة الدهر ، فشبّه الزمان بانسان يصح منه إرادة الاحسان على طريق الممكنية ، والمهم تخييل . ويحتمل أنب إسناده لهم له مجاز عقلى كاستناد اللقب ، وهما فى الحقيقة لله .

(١) تقدم شرح هذا الشاهد بصفحة ١٨١ من الجزء الأول فراجع إن شئت اه مصححه .

(٢) فاستنطق العود قد طال السكوت به لا ينطق الله حتى ينطق العود

لا بى نواس ، شبه صوت العود على وجه الاستقامة والحسن بالنطق بالغناء على طريق التصريحية . أو شبه العود بانسان على طريق الممكنية والنطق تخييل ، والسين والناء للطلب ، والسكوت ترشيح لذلك ؛ لأنه ضد التكلف . والمراد ينطق الله زباده وحسنه ، فهو من باب المشاكلة ، وهل هى حقيقة أو مجاز أو كناية أو قسم رابع ؟ خلاف بين القوم بين فى البيان .

(٣) فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمم

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولكان لو علم الكلام مكلمى

لعنزة بن شداد من مملقته ، يصف فرسه بأنه ازور أى مال من وقوع الرماح بلبانه ، وهو موضع اللب من صدره ، وشبهه بالعافل على طريق الممكنية والشكاية تخييل ، والعبرة : البكاء . والحكمة : صوت الصهيل يشبهه الحنين ، لو كان يعلم ما هى المحاورة والمخاطبة لاشتكى إلى وخاطبني حقيقة ، وإنما يشكو إلى بالعبرة والتحمم فقط .

وفسره بقوله : ولكان مكالمى لو علم الكلام ، وذلك مبالغة فى شدة الحرب .

(٤) لحنى على القوم الذين تجمعوا بذى السيد لم يلقوا عليا ولاعرا

فان يك ظنى صادقا وهو صادق بشملة يحمم بها محبا وعرا

لكنز أم شملة بن برد المقرئ ، وذو السيد - بالكسر - : موضع المعركة ، والسيد : الذئب . وقولها وهو صادق ، اعترض . وبشملة : متعلق بظنى . تقول : ياتلهن على القوم الذين اجتمعوا فى ذلك الموضع ولم يلاهن أحد مدين الفارسين ، فقتلوا بردا أباً شملة . فان يك ظنى به صادقا مع أن عادته يصدنى ، يحمم شملة فى تلك المعركة حبساً ==



(ولما سكت عن موسى الغضب)

\* تَمَرَّدَ مَارِدٌ وَعَزَّ الْأَبْلَقُ \* (١)

ولبعضهم :

يَأْتِي عَلَى أَجْفَانِهِ إِغْفَاءُهُ هَمْ إِذَا أَقْبَادَ الْهُمُومُ تَمَرَّدَا (٢)

\*\*\*\*\*

أَبَتْ الرُّوَادِفُ وَالْثُدَى لِقُمْصِهَا مَسَّ الْبُطُونِ وَأَنَّ تَمَسَّ ظُهُورًا (٣)

(قالتا أتينا طائعين) ولقد بلغني أن بعض المحرفين لكلام الله تعالى من لا يعلم ، كان يجعل الضمير للخصر ؛ لأن ما كان فيه من آفة الجهل وسقم الفهم ، أراه أعلى الكلام طبقة أدناه منزلة ، فتمحل ليرده إلى ما هو عنده أصح وأفصح ، وعنده أن ما كان أبعد من المجاز كان أدخل في الإعجاز . وانقض : إذا أسرع سقوطه ، من انقضااض الطائر وهو يفعل ، مطاوع قضضته . وقيل : افعل

== صعبا فيأخذ ثأر أبيه . ويجوز أن محبسا ظرف بدل من بها . وشبه الظن بمن يصح منه الصدق في الخبر على طريق الكناية ، والهدق تخيل لذلك . أو المعنى : فإن يك ظني مطابقا للواقع .

(١) وقد قالت الربا لحسن سموا لتمررد مارد وعز الأبلق

مارد : هو حصن دومة الجندل . والأبلق : حصن سموا ، قصدتهما الربا ملكة الجزيرة فاستغنيا عليهما ، فقالت ذلك ، وصار يضرب مثلا . وقوله : لحسن سموا ، أى : ولحسن دومة الجندل . تمررد : صار أملس ناعما ، ومردا ومرودة ، إذا كان أملس لا شعر فيه والمكان لا نبات فيه ، أو تمررد بمعنى أشيعن ، وفعل أهله فعل المردة من الجن ، فهو لا يستطيع أحد طلوعه . وعز إن كان مضارعه يضم العين كان متعديا بمعنى غالب ، وإن كان بكمرها كان لازما بمعنى امتنع . والمعنى : أنها لم تقدر على بلوغ مرادها منهما لشجاعة أمهلهما .

(٢) للزخشرى . والهم : ما بهتم به ، وهو فاعل . والإغفاء . النوم الخفيف ، وهو مفعول ، وذلك مجاز عن تسبب الهم في منع النوم . واقبياد الهموم : مجاز عن سكونها ، وتمررد الهم مجاز عن تزايد وكثرة خطوره بالبال . وأوشبه الهموم بحيوانات يصح منها الانقياد والتمرد على طريق المكينة ، والتمرد ضد الانقياد ، وهما تخيل .

(٣) أبَتْ الروادف والثدى لقمصها مَسَّ البطون وأن تمس ظهورا

وإذا الرياح مع العشي تناوحت نهن حاسدة وهجن غيورا

الاباء : المنع الاختياري فبسه الروادف والثدى لكبرها بمن يصح منه ذلك على طريق المكينة والاباء تخيل . والاقرب أنه مجاز مرسل ، والمراد به مطلق المنع ، والكلام بعد ذلك كناية عن نهود ثديها وكبر ردفها وضهور خصريها . وفيه لف وذنر غير مرتب ، لأن مَسَّ البطون يرجع للثدى . ومَسَّ الظهر يرجع للروادف . وعبر بالجمع عن غيره مجازاً . أو اعتدبر الأجزاء ، فالتمرد في مفرد الجمع . والثدى بالتشديد : جمع ثدى بالتخفيف . والقمص : جمع قميص . وتناوح الجبلان . تقابلا ، فالمراد بالتناوح : التقابل ، بحيث يجيى بعض الرياح من أمامها وبعضها من خلفها ، فتظهر روادفها وتظهرها وتلتصق الثياب بخصرها فيظهر ضوؤه ، فتنبه الحاسدة لها ، ويهيج الغيور لكرهه ذلك من الرياح . وماج الشيء : هام ، وماج : هيمه ، وهيج : هيمه . وماهنا من الوسط . ويجوز أنه شبه على طريق المكينة . أو شبه أصواتها اللينة بالتناوح على طريق التصريحية ، ثم جعل ذلك كناية عن تقابلها لأنها إنما يكون لها أصوات إذا تقابلت فاضطربت ، ومع : بمعنى في .

من النقض ، كاحتر من الحرة . وقرئ : أن ينقض من النقض ، وأن ينقاص ، من انقاصت السن إذا انشقت طولاً . قال ذو الرمة :

\* ... .. مِنْقَاصٌ وَمُنْكَشِبٌ \* (١)

بالصاد غير معجمة ( فأقامه ) قيل : أقامه بيده . وقيل : مسحه بيده فقام واستوى . وقيل : أقامه بعمود عمده به . وقيل : نقضه وبناءه . وقيل كان طول الجدار في السماء مائة ذراع ، كانت الحال حال اضطراب وافترار إلى المطعم ، وقد لزمتهما الحاجة إلى آخر كسب المرء وهو المسنة ، فلم يجدوا مواسياً ، فلما أقام الجدار لم يتالك موسى لما رأى من الحرمان ومساس الحاجة أن ( قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً ) وطلبت على عملك جعلاً حتى نتعش ونستدفع به الضرورة وقرئ : لاتخذت ، والتاء في تخذ ، أصل كما في تبع ، واتخذ افعل منه ، كاتبع من تبع ، وليس من الأخذ في شيء .

قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ مَا تُبْئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٧٨)

فإن قلت : ( هذا ) إشارة إلى ماذا ؟ قلت : قد تصور فراق بينهما عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام : إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني ، فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه ، كما تقول : هذا أخوك ، فلا يكون . هذا ، إشارة إلى غير الآخ . ويجوز أن يكون إشارة إلى السؤال الثالث ، أي : هذا الاعتراض سبب الفراق ، والأصل : هذا فراق بيني وبينك . وقد قرأ به ابن أبي عتبة ، فأضيف المصدر إلى الظرف كما يضاف إلى المفعول به .

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ

وَرَأَاهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩)

( لمساكين ) قيل كانت لعشرة إخوة ، خمسة منهم زمني ، وخمسة يعملون في البحر ( ورأاهم ) أمامهم ، كقوله تعالى ( ومن وراءهم برزخ ) وقيل : خلفهم ، وكان طريقهم في رجوعهم عليه وما كان عندهم خبره ، فأعلم الله به الخضر وهو جلندي ، (١) . فإن قلت : قوله ( فأردت أن )

(١)

يفشى الكناس برقيه ويهدمه من هائل الرمل منقاص ومنكشب  
لدى الرمة يصف ثورا وحشيا . والكناس : بيت الوحش . وروقه : قرناه . والمنقاص - كالتخار - : المتساقط من جانب طول الكناس . والمنكشب - بالثنية - : المجتمع . وروى : منقاص ، بالمعجمة . والمعنى واحد ، أي : يحفر الكناس بقرنيه ، ليستتر من المطر ، ويهدمه المتساقط المجتمع من الرمل الرخو الهابل .

(٢) قوله ( وهو جلندي ) : في الحازن : وكان اسمه الجلندي الأزدي ، وكان كافراً . وقيل : كانت اسمه حرد

ابن برد . (ع)

أعياها) مسبب عن خوف الغضب عليها فكان حقه أن يتأخر عن السبب<sup>(١)</sup>، فلم قدم عليه؟ قلت: النية به التأخير، وإنما قدم للعناية، ولأن خوف الغضب ليس هو السبب وحده، ولكن مع كونها للمساكين، فكان بمنزلة قولك: زيد ظني مقيم. وقيل في قراءة أبي وعبد الله: كل سفينة صالحة.

وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۝٨٠

فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ

أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۝٨٢

وقرأ الجحدري: وكان أبواه مؤمنان، على أن كان، فيه ضمير الشأن (خشنا أن يرهما طغيانا وكفرا) غفنا أن يغشي الوالدين المؤمنين طغيانا عليهما، وكفرا لنعمتها بعقوبة وسوء صنيعه، ويلحق بهما شرأ وبلاء، أو يقرن بإيمانها طغيانه وكفره، فيجتمع في بيت واحد مؤمنان وطاغ كافر. أو يعديهما بدائه ويضلعهما بضلاله فيرتد بسببه ويطغيا ويكفرا بعد الإيمان وإنما خشي الخضر منه ذلك؛ لأن الله تعالى أعلمه بحاله وأطلع على سر أمره. وأمره إياه بقتله كاختراعه لمفسدة عرفها في حياته. وفي قراءة أبي: تخاف ربك. والمعنى: فكره ربك كراهة من خاف سوء عاقبة الأمر فغيره. ويجوز أن يكون قوله (خشنا) حكاية لقول الله تعالى، بمعنى: فكرهنا، كقوله (لا هب لك). وقرئ: يبدلها، بالتشديد. والزكاة: الطهارة والنقاء من الذنوب. والرحم: الرحمة والعطف. وروى أنه ولدت لها جارية تزوجها نبي، فولدت نبياً هدى الله على يديه أمة من الأمم. وقيل: ولدت سبعين نبياً. وقيل: أبدلها ابناً مؤمناً مثلها. قيل:

(١) قال محمود: وإن قلت قوله (أردت أن أعياها) مسبب عن خوف الغضب عليها... الخ، قال أحد: وكأنه

جاء السبب في إعياها كونها لمساكين، ثم بين مناسبة هذا السبب للسبب بذكر عادة الملك في غضب السفن، وهذا هو حد الترتيب في التعليل أن يرتب الحكم على السبب ثم يوضح المناسبة فيما بعد، فلا يحتاج إلى جعله مقدماً والثنية تأخيراً، والله أعلم. ولقد تأملت من فصاحة هذه الآي والمخالفة بينها في الأسلوب عجبا. ألا تراه في الأولى أسند الفعل إلى ضميره خاصة بقوله (فأردت أن أعياها) وأسندته في الثانية إلى ضمير الجاعة والمعظم نفسه في قوله (فأردنا أن يبدلها ربهما) و(خشنا أن يرهما) ولعل إسناد الأول إلى نفسه خاصة من باب الأدب مع الله تعالى، لأن المراد ثم عيب، فتأدب ثم نسب الاعابة إلى نفسه. وإما إسناد الثاني إلى الضمير المذكور، فالظاهر أنه من باب قول خواص الملك: أمرنا بكذا، أودرنا كذا، وإنما يمتنع أمر الملك ودر، ويدل على ذلك قوله في الثالثة (أراد ربك أن يبلنا أشدهما) فانظر كيف تغيرت هذه الأساليب ولم تأت على نمط واحد مكرر يمجها السمع ويبو عنها، ثم انطوت هذه المخالفة على رعاية الأسرار المذكورة، فسبحان اللطيف الخبير.

اسما الغلامين : أصرم ، وصريم . والغلام المقتول : اسمه الحسين . واختلف في السكز ، فقيل : مال مدفون من ذهب وفضة <sup>(١)</sup> . وقيل : لوح من ذهب مكتوب فيه : عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن ، وعجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب ، وعجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح ، وعجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل . وعجبت لمن يعرف الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها . لا إله إلا الله محمد رسول الله <sup>(٢)</sup> . وقيل : صحف فيها علم . والظاهر لإطلاقه : أنه مال . وعن قتادة : أحل الكنز لمن قبلنا وحرم علينا ، وحزمت الغنيمة عليهم وأحلنا : أراد قوله تعالى (والذين يكنزون الذهب والفضة) . (وكان أبوهما صالحا) : اتداد بصلاح أبيهما وحفظ لحقه فيهما . وعن جعفر بن محمد الصادق : كان بين الغلامين وبين الأب الذي حفظا فيه سبعة آباء . وعن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال لبعض الخوارج في كلام جرى بينهما بم حفظ الله الغلامين ؟ قال : بصلاح أبيهما . قال : فأبي وجدى خير منه : فقال : قد أنبأنا الله أنكم قوم خصمون (رحمة) مفعول له . أو مصدر منصوب بأراد ربك : لأنه في معنى رحمهما (وما فعلته) وما فعلت ما رأيت (عن أمرى) عن اجتهادى ورأى ، وإنما فعلته بأمر الله .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْقَرْيَتَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا <sup>(٨٣)</sup> إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا <sup>(٨٤)</sup> فَاتَّبَعَ سَبَبًا <sup>(٨٥)</sup> حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَذَا الْقَرْيَتَيْنِ إِمَّا أَنْ نُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا <sup>(٨٦)</sup> قَالَ أُمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا <sup>(٨٧)</sup> وَأُمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءٌ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا <sup>(٨٨)</sup>

(١) أخرجه الترمذى والحاكم والبزار والطبرانى وابن عدى عن طريق مكحول . عن أم الدرداء عن أبي الدرداء وفيه يزيد بن الصنعاني وهو ضعيف  
(٢) أخرجه البزار من رواية ابن حجرية عن أبي ذر مرفوعا بهذا . وأتم منه . وقال لا نعلمه عن أبي ذر إلا بهذا الاسناد . وروى الدارقطنى في غرائب مالك من طريق محمد بن صالح بن فيروز عن مالك عن نافع عن ابن عمر قال : سئل ابن عباس عن الكنز . فذكره . وقال : هذا باطل عن مالك . وروى ابن عدى . من رواية أبيين ابن سفيان والطبرانى في الدعاء . من رواية رشتين بن سعد كلاهما عن أبي حازم عن ابن عباس نحوه وعن علي مثل لفظ المصنف أخرجه البيهقي في الشعب من رواية جوير عن الضحاك عن الثعالبي بن سبرة عنه . وأخرجه ابن مردويه من وجه آخر عن علي مرفوعا . ورواه ابن شاهين في الجنائز . والواحدى من رواية محمد بن مروان السدى الصغير : عن أبيان عن أنس مرفوعا أيضا . وأبان والسدى الصغير متروكان .

ذو القرنين : هو الإسكندر الذي ملك الدنيا . قيل : ملكها مؤمنان : ذو القرنين ، وسليمان وكافران : نمرود ، وبختنصر<sup>(١)</sup> ، وكان بعد نمرود . واختلف فيه فقيل : كان عبداً صالحاً ملكه الله الأرض ، وأعطاه العلم والحكمة ، وألبسه الهيبة وسخر له النور والظلمة ، فإذا سرى يهديه النور من أمامه وتحوطه الظلمة من ورائه . وقيل : نبيا . وقيل : ملكاً من الملائكة . وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقول : يا ذا القرنين ، فقال : اللهم غفر أمارضيتم أن تتسموا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة . وعن علي رضي الله عنه . سخر له السحاب ، ومدت له الأسباب ، وبسط له النور وسئل عنه فقال ، أحبه الله فأحبه . وسأله ابن السكوا : ماذا القرنين ؟ أملك أم نبي ؟ فقال : ليس بملك ولا نبي ، واسكن كان عبداً صالحاً ، ضرب على قرنه الأيمن في طاعة الله فمات ، ثم بعثه الله فضرب على قرنه الأيسر فمات ، فبعثه الله فسمى ذا القرنين وفيكم مثله . قيل : كان يدعوهم إلى التوحيد فيقتلونه فيحبيه الله تعالى . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : سمى ذا القرنين لأنه طاف قرني الدنيا<sup>(٢)</sup> يعني جانبها شرقها وغربها . وقيل : كان له قرنان ، أي ضفيريان . وقيل : انقرض في وقته قرنان من الناس . وعن وهب : لأنه ملك الروم وفارس . وروى : الروم والترك . وعنه كانت صفحتا رأسه من نحاس . وقيل كان لتاجه قرنان . وقيل : كان على رأسه ما يشبه القرنين . ويجوز أن يلقب بذلك لشجاعته كما يسمى الشجاع كبشاً لأنه ينطح أقرانه ، وكان من الروم ولد عجوز ليس لها ولد غيره . والسائلون : هم اليهود سألوه على جهة الامتحان . وقيل : سأله أبو جهل وأشياعه ، والخطاب في ﴿عليكم﴾ لأحد الفريقين ﴿من كل شيء﴾ أي من أسباب كل شيء . أراد من أغراضه ومقاصده في ملكه ﴿سبياً﴾ طريقاً موصلاً إليه ، والسبب ما يتوصل به إلى المقصود من علمه أو قدرة أو آلة ، فأراد بلوغ المغرب ﴿فاتبع سبياً﴾ يوصله إليه حتى بلغ ، وكذلك أراد المشرق ، فاتبع سبياً ، وأراد بلوغ السدين فاتبع سبياً . وقرئ : فاتبع . قرئ : حمته ، من حمى البئر إذا صار فيها الحماة . وحامية بمعنى حارة . وعن أبي ذر : كنت رديف رسول الله صلى الله عليه وسلم على جمل ، فرأى الشمس حين غابت فقال . «يا أباذر ، أتدرى أين تغرب هذه ؟ فقلت : الله ورسوله أعلم<sup>(٣)</sup> . قال : فإنها تغرب في عين حامية ، وهي قرارة ابن مسعود وطلحة

(١) أخرجه ابن أبي شيبة من طريق مجاهد . قال «لم يملك الأرض كلها إلا أربعة : مؤمنان ، وكافران فذكرهم .

(٢) لم أجد مرفوعاً وإنما رواه الدارقطني في المؤلفات . من رواية عبد العزيز بن عمران . عن سليمان بن أسيد عن الزهري قال : إنما سمى ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها .

(٣) كذا في نسخ الكشاف على جمل . والذي في كتب الحديث «على حمار» ولم يصرح فيه بالارداف . عن أبي داود والحاكم من طريق الحكم بن عيينة عن إبراهيم التيمي عن أبيه . عن أبي ذر رضي الله عنه قال «كنت مع

وابن عمر وابن عمرو والحسن . وقرأ ابن عباس : حنة . وكان ابن عباس عند معاوية : فقرأ معاوية : حامية فقال ابن عباس : حنة . فقال معاوية لعبد الله بن عمرو : كيف تقرأ ؟ قال : كما يقرأ أمير المؤمنين ثم وجه إلى كعب الأحبار . كيف تجد الشمس تغرب ؟ قال : في ماء وطين ، كذلك نجده في التوراة . وروى : في ثأط ، فوافق قول ابن عباس ، وكان ثمة رجل فأنشد قول تبع .

فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ مَا بَهَا فِي عَيْنِ ذِي حُلْبٍ وَثَأطٍ حَرَمِدٍ <sup>(١)</sup>

أى في عين ماء ذى طين وحامٍ أسود ، ولا تنافى بين الحنة والحامية ، فجاز أن تكون العين جامعة للوصفين جميعاً . كانوا أكفرة بخيره الله بين أن يعذبهم بالقتل وأن يدعوهم إلى الإسلام ، فاختار الدعوة والاجتهاد في استمالتهم فقال : أئمان من دعوته فأبى إلا البقاء على الظلم العظيم الذى هو الشرك : فذلك هو المعذب في الدارين (وأئمان آمن وعمل) ما يقتضيه الإيمان (فله جزاء الحسن) وقيل : خيره بين القتل والأسر ، وسماه إحساناً في مقابلة القتل (فله جزاء الحسن) فله أن يجازى المثوبة الحسن . أو فله جزاء الفعل الحسن الذى هو كلمة الشهادة . وقرئ : فله جزاء الحسن ، أى : فله الفعل الحسن جزاء . وعن قتادة : كان يطبخ من كفر في القدور ،

رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على حمار . والشمس عند غروبها فقال : هل تدري أين تغرب هذه ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال فانها تغرب في عين حامية . زاد الحاكم غير مهموزة . ورواه ابن أبي شيبة . وأحمد وأبو يعلى والبرز وزاد وتطلق حتى تخر لربها ساجدة تحت العرش ، فإذا كان خروجها أذن الله لها وإذا أراد الله أن يطلعها من مغربها حبسها ، فيقول . اطلعى من حيث غربت . فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها . وقال تفرد به سفيان بن حسين عن الحاكم . ورواه الجماعة عن إبراهيم التيمي . وهو في الصحيحين دون قوله «تغرب في عين حامية» وأوله «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم جالسا الحديث» .

(١) قد كان ذو القرنين جدى مسلماً ملكاً تدب له الملوك وتسجد  
بلغ المغارب والمشارق بيتنى أسباب أمر من حكيم مرشد  
فرأى مغارب الشمس عند ما بها في عين ذى حلب وثأط حرمد

لتبع الأكبر الجاني المذكور في القرآن ، يفتخر بجمده اسکندر ذو القرنين ابن فيلسوف اليوناني . وروى : مر ، بدل جدى . وتدين أى تنقاد . وروى بدله : «علا في الأرض غير مغتد» أى غير مكذب ، فلا عيب في الغافية والخلب - بضم تين - : الحاة وهي الطين . والثأط : الحاة المختلطة بالماء ، فتزيد رطوبة وتفسد . والحرمد : الطين الأسود . مدح ذا القرنين ثم قال : إنه بلغ مواضع غروب الشمس ومواضع شروقها ، بيتنى من الله أسباباً توصله لمقصده ، فرأى على غيار الشمس عند ما بها ، أى رجوعها إليه . وروى مآب الشمس عند مغيبها : أى غيوبتها . وفي عين : متعلق بنفار . أو بمعدوف ، أى : رأها تغرب في عين . ويجوز أنه حال من المغار : لأن العين أوسع منه ، أى في عين ماء ذى طين أسود مختلط بماء ، وهذا موافق لظاهر الآية . وأولها أبوعلی الجبائي بأن ذلك على سبيل التخييل ، كما أن من لم ير الشاطئ الغربي من البحر المتسع يرى الشمس تغرب فيه ، وفي الحقيقة تغرب في ظلمة وراء الأيض ، لأن الأرض كروية .

وهو العذاب النكر . ومن آمن أعطاء وكساء (من أمرنا يسرا) أى لا تأمره بالصعب الشاق ، ولكن بالسهل المتيسر من الزكاة والخراج وغير ذلك ، وتقديره : ذا يسر ، كقوله (قولاً ميسوراً) وقرئ : يسراً ، بضمين .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيًّا ٨٩ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ٩٠ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ٩١

وقرئ : مطلع ، بفتح اللام وهو مصدر . والمعنى : بلغ مكان مطلع الشمس ، كقوله :

\* كَانَ مَجْرَ الرِّامِسَاتِ ذُيُومًا \* (٩١)

يريد : كان آثار مجر الرامسات (على قوم) قيل : هم النج . والستر : الأبنية ، وعن كعب : أرضهم لا تمسك الأبنية وبها أسراب ، فإذا طلعت الشمس دخلوها . فإذا ارتفع النهار خرجوا إلى معاشهم . وعن بعضهم : خرجت حتى جاوزت الصين ، فسألت عن هؤلاء فقيل : بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة ، فبلغتهم فإذا أحدهم يفرش أذنه ويابس الأخرى ، ومعنى صاحب يعرف لسانهم فقالوا له : جئنا ننظر كيف تطلع الشمس ؟ قال : فيينا نحن كذلك إذ سمعنا كهية الصلصلة (١) فغشى على . ثم أفقت وهم يمسحونني بالدهن ، فلما طلعت الشمس على الماء إذا هي فوق الماء كهية الزيت ، فأدخلونا سرباً لهم ، فلما ارتفع النهار خرجوا إلى البحر فجعلوا يصطادون السمك ويطرحونه في الشمس فينضج لهم . وقيل : الستر اللباس . وعن مجاهد : من لا يلبس الثياب من السودان عند مطلع الشمس أكثر من جميع أهل الأرض (كذلك) أى أمر ذى القرنين كذلك ، أى كما وصفناه تعظيماً لأمره (وقد أحطنا بما لديه) من الجنود والآلات وأسباب الملك (خبراً) تكثيراً لذلك . وقيل : لم نجعل لهم من دونها سترًا مثل ذلك الستر الذى جعلنا لكم من الجبال والحصون والأبنية والأكنان من كل جنس ، والثياب من

(١) كَانَ مَجْرَ الرِّامِسَاتِ ذُيُومًا عليه قضيم نفضته الصوانع

النائفة ، والمجر ليس مكان الجر ، وإنما هو مصدر بمعنى الجر ، لأنه لو كان اسم مكان لما حمل النصب ، ثم يجب تقدير مضاف ليصح الاخبار عنه بأنه قضيم أى موضع مجر ، أى كان المحل الذى تجر الرياح الرامسات ذُيُومًا عليه قضيم ، أى جلد أيضاً نفضته وحسنته الصوانع للكتابة . وسميت الرياح رامسات من الرمس أى التفتيح ؛ لأنها تحمل التراب وتلقيه على الآثار فيدفعها . واستعار الذبول لما على الأرض من الرياح على طريق التصريح . ويجوز أن تقيه الرياح بنساء لثياجن ذيول طويلة يجررنها على الأرض ، والذبول تخيل .

(٢) قوله «إذ سمعنا كهية الصلصلة» فى الصحاح «الصلة» واحدة الصلال ، وهى القطع من الأمطار المنفردة يقع منها الشئ بعد الشئ ، و صلصلة اللجام : صوته إذا ضوَعَف . (ع)

كل صنف . وقيل : بلغ مطلع الشمس مثل ذلك ، أى : كما بلغ مغربها . وقيل : تطلع على قوم مثل ذلك القبيل الذى تغرب عليهم ، يعنى أنهم كفرة مثلهم وحكمهم مثل حكمهم فى تعذيبه لمن بقى منهم على الكفر ، وإحسانه إلى من آمن منهم .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبِيلًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا

لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾

( بين السدين ) بين الجبلين وهما جبلان سد ذو القرنين ما بينهما . قرئ : بالضم والفتح . وقيل : ما كان من خلق الله تعالى فهو مضموم ، وما كان من عمل العباد فهو مفتوح : لأن السد بالضم فعل بمعنى مفعول ، أى : هو ما فعله الله تعالى وخلق . والسد - بالفتح - : مصدر حدث يحدثه الناس . وانتصب ( بين ) على أنه مفعول به مبلوغ ، كما انجز على الإضافة فى قوله ( هذا فراق بينى وبينك ) وكما ارتفع فى قوله ( لقد تقطع بينكم ) لأنه من الظروف التى تستعمل أسماء وظروفا ، وهذا المكان فى منقطع أرض الترك بما بلى المشرق ( من دونهما قوما ) هم الترك ( لا يكادون يفقهون قولا ) لا يكادون يفهمونه إلا بجهد ومشقة من إشارة ونحوها كما يفهم البكم . وقرئ : يفقهون ، أى : لا يفهمون السامع كلامهم ولا يبينونه ، لأن لغتهم غريبة مجهولة .

قَالُوا يَا بَنِيَّ الْفَرَسَيْنِ إِنَّا يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ

خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾

( يا جوج ومأجوج ) اسمان أعجميان بدليل منع الصرف . وقرئنا : مهموزين . وقرأ رؤية : أجوج ومأجوج ، وهما من ولد يافث . وقيل : يا جوج من الترك ، ومأجوج من الجبل والدليم <sup>(١)</sup> ( مفسدون فى الأرض ) قيل : كانوا يأكلون الناس ، وقيل : كانوا يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئاً أنقضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه ، وكانوا يلقون منهم قتلاً وأذى شديداً . وعن النبى صلى الله عليه وسلم فى صفقتهم : لا يموت أحد منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه ، كلهم قد حمل السلاح <sup>(٢)</sup> . وقيل : هم على صنفين ، طوال مفرطو الطول ،

(١) قوله « من الجبل والدليم » كذا عبارة النسفى أيضاً ، ولعله « من جبل الدليم » فى الصحاح : جبل من

الناس ، أى : صنف ، الترك جبل ، والروم جبل . وفيه : الدليم جبل من الناس . ( ع )

(٢) أخرجه ابن عدى . والطبرانى فى الأوسط وابن مردويه . وأتبعه وغيرهم من رواية يحيى بن سعيد عن

محمد بن إسحاق عن الأعمش ، عن شقيق . عن حذيفة قال سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج

فقال : يأجوج أمة . ومأجوج أمة . كل أمة أربعة آلاف لا يموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه =



وقصار مفرطو القصر . قرى : خرجا وخراجا ، أى جعلنا نخرجه من أموالنا : ونظيرهما : النول والنوال . وقرى : سدا ، وسدا بالفتح والضم .

قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ۝٩٥  
عَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَيْتُ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا  
قَالَ عَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ۝٩٦ فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَصْطَرُوهُ وَمَا  
اسْتَطَعُوا لَهُ نَقْبًا ۝٩٧

( ما مكنى فيه ربي خير ) ما جعلنى فيه مكيئا من كثرة المال واليسار ، خير مما تبذلون لى من الخراج ، فلا حاجة لى إليه ، كما قال سليمان صلوات الله عليه ( فما آتانى الله خير مما آتاكم ) قرى : بالإدغام وبفك ( فأعينونى بقوة ) بفعله وصناع يحسنون البناء والعمل ، وبالألات ( ردما ) حاجزا حصينا موثقاً ، والردم أكبر من السد ، من قولهم : ثوب مردم ، رقاع فوق رقاع . قيل : حفر الأساس <sup>(١)</sup> حتى بلغ الماء ، وجعل الأساس من الصخر والنحاس المذاب والبنيان من زبر الحديد ، بينهما الخطب <sup>(٢)</sup> والفحم حتى سد ما بين الجبلين إلى أعلاهما ، ثم وضع المناخير حتى إذا صارت كالنار ، صب النحاس المذاب على الحديد المحمى فاختلط والتصق ببعضه ببعض وصار جبلا صلباً . وقيل : بعد ما بين السدين مائة فرسخ . وقرى : سوى ، وسوى . وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن رجلاً أخبره به فقال : كيف رأيته ؟ قال كالبرد <sup>(٣)</sup> المحبر

كلمهم قد حمل السلاح ، قال ابن عدى : هذا موضوع . ومحمد بن إسحاق هذا ليس هو صاحب المغازى . وإنما هو العكاش وذكره ابن الجوزى فى الموضعات من هذا الوجه فلم يصب فإن له طريقاً أخرى فى صحيح ابن جبان عن ابن مسعود مرفوعاً « إن يأجوج ومأجوج أقل ما يترك أحدهم ألفاً » وفى النسائى عن عمرو بن أوس عن أبيه رفعه ، أن يأجوج ومأجوج يجامعون ماشوا . ولا يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً . وفى المستدرک عن عبد الله ابن عمرو رفعه « إن يأجوج ومأجوج من ولد آدم ولن يموت رجل منهم إلا ترك من ذريته ألفاً فصاعداً »

(١) قوله « قيل حفر الأساس » لعله : للأساس . (ع)

(٢) قوله « بينهما الخطب » لعله : بينهما . (ع)

(٣) أخرجه الطبرى من رواية سعيد بن أبى عروبة عن قتادة . قال « ذكر لنا أن رجلاً قال : يا رسول الله ، قد رأيت سد يأجوج ومأجوج . قال انتم لى قال ، كالبرد المحبر . طريقة سوداء . وطريقة حمراء قال قد رأيته ، ورواه ابن أبى عمر عن سفيان بن عيينة عن سعيد عن قتادة عن رجل من أهل المدينة ، أنه قال للنبى صلى الله عليه وسلم ، رأيت الردم فذكر نحوه ، ورواه الطبرانى فى مسند الشاميين . وابن مردويه عنه من رواية سعيد بن بشر عن قتادة عن رجل عن أبى بكر التقي « أن رجلاً أتى النبى صلى الله عليه وسلم ، فذكر نحوه ، لكن قال . طريقة حمراء من نحاس : وطريقة سوداء من حديد ، وأخرج البزار من وجه آخر عن يوسف بن أبى مریم الحنفى . قال « وبيننا أنا »

طريقة سوداء وطريقة حمراء . قال : قد رأيته ، والصدفان - بفتحيتين - : جانباً الجبلين ، لأنهما يتصادفان أى يتقابلان ، وقرئ : الصدفين ، بضميتين . والصدفين ، بضمّة وسكون . والصدفين ، بفتحّة وضمة . والقطر : النحاس المذاب لأنه يقطر . و﴿قطراً﴾ منصوب بأفرغ . وتقديره : أتونى قطراً أفرغ عليه قطراً ، فحذف الأول لدلالة الثاني عليه . وقرئ : قال اتونى ، أى جيئونى ﴿فما اصطاعوا﴾ بجذف التاء للخفة ؛ لأنّ التاء قريبة المخرج من الطاء . وقرئ : فما اصطاعوا بقلب السين صاداً . وأما من قرأ بادغام التاء فى الطاء ، فلاق بين ساكتين على غير الحذف ﴿أن يظهره﴾ أن يعلوه ، أى : لاحيلة لهم فيه من صعود . لارتفاعه وانملاسه ، ولا نقب اصلابته وثخاتته .

قَالَ هَذَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾  
 ﴿هذا﴾ إشارة إلى السد ، أى : هذا السد نعمة من الله و﴿رحمة﴾ على عباده . أو هذا الإقدار والتمكين من تسويته ﴿فإذا جاء وعد ربى﴾ يعنى فإذا دنا مجئ يوم القيامة وشارف أن يأتى جعل السد ﴿دكاً﴾ أى مذكوكاً مبسوطاً مسوياً بالأرض ، وكل ما انبسط من بعد ارتفاع فقد اندك . ومنه : الجبل الادك : المنبسط السنام . وقرئ : دكاه ، بالمد : أى أرضاً مستوية ﴿وكان وعد ربى حقاً﴾ آخر حكاية قول ذى القرنين .

وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنَفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾  
 ﴿وتركنا﴾ وجعلنا ﴿بعضهم﴾ بعض الخلق ﴿يموج فى بعض﴾ أى يضطربون ويختلطون إنسهم وجنهم حيارى . ويجوز أن يكون الضمير لياجوج ومأجوج ، وأنهم يموجون حين يخرجون مما وراء السد مزدحمين فى البلاد . وروى : يأتون البحر فيشربون ماءه ويأكلون دوابه ، ثم يأكلون الشجر ، ومن ظفروا به ممن لم يتحصن منهم من الناس ، ولا يقدرون أن يأتوا مكة والمدينة وبيت المقدس ، ثم يبعث الله نفخاً فى أوقافهم <sup>(١)</sup> فيدخل فى آذانهم فيموتون .

وَعَرَّضْنَاهُمْ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْمُسُمْ فِي غَطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَأَنُوهَا لَا يَسْتَلِطُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾

== قاعد مع أبى بكره إذ جاء رجل فسلم عليه . فقال له أبو بكره من أنت قال تعلم رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره أنه رأى الردم . فقال له أبو بكره : وأنت هو ؟ قال : نعم . قال : اجلس حدثنا . قال : انطلقت حتى أتيت أرضاً ليس لهم إلا الحديد يملونه . فذكر القصة والحديث . وقال : لا نعلم له رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم غير أبى بكره .

(١) قوله «ثم يبعث الله نفخاً فى أوقافهم» أى دوداً ، أفاده الصحاح . (ع)

(وعرضنا جهنم) وبرزناها لهم فأروها وشاهدوها (عن ذكرى) عن آياتي التي ينظر إليها فأذكر بالتعظيم . أو عن القرآن وتأمل معانيه ونبصرها ، ونحوه (صم بكم عمى) . (وكانوا لا يستطيعون سمعاً) يعني وكانوا صما عنه ، إلا أنه أبلغ : لأن الأصم قد يستطيع السمع إذا صبح به ، وهؤلاء كأنهم أصميت أسماعهم <sup>(١)</sup> فلا استطاعة بهم للسمع .

أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِن دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَتَّخِذُ

جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا <sup>(١٠٢)</sup>

(عبادي من دوني أولياء) هم الملائكة ، يعني : أنهم لا يكونون لهم أولياء ، كما حكي عنهم (سبحانك أنت ولينا من دونهم) . وقرأ ابن مسعود : أظن الذين كفروا . وقراءة على رضى الله عنه أحسب الذين كفروا ، أى : أفكافهم ومحسبهم أن يتخذهم أولياء على الابتداء والخبر . أو على الفعل والفاعل : لأن اسم الفاعل إذا اعتمد على الهمزة ساوى الفعل فى العمل ، كقولك : أقام الزيدان . والمعنى أن ذلك لا يكفيهم ولا ينفعهم عند الله كما حسبوا . وهى قراءة محكمة جيدة . النزول : ما يقام للنزول وهو الضيف ، ونحوه (فبشرهم بعذاب أليم) .

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا <sup>(١٠٣)</sup> الَّذِينَ صَلَّوْا سَعْمَةً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا <sup>(١٠٤)</sup> أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا تُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا <sup>(١٠٥)</sup> ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِنَا هُزُوًا <sup>(١٠٦)</sup>

(ضل سعيهم) ضاع وبطل وهم الرهبان . عن على رضى الله عنه ، كقوله (عاملة ناصبة) وعن مجاهد : أهل الكتاب . وعن على رضى الله عنه : أن ابن الكوا سأله عنهم ؟ فقال : منهم أهل حروراء . وعن أبى سعيد الخدرى : يأتى ناس بأعمال يوم القيامة هى عندهم فى العظم كجبال تهامة ، فإذا وزنوها لم تزن شيئاً (فلا تقيم لهم يوم القيامة وزناً) فزدرى بهم ولا يكون لهم عندنا وزن ومقدار . وقيل : لا يقام لهم ميزان : لأن الميزان إنما يوضع لأهل الحسنات والسيئات من الموحدنين . وقرئ : فلا يقيم ، بالياء . فإن قلت : الذين ضل سعيهم فى أى محل هو ؟ قلت :

(١) قوله : كأنهم أصميت أسماعهم ، فى الصحاح فى مادة صم : أصمه الله فصم . وفى مادة صم بالالف : أصميت الصيد إذا رعبته ففقلته ، فقوله : أصميت ، لعله بمعنى أهلكت بالمرّة بحيث لا يمكن أن تسمع . (ع)

الأوجه أن يكون في محل الرفع ، على : هم الذين ضل سعيهم ؛ لأنه جواب عن السؤال . ويجوز أن يكون نصبا على الذم ، أو جزا على البدل ﴿ جهنم ﴾ عطف ببيان لقوله ( جزاؤهم )<sup>(١)</sup>.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ۖ (١٠٧) خَالِدِينَ

فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨)

الحول : التحول . يقال : حال من مكانه حولا ، كقولك : عادني حبا عودا ، يعني : لا مزيد عليها حتى تنازعهم أنفسهم إلى أجمع لأغراضهم وأمانهم . وهذه غاية الوصف ؛ لأن الإنسان في الدنيا في أى نعيم كان فهو طامع الطرف إلى أرفع منه . ويجوز أن يراد نفي التحول وتأكيد الخلود .

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَتُ

رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩)

المداد : اسم ما تمد به الدواة من الحبر وما يمد به المراج من السليط . ويقال : السداد مداد الأرض . والمعنى : لو كتبت كلمات علم الله وحكمته وكان البحر مدادا لها ، والمراد بالبحر الجنس ﴿ لنفد البحر قبل أن تنفد ﴾ الكلمات ﴿ ولو جئنا ﴾ بمثل البحر مدادا لنفد أيضاً . والكلمات غير نافذة . و﴿ مددا ﴾ تمييز ، كقولك : لى مثله رجلا . والمدد مثل المداد ، وهو ما يمد به . وعن ابن عباس رضى الله عنه : بمثله مدادا . وقرأ الأعرج : مددا . بكسر الميم جمع مدة ، وهى ما يستمده الكاتب فيكتب به . وقرئ : ينفد بالياء . وقيل : قال حي بن أخطب : فى كتابكم (ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا) ثم تقرأون (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) فنزلت ، يعنى : أن ذلك خير كثير ، ولكنه قطرة من بحر كلمات الله .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۖ فَنَ كَانَ يَرْجُوا

لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

﴿ فن كان يرجوا لقاء ربه ﴾ فن كان يؤمل حسن لقاء ربه ، وأن يلقاه لقاء رضا وقبول . وقد فسرنا اللقاء : أو : أفن كان يخاف سوء لقائه . والمراد بالنهى عن الإشراك بالعبادة :

(١) قوله « عطف ببيان لقوله جزاؤهم الحول » كذا فى النسق أيضا ، لكن المتجه أنه بيان لقوله ( ذلك ) الذى هو إشارة لما مر فى قوله ( إنا أعدنا جهنم للكافرين نزلا ) . ( ع )

أن لا يرائي بعمله ، وأن لا يبتغى به إلا وجهه خالصاً لا يخلط به غيره . وقيل : نزلت في جندب ابن زهير ، قال للنبي صلى الله عليه وسلم : إني أعمل العمل لله ، فإذا أطلع عليه سرتي ، فقال : إن الله لا يقبل ما شورك<sup>(١)</sup> فيه ، وروى أنه قال : « لك أجران : أجر السر ، وأجر العلانية »<sup>(٢)</sup> وذلك إذا قصد أن يقتدى به . وعنه صلى الله عليه وسلم : « اتقوا الشرك الأصغر ، قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء »<sup>(٣)</sup> وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم . « من قرأ سورة الكهف من آخرها كانت له نوراً من قرنه إلى قدمه ، ومن قرأها كلها كانت له نوراً من الأرض إلى السماء »<sup>(٤)</sup> ، وعنه صلى الله عليه وسلم : « من قرأ عند مضجعه ( قل إنما أنا بشر مثلكم ) كان له من مضجعه نوراً يتلألأ إلى مكة ، حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يقوم ، وإن كان مضجعه بمكة كان له نوراً يتلألأ من مضجعه إلى البيت المعمور حشو ذلك النور ملائكة يصلون عليه حتى يستيقظ »<sup>(٥)</sup> والله أعلم .

(١) أخرجه الواحدى فى الأسباب عن ابن عباس ولم يسق سنده .  
(٢) أخرجه الترمذى وابن ماجه . وابن حبان . وأبو يعلى . والبزار عن أبي هريرة . قال قال رجل « يا رسول الله ، إني أعمل العمل فيطالع عليه فيعجنى . قال لك أجران . أجر السر . وأجر العلانية ، أخرجه كلهم من حديث ابن سنان سعيد بن سنان عن حرب بن أبي ثابت عن أبي صالح عنه . قال الترمذى رواه الأعمش عن حبيب عن أبي صالح مرسل . وقال ابن أبي حاتم قال أبو الصحيح عندي مرسل ، رواه يوسف بن أسباط عن الثوري عن حبيب . عن أبي صالح عن أبي ذر وأخرجه أبو نعيم فى الحلية . وقال : لم يقل أحد عن أبي ذر إلا ابن أسباط . ورواه يحيى بن يمان عن الثوري فقال عن ابن مسعود . أخرجه الطبرانى ، قال أبو نعيم . ورواه قبيصة عن الثوري فقال عن المغيرة بن شعبة رضى الله عنه .

(٣) أخرجه ابن مردويه من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة بهذا ومن هذا الوجه أخرجه الثعلبى . وأبو قاسم الطائى فى الترغيب . وفى الباب عن محمود بن لبيد . ورفع « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر . قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر ؟ قال الرياء » أخرجه أحمد والداوقطى . فى غرائب مالك والبيهقى . فى الشعب من رواية عمرو بن أبي عمرو بن قتادة عنه . وعن شداد بن أوس قال « كنا نعد الرياء على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشرك الأصغر » أخرجه الطبرانى وابن مردويه . وفى إسناد ابن لهيعة .

(٤) أخرجه أحمد والنسائى من حديث معاذ بن أنس . وفى إسناد ابن لهيعة . أخرجه الطبرانى من رواية رشدين بن سعد كلاهما عن زياد بن قايدهم من الضعفاء .

(٥) أخرجه إسماعيل والبزار من رواية النضر بن شميل . حدثنا أبو فررة الأسدى رجل من أهل البادية . سمعت سعيد بن المسيب يحدث عن عمر رفعه « من قرأ فى ليلته ( فن كان يرجو لقاء ربه الآية ) . كان له نور من عدن إلى مكة حشوه الملائكة ورواه الثعلبى من هذا الوجه . « وزاد يصلون عليه ويستغفرون له » ورواه ابن مردويه من حديث أبي بن كعب باللفظ الأول وقد سبق سنده فى آل عمران .

فهرست

## الجزء الثاني

من تفسير الكشاف للزمخشري

صفحة	صفحة
سورة الرعد ٥١١	سورة الأنعام ٣
إبراهيم ٥٣٧	الأعراف ٨٥
الحجر ٥٦٩	الأنفال ١٩٣
النحل ٥٩٢	التوبة ٢٤١
الإسراء ٦٤٦	يونس ٣٢٦
الكهف ٧٠٢	هود ٣٧٧
	يوسف ٤٤٠

تم بمون الله تعالى الجزء الثاني؛ ويليهِ - إن شاء الله - الجزء الثالث  
وأوله : سورة مريم

37.